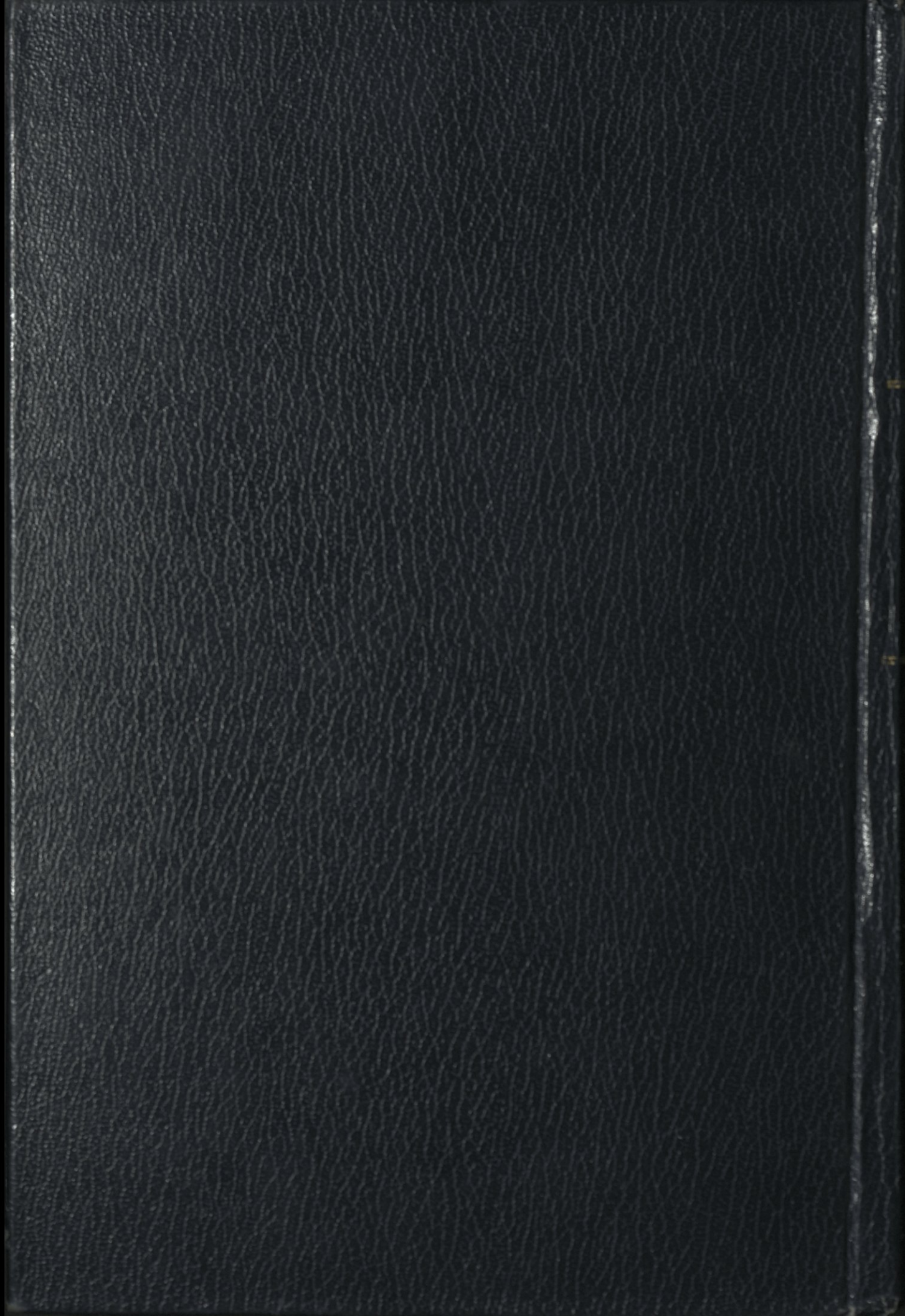
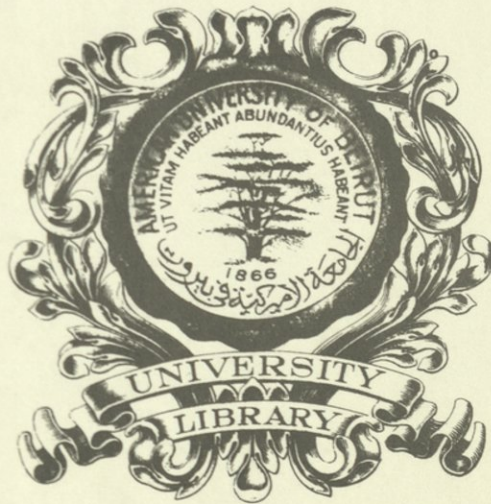


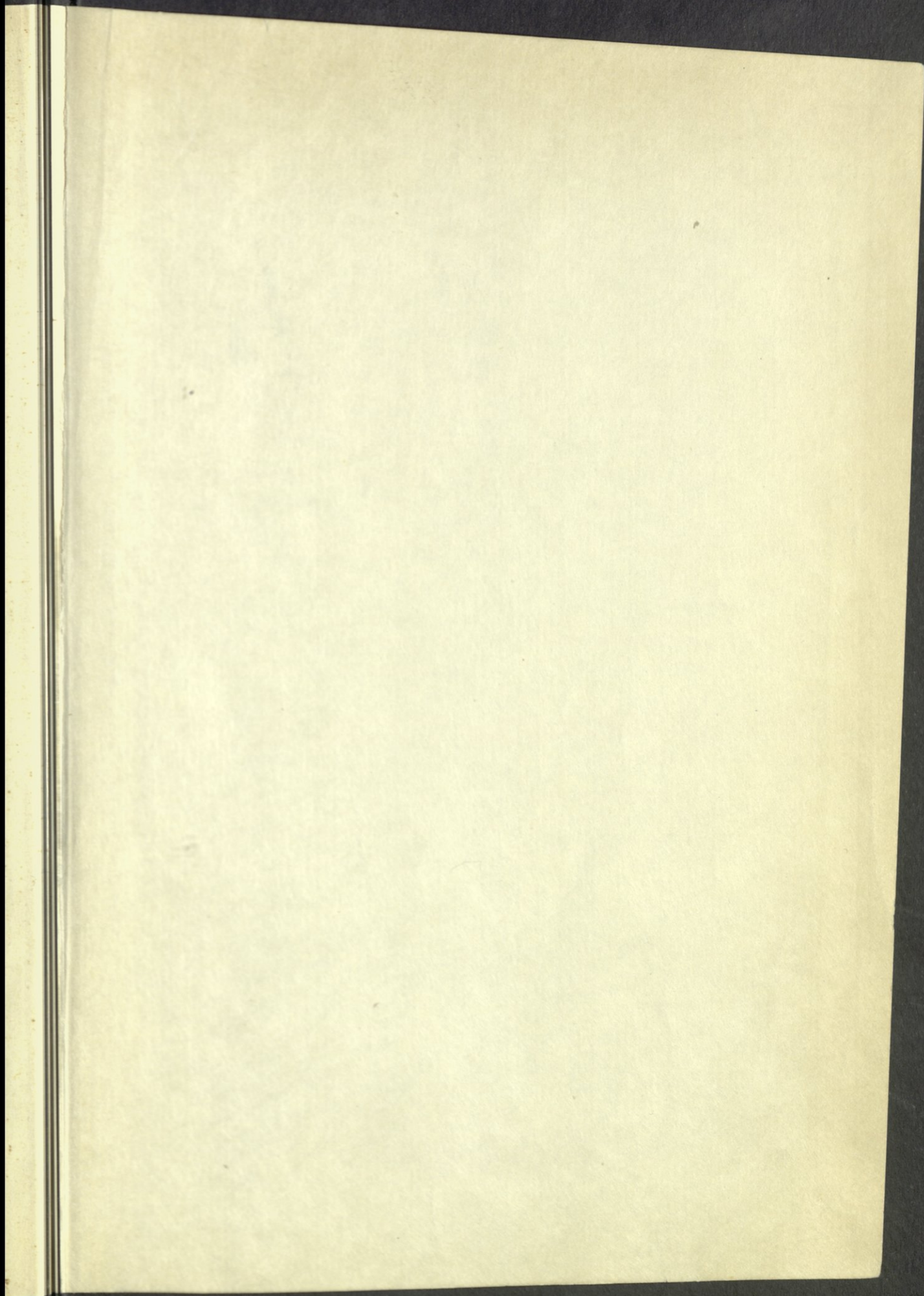


A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

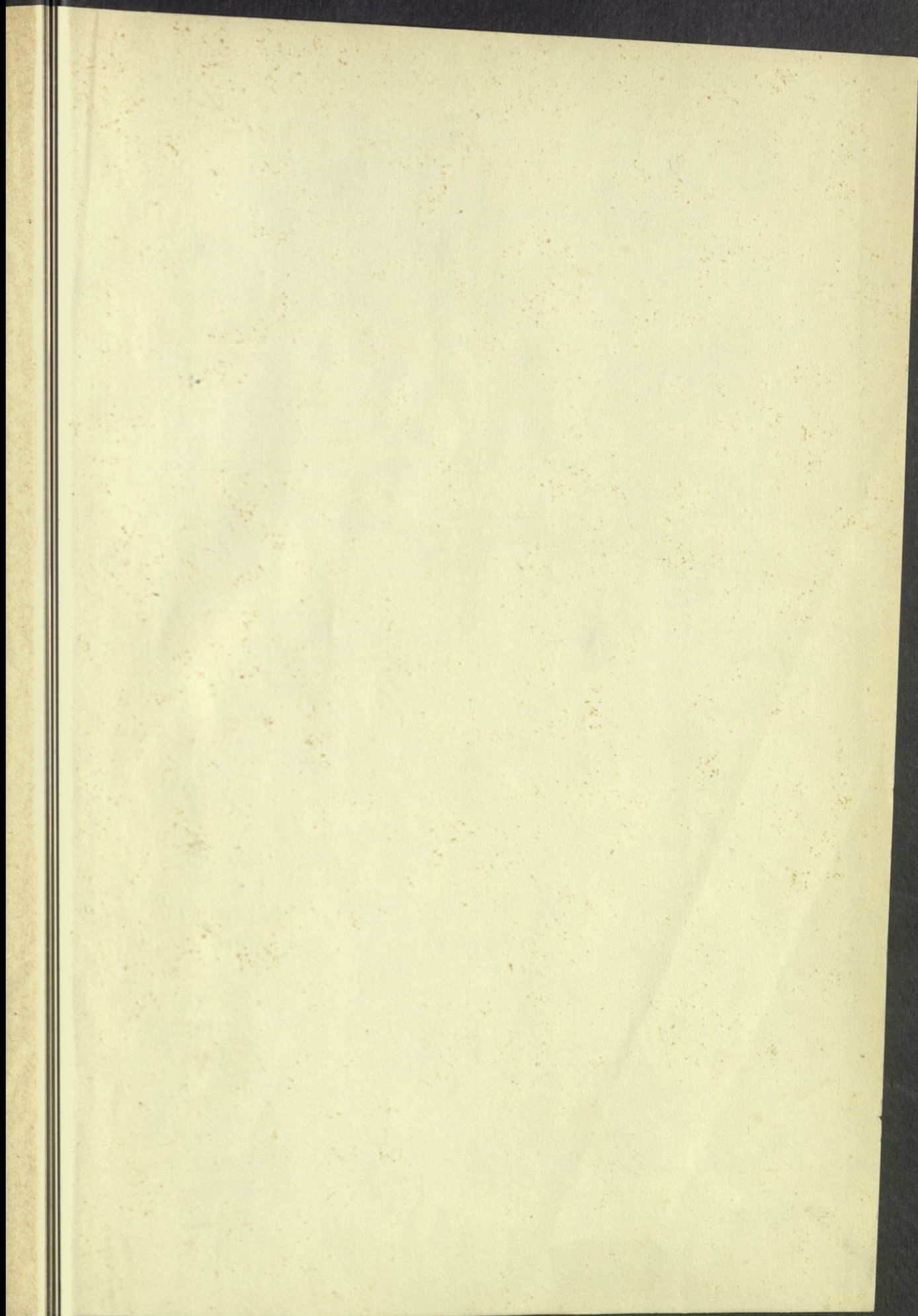


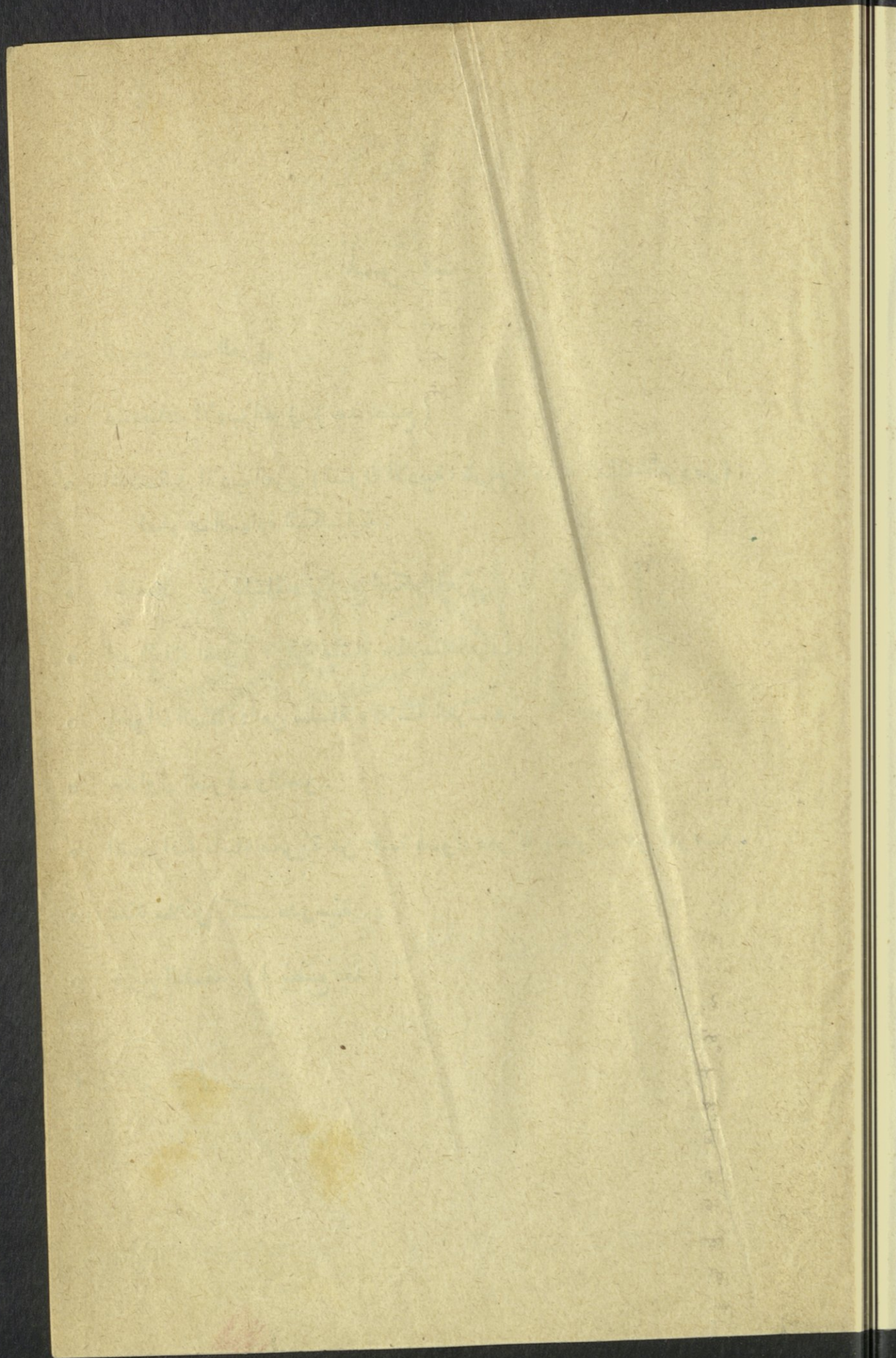
A. U. B. LIBRARY



Mishka
Mishka

تجليد صالح اللقوي
تلفون ٧٢٩٧٧





للمؤلف

- تاريخ الادب العربي
- مُنتخبات الادب العربي (تعد للطبع)
- اختلاصة في الادب العربي (الفنون الادبية، تاريخ الادب، البيان، العروض) :
- لصفوف الشهادة التكميلية .
- الجاحظ : من سلسلة « نوابغ الفكر العربي » .
- ابو العلاء المعري : من سلسلة « فلاسفة العرب » .
- إخوان الصفاء : من سلسلة « فلاسفة العرب » .
- جداول الصرف والنحو .
- القيصران، مأساة شعرية من خمسة فصول معربة بتصرف عن الفرنسية .
- عدة سلاسل كتب مدرسية .
- تاريخ الفلسفة (لم يُطبع بعد) .
- المؤلف في ادب العربي (٥ اجزاء)
- الفخر والحماة
- الحكم والإصلاح عند العرب

حسنا الفخوري

R
892.709
F17tA

ناتج الأدب العربي

طبعة ثانية منقحة ومزودة

١٩٥٣

جميع الحقوق محفوظة
للمطبعة البولسية

LIBRARY
OF THE
BUREAU OF
INDIAN AFFAIRS

LIBRARY
OF THE
BUREAU OF
INDIAN AFFAIRS





مقدمة

لقد تعددت كتب تاريخ الادب العربي في عصرنا الحاضر واتسع نطاقها اتساعاً كبيراً، وظهرت فيها المحاولات الموفقة؛ ولكن هذا العلم بحر لا آخر له، يستطيع كل باحث أن يخوض عبابه وهو لا يضيق بأحد، ويستطيع كل مؤرخ أو ناقد أن ينقب في مادته من غير أن يزارحم أحداً .

ولهذا أردنا أن ننزل عند رغبة الكثيرين من الزملاء الكرام ومديري المدارس فنضع هذا الكتاب بعد أن درّسنا الأدب العربي زمناً طويلاً، وبعد أن هيأنا موادّه في نحو عشر سنين كنّا دائبين فيها على الرجوع الى أمّهات المصادر، وإلى التحليل والمقارنة، مستفيدين ممّا تُقدّمه لنا أحدث المكتشفات وأحدث الدراسات العلمية . حتى نستطيع ان نقول انه قلّمّا فاتنا مرجع علمي سواء أكان شرقياً أم غربياً، وقلّمّا فاتنا مقال أو بحث يرجع الى موضوعنا، سواء أنشر في مجلات الشرق أم في مجلات الغرب؛ وذلك لحرصنا الشديد على استيفاء الموضوع وعلى الدراسة العميقة التي لا تكتفي بالاحكام العامة والاقوال السطحية، ولحرصنا الشديد على تراثنا الأدبي العربي وعلى إظهار ما فيه من قيم إنسانية خالدة وروائع فنية سامية، ثم لحرصنا الشديد ايضاً على تقديم مادة من شأنها أن تغدّي عقل الطالب، وتغلق قلبه ونفسه، وتهبّه تهيئاً سديداً لخوض ميدان الحياة كما تهبّه تهيئاً حقيقياً لخوض الامتحانات الرسمية أيّاً كان موضوعها وفي اي بلد كان، من غير أن يُشكل عليه أمر، أو تقف في وجهه عقبة .

أمّا طريقتنا فهي قائمة على مزج التاريخ الثابت بالتحليل الواسع، وتبويب الأدب بالنظر الى فنونه العالمية، ودراسته بالنظر الى القواعد المقررة الحديثة، وبالنظر الى القيم الانسانية الرفيعة التي تتحقّق وتروّق .

وقد توخينا الإيضاح فأخضعنا له الكلام وتقسيم الفقرات والابواب والفصول والحروف الطبائية وكل ما من شأنه أن يساعد الطالب ويسهل له العمل . وجعلنا في مستهل كل فصل خلاصة جمعت الإيجاز الى الكمال في العناصر، وذلك لنفس الغاية .

ثم اننا توخينا الدقة في كل شيء . وفي كل قول، فلم نزل كلاماً لا يفهم مؤداه، ولا يقوم على البراهين الثابتة المقنعة .

ولا بُدَّ هنا من كلمة شكر نوجهها خالصة الى كل الاصدقاء الاعزاء والزملاء الكرام في جميع الاقطار العربية وغير العربية الذين ساعدونا في هذا العمل الشاق، إماً بتشجيعهم وإماً بأرائهم الصائبة، وإماً بتقديم بعض المعلومات والرسوم التي كنا بحاجة اليها .

ولنا الأمل الوطيد ان الذين ساعدونا قبل ظهور الكتاب سيواصلون المساعدة بعد ظهوره وينضم اليهم جمهور الادباء والنقاد، مُبدِّين آراءهم في ما كتبنا، مُصلحين ما قد نكون شططنا فيه ولهم الشكر في كل حال . والله ولي التوفيق في الاعمال .

هنا الفاعوري

نوطه

اللغة العربية

- مهدّها : شبه جزيرة العرب
- أصحابها : العرب
- أصلها وتطورها

الأدب العربي



بريشة الفنان ارتورو اورنس

الصحراء الكبرى في رمالها وواحاتها - في أحيائها وجمادها - في قسوتها وجفافها -
 مهد اللغة والأدب وموئل البدوي ومستوحاه

وخل
 وتس

سط

تنج

الباب الاول

اللغة العربية

الفصل الاول

مهد اللغة العربية

١ سطح شبه جزيرة العرب : شبه جزيرة العرب بلادٌ اكثَرها صحارى ودارات، يغلب فيها الجفاف، وتنتابها رياح مختلفة شرّها السّموم، وألطفها الصّبا .

٢ اقسامه : اقسامه الكبرى هي : اليَمَن مهد الحضارة العربية ؛ والحجاز ومن مدنه مكة ويثرب ؛ وتهامة ؛ ونجد بلاد الخيول العربية المشهورة ؛ واليامة ؛ والبحرين بلد التمر واللؤلؤ .

٣ حيوانه ونباته : اهم حيوان البادية الإبل (سفن الصحراء) والخيّل، وأهم نباتها النّخل . والبدوي والابل والنخل والصحراء اشخاص التمثيل على مسرح الحياة في البادية . ومن اهم الحيوانات والطيور البرية في شبه الجزيرة بقُر الوحش والحُمُر الوحشية ، والذئاب والنّعام والقطا .

ظهرت اللغة العربية في البلاد التي تمتدُّ بين البحر الاحمر، والمحيط الهندي ، وخليج فارس، وخطّ وهميّ يتجه شرقاً من رأس خليج العقبة حتى الفُرات ؛ وتسمى تلك البلاد شبه جزيرة العرب ، كما تسمى الجزيرة العربية توسعاً .

سطح شبه جزيرة العرب ومجوسه : شبه جزيرة العرب بلادٌ اكثَرها صحارى ودارات ؛ وهي أعلى ما تكون غرباً ثمّ تنحدرُ الى الشرق إلّا عند عُمان . وتقع في المنطقة الحارّة ، فلا يحسن مناخها

إلا على الهضاب المرتفعة، ولا يعكّر صفاء جوّها إلا بعض الغيوم تأتي بأمطار موسميّة لا تسقط إلا في أمكنة قليلة كاليمن . وكثيراً ما تتناوبها مواسم جفاف في أماكن شتى . وليس في شبه الجزيرة نهرٌ واحد دائم الجريان، ولكنّ هنالك شبكة من الاودية تجري فيها السيول حين تفيض مياه الأمطار، وقد يحتمل الناس على بعض تلك الاودية بسدود تجبس المياه وتخزنها لاوقات الحاجة .

أمّا الرّياح فنّها الشرقية اللطيفة في شمالي البلاد وتُدعى الصّبا؛ ومنها الغربية التي تحمل الأمطار من البحر الأبيض؛ ومنها الجنوبيّة وهي مطيرة شتاءً وحارّة صيفاً؛ ومنها السّموم، وهي شرّ ربيع، تأتي موسميّة ويعرفها العرب برائحتها الكبريتيّة؛ تهبّ وسط الصحراء وتسلب رطوبة الهواء، وتُتلف كلّ ما تمرّ به .

اقسامه: يُقسم شبه جزيرة العرب الى عدّة أقسام: منها اليمن، بلاد اليمن ومهد الحضارة العربية القديمة، ويُضاف اليها حضرموت بلد التجار، وعمّان بلد الملاحة؛ ومن أشهر مدن اليمن نجران، وصنعا. موطن الانسجة المطرزة والبرود والسيوف، وظفار بلد الطيب والبخور، ومأرب (في سبأ) المشهورة بسدّها . وشمالي اليمن الى الغرب الحجاز، ومن مدنه مكّة، أمّ القرى، وفيها بئر زمزم والحجر الاسود، ومن أماكنها المشهورة الصفا والمروة وهما بلحف جبل أبي قبيس، ووادي منى وجبل عرقات؛ ومن مدنه ايضاً يثرب (المدينة) . وبين اليمن جنوباً والحجاز شمالاً تهامة على البحر الاحمر . وبين الحجاز غرباً والشام شمالاً والعراق شرقاً بلاد نجد المشهورة بنخيلها وطيب هوائها . والى جنوبيّها اليمامة، والى شرقيّها الجنوبيّ البحرين بلد التمر ومغاصات اللؤلؤ .

وأكبر جزء من الجزيرة صحراؤها في الوسط (النفود فالدّهنا فالربع الخالي) وهي قفار ذات رمال بيضاء او محمّرة تسفيها الرياح فتجعل منها كساباً . تُغيثها السماء احياناً بالمطر (الغيث) فيرتادها البدو بماشيئهم ولا يرحلون عنها إلا وقد نضبت موارد واحاتها ومراعيها .

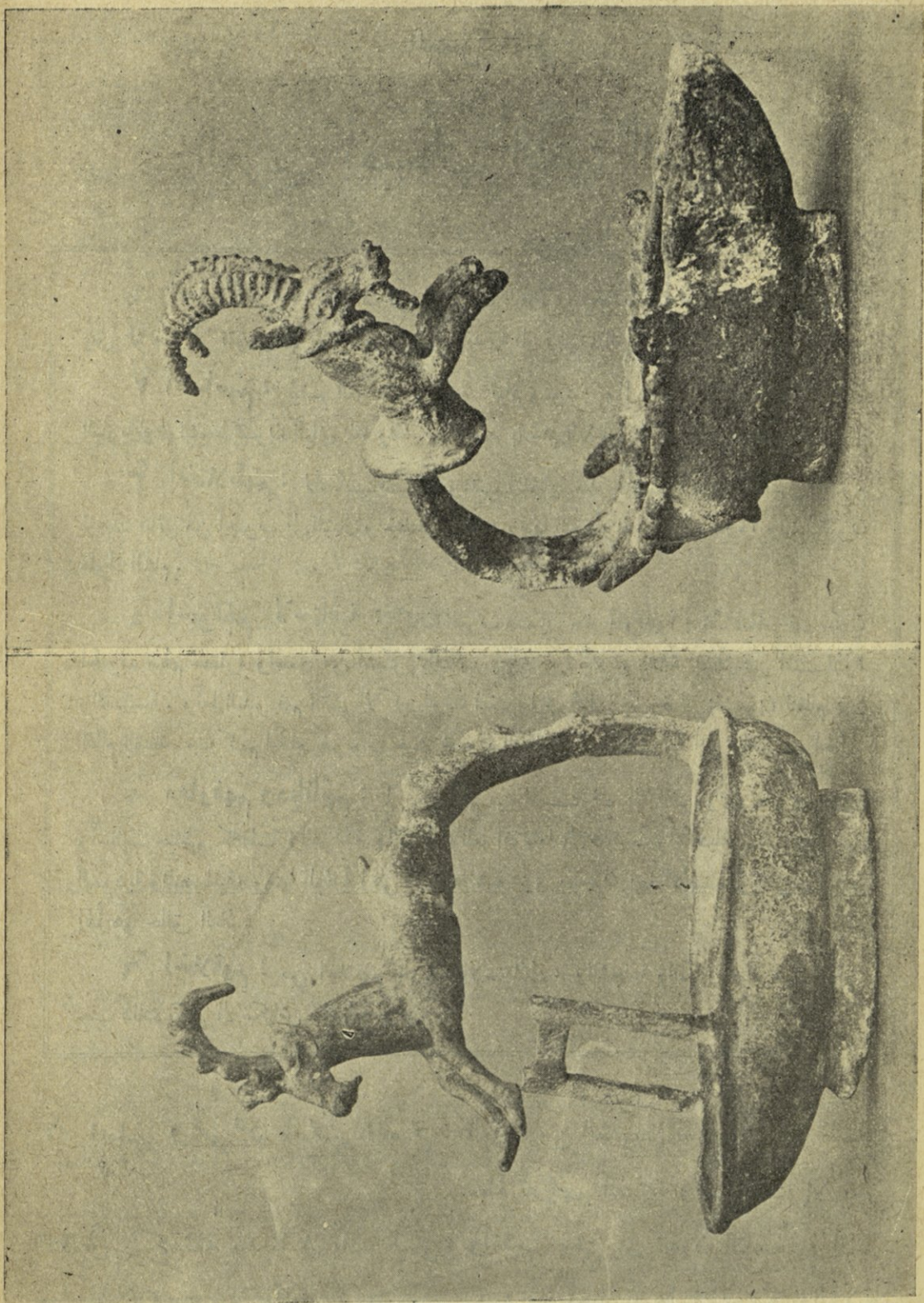
حيوانه ونباته: « البدوي » والجمال والنخل والصحراء أشخاص التمثيل على مسرح الحياة في البادية . أما الجمل فهو « سفينة الصحراء » وهو « هبة الله » ، ومنه البعير حامل الاثقال، ومنه الذلول او الهجين حامل الناس . والجمال رفيق البدوي لا تصلح الصحراء بدونه، يغذي البدوي بلحمه ولبنه، ويعينه على الرحيل من مكان الى مكان، وتحمك الحيمة من وبره . واما النخلة فثمرها اطيب الثمار واعتمها في البادية، وهو واللبن قوام طعام البدوي، ومنه يُستخرج لبنذ لذيد .

وفي الجزيرة حيوانات أخرى داجنة كالفرس والحمار والبغل والشاء والكلب، وغير داجنة كالضبع والذئب والافاعي وبقر الوحش وما الى ذلك؛ وطيور كالنعام والعقاب والقطا والحبارى . وهناك الجراد الذي يصلحه البدوي طعاماً شهياً .

قنديلان من مُصنَّع العربيَّة يظهر فيها بعض حيوان البلاد



نقوش حميرية يظهر فيها الجمل «سفينة الصحراء»



قنديلان من صُنع المربية يظهر فيهما بعض حيوان البلاد

الفصل الثاني

العرب أصحاب اللغة العربية

١ أصل العرب : العرب من الشعوب السامية، وقد طمست معالم تاريخهم القديم ولم يبقَ لنا منه إلا نقوش في بلاد اليمن يرتقي أقدمها الى القرن التاسع ق . م .

٢ أقسامهم : يُقسم العرب الى بائدة كماد وثمود؛ والى باقية، ومن هؤلاء العرب العاربة وهم القحطانيون اليانيون، والعرب المستعربة وهم العدنانيون سكان الشمال .

٣ اختلاطهم : لأسباب اقتصادية وعقب انفجار سد مأرب واندفاع السيل العرم نزحت قبائل من الجنوب الى الشمال واختلطت بأهله، ومنها اللخميون مناذرة الحيرة، والغسانيون ملوك الشام .

٤ أحوالهم الاجتماعية : كان العرب قسمين حضراً وبدواً؛ أما الحضرة فهم سكان الجنوب ولهم حضارة واسعة، من أشهر ممالكهم حمير وتبَّع وكندة فضلاً عن المناذرة والغساسنة . وأما البدو فهم القسم الأكبر وقد انتشروا في شمالي الجزيرة لا يخضعون لنظام غير نظام القبيلة . مساكنهم الخيام يضربونها حيث يجدون الكلاً والماء، ويحلبونها ان ضاقت بهم الحال .

٥ معارفهم ودياناتهم : لم يكن لهم من المعارف الا الضروري لطرق عيشهم وأساليب حياتهم كالطبّ والفراسة والعيافة والعراقة وما الى ذلك . وأما دياناتهم فكثيرة منها اليهودية والنصرانية، ومنها الوثنية وهي اكثرها شيوعاً، يعبدون فيها الاصنام ويحلبون فوقها إلهاً هو خالق العالم .

٦ اخلاقهم : من اخلاقهم الحرية والاستقلال، والشجاعة والكرم والوفاء؛ والى جنب ذلك بعض الانكماش وقلة الطموح .

١ أصلهم ونموهم تاريخهم القديم : العرب من الشعوب السامية، وقد طمست معالم تاريخهم القديم، وليس لدينا إلا بعض النقوش المكتشفة حديثاً في بلاد اليمن، وأقدمها يرتقي الى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد، وهي لا تطلعنا إلا على النزر اليسير من أخبار أصحابها المعينين والسبئيين والحميريين .

٢ أقسامهم : يُقسم العرب الى قسمين كبيرين : العرب البائدة والعرب الباقية :

العرب البائدة : هم الذين درّست آثارهم من مثل عاد وثمود وطسم وجديس ؛ وقد عثر لهم العلماء ، بالقرب من تيماء ، في شمالي الحجاز ، على نقوش بالخط اللحياني والشمودي والصّفوي ؛ وهي تُطلعنا على ان لغة تلك الشعوب تختلف عن لغة العرب في ما وصل اليها من آدابهم .

العرب الباقية : وهم قسمان كبيران : القحطانيون والعَدَنانيون :

أما القحطانيون - ويُسمّون العرب العاربة لأنهم أصل العرب - فينسبون الى يعرب بن قحطان ؛ وهم اليمنيون المعروفون بعرب الجنوب .

وأما العَدَنانيون - ويُسمّون العرب المستعربة لأنهم وفدوا الجزيرة من البلاد المجاورة واختلطوا بأهلها فتعرّبوا - فهم النزارِيُّون أو المعدِّيون ، ويُعرف منهم الحجازيُّون والنجدِيُّون والأنباط وأهل تدمر .

٣ اختلاطهم : ودعت أحوال اقتصادية وسياسية بعض قبائل الجنوب أن تهجر بلادها ، ولأسيا بعد انفجار سد مأرب المشهور نحو سنة ١١٥ ق.م . واندفاع السيل العرم الذي أغرق البلاد وأتلف الزرع والضرع . فترح عددٌ يُذكر من تلك القبائل الى الشمال ، وقصد بنو ثعلبة بن عمرو يثرب وكان من بينهم الأوس والخزرج ؛ وتزلت خِزاعة مَكَّة وأجلت جُرهمًا عنها ؛ وتول جفنة بن عمرو وبنوه الشَّام وسَمُوا غساسنة نسبةً الى ماء هناك يدعى غَسَّانًا ؛ وتوجّهت قبيلة لَحْم بن عدي نحو الحيرة بالعراق ، ومنها نصر بن ربيعة ابو الملوك المناذرة ؛ وحلّت طيِّئ في الجبلين أجاً وسلمى الى الشمال الشرقي من يثرب . وهكذا تفرّقت تلك القبائل في جميع الانحاء حتى ضرب بها المثل فقليل : « تفرّقوا ايدي سبأ » .

(١) كان بنو غسان يؤرّخون بانفجار سدّ مأرب جاعلين ذلك الحادث بداية عهدهم الجديد . وقد انفجر ذلك السدّ غير مرّة ولا تزال انقاضه ظاهرة الى اليوم .

وأدّى ذلك الى اختلاط شديد بين عرب الجنوب وعرب الشمال بالجوار والمصاهرة والحروب والتجارة وما الى ذلك . ولكن ذلك الاختلاط لم يُزل ما بين الفريقين من تنافر سيظلّ دهنًا طويلاً حتى بعد ظهور الاسلام .

٤ أهوالهم الاجتماعية : كان العرب قسمين : حضراً وبدواً :

الحضر : أما الحضر فهم سكان القسم الجنوبي من الجزيرة ، كانوا يعيشون عيشة قرار، وتغلب عليهم الحضارة . وكانت حضارتهم مؤسسة على التجارة والزراعة . وقد أنصرفوا الى الصناعات، فاشتهرت حبرهم المفوفة، وبرودهم وسيوفهم الياينة ، والجلود التي افتتوا في دبعها، والأفاويه والعطور التي حملوها الى جميع البلدان .

وقد أنشأوا المدن والحصون والهياكل، ورفعوا القصور الشاهقة كقصر عُمدان الشهير؛ وكانت لهم ممالك في بلادهم الجنوبية وفي غير بلادهم، من أشهرها مملكة حمير ومنها التبابعة الذين انتهت دولتهم بذي نواس سنة ٥٢٥ م؛ ومملكة المناذرة اللخمين في العراق وقاعدتهم الحيرة؛ وقد ملكوا من اوائل القرن الثالث الميلادي الى الفتح الاسلامي، وكانوا عمالاً للفرس؛ اشتهر منهم النعمان الاول (٤٠٠ - ٤١٨) باني الخورنق والسدير، والمنذر الثالث (٥٠٥ - ٥٥٤) وهو المعروف بابن ماء السماء، وعمرو بن هند (٥٥٤ - ٥٦٩) الذي جعل الحيرة موئل الشعراء والادباء؛ ومملكة الغساسنة (اولاد جفنة) في الشام وقاعدتهم جلق؛ وكانوا عمالاً للروم، اشتهر منهم الحارث الثاني الملقب بالاعرج (٥٢٩ - ٥٦٩)، المنتصر على الحيرة في «يوم حليمة» والذي اجتمع ببابه عدد كبير من الشعراء . ثم مملكة كندة في نجد وقد امتدت سلطانتها من نحو سنة ٤٥٠ الى نحو سنة ٥٤٠ م . ومن نسل الكنديين الشاعر امرؤ القيس .

البدو : واما البدو فهم القسم الاكبر وقد انتشروا في شمالي الجزيرة، وكوّنت البيئة الصحراوية حالهم الاجتماعية، فاحتقروا الصناعة والزراعة، وعاشوا تحت الخيام على رعي الانعام يطعمون من لحمها ولبنها ويكتسبون بصوفها وبرها، ويتبجحون

مواقع المطر، يرحلون من مكان الى آخر في طلب الكلأ والماء؛ وإذا احتاجوا الى غير ما تنتجه ماشيتهم تعاملوا من طريق البدل، فاستبدلوا بالماشية ونتاجها ما يتطلبون من تمر ولباس؛ او لجأوا الى الغزو والسلب إن عضتْهم الحاجة او دعاهم طلب الثأر والتشفي.

وهم لا يخضعون لنظام غير نظام القبيلة^١ ولا يعرفون حكومة أو مملكة في غير الأسرة والعشيرة. فكان مجتمعهم مجتمع القبيلة والخيمة لا مجتمع الأمة والشعب. وكان لكل قبيلة رئيس هو شيخها والسيد فيها، وهو عصبتها ورباط وحدتها والحكم في شؤونها. وأفراد القبيلة متضامنون ينصرون أخاهم ظالماً كان أو مظلوماً. وشعور البدوي بارتباطه بقبيلة يحميها وتحميه هو المستى بالعصبية. وكان سلطان الأب في بيته مطلقاً يتصرف في أمور أهله على هواه. وكان للمرأة أن تشارك زوجها في أمور الحياة وكانت موضوع إجلال في البيت كما كانت تتمتع بحظ وافر من الحرية والاستقلال.

٥ معارفهم وديانهم: كان العرب في البادية قبائل رحالة ليس لهم من وسائل العمران ما يتيح لهم التبخر في علم أو التبصر في دين؛ ومع ذلك فقد حصّوا من المعارف ما لا بُدَّ منه لطرق عيشتهم وأساليب حياتهم، وكان

(١) موجز جدول القبائل العربية:

١ عرب الجنوب او القحطانيون:

- ١ - حمير: قضاعة، تنوخ، كلب، جُهَيْنَة وغذرة...
- ٢ - كهلان: طي، همدان، عاملة، جذام (ومنها لخم وكندة)، الأزد (ومنها الفساسنة وخزاعة، والأوس والخزرج)، أمار.

٢ عرب الشمال او العدنانيون:

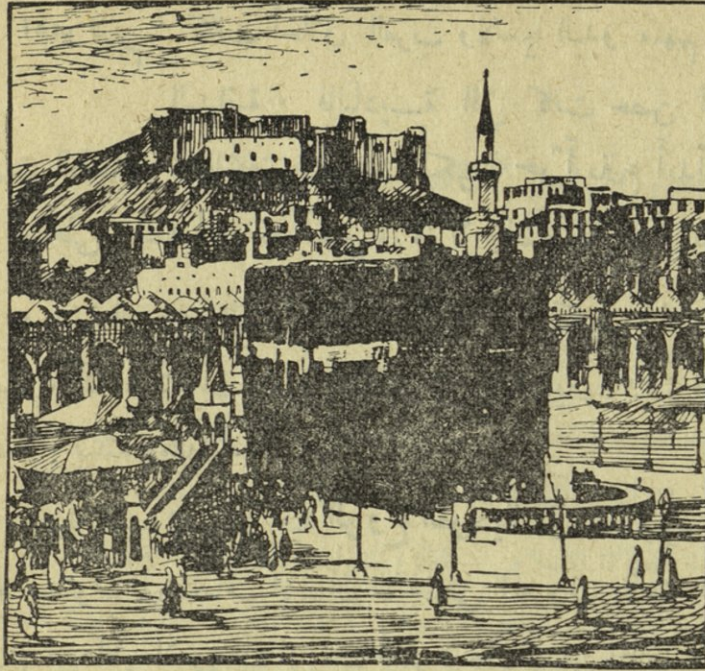
- ١ - مُضَر: قيس عيلان (ومنها هوازن، وسليم، وغطفان ومن غطفان عبس وذبيان) تميم، هذيل، كنانة (ومنها قريش).
- ٢ - ربيعة: أسد، وائل (ومنها بكر وتغلب، ومن بكر بنو حنيفة).

ذلك عن طريق التجربة والاختبار . فكان لهم إلمام بالحساب والطب والبيطرة كما كان لعرب الجنوب فوق ذلك معرفة بهندسة البناء وعمارة المدن واساليب الزراعة والصناعة . وكان لهم معرفة بما هو لهم معوان في بواديهم المقفرة ومجاهلهم المضللة، وبما تصلح به أنفسهم وأنعامهم من استطلاع خفايا الجو وما الى ذلك، فكان لهم شيء من علم النجوم والأنساب والاختبار ووصف الارض، والفراسة والعيافة والقيافة، والكهانة والعرافة، وزجر الطير وغير ذلك^١ .

أما ما يتعلق بالدين فقد كان في الجاهلية من دان باليهودية ولاسيا في اليمن ومدينتي يثرب وخيبر؛ ومن دان بالنصرانية التي انتشرت فيما بين مناذرة الحيرة وغساسنة الشام واليمن حيث توثقت في نجران؛ وقد اختلف رهبانها الى انحاء مختلفة من فلسطين وشبه جزيرة سيناء، والى أقصى الصحراء . وفيما عدا ذلك فقد كان معظم العرب يدينون بالوثنية . وكانت ديانتهم بدائية وخالية من الميثولوجيا واللاهوت، ترتكز في أول عهدها على تقديس الحجارة والمغاور والينابيع والاشجار لاعتقاد العرب ان في تلك الاشياء المادية ارواحاً . وقد ألّهُوا جميع القوى التي لحظوها في الطبيعة، كما ان نظرهم امتد الى السماء فألّهُوا كواكبها حتى كان القمر محور الاعتقادات الفلكية الدينية الاولى لدى البدوي .

وفوق هذه الآلهة كلها كان للعرب ثلاث إلهات هي مناة إلهة الحظ التي عُبِدَت في مكة وفي قبيلة هذيل خصوصاً؛ ثم اللات التي كانت تدعى « الربة » وتُعبد في الطائف؛ والعزى ممثلة الزهرة التي عُبِدَت خصوصاً في قریش . وكان

(٩) الفِرَاسة : الاستدلال بالظاهر على الخفي، كلاستدلال بشكل الانسان ولونه وحركاته على خلقه . العيافة : زجر الطير وهو ان تعتبر بأسمائها ومساقطها واصواتها فيُتسَعَّد او يُتَشَامَم بها . القيافة : هي قسبان، قيافة الأثر وهي الاهتداء الى المارِب بِأَثَر قدمه؛ وقيافة البشر، وهي الاستدلال بهيئة الانسان وشكل اعضائه على نسبه . الكهانة والعرافة : مطالعة الغيب والاختبار بالحوادث الماضية والآتية . زجر الطير : هو ان يعمد الرجل الى طير فيرميه بحصاة او يصيح به، فان ولاه في طيرانه ممانه تفاءل به، وان ولاه مياسره تشاءم منه وتطير .



العرب ينحتون
لآلهتهم أصناماً من
الحجارة تسمى
انصاباً . كما كانوا
يعبدون الحجر
الأسود في مكة
ويجعلون فوقه
الاصنام المختلفة .
وكان للأنبياء
معبود شهير اسمه

الحجر الأسود

ذو الشرى، وهو

المعبود الأكبر اتخذوا له صنماً حجراً أسود مكنياً .



وكان للعرب الى جنب هذه الالهة
كلها وفوقها جميعاً إلهٌ يعبدونه خالق العالم ،
واسمه « الله » ، كما يعبدونه بعيداً عنهم
فيلجأون الى ما هو قريب منهم ومحسوس ،
من القوى الطبيعية . وفكرة هذا الاله
قديمة جداً عندهم قد تكون أتتهم من
أصلهم السامي .

إلا ان البدوي ولاسيا الممّعين في البداوة
كان ضعيف العاطفة الدينية ، لا يقيم كبير
وزن لما هو من شأن الدين، ولهذا خلت
آداب العرب الى حدّ كبير من وصف ما
كانوا يعبدون .

ذو الشرى (متحف السويداء)

٦ افهم : كانت أخلاق العرب ولاسيا البدو منهم وليدة الصحراء والحالة البدائية . فالبادية التي كانت حصن البدوي ومعتصمه دون هجمات الطامعين والفاحين علمته أن يكون حراً يزع أبدأ الى الحرية والاستقلال ولا يطاق رأسه أمام نير أجنبي ، كما لا يخضع لقانون أو نظام .

وعيشة البدوي القسفة القاسية علمته أن يكون قنوعاً ، صبوراً على الشقاء والعناء ، كما علمته أن يستسلم للانكماش في أحيان كثيرة فلا يسعى في تحسين حاله وإصلاح بيئته ومعيشته .

وعزلة البدوي أغنت فيه الروح الفردية الى حد بعيد فتعذر عليه من ثم ان يرفع مستواه الى مصاف الانسان الاجتماعي المعروف بنزعة الأمية ؛ وأبعدته تلك الروح عن الإخلاص لما فيه خير المجموع خارجاً عن نطاق القبيلة .

ثم ان الأخطار المحدقة بحياة الصحراء علمت البدوي أن يكون شجاعاً ؛ فهو أبدأ غازي أو مغزو أو معرض لأحدى الحالتين ، وهو أبدأ في قتال مع الإعداء من الناس والحيوان وعوامل الطبيعة القاسية ، « عظمته سيفه ، وحضنه ظهر جواده ، وعدته الصبر » . واكثر ما تتجلى شجاعته في التزال والدفاع والنجدة ...

ومع ما كان للبدوي من حسبان البادية ميداناً للفوضى والعبث ، فقد حافظ على فكرة الضيافة والكرم ، يبعث عليهما حرصه على جميل الذكر وتحصيل المحمدة والرغبة في أن يُعامل بالمثل ، في بلاد كثيرة المخاطر والمجاهل . ويتجلى كرمه خصوصاً في إيقاد النيران ونجر الجزور وإضافة اللاجئ . وكان في نفس البدوي الى جنب الكرم كثير من الوفاء تبعث عليه المروءة وعزة النفس ؛ وقد تسوق البدوي عقيدته بالوفاء الى إنشابه حرب وبذل الكثير في سبيل المحافظة على قريب أو جاري أو مستجير .

زد على ذلك كله ما كان للبدوي من إباء للضم ، وحرص على الحق الى جنب استحلال القوي لغصب الضعيف ، تحصل على صورة مصغرة للبدوي في ميدانه الفسيح ومسرحه الجاف المذيب .

بعض المراجع للمطالعة والتوسع^١

١ المراجع العربية :

- فيليب حتي : تاريخ العرب (الترجمة العربية) - الجزء الاول - بيروت ١٩٤٩ .
 احمد امين : فجر الاسلام - الطبعة الخامسة - القاهرة ١٩٤٥
 جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي - الجزء الاول - القاهرة ١٩٠٢
 عمر الدسوقي : النابغة الذبياني - القاهرة ١٩٤٩ (ضمّنه مقدّمات عامّة مفصّلة اعتمد في كثير منها على كتابات المستشرق الكبير بروكلمان) .
 محمد احمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، محمد ابو الفضل ابراهيم : ايام العرب في الجاهلية - الطبعة الثانية - مصر ١٩٤٦
 أنيس المقدسي : الدول العربية وآدابها - الطبعة الخامسة - بيروت ١٩٣٥

٢ المراجع الاجنبية :

- C. Brockelmann : Histoire des peuples et des États islamiques (traduction de M. Tazerout) — Paris 1949.
 M. J. de Goeje : — Arabie, in Encycl. de l'Islam, T. I, 372-382.
 J. Tkatsch : Saba' — in Encycl. de l'Islam. T. IV, 3-19.
 P. H. Lammens : La Mecque à la veille de l'Hégire — Beyrouth 1924.
 La cité arabe de Tāif à la veille de l'Hégire — Beyrouth 1922.
 F. Hommel : l'Arabie avant l'Islam, in Encycl. de l'Islam, Art. Arabie, I, 382-386.

(١) اقتصرنا في ذكر هذه المراجع على المهمّ المفيد والقريب المتناول، لانّ المحل يضيق بذكر المصادر الواسعة التي اعتمدناها في دراسات كتابنا هذا. وقد اهللنا ذكر المجاميع والمصادر العربية القديمة، على اهميتها، لكثرتها وشهرتها. ثمّ اننا نلقت النظر الى الكتاب القيم الذي وضعه الدكتور يوسف اسعد داغر، وعنوانه «مصادر الدراسة الادبية وفقاً لمناهج التعليم الرسمية في لبنان وسوريا والعراق ومصر»؛ وهو خير مساعد لمن يريد التوسّع في الدراسات الادبية.

الفصل الثالث

أصل اللغة العربية وتطورها

١ أصل اللغة العربية ونشأتها : اللغة العربية من اللغات السامية، وهي فرعان : لغة الجنوب ولغة الشمال وهما تختلفان اختلافاً ملحوظاً ؛ وقد كانت لغة الجنوب اليمنية أكثر اتصالاً باللغة الحبشية والأكديّة، ولغة الحجاز أكثر اتصالاً باللغة العبريّة والنبطيّة . وقد ذهب بعض العلماء الى انّ لغة الجنوب اصله من اصول العدنانية .

٢ تطوّر اللغة المضرية : تطوّرت لغة الشمال المضرية الى ان صارت لغة الأدب، فاختلطت أولاً بالحميرية وسائر اللهجات القبليّة ، فكان من ذلك لغة مثاليّة هي لغة المجتمعات الأدبية ولغة الشعر والخطابة ؛ وقد ساعدت الاسواق وقريش على نشرها وتعزيزها وتغليب اللهجة القرشيّة عليها ؛ كما ساعدت الحضارات المتاخمة على توسيع نطاقها وزيادتها ليناً .

— تمتاز تلك اللغة بأنها إعرابية اشتقاقية فيها ضروب من النحت والقلب والترادف والمجاز .

٣ الكتابة العربية : لم توضع الحروف العربية وضعاً ولكنها تولدت بتنوّع الحرف النبطي . وحلقات سلسلة الخط العربي ثلاث : الخطّ المصري القديم، والخطّ الفينيقي، والخطّ المُسند .

١ أصل اللغة العربية ونشأتها : اللغة العربية هي إحدى اللغات السامية^١ ، وقد

بقيت أقرب تلك اللغات الى الأصل، وإن

كانت أحدثها نشأة وتاريخاً ، وذلك لاحتباس العرب في صحرائهم واعتصامهم بها

(١) يجعل العلماء اللغات السامية فئتين :

١ - الفئة الشمالية : تشمل ثلاثة فروع :

١ - الآرامية باللهجات الكلدانية والسريانية الخ . . .

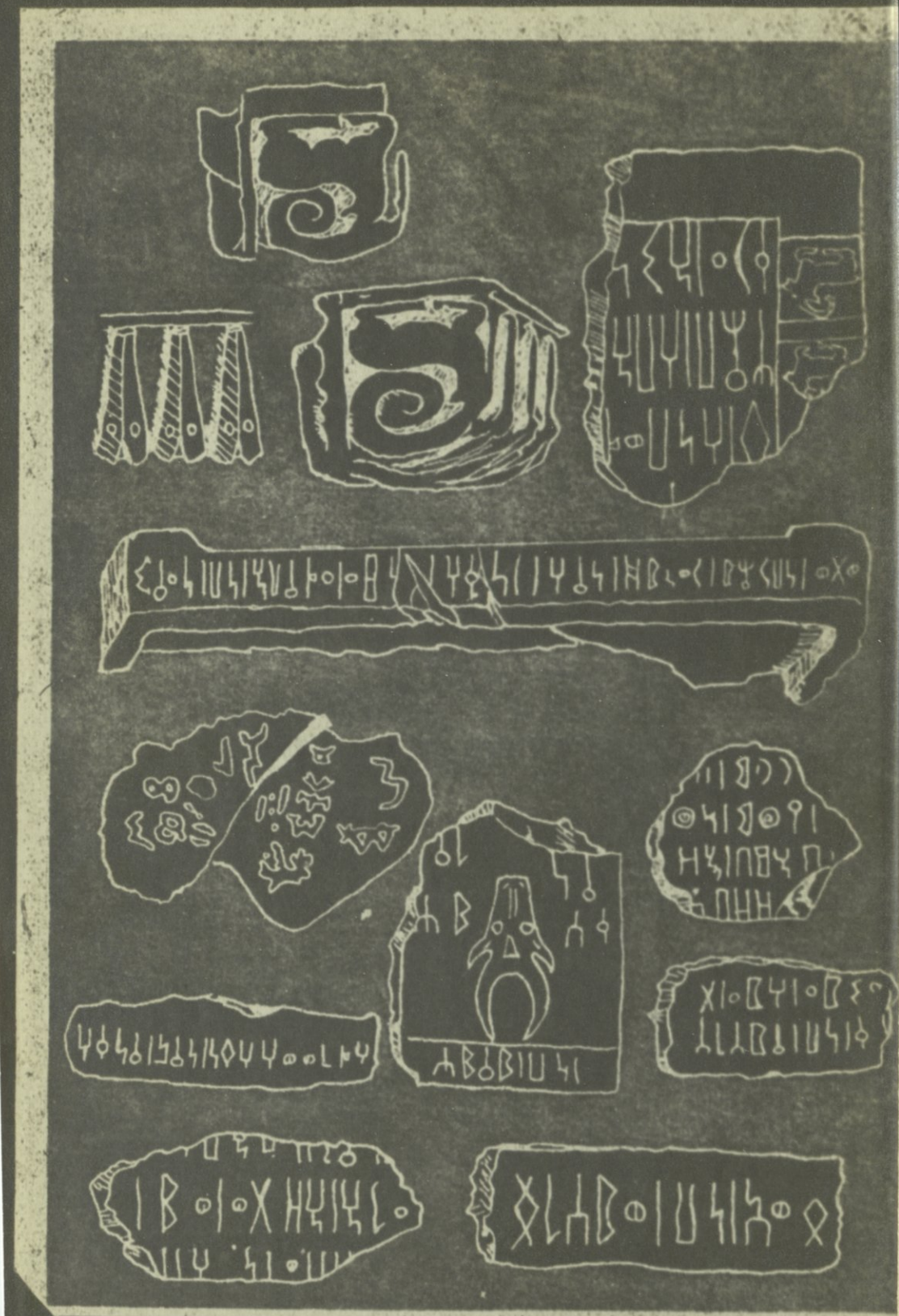
٢ - الآشورية

٣ - الكنعانية باللهجات العبرانيّة والفينيقية الخ . . .

٢ - الفئة الجنوبية : تشمل فرعين :

١ - الاسماعيلية او العربية المضرية

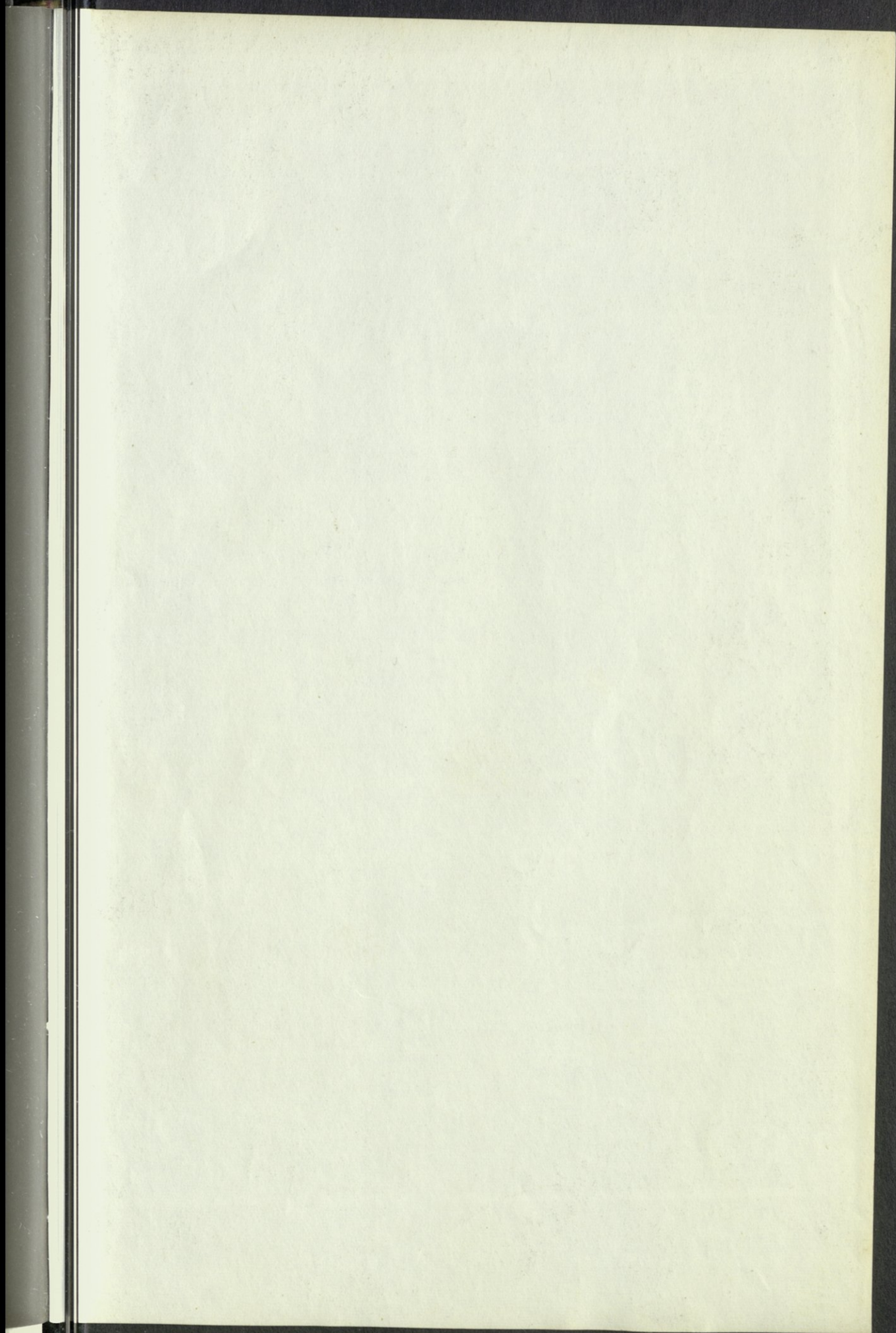
٢ - اليعقباتية او القحطانية : وهي تشمل لهجات جنوبيّ جزيرة العرب، وبلاد الحبشة .



مان :
 كثر
 ذهب
 دب ،
 معات
 غليب
 مجاز .
 نوع
 بقي ،

، وقد
 وإن
 بها

نقوش و كتابات بالخط الحميري على مسخور في ديار عاد وثمود ومشهد ووادي ثقب



دون سائر الشعوب ؛ فلم تتعرّض لما تعرّضت له اللغات السامية الأخرى من الاختلاط^١ . إلا أن أوائل تلك اللغة لا تزال مطوية في مجاهل التاريخ، وجل ما نعرفه ان هناك لغتين تفرّعت عنهما سائر اللهجات العربية، هما لغة الجنوب او اللغة الحميمية، ولغة الشمال او اللغة المضرية .

لغة الجنوب ولغة الشمال : كانت لغة اليمن القحطانية تختلف عن لغة الحجاز العدنانية، في الأوضاع والتعاريف واحوال الاشتقاق، حتى قال ابو عمرو بن العلاء (٧٧٠ م) : « ليست لغة حمير بلغتنا ولا عربيتهم بعربيتنا » . وكانت لغة اليمن اكثر اتصالاً باللغة الحبشية والأكدية، ولغة الحجاز اكثر اتصالاً باللغة العبرية والنبطية . وقد ذهب بعض العلماء الى ان لغة الجنوب القحطانية كانت اصلاً من اصول العدنانية، واعتمدوا في قولهم هذا على النقوش اليمنية المكتشفة حديثاً، فقد وجدوا فيها عبارات تتفق مع العربية المضرية كلمات وتركيباً . ففي اقدم النقوش مئات من الكلمات مشتركة بين اللغتين وبعضها مطابق في رسمه ومعناه لما في العربية مثل أخ، أخت، وثن، شبيل، أسد، شهر . . .

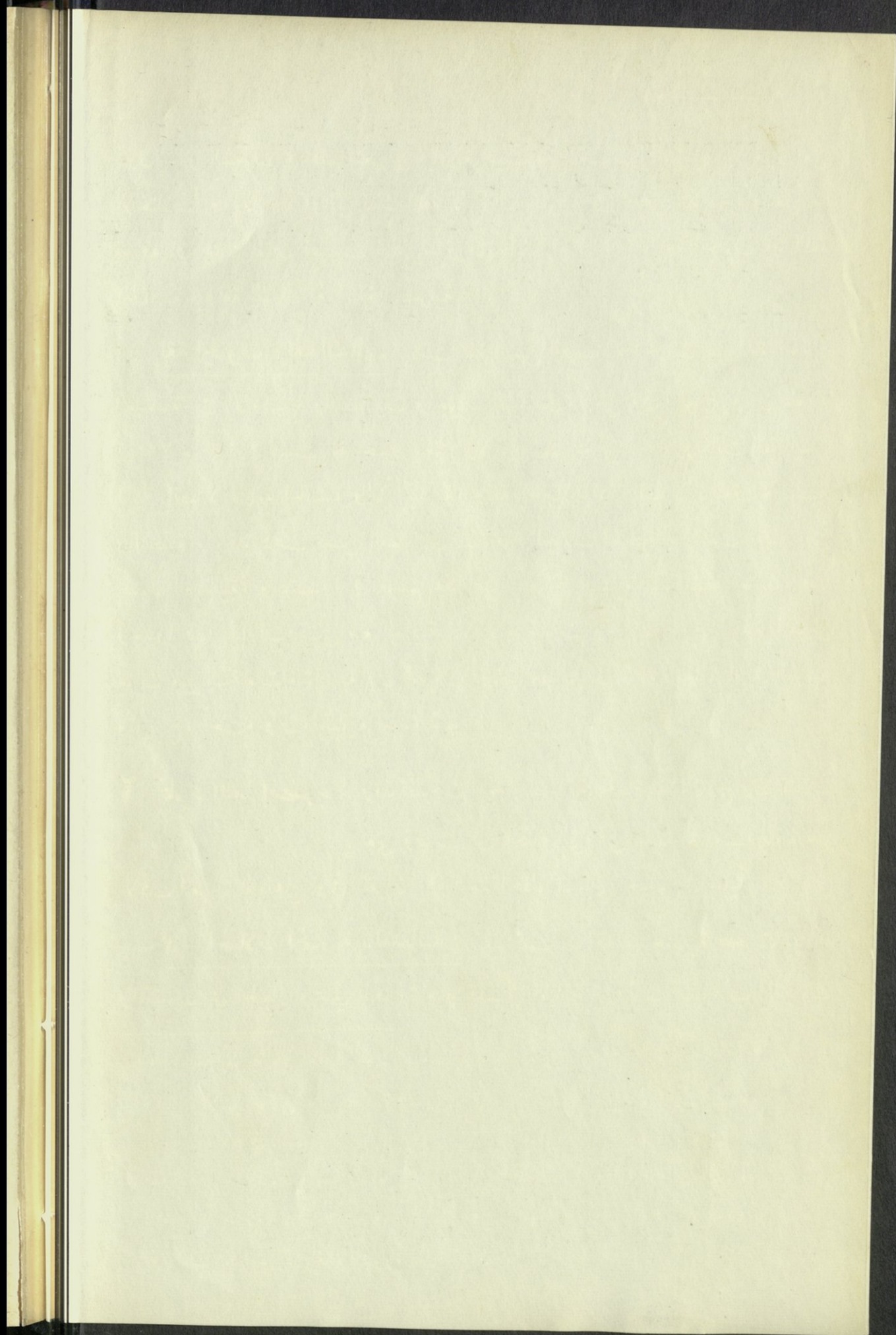
٢ تطور اللغة المضرية : وقد تطوّرت اللغة المضرية الحجازية بالتأرجح والاختلاط حتى وصلت الى الحالة التي هي عليها في ما بلغنا من الادب العربي الجاهلي وفي القرآن . واليك الخطوات التي خطتها في سبيل اكتمالها :

١ - اختلاط الحميرية بالعدنانية : لقد ثبت أن قبائل جنوبية هجرت ديارها وانتشرت في الحجاز وشمال الجزيرة منذ قبل الميلاد ، وثبت أن عرب الجنوب

(١) اللغة العربية من احدث اللغات السامية آداباً ايضاً :

البابلية والأشورية من ٣٠٠٠ سنة ق. م .	- الآرامية من ٨٠٠ سنة ق. م .
الى ٥٠٠ ق. م .	- الفينيقية من ٧٠٠ « ق. م .
- العبرانية من ١٥٠٠ سنة ق. م .	- الحبشية من ٣٥٠ « ب. م .
- الحميرية من ٨٠٠ « ق. م .	- العربية من ٥٠٠ « ب. م .

(٢) السنة مفردة على هذه الصورة تدل على الوفاة



كثيراً ما ارتادوا الديار الشمالية للتجارة، فاختلف القحطانيون بالعدنانيين اختلاطاً شديداً، وتقاربت اللغتان الحميرية والمضرية للتفاهم، واشتدَّ التفاعل والتطور مدة نحو خمسة قرون . وقد تغلبت المضرية العدنانية أخيراً على الحميرية القحطانية لانهايار دولة الجنوب ؛ ولكن المضرية خرجت من ذلك الاختلاط أكثر اتساعاً، وأكثر انفتاحاً على الحضارة وأسبابها .

٢ - اللهجات القبلية : وكان للقبائل العربية لهجات مختلفة الفروع متحدة الأصول، فمن ذلك ما كان بالاببدال كقولهم في « الحباء » « الحباع »، ومنها ما كان بتقديم بعض احرف الكلمة كقولهم « صاقة » و « صاقعة »، ومن ذلك ما كان في اوجه الاعراب كنصب خبر ليس عند الحجازيين مطلقاً ورفع عند تميم اذا اقترن بإلاً . . . الى غير ذلك مما لا عد له .

وكان للعرب الى جنب تلك اللهجات هنوات كثيرة منها غنمة قضاة وهي عدم تميز حروف الكلمات وظهورها في اثناء الكلام، وعننة تميم وهي ابدال العين من الهمزة اذا وقعت في اول الكلمة كقولك في « أمان » : عمان . الى غير ذلك، وهو كثير .

٣ - اللغة المثالية : وتكوّنت بجانب اللهجات القبلية المختلفة التي تنطق بها كل قبيلة ولا يعسر فهمها على سائر القبائل، لغة مثالية خالية من العيوب والهنوات هي لغة المجتمعات الادبية، ولغة الشعر والخطابة؛ انصهرت فيها جميع اللهجات واللغات العربية، وتكوّنت من احسن ما في تلك اللغات من عناصر، ونفضت عنها جميع العيوب التي وسعت سائر اللهجات، فبرزت احسن بروز في القرآن وفي ما وصل الينا من أدب الجاهلية الرفيع . وقد طغت على تلك اللغة المثالية لهجة قريش لاسباب سنأتي على ذكرها، وكانت لهجة قريش اقل اللهجات عيوباً وهنوات وأفصحها بياناً .

أما أسباب تكوين هذه اللغة الادبية فكثيرة منها :

١ - الأسواق : وهي أمكنة في شتى أنحاء الجزيرة كان العرب يجتمعون اليها في أوقات معينة لشؤون تجارية وقضائية وأدبية ونسبية وما الى ذلك، فيعاجلون فيها

مفاداة الأسرى، والخصومات، وينصرفون الى المفاخرة والمنافرة بالشعر والخطب في الحسب والنسب والكرم والفصاحة والجمال والشجاعة، كما ينصرفون الى مسابقات الحيول وإقامة الألعاب، وتبادل عروض التجارة وغير ذلك . فكانت تلك الاسواق أشبه بمعارض عامة يفد اليها الناس من مختلف أنحاء الجزيرة ؛ ومن أشهرها سوق عكاظ قرب مكة ، ومَجَنَّة وذو المجاز وكلاهما في ضواحي مكة ايضاً . أما سوق عكاظ فهي ملكة الاسواق، وكانت تُقام من أول ذي القعدة الى العشرين منه، وكان يجتمع فيها الاشراف والزعماء المتاجرة والمنافرة ومفاداة الاسرى والتحكيم في الخصومات وأداء الحج . وكان الكلام فيها بلغة يفهمها الجميع، يتوخمى الشاعر أو الخطيب الالفاظ العامة والأساليب العالية في لغة مثالية موحدة تروق كل سامع، ولا ينفر منها أو يستغربها أحد . فكان من ثم للأسواق أثر بليغ في توحيد اللسان وتعميم اللغة المثالية، وتغليب لغة قريش على سائر اللغات، لان أشهر الاسواق في بلادهم .

٢ - قريش : كانت مكة محطاً للقوافل من عهد عهيد ، وكانت موطن قريش موضوع إجلال العرب لما ورثته من شرف وسؤدد وثراء ؛ كما كانت مقام الكعبة يفد اليها الحجاج من جميع الآفاق . فكان لقريش نصيب وافر في توحيد اللغة، تهذب لهجتها بما تأخذه من لغات القبائل الوافدة على بلادها، مما خفف على اللسان وعذب في السمع ؛ وكان العرب يقلدون لسانها، والشعراء والخطباء يؤثرون ما هو من ذلك اللسان لأن أهم الاسواق كانت في قريش والمحكمين فيها منهم أحياناً كثيرة ؛ وكان الشعر ينتشر من تلك الاصقاع في جميع نواحي البلاد حاملاً اليها لهجة قريش وأسلوبها . وهكذا كانت اللغة المشتركة المثالية قريبة من لغة قريش كل القرب .

٣ - الحضارات المتاخمة : لم ينحصر العرب في جزيرتهم بمعزل عن تأثيرات الحضارات المتاخمة، بل كانوا أبداً في احتكاك مع من جاورهم . فأضيفت الى لغة عدنان ثروة الحضارة القحطانية وحضارة مصر وفارس والروم والحبشة عن طريق التجارة أو طريق التنافس بين الحيرة وغسان، والفرس والروم من ورائها . وهكذا

كانت

الواسعة

و

لغات

وتستط

وما إن

واحد

و

والترا

الكبير

(الإ

التعبير

فيه

٣

٣

فتك

الثلاث

الخط

الشمو

اليكن

(وه

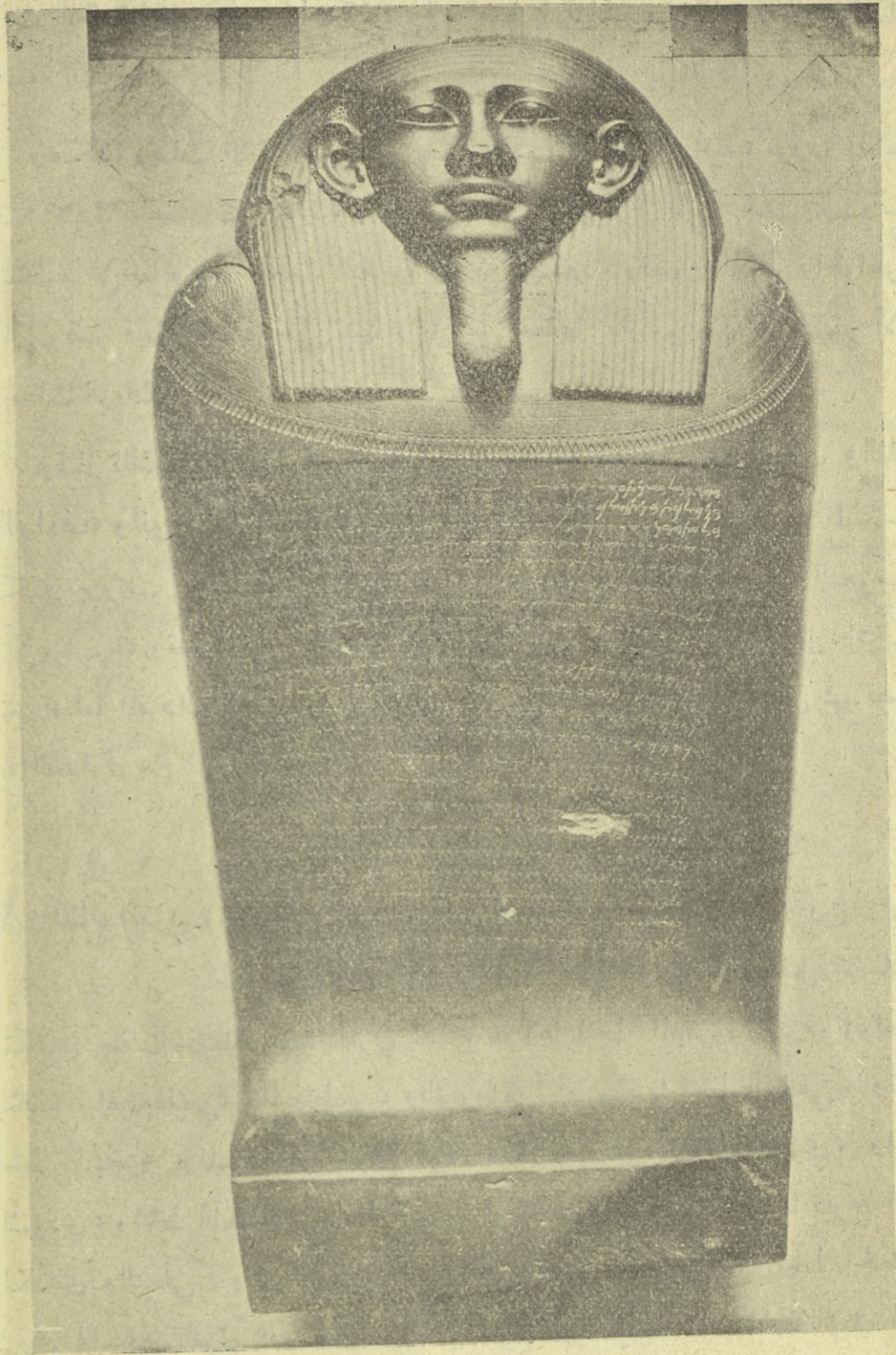
الحج

كانت اللغة تُواصل تطورها مكتملة ما ينقصها بما تأخذه من لغات تلك الحضارات الواسعة النطاق .

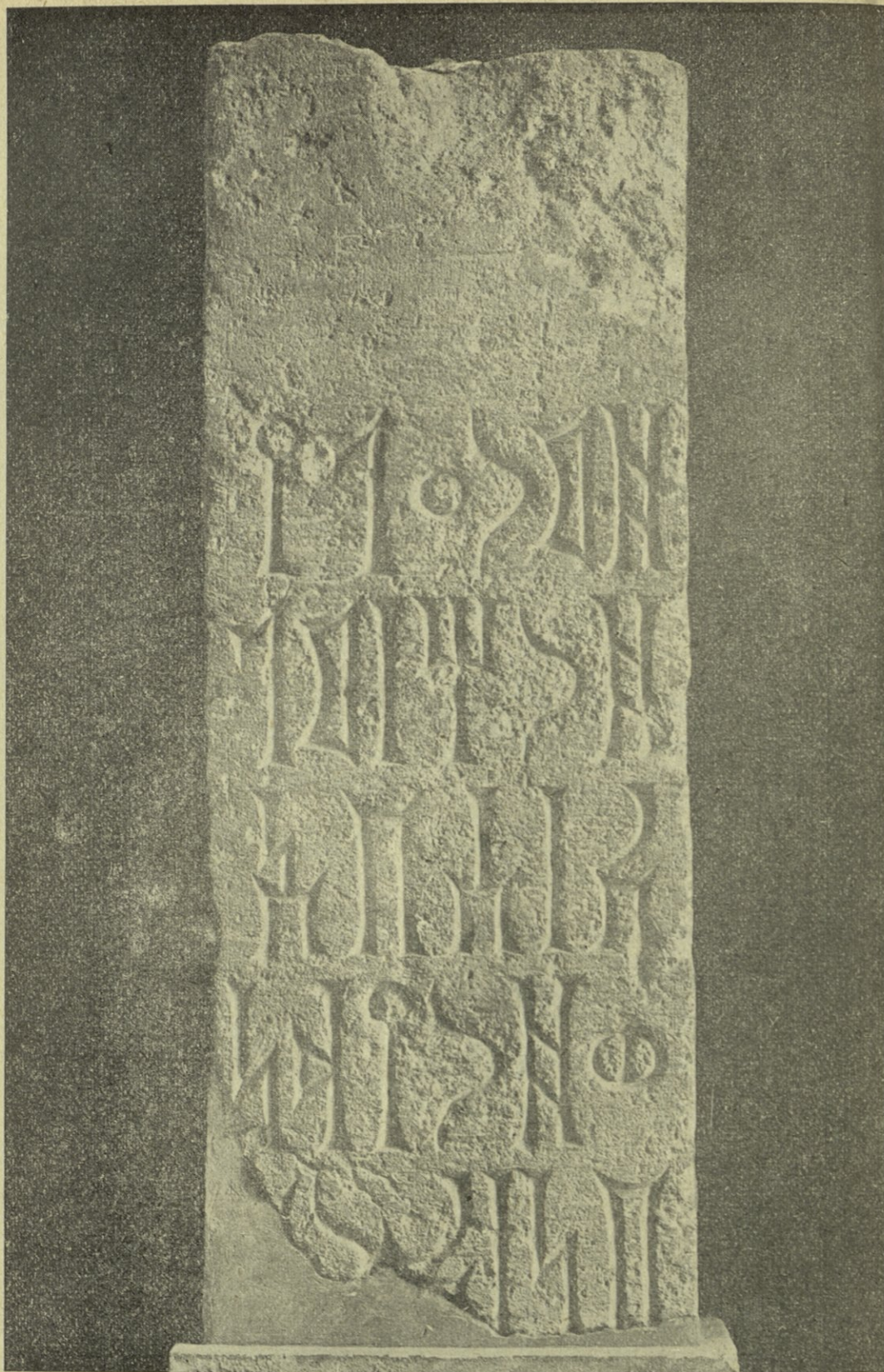
وهكذا وصلت اللغة العربية الى عصر الادب الجاهلي ، راقية ، مزودةً بمحاسن لغات كثيرة وحضارات كثيرة ، تستطيع التعبير عن كل شيء . مهما دقّ وسماً ، وتستطيع الإفصاح عن خلجات النفوس ولواعج الصدور ، وتصوير المناظر والحواطر . وما إن ظهر فيها القرآن حتى ثبَّتْها وعمل على حفظها بالرُّغم من تقلُّبات الايام واحداث الزمان .

وتماز تلك اللغة بانها اعرابية اشتقاقية فيها ضروب من النحت والقلب والترادف ، وانواع من المجاز والكناية وما الى ذلك . وقد قال عنها المستشرق الكبير بروكلمن : « تماز لغة الشعر العربي بثروة واسعة في الصور النحويّة (الاعراب) ، وتعدُّ أرقى اللغات الساميّة تطوراً من حيث تركيبات الجمل ودقّة التعبير ، أما المفردات فهي فيها غنيّة غنى يسترعي الانتباه ، ولا بدع فهي نهر تصب فيه الجداول من شتى القبائل » .

٣ الكتابة العربية : لم توضع الحروف العربية وضعاً ، ولكنها تولدت بتنوع الحرف النبطي الذي كان شائعاً في شمالي جزيرة العرب قبل الاسلام . فتكون حلقات سلسلة الخط العربي ثلاثاً ، أولاها الخط المصري القديم بانواعه الثلاثة (الهيروغليفي ، والهيراطيقي ، والديوطيقي) ، وثانيها الخط الفينيقي ، وثالثها الخط المَسند . والمسند عدّة انواع عُرف منها أربعة : الخط الصفوي ، والخط الشمودي ، والخط اللحياني ، والخط السبئي او الحميري . ومن المَسند تفرّع الخط الكِندي والنبطي ، ومن النبطي الخط الحيري والأنباري ، ومنه الخط الحجازي (وهو النسخي العربي) . وأما الخط الكوفي فهو نتيجة هندسة ونظام في الخط الحجازي .

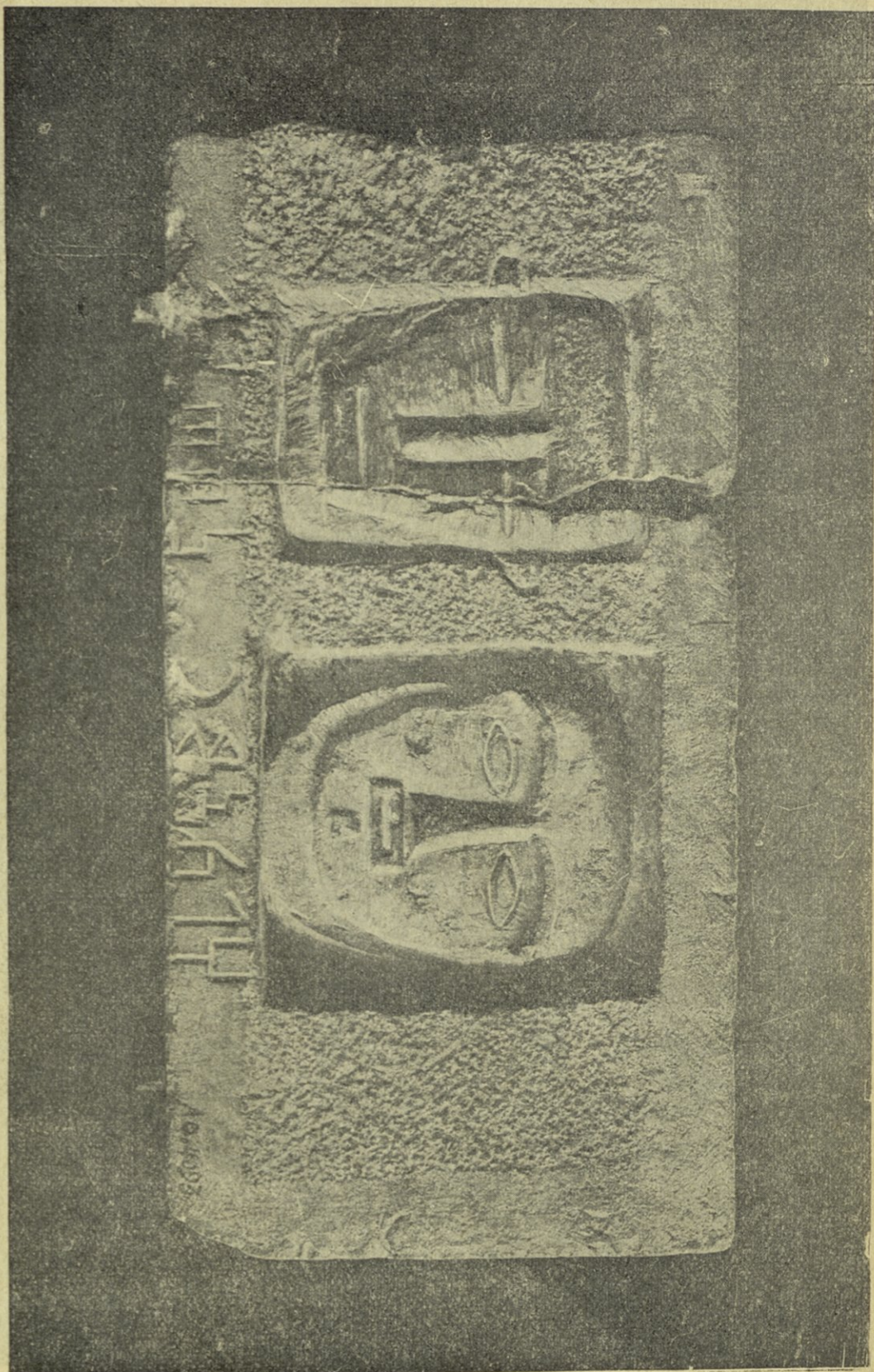


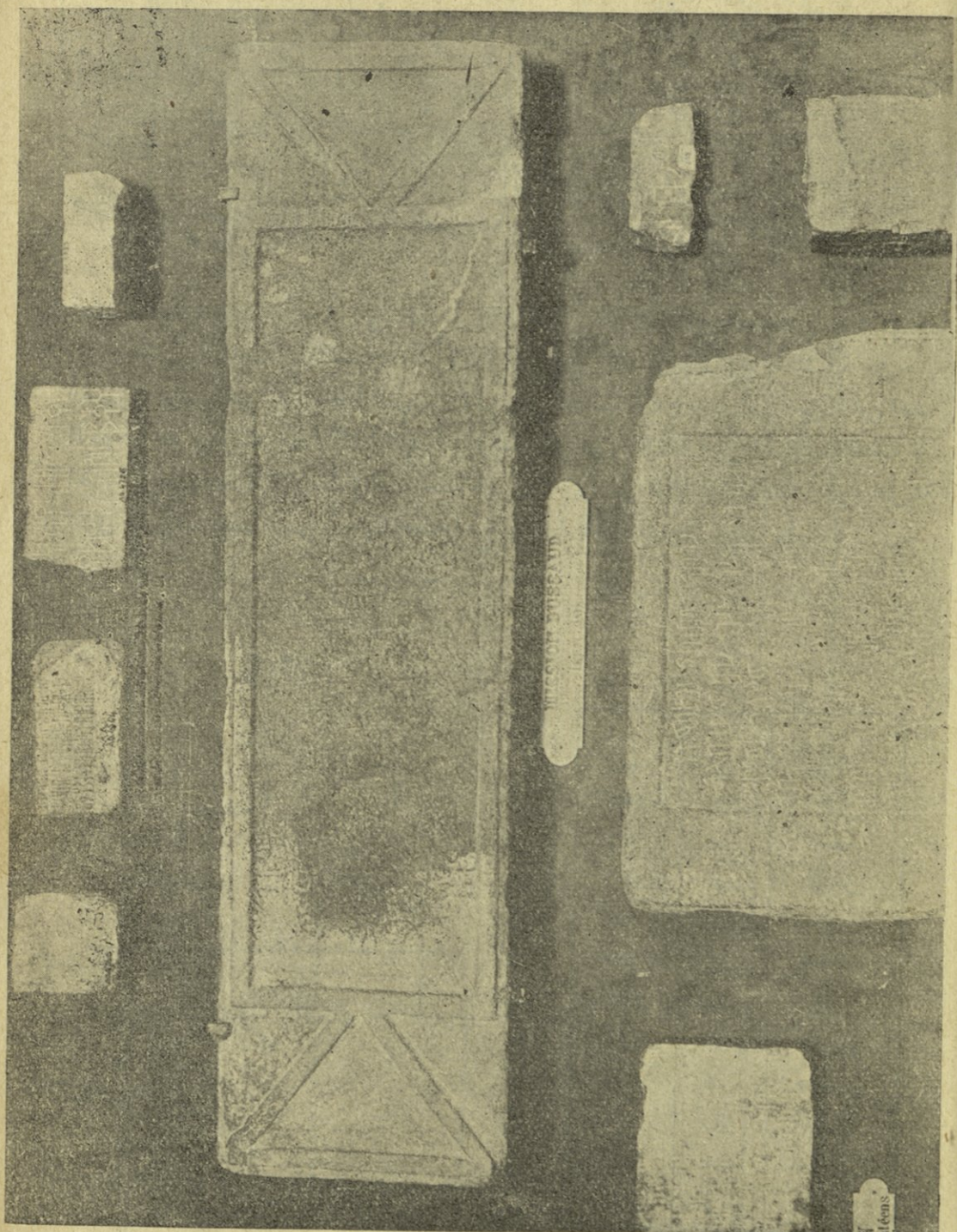
ناووس الملك أ° شمنعزر مع كتابة بالخط الفينيقي



نقش بالخط الحُميري

نقوش وخطوط جهرية



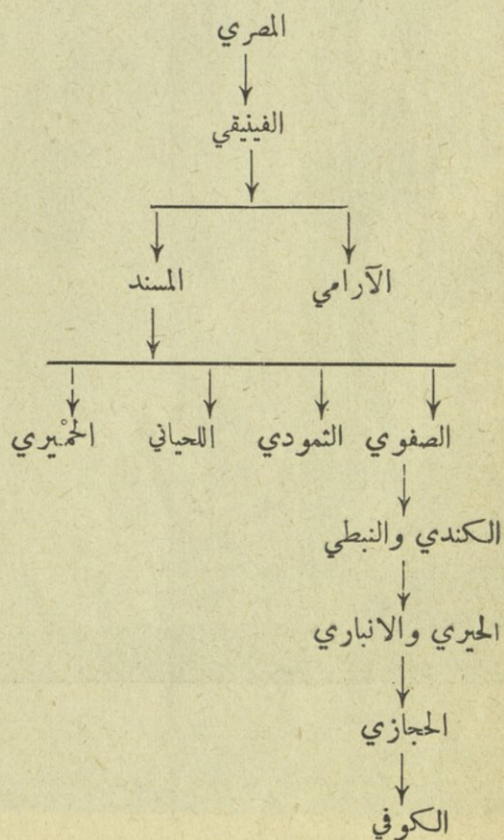


النقوش التي وُجدت على قبر امرئ القيس بالخط النبطي

م ر ن د ك ه ل ع ف ي ح ط ز س ش ص ض ط ظ ع ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠

كتابة عربية بلغة عدنان القديمة التي كانت دارجة في اوائل القرن الرابع للمسيح؛ وُجدت على قبر امرئ القيس، احد ملوك اللخمين، في النارة وهي قصر كان للروم في الحرّة الشرقية من جبل الدروز. وهي اقدم كتابة بالخط العربي الاول ترتقي الى سنة ٣٢٨ م وتشف احرفها عن اصلها المأخوذة عنه وهو احرف الكتابة النبطية، وتدل على طور الانتقال من الحروف النبطية الى الحروف العربية الشامية التي لا تزال مستعملة حتى الآن، وأخص مزايها هذا الانتقال نشوء طريقة تعليق الحروف بعضها ببعض. واليك مطالعها مع ما يقابله بالحرف العربي الحالي، ومعناه:

٢١	ي	هذا
٢٢	ص	ضريح
٢٣	مر	امرئ
٢٤	المس	الفيس
٢٥	سر	بن
٢٦-٢٧	عمرو	عمرو
٢٨	ملك	ملك
٢٩-٣٠	العرب	العرب
٣١	كله	كلهم
٣٢	دو	الذي
٣٣-٣٤	اسر	اعتصب
٣٥	الساح	بالتاج



وكان العرب يكتبون قديماً في اكتاف الابل، وفي العُسب - وهو جريد النخل
يكشفون الخوص عنه ويكتبون في الطرف العريض منه - كما كانوا يكتبون
في اللخاف وهي الحجارة البيضاء الدقيقة، ويكتبون احياناً في الجلد وقطع الخرف
والواح من الخشب، وفي القرطاس المصري اي البُردي .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- فيليب حتي : تاريخ العرب (الترجمة العربية) الجزء الاول - بيروت ١٩٤٩
اغناطيوس جويدي : المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة - القاهرة ١٩٣٠
محمد طاهر بن عبد القادر الكردي الملكي الخطاط : تاريخ الخط العربي وآدابه - القاهرة ١٩٣٩
عمر الدسوقي : النابغة الذبياني (المقدمات) - القاهرة ١٩٤٩
جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي - الجزء الثالث ص ٥٢ - ٥٥ - القاهرة ١٩٠٥

٢ المراجع الاجنبية :

- B. Moritz : Écriture arabe, in Encycl. de l'Islam, art. Arabie. T. I, 387-399.
J. Halévy : Études sabéennes — Paris 1872.
H. Fleish : Introduction à l'étude des langues sémitiques — Paris 1947.
P. Dhorme : Langues et Écritures sémitiques — Paris 1930.
De Sacy : Nouveaux aperçus sur l'histoire de l'écriture chez les Arabes du Hedjaz
in Journal Asiatique, 1^{re} série, IX, 209 sq.
Sedillot and L. Lacy O' Leary : Arabia before Mohamed, 1927.

الباب الثاني

الأدب العربي

١ ما هو الادب : الادب هو مجموعة الآثار المكتوبة التي يتجلى فيها العقل الانساني بواسطة الانشاء او الفن الكتابي .

٢ الادب والفنون : الادب فن كسائر الفنون يسعى في تمثيل المراثيات وغير المراثيات من وجهة الجمال . والجمال الفني هو تقليد الطبيعة تقليداً حياً إيحائياً تمثيلاً .

٣ عناصر الادب : يتألف الادب من أفكار وأخيلة وعواطف تخضع لسنن الذوق السليم . ومن صفات الافكار الوضوح والدقة والجدة والقوة والمعمق والسمو ؛ ومن صفات الأخيلة الجدة والقوة وسعة الايحاء ؛ ومن صفات العواطف الصدق .

٤ المؤثرات العامة التي تعمل في نشأة الأدب وراقيه وانحطاطه : من تلك المؤثرات البيئة الطبيعية، والبيئة الاجتماعية، واحتكاك الامم بعضها ببعض، والاديان ،

٥ اقسام الادب : يُقسم الادب الى قسمين :

- الادب الإنشائي او الإيجادي : هو الشعر والنثر .
- الادب الوصفي او الموضوعي : هو التحليل الأدبي وتاريخ الادب .

٦ الفنون الادبية : الفنون الادبية الشعرية هي الشعر القصصي او الملحمي، والشعر الغنائي او الوجداني، والشعر التمثيلي، والشعر التعليمي ؛ وقد خلا الادب العربي القديم من الشعر الملحمي والتمثيلي لضعف الحضارة، ونزعة العربي الواقعية، وقصر مدى تخيله ونزعته الفردية ؛ ثم بسبب النزعة التكسبية التقليدية التي فشت عند الشعراء . - وأما الفنون الادبية النثرية فالتاريخ والخطابة والقصة والتعليم والرسائل . وقد خلا الادب العربي القديم من القصة الطويلة - ثم ان النثر مرسل ومُسجّع .

٧ نشأة الادب العربي : سبق الشعرُ النثر . وقد تطور الشعر من السجع والاراجيز الى الاوزان المختلفة المعروفة .

٨ الادب العربي والروح العربية : الادب العربي صورة للروح العربية في اصلتها وامتزاجها .

٩ تطور الادب العربي واطواره التاريخية : النهضة الجاهلية والأموية، النهضة العباسية، النهضة الحديثة .

١ ما هو الادب : استُعملت لفظة « أدب » عند العرب للدلالة على معانٍ مختلفة فقد دلت في عهد الجاهلية على الدُّعاء الى المأدبة، كما دلت في الجاهلية والإسلام على الخلق النبيل الكريم وما يتركه من أثر في الحياة العامة والخاصة . ثم أُطلقت اللفظة على تهذيب النفس وتعليم المرء ما أثر من المحامد والمعارف والشعر . وفي القرن التاسع وما بعده استُعملت للدلالة على جملة العلوم والفنون من فلسفة ورياضة وفلك وكيمياء وطب وأخبار وأنساب وشعر وغير ذلك من المعارف التي تسمو بالذهن والتي تبدو أكثر صلاحية في تحسين العلاقات الاجتماعية . وما إن كان القرن الثاني عشر حتى استُعملت لفظة « أدب » في الشعر والنثر وما يتصل بهما مما يُعين على فهمهما كالنحو وعلوم اللغة والعروض وعلوم البلاغة، وإدراك مواضع الحسن فيهما كالنقد الأدبي .

والمُراد بالأدب اليوم أمران : فنُّ الكتابة ؛ والآثار التي يتجلى فيها ذلك الفن . ومن ثمَّ يمكننا تحديد الادب بقولنا : « الادب هو مجموعة الآثار المكتوبة التي يتجلى فيها العقل الانساني بواسطة الانشاء او الفن الكتابي » .

فليس الادب إذن رصفَ الفاظٍ فحسب، ولا هو رصف افكارٍ فحسب، بل هو الفن الذي يحسن فيه الانسان التعبير عن حسن التفكير . والادب الخالص يدلُّ على شخصية الاديب ويكشف عن صور الحياة ويعبر عن الخواطر والمشاعر النفسية؛ إنه صورة ناطقة لحياة الافراد والأمم .

٢ الادب وسائر الفنون : الادب فنٌ يسعى كسائر الفنون، في تمثيل المراثيات وغير المراثيات من وجهة الجمال . فكما ان العلوم تطلب الحقيقة معتمدة العقل التفكيرى، وكما ان الصناعات تطلب النافع معتمدة العقل العملي، كذلك يطلب الفنُّ الجمال معتمداً جميع القوى البشرية . فإنَّ الجمال الفني يروق في الوقت نفسه العقل والشعور والمخيَّلة : إنه يخاطب الانسان في كليته . والفنون الجميلة خمسة : الشعر والنقش والرسم والهندسة والموسيقى . ولكل

فنّ طريقة في التعبير عن الجمال . أمّا الشعر (الادب الشعري) فطريقته الكلام المكتوب والمُنشَد ؛ وأمّا النقش فطريقته الخطوط والظلال ؛ وأمّا الرسم فطريقته الالوان والايهام ؛ وأمّا الهندسة فطريقتهما الحجارة والتعديلات الحسابية ؛ وأمّا الموسيقى فطريقتهما الصوت والآلات والنسق .

الجمال الفني : والجمال الفني هو تقليد الطبيعة تقليداً حياً ايجائياً تمثلياً . فعلى الفنّ أن ينشئ فينا عاطفة الحياة والحقيقة لا الوهم بهما فقط، فيقدّم للقارئ او السامع أو الشاهد أثراً حياً . ولا يقوم ذلك بتقليد الطبيعة تقليداً أعمى يحوي جميع التفاصيل، بل يقوم باختيار ما يملك قوّة الايجاء ويحتوي ضمناً على التفاصيل الاخرى التي اذا ذُكرت كلها تجعل الأثر ضئيلاً .

ثم يجب أن يكون تقليد الطبيعة ايجائياً او تفسيريّاً فيعبّر عن العواطف التي يثيرها الموقف . وهذا يتطلب من الكاتب او الخطيب أن يشعر بشعور الاشخاص الذين يتكلم عنهم، وأن يصغي لصوت الطبيعة الخفي فيتفهّم معانيه ويعبّر عنها .
اخيراً لا بُدّ للفن من التمثيل ؛ ولا يعني ذلك تجميل الطبيعة وتغيير صفحتها بل يعني تكميل ما بدأت به وتقوية خطوطه وتوسيعه .

٣ عناصر الادب : يتألف الادب من افكار وأخيلة وعواطف تصدر عن قوى الانسان الادبية : العقل والمخيّلة والشعور، وتخضع لسنن الذوق السليم ؛ ويعبّر عنها بكلام فصيح واسلوب متين جميل .

اما العقل فهو الذي يُنشئ الافكار وقيم الأحكام والأقيسة . ومن صفات الافكار أن تكون واضحة، دقيقة، جديدة، قويّة، عميقة، سامية ؛ ومن صفات الأقيسة أن تكون صحيحة . - فيتّضح ان للعقل اهميّة كبرى في الادب ؛ فهو الذي يضع اساس الأدب اي الفكر . والآثار الادبية الخالية من الفكر، او المشحونة ضلّالاً لا يمكنها ان تُعدّ ادباً حقيقياً، وان كان كاتبها من ارباب الاقلام والصناعة اللفظية . فانّ الحقيقة من عناصر الجمال، وإن خلت فقد الجمال .

واما الخَيَلَة فهي التي تُنشئ صور الأشياء، اي تكسو الافكار صوراً
حسيةً او تبعث في الجمادات روحاً وحياتاً . ومن صفات الصور ان تكون جديدة
قوية واسعة الاجزاء .

واما الشعور فهو الذي يُنشئ العواطف اي الانفعالات الحسنة والسيئة .
ومرجع صفات العواطف الى الصدق .

واما الذوق فهو الذي يبين جمال الآثار الادبية وعيوبها من ناحيتي المعنى
والمبنى . ومن صفات الذوق التنبّه، والدقة، والاتساع، والإصابة .

واذ توفرت القوى الادبية عند احد الكتاب او الشعراء الى درجة رفيعة جداً
تمكّنه من الاتيان بآثار فريدة عبقرياً .

٤ المؤثرات العامة التي تعمل في زناة الادب ورفه وانحطاطه : لما كان الادب
صورة ناطقة

لاحوال الافراد والجماعات كان لا بُدّ له من الاختلاف باختلاف احوال الافراد
والجماعات بسبب التطورات والانقلابات في النفسانيات والسياسيات والاجتماعيات وما
الى ذلك . ومن ثمّ نرى من العوامل التي تعمل على تغيير حاله :

١ - البيئة الطبيعية : وهي ما يحيط بالانسان من احوال المكان والجو .
فللجبال تأثير غير ما للسهول؛ وللبلاد الحارة غير تأثير البلاد الباردة؛ وللريف تأثير
غير تأثير المدينة . فالبيئة الطبيعية معين الاديب ومستوحاه .

٢ - البيئة الاجتماعية والمعاشية والسياسية والثقافية : وهي حالة الامم
من ناحية الغنى والفقر، والحضارة والتأخر، ومن ناحية الاخلاق والعادات، والحياة
العقلية، وأساليب العيش والمعاملات وطرق الحكم . ولهذا اثر كبير في اللغة
والأدب من حيث اللفظ والاسلوب والخيال والتفكير والاعراض، والنهضة والانحطاط .

- ٣ - امتزاج الامم واتصال بعضها ببعض : ومن شأن ذلك ان يمزج الثقافات ويوسع الآفاق، ويجري انقلابات كثيرة وهامة في الافكار والاخيلة والاساليب .
- ٤ - الاديان : الدين ملتصق بنفس الانسان وله سلطان على القلوب، ومن ثم له اثر كبير في الادب بما يبتث من اخلاق ومعتقدات، وبما يخطط من طرق روحانية وجدانية سامية .

٥ - افسام الادب : يُقسم الأدب الى قسمين : الادب الإنشائي أو الابداعي، والادب الوصفي أو الموضوعي :

١ - الادب الانشائي أو الابداعي : هو الذي يُنتجه الأديب بقواه الغريزية او الكسبية؛ وهو يُقسم الى قسمين : « احدهما كلام منظوم يُعتمد في لفظه على الوزن والقافية وفي معانيه على الخيال، وهو يُسمى شعراً؛ والثاني لا يُعتمد في الفاظه على وزن ولا قافية، وإنما هو مُطلق حرٌّ لا يلتزم صاحبه قيداً من هذه القيود التي تُلتزم في الشعر، ولا يعتمد في معانيه على الخيال وحده، وإنما اكثر اعتماده على التفكير الصحيح والمنطق المستقيم؛ وهذا الكلام يسمى نثراً » .

٢ - الادب الوصفي أو الموضوعي : وهو يقوم بدرس الادب الانشائي، ويقسم قسمين : التحليل الادبي، وتاريخ الادب :

التحليل الادبي : هو دراسة الآثار الادبية في جوهرها وعناصرها وصفاتها التي تجعل منها آثاراً فنية، وإظهار قيمتها .

تاريخ الأدب : هو وصف آداب العصور وترتيبها وتعليلها؛ يتناول الادب الانشائي مبيّناً أطواره، باحثاً في ما عراه من قوّة وضعف ورقي وانحطاط، رابطاً اللاحق بالسابق، وراداً كلّ شيء الى أسبابه .

وكتب تواريخ الادب تجمع عادة بين علم التاريخ والفن التحليلي، وقد جربنا نحن ايضاً على هذا الاسلوب .

ومن المعلوم ان التاريخ الادبي بمعناه الحديث قريب العهد، عرفه الاوربيون في عصر نصوصهم سبق اليه الايطاليون وسار على اثرهم الامم الاخرى ولاسيما الفرنسيون . اما العرب فلم يُعرف تاريخ الادب لدى القدماء منهم؛ وانما كان سبيلهم جمع تراجم الشعراء والكتّاب، وتبيين محاسنهم ومساوئهم، والاستشهاد ببعض اقوالهم، ولم يكن قولهم موَصَّلاً مستوعباً، يؤلّف صورة عامّة للادب في عصر او عصور، ولا كان التعليل فيها مطّرداً . فكان عمل المؤرّخين تراجم متفرقة ينقصها الجمع والمزج والترتيب والتعليل . فهي مصادر لتاريخ الادب لا تاريخاً .

٦ **الفنون الادبية** : الفنون الادبية هي مظاهر عامّة وفنيّة للفكر، لها ميزات ونواميس خاصّة . فهي بمثابة رُتب تُودع آثار العقل البشري . وهي تُقسم قسمين كبيرين : الفنون الادبية الشعرية، والفنون الادبية النثرية .

١ - **الفنون الشعرية** : ترجع الفنون الشعرية الى اربعة : الفن القصصي، والفن الغنائي، والفن التمثيلي، والفن التعليمي .

اما **الشعر القصصي**، فهو شعر الملاحم، الذي يترك فيه الشاعر شخصيته، ويتناول الابطال والجماعات، والوقائع الحربية والمناقب القومية بأسلوب قصصي تكثر فيه الخوارق، كما فعل هوميروس في الالياذة، والفردوسي في الشاهنامه . واما **الشعر الغنائي** او **الوجداني**، فهو الذي يتناول فيه الشاعر نفسه، فيصف في قصائد صغار مظاهر عواطفه ونزعات قلبه، وخلاصة افكاره وآرائه، وصفوة تصوّراته وتخيالاته في الكائنات المحدقة به . واما **الشعر التمثيلي** فهو الذي يتناول فيه الشاعر حادثاً تاريخياً أو خيالياً من أحداث الحياة البشرية ويجريه على المسرح

(١) من الكتب التي ألفت عند العرب على هذا النمط : طبقات الشعراء، لمحمد بن سلام الجُمَحيّ (٨٤٥)؛ الشعر والشعراء، لابن قتيبة (٨٨٩)؛ قلائد العقيان، ومطمح الانفس، للفتح بن خاقان الاندلسي (٩٤٦)؛ معجم الشعراء، للمرزباني (٩٩٤)؛ قيمة الدهر في شعراء العصر، لابي منصور الثعالي (١٠٣٧)؛ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة، لابن بسّام الاندلسي (١٠٣٧)؛ دمية القصر، لابي حسن الباخريزي (١٠٧٤)؛ سُلالة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر، لصدر الدين المديني (القرن الحادي عشر)؛ ریحانة الألباء، لشهاب الدين الحفاجي (١٦٥٨) .

بواسطة اشخاص يتصورهم ويُنطق كلاً منهم بما يتفق وشخصيته وموقعه . وأما الشعر التعليمي فهو الذي يرمي فيه الشاعر الى تثقيف العقل والقلب .

الشعر القصصي هو شعر اجتماعي تتراءى فيه حياة الجماعات، وهو يدل على تيقن الجماعات وتنبيهها للحياة، ولا يظهر عادة إلا في طفولة الشعوب؛ وأما الشعر الغنائي فهو يدل على تطور الحضارة، واتساع سبل الحياة، بحيث يُتاح للفرد أن ينكفي على ذاته ويتنبه لشخصيته، فهو خطوة الفرد نحو الشخصية؛ وأما الشعر التمثيلي فهو يدل على تطور شديد في الحضارة، وتقدم الانسان تقدماً واسعاً في سبل الحرية الفردية والاجتماعية؛ وأما الشعر التعليمي فهو يدل على إقبال الافراد والجماعات على العلم والتحصيل .

وان من استقرى الادب العربي وجده خالياً من الشعر القصصي الذي يقوم بنظم الملاحم الطويلة، وذلك لاسباب كثيرة، منها أن الجاهلية كانت بعيدة عن أن تفهم الوحدة القومية، والعاطفة الوطنية، وعن أن تشغل افكارها أموراً وهمية ومشاهد خيالية لا توافق توعتها الواقعية، وخوارق إلهية لا توافق ضعف عقيدتها الدينية؛ فهي ضعيفة العقيدة، لا يربطها سلطان، ولا ينازعها أرضها أجنبي؛ فضلاً عن أن الحياة البدوية لم تكن لتأثف مع الجيوش المنظمة والزحف بها جرارة، اذ كانت حروبهم غزوات وغارات . زد على ذلك كله ان الشاعر البدوي حر، متقلب قصير مدى الخيال والتخيل لا يكاد يقوى على نظم قصيدة في موضوع واحد فكيف يقوى على نظم ملحمة طويلة واسعة الاصول والفروع؟ ثم انه كان ينظم عن دافع التأثير والعاطفة لا عن رغبة في الاخبار لاجل الاخبار البعيد عن الذات . فهو خطيب محام لا قصاص . والبدوي لا ينظر الى الاشياء نظراً شاملاً بل تغلب عليه الفطرة والطبع، فيقف عند كل ما يجزّكه من غير ما رابط بين السابق واللاحق ولا تسلسل، وقد قصر كل ذلك نفسه فلم يأت بالقصائد الوافية .

وان خلا الادب العربي من الملاحم الطويلة فهو لا يخلو من قصائد فيها من النفس الملحمي الشيء الكثير، وفيها من سرد الاخبار، ولا سيما الاخبار المتعلقة بالشاعر او بمن يخصه، ما يذكر بأسلوب الملاحم .

وكذلك خلا الشعر العربي القديم تماماً من الفن التمثيلي، ولذلك أسباب منها ان البدوي لم يكن ميلاً بفطرته الى الدروس الاخلاقية، والتحليلات النفسية الدقيقة، كما انه كان بعيداً عن أن يشغل افكاره بخلق الحوادث المؤثرة والمواقف البعيدة عن حياته المادية الواقعية التي يناضل في سبيلها ويفكر أبداً في الذود عنها وتحصيل ما يكون لها قواماً وغذاء، ثم ان البدوي كان فردياً بعيداً عن الروح الاجتماعية وكان مجتمعه قليل الرقي. ولما انتظمت أحوال المجتمع العربي بعد ذلك، واتسعت حضارته، بُلي الشعراء بداء التقليد، والتألف الى ذوي السلطان، بقصائد قصيرة يكسبون بها المال الوفير ولا يعدلون عنها في حال من الاحوال الى التطويل والتفصيل ما دامت تلك القصيدة القصيرة تدر عليهم بالرزق الواسع، وتكسب لهم رضى الكبار وإعجاب الصغار، وتعظيم ارباب النقد الذين ضاقت سبلهم عن تقدير غير الشعر الذي نظمه قدامى العرب، وعن تقدير الاساليب التي تخرج عن أساليبهم.

إلا ان العرب لم يجهلوا الشعر التعليمي، فقد انصرفوا اليه منذ جاهليتهم، من يوم قال زهير «ومن ... ومن ... ومن ...»؛ الا ان شعرهم التعليمي يخلو عادةً من النفس الشعري الحقيقي، فهو جاف بمجمله، اقرب الى النثر منه الى الشعر.

واما الفن الغنائي فقد كان الميدان الفسيح الذي انطلق فيه الخيال العربي منذ اقدم العصور، وتطور ضمن نطاقه، متناولاً الغزل او التشبيب او النسب (وهو وصف المرأة والتحدث اليها، والتغني بذكر الاحباء، والبكاء على الاطلال وما الى ذلك)، والفخر (وهو التمدح بصفات النفس وصفات القوم، ويدخل فيه شعر الحماسة)، والمدح (وهو تعداد محاسن المرء وقومه والثناء عليهم)، والثناء (وهو تعداد مناقب الميت والتفجع عليه)، والهجو او الهجاء (وهو تعداد مثالب العدو وقومه والتهكم عليهم والخط من قدرهم)، والزهد (وهو ذكر الموت ووصف سرعة زوال الدنيا، ورفع الابتغال الى الله، والتحريض على الخير والنهي عن الشر)، والحكمة (وهي موعظة يستخرجها الشاعر من مجموع اختبارات ومعارفه وملاحظاته في الحياة، فيجمعها بإيجاز في بيت او بيتين او ما يقرب من ذلك، ليقدمها عبرة

ونصيحة (والوصف) وهو ذكر أقسام الشيء وشرح هيئته لإحضاره في ذهن السامع .

والشعر العربي عموماً قصيراً بالنسبة إلى غيره من الشعر الاجنبي قوامه القصيدة (وهي عدد من الابيات قد يبلغ المئة او يتجاوزها بعض التجاوز، وقد يقصر حتى لا يبلغ العشرة)، والمقطوعة (وهي ما كان من سبعة أبيات فما دون) . والعرب عموماً يعتبرون القصيدة أو المقطوعة وحدة مستقلة، تدور حول موضوع واحد، أو عدة موضوعات يتصل بعضها ببعض . والقصيدة والمقطوعة مؤلفتان من ابيات كان العرب قديماً يعدّون كل بيت منها وحدة مستقلة عن أختها؛ والابيات كلها على وزن واحد وروي واحد ما لم تكن أراجيز فيختلف الروي في الابيات وان لم يختلف في شطري البيت الواحد . إلا ان العرب على ممر العصور تحرروا شيئاً فشيئاً من هذه القيود كما سيّضح ذلك في ما يأتي من دراستنا .

٢- الفنون النثرية: ترجع الفنون النثرية الى خمسة : فن التاريخ ، وفن الخطابة، وفن القصة، والفن التعليمي، وفن الرسائل .

أما التاريخ فهو العلم الذي يُحيي الماضي ، ويربط حوادثه بعضها ببعض، ويظهر المجاري العامة في تطوّر البشر، وذلك بأسلوب شائق جذاب، يستطيع معه المؤرخ أن يهذب العقول مفسّراً الحاضر بالماضي ومستخلصاً من الماضي بعض ما يُخني المستقبل؛ وأن يهذب النفوس مقدّماً لها أمثالا كثيرة للبطولة والفضيلة، وباعثاً فيها روح الوطنية . وأما الخطابة فهي فن الإقناع واستمالة السامع ليعمل حسب ما يدعوه اليه الخطيب . وأما القصة فهي رواية نثرية تدور حول حادث يُجعل مَرَكَباً لدراسة الاخلاق ووصفها . وأما الفن التعليمي فيقوم بالبحث في المخترعات والمذاهب العلمية الطبيعية والادبية، او المسائل الفنية ، وذلك بنثر يتجلّى بحسن الصياغة وروعة الفن . وأما فن الرسائل فيقوم بمحادثة مكتوبة توفرت لها أساليب الفن وضروب البلاغة .

وقد أضاف بعض العرب الى هذه الفنون النثرية العامة فن المناظرات والجدل،

وهو يقوم بأن يحاول كلُّ من الخصمين تأييد رأيه بالبرهان، وإبطال رأي مخالفه ودحض حجته . وجعل العربُ النثر على نوعين : النثر المسجّع، والنثر المرسَل وذلك باعتبار تقييده بالفواصل والقوافي أو خلوه منها .

وإنَّ من استقرى الأدب العربيَّ وجده حافلاً بأكثر فنون النثر، ولكن بعض هذه الفنون، كالقصة الطويلة، لم يبلغ من الفن درجة عالية إلا في عهد غير بعيد عنا .

٧ **نشأة الادب العربي :** لقد خلا جزءٌ عظيم من تاريخ البشر من كتابة وكتب ولكنَّ الأرجح أن هذا الجزء لم يخلُ من أدب . وقد لبث الادب زمناً طويلاً يعتمد على الرواية قبل أن يعتمد على الكتابة . وهكذا ظلَّ الادبُ العربيَّ مدَّةً طويلة يرويها اللسان ولا يكتبه القلم . وان الذي يتنبع الآداب العالمية عموماً والادب العربيَّ خصوصاً يرى أن الشعر سبق النثر الفنيَّ في الظهور، وليس معنى ذلك أن أوَّل كلام نطق به الانسان هو الشعر، بل معناه ان أقدم الآثار الادبية التي خلفها الانسان هي الشعر . ومن اسباب ذلك ان الادب المنشور يتطلَّب معرفة بالكتابة، والكتابة اختراع متأخر في تاريخ كل أمة؛ وأما الشعر فيُنقل بالرواية ولا يسهل نقل النثر بالرواية، كما لا يمكن الاعتماد على النثر المرويَّ لسهولة التحريف فيه . ثم ان النثر الفني هو لغة العقل أما الشعر فلغة الوجدان، والانسان يشعر بوجدانه قبل ان يفكر بعقله؛ ولذلك لم يظهر النثر الفني إلا بعد أن اخذت الجماعات بحظ قليل او كثير من الرقي العقلي .

ولم يظهر الشعر العربيُّ كما نعرفه في ما وصل اليها من أدب الجاهلية، وكما نعرفه اليوم، بل سبق هذا النضوج تطوُّر في المعنى وفي المبنى، وكان هذا التطوُّر طويلاً . وقد قيل ان الحداة اصل الشعر وان أوزان الشعر العربي رُتبت على وقع أقدام الابل . وما لا شكَّ فيه ان الشعر العربي كان، من أصل وضعه، ذا ميزات خاصة، تقوم على الفاظ منتقاة، مرتَّبة ترتيباً موسيقياً خاصاً يتألف من ذلك الترتيب ما نسميه الوزن الشعري، ثم على الفاظ تنتهي بحروف متشابهة هي بمثابة قرار لتلك

الموسيقى، تسمى قافية . ويرى بعض النقاد ان السجع سبق الرجز، وقد اتفق مؤرخو الادب على أن الرجز أقدم أنواع الشعر تاريخاً . وكان الوزن والقافية يُساعدان على الإنشاد، كما يجعلان الشعر شديد الارتباط بالغناء، ولا عجب « فالشعر يشتمل على موسيقى الالفاظ، والغناء يشتمل على موسيقى الالحن » . ومما يرجح ان العرب كانوا في بدء أمرهم ينشدون الشعر كما كانوا يتغنّون به وذلك وفقاً لما تقتضيه الاحوال .

٨ الادب العربي والروح العربية : الأدب العربي مرآة تتجلى فيها الروح العربية في جميع أطوارها من أصالة وامتزاج، من بداءة وحضارة، من قوة وضعف .

١ - فهو مرآة تنازع البقاء والتحور من كل نير اللذين اتصف بهما ابن الصحراء ربيب الحرية والإباء كما اتصف بهما العربي عموماً في جميع العصور . حفل ذلك الأدب، ولاسيما القديم منه، بالفخر والحماسة والفروسية، ووصف المعارك وآلاتها، والوحوش وفلواتها، والفرس والناقة مطيّي المغامرات، كما حفل بالهجاء الذي يُذاد به عن الأعراض عندما لا يُذاد بالسيوف والرماح .

٢ - وهو مرآة للعقل البدوي الذي لا ينظر الى الاشياء نظرة عامة شاملة، فيغلب على ادبه الفطرة والطبع اكثر من الاكتساب والجهد، وقد كان ذلك سبب نقص في الادب العربي اذ ضعف المنطق والتسلسل في قسم من شعره ومؤلفاته الادبية .

إلا ان هذا النوع من التفكير خلع على الادب العربي من ناحية أخرى جمالاً خاصاً؛ فان انحصار النظر في شيء جزئيّ ساعد على النفوذ الى الباطن؛ كما ان تعاور العرب الشيء الواحد جعلهم يأتون بالمعاني المختلفة من وجوه مختلفة، من غير إحاطة ولا شمول . فامتلا ادبهم بالحكم القصار الرائعة والامثال الحكيمة والابيات والمقطوعات الشعرية الفريدة .

٣ - وهو مرآة حياة ارسطقراطية اكسبت الادب من جهة رفعة ونفساً عالياً،

وجنى بلاطها من جهة اخرى على الادب منذ الجاهلية الى عهد غير بعد عنّا، فجعل قسماً منه بعيداً عن الحياة الشخصية والحياة العامة، بعيداً عن الشعور الإنساني الخالد، صادفاً عن صدق العاطفة، مضطرباً في ميدان ضيق من الترف والتكسب، في مدح أو رثاء أو ما الى ذلك مما تقيدت فيه القرينة الشعرية أو الكتابية، فزعت نزعة التقليد حتى في الغزل، وذلك لإرضاء الخواطر والتمويص عن الروحي الطليق . فكان ذلك الأدب أدب مناسبات لا أدب وحي، وفن رفيع . وقد تكاثر ذلك في العهد العباسي خصوصاً . إلا أنه لم يخلُ عصر من الادب الشعبي المتحرر كأدب ابي نواس، وأدب الجاحظ، وكروايات الف ليلة وليلة وغيرها .

٤ - وهو مرآة لحياة اللهو التي عرفها العرب وغذتها عادات الشعوب المجاورة

غير العربية التي اختلط بها العرب بالفتوحات والتجارة والجوار، فكان من ذلك ادب الخمر والغزل والموسيقى .

٥ - وهو مرآة للعقل العربي الذي امتزج بالعقل اليوناني وحكمة الهند

والفوس فأنتج التأمل والعلم، ولاسيما في العهد العباسي الذي ازدهر فيه الزهد والتصوف والعلم بفروعه، والذي اكتسبت فيه الحكمة والمثل عمقاً وقوة .

٦ - وهو مرآة لحياة الرخوف التي تهتم للظواهر اكثر مما تهتم للحقائق

والجواهر . وقد فشا ذلك خصوصاً في عصور الحضارة والترف وضعف التفكير عندما انصب على العرب سيل العناصر الاجنبية فصبغت البلاد بصبغة زخرفها الخارجي، فكانت الاولى فيها للصياغة اللفظية والصناعة البيانية، كما نرى ذلك في بعض العهد العباسي، وفي عهد الاتراك، وقد نتج عن الترف والعقم الادبي قسم كبير من فن المقامات وما جرى مجراها من الرسائل ومقدمات الكتب، وكثير من شعر الاراجيز والشعر التاريخي وما الى ذلك .

٧ - وهو اخيراً مرآة للوعي والانفتاح، والعربي سهل الانفتاح على الثقافات

العالمية، سريع التكيف، يحسن تناول كل علم والاستفادة من كل حالة؛ ويتجلى هذا الانفتاح بنوع خاص في ادب النهضة الاخيرة والادب المعاصر، حيث تتوفر العناصر العالمية والانسانية، ويتسع نطاق الفنون الادبية في الشعر والنثر.

٩ تطور الادب العربي واطواره التاريخية : اتبع الادب العربي سنة الحياة، فتطور متقلباً مع التاريخ من حال الى حال؛ وكان التطور عادة وليد احتكاك العرب بعضهم ببعض، او احتكاكهم بغيرهم من الشعوب والحضارات والثقافات؛ فكان الاحتكاك يولد عادة نهضة ادبية ذات نزعة خاصة، واهم هذه النهضات ثلاث :

١ - النهضة الجاهلية والاموية : هي النهضة الاولى التي سجلها التاريخ وقد استحكمت في الجاهلية سنة ٥٣٢ م . ثم زاد استحكامها بعد ظهور القرآن . وكانت تلك النهضة ثمة اختلاط عرب الشمال بعرب الجنوب، واحتكاك العرب بعضهم ببعض في الاسواق والمجتمعات العمومية، واحتكاك العرب بسائر الامم المجاورة بواسطة التجارة، والفتوحات الرومانية، والدعايات السياسية الفارسية والرومية، وغير ذلك . ثم ظهر القرآن فزاد تلك النهضة استحكاماً بما قدم لاربائها من ضروب البلاغة وبما فتح الاسلام لعرب الجزيرة من آفاق بواسطة الفتوحات .

٢ - النهضة العباسية : هي النهضة الثانية التي قامت على احتكاك العرب واختلاطهم بالفرس والروم والهنود والاسبان وغيرهم، وعلى امتزاج الثقافات والمذاهب، ولاسيما بواسطة الترجمة التي نقلت الى العرب فلسفة اليونان وعلومهم، وتاريخ الفرس وحضارتهم ونظمهم، وحكمة الهنود واساليبهم؛ فكان من كل ذلك للعقول ثقيف، والعدارك توسيع، وللتصور ترقيق؛ واذا العقل والعلم يصبحان اساساً لكل شيء، واذا كل عناصر الادب تكتسب عمقاً وجدة .

٣ - النهضة الحديثة : هي النهضة الاخيرة، وقد جرت باحتكاك الشرق بالغرب ولاسيما منذ اواخر القرن الثامن عشر . فكان من ثمارها ان اتسعت آفاق تاريخ الادب

الفنون الادبية، وراح الادب يجاري سائر الآداب العالمية في كل ميدان من ميادين القلم . وهي لا تزال تسير بالادب نحو النضوج والاكتمال .

وعلى هذه الصورة يمكننا تقسيم الادب العربي كما يلي :

١ العهد الجاهلي (٤٧٥ - ٦٢٢) من اواخر القرن الخامس الى ظهور الاسلام .

٢ العهد الراشدي والاموي (٦٢٢ - ٧٥٠ م / ١ - ١٣٢ هـ) . والعهدان يشملان النهضة الاولى .

٣ العهد العباسي (٧٥٠ - ١٢٥٨ م / ١٣٢ - ٦٥٦ هـ) الذي يشمل عهد بني العباس في الشرق وعهد بني أمية في الغرب (الاندلس) ؛ ويشمل في عهد بني العباس دولتهم في بغداد، وحكم الدول المستقلة في العراق وفارس وخراسان ومصر والشام... وينتهي بسقوط بغداد في ايدي التتار . وهذا العهد هو عهد النهضة الثانية.

٤ العهد التركي (١٢٥٨ - ١٧٩٨ م / ٦٥٦ - ١٢١٣ هـ) وهو ما يُدعى « عهد الانحطاط » ويشمل حكم المغول والمماليك والعثمانيين وينتهي بقدوم الحملة الفرنسية الى مصر .

٥ عهد النهضة الذي يمتد خصوصاً من اواخر القرن الثامن عشر الى اليوم .

ومن الكتاب العرب من يجعل الشعراء، بالنظر الى أزمانهم، ثلاث طبقات :

١ - شعراء الجاهلية، وهم الذين عاشوا في الجاهلية .

٢ - الشعراء المخضرمون، وهم الذين ادركوا الجاهلية والاسلام .

٣ - الشعراء المولّدون، وهم سائر الشعراء . ومنهم من يزيد طبقة رابعة وهي طائفة المحدثين، فيحصر المولّدون في فئة قليلة من أبناء اوائل الاسلام كالفرزدق وجريّر والاختل، ويجعل جميع من أتى بعدهم في عداد المحدثين .
ولّا اننا سنتبع الترتيب الاول لانه ادقّ تقسيماً واكثر شمولاً .

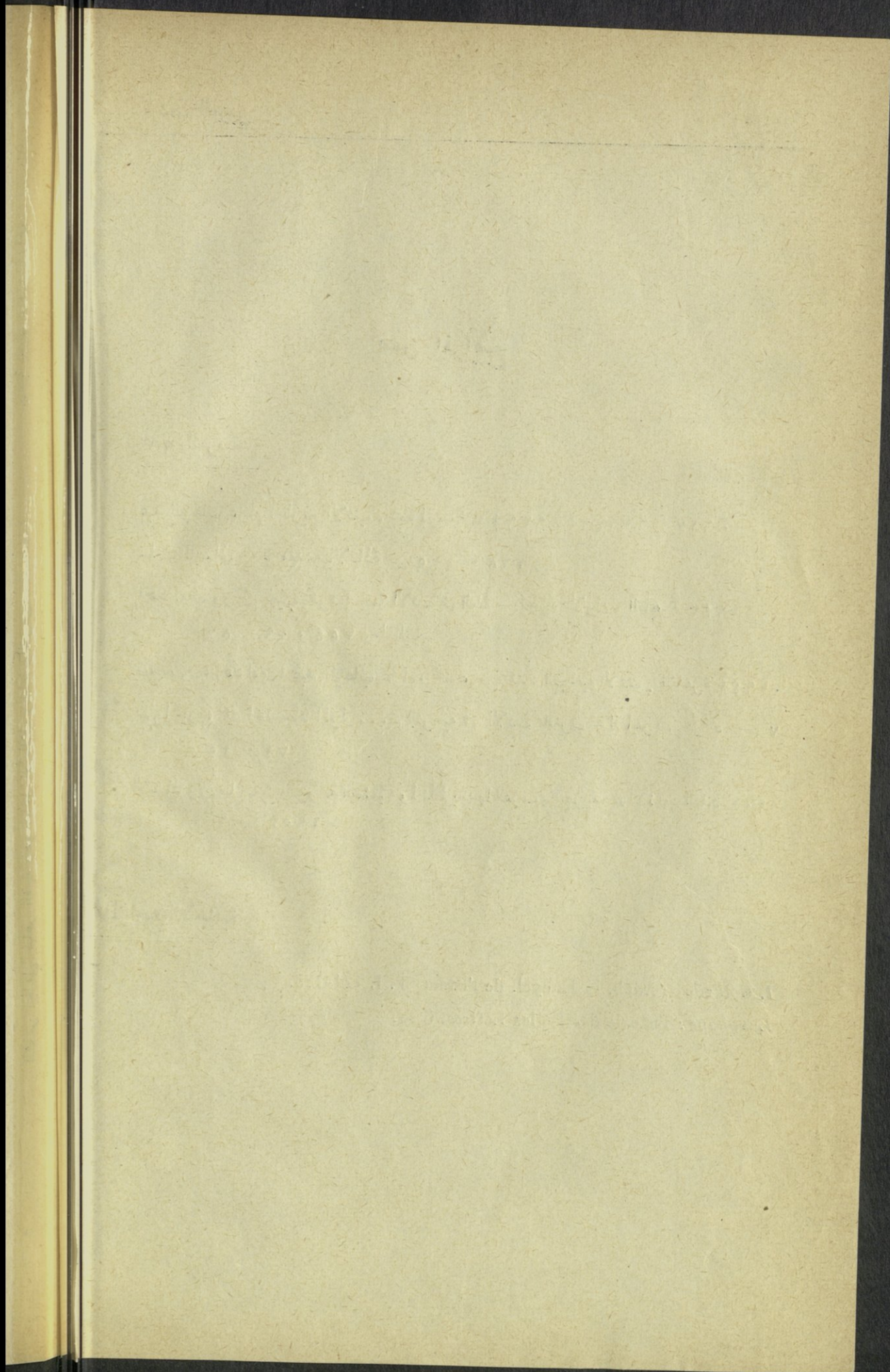
بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- عبد الوهاب عزام : تاريخ الادب . مجلة الرسالة ٧ (١٩٣٩) ص ٦١٦ - ٦١٧ .
 سليمان البستاني : مقدمة الاياد ص ١١٥ - ١٦٨ .
 احمد امين وزكي نجيب محمود : قصة الادب في العالم - الجزء الاول . القاهرة ١٩٤٣
 ص ٨ - ١٩ و ٣٥٤ وما يليها .
 طه حسين ، احمد امين ، عبد الوهاب عزام ، محمد عوض محمد : التوجيه الاذني . القاهرة ١٩٤١ .
 علي الجارم ، محمد احمد جاد المولى . . . : التوجيه في الادب العربي - القاهرة . ص ٥ - ٧
 و ٣١ - ١٥٠
 . الاستاذ زكي طليمات : الرواية التمثيلية ولماذا لم يعالجها العرب . جريدة « الأنباء » العدد ١٠٤ ،
 ١٠٥ سنة ١٩٥٣ .

٢ المراجع الاجنبية :

- I. Goldziher : Adab, in Encycl. de l'Islam. T. I, 124-125.
 Longhaye : Théorie des Belles Lettres, 6 sq.



العهد الجاهلي

— الجاهلية والأدب الجاهلي

— الشعر الجاهلي

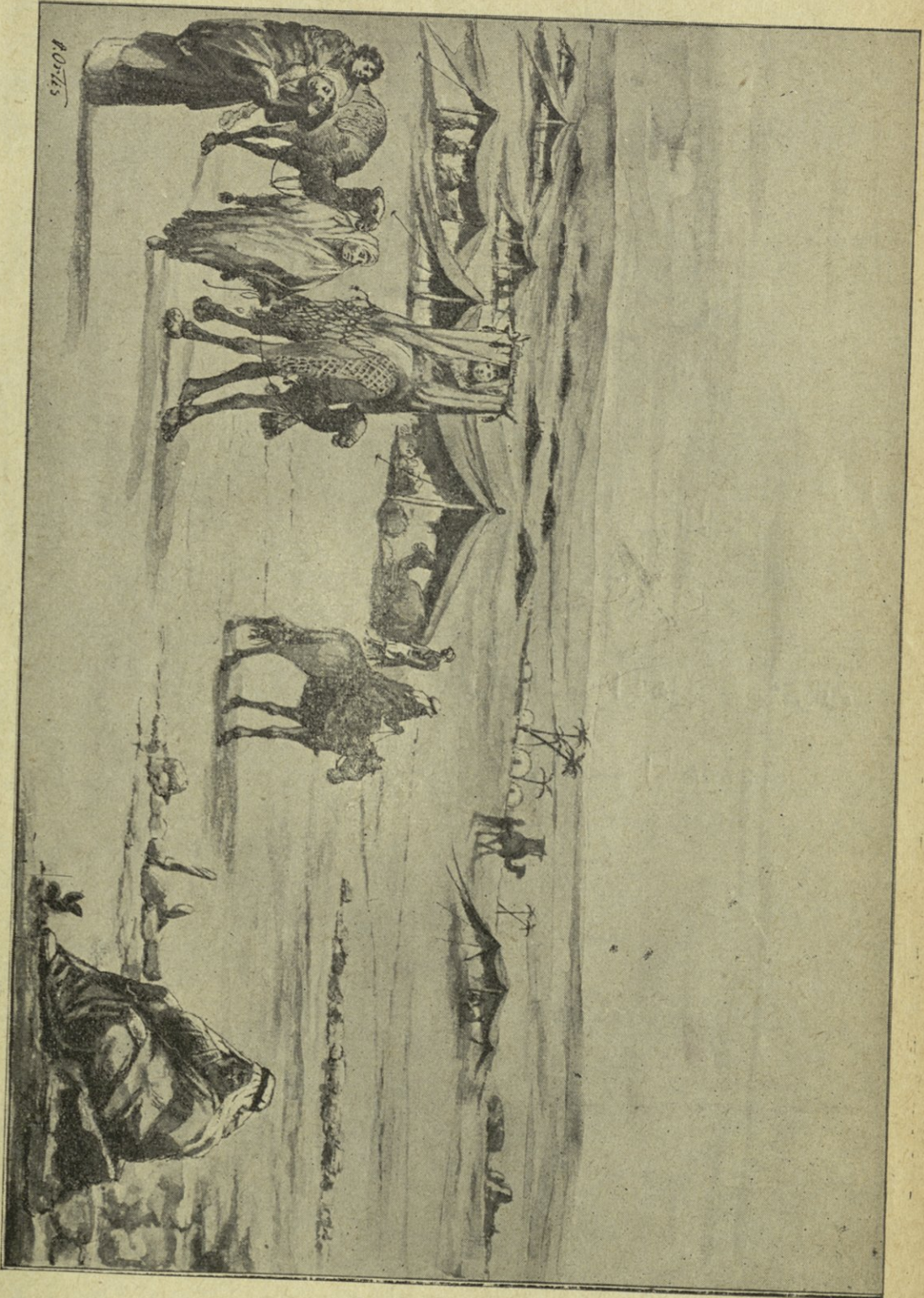
— بزوغ الشعر الجاهلي واستقراره

— ازدهار النهضة الجاهلية :

— المعلقات

— سائر الشعر

— النثر الجاهلي



٨٥٧٤٣

بريشة الفنان ار تورو اور نس

الشاعر الجاهلي "شاعر القبيلة وهو شاعر الاطلال والناقة والفرس

الباب الاول

الجاهلية والأدب الجاهلي

١ الجاهلية : أطلق اسم « الجاهلية » على احوال العرب قبل الاسلام لتفشي الوثنية والعداوات فيها .

٢ الادب الجاهلي : لم يصل الينا من الادب الجاهلي الا ما كان من اواخر القرن الخامس للميلاد .

- ضاع اكثر الشعر والنثر الجاهليين الا ان ما وصل الينا من الشعر يدل على استقامة في الوزن واللغة والبيان . وقد وصل الينا من النثر بعض الامثال والقصص والخطب .

- وصل الينا الادب الجاهلي على السنة الرواة كحماد والاصمعي وغيرهما، كما ان العلماء اهتموا لتدوين ذلك الادب منذ القرن الثامن في مجموعات كديوان الحماسة لأبي تمام وكتاب الاغاني للأصفهاني وغيرهما .

- لم يسلم الادب الجاهلي من التحريف والنحل ، الا ان ذلك لا يسوغ للناقد ان ينكر صحة جميع الشعر الجاهلي، ولا ان ينكر وجود بعض شعراء الجاهلية، كما فعل طه حسين .

- للبيئة أثر كبير في الادب الجاهلي ، فقد جعلت افكاره جلية واضحة، وصورة واقعية، واسلوبه موجزاً وبديهاً يخلو من المنطق الدقيق، ونغمته موحدة كثيرة التكرار، ولفظه دقيقاً اذا دل على ضرورات حياة البادية .

قبل الشروع في دراسة الادب الجاهلي لا بُدَّ من كلمة في تعريف الجاهلية، وتعريف أدبها عموماً، وما وصل الينا منه، وكيف كان وصوله الينا، ثم في صحة ذلك الادب، وتأثير البيئة فيه .

١ الجاهلية : ذهب العلماء والمؤرخون مذاهب مختلفة ، في سبب إطلاق القرآن اسم «الجاهلية» على أحوال العرب قبل الاسلام ، فقد قيل انها سُميت كذلك لتفشي الجهل في العرب وتفشي الوثنية ؛ وقيل بل لتفشي العداوات وسفك الدماء . ومهما يكن من شأن العرب في تلك الايام فالذي يهتمنا هو الادب في عوامله ومظاهره .

٢ الادب الجاهلي : قلنا انصرف العرب في الجاهلية الى إتقان الفنون والخوض في ميادينها ؛ فقد وجهوا همهم بنوع خاص الى فن القول للتعبير عن أحاسيسهم ؛ وهذا الفن هو من أقوى الطرق إغواء وإقناعاً ومن أعظمها خطراً . إلا أن هذا الادب قد غابت أوائله في مجاهل التاريخ فلم نعرف منه إلا ما كان من اواخر القرن الخامس للميلاد والنصف الاول من القرن السادس ، أي ما سبق ظهور الاسلام بنحو قرن ونصف .

١ - ما وصل الينا منه : ضاع اكثر الشعر والنثر الجاهليين حتى قال أبو عمرو بن العلاء (٧٧٠) : « ما انتهى اليكم مما قالته العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرأ لجاؤكم علم وشعر كثير » . والسبب في ذلك ان قسماً من ذلك لم يحفظ ، وقسماً آخر زال مع الرواة الكثر الذين ماتوا في حروب الفتوح .

وأقدم شعر وصل الينا كان ما قيل في حرب البسوس أو قبل ذلك قليلاً ، وكان قصائد كاملة تدل على محاولات كثيرة سبقتها وهيأت طريقها حتى وصلت الى ما وصلت اليه من استقامة الوزن واللغة والبيان ؛ وأما النثر فقد وصل الينا منه بعض الامثال والخطب والقصص وما الى ذلك .

٢ - كيف وصل الينا : وصل الينا الادب الجاهلي على السنة الرواة وهم أناس كان همهم ان يصنعوا لأقوال الادباء وان يحفظوا منشورهم وشعرهم . وقد اشتهر جماعة من قريش برواية الاشعار ومعرفة الانساب كخزيمة بن نوفل ، وحويطب ابن عبد العزى وغيرهما . وما إن جاء الاسلام حتى اهتم طائفة من رجال العلم

برواية الشعر أيضاً كحماد الرواية (٧٧١ م / ١٥٥ هـ) وخلف الأحمر (٧٩٦ م / ١٨٠ هـ) وإبي عمرو إسحق بن مرار الشيباني (٨٢١ م / ٢٠٦ هـ) والأصمعيّ عبد الملك بن قريب (٨٢٨ م / ٢١٣ هـ) وإبي سعيد الحسن السكّريّ (٨٨٨ م / ٢٧٥ هـ) وإبي بكر محمد بن القاسم الانباري (٩٣٩ م / ٣٢٨ هـ).

وقد اهتم العلماء، ولاسيما علماء اللغة، بجمع الشعر القديم لانه اقدم وثيقة للغة العربية، وأتم مصدر لفهم غريبها، واوفى موسوعة لاحوال العرب الاقدمين وأخبارهم، ولغته لغة قوم لم تفسد ألسنتهم؛ وأخذ اولئك العلماء، منذ اوائل القرن الثاني للهجرة، يدوتون الادب القديم ويعلقون عليه ويوردون منه في كتبهم؛ ومن أشهر المجموعات التي حفظت ذلك الادب ولاسيما الشعر منه :

- ١ - المعلقات السبع، وهي من جمع حماد الراوية على الاغلب؛
- ٢ - المفضليات، جمعها المفضل الضبي وتحتوي نحواً من ١٢٨ قصيدة؛
- ٣ - ديوان الحماسة لابي تمام، وديوان الحماسة للبحتري؛ وفيهما مقطوعات كثيرة من الشعر الجاهلي؛
- ٤ - كتاب الاغاني، لابي الفرج الاصفهاني؛ وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة، وفيهما شعر كثير للجاهليين؛
- ٥ - مختارات ابن السجري؛ وجمهرة اشعار العرب لابي زيد القرشي^١...
- ٣ - صحته : ومما لا شك فيه أن انتقال الادب القديم على الالسنه قد أضرَّ بصحّته وأدخل عليه من التبديل والزيادة ما لا سبيل الى إنكاره، وزاد الرواة على ذلك ان عبثوا بذلك الادب؛ إلا أنهم سعوا أحياناً في اقتناص الروايات من اصدق

(١) ومن تلك المجموعات الشعرية مجموعة «العقد الثمين في دواوين الشعراء الجاهليين» وهي تضم شعر امرئ القيس، والنابعة، وزهير، وطرفة، وعلقمة، وعنترة، رواها ابو الحجاج يوسف ابن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم الشنتمريّ النحوي اللغوي (١٠١٩ - ١٠٧٧ م / ٤١٠ - ٤٧٠ هـ) وله عليها شرح كامل. ونشر هذه المجموعة وليم ابن الورد W. Ahlwardt المستشرق الالماني سنة ١٨٧٠ م بلندن.

مصادرها فيتموا البادية واستمعوا الى اهلها واطعموهم بالمال لينقلوا اليهم ما تناقلوه في البادية من ادب الاقدمين ، وما إن لمس اولئك البدو المال حتى تقاطروا على المدن يعرضون بضاعتهم لمن يريدھا، وينقلون الصحيح وغير الصحيح للتجار والكسب فازداد البلبال وتضخمت الحال . زد على ذلك أن الخصومات والمنازعات بين القبائل، وبين العرب والشعوبية، في القرون الاولى للاسلام، هاجت القرائح فراحت كل قبيلة تجمع مفاخرها، وراحت كل فئة تُنطق أسنة شعرائها الاقدمين ، وراح الفرس يُنطقون عرب الجاهلية بمفاخرهم ، والعرب والمسلمون ينطقونهم بما يخالف ذلك، فدُسَّ في الادب القديم شعر كثير ونثر كثير ، وجاء في اكثره مضطرباً يشهد على أصله .

وقد اهاب ذلك ببعض المستشرقين كالدكتور مرغليوث وبعض النقاد العرب ولاسيا الدكتور طه حسين، لتمحيص الروايات والتوصل الى الحقيقة بالشك والبحث، بل تمادى البعض، ولاسيا الدكتور طه حسين، في حكمهم، حتى جعلوا للشك ميداناً واسعاً، واعتمدوه اعتماداً تجاوزوا فيه الحدود التي يصبح الشك من بعدها طريقاً الى الخطأ؛ فانكروا وجود بعض الشعراء الجاهليين بعد ان أنكروا صحة شعرهم ؛ وكانت حجبتهم في ذلك ملخصة في ما يلي :

١) الشعر المنسوب الى الجاهلية وصلنا بلغة عدنان وبلهجة قريش، ولغة عدنان كانت تختلف في اشياء كثيرة عن لغة حمير . والشعراء كلُّهم تقريباً كانوا من غير قريش وكثيرون من اليمن .

٢) المنافسات السياسية والمنازعات الحزبية في صدر الاسلام، حملتها الكثيرين من شعراء الاسلام على انتحال الشعر ونسبته الى أجدادهم في الجاهلية ليفاخروا بآبائهم وسيادتهم .

٣) المبادئ الدينية دفعت شعراء الاسلام على إسقاط ما 'يخالف' تعاليم القرآن ودسّ الوعود بالبعثة النبوية اثباتاً لصدق رسالته .

٤) القصاصون اختلقوا الشعر ونسبوه الى ابطال رواياتهم .

٥ المنافسات بين العلماء والرواة في حفظ الاشعار وتخريج ما أشكل من القواعد دعتهم الى وضع الشعر ونحله الاقدمين للاستشهاد به، وإقامة الحجّة عليه .

٦ الأساطير المختلفة والروايات المتناقضة المحيطة بحياة بعض شعراء الجاهلية مثل امرئ القيس وغيره تدعو الى الشك في وجودهم .

* * *

تفنيد هذه الحجج : لا تخلو تلك الحجج من بعض الصحة ، ولكن فيها غلوّاً كثيراً وتعميماً لا يقوم على براهين قويّة ؛ فقد يمكن تطبيقها على بعض الشعر الجاهلي لا على قصائد برمتها او على شعر شاعر باجمعه :

١ ان اللغة التي كُتب فيها الادب الجاهلي هي اللغة المثلثة الموحدة التي غلبت عليها لهجة قريش ، والتي كانت شائعة اذ ذاك في جميع القبائل ، وكانت تقيم بنوع خاص في وسط الجزيرة وشمالها ، وقد سبق الكلام عليها . ومن ثمّ فلا داعي للشك في صحة الادب الجاهلي اذا رأينا شعراء ينتسبون الى قبائل يمنية كامرئ القيس ينظمون الشعر في تلك اللغة .

٢ لم يكن الشعر الجاهلي كلّهُ للفخر والتباهي ، بل كان قسم كبير منه في اغراض أخرى ؛ وقد هجا بعض الشعراء قومهم كما فعل الشنفرى وطرفة وغيرهما .

٣ أمّا الدين وتأثيره فذلك أمر ضئيل ، والشعر العائد الى البعثة النبوية لا يتعدى بعض الابيات المتفرقة هنا وهناك ممّا لا يقوم عليه برهان .

٤ وقد تنبّه ادباء العرب الاقدمون الى ما انتحله الرواة فأشاروا اليه واهتموا لإصلاحه اشدّ اهتمام .

٥ زد على ذلك كله ان اختلاف الرواة في ما يتعلّق برجل مشهور لا يمكن ان يدلّ على عدم وجود الرجل بل بالاحرى على وجوده .

٤ - نزعة الادب الجاهلي - تأثير البيئة : كان البدوي غائصاً في بيئته

الصحراوية، وهي تملأ قلبه ونفسه وجميع كيانه، وتوجه تفكيره وعاطفته وخياله، كما توجه ثمره تلك القوى اعني بها الادب . فقد كانت طبيعة بلاده رهيبة جميلة تتجلى له دون حجاب، فيراها سافرة بكل ما فيها من قوة وحرارة، ويعيش ابدًا معها، حتى ألقت عقله الباطن نوعاً ما، وجعلت افكاره ظاهرة جليلة، ووجهة نفسه وجهة يقين لا وجهة شك، ولهذا صفت الفكرة في ادبه، واوجز اللفظ، ولهذا ابتعد خياله عن الانفلات الفسيح، فكان عقله واقعياً، يتحدث عن الطبيعة كما هي بصدق وإخلاص، ويصورها تصويراً يهتم لدقته اهتماماً شديداً؛ كل ذلك بمنطق بسيط وخيال قريب وفلسفة سطحية . ولا عجب فكل ما أمامه واضح لا يحتاج الى تأمل، كما لا يحتاج الى النظر الطويل والشك والحدس .

وقد اورث البدوي مواجهة الطبيعة في كل آن - وهي سريعة التبدل والتلون ولا يؤمن جانبها - حضور البديهة والذكاء اللماح، كما اورثته الإحساس الدقيق والشعور المرفف . ولهذا كان أدبه ادب البديهة، أدباً بعيداً عن التطويل، بعيداً عن التركيب العلمي، والترتيب المنطقي .

والصحراء ذات النعمة الواحدة المتكررة، والموسيقى العابسة القاسية بعثت في نفس البدوي شيئاً من الانقباض والكآبة والوجد؛ فكانت نتيجة ذلك ان توحّدت نعمة الادب أيضاً، فكانت تتكرر على وتيرة واحدة، وقلّ فيها الابتكار، وسرى فيها بعض الانقباض والجحود .

وهكذا كان الادب الجاهلي صورة لبيئته، وثمره من اثار تلك البيئة . فاللغة نفسها نجد الفاظها في منتهى السعة والدقة اذا كان مدلولها من ضروريات الحياة في المعيشة البدوية (الإبل، الكلاء، المرعى . . .)، وهي قليلة غير دقيقة في ما ليس كذلك . والادب يتسع اتساعاً شديداً لما يتعلق بحياة البادية، كما ان صورته وتشابيهه منتزعة من نوع تلك الحياة وصورة صادقة لها .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- سليمان البستاني : مقدمة الاياذة ص ١١٦ - ١٣٠
- احمد امين : فجر الاسلام - القاهرة ١٩٤٥ ص ٣٩ - ٦٨
- احمد امين وزكي نجيب محمود : قصة الادب في العالم - الجزء الاول - القاهرة ١٩٤٣ ص ٣٤٥ - ٣٧٠
- مارون عبود : الرؤوس - بيروت ١٩٤٦ ص ٨ - ٣٤
- فؤاد البستاني : الشعر الجاهلي - الروائع ٢ - بيروت ١٩٣٨
- حول الادب الجاهلي - المشرق ٢٧ (١٩٢٩) ص ٤٣٤ - ٤٤٣
- عمر الدسوقي : النابغة الذبياني (المقدمات) - القاهرة ص ٤٥ - ٥٦
- سيد نوفل : شعر الطبيعة في الادب العربي - القاهرة ١٩٤٥ ص ١٦ - ٢٦
- شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي - القاهرة ١٩٤٥ ص ٣ - ١٣
- طه حسين : في الادب الجاهلي - الطبعة الثالثة - القاهرة ١٩٣٣
- محمد فريد وجدي : نقد كتاب الشعر الجاهلي - القاهرة ١٩٢٦
- محمد مصطفى جمعه : الشهاب الراصد - القاهرة ١٩٢٦
- محمد الخضر حسين التونسي : نقض كتاب في الشعر الجاهلي - القاهرة ١٣٤٥ هـ
- محمد احمد الغمراوي : النقد التحليلي لكتاب « في الادب الجاهلي » - القاهرة ١٩٢٩

٢ المراجع الاجنبية :

T. H. Weir : Djahiliya, in Encycl. de l'Islam. T. I, 1027-1028.

الباب الثاني

الشعر الجاهلي

١ **موطن الشعر الجاهلي** : البادية، من نجد والحجاز وما بينهما، هي الموطن الذي نشأ فيه الشعر الجاهلي وترعرع، والبادية هي المدرسة التي تنشأ فيها الشعراء المشاهير، لأنها مهبط الوحي الشعري، والشعر فيها تنفّس النفس وسجل الأخبار والمآتي القبليّة.

٢ **منزلة الشاعر في الجاهليّة** : كان الشاعر في الجاهليّة نبيّ القبيلة وزعيمها في السلم وبطلها في الحرب. وكانت القبائل تقيم الاعياد اذا نبغ فيها شاعر.

٣ **اغراض الشعر الجاهلي** : كانت اهم اغراض الشعر الجاهلي الوصف والمدح والثناء والهجاء والفخر والغزل والخمر والزهد والحكمة. وكانت هذه الاغراض وليدة حياة الشاعر والاحوال الاجتماعية التي كانت تحيط به.

٤ **قيمة الشعر الجاهلي** : للشعر الجاهلي قيمة فنيّة وأخرى تاريخيّة :

— **القيمة الفنيّة** : هو شعر الفطرة والبداية : فالمعاني سهلة غير مرتبّة على سنن المنطق ؛ وليس في القصيدة وحدة تأليفيّة ولا ارتباط بين الاجزاء ؛ والخيال قريب التصوير يعتمد على التشبيه والاستعارة ؛ والعاطفة صادقة ولكنها سطحية ؛ والاسلوب خطائيّ. ولا يخلو الشعر الجاهلي من بعض الغموض بسبب غرابة الالفاظ والتلميحات التاريخية والايجاز.

— **القيمة التاريخية** : « الشعر ديوان العرب » وسجل أخبارهم في شتى نواحي الحياة .

٥ **المعلقات** : هي قصائد طوال من أجود الشعر الجاهلي وقد اختُلف في عددها، والاشهر انها سبعة .

١ **موطن الشعر الجاهلي** : لقد نشأ الشعر الجاهلي وترعرع في البوادي من نجد والحجاز وما بينهما من شمالي الجزيرة العربية ، وكانت

البادية المدرسة التي يتنشأ فيها الشعراء النابهون، ممن كانوا من اصل عينيّ رحل الى الشمال كأمريّ القيس الكندي وحاتم الطائيّ، او ممن كانوا من اصل عدنانيّ غما تغمره آفاقها كالمهلّول وطرفة والأعشى من ربيعة، وكالنابعة وزهير وليبد من مضر. ولا عجب فالبادية أبداً مهبط الوحي الشعريّ، ترهف الحسّ وتذكّي الفؤاد؛ وللشعر فيها مقامٌ رفيع وأثرٌ بليغ فهو الترجمان عن أحاسيس النفس، وهو لسان القبيلة وسجل أخبارها ومآتيها؛ فيما ان الحاضرة، من مثل مملكة الحيرة ومملكة غسان، صادقة عنه الى السياسة وبث النفوذ، فاتحة مجالاً واسعاً للشقافات الاجنبية والحضارات الغريبة من روميّة وفارسيّة وغيرهما؛ تهتمّ لجمع الشعراء في بلاطها ولكنها لم تكن ارضاً خصبة ينمو فيها الوحي والخيال.

٢ منزلة الشاعر في الجاهلية: كان للوحي الشعري إجلال عند جميع الشعوب القديمة وكان العرب يعتقدون ان لكل شاعر شيطاناً يوحي اليه بشعره. أما منزلة الشاعر الاجتماعية فكانت عظيمة جداً في ذلك العهد. فكان الشاعر على قول نولدكه «نبيّ قبيلته وزعيمها في السلم وبطلها في الحرب؛ تطلب الرأي عنده في البحث عن مراعٍ جديدة، وبكلمته وحدها تُضرب الخيام وتُحلّ، كما كان يحدو الرحالة العطشى في التثقيب عن الماء...» وكان الشاعر اذ ذاك فوق الخطيب وأثره ابلغ لان الشعر اعلق بالحوافظ وأسير على الالسنه؛ لا بل كان الشاعر احياناً اعظم سلطاناً من رئيس القبيلة نفسها، يهتدى بنبراس وحيه، ويُفزع الى رأيه في مشاكل الاقضية ومعضلات الامور، فكلمته فوق كل كلمة، وقوله امضى من السنان، وحكمه نافذ كحكم الشرع في القضاء، وربما رفع الشاعر بالبيت الواحد عزّ القبيلة او هدمه.

وكانت كل قبيلة تحوص على ان يكون لها شاعر مع القائد والخطيب، وقبلها؛ وكانت، اذا نبغ فيها شاعر، تقيم الاعياد وتبسط الولائم، وتتوافد اليها القبائل تهنئها بمن سيقودها باقواله، وينضح عن شرفها، ويخلّد مآثرها؛ بمن سيكون «صحافيّها» الذي يبث الافكار، ويُعدّ الصلح، ويدعو الى الحرب، ويخطّ من

شأن الخصوم ناشراً مثالبهم، ويبسط مفاخر قومه، ويعطي على مخازيهم، ويشجع أحلافهم الى غير ذلك مما يجعل للشاعر شأنًا فريداً ونفوذاً كبيراً، اراد ان يستغلّه الملوك والسلاطين بجمع الشعراء في بلاطهم واستمالتهم اليهم .

وكان لكل شاعر راوية يلزمه ملازمة التلميذ لمعلمه، ينهج طريقه وينشر شعره . وقد قضى كبار الشعراء عهد تثقفهم بملازمة الشعراء وهكذا كان امرؤ القيس راوية أبي دؤاد الايادي، وزهير راوية اوس بن حجر، والاعشى راوية المسيب ابن علس .

٣ اغراض الشعر الجاهلي: كانت أغراض الشعر الجاهلي وليدة حياة الشاعر والاحوال الطبيعية والاجتماعية التي كانت تحيط به . ومن ثمّ فقد كان أشهرها الوصف والمدح والثناء والهجاء والفخر والغزل والخمر والزهد والحكمة .

١ - أبصر الشاعر البدوي ما حواله وامتزج به امتزاجاً قوياً فوصفه وشمل بوصفه البلاد سماءها وأرضها، وما في تلك الارض من حيوان ونبات وجماد؛ وما هنالك من مظاهر البيئة كالأطلال والحلّ والترحال، والحروب ومجالس الانس واللهو؛ وما تحمله الطبيعة من أمطار وصحو ورياح الى غير ذلك من مشاهد البادية؛ ولم يكن الوصف عادةً غاية في ذاته بل كان الشاعر يلجأ اليه كبرهان يدعم به حججه او وسيلة ينال بها رغائبه او سبيلاً يسلكه الى تحريك الشعور وإثارة العواطف . ومن أشهر الوصّافين في الجاهلية امرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى، والنابغة الذبياني، وعنترة العبسي .

٢ - واهتزّ الشاعر البدوي لما آتي سادات قبيلته وفرسانها - وهو لسان القبيلة - فأطلق لسانه بالثناء عليهم، كما أطلق لسانه بالثناء على الغرباء الذين ليسوا من القبيلة، وذلك لاجل معروف أسدوه أو إحسان أتوا به . وكان المدح من الابواب المستقلة، وموضوعه فضائل الجاهلية ومفاخرها؛ وكان في قسم كبير منه بعيداً عن التكسب

والتزئف يرمي الى إظهار الحب والشكر والإعجاب . ومن أشهر المداحين في الجاهلية زهير بن أبي سلمى، والنابعة الذبياني، والأعشى .

٣ - والمدح الهيت يُسمى رثاءً ؛ فقد رثى الشاعر أبطال قبيلته المقتولين وندبهم ودعا الى الاخذ بثأرهم ؛ وتحركت عاطفته أمام ميت عزيز من أهله وأصدقائه فبكاه ايضاً وعبر عن لوعته بالشعر ؛ او دعاه الواجب فرثى سيد قبيلة نعيم بجوارها واقام مدّة تحت ظلّها ؛ وكانت مادّة الرثاء كمدّة المدح مؤلّفة من الخصال والفعال المحبوبة لذلك الزمان . وكان الرثاء ايضاً من الابواب الرئيسية المستقلّة . ومن أشهر اصحاب الرثاء المهلهل والحنساء .

٤ - وكان الشاعر البدوي ولسانه من أسلحة القبيلة تدفع بهما الغارات اللسانية ؛ والهجاء من الابواب الرئيسية المستقلّة في الشعر الجاهلي ، ومن الابواب التي كثر طارقوها لكثرة الغارات وانتشار الغزو والعداوات . وكان في أكثره قبلياً ولاذعاً ينشر مخازي الاعداء ويردّ عليهم ؛ كما كان يتحوّل أحياناً الى ما سَمَوْه « منافوة » ، وهي تقوم بأن يدافع الشاعر المحكّم عن أحد سيّدَيْن متخالفَيْن في شأن من الشؤون ولاسيا السيادة، فينفّر على خصمه ومُنازعه ويفضّله عليه مبتناً فضائله . ومن أشهر الهجّائين الخطيئة .

٥ - وكان البدوي معتدّاً بنفسه ففخرو بمناقبه ومناقب قومه . فكان موضوع فخره مكارم الاخلاق وشرف النسب وبيض الفعال . ومن أشهر شعراء الفخر عنتره والسموأل والحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم والأعشى .

٦ - وأحبّ الشاعر العربي فغزل . وقد امتلأت حياته بذكر المرأة لكثرة فراغه واتصال حياته بحياتها في الحلّ والترحال، ولشدّة صونها مع ذلك، والغيرة منها وعليها ؛ فكان يتحدث اليها اذا حلّ معها، ويتلوّع لفراقها اذا ابتعدت عنه، وكل شيء يذكره بها فيقول شعره واصفاً لها، او متشوّقاً اليها . والغزل الجاهلي نوعان منه البدوي العفيف المقصور على امرأة واحدة والمملوء لوعة وكآبة ؛ ومنه الحضري الذي قاله اصحاب الحاضرة او من جرى مجراهم من ذوي الحياة المترفة، وهو غزل يميل

الى الإخفاش في القول، يتجَلَّله الحوار بين الشاعر ومحبوبته، وسرد اخبار المجنون .
وقد أتى الشعراء بالغزل لاستفتاح القصائد احياناً كثيرة . ومن أشهر أصحاب الغزل
البدوي عنتره، ومن أشهر اصحاب الغزل الحضري امرؤ القيس .

٧ - وكانت الحمور تأتي العرب من سورية وفلسطين وغيرها من البلاد المجاورة،
فتصل الى البادية غالية الثمن، فلا يُقدِّم على شربها إلا من كان ذا مالٍ وبَدَلٍ
وكرم . وقد شربها بعض الشعراء ووصفوها بمقتخرين . وكان من شعرائها المشهورين
الأعشى وطرفة .

٨ - ونظر الشاعر البدوي الى الدنيا ولمس زوالها، كما امتدَّ نظره الى
الاخلاق والاجتماع، فكانت نظرته احياناً نظرة زهد، وكانت احياناً مصدراً
للحكمة، يقولها الشاعر في أبيات او مقاطع متفرقة متفككة، تصدر عن اختبار
بعيد عن التأمل الطويل والتحليل العميق . وقد اشتهر بهذا النوع من الشعر زهير
ابن أبي سلمى، وعدي بن زيد، وأمية بن ابي الصلت .

٤ - قيمة الشعر الجاهلي :

١ - القيمة الفنية : الشعر الجاهلي ، في مجمله، شعر الفطرة والبداهة اللتين
لا تخوان من بعض الصناعة، وهذه الفطرة تظهر في المعاني والأخيلة والعاطفة كما
تظهر في المبني والالفاظ .

١ - المعاني : أما المعاني فالشاعر الجاهلي يعرض منها للسهولة اليسيرة التي تألفها
بيئته، ولا يجهد نفسه في التماس المعاني العميقة . فهو سطحيٌّ في حياته وسطحيٌّ في
تفكيره، وهذه السطحية كانت من أقوى أسباب الجمود في شعره . ثم انه رجل
فورة وتحمس، وقد أبعد ذلك عن الاحلام في شعره، فجاء ذلك الشعر قليل الایحاء
والابتكار . ثم انَّ الجاهليَّ صادق في معانيه يقترب ما استطاع من الحقيقة والواقع؛
كما انه أسير الخاطر لا يحاول التأليف بل يُرسل كلامه إرسالاً .

ومن ثمَّ فالشعر الجاهلي يكاد يخلو من كل منطق وترتيب عقلي . فليست



للقصيدة وحدة تأليفية، وان كان هنالك وحدة فكرية تربط بين أجزائها في عقل الشاعر، وقد قال العالم جب I. H. R. Gibb في هذا الموضوع : « الخلق الفني لدى البدو سلسلة من نواث منفصلة، كلٌ منها تامٌ ومستقلٌ بنفسه، لا يربط بينها غاية او انسجام او إتقان، اللهم إلا وحدة العقل الذي أبدعها ». ولكن هذه الفترات الشعرية المتقطعة، وهذه النظرات الجزئية، تجعل الشعراء ينفذون الى صميم الشيء ويحيطون بكل دقائقه . فطبيعة البدوي لا تألف البناء، وتزعه الفردية الاستقلالية هي التي جعلت من كل بيت في القصيدة وحدة مستقلة عن وحدة البيت الآخر، والتي صدفت بالشاعر عن الوحدة العامة في القصيدة، يحفز تلك النزعة الفردية ضعف في التعليل ورد المسببات الى أسبابها . وقد اهتم الشعراء بجمال المطلع مثلاً أكثر من اهتمامهم بجمال بناء القصيدة ووحدتها، وكان البيت الشعري مقياس عظمة الشاعر، ففضّل على غيره لاجل بيت أو أبيات .

ولاجل ذلك كان اسلوب القصيدة في بنائها متفككاً . فالشاعر البدوي اذا اراد ان يقول شعراً في غرض من الاغراض، سعى اليه في رفق وعلى مهل ؛ فيبدأ بالوقوف على الأطلال وإحياء الذكريات والتغني بها في أبيات تطول أو تقصر، وأكثر ما يهتم به الشاعر من ذلك ذكر صاحبه او امراته، تبعثه في نفسه رؤية أطلال الدار التي كانت تلك المرأة تسكنها - وقد يُعنى بالدار وأطلالها أكثر ممّا يُعنى بأهلها - . وبعد البكاء يتأهب الشاعر للرحيل ، واذا ناقته أمامه وهي التي تجوب الفيا في وتكون له نعم الرفيق والأنيس . فيصفها بالسرعة والقوة - مما لا بُدّ منه لقطع الفيا في الشاسعة - ويشبهها بوحوش الصحراء . وكثيراً ما يلهمه عن نفسه وصف تلك الناقة ووصف الطريق التي يقطعها عليها، ووصف ما يعرض له في طريقه . ثم يصل الشاعر الى نهاية رحلته ويصل في الوقت نفسه الى الغاية من قصيدته فيمدح او يدعو الى القتال او يعتذر . وانتقاله الى غرضه هذا فجائي في اكثر الاحيان .

٢ - الأخيلة : وأما أخيلة الشاعر الجاهلي في شعره فهي ضيقة المجال لانعزال

الشاعر وانفراده . فخياله قريب التصور، وصوره قريبة المتناول يأخذها من أبرز المحسوسات ويعتمد فيها على التشبيه الذي يبين فيه وجه الشبه، والاستعارة التي يقرب فيها المستعار من المستعار له، فالافكار في شعره تتلاحق في صفوف من التشبيهات وما إليها . وكأن التصوير أصل مهم من اصول صناعة الشاعر التي لم يخل منها الشعر الجاهلي على فطرته وبساطته . وصور الجاهلي صادقة التصور، دقيقة الأداء بارزة ثابتة مجملتها لا تنزع منزع الحركة الكثيرة والتشخيص الوفير والمبالغة الشديدة . ومن تشبيهات الجاهلي الاستطراد والتفريع، ويقوم ذلك بأن يشبه شيء بشيء آخر ثم يهمل المشبه الى حين، ويؤخذ بالمشبه به فيوصف وصفاً يطول أو يقصر على حسب ما تقتضيه الحال وما يميل اليه الشاعر .

٣ - العاطفة : وأما عاطفة الشاعر الجاهلي فهي بسيطة ايضاً، ومن ثم فلا نجد في شعره غزارة لوصف الوجدان، كما لا نجد عمقاً في التحليل النفسي، وتعليل الحركات النفسية، وطول النفس في وصف الخواج الكامنة في الصدر . وكثيراً ما تشعر وأنت تقرأ الشعر الجاهلي أن شخصية الشاعر قد اندمجت في قبيلته حتى كأنه لم يشعر لنفسه بوجود خاص ؟ وقل أن تعثر على شعر ظهرت فيه شخصية الشاعر، ووصف ما يشعر به وجدانه .

٤ - المبنى : وأما المبنى فأسلوب الشاعر الجاهلي خطابي في أكثره ؛ كأن كل قصيدة مُعدّة لتأتي على الجماعة . ثم أن تركيب العبارة متين ؛ والالفاظ لا تخلو من صلابة وخشونة أحياناً كثيرة، وهي بمجملها مادية محسوسة في مدلولها .

ولا يخلو الشعر الجاهلي من غموض يأتي من الإيجاز والاكتفاء باللميح، إذ يذكر الشاعر شيئاً من موضوعه يشير به إلى ما تبقى من غير تفصيل . ويأتي غموضه ايضاً من الفاظه التي أصبحت غريبة عندنا وبطل استعمالها، كما يأتي غموضه من تلميحاته التاريخية التي نحتاج الى معرفة التاريخ لفهمها .

٥ - الموسيقى : وأما ما يتعلق بالموسيقى الشعرية فقد نظم الشاعر الجاهلي أكثر شعره على الاوزان الطويلة التفاعيل ولم يغفل مع ذلك بعض الاحيان عن الاوزان

الليّنة الخفيفة ولا سيما في المواقف العاطفية التي تقتضي رثاءً أو فخرًا أو حماسة . ومن الخلل الذي لا تخلو منه موسيقى الشعر الجاهلي ما هنالك من استعمال بعض الجوازات الشعرية - إذا صحّ التكلّم على الجوازات الشعرية في ذلك العهد - كاستعمال مفاعيلن عوضاً عن مفاعيلن في حشو الطويل، وكاللجوء إلى الاقواء^١ في مواضع كثيرة.

٢ - القيمة التاريخية : للشعر الجاهلي قيمة تاريخية عظيمة ، فهو وثيقة من أهم وثائق تاريخ تلك الأيام ، وقد جمع من المعلومات الشيء الكثير حتى يُسمّى بحق « ديوان العرب » . فهو يطلعنا على أحوال الجزيرة الطبيعية وجغرافيتها ، فيفصل لنا أمكنتها وعوامل طبيعتها ؛ وهو يطلعنا على أحوال العرب الاجتماعية والعقلية ، باسطاً لنا أخلاقهم وعاداتهم وأنسابهم وآثارهم وأيامهم ، واصفاً ما كانوا يألّفونه في الحل والترحال ، والطعام والشراب ، واللباس والحليّ والأزياء ؛ مبيناً ما كان لهم من المناحي الدينية وعواطف العبادة ، وما كان لهم به إلمام من العلوم والمعارف والصناعات وغير ذلك مما سيّضح في دراسة الشعراء ، ومما تنطق به آثارهم .

٥ المعلقات : المعلقات هي قصائد طوال من أجود ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي ، وقد زعم ابن عبد ربّه (٩٣٩م / ٣٢٨هـ) وابن رشيق (١٠٦٤م / ٤٥٦هـ) وابن خلدون (١٤٠٥م / ٨٠٨هـ) أنها سبع قصائد أعجب بها العرب فكتبت في القبايطي بلاء الذهب وعُلّقت على استار الكعبة . إلا أن بعض العلماء الحديثين ، وقبلهم أبو جعفر النحاس (٩٤٩م / ٣٣٨هـ) ، قد أنكروا هذا الرأي ، وذهبوا إلى أن تلك القصائد الطوال جمعها حمّاد الراوية (٧٧٢م / ١٥٦هـ) في مطلع العهد العبّاسي . وهي تُسمّى تارة المعلقات ، وتارة المُنْهَبَات ، وتارة السبع الطوال ، وتارة السُمُوط .

أمّا عددها فقد اختلف المؤرخون فيه أيضاً . فذهب الأكثرون إلى أنها سبع أصحابها امرؤ القيس ، وطرفة بن العبد ، وزهير بن أبي سلمى ، ولبيد بن ربيعة ،

(١) الاقواء هو اختلاف حركات الروي في القصيدة الواحدة .

وعمر بن كلثوم، وعنترة العبسي، والحارث بن حلزة . وذهب البعض الى انها ثلثي
فأضافوا معلّقة النابغة الذبياني . وذهب فريق ثالث الى انها عشر، وضافوا الى
السبع المذكورة معلقات النابغة والأعشى الأكبر وعبيد بن الأبرص .

٦ أقسام الشعر الجاهلي : ولجل دراسة الشعر الجاهلي يمكننا ان نقسمه على
الوجه التالي :

١ - عهد بزوغ الشعر الجاهلي واستقراره، وهو عهد حرب البسوس (٤٩٤ -
٥٣٤) . وأشهر شعراء تلك الحقبة عدي بن ربيعة المعروف بالمهلhel، وثابت
ابن أوس الأزدي المعروف بالشنفرى أحد صاعليك العرب^١ .

٢ - عهد ازدهار النهضة الجاهلية، واستحكام النزعة الشعرية العربية،
(٥٣٢ - ٦٢٢) وهو يُقسم قسمين :

١ شعر المعلقات العشر، ونتبع في دراسة أصحابها الترتيب التاريخي، ما لم
يكن هنالك سبب لمخالفة ذلك الترتيب : امرؤ القيس، طرفة بن العبد، عبيد بن
الأبرص، الحارث بن حلزة، عمرو بن كلثوم، النابغة الذبياني، زهير بن أبي سلمى،
عنترة العبسي، الأعشى الأكبر، لبيد بن ربيعة .

٢ مائر الشعر: ونقتصر في ذلك على دراسة الخنساء والحطيئة :

(١) صاعليك العرب هم طائفة من الناس اشتهروا بالعدو السريع والغارة على القبائل للنهب
والسلب . واشهرهم الشنفرى (٥١٠)، وتأبط شراً (٥٣٠)، وعروة بن الورد (٥٩٦)،
والسكك بن السككة (٦١٠)، وعمرو بن البراق، وأسيّد بن جابر .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- مارون عبود : الرؤوس - بيروت ١٩٤٦ ص ٨ - ٣٤
 احمد أمين : فجر الاسلام - القاهرة ١٩٤٥ ص ٣٩ - ٦٨
 سليمان البستاني : مقدمة الاياذة ص ١١٦ - ١٣٠
 فؤاد البستاني : الشعر الجاهلي - الروائع ٢ - بيروت ١٩٣٨
 سيد نوفل : شعر الطبيعة في الادب العربي - القاهرة ١٩٤٥ ص ١٦ - ٢٦
 شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي - القاهرة ١٩٤٥ ص ٣ - ١٣
 محمد احمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، محمد ابو الفضل ابراهيم : ايام العرب في الجاهلية
 - القاهرة ١٩٤٦
 عبد المنعم خفاجي : الحياة الادبية في العصر الجاهلي - القاهرة .

٢ المراجع الاجنبية :

R. Basset : La Poésie arabe antéislamique — Paris, 1880.

موضوعات للبحث

- ١ - نشأ الشعر الجاهلي وترعرع في البوادي من نجد والحجاز وما اليهما من شمالي الجزيرة العربية . هل البيئة من أثر في نشأة الشعر وترعرعه، وهل بيئة نجد والحجاز كانت اكثر من غيرها موافقة لانطلاق الشعر الجاهلي ؟ أوضح ذلك وأيده بالبرهان .
- ٢ - كان للشاعر في العالم القديم منزلة رفيعة تجمله من رتبة الملهمين . ما الذي حمل الاقدمين على هذا التفكير، وكيف يتجلّى لك ذلك في المجتمع العربي الجاهلي ؟
- ٣ - الشعر الجاهلي وليد الصحراء كما هو وليد الحياة الجاهلية ؛ وتلمس الصحراء والحياة الجاهلية في أغراضه ومعانيه وأخيلته كما تلمس انسانيته في مبناه . أوضح تلك الصلة واذكر الاسباب .
- ٤ - لقد قيل : « الشعر ديوان العرب » يعنون بذلك انه حوى قسماً كبيراً من تاريخهم ووصف احوالهم . ولا شك ان ذلك الشعر كان في الجاهلية اكثر اتساعاً للاخبار والاحوال . فما السبب ؟ وما الذي يُستفاد منه عن احوال القبائل والعيشة الاجتماعية ؟
- ٥ - الشعر الجاهلي شديد الاتصال بالنفس البدوية، شديد التأثير بها ؛ أوضح ميزات تلك النفس وبيّن أثرها في الشعر الجاهلي .
- ٦ - في الشعر الجاهلي نفس ملحمي . أظهر مواضعه وصلته بالنفس العربية، ثم اذكر ما الذي ينقصه ليبحاري الشعر الملحمي العالمي .

الباب الثالث

بزوغ الشعر الجاهلي واستمراره (٤٩٤ - ٥٣٤)

المهلل - الشنفرى

١ - المهمل :

١ حياته : عدي بن ربيعة التغلبي الملقب بالمهلل والزير كان يعيش في الترف والدّهو، وكان له أخ اسمه كليب كان رئيس جيش بكر وتغلب، وكان طاعياً فقتل ناقصة البسوس التي انتصر لها جساس فقتل كليباً، ونشبت الحرب بسبب ذلك بين بكر وتغلب ودامت أربعين سنة، وهي المعروفة «بحرب البسوس». وبقي المهمل يجارب مثمراً لآخيه الى ان مات مأسوراً نحو سنة ٥٣١ م.

٢ آثاره :

- ما هي : شعر متفرق في كتب الادب اكثره في رثاء كليب .
- فنه فيها : في شعر المهمل صبغة التخنث الظاهرة في الاسلوب العاطفي الكيب، واللهجة الخطائية التي لا تخلو من غلو في القول، والتكرار الذي هو صدى للزفرات الحارة؛ والظاهرة في التعبير السهل الذي يذوب مع العاطفة فيبلغ به ذلك الى الإسفاف أحياناً.
ثم صبغة الرجولة والبطولة الظاهرة في الثورة العاطفية التي لا تحسن التملص من الرقة حتى في مواقف الشدة.

٢ - الشنفرى :

١ حياته : هو ثابت بن أوس الأزدي، وهو من أشهر عدائي العرب . عاش في اللصوصية، ومات قتلاً .

٢ آثاره :

- ما هي : شعر في الفخر والحماسة، يصف فيه غاراته وشدة بأسه، أشهره «لامية العرب» .
- شخصيته فيها : يظهر الشاعر عزيز النفس وريقها، على ما كان عليه من عيش اللصوصية والخشونة .
- قيمتها : شعره صورة لما كان عليه الشعر في عهد البداوة الخالصة، كما هو صورة للنفس العزيزة، والحياة القاسية، والواقعية الجاهلية .

١ - المهلهل شاعر العاطفة الرفيعة (؟ - ٥٣١) :

١ - حياته : هو عدي بن ربيعة التغلبي وخال امرئ القيس الشاعر الملك، وقد لُقِّب بـ « المهلهل » إماماً لرقّة شعره ، وإماماً لسهولة ذلك الشعر التي تبلغ الأسفاف أحياناً . ولُقِّب كذلك « بالزير » لكثرة مجالسته النساء .

حرب البسوس : جُلُّ ما نعرفه عن حياة المهلهل متعلّق بقصة حرب البسوس التي أصبحت من أشهر أساطير العرب وإن كان لها أساس تاريخي . ومُلخّص ذلك ان الشاعر كان يقضي ايامه في اللهو وشرب الخمر، وكان له أخ اسمه وائل؛ ولقبه كليب، وُلد سنة ٤٤٠ م، وتولّى رئاسة جيش بكر وتغلب زمناً حتى دخله زهو شديد، وبغى على قومه حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمي مواقع السحاب فلا يُرعى رحاه، وإذا جلس لا يرُّ أحدٌ بين يديه إجلالاً له، ولا تُوردُ إبل أحد مع إبله الى غير ذلك من ضروب الزهو . وتزوَّج كليب جليلة بنت مرّة من شيان من بكر . وكان لمرّة عشرة بنين أصغرهم جسّاس . وكانت لجسّاس خالة اسمها البسوس بنت مُنقذ من بني تميم، جاءت ونزلت على ابن أختها جسّاس، فكانت جارة لبني مرّة، ولها ناقة خوّارة اسمها سراب، ومعها فصيل لها؛ فخرج كليب مرّة من عند امرأته غاضباً لأنّها خفرت امامه بأخويها جسّاس وهمّام، ورأى فصيل الناقة فرماه بقوسه فقتله، ثم أمر غلامه برمّي ضرع الناقة، فوأت الناقة ولها عجيح حتى بركت بفناء البسوس، فلما رأتها صاحت : « وا ذلّاه ! » فقال لها جسّاس : « أسكتي فلكِ بناقتكِ ناقةٌ أعظم منها » . فأبت أن ترضى حتى صاروا لها الى عشر فلم ترض بها، فقال لها جسّاس : « أسكتي لا تُراعي، سأقتل جملاً أعظم من هذه الناقة، سأقتل غللاً » . وكان غلّال فحلّ إبل كليب، وقد اراد به جسّاس كليلاً نفسه . ثم خرج اليه فوجده عند احد الغدران النجدية، فطعنه برمح فأت . فهبّ المهلهل يطلب ثأر أخيه فشبت الحرب بين بكر وتغلب، وقد دامت اربعين سنة، وأيامها المشهورة

سِتَّة : يوم النّهي^١ ورئيس تغلب المهلهل ورئيس شيان الحارث بن مرة ، فكانت الدائرة لتغلب على بكر؛ ويوم الذّناب^٢ لتغلب ايضاً وقد قُتل فيه شراحيل اخو جسّاس؛ ويوم واردات لتغلب ايضاً على بكر؛ ويوم عُنيزة الذي تكافأ فيه الحيّان ولم تكن الغلبة لاحد منهما؛ ويوم القُصيّيات لتغلب على بكر وقد قُتل فيه همّام اخو جسّاس، فمرّ به المهلهل مقتولاً فقال : « والله ما قُتل بعد كليب قتيلٌ أغزّ عليّ فقدأ منك »، ثم يوم تحلاق اللّمم وقد كان لبكر على تغلب .

ومأت جموع تغلب الحرب فصالحوا بَكرًا والمهلهل غائب عنهم ورجعوا الى بلادهم، ثم عاد المهلهل فأشعل نار الحرب وأرسل من قتل جسّاساً؛ ثم أسر المهلهل ومات في أسره نحو سنة ٥٣١ للميلاد . ويروى أنّ الملك المنذر والد عمرو بن هند ملك الحيرة هو الذي أصلح بين الفريقين بعد موت المهلهل .

٢ آثاره :

١ - ماهي : هي ديوان شعر لم يصل إلينا منه الا ما حفظته كتب الادب كالآغاني، وخزانة الادب، وديوان الحماسة، وقد جمعه الاب لويس شيخو في كتابه « شعراء النصرانية » وطبعه سنة ١٨٩٠ . ودخل شعر المهلهل نخل كثير ولا سيما بعد ان صار بطلاً لقصة الزير المشهورة .

ويدور اكثر شعره على رثاء اخيه كليب كما يدور على مواقع حرب البسوس وتوعد اعدائه .

٢ - فته فيها : شعر المهلهل هو دمة يُرسلها، وزفرة يُصعدها، وإرنان تمتزج فيه العاطفة الرقيقة المترفة بالإرعاد والتهديد . ففيه اذن صبغتان متميزتان : صبغة التخنث الصادرة عن حياة الترف واللّهو، وصبغة الرجولة والبطولة الصادرة عن شرف أثيل وعزّ رفيع .

(١) النّهي ماء كان بنو شيان نازلين عليه . (٢) الذّناب نفس الموضع الذي قتل فيه كليب .

١ ونحن نلمس صبغة التخشُّت، في شعر المهلهل، إذا نظرنا الى العاطفة القويّة النابضة في كل شعره، نبضاً قوياً يظهر في الأسلوب كما يظهر في التعبير والموسيقى اللفظية .

أمّا أسلوب الشاعر فهو أسلوب الطبيعة المتدفقة من غير ما قيد ولا منطق، المنبعثة من الأعماق، صادقة خالصة، الباكية بدمع سخين، الذائبة تلوّعا وتحرقاً، التي لا ترى إلا ميتها الكريم، ولا ترى له مثيلاً، ولا ترى لفقده عديلاً؛ فتخطيه ابدأ، وتناديه وتندبه في كثير من الغلو الصادر عن عاطفة حيّاشة لا تعرف حداً فتتجاوز كلّ حد؛ وتردّد أقوالها على سنن تلك العاطفة نفسها، ولا تُعسر في المعاني والسعي وراء ما دق منها :

كليبُ لا خيرَ في الدنيا ومن فيها إن أنتَ خلّيتَها في من يُخلّيها
كليبُ أيُّ فتي عزٍّ ومكرمة تحت الصّفاة التي يعلوك سافها!
نعم النّعاة كليباً لي فقلتُ لهم «سالت بنا الأرضُ أو زالت رواسيها...»

وأمّا التعبير فهو أيضاً تعبير العاطفة . هو التعبير السهل الصادر عن القلب قبل العقل، هو التعبير الذي يذوب مع العاطفة فيصل به ذلك في السهولة الى حدّ الاسفاف . والشاعر يلجأ في تعبيره أيضاً الى التكرير اللفظي البذي هو صدى لإرثانه ولوعته؛ وهذا التكرير اكسب موسيقى شعره لحناً شجياً قليل التلوّن :

دعوتك يا كليبُ فلم يُجيبني وكيف يُجيبني البلدُ القفارُ
أجيبني يا كليبُ خلاكَ دَمٌ، ضنّيناتُ النفوسِ لها مزارُ
أجيبني يا كليبُ خلاكَ دَمٌ، لقد فُجعتُ بفارسها تزارُ!..

٢ وكذلك نلمس في شعر المهلهل صبغة الرجولة والبطولة في السُّخط الذي يزدحم في أبياته، ويظهر في الأسلوب والتعبير .

أمّا الأسلوب فهو نفس الأسلوب العاطفي الثائر، ولكن هذه الثورة هي ثورة لا تستطيع التملّص من الرقة، ولا تستطيع ان تبوق بكلام منحوت من صخر،

وبسبيل من الابيات القويّة المتتابعة في تدافع وصحّب . إنّما هنالك توعد وتهديد في نسج مهلهل، مُكرّر؛ ووصف للفقيد، ومطالبة بثأره، ووصف للايقاع بالعدو .

وأما التعبير فيتدافع أحياناً زاحراً بالقوة، ولكن تلك القوة لا تدوم له طويلاً، بل تسقط وتتهي، وإذا الموسيقى الشعرية ترجع الى لينها غير موافقة لأعمال بطولة الشاعر؛ والمهلهل لا يُحسن عموماً اختيار البحور والقوافي الملائمة لمواقف السخط . فالهلهلة واللين يغلبان على شعره . ومما يُروى له في التهذؤ قوله :

ذهب الصلحُ أو تردّوا كُليّباً أو تحلّوا على الحكومة حلاً
ذهب الصلحُ أو تردّوا كُليّباً أو أذيق، الغداة، شيبان ثكلاً
ذهب الصلحُ أو تردّوا كُليّباً أو تنال العداة هوناً وذلاً . .

وهكذا نرى أن المهلهل شاعر العاطفة التي غذاها الترف واللهو، وفجّرها الألم، فنطقت في ألسنها وسخطها بلسان رقتها .

ب - الشنفرى الشاعر الصعلوك (؟ - ٥١٠) :

١ مبيّنة : هو ثابت بن أوس الأزديّ الملقّب بالشنفرى، وقد جهل المؤرخون زمن ولادته ومحلّها، وذهبوا في منشأه مذاهب منها انه نشأ في قومه فغاضوه فهجرهم .

وكان الشنفرى من أشهر عدائي العرب، يعيش في اللصوصية فيغير، وحده أو بقوم من أصحابه العدائين، منتقلاً من حيّ الى حيّ، مروعاً النساء والاطفال، باعثاً الرعب والاضطراب في الرجال؛ وإذا تتبّعته الخيل لاذ بالجبال أو اعتمى بالوادية .

ومما يُروى عنه انه حلف ليقْتُلن مئة رجل من بني سلامان، فقتل تسعة وتسعين، ثم احتالوا عليه فأمسكه رجلٌ منهم عداء هو أسيد بن جابر ثم قتله، فرّ به رجلٌ منهم، فرّفس ججمته، فدخلت شطيّةٌ منها برجله فمات فتت القتلى مئة .

٢ آثاره : للشنفرى أشعارٌ متفرقة في الفخر والحاسة ، يصف فيها غاراته وشدة بأسه، وأشهرها قصيدته المعروفة بـ «لامية العرب»، وهي تقع في ٦٨ بيتاً من البحر الطويل، وأشهر شروحها شرح الزمخشري (١٠٧٥ - ١١٤٤ م)، الذي سماه «أعجب العجب في شرح لامية العرب». وقد تُرجمت الى الفرنسية والالمانية والانكليزية .

١ - الباعث على نظمها : تحمّل الشنفرى إهانة أهابت بنفسه العريضة ان يترك أهله ويهيم على وجهه مع الوحوش، وقد نظم هذه القصيدة يعاتب قومه مفتخراً بانفراده في البراري ومصاحبته للسمك، واصفاً صبره وما شاهد في تيهه وما أتى به من اعمال العذر والبطولة .

٢ - شخصية الشاعر في هذه القصيدة : كان الشنفرى ابناً للقفار ورفيقاً للضواري، كما كان رجلاً عزيز النفس رقيقها، فضمّن قصيدته صورة كاملة لشخصيته :
- هو عزيز النفس : إذا جار عليه أهله لم يتدأّل بل يدعهم لان الارض واسعة في وجه الكريم؛ يؤثر سكنى البراري مع الوحوش لان الوحوش افضل من الاهل تحفظ السرّ ولا تحذل الجاني؛ يفضل الوحوش على الناس ولكنه يفضل نفسه على تلك الوحوش؛ وهو يفتش الارض، ويستغني عن الجميع بقلب مشيع وسيف صقيل وقوس طويلة :

ثلاثة أصحاب : فؤاد مشيع وأبيض إصليت وصفراء عيطل

وليس هو بالمتخث ولا بالعاجز، بل هو صبورٌ على الجوع يفضل استفاف التراب على ان يتفضل عليه إنسان ويتطول عليه، لان نفسه حرة لا تُقيم على الضيم :

أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكّر صفحاً فأذهل
وأستف ترّب الأرض كي لا يرى له عليّ من الطول، امرؤ متطول ١

وهو إن مُدَّتْ الأيدي إلى الزَّاد لم يكن بأعجل القوم ؛ وهو فقيرٌ حيناً وغنيٌ حيناً آخر، ينال الغنى بهِمَّتِهِ البعيدة، إلَّا أَنَّهُ لا يجزع من الفقر ولا يحاول إخفاءهُ كما لا يزدهي بالغنى ؛ وهو صبورٌ يحتمل كل شيء كالْحَيَّة ؛ وهو مترفع عن النَمِيمة .

- هو رقيق النفس : تظهر رَقَّةُ تلك النفس تحت ثوبها الحُشن، فهي أليفة المموم، تأتيها المموم « مِنْ تُخَيْتُ وَمِنْ عَلٌ »، ولكنَّ تلك النفس كبيرة تخنق الزفرة والآنين .

٣ - قيمة القصيدة : لهذه القصيدة قيمة أدبية حقيقية، فهي صورة لما كان عليه الشعر في عهد البداوة الخالصة البعيدة عن الحضارة وعن ليونة العيش، وقد ظهرت في معانيها وألفاظها عزَّة النفس العربية، وخشونة العيشة البدوية، وواقعية الجاهلية التي تُكثِّر من اعتماد الصور الحسية الدقيقة، وغرابة الإغراق في البداوة، فكانت الفاظها حوشية شديدة الإغراب .

وهكذا كان الشنفرى شاعر العاطفة البدوية، والثورة النفسية، وشاعر الطبيعة في قسوتها وشدة وعورتها .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

— المهمل —

طه حسين : في الادب الجاهلي - القاهرة ١٩٣٣ - ص ٢٢٥ - ٢٢٩
 محمد احمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، محمد ابو الفضل ابراهيم : ايام العرب - القاهرة ١٩٤٦
 ص ١٤٢ - ١٦٨

الاب لويس شيخو : شعراء النصرانية - بيروت ١٨٩٠
 فؤاد البستاني : المهمل - الروائع ٣ - بيروت ١٩٣٩
 جرجي زيدان : تاريخ ادب اللغة العربية ١ ص ١١٤ - ١١٥

— الشنفرى —

جرجي زيدان : تاريخ ادب اللغة العربية ١ ص ١٣٤
 فؤاد البستاني : الشعر الجاهلي - الروائع ٢ - بيروت ١٩٣٨

٢ المراجع الاجنبية :

— المهمل —

N. Rhodokanakis : Al-Basûs, in Encycl. de l'Islam I, 691-692.

— الشنفرى —

F. Krenkow : Al-Shanfara, in Encycl. de l'Islam, IV, 321-322.

الباب الرابع

ازدهار النهضة الجاهلية (٥٣٢ - ٦٢٢ م)

أصحاب المعلقات

الفصل الاول

أمرؤ القيس (٥٠٠ - ٥٤٠)

١ مكانه من عصره : كان القرن الخامس حافلاً بالتنافس بين السامانيين والبيزنطيين يستعين الأولون بالناذرة، والآخرون بالفساستنة. وقامت مملكة كندة بنجد تزاخم المناذرة، فتمكنت منهم حيناً ثم انهار عرشها، وحاول امرؤ القيس الشاعر عبثاً أن يسترجع الملك.

٢ حياته : وُلد في نجد نحو سنة ٥٠٠، وعاش في اللهو ونظم الشعر، فطرده أبوه. فراح يتجول في زمرة من المجان يقضون الوقت في اللهو والصيد. وقُتل أبوه فهدب لاسترجاع الملك وراح يستحث القبائل للحرب، وقصد يوسيتيانوس مستجيراً، فذهبت مساعيه ادراج الرياح. عاد من القسطنطينية فانتابه مرض كالجذري أودى بحياته نحو سنة ٥٤٠.

٣ آثاره : لامرؤ القيس ديوان شعر اشهره المعلقة : وهي مقاطع في موضوعات شتى كانت وليدة حب الشاعر لعنيزة وولعه بالصيد. وتقسم ثلاثة اقسام كبرى : الوقوف على الاطلال - وصف المغامرات الغرامية - وصف ما لقي الشاعر في تشرده.

٤ شخصيته في شعره : شعر امرؤ القيس شديد الالتصاق بذاته لانه من امتلاء قلبه. فقبل مقتل أبيه شعره قسماً : قسم لحبه وقسم للطبيعة :

- شعر الحب او الغزل : يمتاز بذكر المغامرات الغرامية والحوار، والصراحة والواقعية، والعتاب والرجاء، والذلة والعزة، في رقعة وكأبة ؛ وما ذلك كله الا صورة لحياته اللاهية.

- شعر الطبيعة : هو صورة ناطقة لحياة التشرّد. وتلك الصورة لا تخلو من النزعة الملكية.

وبعد مقتل أبيه : شعره صورة لانهار حياة اللهو، وثورة الدم الملكي، وللعزم والبأس والثبات. فهو استنهاض للهمم، ومدح وشكر، وتهديد وفخر، وأنات حزينة، واستسلام.

٥ شاعر الطبيعة : عرف الشاعر الطبيعة فوصف حيّتها وصامتّها، وأبدع في ذلك. يمتاز وصفه بحبه للطبيعة، والصدق والبساطة، والإيجاز والدقة، والخيال الواقعي.

٦ فن امرؤ القيس : يقوم فنه على منطق العاطفة، وعلى التشبيه الذي يمتاز بالاكثفاء والتلميح والابتكار.

٧ خلوه : لامرؤ القيس شهرة واسعة قائمة على العاطفة الانسانية، وزعامة الشعر.



أمرؤ القيس كما تخيَّله الفنَّان أرْ تورو أوريس

تاريخ الادب

١ - مكانه من عصره :

١ - التنافس بين الروم والفرس : أطلَّ القرن الخامس في الشرق الأدنى على دولتين عظيمتين : دولة الفرس الساسانيين وعاصمتها المدائن ، ودولة الروم البيزنطيين وعاصمتها القسطنطينية ؛ وكانتا تتنازعا في البلاد ، وتتناوآن في سبيل النفوذ السياسي ومدِّ السلطان ، وقد حاولتا التغلغل في بلاد العرب لاستمالة الأمراء وبثِّ الدعاية ولاسيما في أطراف القسم الشمالي من الجزيرة .

وكان للعرب في ذلك الحين دولتان كبيرتان : دولة الغساسنة في الشام ودولة المناذرة اللخميّين في الحيرة بالعراق . فأنحازت الأولى الى الروم ؛ وحالفت الثانية الساسانيّين ، واستولت برضاهم وتأييدهم على أقسام عدّة من جزيرة العرب ولاسيما بلاد بكر بن وائل بنجد .

٢ - مملكة كِنْدَة : وما إن انتصف القرن الخامس حتى قامت بنجد دولة عربية فتيّة على رأسها ملوك كِنْدِيّون من عرب الجنوب ، وقد تولّوا بعض مناصب الدولة على عهد التّابعة ملوك حمير ، حتى إذا اتّسعت فتوحات حسان بن تُبَع في بلاد العرب عيّن حجر بن عمرو الكنديّ ، الملقّب بآكل المُرار ، ملكاً على نجد ، ففازها وحارب اللخميّين يساعده البكريّون ، وأزال نفوذهم واستقلَّ بالسلطان دونهم .

وفي عهد الحارث حفيد حجر ، اشتدّت سطوة ملوك كِنْدَة ، واتّسع نطاق سلطانهم ؛ وذلك أن الحارث لحظ في نفس قبّاذ ملك العجم تغيراً على المنذر بن ماء السماء ، ملك الحيرة ، فسعى في التقرب منه والتودّد اليه وقصد من وراء ذلك الاستيلاء على عرش الحيرة ، فرحّب به قبّاذ كما رحّب بقضده ؛ فعزل المنذر وقتلّه الحارث الكنديّ سلطان بني لخم . فعظم شأن الحارث جداً وتوافدت اليه القبائل تحطب ودّه وتجعل أمر قيادتها بين يديه ، فولى ابنه حجراً (أبا امرئ القيس الشاعر) على بني أسد وغطفان ، وابنه سُرحِيل على بكر بن وائل ، وابنه معدي كُرب على قيس وكنانة ، وابنه سلّمة على تغلب والنّير بن قاسط .

٣ - انهيار عوش كندة : ولما تولى عرش الساسانيين كسرى انوشروان بن قباذ في سنة ٥٣١هـ، أرجع اللّخميين الى نفوذهم، والمنذر الى عرش الحيرة، ففرّ الحارث الكندي هارباً بذويه، فطارده المنذر حتى قتله، وجعل يدس الدسائس لأولاده فقتل سلّمة وشرحيل، وتنگر بنو أسد لحجر والد شاعرنا، وأمسكوا عن دفع الإتاوة له، فخاربهم وأعمل في رقابهم السيف. وحبس أشرافهم، حتى شفّع فيهم شاعرهم عبيد بن الأبرص فعفا عنهم، ولكنهم عادوا الى التمرد حتى قتلوه . فانقرضت بموته دولة نشطت الى مناظرة الحيرة والى منازعتها البقاء . وهب امرؤ القيس بن حجر يحاول دعم ذلك العرش المنهار، واسترجاع جانب من ميراثه الضائع، فأخفقت مساعيه .

ولكن ما لم ينله بسيفه سيناله بقلبه ؛ وسيني للعالم العربي ملكاً ثابتاً هو ملك الشعر الخالد . فقد كان الملك الضليل زعيم الشعر العربي الذي خضع لسطوته وتأثيره كل ناظم شعر، والذي سرت عاطفته الى كل قلب، وخفق خياله بكل جناح .

٢ ميار :

١ - الغلام اللاهي : ولد امرؤ القيس في نجد نحو سنة ٥٠٠ وعاش فيما بين ذويه عيشة ابناء الملوك، وما طال به عهده حتى تمكّنت منه حياة الترف واللهو والمجون واستوات عليه، وقادته الى قرض الشعر، والشعر فيه فطرة، واصفاً الملاهي والالعب والمغامرات الغرامية بألفاظ وكلام خرجت به عن حدود الأنفة، فردعه ابوه عن قول الشعر لانه ليس من عادة الملوك، فلم يرتدع فأخرجه عنه .

٢ - الامير الطريد : خرج الشاب عن أبيه مرغماً فالتفّ حوله زمرة من شذاذ وذؤبان طيى وبكر بن وائل، وراحوا يتنقلون معه من ماء الى ماء ومن حي الى حي، ينشدون الصيد واللهو، ويشربون مل رؤوسهم على ضفاف الغدران، وفي اكناف الرياض، بين قرض الشعر وعزف القيان .

٣ - الملك الضليل : كان الشاعر بدمون من أراضي الشام المزهرة او من اراضي اليمن، جالساً الى النزد حين فاجأه خبر مقتل أبيه، فقال : « ضيَّني أبي صغيراً، وحملني دمه كبيراً، لا صَحْوَ اليوم، ولا سُكْرَ غداً، اليوم خمر وغداً أمر » . فودَّع اللهو والتَّرف، ونهض يتأهب للآثَار واسترجاع الملك الضائع . وسمع بنو أسد بتأهب امرئ القيس فوافدوا اليه من يحوله الى الصُّلح فيرضى بدم أُسرة منها او دية من النعم، وإلا أمهلهم ريثما تضع الحوامل ويستعدون للحرب، فأمهلهم عن كرم نفس، ثم حمل عليهم توازره تغلب وبكر . وإذ أبلى بالاسديين ارتد عنه مناصروه على أنه قد أصاب ثأره، اما هو فلم يرَ في ذلك قطرةً من بحر دم كان يتوخى إراقتَه، ولا ردّاً للملكِ اضاعه بموت أبيه .

ولجأ بنو أسد الى المنذر الثالث ملك الحيرة، ومال الشاعر الى ابن عمته عمرو ابن هند ولزمه مدة ومدحه، وعرف به المنذر فطلبه، فهرب الى اليمن واستنصر ذوي قرباه الحميريين، وجمع منهم ومن سُذَّاذ الطرُق والمستزقة من القبائل ما تهيأ له، ثم حمل على بني أسد .

وألح المنذر في طلبه ووجه الى حمير الجيوش فتمزقت، وفرَّ الشاعر بقوم من حمير، مع ابنة له ودروع كان يتوارثها ملوك كندة، وبقي شريداً يضرب في البلاد من حي الى حي . ومن امير الى امير . وفي طيِّ تروَّج بأم جُنْدُب ثم طلقها . وقد لاقى في تشرُّده مشاقَّ شديدة وتعرَّض للذلِّ والسؤال، وطمع فيه صعاليك العرب وذؤبانها، وأدَّت به مسالكه الى السَّموأل بتيَّاء، فطلب اليه ان يكتب الى الحارث امير الغساسنة بالشام ليمهِّد له السبيل للسفر الى القسطنطينية فيواجه فيها ملك الروم ويطلب معونته على اعدائه . فاجابه السموأل الى ما طلب، فاودعه امرؤ القيس ابنته هند وسلاحه ودروعه، ثم شحَّص الى القسطنطينية يستجير بالقيصر يوستينيانس .

٤ - ذو القروح : فأحسن القيصر وفادته والكتته لم يُسرِع الى مناصرة الامير

العربي بل وعد وأحال القضية الى ملك الحبشة موعزاً اليه ان يحمل مع العرب على
الفرس لئلا يغير ان تدابير القيصر لم تنشق عن نتيجة تؤيد مصلحة الشاعر، بالرغم مما
كان يتوخاه القيصر من اعتماد على كاهل الملك الكندي ليثبت نفوذه في البلاد
العربية ويقاوم نفوذ الفرس وعمّالهم المناذرة .

فعاد امرؤ القيس من عاصمة الروم واليأس مل قلبه، وما بلغ مدينة أنقرة حتى
تفشى في جسده داء كالجذري سبب له قروحاً واودى بحياته نحو سنة ٥٤٠ .
ولاجل هذا سمي « ذا القروح » .

٥ - بطل الاسطورة : مات امرؤ القيس ففسح الخيال الشعبي حول قبره
الأساطير . ومما روي عنه أن القيصر أرسل اليه، وهو في طريق عودته من
القسطنطينية، حلّة مسمومة، وذلك ان بعض العرب وشى به الى القيصر واخبره
ان امرأ القيس كان يعشق ابنته، فلما لبس الحلّة أسرع فيه السم وسقط جلده فمات .
ومما روي أيضاً ان امرأ القيس لما حضرته الوفاة في سفح جبل اسمه « عسيب »
بالقرب من قبر امرأة من بنات الملوك قال البيتين التاليين :

أَجَارَتْنَا إِنَّ الْمَزَارَ قَرِيبٌ وَإِنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبُ
أَجَارَتْنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَهُنَا وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ

ولكن ما وصل اليها من الاساطير وتبلبل الاخبار في حياة امرؤ القيس لا
يكفي لنفي وجود الرجل . فذلك التبلبل ناجم عن فقد وسائل التدوين الصحيحة
عند الاقدمين، وعن ضعف الروح العلمي في مدوني سيرة الشاعر في اوائل القرن
الثاني للهجرة . ولاسيما وقد وردت اخبار الشاعر عند غير العرب من مثل مؤرخي
الروم الذين اوردوا خبر رحلته الى القسطنطينية وسموه « قيساً » .

٣ أمّره :

١ - ما هي : لقد ضاع الكثير من شعر امرؤ القيس وبقي لنا منه ديوان

صغير يحتوي نحواً من ٢٥ قصيدة فضلاً عن المقطوعات؛ طبع للمرة الأولى في باريس سنة ١٨٣٧ بعناية المستشرق دي سلان De Slane، ثم عني بشرحه وطبعه البطليوسي في مصر سنة ١٨٦٥، والوزير أبو بكر بن عاصم سنة ١٨٩٠. وجمعه ورتبه وعلّق حواشيه وطبعه حسن السندويي بمصر سنة ١٩٣٠. ولهذا الديوان طبعات أخرى كما له ترجمة الى اللاتينية والألمانية. وأشهر قصائده ثلاث: المعلقة ومطلعها:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومترل بسقط اللوى بين الدخول فحومل^١
- ولا مية مطلعها:

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العُصر الخالي

- ثم بائية مطلعها:

خيلي مرأى على أم جندب لتقضى لبانات الفؤاد المندب^٢

أما المعلقة - وتقع في ثمانين بيتاً من البحر الطويل - فلها شروح كثيرة أهمها شرحا الزوزني والتبريزي. وقد طبعت عدة مرّات مع سائر المعلقات، وترجمت الى لغات عدة منها اللاتينية والفرنسية والروسية.

١ - الباعث على نظمها: ان الذي حمل امرأ القيس على نظم المعلقة هو «يوم دارة جلجل» حيث التقى بعنيزة ابنة عمه شرحبيل - وكان هائماً بها - تتنزّه بسرب من العذارى، فدبح لها ولهنّ ناقته. وعلى أثر ذلك نظم مطولته مقاطع مقاطع، على الأغلب، فوصف الحادث وأضاف اليه شتى الذكريات مما جرى له قبل مقتل أبيه. فكانت قصيدته وليدة حبه لعنيزة ووليدة ولعه بالصيد والضرب في البلاد.

٢ - أقسامها: تقسم المعلقة الى ثلاثة أقسام كبرى:

١ - الوقوف على الأطلال وما يتصل بذلك من ذكريات وبكاء. (١ - ٨)

(١) اللوى: ما التوى من الرمل واسترق منه؛ وسقط اللوى: منتهاه. الدخول وحومل: موضعان. (٢) اللبانات: الحاجات.

٢ - وصف المغامرات الغرامية ولاسيا يوم دارة جلجل (٤٢ - ٤٣)

٣ - وصف ما لقيه في تشرده :

(١) وصف الليل (٤٢ - ٤٦)

(٢) وصف الوادي يعوي فيه الذئب (٤٧ - ٥٠)

(٣) وصف الفرس والصيد (٥١ - ٦٨)

(٤) وصف البرق (٦٩ - ٧٠)

(٥) وصف السيل (٧١ - ٨٠)

٣ - شهرتها : لهذه المعلقة شهرة واسعة جداً لم تبلغها معلقة أخرى . وهي عند العرب، ولاسيا الأقدمين منهم، عنوان الإبداع والجمال، حتى قيل :
« أشهر من « قفا نيك » و « أجمل من « قفا نيك » .

أما قوام هذه الشهرة فسنراه في دراستنا الادبية لشعر امرؤ القيس .

٢ - صحة نسبتها اليه : لا شك في أن طائفة من الشعر المنسوب الى امرؤ

القيس ليست له، لأنها لا تنتظم مع نفس الشاعر وطريقته او لا توافق روح العصر وعاداته، إنما هي من صنع الشعراء الاسلاميين او العباسيين الذين زادوا الكثير على الشعر القديم إما للاستشهاد، وإما عن داعي الحزبية، وإما لمفاكهة الخلفاء . ثم ان الرواة الذين حفظوا الشعر القديم لم يكونوا دائماً صادقين في ما يروون، فقد أفسدوا ما أفسدوا، وأضافوا أو أسقطوا ما سوت لهم النفس بالإضافة أو الإسقاط . هذا فضلاً عن أنه كان عند العرب « مراقبة » كثيرون يدعون باسم امرؤ القيس، ولهم شعر، فلا عجب اذا اختلط شعرهم بشعر صاحبنا . واننا اذا تصفحنا الديوان نقع على أبيات كثيرة متقلقلة لا تناسب حالة الملك الضليل، كتلك القصيدة الغزلية التي تضمنت وصفاً للشطرنج، ومنها :

فكم كم وكم كم ثم كم كم وكم وكم
فلو لو ولو لو ثم لو لو ولو ولو
وعن عن وعن عن ثم عن عن وعن وعن
قطعت القبا في والمهامة لم أمل
دنا دار منى كنت أول من وصل
أسائل عنها كل من سار وارتحل

ولكن هذا الشعر المنحول في ديوان امرئ القيس لا يُتيح لنا أن ننكر كل ما نُسب اليه وأن نجاري في ذلك بعض المستشرقين والدكتور طه حسين ؛ ولئن دعم الدكتور حججه بكون الشاعر من اليمن ولغته لغة اليمن والشعر المنسوب اليه بلغة قريش، ولئن ادَّعى ان وصف اللهو مع العذارى هو أخرى بالفزدق منه بامرئ القيس، ولئن زعم ان القصص الغرامي فنٌّ أوجده عمر بن أبي ربيعة واحتكره، فإن حججه هذه لا قوام لها لكون امرئ القيس ولد ونشأ في نجد ولغة نجد عدنانية، ثم انه كتب باللغة المثالية التي غلبت عليها لهجة قريش . زد على ذلك أن شعر امرئ القيس، ولاسيما المعلّقة، كان معروفاً قبل الفزدق وقبل عمر بن أبي ربيعة .

٤ - شخصية امرئ القيس في شعره :

١ - لصوق شعره بشخصيته : كان امرؤ القيس من النفوس العاطفية الشديدة الانفعال التي تحب الإفضاء الى الغير وإلى ذاتها بمكنونات الصدر، من غير ما تخرج ولا اقتصاد في الصراحة الفطرية التي لا يردعها رادع حياء او وازع ضمير او تدبّين عميق . فلم يقل الشعر إرضاء للفن، انما كان شعره من امتلاء قلبه، يجري تارة كالينبوع الهادي، ويردّد صدى ذكريات كانت للشاعر سبب متعة او سبب كآبة، او يتحدّر طوراً كالسيل حاملاً ثورة النفس الملكية المفجوعة . ومن ثمّ كان شعره أناشيد متقطّعة إذا شدّت الى بعضها كانت صورة لحياة الرجل . فشعره حديث النفس العارمة اللاهية، وذكريات النفس المشرّدة، وغضبة النفس الثائرة؛ وهو، على كل حال، أنّة النفس الحزينة التي عضّها الألم والاسف، ونعمة من نعمات النفس الملكية .

٢ - مظاهر بروز شخصيته :

١ - قبل مقتل أبيه : كان امرؤ القيس قبل مقتل أبيه ابناً للطبيعة شبّ تحت سمائها وقرأ في كتبها صفحات لم يمتح أثرها من نفسه ؛ وعاش ردحاً في التنقل من

غدير الى آخر بين صيدٍ وشربٍ وغزلٍ، فكان شعره اذ ذاك قسمين : قسماً لحبه وقسماً للطبيعة .

أما غزله الذي أفرغ فيه حبه فله فيه أسلوب خاص جرى عليه غيره من الشعراء فيما بعد، ويقوم هذا الأسلوب بذكر مغامرات غرامية ونقل ما يدور فيها بين الشاعر وصاحبتة (عُنَيْزَة او فاطمة) من حوارٍ يبدأ دائماً بارتياح الحبيبة من مفاجأة الشاعر لها، وبلومٍ فيه كثير من الدُّل . وهذا الأسلوب الذي ابتدعه الشاعر لنفسه والذي اظهر فيه تعمقاً بمعرفة نفسيّة النساء، كثيراً ما يكون مزيجاً من الوصف والقَصص والحوار، يطغى بالذكريات المتنوعة المصطبغة بالمتعة والتعهُّر على حدّ مسا عرفناه من أخلاق الشاعر وعوائده؛ وذلك بلغة تسيل بين ألفاظها، على أتمّ ائتلاف وانسجام، ألحانٌ موسيقية حافلة بالتصورات البديعة والشعور المتسعر . وامرؤ القيس يُسهب كثيراً في وصف الناحية الماديّة من الحبّ ومحاسن المرأة، كما يحسن وصف المرأة في خوفها وحذرهما .

وهذا الغزل عنيف في صراحته، جافٍ في واقعيّته؛ فكلام الشاعر، كحياته، صريح التهتك والفجور؛ فيه من التهاك على المتعة ما تمجّه الاخلاق ويأباه الذوق .

وقد يجمع شعره الغزلي في وقت واحد المناجاة والعتاب والرجاء والذلّة والعزّة والوقّة كما في قوله :

أفَاطِمَ مَهَلًا بَعْدَ هَذَا التَّدَلُّلِ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَزْمَعْتُ صَرْمِي فَأَجْنِبِي
أَغْرَكَ مِنِّي أَنْ حُبِّكَ قَاتِلِي وَأَنْتَكَ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلِ

ولكنّ هنالك تحت غشاء اللهو كأبهة تحزّ في قلب الشاعر بشّها التشرّد في الفلوات بعد حياة الترف في ظلّ بيتٍ ملكيّ؛ كما بشّها الواقع القاسي الذي أراه أنّ الحبّ سريع الانكسار، وجعله يلهو لهو من يعلم ان عمر الورد قصير، ويسكب عبرات سخينة تسيل على أقواله الغزليّة لتطفئ كامن الحسرات :

قِفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَيْبٍ وَمَتَرٍ بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوَلِ
وَأَنَّ شِفَائِي عَبْرَةٌ مُهْرَاقَةٌ وَهَلْ عِنْدَ رَسْمِ دَارِسٍ مِنْ مُعْوَلٍ

وأما شعر الطبيعة فهو صورة ناطقة لحياة التشرد وتقلب الشاعر من مكان الى مكان يصحب الوحوش في الفلوات فيصفها، أو ينصرف الى الصيد على ظهر جواد بسرعة البرق تتقدمه كلاب خفيفة الخطى، فينقض على الحمر الوحشية انقضاض الصواقي، ويرجع في جو أربد تمزقه البروق وتنهمر منه الامطار، فيتساق الجبال ويهبط الاودية ويجتاز السيول، ويودع كل ذلك شعره وقيمه شاهداً على تلك الحياة وسجلاً لأحداثها المضطربة التي يتزج لها برارة العيش والتجارب وتقلب الناس والايام .

وهذا الشعر ينضح بنزعة الشاعر الملكية لما فيه من ترف الملوك وتطلب الصيد، واصطحاب الطهاة وذكر الدمقس والحجارة الكريمة والطيوب والمرأة وما الى ذلك مما لا يجتمع إلا للذين من طبقة امرئ القيس ابن العاهل الكندي .

ولما كان شعر الطبيعة أهمية خاصة في ذاته وبالنظر الى الادب العربي القديم والحديث، ولما كان له محل واسع في ديوان الرجل، رأينا لزماً علينا أن نتبسط فيه بعض التبسط في ما سيأتي من الكلام .

٢ بعد مقتل أبيه : كان لمقتل الملك الكندي واندكاك عرشه أثر عميق في نفس الشاعر الذي رأى آمال مستقبله تتزعزع، فجرى في كيانه انهيار كان انهيار حياة اللهور، وثورة كانت ثورة الدم الكندي في نخوته الملكية، واذا امرؤ القيس يظهر لنا رجل عزم وبأس وثبات يصبر على الشدة تحفزه آمال واسعة يسعى في دعم أسسها، ولا يخشى الموت في سبيل مطلبه :

وَقُلْتُ لَهُ : لَا تَبْكَ عَيْنُكَ إِنَّمَا تُحَاوِلُ مُلْكًا أَوْ تَمُوتَ فَنُعْذَرَا

واذا امرؤ القيس يضرب في البلاد، ويتقلب بين نعيم وبؤس، وإكرام وذل،

(١) عَبْرَةٌ مُهْرَاقَةٌ : دُمْعَةٌ مَسْكُوبَةٌ . الرَّسْمُ الدَّارِسُ : الْأَثَرُ الَّذِي كَادَ يَضْمَحِلُّ .

وأمل وإخفاق . وإذا شعره استنهاض للهمم ، للعمل في سبيل الثار واسترجاع الملك ، ومدح وشكر المناصرين :

- سَأَشْكُرُكَ الَّذِي دَافَعْتَ عَنِّي وَمَا يَجْزِيكَ مِنِّي غَيْرُ شُكْرِي
- فَأَبْلُغْ مَعَدًّا وَالْعِبَادَ وَطَيْبًا وَكِنْدَةً آتِي شَاكِرًا لِبَنِي ثَمَلٍ

وإذا شعره تهديد لبني أسد فيه من الفخر الشيء الكثير :

فَدَعِ ذَا، وَسَلِّ أَلْهَمَ عَنْكَ بِجَسْرَةٍ ذَمُولٍ، إِذَا صَامَ النَّهَارُ وَهَجَّرَا
عَلَيْهَا فَيَ لَمْ تَحْمِلِ الْأَرْضُ مِثْلَهُ أَبَرَّ بِمِشَاقٍ وَأَوْفَى وَأَصْبَرَا
هُوَ الْمُنْزَلُ الْآلَافُ مِنْ جَوِّ نَاعِطٍ بَنِي أَسَدٍ، حَزَنًا مِنَ الْأَرْضِ أَوْ عَرَا
وَلَوْ شَاءَ كَانَ الْغَزْوُ مِنْ أَرْضِ حِمِيرٍ وَلَكِنَّهُ، عَمْدًا، إِلَى الرُّومِ أَنْفَرَا

وكنّا أناساً قبل غزوة قمر ممل ورثنا الغنى والمجد أكبر أكبرا

وهكذا كان شعره هتافاً ملكياً يُطاب بالملك، وآنسة حزن على العرش المنهار، الى ان صار استسلاماً للأقدار والتفاعاً بشملة الزهاد في مكابرة وعنفوان :

وَقَدْ طَوَّقْتُ بِالْآفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ
أَبْعَدَ الْحَارِثِ الْمَلِكِ ابْنَ عَمْرٍو وَبَعْدَ الْخَيْرِ حَجَرَ ذِي الْقَبَابِ
أَرْجِي مِنْ صُرُوفِ السَّهَرِ لَنَا وَلَمْ تَفُكُلْ عَنِ الصَّمِّ الْهَضَابِ ٢٦!

(١) الجسرة : الناقة القويّة على السير . الذمُول : السريعة . صام النهار : قام قائم الظهيرة . هَجَّرَ النهار : اشتدّ حرّه . (٢) ناعط : جبل باليمن برأسه حصن قديم . الحزن : الأرض الصعبة المسالك . بني أسد : منادى ؛ فكأنّه يقول : عليكم يا بني أسد بالنزول بالأرض الغليظة الحشنة ذات الوعورة . وهو وعيد وتهديد لبني أسد . (٣) يقول أنّه لو شاء لغزا بني أسد بجموع من أرض حِمير ، ولكنّه آثر أن يغزوهم بجيوش من أرض الروم تنكيلاً بهم وتسويئاً لسمعتهم . (٤) أي : اكثرت من الطواف في الأرض فلم أرَ خيراً من الرجوع الى أهلي ووطني . (٥) الحارث بن عمر : جدّه ؛ وحجر : والده . القباب : لم تكن القباب معروفة في الجاهليّة إلا للملوك ، ولهذا وصف امرؤ القيس أباه بأصحاب القباب ، لأنهم كانوا ملوكاً . (٦) الصم : الحجارة الصلبة . الهضاب : الصخور الضخمة الراسية . أي أنها اذابت وازالت الصخور المتينة .

وهكذا كان شعر امرئ القيس صورةً لحياته في جميع أطوارها، وصدى لآماله في فورتها وإخفاقتها .

٥ - امرؤ القيس شاعر الطبيعة :

رمت الاحوال امرأ القيس في احضان الطبيعة، فقضى فيها ومعها أكثر أيامه وأجلها، حتى أصبحت الطبيعة حيةً وصامتة، جزءاً من ذاته وخديناً لحياته . وقد تأملها ملياً حتى وقف على أخفى خطوطها، ورأى ما عظم فيها وما دق، من الأفق العريض الى عيون الوحش المتفرقة حول الحباء كالخرز، فهام بها وحلت من فؤاده مكاناً وسيعاً حتى تمثلت له في كل كلام يقوله، فوصفها وأكثر من وصفها .

١ - موضوعات وصفه : ١ شمل وصفه الطبيعة الحية ولاسيا الفرس والناقة . فكان وصفها في المحل الأول ؛ وقد جاء في أثناء هذا الوصف أوصاف لحيوانات شتى من مثل الثور الوحشي، والحمار الوحشي وكلب الصيد، والظليم، وغيرها . وشمل وصف امرئ القيس ايضاً الطبيعة الصامتة من مثل الليل والغيث والبرق وما الى ذلك .

٢ - عوامل ابداعه : وكان امرؤ القيس شاعراً فطرياً ينزع نزعة المصور الحاذق الذي اجتمعت له ملكة التمثيل وملكة البيان، وتوفرت له أفانين التصوير والتلوين والتعبير ؛ فكان له من فطرتة، وإحساسه القوي، وكثرة مشاهداته، ودقة ملاحظته، ما جعله فريداً في هذا الفن .

٣ - ميزات وصفه : ^{عنه} ومن ميزاته في وصفه أن قوام الصورة عنده على حد ما قال الدكتور سيد نوفل، « الحب للطبيعة، فمنها المواد والألوان ؛ والصدق فلا مبالغة ولا إحالة ؛ والبساطة فلا تكلف ولا تصنع في الالفاظ والمعاني ؛ والابحاز فلا حشو ولا فضول ؛ والدقة فلا كلمة نابية ولا أخيلة غير مطابقة ، وإنما جو محكم يسود الوصف كله » .

فخيال الشاعر واقعيّ يرتكز على الحقيقة، ويتناول المألوف من المناظر ويرسم منه خطأً أو خطين، وإذا الصورة تبدو بلامحها كما لو كانت كاملة بجميع جزئياتها وتفصيلاتها، وإذا الصورة رائعة في إيجازها واتساع إيحاءها، وإذا ذلك « اللّمع » الشعري أبلغ من كل تفصيل :

- وقد أغتدي والطير في وكناتها
- كأن عيون الوحش حول خباثتنا
بمنجرد قيد الأوابد هيكل
وأرحلنا الجزع الذي لم ينقبأ

وهذا المألوف الذي يتناوله الشاعر في وصفه، يتناوله بشغف، لانه يُثير في نفسه ما لا يُثيره في نفس غيره، ويُحسُّ بظاهره وإحساساً لا عهد به لغيره، فيتمثله تمثلاً فذاً ويضفي عليه من ذاتيته، ثم يعبر عنه وإذا هو خلق جديد، فيه من قلب الشاعر ونفسه دفء وحياة؛ وإذا المألوف يُصبح طريفاً يستوقف النظر في الصورة بعد ان لم يكن يستوقفه في الوجود الخارجي، ويُثير الإعجاب على بساطته وضآلة خطره. وهكذا تصبح صور امرئ القيس بعيدة شديدة البعد عن الصور المنقولة عن الطبيعة نقلاً آلياً جامداً. فمن لا يلمس شغف امرئ القيس بفرسه عندها يترسم جميع حركاته وأشكاله ويقول :

ورحنا يكاد الطرف يقصر دونه متى ما ترق العين فيه تسهل
فبات عليه سرجه ولجامه وبات بعيني قائماً غير مرسل

ومن لا يلمس جمال التلوين الحي الذي ينبض دقةً وروعة في قوله :

(١) الوكنات ج وكنة وهي عش الطائر. المنجرد: القصير الشعر الماضي في السير. الأوابد: الوحوش. الهيكل: الضخم. يقول: وقد اخرج مبكراً على فرس عظيم سريع، لا يكاد يُطلق في إثر الوحوش حتى يُدركها، باعثاً فيها الجمود، فتقف كأنها مقيدة (٢) الأرحل ج راحل وهو سرجه البعير. الجزع: الخرز اليماني وهو الذي فيه سواد وبياض. (٣) يقصر دونه: لا يبلغ الغاية من التمتع بمرآه. متى ما ترق: أي لا تكاد العين تنظر الى اعلاه حتى يجذبها اسفله، وذلك لحسنه التام (٤) أي بات ذلك الفرس وسرجه ولجامه عليه، فهو ابداً مستعد للسير، لا ينال السير والتعب منه. وبت وهو في عيني، لا يفارقني على حاله من الأهبة وعدم الإرسال الى المرعى.

فَعَنَّ لَنَا سِرْبٌ كَانَ نِعَاجُهُ عَذَارَى دُورٍ فِي مَلَأٍ مُذَيَّلٍ^١
فَأَدْبَرْنَ كَالْجَزَعِ الْمَفْصَلِ بَيْنَهُ يَجِيدُ مَعَهُ فِي الْعَشِيرَةِ مُخَوِّلٍ^٢

وَمَنْ لَا يَلْمَسُ الْحَيَاةَ فِي أَشَدِّ حَرَكَتِهَا إِذْ يَقُولُ :

مَكْرَمٍ مِفْرَةٍ مُقْبِلٍ مُسْدِرٍ مَعَا كَجَانَسُودٍ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ^٣

وهذه الحياة التي يبعثها الشاعر في موصوفاته والتي يقوِّمها بالحوار والقصص ،
نلمس فيها أحياناً مسحةً من الحزن والتأمل تنتقل من صدر الشاعر الى صدر
الطبيعة، وإذا في الطبيعة فلسفة وافكار هي صدى فلسفته وافكاره ، وإذا في
الطبيعة جوٌّ من الحزن أو شبح هائل يورث الحزن والجزع :

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرَخَى سُودْلَهُ عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهَمُومِ لِيَبْتَلِي^٤
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَقَطَّيْ بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَفَاءً بِكُلِّكِلٍ^٥
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا الْخَبْلُ بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلٍ^٦

وهكذا كان امرؤ القيس شاعر الطبيعة ، وشاعر العبقريّة التي تتناول المألوف
فتنفخ فيه من روحها وتحلقه خلقاً جديداً . وهكذا كان دقيقاً في إيجازه الى
ابعد حدود الدقّة ، وكان وصفه على دقّته ذلك « اللّمسح » الشعريّ الذي هو من
عيون الشعر .

(١) عَنْ : عَرَضَ . السِّرْبُ : قَطِيعُ الْبَقَرِ . النِّعَاجُ : الْبَقَرُ الْوَحْشِيُّ . عَذَارَى دُورٍ : أَبْكَارُ
يَدْرُنَ حَوْلَ صَمٍ . الْمَلَأُ الْمَذْيَلُ : الثَّيَابُ الطَّوِيلَةُ الذَّيْلُ (٢) أَي : أَنْ تِلْكَ النِّعَاجُ هَرَبْنَ
مَتَفَرِّقَاتٍ ، وَقَدْ أَشْبَهْنَ فِي هَرَبِنِ الْخَرَزِ الْيَابِي الَّذِي فَصِّلَ بَيْنَهُ بَيَاضٌ وَسَوَادٌ . وَقَدْ جَعَلَ ذَلِكَ
الْخَرَزُ فِي جِيدِ رَجُلٍ كَرِيمٍ الْأَعْمَامِ وَالْأَخْوَالِ كَنَايَةً عَنْ قِيَمَتِهِ الْكَبِيرَةِ (٣) الْمَكْرَمُ : الْكَثِيرُ
الْإِقْبَالُ . الْمِفْرَةُ : الْكَثِيرُ الْإِدْبَارُ . (٤، ٥، ٦) السُّودْلُ جِ سَدَلٌ : السُّتُورُ . لِيَبْتَلِي : لِيَجْتَبِرَ
تَقَطَّيْ : تَمَدَّدَ . الصُّلْبُ : الظَّهْرُ . أَرْدَفَ : أَتْبَعَ . الْأَعْجَازُ جِ عَجَزٌ وَهُوَ الْمُؤَخَّرُ . نَاءٌ : رَزَحَ .
الْكُلِّكِلُ : الصَّدْرُ . الْأَمْثَلُ : الْأَفْضَلُ . الْجَنْدَلُ : الصَّخْرُ . - يَقُولُ : جَاءَ اللَّيْلُ وَأَرَخَى عَلَيَّ
سُتُورَ ظِلَامِهِ مِبْطَنَةً بِأَنْوَاعِ الْهَمُومِ لِيَجْتَبِرَ صَبْرِي ، وَإِذَا هُوَ لَيْلٌ مَكْرُوبٌ ، طَوِيلُ الْأَوَاخِرِ ، رَازِحُ
الْأَوَائِلِ ، لَا يَتَنَحَّى إِلَّا لِيَعْقِبَهُ يَوْمٌ مَثَقَلٌ مِثْلَهُ بِالْهَمُومِ .

٦ فن امرؤ القيس :

١ - مصدر فنه : أرسل امرؤ القيس كلامه عن سجيّة وسليقة واذا هو شعرٌ سامي الفن في بساطته وطبيّته . وفنه هذا لا يقوم على انسجام الافكار وتساوقها بشكل منطقي ، ولا على وحدة تأليفية تجمع بين الاجزاء ، لأنّ شعره فطري لا منطق فيه إلا منطق العاطفة والذكوى ، ومنطق الحياة غير المقيّدة التي تجري على غير سنن التصنع . ولا يقوم فنه كذلك على الأخيلة الغريبة ، ولا على الصناعة البديعية العلمية التي تقصد الصور عمداً وتُرَكِّبها تركيباً تتداخل فيه الألوان والأشكال .

إنّما يستقي الشاعرُ فنه من نفسه التي اصطبغت بصبغتين متباينتين صبغة البداوة وصبغة الحضارة ، وتسلّحت بقوة التمثيل والتعبير ، فألقت على ما تمثّلته رداءً منسوجاً من رقة الحضارة وصفاء البداوة ، واذا الشعر جميلٌ ، يتجلّى سحره قبل كل شيء في التشبيه كما يتجلّى في الاستعارة والكناية . ولكن التشبيه هو العنصر الاساسي واليه مرجع الاستعارة .

٢ - التشبيه : أولع امرؤ القيس بالتشبيه أشدّ الولع ، وذلك عن طبع لا عن صنعة او تعمل ، فأتاه التشبيه عفواً ، وكانت مادّته من الطبيعة البدويّة او من حياة الترف . وكان التشبيه بين يدي الشاعر وسيلة يتذرّع بها ، في جميع أحواله ، للتعبير عن أدقّ المعاني وعن أوسعها نطاقاً ، عن اقربها وعن ابعدّها مجالاً ، واذا التشبيه يُكسب الكلام تلك الدقّة الواقعيّة وتلك الألوان الحيّة :

- وَنَجْطُو عَلَى صَمِّ صِلَابٍ كَأَنَّهَا حِجَارَةٌ غِيلٍ وَارِسَاتٌ بِطُحْلُبٍ ١
- لَهُ أَيْطَلَا ظَنِي ، وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ ، وَتَقْرِبُ تَتْفُلٍ ٢

(١) الصمّ الصلاب : أي حوافره . الغيل : الماء الجاري على الحجارة . الوارسات : المصفرة التي غشاها الطحلب ، وهو نبات يكون على وجه الماء المزمّن كنسيج العنكبوت (٢) أَيْطَلَا الظبي : خاصرته . الإرخاء : الجري الذي فيه سهولة . السرحان : الذئب . التقريب : الجري تُرفع فيه اليدين معاً وتوضعان معاً . التتفل : ولد الثعلب . يقول : ان لفرسه ضمور خاصرتي الظبي ، وصلابة ساقِي النعامة ، وإرخاء السرحان في عبوه الخفيف ، وتقريب التتفل في جريه الشديد .

- إذا ما جرى شأوين وأبتل عطفه تقول هزيرُ الرّيح مرّت بأثاب

ويمتاز تشبيه امرئ القيس بما فيه من الاكتفاء والتلميح على الطريقة الرمزية ، فالشاعر يعرض للأشياء لحاء، ويترك في تشبيهه جانباً خفياً غامضاً يزيد جمالاً وأثراً ، وذلك انه ، بقوة تصوّره ، يدرك باللمحة جزئيات الشيء الذي يصفه ، ثم يجمع كل ما أدركه في تلك اللمحة ، في عبارة تعبّر باللمح ايضاً ، وتحتاج الى أن يتأملها القارئ ملياً وأن يتقصّى ، بقوة التصوّر ، الى جميع جزئيات المشبه به حتى يصل الى ما أدرك الشاعر ، كما في قوله :

مكرّ مفرّ مُقبل مُدبر معاً كجلمودٍ صخرٍ حطّهُ السَّيلُ من عل

ولامرئ القيس في التشبيه طرُق جمّة تصطبغ في مجملها بهذه الصبغة ، وله في ذلك ابتكارات كثيرة ملكت على الاقدمين ألبابهم ، فراحوا يتناقولونها معجبين ويوغلون في تفسيرها والتعليق عليها . ومن تلك الابتكارات المشهورة تشبيهه المرأة ببيضة الخدر ، وسيره الخفيف بنجفة حباب الماء ، والفرس بقيد الاوابد ، وما الى ذلك مما يتجلى في جميع قصائد الشاعر .

٣ - الموسيقى : فضلاً عن كل ذلك يتجلى سحر الفن عند امرئ القيس في الموسيقى التي تتصاعد من الفاظه وتراكيبه التي تجأت فيها ايضاً حياته بما فيها من امتزاج الحاضرة بالبادية ، وبما فيها من إرمان ولوعة وحنين ، ومن اندفاع وسخط وهياج . فتلك الالفاظ والتراكيب تؤدّي بموسيقاها ما أدته من معنى ، وتعبّر بتلك الانعام عن حالات الشاعر المختلفة في مختلف أطوار حياته ، وفي مختلف نزعات نفسه .

- الالفاظ : اما الالفاظ فقد جمعت خشونة البادية الى لين الحاضرة ،

وتوفّر في اختيارها الذوق الفني ، حتى رقّ ما ظهر فيها من صلابة احياناً ، وعذبت رنتها الناجمة عن اثتلاف مخارج حروفها ، فحدثت الاذن والقلب دائماً وان استغلق على العقل فهمها احياناً :

(١) الشأوان مثنى شأو وهو الطلّق السّريع . ابتلّ عطفه : سال عرقه على جانبيه . هزير الرّيح : صوتها . الأثاب : شجر .

بِعَيْنِي ظُنُّنُ الْحَيِّ لَمَّا تَحَمَّلُوا لَدَى جَانِبِ الْأَفْلَاجِ مِنْ جَنْبِ قَيْمُرٍ^(١)

- موافقة المبنى للمعنى : فالشاعر ينحتُّ ألفاظه وقوافيه من خير مقطع ويضطرب لها ؛ وهو يرصفها بدياعة وإذا تراكيبه منسجمة انسجاماً مُحْكَمًا تمتدُّ أو تنقبض مع امتداد نفسه أو انقباضها . فإذا ساورتها الاحزان وثقلت عليه وطأة الدهر تصاعدت زفراته بشعر يطول بحوه وتتابع ألفاظه كالكابوس ، وذلك يبدو مجلاء في وصف الشاعر لليل .

وإذا اخذته سورة الفرس والفروسيّة تسارعت ألفاظه متواثبة متدافعة :
مِكْرَرٍ مَفْسَرٍ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعَا كَجَلْسُودٍ صَخْرٍ حَطَّةُ السَّيْلِ مِنْ عِلْ
او راحت في الميدان مع الشاعر السابح على ظهر ناقته « سُلهوب »
ترافق الجري :

وَالْيَدُ سَابِجَةٌ وَالرَّجُلُ ضَارِحَةٌ وَالْعَيْنُ قَادِحَةٌ وَالْمَتْنُ سُلهوبٌ^(٢)

وإذا أتاه خبر مقتل أبيه دبّت الرهبة في شعره فسكنت قوافيه وجمدت مفاصله،
وتصاعدت منه موسيقى كدوي عميق هو دوي القضاء والهول والتهديد :

تَطَاوَلَ اللَّيْلُ عَلَيْنَا دَمُونُ دَمُونُ إِنَّا مَفْسَرٌ يَمَانُونُ
وَأَنَّا لِأَهْلِنَا مُحِيبُونَ

وهكذا رافق شعر امرؤ القيس حياته بموسيقاه فكانت أنغاماً شتى لتلك
النفس الشعرية . إلا أن هذه الموسيقى لا تخلو من اصوات ناشزة تنجم عن بعض
الالفاظ النابية، او عن الجواز الشعري الجاهلي المعروف الذي يجعل « مفاعلين » عوضاً
عن « مفاعيلن » في حشو الطويل :

وَيَوْمَ عَفَرْتُ لِلْعَذَارَى مَطِيبِي فَيَا عَجَبًا مِنْ كُورِهَا أَلَمْ تَحْمَلِي^(٣) !

(١) الظنن : الرحيل . الأفلاج ج فلج وهو اسم بلد . قيمر : مكان به قلعة بين الموصل
وخلاط . يقول : كان ظعنهم بمرأى مني . . . (٢) اليد سابجة : أي اذا جرى ومدّ يديه
فكانت سابج في الماء . ضارحة : أي ضاربة الارض وحافرة فيها . قادحة : غائرة . المتن سُلهوب :
أي الظاهر أملتس (٣) الكور : رحل البعير بأداته . انه يعجب لمشهد العذاري يحملن رجل
ناقته بعد أن عقرها لهنّ وأطعنهنّ من لحمها .

٧ غلود امرئ القيس :

طارت لامرئ القيس شهرة واسعة لم تتغلب عليها الايام والاحوال ، واجتازت شهرته العصور، كما اجتازت الحدود وانتقلت اشعاره من اللغة العربية الى لغات أجنبية . وقد بقي شاعر « قفا نبك » حياً في القلوب كما بقي شعره، زمناً طويلاً، مثلاً للشعر العالي .

أما اسباب تلك الشهرة فكثيرة نذكر في ما يلي أهمها :

١ - العاطفة الانسانية : لقد ضَمَّن امرؤ القيس شعره من العاطفة الانسانية ونجوى الوجدان ما يهز كل انسان في كل مصر وكل عصر . وكان قوله « قفا نبك » أعظم صيحة للحب في وجه الفناء، وكان لهذه الصيحة صدى عميق في كل قلب خافق يتعلل بالذكرى والاماني . ثم ان امرأ القيس بثَّ هذه العاطفة الانسانية الخالدة في وصفه للطبيعة، فربط بينها وبين اختلاجات النفس البشرية ، واذا شعره كله نابض بتلك الاختلاجات، واذا هو مؤثر عميق التأثير، على ما هنالك مما يشمئز منه الذوق السليم والضمير الحي من الاوصاف الشاذة الفاسدة التي وصحت ذلك الشعر الرفيع بوصمة من العار لا تمحي .

٢ - زعامة الشعر العربي : ثم ان امرأ القيس هو زعيم الشعر العربي عموماً وشعر الطبيعة خصوصاً . فهو الذي افتتح اسلوب الشعر الجاهلي، وهو أول من وقف على الاطلال أو بالحري أطلال الوقوف والبكاء - وان كان قد سبقه، على ما جاء في شعره، ابن حذام - فعُرف بذلك الاسلوب وترسم الشعراء الاقدمون خطاه، وبقي أثره الى أيام غير بعيدة منّا . وقد يكون امرؤ القيس هو الذي نوع البحور الشعرية العربية بعد أن كان الشعر في اكثره أراجيز او ما يُشبهه الاراجيز ؛ ثم انه أصل من الاصول في أبواب من البلاغة كالتشبيه والاستعارة وما الى ذلك ؛ وقد أغنى الشعر العربي بصور بارعة للصحراء وحيوانها ومظاهرها الطبيعية ؛ وهكذا أبقى مائدة حافلة لمن أتى بعده . ولا عجب بعد ذلك اذا رأينا الشعراء على ممر

العصور يردون معين الملك الضليل، عن قصد او غير قصد، ولاسيا وان الشعر العربي يكاد يكون محصوراً في دائرة الفن الغنائي. والذين تأثروا امرأ القيس على نوعين : منهم من استلهموا نزعات خاصة على ما في أنفسهم من هوى، وتبسطوا وتفننوا فبرزوا مثل عمر بن ابي ربيعة في العهد الاسلامي، وأبي نواس في العهد العباسي؛ ومنهم من وقفوا عند محاكاة عامة او خاصة في ابيات متقطعة او في قصائد، وأغاروا فيها على أسلوب امرئ القيس وتعاييره متفاوتين من حيث الاقتباس والاجادة والتقصير كمثل زهير وطرفة في الجاهلية، والبحري في العهد العباسي، وكأحمد شوقي في عهد النهضة الذي استعار بعض صور الشاعر الجاهلي فقال مثلاً في رواية مصرع كيو باطرة واصفاً السفن المتحاربة :

لا ترى في المجال غير سبوح
مقبل مدبر مكر مفر

٣ - الفوائد التاريخية : ولامرئ القيس قيمة أخرى تعمل على تحليله هي القيمة التاريخية، فإن شعره شاهد من شواهد تاريخ تلك الايام، وسجل حفظ لنا الكثير من المعلومات التاريخية والجغرافية. فهو يطلعنا على نواح من سياسة عصره وعلى المشاهد التي كانت بين الروم والفرس، وعلى احوال الكنديين وغيرهم من العرب؛ ثم يطلعنا على بعض نواحي المجتمع العربي ولاسيا الارسطقراطي وواع ناشته بالصيد والترف، وتعلق العرب، مع فساد كثير من النظم الاجتماعية التي كانت سائدة فيهم، بصفات الشجاعة والوفاء والكرم وما الى ذلك؛ ثم انه يطلعنا على بعض الديانات الشائعة في بلاده وعلى بعض العادات الدينية. أما من الوجهة الثقافية فيستخلص من شعر امرئ القيس ان الجهل كان متفشياً في البلاد وأنهم كانوا يكتبون على سعف النخل :

لمن طلل أبصرته فشجاني
كخط الزبور في العسب الباني

هذا هو امرؤ القيس في حياته وبعد مماته، ولا شك انه من كبار شعراء العرب. فهو ملك الشعر، وزعيم الشعراء، وله صلة وثيقة بشعر الطبيعة الحديث.

بعض المراجع

- طه حسين : في الأدب الجاهليّ - القاهرة ١٩٣٣ ص ١٨٨ - ٢٢١
 فؤاد البستاني : امرؤ القيس (الحلقة السابعة من الروائع) - بيروت ١٩٣٣
 رثيف خوري : امرؤ القيس - بيروت ١٩٣٤
 سليم الجندي : امرؤ القيس - دمشق ١٩٣٥
 محمد صبري : الشوامخ : امرؤ القيس - القاهرة ١٩٤٤
 محمد صالح سمك : امير الشعر في العصر القديم - ١٩٣٢
 عدنان الذهبي : الرميّة في شعر امرئ القيس - الاديب ٥، عدد ١١ ص ٣٨ - ٤٢
 بطرس البستاني : امرؤ القيس شاعر الشخصية في ذاتيّته واسلوبه - المكشوف عدد ١٧٤
 ص ٦ - ٧
 سيد نوفل : شعر الطبيعة في الادب العربي - القاهرة ١٩٤٥، ص ٢٨ - ٥٠
 الاب لويس شيخو : شعراء النصرانية - بيروت ١٨٩٠
 عبد العظيم علي قناوي : الوصف في الشعر العربي - الجزء الاول : الوصف في العصر الجاهلي
 القاهرة ١٩٤٩ .

موضوعات للمبحث

- ١ - اضطربت اخبار امرئ القيس كما اضطرب بعض شعره . وقد ادّى ذلك الى ان انكر بعض النقاد شعره بأجمعه وتوصّل البعض الآخر الى انكار وجود الشاعر نفسه . ما القاعدة التي - في نظرك - نستطيع ان نميز بواسطتها صحيح شعره من منحوله ؟ اعتمدها وأجب على النقاد المغالين .
- ٢ - لامرئ القيس شخصية قويّة قد أوحى بشعره ، وامتزجت بمعانيه ومبانيه ؛ فكان الشعر لساناً لنفس الشاعر وقلبه ، وكان صدى لنزعاته واعماله ، وصورة لآماله وآلامه - ناقش ذلك وأبد كلامك بالبرهان .
- ٣ - لقد قيل : « شعر امرئ القيس صلة بين الماضي والمستقبل . فهو يواصل تقليداً عربياً في نظم الشعر وهو يقرّر ذلك التقليد » . ناقش وأبد رأيك في اسلوب ذلك الشعر .
- ٤ - الشعر الغنائيّ هو كلام الوجدان . ما قيمته عند امرئ القيس ، وما الأساليب الفنيّة التي يعتمد عليها الشاعر في بثّ وجدانه ، وما الوسائل التي يتدرّع بها عن فطرة وفنّ لا يصال أثر كلامه الى القلوب ؟
- ٥ - لقد دعي امرؤ القيس « زعيم الشعر » في العصر الجاهلي - هل استحق ذلك وعلى أي شيء تقوم زعامته ؟

أصحاب المعلقة

الفصل الثاني

طرفة بن العبد (٥٤٣ - ٥٦٩)

١ حياته : وُلِدَ طرفة بالبَحْرَيْن، ومات أبوه وهو طفل، فكفله اعمامه وأساءوا تربيته وضموا حقوق أمه. فاندفع الطفل وراء أهوائه يلهو ويسكر ويبدّر. فطرده قومه لذلك، فراح يضرب في البلاد حتى بلغ أطراف جزيرة العرب. ثم عاد عن غيّه ورجع إلى قومه يرعى إبل معبد أخيه لأبيه، فسُرقت الإبل لانصرافه إلى النظم، فنصره سيدان من قومه امتدحها فاستطاع أن يردّ الإبل. ثم عاد إلى حياة اللهو. بلغ في تجواله بلاط الحيرة فقرأه عمرو بن هند، إلا أن لسانه لم يُبقه هناك زمناً طويلاً، فهجا صهره وهجا الملك، فسمى الملك في الإيقاع به. - وقُتل طرفة وهو دون الثلاثين نحو سنة ٥٦٩.

٢ آثاره : لطرفة ديوان شعر أشهر ما فيه المعلقة التي نظمها الشاعر بعد ما لقيه من ابن عمه من سوء المعاملة، وما لقيه من ذوي قربه من الاضطهاد. وفي المعلقة ثلاثة أقسام كبرى: القسم الغزلي، والقسم الوصفي، والقسم الإخباري. - ومن أغراض شعره الوصف والعتاب والشكوى والغزل والهجاء والحكمة.

٣ شاعر الفلسفة الشخصية :

- عوامل فلسفته : من عوامل فلسفته ضعف عقيدته الدينية، وبيئته المادية، وتربيته السيئة، وثروته وصعوبات حياته، ثم نزعة الفطرية إلى كريم الشيم العربية. - نزعته في فلسفته : فلسفة تضطرب بين الإباحية المادية والنزعة المثالية. وتصطبغ بصبغة اليأس والحزن.

- مذهبه في فلسفته : يرى طرفة، من الناحية الاجتماعية، أنه لقومه ولكل من يحتاج إليه قبل أن يكون لنفسه. ويرى، من الناحية الذاتية، أنه لا بُدّ من الحرّص على كرامة النفس وتوفير المتعة للجسد في شرب الخمر والاستمتاع بالحب؛ جاعلاً أساس فلسفته المادية الانقياد للعاطفة والأهواء انقياداً يُضعف فيه الإيمان ويبعث فيه الشك في الخلود. - قيمة فلسفته : فلسفة طرفة حياة لا تخلو من رفعة، ولكنها فلسفة متناقضة، واهية الأساس، فاسدة ومُفسدة.

٤ شاعرية طرفة وفنّه :

- العقل والعاطفة : طرفة حديد الذهن تطغى العاطفة على عقله، وشموه حارّ لا يخلو من اقتصاد.

- الخيال : خياله قويّ واقعيّ ماديّ ينجح إلى القصد والصدق ويعتمد على التشبيه الحسيّ.

- الأسلوب : أسلوبه متنوّع، يجمع بين قوّة مُضّر ورقّة ربيعة.

- التراكيب : لا تخلو من تعقيد ومعاذلة.

١- حياة :

عمرو بن العبد الملقب « طرفة » من بني بكر بن وائل ؛ وُلد حوالي سنة ٥٤٣ هـ في البحرين على الخليج الفارسي من أبوين شريفيين : العبد البكري الشاعر ، ووردة بنت عبد المسيح . وكان له من نسبه العالي شبه إيطار من أرباب الشعر فجده وأبوه وعماه المرقشان الأكبر والأصغر، وخاله المتلمس شعراء .

١- اليتيم المهمل : مات أبوه وهو بعد حدث فكفله أعمامه إلا أنهم أساءوا تربيته ، وضيعوا عليه بهضمهم حقوق أمه البعيدة عن قومها . فتهددهم الشاعر بقوله :

ما نَنظرونَ بحقِّ وردةَ فيكمُ صَغَرَ البَنونَ ورَهْطُ وِزْدَةٍ غُيِّبُ
قد يَمُتُ الأمرُ العَظيمَ صَغيرُهُ حتى تَظُلُّ لهُ الدِّماءُ تَصَبُّ
والظُّلمُ فَرَّقَ بينَ حَيِّي وائِلٍ : بَكَرُ تُساقِيها المنايا تَغْلِبُ

٢- الطفل اللاهي : ما كاد طرفة يفتح عينيه للحياة حتى قذف بذاته في أحضانها يستمتع بلذاتها من غير ما حرج . فلها وسكر ولعب مبذراً حتى الإسراف ، مكابراً لا يُريد الاعتواء .

٣- الغلام الطريد : واذا لم يرفع عن تبذيره وطيشه ، بل لبث مكابراً في اندفاعه الاعمى في مسالك الرذيلة ، اضطرَّ قومه على طرده :

وما زالَ تَشْرابي الخُمورَ ولذَّتي وبَيْعي وإنفاقي طَريفي ومُتَلَدِي
إلى أنْ تَحامَتني العَشيرةُ كُلُّها وأُفِرِدْتُ إفرادَ البعيرِ المَعْبَدِ

فراح عندئذٍ على ناقته يضرب في البلاد، فتارةً يغزو وطوراً يأوي الى مغاور الجبال، حتى يبلغ به تجواله اطراف جزيرة العرب وقد يكون بلغ به الحبشة .

(١) يشير الى حرب البسوس (٢) الطريف : الحديث المكتسب من المال . المتلد : المال القديم الموروث (٣) تحامتي : توقفتي واجتبتني . المعبد : المطلي بالقطران لجربه .

٤ - الشاعر الراعي : وبعد أن ذاق من الايام مرارةً وعلقماً تأوَّب الى
عشيرته وفي عزمه ان ينقاد لأقطابها فيركن الى الحياة الرشيدة الحكيمة، حياة قد
تهيأ له أن يعرف قيمتها في ما انتابه من عنّت التشرد وذُلّ الغربة :
كُنْتُ فيكم كَأَمَطِي رَأْسُهُ فَانْجَلَى اليَوْمَ قِنَاعِي وَنُحْمَرُ^١

وإذ كان صفر اليدين اضطرَّته حاله ان يرعى إبل معبد، أخيه لأبيه . ولكن
أنى للشاعر الشاب الفخور بنفسه وبقومه أن يُحسن رعاية الإبل . فأهمَلها للنظم .
ففقدت، فطالبه معبد، فلجأ الى ابن عمِّ له اسمه مالك فخذله ولأمه على ما أتى وما
لم يأت من سوء (المعلقة : ٧٦ - ٧٩) ؛ فنصره سيدان من قومه امتدحهما . فردَّ
إبل أخيه ومال على ما تبقي يُحيي به حياته السالفة من لهو وعبث، إرضاء لشبابه
النَّهَم وكبريائه المستحكمة، غير آبه لتضح ولا لزجر (المعلقة : ٥٥ ، ٥٦) .

٥ - نديم الملوك : ومستته الحاجة مرةً ثانية فقام عن قومه، وهم لا ينفكون
عن هجره ونبذه، وطاف في البلاد ؛ وبلغ به تجواله بلاط الحيرة حيث كان خاله
الملتس وصهره عبد عمرو بن بشر . فأكرمه الملك عمرو بن هند وقرببه . إلا أن
لسان الشاعر لم يتورع من هجاء صهره لتصرفه السيئ مع زوجته أخت الشاعر ،
ومما فيه قوله :

ولا خيرَ فيه غيرَ أَنَّ لَهُ رَغْيٌ وَأَنَّ لَهُ كَسْحًا إِذَا قامَ أَهْضًا^٢

وهجا الملك ايضاً وأخاه قابوساً :

فَلَيْتَ لَنَا مَكَانَ الْمَلِكِ عَمْرٍو رَغَوْنَا حَوْلَ قُبَيْتِنَا تَخَوَّرُ^٣
لَعَسْرُكَ إِنَّا قَابُوسَ بْنَ هِنْدٍ لَيَسْخِطُ مُلْكُهُ نَوَكُ كَثِيرُ^٤

(١) الحُمُر : الأستار . يقول : كنتُ قبلاً اعمى البصيرة مضللاً، وقد زال الآن ضلالي وعرفتُ
الحقيقة (٢) الأهضم : النحيف اللطيف . وفي هذا القول تهكم لان عبد عمرو بن بشر كان سميناً؛
فوصفه الشاعر بلطف الحصر (٣) الرغوث : الناقة الخلوب (٤) النوك : الحُمق .

ولِدَاعٍ حَدَا عَبْدُ عَمْرٍو عَلَى الْوَشَايَةِ بِالشَّاعِرِ فَأَوْغَرَ صَدْرَ الْمَلِكِ عَلَى الشَّابِّ الْمُسْتَهْتَرِ وَتَوَقَّعَ الْفَرَصَ لِلْإِقْقَاعِ بِهِ .

٦ - الشَّابُّ الْقَتِيلُ : وَقُتِلَ طَرْفَةُ وَهُوَ دُونَ الثَّلَاثِينَ حَوَالِي سَنَةِ ٥٦٩ .

وذلك - على ما يُروى - أن عمرو بن هند كتب لطفرة ولعلتيس ، وكان في نفسه موجدة عليهما ، كتاباً الى عامله بالبحرين ، وأوهمهما انه أمر لهما بعتاء جزيل سيدفعه اليهما ذلك العامل ؛ وقال لهما أن يمضيا اليه في الحال . واذ كانا في الطريق شكَّ الملتيس في كتابه ففضَّه واذا فيه أمر بقتله . فزق الكتاب والقاء في نهر هناك ، ثم قال لطفرة ان يطلع على مضمون كتابه هو ايضاً فلم يفعل ، بل سار حتى قدم عامل البحرين ودفع اليه الكتاب . فلما وقف عليه أوعز الى طرفة بالهرب لما كان بينه وبين الشاعر من نسب ؛ فأبى ، فحبسه الوالي ، وكتب الى عمرو بن هند قائلاً : « ابعث الى عملي من تريد فأني غير قاتله » . فبعث ملك الحيرة رجلاً من تغلب واستعمله على البحرين ، فخبى بطرفة اليه فقال له : « إني قاتلك لا محالة فاختر لنفسك ميتة تهواها » . فقال : « ان كان ولا بُدَّ فاسقني الحمر وافصديني » . ففعل به ذلك فما زال يتزف دمه حتى مات .

وقد رثت الحرنق أخاها طرفة وبكته بكاءً شديداً ؛ ومما روي لها فيه قولها :

عَدَدْنَا لَهُ سِتًّا وَعِشْرِينَ حِجَّةً فَلَمَّا تَوَفَّاهَا اسْتَوَى سَيِّدًا ضَخْمًا
فُجِعْنَا بِهِ ، لَمَّا رَجَوْنَا إِيَابَهُ ، عَلَى خَيْرِ حَالٍ لَا وَلِيدًا وَلَا قَهْمًا

٢ آثاره :

١ - ما هي : لطفرة ديوان فيه ما يناهز ٦٥٧ بيتاً من الشعر . وقد شرحه يعقوب بن السكيت في القرن التاسع ، والأعلم الشنتمري في القرن الحادي عشر ،

(١) الحجة : السنة . الضخم : العظيم (٢) القحْم : الشيخ الهرم .

وطبعه للمرة الاولى سنة ١٨٧٠ المستشرق الالماني وليم بن الورد Ahlwardt ، في مجموعة «العقد الثمين في دواوين الشعراء الجاهليين» . وفي سنة ١٩٠٠ طبعه المستشرق الفرنسي مكس سليفسون Max Seligsohn مع شرح الشنتميري، ومع ترجمة فرنسية، ومقدمة تاريخية واسعة . وقد ترجمت بعض القصائد الى اللاتينية . وأشهر ما في ديوان طرفة القصيدة الرائية التي مطلعها :

أَصْحَوْتُ أَلْيَوْمَ أَم شَاقَتَكَ هَرُ . وَمِنْ أَلْحُبِّ جُنُونٌ مُسْتَعِرٌ

وخصوصاً المعلقة التي شرحها الزوزني في كتابه «شرح المعلقة السبع» ، كما شرحها النعماني في كتابه «نهاية الأرب في شرح معلقة العرب» ، كما شرحها آخرون ونقلوها الى لغات عدة . وهي دالية على البحر الطويل تقع في ١٠٤ ابیات، واليك بعض الايضاح عنها :

١ الباعث على نظمها : السبب من نظم المعلقة ، إن كان نظمها قد تم في دفعة واحدة، أمّا هو ما لقيه الشاعر من ابن عمه من تقصير وإيذاء ، وبخل وأثرة، والتواء بحقوق المودة - فقد آلمه ذلك ولاسياً وأنه في سيرته بعيد كل البعد عن هذه الخصال، وكان يتوقع من الناس، ولاسياً من يظنهم أكفاء له، أن يعاملوه على حد معاملته للناس من بذل مال وبذل ساعد - ثم ما لقيه من ذوي قرباه من الاضطهاد على اثر تبذيره قنيتة في اللهو ؛ ورغبته في بسط آرائه في ذلك الاضطهاد .

وربما نظمت القصيدة في أوقات عدة، فوصف الناقة الطويل الضخم ينهم عن أنه وليد التشرّد، ووصف اللهو والعبث يُرجح انه نظم قبل التشرّد ؛ وقد يكون عتاب الشاعر لابن عمه من منظومات ما بعد الخلاف بينه وبين اخيه معبد .

٢ أقسامها :

١ - القسم الغزلي، فيه الوقوف على الأطلال ووصف خولة (١ - ١٠) .

٢ - القسم الوصفي : ينحصر خصوصاً في وصف الناقة (١١ - ٢٤) .

٣ - القسم الإخباري : فيه يعرف الشاعر نفسه ومذهبه في الحياة ثم يعاتب ابن عمه ويشكو (٢٥ - ٩٤) ، ثم يعرض وصيته فيطلب أن يُنعى على ما هو به جدير وذلك يستغرق ما تبقى من آيات القصيدة .

٣ شهرتها وأهميتها : كثيرون فضّلوا معلقة طرفة على جميع الشعر الجاهلي « لما فيها من آراء في الحياة وفوائد تاريخية ، عدا جمال الوصف وبراعة التشبيه وقوة التعبير » . وفي هذه المطوّلة « أروع شرح لاحوال نفس شابة وقلب متوثّب عرفا الحياة، وجهلا معناها السامي، فأصابا كثيراً وخطأ أكثر، وكانا شاعرين قبل كل شيء، صادقين بعد كل شيء، محبين أبداً » .

٢ - صحّة نسبتها اليه : لا شك ان الكثير من شعر طرفة منحول؛ واما المعلقة والرائية التي اتينا على ذكرها فنهـ . إلا ان طه حسين يشك ايضاً في صحّة ما جاء من وصف الناقة في المعلقة ؛ وحجّته أن الشاعر ربّعي وهذه القوة غريبة في ربّعة ، فضلاً عن ان ما تقدّم الوصف المذكور وما تبعه لئن سهل وإن جزلاً . ويزيد على ذلك كون الشاعر، خلافاً لجميع من وصفوا نوقهم، يصف ناقته وصفاً جامداً، بمغزلٍ عن كل حركة وحياة في الناقة، فكأنه شدّها الى وتد أمامه وقام يصفها جزءاً جزءاً وعضواً عضواً .

إنّ حجة طه حسين ضعيفة، وحجة المعارضين ليست بأقوى لو لم تكن معتمدة التقليد . وعلى كلّ فالأظهر أنّ الوصف لطرفة لما فيه من طابع البداوة الجاهلية من حيث اللفظ والتعبير والوصف، والطبيعة في التشبيه والاستعارة .

وفضلاً عن ذلك فإنّ طرفة عاش عيشة المتشرّد الصعلوك مدّة غير وجيزة، ولم يصحبه في تشرّده غير ناقته، فكانت له الرفيق الوحيد ؛ ومن ثمّ فلا بدّ أن نرى الشاعر يُغرق في وصفها وقد اخشوشن لسانه والفاظه وتعبيره .

وعدا ذلك كلّه فالناقة كالأسد وكالفلاة . . . كان لها في الجاهلية الفاظها

الوضعية، وهذه الالفاظ ظهرت للخلف مع الايام ثقيلة ضخمة، لكونها تركت في الاستعمال بسبب إهمال موضوعاتها للأخذ بموضوعات جديدة ادخلها الاحتكاك بالاجانب . وأما أن يكون وصف ما تقدم الناقه وما تبعها عند طرفة بلغة لينة، فلأنها اللغة المعبرة عن العاطفة واحوال النفس، وهذه الموضوعات هي هي في البشر على الدوام، ومن ثم فقد بقيت لها الفاظها مأنوسة مستخفة، فضلاً عن ان الموضوع نفسه يقتضي من طبعه الرقة .

٣ - اغراض شعره وميزاتها :

« طرفة يشترك - على حد ما قال البيضاوي - مع اكبر شعراء الجاهلية في خصائصهم الفنية العامة من طبعية وصف وجمال سبك؛ ويمتاز منهم جميعاً بجرارة العاطفة وحرية الفكرة وعمقها . ولا يقف على الوصف الخارجي فيبدع مثل امرئ القيس، ولا يعرض الافكار بترتيب ولكن بجمود مثل زهير، ولا يبالغ احياناً في التعبير عن الشعور مثل النابغة، ولكنه ينفث في شعره حياة غنية محيية تريد الصورة حياة والفكر عمقا، فتبدو فيها شخصية الشاعر القوية بطرافتها، وعدم تحرُّجها، وسمتها الاباحية » . ولنتعرض ابواب شعره ذاكرين أهم ميزاتنا :

١ الوصف : وصف طرفة كوصف الجاهليين صورة للموصوف دقيقة الرسم ، ومن ذلك وصفه للحدوج (المعلقة ٣ - ٥) ، والناقه (١١ - ٤٥) ، واللهمو (٤٨ - ٥٥) .

وفضلاً عن ذلك يمتاز وصفه بالطبيعية وجودة التشبيه الواقعي المستمد من الطبيعة (١١ - ٤٥ ، ٩٠ - ٩٥) .

٢ العتاب والشكوى : في هذا الباب رقة ولين وصدق مع انفة : إن شكاً فذلك لا عن عجز وذلة بل لفرط ظلم ذوي القربى الذين انما هو الذائد عنهم (٨٠ - ٨٣) .

س الغزل : في غزله وقّة البدويّ ولكنّه لا يجاري غزل امرئ القيس في التطرّف (١ - ١٠ ، ٥٠ النخ) .

ز الهجاء : للشاعر في الهجاء نُتِف أشهرها ما جاء في عمرو بن هند وإخيه قابوس ثم في صهره عبد عمرو . ومن صفات هذا الهجاء الجرأة وحدة اللسان، والاستخفاف والسخرية .

ه الحكمة : لطرفة أبيات حكمة هي وليدة أحداث حياته، وأشهرها قوله :
وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضةً على المرء من وقع الحسام المهند
ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تُرود

تلك أهمّ اغراض شعر طرفة، وها إننا سنعمد الى المعلقة مجيلين فيها النظر لنذكر ما فيها من فلسفة شخصية، ومن فنّ، وتاريخ .

٣ طرفة شاعر الفلسفة الشخصية :

طرفة شاعر قوي الشخصية، حرّ التفكير، صريح في قوله وفي عمله . وقد اجتمعت له حكمة الشيوخ وطيش الشباب، ف شعر بالحيوية تملأ قلبه وتسري في جميع شرايينه، ونظر الى ذلك نظر المتفحص الذي يريد العمل عن فلسفة وتفكير، والتصرف في الحياة عن عقيدة .

١ - عوامل فلسفته : وكان خالياً من العقيدة الدينية او تقريباً، يضطرب في بيئة مادية لا ترمي في اكثر اعمالها إلا الى المادّة، وساعد ذلك تربية سيئة لم تجعل توازناً في داخل الرّجل بتقوية العناصر الصالحة وإضعاف الأهواء، وثروة

وما أثر خاتمها له ابوه فنفضته اعتداداً بالنفس وكبراً، وخلقت فيه ايماناً بصحة ما يرى وما يعمل، وفساد رأي من يخالفه، وملأت يده بما يرضي الاميال النهمه في عيشة بطالة يشغل اللهو والخمر قسماً كبيراً منها؛ ثم صعوبات جمّة صبّت عليه الألم والتشاؤم من جرّاء ظلم ذوي القربى الذين هضموا حقوق أمه عن طمع وجشع، ومن جرّاء الطرد والانفراد « كالبعير المعبّد »؛ ثم نزعة فطريّة وراثيّة الى كريم الشيم البدويّة من شجاعة وكرم ونجدة .

تزعتة في فلسفته : شعر طرفة بما في نفسه من نزعة مثالية وثابة الى العلى والى اختيار الاسم الأرفع والأصلح، وبما في جسده من اندفاع نحو الشهوة، ولم ير من موجب لاتباع المثالية دون الشهوة، لان اختيار الاولى وترك الثانية يرتكزان على إيمان بالماورائيات، وقد غشّت الاهواء نظر الشاعر الى تلك الحقائق الازلية وأضعفت إيمانه بها، فخلا مما يخطّ له طريق الحقيقة في فهم الحياة وحسن استعمال ملذّاتها . واذا فلسفته تضطرب بين الاباحية الماديّة والنزعة المثاليّة؛ وتصطبغ بصبغة اليأس والحزن لسرعة زوال الحياة والتكالب على مطاردة الوقت للانتفاع بما يتيح من متاع، يساعد ذلك ما يحزّ في نفسه من ألم الحياة، وبما قاساه في أسرته وتشرّده من الضيم والعذاب .

٣ - مذهبه في فلسفته : قال طرفة في نفسه : « إذا لم يكن من الموت بُدٌّ، واذا لم يكن وراء الموت شيء، واذا كان الموت مُليماً بالفقير والغني، بالجواد والبخيل، بالشجاع والحيان، أفليس الخير أن يأخذ المرء في هذه الحياة بلذّات النفس والجسم جميعاً، فيرضي نفسه بأداء الواجب والارتفاع عن الدنيّات، ويرضي جسمه في الأخذ بأعظم نصيب ممكن يُتاح له من اللذة والمتاع ؟ »

ألا أيّها اذا اللائمي أشهد الوغى وأن أحضر اللذّات هل أنت مُخلّدي ؟
فإن كنت لا تستطيع دفع منيبي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

(١) اللائمي اشهد الوغى : أي الذي يلومني على حضوري الحرب . هل أنت مُخلّدي : أي هل أنت تخلّدي ان انصرفت عنها .

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ، مَا أَخْطَأَ الْفَتَى، لَكَالطَّوَلِ السُّرْخَى وَثْنِيَاهُ بِالْيَدِ
أَرَى قَبْرَ نَحَّامٍ بِجَيْلٍ بِمَالِهِ كَقَبْرِ غُويٍّ فِي الْبَطَالَةِ مُفْسِدٍ^٢

ومذهبه هذا يتضمَّن قسَمين : قسماً متعلقاً بحياته الاجتماعية، وقسماً متعلقاً
بحياته الذاتية .

١ حياته الاجتماعية : يرى طرفه، بالنظر الى الحياة الاجتماعية، انه لقومه قبل
ان يكون لنفسه، سواء في الحرب أم في السلم . وهو يشعر بهذا الواجب شعوراً
قوياً، ولذلك يحتمل نفسه المخاطر والمغامرات، ويسرع في الإجابة الى هذا الواجب :
اذا القوم قالوا : « مَنْ فَتَى ؟ خَلَّتْ أَنْتَنِي عُيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَنْبَلِدْ »

وهو لكل من يحتاج اليه : يتحرَّى الأماكن العالية، يُقيم على ذراها فيراه
السَّائِلُ ويدعوه المُسْتَنْجِدُ، فللمعوزين ماله والمنكوبين ساعده :

ولستُ بِمَلَّالِ التَّلَاعِ مَخَافَةً وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ الْقَوْمُ أَرَفِدُ^٣

وهذا القسم بمجمله وليد نزعة الشاعر المثالية، بخلاف ما سنجده في القسم الثاني
الذي يليه .

٢ حياته الذاتية : طرفه ينظر في حياته الذاتية الى نفسه وجسده :

- النفس : انه يحرص على كرامة النفس العربية البدوية فيوفر لها كل ما هي
بحاجة اليه لتكون عزيزة . فهو إن حالف أَمَاكِنَ اللّهُو يَأْلَفُ مَجَالِسَ الشَّيْخِ :

وإن تبغني في حلقة القوم تلقني وإن تقتنصني في الحوانيت نصطد

(١) ما أخطأ الفتى : ما مصدرية زمنية، أي مدة إخطائه الفتى . الطَّوَلُ : الحبلُ تُربط به
الدابة . ثْنِيَاهُ : طرفاه . يقول : ان الموت لا ينجو منه احد وان ابطأ احياناً في حوله (٢) النَحَّامُ :
الحريص على جمع المال . الغوي : الضال . يقول : لا فرق، بعد الموت، بين قبر الحريص على المال
وقبر الجواد الذي يُطلق يده في سبيل ملامه (٣) حَلَالُ التَّلَاعِ : المُكْثَرُ مِنَ النُّزُولِ فِي
الْأَوْدِيَةِ وَالْأَمَكِنَةِ الْمُنْخَفِضَةِ . يَسْتَرْفِدُ : يَطْلُبُ الرَّفْدَ وَهُوَ الْإِعَانَةُ .

وهو كريم إذا لا معنى للبخل مع الموت، كما انه صاحب حزم وثقة بالنفس واعتماد بالذات، وهو رجل شجاعة وإقدام وصدق في شرف محمّد :

ولكنّ نقيّ عنيّ الرّجالُ جرّاءُ في عليهم، واقدامي، وصديقي ومحتدي
إذا أتدّر القومُ السّلاحَ وجدّني منيعاً إذا بلّتْ بقائمه يدي

وهو إن نادى لا ينادى إلا الأشراف، وان شرب فعلى غناء القيان كما يفعل الأشراف، وهو يأبى، بعد الموت، إلا أن يُنعى كالسيد المؤمل :

فإن مُتْ فانهيّنني بما أنا أهله وشقّي عليّ الجيبَ يا أبنه معبد

- الجسد : ثم إنه فضلاً عن كرامة النفس يحرص، في غير ساعات الجدة، على ان يهب جسمه ايضاً للمتعة التي هي في عرفه بريئة من الإثم؛ والإثم في نظره الاخادي هو العار الذي يُنافي الكرم والشجاعة وما الى ذلك من صفات الجاهلية البدويّة .

* * *

طرفة لا يحبّ الحياة للحياة لانه يائس منها اذ يرى الموت لا يُبقي على احد، وهو حزين بسبب سرعتها وزوالها، وهو مفكّر لا ينقاد لحزنه والانعكاف عليه والبكاء الطويل الذي لا يجديه نفعاً، بل يعتمد الى لذة الحياة التي يحبّها والتي يريد ان ينصرف اليها انصرفاً سريعاً لان الحياة قصيرة . وهذه اللذة هي، في نظره، ثانويّة وهو يتركها حالماً يدعو واجب اجتماعي او واجب نفسي، وهي لا تمنعه من ركوب الاخطار والسعي الى الموت كما يسعى اليه الموت؛ فإباحيته إذن لا تخلو من اقتصاد .

ولذة الحياة قائمة على شرب الخمر والاستمتاع بالحب . وهو يبيع في سبيلها الطريف والمتلذذ، وينصرف اليها في اطمئنان، انصرفاً رقيقاً عن تفكير، لا ذلك

الانصراف الغليظ ؛ وهو يستعرب لوم قومه له في حال كون الفقير والغني بقيا على حبه : الاول لاحسانه والثاني لشرفه :

رَأَيْتُ بَنِي غَبْرَاءَ لَا يُنْكِرُونَنِي وَلَا أَهْلُ هَذَاكَ الطَّرَافِ الْمُمَدَّدِ

٤ قيمة فلسفة :

١ - هي فلسفة حيّة لا تخلو من رفعة : فهي قاعدة حياة الشاعر وصورة

لها تلبّض فيها عقيدته الشخصية، وتنفع فيها اهاؤه القويّة . وهي، من ناحيتها الاجتماعية ومن الناحية التي تتجلّى فيها النزعة العربية، رفيعة، جميلة . وهي مؤثرة لانها تبدو في الظاهر موفقة بين نزعات الجسد ونزعات النفس، موفّرة لكل منهما حاجته .

٢ - وهي فلسفة متناقضة : فإن هذا التوفيق بين نزعات الانسان المختلفة

وهي، لانه لا يمكنه ان يتمّ ويتحقق إلا بإخضاع القوى السفلى للقوى العليا التي تميّز الانسان عما سواه من الاحياء الارضية . وقد لا يتمّ هذا الاخضاع إلا بتضحية بعض النزعات الشهوانية للحفاظ على نوااميس عليا تتعلّق بها قيمة الشخص الانساني العاقل . زد على ذلك ان التفاني في سبيل الغير والتعرّض للمخاطر في سبيل الخير العام وما الى ذلك من شريف الاخلاق، لا تُفسّر تفسيراً وجيهاً بالإلحاد وإنكار الحياة الأخرى .

٣ - وهي فلسفة واهية الاساس : لانّ الشاعر لم يشعر بهذا التناقض لعدم

اعتقاده بالخلود، ولجعله مجرد الشكّ بُرهاناً لكفره . والشكّ عنده مؤسس على العاطفة وحدها دون التفكير العلمي الحقيقي والتحليل العميق ؛ ومن ثمّ فعدم إيمانه لا يقوم على اساس ثابت، والفلسفة التي تقوم على عدم الايمان هذا واهية ايضاً .

٤ - وهي أخيراً فلسفة فاسدة مُفسدة : لأنها لا تفهم الحياة على حسب نواميلها الثابتة التي لا تخضع لهوى منحرف وإن رافق ذلك الهوى خصال في النفس حميدة . وهي من شأنها أن تدكّ أساس المجتمع وتجعل منه ميداناً للسكر والعريضة والفجور، وأن تقود إلى اليأس .

٥ - ساعرية طرفة وفه :

١ - العقل والعاطفة : فُطر طرفة على الشعر فنظمه وهو طفل ثم تغنى به في حياته . ولا عجب في ذلك فقد اكتنفه الشعر من كل جانب كما رأينا، ثم انه كان من طبعه حديد الذهن متوقّده، ينزع عقله منزع التفكير، إلا أن تفكيره واقعي عملي أكثر مما هو تأملي، ومادي نوعاً ما أكثر مما هو روحاني، وذلك لأن العاطفة والشعور عنده يطغيان على العقل؛ فشعوره حادّ، قد شجّده الألم، وهو غني بالحياة صادق؛ ومع صدقه وحدته لا يخلو من اقتصاد؛ فهو لا يندفع اندفاعاً أعمى، أو اندفاعاً صحابياً مرعجاً .

٢ - الخيال : ثم إن طرفة قد جمع إلى حدة الذهن وحرارة العاطفة خيالاً قوياً واقعياً ينزع نزعة ماديّة حسيّة ويجنح إلى القصد والاعتدال والصدق . وقد غذته الصحراء وشجّده الضرب في الأرض والتثقل من مكان إلى مكان . وتجلّى خياله بنوع خاص في تشبيهاته، فإن طرفة، كما رمى القيس وكسائر الشعراء الفطريين، يعتمد التشبيه في التعبير عن أفكاره . إلا أن تشبيهه دون تشبيه الملك الضليل روعة وفناً، وهو يشتمّه من بيئته وبما رآه في تجواله . فإذا أراد الكلام على «حدوج المالكية» شبهها بالسفن التي كان يراها في الخليج الفارسي حيث نشأ؛ وإذا أراد الكلام على سير الإبل في الوادي شبهها بتلك السفن الكبيرة التي تمخر في البحر متهادية، فتشطره على نحو ما يشطر المغائل التراب بيده .

٣ - الاسلوب : أما اسلوب طرفة في معلّته فهو ليس بالأسلوب المنطقي في ترتيب الأفكار؛ إلا أنه يتنوع بحسب مقتضى الحال، فيشتدّ في مواقف الشدة كما

يتجلى ذلك في وصف الناقة، ويلين في المواقف العاطفية والتعبير عن الشعور، وهكذا يجمع بين قوة مُضر ورقة ربيعة، والجزالة في جميع الاحوال .

٤ - التراكيب : اما تراكيبه فلا تخلو من تعقد ومعاظلة أحياناً، كما لا تخلو الفاظه، ولاسيا في وصف الناقة، من خشونة وغرابة .

* * *

هذا هو طرفه في معلقته فإنه قويّ الشاعرية صادق الفن، إلا ان هذه الشاعرية ينقصها الاتزان والنضج؛ وهذا الفن ينقصه المنطق والانساع .

الخاتمة :

يتجلى لنا طرفه، مما تقدّم، شاعراً جليل الأثر على قلة ما بقي لنا من شعره؛ والذي يزيد معلقته شأنًا وفرةً ما هنالك من الفوائد التاريخية؛ فإنها تصوّر لنا ناحية واسعة من أخلاق العرب الكريمة كما تصوّر النزعة المادية في فئة من الشبان الجاهليين . زد على ذلك أنّ هنالك وثائق تاريخية تطلعنا على ما كان للعرب إذ ذاك من ملاحظة وسفن تتخر في خليج فارس وتصعد دجلة، ومن صناعات كوش السفن في البحرين، ودباغة الجلد في اليمن، وصناعة الورق في الشام؛ كما تطلعنا على حذق الروم للبنيان، وعلى ما كان لدى العرب من أدوات كالبرد والعلاة والمرايا والمرداة وما الى ذلك .

* * *

طرفة هو شاعر الشباب الذي جمع الإباء الى التهتك، والذي كان صريحاً في قوله، مقتصدًا في تفكيره وتصويره .

بعض المراجع

- فؤاد البستاني : طرفة وليد - الروائع ٢٤ - بيروت ١٩٢٩
طه حسين : في الادب الجاهلي : القاهرة ١٩٣٣ - ص ٢٤٤ - ٢٥٠
محمد عبد المنعم خفاجي : اعلام الشعر الجاهلي - القاهرة ١٩٤٩
عبد القادر المغربي : معلقة طرفة بن العبد - مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق
١ ص ٢٠٣ - ٢٥٠

موضوعات للبحث

- ١ - طالع معلقة طرفة واستخلص منها نفسيته في منازعها المختلفة، مبيناً النزعة الرئيسية التي تخضع لها سائر النزعات.
- ٢ - كانت فلسفة طرفة نتيجة لحياته. يبين ذلك.
- ٣ - لقد قيل : « فلسفة طرفة هي فلسفة شباب غير مهذب ». ناقش هذه الفكرة، وأوضح ما في فلسفة الرجل من حسنات وسيئات مؤيداً قولك بالبرهان القوي.
- ٤ - تتجلى شاعرية طرفة في معلقته بوضوح. اقم الموازنة بينها وبين شاعرية امرئ القيس.

عبيد بن الأبرص - الحارث بن حلزة عمرو بن كلثوم

١ - عبيد بن الأبرص :

١ حياته : كان عبيد من ندماء حجر الكندي والد امرئ القيس ، وقد شفع عنده في قومه عندما امسكوا عن دفع الإتاوة وحبس اشرافهم . ثم اتصل ببلاط الخيرة حتى قتل المنذر بن ماء السماء نحو سنة ٥٥٤ م .

٢ آثاره : له ديوان أشهر ما فيه المعلقة ، واكثرها في الوصف .

٣ فنّه : وصفه مليء بالحياة ، يجري على اسلوب كثير المرونة ، تتصاعد منه موسيقى شعرية أخاذة .

ب - الحارث بن حلزة :

١ حياته : هو من عطاء البكرين ، دافع عن قبيلته في حضرة عمرو بن هند ، وتغلّب على عمرو بن كلثوم . وقد توفي نحو سنة ٥٨٠ .

٢ آثاره : معلقة تقع في ٨٥ بيتاً قالها للدفاع عن قومه عند عمرو بن هند وهي تنقسم الى ثلاثة اقسام كبرى : مقدمة غزائية ، دفاع ، استمالة عمرو بن هند .

٣ فنّه : في معلقة ابن حلزة فنّ خطابيّ ينطق بقوة الفكرة وقوة الحجة وبلاغة اللمحة ؛ وفنّ ملحميّ ينطق بالقصص والوصف الحسيّ ويرخر بالفوائد التاريخية .

ج - عمرو بن كلثوم :

١ حياته : نشأ في بيئة عزيزة فامتأّت نفسه باحجاد تغلب قبيلته ، ثم دافع عن قبيلته في حضرة عمرو بن هند ملك الخيرة مفاخرّاً البكرين ، وفي سنة ٥٦٩ قتل عمرو بن هند ، ثم توفي نحو سنة ٦٠٠ بعد ان شبع من الايام .

٢ آثاره : معلقة تقع في نحو ١٠٠ بيت ، قالها في حضرة عمرو بن هند وعلى أثر قتله له . وهي تنقسم قسمين كبيرين يحتوي الاول منهما المفاخرة ، والثاني الثورة على ابن هند .

٣ فنّه : في معلقة عمرو بن كلثوم ثورة العاطفة ، وثورة الفكر ، وثورة الخيال ، وثورة اللفظ .

١ - عبيد بن الأبرص (عاش بين منتصف القرنين ٥ و ٦ للميلاد)

١ مباد : عبيد بن الأبرص الأسدي من شعراء مُضَر، وقد اختلط ما وصل إلينا من أخباره ؛ وُجِّلُ ما نعرفه عنه أن حجر بن الحارث الكندي والد امرئ القيس، كان حاكماً في أيامه على بني أسد، وكان عبيد من ندمائه ينظم فيه الشعر ؛ وأنه شفع في اشراف قومه لدى هذا الملك الذي حبسهم لإمساكهم عن دفع الإتاوة، فكانت شفاعته مقبولة . ثم انه اتصل ببلاط الخيرة ولبث فيها مدة طويلة مقرباً الى المناذرة، حتى قتله المنذر بن ماء السماء نحو سنة ٥٥٤ .

٢ آثاره :

١ - ما هي : لعبيد بن الأبرص ديوان شعر طبع في ليدن سنة ١٩١٣، من أشهر ما فيه البائية التي جعلها البعض من المعلقات . وهي قصيدة على مخالوع البحر البسيط تقع في ٤٨ بيتاً، نشرها التبريزي ملحقة بالمعلقات السبع مع قصيدتي الأعشى والنابعة في شرح القصائد العشر، ومطلعها :

أَقْفَرَ من أهله مَلْحُوبٌ فَالْقُطَيْبَاتُ فَالذَّنُوبُ

٢ - مضمون المعلقة :

١ الوقوف بالديار التي اوحشت بعد الحبيبة، والبكاء بدمع يشبه مسيل الماء او النهر الصغير (١ - ١٧) .

٢ حكم ومواظ وذكر التوحيد، ويظن النقاد ان هذا القسم منحول، لانه مضطرب في محله، يفصل الوقوف على الاطلال عن وصف الناقة، وذلك على غير عادة الشعراء الجاهليين (١٨ - ٢٦) .

(١) مَلْحُوبٌ : ماء لبني أسد . الْقُطَيْبَاتُ : اسم جبل . الذَّنُوبُ : موضع .

٣ وصف الناقة وتشبيهها بجمار وحش بجانبه آثار العض، أو ثور يرعى مكاناً خصباً (٢٧ - ٣٣) .

٤ وصف الفرس وتشبيهها بالعقاب (٣٤ - ٤٨) .

٣ - فنه : كان عبيد بن الأبرص يمثل في شعره تجاربه ومشاهداته وإحساساته . وقد كان، على ما جاء في الروايات، شاعراً حسّاساً رقيق الشعور، يعطف على المخلوقات جميعاً، ويشملها برقة شعوره، ويشركها في ما لديه من وسائل الترفيه، فيسقي الحياة العطشانة، ويرافقها بنظره العطوف؛ وكان فقيراً يجهد في كسب العيش ويرعى الغنم مع اخته . وقد زاده ذلك رقة بما أشاع في نفسه من ألم . وعندما نطق بالشعر نطق به وادماً أو متوسلاً، حتى إذا اشتدت به الحال فاه بالفخر والحماسة . واننا سننقص كلامنا بنوع خاص على المعلقة التي تدور حول الوصف، فنبتسط عناصر فن الشاعر في الوصف .

١ وصفه مليء بالحياة، وهذه الحياة تأتيه من اشتراك الشاعر في المشهد وتتبع حركاته بشعور قوي، وحرصه على إشراك القارئ أو السامع لشعره في ذلك المشهد حتى لي يجعله يراه ويسمعه ويتتبع حوادثه وحركاته .

ثم تأتيه الحياة من تفصيل المشاهد، والاستطرادات التي يمتزج فيها الوصف بالقصص، وتبدو فيها الحركة شديدة، متتابعة الأفعال، متدافعة الالفاظ .

٢ وصفه يجري على أسلوب كثير المرونة؛ والشاعر يحسن إخضاع لغته لبيانته، فتنقاد له في مرونة عجيبة، ولين ينبعث حتى من بين الالفاظ الغريبة .

٣ في اوصافه موسيقى شعرية أخاذة تتصاعد من حسن رصف الالفاظ، وحسن تكرار بعضها، وموافقة ذلك التكرار لحركة المشهد الذي يوصف وتفضل حركاته .

وهوذا مقطع من معلقته يصف فيه الفرس ويشبهها بعقاب ابصرت ثعلباً

فارتاع لمرآها ارتياعاً شديداً زادها ضراوةً واحتداماً . وفي هذا المقطع تلمس الحياة
والمرونة والموسيقى الشعرية . قال عبيد :

فنهَضَتْ نَحْوَهُ حَبِيثًا وَحَرَدَتْ حَرْدَهُ تَسِيبُ^١
فدَبَّ مِنْ خَلْفِهَا دَبِيبًا وَالْعَيْنُ حِمْلًا قُهَا مَقْلُوبُ^٢
فأَدْرَكَتْهُ فطَرَحَتْهُ وَالصَّيْدُ مِنْ تَحْتِهَا مَكْرُوبُ^٣
فجَدَلَتْهُ فطَرَحَتْهُ فَكَدَحَتْ وَجْهَهُ الْجَبِيبُ^٤
فعاوَدَتْهُ فَرَفَعَتْهُ فَأَرْسَلَتْهُ وَهُوَ مَكْرُوبُ^٥
يَضْغُو وَيَخْلِبُهَا فِي دَقِّهِ لَا بُدَّ حَيْزُومُهُ مَنَقُوبُ^٦

ب - الحارث بن حلزة (توفي في اواخر القرن السادس)

١ مَبَانِي : الحارث بن حلزة اليشكري من عظماء قبيلة بكر بن وائل، ولم يبق
لنا من أخباره إلا ما كان من أمر الاحتكام الى عمرو بن هند
(٥٥٤ - ٥٦٩) لاجل حل خلاف وقع بين القبيلتين بكر وتغلب .

- الاحتكام : بكر وتغلب أخوان دَبَّت بينهما عقارب الفساد، فتعاديا
طويلاً، وتناحرا في حرب البسوس الى ان وقع بينهما المنذر بن ماء السماء وحقن
الدماء . ثم ما هو إلا زمن يسير حتى وقع خلاف جديد بين الفريقين، فاحتكما
الى عمرو بن هند ملك الحيرة، وكان لسان تغلب سيدها وشاعرها عمرو بن كلثوم،
ولسان بكر شاعرها الحارث بن حلزة . فأنشد عمرو بن كلثوم قصماً من معلقته

(١) حَبِيثًا : أي نهضاً حثيثاً، سريعاً . حَرَدَتْ : قصدت . تَسِيبُ : تنساب (٢) الحِمْلُ :
مفرد الجماليق وهي عروق في العين ؛ يقول : من الفزع انقلب حِمْلُ عَيْنِهِ (٣) جَدَلَتْهُ :
طرحته على الارض . كَدَحَتْ : شوّهت . الْجَبِيبُ : الحجارة (٤) يَضْغُو : يصوت . دَقِّهِ :
جنبه . حَيْزُومُهُ : صدره .

فاخراً بقومه على بكر، معجباً بنفسه وقومه أشد الإعجاب؛ فأجابه الحارث بن حلزة برزاة الشيوخ ودهاء المحنكين، مفقداً آراءه، محملاً تغلب تبعة الحروب؛ مادحاً عمرو بن هند مستدرجاً له ليكون في جانبه وجانب قومه . وهكذا كان، فحكم ملك الحيرة لبكر على تغلب .

— وفاته: عمر الحارث بن حلزة طويلاً وقد توفي نحو سنة ٥٨٠ .

٢ آثاره : لابن حلزة بعض الشعر المنشور في كتب الادب . وقد قامت شهرته على معلقته ، وهي همزية على البحر الخفيف، تقع في ٨٥ بيتاً، مطلعها :

أَذْنَقْنَا بَيْنَهَا أَسْمَاءَ رُبَّ ثَوْرٍ يُمَلُّ مِنْهُ الشُّوَاءُ

شرحها الزوزني، وطُبعت في اكسفورد سنة ١٨٢٠، ثم في بونا سنة ١٨٢٧ . وقد تُرجمت الى اللاتينية والفرنسية .

١ الباعث على نظمها : كان الباعث ما رأيناه في احتكام بكر وتغلب الى عمرو بن هند، ودفاع الشاعر عن قومه، وتفنيد اقوال خصمه عمرو بن كلثوم .

٢ أقسامها :

المقدمة : الوقوف بالديار والبكاء ووصف الناقة وتشبيهها بالنعامة (١ - ١٢) .

الدفاع :

١ - تفنيد أقوال التغليبين :

— أكاذيبهم وظلمهم (١٥ - ٢٠) .

(١) أَذْنَقْنَا : أخبرتنا : بينها : بفراقها وابتعادها . الثواء : الإقامة . يقول : أخبرتنا الحبيبة أسماء بابتعادها القريب، وهي لا تُمَلُّ إقامتها فيما أنَّ إقامة غيرها قد تُمَلُّ .

- عدم اكتراث الشاعر وقومه للموشايات التي ان يكون لها قبول عند ابن هند، ولن يكون لها أثر في نفوس البكرين (٢١ - ٣١) .

٢ - مفاخر البكرين : (٣٢ - ٣٩) .

٣ - مخازي التغليين : نقض السلم، الايام التي غلبوا فيها (٤٠ - ٥٨) .

استالة عمرو بن هند :

١ - ذكر العداوة التي كانت قائمة بين عمرو بن هند وبني تغلب (٥٩ - ٦٢) .

٢ - الصلة بين بكر وعمرو بن هند :

- مدح الملك (٦٥ - ٦٨) .

- خدمات البكرين له ولائه (٦٩ - ٨٣) .

- القرابة بينه وبينهم (٨٤ - ٨٥) .

٣ فم : في قصيدة الحارث بن حلزة فن ربيع، هو الفن الخطابي والفن الملحمي، مما يجعل للمعلقة قيمة أدبية كبيرة فضلاً عن قيمتها التاريخية .

١ - الفن الخطابي : ابن حلزة هو خطيب من أبلغ الخطباء، ومحام من أقدر المحامين، فقد وضع امام نظره غاية اراد الوصول اليها وتحايل لبلوغها، وهي أن يحكم عمرو بن هند له ولقومه على تغلب، وقد سخر لذلك عقله، وسياسته، ودهاءه، ولهجته، فأقنع الملك وجعله في جانبه وجانب قومه :

١ أما العقل، فقدّم له قوة الفكرة وقوة الحجّة؛ وكانت فكرته قوية بترابطها وحسن سياقها؛ وكانت حجته قوية بحسن تسلسلها وحسن ترتيب براهينها بسياسة ولباقة ودهاء :

- فقد بدأ بتفنيد اقوال الاعداء وأراجيفهم، ثم بسط مفاخر البكرين فقرب القلوب اليهم لما هم عليه من الصيت الحسن والايام الرائعة، وأبعد كلّ ما من شأنه ان ينفر النفوس من الارتياح اليهم؛ وبعد ذلك انقلب على التغليين، وكأنه لا يريد

نشر مخازيمهم، فنشرها بلطف ودهاء لاذع، وأظهر أنهم لا يستحقون أن يميل اليهم الملك؛ ثم طعنهم طعنة قتالة، إذ أظهر الصلة بينهم وبين الملك، وهي صلة عدا. قديم، فيما إن الصلة بين الملك وبين بكر هي صلة قرابة وحسنى.

وهكذا كان الشاعر بليغاً شديداً بالبلاغة.

٢ وأما اللهجة: فهي لهجة بليغة أيضاً، جمعت اللينة والنعومة إلى القوة؛ والتلميح إلى المصارحة؛ والمدح إلى الإثارة. فدخلت قلب الملك من غير ما حاجز، وبعثت فيه انقلاباً على بني تغلب شنيعاً.

٢ - الفن الملحمي: لجأ الشاعر في كلامه وتأنيده حججه إلى القصص والوصف التاريخي الذي يصيغه الخيال بألوان من التشبيه الحي، والذي تتصاعد منه موسيقى حربية وخرية تدفع القارئ أو السامع دفعا:

آية شارق الشقيقة إذ جاءت معدة، لكل حي لواء^١
حول قيس مستلثمين بكبش قرظي، كأنه عبلاء^٢
فجبهناهم بضرب كما يخرج من خربة المزاد الساء^٣
وفعلنا بهم كما علم الله، وما إن للحائنين دماء^٤

وهذا الوصف القصصي تضمن في معلقة ابن حلزة من الفوائد التاريخية ما يجعل للقصيدة قيمة خاصة فوق قيمتها الأدبية. فهناك أبيات كثيرة في شرح أحداث تاريخية وسياسية من صلح كان بين بكر وتغلب، وإيام كانت بين تغلب

(١) آية: علامة. شارق الشقيقة: أي إلى شرقي مكان يدعى الشقيقة. يقول: أول دليل على شجاعتنا هو ما جرى شرقي الشقيقة إذ أقبلت قبائل معد ناشرة راياتها (٢) قيس: أحد ملوك حمير. مستلثمين: لابسين الدروع. الكبش: سيد القوم. قرظي: يمني. العبلاء: الهضبة البيضاء. يقول: أقبلوا معتصمين بسيد يمني منيع عظيم الشجاعة والثبات كأنه هضبة (٣) الخربة: الثقب. المزاد: زق الماء. وقد شبه الدم المهرق بالماء المنسكب من الزق لغزارته (٤) الحائنين: للهاالكين. دماء: أي ثار يطلب.

وقبائل أخرى كانت الغلبة فيها لتلك القبائل، وضغائن قديمة كانت بين تغلب والمناذرة، وولاء قائم بين بكر والحيرة، الى غير ذلك مما لم يجتمع في قصيدة أخرى جاهلية .

* * *

وفي الجملة فقد جمعت معلقة الحارث بن حلزة كلام العقل والتاريخ والشعر والخطابة .

ج - عمرو بن كلثوم (توفي في اوائل القرن السابع)

١ - حياته :

١ - نشأته : عمرو بن كلثوم من قبيلة تغلب، كان ابوه كلثوم سيد قومه، وكانت أمه ليلى بنت المهلهل أختي كليب المشهور؛ وكانت تغلب منتشرة في الجزيرة وضواحيها، وكانت من أغز القبائل حتى قيل : « لو أبطأ الإسلام لأكلت بنو تغلب الناس » . فنشأ الشاعر في هذا الجو من الغز والسودد، معجباً بنفسه وبقومه، أنوفاً عزيز الجانب؛ وقد صار سيداً لقومه وهو في الخامسة عشرة من عمره .

٢ - اتصاله بعمر بن هند :

١ - الاحتكام : ذكرنا في سيرة حياة الحارث بن حلزة، ما كان من أمر احتكام بكر وتغلب الى عمرو بن هند ملك الحيرة للبت في خلاف نشب بينهما . وقد انتدبت تغلب شاعرها عمرو بن كلثوم للذود عنها، فأنشد قصيداً من معلقته إذ ذاك، وكان في كلامه معجباً بنفسه وقومه أشد الإعجاب، لا يرعى للملك مقاماً ولا حرمة، ولا يعترف له ولقوته بعظمة وسلطان . وعقبه ابن حلزة بسياسته ودهائه فتغلب عليه واستمال عمرو بن هند فحكم للبكرين على بني تغلب؛ فانصرف ابن كلثوم وقومه غاضبين .

٢ القتل (٥٦٩) : وكان عمرو بن هند معجباً بنفسه، فقال يوماً لندمائه : « هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أُمِّي ؟ » فقالوا : « نعم، أم عمرو ابن كلثوم ». قال : « ولم ؟ » قالوا : « لأنَّ أباه مهلهل ربيعة، وعمها كليب ابن وائل أغز العرب، وبعلمها كلثوم بن مالك أفرس العرب، وابنها عمرو وهو سيّد قومه ». فأرسل عمرو بن هند الى عمرو بن كلثوم يستزيّره ويسأله أن يزير أمه أمه . ففعل . وكان عمرو بن هند قد أوعز الى أمه أن تُنحّي الخدم وتستخدم ليلي إذا دعا بالطرف . فدعا عمر بمائدة ثم دعا بالطرف . فقالت هند : « ناوليني، يا ليلي، ذلك الطبق ». فقالت ليلي : « لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها ». فأعادت عليها، فصاحت ليلي : « وا ذلّاه، يا تغلب ! » فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدّم في وجهه، فوثب الى سيف لعمرو بن هند معلق بالرواق، وليس هناك سيف غيره، فضرب به رأس عمرو بن هند، ونادى في بني تغلب فانتهبوا ما في الرواق وساقوا بنائبه وسادوا نحو الجزيرة . وفي ذلك نظم ابن كلثوم بعض معلقته .

٣ - وفاته : على أثر قتل ملك الحيرة أصبحت تغلب في عداء شديد مع المناذرة وجميع من يحالفهم من القبائل، فاضطربت احوالها، وتقلّب بنوها من مكان الى مكان، وقد أُسر عمرو بن كلثوم ثم أُطلق سراحه، فتوَعّده النعمان ابو قابوس فهجاه الشاعر وعيّره بأصل أمه . ولما شبع عمرو بن كلثوم من الايام توفي نحو سنة ٦٠٠ م .

٢ آثاره : لعمرو بن كلثوم شعر قليل يدور حول الفخر والهجاء والمدح . واشهره المعلقة، وهي نونية على البحر الوافر، تقع في نحو مئة بيت، مطلعها :

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكَ فَاصْبَحِينَا وَلَا تُبْقِي خُسُورَ الْأَنْدَرِينَا

(١) الصّحن : القدح الكبير . اصبحينا : اسقينا صباحاً . الأندرين : قرية تقع جنوبي حلب على مسيرة يوم للراكب .

شرحها الزُّوزني والتَّبْرِيْزي وغيرها . وطُبعت للمرة الاولى سنة ١٨١٩ ، وقد
ترجمت الى اللاتينية، والألمانية، والانكليزية والفرنسية .

١ - الباعث على نظمها : نُظمت المعلقة دفعتين، كان الباعث على نظم القسم الاول
منها احتكام بكر وتغلب الى عمرو بن هند، وكان الباعث على نظم القسم الثاني
قتل الشاعر لعمر بن هند .

٢ - أقسامها :

١ - القسم الاول : المفاخرة (١ - ٤٨) وهو القسم الذي أنشد في قصر عمرو بن
هند يوم الاحتكام :

المقدمة : ذكر الخمر والحبوبة، ومخاطبة الحبيبة ووصفها (١ - ١٩) .

الدفاع بالمفاخرة : والتهديد (٢٠ - ٤٨) .

٢ - القسم الثاني : الثورة على عمرو بن هند (٤٩ - ١٠٠)، وهو القسم الذي قاله الشاعر
بعد قتله الملك . وفيه فخر كثير، وانتفاض من قبول العار، وتعداد للمفاخر .

٣ - شهرتها : طارت لمعلقة ابن كلثوم شهرة واسعة في عالم الادب القديم، وكان
بنو تغلب، صفاراً وكباراً يحفظونها، ويتغنّون بها، لما حوت من الحماسة القبليّة
والمجد القومي، حتى قال فيهم بعض البكريين :

أَلْهَى بَنِي تَغْلِبٍ عَنْ جُلٍّ أَمْرَهُمُ قَصِيدَةُ قَالِهَا عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ
يُفَاخِرُونَ بِهَا مُذْ كَانَ أَوَّلُهُمْ يَا لَلرَّجَالِ اشْعُرْ غَيْرَ مَسْئُومِ

٣ - فم : تصدر هذه القصيدة عن نفس غذاها الغز، واشبعها المجد، في موقفين
من أشدّ المواقف حرجاً، ومشهدين من أعظم المشاهد تأثيراً، فاندفعت
تلك النفس، في اندفاع السَّيل الهائج، تقذف بكل ما جاش في داخلها، وإذا ذلك
الشعر هياجٌ صاحب فيه ثورة العاطفة، وثورة الفكر، وثورة الخيال،
وثورة اللفظ :

١ - ثورة العاطفة : تلمس في معلقة ابن كلثوم ثورة شديدة في عاطفته، فهو سيد في قومه يعتز بسيادته وسيادة قبيلته، وينتصر لتلك السيادة نزقاً حاداً، لا يحترم حضور الملك، ولا يُقيم له كبير وزن . وهذه العاطفة الهائجة ستطغى على العقل وتستحث الخيال وتدفع اللفظ دفعا .

٢ - ثورة الفكر : طغت العاطفة على العقل فانقاد لها انقياداً قوياً، واذا الافكار تتدافع، وتتكرر، واذا بها تتخطى حدود الحقيقة، ولا تخضع لمنطق ولا لنظام غير نظام العاطفة الجامحة، ومنطق الكبرياء الصارخة التي لا تجعل حداً لكلامها، ولا تجعل حداً لتكرارها وتفاخرها .

٣ - ثورة الخيال : اندفع الخيال واذا به جامع لا ينطق الا مغالياً غلوّاً ملحياً، في نفس ملحيمي :

ملأنا البرّ حتى ضاقَ عنّا وظَهَرُ البحرُ نملؤهُ سفِينا
لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطشُ حينَ نبطشُ قادربنا
إذا بلغَ الفِطامَ لنا صبيُّ نخيرُ له الجبابرُ ساجدينَا

وخيااله المغالي يتخذ الاسلوب القصصي والتصوير الحسي على ما نشهده في أسلوب الملاحم .

٤ - ثورة اللفظ : تلمس عاطفة الشاعر في مبناه أيضاً . فالفاظه تجري كخيول في ميدان السباق . وهي لينة، سهلة لانها من وحي العاطفة الشائرة التي يضيق بها الوقت عن الاختيار والتنقيح . ومن مجموع هذه الالفاظ تتصاعد موسيقى حربية مؤثرة .

بعض المراجع

- عبيد بن الأبرص -

١ المراجع العربية :

- طه حسين : في الادب الجاهلي - القاهرة ١٩٣٣ ص ٢١٩ - ٢٢٢
سيد نوفل : شعر الطبيعة في الادب العربي - القاهرة ١٩٤٥ ص ٥٦ - ٥٨
جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ١ - القاهرة ١٩٣٦ ص ١١١ - ١١٣

٢ المراجع الاجنبية :

Brockelmann : Gesch d. Arab. Litter., I, 26 sq.

- الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم -

١ المراجع العربية :

- الاب لويس شيخو : شعراء النصرانية - بيروت ١٨٩٠
النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية - بيروت ١٩٠٢
جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ١ ص ١٠٤ - ١٠٧
فؤاد البستاني : عمرو بن كلثوم - الحارث بن حلزة - الروائع ٢٦ - بيروت ١٩٢٩

٢ المراجع الاجنبية :

A. P. Caussin de Perceval : Essai sur l'Histoire des Arabes, Paris 1847, t. II, 373 sq.

موضوعات للبحث

- ١ - وازن بين اسلوب عمرو بن كلثوم واسلوب الحارث بن حلزة في معلقتهما، وقل أي الاسلوبين تفضيل ولماذا؟
- ٢ - فخر عمرو بن كلثوم وفخر الحارث بن حلزة. أي الفخرين ألصق بنفس صاحبه واقرب الى نفس القارىء؟ بين ذلك وأيد كلامك بالبرهان.
- ٣ - كان بنو تغلب يحفظون معلقة عمرو بن كلثوم ويتغنّون بها. ما الذي يجعل تلك القصيدة سهلة الحفظ، سريعة الانتشار ولاسيا في قوم كني تغلب؟

أصحاب المعلقات

الفصل الرابع

النابغة الذبياني^٣ (توفي نحو سنة ٦٠٤)

١ - مكانه من عصره :

١ **مكانه السياسي :** ظهر النابغة الذبياني في زمن اشتبكت قبيلته فيه بعدة حروب أو مناوشات، منها حرب داحس والغبراء بين عيس وذبيان، ومنها احتكاك ذبيان بغسّان؛ فكان الشاعر عيناً ساهرة على قومه وأحلافهم . - وظهر النابغة أيضاً في زمن اشتدت فيه المنافسة بين الحيرة وغسّان فعرف ان يستغل موقفه بين البلاطين الراغبين فيه .

٢ **مكانه الادبي :** ينتسب النابغة الى المدرسة الأوسية .

٢ - حياته

١ **نشأته :** نشأته غامضة لا نعرف شيئاً واضحاً عنها .

٢ **شاعر الملوك :** عرف الشاعر بلاط الحيرة وحظي عند ملوكها ولاسيما النعمان ابو قابوس؛ الا ان الحساد، وموقف النابغة من غسّان ومدحه للغساسنة، كل ذلك اوغر صدر الملك عليه، فهمّ بقتله، فهرب الشاعر والتجأ الى الغساسنة فبالغوا في اكرامه؛ الا انه كان يحن الى النعمان ويعتذر اليه حتى رضي عنه اخيراً . - وقد توفي النابغة نحو سنة ٦٠٤ .

٣ **نفسيته :** كان النابغة ينزع نزعةً أرسطقراطية كما كان شديد الاتزان .

٤ **آثاره :** اشتهر بغسانياته واعتذارياته؛ وله معلقة قالها لاسترضاء النعمان .

٥ **النابغة شاعر البلاط :** كان شعره البلاطي مدحاً واعتذاراً . أما المدح فقد كان فيه متكسباً، كما كان عادةً مترفعاً عن غير الملوك والامراء؛ وكان مدحه يمتاز بصيغة خاصة من الفخامة والجلال وبالاكتار من النعوت وضرب الامثال . وأما الاعتذار فقد اتخذ فيه اسلوب التذلل والتخوف والغلو . وكان اعتذاره وافر الدهاء .

٦ **النابغة شاعر السياسة :** تقسم سياسته الى قبليّة وملكية :

- السياسة القبليّة : كانت غايته فيها دفع الأذى عن قبيلته وتعزيز شأنها؛ وقد توسّل الى ذلك بالارشاد والدعوة الى الاتحاد والشفاعة .

السياسة الملكية : استغل فيها ما كان بين اماره الحيرة وامارة غسّان من تنافس .

٧ **النابغة شاعر الوصف والقصة :** كان وصفه واسطة لا غاية يمتاز بالواقعية والاستطرادات، والاسلوب القصصي . ولكنه لا يخلو من جهود .

٨ **فنه :** يقوم فنه على العناية والموسيقى والتشبيه الحسي .

١ - مطار مصر عصره :

١ - مكانه السياسي :

كانت قبائل غطفان، وأشهرها عبس وذبيان، تقيم في الشمال الغربي من نجد بين وادي القرى شرقاً، وجبلي طيى - أجأ وسلمى - غرباً، ووادي السرحان في بادية السماوة شمالاً، ووادي الشربة جنوباً . وكثيراً ما كانت ارضهم تشح عليهم بالقوت والماء والكلأ فلا يجدون إلا الغارة على جيرانهم وسيلة للخروج من ضيقتهم ؛ فكثرت لذلك حروبهم وكانت كل معركة تستتبع ثاراً وكل ثار يلد معركة .

عبس وذبيان - حرب داحس والغبراء : وكان عبس وذبيان أولاد عم ينتمون الى غطفان، ويعيشون متجاورين في البادية، يناصر بعضهم بعضاً ويشد بعضهم أزر بعض، ولا سيما في الحروب التي نشبت بينهم وبين عامر بن صعصعة . إلا ان الايام ما جمعتهم إلا لتفرق فيما بينهم، فاشتعلت الحرب بين عبس وذبيان وكان الباعث عليها سباقاً عن مراهنه بين سيد عبس قيس بن زهير، وسيد فزارة من ذبيان، حذيفة بن بدر ؛ وللأول فرس اسمه داحس، وللثاني حجرة اسمها الغبراء . أمر حذيفة فكمن أشخاص ليردوا داحس عن الغاية فتسبق الغبراء ؛ وهكذا كان . فطالب حذيفة بحق السبق (مئة ناقة) ، فرفض قيس على ان السبق لفرسه . فنشبت الحرب المعروفة «بحرب السباق» او «حرب داحس والغبراء» . وبذلك صارت ذبيان عدواً لعبس ولعامر على السواء، فتحالفت ذبيان مع تميم ومع بني أسد . وقد استمرت تلك الحرب اربعين سنة، وكان من ابطالها عنزة الفوارس .

الحيرة وغسان : والى جنب هؤلاء البدو المتناحرين كان ملوك الحيرة وملوك غسان يواصلون التنافس في بث النفوذ ومد السلطان، يعمل هؤلاء في ظل الروم، ويعمل اولئك في ظل بني ساسان . وقد دامت هذه المنافسة وحروبها بين المملكتين لا أقل من قرن ولم تنته إلا مع الفتوح الإسلامية . وانتصر الغساسنة غير مرة

على الحيرة وبالأخص في يوم حليلة قرب قنسرين (٥٥٤)، ويوم عين اباغ (٥٧٠)، وقد احرقوا الحيرة نفسها عام ٥٨٠. وكان الحيريون مع ذلك في بسطة عيش ونعيم حضارة شادوها على غرار الفرس ودعموها بما كسبوه في غزواتهم من كنوز. وكانت المسيحية منتشرة فيها بينهم وقد اعتنقها بعض المناذرة أنفسهم.

وعلى أثر ما ألم بالحيرة من ذل، شاء النعمان بن المنذر ان يُنهض تلك القاعدة من هوانها ويذل غسان ويخفض من نفوذها، فراح يث الدعاية ما بين العرب، واستقدم الشعراء، وهم من أهم عوامل الدعاية إذ ذاك، فأتوا من أماكن بعيدة ومن نواح كثيرة، وأغدق عليهم العطايا، فانقلبوا يحملون الى بعيد أطيب ذكر للحيرة وبلاطها.

وكانت مملكة غسان مسيحية تنزع في ثقافتها العالية نزعة يونانية بسبب تحالفها مع الروم، وكانت حضارتها راقية تتجلى في بنيان القصور وطرق العيش.

غسان وذيبيان : وكان لعرب الجزيرة اتصال بهاتين المملكتين، وقد ظهر فيهم أثرهما؛ بل كان بنو ذيبيان، اذا أجذبت صحراؤهم واشتد فيها القحط، يُغيرون على أطراف مملكة غسان يرعون ما هنالك من كلاب، او يسوقون ما يصادفونه من نعام، فيشتعل القتال بين الفريقين يُساعد الديانين بنو أسد أنصار الحيرة، ويكون النصر تارة لغسان وأخرى لذيبيان؛ وكثيراً ما كان يقع الأسرى من بني ذيبيان وأسدي في أيدي بني غسان.

وكان في تلك الاثناء رجلٌ عربي عرّف بلاط الحيرة وبلاط غسان، ونال حظوة كبرى لدى ملوكهما جميعاً؛ ونصب نفسه للسهر على قومه في شدائدهم وحروبهم؛ وسجل أحداث زمانه من حروب وغارات وما كان له في قومه وغير قومه من سياسة وتدابير، في شعر كثير الألوان مختلف الأغراض. وكان ذلك الرجل النابغة الذبياني.

٢ مكانه الادبي : المدرسة الأوسية :

١ - ماهي : إنَّ من يُجمل الطرف في آثار عدد من شعراء الجاهلية، في ما

يتعلق بالناحية الفنية، يلقي مدرسة شعرية مضرية، ضمت جماعة من شعراء مضر أوغلوا في البادية ايغالا شديداً وتأثروا بمدنية بكر سكان المدن، لما كان بين الفريقين من جوار، ثم تأثروا ببعض ما لفارس التي اضطرت ان تصانعهم لتأمين اسباب اتصالاتها باليمن وشرقي افريقية والحفاظ على سلامة القوافل المارة ببلادهم . وقد تحرّجت تلك المدرسة الشعرية على اساليب أوس بن حَجَر ومذاهبه الفنية في النظم .

واوس بن حَجَر : شاعر من ثَمَر من تميم، اتصل بعمر بن هند ومدحه . وله ديوان طبع في فينة سنة ١٨٩٢ مع ترجمة المانية . وشعره شديد الالتصاق بحياة البادية فإنها أوحى اليه بالمعاني البدوية وصقلت خياله ومسحت الفاظه بمسحة المتانة والحشونة ؛ وقد تزع أوس في خياله نزعة خاصة، قد تكون من ثمار البادية ايضاً، وهي تلك النزعة الحسية المادية، فأتصل خياله بحس اتصالاً شديداً، وكان من ثم الوصف في شعره حسيّاً، واشبه بالتصوير منه بأي شيء آخر . وظهرت في شعره ايضاً النزعة التقليدية، فقلّد من سبقه ولا سيما امرئ القيس ، وكان أسلوبه هذا خطوة مأموسة في مذهب التقليد الذي نجده عند كثيرين من الشعراء .

٢ - ميزات شعر المدرسة الأوسية : كانت المدرسة الأوسية واقعية

شديدة الاتصال بين الخيال والحس ؛ فالجمال الفني عندها مستوحى من المظاهر الطبيعية المحسوسة من غير ما تغلغل الى أعماق النفس وتحليل دخيلتها، وإن كان هنالك بعض الكلام على الاحوال النفسية الداخلية او الافكار والحكم أبرزت بوجه حسي، إن لم تكن في جميع عناصرها، ففي بعض منها او في تفسيرها .

وكانت المدرسة الأوسية الى ذلك تنزع في الشعر نزعة الاناة والروية فلا تندفع مع الطبع، بل تسير في تودة وتفكير متطلبية نوعاً من الفن . ولهذا كثير عند شعرائها التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية وما الى ذلك من ضروب التفنن والصناعة . إلا ان هذه الطريقة البيانية تختلف عن طريقة امرئ القيس في التشبيه، وذلك ان التشبيهات عند الملك الضليل كانت في خطوتها الفنية الاولى القائمة بترام

التشبيهات والإكثار منها، وقد خطت مع المدرسة الأوسية خطوتها الثانية، فكثرت تعقدها وازدادت صنعة وبعداً عن الطبع، يحفزها عامل التكسب أحياناً كما يحفزها عامل التحضر أحياناً أخرى .

٣ - أهم شعرائها : أهم شعراء المدرسة الأوسية في الجاهلية، فضلاً عن أوس ابن حجر مؤسسها، النابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى، والخطيئة .

٢ مهابة :

١ - نشأته : أبو أمانة زياد بن معاوية الذبياني، الملقب بالنابغة لغزارة شعره بالنظر الى شعراء زمانه ولنبوغه وتفوقه فيه، لا نكاد نجد في متون الروايات ما يتهياً لنا معه أن نعرف، ولو بعض الشيء، عن حياته وعن شبابه، اللهم إلا حادث حبه لفتاة اسمها ماوية، قد يكون أخفق في استمالتها بالرغم مما كان عليه من حسن طلبة ومهابة، وزاحم عليها حاتم الطائي فكانت له .

٢ - شاعر الملوك :

١ في الحيرة : اتصل الشاعر ببلاط الحيرة وعرف عمرو بن هند (٥٧٠) وله فيه قصيدة تهنئة بارتقائه العرش بعد أبيه، ثم عرف أيضاً خلفاء عمرو بن هند حتى سنة ٥٨٠، وكان لديهم، على حد قول ابن قتيبة، مكرماً معزراً، كما كان يتردد على ملوك غسان ويمتدحهم .

وما إن اعتلى النعمان أبو قابوس بن المنذر الرابع (٦٠٢) عرش الحيرة حتى قرب النابغة وجعله نديمه، وأغدق عليه العطايا من مال ونياق بحيث كان لا يأكل، على ما زعموا، إلا في آنية من ذهب وفضة، وقد أصفى الشاعر لولي نعمته خالص مدحه، غير أننا نعجب من أن الشاعر لم يخص النعمان، طول هذه المدة، إلا بالقليل من الشعر كالدالية التي وصف بها المتجردة ومطلعها :

من آل مَيَّةَ رَائِحٌ أَوْ مُعْتَدٍ عَجَلَانٌ ذَا زَادٍ وَغَيْرُ مُزَوَّدٍ ١

إلا ان وجود النابغة في بلاط النعمان واحتلاله تلك المنزلة الرفيعة لديه، والحظوة الكبرى التي كانت له عنده، كل ذلك أثار على الشاعر عاصفة من الاحقاد، فراح الحساد ينفسون عليه تلك المكانة متذرعين بالوشايات والافتراء. حتى أُوغر صدر الملك، وحدثت بينه وبين شاعره جفوة لا يُعرف تماماً السبب الذي أدَّى في النهاية اليها . وإن في شعره ما يدل على أن الاقارع افتروا عليه، وقد يكونون عزوا اليه أشعار هجاء للملك، وأن رجلاً بغيضاً - قد يكون المنخل الإشكري - عزا اليه اموراً يهين نفسه منها، وقد يكون من تلك الامور تطرّف الشاعر في وصف المتجرّدة زوج النعمان؛ زد على ذلك ان الشاعر يحاول الاعتذار لكونه مدح ملوك غسان . فيكون ان بعض ما تقدّم ولاسيما السبب السياسي - وقد مدح الشاعر الغساسنة متناسياً ما بينهم وبين المناذرة من عداوة، ومتناسياً ايام غسان عليهم ولاسيما يوم حليلة وحرّق الحيرة - كل ذلك تضافر في صدر الملك فهمّ بقتل النابغة، ولكن عصاماً حاجب النعمان أسرّ الى الشاعر بالامر فهرب الى قومه ثم الى غسان .

٢ في غسان : شدّ الشاعر رحاله الى غسان وكان ذلك بعد سنة ٥٨٧ هـ؛ فوفد على عمرو بن الحرث السادس الاصغر (٥٩٧ هـ)، ومدحه بقصائد عدّة منها بائيته الشهيرة التي مطلعها :

كَلْبَنِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ وَلَيْلٍ أَقَاسِيَهُ بَطِيءُ الْكُؤَاكِبِ ٢

فبالغ بنو غسان في إكرام الشاعر وجالسوه وحكّموه في اموالهم . ولما تُوفي عمرو بن الحرث خلفه النعمان السادس أبو كرب، وكان بطلاً مغواراً يحب الغزوات . وكانت قبيلة الشاعر تميل الى الحيرة وتتعدى على مراتع غسان المحمية وتستاق ما تجدد

(١) مَيَّة : اسم لامرأة يتغزل بها الشاعر . رائح : ذاهب في العشي . مُعْتَدٍ : ذاهب في الغداة . يقول مخاطباً نفسه : أتمضي في حال عَجَلَتِكَ زُودَتِ أم لم تزود بنظرة الى محبوبتك مَيَّة ؟
(٢) كَلْبَنِي : دعيني . النَّاصِب : المتعب . بَطِيءُ الْكُؤَاكِب : أي طويل .

من الماشية، فكان من همّ الشاعر التوسط بين قومه والنعمان أبي كرب، وكان
لحذقه ونفوذه ينال لهم عفواً . ولما قُتل النعمان سنة ٦٠٠ في إحدى غزواته رثاه
النابعة بقصيدة طويلة مشهورة افتتحها بقوله :

دَعَاكَ الْهَوَىٰ وَاسْتَجْهَلْتِكَ الْمَنَازِلُ وَكَيْفَ نَصَائِي الْمَرْءِ وَالشَّيْبُ شَامِلُ^١

ولكن نزول النابعة عند الفساسة في اعلى مرتبة وأخصب عيش لم ينسج من
قلبه حبّ النعمان، ملك الحيرة، والحنين الى ان يتفياً ظلاله الوارفة ويتمتع بنعمه .
فكان يتحنّن الفرس لاسترضائه والاعتذار اليه وتبرير مدائح الفساسة الذين اتزله
منزلة الاخوة فوجب عليه شكرهم :

مُلُوكُ وَإِخْوَانُ إِذَا مَا أَنْبَتْهُمْ أَحْكَمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَقْرَبُ
كَفَعْلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ أَصْطَنَعْتَهُمْ وَلَمْ تَرَهُمْ فِي شُكْرِ ذَلِكَ أَذْنَبُوا

وما إن رأى النابعة الفرصة سانحة للرجوع الى النعمان بن المنذر، وشام بريقاً من
رضاه، حتى ودّع غسان ومال مع قبيلته نحو الحيرة طامعاً في ما كان له في بلاطها
من مكانة ومال، ولاسيا وان خليفة ابي كرب لم يأبه له ، على ما يُظنّ، ولم
تلتناغم نفس النابعة ونفسه .

٣ العودة الى الحيرة : تعدّدت الروايات في كيفية عودة النابعة الى الحيرة ،
ومرجعها الى ان النابعة استفرغ المجهود في الاعتذار والتنصّل مما رُمي به ، وان
النعمان كان يحبّ ان يعود النابعة اليه، فأذن له بالشخص اليه ، فصحب الشاعر
الفزاريين خارجة بن سنان ومنظور بن زياد، وكان بينهما وبين النعمان « دُخْلُ »
اي مودة صافية، وكان النابعة قد استجار بهما لاسترضاء النعمان ؛ ويروى أنّ الشاعر
كتب قصيدته الدالية :

يَا دَارُ مَيَّةَ بِالْعِلْيَاءِ فَالسَّنْدُ أَقْوَتُ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَبَدِ^٢

(١) استجھلتك : همتك على الجهل (٢) يا : حرف تنبيه . العلياء : مكان مرتفع من
الارض . السند : سند الوادي في الجبل وهو أوّل ارتفاعه . والاغلب أن العلياء والسند موضعان .
أقوت : خلت من أهلها : سالف الأبد : ما مضى من الدهر .

ودسّ بها الى النعمان مع احدى القيان لتعني بابيات منها، والنعمان في قبة مع الفزاريين، والنابغة متخفّ فيا بينهما، فلما سمع النعمان الشعر قال : « أقسم بالله إنه لشعر النابغة » وسأل عنه فأخبر به، فأمنه وقرّبه .

٣ - وفاته : وغضب كسرى على عميله النعمان فأمر بإلقاء القبض عليه وقتله، فمات تحت ارجل الفيلة نحو سنة ٦٠٢، فترك النابغة بلاط الحيرة والتحق بقومه يقضي فيا بينهم ايامه الاخيرة حتى وافته المنية نحو سنة ٦٠٤ بعد حياة طويلة مليئة بالحوادث الجسام .

٣ - نفسه النابغة :

١ - الارسطقراطية : كان النابغة في الاغلب من أشرف قومه، وكان في جميع أحواله يتزع نزعة ارسطقراطية تجمع بين الترف وحب الترفن والتعقّف، وتميل به عن الشؤقة ومدحهم والتخلّق بأخلاقهم، فيؤثر الحرص على كرامة النفس؛ كما يتنكّب عن مسالك الدّعارة والمفاسد، وإن اختلفت الروايات وتضاربت في هذا الشأن .

٢ - الاتزان : وكان الى ذلك شديد الاتزان الادبي، راجح العقل ذكياً، ترينه الحكمة والرزانة، وكان سديد الرأي حسن الذوق، يجمع الى حسن الذوق دقة ملاحظة، واتساع خبرة وفطنة؛ وكان وفياً في جميع احواله، إلا اذا دعا داعي السياسة والتكسّب، فيتزيّاً الوفاء اذ ذاك بزيّ ترتضيه السياسة والتلون ولا يأباه مقتضى الحال وشرعة الدهاء . ولكنّ الدهاء لم يعل بالشاعر مع الظالمين بل كان ابدأ من انصار العدل ومن اشدّ الناس قسوة على الظلم والعدوان .

٣ - اثر تلك النفسية : وهذه الصفات بوّأت له لدى قومه ولدى الملوك منزلة رفيعة، كما أهلت له لان يُنصبّ حكماً في عكاظ وتضرب له ثمة قبة من آدم فيقضي بين الشعراء ويحكم في من شعره الافضل؛ وفي كل ذلك كان صاحب

الرأي والمشورة، ينطق بالكلمة فيتردد لها صدى في قلوب الكبار والعظماء؛ ولكن الغنى لم يبطره، والرفعة لم تخرج به عن حدود الكرامة والإباء .

٤ آثاره :

١ - ما هي : للنابعة ديوان جمع فيه الاصمعي (٨٣٨) ٢٤ قصيدة ، وزاد عليها الطوسي (القرن التاسع) ، قصائد أخرى عدة ، وجمعه أيضاً الشكري (٩٠٢) مع ديواني امرئ القيس وزهير ؛ ونشر المستشرق وليم بن الورد W. Ablwardt سنة ١٨٧٠ مجموعة دواوين ستة من الشعراء بينهم النابعة الذبياني . وقد شرح الديوان الأعلام الشتمري (١٠٨٣) وابو بكر البطليوسي (١١٠٠) ، ونقله المستشرق ديرنبورغ Derenbourg الى الفرنسية . وطُبع الديوان عدة مرات في القاهرة وبيروت .

ومن أشهر ما للنابعة بائنته التي مطلعها :

كَلْبِي لِحَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ ناصِبٍ وَلَيْلٍ أَقَاسِيهِ بِطِيٍّ الْكَوَاكِبِ

ثم معلقته ومطلعها :

يَا دَارُ مَيْتَةٍ بِالْمَلْيَاءِ فَالسَّنْدِ أَقْوَتَ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَبَدِ

ثم رائية ذهب البعض الى انها هي المعلقة دون الأولى ، وهو رأي ضعيف لا يؤخذ به ، ومطلع هذه الرائية :

عُوجُوا فَحَيُّوا لِنُعْمِ دِمْنَةِ الدَّارِ مَاذَا تُحْيُونَ مِنْ نُؤْيٍ وَأَحْجَارِ

(١) عُوجُوا : ميلوا وقفوا . الدِّمْنَةُ : ما اجتمع من آثار الديار . النُّؤْي : حفير حول الحباء يصرف عنه ماء المطر .

أما المعلقة فقد قالها الشاعر قُبيل مواجهة النعمان الساخط عليه، وكانت وسيلة من وسائل استرضائه، وأقسامها :

- ١ - وقوف على الأطلال (١ - ٦) .
- ٢ - وصف الناقة والثور الوحشي (٧ - ٢٠) .
- ٣ - مدح النعمان (٢١ - ٣٦) .
- ٤ - تبرير نفسه وطلب العفو (٣٧ - ٤٠) .

٢ - صحة نسبتها اليه :

لا يخلو ديوان النابغة من تحريف، وقد اتخذ طه حسين مقياساً في هذه القضية كون الشاعر من المدرسة الاوسية، فكل ما لا يتفق ومُشرب هذه المدرسة ينبغي كونه للنابغة ؟ ومن ثمَّ فهو يرى أن كثيراً من الشعر المعزوف الى النابغة ليس له، لما فيه من اضطراب وركاكة الفاظ وسخف معانٍ وُبعد عن الروح الجاهلي ؟ والشعر المدحي والاعتذاري في رأيه أكثر نَجَلًا من الشعر الذي يدور حول الحياة البدوية الخالصة، لما في هذا النوع الاخير من شعر النابغة من اتصاف بميزات المدرسة الاوسية كالمثانة والرصانة وقلة الإسفاف . وهو يذهب مثلاً الى ان القسم الكبير من الدالية في وصف المتجرّدة منحول، كما يذهب غيره الى ان وصف سليمان مثلاً في المعلقة (٢١ - ٢٧) منحول ايضاً . وكلام الدكتور طه حسين، على ما فيه من غلو كثير، لا يخلو من حقيقة .

٣ - اغراض شعره :

يقسم شعر النابغة الى اقسام ثلاثة كبرى : ١ - شعره في ملوك الحيرة في المدح والاعتذار ؛ ٢ - شعره في ملوك غسان ويُعرف بالغسانيّات ، وهو مدح ورثاء وما الى ذلك ؛ ٣ - ثم شعره في شؤون سياسية تتعلق بقبائل نجد وما كان بينها من صلات الحرب والسلم وما الى ذلك . وفي شعر النابغة وصف كثير كما فيه بعض النسيب والهجاء .

وقصارى القول أن النابغة شاعر البلاط بتكسبه واعتذاره، وشاعر السياسة والدّهاء في تلونه وتقلبه بين امارتي الحيرة وغسان وما هو من شؤون قبيلته وحلفائها، وهو على كل حال شاعر الوصف والقصة يجري فيها على سنن المدرسة الاوسية؛ وقد ضمن شعره من الفوائد التاريخية ما هو جدير بكل اعتبار .

٥ النابغة شاعر البلاط :

استهوى البلاط النابغة الذبياني وسلخه من الخلق العربي البدوي الذي يعيش الحرية ولا يستعبد للترف، فكان أول شاعر عربي جنى عليه البلاط والانجbas في قفصه الذهبي، وكان أول شاعر عربي خرج في قسم كبير من شعره عن القبيلة والتغني بأجادها ومفاخرها، وعن جعل الشعر وقفاً عليها .

١ - التكسب : نظر النابغة الى شعره فراه طريقاً الى المجد والغنى، يرغب فيه امراء الدول العربية ويكرمونه لاجله، ويُغدقون بسببه عليه العطاء والثوق العاصيرية؛ وقد تكون البواث التي حملت النابغة على المدح في بدء امره دوافع نبيلة كالشكر على الفضل، ولكنه ما إن ذاق طعم العطاء، حتى طلب المزيد منه، وأطلق لسانه في أساليب الشعر التي تريده كسباً ورفعة لدى الملوك، وفصل المعاني والعواطف المصطنعة التي تستدرّ ايديهم، وعمد الى الالفاظ والتعبيرات التي تروقهم . وهكذا كان الشعر حرفةً للتكسب، بعد ان كان - على حد قول ابن رشيق في العمدة - « فكاهاة او مكافاة عن يد لا يستطيع (الشاعر) على اداء حقها إلا بالشكر إعظاماً لها » .

١ دلائل التكسب : وتكسب النابغة ظاهر في شعره، فهو يكثر من المدح، وهو يكثر من الثناء على العطاء والسخاء :

أعطى لفارحة، حُلوم توابعها من المواهب، لا تُعطى على نكدٍ

(١) الفارحة : الناقة الكريمة . لا تُعطى على نكد : أي لا تُعطى مع أسف .

بل هو لا يخشى التصريح بالطلب كما في قوله :

إلى ابنٍ مُحرَّقٍ أَعْمَلْتُ نَفْسِي وراحلي وقد هدَّتِ الْعُيُونُ^١
أَتَيْتُكَ عَارِيًّا خَلَقًا ثِيَابِي على خوفٍ تُظَنُّ رِيَّ الظُّنُونُ^٢
يَجِبُ لِي الْكُفَيْتُ قَلِيلَ وَفَرٍ أَذْكَرُ بِالْأُمُورِ وَأَسْتَعِينُ^٣...
وَأَنْتَ الْغَيْثُ يَنْفَعُ مَا يَلِيهِ وَأَنْتَ السَّمُّ خَالِطُهُ الْيَرُونُ^٤

وهو يصرح في رثائه للنعمان الغساني ان كل ما له عطية منه، وان الحياة بعده لا طائل تحتها :

فَإِنْ نَحْنِي لَا أَمَلُ حَيَاتِي؛ وَإِنْ تَمَتُّ فَمَا فِي حَيَاةٍ، بَعْدَ مَوْتِكَ، طَائِلٌ...

^٢ المدحون : أما الاشخاص الذين مدحهم النابغة أو رثاهم ، فهم عادةً الملوك والامراء الذين يوافقون نزعتهم الارسطقراطية، ولم يمدح من غير الملوك إلا النعمان بن الجلاح قائد الحارث بن أبي شمر الغساني الذي أغار مرة على بني ذبيان وأسر منهم عدداً، وكان في هذا السبي عقرب بنت النابغة، فلما عرفها قال لها : « والله ما أحد أكرم علينا من أبيك، وما أنفع لنا عند الملك » ثم جهّزها وخلّاها، ثم قال : « والله ما ارى النابغة يرضى بهذا منك »، فأطلق له سبي غطفان وأسرهم . فاعجبت النابغة هذه الاريحية وامتدح صاحبها، وقد اعتذر لمدحه إياه بقوله :

وَكُنْتُ أَمْرًا لَا أَمْدَحُ الدَّهْرَ سُوقَةً فَلَسْتُ عَلَى خَيْرٍ أَنَاكَ بِجَاسِدٍ

وكذلك مدح النابغة هُوَذَةَ بن ابي عمرو العُدري، وكان يُقال له ربُّ الحجاز : وفي ما عدا هذين لا نكاد نجد للنابغة شعراً مدحياً إلا في المناذرة ملوك الحيرة ولاسيا النعمان ابو قابوس، وفي الغساسنة ملوك الشام، وفي بعض رجال قومه . ومن

(١) الراحلة : البعير النجيب (٢) خَلَقًا ثِيَابِي : أي وثيابي بالية (٣) يَجِبُ : يعدو . الْكُفَيْتُ : البعير الاحمر الذي خالط حمرة سواد . قَلِيلَ وَفَرٍ : قليل مالٍ ومتاع (٤) اليرون : السَّمُّ . (٥) السوقة : الرعيّة التي يسوسها الملك .

ثم نرى ان مدح النابغة انواع ثلاثة بالنظر الى ممدوحيه : مدح بحت كما في قصيدته التي وجهها الى الغساسنة، وشكر على معروف كما فعل مع ابن الجلاح، او مدح مشوب بالاعتذار كمدحه للنعمان بن المنذر .

٣ معاني المدح : وأما معاني مدحه فأكثرها يرجع الى ما هو من علو المنزلة، وسعة السلطان، والسخاء، والشجاعة والجيوش، والتدين والتعقل وما الى ذلك :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب^١ . . .
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم حين فلول من قراع الكتائب^٢ . . .
لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم من الجود، والأحلام غير عواذب^٣ . . .
مجلستهم ذات الإله، ودينهم قوم، فما يرجون غير العواقب^٤ . . .

٤ ميزات المدح : وأما ميزات مدح النابغة فكثيرة، وقد نجم معظمها عن رغبة الشاعر في إرضاء الممدوح واستدراار نعمه . وأول ما يعترضنا في ذلك المدح صبغة من الجلال والفتخامة تليق بالملك . فنرى المدح جليلاً في أسلوبه وبجوره والفاظه وموسيقاه؛ فهو يمتد امتداداً مهيباً، يتقدمه الغزل وما اليه، ووصف الناقة التي تبلى صاحبها الى الممدوح، وصفاً رائعاً طويل الاستدارات التشبيهية؛ وهو يقف عند الممدوح فيلتي عليه الصفات الفريدة التي توافق مقتضى الحال، فيزخر اذ ذاك الشعر بالمبالغة في النعوت - والملوك مياّلون الى مثل ذلك - وضرب المثل والحكمة للاقتناع، واذا النعمان شمس تكسف بضيائها الكواكب :

فإنك شمس، والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منها كوكب

(١) العصائب : الجماعات . يقول : ان عصائب الطيور تتبع جيوشهم التي توفر لها دائماً أشلاء القتلى (٢) الفلول : الثلوم . القراع : المجالدة . وقوله « ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . . » : مدح في معرض الذم، لان انفلال السيوف من قراع الكتائب فخر وفضل (٣) الشيمة : الطبيعة . الأحلام : العقول . العواذب : البعيدة . يقول : لهم شيمة من الجود لم يعطها الله غيرهم، وأحلامهم حاضرة، فهم يعملون عن روية ورصانة (٤) مجلتهم : أي الكتاب الذي يحتوي الحكمة، وهو هنا الانجيل لان الغساسنة كانوا نصارى .

واذا هو ليلٌ يُدرك الجميع فلا ينجو أحدٌ من سلطانه :
فإنَّكَ كاللَّيْلِ الذي هو مُدْرِكِي وإنْ خَلْتَ أَنَّ الْمُتَنَائِي عَنْكَ وَاسِعٌ^١

واذا للغساسنة شيمٌ لم يعطها الله غيرهم ؛ واذا هنالك بحر واسعٌ من الغلوّ
والتهويل في قوّة المدح وعظمته يحمل الرهبة والرغبة وحبّ العطاء .

ومما يؤخذ على النابغة في مدحه أنه يلجأ أحياناً الى رثاء المدحوح حياً، فيبكي
عليه قبل ان يموت ؛ وهذا أسلوب تتجّه اذواقنا، ولا تألفه نفوس أبناء الحضارات
الراقية وإن لم تنكره اذواق الجاهلية .

٢ - الاعتذار : فقد النابغة النعمة في بلاط النعمان الحيريّ على أثر الوشايات
في جانبه، وذهب الى الغساسنة ومدحهم وهم أعداء المناذرة ، فأراد أن يسترضي
النعمان أبا قابوس ويعتذر له مستعظفاً ليرجع الى مرابع الخصب واجاه الوفير . فقال
في هذا الصدد عدّة قصائد أشهرها ثلاث : البائية، ومطلعها :

أَتَانِي، أَبَيْتَ اللَّعْنُ، أَنَّكَ لُمْتَنِي وَتِلْكَ الَّتِي أَهْتَمُّ مِنْهَا وَأَنْصَبُ^٢

والدالية ، ومطلعها :

يَا دَارُ مَيَّةَ بِالْعَلْبَاءِ فَالسَّنْدُ أَقْوَتُ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَبْدِ

والعينية ، ومطلعها :

عَفَا ذُو حُسَى مِنْ فَرْتَنَا فَالْفَوَارِعُ فَشَطًّا أَرِيكَ فَالتَّلَاعُ الدَّوَارِعُ^٣

١ - أسلوب الاعتذار : أما الاعتذار من مدح الغساسنة فقد فصله النابغة بقوله

(١) الْمُتَنَائِي : البُعد (٢) أَبَيْتَ اللَّعْنُ : كَلَامٌ كَانَ يَقَالُ لِلْمُلُوكِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، مَعْنَاهُ الدَّعَاءُ بِالْبَرَاءَةِ مِنَ النِّقَاطِ، أَيْ لَا فَعَلْتَ مَا تَلْعَنُكَ النَّاسُ بِسَبِيهِ . تِلْكَ : أَيْ تِلْكَ الْمَلَامَةُ . أَنْصَبُ : أَعْنِي بَعْدَ مَشَقَّةٍ (٣) عَفَا : دَرَسَ . ذُو حُسَى : مَكَانٌ فِي بِلَادِ بَنِي مُرَّةَ . فَرْتَنَا : كَلِمَةٌ مِنْ أَسْلِ يُونَانِي مَعْنَاهَا الْفَتَاةُ . الْفَوَارِعُ : الْأَمَاكِنُ الْمُرْتَفِعَةُ فِي الْوَادِي أَوْ الْجَبَلِ . أَرِيكَ : جَبَلٌ بِالْبَادِيَةِ . التَّلَاعُ جَمْعُ تَلْعَةٍ وَهِيَ مَجْرَى الْمَاءِ مِنْ أَعْلَى الْوَادِي . يَقُولُ : عَفَا ذُو حُسَى مِنْ مَنَازِلِ فَرْتَنَا لِمَعْدِهِ مِنْ عِمَارَةِ الْأَنْبَسِ .

ان الغساسنة جعلوه أخاً يحكم في أموالهم ؛ وقد احتج لعمله هذا بما يفعله النعمان مع من اصطنعمهم وقرَّبهم منه فشكروا له فضله، قال :

مُلُوكُ وَإِخْوَانُ إِذَا مَا أَتَيْتُهُمْ أَحْكَمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَقْرَبُ
كَفَعَلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ أَصْطَنَعْتَهُمْ وَلَمْ تَرَهُمْ فِي شُكْرِ ذَلِكَ أَذْنَبُوا

وأما الاسترضاء فيريد النابغة البلوغ اليه بنبي التَّهَم عنه أولاً ، وهو لذلك يكذب الوشاة ، ويبرر نفسه مقسماً الاقسام المغلطة وطالبا من الله العقاب اذا كان مذنباً . ثم يصور عظمة النعمان واتساع ملكه وسلطانه ، ويصف حاله وعدله ، كما يشي على جوده وأريحيته ، ذلك الجود الذي يشبه الفرات في فيضان مياهه ، والذي لا ينفك النابغة يرجع اليه في اعتذارياته كأنما يريد التعبير عن رغبته المِلْحَة في نيل العطاء .

ثم يلجأ الى تصوير نفسيته تجاه غضب ذلك الملك الواسع السلطان والجود ، واذا به قلق لهول الخطب ونصب لغضب النعمان ووعيده ، واذا به لا يقر له قرار لا في الليل ولا في النهار ، فكأنه ينام على الشوك ، او توابه الأفاعي ؛ وقد اشتهر النابغة بوصف ليالي الخوف ، حتى قيل : « ليلة فابغية » ؛ وأهم ما توصف به ليلته : الطول بإسراف ، وتضاعف الهموم اذ ينضم الى هموم الليل هموم النهار ؛ ثم امتلاء بالوساوس العنيفة ؛ ثم إحياء للأسباب التي أدت به الى تلك الحال ، وليست هي سوى افتراءات ووشايات كان منها انه هو ألقى في الألم خارجاً ، وأصحاب السوء والشر مكرّمون في القصر ؛ هو البري . كلّف ذنب غيره . فيبرر ساحته ولكنه لا ينفك يرى الظلم في جانبه فيستسلم الى اليأس الممض :

وَعِيدُ أَبِي قَابُوسَ ، فِي غَيْرِ كُنْهٍ ، أَنَا نِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضَّوَّاجِعُ
فَيْتُ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي ضَبْلَةً مِنْ الرُّقْشِ فِي أَنْيَا جَا السُّمُّ نَارِقُ

(١) في غير كُنْهٍ : في غير وقته وموضعه . رَاكِسٌ : وادٍ . الضَّوَّاجِعُ : موضع (٢) ساورتني : واثبتني . ضَبْلَةٌ : أي حبة دقيقة قليلة اللحم . الرُّقْشُ ج رَقْشَاء وهي التي فيها نقط سود وبيض . الناقع : الثابت . يقول : أَنَا نِي وَعِيدُ أَبِي قَابُوسَ عَلَى غَيْرِ ذَنْبِ أَذْنَبْتُهُ وَبَلَغَ مِنِّي مَبْلَغاً بَتُّ مِنْ أَجْلِهِ كَالْمَدْوِغِ عَلَى بَعْدِ الْمَسَافَةِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ .

أَتَانِي، أَبَيْتَ اللَّعْنَ، أَنَّكَ لُمْتَنِي وَتَكَ أَلْتِي تَسْتَكُ مِنْهَا الْمَسَامَحُ...١

ويسخر النابغة في الاسترضاء النصيح يوجهه الى النعمان بلطف ، فيدعوه الى التروى، والى إقامة البرهان بعد الامعان في القضية حتى لا يكون حكمه ظالماً ، ويضرب له في ذلك مثل زرقاء اليمامة التي أصابت في حكمها ولم تخطئ وذلك لأنها أحسنت النظر الى الحام .

ولكي يصل الشاعر الى غايته نراه يعتمد الى التذلل والخضوع مما لا عهد به للعرب الاحرار، فيجعل نفسه عبداً للنعمان يتقبل القصاص برضى او ينتظر العفو من سيده متفضلاً :

أَتُوْعِدُ عَبْدًا لَمْ يَخُنْكَ أَمَانَةٌ وَيُتْرَكُ عَبْدٌ ظَالِمٌ وَهُوَ ظَالِمٌ
فَإِنْ أَكُ مَظْلُومًا فَعَبْدٌ ظَلَمْتُهُ وَإِنْ تَكُ ذَا عُنْبِي فَمِثْلُكَ يُعْتَبُ

٢ ميزات الاعتذار : وأما ما تمتاز به اعتذاريات النابغة فالحجة القويّة ، والدّهاء في رصف البراهين ودواعي العفو . فمنطقه منطق المحامي اللبق، الذي علّمته الايام ان يتلوّن وأن يحسن استغلال المواقف والاحوال، وان يظهر بمظاهر الرهبة الشديدة وهو في كنف قومه تحميه سيوفهم، او في كنف بني غسان تدافع عنه جيوشهم ؛ وأن يصطنع العواطف ، فيغالي في تهويل الخطب ويغالي في إظهار حالات التخوف والقلق، ويغالي في تعظيم سطوة النعمان وسلطانه .

أتى النابغة في اعتذارياته بما يدل على تفهّم للنفس البشرية، وقدرة كبيرة على ابتكار المعاني والتحايل في أسر القلوب . وقد فتح بها باب العتاب السياسي .

٦ النابغة ساعر السياسة :

كان للنابغة من صفاته العقلية ومن فطنته ودهائه ما جعله رجل سياسة محنكاً ،

(١) تَسْتَكُ : تصمّ (٢) أَتُوْعِدُ : أُوْهَدِدُ . الظالم : المائل عن الحق (٣) يُعْتَبُ : يعطي العُنْبِي أي الرضى .

ووسيطاً مدرّباً؛ وقد بوّأه موقفه السياسي في قومه وغير قومه منزلة رفيعة يرمقها الجميع؛ وصارت كلمته مسموعة، وشفاعته مقبولة؛ ولم يغفل ملوك الحيرة وغسان عن هذه المنزلة التي تساعدهم على بثّ النفوذ، فتجاذبوه، وأحاطوه بالإكرام؛ وقد وقف النابغة في تلك الأحوال جميعها موقف العارف لقدره، الغيور على مصالح قومه، الحكيم النافذ الكلمة في كل مكان وكل آن، المستغلّ للتنافس بين الحيريين وبني غسان، المتقلب بين البلاطين بدهاء ما بعده دهاء، و«الصحافي» اليقظ الذي يرقب الأحداث وينتبه الأذهان ويحثّ القلوب ويسجّل كل ذلك بدقّة ومهارة.

وتُقسم سياسة النابغة قسمين: السياسة القبليّة، والسياسة الملكية.

١ - السياسة القبليّة: اهتمّ النابغة لشؤون قبيلته اهتماماً شديداً، وقد احتلّت سياستها وحروبها مكاناً واسعاً من شعره وتفكيره. وله في هذا الموضوع قصائد عدّة أهمّها: رائيّة قالها بعد أن لقيه زُرعة بن عمرو بن خويلد بعكاظ وأشار عليه بترك حلف بني أسد وتوّعه، ومطلعها:

طالَ الشّواءُ على رُسومِ ديارٍ قفّرٍ أسائِها وما أسْتَخْباري!

ومميّة مدارها على الاحلاف والثبات في المحافظة عليهم، ومطلعها:

قالت بُنُو عامِرٍ خالُوا بنيَ أسدٍ يا بُوسَ لِلْجَهْلِ ضَرَّاراً لِأَقْوامٍ^٢

ونونية يردّ فيها على عُيَيْنَةَ الذي أراد إخراج بني أسد من حلف ذبيان، ومطلعها:

غَشِيتُ مَنازِلًا بِعُرَيْتِنَاتٍ فَأَعلى الْجِزْعَ لِلْحَيِّ الْمُبِينِ^٣

ورائيّة يعاتب فيها بني مُرّة لتحالفهم عليه وعلى قومه، ومطلعها:

أَلا أبلِغُا ذُبْيَانَ عَنِّي رِسالَةً فَقَدْ أَصْبَحَتْ عَن مَنهْجِ الْحَقِّ جاثِرَةٌ^٤

(١) الشّواء: الوقوف والمكوث. رسوم الديار: بقاياها (٢) خالوا بني أسد: تاركوهم وانفصلوا عنهم (٣) غَشِيتُ: أبيت. عُرَيْتِنَات: اسم وادٍ. الجِزْع: منعطف الوادي المشرف من الأرض، واسم موضع. الْمُبِين: الذي انتشرت فيه رائحة المواشي التي تتنابه (٤) جاثرة: ماثلة، متباعدة.

أما الغاية التي رمى اليها النابغة في سياسته القبليّة فهي دفع الأذى عن قبيلته وتعزيز شأنها .

وأما الذرائع التي تدرّع بها لبلوغ تلك الغاية فهي :

١- الارشاد : فقد وقف النابغة موقف الزعيم المرشد، ينهي مرة عن الحرب، وينهض مرة اليها آمراً . فهو قبل الخلاف بين عبس وذبيان يحاول تلافي أسباب النزاع ويعمل على أن يكون عامل سلام ووثام .

٢- الدعوة الى الاتحاد : ولاسيا في حرب داحس والغبراء . فهو في تلك الحرب عين ساهرة على قومه وحلفائهم، يرغب في أن يظهروا على أعدائهم، ويسعى في أن يحفظ لقومه أحلافهم ولاسيا بني أسد، وكان له على هؤلاء فضل إذ أنقذ أسراهم من يد الغساسنة . فكان لذلك يستخدم ما له من نفوذ لدى الملوكة، ويمدح الاحلاف ويشيد ببطولتهم واصفاً اسلحتهم وحروبهم وبطشهم، ويهجو أعداءهم والذين يريدون ان يفسدوا بين قومه وأولئك الاحلاف . ومع ذلك فلا نراه يهجو عبساً ولا يشمت بهم، وهم من قومه وإن دارت بينه وبينهم الحرب .

٣- الشفاعة : أراد النابغة أن يوفق ما استطاع بين محبته لقومه وحرصه على إرضاء الغساسنة . وقد رأيناه يعتمد الى النصيح، فيحرض قومه على الكف عن الغارات المتتابعة على أطراف غسان، ويهدد قومه قائلاً إن الليث منقبض على برائته؛ ويصف لهم حالة النساء الحرائر اللواتي يُسَقْنَ الى الأسر بأسلوب يهزّ مشاعر القوم . ويثبّط همهم غسان عن غزوهم، ويُنذر الملك نفسه بأنّ أحلاف قومه أشدّاء ولقاءهم كريبه؛ ويعتذر أحياناً عن قومه؛ وإن غلبوا على أمرهم وسلبوا أنعامهم شفع فيهم لدى الغساسنة وأنقذ ما لهم .

٢- السياسة الملكيّة : وقف النابغة على منزلته لدى المناذرة والغساسنة فأراد أن يستغلّ ما بين الامارتين من تنافس كما حاولت الامارتان أن تستغلاّ شعره . وكانت المسألة أشدّ تعقّداً من سياسته القبليّة، وأكثر دقّة وأعظم شأنًا . فقسم

الشاعر نفسه بين الامارتين، وسلك بينهما مسلكاً جعلهما يتسابقان الى التقوي بمكانته والى غض الطرف عن ميله الى هذا البلاط أو ذاك . وهذا المسلك غاية في الحذق والمهارة واللباقة . وقد أفاد من تلك السياسة لنفسه مآلاً وجاهاً، ولقومه وأحلافهم تساهلاً وحسن إغضاء عند العساسة خاصة .

وهكذا أظهر النابغة قدرة عظيمة في السياسة، وأسلوباً مرناً في المناظرات والمناقشات .

٧ النابغة شاعر الوصف والفصحة :

وُهب النابغة من قوة الخيال ودقة الملاحظة ما جعله وصافاً ماهراً ومصوراً حاذقاً، وقد اكتسبته البادية والحاضرة ما زاد خياله صفاءً وغنى، وملاحظته دقة وعمقاً . فأكثر من الوصف حتى ظهرت الصبغة الوصفية في جميع منظوماته سواء كانت مدحاً أم رثاءً؛ أم تغزلاً أم اعتذاراً .

١ - أما موضوعات وصفه فكثيرة؛ فقد وصف الانسان كالمجردة، ووصف الحيوان كالثور الوحشي، ووصف الأشياء كالفرات والمشاهد الطبيعية . إلا ان اوصافه تأتي في اكثرها واسطة لا غاية، في استدارات يستخدمها الشاعر لتقوية فكرة المدح والاعتذار .

٢ - وأما ميزة وصفه فتقوم قبل كل شيء بالواقعية التي امتازت بها المدرسة الأوسية . فوصفه من ثم وصف حسي، يصدر عن مراقبة الحواس ويخاطب الحواس . ويصل الشاعر الى هذه الواقعية بذكر التفاصيل والجزيئات، على ما هو معروف من أساليب العرب الاقدمين، وهو يختار الكلمات التي يلون بها الصورة ويختار العبارات التي تبرزها زاهية واضحة، كاملة في اشكالها والوانها . ولا يتردد الشاعر احياناً، على ما اتصف به من إيجاز واقتصاد في اللفاظ، عن الإطناب في الوصف وتقليب الرسوم المختلفة على المعنى الواحد، رغبة في الوصول

الى الصورة التي يريد التعبير عنها، وحرصاً على ان تكون طبق الاصل . قال في وصف أفعى :

صَلُّ صَفًّا لَا تَنْطَوِي مِنْ الْقِصَرِ طَوِيلَةُ الْإِطْرَاقِ مِنْ غَيْرِ خَفَرٍ^١
دَاهِيَةٍ قَدْ صَغُرَتْ مِنَ الْكِبَرِ كَأَنَّا قَدْ ذَهَبَتْ رِجَاهَا الْفِكْرُ^٢
مَهْرُوتَةُ الشَّدَقَيْنِ حَوْلَاءِ النَّظَرِ تَفْتَرُّ عَنْ عُوجِ حَدَادٍ كَالْإِبْرِ^٣

وقال واصفاً شعر المتجرّدة في تشبيه رائع الدقة :

وَبِفَاحِمٍ رَجُلٍ أَثْبَثَ نَبْتُهُ كَالْكَرْمِ مَالٍ عَلَى الدِّعَامِ الْمُسْنَدِ^٤

وعناية النابغة بالتفاصيل وباستيفاء التشبيه كثيراً ما تفسح مجالاً واسعاً للمخيلة فتسترسل في استطرادات لا يربطها بالموضوع إلا الرابط التشبيهي او الذهني . فهو في معلقته الدالية مثلاً يرمي الى الاعتذار، فيفتتح كلامه بوصف الاطلال ثم ينتقل الى ناقته التي تبالغه النعمان فيشبهها بالشور الوحشي ، فيتمثله في اشد حالاته اضطراباً واحتداماً، ويصف العراك بينه وبين الكلاب ؛ ثم يطلب الى النعمان ان يتروى، فيضرب له مثل زرقاء اليمامة ويصف الحمام ؛ ثم يشبه النعمان بالفرات فيصف الفرات . . . وهكذا يخرج اكثر من نصف القصيدة عن نطاق الموضوع .

وفضلاً عن ذلك فإنّ خيال النابغة في وصفه وثبات واسعة ، تمتدّ فيها الصورة امتداداً رائعاً، كما في وصفه لجيش الغساسنة الزاحف الى الغزو حيث يقول :

إِذَا مَا غَزَوْا بِالْجَيْشِ حَلَقَ فَوْقَهُمْ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَحْتَدِي بِعَصَائِبِ

(١) الصِّل : الحية الدقيقة الصّفراء . الصّفا : العريض الاملس من الحجارة . الإطراق : الصّمت والنظر الى الارض . الحَفَر : شدة الحياء (٢) الداهية : البصيرة بمواقع اللدغ، والمنكرة العظيمة (٣) مهرونة الشّدقين : واسعتها . تفتّر عن عوج : أي تفتح فيها عن انياب عوج (٤) بفاحم : بأسود؛ اراد بشعر فاحم . رَجُل : بين السبّوطة والجمعودة . أثبت : كثير، عظيم . الدِّعَام : الخشب المنصوب للتعريش . المُسْنَد : الذي أسند بعضه الى بعض . شبه الشعر في طوله وغزارته بالكرم المائل على الدعائم، وهو اذا مال عليه غطاءه وتدلّى عنه .

زد على ذلك ان في وصف النابغة مطابقة لمقتضى الحال ، فاذا وصف الصيد ظهرت في كلامه الغرابة الجاهلية ؛ واذا وصف الملوك ظهرت في كلامه نخامة الحاضرة وترفها ؛ واذا وصف المشاهد الطبيعية ازدان كلامه بالفن والروعة ؛ واذا وصف المرأة لان منطقته واكتسى لطفاً وجمالاً .

الا ان وصف النابغة لا يخلو من جمود وجفاف احياناً . فقلماً تترج نفسه بموصوفاته ، وقلماً يجد في الطبيعة ما يُشير انفعالاته العميقة ، فهو نوعاً ما جامد امام المشاهد التي يصفها ، يراها بعينه ، ويسمع الاصوات باذنه ، ويسجل كل ما يرى وما يسمع . فهو بعيد عن تلك الثورة النفسية والعاطفية التي لمسناها عند امرئ القيس مثلاً . ولكنه استعاض عن مزج نفسه بموصوفاته ، أن بث فيها حركة ، وأوردها احياناً كثيرة بأسلوب قصصي ، ومن ثم شاعت القصة في شعر النابغة .

لا يخلو الشعر الجاهلي من أساطير وخرافات تناقلها الناس ونظمها الشعراء ، كما لا يخلو من اخبار أخذت عن التوراة . فقد نظم عدي بن زيد قصة الحية وخذعها لآدم ، وروى امية بن ابي الصلت في شعره قصة لوط وخراب سدوم ، وخبر ابراهيم وتضحيته باسحاق .

فاراد النابغة ان يستغل فن القصة كوسيلة للوصول الى المدح او الاعتذار ، او النصيح والارشاد . فروى قصة زرقاء اليمامة ورمى فيها الى حسن النظر في الامور والتروي في الحكم ؛ وروى قصة الثور الوحشي في عراكه مع كلاب الصيد ، ورمى فيها الى تصوير قوة ناقته وسرعتها ؛ وروى قصة الحية التي غدر بها حليفها بعد أن أغنته ، والتي نجت من غدره وضربة فأسه وتعلمت ان لا تعود الى مخالفته بعد ما رأت من كذب عهوده ؛ وقد ضرب الشاعر هذا المثل يعاتب بني مرة على تحالفهم عليه وعلى قومه . وكانت رواية الحية هذه سابقة حسنة للامثال على السنة البهائم التي لم تشع الا بعد ظهور كلية ودمنة في العهد العباسي ، وان كانت في الجاهلية شائعة على السنة الناس كما يشهد بذلك النابغة اذ يقول :

... كما لقيت ذات الصننا من حليزها وما انفكت الأمثال في الناس سائرة ...

٨ فنه :

١ - العناية : كان النابغة من المدرسة الأوسية التي تتأني في الشعر وتتأنق في صوغه ؛ فلم يقل الشعر ارتجالاً، ولم يرسله إرسالاً، بل أكب عليه يثقفه حتى ظهرت فيه آثار تلك العناية، فكان اللفظ فيه مختاراً جيداً في مجمله ، وبعيداً في أكثره عن الخوشية المستكرهة ؛ كما كان التركيب ، في ما ثبت للنابغة من شعره، محكماً بعيداً عن الركاكة والاسفاف .

٢ - الموسيقى : وتتساعد من تراكيب النابغة وألفاظه موسيقى حقيقية تنجم عن حسن التاليف بين الحروف والألفاظ، وعن حسن اختيار البحور والقوافي . وهذه الموسيقى كثيراً ما تتناغم والمعنى فتشتد في موضع الشدة :

- نَقْدُ السَّالُوقِي الْمَضَاعِفَ نَسْجُهُ وَتَوْقِدُ الصَّفَّاحِ نَارَ الْحُبَّاحِبِ
- وَهُمْ زَحَفُوا لِنَسَانٍ بِزَحْفٍ رَحِيبِ السَّرْبِ أَرَعْنَ مُرْجَحِنَ

وتلين في موضع اللين :

أَلَمْحَةَ مِنْ سَنَا بَرَقَ رَأَى بَصْرِي أَمْ وَجْهَهُ نَعْمَ بَدَا لِي أَمْ سَنَا نَارِ

ولكن هذه الموسيقى لا تخلو من بعض الاصوات الناشزة او القاسية احياناً، كما في تتابع القافات في الشطر الاول من البيت التالي :

مَقَالَةٌ أَنْ قَدْ قُلْتَ سَوْفَ أَنَالُهُ وَذَلِكَ مِنْ تِلْقَاءِ مِثْلِكَ رَائِعُ

٣ - التشبيه وما اليه : وأما الركن الأساسي الذي يقوم عليه فنُ النابغة في شعره فهو التشبيه . فقد أراد ان يجري فيه على طريقة امرئ القيس ، فأكثر من استعماله، وتمد الى المحسوسات يشبه بها . ولكنه في الاجمال لم يبلغ شأواً الملك الضليل في هذا المضمار .

(١) نقد : تقطع . السالوقي : اجود الدروع ، منسوب الى سلوق مدينة بالرّوم . الصفّاح : الحجارة العريضة . نار الحبّاحب : ما اقتدح من شرر النار في الهواء بتصادم حجرين . يقول : هذه السيوف تقطع الذرع المضاعف نسجها ، وتنزل الى الارض فقتلح بجاراتها شرراً (٢) رحيب السرب : واسع الصدر . الأرعن : الذي له فضول ، او المضطرب لكثرة . المرّجحن : المتأيل لثقله .

وقد عمد النابغة الى طرق أخرى من أساليب البيان والمجاز، حتى عدَّ له بعضهم جملةً وافرة من الاستعارات والكنائيات وما الى ذلك . ومن اجمل ما جاء في شعره من وجوه البديع قوله مادحاً في معرض الذم :

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سُبُوفَهُمْ بِحَيْنٍ قُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

٩ تأييد النابغة :

للنابغة الذياني منزلة رفيعة في الادب العربي وقد ضمَّن شعره، فضلاً عن البلاغة وقوة البيان وجمال التعبير، فوائد تاريخية جمة اطلعنا فيها على التنافس بين الحيرة وغسان ومن ورائهما بين الساسانيين والروم، كما اطلعنا على عادات المناذرة والغساسنة، وعلى حياة القبائل البدوية وحروبها وقواتها، وحلفائها، ومعداتها الحربية وما الى ذلك . وقد أبقي أثراً واسعاً في الاساليب الشعرية سيظهر بنوع خاص عند الأخطل شاعر أمية .

والنابغة هو الذي فتح للشعر باب التكبُّب، فذلَّه وقيَّده . فإن الشعر قبله لم يُقل عادةً في مدح إلا عند الشكر على صنيع . اما هو فقد احترفه مهنةً للتملُّق والتكبُّب، فكان من ذلك :

١ أن ضاق افق الادب العربي في قسم كبير منه، وُغضَّ من قدره اذ اصطبغ بلون مادتي رخيص وأصبح أداةً ووسيلةً، لا غايةً ولا ميداناً للفنِّ الرَّحيب .
فنهج الكثيرون من الشعراء منهج النابغة في التكبُّب .

٢ أن اتخذ الشعر وجهة ارسطوقراطية، وابتعد عن الشعب وعن الحياة الديمقراطية، كما ابتعد عن النفس الانسانية في كثير من نواحيه ؛ وصار في خدمة الملوك وخدمة المصالح الذاتية . فتوفرت فيه أساليب التملُّق، كما توفرت فيه أساليب الزخرفة والبيان والصنعة التي ستفسد بعد حين فشواً زريعاً .

٣ أن افاد الشعراء من ذلك مالاً وسعة حال لانهم وجدوا في أحضان الملوك والعظماء ما يغنيهم عن السعي في طلب العيش ؛ كما اجبرهم ذلك على الافتتان في توليد المعاني والأخيلة حتى أتوا احياناً بالرائع المعجب .

بعض المراجع

- عمر الدسوقي : النابغة الذبياني - القاهرة ١٩٤٩
 سليم الجندي : النابغة الذبياني - دمشق ١٩٤٥
 فؤاد افرام البستاني : النابغة الذبياني - الروائع ٣٠ - بيروت ١٩٣١
 نسيم نصر : الشعر العربي في بلاطات الملوك - بيروت ١٩٥٠ ص ٤٠ - ٤٦
 طه حسين : في الادب الجاهلي - الطبعة الثالثة ١٩٣٣ ص ٢٨٤ - ٣٢٥
 سيد نوفل : شعر الطبيعة في الادب العربي - القاهرة ١٩٤٥ ص ٨٠ - ٨٧
 الاب لويس شيخو : شعراء النصرانية - الجزء الاول، بيروت ١٨٩٠ ص ٦٤٠ - ٧٣٢
 بطرس البستاني : هل النابغة صادق في مدائح واعتذارياته - المكشوف ١٩٣٩ عدد ١٨٢
 » : القصّة عند النابغة : خصائصها واهدافها - المكشوف ١٩٣٩، عدد ١٩٦ ص ٢

- عبد العظيم علي قناوي : الوصف في الشعر العربي - مصر ١٩٤٩
 احمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي - القاهرة ١٩٤٥ ص ٤٨ - ٥٠

موضوعات للبحث

- ١ - لقد قيل : « للنابغة الذبياني منزلة كبرى عند شعراء عصره ، اذا جاء عكاظ ضربوا له في سوقها قبة من جلد ، وجاء الشعراء ينشدون امامه أشعارهم » . ما هي سوق عكاظ ، ومن كان يحكم فيها ؛ ثم ما الذي حمل الشعراء على إنزال النابغة تلك المنزلة من النقد ؟
- ٢ - كان النابغة شاعراً جاهلياً يعمل لقبيلته ، ويسمى في سبيل خيرها . كيف تجلّى في شعره ذلك العمل القبليّ ، وما الأسلوب الذي اتخذته النابغة ، وما كانت نتيجة ذلك العمل ؟
- ٣ - كان النابغة شاعر البلاط ، وقد اكتسبته العيشة في البلاط سياسة لم نعهدها لغيره من شعراء الجاهلية ؛ كما اكتسبه البلاط اساليب خاصة ظهرت في شعره ، وكان لها أثر واسع في الادب العربي . أوضح ذلك واقم عليه البرهان .
- ٤ - لقد قيل : « النابغة اول من فتح باب التكبُّب بشعره ، وان الشعر قد غضّ منه » . ناقش هذا القول ، وابسط رأيك مؤيِّداً بالبراهين والشواهد .
- ٥ - الاعتذار باب جديد في الشعر العربي ، ما هي عوامله في حياة النابغة ، وكيف جرى عليه ذلك الشاعر ، وما قيمته في نظرك ؟
- ٦ - قابل بين الوصف في شعر امرئ القيس والوصف في شعر النابغة ، مبيّناً عناصر الفن عند الرجلين ، ومبدياً رأيك فيهما .

أصحاب المعلّقات

الفصل الخامس

زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ (٥٣٠ - ٦٢٧)

١ حياته : زُهَيْرُ شاعر مُضَرِّيّ تتلمذ لبشامة رجل العقل والحكمة ، ولأوس بن حجر زعيم المدرسة الأوسيّة . ثم انقطع لهَرَمُ بن سنان وخصّه بأحسن شعره . ومات نحو سنة ٦٢٧ .

٢ آثاره : له ديوان شعر ، أشهر ما فيه المعلّقة التي نظمها على أثر انتهاء حرب السّباقي ، والتي تحتوي ، فضلاً عن مقدّمات الغزل وما إليه ، شعراً إصلاحياً وطائفة من الحكم والأمثال العامّة .

٣ شخصيته الشعرية - رجل العقل والرّصانة : كان رجل العقل اذ جعل للعقل المحلّ الأول في حياته وفي شعره : فجرى على سنّنه في التفكير والقول والعمل ، ونقّح شعره وثقّفه برويّة ورصانة ، وقرب الحقائق الى الافهام بجعلها مادّية ملموسة ، وذلك بأسلوب خطائيّ حاول فيه الاقناع ؛ ثم تحرّى الوضوح والابحار والمثانة . وكان كلامه بسبب سيطرة العقل لا يخلو من جهود .

٤ زهير شاعر الإصلاح :

١ - المدح : كان مدحه شكراً وتشجيعاً ، وكانت معاني مدحه الصفات البدويّة الشريفة التي يحبّها البدويّ الحرّ . وامتاز مدحه بالصدق ، وقد جرى فيه الشاعر على الأسلوب التقليديّ القديم الذي لا يخلو من قصص .

٢ - الهجاء : يتّصف بالرّصانة ويرمي الى اصلاح السيرة والنفس ، ويتخلّله جدل منطقي مع المهجور ، وقد يتّخذ أحياناً لهجة لاذعة عنيفة .

٥ زهير شاعر الحكمة :

١ - مصدر حكمته : هي وليدة الزمن والاختبار .

٢ - موضوعها : يمثّل زهير فئة المؤمنين بالحياة الاخرى ، المتسكّين بالفضيلة الشخصية والاجتماعية من وفاء وقناعة وإقدام ، ومصانعة وبذل .

٣ - قيمتها : واسعة النطاق ، قليلة الحياة ، ساذجة في أكثرها .

زهير شاعر الوصف :

١ - نزعة الفنيّة : نزعة أوسيّة في هدوء واطمئنان .

٢ - الدقّة : تحديد المكان والزمان ، وذكر الجزئيات ودقائق الاحوال .

٣ - التجسيم : تجسيم الماديات والمعنويات متدرّجاً بالتشبيه المادي ، وقد يتحوّل تشبيهه الى استدارات طويلة .

٤ - الحياة : تتجلّى بالحركة والقصص .

١ حياته :

١ - أصله ونشأته : زهير بن أبي سلمى ربيعة من مُزَيْنَة من مُضَر، وُلد في نجد . وكان ربيعة أبو الشاعر قد ترك قومه وأتى غطفان وتزوج أم عمرو في قومها وكانت تربطه بهم قرابة، فكان له منها زهير الذي نشأ وترعرع في غطفان . وكان في غطفان شيخ حكيم مُقَعَّد، غنيّ برجاحة العقل والمال، هو بشامة الشاعر خال ربيعة والد زهير . فلزمه هذا وحفظ له وأخذ عنه الشعر والرصانة، والرغبة في إصلاح مجتمعه القَبَلِيّ . ثم تتلمذ لزوج أمه أونس بن حَجَر زعيم المدرسة المضريّة التي تُنسب إليه، فأتخذ طريقته في الشعر .

٢ - زواجه : أقام زهير في غطفان وتزوج فيهم مرتين على الأقل، ففي المرأة الاولى تزوج أم أوفى؛ واذا لم يكن له منها اولاد طلقها بعد ان تزوج عليها كبشة . وقد أنجبت له كبشة شاعرَيْن هما كعب صاحب « بانت سُعاد » وُجَيْر .

٣ - شاعر هَرَم بن سنان : انقطع زهير لسيّد شريف اسمه هَرَم بن سنان، لما عُرف من كرمه واشتهر عنه من حبّ الخير والسلام، فخصّه بأحسن شعره حتى المعلقة التي ضمنها مدحه ومدح الحرث بن عوف لتوسطهما بالصلح بين قبيلتي عبس وذبيان في حرب السِّبَاق، وأولع هَرَم بشعر زهير فأغدق عليه العطايا، فكان من ذلك ان زهيراً عاش في الجاهليّة « سيّداً كثير المال حليماً معروفاً بالورع » .

٤ - وفاته : ومات زهير نحو سنة ٦٢٧ وله من العمر نحو ٩٧ سنة، قضاه رزيناً حليماً، ناصحاً بما فيه الخير والسلام، محباً للحق . وقد ذهب بعض المؤرخين الى انه كان نصرانياً لما رأوا في شعره من النزعة الدينية التوحيدية الصافية، والايمان بالبعث والحساب .

٢ آثاره :

لزهير ديوانٌ شرح مرّات؛ وقد طبع شرح الأعلام الشنتمريّ (١٠٨٣)، في

ليدن سنة ١٨٨٨، ثم في مصر سنة ١٩٠٥؛ وكان أول من نشر الديوان ولیم بن الورد سنة ١٨٧٠.

وديوانه مملوء بمدح الاشراف من غطفان، ومدح هروم بن سنان وقومه، والحراث ابن عوف. وفيه الغزل والهجاء والفخر وذلك قليل؛ وطبي ذلك كثير من الوصف والحكم وأشهر ما في ديوانه المعلقة التي مطلعها:

أَمِنْ أُمَّ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَالْمُتَلِّمِ^١

وميمية أخرى مطلعها:

قَفْ بِالْدِيَارِ الَّتِي لَمْ يَغْفُهَا الْقِدَمُ بَلَى وَغَيْرَهَا الْأَرْوَاحُ وَالْدِّمُ^٢

وقافية مطلعها:

إِنَّ الْخَلِيطَ أَجَدَّ الْبَيْنِ فَانْفَرَقَا وَعُلِقَ الْقَلْبُ مِنْ أَسْمَاءَ مَا عَلِقَا^٣

وكافية مطلعها:

بَانَ الْخَلِيطُ وَلَمْ يَأْوُوا لِمَنْ تَرَكَوْا وَزَوَّدَكَ اشْتِيَاقًا آيَةً سَلَكَوْا^٤

أما المعلقة فهي ميمية على البحر الطويل يبلغ عدد ابياتها ٦٤، وقد شرحها الزوزني والتبريزي وغيرهما وطُبعت منفردة في اماكن مختلفة، كما تُرجمت الى لغات عدة منها اللاتينية والفرنسية والانكليزية. واليك بعض المعلومات عنها:

١ الباعث على نظمها: نُظمت المعلقة على اثر انتهاء الحرب بين عبس وذبيان،

(١) أَمِنْ أُمَّ أَوْفَى: يريد أَمِنْ منازل أُمَّ أَوْفَى؛ وأُمَّ أَوْفَى: كنية امرأة الشاعر؛ والاستفهام للتوَجُّع. الدِّمْنَةُ: آثار الدار. حَوْمَانَةُ الدَّرَاجِ والمُتَلِّمُ: موضعان. يقول: أهذه الدمنة، التي لا تجيب سؤالي، من منازل أُمَّ أَوْفَى؟ (٢) لَمْ يَغْفُهَا: لم يدرسها ويحُثُّ أثرها. بَلَى وَغَيْرَهَا...: استدرك الشاعر كلامه للدلالة على ان بعضها عفا وبعضها لم يغف (٣) الْخَلِيطُ: الخالط في الدار، وهو المفرد والجمع. أَجَدَّ الْبَيْنِ: اجتهد في الفراق وحققه. انفرق: انقطع وتفرق. ما علِق: في هذا القول مبالغة وتقوية للمعنى (٤) وَلَمْ يَأْوُوا: أي لم يرقُّوا ولم يرحوا. يقول: ابتعدوا عنك بَعْنُ تَحَبُّ وَلَمْ يَرْقُّوا لك، وجعلوا زادك الاشتياق اليهم آية جهة سلكوا واخذوا.

والغرض منها مدح المصلحين، وأكثر من ذلك الموعظة للكفّ عن الاحقاد والرجوع عن سفك الدماء .

٢ أقسامها : تُقسم المعلقة الى قسمين كبيرين :

١ - قسم غزليّ يصف فيه الشاعر الاطلال والرحيل (١ - ١٥) .

٢ - قسم إصلاحيّ :

١ مدح المصلحين وقصّ كيفة عقدهما الصلح (١٦ - ٢٥) .

٢ نصائح للمتصالحين ختمها الشاعر بوصف الحرب وتحذير عبس منها (٢٦ - ٣٥) .

٣ اعتذار عن ذبيان وذكر قصة حصين بن ضمضم (٣٦ - ٤٧) .

٤ طائفة من الحكم والأمثال العامة (٤٨ - ٦٤) .

* * *

وها اننا سنأخذ في درس هذه الآثار معتمدين المعلقة بنوع خاص لانها تحتوي اكثر اغراض شعر زهير واكثر ميزاته .

٣ شخصية زهير الشعرية - رجل العقل والرصانة :

١ - عوامل شخصيته ونزعتها : طبع زهير بن أبي سلمى على التعقل والرصانة، ونشأ في كنف بشامة خال أبيه، وكان بشامة رجلاً ذا حزم وحكمة ورزانة، فتخلّق زهير بأخلاقه، مضيئاً الى الطبع ثمرة المثل الصالح؛ وأحب الاستقامة في القول والعمل، في نفسه وفي غيره كما مال الى الحلم والمساملة والحق، ونصب نفسه للوعظ الحكيم والقضاء العادل، ومحاربة كل شذوذ غير مألوف في الحياة الاجتماعية . فبئس الناحية العاقلة المتعفة المهدّبة التي كان عليها فضلاء العرب، كما مثل امرؤ القيس وطرفة الناحية المتهككة والشباب اللاهي . وهكذا استحق ان يُسمّى شاعر الرصانة، لانه كان رجل العقل ولانه جعل للعقل المحلّ الاول في حياته وفي شعره .

٢ - الجري على سنن العقل في التفكير والقول والعمل : ولا نعني بذلك ان زهيراً كان رجل العقل الذي يغوص وراء المعاني العميقة والافكار الدقيقة، او كان رجل الثقافة الواسعة الذي يخلق في الافاق الفسيحة والاجواء السامية، او كان رجل المنطق الدقيق الذي يقيم الاقيسة، ويُسلسل الفكر، ويُحسن استخلاص النتائج من المقدمات بطرق علمية عميقة؛ انما نعني ان زهيراً كان يجري في تفكيره وفي اقواله واعماله على سنن العقل، ذلك العقل الساذج القريب من الفطرة، والقريب من المادة، الذي لا يقول غير ما يعرفه الناس؛ ذلك العقل الذي لا تطغى عليه الاهواء فتفسده، ولا تضله الاميال العاصفة الهائجة فتخرجه عن سوي سبيله. فهو هادي يريد ان يكون مصدرًا للكلام، وقاضياً في مذاهبه، وقائداً الى الغاية التي يرمي اليها، فيسيطر على القوى كلها، ويجري الخيال والعاطفة على نواميسه، ويستعملهما في ما يريد وبقدر ما يريد.

٣ - التنقيح : يرمي زهير الى النفع في شعره، ولا ينظم لإرضاء الفن الصافي، ولا لإرضاء الحاجة الشعرية فيه؛ وهو لاجل ذلك « يأخذ شعره بالثقاف والتنقيح والصقل، وكأنه يفحص ويمتحن كل قطعة من قطع غاذجه؛ فهو يُعنى بتحضير موارده، وهو يتعب في هذا التحضير تعباً شديداً ». وقد نسبت اليه « الحوليات » التي قيل انه كان يقضي حولا كاملاً في نظمها، ثم في تهذيبها، ثم في عرضها على اخصائه.

٤ - تقريب الحقائق الى الافهام والاسلوب الخطابي : فهو يعرض للحقائق الراهنة، يتناولها بعقله قبل خياله، ثم يستعين بخياله ليكسوها حلة تقربها من الحواس وتجعلها ملموسة مادية وان كانت معنوية، وذلك بمنزل عن كل اندفاع عاطفي شديد، وعن كل انطلاق خيالي رحيب. وهو كثيراً ما يعتمد في تعبيره الى الاسلوب الخطابي الذي يحاول فيه الشاعر الاقتناع. فيدعم كلامه بالحجج والبراهين، ويجادل ويصور، كما فعل عندما اراد، في معلّته، ان يظهر شناعة الحرب؛ فقد بين

اهوالها ونتائجها بالعرك والانتاج والإغلال وما الى ذلك مما يقنع الذين خبروها وعرفوا شرّها :

فَتَعَرَّكُمْ عَرَكُ الرَّحَى بِشِفَالِهَا وَتَلْقَحُ كِشَافًا، ثُمَّ تُنْتَجِجُ فَتُنْشِمُ . . .

٥ - الوضوح : ومن اجل ذلك كلامه واضح . ووضوحه متأثر عن قرب متناول افكاره، وعن الباسها لباس المادة، ثم عن تجنب التعقيد والغموض والمعاذلة وتجنب المجاز البعيد الاشارة الذي ليس له مع الحقيقة علاقة قريبة ؛ ففي البيت السابق مثلاً يتبادر المعنى الى العقل مهما كان ساذجاً، وان كان ذلك المعنى متخذاً من صورة عرك الرحى . . . ومما يزيد كلام زهير وضوحاً هو حسن تنسيقه عموماً . فعلقته من اكثر الشعر القديم ترتيباً يكاد يكون منطقياً في مدحه هرم بن سنان والحرث بن عوف، ثم في نصيحته للمتصالحين ووصف الحرب والاعتذار عن اهل القاتل . . .

٦ - الايجاز والمتانة : والتعلل عند زهير يجنب به عن فضول الكلام والإطناب الذي لا فائدة منه، ومن ثم فشعره يمتاز بالايجاز، والمتانة التركيبية، والبعد عن السخف ؛ والفاظه منتقاة مفهومة في مجملها، تتابع في رصانة وجزالة، من غير ما صخب ولا اضطراب الا في بعض المواقف العنيفة كما في وصف الحرب، حيث تسير في حركة شديدة سريعة .

٧ - الجمود : إلا ان شعر زهير على اثرانه قد اصطبغ، بسبب كل ما تقدم، بشيء من الجمود ؛ فقد قلّ ماؤه، كما قلّ رواؤه . حتى لا نكاد نجد فيه اصداً لزعزعات النفس وتوثب القلب، كما لا نجد فيه بعض ذلك الغموض الذي يدلّ عليه الملح ويستشفه القارئ من غير أن يتبينه، ويشعر بملذّة في استكشاف معانيه .

(١) فتعرّكم : يعني الحرب، أي تطحنكم وتهلككم . الشفال : جلدة تكون تحت الرحى اذا أدبرت يقع الطحّين عليها ؛ والمعنى عرك الرحى طاحنة . تلقح كشافاً : أي تحمل مرتين في السنة . تنتجج : تلد . فتشيم : فتلد توأمين . - إنه يفضّل بهذا القول أمر الحرب ليقبلوا الصلح .

٤ زهير ساعر الاصلاح :

كان زهير غيوراً على إصلاح مجتمعه القبلي محباً لكل من يعمل الخير ويسعى في توطيد السلام بين الناس، ناصحاً لكل ذي غواية حتى يعدل عن غوايته . فاصطبغ شعره بهذه الصبغة الاصلاحية . فنسّمه مثلاً يصريح بالنصح يوجهه الى المتصالحين حتى لا يعودوا الى الحرب فيقول :

أَلَا أَلْبِغُ الْأَحْلَافَ عَنِّي رِسَالَةً وَذُبْيَانًا : « هَلْ أَقْسَمْتُمْ كُلُّ مُقْسِمٍ إِذَا
فَلَا تَكْتُمُنَّ اللَّهَ مَا فِي صُدُورِكُمْ لِيَخْفَى، وَمَهْمَا يُكْتُمُ اللَّهُ يَعْلَمُ !
يُؤَخِّرْ، فَيُوضِعْ فِي كِتَابٍ فَيُدْخِرْ لِيَوْمِ الْحِسَابِ، أَوْ يُعَجِّلْ فَيُنْقِمَ ! »^١

وزاه اذا مدح أو هجا، كان الاصلاح رائده ؛ وما الغزل في شعره إلا طريقاً تقليدية الى غايته الاصلاحية هذه . ولاجل ذلك سندرس في هذا الموضع المدح والهجا كما سندرس الغزل كوسيلة، تاركين الحكمة لموضع آخر قصد التبسط فيها لما لها من الاهمية في شعر زهير وفي نظر النقاد .

١ - المدح : كان زهير يعجب بالاعمال الكريمة، ولا سيما تلك التي تنشر الخير وتوطد السلم، وكان اذا رأى من أحد عملاً إصلاحياً يؤول الى خير الجماعة والقبيلة، بادر الى مدحه وشكوه وتشجيعه . فقد مدح هرم بن سنان والحرث ابن عوف اللذين اصلحا ذات البين بين عيس وذبيان، ودفعا الديات من مالهما الخاص وحقنا الدماء . ومدح حصن بن حذيفة بن بدر رجل الكرم والعزم، والحلم والعدل ؛ ومدح غيرهم ايضاً من ذوي الفضل والمعروف . وقد لا يخلو مدحه من بعض التكسب المعقول، فهو يكثر من مدح المحسن الكريم، وكثيراً ما يعرض للجلود والصلوات في مدحه، وفي ذلك شكر كما فيه تشجيع على مواصلة العطاء.

(١) الأحلاف : أسد وغطان وطيب . . هل أقسمت . . : أي هل حلفتم كل الحلف لتفعلن ما لا ينبغي (٢) يقول : لا تضمروا خلاف ما تظهرون فان الله يعلم السر . فان لم تكشفوا ما في نفوسكم عجل الله لكم العقوبة فانتم منكم، أو أخركم الى يوم تحاسبون به فتعاقبون .

سواء كان العطاء للشاعر نفسه أو لغيره، قال في مدح حصن بن حذيفة :
... أَخِي ثِقَةٌ لَا تُتْلَفُ الْخَمْرُ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ الْمَالُ فَائِلُهُ
تَرَاهُ، إِذَا مَا جِئْتَهُ، مُتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ...

١ أما معاني مدحه فهي الصفات البدوية الشريفة التي يحبها العربي الحر ويتحلى بها في كل وقت كالشجاعة والنجدة والرأي وكرم الأصل، والتقوى والخلق الجميل . ومن الخلال التي يمدح بها حسن التصرف بالمال، فالممدوح لا يؤثر به نفسه بل يستخدمه للخير القبلي .

٢ وأما قيمة مدح زهير فقائمة قبل كل شيء على الصدق في القول ؛ فزهير رجل العقل والرصانة لا يضيف إلى الرجل غير ما فيه، فلا يجنح إلى السخف والإحالة ؛ وإذا بالغ فبالغته تبقى في حدود المعقول ؛ وقد شهد هو نفسه على ذلك بقوله مخاطباً هرم بن سنان :

أَتْنِي عَلَيْكَ بِمَا عَلِمْتُ، وَمَا سَلَفْتُ فِي النَّجْدَاتِ وَالذِّكْرِ ٢

٣ وأسلوب زهير في مدحه هو الأسلوب التقليدي القديم الذي لا يخلو من قصص؛ فالشاعر يفتتح قصيدته بذكر الديار ثم ينتقل أحياناً إلى فرسه فيصف سرعته، وإلى غلامه فيصف معرفته بالطعن ؛ وبعد وصف الصيد يتخلص إلى الممدوح . وغزله في بدء قصائده المدحية وغير المدحية يخلو من هيجان العاطفة وتدفعها، لانه وليد العقل لا الشعور ؛ فكأن زهير يأتي به مكرهاً، مجارةً للعادة والتقاليد المرعية لا غير ؛ وهو فيه زاهد معجل، لا يمنحه من جهده ووقته إلا اليسير ؛ ولا يقول فيه إلا ما يمكن صدوره عن رجل متعقّف تحلى بالوقار :

وَفِيهِنَّ مَلْهُمٌ لِلطَّيْفِ، وَمَنْظَرٌ أَتَيْقُ لِعَيْنِ النَّاطِرِ الْمُتَوَسِّمِ

(١) أخى ثقة : أي يوثق بما عنده من الخير لما عليم من جوده وكرمه . النائل : العطاء .
(٢) اتني عليك بما علمت : أي بما بليت من امرك وشاهدت من جودك وكرمك . سلفت : قدّمت . النجّدات ج نجدة وهي الشدة والبأس . الذكر : ما يذكر به من الفضل .

٢ - المهجاء : يتَّصف هجاء زهير عادةً بالرصانة ، فهو يحكم فيه العقل ، ويرمي به الى اصلاح السيرة والنفس ، فيدخل مع المهجوين في جدل منطقي يرد به على الحجاج التي في وسعهم ان يتذرعوا بها لتبرير ساحتهم ، كما فعل ذلك في هجائه لآل حصن حيث أتى بالبيت الشهير الذي ضمنه خلاصة التقاضي ، وُسّمي زُهير لاجله « قاضي الشعراء » :

وإنَّ الحقَّ مَقْطَعُهُ ثَلَاثٌ : يَمِينٌ أَوْ نِفَارٌ أَوْ جَلَاءُ

إلا ان هجاءه يتَّخذ احياناً لهجة لاذعة عنيفة لا تخلو من إقذاع ، وذلك اذا لم يلتفت المهجؤ الى النصيح والإرشاد ، ولم يصلح الخلل عن عناد وغِيٍّ .

٥ زهير ساعر الحكمه :

نصب زهير نفسه قاضياً وحكماً ، وأخذ على عاتقه إصلاح مجتمعه ، فعمد الى الإرشاد والنصح ، ونطق بالحكمة مضمناً لها عقيدته ومذهبه في الحياة ، وجعل من حكمته هذه دستوراً مفصلاً لتهديب النفس ، وحسن التصرف والسياسة الاجتماعية البدوية

١ - مصدر حكمة زهير : عاش زهير أكثر من ثمانين عاماً فعرف الحياة وخبر حلوها ومرّها ، فأملت عليه شيخوخته الحكمة الهادئة ، وخبرته الواسعة ، وغيرته على الإصلاح القبلي ، آراءه الحكمية ، وزاد عليها ما سمعه من أفواه الناس . وفيما كانت حكمة طرفة وليدة الفتوة والاختبار الشخصي والاندفاع العاطفي كانت حكمة زهير وليدة الزمن والاختبار الشخصي والعالمي البعيد عن ثورة العاطفة واندفاع الاهواء ، وليدة العقل الهادي الذي يرقب الاحوال والناس ويستخلص الدروس التي توصل الى سعادة الحياة الجاهلية .

(١) يقول : ان الحقَّ مقطعه ثلاث خصال ينفذ بكل واحدة منها ، وهي اليمين ، والنفار أي التنافر الى رجل يتيّس حجاج الخصوم ويحكم بينهم ، والجلاء وهو ان ينكشف الامر وينجلي فتعلم حقيقته فيُقضى به لصاحبه دون خصام ولا يمين .

٢ - موضوعها : ينظر زهير الى الحياة نظر من سئمها لطولها وغموض مستقبلها، ولحبط الموت فيها خطاً اعمى لا تميز فيه بين الصالح والشرير، والكبير والصغير . فهو يكرهها وان كان متمسكاً بها، وقد كرهها طرفة من قبله لأنها لا تدوم؛ وبقي كره زهير للحياة في حدود التأوه فقط، أما كره طرفة لها فقد كانت نتيجة مهاجمة الموت واستغلال الحياة القصيرة . وفيما يمثل طرفة فئة العابثين الساخرين الذين يشكّون في كل شيء . لا يكون المادّة والحاضر، والذين يريدون، مع كل ذلك، المحافظة على الصفات العربية، يمثل زهير فئة المؤمنين بالحياة الاخرى، النازعين نزعة روحية - وان كانت الروح عندهم غارقة في المادّة - المتمسكين بالفضيلة البدوية العفيفة . فالسعادة في نظره ليست في تتبع الاهواء واستثمار الحياة، ولكنها في السلام والفضيلة؛ والفضيلة ذات فرعين، فرع متعلّق بالحياة الشخصية، وفرع متعلّق بالحياة الاجتماعية . فهو يريد للانسان ان يتحلّى بالوفاء والقناعة فلا يخون عهداً ولا يلحّ في سؤال؛ وهو يرى من زينة النفس الاقدام إذا كان ضرورياً من غير ان يكون في الاقدام وقاحة تُعرض صاحبها للشتم؛ وهو يحذر الانسان من الرثاء وتستير السيئات، ويجرّضه على استئصالها، لان التستير لا يدوم والحفي لا يعتم أن يظهر .

وأما من الوجهة الاجتماعية فزهير يجرّض على المصانعة والسياسة، وعلى بذل المعروف، والتفضل على القوم بقلب سخي ويد كريمة، ثم طلب الصلح، والصلح في نظره من أثمن الامور وأفضلها . ولما كان المجتمع الجاهلي مجتمعاً فطرياً، يكثر فيه الظلم، ولا يُنال فيه الحق إلا بالسيف يجرده ذو الحق نفسه غير معتمد في ذلك على قوة جيش أو عدالة محكمة، قدّم زهير رأياً نستغربه من رجل حكيم دأبه حب السلام والمصالحة، فقال :

وَمَنْ لَا يَذُدُّ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ يُجَدِّمُ؛ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يَظْلَمُ^١.

٣ - قيمتها : حكمة زهير اوسع نطاقاً من حكمة طرفة، ولكنها دونها

(١) يقول : مَنْ لَمْ يَدْفَعْ عَنْ قَوْمِهِ انْتَهَكَتْ حَرَمَتُهُ وَأَذَلَّ . وقوله « وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يَظْلَمُ... » أي مَنْ انقبض عنهم وكفّ يده عن الامتداد اليهم رأوه مهيناً ضعيفاً فاستطالوا عليه وظلموه .

حياةً وتأثيراً . وهي ساذجة في أكثرها، بعيدة عن كل تفكير عميق، وثقافة وعلم ؛ يرسلها الشاعر إرسالاً ولا يربط بين مختلف الآراء فيها ؛ وهو الى ذلك يوردها بطريقة تعليمية جافّة، ويحاول دعم كل رأي من آرائه ببرهان هو نتيجة المخالفة وعقوبة العصيان . وهكذا كان دستور البدوي تاماً، يتضمّن نظام العمل ونظام العقوبات .

٦ زهير شاعر الوصف :

١ - نزعتة الفنية : يُعدُّ زهير من أروع الوصّافين في العهد الجاهلي ، لا لانه بلغ بالوصف مبلغاً فنياً رفيعاً، بل لانه أكثر من الوصف، وملاً به شعره ، ووَسَّع موضوعاته فشملت ما كان منها مادياً كالأطلال والفرس والناقّة وحمار الوحش وغيرها، وما كان معنوياً كحالاته النفسية، والأذى وما الى ذلك ؛ ثم لانه حقّق في وصفه مثال التصوير الفني الفطري، وجمال الصورة الذي يروق البدويّ وقد تسرّب اليه شعاع من أنوار الحضارة . وهكذا كان وصف زهير تحقيقاً للجمال البدويّ ولاسيا الأوسيّ، في أروع مظاهره، واتّجهاً نحو الفن الحقيقي الذي ستعرفه الاجيال المقبلة .

والذي يُعنى به زهير في وصفه هو أن يكون أوسياً «كلاسيكياً» يتبع استاذة أوس بن حجر بكل دقّة، ويتفوّق عليه في امور كثيرة - فيجئح الى الدقّة بكلّ قواه، والى التتبّع والعناية بالامكنة والحركات، معتمداً على المادة والحسّ اعتماداً شديداً مجسّماً كل شيء، متذرّعاً في عمليّاته بالتشبيه الماديّ الذي يتابعه ويفضّله بعقل يرقب كل شيء، ويدير دقّة كل شيء، ويدفع الخيال الى ما يريد من غير ان يفسح له مجالاً واسعاً للتخليق، وكل ذلك في اطمئنان وهدوء بحيث يبقى القارئ او السامع لهذا الوصف ساكناً لا يخرج عن هدوئه واطمئنانه .

٢ - اما الدقّة : فهي أوّل هموم زهير لانه يريد نقل الصورة كما هي في الطبيعة ولا يطمع إلا في تحقيق تلك الصورة كاملةً من غير ما زيادة ولا نقصان - إلا فيما ندر - حتى تكاد تُرى بالعين، وتُسمع بالأذن، وتُلمس باليد .

فهو يُعنى بتحديد المكان والزمان بدقة ما بعدها دقة :

أَمِنْ أُمٍّ أَوْ فِي دِمْنَةٍ لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَالْمُتَشَلِّمِ
وَدَارُهُ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ، كَأَنَّهَا مَرَجِيعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مَعْصَمٍ
وَقَفْتُ جُهَامَنْ بَعْدَ عِشْرِينَ حِجَّةً، فَلَايَا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمٍ ٢٠٠٢

ثم يتابع كلامه ويصف سير الظعائن فينتقل معها من مكان الى مكان بطريقة تكاد تكون جغرافية .

وهو يُعنى بذكر الجزئيات ودقائق الاحوال يريد الإحاطة بالموصوف من كل جوانبه، فلا ينسى شيئاً من كلياته وجزئياته مادةً ولوناً وتركيباً . فهو اذا اخذ مثلاً بوصف الاطلال، ذَكَرَ الأثافي، ولم تَفُتْهُ « سُفْعَتُهَا »، وذكر موضعها في « معرّسٍ مرجلٍ » . وهو اذا وصف حمار الوحش لم يغفل عن اخضرار شفّتيه من أكل العشب الاخضر :

ثَلَاثُ كَأَقْوَاسِ السَّرَاءِ، وَمِسْحَلٌ قَدَرِ أَخْضَرَ مِنْ لَسِّ الْغَمِيرِ جَحَافِلُهُ ٢

وهو اذا اراد وصف مُلْجِمِ الفرس الطويل، لم يغفل عن وقوف ذلك الرجل على أنامل رجليه للتمكّن من قذال ذلك الفرس :

وَمُلْجِمُنَا مَا إِنْ يَنَالُ قَذَالَهُ وَلَا قَدَمَاهُ الْأَرْضَ، إِلَّا أَنَامِلُهُ ٤

وهو كثيراً ما يعتمد الى عبارات تدقيقية يزيد بها على كلامه لمجرد توضيح

(١) الرّقّتان : احدهما قرب المدينة والاخرى قرب البصرة ؛ وقوله بالرّقّتين اراد به بينهما .
النّوْشِرُ : نقش بالابرة على اليد : فشبه آثار الديار بوشم ترجمه الفتاة وتردده حتى ثبتت في معصمها ؛
والنّوْشِرُ : عصب الذراع ؛ والمِعْصَمُ : موضع السّوار من الذراع (٢) الحِجَّةُ : السنة . لأياً : بعد
جهد وبطء (٣) السَّرَاءُ : شجرٌ تُتَّخَذُ منه القسيّ ؛ شبه الأتقن بالاقواس لأنهن اجتزان برعي
الرّطْبِ عن شرب الماء، فطواهّن وأضهرهن فكنّ كالقسيّ . المِسْحَلُ : حمار الوحش . اللسّ : الأخذ
بمقدّم الفم . الغمير : نبت أخضر قد غمره نبت آخر اطول منه . جحافله ج جحفلة ، وهي شفة
الحيوان (٤) يقول : وان كان قد اطمأنّ قذاله (وهو معقد العذار من رأسه) ، فلجمنّا لا يكاد
يناله لظوله ، ولا تنال قدماه الارض وقد قام على اطراف اصابعه ، فانما ينال الارض منه انامله خاصّة .

الجزئيات والنواحي التي تُتمُّ المشهد؛ فإذا اراد الكلام على النوي مثلاً شبهه
ليوضح لنا شكله، وزاد على كلامه قوله «لم يثَلَّم» مخافة أن يظن السامع ذلك
الحوض قد تكسّر حاجزه لتقلب الأحوال عليه :

أَثَافِي سَفْعًا فِي مُعَرَّسٍ مَرَجَلٍ، وَنُؤْيَا كَجِذْمِ الْحَوْضِ لَمْ يَثَلَّمْ^١

وإذا أراد تشبيهه فتات العهن الباقي في كل منزل نزل به الطعائن، شبهه بحب
الفنا الأحمر، وزاد على كلامه قوله «لم يُحَطِّم» لأن ذلك الحب إذا حطّم لم يبق
على لونه من الحمرة، ولم يعبر عن الصورة تمام التعبير :

كَأَنَّ فَتَاتَ الْعِهْنِ، فِي كُلِّ مَنَزَلٍ تَرَكْنَ بِهِ، حَبُّ الْفَنَاءِ لَمْ يُحَطِّمْ^٢

٣ - وأما التجسيم فيعمد إليه الشاعر لجعل الصورة قريبة المتناول، يسهل على
البدوي فهمها . وذلك لأن زهيراً يرمي دائماً في شعره، شأن الخطيب، إلى الإقناع .
وهو لا يكتفي بتجسيم الماديات، وابتزازها ملموسة، يدرّكها الحس بقوة، بل
يحسّ المعنويات أيضاً . فإذا اراد الكلام على الحرب وأهوالها ونتائجها، جعل تلك
الحرب حيواناً ولوداً، يُلقح في السنة مرتين ويولد توأمين؛ وجعل إفناءها للناس بمنزلة
طحن الرّحى للحب، وعبر عن شرورها بالاولاد، وعبر عن شدة تلك الشرور
وكثرتها بالولادة مرتين وبالإثتام :

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ - وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرْجَمِ^٣ ! -

مَتَى تَبَعْتُوهَا، تَبَعْتُوهَا ذَمِيمَةً وَتَضَرَّ إِذَا ضَرَّيْتُهَا فَتَضَرَّ^٤

(١) أثافي أثففة، وهي حجارة تُتصب فتوضع عليها القدر . السفح : السود يخاطبها حمرة . معرّس
المرجل : حيث اقام . النوي : حفير يُطيف بالخباء يصرف عنه ماء المطر . جذم الحوض : اصله . لم
يثَلَّم : لم يتشقق (٢) الفتات : ما تفتّت من الشيء . العهن : الصوف المصبوغ . الفنا : شجر
له حبّ أحمر؛ شبه ما تفتّت من العهن الذي علق من الهودج بحبّ الفنا الذي لم يُحَطِّم، لانه إذا
حطّم ظهر له لون غير الحمرة وإنما تشتدّ حرته ما دام صحيحاً (٣) ذقم : جرّتم . المرجم :
المظنون ؛ أي ليس امر الحرب بالحديث المظنون، بل هو امر خبرتموه (٤) تبعثوها ذميمة : أي
ان لم تقبلوا الصالح وهجتم الحرب لم تحمدوا أمرها . تضرّ : تشدّ . تضرم : تشتعل .

فَتَعَرَّكُمْ عَرَكُ الرَّحَى بِشِفَالِهَا وَتَلْفَحُ كَشَافًا ثُمَّ تُنْتَجِحُ فَتُنْتَسِمُ ١...

واذا اراد الكلام على ما يلحق الانسان، الذي لا يصانع، من اذى، تصور
الاذى وحشاً ضارياً ذا أنياب وأظفار يعمل في ذلك الانسان انيابه وأظفاره :

وَمَنْ لَا يُصَانِعُ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ يُضْرَسُ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأُ بِمِئْسَمٍ ٢

زهير يتذرّع بالتشبيه في تجسيمه للاشياء، والتشبيه عنده مادي في جميع
عناصره؛ ولكن لهذا التشبيه ميزة خاصة، وهي ان الشاعر اذا أخذ فيه تابعه
واخرجه تامة في دقائقه وكل ما يتضمنه؛ فان شبه نتائج الحرب بغلة الارض، انتقى
ارض العراق المخصبة؛ وذكر قراها، والمكيال الذي تُكال به حبوبها الى غير
ذلك من التفاصيل التشبيهية :

فَتَغْلَلُ لَكُمْ مَا لَا تَغْلُ لَأَهْلِهَا قُرَى بِالْعِرَاقِ مِنْ قَفِيزٍ وَدِرْهَمٍ ٣

وإن شبه حصين بن ضميم بأسد أعطانا منه أسداً حقيقياً بأظفاره ولبدته :
لَدَى أَسَدٍ شَاكِيَ السِّلَاحِ، مُقْدَفٍ لَهُ لَبِيدٌ، أَظْفَارُهُ لَمْ تُقْلَمْ ٤

وهذا التشبيه يتحول عند زهير أحياناً الى استدارة طويلة . ففي قصيدته
التي مدح بها هريماً واهله ومطلعها :

إِنَّ الْخَلِيطَ أَجَدَّ الْبَيْنِ فَانْفَرَقَا وَعَلَّقَ الْقَلْبُ مِنْ أَسْمَاءٍ مَا عَلِقَا

أتى على ذكر دمه ، فشبه عينيه بدلّوين ، ووصف الناقة التي تجرّ ذينك الدلّوين،
كما وصف الرجل الذي يسوقها ، والجدول الذي يصب فيه الماء ، والصفادع التي
تخرج من الجدول خوفاً من الغرق الى غير ذلك من غرائب ذلك الأسلوب .

(١) الثقال : جلدٌ يُبسط فتوضع فوقه الرحى فتطحن باليد ليسقط عليه الدقيق ؛ وقوله « عَرَكُ
الرحى بشِفَالِهَا » أي على ثفالها أو مع ثفالها أي حال كونها طاحنة لانهم لا يثفلونها إلا اذا طحنت .
تَلْفَحُ : تحمل . كشافاً : اللقاح مرتين في السنة . تُنْتَجِحُ : تلد . (٢) من لا يصانع : من لا
يحامل الناس ويدارهم . يُضْرَسُ : يُمَضَغُ . المئسم : ظفر البعير . يقول : من لا يحامل الناس في
أكثر الامور أصيب بما يكره وعض بالقيح من القول (٣) تغلل لكم : يعني ان هذه الحرب
تغل من الديات بدماء قتلاكم ما لا تغل قري بالعراق ، من قفيز ودرهم ؛ والقفيز نوع من المكايل
(٤) شاكي السلاح : أي سلاحه شائكة حديدة ، فهو ذو شوكة . المُقْدَفُ : الكثير اللحم . لم تُقْلَمْ : لم تقطع .

٤ - واما الحياة فلا تخلو منها اوصاف زهير . وهي تتجلى في الحركة التي يعبر الشاعر عن دقائقها في مشاهدته ، والتي يجعلنا نحضر أطوارها وتقلباتها ؛ كما تتجلى في القصص الذي يضيفه الشاعر الى اوصافه . ومن أجل المشاهد التي تنبض فيها الحياة ، وتظهر فيها بمختلف حركاتها ، مشهد الصيد الذي صورده الشاعر بمهارة عظيمة فارانا غلامه « يدب » ويخني شخصه ويضائله ، وارانا الشياه « يثرن الحصى » ، وارانا الصيادين يطاردون العيز ، وهو ينسلخ من الجياد ويتقدمها وقد عبر الشاعر بواسطة الافعال عن الحركة ، واكثر من الافعال المضارعة التي تدل على الاحوال المنظورة ، والتي تجعلنا نبصر الحوادث الماضية كأنها تجري تحت اعيننا :

فَبَيْنَا نُبَغِي الصَّيْدَ جَاءَ غُلَامُنَا يَدِبُّ وَيُخْفِي شَخْصَهُ وَيُضَائِلُهُ ١
فَقَالَ : شِيَاهُ رَانِعَاتٌ بِقَفْرَةٍ بِمُسْتَأْسِدِ الْقُرَيَّانِ حَوْ مَسَائِلُهُ ٢ . . .
فَتَبَعَ آثَارَ الشِّيَامِ وَلِيدُنَا كَشُوبُوبٍ غَيْثٍ يَحْفَشُ الْأَكْمَ وَأَبْلُهُ ٣ . . .
يُثْرِنُ الْحَصَى فِي وَجْهِهِ ، وَهُوَ لَاحِقٌ سِرَاعٌ تَوَالِيَهُ ، صَبَابٌ أَوَائِلُهُ ٤ . . .

هذا هو الوصف عند زهير ؛ انه مادة مجسمة متحركة ، فيه تلوين وفيه إيغال وتفصيل حتى تبدو الصورة كاملة ؛ وليس هنالك اختيار في الجزئيات واقتصار على التفاصيل الایحائيّة ، وليس هنالك غموض ولا تلميح وان اتسم كلام الشاعر بسمة الایجاز الرّصين . وقد جمع ذلك الوصف ، الى الوان الفطرة والسداجة الجاهلية ، بعض الاقتنان في التشبيه والتعبير .

(١) نُبَغِي : نبتغي . يدب : يمشي راجلاً . يضائله : يصغره (٢) الشياه : الحمر الوحشية . المستأسد : ما طال من النبت وقوي . القرَيَّان : مجاري الماء الى الرياض . الحو : ذات النبات الشديد الخضرة . المسائل : حيث يسيل الماء (٣) فتبع : أي فتبع . الوليد : الغلام . الشوبوب : الدفعة من المطر ؛ شبه انصباب الفرس وحفيف جريه بالشوبوب وصوته . يحفش الأكم : أي يكثر سيل الأكام حتى يستخرج ذاك السيل ما فيها . الوابل : اغزر المطر واعظمه قطراً (٤) سراع تواليه : يعني رجليه وعجزه لانها تلي مقدمه . صباب أوائله : أي ان يديه و صدره تنصب كالسيل .

الطائفة :

هكذا كان زهير - على حد قول الاستاذ بطرس البستاني - « قاضي صلح يُصدر احكامه شعراً - لا لمح ، ولا غموض ، ولا يقول إلا ما يعرفه الناس » . فقد حكم العقل في كل قول يقوله ، وكانت نفسه - اذا نظم شعراً - نفس الحكيم المطمئن الذي لا يزدهيه فرح ولا تستخفه عاطفة ، والذي يرمي في كل حال الى اصلاح القبلي ، فينثر حكمه في قالب تعليمي ويتخذ ابدأ مذهباً خطابياً ، ينزع فيه الى الايضاح وتقريب المعنى بالتشبيه المادي ، ومن ثم فهو يتخذ الوصف طريقاً الى غايته ، ويبدو وصافاً ماهراً . « وتأخذ القصيدة القديمة شكلها النهائي عند زهير ، فيكون لها مقدمة وموضوع وخاتمة ، ولا نعود نشعر بخنادق وممرات بين ابائتها ، اذ لا نراها توزع على موضوعات ومناظر عديدة كما هو الشأن في مطولتي امرئ القيس وطرفة ، إنما نرى (التنسيق) الوثيق والربط المحكم . والحق ان زهيراً استطاع ان يحقق لصنعة الشعر في العصور القديمة كل ما يمكن من تجبير وتجويد ، فقد اصبح الشعر عنده حرفة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ' . . . »

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- طه حسين : الادب الجاهلي - الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٣٣ ص ٢٩٩ - ٣٠٦
 فؤاد افرام البستاني : زهير بن أبي سلمى - الروائع ٢٥ - بيروت ١٩٤٢
 الاب لويس شيخو : شعراء النصرانية، بيروت ١٨٩٠
 بطرس البستاني : زهير قاضي صلح يُصدر احكامه شعراً - المكشوف ١٩٣٨،
 عدد ١٧٦ ص ٢
 سيد نوفل : شعر الطبيعة في الادب العربي - القاهرة ١٩٤٥ - ص ٨٧ - ٩٢
 شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي - القاهرة ١٩٤٥ - ص ١٣ - ١٩
 عبد العظيم علي قناوي : الوصف في الشعر العربي - الجزء الاول - القاهرة ١٩٤٩

٢ المراجع الاجنبية :

F. Krenkow : Zuhair b. Abi Sulma, in Encycl. de l'Islam, t. IV.

موضوعات للبحث

- ١ - إعمد الى معلّقة زهير وحلّلها تحليلاً ادبياً، موضحاً اقسامها، وقيمتها الفنية، مستخلصاً منها اهم ميّزات زهير الشعرية.
- ٢ - لقد قيل : مدح زهير فاكثب عطف العرب واحترامهم، ومدح النابغة ففضّ الشعر من شرفه . أوضح هذا القول وبيّن مقدار صحته، مؤيِّداً كلامك بالبرهان .
- ٣ - لقد قيل : « زهير قاضي صلح يُصدر احكامه شعراً، ولا يقول الا ما يعرفه الناس » . ناقش هذا القول .
- ٤ - أقم موازنة مفصّلة بين حكمة طرفة وحكمة زهير، بالنظر الى الموضوع والأسلوب والفن .
- ٥ - وازن بين شاعرية النابغة وشاعرية زهير ، مفصّلاً الكلام على خيال الرّجلين، وما له من صلة بالبيئة وبالمدرسة التي ينتميان اليها .

أصحاب المعلقةات

الفصل الثالث

عَنْتَرَةُ بن شَدَّاد العَبَّاسِي (٥٢٥ - ٦١٥)

١ **حياته :** وُلد عَنْتَرَةُ في نجد نحو سنة ٥٢٥ ، من أبٍ شريف ومن أُمّة ، فعاش كعبد يرعى إبل أبيه . وأغارَت جماعة من طيّبىء على عبس واستأقت إبلهم ، فدعا شَدَّاد عَنْتَرَةَ لمكافحة العدو ، ووعدّه بالحرّية ، فكَرَّ عَنْتَرَةُ ونال الحرّية ببسالته . ثم قاد الكتائب في غزوات متوالية على أعداء عبس ، وفي حرب داحس والغبراء . وأحبّ ابنة عمّه عبلة ، فنفرت منه ، فقضى حياته يسترضيها . ثم قُتل نحو سنة ٦١٥ . وقد دخلت حياته الاسطورة وبُنيت عليها « قصة عَنْتَرَةِ » .

٢ **آثاره :** لعنْترَةُ ديوان شعر اشهر ما فيه المعلقة التي نظمها في حرب السباق ، مفصّلاً فيها مفاخره . وقد دخل شعر عَنْتَرَةِ كثير من النّحل ولاسيا بعد ظهور « قصة عَنْتَرَةِ » .

٣ **عَنْتَرَةُ شاعر الشخصية الفدّة :** هو عفيف ، مترفع عن كل دنيء ، كريم ، شجاع ، رقيق الشعور .

٤ **عَنْتَرَةُ الشاعر الغنائي :** تألم عَنْتَرَةُ وكان صادقاً ، فباح بخوالج نفسه في شعر انساني مؤثّر :

- **الغزل :** حبّه حبّ متيمّ ، وهو صادق شريف ، كما هو متألم ، فكان غزله لوعة كاوية ، ودعوة سارية . ولكنه بعيد عن التحليل النفسي العميق . فعَنْتَرَةُ يكتفي بالتعبير الساذج من صرخة وأنّة وزفرة .

٥ **عَنْتَرَةُ الشاعر الملحمي :** اراد عَنْتَرَةُ ان يُسكت معيّريه ، ويسترضي عبلة ، فأشاد بأجاده في ساحات القتال ؛ فكان اسلوبه قريباً من اسلوب الملاحم بما فيه من وصف وقصص ، وجوّ حربيّ ، وموسيقى حربية .

- **الوصف والقصص :** كان عَنْتَرَةُ في وصفه مفاخرأ ، ينزع نزعة الایجاز ، ويعتمد وقائع تاريخية مضخّمة في خياله الذي يستند الى التشبيه الحسيّ ويبث الحياة في قصصه . وكانت الالفاظ في كل ذلك متوثّبة ، متدافعة ؛ كما كان شعر عَنْتَرَةِ الحماسي ممزوجاً بالعاطفة ، حافلاً بالمعلومات التاريخية .



بريشة الفنان ارتورو اورتس

كم مهمه قفر بنفسي خضته ومفاوز جاوزتها بالأبجر !!

عنبرة

هذا
من
ال
س
ر

وراح، في حرب داحس والغبراء، قائداً عنيداً شديد الشكيمة، يقضي معظم أيامه على صهوة جواده، عليه درعه وحسامه، ويملاً الأرض حوله بذكر شجاعته الحكيمة البعيدة عن التهور، والمفعمة بنباله خلقه .

ولكن تلك المآتي الجسام لم تُزل الاحتقار في جانبه من صدور أبناء قومه بل أضافت إليه الحسد، ففاض حاسدوه بالتعيرات والثلب، فكان من ذلك للشاعر البطل مبعثُ ألم حياته كلها .

٤ - القلب الواله : وما زاد عنتره ألماً أنه أحب ابنة عمه عملة، فنفرت منه ونفرت بها ذروها لظواهر الشاعر - سواد وفلح شفة - ثم لكونه غير اصيل في عروبتيه من جهة أمه . فقضى عنتره حياته يسترضي ابنة عمه، ويتجسس إليها بذكر مآتيه العظيمة من شجاعة، وفصاحة، وكرم اخلاق، مما يغطي سواد جلده وشوائب نسبه .

٥ - الشيخ القتيل : توفي عنتره نحو سنة ٦١٥ وله من العمر ما لا يقل عن تسعين سنة . وقد اختلف المؤرخون على كيفية موته، والاعلأ أنه مات قتيلاً في إحدى غاراته على بني طي .

٦ - بطل الأسطورة : ما إن مات عنتره حتى أخذت الاساطير تنسج حوله، وحتى تضخم عنتره التاريخ وصار ضمن إطار يظهره المثال الاعلى للفارس الكامل والشاعر الفذ . وقد كتبت قصة عنتره في عدة مجلدات حتى صارت - على حد قول بعض الفرنج - « الياذة العرب » .

ويظهر عنتره في الأسطورة أشد سواداً، كما يظهر معيروه ألح في الغلظة، وهو البطل المظفر، عكاز العاجز وسيف المظلوم، والطمأح الذي يبذل كل شيء لاجل المجد المخلد .

ويبدو عنتره من ناحية أخرى بطل الحب العفيف المعذب، يغامر في سبيل ابنة عمه عملة، ويغالي في طلبها، ولكن بينه وبينها عقبات صعبة، من عمه مالك،

وابن عمه عمرو، ومزاحمه عليها عمارة بن زياد، وكلّهم شديداً الغيرة، وكلّهم شديداً الرقابة والعناد . . . وتشتدّ العقبات اشتداداً بالغاً لتقوية اسباب المتعة الروائيّة، وإذا هنالك معارك لا تُحصى، وأحوال بلا قياس؛ وتشتدّ كذلك حاجة عبس الى فارسها المغوار، ويشتدّ هو بطشاً وإقداماً في ذلك الميدان الواسع، ويبعث الضربات اثر الضربات، فتطير النفوس قبل الاجسام .

ثم يموت بعد حياة مليئة باعمال المجد والبطولة، وهو على ظهر حصانه «الابجر» رفيق حياته، وذلك بسهم رماه به وزر بن جابر النبهاني الملقّب بالاسد الرهيص .

٢ آثاره :

١ - ما هي : لعنتر ديوان شعر فيه نحو ١٥٠٠ بيت طبع للمرّة الاولى في بيروت سنة ١٨٦٤، وتعدّدت طبعاته في المدينة نفسها . واكثر ذلك الديوان في الفخر والحماسة وذكر الوقائع والغزل العفيف بعبلة، وقليل منه في المدح والثناء . وأشهر ما فيه المعلقة المشهورة ومطلعها في الاغلب :

هل غادرَ الشعراء من مُتردّمٍ أم هل عرفت الدارَ بعدَ توهمٍ !

وذهب بعض الرواة الى ان مطلعها هو :

يا دارَ عبلةَ بالجِواءِ تكَلّمي وعِمي صباحاً دارَ عبلةَ واسلّمي

اما المعلقة - وقد اختلف الرواة في عدد ابياتها - فهي مسميّة على البحر الكامل يبلغ عدد ابياتها نحو ٧٩ بيتاً . ولها شروح عدّة منها شرح الزوزني والتبريزي والانباري . وقد طُبعت عدّة مرات على حدة، وتُرجمت الى اللغة اللاتينية والفرنسية .

(١) المتردّم : المحلّ الذي يُصلح . يقول : لم يترك الشعراء شيئاً يُصلح، أي لم يتركوا فتناً إلا دخلوه وابدعوا فيه (٢) الجِواء : بلد بنجد .

وهي قصيدة ذات قيمة كبيرة، نظمها الشاعر ذاهباً فيها مذهب غيره من الشعراء. الاقدمين، متبعاً سنتهم من ذكر ديار ووصف نياق، وفخر بكرم وجود ونجدة؛ إلا انه «أسهل ولم يُحزن ويسّر ولم يُعسر، وارتفع عن الإسفاف والابتذال دون ان يتورط في الغلظة والإغراب، وانتهى الى معانٍ قلما انتهى اليها غيره من الشعراء»، فوصفها ابن سلام بانها «نادرة».

١ الباعث على نظمها : الاغلب ان عنتره نظم معلقته في اثناء حرب السباق التي انتهت سنة ٦٠٩، وكان الباعث على نظمها أن الشاعر لما اضطرّ اباه على الاعتراف به لما أتاه من بيض الفعّال، ساء به رجل من عبس وعيّرهُ سوادهُ وسواد أمه واخوته. فاجابه عنتره بما يعلو به، وفخر عليه وقال في ما قاله له : «إني لأحتضر البأس، واوا في المغنم، وأعف عند المسألة، واجود بما ملكت يدي، وافصل الخطّة الصماء». فقال له الرجل : «أنا أشعر منك». قال : «ستعلم ذلك». ثم أنشد معلقته مفصلاً فيها مفاخره.

٢ أقسامها :

١ - القسم الغزلي :

- ١ الوقوف على الاطلال وذكر الاحبة (١-١٢).
- ٢ وصف عبلة وتشبيها بالروضة الأنثى (١٣-٢١).
- ٣ وصف الناقة (٢٢-٣٦) :

٢ - القسم الفخري : هو مدار القصيدة، وموضوعات الفخر هي :

- ١ كرم الخلق وحرّ الطبع والشرف وسخاء اليد (٣٥-٤١).
- ٢ بلاؤه في الحروب (٤٢-٧٩) - وفي هذا القسم يصف عنتره معركة كان هو قطبها وحسام ابطالها، كما يصف فرسه وعطفه عليه.

٣ بناؤها : يستهل الشاعر قصيدته بوصف الأطلال ولوعة الفراق وما الى ذلك؛ ثم يصف عبلة، وكل ذلك في كلام سهل رقيق. ثم يصف ناقته التي ستوصله الى عبلة. وفي وصفه هذا يحذو حذو كل واصفي الإبل فيشتد كلامه ويصلب حتى

يكاد يداني كلام طرفة في نفس الموضوع؛ وما إن انتهى الشاعر من وصف الناقة حتى عاد الى عبلة يخاطبها ويتودد اليها ذاكراً محامده بكلام عاد الى رفته وسهولته وانسجامه . وهكذا « كانت القصيدة - على حد قول طه حسين باشا - طائفة من الأنغام الموسيقية الكثيرة المختلفة فيما بينها اشد الاختلاف، ولكن فيها نعمة واحدة متصلة منذ تبدأ القصيدة الى ان تنتهي، تظهر واضحة حيناً، وتحسها النفس وإن لم تسمعها الأذن حيناً آخر . وهذه النعمة التي تكون وحدة هذه القصيدة . . . هي حديث الشاعر الى صاحبه، واستحضار صورتها في نفسه » .

٢ - المنحول في شعر عنتر : لقد امتزج شعر عنتر التاريخ بشعر عنتر الأسطورة، وكثر النحل فيه خصوصاً بعد ظهور « قصة عنتر » التي جمعت في أواخر القرن العاشر . فأدخل على الديوان قصائد برمتها حذا فيه الناحلون حذو الشاعر الجاهلي في وصف الحرب والمعارك والفخر بالاعمال الحميدة قصد محو السواد في الجلد والثابتة في النسب الى غير ذلك، ومن تلك القصائد التي يغلب انها منحولة اللامية التي مطلعها :

حَكَمَ سَيْوَفَكَ فِي رِقَابِ الْعُدَلِ وَإِذَا تَرَلْتَ بِدَارِ ذُلٍ فَارْحَلْ
والبائية التي مطلعها :

لَا يَحْمِلُ الْحَقْدُ مَنْ تَعْلُو بِهِ الرُّتَبُ وَلَا يَنَالُ الْعُلَى مَنْ طَبَعَهُ الْغَضَبُ
وأدخل ايضاً على شعر عنتر أبيات دُست دساً في قصائده فكانت مضطربة او بادية الغلو والإسفاف .

ومن القصائد الثابتة لعنتر بكاملها أو بأكثر أبياتها المعلقة ، واللامية التي مطلعها :

طَالَ الشَّوَاءُ عَلَى رُسُومِ الْكَتَرِ بَيْنَ اللَّسَكِ وَبَيْنَ ذَاتِ الْحَرَمِ
والهائية التي مطلعها :

وَكَتِيْبَةٍ لَبَسَتْهَا بَكْتِيْبَةٌ شَهْبَاءٌ بِاسِلَةٍ يُخَافُ رَدَاها

ولا عجب ان يكثر المنحول في شعر عنتره لكثرة الرواة والقصاصين الذين
سُغفوا بأخبار بطل عبس وأحبوا تلك الشخصية العالية ، ونشروا مآتيها بين شعب
متعطش الى اخبار البطولة والفروسية .

٣ عنتره ساعر الشخصية الفذة :

كان عنتره من الشخصيات الكبيرة التي قلما عرفت لزمان كزمان الجاهلية .
فقد فطر على صفات حميدة كثيرة تجلت لنا في شعره الذي صُبع بصبغة اعترافية
ساذجة ، رمى من ورائها الى محو سواد جلده بذكر بيض خصاله وحميد فعاله ،
واسترضاء عبلة منية حياته . وان من طالع المعلقة يجد اكثر تلك الاخلاق
موضحة مفصلة .

١ - العفة : فعنتره ، وان كان من أغربة العرب أسود ، وابن أمة ، هو قبل
كل شيء عفيف تسمو به عفته فوق ما عهدناه عند كثير من الشعراء من تبسع
مواطن اللهو والدنس ، فهو إن زار امرأة لم يزرها إلا وزوجها حاضر :
أَغْشَى فِتَاةَ الْحَيِّ عِنْدَ حَلِيلِهَا وَإِذَا غَزَا فِي الْجَيْشِ لَا أَغْشَاهَا
وهو إن بدت جارته غض طرفه :

وَأَغْضُ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي مَاوَاهَا

والسبب في ذلك ان عنتره مالك زمام نفسه لا يتبع هواها :

إِنِّي أَمْرٌ وَسَمَحٌ الْخَلِيقَةَ مَا جِدْتُ لَا أَتَّبِعُ النَّفْسَ اللَّجْجُوجَ هَوَاهَا

٢ - الترفع عن كل دنيء : وتتسع عفته اتساعاً عظيماً ، واذا هي ترفع عن
كل دنيء ، واذا عنتره يترفع عن اغتنام الأسلاب :

هَلَّا سَأَلْتُ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ إِنْ كُنْتُ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي

يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنِّي أَغْنَى الْوَعَى وَأَعِفُّ عِنْدَ الْمَغْنَمِ

وإذا هو يترفع عن المسألة وعن المأكل الغير الكريم :
وَلَقَدْ آيَيْتُ عَلَى الطَّوَى وَأَظْلَمْتُ حَتَّى أَنَالَ بِهِ كَرِيمَ الْمَأْكَلِ

ويترفع عن الإساءة الى الغير لانه سهل المخالقة ، حلیم صبور ، وذلك ما لم يُظلم :

أَتْنِي عَلِيًّا بِمَا عَلِمْتُ فَإِنِّي سَهْلٌ مُخَالِقَتِي إِذَا لَمْ أَظْلَمْ

ولكن صبره هذا ليس ضعفاً ، كما يتضح من البيت السابق ، فإن ظلم طالب بحقوقه وكانت مطالبته شديدة :

فَإِذَا ظَلِمْتُ فَإِنَّ ظُلْمِي بِاسِلٌ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ كَطَعْمِ الْعَلَقِ

وهو يعرف حقوق غيره ، فإذا غزا لا يفكر في سبي النساء من غير مهر ، ولا يأخذ سلعة أحد إلا ويعطي عنها ضعفي ما يأخذ .

٣ - الكرم : وعنتر الى ذلك كريم ، وكرمه عن سجيّة ، فهو يُحسن استعمال المال في لهوه ، فيشرب الخمر ويستهلك ماله فيما « عَرَضَهُ وَافَرُّ لَمْ يُكَلِّمْ » ، وإذا دعا داعي الندى والعطاء أجاب بقلب رحب ويد مبسوطة :

فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي ، وَعَرَضِي وَافَرُّ لَمْ يُكَلِّمْ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصَرُ عَنْ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتُ شَائِلِي وَتَكَرُّمِي

٤ - الشجاعة والفروسية : وعنتر الشريف والكريم هو أيضاً عنتر الشجاعة والفروسية . والشجاعة طبع فيه والفروسية حاله الطبيعية ، بل الإقدام شفاء لنفسه :

وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأْتُ سَفَمَهَا قِيلُ الْفَوَارِسِ : « وَيَكُ عَنْتَرُ أَقْدَمَ » .

وهو لا يزال على صهوة جواده مستعداً لكل طارىء :

إِذْ لَا أَزَالُ عَلَى رِحَالَةٍ سَابِجٍ تَحْدِ تَعَاوَرُهُ الْكُفَاةُ مُكَلِّمًا^١

وهو يقحم الموت غير هيّاب :

... فَعَلَيْهِ أَقْتَحِمُ الْهَيَاجَ تَقَحُّمًا فِيهَا وَأَنْقَضُ أَنْقِضًا الْأَجْدَلَ^٢

إلا أن شجاعته ليست تهوّرًا، فقد كان - على حدّ قول فؤاد البستاني - « مقتصدًا في شجاعته، مفكرًا في طريقة استعمالها، لا يبذل منها إلا بمقدار، مجتهدًا في استعمال هذا المقدار القليل لنيل الكثير من التأثير ». وقد ذكر صاحب الاغانى أنه قيل لعنترة : « أنت اشجع العرب وأشدّها ». قال : « لا ». قيل : « فإذا شاع لك هذا في الناس ؟ ». قال : « كنت أقدم اذا رأيت الإقدام عزمًا، وأحجم اذا رأيت الاحجام حزمًا، ولا أدخل موضعًا لا أرى لي منه مخرجًا . وكنت أعتدّ الضيف الجبان، فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع، فأثني عليه وأقتله » .

هـ - الرقّة والشعور : وبلاء عنترة في الحروب لم يقسّ قلبه، فقد كان رقيق الشعور قويّ العاطفة وذلك لأنه « عزّ بعد ذلّة وتحرّر بعد رقّ » . فالعذاب والذلّ يدخلان النفس فيختلطان بها ويصقيان عواطفها ويلطّفان مزاجها . وهذه الرقّة رافقت الشاعر في جميع المواطن فهو رقيق حتى على عدوّه الذي يقتله، وحتى على فرسه الذي يخوض به المعارك :

فَأَزُورَ مَنْ وَقَعَ الْقَنَا بِلَبَانِهِ وَشَكَا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَنَحَمَحُمُ^٣
لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا الْمَجَاوِرَةُ أَشْتَكَى وَلَكَانَ، كَوَ عَلِمَ الْكَلَامَ، مَكَلِّسِي^٤.

- (١) الرّحالة: السّرّج. السابج: الفرّس السريع. النّهْد: العظيم الغليظ. تعاوَرُهُ الكُفَاةُ: أي تتعاوَرُهُ الكُفَاةُ، ومعناه: يطعن هذا البطل الشاكي السّلاح مرّةً، وذاك مرّةً. المكلّم: المجرّح.
(٢) الهياج: الحرب. التقحم: الدخول في شيء بشدّة. الأجدل: الصّقر (٣) ازور: مال. اللّبان: الصّدر. العبّرة: الدّمة. التّحمم: صوت الفرس المتقطّيع (٤) المجاورة: المخاطبة.

وقد اخص طه حسين باشا صفات عنتر بقوله : « في عنتر معنى الرجولة العربية الكاملة، فهو رقيق دون ان تنتهي به الرقة الى الضعف ، وهو شديد دون ان تنتهي به الشدة الى العنف، وهو صاحب شراب دون ان ينتهي به السكر الى ما يُفسد الخلق والمروءة، وهو صاحب صحو دون أن ينتهي به الصحو الى التقصير عما ينبغي للرجل الكريم من العطاء والندى، وهو مقدم اذا كانت الحرب، وهو عفيف اذا قسمت الغنائم، وهو يحاول ان يصف من اخلاقه ما يشرف به العربي الكريم فيذكر هذه الخصال التي اشرت اليها ثم يحس كأنه لم يحيط بخلاله كلها واخلاقه كلها فيقول هذا الشطر الرائع :

وكما علمت شمائي ونكرمي .

هذا هو عنتر كما يتجلى لنا من شعره . وتلك هي صفاته العالية، وقد كانت تلك الصفات تجتمع الى قوة ارادة ونفس طمّاحة الى المجد . وقد استطاع بقوة ارادته ان يرفع لنفسه صرحاً من المجد عظيماً . إلا ان مجده الذي بناه بقوة ساعده وحد حسامه دون المجد الذي بناه بشبة قلمه . فشعره من أروع شعر الجاهلية وقد كان تنفساً لتلك النفس الشريفة في آلامها وآمالها، وفي حماسها وفخرها، فتفرّع من ثم الى فرعين : الشعر الغنائي، والشعر الملحمي .

٤ عنتر الشاعر الغنائي :

١ - عوامل شعره الغنائي : تألم عنتر لانه كان مستعبداً وهو الحرّ ، واسود البشرة وهو الابيض السريرة، ومحسوداً تهزأ به قبيلته وهو الكريم العالي النفس، ومحروماً وهو المحب الخالص المحبة والعفيف في محبته . وقد رافقه الألم طول حياته يعمل في عقله فيزيد افكاره شخصيّة وابتكاراً، ويعمل في خياله فيصفيه ، ويعمل في قلبه فيرقق عاطفته، ويعمل في كلامه فيسهّل الفاظه ويبعث فيها موسيقى لطيفة الانتقام .

وكان عنتره صادقاً في تفكيره، صادقاً في خياله، صادقاً في عاطفته وشعوره، وعلى صدقه صبغة فطرية ساذجة؛ فراح يتحدث بلواعج نفسه من غير ما رثاء ولا قلون. يتحدث الى عبلة الشاخصة دائماً امامه بصورتها، ويتحدث الى كل من يريد فهم نفسه والانعطاف على حاله، كما يتحدث الى معتريه وحساده. وهو في كل ذلك يريد التخفيف مما في قلبه، كما يريد استرضاء محبوبته التي ابتعدت عنه والتي حال بينه وبينها عقبات جسام. واذا نفس عنتره الرخيمة الانغماس، الشجيرة الزفرات، الشديدة اللهفة، الشريفة المنازع، تتجلى لنا في بساطتها وحرارتها، واذا الشعور غناء، فيه من الحزن ما يلتقي وحزن البشر في كل عصر وكل مصر، واذا هو شعر انساني خالد شديد التأثير، يحرك كل نفس ويفتح باب كل قلب.

٢ - الغزل : ومن ذلك الشعر الغنائي الصافي الذي نجده عند شاعر عبس :
الغزل . وغزله يصدر عن قلب مقيم يحب عبلة حباً شريفاً وشديداً جداً ، وهو لا يرغب في سواها ، وهي عالمة بهذه الرغبة الملحة الامينة :
ولئن سألت بذاك عبلةً خبرت أن لا أريد من النساء سواها

وحبه لعبلة صادق سخي حتى ليطيب لعنتره ان يبذل لها نفسه وساعده كما يطيع له ان يبتعد عن كل ما يسوءها :

وأجيبها إماً دعت لعظيمة وأعينها وأكف عمماً ساها

وهذا الحب متألم لأن الحبية بعيدة وان كانت صورتها أبداً حاضرة ؛ ومن ثم فقد صبغ الغزل كله عند عنتره ، بصبغة الألم الذي يازجه شيء من اليأس ، والذي لا يهوي أبداً عن مراتب النبل وسمو الاخلاق ، وكان كله تقريباً بين لوعة كاوية ودمعة سارية . واللوعة ناطقة بلسان الشوق ، والشوق ظاهر حتى في الالفاظ والتراكيب وأساليب الاستفهام والتلطف والتعجب والنداء :

قالو : « اللقاء غداً عَجْرَجَ النوى » وَاُطْوَلَ شَوْقِ الْمُسْتَهَامِ إِلَى غَدِ !

وقد يتحوّل الشوق الى نار محرقة :

وتخال أنفاسي إذا ردّدتها بين الطلّول تحت نقوش المبرّد

واللوعة ناطقة بلسان الشكوى والتظلم :

وقد أبعدوني عن حبيب أحبه فأصيحّت في قفر عن الأنس نازح^١

وكثيراً ما تتحوّل اللوعة دمة تنهل فاضحة ما في القلب من جوى :

أعاتب دهرًا لا يلين لناصح وأخفي الجوى في القلب والدّمع فاضحي^٢

ذلك هو غزل عنتر، وتلك هي النعمة التي يعبر بها عن حبه المتألم . وهذا الغزل بعيد عن التحليل النفسي العميق وعن الانطلاق في عالم الروح . فهو نظرة تتجوّل فيما بين الأطلال مفقّشة عن عبلة وما تركت من آثار ، وهو دمة أمام القباب المرفوعة للرحيل، وهو تشبيه للمحبوبة بالرّشاش وما الى ذلك من مستحسنات البدو، وهو إنزال السّحر في عيني عبلة مكان الإثم، وهو قبل كل ذلك وبعد كل ذلك نفس تذوب ولا تعرف كيف تعبر عن ذلك الذوبان، فتكتفي بتعبير الاطفال من صرخة وأنة وزفرة .

٥ عنتر الشاعر الملحمي :

١ - عوامل شعره الملحمي : تغنى عنتر بآلامه وعبر عن لواعج نفسه، ولكنه

أراد من جهة أخرى أن يسكت معيويه وحسّاده، ويملاً عين عبلة فتنسى لونه وما يرميه به خصومه، فأشاد بالمجادة في ساحات القتال وحسن بلائه في حرب داحس والغبراء مما يجعله خيراً من معمم مخول :

إن كنت في عدد العبيد فهمتي فوق الشرياً والسماك الأعزل^٣
وبذابلي ومهندي نلت العلى لا بالقرابة والعديد الأجل^٤

(١) النازح : البعيد (٢) الجوى : شدة الوجد من عشق (٣) السمك الأعزل : كوكب (٤) الذابل : الرّمح .

وهو أبدأً يستدعي عبلة لتشده في المعارك وتسمع عنه، بل هي دائماً امام عينيه يخاطبها وينبه فكرها الى أعماله الغراء، ويجرّضها على تتبّع مواقفه، فتوقن أنه أفضل من حسّاده ومُعَيّريه، وأنه رجل أيّ رجل وبطل أيّ بطل .

٢ - اسلوبه : تلك غاية عنثرة في حماسيّاته . وأما اسلوبه الشعري فيها فهو يقترب من اسلوب الملاحم . فإن الشاعر، وإن قصر نفسه ولم يأت إلا بالمقطوعات دون التفصيل الطويل، وإن لم ينس نفسه في ما رواه بل جعلها قطب دائرة القتال ومحور الكلام ومرجعه وذلك توخياً للغاية المذكورة، فهو يبدو في حماسيّاته وغريّاته هذه ذا نفس ملحمي يتجلّى في الوصف وفي القصص وفي الجوّ الذي يخلقه خيال الشاعر كما يتجلى في موسيقاه الشعرية والفاظه الشديدة التأثير .

الوصف والقصص : لجأ الشاعر في هذا النوع من شعره - وهو منشور في مجل قصائده - الى الوصف والقصص . فوصف فرسه، ووصف الفارس الذي يهاجمه، ووصف أسلحة القتال، ووصف المعارك وصفاً قصصياً؛ فكان في وصفه لفرسه دقيقاً، وكان فرسه مناسباً لصاحبه في الجرأة والإقدام .

وكان عنثرة في وصف الفارس الذي يهاجمه مفاخرأً، وإذا فارسه هذا بطل عنيد جبّار، وإذا عنثرة يصصره بضربة أو طعنة - وهي خطّة ساذجة مؤثرة في الافتخار - :

وَمُدَجَّجٍ كَبْرَهُ الْكُفَاةُ تَرَالَهُ لَا تُمَعِّنُ هَرَبًا وَلَا مُسْتَسْلِمًا^١
جَادَتْ يَدَايَ لَهُ بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ يُمْتَقِفُ صَدَقَ الْكُعُوبِ مَقُومًا^٢
فَقَرَّ كُنْهُ جَزَرَ السَّبَاعِ يُنْشَنُ يَقْضَمُنُ حُسْنَ بَنَانِهِ وَالْمَقْصَمِ...^٣

(١) المدجج : المفطى بالسلاح . لا ممعن : أي انه لا يركن الى الفرار ولا يستسلم، بل يصمد في حومة القتال (٢) الممتقف : الرمح . صدق الكعوب : صلب؛ والكعوب هي عقد الانابيب في قناة الرمح (٣) الجزر : ما يذبح من شياه او نوق . ينشئ : يتناول منه . قضمه : كسره باطراف اسنانه وأكله .

وكان عنتر في وصف الأسلحة والمعارك موقفاً مدوياً، يتكلم بصلصلة السيوف وطعنات الرماح، وهو في كل ذلك ينزع الى الإيجاز ولا يتتبع التفاصيل والحركات بل يكتفي بالقليل وبما هو من الضرب والطعن، والكر والفر .

وعنتر في وصفه وقصصه يعتمد وقائع تاريخية ، ويدع خياله أن يضخم الحوادث الحربية ويصغها بالصيغة الملحمية، كما يضخم الجو الحربي نفسه والجو الحماسي كله؛ وإذا المغالاة الساذجة يعبق بها ديوان شاعر عبس، وإذا هي في جوها الملحمي غير مكروهة :

إِذَا مَا مَشُوا فِي السَّابِغَاتِ حَسْبَتْهُمْ سَيْوَالًا وَقَدْ جَاشَتْ مِنْ الْأَبَاطِحِ

وخيال عنتر يعتمد في وصفه على التشبيه الحمسي مما هو من عادة الجاهلية ومما هو من وحي الفطرة؛ وهو يبتث أيضاً الحياة في وصفه وقصصه ، ومن أساليبه في ذلك التشخيص ، فتراه يشخص فرسه والرماح والسيوف :

فَأَزَوَّرَ مِنْ وَقَعِ الْقَنَا بِلَبَانِهِ وَشَكَا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمَّحُمُ ! ..

٣ - لغته : أما لغة عنتر في شعره الملحمي فهي لغة متوثبة، متدافعة ، ينفخ فيها النفس الحماسي، فتجري مع طعنات الرماح، وجلبة المقاتلة، واندفاع الخيول، في موسيقى ملحمية تحمل على الحماسة والإقدام :

وَالْخَيْلُ تَعْلَمُ وَالْفَوَارِسُ أَنَّنِي فَرَقْتُ جَمْعَهُمْ بِضَرْبَةٍ فَيَصِلُ ...

٤ - امتزاجه بالعاطفة : إلا أن شعر عنتر الحماسي ممزوج بالعاطفة المتألمة الشاكية المسترضية، وهذه العاطفة تليق به بعض اللين وتصغ به بصغة غنائية في مواطن كثيرة، وتجعله من ثم ذا حديث في النفس غير حديث الحرب والحماسة :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرَّحْمَاحُ نَوَاهِلُ مِنِّي وَبَيْضُ الْهَنْدِ تَنْقُطُ مِنْ دَمِي
فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لِأَنَّهَا لَعَنَتْ كِبَارِقَ ثَغْرِكَ الْمُتَبَسِّمِ

(١) السابغات : الدروع الطويلة . جاشت : غلت . الأباطح ج أبطح وهو مسيل واسع فيه رمل ودقاق الحصى (٢) الفيصل : السيف القاطع (٣) نواهل : شاربة .

زد على ذلك أن هذا الشعر يحمل اليينا معلومات تاريخية شتى عن حروب تلك الايام وأسلحتها وعن اخلاق العرب وعاداتهم .

هذا هو عنتر بن شدّاد في نفسه الشريفة وقلبه الكبير، في آلامه وآماله، في شجاعته وإقدامه، وفي شعره الذي تتجلى فيه قوة الجاهلية وجزالتها مع رقة الاسلوب وسهولته، ذلك الشعر الذي توقرت فيه الابتكارات من تشخيص وتصوير وما الى ذلك، والذي رقّ في مواضع الرقة حتى ذاب عذوبة، واشتدّ في مواضع الشدة حتى سال هوّلاً، فكان في جميع احواله صورة لنفس صاحبه فيه حياة ودفء وحرارة .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- فؤاد افرام البستاني : عنتر بن شدّاد - الروائع ٢٧ - بيروت ١٩٣٠
 الاب لويس شيخو : شعراء النصرانية - بيروت ١٩٨٠ : ٧٩٤
 جرجي زيدان : عنتر العبيسي، شاعر عبس وفارسهم - الهلال ٥ : ٧٢٣
 ميشال سليم كميل : عنتر كما هو في شعره : الكلية ١٥ : ١١ - ١٧ و ٩٢ - ٩٩

٢ المراجع الاجنبية :

Brockelmann : Antar (a) — In Encycl. de l'Islam, I, 366.
 De Slane : Antara : in J. As., Mai 1838, p. 445.

موضوعات للبحث

- ١ - كان عنتر يشعر بالغبن الاجتماعي شعوراً قوياً، ويتألم بسببه تألماً شديداً.. ولكن هذا الغبن لم يثبط عزائمه ولم يكسر من شوكته، وذلك لانّ نفسه كانت كبيرة، ولان قلبه كان مملوءاً بالحبّ العفيف . اوضح ذلك وأيد كلامك ببراہين مأخوذة من حياة الشاعر ومن شعره .
- ٢ - كانت نفسية عنتر العامل الاكبر لشعره، ولهذا كان شعره مرآة صادقة تتراءى فيها تلك النفسية بكل نزعاتها . يبين ذلك .
- ٣ - يمتزج في شعر عنتر الاسلوب الغنائي بالاسلوب الملحمي . ما عامل كل من الاسلوبين، وهل كان امتزاجهما طبيعياً رائقاً ؟
- ٤ - لكل من امرئ القيس وطرفة وزهير وعنتر مثل أعلى في الحياة . ما المثل الاعلى لكلٍ منهم، وما الذي عمل على تكوينه في نفسيّتهم واحوال حياتهم ؟

أصحاب المعلقات

الفصل السابع

الأعشى الأكبر - لبيد ربيعة

١ - الأعشى الأكبر :

١ حياته : وُلد الأعشى نحو سنة ٥٣٠ بمنفوحة، ثم نشأ في اللهو وشرب الخمر والإسراف، فجدَّ وراء المال، وأكثر من الضرب في الأرض. وكان شعره كثير الانتشار شديد الأثر. وقد توفي الأعشى نحو سنة ٦٢٩.

٢ آثاره : للأعشى ديوان أكثره في المدح، وفيه غزل ووصف وخمر. وأشهر قصائده المعلقة التي وصف فيها لهوه وبعض ما شاهده في أسفاره، وضمنها تهديداً ليزيد الشيباني.

٣ الأعشى شاعر التكسب (المدح) : اتَّبع الأعشى طريق النابغة في التكسب، ولم يفرق في مدحه وتكسبه بين الملوك والسُّوق؛ وقد انتهى إلى لون أقرب إلى المسألة منه إلى التكسب. أما أسلوبه فهو الأسلوب القديم. وأما معاني مدحه فهي الصفات المحببة إلى البدوي.

٤ الأعشى شاعر الوصف (الغزل، الطبيعة، الخمر) : كان وصفه وسيلة إلى المدح، وقد قلَّ فيه الاعتماد على التشبيه المادي؛ واحسن فيه الشاعر تبسُّع الجزئيات، وبثَّ فيه حياةً بالقصص والتشخيص. وكان وصفه للخمرة مقدِّمة حسنة لخمرات الاخطل وأبي نواس، فقد تبسَّط فيه، وضمنه الحوار اللطيف.

٥ شاعريته وفننه : شاعرية الأعشى قويَّة أغنتها الاسفار. وفننه يقوم خصوصاً على الموسيقى والسهولة والانسجام.

ب - لبيد :

١ حياته : كان لبيد من أشراف قومه، وقد نشأ كريماً وشجاعاً. دخل الاسلام سنة ٦٢٩، وتوفي نحو سنة ٦٦١.

٢ آثاره : لبيد ديوان اشهر ما فيه المعلقة التي تدور حول ذكر الديار، والناقة، واللهو، والمفاخر.

٣ فننه : يقوم فنُّ لبيد على الصدق الظاهر في التحدّث عن نفسه وفي وصفه وراثته، كما يقوم على السداجة والصلابة الظاهرتين في متانة اللفظ وضخامة الأسلوب.

١ - الأعشى الأكبر (٥٣٠ - ٦٢٩)

١ هجاء : أبو بصير ميمون بن قيس البكري، المعروف بالأعشى الأكبر، ولد نحو سنة ٥٣٠ بقرية منفوحة باليامة، ونشأ راوية لخاله المسيب بن علس. وكان مستهتراً ماجناً، يدمن شرب الخمر، وينصرف الى المقامرة. فأدبى به ذلك الى الإتلاف والإسراف، فجده وراء المال، وراح يضرب في الآفاق حتى قيل انه رحل من اليامة الى اليمن والبادية والحجاز، والحيرة وعمان وفلسطين، والعراق وفارس، لا يترك ملكاً او اميراً إلا قصده طالباً رِفده.

وكان للأعشى أثر كبير في زمانه حتى قيل : « انه ما مدح أحداً في الجاهلية إلا رفعه، ولا هجا أحداً إلا وضعه ». وكان الذي يريد ان يذكره الأعشى، يستميله لعلّه يمدحه فيرفعه. ومن ذلك قصة المخلّق الكلابي، وكان ذا بنات قد عَنَسْنَ عليه، فتعرض للشاعر ونحر له ناقه. فلما رحل الأعشى من عنده ووافى سوق عكاظ جعل ينشد قصيدة مدح بها المخلّق، فتسابق الناس الى بناته يطلبونهن أزواجاً لهم، وما هي إلا مدة وجيزة حتى تزوجن عن آخرهن وحتى استغنى المخلّق بعد فقر.

توفي الأعشى سنة ٦٢٩، وقد روى أبو الفرج الأصفهاني عن بعض معاصريه أنهم رأوا قبره مثابة للندامى والشرب من الفتيان، يصبون عليه بقايا الأقداح ليرووا عظامه والتي كانت داءه ودواءه طول حياته.

٢ آثاره : للأعشى ديوان كبير، وقد تصرف في أبواب الشعر كلها، إلا أن أكثر شعره في المدح، وقد سخر له الغزل والوصف والخمر. ومن أشهر قصائده لاميّتان : المعلقة ومطلعها :

وَدَعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرّكْبَ مُرْتَحِلٌ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعًا أَجْهَ الرّجُلِ ١؟

(١) هُرَيْرَة : جارية سوداء من جوارى حسان بن عمرو بن مرثد.

وقصيدة أخرى فيها غزل ووصف ومدح ، مطلعها :

ما بُكاء الكبير بالأطلالِ وسؤالي، وما ترُدُّ سؤالي؟!

أما المعلقة فهي تقع في نحو ٦٥ بيتاً من البحر البسيط، طُبعت للمرة الأولى سنة ١٨٢٦، وترجمت الى الألمانية والفرنسية والفارسية . وأما موضوعها واقسامها فهي التالية :

١ - وصف اللهو وما اليه : يتضمن وصف هُريرة وذكر حال الشاعر معها، ثم وصف الحمرة وشرحها (١ - ٣٢) .

٢ - وصف السفر وما صادفه الشاعر في أثنائه : القفرة، العارض والبرق (٣٣ - ٦٦) .

٣ - تهديد يزيد بن مسهر الشيباني، وهو ابن عم الأعشى ؛ وفي هذا التهديد فخر كثير (٦٥ - ٦٥) .

٣ الأعشى شاعر التكسب (المدح) : اقتفى الأعشى أثر النابغة في التكسب، ولم يفرق بين الملوك والسوقة، ومدح كل من أغدق عليه قليلاً او كثيراً . وقد انتهى الى لون أقرب الى المسألة منه الى التكسب، حتى قيل : « إنه أول من سأل بشعره » .

أما أسلوبه في مدحه، فهو عادة الأسلوب القديم المعروف، من استهلال بالغزل ووصف الحمرة ومجالس اللهو، فذكر السفر ووصف الناقة، فالانتقال الى الممدوح . وأما معاني مدحه، فهي الصفات التي كان البدوي يفتخر بها، من شجاعة وشرف نسب، وكرم وإغاثة، ونفوذ ورأي وما الى ذلك .

٤ الأعشى شاعر الوصف (الغزل، الطبيعة، الحمر) : أكثر الأعشى من الوصف، ولكن وصفه

في مجمله كان وسيلة الى المدح، وقد قل فيه الاعتماد على التشبيه المادّي الذي يُصور الموصوف تصويراً مجازياً يحسسه ويوضحه ؛ واقتضب الشاعر طريقة القدماء في وصف الأطلال، كما انه أحسن تتبّع الجزئيات، ووصف دقائق الحركات، وبث في

وصفه حياةً : بالقصص الذي ضمَّنه رواية أخباره مع رفاق لهوه وشربه، والتشخيص الذي يجعل مثلاً من الناقة شخصاً متألماً نهكه التعب فمال الشاعر اليه يعزيه وينشطه .

ومما يلاحظ ان الاعشى جعل وصف الخمر في اكثر قصائده، وأنه وصف الخمرة للخمرة لا للتفاخر بها على عادة الاقدمين ، وقد تبسَّط في وصفها ، فذكر النديم والسَّاقِي والقينة، وصورَّ السُّكَّارِي في ألطف أسلوب ؛ وأدخل في وصفه هذا حوار الشُّرب مع بائع الخمرة وساقِيها، الى غير ذلك مما كان مقدِّمة حسنة لخمرات الاخطل وأي نواس :

فَقَانَا لَهُ : « هَذِهِ هَاتِحَا بِأَدْمَاءٍ فِي حَبْلِ مُقْتَادِهَا ١ .
فَقَالَ : تَرِيدُونَنِي تِسْعَةً وَلَيْسَتْ بِعَدَلٍ لِأَنْدَادِهَا ٢ .
فَقَامَ فَصَبَّ لَنَا قَهْوَةً تُسَكِّنُنَا بَعْدَ إِرْعَادِهَا ٣

وإننا نلمس في وصف الاعشى صدق العاطفة والحب والفتنة ، وهذه الامور تجعل شعره شديد الأثر في النفس ؛ كما اننا نلمس في وصفه اثرًا لرحلاته الكثيرة التي حفل بأخبارها كما حفل بأسماء البلدان والإشارات الى الحوادث التاريخية .

٥ سَاعِرِيهِ الْاعْشَى وَفِيهِ : ١ - كان الاعشى ذا شاعريَّة قويَّة غذاها بالثقافة العربية وبما عرف من حياة الفرس، وبأسفاره المتعددة التي أغنت خياله وعقله ؛ وكان صادقاً أو كاصداق في التعبير عن عاطفته او في اختيار الالوان التي ينفع لها . فإذا لم تُثِرْهُ الأطلال لا يتكَلَّف من الشعور غير ما يُحسّ، واذا استخفَّه الحبُّ تغزَّل، واذا تقدَّمت به السنُّ طرح الهوى وأفصح عن الحكمة والرزانة، واذا وصف الناقة أبرز ما تجيش به نفسه من معاني الحبِّ لها .

٢ - ويقوم فنُّ الاعشى قبل كل شيء على الموسيقى الشعرية التي تنبعث من

(١) الأدماء : الناقة في لونها بياض . وقوله : بأدماء في حبل مُقْتَادِهَا أي برمَّتْهَا، بجملتها
(٢) الأنداد : الامثال ؛ أي ان التسعة لا تعدل امثال هذه الخمرة (٣) القهوة : الخمرة .

قصائده عموماً، ومن بجوره وقوافيه خصوصاً؛ وقد طرب لتلك الموسيقى معاصروه فسمّوه « صنّاجة العرب » . ويعضد تلك الموسيقى في شعر الاعشى سهولة وانسجام وجلاء، مهما طالت القصائد، ومهما تعددت الأغراض . إلا ان تلك السهولة لا تعرف الإسفاف، بل هي مقرونة الى المتانة . والفاظ الاعشى عذبة حسنة الوقع وان كثرت بينها الكلمات الاعجمية ولاسيا الفارسية . ولاجل ذلك كله كان شعر الاعشى سائراً كثيراً الانتشار، وكان له أثر كبير في النفوس .

ب - لبید ربیعة (٥٦٠ - ٦٦١)

١ مَبَاز : أبو عقيل لبید بن ربیعة العامري المَضَرِي كان من أشرف قومه وفرسانهم، وقد نشأ كريماً شجاعاً فاتكاً، يُغيث الضعيف ويقري الضيف، وينظم الشعر، الى ان دخل في الاسلام نحو سنة ٦٢٩ . ثم انتقل الى الكوفة وقضى فيها اواخر ايامه الى ان توفي نحو سنة ٦٦١، وله من العمر اكثر من مئة سنة .

٢ آثاره : لبید ديوان طبع للمرة الاولى في فينة سنة ١٨٨٠؛ وقد تُرجم الى الألمانية وطبع في ليدن سنة ١٨٩١ . وأشهر ما في الديوان المعلقة التي تقع في ٨٨ بيتاً من البحر الكامل، وهي تدور حول ذكر الديار، ووصف الناقة، ووصف لهوه وغزله وكرمه، والافتخار بنفسه وبقومه . ومطلعها :

عَفَتِ الدِّيارُ محلَّها فمقامُها بِمَعْنَى، تَأَبَّدَ غَوَّلُها فَرَجامُها^١

٣ فَمَ : لبید شاعر فطري بعيد عن الحضارة وتأثيراتها، يتجلّى فنّه في صدقه وفي سذاجته الصلبة :

(١) عَفَت : درست وامّحت . المحلّ : الموضع يُنزل به لايام معدودة . المقام : الموضع تطول الإقامة به . مَنى : موضع في ديار بني عامر . تَأَبَّدَ : توجَّش . الغول والرجام : موضعان .

١ - أما صدقه فهو ناطق في جميع شعره . ولبيد شاعر قوي يستمد قوته من صدقه، وشدة إيمانه بجمال ما ينصرف اليه من أعمال وما يسمو اليه من مُشَل في الحياة . ولهذا نراه، ان تحدث عن ذاته، رسم لنا صورته كما هي، واذا هو في السَّلم رجل هو وعبت، ورجل كرم وجود؛ واذا هو في الحرب شديد البأس والشجاعة؛ واذا هو، وقد تقدّمت به السن، رجل حكمة وموعظة ورزانة .

وإن وصف تحرّى الدقّة في كل ما يقول وابتعد عن الإحالة . وقد اشتهر بوصف الديار الخالية ووصف سرعة الناقة التي شَبَّها بالسحابة الخفيفة تندفع بها الريح، وبالأتان الوحشيّة الجاذّة في العدو يطاردها قرينها، وبالظبية راعها الصياد وكلابه جُدّت في العدو، ثم ثبتت للكلاب فجاهدت وأبليت بلاء حسناً .

وإن رثى أخلص القول، وأظهر من العاطفة الصادقة والحكم المعزية ما يبقى في النفس أثراً حقيقياً .

٢ - وأما سذاجته وصلابته فظاهرتان في متانة لفظه وضخامة أسلوبه؛ حتى نستطيع ان نقول : ان شعر لبيد يمثل الحياة البدويّة الساذجة، في فطرتها وقسوتها، احسن تمثيل وأصدق .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

— الاعشى —

ابراهيم الابياري، محمد حسن المرصفي، عبد الحفيظ شلي : دراسة الشعراء - القاهرة ١٩٤٤

ص ٢٨٦ ...

فؤاد افرام البستاني : الاعشى الاكبر - الروائع ٣١ - بيروت ١٩٣٢ .

محمد عبد المنعم خفاجي، عبد السلام ابو النجا سرحان : اعلام الشعر الجاهلي - القاهرة ١٩٤٩

الاب لويس شيخو : شعراء النصرانية ٢ - بيروت ١٨٩٠ ص ٣٧٥ ...
سيد نوفل : شعر الطبيعة في الادب العربي - القاهرة ١٩٤٥ ص ٧٣ - ٧٨

— لبید —

فؤاد افرام البستاني : طرفة ولید - الروائع ٢٤ - بيروت ١٩٢٩
الشيخ احمد الشنقيطي : المعلقة العشر واخبار شعرائها - القاهرة ١٣٥٣ هـ.

٢ المراجع الاجنبية :

— الاعشى —

Rudolf Geyer : Gedichte von Abû Başîr Maïmûn ibn Qaïs al-A'sâ. London, 1928 :
كتاب الصبح المنير في شعر ابي بصير .
A. P. Caussin de Perceval : Essai sur l'Histoire des Arabes, Paris, 1847, t. II.
C. Brockelmann : Gesch. d. Arab. Litter. I, 37...

— لبید —

C. Brockelmann : Labîd, in Encycl. de l'Islam, t. III, 1-2.
Nicholson : A Literary History of the Arabs, 119-121.

موضوعات للبحث

- ١ - قال ابو عمرو بن العلاء : « عليكم بشعر الأعشى فإنه اشبه شيء بالبازي الذي يصطاد ما بين الكركي والعندليب، وهو عصفور صغير ». اوضح هذا القول وبيّن ما فيه من صحّة .
- ٢ - سئل يونس بن حبيب النحوي : « مَنْ أشعر الناس ؟ » فقال : « لا أومىء الى رجل بعينه، ولكن أقول : امرؤ القيس اذا ركب، والنابعة اذا رهب، وزهير اذا رغب، والأعشى اذا طرب ». اوضح هذا القول .
- ٣ - قال ابو عمرو بن العلاء : « لبید رجل صالح، والأعشى رجل شاعر ». ما معنى هذا القول ؟ اوضحه ووازن بين شاعريّة الرجلين وفتيّتهما .

ازدهار النهضة الجاهلية (٥٣٢ - ٦٢٢ م)

سائر الشعر

الفصل الاول

الخنساء شاعرة الرثاء (٥٧٥ - ٦٦٤ م/هـ ٤٤٤)

١ **حياتها:** الخنساء شاعرة مصرية وُلدت نحو سنة ٥٧٥، وشبَّت في بيت نفوذ وثروة. ثم قُتل اخوها معاوية وصخر فجزعت عليها جزعاً شديداً، ورثتها بشعرها وخصت صخرًا بالقسم الاكبر منه. وقد اعتنقت الإسلام وتوفيت نحو سنة ٦٦٤.

٢ **آثارها:** لها ديوان كله رثاء.

٣ **شاعريتها وفنّها:** ١ - الماطفة: الماطفة هي قوام شاعريّة الخنساء وفنّها. وفي عاطفتها حرارة وثورة تذكّنها الذكرى؛ وقد امتزج بماطفة الخنساء لين الانوثة بشدة الرجولة. وعاطفتها مؤثرة على كل حال لما فيها من صدق.

٢ - الفكر: حصرت الماطفة شعر الخنساء ضمن نطاق الرثاء، وارسلته من غير ترتيب ولا عمق تحليل.

٣ - الخيال والموسيقى اللفظية: واضعت الماطفة انطلاق الخيال في شعر الخنساء، إلا أنها ضحمت صورته بالغلو. وهذا الغلو ظاهر حتى في الالفاظ التي يكثر فيها استعمال صيغ المبالغة.

٤ - الأسلوب والسهولة: أسلوب الخنساء أسلوب عاطفي، وكلامها ليّنته الماطفة فجاء سهلاً.

نوطه

فضلاً عن الشعراء الذين أتينا على ذكرهم، اشتهر في الجاهلية شعراء كثيرون، اغلبهم من بني ربيعة وقيس وتيم؛ منهم تأبّط شرّاً (٥٣٠ م) وهو من قيس ومن الصّعاليك، ومعاصره علقمة الفحل، وهو من تيم، وقد طُبع ديوانه في ليبسيك

سنة ١٨٦٧ ثم في بيروت . والموقّشان الاكبر (٥٥٢ م) والاصغر (٥٦٠ م) .
والسموأل بن عاديّ (٥٦٠ م) ، وهو من الأوس من اهل الحجاز ، وله ديوان
طُبع في بيروت سنة ١٩٠٩ ، واشهر ما فيه القصيدة التي مطلعها :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللَّؤْمِ عَرْضُهُ فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلٌ

والمتمسّس (٥٨٠ م) ، وهو من اهل البحرين وخال طرفة بن العبد ، واكثر
شعره في الفخر والهجاء . والمتقّب العبديّ (٥٨٧ م) وهو من ربيعة تردّد على
عمرو بن هند ومدحه . وعروة بن الورد (٥٩٦ م) وهو من عبس ومن صعاليك
العرب ، طُبع ديوانه سنة ١٨٦٤ في غوتنجن مع ترجمة المانية ، ثم طُبع في بيروت .
وعديّ بن زيد (٦٠٤ م) وهو شاعر بلاط الحيرة . واميّة بن ابي الصلت
(٦٢٤ م) وهو قيسيّ من اهل الطائف ، وكان متديناً زاهداً في الدنيا يلبس
المسوح ويتعبّد . وحاتم الطائيّ (٦٩٠ م) وهو من اهل نجد ، اشتهر بالجود حتى
ضُرب به المثل ف قيل : « اجود من حاتم طي » ، كان شاعراً وشجاعاً ، اكثر شعره
في الفخر والجود ، وقد طُبع ديوانه في لندن سنة ١٨٧٢ ثم في بيروت .

ومن اشهر اولئك الشعراء الخنساء والخطيّة .

الخنساء

١ مبادئها :

١ - نشأتها وزواجها : أمّ عمرو تماضر بنت عمرو بن الشريد السلميّة
الملقبة بالخنساء ، هي شاعرة مصرية وُلدت نحو سنة ٥٧٥ ، وشبّت في بيت نفوذ
وثروة . ثم تزوّجت مرّتين ، فاقتزنت للمرّة الاولى بعبد الغزّي وولدت له ابناً
سمّي عمراً وعُرف بأبي شجرة ، واقتزنت للمرّة الثانية بمرداس السامي فولدت له
اولاداً عدّة اشتهروا جميعهم بالفروسية وقول الشعر .

٢ - مقتل أخويها : كان أخوها معاوية وصخر من سادات بني سُليم ، وقد قُتلا فجُزعت عليهما جزءاً شديداً، وذابت نفسها التياءاً، فبكتها بكاءً غزيراً، حتى عَميت، وقد خَصَّت أخاها صخرأ بدموعها السَّخينة لما تحلَّى به من سامي الصفات العربية كالشجاعة والكرم والوفاء وعلو الهمة، ولما اظهر لها في حياته من محبة خالصة وبرٍّ وبذل مال .

٣ - اسلامها ووفاتها : عُمِّرت الخنساء طويلاً حتى بلغت الإسلام فاعتنقته مع بنيتها . ولما شَبَّت نيران الحرب بين المسلمين والفرس حَضَّت اولادها على اقتحام نيران القتال في موقعة القادسية سنة ٦٣٨ م؛ ولما بلغها خبر مقتلهم هتفت : « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي ان يجمعني بهم في مستقر الرحمة » . وقد توفيت نحو سنة ٦٦٤ ولها من العمر نحو ٨٩ سنة .

٢ أماؤها : للخنساء ديوان شعر كلُّه رثاء لأخويها ولاسيا صخر؛ طُبِع في بيروت سنة ١٨٨٨؛ وترجم الى الفرنسية وطُبِع سنة ١٨٨٩؛ وقد عني به الاب لويس شيخو اليسوعي عناية خاصة فبعد ان نشره بكامله، عاد فطبعه طبعة مدرسية مختصرة سنة ١٨٩٥ بعنوان « انيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء » .

٣ شاعريتها وفنها : الخنساء امرأة أُصِيت في صميم قلبها؛ وكان الخطب الذي أَلَمَّ بها عظيماً بقدر ما كانت محبتها لأخيها شديدة، واعتمادها عليه قوياً، وتقديرها له ولصفاته الفريدة واسعاً يلاً نفسها وجميع كيانها . فموت أخويها ولاسيا صخر فجَّر من عينيها ينبوع دموع، ومن قلبها شعراً هو شعر العاطفة المحبة والمتألَّة في محبتها .

١ - العاطفة : كانت العاطفة المتألَّة قوام شعر الخنساء، فهي مصدره، وهو التمييز عنها في معانيه وأخيلته والفاظه . وفي تلك العاطفة الناطقة بالشعر حوارة وثورة، فهي لا تعرف للبكاء حداً، ولا تجعل للإرنان والنحيب نهاية؛ وهي تزداد

قوة بالذكورى، والذكوريات تملأ عالم الخنساء إذ ان كل شيء يذكرها بأخيها
صخر؛ فالشمس اذا طلعت تذكرها بفارات صخر، والشمس اذا غربت تذكرها
بضيافة صخر :

يَذْكُرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسٍ

وقد بلغت تلك العاطفة حداً بعيداً، حتى كادت تؤدي بحياة المرأة فتقتل نفسها
لولا كثرة الباكين حولها على إخوانهم :

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

وكانت تلك العاطفة أيضاً ثورةً على الأعداء، يمتزج فيها لين الانوثة بشدة
الرجولة، ويظهر أيضاً هذا الامتزاج عندما تذكر الشاعرة صفات أخيها الحربية
ومواقفه في ميادين القتال . فهي امرأة عربية، لا تجهل ساحات الوغى، ولا تقف
بعزل عن الحماسة الرجولية الحقة .

وعاطفة الخنساء على كل حال مؤثرة، تخرج من القلب الى القلب :

فَلَا وَاللَّهِ مَا أَنْسَاكَ حَتَّى أَفَارِقَ مُهْجَتِي وَيُشَقَّ رَفْسِي
فَقَدْ وَدَّعْتُ، يَوْمَ فِرَاقِ صَخْرٍ أَبِي حَسَّانَ، لَسَدَّائِي وَأُنْسِي
فِيَا لَهْفِي عَلَيْهِ وَلَهْفَ أُمِّي أَيُصْبِحُ فِي الضَّرِيحِ وَفِيهِ يُمْسِي!

٢ - الفكر : والعاطفة تقود الفكرة في شعر الخنساء، وتكسبها حياةً

منبعثة من نفس الشاعرة المتلهبة؛ وقد وجهت كل شاعريتها نحو الرثاء من غير
تشعب ولا التواء؛ ولئن حضت قومها على طلب الثار فما ذاك إلا صرخة من
صرخات اللوعة التي ليست بغريبة عن نطاق الرثاء .

ثم ان العاطفة نثرت افكار الخنساء نثراً من غير ما ترتيب، فجاءت اقوالها
دقائق دقيقات، وكانت صورة لاهوال نفسها المتألمة، وتنفساً لقلبها المتقلب بين
الأسى، والثورة، والإعجاب بصفات صخر الفريدة، والأسف على تلك الصفات .

وغير عجيب ان تحدث العاطفة من عمق الفكرة ، فليس كلام العاطفة فلسفة ولا تحليلاً ، إنما هو صرخة او زفرة او اختلاج أو ما الى ذلك . ولهذا جاءت افكارها مكررة ، ولهذا كانت نغماتها الشجية موقعة على أوتار قلباً تتبدل ، فكانت من ثم تبعث السأم في النفس أحياناً .

٣ - الخيال والموسيقى اللفظية : وإن اضعفت العاطفة انطلاق الخيال

بعض الضعف في شعر الخنساء ، فقد ضخمت صورته بالغلو الذي أبرزت فيه الافكار . والغلو في شعر الخنساء مقبول وان تجاوز الحدود أحياناً ، وذلك لانه من وحي اللوعة والمحبة الاخوية الصادقة التي تخني العيوب ولا ترى مثيلاً للمحبوب . والغلو ظاهر حتى في الالفاظ ، فإن الخنساء تكثرت استعمال صيغ المبالغة والاستعارات والكنائيات القويّة ، وتثور فيها العاطفة فتقذف بالصفات قذفاً ، في موسيقى الإعجاب والمحبة :

أَلْمَجْدُ حُلَّتُهُ ، وَالْجُودُ عَلَّتُهُ وَالصِّدْقُ حَوَزَتُهُ إِنْ قَرْنَتْهُ هَابَا
خَطَّابُ مَحْفَلَةٍ فَرَّاجُ مَظْلَمَةٍ إِنْ هَابَ مُعْضِلَةٌ أَتَى لَهَا بَابَا

٤ - الاسلوب والسهولة : اسلوب الخنساء هو اسلوب عاطفي ايضاً ، تكثر

فيه مخاطبة العينين وحضها على ذرف الدموع السخينة ، ومخاطبة الاخ المفقود الذي لا يزال طيفه امام الخنساء تناجيه وتتحدث اليه ، وتعدد محاسنه في زمن السلم وفي زمن الحرب ، واذا فيه جميع الصفات التي يحسن ان تتحلّى بها نفس عربية من شجاعة وكرم ونجدة وعمّة وعقل ...

وكان كلام الخنساء سهلاً لينا لانه كلام العاطفة الهاجّة التي تنطق من غير ما تعمل ولا تكلف .

(١) الجود علته : أي انه اذا سُئِلَ لا يمتنر ولا يمتل . الحوزة : الجانب والناحية .
القرن : النظير في الشجاعة والحرب وغيرهما (٢) الخطّاب : الكثير الخطاب . المحفلة : المجلس .
المظلمة : الظلم . المعضلة : الامر الشديد . أتى : دبر وهياً .

وهكذا كان شعر الخنساء شعر العاطفة التي تذكر، وتبكي وتأسف، وتحت
على طلب الثأر .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- قدرية حسين : شهيرات النساء في العالم الإسلامي ٢ ص ٦٣ - ٩٥
فؤاد البستاني : الخنساء - الروائع ٢٨ - بيروت ١٩٣٠
فلك طرزي : الخنساء شاعرة البكاء والأسى - مجلة دمشق ١ (١٩٤٠) عدد ٤ ص ٢٣
محمد عبد المنعم خفاجي : الحياة الادبية بعد ظهور الاسلام - القاهرة ١٩٤٩ ص ٢٢٠ - ٢٣٤

٢ المراجع الاجنبية :

- F. Krenkow : Al-Khansā', in Encycl. de l'Islam. T. II, 954-955.
Gabrieli : I tempi, la vita e il conzoniere della poetessa al-Hansā'. Florence, 1899.

موضوعات البحث

- ١ - لقد قيل : « يتصف رثاء الخنساء بالطبع المرسل على سجيته، والبساطة الواجبة في الحزن الصحيح، والسهولة اللازمة للاجادة في التعبير عن خلجات النفس ولوعة الفؤاد ». بين ذلك .
- ٢ - إن من يطالع ديوان الخنساء يرى ان قصائدها قصيرة . هل لذلك سبب في نظرك، وهل لذلك السبب آثار أخرى في شعر الخنساء ؟
- ٣ - رثى المهمل أخاه كلياً ورثت الخنساء أخاها صخرأ . وازن بين الرثائين من حيث الاسلوب والفن .

سائر الشعر

الفصل الثاني

الخطيئة شاعر المدح والهجاء (١ - ٦٧٩ م / ٥٥٩ هـ)

١ حياته: كان الخطيئة مضطرب النسب، فأنكره أقاربه، فشرّد متنقلاً من قبيلة إلى قبيلة، متقلّباً من نسب إلى نسب، يمدح من أعطاه ويهجو من ردّه. وتزوج بأُمّ مَلِيكة وأظهر لامراته وأولاده عطفاً كبيراً. ثم أسلم وكان إسلامه رقيقاً. وتوفي نحو سنة ٦٧٩ م / ٥٥٩ هـ.

٢ آثاره: للخطيئة ديوان شعر فيه مدح وهجاء وفخر ونسيب.

٣ الخطيئة شاعر التكسب:

١ - المدح: أجاد الخطيئة المدح فكان إذا مدح رفع. وقد ضمّن مدحه كل ما من شأنه أن يستدرّ أكفّ المدوحين. ويتخلّل مدحه استعطاف رقيق مؤثّر.

٢ الهجاء:

- عواوله: طبع الخطيئة وحاجته إلى المال.

- انواعه: هجاء الخطيئة نوعان: هجاء للتكسب، وهجاء لإرضاء حاجة النفس.

- أسلوبه: لم يلجأ الخطيئة إلى الفحش والإفداع بل إلى التهكم الدقيق المؤلم.

٤ فنّه: كان الخطيئة من المدرسة الاوسية، فظم شعره بتأنٍ، ونقّحه وهذّبه، فكان متيناً قوياً السبك. ثم انه لجأ فيه إلى التصوير الحسي.

١ حياته:

١ - نشأته: جزل بن أوس الملقّب بالخطيئة من بني عيس من مضر؛ وُلد من أمة اسمها الضراء، فكان مضطرب النسب غير صريح القرابة. وطلب الالتحاق بإخوته من أبيه فلم يُفلح، فهجّاهم. والتحق بأهل امرأة أبيه من بني ذهل، فلم يلقَ عندهم خيراً، فهجّاهم وانصرف عنهم.

٢ - تشرّده وتلوّنه: لم تعد حياة الخطيئة، مذ ذاك، سوى تنقل مستديم من

قبيلة الى قبيلة، وتقلب من نسب الى نسب . فتضاءلت في نفسه حوافز الشرف والإباء، وانقبضت فيه عواطف الحياء، فراح يسعى وراء المنفعة، يتطلبها بشعره حيثما وجدت فيمدح من أعطاه ويهجو من رده .

وكان خشونة حياته وتفاقم الإخفاق على مساعيه قد أضعف في قلبه حبه للناس والحدب عليهم، فغلب على لسانه الشعر الهجائي، حتى صار في أواخر العهد الجاهلي ذلك الانسان الذي يُخشى جانبه ويبعث في النفوس استمزازاً . ولا عجب في ذلك وقد غدا الخطيئة تلك النفس الجشعة المنحطة، المسارعة الى الانتقام والتشفي، والتي لم يبقَ فيها من مخلفات الانسان سوى تلك القوة الشعرية المتوقدة التي كانت الايام تريدتها تلهباً واستكلاباً، حتى نالت بأذاها أقرب الناس الى صاحبها، فهجا اهله وذوي نعمته وهجا نفسه .

٣ - زواجه : وتزوج الخطيئة بأُمّ مَلِيكة . والمعروف أنه قد أظهر لامراته وأولاده من العطف ما لا يُنتظر من رجل مثله، وهذا دليل على أن خبشه كان في قسم منه وليد الاحوال المعاكسة التي وقفت في وجهه .

٤ - اسلامه : وأسلم الخطيئة في اواخر حياة محمد، إلا ان إسلامه كان رقيقاً، فلم يصل الى قلبه، بل لبث الرجل فاسد الدين، متقلّباً من حال الى حال، لا يكف عن الهجاء مورد رزقه، ولا يلجم لسانه عن الطعن بالناس . فكان يدارى مرة بالمال، ويُعاقب مرة أخرى بالسجن .

٥ - وفاته : تُوّي الخطيئة نحو سنة ٦٧٩ ، ويُروى انه لما حضرته الوفاة

(١) يُروى من هذا القبيل، ان الزبرقان - وهو رجل موسر - صادف الخطيئة يطلب الرزق بذويه؛ فتعمّد لهم به، على ان يُصفيه الشاعر المدح؛ وارسلهم الى بيته؛ فأحسنّت زوجة الزبرقان استقبالهم، ثم انقادت لوشاية عليهم فصرقتهم . فأثوا بني أنف الناقة، وهؤلاء موجدة على الزبرقان، وان كانوا من قومه؛ فدح الخطيئة بني أنف الناقة وهجا الزبرقان ومما قاله في بني انف الناقة :

قَوْمٌ هُمُ الْأَنْفُ وَالْأَذْنَابُ غَيْرُهُمْ وَمَنْ يُسَوِّي بِأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنْبَا

فرفع عنهم بهذا البيت عار اسمهم، بل صار لهم ذلك اللقب فخراً .

أوصى أن يُحمل على أتان إلى أن يموت، قائلاً في ذلك أن الكريم لا يموت على فراشه .
فُحْمِلَ على أتان تذهب وتجيء به وهو يقول :

لَا أَحَدٌ أَلَامٌ مِنْ حُطْبَيْيَّةٍ هَجَا بَنِيَّ وَهَجَا الْمُرَيَّةَ
مِنْ لُؤْمِيهِ مَاتَ عَلَى فُرْيَةٍ^١

٢ آثاره : للخطيئة ديوان تصرف الرثاة بقسم من شعره ؛ طبع المرة الأولى
في القسطنطينية سنة ١٨٩٠، ثم طبع في ليبسيك سنة ١٨٩٣، ثم في
مصر سنة ١٩٠٥ . وفيه مديح، وهجاء، وفخر، ونسيب .

٣ الخطيئة شاعر التكسب (بالمدح والهجاء) : كان الشعر ثروة الخطيئة الوحيدة،
والوسيلة لديه إلى العيش، فراح
يستغلها ؛ فيضرب في البلاد وينتسب إلى من يرى عنده منفعة لنفسه، ويمدح من
يكثر له العطاء، ويتسلح بالهجاء على كل من يردّه خائباً . وقد صرح بحاجته إلى
التكسب عندما استعطف الخليفة عمر بن الخطاب بعد أن عاقبه وحبسّه لأجل هجاء
موجع قاله :

مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحٍ بِذِي مَرَخٍ زُغْبِ الْخَوَاصِلِ، لَا مَاءَ وَلَا شَجَرُ^٢
أَلْقَيْتَ كَاسِيَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ فَأَغْنِرْ، عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ، يَا عُمَرُ^٣

١ - المدح : اجاد الخطيئة المدح فضمنه كل ما من شأنه أن يستدرّ أكفّ
المدوحين . فكان إذا مدح رفع . ومدحه يمتزج أحياناً بالاستعطاف الرقيق
المؤثر، كما يندفع أحياناً اندفاعاً شديداً يأتي على أثر إكرام قوبل به الشاعر . قال
الخطيئة في مدح آل شماس :

(١) المُرَيَّة : تصغير المرأة . الأتان وهي أنثى الحمار . (٢) ذو مَرَخٍ : اسم
وادي بالحجاز . الزَّغْبُ ج أزغب وهو ذو الزَّغْب ؛ والزَّغْب هو الصغير الدقيق من الريش . الخواصل
ج حوصلة وهي معدة الطائر . يقول : ماذا تقول لأطفال صغار ليس لهم مأكل ولا مشرب
(٣) كَاسِيَهُمْ : الذي يكسب لهم العيش . المظلمة : البئر المظلمة .

أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبُنَى، وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْفَوْا، وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا^١
وَإِنْ كَانَتْ النُّعْمَى عَلَيْهِمْ جَزَّوْا حِجَا، وَإِنْ أَنْعَمُوا لَا كَدَّرُوهَا وَلَا كَدَّوْا^٢

٢ - الهجاء :

١ - عوامله : كان الخطيئة ميّالاً الى الهجاء من طبعه ، كما كان ميّالاً الى مخالفة
الناس في ما يرون، فيُنكر ما يستحسنون، لا لشيء إلا لأنهم يستحسنونه؛ ويستحسن
ما يُنكرون، لا لشيء إلا لأنهم يُنكرونه . وكان بسبب ذلك أحياناً متقلّباً في
رأيه، فيعيب ما كان قبلاً في نظره من المحامد، ويمدح ما كان قبلاً من المخازي؛
لا يحكم في كل ذلك إلا ميل الساعة ووحى الحال .

ثم إن حاجته الملحة الى المال أهابت به ان يهجو الناس طلباً للرزق؛ وقد
هابه الناس وأتقوا شره باموالهم؛ ويروى من هذا القبيل ان الخليفة عمر بن
الخطّاب اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم، وقال له : « إياك وهجاء
الناس ! » فقال : « يموت عيالي جوعاً : هذا مكسبي ومنه معاشي » .

٢ - انواعه : وهكذا كان هجاء الخطيئة مقسوماً قسمين : قسماً
للتكسب والتشفي كهجائه للزبيرقان، وقسماً لارضاء الحاجة في نفسه ولارضاء
نقمته، كالذي قاله في نفسه وفي اقربائه وضيوفه .

٣ - اسلوبه : لم يلجأ الخطيئة في هجائه الى الفحش والافتداع في القول،
فقد كان لسانه عفيفاً بخلاف ما كان يُنتظر من رجل مثله؛ بل لجأ الى التهمك،
فكان سلاحه، يرمي به الناس في مقامهم الاجتماعي، ويعيب فيهم البخل
والجبن، كما ينمى عليهم ضعف الهمة والقعود عن طلب المعالي، مُفضّلاً عليهم من
كانوا لهم خصوماً، ومضّناً هجوه شكوى فيها وعظ ومعاتبه . وان لم يكن

(١) البنى ج بُنية وهي ما بُنى . يقول : انهم قوم يُحسنون العمل، ويبرّثون في العهود والوعود
(٢) يقول : انهم لا يتركون معروف الغير بلا مكافأة؛ وهم اذا أنعموا لا يُفسدون نعمهم بسوء
صنيعها وإتعاها من صنعت اليهم .

تهمُّه غليظاً، فهو دقيق مؤلم يُصيب في الصميم، وذلك لما للحطيئة من قدرة على استجلاء مواطن النقص، وإرسال الشعر الجارح . قال يهجو الزبرقان :

لَمَّا بَدَأَ لِي مِنْكُمْ غَيْبُ أَنْفُسِكُمْ وَلَمْ يَكُنْ لِجِرَاحِي فِيكُمْ أَمِي
أَزْمَعْتُ يَا سَامِينًا مِنْ نَوَالِكُمْ وَلَكِنْ تَرَى طَارِدًا لِلْحُرِّ كَالْيَاسِ
دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُفَيْتِهَا وَاقْعُدْ، فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

وقال يهجو زوج أمه :

لَخَاكَ اللَّهُ ثُمَّ لَخَاكَ حَقًّا أَبَا، وَلَخَاكَ مِنْ عَمٍّ وَخَالٍ
فَنِعِمَ الشَّيْخُ أَنْتَ لَدَى الْمَخَازِي وَبِئْسَ الشَّيْخُ أَنْتَ لَدَى الْمَعَالِي
جَمَعْتَ الدُّوْمَ، لَا حَيَاكَ رَبِّي، وَأَبْوَابَ السَّفَاهَةِ وَالضَّلَالِ

٤ فَمَ : ينتسب الحطيئة الى المدرسة الاوسية، فلا عجب ان ظهرت في فته جميع الميزات الاوسية .

١ - الرويَّة والتأني : الحطيئة يُعنى بشعره عناية شديدة، وينقِّحه ولا يُذيعه إلا وقد استقام له من كل الوجه، وبدا له متيناً حسن السبك . فالحطيئة، وان جعل الشعر وسيلة للعيش، لا يغفل عن انه فن، يأخذ به مأخذ الصنعة، ويتريث في نظمه متبعاً في ذلك زهير بن ابي سلمى الذي كان الحطيئة معجباً بأسلوبه . وهكذا جاءت معاني الشاعر، وان قلَّ فيها الابتكار، مكتسبة جدَّةً أتتها من قوَّة السبك وعمل الصَّقل ؛ وقد أبعدها تلك الصبغة عن الابتذال .

٢ - التصوير الحسيّ : والحطيئة يعتمد التصوير الحسيّ في شعره، فيميل الى

الواقعية التي تجسّم الفكرة وتكسوها مادّة . قال في هجو الزبرقان :

(١) الآسي : الطيب والمداوي . يقول : لما ظهر لي ما في دخيلتكم من بغض، ولم يكن فيكم من يهتمّ لحاجتي ... (٢) أزمنتُ : صممت . النّوال : العطاء (٣) يخاطب الزبرقان ويقول له : اعدل عن المكارم ولا تطلبها لأنها ليست من شأنك، واكتفِ من الاعمال بأن تكون آكلاً مكتسباً (٤) لخاك الله : قبّحك الله .

لَقَدْ مَرَيْتُكُمْ، لَوْ أَنَّ دِرَّتَكُمْ يَوْمًا يَجِيءُ بِهَا مَسْحِي وَإِسْأَسِي...
 جَارُّ لِقَوْمٍ أَطَالُوا هُونًا مَتَرْلِيهِ وَغَادَرُوهُ مُقِيمًا بَيْنَ أَرْمَاسٍ^٢
 مَلُّوا قِرَاهُ وَهَرَّتْهُ كِلَابُهُمْ وَجَرَّحُوهُ بِأَنْيَابٍ وَأَضْرَاسٍ^٣

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- طه حسين : حديث الاربعاء - الجزء الاول - القاهرة ١٩٢٥ ص ١٥٣ - ١٧٧
 فؤاد افرام البستاني : الخطيئة - الروائع ٢٩ - بيروت ١٩٣٠
 منير البعلبكي : - الخطيئة - الاديب ٤ (١٩٤٥) - العدد ٩ ص ٤٠ - ٤١
 - شخصية الخطيئة على ضوء علم النفس - الثقافة ٥ ص ٥٧٢

٢ المراجع الاجنبية :

Goldziher : Al-Hotai'a, in Encycl. de l'Islam, t. II, 369-370.

موضوعات للنم

- ١ - قال الاصمعي : « زهير والخطيئة واشباههما عيب الشعر، لانهم تقَّحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين ». أوضح هذه الفكرة وناقشها .
- ٢ - سئل الخطيئة يوماً : « مَنْ أشعر الناس ؟ » فأخرج لسانه ثم قال : « هذا اذا طمع » . ما معنى كلام الخطيئة ؟ أوضحه وأوضح محل الهجاء في حياته وفي شعره .
- ٣ - اعمد الى قصيدة من نظم الخطيئة واستخلص منها ميزات الشاعر الفنيّة في تفصيل عناصرها .

(١) مري الناقة : مسح ضرعها لتدرّ . الدرة : اللبن . الابساس : تسكين الناقة عند الحلب . يقول : لقد داريتكم آملاً ان تكون ثمرة مداراتي لكم نوالاً (٢) الهون : الذلّة . الارماس ج رَمَس وهو القبر (٣) القرى : الضيافة . هرّته كلابهم : أي نبحتّها لانها لم تألف الضيوف .

الباب الخامس

النثر الجاهلي

١ ما وصل إلينا منه : لم يصلنا من النثر الجاهلي إلا النثر اليسير، لأن العرب كانوا يعتمدون في نقل أدبهم على الحفظ لا على الكتابة؛ فكانت كتابتهم لا تمتد إلى تدوين الكتب والقصص والرسائل. والقليل الذي وصلنا من النثر الجاهلي ليس له كبير قيمة تاريخية أو فنية بسبب ما لحقه من تحريف.

٢ ميزاته العامة : هو وليد الطبع يشيع فيه السجع؛ وهو متين اللفظ والتركيب يتنزع إلى الإيجاز والموسيقى، ويُرسَل مقطّعا.

٣ فنونه :

١ - المثل : المثل عبارة تُضرب في حوادث مشبهة للحوادث الأصلية التي جاءت فيها. وهو لا يخلو من الغموض أحيانا. وقد اشتهر في الأمثال أكرم بن صيفي. وساعد على حفظ الأمثال تواترها على ألسنة الناس وجمعها في كتب، ككتاب «مجمع الأمثال» للميداني. - والأمثال تدل على عقلية العرب وأخلاقهم.

٢ - الخطابة : كثرت الخطابة في الجاهلية لتعدد بواعثها، وكان للخطباء شأن كبير. ومن أشهر الخطباء قيس بن ساعدة، وأكرم بن صيفي. وكان للعرب شأن خاص في خطابتهم منها أنهم كانوا يخطبون على رواحلهم أو على نَشَر من الأرض، وكانوا يشيرون بالعصى والقنا وما إلى ذلك.

امتازت الخطابة الجاهلية بقصر العبارة وكثرة الأمثال والسجع. ويلحق بالخطابة الوصية، وسجع المتكهنين.

٣ القصص : كانت قصص الجاهليين اسماراً تدور حول أيامهم.

٤ قيس بن ساعدة : هو اسقف نجران وخطيب العرب وحكيمهم في الجاهلية. توفي نحو سنة ٦٠٠ م. أسلوبه بعيد عن الصنعة، كثير السجع والأمثال.

٥ أكرم بن صيفي : هو أشهر حكماء العرب وخطبائهم في الجاهلية. كان رجلاً برّاً ونزاهة. توفي نحو سنة ٦٣٠ م. يتخذ في كلامه العقل وسيلة للتأثير، ويُرسَل الحكم في قالب موجز وفي اتِّشاد ورصانة على غير وحدة تأليفية.

١ ما وصل اليه : اذا قيس النثر الذي وصلنا من العهد الجاهلي، بما بلغنا من شعر تلك الايام، وُجد نورا يسيرا لا يكاد يُعتدُّ به . وليس ذلك لانصراف العرب عن النثر، فانهم كانوا مشغوفين بالخطابة وضرب الامثال ورواية القصص من تاريخية وخيالية؛ إنما كان ذلك لاعتماد العرب في نقل ذلك النثر على الحفظ لا على الكتابة . وهذا لا يعني ان العرب جهلوا الكتابة؛ فقد كان الخطُّ والكتابة شائعين بعض الشيوع في بلاد العرب ولاسيما النواحي المتحضرة منها؛ ولكن معرفة الكتابة كانت بسيطة لا تمتد الى تدوين الكتب والقصص والرسائل الادبية بل الى بعض الاغراض التجارية او السياسية، وكان العرب - على ما نخبنا الجاحظ - يستثون العهود السياسية المكتوبة «مهارق» . وكانت تلك الكتابات ساذجة بعيدة عما هو من الفن والتجويد .

والقليل الذي وصل اليه من النثر الجاهلي، ليس له كبير قيمة تاريخية كما انه يخلو من القيمة الفنية الحقيقية . فان الرواة الذين نقاوه حرفوا فيه ما حرفوا، وقد لحق التحريف معناه ومبناه، حتى فقد كثيراً من حقيقته ومن صبغته الأولى .

٢ مبراة العامة : النثر الجاهلي وليد الطبع، بعيد عن الصنعة والزخرف والغلو، وان كان هنالك ما يشبه الصنعة في ما هو من السجع وما اليه من تطبُّب بعض الايقاع الموسيقي المكتسب من المزاجية في الالفاظ والجل، ومن الفواصل والقوافي السجعية .

فالنثر الجاهلي هو الكلام الحي لانه لغة الشعب في مختلف طبقاته، يسير مع اخلاق البدوي ويثمه؛ وهو من ثم قوي اللفظ متين التركيب، سطحي الفكرة ينزع نزعة اليجاز والموسيقى في الجملة والاسلوب، ويرسل مقطوعاً لا يربط بين افكاره رابط .

٣ قنوة : كان العرب يستعملون النثر لاغراض مختلفة؛ فقد كان وسيلة للتفككة والتعليم، كما كان وسيلة للعمل الاجتماعي والسياسي، ومن ثم كان له فنون عدة منها المثل، والخطابة، والقصص .

١ - المثل : المثل عبارة تضرب في حوادث مشبهة للحوادث الاصلية التي جاءت فيها، كقولهم : « أمُّ الجبان لا تفرح ولا تحزن » . وكثير من الامثال واضح إلا ان هنالك ما هو غامض المعنى مبهم لا يفهم إلا بالرُّجوع الى الشَّرَاح، ومن ذلك قول العرب : « بعين ما أرينك »، ومعناه « أسرع »؛ وهو كلام عُرف معناه سماعاً من غير ان يدلّ عليه لفظه .

وقد اكثر العربُ من ضرب المثل، واشتهر منهم لقمان عاد واکثم بن صيفي؛ ووصلت الينا طائفة من أمثالهم ساعد على حفظها تواترها على السنة الناس، ثم انصرف جماعة من العلماء، ولاسيما في العهد العبّاسي، الى جمعها، كالفضل الضبي (٧٨٦ م / ١٧٠ هـ)، وابي هلال العسكري (١٠٠٤ م / ٣٩٥ هـ) في كتابه « جهرة الامثال »، والميداني (١١٢٤ م / ٥١٨ هـ) في كتابه « مجمع الامثال ».

واجاد الجاهليّون في هذا النوع من الادب وخلفوا لنا ما يدلّ على عقليّتهم واخلاقيّهم اكثر مما يدلنا الشعر والقصص، وذلك لان الامثال كلام افراد الشعب في جميع طبقاتهم، يعبرون بها عن احوالهم المختلفة، وعقليّتهم الخاصّة .

ولما كانت الامثال كلام الشعب، فقد جاءت في اكثرها غير مصقولة، كما في قولهم : « أول ما أطلع ضبّ ذنبه » .

٢ - الخطابة : كثرت الخطابة في الجاهليّة لتعدد بواعثها . فان القبائل العربية كانت بدويّة لا تضبطها قوانين مدوّنة ولا نُظُم حكومية، فكانت الخطابة فيها فطوريّة، يلجأ اليها المرء للدفاع عن نفسه وقومه، في مواقف المفاخرة والمنافرة، والذود عن الشرف والذمار، واصلاح ذات البين بين حيّ وحيّ أو بين قبيلة وقبيلة، والدعوة الى التفاهم والصلح، والحضّ على القتال والانتقام، والسفارة بين رؤوس القبائل واقبالهم او بين الملوك وعمّالهم . وكان البدويّ يلجأ اليها بنوع خاص في المواسم والمحافل العظام وفي الاسواق المتعدّدة .

لاجل ذلك كله كثر الخطباء، وكان لهم شأن كبير . إلا أنه لم يبلغنا من خطبهم الا الشيء القليل منشوراً في الكتب التاريخية . واكثر ما يروى من الخطب الجاهلية لا يصح الاطمئنان له من الوجهة التاريخية لطول المسافة بين روايته وكتابته .

ومن اشهر خطباء الجاهلية قُصَّ بن ساعدة الايادي، وعمرو بن معدي كروب الزبيدي، وعمرو بن كلثوم التغلبي؛ ولم تشتهر قبيلة بالخطابة اشتها رقيم، ومن خطبائها المفوهين اكثم بن صيفي، وعمرو بن الاهتم المنقري .

وكان لعرب الجاهلية سُنن خاصة في خطابتهم، منها أنهم كانوا يخطبون على رواحلهم في المواسم العظام والمجامع الكبار . وكان من عاداتهم ان يقفوا على نشز من الارض وأن يشيروا اثناء خطبهم بالقنا والعصي والقضبان والقسي . وكانوا يدحون في الخطيب جهارة الصوت وخفامته، وشدة العارضة، وظهور الحجّة، وثبات الجنان . ويذمون البُهر^(١)، والارتعاش والرعدة، والحصر^(٢) .

وقد امتازت الخطابة الجاهلية بقصر العبارة وكثرة الحكم والامثال، واللجوء الى السجع القصير الفواصل . وكان الجاهليون يدجون كثيراً من الصور في ذلك السجع، ويجوّطونه بكثير من التجويد والتجبير مما يجعل له أثراً فعلاً في الأشماع .

ويلحق بالخطبة الوصيّة، وهي نصيحة يلقيها صاحب الشأن في وقت معيّن، ويقصد بها الترغيب في ما ينفع وعمّا يضرّ، كالتّي يعطيها الاب لاولاده في ساعة احتضاره، ورأس القبيلة لافراد قبيلته في الامور الهامة .

ويلحق ايضاً بالخطابة سجع المتكهنين الذين كانوا يدعون الاطلاع على الغيب، وأن لكلّ منهم رؤياً من الجن يسترق له السمع فيعرف عن طريقه ما سيكون

(١) البُهر : تتابع النفس وانقطاعه من الاعياء (٢) الحصر : العي في المنطق .

(٣) الرئي : الجنّي يرى فيجب .

وما سيحدث للناس في المستقبل . وقد اشتهر من المتكهنين سَطِيحُ الذَنِّي ، وشَقَّ بنُ مُصْعَبِ الانماري ؛ ومن أشهر المتكهنين عَزَى سَلِمَة . أما أقوالهم في التكهن فهي اسجاع يعتمدون فيها على الإغراب والإيهام والمُغَز ، وعلى القسم بالارض والسماء ، وما الى ذلك .

٣ - القصص : وكان للقصص باب واسع في أدب العرب الاقدمين ، وكانت قصصهم اسماراً تدور حول أيام العرب ، اي الوقائع التي وقعت في الجاهلية بين القبائل ، كيوم داحس والغبراء ، او بين العرب وأمم أخرى ، كيوم ذي قار الذي كان بين شيبان والفرس وكان النصر فيه للعرب .

وكان للعرب قصص أخرى تتضمن احاديث الهوى ، كما كان لهم قصص كثيرة منقولة عن الامم المجاورة كالفرس وغيرهم .

قُسَّ بن ساعدة - أكثم بن صيفي

١ - قُسَّ بن ساعدة (توفي نحو سنة ٦٠٠ م)

هو اسقف نجران ، وخطيب العرب وحكيمها وقاضيا في عصره . كثيراً ما كان يوافي سوق عكاظ ويخطب في الملا ترغيباً لهم عن الوثنية ، وتحويلاً من غضب الله ونقمته . وقد مال عن الدنيا وزخرفها ، وعاش على الكفاف يعظ الناس ويعبد الله . توفي نحو سنة ٦٠٠ م بعد أن عُمر طويلاً .

اساوبه بعيد عن الصنعة ، كثير السجع القصير الفواصل . يعتمد فيه قس الى ضرب الامثال وارسال الحكم . ومن خطبته التي قالها في سوق عكاظ وتداولتها الرواة قوله :

« أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا وَعُوا . وَإِذَا وَعَيْتُمْ فَاتَّقِعُوا . إِنَّهُ مَنْ عَاشَ مَاتَ . وَمَنْ مَاتَ فَاتَ . وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ . مَطَرٌ وَنَبَاتٌ . وَأَرْزَاقٌ وَأَقْوَاتٌ . وَأَبَاءٌ وَأُمّهَاتٌ . وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ . وَجَمْعٌ وَشَتَاتٌ . وَآيَاتٌ بَعْدَ آيَاتٍ . لَيْلٌ مَوْضُوعٌ . وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ
إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَخَبْرًا . وَإِنَّ فِي الْأَرْضِ لَعِبْرًا . . . »

ب - أكتثم بن صيفي (توفي نحو سنة ٦٣٠ م / ٥٩ هـ)

هو أكتثم بن صيفي بن رباح بن الحارث التميمي أشهر حكماء العرب في الجاهلية ، وأشهر خطبائهم وحكّامهم . كان رجل برّ ونزاهة فرغب العرب في التقاضي إليه ، ولم يردّوا له حكماً . وقد اشتهر بحكمته حتى ضرب بها المثل . ومما يروى ان النعمان بن المنذر سمع من كسرى انو شروان ملك الفرس كلاماً في العرب أمّضه ، فأحبّ ان يريه ذكاهم وفضلهم ، فأرسل اليه رهطاً من وجوههم وحكّامهم ، وفيهم أكتثم بن صيفي . فألقى أكتثم خطبة مشهورة كلها حكم بارعة وامثال رائعة ، منها :

« إِنَّ أَفْضَلَ الْأَشْيَاءِ أَعَالِيهَا ، وَأَعْلَى الرِّجَالِ مُلُوكُهُمْ ، وَأَفْضَلُ الْمُلُوكِ أَعْمَهُمْ نَفْعًا . . .
إِصْلَاحُ فُسَادِ الرَّعِيَّةِ خَيْرٌ مِنْ إِصْلَاحِ فُسَادِ الرَّأْيِ . . . شَرُّ الْبِلَادِ بِلَادُ لَا أَمِيرَ لَهَا .
شَرُّ الْمُلُوكِ مَنْ خَافَهُ الْبَرِيُّ . . . »

ولما حضرت أكتثم بن صيفي الوفاة جمع أبناءه وقال من وصية :

« يَا بَنِي الدَّهْرِ قَدْ أَدْبَنِي وَقَدْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أُؤَدِّبَكُمْ ، وَأُزَوِّدَكُمْ أَمْرًا يَكُونُ لَكُمْ بَعْدِي مَعْقِلًا . يَا بَنِي تَبَارَكُوا فَإِنَّ الْبِرَّ يُنْسِي^(١) فِي الْأَجَلِ وَيُنْشِي الْعَدَدَ ، وَكُفُّوا أَلْسِنَتَكُمْ فَإِنَّ مَقْتَلَ الرَّجُلِ بَيْنَ فَكَيْتِهِ . »

أما أسلوب أكتثم بن صيفي فهو الأسلوب الذي يتخذ العقل وسيلةً للتأثير ، فيتجنب المغالاة ، ويعتمد الى الحكم الرفيعة فيصوغها في قالب موجز ، ويرسلها في اتساع ورصانة على غير وحدة تأليفية .

(١) يُنْسِي : يُؤَخِّر .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- احمد امين : فجر الاسلام - القاهرة ١٩٤٥ ص ٦٠ - ٦٨
 شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي - القاهرة ١٩٤٦ ص ٣ - ١٦
 انيس المقدسي : تطوّر الاساليب النثرية في الادب العربي - بيروت - ص ١ - ٢٦
 محمد الحضر حسين : الخطابة عند العرب - القاهرة ١٣٤٦ هـ
 الاب لويس شيخو : المشرق ٢١ (١٩٢٩) : ٩٩ - ١٠٣
 محمد احمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، محمد ابو الفضل ابراهيم : ايام العرب في الجاهلية -
 القاهرة ١٩٤٦

٢ المراجع الاجنبية :

- W. Marçais : Les Origines de la prose littéraire arabe, in Revue Africaine, 1927
 15-28.

العهد الراشدي والاموي

٦٢٢ - ٧٥٠ م

١ - ١٣٢ هـ

— الانقلاب وأثره في الحياة والثقافة

— الشعر الراشدي والاموي

— شعر النضال الديني

— شعر اللّهُو :

— البدوي : الغزل العفيف

— الحضري : الغزل الماجن

— شعر السياسة (سياسة الخلافة وسياسة

القبيلة والافراد)

— فنون شعرية خاصّة : الاراجيز والراعيّات

— النثر الفني :

— اليجازي (الطريقة القديمة)

— التفصيلي (الطريقة الجديدة)

— العلوم والفنون •



احد ابواب الرصافة مقرّ خلافة هشام بن عبد الملك (٧٢٤م / ١٠٥هـ)
في بادية سورية قرب القرات

الباب الاول

الانقلاب واثره في الحياة والثقافة

١ - الانقلاب الديني والسياسي :

١ - محمد نبي العرب : وُلد نحو سنة ٥٧٠ ، ولما اكتمل دعا الى التوحيد والاسلام ، وكانت هجرته من مكة الى المدينة سنة ٦٢٢ . وقد وحد اكثر القبائل العربية ، فنشأت في نفوس العرب فكرة الوحدة القومية ، ووُضعت أسُس الدولة العربية .

٢ - الخلفاء الراشدون : يُمثلون الحكم الشوروي ، وقد فتحوا سورية وفارس ومصر وافريقية الشمالية . ولما بويع عليّ قاومه ابن الزبير ومعاوية . فانقسم العرب احزاباً ، وشبّت حروب وقتل الى قتل علي .

٣ - الخلفاء الامويّون : اظهروا تعلقاً بالعرب والعروبة ، وخرجوا من جهة اخرى عن تقاليد اسلامية كثيرة . فحافظوا على النزعة العربية ورفعوا شأن العرب فاستاء الموالي وانحازوا عليهم . وحافظوا على الثقافة العربية ؛ إلا انهم سلكوا مسلكاً مغايراً للملك الخلفاء الاولين ، ونقلوا العاصمة الى دمشق ، وجعلوا الخلافة ملكاً وراثياً ؛ فانشقّ العرب احزاباً وشيعاً .

٢ - البيئة الجديدة واثرها في الادب :

١ - الاسلام : القرآن كتاب الوحي عند المسلمين ، وهو مقسوم الى سُور منها المكية ومنها المدنية ، والسور مقسومة الى آيات . تحتوي السور المكية على اصول الدين ، والمدنية على اصول الأحكام . جُمع القرآن للمرة الاولى في عهد ابي بكر ، وجُمع للمرة الثانية في عهد عثمان ؛ واسلوبه خاص ، وهو يشمل فنوناً كثيرة ويمتاز بدقة التشبيه والتمثيل ، والجزالة والسهولة والعذوبة والانسجام . وقد كان من عوامل توحيد اللغة وحفظها . وهو اساس العلوم الدينية الاسلامية والعلوم البيانية العربية . وساعد الحديث القرآن على حفظ اللغة ونشرها .

٢ - خروج العرب من جزيرتهم واحتكاكهم بغيرهم : امتزج العرب بالفرس والروم امتزاجاً شديداً قسرت اليهم عاداتهم . وتحسنت احوال العرب الاقتصادية بامتداد دولتهم . الا ان الحروب والفتن اقلقّت البلاد ؛ ونزعة الامويين الى احياء العصبية القبلية قيّدت الادب وارجمته الى احواله الجاهلية .

١- الانقلاب الديني والسياسي :

١ - محمد نبي العرب : كانت الجزيرة العربية وأحوال العرب على ما رأينا من التفكك الاجتماعي والسياسي عندما وُلد محمد في مكة نحو سنة ٥٧٠ . فنشأ الطفل يتيماً يرى أحوال أمته ويستنكر عبادة الاوثان فيها . وما إن اكتمل حتى راح يدعو الناس الى التوحيد والاسلام ؛ وانقسم الناس معه وعليه ؛ وقوي الخلاف بينه وبين اهل مكة ، فهجروهم سنة ٦٢٢ م مع من اتبعه، قاصداً يثرب (المدينة) ، وكان ذلك الحادث بدء التاريخ الهجري . وجرت بين المسلمين وأعدائهم غزوات وسرايا انتصر محمد في أكثرها . ولم تمضِ سنوات حتى وُحد محمد أكثر القبائل العربية تحت رايته، وساس أمورها، فنشأت في نفوس العرب فكرة الوحدة القومية، وهبوا يريدون فتح الأمصار، نابذين العصبية القبلية، خاضعين لنيهم وخليفته . وهكذا وُضعت أسس الدولة العربية، ورُكزت دعائم الوحدة العربية تعذوها الفكرة الدينية والعنصرية الدموية .

٢ - الخلفاء الراشدون (٦٣٢ - ٦٦١ م / ١٠ - ٤١ هـ) : وقام الخلفاء

الراشدون بعد وفاة محمد (وهم اربعة : ابو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان ابن عفان، وعلي بن أبي طالب) يتابعون عمله، ويديرون شؤون المسلمين . وهم يمثلون الحكم الشوروي في الاسلام، لانهم كانوا يُنتخبون انتخاباً . وقد وسعوا نطاق دولتهم الفتية، ففتحوا سورية وفارس ومصر وافريقية الشمالية واشتهر من قوادهم أبو عبيدة وخالد بن الوليد .

ولما بُوع علي بن أبي طالب وقع خلاف سياسي شديد في شأن الخلافة ، إذ اتهم علي بقتل عثمان بن عفان ، خفاصه ابن الزبير تشدُّ أزره عائشة زوج محمد ؛ وقام في وجهه معاوية بن ابي سفيان والي الشام يريد الانتقام لأسرته ويطمع في الرئاسة العليا . فنقل علي عاصمته من المدينة الى الكوفة بالعراق . واشتعلت الحروب بين الخليفة ومناوئيه، وانقسم العرب احزاباً : فمنهم من ناصروا علياً، ومنهم من

ناصروا معاوية، ومنهم من خرجوا على هذا وذاك من أجل التحكيم وُسِّموا «خوارج». ولما قُتل عليّ بايع أنصاره ابنه الحسن . فرأى هذا أن لا قبل له بمجاربة معاوية ، فتنازل له عن الخلافة حقناً للدماء، وأصبح معاوية بذلك خليفة المسلمين .

٣- خلفاء الأمويون (٦٦١ - ٧٥٠ م / ٤٠ - ١٣٢ هـ) : تولى الأمويون

الخلافة في الشام ثم في الاندلس ؛ وقد لبثت خلافتهم في الشام تسعين سنة، اظهروا فيها من جهة تعلقاً شديداً بالعرب والعروبة ، وخرجوا من جهة أخرى عن تقاليد اسلامية كثيرة :

حافظ الخلفاء الأمويون على النزعة العربية ، فرفعوا شأن العرب، وجعلوا الكلمة الاولى لهم ، وقصروا وظائف الدولة عليهم وحدهم ، من ولاية وقيادة جيوش وغير ذلك من المناصب العالية في السياسة والقضاء، وكانوا يحسبون غير العرب أتباعاً لهم ؛ فكان من ذلك أن عصفت في الموالي - وهم الذين دخلوا الاسلام من غير العرب - ريح استياء عام ، وراحوا شيئاً فشيئاً يبشّون الدعوة لتحطيم النير الأموي .

ثم إن الأمويين حافظوا على الثقافة العربية ، فنشأوا أبناءهم بالبادية، يتعلمون فيها الشعر والادب واللغة ، ويكتسبون فيها الملكة العربية . وكانوا يعقدون المجالس الادبية، ويستدعون الرواة والادباء والشعراء ويُجزلون لهم العطاء . وفي عهدهم تمت الحواضر الاسلامية الكبرى كالكوكة والبصرة والفسطاط ومكة والمدينة .

والى جنب هذه النزعة العربية نرى الأمويين يخرجون عن تقاليد اسلامية كثيرة . فإنهم، منذ انتقلت الخلافة اليهم، أخذوا يسلكون مسلكاً مُغايراً للمسلك الخلفاء الاولين . فقد اتَّخذوا من عادات الفرس وتقاليد الروم بعض أساليب الحكم، ونهجوا منهجهم في أشكال السيادة والإدارة . فنقلوا عاصمتهم الى دمشق في وسط الدولة العربية الجديدة، وجعلوا الخلافة مُلكاً وراثياً ، وابتنوا القصور، وأنفقوا الاموال في سبيل البذخ والترف .

إلا ان الاحتكار الأمويّ الملك، دون سائر قريش، أشاع في العرب موجة استياء، فانشقوا احزاباً وشيعاً، وشبّت بينهم الفتن . فاستعان معاوية، لتوطيد ملكه، بأسرته وبالقبائل العربية المقيمة في بلاد الشام . ثمّ احتال على القبائل الاخرى فضرب بعضها ببعض، موقعاً بينها الخلاف ؛ وبذلك أحيا العصبيّة القديمة التي حاربها الاسلام .

ولم يثق معاوية بأهل الكوفة والبصرة لانحياز اكثرهم الى الشيعة اصحاب عليّ ؛ وكذلك لم يثق بأهل مكة والمدينة لانحياز زعمائهما الى اهل البيت، بل راح يغدق عليهم - وهم أصحاب الرأي النافذ في الاسلام - الاموال الطائلة، محاولاً أن يصرفهم عن السياسة أو يُخفّت اصواتهم فيها . وهكذا استعمل لتعزيز سلطانه وتثبيت ملكه قوّة سلاحه، وقوّة دهائه، وقوّة ماله .

ولمّا مات معاوية تارّثت في البلاد نيران الثورات والفتن، وتعدّدت الاحزاب : فمن شيعة يناصرون بيت عليّ، في الحجاز والعراق ؛ الى زُبَيْرِيّين يشايعون آل الزُبَيْر في الحجاز وغيره ؛ الى خوارج ينهضون في وجه الاستبداد ؛ الى امويّين يذودون عن سلطانهم، ويلجأون الى القوّة في سبيل ذلك، ويكبلون أمر الثائرين الى الحجاج بن يوسف الثَّقَفِيّ وأمثاله من رجال الحزم والشدّة والبطش .

وإنّ تلك القوى المتحالفة على بني أميّة، وقد انضمّ اليها الموالي والشعوبيّة، اخذت تهدّ جسم الدولة شيئاً فشيئاً، حتى قضت عليها اخيراً بقيام بني العباس .

٢ البيّنة الجريّة وأثرها في الادب :

١ - الاسلام : القرآن والحديث : لقد فتح الدين الجديد للادب العربي أفقاً جديداً بما أتاه به من معانٍ جديدة، كما انه مهر اللغة العربيّة بألفاظ ذات دلالة جديدة . وكان الاثر الاكبر للقرآن .

١ القرآن واقسامه : القرآن - ويقال له الفرقان او المصحف - هو كتاب



دمشق عاصمة الخلافة الاموية - مشهد قديم لنهر بردى وغوطة دمشق

الوحي عند المسلمين، فيه تفصيل ما يجب الايمان به، وما يجب عمله . وهو يُقسم الى ١١٤ قسمًا تختلف في الطول وتُدعى سُورًا . وتُقسم السُّور الى مكِّيَّة، وعددها ٩٢، ومدنيَّة، وعددها ٢٢؛ وترجع الأولى، على الأرجح، الى ما قبل الهجرة؛ اما الثانية فيُرجَّح انها ترجع الى ما بعد الهجرة . والسُّور، مكِّيَّة ومدنيَّة، تنقسم الى فقرات تُدعى آيات . فضلاً عن انقسام القرآن الى سُور وآيات متفاوتة في الطول، فهو ينقسم ايضاً الى اقسام متساوية تُدعى احزاباً، وتنقسم الاحزاب الى ارباع .

٢ موضوع سُوره : تحتوي السُّور المكيَّة على اصول الدين من ايمان بالله ورذل عبادة الأصنام؛ ومن ثمَّ كان اظهر موضوعاتها تأييد رسالة محمَّد، والدعوة الى التوحيد، ومحاربة الشِّرك والاثوان، وإثبات البعث . اما السُّور المدنيَّة فتحتوي على اصول الاحكام من عبادات ومعاملات؛ وهي تشمل التشريع الديني في الصوم والزكاة والحج وما الى ذلك، والتشريع الاجتماعي في الزواج والميراث والطلاق، والتشريع السيامي في قتال من يناهض الدعوة . . .

٣ جمعه : كان القرآن مكتوباً في العُصْب والالواح والرقاع والخفاف وما الى ذلك، او محفوظاً عن ظهر القلب في صدور الصحابة ؛ وقد جُمعت الرقاع المكتوبة ودُوِّنَت الآيات المحفوظة في عهد أبي بكر عام ١١ هـ (٦٣٢ م) ؛ ثم جُمعت آيات القرآن كلها في المصاحف على عهد عثمان عام ٢٥ هـ (٦٤٥ م) .

٤ أسلوبه : للقرآن أسلوب خاص لا هو شعر، ولا هو نثر مُرَّسل، إنما هو، على حد ما قال طه حسين باشا، «قوآن» . وقد وقع ابن خلدون وكثيرون غيره من المؤرخين في حيرة عندما عرضوا للقرآن، فقال ابن خلدون : « اما القرآن، وإن كان من المنشور، إلا أنه خارج عن الوصفين، وليس يُسمى مُطلقاً ولا مسجعاً، بل تفصيل آياتٍ تنتهي الى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها، ثم يُعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها، ويشئ من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية . ويُسمى آخر الآيات منها فواصل اذ ليست أسجاعاً ولا هي قوافٍ . . . »

والقرآن يشمل فنوناً كثيرة من ذكر قصص ومواعظ، واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، واوصاف، وتعليم . . . وهو قصير الآي، كثير السجع شديد اللهجة عندما يهدد في سُورَةِ المَكِّيَّة ؛ وهو طويل الآي هادئ البيان في السُّورِ المَدْنِيَّة . وهو على كل حال دقيق التشبيه والتمثيل، يجمع الجزالة الى السهولة، والوضوح الى العذوبة والانسجام . ومن ثم فبلاغته رفيعة الى حد بعيد . وقد اختلف علماء الاسلام في سبب ما يسمونه فيه اعجازاً، فمنهم من ارجع ذلك الى شرف الغرض وتنوع القصد، وما الى ذلك ؛ ومنهم من ارجعه الى الفصاحة والأسلوب .

٥ أثره في اللغة والادب : كان القرآن من عوامل توحيد اللغة وفرض لغة قریش وتوسيع دائرتها، وكان اقوى الاسباب التي عملت على حفظ اللغة العربية حيَّةً وعلى نشرها في الامصار ؛ كما كان من اسباب تهذيب الالفاظ وتليين الاساليب . وهو اساس العلوم الدينية الاسلامية كالْفقه والتفسير، والعلوم اللغوية والبيانية والنحوية عند العرب .

٦ الحديث : ويلحق بالقرآن الحديث، وهو ما ورد عن محمد من قول قاله، او حكاية فعل فعله؛ وقد أضيف الى ذلك اخبار حكيته عن الصحابة . والحديث عند المسلمين في المنزلة الثانية من القرآن في ما يتعلق بالدين وما اليه؛ فهو يبين ما ورد في القرآن مجملًا، ويوضحه ويفصّله . ولم يُدوّن الحديث الا منذ القرن الثاني للهجرة (القرن الثامن) . وهو ذو بلاغة رفيعة وروعة بيان جليّة . وقد كان له أثر عظيم في اللغة والادب، اذ وسّع المادة اللغويّة بإدخال الفاظ فقهية ودينية، وتعبيرات جديدة؛ وساعد القرآن على حفظ اللغة ونشرها .

٢ - خروج العرب من جزيرتهم واحتكاكهم بغيرهم : خرج العرب من جزيرتهم على أثر الفتوح، واختلطوا بشعوب ذات مديّنات مختلفة، ووارثه حضارات الامم القديمة، ومكوّنة من اجناس مختلفة سامية وحامية وآرية، ذات عقليّات ونزعات متباينة . واهم تلك الشعوب الفرس والروم . ولئن سبق للعرب بعض اتصال بهم، فما كان ذلك عميقًا؛ أما الآن فقد اصبح الامتزاج شديدًا تداخلت به اللغات والافكار والعقائد . فتوسّعت بذلك آفاق العرب، وتسرّبت اليهم عادات الفرس والروم، ونظّمهم الاجتماعيّة والسياسية، فاخذوا منها ما راقهم وتمشّى مع أذواقهم، كتدوين الدواوين وتنظيم الجيوش . وزادت ثقافات تلك الامم الثقافة العربية ثروة وغنى، فوسّعت العقل العربي بتراسها الثقافي الضخم؛ واذا اللغة الفارسية والرومية، واذا الفقه الروماني والحكمة اليونانية، واذا اساليب الفرس واليونان الكتابية، واذا هذه واشياء اخرى كثيرة تُبقي أثرًا في لغة العرب وتشريعهم واساليبهم الكتابية، وفي تفكيرهم؛ ولاسيما وان الموالي الذين أبعدهوا عن مناصب الدولة، قد انصرفوا الى العلوم الشرعية والفنون الادبية، فكان منهم رجال الفقه، وكتبه الدواوين والشعراء والعلماء؛ وابقوا في الثقافة العربية اثرًا كبيرًا .

ثم ان امتداد الدولة الاسلامية قد حسن احوال العرب الاقتصادية . فبعد ان وّحد الاسلام كلمة العرب، وبعد أن نقلهم الى حياة اجتماعية جديدة؛ وكون منهم أمة موحدة الروح واللغة، تخضع لنظام واحد وتترع الى التحضر وترك البداوة، قد

أخرجهم الى بلاد غنية بطبيعة أرضها ووفرة خيراتها ورقى صناعتها . فانقلبوا من شظف عيش الى ترف ونعمة، واقتنوا الاموال والضياع ولاسيا في عهد بني أمية حيث انتشر اللهو والترف وكان اكثر انتشارهما في الشام والحجاز .

٣ - الحروب والفتن : وكان للحروب والفتن أثر كبير أيضاً في الادب العربي

وتوجيهه . فقد تعددت الاضطرابات وجرت حروب كثيرة بين أنصار الدين الاسلامي الجديد ومقاوميه أولاً، ثم بين الاحزاب المتطاحنة، المتباينة النزعات والاهداف . فاصطبغ قسم كبير من الادب بصبغة النضال .

٤ - نزعة الامويين : كان يُنتظر بسبب كل ما تقدم أن يجري في الادب

العربي انقلاب جوهرى ؛ ولاسيا بعد أن استقرت أحوال الدولة العربية . ولكننا نجد، والحق يقال، يرسف في كثير من قيود الجمود والتقليد ولاسيا في العهد الأموي . وذلك ان خلفاء بني أمية قد أحيوا النزاع القبلي، فكان الخليفة يصطنع القبائل التي تناصره ويستبد بالتي تعاديه ؛ فهبت القبائل بعضها في وجه بعض، وعادت الى سالف عوائدها من خصومات ومفاخرات، وعادت العصبية الجاهلية التي عمل الإسلام على خنقها ؛ ورجع الادب الى ما كان عليه في الجاهلية، تحفزه السلطة بما تُعقد على المدّاحين من مال ونعيم، وقد فُتنت بشعراء الجاهلية والادب الجاهلي . وتبع الشعب ملوكه . فعمت النزعة الجاهلية، وشغل الادب الجاهلي الناس من جميع الاحزاب .

وكان للعرب، كما في الجاهلية، اسواق للتفاخر والتنافر « كالكيناسة » حوالى الكوفة، وخصوصاً « المربد » ، وهو ضاحية من ضواحي البصرة، في الجهة الغربية ممّا يلي البادية ؛ اراد عرب البصرة ان يكون لهم منه ما كان من سوق عكاظ في الجاهلية . فجعلوه مُرتاداً للشعراء والعلماء، يُقبلون اليه من جميع الاقطار للتفاخر والتهاجي، وكان الناس يخرجون كل يوم اليه وينتظر كل منهم شاعر حزبه السياسي او شاعر قبيلته . وهكذا كان للمربد أثر كبير في أدب الأمويين .

ومهما يكن من أمر فقد ساعد الامويون الأدب، وعملوا على تعزيزه في صبعته هذه، ونشطوا أربابه بالمال الوافر وإذكاء العصبية والتنافس؛ فكان أدباً نشيطاً، إلا أنه كان مستعبداً، يخدم المصالح الحزبية والفردية، ولا يخلق في أجواء الفن الطليقة.

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- فيليب حتي : تاريخ العرب - الجزء الاول والجزء الثاني - بيروت ١٩٤٩
 جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي : الجزء الاول - القاهرة ١٩٠٢
 محمد حسين هيكل : حياة محمد - القاهرة ١٣٥٨ هـ
 محمد عبد المنعم خفاجي : الحياة الادبية بعد ظهور الاسلام - القاهرة ١٣٦٩ هـ / ١٩٤٩ م
 سيد نوفل : شعر الطبيعة في الادب العربي - القاهرة ١٩٤٥ ص ١١٠ - ١٥٢
 شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي - القاهرة ١٩٤٥ ص ٣٦ - ٤٢
 شوقي ضيف : الشعر الغنائي في الامصار الاسلامية - القاهرة

٢ المراجع الاجنبية :

- C. Brockelmann : Histoire des Peuples et des États islamiques — Traduction de M. Tazerout, Paris 1949, 20-97.
 H. Lammens : Études sur le règne du Calife Omayyade Mo'āwia I^{er}, Beyrouth 1907.
 H. Lammens : Études sur le siècle des Omayyades, Beyrouth 1930.
 F. Buhl : Al-Kor'ān, in Encycl. de l'Islam, t. II, 1124-1139.

الباب الثاني

الشعر الراشدي والأموي

١ مواطن الشعر الراشدي والأموي : انتقل الشعر في أكثره الى الحواضر ولاسيا حواضر الحجاز والشام والعراق .

٢ منزلة الشعر واغراضه : كان الشعر في فجر الاسلام في خدمة الدعوة الدينية؛ وكان في العهد الاموي وسيلة لاذاعة الحماد والمآثر، وتأييد الاحزاب السياسية والنعرات القبلية . وفي غير ميادين السياسة، حيث كثر اللهو، صار الشعر في خدمة اللهو والفناء .
- فأغراض الشعر لم تتغير في مجملها انما استحدث الشعر السياسي .

- وقد صبغت البيئة الجديدة، ولاسيا الدينية، تلك الاغراض بصبغة دينية ظهرت في المعاني والمواطف . ونزع الهجاء نزعة الإقذاع . وقد استقل الغزل .

٣ قيمة الشعر في هذا العهد :

١ - القيمة الفنية : ازدادت معاني الشعر عمقاً وإن بقيت ضعيفة التسلسل المنطقي لا تنزع منزع التحليل الا قليلاً . وازدادت الاخيلة اتساعاً وان بقيت وثيقة الصلة بالاخيلة الجاهلية . واما العاطفة فقد نفخت فيها العزّة والسيادة؛ ولكنها كثيراً ما سُخِّرَتْ لخدمة المآرب . واما الاساليب التمييزية فقد حافظت على روعتها، وقد لبّتها القرآن والمدنية الجديدة وزادها سهولة وعذوبة، كما عملا على تنويعها . وكان للفناء اثر كبير في الموسيقى الشعرية .

٢ - القيمة التاريخية : للشعر، في هذا العهد قيمة تاريخية حقيقية، فهو يطلعنا على الانقلاب الديني وما عقبه من أحداث، ثم على ما قام في البلاد العربية من أحزاب وشيع . الا ان في بعض تلك الاخبار غلوّاً قاد اليه هيجان العاطفة الحزبية والسياسية .

١ مواطن الشعر الراشدي والأموي : امتدّ ميدان الشعر بفضل الفتوحات

العربية ، وانه وان لم يترك البادية

تماماً ، فقد انتقل في أكثره الى الحواضر، ولاسيا حواضر الحجاز حيث مكّنت مهد الدعوة الاسلامية وموطن قريش، والمدينة موطن الانصار ثم عاصمة الخلافة في عهد

الراشدين ؛ وحواضر الشام حيث دمشق قاعدة الخلافة الاموية ومقر السياسة ؛ ثم حواضر العراق مقر الشيعة والمعارضة، وملتقى الشعوب المتباينة الاجناس من فرس وغيرهم، وميدان الاضطراب والصراع المستمر بين الآراء السياسية والدينية، ثم مركز العلم والادب حيث المروءة، وحيث الكوفة والبصرة أهم مواطن الثقافة .

٢ منزلة الشعر واغراضه : كان الشعر زمن الجاهلية في خدمة القبيلة، وأما في فجر الاسلام فقد صار في خدمة الدعوة الدينية ووسيلة لتأييد الدين ؛ ثم صار في العهد الاموي وسيلةً لازداعة المحامد والمآثر وتأييد الاحزاب السياسية والنعرات القبلية، يتسلح به الشعراء لإعلاء شأن احزابهم وسلب خصومهم . وقد عني الخلفاء وذوو الامر بالشعر عناية كبيرة، فقرّبوا الشعراء وأغدقوا عليهم العطاء، وشجّعوا مجالس الإنشاد الشعري، فازدحم الناس فيها يفاخر كل بشاعره، وتعلي كل قبيلة شأن شاعرها كما يعمل هو على إعلاء شأنها . إلا ان الشاعر في هذا العهد قد أضاف الى مهمته القبلية مهمة سياسية عليا تتعلق بصير الخلافة والدولة وتأييد الحزب .

وحيث لم تعصف رياح السياسة، وانصرف الناس الى اللهو والغناء، صار الشعر في خدمة ذلك اللهو وذلك الغناء، وكان له منزلة اجتماعية خاصة، يقدم المغنين والمغنيات أصواتاً وألحاناً، ويتنقل في تلك الاصوات والالحان من سمع الى سمع، ومن قلب الى قلب .

ومن ثم نرى أن التوجيه الجديد لم يغيّر اغراض الشعر تغييراً جوهرياً ؛ فقد ظل الشعر في مجمله قائماً على الوقائع والايام، والمثاب والأنساب، وما الى ذلك ؛ وظلت اغراضه في اكثرها تدور حول الفخر والحماسة، والمدح والثناء والوصف والهجاء ؛ ولئن استحدث شي من ذلك فهو في ما نسميه الشعر السياسي الذي يصف الخصومات السياسية بين الاحزاب .

وإن لم تتغيّر أغراض الشعر في جوهرها، فقد صبغت البيئة الجديدة بصبغة

ظهرت في بعض نواحيها ؛ فظهرت في الشعر الدعوة الى الاسلام، ومناضلة خصومه، وهجاء أعدائه، كما ظهر مدح محمد وانصاره، والتمدح بشجاعة المسلمين وابطالهم، ووصف المعادل والحصون وآلات القتال والحصار وما الى ذلك مما لم يكن للعرب عهد به؛ وظهر هجو نبي الاسلام واصحابه والذود عن العادات الجاهلية؛ وظهر ايضاً التحمس للقتال والحث على الجهاد والفخر بالنصر الديني، ورناء من قتلوا في غزوات محمد وفي الفتوحات الاسلامية، الى غير ذلك مما اوحى به الحالة الدينية والاجتماعية . فهذه الصبغة الدينية في المعاني والعواطف لم يُعرف مثلها لشعر الجاهلية .

والى ذلك نرى ان بعض الاغراض قد ازدادت قوة . فالغزل قد استقل وصار يُنظم لذاته ؛ وقد ازداد فيه التصريح، والقصص الماخذ والفحش، بسبب انتقال الأئمة من البداوة الى الحضارة، ولتوفر اسباب الترف واللهو ؛ ثم ان الهجاء قد ازداد إقذاعاً وشيوعاً .

٣ قيمة الشعر في هذا العهد :

١ - القيمة الفنية : تأثر الشعر بالبيئة الجديدة، ولكن ذلك الاثر كان محدوداً لقرب عهد العرب من الجاهلية، ولاعتادهم على معاني الجاهلية وأخيلتها وأساليبها . فالمعاني قد ازدادت عمقاً وازدادت فيها الحكم والأمثال بفضل القرآن، إلا انها بقيت ضعيفة التسلسل المنطقي، تجري مجرى الجاهلية في تركيب القصيدة، ولا تنزع الا قليلاً منزع التحليل الهادي الذي يتغلغل في خفايا النفس الانسانية ويكشف مكنوناتها، ويتزل الى اعماق الاشياء المحسوسة وغير المحسوسة ويستخلص معانيها .

والاخيلة ازدادت اتساعاً بفضل المذنيات التي احتك بها العرب والبيئة الدينية الجديدة؛ ولكن تلك الاخيلة بقيت وثيقة الصلة بالاخيلة الجاهلية، ضيقة الاجواء، قريبة من الواقع الحسي، قلما تحسن التحليق الواسع والابتكار الرائع .

واما العاطفة فقد نفخت فيها العزة والسيادة بسبب الفتوحات وإخضاع

الشعوب لسلطان العرب، الا ان تلك العاطفة كثيراً ما سُخِّرَتْ لخدمة المآرب الحزبية والسياسية البلاطية والضغائن الشخصية ولا سيما في عهد بني امية، فامتُهِنت، وسقطت روعتها، وضعف تأثيرها في النفوس .

واما الأساليب التعبيرية فقد حافظت على روعتها وقوتها ومثانتها، وخصوصاً في ما يرجع الى التفاخر والدعائيات السياسية والحزبية، الا ان القرآن والمدنية الجديدة قد لَبَّتا تلك الأساليب وزادها سهولة وعذوبة كما عملا على تنويعها وتوسيعها . ومن عوامل ذلك التليين وذلك التنويع ايضاً ما شاع في الحواضر من غناء ورخاء ؛ فقد كان للغناء اثر كبير في الموسيقى الشعورية الجديدة التي سنلمسها بنوع خاص في الشعر الغزلي .

٢ - القيمة التاريخية : للشعر في هذا العهد قيمة تاريخية تُذكر . فهو يطلعنا على اخبار الانقلاب الديني وما عقبه من مقاومة وفتوحات، ثم ما وصلت اليه الدولة العربية من امتداد سلطان ونظم اجتماعية وسياسية، ثم ما قام في البلاد العربية من أحزاب وشيع، وما كان بينها من تناحر ؛ ثم يطلعنا على ما وصلت اليه بعض النواحي من ترف ولهو . إلا ان في بعض هذه الاخبار كثيراً من الغلو بسبب هيجان العاطفة الذي كان نتيجة العصبية والاحقاد .

٤ أقسام الشعر الراشدي والاموي : لقد ضمنا الى هذا العهد أدب فجر الإسلام الذي ظهر في عهد محمد . ومن ثمَّ يمكننا ان نقسم الشعر في هذا العهد على الوجه التالي :

١ - شعر النضال الديني ، وهو الذي قيل في تأييد دعوة محمد والدفاع عنها، وما قيل في ردّها وهجو اصحابها ؛ ثم ما أوحى به حروب الفتح . ومن اشهر شعراء تلك الحقبة : كعب بن زهير، وحسان بن ثابت، وابو ذؤيب الهذلي، والنابغة الجعدي .

٢ - شعر اللّهُو : وهو ما قيل في الغزل عفيفاً كان او غير عفيف، ومن أشهر اصحابه : جميل بن معمر، وليلى الأخيلية، وعُمَر بن ابي ربيعة .

٣ - شعر السياسة، وهو ما قيل في سياسة الخليفة وسياسة القبيلة وما الى ذلك، ومن أشهر اصحابه : الاخطل، وجوير، والفوزدق، والكميت بن زيد الأسدي، والطرمّاح بن حكيم، وعبيد الله بن قيس الرقيّات .

٤ - الفنون الخاصة : وهذا الشعر هو ما قيل بأساليب خاصّة او موضوعات خاصّة كالأراجيز والراعويّات، ومن أشهر شعرائها : العجاج، وابنه روبة، وذو الرّمة .

بعض المراجع

- محمد عبد المنعم خفاجي : الحياة الادبية بعد ظهور الاسلام - القاهرة ١٩٤٩
عبد الرزاق حميدة : ادب الخلفاء الامويين - القاهرة
سيد نوفل : شعر الطبيعة في الادب العربي - القاهرة ١٩٤٥ ص ١١١ - ١٥٢
شوقي ضيف : الشعر الغنائي في الأمصار الاسلامية - القاهرة .

موضوعات للبحث

- ١ - وازن بين اغراض الشعر الجاهلي واغراض الشعر الراشدي والاموي، ذاكراً العوامل والاسباب .
٢ - ما الفرق بين مواطن الشعر الجاهلي ومواطن الشعر الراشدي والاموي . وهل كان لتلك المواطن المختلفة توجيه جديد في الشعر العربي ؟
٣ - وازن بين القيمة الفنيّة للشعر الجاهلي والقيمة الفنية للشعر الراشدي والاموي .

الباب الثالث

شعر النضال الديني

الفصل الاول

كعب بن زهير (؟ - ٦٦٢ م / ٥٢٤ هـ)

١ - مكانه من عصره : لما ظهر محمد بدعوته اشتدت الخصومة بينه وبين قريش . فهب شعراؤها يهاجمونه . فانتصر له فريق من الصحابة اشهرهم حسان بن ثابت ، وردوا على شعراء قريش . والى جنب اولئك وهؤلاء ظهر شاعر هجا محمداً ثم مدحه وهو كعب بن زهير .

٢ - حياته : ولد كعب في غطفان ثم نشأ في بني والده به وبشعره ، حتى ظهر محمد بدعوته الى الاسلام ، فهجاه وهجا الاسلام . فأهدر محمد دمه . فخاف ورجع الى محمد يعتذر اليه ويمدحه ، فعفا عنه ، وخلع عليه البردة .

٣ - آثاره : ديوان شعر لم يُطبع ، اشهر ما فيه قصيدة « بانت سعاد » المعروفة « بالبردة » ، وهي قصيدة مشهورة ، طبعت مرات كثيرة في الغرب وفي الشرق ، وترجمت الى لغات متعددة . وهي في مدح محمد والاعتذار اليه ؛ تُقسم الى ثلاثة اقسام : توطئة غزلية ، ثم وصف الناقة ، ثم مدح واعتذار .

اما قسمها الغزلي ففيه انقباض عاطفي تكسوه الخيلة بألوان بارعة تكاد تُنسي ما هنالك من معانٍ مطروقة . - واما قسمها الوصفي ففيه اوصاف تقليدية لا تخلو من ابتكارات ومن حياة وقوة . - واما قسمها المدحي ففيه حسن توسل وتذلل للاعتذار ؛ الا ان كعباً لم يبلغ مبلغ النابغة في ذلك ؛ ثم مجازاة للاقدمين في المدح ؛ والى ذلك حسن سبك ، ودقة تصوير ، وجزالة الفاظ .

٤ - فنه : يقوم فن كعب بن زهير على الخيال الحسي الدقيق ، وتتبع المعنى ، والتنسيق ، والصناعة التي يلجأ اليها الشاعر للتأثير .

١ - مكانه من عصره : ظهر محمد بدعوته فاشتدت الخصومة بينه وبين قريش ، فقام شعراؤها يهاجمونه ويهاجمون دعوته ، وبدأ هذه الحملة منهم عبد الله بن الزبعرى ، وعمرو بن العاص ، وابو سفيان بن الحرث . فهب

للقريشيين نفر من الصحابة، واستأذنوا محمداً بمساجلتهم فقال : « ماذا يمنع الذين نصرروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بالسنتهم ؟ » وكان من أولئك الصحابة الشعراء : حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة . فتهاجى الفريقان على النمط المعروف من الفخر بالانساب والسؤدد . وقد أبيد الشعر القرشي بمجمله، لما فيه من تعريض بمحمد وأصحابه، ولما فيه من باعث على إثارة الحزازات بين المسلمين وقد توحدوا، فضلاً عن أن قريش نفسها أسلمت .

وإن لم يكن لكعب بن زهير يد في هذه المساجلات فهو ممن هجوا رسول الاسلام ثم مدحوه، ولذلك أدخلناه في هذا الباب .

٢ مائة : كعب بن زهير بن أبي سلمى، ولد في غطفان قبيلة أمه كندشة، ونشأ في بيت توفرت له القرائح الشعرية، تشهد بذلك آثار احد عشر شاعراً من نسل أبي سلمى جد كعب .

حاول زهير ان ينظم الشعر منذ حداثة فرده ابيه، مخافة ان يتسفل ويأتي بالضعيف فيشوه مجد الاسرة . وما زال يهذب لسانه ويجهز شاعريته برواية الشعر حتى استقام له النظم .

وكان كعب قد بلغ من الشعر والشهرة حظاً مرموقاً حين دعا محمد الى الاسلام . وإذا أسلم اخوه مجير وبخه واستحبه على الرجوع عن دين لم يكن عليه احد من آبائه ، وهجا محمداً والاسلام، فأهدر محمد دمه ، فراح يستجير بالقبائل وما من مجير ، ونصحه أخوه بالرجوع الى محمد، فرجع بعد أن استيأس من المجير والنصير، وأتى المدينة وقد أعد قصيدته المشهورة « بانت سعاد » . ولما مثل امام محمد انشده إياها، فعفا عنه وأمنه، وخلع عليه برده . فما زالت البردة في اهله حتى اشتراها معاوية منهم، وتوارثها الخلفاء الأمويون فالعباسيون حتى آلت مع الخلافة الى بني عثمان .

وقد توفي كعب نحو سنة ٦٦٢ م / ٢٤ هـ .

٣ **آثاره :** اكعب ديوان غير مطبوع ، ليس فيه ، اذا استثنينا قصيدة « بانث سعاد » إلا المقطوعات القصيرة التي نُظمت في الاغراض المعروفة من مديح وغزل وهجاء وورثاء وما الى ذلك . وأما اجود شعر له واحقه بالالتفات فهو قصيدته « بانث سعاد » التي تُدعى ايضاً « البودة » والتي تُعدُّ من المشوبات ، وهي لامية من البحر البسيط لا تتجاوز ٥٨ بيتاً . وقد طار لتلك القصيدة شهرة واسعة ، وتناولها العلماء بالشرح والتفسير ، كما تناولها الشعراء فشطروها وخمَّسوها وعارضوها .

(١) اعتاد العرب ان يرتبوا القصائد المشهورة سبعاً سبعاً ودعوها باسماء تدلُّ على مقامها ، وهي ٤٩ ، واليك ترتيبها :

١ - المعلقات ، وقد مرَّ ذكرها .

٢ - المُجَمَّهَرَات واصحابها : النابغة الذبياني (٦٠٤) ، عبيد بن الابرص (٥٥٥) ، عدي بن زيد (٦٠٤) ، بشر بن ابي حازم (٥٣٠) ، امية بن ابي الصلت (٦٢٤) ، خدّاش بن زهير (٥٧٠) ، النمر بن تولب العكلي (٦٤٥) .

٣ - المتنقيات ، واصحابها : المسيّب بن عكس (٥٨٠) ، المرقش الاكبر (٥٥٢) ، المتليّس (٥٨٠) ، عروة بن الورد (٥٩٦) ، المهلهل (٥٣١) ، دريد بن الصمة ، المتنخل (٦٠٠) .

٤ - المذهبات ، واصحابها : حسان بن ثابت الانصاري (٦٧٥) ، عبدالله بن رواحة الانصاري (٦٣٠) ، مالك بن العجلان ، قيس الأوسي (٦١٢) ، أصيحة بن الجلاح (٥٦١) ، ابو قيس بن الأسلت (٥٢٠) ، عمرو بن امرئ القيس (٦٣٣) .

٥ - المراثي ، واصحابها : ابو ذؤيب الهذلي (٦٤٨) ، كعب بن سعد الغنوي (٦١٧) ، الأعشى الباهلي ، علقمة ذو جدن الحميري ، ابو زيد الطائي (٦٤٥) ، متمم اليربوعي (٦٤٦) ، مالك التميمي (٦٧٦) .

٦ - المشوبات - وقد سميت كذلك لقولهم ان قد شابه الكفر - واصحابها : النابغة الجعدي (٦٣٠) ، كعب بن زهير (٦٦٢) ، القطامي (٧١٠) ، الحطيئة (٦٧٩) ، الشماخ بن ضرار (٦٤٠) ، عمرو بن أحر (٦٦٣) ، تميم بن مقبل (٦٢٥) .

٧ - الملحقات ، واصحابها : الاخطل التغلي (٧١٢) ، الفرزدق التميمي (٧٢٩) ، جرير الخطفي (٧٢٨) ، عبيد الراعي (٧٣٨) ، ذو الرمة (٧٣٥) ، الكميّ بن زيد الاسدي (٧٤٣) ، الطرمّاح بن حكيم (٦٧٨) .

١ - شرحها وطبعها وترجمتها : أما الذين شرحوها فكثيرون منهم ابن دُرَيْد (٩٣٣)، والتبريزي (١١٠٩)، وابن هشام (١٣٦٠) والباجوري (١٨٦٠). وقد طُبعت مراراً في الشرق وفي أوربّة، تارةً على حدة وتارةً في مجاميع أدبية. فطُبعت في ليدن سنة ١٧٤٨ مع شرح مستفيض، ثم في هال سنة ١٨٣٣، ثم في ليبسيك سنة ١٨٧١، ثم في برلين سنة ١٨٩٠، ثم في باريس وقُسطنطينة سنة ١٩٠٤؛ وطُبعت في بيروت سنة ١٩٣١.

وُترجمت إلى لغات كثيرة منها اللاتينية، والفرنسية، والألمانية، والانكليزية، والإيطالية.

٢ - أقسامها : تُقسم القصيدة إلى ثلاثة أقسام :

- ١ - توطئة غزلية على عادة الشعراء الأقدمين (١ - ١٢)
- ٢ - وصف الناقة التي تبلغ بالشاعر إلى المحبوبة (١٣ - ٣٣)
- ٣ - اعتذار ومدح لمحمد والمهاجرين (٣٤ - ٥٨)

٣ - أغراضها وما لها من قيمة :

١ القسم الغزلي : نلحس في هذا القسم انقباضاً في العاطفة يكاد يكون جوداً لولا ما تضافي عليه الخيلة من ألوان وتشبيهات بارعة، واستطرادات أوسية، تكاد تنسي ما هنالك من معان مطروقة قلّ فيها الابتكار . فتشبيه الخليفة بالظبي، والاستطراد إلى وصف الخمر ومنها إلى وصف الماء البارد، كل ذلك وسيلة يستعين بها الشاعر للتغطية على ضعف التحليل النفسي وعلى ضعف العاطفة :

بانتُ سعادُ فقلبي اليومَ مَقبُولُ مُتَبِمٌ إِنْ رَها، لم يُفدْ، مَكْبُولُ^١
وما سعادُ، غداةَ البينِ، إذ رَحَلوا إِلَّا أَعْنُ غَضِيضُ الطَّرْفِ، مَكْحُولُ^٢.

(١) بانت : فارقت . المتبول : الذي اسقمه الحبّ وأضعفه . المتبِم : الذي استولى عليه الهوى وذلكه . المكبول : المقيّد (٢) البين : الفراق . الأَعْنُ : صفة للظبي، وهو الذي يُخرج صوته من خياشيمه . غَضِيضُ الطَّرْفِ : فاطر الاجفان، مسترخيها .

٢ القسم الوصفي : في هذا القسم تتجلى براعة الشاعر الأوسي الذي نشأ على حب الطبيعة والتأمل في جزئياتها، ووعى كثيراً من أوصاف أبيه وأساتذته الأوسيين، فجاء كلامه مشبعاً بالأوصاف التقليدية، وإن لم يخل من ابتكارات موفقة. وقد بث الشاعر في هذا الوصف قوةً واندفاعاً يظهران حتى في الالفاظ والموسيقى الشعرية :

غَلْبَاءُ، وَجَنَاءُ، مُلْكُومٌ، مُذَكَّرَةٌ، في دَفِّهَا سَعَةٌ قُدَّامُهَا مِيلٌ^١
حَرْفٌ أَخُوها أَبُوها مِنْ مُهَجَّنَةٍ، وَعَمَّهَا خَالُهَا قَوْدَاءُ شَمْلِيلٍ^٢

وهذا الوصف ينتهي بأبيات هي من أوفر الأوصاف القديمة حياةً واقواها إيجاءً :

كَأَنَّ أَوْبَ ذِرَاعِيهَا - إِذَا عَرِقَتْ وَقَدْ تَلَفَّعَ بِالقُورِ العَسَاقِيلُ^٣
شَدَّ النَّهَارِ - ذِرَاعًا عَيْطَلٍ نَصْفٍ، قَامَتْ فَجَاوَجَهَا نُكْدٌ مَثَاكِيلُ^٤
نَوَاحِي، رِخْوَةَ الضَّبَّيْنِ، لَيْسَ لَهَا، لَمَّا نَعَى بِكُرْهَا النَّاعُونَ، مَعْقُولٌ^٥
تَفْرِي اللَّبَانَ بِكَفِّيْهَا، وَمِدْرَعُهَا مُشَقَّقٌ عَنْ تَرَاقِيْهَا، رَعَائِلُ^٦

(١) الغلباء : الغليظة الرقبة، كناية عن القوة . الوجناء : الناقة الشديدة الصلبة . الملْكُوم : الضخمة، العظيمة . المذَكَّرَة : التي لها قوة الذكر . الدف : الجنب . قُدَّامُهَا مِيل : أي طويلة العنق .
(٢) الحرف : الناقة الضامرة السريعة . المهجَّنة : البيض الكريمة من الابل . القوداء : الطويلة العنق والظهر، والشديدة العنق . الشمليل : السريعة . (٣) الأوب : سرعة الحركة والتقلب : تَلَفَّعَ : التحف وتغطى . القُور ج قارة وهي الجبل الصغير المنقطع عن الجبال . العساقيل ج عُسُقُول وهو السراب ؛ وفي الكلام قلبه، أي وقد تلفعت القور بالعساقيل (٤) شدَّ النهار : أي وقت ارتفاع النهار . العيطل : المرأة الطويلة . النصف : المتوسطة في السن . قامت : اخذت بالبكاء والنواح . النُكْد ج نكداء وهي المرأة التي لا يعيش لها ولد . المَثَاكِيل ج مثكال وهي المرأة التي يكثر ثكلها أي فقدها لاولادها . يقول : تشبه ذراعاً الناقة - وقد اندفعت في سيرها وعرقت، وقد تغطت الجبال بالسراب لشدة الحر - ذراعي امرأة ثكلت تلطم وتسرع في لطمها، فيجيبها غيرها من النساء التكالى ؛ وقد جعل المرأة نصفاً لتكون أقوى على ترجيع يديها (٥) الضَّبَّعَان : العضوان ؛ وهو يريد « برخوة الضبعين » أنها سريعة الحركة . المعقول : العقل (٦) تفري : تقطع . اللَّبَان : الصدر . المِدْرَع : القميص . التراقي ج ترقوة وهي أعلى الصدر . الرعائيل ج رُعْبُول وهو القطعة الممزقة . يقول : إن هذه المرأة تمزق صدرها بيديها، وقيصها مشقَّق في اعلاه لكثرة ما قطَّعته .

٣ القسم المدحي : وهو يحتوي الاعتذار والمدح . أما الاعتذار فقد ذهب فيه الشاعر مذهب النابغة في حسن التوسل والتذلل ووصف الجزع ، وفي كلامه طرافة إلا أنه لم يبلغ مبلغ النابغة في وصف التعلق والاضطراب والرهبة المؤلمة . وأما المدح ، فقد ذهب قسمٌ منه في وصف الأسد الذي شبه به الشاعر محمداً ؛ وقد اقتصر في مدحه له على هيئته وهُدهاءه ، كما اقتصر في مدح المهاجرين على ذكر الشجاعة والإقدام . ومن ذلك يتضح لنا أنَّ كعباً جاري الأقدمين في أسلوبهم المدحي ؛ إلا أنَّ في هذا الشعر من حسن السبك ، ودقّة التصوير ، وجزالة الالفاظ ، والاندفاع ما يُضفي على شعر ابن زهير رونقاً خاصاً ويجعل له قيمة حقيقية .

٤ قم : من دراسة « البردة » خصوصاً ومن دراسة سائر شعر كعب عموماً ، يمكننا أن نستخلص ما يلي :

١ - كعب شاعر أوسيّ نشأ تحت رعاية والده ، وتأثر برواية شعره ، وأخذ عنه طريقته ؛ وأوّل ما نلمسه في شعره هو سيطرة الخيال الحسيّ ، فقد اعتاد كعب ألا يرى الأشياء ويحسّها ويعبر عنها إلا عن طريق الخيّلة المدقّقة التي تحوّل العاطفة والفكرة إلى صورة ، وتزاحم التعبير العاطفي بصورة حسية ؛ فتبدو تلك الصورة بتشبيهات واستعارات . والشاعر يحاول أن يصطنع التأثير بالألوان والصور التي يبالغ فيها ويستعيز بذلك عن ثورة العاطفة .

٢ - وهو يُعنى ، شأن الأوسيين ، بتتبّع المعنى ، فاذا وصف إخلاف سعاد للوعد ، تبسّط في الموضوع ؛ ولكنّ تبسّطه ليس تحليلاً وتعمّقاً إنما هو تكرارات وصور مختلفة يقصد بها التقرير :

أَكْرَمَ بِهَا خُلَّةً ، لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ مَوْعُودَهَا ، أَوْ لَوْ أَنَّ النَّصْحَ مَقْبُولٌ

فَمَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ رِجَا كَمَا تَلَوْنَ فِي أَثَوَا رِجَا الْغُولِ^١
وَلَا تَمْسِكُ بِالْعَهْدِ الَّذِي زَعَمْتَ إِلَّا كَمَا يُمْسِكُ الْمَاءُ الْغَرَايِلُ^٢

٣ - وهو يُعْنَى ايضاً بالتنسيق ووحدة القصيدة، وقد فاق بذلك من سبقه حتى أباه . فهو يُحْكَم الانتقال من معنى الى معنى ومن قسم الى قسم، فاذا اراد الانتقال مثلاً من الغزل الى وصف الناقة قال :

أَمَسْتُ سَعَادُ بِأَرْضٍ لَا يُيَلِّفُهَا إِلَّا الْعِتَاقُ، النَّجِيَّاتُ الْمَرَايِلُ^٣

٤ - والصنعة ظاهرة في شعر كعب، يلجأ اليها للتأثير، فلا يكتفي باصطناع معاني الاقدمين، بل يلجأ الى الاطناب للتقرير كما رأينا، ثم إنه يلجأ الى اختيار الالفاظ ذات الجرس الشديد، والى التكرير اللفظي، يدعم كل ذلك بالحكم التي تريد كلامه قوة، فتكون تلك العناصر قوام بلاغته :

إِنَّ الرَّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَيَّئٌ مِنْ سَيْوفِ اللَّهِ مَسْئُولٌ^٤
فِي عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ بِيْطْنِ مَكَّةَ، لَمَّا أَسْلَمُوا: «زُولُوا!»^٥
زَالُوا؛ فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كُشْفٌ عِنْدَ اللَّقَاءِ، وَلَا مِيلٌ مَعَازِيلُ^٦

* * *

هذا هو كعب بن زهير . واننا لنلمس في اسلوبه لين الحضارة الجديدة، واطنابها، وميلها الى البلاغة المصنوعة . وإن في شعره اطرافة وإن لم يصطبغ بصبغة العبقرية المبتكرة، والشاعرية الغنية في الإبداع وخلق الاجواء الفسيحة الرائعة .

(١) الغول : من خرافات العرب يزعمون أنها تتراءى لهم في الفلوات وتتلون لهم وتضلهم عن الطريق (٢) العتاق : الإبل والخيل الكريمة . النجيات : الكريمة السريعة من الإبل . المراسيل ج مراسل وهو السريع (٣) ان الرسول... : اي انه سيف هدى . لما سمع محمد هذا البيت خلع على الشاعر بُرْدَتَهُ (٤) قائلهم : هو عمر بن الخطاب . زولوا . اي انتقلوا من مكة الى المدينة (٥) الانكاس ج نكس وهو الضعيف . الكشف ج أكشف وهو من لا تُرْس له . الميل ج أميل وهو من لا سيف له او من لا يُحسن الرّكوب . المعازيل ج معزول وهو من لا سلاح له .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- فؤاد أفرام البستاني : كعب بن زهير . الروائع ٣٢ - بيروت ١٩٣٣
 سيد نوفل : شعر الطبيعة في الادب العربي - القاهرة ١٩٤٥ ص ٩٢ - ٩٦ .
 طه حسين : ساعة مع كعب بن زهير - حديث الاربعاء - الجزء الاول . الطبعة الثانية
 ص ١٣٨ - ١٥٢

٢ المراجع الاجنبية :

- R. Basset : Ka'b B. Zohaïr, in Encycl. de l'Islam, t. II, 621-622.
 R. Basset : La Banat So'ad, Poème de Ka'b ben Zohaïr, Alger, 1910.

موضوعات للبحث

- ١ - اعمد الى قصيدة كعب بن زهير « بانث سعاد » واستخلص منها ميزات فن الشاعر .
- ٢ - لقد قيل : « كعب بن زهير شاعر صناعة وثقافة لا شاعر طبع وفطرة » . ناقش هذا القول مؤيداً كلامك بالبرهان والشواهد .
- ٣ - قال صاحب الروائع : ان أضعف العناصر الشعرية في كعب كان الشعور . فلا غزل رقيق ، ولا رثاء فاجع ، ولا تهكم لاذع ، ولا فخر عاطفي ، ولا شكوى أسيفة ، ولا رهبة مؤلمة في التعبير عن قلقه واضطرابه تجاه وعيد النبي . ناقش .

شعر النضال الديني

الفصل الثاني

حسان بن ثابت (؟ - ٦٧٤ م / ٥٥٤ هـ)

١ حياته : وُلد في المدينة وشبَّ في بيت وجاهة وشرف منصرفاً الى اللهو، ثم قام في وجه الاوس، اعداء قبيلته، يدافع عن قومه ويفخر بأجدادهم . ثم اتصل بالفساسة فأكرموه واغدقوا عليه العطايا، واتصل ببلاط الحيرة الى ان عاد اليه النابغة الذبياني . وعندما ظهر الاسلام انحاز الى محمد يدافع عنه وعن دعوته، ثم اهتمَّ ، بعد وفاة محمد، لشؤون الانصار في نزاعهم مع المهاجرين، وانحاز الى عثمان بن عفان ثم الى معاوية، وتوفي نحو سنة ٦٧٤ م / ٥٥٤ هـ .

٢ آثاره : لحسان ديوان دُوسَّ عليه كثير من الشعر المنحول ؛ وفيه هجاء، وفخر، ومدح، ووصف، وغزل .

٣ حسان شاعر القبيلة : كان شعره في قبيلته شعر النضال القبليّ تغلب عليه صفة الفخر . ويقوم فخره على ذكر الشجاعة والكرم وشرف الاصل والنسب . وفيه نفحة عالية واندفاع شديد .

٤ حسان شاعر التكسب : تكسَّب حسان خصوصاً في بلاط الفساسة . وكان مدحه يجري على الاسلوب القديم ويمتاز بالفخامة والجزالة .

٥ حسان شاعر الاسلام : نصب حسان نفسه للدفاع عن الاسلام، فكان شعره نضالاً دينياً سياسياً، يحتوي هجاء الاعداء ومدح الموالين . اما المدح فدار حول محمد وخلفائه وكبار الصحابة والذين دافعوا عن الاسلام دفاعاً حسناً . وكانت معاني المدح وصف الخصال والسجاياء، كما كان يمتاز ذلك المدح بالعاطفة الصادقة الصادرة عن عقيدة حقيقية . وأما الهجاء النضالي فكان موجهاً الى المُشركين من قريش عامةً، والى أشدِّهم على محمد خاصةً . وكان شديد الإقذاع لا ينال القبيلة القرشية في اصلها ونسبها بل ينال الافراد في ذاتهم، وذلك بسبب انتساب محمد الى قريش .

٦ حسان شاعر اللهو : غزله تقليدي؛ وخمرياته تقال عادةً للفخر على عادة الاقدمين .

٧ قيمة شعر حسان :

١ - القيمة الفنية : شعر حسان يأتي عن طبع لا عن صنعة، وهو يخلو من الترتيب والتساوق كما يخلو من التنقيح والثقاف؛ فتتج عن ذلك لين وضعف ولاسيا في القسم الاسلامي منه؛ الا انه لا يخلو من العاطفة الصادقة المندفعة اندفاعاً شديداً . وفي شعره أثر للدين الجديد يظهر في الالفاظ والمعاني .

٢ - القيمة التاريخية : شعر حسان سجلٌ لأخبار الفساسة واخبار فجر الاسلام .

١ - حياته :

١ - نشأته : أبو الوليد حسّان بن ثابت من قبيلة الخزرج التي هاجرت من اليمن الى الحجاز واقامت في المدينة مع الأوس . فوُلد حسّان في المدينة قبل مولد محمد بنحو ثلثي سنين، وشبَّ في بيت وجاهة وشرف منصرفاً الى اللهو والشرب والغزل . وكانت المدينة في الجاهلية ميداناً للنزاع بين الأوس والخزرج، تكثر فيها الخصومات والحروب ؛ وكان قيس بن الخطيم شاعر الأوس، وحسان شاعر الخزرج يدافع عن قومه ويفاخر بأجدادهم، فطارت له في البلاد العربية شهرة واسعة .

٢ - شاعر الملوك : واتصل بالفساسنة ملوك جُلَّقَ يمدحهم بشعر جيد، ويتقاسم، هو والنابعة الذبياني وعلقمة الفحل وغيرهم من شعراء البلاط، أعطيات بني غسان ؛ وقد طابت له الحياة في ظل تلك النعمة الوارف . ثم اتّصل ببلاط الحيرة وعليها أبو قابوس النعمان بن المنذر الرابع فحلَّ محلَّ النابعة، حين كان هذا في خلاف مع البلاط، الى ان عاد شاعر ذبيان الى ظلَّ أبي قابوس، فتركه حسّان مُكرهاً ؛ وقد أفاد من احتكاكه بالملوك معرفة بالشعر المدحي وأساليبه، كما أفاد، وهو في قبيلته، معرفة بالشعر الهجائي ومذاهبه . وهكذا كان في تمام الأهمية للانتقال الى ظلَّ محمد نبي الاسلام، والمناضلة دونه بسلاحي مدحه وهجائه .

٣ - شاعر الاسلام : ولما بلغ حسّان السنين من عمره دخل الاسلام، وراح يردُّ هجمات القرشيين اللسانية، ويدافع عن محمد والاسلام، ويهجو خصومهما . فأنشئ محمد على شعره، وعطف عليه، وقرَّبه منه، وقسم له من الغنائم والعطايا، ووهبه « سيرين » اخت « مارية » القبطية أم ولده ابراهيم، كما وهبه قصرأ بالمدينة كان ابو طلحة قد وقفه على آل محمد . إلا ان ابن ثابت كان جباناً فاكتفى بالشعر ولم ينصر محمداً بسيفه، ولم يجرؤ على مرافقته الى الحروب، ولم يشهد مشهداً ولا غزوة .

وبعد وفاة محمد اهتمَّ حسّان لشؤون الأنصار في نزاعهم مع المهاجرين على السلطة الزمنية والدينية؛ وانحاز الى عثمان بن عفّان فندبه، وحثَّ على الاثثار له متّهماً علياً .

ثم التصق بمعاوية فأكرمه إكراماً جزيلاً، وتوفي حسّان نحو سنة ٦٧٤ م/ ٥٤ هـ في عهد معاوية .

٢ آثاره :

١- ما هي: لحسّان بن ثابت ديوان شعر طبع مراراً منذ أواسط القرن التاسع عشر في الهند وتونس ومصر وطبعته لجنة تذكار جيب بتحقيق هرشفيلد في لندن سنة ١٩١٠ .

٢- صحّة نسبتها اليه : لما كان حسّان بن ثابت موقف خاص من الوجهة السياسية ومن الوجهة الدينية، دُسَّ عليه كثير من الشعر المنحول، قام بهذا العمل اعداء الإسلام، كما قام به بعض كتاب السيرة من مثل ابن اسحاق . ولم يفت الأمر ابن هشام (٨٣٣ م/ ٢١٨ هـ) جامع السيرة وملخصها ومهذبها، فذكر كثيراً ممّا اختلق ودُسَّ على الشاعر .

٣- اغراض شعره : أكثر شعر حسّان في الهجاء؛ وما تبقى في الافتخار بالانصار؛ ومدح محمد والإسلام، والغساسنة، والنعمان بن المنذر وغيرهم من سادات العرب وأشrafهم؛ ووَصَف مجالس اللهو والخمر، مع شيء من الغزل. وتسهيلاً للبحث سنقسم هذه الدراسة الى أقسام أربعة : حسّان شاعر القبيلة، ونتوقف في هذا القسم على الفخر في نزعة الجاهلية؛ ثم حسّان شاعر التكسّب، ونتوقف في هذا القسم على المدح التكسّبي في البلاط خصوصاً؛ ثم حسّان شاعر الإسلام، ونتوقف في هذا القسم الثالث على شعر حسّان الديني والسياسي؛ أخيراً حسّان شاعر اللهو، ونتوقف في هذا القسم الأخير على بعض شعره في الغزل والخمر . وبعد ذلك نلقي نظرة على قيمة شعر حسّان الفنية والتاريخية .

٣ مساهمة شاعر القبيلة : قبل ان يدخل حسّان في الإسلام كان منصرفاً، شأن سائر شعراء الجاهلية، الى الذود عن حياض قومه بالمفاخرة، فكان شعره شعر النضال القبليّ تغلب عليه صبغة الفخر .

أما الداعي الى ذلك فالعداء الذي كان ناشباً بين قبيلة الشاعر وقبيلة الأوس؛ فقد هبَّ في وجه شعرائها ولاسيا قيس بن الخطيم . وقد طالت المنافسة بين حسَّان وقيس ينشر كلُّ منهما مثالب قوم الآخر ويفخر عليه وعلى قومه . ويقوم فخر حسَّان في هذا العهد على ذكر الشجاعة والكرم وشرف الأصل والنسب بعد مقدِّمة غزليَّة على ما عهدناه عند الشعراء الأقدمين؛ وإنَّ في فخر حسَّان لنفحةً عاليةً، واندفاعاً شديداً . قال في رده على قيس بن الخطيم :

لَمَعْرُ أَيْكِ الْخَيْرِ، يَا شَعْتُ، مَا نَبَا عَلِيَّ لِسَانِي فِي الْخُطُوبِ وَلَا يَدِي
لِسَانِي وَسَيْفِي صَادِمَانِ كَلَاهُمَا وَيَبْلُغُ مَا لَا يَبْلُغُ السَّيْفُ مِذْوَدِي
وَإِنِّي لَمُعْطٍ مَا وَجَدْتُ، وَقَائِلٌ لِمَوْقِدِ نَارِي لَيْلَةَ الرِّيحِ : «أَوْقِدْ»
وَإِنِّي لَحَلُوهُ تَعْتَرِينِي مَرَارَةً وَإِنِّي لَتَرَاكُ لِمَا لَمْ أُعَوِّدْ .

٤ مِثَالُهُ شَاعِرُ التَّكْسِبِ : اتصل حسَّان بالبلاط الغساني والبلاط اللخمي، فمدح كثيرين من امراء غسان اشهرهم عمرو الرابع ابن الحرث السادس (٥٩٧) وأخوه النعمان السادس المعروف بأبي كرب (٦٠٠) ولاسيا جبلة ابن الأيهم . وقد قرَّب الغساسنة الشاعر وأكرموه وأغدقوا عليه العطايا وجعلوا له مُرتباً سنوياً . وكان هو يستدرّ ذلك العطاء بشعره :

يُغَشُّونَ حَتَّى مَا تَهْمُرُ كَلَاهُجُمُ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمُ بَرْدِي يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّاسِلِ
رِيضُ الْوُجُوهِ، كَرِيمَةُ أَحْسَابِهِمْ شُمُّ الْأَنْوْفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ .

(١) شَعْتُ : أي شعته، وهي المرأة التي يتغزل بها . نَبَا : كَلَّ (٢) المِذْوَدُ : أي اللسان الذي يذود ويردُّ القول (٣) يُغَشُّونَ : يُقَصِّدُونَ ويؤتون . حتى ما تهرَّ كلامهم : أي ان الاضياف يكثرُّون التردد عليهم، فكلامهم لا تنبح احداً لانها اعتادت مرأى هذه الوفود (٤) الْبَرِيصُ : نهر يتشعب من بردى . بردى : أي ماء بردى . يُصَفِّقُ : يُمزج . الرَّحِيقُ : الخمر . السَّاسِلُ : العذب السهل في الخلق .

ومدح حسّان ايضاً النعمان أبا قابوس ملك الحيرة، ولقي عنده حظوة .

واسلوب الشاعر في مدحه هو الاسلوب القديم يستهله بالوقوف على الأطلال والانتقال منها الى الممدوحين، ثم ايراد الذكريات التي تبين فضلهم وصفاتهم المحببة، وهو يتبع في ذلك وحي الخاطر من غير ما ترتيب ولا تنسيق .

وفي هذا الشعر المدحي فخامة وجزالة .

٥ ماله ساعر الاسلام : نصب حسّان نفسه للدفاع عن الدين الجديد والردّ على أنصار القديم ؛ وقد نشبت بين الفريقين معارك لسانية حامية، فكان الشعر شعر نضال يهجي فيه الأعداء ويمدح فيه رجال الفريق ؛ ولم يكن المدح ولا الهجاء للتكسب او الاستجداء بل للدفاع عن سلطتين دينيتين وعن حكمتين مختلفتين تتنازع البقاء . ومن ثمّ اصطبغ الشعر بصبغة السياسة فكان شعراً سياسياً حقيقياً .

١ - اما المدح الذي نجده في شعر حسّان لهذا العهد فهو مقصور على محمد وخلفائه وكبار الصحابة، والذين أبلّوا في الدفاع عن الاسلام بلاء حسناً . وهو يختلف عن المدح التكسبي بصدوفه عن التقبّل على معاني العطاء والجود وما اليه، والانطواء على وصف الخصال الحميدة ورسالة محمد وما الى ذلك مما ينبثق من العاطفة الحقة والعقيدة النفسية، قال حسّان :

نبيّ آتانا بعدَ يأسٍ وفترةٍ من الرُّسلِ، والأوثانُ في الأرضِ تُعْبَدُ
فأنسى سراجاً مُسْتَنيراً وهادياً يلوحُ كما لاح الصَّقيلُ المُهَنْدُ
وأُنْذَرْنَا ناراً، وبشّرَ جَنَّةً وعَلَّمَنَا الإسلامَ، فآلهُ مُحَمَّدٌ
وأنتَ، إلهُ الخلقِ، ربِّي وخالِقي بِذلك ما عَمِرْتُ في النَّاسِ أَشْهُدُ .

(١) بعد فترة من الرسل : اي بعد زمن لم يأت فيه رسول (٢) مستنيراً : اي مُنيراً .
الصَّقيلُ : السيف المصقول (٣) أنذرنا ناراً : خوفاً من الوقوع في النار أي في جهنم .

ويلحق بهذا المدح وثاء محمد، فقد ضَمَنَهُ الشاعر لوعةً وذَرْفَ دموعٍ حارةً،
وتذكُّراً لأفضال رسول الدين الجديد، وحنيناً للقائه في النعيم :

مَعَ الْمُصْطَفَى أَرْجُو بِذَلِكَ جِوَارَهُ وَفِي نَيْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَسْفَى وَأَجْهَدُ

٢- وأما الهجاء النضالي فقد وجهه الى القرشيين الذين قاموا في وجه الدين الجديد
يُحَارِبُونَهُ وَيَهْجُونَ مُحَمَّدًا . وكان موقف الشاعر تجاههم حرجاً لما بينهم وبين محمد
من نسب . ويُروى انه لما عزم على هجائهم قال له محمد : « وكيف تصنع بي ؟ »
فقال : أَسْأَلُكَ مِنْهُمْ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ الْعَجِينِ . فجعل له محمد أبا بكر مرشداً
يدُلُّهُ عَلَى مَنْ يَسْتَطِيعُ هَجْوَهُ مِنْهُمْ، ويفضِّل له أنسابهم . فحصر حسان كلامه في
المشركين من قريش عامة، وفي أشدِّهم على محمد خاصة من مثل أبي جهل،
وأبي لهب، وأبي سفيان بن الحرث .

أما أسلوبه في هجائه هذا فلم يكن طعنًا في أصل قريش ونسبهم، بل كان
الشاعر يعمد الى الواحد منهم فيفضله عن الدَّوْحَةِ القرشيَّةِ، ويجعله فيها طائراً غريباً
يلجأ اليها كعبد او دعيّ او متبني، او يجعله غصناً مريضاً منفسداً، ثم يذكر نسبه
لأنَّه فيطعن به طعنًا شنيعاً ؛ ثم يسدّد سهامه إلى أخلاق الرّجل وعرضه فيمزقها
تمزيقاً، في اقداع شديد، ويُخرج ذلك الرّجل موطناً للؤم والجهل والبخل والجبن،
والفرار عن إنقاذ الأحبة من وهدة الموت في المعارك . واكثر ما يذكر من ذلك
موقعة بدر وهزيمة قريش فيها . قال يهجو بني سَهْم بن عمرو بن هصيص، وعمرو
ابن العاص بن وائل :

وَاللَّهِ مَا فِي قُرَيْشٍ كُلِّهَا نَفَرٌ أَكْثَرُ شَيْخًا جَبَانًا، فَاحِشًا، غُمَرًا^١
هُذْرٌ، مَسَائِمٌ، مَحْرُومٌ ثَوْبُهُمْ إِذَا تَرَوَّحَ مِنْهُمْ زُوْدَ الْقَمَرِ^٢

(١) الغمر : الجاهل الغرّ من لم يُجَرِّبَ الامور (٢) الهذّر : الذين يخلطون في منطقهم
ويتكلمون بما لا ينبغي . المسائيم ج . مشؤوم وهو الذي يجرّ الشؤم . ثوبهم : ضيفهم المقيم عندهم .
تروّح : سافر في الرواح اي العشي . يقول : انهم كثيرو الهذّر، جلابو الشؤم، يظلّ ضيفهم
محروماً، واذا سافر عنهم زودوه القمر .

كَمْ مِنْ كَرِيمٍ يَعْضُ الْكَلْبُ مِشْرَرَهُ ثُمَّ يَفِرُّ إِذَا أَلْقَمَتْهُ الْحَجَرُ
لَوْلَا النَّبِيُّ، وَقَوْلُ الْحَقِّ مَغْضَبُهُ لَمَا تَرَكْتُ لَكُمْ أَنْتِ وَلَا ذَكَرًا

وإننا لنأس في شعر النضال الديني والسياسي هذا صدق اللهجة وحرارة
الرجل الذي يدافع عن امر يجعل نفسه فداء له :

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ

٦ مَسَامَةُ سَاعِرِ اللُّهُو : كان حسان متوفراً على شرب الخمر والاستمتاع بالغناء
وما يتبعه من لهو وعبث، ولا سيما قبل دخوله الاسلام .
وله في الخمر أوصاف شهيرة تأتي خصوصاً في مدائحه للملوك غسان ، كما له غزل
بشعشعائه وعمرة ؛ وشعره هذا غير مستقل يختلط عادةً بالفخر والمدح . وغزله تقليدي
في معانيه وصوره ؛ وخمرياته تُقال للفخر على عادة الجاهليين ، وهو يصف فيها
الخمر المعتقدة وشربها وبعض مفاعيلها ، والسَّاقِي ، وذلك بشغف يلمس حتى في
الالفاظ :

وَلَقَدْ شَرِبْتُ الْخَمْرَ مِنْ حَانُوتِهَا صَهْبَاءَ صَافِيَةً كَطَعْمِ الْفَلْفَلِ
يَسْمَى عَلَيَّ بِكَأْسِهَا مُتَنَطِفٌ فَيَعْلِيَّ مِنْهَا وَلَوْ لَمْ أَنْهَلْ
إِنَّ الَّتِي نَاوَلْتَنِي فَرَدَدْتُهَا قُتِلْتُ - قُتِلْتُ ! - فَهَاتِهَا لَمْ تُقْتَلْ

تَدْبُّ فِي الْجَنَمِ دَبِيحًا كَمَا دَبَّ دَبِّي وَسَطَ رَقَاقِ هَيْامٍ

(١) المُنَزَّر : ما يستر الانسان من الثياب . يفرّ : الضمير عائد الى الكلب (٢) المَغْضَبَةُ :
أي السبب للغضب (٣) العِرْض : موضع الشرف . الوِقَاء : ما يُوقى به ويُجنى من الاذى .
(٤) الصَّهْبَاء : الخمرة ، سُمِّيَتْ بذلك لونها الاحمر (٥) المتَنَطِف : الذي يعلّق في اذنه
القُرْط اي الحلقة . يعلّني : يسقيني . أنهل : أشرب (٦) قُتِلْتُ : مُزِجَتْ بالماء (٧) الدَّبِّي :
صغير الجرّاد قبل ان يطير . الرِّقَاق : الأرض المستوية اللينة التراب تحته صلابه . الهَيَام : الأرض
ذات التراب يخالطه رمل .

٧ - قيمة شعر حسان :

١ - القيمة الفنية : حسان شاعر شديد التأثر ، قوي العاطفة ، يفوته التآني الزهيري ، ولهذا ترى شعره يتدفّع تدفّعاً ، متبّعاً في ذلك الطبع والفطرة لا الصنعة والتعمّل . ومن ثمّ تلقى شعره خالياً من كل ما يتطلب النظر الهادي المتفحّص ، فمطالعُه مقتضبة اقتضاباً شديداً يُسرّع في الانتقال منها الى موضوعه الذي تحتدم به نفسه ؛ وانتقاله غير بارع عادةً يقول فيه : « دع هذا . . . » ثم ان كلامه يخلو من الترتيب والتساوق لما في عاطفته من فوران ؛ وهذا الفوران نفسه يحول دون التنقيح والثقاف . وقد نتج عن ذلك لين وضعف ، في شعره الاسلامي خصوصاً ، لتقدمه في السن ، ولما كان هنالك من احوال مثيرة للعاطفة وقد حمى النضال واستعر القتال ، ولانصراف الشاعر الى الارتجال والسرعة في القول والتدقيق الموضوعي بذكر الغزوات واربابها . وقد يكون بعض ذلك الضعف ناتجاً عما اضيف الى ديوان حسان من الشعر المنحول . ويخلو شعره كذلك من الوصف والتمثيل اللذين وجدناهما في الشعر الجاهلي عموماً . إلا انه لا يخلو على كل حال من الاندفاع العاطفي العنيف ، والصدق في ذلك الاندفاع ، وانتفاض العصب في الابيات التي تنطلق ، احياناً كثيرة ، كالتهم ، او كالسيل الذي يجرف الشُخط والهيجان ، والكلام المقذع الذي يُهشّم تهشيماً .

واننا نلمس في كلام حسان اثرًا للدين الجديد وللقرآن ، وذلك ظاهر في المعاني الجديدة من ارتياح الى المصير ، وتفصيل لبعض العقائد والشعائر من توحيد وتنزيه وثواب وعقاب . وذلك ظاهر ايضاً في الالفاظ التي اعطاها الاسلام إيجاءً جديداً ودلالةً جديدة ، ونثرها حسان في شعره . ولقد حقّ بعد ذلك ان يُقال ان حساناً هو مؤسس الشعر الديني في الاسلام .

٢ - القيمة التاريخية : لشعر حسان ، فضلاً عن القيمة الفنية ، قيمة تاريخية

كبيرة ؛ فهو مصدر من مصادر تاريخ تلك الايام ، يسجل مآتي الغساسنة ويصف

غزواتهم وممتلكاتهم ؛ ويسجل أحداث الفجر الاسلامي ويطلعنا على اخبار محمد في غاراته وغزواته وفتح مكة، كما يطلعنا على اسماء الصحابة واسماء اعداء الاسلام . وهكذا كان حسن شاعراً ومؤرخاً كما كان شعره فاتحة للشعر السياسي الذي سيزدهر في عهد بني أمية .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

محمد عبد المنعم خفاجي : الحياة الادبية بعد ظهور الاسلام - القاهرة ١٩٤٩ ص ٢٤٥

- ٢٩٧

فؤاد أفرام البستاني : حسن بن ثابت - الروائع ٣٣ - بيروت ١٩٣٤

محمد خلف الله : شاعر الرسول - الثقافة في الاعداد ٢١١ (ص ٢٣) ، ٢٢٠

(ص ٥) ، ٢٢٢ (ص ١١) ، ٢٢٥ (ص ١٨) ، ٢٣٦ (ص ١٤) .

بطرس البستاني : ادباء العرب - الجزء الاول - بيروت ١٩٣٤ ص ٢٥١ - ٢٦٨ .

٢ المراجع الاجنبية :

Brockelmann : Gesch. d. Arab. Litteratur, t. I, 37-38.

T. H. Weir : Hassān B. Thābit, in Encycl. de l'Islam, t. II, 306.

موضوعات للبحث

١ - ظهرت في شعر حسن آثار الجاهلية وآثار التجديد . اوضح ذلك ذاكراً الاسباب والشواهد .

٢ - شعر حسن مرآة تتجلى فيها أحداث حياته وأحداث البيئة التي عاش فيها . فصل ذلك .

٣ - الفن عند حسن بن ثابت هو طبع مندفع وقريحة هائجة . وازن بيته وبين كعب بن زهير من هذا القبيل ، موضعاً الفروق بين قمتي الرّجلين .

شعر النضال الديني

الفصل الثالث

أبو ذؤيب الهذلي - النابغة الجعدي

١ - أبو ذؤيب الهذلي :

١ حياته : أبو ذؤيب هو ممن أدرك الجاهلية ثم أسلم . اشترك بالغزو والفتوح . وقد خرج الى افريقية غازياً ، ومات في مصر .

٢ آثاره : اشهر شعره عينية رثى فيها اولاده الخمسة الذين ماتوا بالطاعون في مصر .

٣ فنه : شعره شعر العاطفة المتألمة ، وفيه تفكير وتأمل ؛ وتكثر فيه الحكم . وفي اسلوبه رصانة وهدوء .

ب - النابغة الجعدي :

١ حياته : عاش في الجاهلية وأدرك الاسلام ، وكان نبوغه فيه . وشهد مع علي وقائع صفين ، ثم كان في شعبة ابن الزبير . ومات باصبهان .

٢ آثاره : له شعر كثير في الفخر والهجاء والمدح والرثاء ؛ وقد اشتهر بوصف الخيل .

٣ فنه : كان شعره وليد الطبع ، يمتاز بالموسيقى والسلاسة والانسجام .

١ - أبو ذؤيب الهذلي (توفي سنة ٦٤٦ م / ٥٢٦ هـ)

١ حياته : خويلد بن خالد الهذلي الزاري هو ممن أدرك الجاهلية ثم أسلم .

سكن المدينة واشترك بالغزو والفتوح ، وأدرك خلافة عثمان . وقد

خرج ، في جند عبدالله بن سعد بن ابي سرح احد بني عامر بن لؤي ، الى افريقية

غازياً ؛ فشهد فتح افريقية ، وعاد الى مصر بصحبة عبدالله بن الزبير حيث مات .

٢ آثاره : لابي ذؤيب قصائد كثيرة اوردها ابن قتيبة في كتابه « الشعر والشعراء » . واشهر شعره عينيته التي رثى فيها اولاده الخمسة وقد قضاوا بالطاعون في مصر ومطلعها :

أَمِنْ الْمَنُونِ وَرَيْبِهِ تَتَوَجَّعُ وَالذَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبَرٍ مَنْ يَجْزَعُ^١

٣ فنه في عينيه : شعر ابي ذؤيب هو شعر العاطفة المتألمة التي تحاول ان تقف في وجه الدهر وحدثانه ، وتحاول التصلب عن تفكير وتأمل في احوال الدنيا ، إلا ان الدمع يخونها فيسيل وكأن عيني الرجل كُحِلتا بالشوك :

فَالْعَيْنُ بَعْدَهُمْ كَأَنَّ حِدَاقَهَا كَحِلَّتْ بِشَوْكِ فَهْيَ غُورٌ تَدْمَعُ^٢

وهو يحاول ان يعزّي نفسه بالحكم والتأملات ؛ ومن كلامه المشهور في ذلك قوله :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ^٣

وفي اسلوب ابي ذؤيب رصانة وهدوء ، من غير تصنع ولا تكلف .

ب - النابغة الجعدي (توفي نحو ٦٩٩ م / ٨٠ هـ)

١ حياته : ابو ليلى حسان بن عبدالله الجعدي العامري عاش زمناً في الجاهلية يقول الشعر وكان نبوغه عند ظهور الاسلام ، ولذلك سُمّي « نابغة » . وكانت حياته في الجاهلية حياة رصانة ، ولما ظهر الاسلام وفد على محمد ومدحه ، وأسلم . فأقام زمناً مهاجراً . ولما كانت خلافة علي شهد معه وقائع صفين ، وظاهره بيده ولسانه ، ونال من معاوية وبني أمية ؛ ثم كان في شيعة عبدالله بن الزبير حين

(١) المنون : الموت . رب المنون : حوادث الدهر . المُعْتَبَر : المرضي . يجزع : لا يصبر على ما نزل به ، بل يجزن ويضطرب (٢) الحداق ج حداقة وهي من العين سوادها الاعظم . (٣) التميمية : خرزات كان الأعراب يعلّقونها على اولادهم لنفي العين وادفع اذاها .

خروجه على يزيد ومروان وعبد الملك ؛ وجاء ابن الزبير ومدحه فأجزل له العطاء .
وبعد سكون الفتن خرج مهاجراً الى الامصار المفتوحة فمات بأصبهان بعد ان
عُمر طويلاً .

٢ آثاره : أبقى النابغة الجعدي شعراً كثيراً في الفخر والهجاء والمدح والثناء ،
وقد اشتهر بوصف الخيل . ومن أشهر قصائده رائيته التي مدح بها
محمداً ومطلعهما :

خَلِيلِيَّ عُوجَا سَاعَةً وَتَهَجَّرَا وَنُوحَا عَلَى مَا أَحْدَثَ الدَّهْرُ أَوْ ذَرَا

٣ قه : كان النابغة الجعدي شاعراً مطبوعاً ، يرسل كلامه ارسالاً من غير تأنر
ولا تنقيح ؛ ولهذا حوى شعره الجيد والردى . ويمتاز كلامه عموماً
بالموسيقى العذبة ، والسلاسة والانسجام .

بعض المراجع

— ابو ذؤيب الهذلي —

دائرة المعارف للبستاني : ١ ص ١٤٧ - ١٥٠

محمد عبد المنعم خفاجي : الحياة الادبية بعد ظهور الاسلام - القاهرة ١٩٤٩ ص ٢٣٨ - ٢٤٠

— النابغة الجعدي —

احمد الهاشمي : جواهر الادب في ادبيات وإنشاء لغة العرب ٢ ص ١٦٢ - ١٦٤

محمد عبد المنعم خفاجي : الحياة الادبية بعد ظهور الاسلام - ص ٢٩٨ - ٣٠٣

(١) عُوجَا : قفا . تَهَجَّرَا : سيرا في الهجرة وهي نصف النهار عند اشتداد الحر .

الباب الرابع

شعر البدوي

الفصل الاول : الغزل البدوي

جميل بن معمر - ليلى الأخيلية

توطئة : الغزل البدوي والغزل الحضري

- ١ نشأة الغزل في هذا العهد : نشأ الغزل الجديد في الحجاز وما يليه من البلاد.
- ٢ أنواعه : الغزل البدوي العفيف، والغزل الحضري الإباحي .
- ٣ عوامله : الترف والفراغ والملاهي في الحاضرة انتجت الغزل الحضري . -
والحرمان والفقر في البادية انتجا الغزل البدوي .
- ٤ ميزاته مقارنة بميزات الغزل الجاهلي : أصبح الغزل في هذا العهد مستقلاً يُنظم لذاته، وأصبح معنوياً أكثر من النسيب القديم ؛ وشعبياً لغته أكثر قرباً الى الناس، وموسيقاه أكثر صفاءً من موسيقى الشعر القديم .
وكان الشعر البدوي يمتاز بنوع خاص، بالسذاجة والصدق والرصانة، مع تواطؤ على المعاني الواحدة، والالفاظ والاساليب الواحدة .
وقد انتشر الشعر الغنائي انتشاراً واسعاً في جميع الاقطار العربية .

جميل بن معمر

- ١ حياته : جميل بن معمر وُلد في الحجاز وشبَّ على حبِّ بُثينة ابنة عمته، الا انه لم يستطع الاقتران بها لاشتهاره بجنتها والتشيب بها . ولما لم يرتدع عن التردد الى حيتها استعدى اهلها عليه مروان بن الحكم صاحب المدينة فأهدر دمه . فراح جميل يضرب في البلاد.
- ٢ آثاره : أشهر آثاره ما ابقى من غزل بدوي عفيف، تظهر فيه نفس الشاعر المحبَّة، الساذجة، الصادقة، المتلوِّعة ؛ ويمتاز بالجمال العذري والرقَّة المؤثِّرة، والاسلوب الخطابي الذي يكثر فيه التلهف والشكوى ؛ وكل ذلك في لغة سهلة تسيل طبعيةً وانسجاماً .

ليلى الأخيلية

- ١ حياتها : هي امرأة جميلة فصيحة أحبَّت توبة وخابت في حبِّها، فقضت حياتها في الالم النفسي .
- ٢ آثارها : احسن شعرها ما قالته في توبة، وأرقُّه ما قالته في رثائه والبكاء عليه .
وشعرها ينبض عاطفة، وينوب سلاسة ورقَّة ؛ وقد جمع السهولة الى قوَّة السَّبْك .

نوطه

الغزل البدوي والغزل الحضري

١ نشأة الغزل في هذا العهد : لم تخلُ العصور الادبية السابقة من الغزل ، ولكنّه في عهد بني امية قد طما سيئله لتوفّر عوامله . ونحن نعني بالغزل هنا ما استقلّ بذاته ولم يأت وسيلةً للكلام على غيره



من اغراض الشعر المعهودة التي رأيناها في الجاهلية ، واصبحت بعد ذلك العهد تقليداً يجري عليه الشعراء في افتتاح القصائد المدحية وغيرها . وهذا الغزل الجديد لا نجده إلا نادراً في الشام والعراق ، وذلك ان الشام اصبح مقرّ الخلافة الاموية ، كما كان العراق مقرّ المعارضة ، فكان البلدان ميدان السياسة لا مقرّ السكينة والفراغ

مجنون ليلي كما تخيّل الفنان أرتورو أوريس

وكان فيهما الغزل التقليديّ على اسلوبه القديم . إنّا نشأ الغزل الجديد في الحجاز وما يليه من البلاد العربية الخالصة .

٢ انواعه : كان الغزل في هذا العهد على نوعين : الغزل البدوي ، والغزل

الحضري . اما البدويّ فهو غزل العذريّين الذين يتغنّون بالحبّ

الافلاطونيّ العفيف ، واشهر اصحابه : جميل بن مَعْمَر صاحب بُثَيْنَة ، ويلي

الأخيلية صاحبة توبة بن حُمَيْر، والمجنون العامري صاحب ليلى، وقيس بن ذريح صاحب لبني .

واما الحضري فهو غزل اباحي يتغنى فيه الشاعر بالحب وملذاته الجسدية، منصرفاً فيه الى الوصف القصصي الواقعي من غير ما خجل ولا حياء، واشهر اصحابه عمرو بن ابي ربيعة والأحوص . وقد الحقنا بهما الوليد بن يزيد .

٣ عوامله : كان الحجاز قلب الامبراطورية العربية الجديدة ، اذ اتخذ محمد المدينة داراً لهجرته، ثم اتخذها الخلفاء مقراً لعاصمة الدولة، فكانت من الوجهة الدينية ومن الوجهة السياسية محطاً للأنظار . ومن الحجاز خرجت الجيوش العربية لفتح الامصار . فاندفعت على المدينة كنوز الارض كما اندفق عليها الموالي من فُرس، وروم، وشاميين ومصريين . وكان ذلك كله عاملاً كبيراً في إنشاء حضارة جديدة اختلط فيها العرب بالشعوب الاعجمية، وغاص فيها عرب المدينة بالتurf والثراء .

وما إن انتقلت الخلافة الى بني أمية حتى تبدلت الحال بغيرها؛ فانتقلت السياسة من الحجاز الى الشام . وقام اهل الحجاز في صفوف المعارضين لبني أمية، فانصرف عنهم الامويون ولم يستخدموهم في وظائف الدولة الكبرى الا فيما ندر . ثم اهل الامويون على اهل المدينة الاموال الطائلة لصرفهم عن السياسة، كما كبجوا جماع البدو ومنعوهم من الغزوات والغارات . فكان من ذلك كله بيئة فراغ .

اما في البادية من نجد والحجاز فقد اجتمع الحرمان والكبح مع الفقر وكانت نتيجة ذلك نعمة زهد او ميل الى المشغل العليا . وكان هذا الميل قسمين : دينياً وغزلاً عفيفاً .

واما في الحاضرة فقد اجتمع اليأس مع وفرة المال والثروة، فكان ابناء المهاجرين والانصار في مكة والمدينة مثيّن؛ واليأس والثروة انتجا اللهو والاسراف في اللهو؛ فقد نشأت طبقة من الشبان الفارغين كانت حياتهم الاجتماعية حياة مجنون

وإثم، ساعدتهم على ذلك كثرة الرقيق، وما انتشر في البلاد من ضروب الملاهي^١ ولاسيا الغناء وما صحبه من موسيقى فشت في المدينة فشواً واسعاً جداً . وقد نهض الموالي من المغنّين والمغنّيات بهذا الغناء نهضة شديدة، واقتربت هذه النهضة الغنائية بنهضة كبيرة في فن الشعر الذي يُغنى ويُصحب بالضرب والعزف على الآلات الموسيقية، وهو شعر يدور في أغلبه على الحب ووقائعه ؛ وكان في أكثر جوانبه غزلاً مكشوفاً ينشر الفساد مع الغناء .

٤ مِرَانة مِقَارَةٌ بِحَيْرَاتِ الْغَزْلِ الْجَاهِلِي :

١ - الاستقلال : كان هذا الغزل الذي يدور عليه كلامنا يفترق من النسيب في العهد الجاهلي ؛ ونقصد ذلك النسيب الذي كان يوضع بين يدي القصائد والذي كان يتحدث عن الأبطال والدمن، والذي كان لا يُتخذ غايةً، إنما يُتخذ وسيلة الى غرض الشاعر من قصيدته ؛ فقد كان بمثابة مقدمة موسيقية يسوقها الشاعر امام غايته . أما في هذا العصر فقد اصبح الغزل غايةً، يضعه الشاعر قصيدة مستقلة قائمة بنفسها . وكان هذا الشعر، في أكثره، مقطوعاتٍ وادواراً، لانه كان يوضع للغناء ؛ والمغنّون والمغنّيات لا يغنون في ابيات كثيرة، بل في البيتين او في الثلاثة، او في عشرات الابيات .

٢ - المعنوية : ثم ان الغزل في هذا العهد، وإن لم يبرأ من المادة، ووصف الخارج المحسوس، قد زاد على الجاهلي التوقف عند الحب وما يترك في القلب من اثر، وما يبعث في النفس من عاطفة كالخزن والأمل والرجاء ؛ وبذلك كان الغزل معنوياً أكثر من النسيب القديم، فالشاعر يُعنى فيه بحكاية خواطره (وهذا لا

(١) كان الغناء رأس تلك الملاهي، ولكنه لم يكن كل الملاهي، فقد انصرف الناس ايضاً الى اللهو بطيران الحمام، وبالرمي على الجلاهقات وهي قوس البندق، كما هوا بالنرد والشطرنج . وقد شاع لهو من نوع آخر، فكان من الناس من اتخذوا لهم مضحكين يملأون جوهم بالسرور . وكان أشعب مضحك المدينة في ذلك العصر ؛ وقد اشتهر بنوادره .

يعني ان الغزل كان كله عفيفاً، ففرق بين ان يكون الغزل معنوياً وان يكون عفيفاً) . فان وصف الشاعر الخارج كان وصفه وسيلة الى وصف النفس وعواطفها . وهذا اثر من الحضارة الجديدة، وتفرغ الشاعر الى الغزل، وقصره حياته الفنية عليه، والانسكفاء على ذاته لتحليل عواطفه وتفهم معانيها . إلا ان هذا التحليل لم يكن بالعميق الذي يقف على الدقائق ويسبر جميع الأغوار . بل بقي في حالة وسط من هذا القبيل .

٣ - الموسيقى واللغة : وقد كان طبيعياً ان يحدث الغناء تجديداً وتغيراً في موسيقى الشعر الغنائي ؛ ويتضح ذلك لمن يقرن موسيقى هذا الشعر الغنائي الذي كان يُغنى في المدينة لهذا العصر الى موسيقى الشعر الجاهلي القديم . فان موسيقى الشعر الجديد اكثر صفاءً من موسيقى الشعر القديم، ولغته اكثر قرباً الى الناس من لغة الشعر القديم، فهي تختار من اللغة المألوفة التي كان يفهمها الشعب والقيان الاعجبيات ؛ فكان ذلك من اهم الاسباب في ان يصبح هذا الشعر الغنائي الجديد شعراً شعبياً .

وكان الشعراء في هذا العصر يحرفون في صورة الوزن القديم ، تحت تأثير الغناء، تحريفاً يضيق ويتسع في تفعيلات الشعر . ثم ان الشعراء اكثروا من الإقبال على الاوزان الخفيفة السهلة من مثل الوافر والخفيف والرمل والمتقارب والمهزج ، وجزأوا الاوزان الطويلة المعقدة والاوزان السهلة البسيطة مجازاةً للالخان في الغناء . وقد تعددت تلك الالخان بعامل الحضارة الجديدة وبسبب ما ادخله المغنون من الانغام الاجنبية وما احدثوا من نظرية عربية جديدة للغناء .

٤ - بعض ميزات خاصة بالغزل البدوي : وكان الغزل البدوي الى جنب ذلك يمتاز بالبداوة التي تكسب لفظه وصانة في غير عنف ولا جفوة، وتكسب معناه سداحة في غير سُخف ولا إسفاف . وهو يمتاز ايضاً بالصدق في وصف العاطفة وتمثيلها ، لانه كان صادراً عن قوم يشعرون ويألمون ويصفون آلامهم وشعورهم . ثم اننا لا نجد في هذا الشعر شخصيات متميزة متباينة بين اصحابه .

فكلُّهم قد نسي نفسه أو فني في موضوعه فناءً محاً شخصيته . فاختلط امر هؤلاء الشعراء على الرواة، واختلط من ثمَّ شعرهم، فأضيف الى الواحد ما هو للآخر . هذا فضلاً عن كثرة التواطؤ، في هذا الشعر، على المعاني الواحدة والالفاظ الواحدة والاسلوب الواحد .

٥ أناع موجة الشعر الغنائي : لقد أصبح الشعر الغنائي لهذا العصر شعراً شعبياً عاماً تتردد مقطوعاته في جوانب العالم العربي اذ لم يكن للعرب حينئذٍ صحف يقرأونها سوى الشعر؛ ثم ان هذا الشعر كان يُغنَّى، وقد عمل هذا الغناء على نشره بين الناس بوسيلتين : الاولى غناؤه في موسم الحج؛ والثانية انتقال الاصوات نفسها من المدينة ومكة الى الحواضر والبادي المجاورة في الحجاز، ثم الى الحواضر البعيدة في العراق والشام؛ ولاسيما وقد سهلت الفاظه وقربت معانيه من الشعب .

جميل بن معمر (؟ - ٧٠١ م / ٨٢ هـ)

١ هيام : جميل بن عبدالله بن معمر العُدريّ ولد في وادي القرى بالحجاز؛ وشبَّ على حب ابنة عمِّ له اسمها بُثينة، فعُرف لاجل ذلك « بجميل بُثينة »؛ وقد هام بها هياماً شديداً كما هامت به . فقال فيها شعراً كثيراً لم يَرْضَ عنه أهلها بل كان باعثاً على تنكُّرهم للشاعر تنكُّراً شديداً حتى انه عندما أقبل يخطب بُثينة ردُّوه خائباً وزوجوها بغيره، وعندما هجَّاهم بعد ذلك ولبث يتردَّد على بُثينة استعدوا عليه مروان بن الحَكَم وهو على المدينة من قِبَل معاوية بن ابي

(١) كان من عادة العرب القديمة ان يستنكر الاهل قول شاعر يشبِّب بفتاة لهم . فان أتى شاعر بشيء من ذلك اثار غضبهم وطلبوا إبعاده عن الحي؛ وان جرؤ بعد ذلك ان يخطب الفتاة التي أحبَّها، ابوا ان يزوجه بها، واسرعوا الى تزويجها برجل آخر، فيقضي ذلك الشاعر أيامه في اللوعة والحُرمان، ويعبِّر بالشعر عن لوعته وحرماته . وهذا ما جرى لكثيرين من اولئك المتيمِّنين من مثل الجنون، وجميل بن معمر وغيرهما .

سفيان . فتوَّعه الوالي وأهدر دمه . فاضطَّرَّ الى ان يضرب في الارض ، فذهب الى اليمن ثم الى الشام فصر حيث مات نحو سنة ٧٠١ م / ٨٢ هـ .

وقد كثرت الأحاديث المتناقضة في جميل ، ونشأت حول حياته اخبار كثيرة مزيفة ، كما دُسَّ على شعره كثير من الشعر المنحول . وفي كتاب الأغاني طائفة حسنة من اخبار ابن معمر التي نسجتها خيالة الرواة ووصلت بعضها ببعض تفسيراً لشعر بطلها وتلهية للناس .

٢ آماره : أبقي جميل بُشينة طائفةً من الشعر متفرقة في كتب الادب . وله فيه مدح قاله في بني جُذَم قوم أمه نال به عطاءً جزيلاً ؛ وله ايضاً هجاء وفخر . ولكن ما اشتهر وعُرف به دون سواه هو النسب الذي قاله في بُشينة ، والذي هو موضوع كلامنا في دراستنا هذه .

٣ جميل كما يظهر لنا من شعره : إننا اذا طالعنا شعر جميل بن معمر وقفنا على نفس محبة على غير تكلف ، متهالكة في حبها على غير ذلّة ، تُرسل شعرها في شيء من الغلو ولكن في سذاجة الولد وبرأته ، ثم في هدوء وحزم ، مع ما هنالك من عاطفة فوّارة تختلج في الابيات اختلاجاً .

وتبدو عاطفة جميل صادقة وناعمة حتى لتخال نفسه شقافة ؛ وصدقه ظاهر في ثباته على حب بُشينة مهما قام في وجهه من صعوبات ومهما ظهر منها من صدود :
وَأَطَفْتُ فِي عَوَازِلَا فَهَجَرْتَنِي وَعَصَيْتُ فَيْكِ، وَإِنْ جَهْدَنْ، عَوَازِلِي

وحبه لها ثابت حتى بعد المات :

جَهْوَاكِ، مَا عِشْتُ، الْفَوَادُ، فَإِنْ أَمْتُ يَتَّبَعُ صَدَايَ صَدَاكِ بَيْنَ الْأَقْبُرِ

(١) العواذل ج عاذلة وهي من تلوم وتعاتب . جَهْدَنْ : بالغَنْ في الامر وتعين فيه (٢) صَدَايَ ... : كان العرب يزعمون ان عظام الموتى تصدر اصداً .

وصدقه ظاهر في تلوعه وبكائه :

خَلِيلِيَّ فِيمَا عَشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا قَتِيلًا بَكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي ؟

والصدق ظاهر ايضاً في سخاء الرجل الذي يبذل كل شيء، ليس هو الشرف،

في سبيل محبوبته :

فَلَوْ أَرْسَلْتُ يَوْمًا بُشْبِنَةَ نَبْتَنِي يَمِينِي، وَإِنْ عَزَّتْ عَلَيَّ يَمِينِي،
لَأَعْطَيْتُهَا مَا جَاءَ يَمِينِي رَسُولُهَا وَقُلْتُ لَهَا بَعْدَ الْيَمِينِ : سَلِينِي ...

والكنّ جميلاً إن أحب فهو عفيف في حبه وفي احاديث حبه، لا يبيع شرفه

في سوق الفساد والاستهتار .

٤ فَمَ : شعر جميل بن معمر من اجمل وارق الشعر العربي القديم . فقد كان

شعره تنقّساً لحياته، وصورة خلجات روحه، ومن ثمّ كان فنّه في شعره

فنّ الحياة المتدفقة وفنّ العاطفة النابضة التي لها كلام خاصّ واساليب خاصّة .

أما الاسلوب فهو أسلوب الرجل الذي امتلأت نفسه ومخيّلته من محبوبته،

فيكون طيفها ابداً امامه يناجيّه، ويعاتبه، ويقصّ عليه اخبار لوعته وذلك ببعض

الغلوّ الساذج . وهو أسلوب خطابي اخباري يكثر فيه التفجّع والتلفّ والشكوى،

وذلك بواسطة التعجب والنداء والاستفهام وما الى ذلك من مذاهب الكلام الحية :

يَا لَيْتَنِي أَلْقَى الْمَنِيَّةَ بَفْتَةٍ إِنْ كَانَ يَوْمٌ لِفَائِكُمْ لَمْ يُقَدَّرْ

والشاعر يُحيي في شعره المشاهد والمواقف المؤثرة، ويردّد كلمات صاحبه :

وَمَا أَنَسَ مِ الْأَشْيَاءِ لَا أَنَسَ قَوْلَهَا وَقَدْ قُرِرَتْ نِضْوِي : «أَمِصْرَ تُرِيدُ ؟»

وأما لغة الشاعر فهي سهلة تسيل طبعيّة وانسجاماً وتصلح للغناء لما فيها

من موسيقى حيّة .

(١) وان عزّت عليّ يميني : اي وان صعب عليّ الانفصال عن يميني (٢) المنية : الموت . لم يُقدّر : أي لم يكن محدّداً ومقدّراً (٣) م : لغة في «مين» . نضوي : ناقي التي هزّ لها السفر .

ليلى الأخيلية (؟ - ٦٩٥ م / ٧٥ هـ)

١ هبائرها : ليلى بنت عبد الله بن الرَّحَّال من بني الأَخِيل من عامر كانت امرأة بارعة الجمال فصيحة خبيرة بشؤون الاحاديث، تروي الاشعار، وتحفظ أنساب العرب . وكان توبة بن الحَمِير يهواها، وهو من بني عقيل من عامر ايضاً . فقال فيها الشعر، ثم خطبها الى ابيها فأبى ان يزوجه بها، لما اشتهر من حبه لها وقوله فيها الشعر . وزوجها رجلاً من بني الأدلع . فكان ذلك الرجل شديد الغيرة عليها يكره ان يزوره احد او يضيف احداً من اجلها . إلا ان توبة لم ينقطع عن زيارتها . فغضب قوم زوجها وكنوا له ليقتلوه . وعلمت بذلك ليلى فلما جاء في احد الأيام لزيارتها خرجت اليه سافرة عابسة، فعلم أن ذلك لامر ما كان، فرجع الى راحلته وفرَّ هارباً .

وكان توبه كثير الغارات فقتل في إحدى غاراته، فرثته ليلى . وكانت تفد على الحجاج فتمدحه وتنال جوائز . ويروى أنها مرت بقبر توبة في أحد الايام وهي في هودجها ومعهما زوجها . فأرادت ان تسلم على توبة فأبى زوجها، فألحَّت، وصعدت، وهي في هودجها، الى أكمة فيها قبر توبة . فقالت : « السلام عليك يا توبة » . ثم حوَّت وجهها الى القوم، فقالت : « ما عرفتُ له كذبة قطُّ قبل هذه » . قالوا : « وكيف ؟ » قالت : أليس هو القائل :

وَلَوْ أَنَّ لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةَ سَلِمَتْ عَلَيَّ وَدُونِي تُرْبَةً وَصَفَائِحُ
لَسَلِمْتُ تَسْلِيمَ الْبَشَاشَةِ أَوْ زَقَا إِلَيْهَا صَدَى مِنْ جَانِبِ الْقَبْرِ صَائِحُ

قالت ليلى : « فما باله لا يسلم عليَّ كما قال ؟ » فما أتمَّت كلامها حتى ثارت من جانب القبر بومة كامنة أخافها الهودج، فنفر الجمل، فوقعت ليلى على رأسها وماتت من وقتها، فدفنوها الى جنبه .

(٧) الصفائح : الحجارة العراض يُغطَّى بها القبر (٢) زقا : صاح . يقول : لو سلمت عليَّ ليلى الاخيلية وانا مقبور وفوق تراب وحجارة لأجبتها مسلماً تسليم البشاشة او اجابها بدلاً مني صوت عظامي من جانب القبر .

٢ أَمَارَهَا : أَبَقَتْ لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةُ آثَاراً شَعْرِيَّةً مَبْشُوثَةً فِي كُتُبِ الْأَدَبِ تَدُورُ حَوْلَ
اغراض مختلفة من مدح وهجاء وورثاء وما الى ذلك . إلا انها
اجادت عندما نظمت شعرها في توبة . فانها كانت تَكْذِبُ محامد ذلك الرجل
وتشيد بشجاعته وكرمه وتمدحه ، وهي في شعرها هذا الصادر عن حبها العُذْرِيَّ
اشعر واصدق عاطفة منها في اي ناحية اخرى من نواحي شعرها .

وقد بكت توبة بعد موته، وطال بكاءؤها ما طالت حياتها، ورثته يشعر هو
أرقّ ما نظمت واجمل ما قالت، ومنه هذا البيت الذي أقسمت فيه ألا
تنسى صاحبها :

فَلَيْتُ لَا أَنْفَكُ أَبْكِيكَ مَا دَعَتْ عَلَى فَنَنْ وَرَقَاءُ أَوْ طَارَ طَائِرًا

وخلاصة القول ان شعر الاخيلية هو الشعر النسائيّ الخالص، المُرْهَفُ العاطفة
السَّلسُ الكلام، الذي يجمع رقة العاطفة ورقّة اللفظ الى قوة السبك . وهي
بعد الخنساء من كبرى شاعرات العرب .

(١) أَلَيْتُ : أَقْسَمْتُ . الْوَرَقَاءُ : الْحَمَامَةُ الَّتِي لَوْنُهَا كَلَوْنِ الرَّمَادِ، وَتُسَبِّهُ بِهَا النَّفْسُ .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- شوقي ضيف : الشعر الغنائي في الامصار الاسلاميَّة - الطبعة الاولى - القاهرة
 طه حسين : حديث الاربعاء ١ ص ٢١٤ - ٤٠٠
 جبرائيل سليمان جبور : عمر بن ابي ربيعة . الجزء الاول : عصر ابن ابي ربيعة بيروت ١٩٣٥
 عباس محمود العقَّاد : شاعر الغزل - سلسلة «اقرأ» ٢ - القاهرة
 » » » : جميل بثينة - سلسلة «اقرأ» ١٣ - القاهرة
 جرجي زيدان : جميل بثينة، احد عشاق بني عذرة وشعرائهم . الهلال ٦ (١٨٩٧) :
 ٢٤٢
 سعاد عارف ابو شقرا : الشاعرة المعذبة - مجلَّة الكتاب - يونيه ١٩٤٩ ص ٦٥ - ٦٩

٢ المراجع الاجنبية :

- A. Schaade : Djamil B. 'Abd Allāh B. Ma'mar, in Enycl. de l'Islam, t. I, 1040-1041.
 Brockelmann : Gesch. d. Arab. Litter. I, 48.
 H. H. Bräu : Laila' L-Akhyaliya, in Enycl. de l'Islam, t. III, 10-11.

موضوعات للبحث

- ١ - هل لكلٍّ من الغزليِّين البدوي والحضري صلة بشعر الغزل الجاهلي من حيث الاسلوب وسائر المقومات الفنية؟ اجب على ذلك متوقفاً على الغزل عند عنترة العبسي وجميل بن معمر .
 ٢ - وازن بين شعر الخنساء وشعر ليلى الاخيلىة من حيث المصدر، والقيمة الفنية .
 ٣ - اعمد الى احدى قصائد جميل بثينة واستخلص منها ميزات الغزل البدوي العفيف من حيث المعنى والمبنى .

شعر اللهو

الفصل الثاني : الغزل المضرّي

عمر بن أبي ربيعة

الأحوص - الوليد بن يزيد

عمر بن أبي ربيعة

١ حياته : وُلد عمر في المدينة في بيت ثراء وجاه . وشبَّ على التَّرف والفراغ ،
لتنقل من بلد الى بلد ، بعيداً عن السياسة والحزب ، منصرفاً الى اللهو والعبث ولاسيا في
مواسم الحج . وقد تاب في اواخر حياته ، وتوفي نحو سنة ٧١١ م / ٥٩٣ هـ .
٢ نفسيته : كان عمر يحبّ الجمال في ذاته وفي غيره ، فتأنَّق ؛ وكان ظريف اللسان
حلو المعاشرة ، لا يرى في الحياة الا سروراً يسعى في تطلُّبه والحصول عليه من اقرب سبيل ،
وقد جعل شاعريته وقواه في خدمة المتعة .

٣ آثاره : ديوان كله في الغزل الا ابياتاً قليلة في الفخر والوصف .

٤ عمر بن ابي ربيعة شاعر المرأة : يجعل عمر بن ابي ربيعة للمرأة محلاً واسعاً
في شعره ، لا بل قصر نفسه على الغزل واعرض عن فنون الشعر التقليدي . وقد تناول وصف
المرأة من ناحيته الخارجية والنفسية ، فعمد في الناحية الاولى الى الاوصاف والتشبيهات التقليدية ،
وعمد في الناحية الثانية الى نفسية المرأة فثَّل أخلاقها وامبالها وأساليها في الحديث وحرركاتها .
وصاحب عمر مُترَفات ادبيات ، وكلهنَّ ذوات صفات تكاد لا تختلف .

٥ شاعرية عمر : هو شاعر الذكرى وشاعر الاحاديث ، يردّد ما جرى في
الواقع بدقّة وإبداع . وخيال الشاعر وعاطفته وسط ، وقد كثر التكرار في شعره .

٦ فنه : شعره رسالة او نشيد من اناشيد الحب ؛ واسلوبه عاديّ في غير الحديث
والقصص حيث يُبدع . والحوار والقصص عنده مقصودان قصداً ، وهما يحفلان بالطلاوة
واللباقة والدقة والحياة . والشاعر يُكثر في قصصه وحواره من القسَم . وشعره يذوب سهولة
وليناً ، ويجري على بحور متنوعة خفيفة وموسيقية . يَعْرِو شعره احياناً فنون وإعْياء فيُفسف .
٧ اثره وانتشار شعره : كان عمر مجدّداً ، وممثلاً لناحية من عصره ، فانتشر
شعره انتشاراً واسعاً وكان خطراً على العفاف .

الأحوص - الوليد بن يزيد

هما شاعران يمثّل الاول الغزل بالإماء والجواري ؛ ويمثّل الثاني الطريق لاني نواس .

عمر بن أبي ربيعة (٦٤٤ - ٧١١ م / ٢٣ - ٩٣ هـ)

١ - حياته :

١ - مولده ونشأته : عُمر بن أبي ربيعة من بني مخزوم، ومخزوم من أُمَـنَع بـيـوت قريش وأعظمها جاهاً وثروةً ونفوذاً في الجاهلية والاسلام . وُلد في المدينة سنة ٦٤٤ م / ٢٣ هـ . من أب اسمه بُجَير، وأم اسمها مَجْد كانت سبيّة حَضْرَمَوِيَّة اِوَحْمِيَّة . وكان أبوه ذا تجارة واسعة ثم عاملًا على ولاية الجُـنـد في اليمن من قِبَل مُحَمَّد ثم من قِبَل الخلفاء الراشدين .

٢ - الشاب اللاهي : نشأ عمر على التَّرف فارغاً وحوله الجوّاري والأرقاء ، يوفرون لديه من أسباب اللهو ما يمكن أن يتوفّر لمثله من أبناء الأشراف الفارغين من متاع الحياة . وقد تجوّل كثيراً من الحجاز الى اليمن الى العراق الى الشام ، يعاشر الأدباء والأشراف، بعيداً عن السياسة والأحزاب، ناظماً الشعر . وأحبّ الايام لديه موسم الحجّ حيث كان يتزّين بأحسن الثياب ، ويلبس الحلل والوشى ، ويسبل لحيته ، ويطيل الأزار ، ويسبغ رفاق البرود ، ويتمطر ، ويخضب نجائبه بالحناء ، ثم يتنقّل من طريق الى طريق لرؤية الحاجّات والتحدّث اليهنّ ووصفهنّ ؛ وذاع أمره فكانت النساء يتطلّبن لقاءه ليصفهنّ . خاف الأشراف على نساتهم . وقد علق نساء كثيرات في الحجاز وتزوّج كلّهن بنت سعد المخزوميّة ، وله منها ولد اسمه جـوـان ، مسلّكه غير مسلّك أبيه .

٣ - التائب : انقطع عمر في اواخر حياته عن اللهو والطيش ونسك . ويذهب البعض الى أن هذا النّسك الذي يُشير اليه الرّواة لم يتعدّ فترات خاصّة في حياته كان يشتدّ اللوم فيها عليه من ذويه وأصحابه فيتوب الى حين راضياً او مُكرهاً ؛ وأن تلك التوبة قد تكون هموداً في رجل طاش في شبابه ثم أدركه الهرم فانهّد جسمه ، إلا انه كان ، مع ذلك ، اذا عرّض له ما يهيج عاوده الحنين الى اللهو والشباب ونظم الشعر في تلك الذكري .

ومهما يكن من أمر فنظن أن ابن أبي ربيعة قد تلب وان توبته كانت صادقة، وإن تحللها ضعف في القصد أو تحللها من وقت إلى آخر الحنين إلى صبوات الشباب. ورؤي أنه لما أسن وتاب نذر لله أن يعتق رقبة لكل بيت شعر يقوله، فكان لا ينظم بيتاً إلا طلق عبداً أو جارية.

٤ -- وفاته : إن موت عمر من أخفى ما في تاريخه، والروايات متعددة ومضطربة في ذلك. وتذهب أقدم الروايات وأكثرها انتشاراً إلى أن الخليفة عمر ابن عبد العزيز نفاه إلى دهلك، وهي جزيرة في البحر الأحمر، فغزا بالبحر، فأحرقوا سفينته فاحترق. وأغلب الظن أنه مات من مرض في اليمن، وكان موته نحو سنة ٧١١ م / ٩٣ هـ.

٢ نفسه : كان عمر كامل الأداة للغزل. فقد كان جميلاً يزيد على جماله تألقاً وفناً؛ وكان من الوجهة الخلقية سهل المعاشرة، بطيء الغضب، ظريف اللسان، مليح النكتة والدعابة؛ وكان في طبعه جانب من الأنوثة؛ فحفلات مجالسه بأنواع اللهو، وتهافت النساء إلى تلك المجالس، وكُنَّ في الحجاز يُضفن إلى حب الأدب ميلاً شديداً إلى الغزل والمرح. وفضلاً عن ذلك كان عمر مَرِحاً ينظر إلى الحياة من ناحية السرور فيها، ولا يرى في الحياة إلا متعة مادية يزحف في تتبعها، وجمالاً يتهالك عليه مع رفاق السوء. ويُلاح في تتبعه له، ويشوه هكذا معنى الحياة السامي. وقد سَجَّر في سبيل متعته شاعريته وجماله وكل ما فيه من غنى طبيعة وفن. فكان بلاء على الحوارج وعلى أهلهم، وقد أعا الخلفاء والعمال وأهل النساء وذويهن.

٣ آثاره : لعمر بن أبي ربيعة ديوان كبير يشتمل على بضعة آلاف بيت من الشعر كلها في الغزل إلا أبيات متفرقة في الفخر والوصف. وقد طبع الديوان في ليمسيك سنة ١٨٩٣، وفي مصر سنة ١٣١١ هـ (١٨٩٣ م) وفي بيروت سنة ١٩٣٤.

٤ - عمر بن أبي ربيعة شاعر المرأة :

١ - حملتها في شعره : المرأة، ولاسيا الشريفة التي من طبقتها، محلّ واسع في ديوان ابن أبي ربيعة، فقد قصر نفسه على الغزل وأعرض عن فنون الشعر التقليدي . وفي هذا الصدد روى صاحب الأغاني ان سليمان بن عبد الملك قال له : « ما يمنعك من مدحنا ؟ » فقال : « إني لا أمدح الرجال، إنما أمدح النساء » . وفي الحقيقة مدح النساء الكثيرات حتى يُخَيَّل للمرء أنه لم يدع فتاة أو امرأة جميلة إلا شَبَّ بها وذكرها ؛ فقد شَبَّ بزَيْنَب بنت موسى الجُمَحِيَّة ، وبابنة عمِّها نُعم ، وبالْأَثَرِيَّاء بنت علي بن عبد الله ؛ ولم يقف عند هذا الحدّ، بل كثيراً ما تعرّض للنساء الحواج في الطواف او غيره من مشاعر الحجّ، وشَبَّ بهنّ ؛ ومن أشهر أولئك ليلي بنت الحارث البكرية، ورَمْلَة بنت عبد الله بن خلف الخُزَاعِيَّة ، وفاطمة بنت محمّد بن الأشعث الكِنْدِيَّة ؛ ومنهنّ زوجة شَيْخ النُحْو أي الاسود الدُّوْلِيّ . زد على ذلك أنه، كما سبق القول، كان يخرج لاستقبال الحواج في طُرُقهنّ الى مَكَّة ؛ وكان بين مواكب الحاجّات من يرغبن في أن يُرَيْنَ ويُمدَّحنَ، فيتعرّضنَ للشاعر لأجل ذلك، وكنّ يغضبنَ إذا لم يشَبَّ بهنّ .

٢ - موضوعات وصفه الغزليّ : وقد تناول وصف المرأة من ناحيتيه الخارجية والنفسيّة . فعمد في الناحية الاولى الى الاوصاف والتشبيهات التقليديّة التي عرفناها عند سائر من تقدّمه من الشعراء، ومثّل بها المرأة تمثيلاً حسيّاً خالياً من الحياة . وعمد في الناحية الثانية الى نفسيّة المرأة، فمثّل اخلاقها، واميالها واساليبها في الحديث، وحركاتها في مختلف مواقفها، ولاسيا في مجالس اللهو ؛ وهكذا كان شعره صورة حياة المرأة اللاهية في عهده، يتجلّى حتى في لفظه الذي أدخل فيه لغة المرأة وطريقة مخاطبتها .

٣ - صفات المرأة في شعر عمر : صواحب عمر متوفات غنيّات شريفات، منصرفات الى القراءة والكتابة . وهنّ في شعر الرّجل لا يتميَّزنَ، فكلهنّ ذوات

صفات تكاد لا تختلف . والشاعر يرى الحسن ممزوجاً بالطيب ، فيصف الجمال ويشبهه بالشمس والريّيم والجوذر وما الى ذلك ثم يمزج ذلك الجمال بالطيب من عطر وزعفران وكافور وغيرها . وهو يُظهر الجمال في ثوب من الحرّ والوشي وفي السوار والخلخال . وكثيراً ما يصف النساء بما يسفلهنّ ، وهو يكتفي بعض الاحيان بوصف الفتاة ومدحها وذكر نسبها الكريم :

وطافت بنا شمسٌ عشاءً ومن رأى من الناسِ شمساً بالعشاءِ تطوفُ^١
أبو أمّها أوفى قریشٍ بذمةٍ وأعمامها، إماماً نسبته، ثقیف^٢

٥ شاعرية عمر : ليس عمر من شعراء الفكر والخيال انما هو شاعر الذكرى وشاعر الأحاديث . فقد نشأ ميلاً الى التحدث والسمر ، وكان حلو الحديث يتكلم فيرضي ويصغي فيشوق ؛ بل كان كل شيء في حياته وسيلة الى الاتصال بالمرأة وذكرها والتحدث اليها . وهكذا نراه يستخر شاعريته لهذا التحدث ، فلا يتعهدا تعهد الشعراء ، ولا يقف من الخيال موقف سائر الشعراء ، انما يقف امام الواقع ، وامام الحديث والحادث ، فيردّد ما جرى فيهما بدقة الذي يحفظ ويحسن الحديث ويبدع فيه ؛ فما من مجال للفكر العميق . وإن كان هناك تحليل نفسي ، فذلك سطحي لا يتعدى ما هو من عالم الاختبار اليومي الذي يعرفه كل انسان عاش عيشة عمر . وما من مجال للعاطفة القويّة ؛ وان كان هنالك عاطفة فهي سطحيّة ، لانها عاطفة الرجل الذي تيسر له كل ما أراد ، فلم يتألم ، ولم يقف موقف التأمل في داخله ، الذي يتشوق ويتمحرق ؛ وكأني بحساسيته لا تبلغ ما تبلغه عند غيره من النفوس العاطفيّة الشديدة العاطفة ، القوية الشعور ؛ فهي حساسية وسط مقترنة الى خيال وسط ؛ فكانت نتيجة ذلك ونتيجة الاقتصار على ايراد الاحاديث والواقع ، أن كثرت التكرار في شعر عمر ؛ فالأحاديث هي هي

(١) العشاء : من المغرب الى العتمة (٢) اوفى قریش بذمة : أي هو في قریش أحفظ
إنسان للهود . ثقیف : قبيلة عدنانيّة لها في تاريخها ايامٌ غرّ ومجد واسع .

لا تتبدّل ؛ والأساليب هي هي لا تتغيّر، والعقل والخيال لا يخلقان في عالم الابتكار وخلق الجديد لضعفهما . فكان شعر الرجل صورة لنفسه اللطيفة المتهالكة على الجمال، لتلك النفس التي لا ترى غير الفرح والسرور والمتعة على اقرب وجه، من غير ما تحليل ولا كثير تعليل، والتي تعيش على سطح الحقيقة، من غير ان تلج الى اعماقها او تخلق في اجوائها .

٦ فم : اراد عمر بن ابي ربيعة ان يكون شعره رسالة الى صاحباته فيها وصف

وقصص وحوار ومعاينة وشكوى :

كَتَبْتُ إِلَيْكَ مِنْ بَلَدِي كِتَابَ مُؤَلِّهِ كَمَدَا
يُورِقُهُ لَهيبُ الشَّوْقِ بَيْنَ السَّحَرِ وَالْكَبَدِ
فِيُوسِكُ قَلْبَهُ يَدٌ وَيَمْسَحُ عَيْنَهُ يَدٌ

او نشيداً من أناشيد الحب يُغني به ابن سُريج والغريض مُغنياً الشاعر .
فضن كلامه كل ما هو من امر الرسائل والغناء . فكان أسلوبه عادياً في غير الحديث والقصص والحوار، يمتاز بسهولة وموسيقاه .

١ - القصص والحوار : اما القصص والحوار فناخذهما بمعناهما العام، فلا نعني

الرواية بكل ما فيها من فن قصصي وعقدة ومتمعة فنية، ولا نعني الحوار التمثيلي الذي يجري على المسارح ؛ انا نعني الحديث المنظوم الذي يكاد يتفرّد فيه ابن ابي ربيعة .

وهذا الحوار معروف في الادب الجاهلي، فقد اتى امرؤ القيس بالقصص والحوار في شعره، الا ان ابن ابي ربيعة قصد الى ذلك قصداً، وجعله قوام فنه الشعري، فبسط فيه القول، والقى عليه طلاوة ولباقة وبلاغة لم تجتمع لغيره .

(١) المؤلّة : الذي اشتدّ عليه الحزن فذهب بعقله . الكمد : الشديد الحزن والمريض من الحزن (٢) يورقه : يسهره . السحر : الرثّة .

ويقوم إبداع عمر في فقه هذا بأن تحرّى فيه الدقّة والواقعية، وإذا النساء يظهرن فيه بأخلاقهنّ، وإشاراتهنّ، وحرّكاتهنّ، وإذا هنّ يطلبنه دائماً، ويتحدّثن عنه في غيابه، ويتغرّأن به أكثر مما يتغرّل بهنّ، ويلقن عليه النعوت الجميلة؛ وكان عمر لا يهتمّ للفنّ الشعري بقدر ما يهتمّ لإدخال لغة النساء فيه :

يَنسَمَا يَنْعَتَنِي أَبْصَرْنِي دُونَ قَيْدِ الْمِيلِ يَدْعُونِي الْأَغْرَا
قَالَتِ الْكُبْرَى: «أَتَعْرِفُنِ الْفَتَى؟» قَالَتِ الْوُسْطَى: «نَعَمْ هَذَا عُمَرُ!»
قَالَتِ الصُّغْرَى، وَقَدْ تَسَمَّتْهَا: «قَدْ عَرَفْنَاهُ، وَهَلْ يَخِي الْقَمَرُ؟!»

وهذا الحوار ينبض حياة . فالحياة ماثلة في الحركة، وفي ايضاح تأثيرات الحديث في النفوس، بجمل اعتراضية وثابة، وعبارات تفسيرية لطيفة :

قُلْتُ: «مَنْ هَذَا؟» فَقَالَتْ: «بَعْضُ مَنْ قَتَنَ اللَّهُ بِكُمْ فِيمَنْ قَتَنَ»
قُلْتُ: «حَقًّا ذَا؟» فَقَالَتْ قَوْلَةً أَوْرَثَتْ فِي الْقَلْبِ هَمًّا وَشَجَنًا:
«يَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى حُبِّي لَكُمْ وَدُمُوعِي شَاهِدٌ لِي وَالْحَزَنُ»
قُلْتُ: «يَا سَيِّدِي عَذَّبْتَنِي» قَالَتْ: «أَلَلَّهْمَّ عَذَّبَنِي إِذْنُ!»

وعمر بن ابي ربيعة، في قصصه وحواره، يُكثر من القسم واشهاد الله والاستحلاف، وقد يكون ذلك من خصائص الحديث في ذلك العهد كما نراه فاشياً في عهدنا هذا :

يَرْبِكَ هَلْ أَنَاكَ لَهَا رَسُولٌ فَشَاقَكَ أُمٌّ لَقِيتَ لَهَا خَدِينًا

٢ - الموسيقى الشعرية والسهولة : غزل عمر صورة لنفسه وحياته وعواطفه :

فَعُمِرَ أَسِيرُ الْجَمَالِ وَرَفِيقُ الْمَغْنَمَيْنِ، وَغَزَلَهُ كَذَلِكَ لُغَةُ الْحُبِّ، وَإِنْ كَانَ مَا جُنَا،

(١) يَنْعَتَنِي : يصفني بما في من حُسن . قَيْدِ الْمِيلِ : مقداره . الْأَغْرَا : من الخيل ما كان له غرّة اي بياض في جبهته (٢) تَسَمَّتْهَا : اي جمعتُ الهوى يستولي عليها (٣) قَتَنَهُ : أذهب عقله (٤) الشَّجَنُ : الهم والحزن (٥) الخدين : الصاحب .

ولسان العاطفة، وان كانت منفسدة ؛ ونغمة من نغمات الموسيقى، وان كانت في احيان كثيرة موسيقى الصوت الطبيعي في احاديث الغزل والهوى .

فلا عجب اذا كان الكلام يذوب سهولةً وليناً، ويجري على بحور متنوعة تتناغم والاحوال النفسية وتوافق احوال الاشخاص والبيئة ؛ وهي بحور ابدًا لينة خفيفة تكاد، في احيان كثيرة، تشبه النثر لولا ما هنالك من قافية تكاد تختفي في طبعية الكلام وسهولته :

جَعَلْتُ طَرِيقِي عَلَى بَارِكُمْ وَمَا كَانَ بِأَبْكُمْ لِي طَرِيقًا
صَرَمْتُ الْأَقَارِبَ مِنْ أَجْلِكُمْ وَصَافَيْتُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لِي صَدِيقًا

ويساعد التضمين^٢ هذه السهولة، وهو كثير في شعر عمر :

مَنْ رَسُولٌ نَاصِحٌ يُخَبِّرُنَا عَنْ نُحْبٍ مُسْتَهَامٍ قَدْ كَتَمَ^٣
حُبَّهُ، حَتَّى تَبْلَى جِسْمُهُ وَبَرَاهُ طُولُ أَحْزَانٍ وَهُمْ^٤

والموسيقى في شعر عمر كثيرة الانغام، تتصاعد من حسن اختيار البحور والقوافي ؛ فكأنني بالشاعر ينظر، وهو ينظم، الى المغنين والمغنيات ويقدم لهم ولهن ما يسهل غناؤه وتعذب رثته ونغمته ؛ وكان ابن سريج والغريز بالقرب منه يساعدانه على العمل بما يُسمعانه وبما يترنَّان به من شعوره .

وكانت الموسيقى تجتمع الى العاطفة والى ما تقتضيه الاحوال ، وتبعث على تكرار بعض الالفاظ لتقرير الفكرة :

أَلَا حَبِّذَا حَبِّذَا حَبِّذَا حَبِيبٌ تَحَمَّلْتُ مِنْهُ الْأَذَى !

الضعف : ولكن السهولة الماثلة في اللفظ والتركيب من شعر عمر يرافقها أحياناً فتور واعياء في تقويم البيت والوصول الى القافية :

(١) صرمت الاقارب : هجرتهم (٢) التضمين : تعلق قافية البيت من الشعر بما بعده على وجه لا يستقل بالفائدة (٣) المستهام : المغمم الكلف الفؤاد (٤) تبلى : اي تبلى وتلف .

مَرْحَبًا ثُمَّ مَرْحَبًا بِالَّتِي قَالَتْ غَدَاةَ الْوَدَاعِ يَوْمَ الرَّحِيلِ،
لِلشُّرَيَّا، قُولِي لَهُ : أَنْتَ هَمِّي وَمُنَى النَّفْسِ خَالِيًا، وَالْجَلِيلِ ١

وقلما تُعرف، لابن أبي ربيعة، قصيدة لا يُضطرّ فيها إلى تحويل الضمير من المفرد إلى الجمع، ومن المخاطب إلى الغائب في البيت الواحد لضرورة الوزن . وهو يُخطئ قواعد اللغة أحياناً لتلك الضرورة نفسها :

مَنْ ذَا يَلُمُّنِي إِنْ بَكَيْتُ صَبَابَةً أَوْ نُحْتُ صَبًا بِالْفُرَادِ الْمُنْضَجِ ٢

فقد جزم « يَلُمُّنِي » لغير عامل الجزم . ولكن من النقاد من يجعل تطوّراً في شعر عمر يُلمّح إليه جرير حيث يقول : « ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر » . وفي الواقع نقرأ لعمر الشعر الضعيف حيث يبدو الإسفاف، والشعر الرقيق السهل على غير ضعف وكأن الشاعر وضعه للغناء، ثم الشعر الشديد الأسر الحسن التعبير الذي راق أكابر الشعراء من مثل جرير والفرزدق .

٧ أُرْهِ وَأَنْتَارُ شِعْرِهِ : كان عمر مجدداً في كونه قصر الشعر على الغزل ونظم فيه القصائد المستقلة، ووسّع نطاق القصص والحوار بحيث فاق أمراً القيس، واحتكر هذا الفن لنفسه احتكاراً؛ ثم في كونه أجاد في تصوير عواطف المرأة وإن كان ذلك التصوير لا يسير الأغوار العميقة، وفي وصف أحوال النساء في بيوتهن؛ ثم في كونه انصرف عمّا ألفه الشعراء من البحور إلى ما هو منسجم كالخفيف والمنسرح والرومل أو الجزوء من البحور الطويلة؛ وفي كونه أهمّ شاعر قام بتليين الأوزان لتوافق الغناء الجديد، ولعلّه من أجل ذلك كان أقرب شعراء الحجاز إلى ذوق المغنين .

زد على ذلك أن ابن أبي ربيعة مثّل ناحية من عصره وطبقة من الناس المترفين . وقد صدّف عن السياسة وما يتعلّق بها تماماً ولم يجعل لها في شعره موضعاً . ثم إنه لم

(١) أي أقسم بالجليل أعني الله (٢) الصبابة : الوله الشديد . الصب : العاشق المشتاق .

يصور الحياة البدوية الخالصة، ولا فئة كرام الناس الذين كانوا يعيشون، في مكة والمدينة وما جاورهما، في البر والورع والعبادة . بل صور تلك الناحية الوسط بين البادية والحاضرة حيث نرى أبناء القرى الحجازية على كثير من الترف، والفراغ الى اللهو والمجون؛ وإسراف المرأة في العبث، وميلها الى الادب، واستلطافها ان يقال فيها الشعر .

لاجل ذلك كله انتشر شعر عمر انتشاراً واسعاً . فكان عمر زعيم مدرسة في الغزل، وتلمذ له الكثيرون من الشباب الحجازي وأشهرهم العرجي والاحوص؛ ثم ان المغنين أولعوا بشعره إنشاداً وتلحيناً؛ وأولع به الشعب ولاسيما أهل الخلاعة واللهو لسهولته وما فيه من خفة ولين وحوار وتصوير للمجتمع .

وقصارى القول ان العرب ما أقرت لقريش بالشعر إلا مع عمر، لأنه كان، على ما أجمع عليه الادباء، « أغزل الشعراء، وأدخلهم شعراً في النفس، وأسحروهم للنساء »، ولذلك كان شعره بتشبيهه البليغ وقصصه الغرامي الشائق خطراً شديداً على العفاف، بحيث قال فيه أحد الأنصار : « ما عصي الله بشيء كما عصي بشعر ابن ابي ربيعة » .

الأحوص (٧٢٣ م / ١٠٥ هـ)

عبدالله بن محمد الأوسي الملقب بالأحوص من أهل المدينة . وقد نشأ ميئلاً الى الرخاء . وإلى هجو الناس، وقامى من جرأ ذلك آلاماً شتى . وكانت حياته حياة لهو وتهتك . أما شعره فيعتبر صورة طريفة للشعر والفن في المدينة أثناء العصر الأموي . وهو يدور بنوع خاص على الغزل، ويحفل بحكاية العشق والصبابة والإفصاح عن لوايع الحب وما ينتج عنه لأصحابه من عذاب ووصب .

وقد علق الإيماء من مغنيات المدينة ، وغزله فيهن صادق العاطفة . قال في إحداهن :

حُبُّها في القلبِ دائٍ مُستَكِنٌ لا يَرمِي^١

(١) المستكن : الثابت في الداخل . لا يرمي : لا يزول .

وغزله حافل بالطرافة لا يخلو من التصريح والفحش . وهذا الغزل بالجواري والإماء ظاهرة أموية قبل أن تكون عباسية ؛ وهو يهّد الطريق لبشار وأمثاله من شعراء بني العباس .

الوليد بن يزيد (٧٠٨ - ٧٤٣ م / ٩٠ - ١٢٦ هـ)

أبو العباس الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان وُلد بدمشق نحو سنة ٧٠٨ (٩٠ هـ) ، ونشأ مستهتراً يميل إلى اللهو والخمر والصيد ويحبُّ معاشرَةَ الظرفاء ومناذمة الأدباء . والخُلَعاء المُجَنّان وسماع الغناء ومجاراة أهواء النفس . وقد جعل قصره مباءةً للقِيان والمُعَيّن ، والشعراء ورواة الشعر ، والأدباء والظرفاء ، والخُلَعاء والمُجَنّان .

بُويِع بالخلافة سنة ٧٣٣ وتوفي سنة ٧٤٣ / ١٢٦ هـ . كان الوليد اديباً شاعراً إلا أنه لم يبقَ لنا من شعره إلا صفحات قليلة تدور حول الغزل والوصف والخمر والعتاب والفخر والرتاء والهجاء . ومعاني شعره شخصية تترجم عن نفسه في عبثها ولهوها وتبذُّلها وزهوها وغضبها وحزنها . ويمتاز شعره باللين والنعومة ، والركة العذبة والصدق ، ولا يتكلّف فيه الوليد لا لفظاً ولا معنى :

خَبَّرُونِي أَنَّ سَلَمَى خَرَجَتْ يَوْمَ الْمُصَلَّى
فَإِذَا طَيْرٌ مُلِيحٌ فَوْقَ عُصْنٍ يَتَفَلَّى
قُلْتُ مَنْ يَعْرِفُ سَلَمَى قَالَ : هَا ، ثُمَّ تَعَلَّى
قُلْتُ يَا طَيْرُ أَذُنُ مَنِي قَالَ : هَا ، ثُمَّ تَدَلَّى
قُلْتُ هَلْ أَبْصَرْتُ سَلَمَى قَالَ : هَا ، ثُمَّ تَوَلَّى
فَنَكَاهِي الْقَلْبَ كَلَمًا بَاطِنًا ثُمَّ تَعَلَّى

وهكذا كان الوليد زعيم اصحاب الخلاعة والمجون تبعه ابو نواس في خلاعته ومجونته وتبعه غير أبي نواس من الشعراء الذين جروا مجراه في المعاني والالفاظ .
وهكذا يصل الوليد بن يزيد العهد الأموي بالعهد العباسي .

بعض المراجع

- جبرائيل سليمان جبور : عمر بن ابي ربيعة - جزآن - بيروت ١٩٣٩
عبداس محمود العقّاد : شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة - سلسلة «اقرأ» ٢ - القاهرة
مارون عبّود : الرؤوس - بيروت ١٩٤٦ ص ٥١ - ٧٤
طه حسين : حديث الاربعاء ١ ص ٣٧٢ - ٤٠٠
شوقي ضيف : الشعر الغنائي في الامصار الاسلامية - القاهرة ١٢٢ - ١٣٧

موضوعات للبحث

- ١ - قيل : « عمر بن ابي ربيعة إمام القصة القصيرة في الغزل سار فيها على غرار امرئ القيس ففاقه... ولكنه قَصّر عن الشاعر الجاهلي في فنّ التصوير والرّسم، فقصّته حديث لا صورة، وحكاية لا رسم ». أوضح ذلك .
- ٢ - قيل : « يجمع شعر عمر بين قوّة الجاهلية وجزالة الاسلام، ويتحلّى برفّة عذبة، ونعومة حلوة وجرّس موسيقيّ لذيذ، وقد غنّي به في عصره فأنظم قصيدة حتى سار بها الركبان، فردّدتها الحسان وغنّي بها المغنّون وانشدتها القيان ». ما رأيك في هذا القول ؟
- ٣ - قال جرير عندما سمع شعر عمر : « هذا والله الذي ارادته الشعراء فأخطأته وتعلّلت بوصف الديار، وادركه هذا القرشيّ ». اوضح فكرة جرير وأيدها بالبرهان .
- ٤ - هل يمثّل ابن ابي ربيعة عصره ؟

الباب الخامس شعر السياسة

الفصل الاول

الأخطل (٦٤٠ - ٧١٠ م / ٢٠ - ٩٢ هـ)

توطئة

١ الشعر السياسي وظهوره : الشعر السياسي قديم وقد انتشر في عهد بني أمية .
٢ الاحزاب وشعراؤهم : الخوارج : من شعرائهم عمران بن حطان والطرماح ابن حكيم ؛ وشعرهم شعر العقيدة التي تفنى فيها الشخصيات . الشيعة : من شعرائهم الكميث الاسدي وكثير عزّة ؛ وشعرهم شعر السخط والحزن . - الزبيريون : من شعرائهم عبيد الله بن قيس الرقيّات . - الموالي : من شعرائهم اسماعيل بن يسار . - الامويون : من شعرائهم ابو العباس الاعمى ، واعشى ربيعة ، وشعرهم نفعي .

الاخطل

١ حياته : هو تغاي ولد في الحيرة ونشأ متملياً من مفاخر قومه . اتصل ببني أمية بعد هجائه الانصار ، وقد قرّبه معاوية ويزيد ، ولاسيا عبد الملك بن مروان الذي عزّز منزلته ولقبه « شاعر بني أمية » . ثم توفي سنة ٧١٠ م / ٩٢ هـ .

٢ نفسيته : كانت اخلاقه اخلاق رجل البلاط مع ان نظرته الى الحياة كانت نظرة بدويّة وكان الاخطل رجل انفة وعزّة ودهاء ، ومحبّاً للخمر .

٣ آثاره : ديوان فيه مدح ، وهجاء ، وفخر ، ووصف ، ونثر .

٤ الاخطل شاعر السياسة : كان الداعي الى شعر الاخطل السياسي حاجة بني أمية الى اثبات حقهم بالخلافة ، فوجّه الى ذلك الغرض جميع شعره ولاسيا المدح والهجاء والفخر ، فأثبت في مدحه ان الخلافة انتقلت الى امية قانونياً ، وان امية اجدر الناس بها لقوتهم وحسن سياستهم وحلمهم وجودهم . ودافع في هجائه عن امية وعن نفسه ، وكان هجاؤه مؤلماً من غير فحش . وعدّد في فخره أجداد قومه . وهكذا خدم مصالح امية ومصالح قبيلته .

٥ الاخطل شاعر الوصف : دار وصفه خصوصاً على البادية بما فيها من حيوان وذلك بأسلوب النابغة الاستداري التصويري الدقيق . ثم دار وصفه على الحمرة التي جعل لها محلاً واسعاً في ديوانه ، وأبدع في وصفها الذي جعله دقيقاً شاملاً .

٦ فنه : كان الاخطل شاعر الخيال الحسي الذي يهيمن عليه العقل .

٧ منزلته : للاخطل منزلة أدبية لم يبلغها غيره من شعراء عصره ، وله منزلة تاريخية واسعة لما اشتمل عليه شعره من معلومات تاريخية عن قومه وعن امية .

نوطئة

الشعر السياسي

١ الشعر السياسي وظهوره : الشعر السياسي هو الشعر الموجه نحو هدف واحد هو السياسة، يصل اليه بطرق مختلفة تكون مدحاً او هجاءً او وصفاً او ما الى ذلك ؛ يدح المذهب وأصحابه، ويهجو غيره من المذاهب المعارضة، وذلك عن عقيدة سياسية في الشاعر او عن غير عقيدة . ويُفرض في هذا الشعر ان يكون حماسياً قوياً لانه شعر العواطف المتناحرة في سبيل الحياة والدين والحرية والسيادة . وهذه الصبغة الحماسية تغلب فيه مهما اختلفت اغراضه ونزعاته .

وهذا الشعر قديم عند العرب ، كان في الجاهلية محصوراً في القبيلة او في الامارة ، لقيام الحياة البدوية على العصبية القبلية وتأثرها بعصبية الامارة . وقد نهض في عهد محمد ثم ما لبث ان خمدت جذوته في عهد الراشدين لتلاشي الروح الحزبية ؛ وما إن قُتل عثمان حتى هبت الفتنة، ثم انتشرت مع استيلاء الامويين على البلاد وإخضاعهم الموالي لاحكام قاسية ؛ وقد ثارت العصبية القومية والجنسية، وتعددت الاحزاب، وكان لكل قول، ولكل حجة من القرآن والسنة، وعدته من الشعر والخطابة .

٢ الامزاب وشعراؤهم :

١ - الخوارج : ذهبوا الى ان الخلافة حق مشترك بين المسلمين ، فحاربوا الارسطقراطية الجنسية او القبلية او العائلية، ودعوا الى المساواة الاسلامية التي تمثلها الآية « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » . ومن شعرائهم عمران بن حطان والطيرماج بن حكيم .

وكان شعرهم شعر العقيدة التي تفنى فيها الشخصيات، واسلوبهم خطابياً، تقريرياً، احتجاجياً، ثورويّاً . وامتاز شعرهم بالجدة لانه ابتعد عن تقليد

الاقدمين واتخاذ اسلوبهم في تركيب القصيدة ؛ فكان موضوعه مذهباً حديثاً تدعمه آراء وحجج اسلامية متخذة من القرآن والسنة ؛ وكانت غايته الجهاد في سبيل الحكم الصالح ؛ وقد أُجري على اسلوب هو مزيج من الجزالة والسلاسة والورقة . إلا ان هذا الشعر لم يكن الا مقطوعات وقصائد قصيرة .

٢ - الشيعة : سخط الشيعة على المعتصمين وحزنوا لما أُلِمَّ بهم من احداث فكان شعرهم شعر السخط والحزن ، الذي يظهر في الهجاء والمديح والثناء والاحتجاج والتصوير والابتهال ، ويرمي الى الجهاد في سبيل خلافة العلوية ؛ وذلك في اسلوب يتقلب بين الهدوء والثورة ، والورقة والحزن ، بحسب ما تقتضيه حال الاحتجاج او الغضب او الألم . وشعر الشيعة دون شعر الخوارج نصاعة وحرية ؛ وشعراؤها دون شعراء الخوارج إخلاصاً للحزب واحتقاراً للعالم والمال .
من شعراء الشيعة الكهنيّ الأسدي ، وكثير عزة .

٣ - الزبيريون : انكروا على بني امية جعلهم الخلافة وراثية فيما بينهم دون سائر قريش . وشاعرهم عبّيد الله بن قيس الرقيّات . وكانوا من العاملين في سبيل الارسطقراطية .

٤ - الموالي : استطال العرب على الموالي واعتبروهم دونهم دماً ولغةً وأدباً وخلقاً ، واعتزوا بعروبيتهم التليدة بخلقها وبيانها ، والطريقة بالاسلام ودولته الغالبة . فتولّد في نفس الموالي تيار عكسي ، فأخذوا على العرب خروجهم على اصول الاسلام الداعي الى المساواة ، وراحوا يفخرون بمجدهم وحضارتهم وينعون على العرب سوء حالهم . فهم يأنفون من الدولة التي لم تف بوعدها في إقامة المساواة والعدل الاجتماعي ، ويشملون بنقمتهم شيئاً فشيئاً الدين واللغة والجنس والادب ، ويسعون في ارجاع الدولة الفارسية ؛ ومن شعرائهم اسماعيل بن يسار ، ويزيد بن ضبة .

ونحن نلمح في شعر الموالي حسن التنسيق ، والاستقصاء أحياناً ، ورقة الاسلوب وقصر الوزن غالباً .

٥ - الامويون : لقد رأى الناس في سائر الاحزاب اصلاً دينياً، فالخوارج اقاموا مذهبهم على اساس ديني من التقى والزهد والمساواة بين الناس والتعاشي عن الأثرة السياسية؛ والشيعية اعتصموا بصاحب الدين لقرابتهم منه ووصايته لهم ان يكونوا ملوكه؛ والزبيريون غضبوا، فيما قالوا، لله ورسوله من أثرة معاوية؛ والموالي نعموا من بني امية مجافاتهم لروح الاسلام الديوقراطي؛ واما الأمويون فلم يرو لهم الناس هذا الاصل الديني، بل رأوهم سياسيين طلاب دنيا وملك، اعتمدوا على قوة السيف والمال والعقل في تأييد عرشهم، فكان الناس ينجحون اليهم طمعاً في مالهم او خوفاً من بأسهم .

والشعراء الذين يتأولون هذا الحزب الاموي كانوا نفعيين يدحون الملوك طمعاً في عطاياهم او خوفاً من عقابهم . وليس في شعورهم كثير جدّة من الناحية الفنية؛ فهو يدور حول المديح بالصفات العامة كالكرم، والخلق، وحسن السياسة، والمجد القديم، والحظ المواتي، وما الى ذلك . ومن شعرائهم ابو العباس الاعمى، واعشى ربيعة، والناطقة الشيباني، وعدي بن الرقاع .

* * *

أما الأخطل والفرزدق وجوير فلا يُعدّون من الشعراء السياسيين بذلك المعنى العام الجديد لتغلّب العصبية القبليّة عليهم، وان اتّصلوا بالسياسة العليا من بعض الوجوه . فقد كانت السياسة عندهم وسيلة لغاية قبليّة فيما كانت عند غيرهم غاية تتوارى بجانبها القبيلة . فعاشوا في ظل بني امية ونزعتهم نزعة جاهليّة واتّصلوا بالاحزاب السياسية فرأوا فيها وسيلة يتذرّعون بها للوصول الى غايتهم القبليّة، وكان اتصاهاهم بالخلفاء والولاة والزعماء بقدر ما في ذلك من منفعة لمصالح قومهم، وإن أخلصوا للخلفاء احياناً كما فعل الاخطل؛ ولذلك اضطربت مواقفهم،

(١) انضم الاخطل الى الامويين على قيس عيلان اعداء قومه التغلبيين، ثم انضم الى الفرزدق على جرير لان جريراً كان لسان القيسيّة على تغلب . وكان الفرزدق قيميّاً . وجرير اخذته قيس عيلان وإن لم تفصله عن قومه تماماً .

وتبدأت احوالهم، فزى الفرزدق مثلاً يمدح آل المهلب ثم يهجوهم، والاخلط يشيد
بمآثر الامويين ثم ينذرهم ويتوعدهم . وكان هؤلاء الشعراء يضمون الى غايتهم
القبليّة منفعتهم الشخصية، فشغلوا بالمدح والهجاء في سبيل العيش .
أما شعرهم فهو يتّصف بالمتانة الجاهلية، والفخامة القديمة، ويشيع
فيه الغريب .

الأخطل

١ مائة :

١ - مولده ونشأته : ابو مالك رِغِيَاث بن غوث بن الصلت الملقب بالاخطل،
وبذي الصليب لنصرانيته وحمله الصليب، من قبيلة تغلب من ربيعة . وُلِدَ في
الحيرة نحو سنة ٦٤٠ م / ٢٠ هـ ، وحرم أمه صغيراً، فأساءت اليه زوج ابيه اذ
كانت تسترعيه أغراً لها وتجوّعه . إلا انه نشأ متعلّماً من مفاخر قومه واخبارهم
وأيامهم ؛ وداعب الشعر فهجا زوج ابيه، كما هجا كعب بن جعيل شاعر تغلب
وأخمله .

٢ - شاعر أميّة :

١ انصاليهم : خرج معاوية من صفين مستأثراً بالخلافة، فخضعت الانصار
ولكن على مَضَض ؛ وقد واصل شعراؤهم هجو أميّة فكان من خلفائها تسامح
وإغضاء . وكان في احد الايام ان عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري شبّب
برملة بنت معاوية، فغضب اخوها يزيد وسأل كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار،
فأماله الى الاخطل النصراني والاخلط لا يزال فتى . فهجا الأنصار برائيته اللاذعة
التي يقول فيها :

دَهَبَتْ قَرِيْشٌ بِالْمَكَارِمِ وَالْعُلَى وَاللُّؤْمُ نَحْتَ عَمَارِ الْأَنْصَارِ

فطلب الأنصار معاقبة الاخطل فنجا على يد يزيد ؛ ومن تلك الساعة اتسع

ميدان التهاجي بين الأخطل وشعراء الانصار ولاسيا النعمان بن بشير . وهدد الانصار معاوية، فدافع الاخطل، وصار من ذلك الحين يوق أمية ولاسيا وان في ذلك مصالح قومه احلاف الأمويين .

٢ في عهد معاوية وزيد (حتى سنة ٦٨٣ م / ٦٤ هـ) : توثقت علاقات الشاعر مع بني أمية، فتقلب في بلاطهم بدمشق، ناعماً بالخطوة والإكرام ؛ حتى اذا ولي يزيد الخلافة اجل معاملته وجعله رفيق حياته، وشرب معه الخمر الطيبة ؛ فمدح الشاعر يزيد بعدة قصائد، ولما توفي رثاه .

٣ في عهد عبد الملك بن مروان (حتى سنة ٧٠٥ م / ٨٦ هـ) : اشتد النشاط السياسي في هذا العهد كما اشتد الصراع بين الاحزاب ؛ وذلك ان قبائل قيس المضرية اقبلت على البلاد عقب ظهور الاسلام فزاحت فيها ربيعة كما زاحت العرب اليمانية، ومالت مع ابن الزبير على بني أمية، فاتفقت مصلحة الأمويين واليمنيين والتغليبين على محاربة القيسية والمضرية في الشام والجزيرة والعراق حتى تم النصر لعبد الملك على مضعب بن الزبير سنة ٦٩١ م . وكان الاخطل في تلك المدة مجرداً لسانه يجالده مع المجالدين، فقربه عبد الملك، ولقبه « بشاعر بني أمية »، و « شاعر امير المؤمنين »، فأخذ الاخطل يتغنى بمدح هذا الخليفة وأقربائه عمر بن عبد العزيز، وابنيه الوليد وسليمان، ثم شاد بذكر عثمان، وهجا اعداء أمية من العلويين وآل الزبير والانصار وبني قيس الذين كسرهم بنو أمية في مرج راهط . وقويت دالة الاخطل على عبد الملك فتدخل في سياسة الخلافة وسخرها لمصلحة قومه .

٤ في عهد الوليد (٧٠٥ - ٧١٥ م / ٨٦ - ٨٩ هـ) : تضاءل عز الشاعر، وأعرض الوليد عن « شاعر أمية »، فقلّت قصائده في الخليفة، وظهر في شعره ألمه النفسي وتشكيه . وقد توفي الاخطل سنة ٧١٠ م / ٩٢ هـ، وله من العمر نحو ٧٠ سنة .

(١) أهم الأيام بين قيس وتغلب هي : يوم ماكسين (لِسليم على تغلب)، يوم الثرثار الأول (لتغلب على قيس)، يوم الحشاك (يوم عظيم لتغلب)، يوم الكحيل ويوم البشر (من اشد الايام على تغلب، وقد أسير الاخطل واستطاع ان يتملص) .

٢ **نفسه** : الاخطل شاعر بدوي عاش في قصور الخلافة، وتقلب في ظل الملك .
فكانت اخلاقه اخلاق رجل البلاط مع أن نظوته الى الحياة كانت
نظرة البدوي الذي يؤثر الرحيل والتنقل على الإقامة بدمشق .

وكان الاخطل رجل انفة وعزّة ورثها عن أصل ضخم المجد وعن نفس نزوع
الى المعالي، وقد ظهرت أنفته في عقته التي ترهته عن التبذل والفحش في القول ؛
وبدّت فيه العزّة جرأة شديدة، واقداماً خوله في قومه وفي الدولة نفوذاً عظيماً،
وحبب اليه المغامرة التي تستهين بالمخاطر . وقد قرن الإقدام والجرأه الى الدهاء
والاطلاع الواسع على طرق المناقشات الحزبية .

واجتمعت صفاته تلك الى لين يجعله يخضع لرؤساء دينه خضوع الطفل الساذج ؛
وإلى اخلاص لقومه وللخلافة الأموية .

ولكنه الى ذلك كان رجلاً يرى في الراح روحاً للنفس والجسد، ومصدراً
للإلهام الشعري، فهي في نظره تنعش الفؤاد وتنطق الشعراء . فاحبها وعاقرها
وان ما ورد في شعره من أوصافها لدليل على معرفته بها معرفة خبير ذي تجربة .

٣ **آثاره** : الاخطل ديوان كبير ضبطه ونظمه ابو سعيد الحسن المعروف
بالسكّري، وعني بطبعه الاب انطون صالحاني اليسوعي في بيروت
سنة ١٨٩١ ثم سنة ١٩٠٥ . وقد طبعت القصيدة التي مطلعها :

خَفَّ القَطِينُ فَرَا حَوَا مِنْكَ أَوْ بَكَرُوا وَأَزْعَجَتْهُمْ نَوَى فِي صَرْفِهَا غَيْرًا

في ليدن مع ترجمة لاتينية سنة ١٨٧٨ . وفي سنة ١٩٢٢ نشر الاب انطون صالحاني
اليسوعي « نقائض جرير والاخطل » .

(١) خَفَّ : ارتحل في إسراع . القَطِينُ ج قاطن : سُكَّان الدَّار . راحوا : ذهبوا في
العَشِيِّ . بكرُوا : ذهبوا بُكْرَةً . أَزْعَجَتْهُمْ : أقلقَتْهُمْ وقلعَتْهُمْ من مكانهم فذهبوا . النَّوَى :
البعد . الصَّرْفُ : نواب الدهر . غَيْر الدهر : أحداثه المُغْيِرَة .

وأما أغراض شعر الأخطل فالمدح والهجاء والفخر والوصف والتجريبات؛ وله بضعة أبيات في الرثاء لم يوفق فيها، كما له غزل تقليدي يفتتح به القصائد عادة .

٤- الأخطل شاعر السياسة (المدح - الهجاء) :

١ - الدواعي الى شعر السياسة : 'شغل الأخطل بقومه شغلاً اضطره الى ممالأة الامويين، ومناهضة القيسيين، فانضم الى بني أمية، وكانوا بحاجة الى شعراء يذودون عن حياضهم، ويكونون صحافيين حزبهم، فينادون بحقهم في الخلافة، ويعلنون جدارتهم، ويفحمون خصومهم .

وكانت حاجة معاوية وابنه يزيد الى شاعر مبدع حاجة ملحة . فقد رأى الناس ينكرون على أمية الحق بالخلافة، ويعدونهم مغتصبين . فأقام معاوية البرهان على حقه، وبين ان عثمان قتل ظلماً وأن أمية التي كان منها خليفة بالمطالبة بدمه، وبوراثته الخلافة بعده، وأن معركة صفين كانت اعلاناً من الله لذلك الحق . وكان صاحب دمشق السفيفاني ينتظر من شاعر بلاطه ما ينتظره صاحب الدعوى في أيامنا هذه من محاميه الذي يدافع عن قضيته بسهر وتتبع، ويطلب منه ان يكون المحامي عن الخلافة والعرش الاموي، فيجعل شعره صحيفة سيارة تذيع في جميع الاقطار حقوق بني أمية . وفي عهد عبد الملك بن مروان اشتدت حاجة الخلافة الى الشاعر لنشاط الاحزاب، واشتدت لهجة الشاعر بسبب ما ناله في البلاط من حظوة، وبسبب ما لمسه من شدة حاجة البلاط اليه، وبسبب ما يعرف له ولقبيلته من افضال على عرش أمية . وقد مزج في كلامه المدح بالفخر وجعل دونه ودون الخصوم ترس الهجاء الذي يقض مضجع الهاشميين وغيرهم المتألمين على عرش الدولة .

٢ - وسائل سياسته : وكانت وسائل الأخطل في سياسته جميع اغراض

شعره . فالسياسة كانت غرضه الرئيسي؛ وكان اذا مدح او هجا يتطلب السياسة؛ وكان اذا وصف أو تغزل او فخر يجعل ذلك وسيلة بين يدي المدح السياسي أو الهجاء السياسي .

١ المدح : لم تكن غاية الاخل في المدح تعداد الفضائل والاعجاب، انما كانت سياسية تقوم بإثبات قضية حيوية هي قضية شرعية الخلافة الاموية، وتقديم البرهان عليها بحجة لا تُقرع، وبيان لا يُجاري، ولغة هي من انصع ما في العربية الجاهلية وأجزلها . هذا ما رمى اليه الاخل عندما اخذ على عاتقه مناصرة الامويين .

الامر الاول الذي كان لا بُدَّ من إثباته هو انتقال الخلافة انتقالاً قانونياً الى امية . وقد اتخذ الاخل لتبينه حجج بني امية نفسها، فأظهر أن خلافتهم من الله وان امير المؤمنين هو خليفة الله وان خلافته من ثم مقدسة ؛ والدليل على ذلك ان الله خول الامويين الظفر في يوم صفين إذ لهم ان يرفعوا المصاحف، وأعطاهم ان يثأروا هكذا لدم عثمان الذي قتله علي في رأيهم ، وان يرثوا الخلافة من عثمان الذي هو من امية :

إلى أمرى لا تُعدّينا نوافله أظفروه الله، فليهنأ له الظفر
أخاض النمر، والميسون طائره خليفة الله يستسقى به المطر
نمت جدودهم والله فضلهم وجد قوم سوامهم خامل نكد
هم الذين أجاب الله دعوتهم لما تلاقت نواصي الخيل فاجتلدوا
ويوم صفين، والأبصار خاشعة أمدهم، إذ دعوا، من ربهم مدد
على الأولى قتلوا عثمان مظلمة لم ينههم نكد عنهم وقد نشدوا

والامر الثاني يريد الاخل إثباته هو ان بني امية اجدر الناس بالخلافة . فيمدحهم إجمالاً وإفراداً ، ويمدح منهم ، فضلاً عن الخلفاء ، عبد الله بن

(١) لا تُعدّينا : لا تفوتنا . النوافل ج نافلة وهي العطية . فليهنأ له الظفر : اي هنيئاً له الظفر
(٢) القمر : معظم البحر، استعاره للامور العظيمة والحرب الشديدة . الميسون طائره : كناية عن الخط السعيد . يستسقى به المطر : اي يطلب نزول المطر بالدعاء باسمه (٣) الجدود ج جد وهو الخط . الخامل : الساقط . النكد : القليل الخير (٤) النواصي ج ناصية وهي مُقدم الرأس . اجتلدوا : تضاربوا بالسيوف ؛ يُشير الى موقعة صفين (٥) المظلمة : الظلم . نشده بالله إلا فعل كذا : اي طلب اليه بالله .

معاوية، وبشر بن مروان، وخالد بن يزيد بن معاوية، وعبدالله بن سعيد بن العاص،
ويمدح الحجاج الثقفي لانه امير اموي، ويمدح غيرهم، مظهراً في كل مدائحه هذه
أن بني أمية قد اتصفوا بكل ما يؤهلهم للخلافة من شرف اصل، وقوة، وعُدَّة،
وحسن سياسة، ونظام، وحِلْم، وجود وما الى ذلك .

أما اصلهم فلا يضاھيهم فيه احد :

وَأَنْتُمْ أَهْلُ بَيْتٍ لَا يُوَارِثُهُمْ بَيْتٌ إِذَا عُدَّتِ الْأَحْسَابُ وَالْعُدَدُ

وأما صلابتهم وسطوتهم فشديدتان مجتمعتان الى الحلم عند المقدرة :

شَسُّ الْعِدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَّرُوا

وأما جودهم فهو اوسع من الفرات « إذا جاشت حواليه » ، وانعامهم فهو
سليب من الله :

قَوْمٌ إِذَا أَنْعَمُوا كَانَتْ قَوَائِلُهُمْ سَيِّبًا مِنْ اللَّهِ ، لَا مَنْ وَلَا حَسَدٌ

وهم الى كل ذلك لا تبطوهم النعمة ولا يفسدهم الملك :

لَمْ يَأْثُرُوا فِيهِ إِذْ كَانُوا مَوَالِيَهُ ، وَلَوْ يَكُونُ لِقَوْمٍ غَيْرِهِمْ أَثَرُوا

حُسْدٌ عَلَى الْحَقِّ ، عَيَّافُوا الْخَنَا أَنْفٌ إِذَا أَلَسَتْ جِصْمَ مَكْرُوهَةٍ صَبَرُوا

وهكذا كان الاخطل بمدحه ناشراً لدعوة بني أمية، مظهراً فضلهم، مبرراً
اعمالهم ؛ وذلك عن اخلاص لانه رأى في أمية الكفاءة، وإن لم يخلُ ذلك الاخلاص
من العمل في سبيل مصالح قبيلته التي فرضت عليه التحيز الى أمية .

والاخطل في مدحه شديد الدهاء يذكر ما يرضي ويستميل الممدوح ، بل ما

(١) شس العداوة : اي العسرون في عداوتهم . استقاد له : خضع . الاحلام ج حلم وهو الصبر
والأنفة (٢) الفواضل : النعم الجسيمة . السيب : العطاء . المن : الفخر بالإحسان المعمول
والتقريع به (٣) أثر : بطر . فيه : اي في الخط . مواليه : اي اصحابه واهله (٤) حُسْدُهُ
على الحق : مجتمعون عليه ومتعاونون على نصرته وعمله . الخنا : الفحش ؛ عيافو الخنا : اي شديدا
الابتعاد عنه والكره له . الأنف ج أنوف : وهو الشديد الأنفة والاباء .

يستميله اليه استمالة شديدة، ولا يذكر عن حزبه المساوي بل يسترها ويغطي عليها بالأفضال والشمايل .

واسلوبه في مدحه هو الاسلوب القديم مصبوغاً بصبغة السياسة ، من افتتاح بالغزل والتخلص منه الى الممدوح وذكر صفاته وصفات قومه ؛ ويتخلل المدح هذا فخر يأتي به الشاعر لتبيان خدماته وخدمات قومه في سبيل بني أمية ؛ ويدسُّ خلال ذلك رأيه السياسي لمصلحة قومه . بل تقوده مصلحة قومه الى الغضب في حضرة عبد الملك وإنذار الامويين، بعد يوم « البشر »، بالانحراف عنهم اذا لم يكفوا قيس عيلان ؛ وتقوده الى نصح اصحاب العرش بالألا يستنجيوا الى القيسية وألا يقرّبوا اليهم زُفر بن الحارث رئيسها، بل يعزفوا عنه ولا يطعنوا الى مصالحته .

٢ الهجاء : إن موقف الاخطل من بني أمية ومدحه لهم ساقاه الى الهجاء . وكان هجاؤه مزدوج الغاية يرمي به الى الدفاع عن امية كما يرمي به الى الدفاع عن نفسه . فهو من جهة شاعر الدولة لا بُدَّ له من ردّ اقوال الاعداء، ومن استمالة الرأي العام عليهم . وهو من جهة اخرى هَدَفُ لهجاء جرير فكان لا بُدَّ له من الردِّ عليه .

ولما كان قوم جرير من أحلاف الزُبيريين مع قيس عيلان على بني أمية، امتزجت

(١) كان سبب تهاجي جرير والاخطل انه لما بلغ الاخطل تهاجي جرير والفرزدق قال لابنه مالك : « انحدر الى العراق حتى تسمع منهما وتأتيني بخبرهما » . فانحدر مالك حتى لقيهما وسمع منهما ثم اتي اياه . فقال له : « كيف وجدتتها » . قال : « وجدتُ جريراً يغرف من بحر ووجدتُ الفرزدق ينحت من صخر » . فقال الاخطل : « الذي يغرف من بحر اشعرهما » . وفضّل جريراً على الفرزدق . فلما قدم الاخطل على بشر بن مروان اخي الخليفة في الكوفة بعث اليه قوم الفرزدق بهدايا وقالوا له : « لا تُعِنْ على شاعرنا واهج هذا الكلب الذي يهجو بني دارم، فإنك قد قضيت على صاحبنا، فقل اياتاً واقض لصاحبنا عليه » . فقال الاخطل :

أَجْرِيرُ إِنَّكَ وَالَّذِي تَسْمُو لَهُ كَأَسِيفَةٍ فَخَرَّتْ بِحِدَجِ حَصَانٍ

فردّ عليه جرير ؛ ومنذ ذلك الحين اشتعلت نار العداوة بين الشاعرين . وكان الخلفاء يذكرون نار الهجاء ليشغلوا الشعراء والقبائل بأنفسهم حتى لا يفرغوا للحكومة ويناقشوها الحساب .

مصلحة الشاعر بمصلحة أُمّية . وهكذا هجا الاخطل الانصار أوّلاً ونال من النعمان ابن بشير ؛ وهجا الزُبَيْريين وأشياهم ولاسيا قيس عيلان اعداء تغلب، وبني كُليب ابن يربوع قوم جرير ؛ وهجا الجحّاف وزُفر بن الحرث رئيس القيسية الذين ثارا مدّةً على أُمّية، منتقماً منها لأُمّية ولقومه ؛ وكان في كل ذلك مؤيّداً لعرش دمشق :

فأَنَّهُ لَمْ يَرْضَ عَنْ آلِ الزُّبَيْرِ وَلَا عَنْ قَيْسِ عَيْلَانَ حَيًّا طَالَمَا خَرَبُوا
يُعَظِّمُونَ أَبَا الْعَاصِي وَهُمْ نَفَرٌ فِي هَامَةِ مِنْ قُرَيْشٍ دُوْحَا شَذَبُ^٢

وكان هجاء الاخطل يأتي عادةً بعد المدح او بعد مقدمات غزليّة وفخرية، ويدور حول التعبير بالبخل وهتك الجيرة، ووصف الهزيمة وما لحق الخصم من مذلة وصغار، وتفضيل قوم على قوم كتفضيل بني دارم قوم الفرزدق على كُليب قوم جرير، وتقنيد اقوال الاعداء ووصف ضعفهم وعدم كفاءتهم للملك، وحضّ على تأديب المشاغبين الثائرين على النظام القائم ؛ وكان الاخطل، إذا تناول بالهجاء قوم جرير، لم يشمل سائر بني تميم مراعاةً لحليفه الفرزدق الذي كان من تميم ايضاً، بل يرجع كل خزي بني تميم الى كليب بن يربوع قوم جرير ؛ وهو لا يتعرض لمُضَرّ بسوء لانّ محمداً والخلافة منها .

وكان هجاء الاخطل دفاعياً اكثر منه هجومياً، ومؤملاً من غير فحش، يطعن بالقبيلة اكثر مما يطعن بالفرد . وقد لجأ هو وجرير الى فنّ النقائض^٣ في قولهما، فاتسع ذلك الفن اتساعاً كبيراً .

(١) خَرَبُوا : سرقوا (٢) يُعَظِّمُونَ : يُفَاخِرُونَ . في هامة ... : معنى «في» هنا المقايسة، وهي التي تفضّل فاضلاً لاحقاً على مفضول سابق . يقول : ما هم إلا نفَرٌ بالقياس الى هامة قريش . الشَذَبُ : الشوك ؛ دونها شَذَبَ : كما يقال دونها خرط القتاد، أي امره صعب (٣) النقائض فنّ يقوم بأن يتّجه شاعر الى آخر بقصيدة فخر او هجاء، فيردّ عليه الآخر ملتزماً ما اخاره الاول من بحر وقافية وروي . ففي النقائض وحدة في الموضوع ووحدة في الموسيقى . وقد عُرف هذا الفن قبل الاسلام وعظم شأنه واتسع في عهد بني أُمّية . وطُرق النقائض هي : القلب (وهو ان يقول الشاعر هاجياً فيردّ عليه الثاني قابلاً عليه معانيه ذاتها، مدّعياً انها من صفات الاول) ؛ والمقابلة (وهي ان يضع الثاني من المفاخر والمثالب ضروباً تُقابل ما وضع الاول) ؛ والتوجيه (وهو ان تحدث حادثة فيتناولها الشاعران، وكل واحد يفسرها تفسيراً يؤيّد موقفه في الفخر والهجاء) ؛ والتكذيب (وهو ان يدّعي كل شاعر لنفسه او لقومه ماثرة بعينها، ويدفع عنها زميله) ؛ والوعيد والسماتة .

٣ الفخر : اصطبغ فخر الاخطل بالصبغة السياسية فكان ناحية من نواحي المدح والهجاء السياسيين، يُدخله الشاعر في المدح لإظهار اهتمام التغلبيين لبني أمية، وخدماتهم لأصحاب العرش؛ ويُدخله في الهجاء للدفاع عن كرم أصله وطيب عنصره وإظهار تفوقه على خصمه .

وقد أضاف الاخطل الى نزعة فخره السياسية نزعة الجاهلية التي تعتمد في الفخر الى تعداد الاجداد القبليّة من رجال عظام أشداء كانوا شرفاً للقبيلة، وأيام كان الظفر فيها حليفها، وصفات جعلت القبيلة فوق غيرها؛ ومن وصف للمواقع فيه نفس ملحميّ وغلوّ حماسي، الى غير ذلك مما عهدناه في الشعر الجاهلي؛ قال يفاخر جريراً :

وَدَّتْ نَمِيمٌ بِالْكُلَابِ لَوَ أَخَا بَاعَتْ هُنَاكَ زَمَانًا بِزَمَانٍ
وَالْحَيْلُ تُرَدِّي بِالْكُفَاةِ كَأَنَّهَا يَوْمَ الْكُلَابِ، كَوَاسِرُ الْعُقَبَانِ
بِرِّجَالٍ تَغْلِبُ كَالْأَسُودِ، وَمَعَشَرٍ قَتَلُوا طَرِيفًا فِي بَنِي شَيْبَانَ

٥ الاخطل شاعر الوصف والحمر : الاخطل من الذين تتبّعوا منهج المدرسة الأوسية الجاهلية في الشعر، فقد راقه اسلوب زهير وابنه كعب، وراقه بنوع خاص اسلوب النابغة الذبياني، ورأى نفسه قريب الصلة بالنابغة لتشابه موقفه في بلاط أمية من موقف الذبياني في بلاط الحيرة وغسان؛ فاراد ان يقلّده في امور كثيرة منها الوصف، في موضوعاته واساليبه .

١ - الوصف : أوغل الاخطل في وصف حيوان الوحش محاكاة لشعر الجاهليين، ولان البادية، بوحشها وطيرها وفلواتها، كانت هواه ومقامه في صباه؛ ووصف الى جنب البادية بعض مشاهد الفرات تنحدر في عبابه السفن .

واسلوب الاخطل في وصفه هو اسلوب النابغة بما فيه من استدارات قصصية،

(١) الكلاب : موضع قرب البصرة انتصرت فيه تغلب على قميم .

وبما فيه من تصوير حسي ودقة في ذلك التصوير . قال في وصف حرباء :

يَظَلُّ مُرْتَبِيًّا لِلشَّمْسِ تَصْهَرُهُ إِذَا رَأَى الشَّمْسَ مَالَتْ جَانِبًا عَدْلًا
كَأَنَّهُ، حِينَ يَمْتَدُّ النَّهَارُ لَهُ إِذَا اسْتَقَلَّ، يَمَانٍ يَقْرَأُ الطُّوْلَا^٢

٢- الخمریات : أما خمریات الاخطل، وهي قسم من وصفه، فإنها من الطف شعره، وقد حفل بها ديوانه، وإن لم تأت مستقلة، وإن لم تُنظم القصائد برمتها فيها . وهي تأتي عادة في قصائد المدح أو الهجاء ؛ وقد يفتتح بها الشاعر قصائده ؛ ويبدو من الاخطل اندفاع وشغف كل مرة يعرض للخمرة في كلامه، وذلك لأنها تحتل في حياته مكاناً واسعاً . وهو يُطنب في وصفها فيتبعها من مصدرها، ثم يصف صنعتها، وتعتيقها، وحفظها في الزقاق، وحانوتها، وطرق الحصول عليها، ولونها، ورائحتها المسكية، وحركتها :

فَصَبُّوا عُقَارًا فِي إِنَاءٍ كَأَنَّهَا، إِذَا لَمَحَوْهَا، جَذْوَةٌ تَنَأَّ كَلُّ^٣

ويصف شربها وتأثيرها، وإذا هي تدب في العظام ديب النمل :

كَدَبُ دَيْبٍ فِي الْعِظَامِ كَأَنَّهُ دَيْبُ نَمَلٍ فِي نَقَا يَتَهَيَّلُ^٤

ولما سأل عبد الملك الاخطل عن مبلغ الشراب أجاب :

إِذَا مَا نَدِيمِي عَلَنِي ثُمَّ عَلَنِي ثَلَاثَ زُجَاجَاتٍ لَهْنٌ هَدِيرُهُ
خَرَجْتُ أَجْرُ الذَّلِيلِ زَهْوًا كَأَنِّي عَلَيْكَ، أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَمِيرُ^٥

ويمتاز وصف الاخطل للخمرة بالدقة والشمول . ولو اتى في قصائد مستقلة لكان الاخطل شاعر الخمرة قبل أبي نواس .

(١) المرتبي : الذي على رابية أو مرتفع . تصهره : تحرقه وتذيبه (٢) امتدَّ النهار : ارتفع . الطول : ما طال من السور، واحدها طول ؛ أي كأنه يأتي بصلتي مطيلاً صلاته .
(٣) الجذوة : الجرة . تنأكل : يأكل بعضها بعضاً (٤) النقا : ما ارتفع من الرمل . يتهَيَّل : يتصبَّب ويجري (٥) النديم : الذي يجالس على الشرب . علني : سقاني تبعاً
(٦) الزهو : الكبرياء .

٦ فن الاخطل : كان الاخطل ينتمي في الادب الى مدرسة زهير وابنه كعب والخطيئة، وكان متلهذاً بنوع خاص للنابعة الذبياني، فكان شاعر الخيال الحسي الذي يهيمن عليه العقل، يعتمد على مخيلته وعقله اكثر مما يعتمد على عاطفته؛ وكان الشعر عنده طبعاً وصناعةً، فلا ينقاد فيه إلى تدفق الطبع وحده بل يتناول كل بيت من ابياته بالتهذيب، فيحكم فيه التعبير والتصوير، ويحذف الفضول؛ ويتناول كل قصيدة من قصائده فيعمل فيها النقد أيضاً، حتى جاء شعره بمجمله حسن السبك، جزل العبارة، على طول نفس الشاعر، قد عمل في اسلوبه العقل وأحكمته الأناة . وأخذ الاخطل عن المدرسة الأوسية طريقة التشبيه، كما أخذ ترتيب المعاني، وتهذيب الشعر وإحكامه، وتعدى ذلك إلى أخذ بعض عبارات لهم برمتها؛ وإلى معارضة بعض قصائدهم .

٧ منزلته : للاخطل منزلة ادبية ومنزلة تاريخية. أما منزلته الادبية فهي ملخصة في الكلمة التالية لاصحاب المجلد، قالوا فيها : « ان حياة الاخطل وما أحاط بها من الظروف المختلفة ضمنت له التفوق في فنون من الشعر لم يكده يبلغ حظها منها شاعر من الذين عاصروه . فقد كان يحكم اتصاله بالقصر وانقطاعه للامراء والخلفاء أمدح أهل عصره للملوك . وكان يحكم هذا الاتصال أيضاً أقدر أهل عصره على التضال السياسي . وكان يحكم حياته الخاصة في قبيلته، واشتراكه الفعلي في ما كان يعرض لهذه القبيلة من بأس الحرب ولين السلم، أقدر أهل عصره على وصف الحرب وتصوير ما يعرض فيها من الهزيمة والانتصار . وكان يشرب الخمر ويسرف في شربها ويستعين بها على قول الشعر فكان أقدر أهل زمانه على وصفها لاسيما وان كبار الشعراء في ذلك العصر أعرضوا عن وصفها » .

وأما منزلة الاخطل التاريخية فهي عالية، لان شعره ديوان وعى آثار الجاهلية وتزعات عصره . فقد حوى اخبار قبيلته وأخبار قوم حليفه الفرزدق، كما حوى اخبار خصمه جرير . وشعره سجل يطلعنا على سياسة العرش وأحوال البلاط، وعلى تناحر الاحزاب واشتداد العصبية في ذلك العصر .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- احمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي - القاهرة ١٩٤٥
 » » : تاريخ النقائض في الشعر العربي - القاهرة ١٩٤٦
 الاب انطون صالحاني : ملحق « شعر الاخطل » - بيروت ١٨٩١
 فؤاد افرام البستاني : الاخطل - الروائع ٣٤، ٣٥، ٣٦ - بيروت ١٩٤٠
 حنا نمير : الاخطل - الطرائف ٦
 الاب لويس شيخو : شعراء النصرانية بعد الاسلام : شعراء الدولة الاموية، الاخطل
 التغلي - المشرق ٢٢ ص ٩١٨ - ٩٢٦ و ٩٦٦ - ٩٧٨
 احمد الشايب : الاخطل - لغة العرب ٦ (١٩٢٨) ص ٤٠١ - ٤٠٧

٢ المراجع الاجنبية :

- H. Lammens : Akhtal, in Encycl. de l'Islam, t. I, 238-239.
 H. Lammens : Le Chantre des Omiades, Paris 1895.
 H. Lammens : Un poète royal à la cour des Omiades de Damas (extrait de la Revue de l'Orient Chrétien 1904).

موضوعات للبحث

- ١ - هل من وجه للمقابلة بين النابغة والأخطل ؟
- ٢ - كانت الصحف الكبرى في العهد الاموي ثلاثاً : جريراً والفرزدق والاخطل . فاختار الامويون الاخطل ليكون شعره صحيفتهم . وقد وجدوا فيه ضالّتهم، وسمّوه شاعرهم، واحتملوا ان يشرب حتى في منازلهم وان يُبدلّ عليهم . اوضح ذلك ؛ وبيّن كيف قام الاخطل بمهمّته وهل نجح فيها .
- ٣ - الاخطل شاعر الخمر في العهد الاموي . اوضح الدرجة التي بلغها الشعر الخمري معه .
- ٤ - شعر الاخطل مرآة للحالة السياسيّة في عهده . اوضح ذلك .
- ٥ - اعمد الى قصيدة الاخطل « خفّ القطين » واستخلص ما فيها من معلومات تاريخيّة ومن ميزات فنيّة .

شعر السياسة

الفصل الثاني

الفرزدق (٦٤١ - ٧٣٢ م / ٢٠ - ١١٤ هـ)

١ حياته : وُلد الفرزدق في البصرة في بيت اصل وشرف، ونشأ فاسقاً . ولم يكن له كبير حظ عند ولاة العراق لحُبِّ لسانه بل كانت حياته مضطربة، وكان هو يتقلب من مكان الى مكان، ومن حال الى حال، ومن مشايعة هذا الى مشايعة ذاك، يمدح ثم يهجو، او يهجو ثم يمدح؛ وشبَّت بينه وبين جرير حرب لسانية دامت نحو خمسين سنة . وتوفي الفرزدق في البصرة سنة ٧٣٢ م / ١١٤ هـ .

٢ نفسيته : كان الفرزدق رجل شهوة، فاقد الإخلاص، هزيل العقيدة الدينية والسياسية، فخوراً حتى التبه، شديد التعصب لقومه .

٣ آثاره : ديوان اشتهرت منه النقائض . واغراض شعره المدح والرهاء، والفخر والهجاء، والوصف والغزل .

٤ الفرزدق شاعر النضال السياسي :

١ - نزعة الفرزدق في سياسته : نزعة قومية، فنزعة اقليمية، ثم نزعة سياسية عامة . فقد اتصل الشاعر بالبلاط من اجل قومه، وتدرج في اتصاله الى ان اخذ في مدح الامويين واطهر مشاركته لهم في نظريتهم السياسية، معلناً حقهم في الخلافة وجدارتهم لها، وهو يرمي من وراء ذلك الى التكسب وخدمة المصالح الشخصية والقومية .

٢ - المدح : مدح الامويين وعمّالهم كما مدح زين العابدين، وكان مدحه صورة لنزعة الجاهلية، وبيئته الاموية، ونفسيته الخاصة .

٥ الفرزدق شاعر النضال الادبي : كانت ميزة الهجاء الاولى عند الفرزدق الفخر . وكان الفخر اقوى سلاح له؛ وموضوع فخره نفسه وقومه؛ وكان اذا فخر اشتدَّت لهجته وقويت عبارته واتسعت آفاقه .

وهجاؤه بذية فاحش . هجا ابليس وكان هجاؤه فيه طريفاً .

٦ الفرزدق شاعر الوصف : كان الفرزدق من ابرع الوصّافين في العهد الاموي . يمتاز وصفه بالدقة وحسن التصوير، وبالقصص .

اما غزله فشهوائي غليظ .

٧ فته وقيمة شعره التاريخية : اسلوب الفرزدق بدوي غليظ الالفاظ، شديد الجرّس؛ وشعره لا يأتي عن طبع حيّ متدفق . ولشعره قيمة تاريخية كبرى لما حوى من معلومات عنه وعن قومه وقوم خصمه جرير وعن أمية .

١ مَبَاز :

١ - مولده ونشأته : أبو فراس هَمَّام بن غالب بن صَعَصَعَة، الملقَّب بالفرزدق، وُلد بالبصرة نحو سنة ٦٤١ م / ٢٠ هـ . من أبٍ ذي وجاهة وكرمٍ ينتمي الى مُجَاشِع بن دَارِم من تَمِيم . وكان اجداده من أشرف بيبوت تَمِيم، ومن ذوي المآثر الحميدة بين العرب . فنشأ الفرزدق في ذلك البيت مزهواً بأجداده ، وكانت نشأته بدويّة كما كانت اخلاقه بعيدة عن أخلاق أشرف العرب، فاندفع وراء الفسق والفُجور، مَزُوجاً مطلقاً، لا يشبث على حال . ومن النساء اللَّائِي يذكُرهنَّ في شعره النَّوَار، التي تَرَوَّجها مُرغمة، وكان له منها نحو عشرة بنين وبنات، ثم طَلَّقها مُرغماً لاستغاثتها عليه بجرير خصمه .

٢ - حياة مضطربة : لم يكن للفرزدق، على شهرته وكرم أصله، كبير حظّ عند أكثر ولاة العراق لتقلُّبه وخبث لسانه . وكان بنو أمية وعملهم قليلي الثقة به والاطمئنان الى ولائه . ففي عهد معاوية احتكَّ الشاعر يزيد بن ابيه، عامل معاوية على البصرة، فتهدَّده زياد، فتشرَّد من البصرة الى المدينة فمكَّة فاليمن فالبحرين ففلسطين فدمشق فالرَّصافة، ومدح وهجا؛ ولما مات زياد هجاه الفرزدق وهجا مَنْ رثاه . ثم مدح آل الزُّبير، وسَمَّى عبدالله « خليفة »، وما إنْ غلبوا على امرهم حتى انقلب عليهم وهجاهم . وهجا الحُجَّاج ثم استولى عليه الخوف فعاد الى الاعتذار معترفاً بحقّ بني أمية . ولما مات الحُجَّاج رثاه ثم هجاه في قبره ليؤيِّد حق سليمان بن عبد الملك الذي كان الحُجَّاج يأبى مبايعته . وفي عهد الوليد حجج الشاعر وأنشد قصيدته في زين العابدين حفيد عليّ وأظهر عدم إخلاصه لِأُمِيَّة، فحُبِس . ثم اتَّصل بسليمان بن عبد الملك ومدحه وسَمَّاه « المهدي » . ثم هجا آل المهلب - وكانوا قوَّاداً في الدولة - ثم مدحهم، ثم عاد فهجاهم . ولما بويع هشام بن عبد الملك بالخلافة أتاه الشاعر مادحاً بعد إذ هجاه اميراً . وهكذا كان متقلِّباً في المبدأ، متقلِّباً في العاطفة، لا يطلب غير المنفعة؛ وكانت حياته لذلك في اضطراب وقلق .

ولم ينحصر الاضطراب في حياة الفرزدق الاجتماعية والسياسية، بل نال ايضاً

حياته الادبية، إذ شَبَّت بينه وبين جرير حرب لسانية دامت نحواً من خمسين سنة، كان الباعث عليها تهاجر بين جرير والبعيث المجاشعي . وقد أخش جرير القول في نساء مجاشع فاستنهض عليه الفرزدق . وكان لتلك الحرب صدى واسع في البلاد، وضع بها المربد، وانقسم الناس فرزدقياً وجريرياً، ولم يشهد تاريخ الادب شاعرين تهاجيا بمثل ذلك، وقد تدفق عليه سيل من الشعر الهجائي ومن النقائض .

٣ - وفاته : وتوفي الفرزدق بالبصرة نحو سنة ٧٣٢ م / ١١٤ هـ . وقد نيّف

على التسعين .

٢ تقسيم : الفرزدق رجل شهوة فاجرة صارخة استوات على قلبه فافقدته الاخلاص في المودة حتى لأدنى الناس اليه كأولاده؛ وكان هزيل العقيدة الدينية، وإن أظهر التقوى وهجا إبليس؛ متقلباً، في نزغته السياسية، يتظاهر مع الأمويين اذا قضت الحال، ويضمر الولاء للعلويين، ويتتبع في كل حال ما فيه مصلحته . وكان الى ذلك فيخوراً حتى التيه والخروج عن الرصانة وجباناً متبعجاً، كما كان شديد التعصب لقومه حريصاً على إعلاء مآثرهم، لا يرضى عن هضم حقوقهم، دائماً متأهباً للدفاع عنهم حتى لدى ذوي السلطان، وسلاحه في ذلك مدح لمن جاره وهجاء لمن خالفه .

٣ آثاره : للفرزدق ديوان طبع قسم منه في باريس سنة ١٨٧٠، وطبع القسم الآخر في مونيخ سنة ١٩٠٠ . ثم تعددت طبعاته في مصر ولبنان . ونشرت نقائض جرير والفرزدق في ليدن سنة ١٩٠٥ - ١٩١٢ في مجلدين كبيرين، ومجلد ثالث تضمن الفهارس . وأما اغراض شعر الفرزدق فهي جميع اغراض الشعر الجاهلي من مدح ورثاء، الى فخر وهجاء، الى وصف وغزل .

٤ الفرزدق شاعر النضال السياسي (المدح - الرأى ...) : كانت حياة الفرزدق مصطبغة

بصبغة النضال السياسي والادبي، ولهذا اصطبغ شعره بهذه الصبغة نفسها فكان شعر نضال سياسي، وشعر نضال ادبي .

١ - نزعة الفرزدق في سياسته : كانت نزعة الفرزدق في سياسته نزعة قومية ، ولم يتصل بالسياسة العليا إلا عن طريق السياسة القومية ؛ ففي أول أمره كان اعتصامه بقومه اعتصاماً كلياً ، وابتعد عن البلاط الملكي في عهد معاوية وابنه يزيد ومن بعدهما ممن سبق عبد الملك بن مروان . ولئن اتصل بمعاوية فما كان ذلك إلا للاحتجاج على الخليفة الذي ادخل ميراث الحثبات المجاشعي ، عم الشاعر ، في بيت المال .

ولما كان عهد عبد الملك وابنه الوليد لم تتبدل سياسة الفرزدق القومية . فهو يتصل بالبلاط في سبيل قومه ، ويتكلم بلسانهم ، ويسأل الوليد أن يخفف عنهم ما هم فيه من فاقة وضنك :

أَغَثُ مُضْرًّا، إِنَّ السِّنِينَ تَتَابَعَتْ عَلَيْهَا يَحْزَنُ يَكْسِرُ الْعَظْمَ كَاسِرُهُ^١

ويزيد على ذلك المدح لآل مروان ، راجياً بقاء دولتهم ، ودوام عزهم ونصرهم ، ملجأ في طلب العون لقومه ، مصوراً بطش الحجاج ، مظهراً خوفه منه :

أَخَافُ مِنَ الْحَجَّاجِ سَوْرَةَ مُخْذَرٍ ضَوَارِبَ بِالْأَعْنَاقِ مِنْهُ خَوَادِرُهُ^٢

وهو يجمع الى المدح الشكوى من معاملة بعض العمال .

وفي ولاية سليمان بن عبد الملك ازداد الفرزدق نشاطاً ، ولاسيما وإن الحجاج قد مات ، فهجاه بعد ان رثاه ، مؤيداً بهجائه له حق سليمان .

وفي عهد هشام بن عبد الملك شغل الفرزدق بالسياسة الإقليمية الشرقية في العراق وخراسان . وذلك في ولاية خالد القسري اليمني الذي انتقم من مضر لقتل يزيد بن المهلب ، وكان من ضحاياهم عمرو بن يزيد الأسدي التميمي فيثور

(١) الحزب : القطع ، يريد به الضنك الشديد الوطأة (٢) السورة : السطوة والبطش .
المُخْذَر : الرابض في خدره كالأسد . الخوادر ج خاديرة : استعارها الشاعر لبطش الحجاج .

الفرزدق في سبيل مضر كلها بالعراق والشام، ويسأل الخليفة ان ينقذهم من هذه العصبية اليانية^١ ويقول :

فَقُلْ لِبَنِي مَرْوَانَ مَا بِالْذِمَّةِ وَحُرْمَةِ حِلِّ لَيْسَ يُرْعَى ذِمَامُهَا^٢
أَلَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ سَفْكُ دِمَائِنَا بِلا جُرْمَةٍ مِنَّا يَبِينُ أَجْتِرَامُهَا^٣
أَرَى مُضَرَ الْمُضَرِّينَ قَدْ ذَلَّ نَصْرُهَا وَلَكِنَّ قَبَسًا لَا يُذَلُّ شَأْمُهَا
فَفَيْسَرَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهَا يَمَانِيَّةٌ حَقَّقَاءُ أَنْتَ هِشَامُهَا

أما السياسة العامة ، فقد أَلَمَّ بمذهب الأمويين السياسي، وأعلن حقهم بالخلافة، وأنها ستدوم لهم :

أَمَّا الْوَلِيدُ فَإِنَّ اللَّهَ أَوْرَثَهُ بِعِلْمِهِ فِيهِ مُلْكًا ثَابِتَ الدَّعَمِ^٤
خِلَافَةً لَمْ تَكُنْ غَضَبًا مَشُورَتُهَا أَرْمَى قَوَاعِدَهَا الرَّحْمَانُ ذُو النِّعَمِ
كَانَتْ لِعُثْمَانَ لَمْ يَظْلِمِ خِلَافَتَهَا فَأَنْتَهَكَ النَّاسُ مِنْهُ أَعْظَمَ الْحُرَمِ

وهكذا نراه يُنكر تشييعه، على الأقل ظاهرياً .

تلك سياسة الفرزدق، فهي متقلبة تراعي الاحوال وتسعى في الاستفادة من كل حال . وقد كان رائد الشاعر المصلحة الشخصية او القومية، كما كان التكسب مرماه في اكثر الاحوال . فمدح ورثى وهجا . وها نحن نتوقف عند مديحه، تاركين الهجاء لما سيأتي من كلام . اما الرثاء فهو قليل عند الشاعر، قاله في بعض ذويه، وبعض ارباب السلطان كالحجاج وسليمان ؛ وهو قليل الماء والرواء لانه لا يأتي عن عاطفة صادقة .

(١) كان آل المهلب من مشاهير الولاة والقواد في الدولة الاموية . وقد عين سليمان بن يزيد بن المهلب والياً على البصرة والكوفة سنة ٧١٥ . وبعد وفاة سليمان خلع يزيد طاعة الخليفة الجديد، فقتل سنة ٧٢٠ . (٢) الحِلّ : بمعنى العهد واليمين . ليس يُرعى ذمامها : اي ليس يحفظ حَقَّها ؛ يقول : كيف يغضي بنو مروان عن نكث اليهود وعدم رعي الذمة والحق (٣) الجريمة : الذنب . اجترم الذنب : اتاه (٤) الدعَم ج دِعْمَةٌ وهي ما يُسند به البيت .

٢ - المدح :

١ ممدوحوه ومعاني مدحه : مدح الفرزدق خلفاء امية، واذا هم أولى الناس
بتراث عثمان اي بالخلافة، وأحق الناس بالملك، واذا هم كالقمر الذي يهتدى به،
وسيوفهم هي سيوف الله التي يضرب بها الاعداء، واذا النصر حليفهم لانهم اصدقاء
الله والله معهم، واذا الهدى مشرق من وجوههم فهم الهادون والمهديون . ومدح
زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بقصيدته الشهيرة التي مطلعها :
هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَائِفُهُ وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ، وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ^٢
هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كَلِمَتِهِمْ هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ

واذا زين العابدين ابن خير عباد الله كلمهم، يزينه حسن الخلق والخلق، ويجمع
الى سمو الأصل سمو الشمايل . . . ومدح الفرزدق امراء امية وعمالهم، واذا هم
جبال الارض وبهم ثباتها، وسيوف الله سلها على أعدائه .

٢ ترعة الفرزدق في مدحه : ومدح الفرزدق صورة لنزعة الجاهلية، وبيئته
الاموية، ونفسيته الخاصة . أما النزعة الجاهلية فظاهرة في اسلوب القصيدة
وغلاظة الالفاظ، وفي بعض المعاني والالوصاف المقتبسة ممن سبق من شعراء التقليد .
وأما البيئة الاموية فظاهرة في الاشخاص المختلفي النزعات الذين يمدحهم الشاعر،
وظاهرة ايضاً في الصبغة الاسلامية التي تصطبغ بها معاني مدحه فقد اكثر، على
فساد سيرته، من المعاني والالفاظ القرآنية الدينية وفن القصص القرآني . وأما

(١) حج هشام بن عبد الملك، على عهد ابيه، وطاف بالبيت، وحاول ان يصل الى الحجر الاسود
فلم يستطع لشدة الزحام، فنُصب له كرسي وجلس عليه ينظر الى الناس وحوله جماعة من اهل الشام .
وفيا هو كذلك اقبل زين العابدين، فطاف بالبيت، ولما انتهى الى الحجر انشقت له الصفوف ومكثته
من استلامه . فقال رجل من الشام لهشام : « من هذا الذي هابه الناس هذه الهية ؟ » فقال هشام : « لا
اعرفه » وخاف ان يذكر اسم فيرغبهم فيه . وكان الفرزدق حاضراً فقال : « انا اعرفه » . فقال
الشامي : « ومن هو يا ابا فراس ؟ » فقال قصيدته الشهيرة في مدح زين العابدين : فغضب هشام وجبسه .
فهجاه الفرزدق (٢) البطحاء : الارض المنبسطة التي في وسطها مكة . الوطأة : موضع القدم .
البيت : الكعبة . الحِلُّ : ما جاوز الحرم من الارض . الحرم : مكة وما احاط بها من الارض .

نفسية الشاعر الخاصة فهي ظاهرة في تناقضها ؛ وهذا التناقض ظاهر في امياله
الشاعر السياسية وامياله المعنوية والاخلاقية . فهو متقلب في عاطفته وإخلاصه،
وهو قدير على التلون، يساعده الخوف او حب التكسب الذي يرافقه في اكثر
الاحيان ؛ وهذا التكسب، الذي ينزل الى درجة السؤال والتذلل، يجتمع الى تغني
الرجل بالكرم والاياء ورفعته النفس . واننا لا نكاد نلمس صدق العاطفة الا في
مدح آل البيت ؛ أما في سواهم فيعمد الشاعر الى الغلو والمداهنة ليغطي على
ضعف العاطفة .

٥ الفرزدق شاعر النضال الادبي (الرجاء - الفخر) : ونعني بالنضال الادبي
ما دار خصوصاً بين

الفرزدق وجريز من تهاجر ومشاتمة .

١ - الفخر : وميزة الهجاء عند الفرزدق هي الفخر أو لا . فهو يجعل قصائد
الهجو في جو وسيع من الفخر والتبجح، وقد يفتتحها احياناً بالفخر . فياتي خصمه
دائماً من عل ؛ ولهذا قيل : «الفرزدق اذا هجا ارتفع» . يرتفع على جريز خصوصاً،
وكان جريز من احقر بيوت تميم، والفرزدق من اشرفها ؛ فكلما اقبل الفرزدق على
هجائه، تعالى عليه، ووازن بين الشرف والحقارة، واخذ بتعداد آبائه وأجداده،
مفصلاً ما أثرهم في الجاهلية والإسلام، معيراً جريزاً بأصله وخالق قومه من رجال
يشبهون رجال دارم ومجاشع .

وأما موضوع فخره فقومه ونفسه، وفخره بقومه أشد منه بنفسه . فقومه
في نظره اعز العرب بيتاً، وادفعهم شرفاً، واوسعهم خيراً وكرماً ؛ هم ذوو
العقول التي توازي الجبال، والثبات الذي لا يُزعزع :

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا يَبْنِئَا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ
يَبْنِئَا بَنَاهُ لَنَا الْمَلِيكُ ؛ وَمَا بَنَى حَكَمُ السَّمَاءِ فَإِنَّهُ لَا يُنْقَلُ . . .

(١) سَمَكَ السَّمَاءَ : رفعها . أعزّ وأطول : اي اعزّ وأطول من بيتك يا جريز .

حُلِّلُ الْمُسُوكَ لِإِسْنَا فِي أَهْلِنَا وَالسَّابِغَاتِ إِلَى الْوَغَى نَتَسَرَّبُلُ^١
أَحْلَامُنَا تَزِنُ الْجِبَالَ رَزَانَةً وَتَخَالُنَا جِنًّا إِذَا مَا نَجْهَلُ^٢

وهو في نظر نفسه كريم كالبحر، شجاع كالأسد، رفيع كالبدر، يؤلم كالحية، ورث الشعر من امرئ القيس والمهلهل وطرفة والاعشى وغيرهم من كبار الشعراء :

وَهَبَ الْقَصَائِدَ لِي النَّوَابِغُ إِذْ مَضَوْا وَأَبُو يَزِيدَ، وَذُو الْقُرُوحِ، وَجُرُولُ^٣
وإذا فخر الفرزدق اتسعت آفاقه، واشتدت لهجته، وطال نفسه، وقويت عبارته، ولكنه يضطرب في ميدان قلبها يتبدل، ويأتي بمعانٍ قليلة التنوع .

٢ - الهجاء : وبعد الاعتماد على الفخر، والتقوي به، ينقض الشاعر على خصمه بالهجاء فيوسعه تعبيراً، ويرميه بالدلة، فيصوره حقيراً، سارقاً للشعر، ويصور أهله موطناً للمخازي، فينشر مثالبهم، ويفحش في النيل من أعراضهم بالفاظ الأوباش ومعانيهم، متهمكماً، مختلفاً، كاذباً، عارضاً صوراً شتى تمثل حساسة المهجوة في نفسه وأهله وعشيرته، لا يزعج في قوله وازع، ولا يحد من بذائه دين . وربما نال من عشيرة جرير أكثر مما نال من جرير نفسه . وهو في هجائه لغير جرير أقل اقذاءً وفحشاً . وهو يضيف إلى المفاخرة والهجاء الدِّفاع عن تغلب قبيلة حليفه الاخطل، فيشيد بآثارهم ويعتد بمجادهم في الجاهلية والإسلام، كما يهجو قيس عيلان التي يهجوها الاخطل ويدافع عنها جرير .

وامتدَّ هجاء الفرزدق إلى ابليس . وذلك ان الشاعر دخل يوماً المربد، فلقى رجلاً من موالي باهلة يُقال له 'حام'، ومعه زق فيه سمن . فسامه الشاعر به . فقال

(١) السَّابِغَاتِ : الدروع الطويلة . نَتَسَرَّبُلُ : نلبس (٢) أَحْلَامُنَا : عقولنا . الرزانة : الوقار والنبات . نَجْهَلُ : أي نخرج عن الحِلْمِ والعقل (٣) النَّوَابِغُ : النابغة الذبياني والنابغة الجعدي والنابغة الشيباني . أبو يزيد : المخبّل ربيعة بن مالك . ذو القروح : امرؤ القيس . جرول : الحطيئة .

له : « أدفعه اليك وتهب لي أعراض قومي » . فقال قصيدة يهب له أعراض قومه ويهجو ابليس، ومطلع القصيدة :

إِذَا شِئْتُ هَاجَتْنِي دِيَارُ مُحِيلَةٍ وَمَرَّ بَطُ أَفْلَاءُ أَمَامَ خِيَامِ

وهو يعاهد ربه على ان « لا يشتم الدهر مسلماً » وان « لا يخرج من فمه سوء كلام » ويخاطب ابليس ويظهر له كيف اطاعه سبعين حجة، وكيف فرّ الى ربه في نهاية حياته ؛ ثم يبين تجارب ابليس له، وكيف كان راكباً معه على الرحل تارة وراءه وتارة امامه، يبشّره انه لن يموت، وانه سيخلده في جنة وسلام ؛ ثم يأخذ الشاعر بحجج ابليس، فيبين له كذبه، وكيف لم يُنجح فرعون مع جيشه من البحر الاحمر، وكيف جرّ الويل على آدم وحواء . . . ثم يأخذ بتهديد ابليس تهديداً شديداً ناقماً متشقيماً . وفي كلام الشاعر لهجة الرجل الثائب، الذي يريد الرجوع الى الرّصانة ؛ وفي كلامه طلاوة وطرافة، وفي حججه سذاجة وقوة . وتكاد تكون هذه القصيدة مع بعض ابيات اخرى غيرها للشاعر من باب النّوهد الذي لم ينظم فيه أحد غيره في هذا العهد . ولكن توبة الفرزدق هذه لم تدم طويلاً لما كان عليه من فحش وجور .

٦ الفرزدق شاعر الوصف (الوصف - الغزل) :

الوصف : كان الفرزدق واسع الخيال، دقيق الملاحظة جيّد القصص، فساعده ذلك على الوصف، وجعله من ابرع الوصّافين في العهد الأموي . أما موصوفاته فكثيرة منها ما هو منتزع من البادية كالذئب، والاسد، وحمّار الوحش ؛ ومنها ما هو من حياة الحاضرة كالسفينة، والجيش، والغوص في طلب الدرّة، وما الى ذلك . ويصطبغ وصفه احياناً بصبغة القصص الذي يُحسن الشاعر سرّده، كما يمتاز بالتقرب من الحيوان المفترس والعطف عليه . ففي وصفه للذئب يظهر استعداداً لان يلبس ذلك الوحش من ثيابه، وان يقاسمه زاده :

(١) الدّيار المحيلة : التي أتى عليها احوال أي سنون فتغيّرت . الأفلاء ج فِلُو وهو المُنْهَر إذا بلغ السّنة وفُطِم .

فَلَمَّا دَنَا قُلْتُ أَدْنُ دُونَكَ إِنِّي وَإِيَّاكَ فِي زَادِي مُشْتَرِكَانِ
فَبِتُّ أَسْوَى الزَّادِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ عَلَى ضَوْءِ نَارٍ مَرَّةً وَدُخَانِ
ووصف الشاعر يتناول المويّات أكثر من المعنويّات، ويمتاز بالدقّة،
وحسن التصوير، كما يمتاز بنبوة شخصية مبتكرة، أوجدها ما يتخلّله من قصص.

٢٢ الغزل : أما الغزل عند الفرزدق فهو شهواني فيه غلاظة ومجون .
وهذا المجون ظاهر في الالفاظ والمعاني . والعاطفة في هذا الغزل خشنة ، كما ان
القَصص الغرامي، الذي يحاول الشاعر ان يقلّد فيه امرأ القيس وابن ابي ربيعة، غليظ
المعنى والمبنى، بعيد عن فنّ الشعارين السابقين ، ولاسيا الثاني منهما ؛ ولا عجب
فطبيعة الفرزدق غليظة، ونفسه خشنة، ولغته صلبة .

٧ فه وفيمه شعره التاريخي : الفرزدق شاعر بدويّ النزعة ، ميّال الى الفخر
والتبجّح، ومن ثمّ كان اسلوبه بدويّاً ، تتجلّى
بداوته في غلاظة الفاظه التي ينحتها الشاعر نحتاً حتى تأتي شديدة الجورس، صلبة
الايقاع، كأنها من صخر، تصلح للفخر والتباهي ولا تصلح لما رقّ من المعاني
والاساليب .

والفرزدق لا ينظم الشعر عن طبع دافق، إنّما يساعد طبعه بالنحت الشعري
والعمل الصناعي، ولهذا شَبَّه طبعه بصخر ينحت الفرزدق منه شعره نحتاً . وقد
صَلب لاجل ذلك نظمه، وكان وقفاً على الخِصّة محروم الذئوع والسيورة، وإن
لم يخلُ من الابيات الماثورة . وقد حافظ شعر الفرزدق على الغريب الجاهلي حتى
قال أبو عبيدة : « لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب » .

والفرزدق يشعر انه لا يحسن النسيب الرقيق ، ولهذا نزاه لا يلتزم الديباجة
الغزلية في كثير من قصائده، بل يهجم على موضوعه من غير توطي . وهو الى
ذلك يتجاوز قوانين النحو المشهورة، كما يتجاوز قوانين البيان، ولهذا وقع في
شعره التعقيد، وكان ذلك كله موضوعاً واسعاً يتلهم به النحويون والبيانيتون .

ولكنَّ شعر الفرزدق، فضلاً عن قيمته الادبية، ذو قيمة تاريخية كبرى،
لانه يطلعنا على نواح كثيرة من حياة صاحبه وخصومه، وعلى أخبار العرب وأيامهم
وعاداتهم، وعلى أخبار الدولة الاموية وتصرف عمالها وولاتها، وعلى الفتوحات
والجيوش وغير ذلك مما يؤلف سفرأ ضخماً .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- خليل مردم : الفرزدق - دمشق ١٩٣١
فؤاد البستاني : الفرزدق - الروائع ٣٧، ٣٨ - بيروت ١٩٤١
احمد الاسكندري : الفرزدق شاعر الفخر والهجاء - الهلال ٤٢ ص ٧٢٩، ٨٤٣
احمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي - القاهرة ١٩٤٥ ص ٢٦٥ - ٢٦٨

٢ المراجع الاجنبية :

- A. Schaade : Al-Farazdaq in Encycl. de l'Islam, t. II, 64-65.
Caussin de Perceval : Notice sur les trois poètes arabes Akhṭal, Fērazdaq et Djérir
in journal Asiat. XIII et XIV, 1834.
R. Boucher : Diwan de Fērazdaq, Paris 1870 — (Introduction).

موضوعات للبحث

- ١ - أقم موازنة بين سياسة الاخطل وسياسة الفرزدق، مبيّناً ما لجأ اليه من اساليب، موضحاً
فن الرجلين في تلك الاساليب .
- ٢ - لقد قيل : « لم يبلغ الفرزدق شأواً الاخطل في المدح غير انه تفوّق عليه في الفخر » . ناقش .
- ٣ - لقد قيل : « الفرزدق في الهجاء مُقذِّع، وفي الوصف مُبدع، وفي المدح وسط، وفي الرثاء
غير مُجيد » . اوضح هذا القول وناقشه .
- ٤ - لقد قيل : « اذا هجا الفرزدق ارتفع » . اوضح ذلك مؤيِّداً كلامك بالبرهان .

شعر السياسة

الفصل الثالث

جَرِير (٦٥٣ - ٧٣٣ م / ٣٣ - ١١٤ هـ)

١ حياته : وُلد جرير باليامة ونشأ نشأة بدوية، ثم انتقل الى البصرة، ومنها ضرب في الارض، منتجماً ذوي السلطان . وقد لقي لدى الحجاج حظوة كبرى . ثم اتصل بخلفاء امية ومدحهم فأغدقوا عليه المال الوافر . وتوفي جرير نحو سنة ٧٣٣ م / ١١٤ هـ .

٢ آثاره : له ديوان فيه مدح ورثاء، وفخر وهجاء، وغزل .

٣ جرير شاعر النضال السيامي : كان جرير ذا عصبية مضرية تميل مع ابن الزبير، الا انه تقرب من الامويين فدحهم ورثاهم، كما مدح القيسية ؛ وكان يميل الى المساواة بين العرب والموالي، ويحاول ان يرد الخلفاء الى النزارية دون اليمن، وان يقرب بين الخليفة وقيس وبين قيس والحكومة . وكان على آل المهلب مع الامويين . وجرير في مدحه متكسب . ويشمل في مدحه حقلي الدين والدنيا ؛ الا ان ذلك المدح لا يسمو به نفس عالٍ ، ولا يعصف به اندفاع شديد .
- اما رثاؤه فكان رثاء العاطفة الصادقة، ورثاء الألم الحقيقي .

٤ جرير شاعر النضال الادبي :

- كان لجرير مقدرة عجيبة على الهجاء . وكان يزيد فيه على طريقة غيره طريقة الذع والإيلام . فيتبّع حياة مهجويّه وتاريخ قبيلتهم، ويعدّد نقائصهم مُختلقاً، مكرّراً، محقّراً، مصوّراً تصويراً مضحكاً، كثير الإيلام . وهكذا صنع مع الفرزدق والاختل .
- وجرير اذا هجا افتخر، ولكنه لم يستطع ان يجعل الفخر بآبائه موازياً لفخر الفرزدق . وكان موضوع فخره، فضلاً عن آبائه، شاعريته ودينه .

٥ جرير شاعر الغزل : مزج جرير في غزله بين اسلوب الجاهليين واسلوب المتيمين العذريين . وقد جمع فيه الرقة والمذوبة والموسيقى المطربة . وكان غزله غزل العاطفة الصادقة البعيدة عن الفحش .

٦ شاعريّة جرير وفنه : العاطفة منبع شعر جرير، وهي تطفئ على التفكير والخيال . وقد امتاز شعره بالسهولة والوضوح وهما ثمرة القرينة الفياضة، كما امتاز بلباقة التعبير والموسيقى الأخاذة، وان لم يخلُ من إسفاف .

١- هبارة :

١ - مولده ونشأته : أبو حَزْرَةَ جرير بن عَطِيَّة بن حَذِيفَةَ الملقب بالخَطَفَى، ابن كليب اليربوعي التميمي، وُلد باليَمامة نحو سنة ٦٥٣م/٥٣٣هـ من أبٍ وضع خامل نجيل، ونشأ في عشيرته نشأة البدوي الفقير الخشن العيش، يرعى لأبيه غنيمات من الضأن والمعزى؛ وكان فصيح اللسان من صغره، مطبوعاً على الشعر، فقاله صبيّاً، وأظهر حدةً وشدةً على خصومه من قبيلته ومن القبائل التي كانت تحاصم قبيلته حتى عظم امره .

٢ - ضربه في الأرض : ولما شَبَّت نيران التهاجي بينه وبين الفرزدق، ترك اليَمامة قاصداً البصرة بالعراق لعله ان اليَمامة لا يمكنها ان توصله الى ما كان يحب من شهرة ومال . ومن العراق راح يضرب في الأرض الى الحجاز فالعراق فالبحرين فاليَمامة فدمشق فالرصافة، منتجعاً ذوي السلطان، وافداً على الامراء، وقد يكون اولهم يزيد بن معاوية ثم الحجاج ثم بشر بن مروان . ولقي لدى الحجاج حظوة كبرى، وطارت مدائحه فيه . وقد تزوّج الشاعر بعدة نساء يذكر منهن ثلاثاً في شعره وكان له عدة اولاد اكبرهم « حَزْرَة » .

٣ - في حمى الخلافة : اتصل الشاعر بعبد الملك بن مروان، وذلك انه رأى الشعراء يتهاككون على ابواب الخليفة، وعلم من امر الاخطل ما هاج فيه الرغبة بمديح عبد الملك، علّه ينال منه ما ينال غيره من المال الوفير . فأقدم يساعده الحجاج، إلا انه لم يستطع الدخول على عبد الملك الا بعد جهد، وذلك لأن الخليفة كان يرى في كل شاعر مُضري حليفاً للزُبَيْرِيَّة . ولما مثل بين يدي عبد الملك انشده قصيدته التي يقول فيها :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحٍ

(١) المطايا ج مطية وهي ما يُركب من الدواب . الراح ج راحة وهي باطن الكف ؛ اندى العالمين ... : اي اكثر الناس عطاءً وجوداً .

وعرض ابن الزبير، فأجازه عبد الملك . وفي مجلس هذا الخليفة اجتمع بالاخلطل وقد انتصر عليه الاخلطل بقصيدته التي مطلعها « خف القطين . . . »

واتصل بالوليد بن عبد الملك ولقي لديه الحظوة التي كان يلقاها عند ابيه . وفي ذلك العهد احتدم التهاجي بين جرير وعدي بن الرقاع شاعر الوليد الخاص، وسبب ذلك تقدم عدي بن الرقاع عند الوليد ثم ما كان من مصرية جرير وقحطانية عدي . وفي آخر عهد الوليد مات الحجاج ففقد جرير بموته ركناً كان يعتمد عليه في العراق .

وعندما بويع عمر بن عبد العزيز بالخلافة مدحه جرير فلم يصله، وذلك ان ابن عبد العزيز كان رجلاً - على حد قول جرير - يقرب الفقراء ويباعد الشعراء . ولما تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك مدحه الشاعر كما قصد هشاماً اخاه الى الرصافة ومدحه .

٤ - وفاته : اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ وفاة جرير، على أنه في الاغلب توفي سنة ٧٣٣ م / ١١٤ هـ، وذلك بعد وفاة الفرزدق بنحو اربعين يوماً، وبعد وفاة الاخلطل بنحو ثلاث وعشرين سنة .

٢ آثاره : لجرير ديوان طبعه محمد اسماعيل الصاوي سنة ١٩٣٥ بالقاهرة، وقد اعتمد فيه على نسخة الإمام محمد بن حبيب الذي رواها عن محمد بن زياد الاعرابي عن عمارة بن بلال بن جرير، كما اعتمد على كتاب النقائض وعلى ما ورد في كتب الادب . اما اغراض شعر جرير فمرجعها الى المدح والثناء، والفخر والهجاء، والغزل .

٣ جرير شاعر النضال السياسي (المدح - الرما) :

١ - نزعة جوهر في سياسته : كان جرير ذا عصبية مصرية، وكان شعراء مضر ياثون ابن الزبير على عبد الملك بن مروان . ولكن هذه العصبية ما كانت لتوفر لجرير ما كان بحاجة اليه من مال . فلم يجد بُدّاً من التقرب الى الامويين . وكان

اتصاله بالحجّاج الخطوة الاولى في سبيل السياسة إذ جعله الحجّاج شاعره الخاص، ومن ثمّ شاعر قيس؛ فمدح الحجّاج وأشاد ببلائه في خدمة عبد الملك .

ثمّ اتّصل بالبلات ومدح بني امية والولاة والعمال وورثاهم، ولم يتورّع عن التعريض بالأموات استرضاء لهم، كما فعل بابت الزبير بعد موته، عندما مدح عبد الملك؛ ومدح القيسية اعداء تغلب، كما انه كان يميل الى المساواة بين العرب والموالي، ولم يحجم عن العطف على الموالي والفرس، وقد مدحهم وسوّاهم بالعرب في الشرف.

وهو يحاول ان يردّ الخلفاء الى التّزارية دون اليمّ، كما يسعى في التقريب بين الخليفة وقيس، وبين تميم والحكومة، فيقول مخاطباً عبد العزيز بن مروان :
فَإِنَّ تَمِيمًا، فَأَعْلَمَنَّ، أَخَوَكُمُ وَمِنْ خَيْرٍ مَنْ أَبْلَيْتَ عَافِيَةً شُكْرًا^(١)
إِذَا شِئْتُمْ هَجْتُمْ تَمِيمًا فَهَجْتُمْ لِيُوثَ الْوَعَى يَهْضِرُنْ أَعْدَاءَكُمْ هَضْرًا^(٢)

وكان على آل المهلب مع الامويين حين ثار يزيد بن المهلب على يزيد بن عبد الملك . وقد لخصّ احمد الشايب سياسة جرير بقوله : « كان جرير في عصبيّته تميمياً قيسياً، وكان مع الفرزدق يربو عياً، وكانت صلته بالخلفاء ترتدّ الى هذا الاصل القبليّ، والى اصل آخر نفعيّ خاص . وقد اضطرّ الى ذلك حاجته، واحتواء قيس عليه منذ اتّصل بالحجّاج، فكان أقلّ متزلةً من الاخطل في السياسة العليا، وكان دون الفرزدق في زعامة تميم » .

٢- المدح : جرير في مدائحه لبني أمية وولاتهم وعمّالهم مستجدي، وتكسّبه صريح . قال في مدح عبد الملك :

أَغْنِي، يَا فَدَاكَ أَيَّ وَأُمِّي، بِسَيْبِ رِنِكَ، إِنَّكَ ذُو أَرْتِيَا^(٣)

(١) أبلّيت : اعطيت . العافية : الطالبة المعروف . يقول : تميم من خير من تصنع اليهم المعروف في معرفة الجميل وشكره (٢) هضره : كسره (٣) السّيب : العطاء . الارتياح : سهولة البذل والنشاط اليه .

وتكسبه يُعلي عليه اساليب المدح ومعانيه . فهو يُعظم شأن ممدوحيه، ويُثبت لهم الحق بالخلافة، معتذراً عن قومه لميلهم الى آل الزبير ؛ وهو يشمل في مدحه حَقلي الدنيا والدين . فيصف قوة الخلفاء ومن يعملون في ظلهم، ويصف سطوتهم كما يصف اعمالهم العمرانية من مثل اعمال هشام في شقّ الانهر وغرس الاشجار المشورة . واذا انتقل الى حقل الدين أطال القول حتى ليخيّل للقارى ان المدح ديني اكثر مما هو مدني، وحتى كأن للخلافة شأنًا دينيًا لا شأنًا مدنيًا . فتنتشر في مدائحه الفاظ الخلافة، والقرآن، والأحكام، والامانة، والورع، والهدى، والبركة وما الى ذلك مما يصدر عن ترعة جرير الدينية التي تتمثل في جميع اغراض شعره . فالخلفاء في شعره هم الذين اختارهم الله، وهم الذين يُنسبون الى الفرع النيل من قريش، وهم الذين اثبتت الايام والاحوال أنهم أهل للخلافة والسلطان ؛ وسيف الحجاج هو سيف الهدى والحق، كما ان هشام بن عبد الملك هو المهدي :

تَعَرَّضْتَ الْهُمُومُ لَنَا، فَقَالَتْ جُعَادَةُ : أَيَّ مُرْتَحِلٍ تُرِيدُ ؟
فَقُلْتُ لَهَا : الْخَلِيفَةُ، غَيْرَ شَكٍّ هُوَ الْمَهْدِيُّ، وَالْحَكَمُ الرَّشِيدُ . . .

والمدح يطول عند جرير، مُفَضِّلاً صفات الممدوح، جاعلاً الكرم من أجل الصفات ؛ وفي هذا المدح يتضاءل ظل الشاعر فلا يفخر ولا يهجو، انما يقف موقف المتسول الذي لا ينفخ في شعره المدحي نفَس عالٍ، ولا يعصف به اندفاع شديد.

٣ - الرثاء : رثاء جرير قسمان : قسم خصّ به اهل بيته كامراته، وابنه سواده ؛ وقسم خصّ به بعض رجال الدولة وغيرهم كالوليد، وابنه عبد العزيز . ولما كان جرير رجل العاطفة الشديدة التأثر كان رثاؤه بمجمله عاطفياً، وقيماً، يؤثر في القلب .

وقد رثى الفرزدق نفسه وحاول ان يقول فيه كلمة حلوة بعد ما قال فيه كلماته

المرّة سنين طويلة، ومما قال :

لَتَبْكِ عَلَيْهِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ، إِذْ تَوَى
فَقَى عَاشَ يَبْنِي الْمَجْدَ تَسْمِينَ حَجَّةٍ
فَقَى مُضَرٍّ، فِي كُلِّ غَرْبٍ وَمَشْرِقٍ
وَكُنْ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالْمَجْدِ بِرَقِي

(١) جُعَادَةُ : اسم امرأة يتغزل بها .

وجريز كان صادقاً في لهفته، فكانت مرآيته شعر العاطفة المتألّمة، تهيمن عليه النفحة الدينية، وتتدفق فيه الذكريات التي تبعث الاسف والاسى .

٤ جريز شاعر النضال الادبي (الهجاء - الفخر) : تألّب على جريز رهط من

الشعراء ذكر اسماء كثيرين

منهم في حديث دار بينه وبين الحجاج، وذكر انهم هم المعتدون عليه وأنه انما انتصر لنفسه . والسبب في ذلك طمع الشعراء ولاسيما الحجاج وهشام، يعملون على التحريض بين الشعراء المتهاجين للتلهي . وقد اخزى جريز جميع من تصدّى له ما عدا اثنين هما الاخطل والفرزدق وسنقصر كلامنا على هجاء جريز لهذين الشاعرين، ومفاخرته لهما .

١ - الهجاء :

١ عوامل هجائه : كان لجريز مقدرة عظيمة على الهجاء . فقد اجتمع له الشعور الحاد الذي اذا احتدم يكون كالبركان الهائج، الذي يقذف الحمم ولا يدرك ما يقول . والى هذا الشعور، وشدة التأثير، وسرعة الاندفاع، كان جريز ذا مقدرة غريبة على التهكم والسخر، وذا بصر نافذ في تتبع العورات واختلاقتها، « فهو - على حد قول مارون عبود - أدرى الناس بفحص الدّمن، وتحليلها واكتشاف مضامينها، ووصف ما بها » . وكان فياض القويحة لا يستعصي عليه جواب، واذا ضرب كانت ضربته خاطفة .

٢ طريقته : أما طريقته في هجائه عموماً فهي طريقة جمعت الى اساليب خصومه اسلوبه الخاص القائم على شدة اللّذع والايلام، مما لم يجتمع لاحد منهم بقدر ما اجتمع له . فهو يعتمد الى طريقة الفرزدق في الافحاش والاقذاع، واستعمال كلمات الفجور والبذاءة بصراحة شنيعة، وهو يعتمد الى طريقة الفرزدق والاخطل بالتعير بالانكسارات والمذلة .

إلا ان جريراً لا يقف عند هذا الحدّ ، بل يتعدّاه الى أسلوب خاصّ في اللّذع يقوم بتتبّع حياة المهجّو وحياة ذويه ، وتعداد نقائصه والكشف عن عوراته واحدة فواحدة ، ذاكراً تفاصيلها ، مبيناً كل ما من شأنه ان يجعل المهجّو موضوع احتقار الناس ؛ وهو يكثر من تعداد النقائص القوميّة والشخصيّة ؛ الماضية والحاضرة ، ويختلق الحوادث والقصص ، ويكثر من التكرار ليثبت ما يقول في الأذهان ، ويبالغ في الزراية والتحقيق والتشبيه بالحقير القدر من الحيوانات ، زائداً في القباح ما تفيض به قريحته ، ممزّقا اعراض الأسماء والاخوات اشنع تمزيق مما يلذع أشدّ اللّذع ؛ وهو يزيد على ذلك كلّ التهكم والسخريّة ، فيجعل المهجّو من المضحكات ، ويصوره تصويراً « كاريكاتورياً » يبعث على الضحك ، وهذا مما يزيد كلامه لذعاً ؛ واليك ايضاح ذلك في هجو الفرزدق والأخطل .

٣ هجو الفرزدق : يتتبّع جرير حياة الفرزدق وحياة قومه ، فيلقبه بابن القين ، وذلك لان جدّ الفرزدق كان حدّاداً ، والعرب تُعَيّر بالصناعات ، فيحدثه عن القدوم والعلاة والكبر ، ويذكر له الايام والحوادث التي لا تُشرف قوم الفرزدق كخيانة بني مجاشع للزبير يوم الجمل ؛ ويرمي المخصّصات بما يشين . حتى اذا انتهى الى حياة الفرزدق الشخصية شبهه بالقرد ، ونعى عليه خبثه وفجوره ، وعيّره بفسقه ودعارته ، وحذر الناس ان يحلّ فيهم ذاك الفاسق الذي يلحقه الخزي والعار اينما حلّ :

هُوَ الرَّجْسُ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَاحْذَرُوا مُدَاخِلَ رَجَسِ الْخَلَيْثَاتِ عَالِمِ
وَأَتَمَّهُ بَدِينَهُ فَجَعَلَهُ يَوْمَ السَّبْتِ يَهُودِيًّا وَيَوْمَ الْاَحَدِ نَصْرَانِيًّا . وَصَوَّرَهُ تَصْوِيرًا
مُضْحَكًا كَمَا فِي قَوْلِهِ :

أَلَا إِنَّمَا كَانَ الْفَرَزْدَقُ كَعَلْبًا ضَفَا وَهُوَ فِي أَشْدَاقِ لَيْثِ ضَبَّارٍ^(١)
لَقَدْ وَلَدَتْ أُمُّ الْفَرَزْدَقِ فَاسِقًا وَجَاءَتْ بِوَزْوَانٍ قَصِيرِ الْقَوَائِمِ^(٢)

(١) ضفا : صاح . الضبّارم : الاسد الشديد الغليظ (٢) الوزّواز : الطيّاش الخفيف الذي يتلوّى اذا مشى .

هجو الاخطل : ويتتبع جرير حياة الاخطل وتاريخ قومه، ويتسع له المجال فيه اكثر مما يتسع في الفرزدق لانه من اصل غير اصله وعلى دين غير دينه؛ فيعيّره بما على تغلب من ايام لقيس عيلان، ويجعل التغلبيّ عبداً في كل مكان، تقعد همته عن رفيع الاعمال ومكارم الامور، ويمدح بكرة لقتلها كليباً؛ ويعيّر الاخطل وقومه بالنصرانية والذلة، ويطعن بالصليب والقديسين ورجال الدين بمضض واحتقار . والاخطل في ذلك لا يستطيع ان يُجيبه بالمثل لوجوده في البلاط الاسلامي ولما للخلفاء من صلة بنبي الاسلام . ثم يعيّر الاخطل وقومه بأكل الخنزير وشرب الخمر والسكر، وما يتبع ذلك من عريضة وجور؛ ويطلق جرير في ذلك قريحته ومخيلته فيختلق ويكذب ما اتسع له المجال . ويرمي الاخطل بسهام التهكم فيصغر اسمه، ويلقبه « بدوبل » وهو الحمار الصغير لا يكبر، ويقول :

أَلَيْسَ أَبُو الْأَخْيَطِلِ تَغْلِبِيًّا فَبَيْسَ التَّغْلِبِيِّ أَبَا وَخَالَا

ويمثله داعياً مار سرجس (وهو قديس تغلب تكرمه وتجعله شافعياً لها) لكي يبعد عنه الحرب :

قَالَ الْأَخْيَطِلُ إِذْ رَأَى رَايَاهُمْ : يَا مَارَ سَرْجِسَ لَا تُرِيدُ قِتَالَا !

هذا هجاء جرير . وقد كان موجعاً، مُراً، كثيراً ما يشمل عدّة خصوم ويجعلهم في قرن واحد . وكان جرير كثير الافتراء على الابرياء ، لا يبالي ان يقذف المحصّنات العفيفات؛ وكان الى ذلك دّيناً، كثيراً ما يستغفر الله من قذف المحصّنات ويُقرّ امام الناس ببراءتهنّ، ويعتذر، ويدعي ان اولياءهنّ ظلموه فجازاهم بما ظلموا . ومن اشهر قصائده الهجائية باثنيته المعروفة « بالدافعة » لانها دمغت خصمه وقضت عليه قضاء سريعاً، وقد هجا بها جرير راعي الابل وقومه بني نُمَيْر على اثر مشاحنة بينه وبين الراعي وابنه جندل؛ ومطلعها :

أَقْلَيْتِ النَّوْمَ ، عَاذِلَ ، وَالْعِتَابَا وَقُولِي ، إِنَّ أَصْبَتُ : لَقَدْ أَصَابَا !

٢ - الفخر : الهجاء عند جرير شديد الصلة بالفخر . فهو إذا هجا افتخر ، وجعل من الفخر وسيلة لتذليل خصمه . اما موضوع فخره فنفسه وشاعريته ، ثم قومه ، وإسلامه . فاذا هجا الفرزدق اصطدم باصل الفرزدق الذي هو أصله ، فكلاهما من تميم ، وهو اصل شريف . ولكن الفرع الذي كان ينتمي اليه الفرزدق كان اشرف من فرع جرير ، ولهذا لم يستطع ان يجعل فخره بأبائه مؤازياً لفخر الفرزدق . الا انه فخر ببعض ايام كانت لبني يربوع قومه ، كما أعين على الفرزدق بأيام خذل فيها بنو دارم قوم الفرزدق وبنو ضبة اخواله .

واذا هجا الاخطل فخر بإسلامه ومُضَرَّيَّته - وفي مُضَرَّ النبوَّة والخلافة - :
إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ الْمَكَارِمَ تَغْلِيًّا جَعَلَ الْخُلَاقَةَ وَالنَّبُوَّةَ فِينَا

وجرير يفخر على جميع الشعراء بقوة شاعريته ، ويتغلبه عليهم :
أَعَدَّ اللَّهُ لِلشُّعْرَاءِ مِنِّي صَوَاعِقَ يُخَضِّعُونَ لَهَا الرِّقَابَا

كما يفخر بقومه ، وله في ذلك البيت الشهير :
إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غَضَابَا !

٥ جرير شاعر الغزل : لم يكن غزل جرير فناً مستقلاً في شعره ، ولم يخرج فيه عن الاسلوب والمعاني القديمة . ولكنّه مزج في غزله بين اسلوب الجاهليين واسلوب المتتبعين العذريين . فهو يصف المرأة بما سبق اليه الشعراء من اوصاف ، ثم ينتقل من تلك الاوصاف الى داخل نفسه ليحدثنا عن لوعته وامله وحرمانه ، وعن نزعات الفؤاد وخلقاته . واذا هنالك عالم من الشكوى الى الارض والسماء :

لَوْ تَعْلَمِينَ الَّذِي نَلْقَى أَوْيْتِ لَنَا أَوْ تَسْمَعِينَ إِلَى ذِي الْعَرْشِ اشْكُواَنَا

(١) اوى له : رحمه ورق له .

وفيض من الحزن لا يلقى من يخففه :

يَا لَيْتَ ذَا الْقَلْبَ لَا قَى مَنْ يُعَلِّلهُ أَوْ سَاقِيًا فَسَقَاهُ الْيَوْمَ سُلوَانًا
مَا كُنْتُ أَوَّلَ مُشْتَاكِ أَخَا طَرْبٍ هَاجَتْ لَهُ غَدَوَاتُ الْبَيْنِ أَحْزَانًا

وسهر في ليل نجمه حيران ، وبكاء ، وعراك بين الموت والحياة الى
غير ذلك .

وجريز رجل فنّ في الغزل ، وفنه قائم بنوع خاص على الموسيقى اللفظية ،
فهو يجمع الى الرقعة والعدوبة أنعاماً مطربة تتصاعد من تآلف الفاظه ، ومن
حسن اختيار بحوره وقوافيه ، ومن تكرار بعض الالفاظ للمقارنة او الطباق ،
او غير ذلك :

- يَلْقَى غَرِيمُكُمْ مِنْ غَيْرِ عُسْرَتِكُمْ بِالْبَذْلِ نُجْلًا ، وَبِالْإِحْسَانِ حِرْمَانًا
- رَاحُوا الْعَشِيَّةَ رَوْحَةً مَذْكُورَةً إِنْ حَرْنُ حِرْنًا ، أَوْ هُدَيْنَ هُدَيْنًا
وَرَمَوْا حِينَ سَوَاهِمَا عُرْضَ الْفَلَا إِنْ مَثْنٍ مَثْنًا ، أَوْ حَبِينَ حَبِينًا

وكثيراً ما يسحر جريز، في غزله، بمبانيه اكثر مما يسحر بمعانيه :

يَا حَبْدًا جَبَلُ الرِّيَّانِ مِنْ جَبَلٍ وَحَبْدًا سَاكِنُ الرِّيَّانِ مَنْ كَانَ
وَحَبْدًا نَفَحَاتُ مِنْ يَمَانِيَةِ تَأْتِيكَ مِنْ قِبَلِ الرِّيَّانِ أَحْبَابًا

وهكذا كان غزل جريز غزل العاطفة الصادقة التي تتألم وتتنفّس في تعبير
رقيق لئلا ينزع بالالفاظ الموسيقية العذبة . وهو غزل يخلو من البذاءة
والقصص الغرامي الفاحش ، تلمس فيه نزعة الشاعر الدينية .

(١) علّله : شغله . السلوان : العزاء (٢) الطرب : الحزن . البين : الفراق (٣) الغريم :
الداث ، يريد به المحب الذي يوعد باللقاء فلا يناله . من غير عسرتكم : اي من غير ان تكونوا
في عسر وعدم مقدرة على القيام بالوعد (٤) السوامج : ساهمة وهي الضامرة ، المهزولة من النياق .
عُرْضُ الْفَلَا : مُعْظَمُهُ (٥) الرّيان : جبل في بني عامر (٦) النفحات : ج نفحة وهي هبة
الرياح والدفعة منها . اليمانية : اي الرياح التي تأتي من اليمن .

٦ شاعرية جرير وفه : جرير من النفوس ذات المزاج العصبي، وذات الطبع الناعم الزقيق . ولئن جعلت رقة الطبع شعره دون شعر الفرزدق فخامة، فقد جعلته يتفوق في المواقف العاطفية كالرثاء والنسيب .

فالعاطفة هي منبع كل شيء في شعر جرير، وهي عنده تطفئ على العقل والخيال، ولهذا ضعف تفكيره كما ضعف خياله ووصفه، فجري على توثب إحساسه الذي يثيره اقل تهويل، وتستفزه كل المؤثرات العاطفية .

وقد اجتمعت العاطفة عند جرير الى قريحة فياضة، فكان شعره يفيض عن طبع غني، وكان الشاعر « يغرف من بحر » . فلا يجهد في شعره، ولا يعتمد الى الثقاف والتنقيح كالاخطل ولا الى النحت كالفرزدق، بل يسيل شعره سيلاناً في سهولة تمتد بامتداد قصائده الطويلة، وفي خفة ولباقة تعبير، وموسيقى لفظية أخاذة، ووضوح . ولكن هذه السهولة في النظم وهذا الفيضان عرّضاه للوقوع في الاسفاف احياناً كثيرة، فهو دون الاخطل والفرزدق جزالة وقوة . ولكن سهولته هي التي عملت على سيوورة شعره اكثر من غيره .

وجرير، وان كان شاعر الطبع والعاطفة المتدفقة، لم يسلم احياناً من الصنعة وتطلب التأثير بألوان من الاساليب الفنية اللفظية .

وهكذا كان جرير أقدر من الأخطل والفرزدق على نقض الكلام، واشد فتنة، واقل صنعة المنتوجات البيانية، واغنى قريحة، وارق عاطفة ولفظاً، ووضح كلاماً، واوفر انسجاماً ونعماً موسيقياً، إلا انه دون الاخطل والفرزدق خيالاً وتفكيراً وجزالة .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- جميل سلطان : جرير - دمشق .
 فؤاد افرام البستاني : جرير - الروائع ٣٩ ، ٤٠ - بيروت ١٩٤٢
 مارون عبود : الرؤوس - بيروت ١٩٤٦ ص ٣٧ - ٥٠
 احمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي - القاهرة ١٩٤٥ ص ٢٦١ - ٢٦٤
 احمد الشايب : تاريخ النقائض في الشعر العربي - القاهرة ١٩٤٦ ص ٣٧٩ - ٣٨٢
 الاب انطون صالحاني : نقائض جرير والفرزدق - المشرق ١٠ (١٩٠٧) ص ٦٣٥ - ٦٤١
 ٦٤١ - والمشرق ١٣ (١٩١٠) ص ٩٦ - ١٠٠

٢ المراجع الاجنبية :

- Caussin de Perceval* : Notice sur les trois poètes arabes Akhtal, Farazdaq et Djérir, in *Journal Asiat.* XIII et XIV, 1834.
 A. Schaade: Djarir, in *Encycl. de l'Islam*, t. I, 1054.

موضوعات للبحث

- ١ - لقد قيل : « حلو الكلام ومرّه لجرير » . اوضح هذا القول وفضّله .
- ٢ - قيل : « الفرزدق إذا هجا ارتفع وجرير اذا هجا لزع » . اوضح هذا القول مقيماً الموازنة بين هجاء الشاعرين .
- ٣ - جرير شاعر البدو، والاخلط شاعر الحضرة، والفرزدق يهيم بمقريته بين البيتين . ما رأيك في هذا القول ؟
- ٤ - قال ابو عبيدة : « شعراء الاسلام الاخلط ثم جرير ثم الفرزدق . والاخلط اشبه بالجاهلية وأشدّهم أسراً شعراً ، وأقلّهم سقطاً » . ما مراد ابي عبيدة وهل توافقه على رأيه ؟
- ٥ - ما هي صور المجتمع الاموي في شعر الاخلط والفرزدق وجرير ؟
- ٦ - قيل : « جرير اطبع من الاخلط والفرزدق شعراً ، واخصب مادّة ، وابعد تكلفاً » . ناقش هذا القول مؤيداً كلامك بالشواهد .

شعر السياسة

الفصل الرابع

عُبَيْدُ اللَّهِ بْنِ قَيْسِ الرُّقَيَّاتِ - الطَّرِمَّاحِ بْنِ حَكِيمٍ الْكُمَيْتِ الْأَسَدِيِّ

أ - عُبَيْدُ اللَّهِ بْنِ قَيْسِ الرُّقَيَّاتِ :

هو شاعر قرشيّ انحاز الى ابن الزُّبَيْرِ، وكان قرشيّاً خالصاً في آماله والامه، يذهب الى وجوب حصر الخلافة في قریش وكان حريصاً على وحدة قریش .
اما شعره فهو شعر العاطفة؛ واغراضه المديح، والثناء، والفخر بقریش، والوعيد . وكان الرقيّات ارسطقراطياً في مذهبه السياسي وفي شعره .

ب - الطَّرِمَّاحِ بْنِ حَكِيمٍ :

هو شاعر طائيّ من شعراء الخوارج يُجيد المدح والفخر، ويمتاز شعره السياسي بالقوّة، والروح الاسلامي، والرقّة .

ج - الْكُمَيْتِ بْنِ زَيْدِ الْأَسَدِيِّ :

١ حياته : هو شاعر مضرّيّ وُلد بالكوفة وشبّ على ثقافة البدو والحضر . ورث التشيع لاهل البيت عن بيئته بالكوفة، فكان شاعر الشيعة يحتجّ لهم ويدافع عنهم . وتعلّق بال البيت عرّضه للموت مراراً . وقد اعتذر للامويّين أخيراً ومدحهم .

٢ آثاره : اشهر ما بقي له « الهاشميات » وهي ثلث قصائد .

٣ قيمة شعره : كان شعره شعر العلم والثقافة يجمع ادب البادية والحاضرة، ويميل اسلوبه الى التقرير . وهو شعر حيّ ناهض يدعو الى الحياة والنهوض .

عُبَيْدُ اللَّهِ بْنِ قَيْسِ الرُّقَيَّاتِ (توفي سنة ٦٩٤ م / ٥٧٥ هـ)

شاعر من قریش، لُقّب بالرُّقَيَّاتِ لانه شَبَّ بثلاث نساء سَمَّين جميعاً رُقَيَّة .
وكان ممَّن انحاز الى ابن الزُّبَيْرِ، وخرج مع مصعب بن الزُّبَيْرِ على عبد الملك بن مروان، ومدحه، وطعن في بني امية ، ثم انحاز الى عبد الملك بعد قتل مُضْعَب وعبدالله فأمنه .

وكان قوشياً خالصاً في آماله وآلامه؛ يذهب الى وجوب حصر الخلافة في قريش . وكان حريصاً على وحدة قريش يريد ان تبتعد عن الاحزاب التي تترقها . فيفخر بتلك القبيلة ويدعوها الى جمع شتاتها .

لم يسلك الرقيّات مسلك البرهنة والاحتجاج في شعره بل ترك المجال واسعاً لعاطفته : عاطفة حزينة على قومه، وعاطفة السخط على الامويين الذين خذلوا الحجاز موطن قريش، واعتمدوا على اليمينية دون قريش .

أما اغراض شعره فالمديح الذي افاضه على الزبيريين والشيعة والامويين، والثناء، والفخر بقريش وبأسرته وبأمية، والوعيد .

وكان عبيد الله بن قيس الرقيّات ارسطوراطياً في مذهبه السياسي القرشي، وفي خلقه الشريف، وفي شعره الذي لا ينحدر فيه الى الإسفاف او الإقذاع .

الطرماح بن حكيم (توفي سنة ٧١٨ م / ١٠٠ هـ)

شاعر طائي من شعراء الخوارج، نشأ بدمشق وانتقل الى الكوفة مع من وردوها من جيوش اهل الشام . واتصل بأحد الشراة الازارقة فدعاه الى مذهبه حتى اعتقده اشدّ اعتقاد .

وهو يجيد المدح والفخر . ويمتاز شعره السياسي بالقوة، والروح الاسلامي، والرقّة، والحنين الى الاستشهاد . وقد صور حياة الشراة في الحرب والسلم .

وهو يميل في شعره الى استعمال الغريب . وكان اذا استعمله لا يقع به في مكانه .

الكميت بن زيد الاسدي (٦٧٩ - ٧٣٤ م / ٢٠ - ١٢٦ هـ)

١ هجاء : الكميت بن زيد الأسدي من مضر، وُلد بالكوفة سنة ٦٧٩ م / ٦٠ هـ

وشبَّ على ثقافة البدو والحضر، فاجتمع له علم غزير بلغات العرب

(١) الشراة : الخوارج، ومن كبار فرقهم : الأزارقة، والنجدات، والصفريّة، والمجاردة، والاباضية، والثعالبة .

وأشعارها وأنسابها، وأيامها ومثالبها . وقال الشعر وهو حدث، إلا أنه لم يتكسب به بل اكتفى بحرفة تعليم الصبيان بمسجد الكوفة . وما إن حُصِف شعره حتى ارادته عشيرته أن يكون شاعرها يُنافح عنها ويصاول أعداءها .

وقد ورث التشيع لأهل البيت عن بيئته بالكوفة، فكان شاعر الشيعة يحتاج لهم بشعره ويدافع عنهم، مناهضاً بني مروان أصحاب الملك، غير قابل إجازة على عمله، ولا راض بصلة ممن يناصرهم؛ يعمل عزيز النفس في اخلاص كامل للمبدل الذي يخدمه . وقد سُحِيت قصائده التي أعلن فيها تشيعه لبني هاشم وآل علي « الهاشميات » .

وتعلّقه بآل البيت عرّضه للموت مراراً . ولما هجا حكيم الكلبي، من اليمانية وأهل الشام، آل علي وشيعته وسائر مضر، ردّ عليه الكُميت فهجا الكلبي واليمانية جمعاء، فغضب عليه والي العراق، خالد بن عبدالله القسري، وكان يمانياً، وسعى به إلى هشام بن عبد الملك، فأمره بقتله، فقبض عليه وسجنه . إلا أن الكُميت فرّ من السجن قاصداً الشام، مستجيراً بقبر معاوية بن هشام، فنال بذلك الأمان . وعند ذلك قال قصيدة يعتذر فيها إلى بني أمية، ويتوب من تشيعه، فأجازه الخليفة . وقد توفي سنة ٧٣٤ م / ١٢٦ هـ .

٢ آثاره : للكُميت شعر كثير في المدح والهجاء وغيرها، وقد ضاع أكثره، وأشهر ما بقي له « الهاشميات » التي قالها في الاحتجاج لبني هاشم على خصومهم، وهي ثلثي قصائد، طُبعت بمصر وفي لندن سنة ١٩٠٤ . أما أولها الذي عرضه على الفرزدق فأشار عليه باذاعتها، فهو :

طَرَبْتُ وَمَا شَوْقًا إِلَى الْبَيْضِ أَطْرَبُ وَلَا لَعِبًا مَنِيَّ وَذُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ
وَلَمْ يُلْهِنِي دَارٌ وَلَا رَسْمٌ مَتَرَلٍ وَلَمْ يَطْرَبْنِي بَنَانٌ مُخَضَّبٌ
إِلَى النَّفَرِ الْبَيْضِ الَّذِينَ يُحِبُّهُمْ إِلَى اللَّهِ فِيمَا نَابَنِي أَنْقَرَبُ
بَنِي هَاشِمٍ رَهْطِ النَّبِيِّ، فَإِنِّي هَمُّ وَلَهُمْ أَرْضِي مِرَارًا وَأَغْضَبُ

(١) طَرَبْتُهُ : حمّله على الطَرَب . الْبَنَان : الأصابع، وقد استعملها الشاعر كاسم جمع، ولهذا جعل الصفة بعدها بصيغة المفرد . الْمُخَضَّب : المصبوغ بالألوان .

٣٣ فجمه شعره : كان الكميت شاعراً عالمياً جمع من الثقافة العلمية ما لم يجتمع لشاعر في عصره حتى قال بعضهم : « كان في الكميت عشر خصال لم تكن في شاعر : كان خطيب بني أسد، وفقه الشيعة، وحافظ القرآن، وثبت الجنان، وكان كاتباً حسن الخط، وكان نسابة، وكان جديلاً وهو أول من ناظر في التشيع مجاهراً بذلك، وكان رامياً لم يكن في بني اسد أرمى منه، وكان فارساً، وكان شجاعاً، وكان سخياً ديناً » .

وقد جمع الكميت في شعره بين أدب الحاضرة والبادية، فكان من جهة المبنى كسائر شعراء البادية في الاسلام والجاهلية، وكان من جهة الغرض الذي يرمي اليه حضرياً سياسياً فيه الجدل والاحتجاج، يميل أسلوبه الى التقرير . وشعر الكميت يمثل عصر بني مروان تمثيلاً صادقاً، وهو شعر حيّ ناهض يدعو الى الحياة والنهوض .

بعض المراجع

— عبید الله بن قيس الرقيات —

احمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي - القاهرة ١٩٤٥ ص ١٧٧ - ١٨٣
جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية - الجزء الاول - القاهرة ١٩٣٦ ص ٢٧٤

— الطرمّاح بن حكيم —

احمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي ص ١٥١ - ١٥٢
جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية - الجزء الاول - ص ٢٦٣ - ٢٦٤

— الكميت بن زيد الأسدي —

احمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي - ص ١٦٤ - ١٦٧
جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية - الجزء الاول - ص ٢٦٢ - ٢٦٣
عبد المتعال الصعيدي : الكميت بن زيد - الرسالة ٥ (١٩٣٧) : ص ١٧٣٨ - ١٧٤٠
١٨١٩ - ١٨٢١، ١٨٩٥ - ١٨٩٧، ٢٠٢٠ - ٢٠٢٢
الرسالة ٦ (١٩٣٨) : ٥٧ - ٥٩، ٤٢٠ - ٤٢٢، ١٧٥٢ - ١٧٥٣
١٧٨٧ - ١٧٨٨، ١٨٢٨ - ١٨٢٩، ١٨٦٩ - ١٨٧٠، ١٩٠٧ - ١٩٠٨

الباب السادس

فنون شعرية خاصة

الأراجيز - الراعويات

الأراجيز

١ تعريف بالأراجيز : هي الشعر المنظوم على بحر الرّجز . ويمتاز فنّ الرّجز بتصرّيع جميع أبياته .

٢ تاريخها واغراضها : فنّ الرّجز قديم عند العرب ، وكان فنّاً شعبياً اغراضه اغراض الشعر المعروفة .

٣ ميزات شعر الأراجيز : غرابة اللغة - قصر العبارات - التّضمين - الجمل الاعتراضية - تقطيع العبارات - وحدة الموسيقى - الخضوع لنظام القصيد - جمال ملحوظ أحياناً .

٤ أشهر الرّجّاز : العجاج، ورؤبة .

الراعويات

١ ما نعني بها : نعني الشعر الذي نُظم في الراعي ورعيّته والبادية وما الى ذلك .

٢ أشهر ارباب هذا الفنّ :

١ - الراعي : اتّجه في شعره الى وصف الإبل وتصوير حياتها في المراعي، تصويراً جديداً أحيّا فيه الإبل حياة إنسانية ؛ واطاف الى ذلك عادات البدو .

٢ - ذو البرمة : برّز في كل ما يتّصل بحياة البادية، وابرّز المعاني الانسانية في الطبيعة الحية البدوية .

الأراجيز

١ تعريف بالأراجيز : الأراجيز هي الشعر المنظوم على بحر الرّجز، ووزنه التام

«مُسْتَفْعِلُن» ستّ مرّات . وهذا البحر يُستعمل مشطوراً

ومنهوكاً . ويمتاز «فنّ الرّجز» عند الشعراء بتصرّيع جميع أبياته طالت الأرجوزة أو قصّرت .

٢ **ناربخها واغراضها** : يذهب الرواة الى أن الرجز سبق الشعر، ويذهب البعض منهم ان الشعر كله كان رجزاً، وان المهمل وامراً القيس هما اللذان قصدا القصائد . وكان الرجز فنّاً شعبيّاً يعتمد اليه العرب في آونة الحُصام والتزال، والحداء والاستقاء على الآبار وما أشبه ذلك، مقتصرين منه على البيت او البيتين أو نحو ذلك، ولم تكن له منزلة القصيد الا في هذا العهد، فأطاله الشعراء واستخدموه في فنون الشعر المختلفة . قال ابو عبيدة في عمدته : «إنما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك . . . حتى كان العجّاج أول من أطاله، وقصّده، ونسب فيه، وذكر الديار واستوقف الرُكّاب عليها، ووصف ما فيها، وبكى على الشباب، ووصف الراحلة، كما فعلت الشعراء بالقصيد، فكان في الرّجاز كأمريّ القيس في الشعراء » .

٣ **مبرات شعر الراجز** : لما كانت الراجز فنّاً خاصّاً، ذا شكل خاص في التركيب والموسيقى، كان لها بعض الميزات الخاصة، وقد لخصها احمد الشايب بقوله :

١ - « غريب اللغة طبعيّ الوجود في الرّجز عامّة والأمويّ خاصّة . ذلك ان التزام التصريع في جميع الابيات يستدعي حشد الكلمات المتحددة الرّويّ، ولا يمكن ان تكون كلها مألوفة الاستعمال، فإذا أُضيف الى ذلك ان يتناول الرّجز وصف البادية وما اليها كان ذلك عاملاً آخر اغرابه اللفظ، لان إلف البادية صار وفقاً على ساكنيها دون ساكني الحضر .

٢ - وليست الغرابة وفقاً على المعاني فقط بل تتناول بناء الكلمات واشتقاقها فهناك مصادر، وجموع، وصفات مشتقة، وأفعال ترد غريبة الصياغة الصرفيّة غير سائرة، نجدّها واردة لأجل الوزن والقافية .

٣ - لما كان الوزن قصيراً اقتضى قصر العبارات، وقد يُضطرّ الراجز الى التّضمين الذي صار اصلاً في هذا الفن حتى تتمّ العبارة في بيتين ؛ كذلك تكثّر الجُمْل الاعتراضية وتقطيع العبارات، محافظةً على الوزن .

٤ - تمتاز القوافي هنا بالغرابة اللفظية والمعنوية، وبوحدة الموسيقى، وبكثرة الضرورات التي يحتملها هذا الوزن ذو التفعيلة الخفيفة « مُستفعلن » .

٥ - خضع الرجز لنظام القصيد الذي التزمه فحول الشعراء ؛ من حيث الديباجة، وتنوع الفنون، والطول ؛ ولكنه امتاز عند زعمائه بالدقة والاستقصاء ولاسيا في الوصف، وغلبة الفخر والاستطراد .

٦ - للرجز احياناً جمال ملحوظ وبخاصة النسيب والفخر والوصف، لأن هذه فنون غنائية خالصة، يلائمها ترديد الوزن وتجويده، وطول نفس الشاعر فيه «

٤ أشهر الرموز : تعدد الرُّجَاز في هذا العهد، ولكن المشهورين هم العجّاج، وابنه رُوْبَة (٧٦٢ م / ١٤٥ هـ)، وابو مِرْقَال الزَّيَّان، وابو نُحَيْلَة الجُمَانِي .

وقد أدّى العجّاج ورُوْبَة بالرجز جميع الاغراض الشعرية من وصف وغزل ومدح وهجاء وفخر . إلا ان طائفة الرُّجَاز كانت تطلب خدمة اللغة قبل كل شيء، ولهذا ظفرت بإعجاب علماء اللغة، وان لم تظفر بإعجاب الخلفاء وسواد الناس، كما لم تظفر برضى الفن الشعري الخالص .

الراعويات

١ ما نَعْنِي بِهَا : نعني بالراعويات الشعر الذي نُظِم في الراعي ورعيته، وفي المسرح البدوي والصحراوي الذي يمثّل فيه الراعي ورعيته دورهما . فكان ذلك الشعر خزانة لحياة البادية في مختلف نواحيها .

وهذا لا يعني أن شعراء هذا الفن قد انصرفوا عن اغراض الشعر العامة من مدح وغزل وما الى ذلك ؛ انما يعني انهم لم يُخضعوا شعر البادية والطبيعة للاغراض المديحة والغزلية وغيرها، وأنهم فسحوا مجالاً واسعاً للطبيعة البدوية ولحياة الراعي ورعيته .

٢ أشهر ارباب هذا الفن: اشتهر بهذا الفن شاعران كبيران هما الراعي وذو الرمة .

١ - اما الراعي (٧٠٩ م / ٩٠ هـ) فهو عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل الثميري من مضر . كان راعي إبل من اهل بادية البصرة . عاصر جريراً والفرزدق، وكان يُفضّل الفرزدق فهجاء جريراً هجاءً مرّاً .

وقد اتّجه في شعره الى ناحية خاصة هي وصف الابل وتصوير حياتها في المراعي، حتى قال عنه القدماء: « كأنه يعتسف الفلاة بغير دليل، اي انه لا يحتذي شعر شاعر ولا يُعارضه » .

وإن اکتفى من سبق الراعي وعاصره من الشعراء بوصف الناقة تسير، وتشبيهها بجيوان الوحش، فقد زاد عبيد بن حصين على ذلك تصوير حياة الوعاة، والايغال في احياء الابل حياة انسانية، وتصوير رحلة الابل مجتمعة، مع حاديها، وورودها الماء ورعيها، ووصف دقائق هذه الرحلة . وأضاف الشاعر الى ذلك كثيراً من عادات البدو في إكرام الضيف ونحر الابل والشجاعة وما الى ذلك .

٢ - اما ذو الرمة (٦٩٦ - ٧٣٥ م / ٧٧ - ١١٧ هـ) فهو أبو الحارث غيلان العدوي من مضر . عشق مئة المنقرية واشتهر بها . له ديوان شعر اكثره تشبيب وبكاء اطلال على مذهب الجاهليين . اتّجه أولاً الى الرجز ثم انصرف عنه . وقد برّز في كل ما يتصل بحياة البادية من المعرفة اللغوية والغزل ووصف الطبيعة، ولم يهمل المدح والاتصال بالحكام . الا انه كان ضعيف المدح والهجاء لم يقيم تفوقه الا على ناحيتين: ناحية لغوية تعجب العلماء، وناحية شعوية بدوية تُرضي الذوق العام .

لقد احيا ذو الرمة شعر الطبيعة من اقدم العصور الى وقته، وضمن شعره صور الطبيعة كما مثلها الادب العربي قبله . على أنه لم يُحيي على علّاته، وانما اختار اجمل ما فيه، فأدّاه اداءً بارعاً، بانفعال ملموس، وشغف ظاهر . وأبرز

المعاني الانسانية في الطبيعة الحيّة البدويّة . فرسم الحيوان وبث فيه افكاراً
وهواجس واهواء، وصور الصحراء كائناتاً رهيباً جبّاراً، وكذلك الليل . ولم يكن
في كل ذلك مبتدعاً انما كان مختاراً .

بعض المراجع

- محمد عبد المنعم خفاجي : الحياة الادبيّة بعد ظهور الاسلام - القاهرة ١٩٤٩ ص ٥٦٢ - ٥٦٣
احمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي - القاهرة ١٩٤٥ - ص ٢٧٢ - ٢٨١
سيد نوفل : شعر الطبيعة في الادب العربي - القاهرة ١٩٤٥ ص ١٣٢ - ١٥٢

الباب السابع

النثر الفني

الفصل الاول

النثر الایجازي^٣

١ - **النثر الفني وظهوره عند العرب** : لم يؤثر عن الجاهلية نثر فني بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . ولما جاء الاسلام ازداد النثر توسعاً ، وعمد الى الصنعة ولكن في اقتصاد ، وكانت قاعدة البلاغة فيه الایجاز .

٢ - انواع النثر الایجازي :

١ - **الخطابة** : دعا الى الخطابة الدين الجديد، وتوحيد الامّة، وفتح البلاد، وتجميد الاحزاب والعصبيّات، والمفاخرات والمناقضات والمجاورات . وفنت الخطابة في العراق خصوصاً واختلفت اغراضها بين دينيّة، وحزبيّة، وحريّة . وكانت تندفع حياةً وتكثر فيها اساليب التهديد والتهويل من غير خروج عن الایجاز . وقد اشتهر من الخطباء لذلك العهد علي بن ابي طالب، وزيد ابن ابيه، والحجاج بن يوسف .

٢ - **التوقيعات** : ظهرت في صدر الاسلام وازدهرت في عصر بني أميّة، وكانت غايةً في البلاغة والایجاز .

٣ - **الرسائل** : تعددت الرسائل الدينيّة والسياسية ولكنها لبثت في اول امرها إيجازيّة . وكانت تنزع منزع الخطب وتخلو من التعبير الفني والتنميق .

بعض مشاهير الخطباء

١ - علي بن ابي طالب :

١ - **حياته** : وُلد في مكّة ونشأ لا يفارق محمداً، يشهد الغزوات بشجاعة وإقدام . وفي سنة ٦٥٦ م / ٣٥ هـ بُويع بالخلافة، فناهضه معاوية، فانتصر عليّ في واقعة الجمل ثم اخفق في صفين، وقُتل سنة ٦٦١ م / ٤٠ هـ .

٢ - **آثاره** : أشهر آثاره كتاب «نهج البلاغة» الذي جمعه الشريف الرضي ، وشكّ بعض النقاد في صحّة نسبته الى عليّ .

تظهر شخصية عليّ في نهج البلاغة فذّة . فهو فيه رجل العقيدة والاستقامة والطموح الاخلاقيّ، والشجاعة، ورقّة العاطفة وعمقها .

وللكتاب قيمة معنويّة، وقيمة فنيّة . فحكمه تمتاز بقوة الفكرة، واقتضاب المبني ورشاقته . - ورسائله تمتاز بالاليجاز، وترمي الى التحريض والنصح والاحتجاج في كلام طبيعيّ لا يخلو من تنميق . - وخطبه مرتكزة على ايمان وثيق بالله، وإعجاب بمخلوقاته وكمالاته، وزهد بالخيرات الزائلة .

٣ عبقرية الامام : تقوم عبقريته على عقل ذكيّ واسع الإدراك، وخيال واسع الآفاق، وشعور حيّ دافق، وملكة كلاميّة نادرة، ومعرفة بدنيّة بوسائل التعبير واساليب الفن . ومن ثمّ فكتاب نهج البلاغة ثروة فكريّة وأدبيّة واسعة، يجمع الآراء السديدة في الدين والاجتماع .

ب - زياد ابن ابيه :

١ حياته : ولد زياد بالطائف، ولما شبّ اتخذه موسى الاشعري كاتباً له، ثم ولاه علي إمرة فارس، ثم استأله معاوية وولاه العراق، فقمع فيه الثورات والفتن .

٢ آثاره : لزياد خطب سياسيّة وإدارية اشهرها الخطبة البرداء . ولهذه الخطبة قيمة سياسيّة وقيمة فنيّة . أما القيمة السياسيّة فظاهرة في أقسام الخطبة . فن كلام الدين انتقل الخطيب الى الاصلاح مفصلاً دستوراً، ثم دعا الى طاعة بني امية . واما القيمة الفنيّة فقائمة على حسن التأليف، وشدة العاطفة، وررعة الاسلوب .

ج - الحجاج بن يوسف :

١ حياته : ولد الحجاج بالطائف، ولما شبّ دخل في شرطة رّوح بن زئباع، ثم وليّ علي جند عبد الملك . وفي سنة ٦٩٢ م / ٧٢ هـ حاصر مكة وقتل ابن الزبير . ثمّ تولى العراق فأرجع الامن فيه الى نصابه . وكان الحجاج حياته كلها ذا شخصية قويّة تنزع منزع الشدة والقسوة .

٢ - آثاره : أشهر آثاره مجموعة من الخطب تجلّي فيها نفسيّته، وسياسته، وبلاغته . وقد رمى فيها الحجاج الى التهويل والتخويف، فجعل كلامه قوياً في معانيه، قوياً في صورته، قوياً في مبناه . وعمد الى الإغراب، والإكثار من الصور المفزعة، والالفاظ الزاجرة، والاشعار الغريبة، في تحبير، وتنميق، ورصف وتجويد .

١ النثر الفني وظهوره عند العرب : النثر الفني هو ما حوى افكاراً منظّمة في عرض جميل جذاب، وصياغة

جيدة السبك، فصيحة الاسلوب . وقد ذهب مؤرخو الأدب في تحديد تاريخ ظهور النثر الفني عند العرب مذاهب متباينة، فقال بعضهم انه ظهر قبل القرآن بقليل وصاحب ظهور القرآن، ثم نما وازدهر الى أن أقره عبد الحميد الكاتب وابن المقفع؛ وقال البعض الآخر ان النثر الفني لم يُعرف عند العرب الا مع عبد الحميد وابن المقفع .

والذي لا شك فيه أنه لم يؤثر عن الجاهلية نثر فني بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة؛ فقد بدأ النثر العربي على منهج الساميين الاقدمين في الكتابة، جاريًا على غير نظم وقواعد، متبعًا أساليب الكلام، غير مُقيّد برابط، يُرسلُ جملاً مُقطّعة تُعتر عن الافكار في قوالب تشبه الحُكم والأمثال، او تشبه الاحكام القاطعة، من غير ما تفصيل ولا تحليل، ولا شرح ولا برهان طويل، في لفظٍ وجيز بريء من الصنعة المقصودة، اللهم إلا ما هنالك مما يُخرجه مخرجاً يسهل معه الحفظ والتناقل، كأن يكون فيه بعض السجع والتزويج .

ولما جاء الاسلام بفتوحاته ازداد النثر توسعاً وعمد الى الصنعة ولكن في اقتصاد كثير، لا بل غلب عليه الطبع، وكان يُقصد فيه الى توضيح الفكرة بایسر عبارة واقرب طويق، وكانت قاعدة البلاغة فيه الایجاز؛ فأتسم النثر من ثمّ بسمة الایجاز، وكان شديد الصلة بالنثر القديم من هذا القبيل .

٢ أنواع النثر الإيجازي : يُقسم النثر الإيجازي في هذا العهد الى ثلاثة انواع هامة : الخطابة والتوقيعات والرسائل .

١ - الخطابة :

أدواعيها : لقد فشت الخطابة في هذا العهد فشواً عظيماً، وأحبها الناس، خفلت بها النوادي والمجالس وقصور الخلفاء والأمراء، وأماكن القضاء، حتى البيوت الخاصة . ولا عجب في ذلك فقد توقرت أدواعيها في بيئة رأت ديناً جديداً يبيث دعوته ويناضل خصومه، ويُنطق الوعاظ على منابرهِ لتغذية الشعور الديني القوي؛

ورأت أمة تتوحد تحت نظام اجتماعي يوحد العرب في ظل رئاسة عليا ويحتاج الى توطيد وتثبيت، وتفاهم بين الرعاة والرعية في زمن كان اكثر الاعتماد فيه على الاسنة لا على الاقلام؛ ورأت دولة تفتتح جيوشها البلاد فتخضع لها خراسان وبلاد الترك وسجستان والسند وإفريقية والمغرب والاندلس وغيرها، ويبعث قوادها في صدور جنودها الحماسة والشجاعة، كما يبعثون الفخر بالنصر والسرور ببشرى الظفر . ورأت احزاباً تتجادل، وعصبيات تتنازع : نزاع حول السلطة العليا، ونزاع من اجل النفوذ، وثورات عقائد ومبادئ؛ ووفوداً تتقاطر على الخلفاء والامراء والولاة، وحفلات تُقام في دار الخليفة يُظهر فيها الخطباء فصاحتهم، ومفاخوات ومناقضات ومحاورات في السياسة والاجتماع والآداب بين يانئية ومضرية، وعرب وشعوبية وغيرها؛ كل ذلك مع قرب عهد من فصاحة الجاهلية، وملكة بيانئية تمكّن من الكلام مهياً ومرتبلاً .

٢ بيئتها : أهم بيئة نمت فيها الخطابة لهذا العهد هي الحجاز أولاً ثم العراق خصوصاً؛ وفي العراق نبتت المذاهب السياسية، واتسعت خطابة المحافل، كما اتسع الوعظ الديني . أما اقليم الشام فلم يظهر به شيء من الجدل السياسي او الديني، وقبلما كان فيه شأن للوعظ الديني .

٣ أغراضها وموضوعاتها : كانت اغراض الخطابة تختلف باختلاف دواعيها، فمنها الدينية وفيها الدعوة الى الدين وحجاج المعادين؛ ومنها الحزبية وفيها الجدل والدفاع عن الرأي والمبدأ؛ ومنها السياسية والحزبية وفيها شرح الخطط السياسية والحض على النضال، والوعيد والانذار؛ الى غير ذلك من الاغراض كالنصيحة والوصية وما توحى به الحوادث المفاجئة والمناسبات الكثيرة .

٤ قيمتها الفنية : نزع الخطابة في هذا العهد نزعة دينية في كثير من احوالها، وظهرت فيها معاني القرآن التي كان يرغب الخطباء في اقتباسها كما كانوا يرغبون في ارسال الحكم؛ وقد نفخت فيها العاطفة الدينية والحزبية بشدة،

فنبضت حياة ؛ واهتم الخطباء للتأثير والإقناع اهتماماً واسعاً، فأكثرُوا من اساليب التهديد والتوبيخ والوعيد والانداز؛ ولئن جارت الخطابة الطبع في فجر الاسلام فقد تطوّرت مع الايام، واخذت تهتم لفنون الموسيقى الصوتية ولضروب التعبير والتحسين، وظهر السجع بعد ان أعرض عنه محمد تحاشياً عن اساليب المتكهنين، وكان ظهوره خصوصاً عن السنة خطباء الوفود حين يقفون بين يدي الخليفة، ويحاولون بسجعهم ان يُيقوا في النفوس تأثيراً عميقاً. وقد كثّر السجع شيئاً فشيئاً كما كثّر التصوير. وقاد حب التأثير الى صقل الالفاظ وتنميق التراكيب. فحوت خطب ذلك العهد، ولاسيما القسم الاموي منه، فنوناً من البلاغة والفصاحة وروعة التعبير، وضروباً من التقسيم والتشبيهات والاستعارات؛ إلا انها لم تخرج عن حدود الایجاز في مجملها، كما انها لم تخرج خروجاً جوهرياً عن الشدة والصلابة والمتانة الجاهلية.

هـ اشهر الخطباء في هذا العهد : اشتهر في الخطابة السياسية زياد ابن ابييه والحجاج بن يوسف في الحزب الاموي، والمختار الثقفي في الحزب الشيعي، وقطري بن الفُجاءة في حزب الخوارج؛ واشتهر في الخطابة الحفلية الأحنف ابن قيس زعيم تميم بالبصرة؛ واشتهر في الخطابة الدينية علي بن ابي طالب، وتميم الداري بالمدينة، والحسن البصري، وواصل بن عطاء، والفضل بن عيسى في العراق، وعنلان والاوزاعي في الشام.

٢ - التوقيعات : التوقيعات عبارات موجزة كان يكتبها الخليفة او الوالي او عاملها في اسفل الشكاوى والمظالم، او المطالب والحاجات، التي كانت تُرفع اليهم بما يتضمّن الرأي فيها، كأن يُكتب الى وزير في غرض ما، فيكتب الرئيس تحته بما يُفيد وجوب الفحص او قضاء المآرب. وكانت هذه التوقيعات غاية في البلاغة والایجاز.

وقد ظهرت التوقيعات في صدر الاسلام وازدهرت في عصر بني أمية. ومن امثلة ذلك ان رجلاً شكّا الى زياد عقوق ابنه فوقع في ذلك : « ربما كان عقوق

الولد من سوء تأديب الوالد». ومن توقعات معاوية قوله : « نحن الزَّمان من رفعناه ارتفع ومن وضعناه اتضع » .

٣- الرسائل : أخذت الكتابة تنتشر شيئاً فشيئاً بعد ظهور الاسلام لامتداد سلطان العرب وحاجة الخلفاء والولاة ورؤساء الاحزاب الى الاتصال بمن يهتمهم امرهم . فان كثرة مصالح الدولة واختلاف الآراء في هذه المصالح وظهور التنافس بين الاحزاب دعت الى الاهتمام بالكتابة اهتماماً كبيراً، فأتضحت اتضاحاً لم نعهده في الجاهلية، وتعددت الرسائل الدينية والسياسية، ولكنها بقيت في أول امرها ايجازية ثم تطورت مع تعدد مصالح الدولة والمجتمع الى ان اصبحت تفصيلية كاملة العناصر الفنية في اواخر العهد الأموي .

وكان ارباب الخطابة هم ارباب الرسائل ايضاً كما كانت الرسائل خطباً مكتوبة تحتوي اعتبارات اخلاقية، وتحريضات دينية وما الى ذلك، خالية من التعبير الفني والتنميق، ترمي الى اداء الغرض الديني او السياسي في أخصر صورة . إلا اننا نلمس فيها بعض عناصر الفن الحقيقي وان لم نلمس تلك العناصر جملة .

بعض مشاهير الخطباء

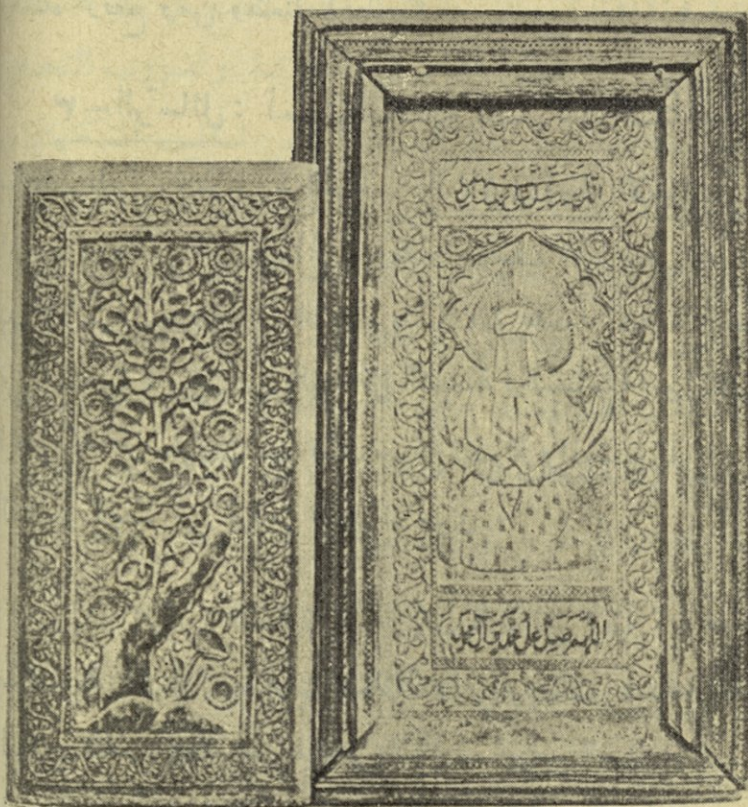
١- علي بن أبي طالب (٦٠٠ - ٦٦١ م / ٤٠ هـ)

١- مهابة : علي بن أبي طالب وُلد في مكة سنة ٦٠٠ م، ونشأ في حجر محمد لا يفارقه، وشهد الغزوات كلها الا غزوة تبوك . وكان شديد البلاء في الحروب حتى لُقِبَ بسيف الاسلام .

تزوج فاطمة بنت محمد فولدت له الحسن والحسين .

ولما توفي محمد ولي الخلافة ابو بكر ثم عمر ثم عثمان ؛ فكان علي للجميع ظهيراً ومعيناً ومشيراً .

وفي سنة ٦٥٦ م / ٣٥ هـ بُويع عليّ بالخلافة، فاخذ معاوية بن أبي سفيان يؤلب



بني أمية عليه،
وانضمت اليهم عائشة
وطلحة بن عبيد الله
والزبير بن العوام،
وذهبوا الى البصرة
يبعثون فيها القتنة .
فلم ير عليّ بدءاً من
السير اليهم بسبعة
آلاف مقاتل، فالتقى
الجيشان واقتتلا قتالاً
شديداً كان النصر
فيه لعليّ . وُسِّمَت
تلك الحرب « واقعة
الجل » لأن عائشة

رسم على مرآة يمثل علي بن ابي طالب يحمل السيف ذا الفقار -

كانت على حمل تحريض الابطال على عليّ وجيشه .

ثم سار علي لمحاربة معاوية في صفين وكاد يتغلب عليه . فعمد الامير الأموي
الى الحيلة، وأمر برفع المصاحف على الرماح، فكفّ المنتصرون عن القتال وكان
الإخفاق لعليّ بحيلة عدوه . وختم التحكيم المأساة، فأسقط فيه ابن ابي طالب ولم
يسقط معاوية ؛ فعاد علي الى الكوفة يستعدّ لحرب عدوه، فقتله عبد الرحمن بن
مُؤجَّج بسيف مسحوم وهو في مسجد الكوفة، وذلك سنة ٦٢١ م / ٤٠ هـ .

٢ آثاره : يُنسب الى علي ديوان شعر في الزهد والحكم، والأشهر انه منحول
بجملته . ويُنسب اليه في النثر اثنا عشر مؤلفاً في الحكم والوعظ،
أهمها وأشهرها « نهج البلاغة » .



حمزة وعلي وقد بعثهما محمد في مهمة

(المدرسة السلجوقية - في مخطوط من كتاب جامع التواريخ

لرشيد الدين، مؤرخ سنة ٧١٤ هـ (١٣١٤ م)

١ - مضمون نهج البلاغة : هو كتاب جليل جمع فيه الشريف الرضي

(١٠١٥ م / ٤٠٦ هـ) كل ما ينسب الى الإمام علي من خطب واوامر، وكتب ورسائل،

وحكم ومواعظ؛ وشرحه كثيرون من الناس منهم ابن ابي الحديد (١١٩٠ -

١٢٥٧ م / ٥٨٦ - ٦٥٥ هـ) والشيخ محمد عبده . وطبع مراراً في بيروت ومصر

والهند والعجم .

٢ - صحة نسبته الى علي : يذهب بعض النقاد الى ان « نهج البلاغة » من

وضع الشريف الرضي لا من وضع علي ؛ وهم يعتمدون في ذلك على البراهين التالية :

(١) في الكتاب من التعريض بالصحابة ما لا يمكن صدوره عن مثل الإمام علي .

(٢) في الكتاب من الافكار العميقة، والإحكام في الفكرة، واستعمال

الالفاظ الفلسفية الاصطلاحية كالأئين والكيف ونحوها، واستعمال الطريقة العددية

في شرح المسائل وفي تقسيمات الفضائل او الرذائل، والدقة في الوصف، واستفراغ

صفات الموصوف - كما في الكلام على الطاووس والنملة وغيرها - ما لم يوجد في

عصر علي، ولم يعرف عند العرب إلا بعد ترجمة كتب اليونان والفرس الادبية والحكومية .

(٣) في الكتاب من السجع والتنميق اللفظي وآثار الصنعة ما لم يعهده عصر علي، وإنما ذلك طراً على أساليب الكتابة في اواخر العهد الاموي وفي العهد العباسي.

(٤) في عبارات الكتاب ما يُلمس منه ادعاء صاحبه لعلم الغيب، وهذا امر بعيد عن رزانة علي وعن أخلاقه الرفيعة .

تلك براهين اصحاب هذا الرأي وهي تصطدم ببراهين مَنْ يُشبتون أن الكتاب بمجمله لعلّي، معتمدين على قوة تفكير الرجل ونبوغه الفطري ومزنته الدينية والاجتماعية الرفيعة؛ مبينين أن ما يُعدُّ غريباً ليس سوى ثروة العقل المفكر، وأن السجع والتنميق في الكتاب عن طبع لا عن صنعة، وأن ما يُرى ادعاء لعلم الغيب ليس سوى استنتاج القضايا الاجتماعية من مقدّماتها وأسبابها .

ومأ لا ريب فيه ان الكتاب لا يخلو من المنتحل المدخول الذي لا تصحُّ نسبته الى الإمام، ولكن تفصيل ذلك مما لا طائل تحته في دراستنا الادبية هذه .

٣ - شخصية علي في نهج البلاغة : يبدو علي في نهج البلاغة ذا شخصية فذة .

فهو رجل العقيدة القويّة والايمان الحيّ، الذي تقوده العقيدة الى القيام بجميع شعائر الدين والى حمل الآخرين على اتباعه في هذا السبيل؛ وهو لا يعرف في ذلك هواة، ولا يقيم فيه حداً . ومن ثمّ نلّس في نصائحه وحكمه قسوة وصلابة .

وتقوده عقيدته الحية ايضاً الى الاستقامة التي لا تعرف التواء ولا عوجاً بل تمضي في سبيل العدل والواجب من غير مراعاة للخواطر ولا محاباة للوجوه؛ فلا يُججم عن الشدة والقسوة في الدفاع عن الحقوق سواء أفرديّة كانت ام اجتماعية . وهذه الاستقامة الصلبة التي لا تتّبع طرق السياسات الانسانية ولا تلين في حال من الاحوال وقفت دون شعبيته بعض الوقوف، ودون النجاح الكامل في تدابير الادارية، فكان ضحية استقامته .

وكان الى ذلك طموحاً في الحقل الادبي والاخلاقي يريد ان يكون مثالا عالياً في الاخلاق والتزاهة والتجرّد .

وكان شجاعاً جريئاً في الدفاع عن آرائه والعمل بما تلميه الاستقامة، وفي الحرب وحومة القتال، لا يخشى موتاً، ولا يرهب عدواً . إلا ان شجاعته لم تحجر قلبه ، فكان رقيق العاطفة عميقها تظهر تلك الرقة في مواقف كثيرة ولا سيما عند دفن فاطمة زوجته اذ ظهر ان « حزنه سرمدٌ وليله مسهدٌ ... »

٤ - قيمة نهج البلاغة : إن في كلام علي بن ابي طالب ثروة معنوية تفرد له مكاناً خاصاً في ادب ذلك العهد، وثروة مبنوية تجعل في كلامه متعة أدبية وجمالاً فنياً . ولكي نقف على بعض هذه الثروة سنستعرض انواع كلامه - الحكم، والرسائل، والمواظ - مبينين قيمتها المعنوية وقيمتها الفنية :

١ - الحكم : أما الحكم فهي اعتبارات موجزة تمتاز بفكرة قوية هي ثرة التفكير او الاختبار، تخرج مقتضبة ، رشيقة المبني ، تعلق في الاذهان بسهولة لأنها ترد في صورة قوية كما في قوله : « إذا كنت في إدار والموت في إقبال فما أسرع الملقى ! » او ترد في مظهر من مظاهر الطباق كما في قوله : « أشرف الغنى ترك المني » ؛ او في تركيب غامض يقتضي تفكيراً : « نفس المرء خطاه الى أجله » ؛ او في توقيع قوي تأنيه قوته من براعة الموازنة : « من حذر كمن بشرك » ، او من حسن استعمال احرف الجر : « الصبر صبران : صبرٌ على ما تكره ، وصبر عما تحب » ، او من حسن تتابع الجمل والتشبيهات : « لا غنى كالعقل ، ولا فقر كالجهل ، ولا ميراث كالادب ، ولا ظهير كالمشاورة . »

٢ - الرسائل : تمتاز رسائل علي بإيجازها ، فأكثرها لا يتجاوز العشرة أسطراً . أما معانيها فهي صادرة عن رجل سياسة وادارة ، تصطبغ بتلك الصبغة نفسها ، وترمي الى التحريض والنصح والاحتجاج . والكلام طبيعي لا يخلو من التجميل البديعي ، ويزرع نزعة الإيجاز والجزالة ، فلا إطناب ولا اضطراب ولا إسفاف : « إعلموا أن »

(١) اي يطلبك الموت من خلفك وانت تقرب عليه المسافة بإدبارك نحوه ؛ وهذا حث على الإقدام لأن في الفرار الهلكة .

مقدمة القوم عيونهم، وعيون المقدمة طلائعهم^١، وإياكم والتفرق، فإذا تزلتم فانزلوا جميعاً، وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً، وإذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كِفَّةً^٢، ولا تذوقوا النوم إلا غراراً^٣ أو مَضْمُضَةً^٤.

٣ الخطب والمواظ : هي أصدق صورة لنفس الإمام، أودعها أعطر ما في قلبه من التقوى الحقيقية المرتكزة على إيمان وثيق بالله، واعجاب بمخلوقاته وكمالاته، وزهد بالخير الزائلة؛ وإيمان الإمام ناطق في كل موعظة من مواظمه، فهي معطرة بذكر الله، تتصاعد منها صلوات حارة جميلة كأجل ما قيل في حديث الإنسان إلى ربه : « أَللَّهُمَّ اغفر لي ما أُنْتُ أعلم به مني . فَإِنْ عُدْتُ فعد عليَّ بالمغفرة اللهم اغفر لي رمزات^٥ الاحاظ وسقطات الالفاظ وشهوات الجنان وهفوات اللسان » .

وكثيراً ما يطير قلب الإمام إلى التأمل بعجائب الله ومدح كمالاته وأعماله؛ فيخطط تلك المقطوعات الشعرية في وصف النملة والطاووس والحفّاش التي هي من روائع الفن الوصفى الدقيق، ويخطط تلك الحمدلات والتعظيمات النابضة بشكر صحيح : « هو الأوّل لم يزل والباقي بلا أجل، خَرَّتْ له الجباه ووَحَّدَتْه الشفاه ... لا يخفى عليه من عباده شخوص^٦ لحظة، ولا كورور لفظة ... » وينتقل الإمام من عواطف الإعجاب بمخلوقات الله وكمالاته إلى عاطفة الزهد في الدنيا . ثم ينزل إلى ميدان الحياة فيعمل على مناصرة الحق ليظهر على الباطل في السياسة والاجتماع .

٣ عقريّة الامام : تتجلى لنا في كتاب « نهج البلاغة » عبقرية الإمام عليّ بكل وضوح . وهي قائمة على عقل ذكي، واسع الادراك، عميق لا تفوته دقائق الامور فيسبر اغوار، ويرسل الافكار مُنَحَّلَةً، ثابتة، بعيدة

(١) الطلائع ج طليعة وهي مقدمة الجيش، مَنْ يُبْعَثَ قَدَّامَهُ لِيَطْلُعَ احوال العدو (٢) الكِفَّةُ : مثل كِفَّة الميزان، فانصبوها مستديرة حولكم، محيطة بكم كأنها كفة الميزان (٣) الغرار : النوم الخفيف (٤) المَضْمُضَةُ : ان ينام ثم يستيقظ ثم ينام ... (٥) رَمَزَات الاحاظ : الإشارات والإيماءات (٦) الشخوص : الارتفاع .

عن الاضطراب والضعف، كثيرة تتدفق في كل لفظة وكل جملة، متسلسلة تترابط وتتساق على غير ما عهدناه في النثر القديم .

وعبقرية الإمام قائمة ايضاً على خيال واسع الآفاق، دقيق التصور، واضح المعالم، يتخذ صورته من الواقع، ويخلق منها مشاهد واقعية رائعة، ولوحات فنية كثيرة الجمال . ويمتزج ذلك الخيال بشعور حي دافق، يبعث في المشاهد والصور حياة ونبضاً فتنتطلق بليغة وتؤثر أشد التأثير .

أضف الى ذلك كله ملكة الكلام ومعرفة بديهة بوسائل التعبير واساليب الفن مما جعل نثر علي خزانة جمعت بين الطبع والصنعة جمعاً شديداً حتى لا تكاد تتميز الصنعة عن الطبع لحسن تمازجها وتألفهما، ولحسن تأثر هذا بتلك . فقدرة الرجل غنية بوسائل الإبلاغ التي يعتمد اليها عن غير إجهاد عقل، ويقصد اليها قصداً للتقرير، فتأتي التشبيهات والصور والامثال والاستعارات وضروب الموازنة والمرادفة والتوقيع والتسجيع، كأنها من وحي الخاطر والطبع، ومن مقتضيات المعنى الذي يختلج في الصدر وتبعثه عقيدة قوية . كل ذلك في لغة جاهلية صقلها وليتها العهد الجديد والحضارة الجديدة، وتساعدت من اجزائها وتآلف تلك الاجزاء موسيقى عذبة تجعل من النثر شعراً له اوزان خاصة، وانغام تشتد او تلين على ما تقتضيه الحال .

فلا عجب بعد ذلك كله اذا كان كتاب « نهج البلاغة » ثروة فكرية وادبية واسعة . ففيه الدعوة الملحة الى العمل بشعائر الدين والى اتباع تعاليم القرآن وتعزيز كل ما هو شريف الغاية، والحث على السير في سبيل الفضائل . وهو يجمع الدين الى الاجتماع والسياسة، ويجعل الدين اساساً لها، فهو يريد مجتمعاً يجري على سنن العدل والمساواة والحرية . وللاعدل محل واسع في الكتاب يجعله الإمام من مقتضيات الحياة الجوهريّة . وحفاظاً عليه يطلب ان يكون الحكماء والقضاة ذوي استقامة لا يشترون بمال ولا يخافون العزل من وظائفهم، فيحرض على حسن اختيارهم، ويجعل لهم راتباً يكفيهم مؤونة السرقة والرغبة في الرشوة . ويحرض على ان يجمع الحاكم بين الشدة واللين وان يخدم شعبه خدمة الاخلاص والتفاني .

أما الشعب كله فيريده الإمام موحد الكلمة، مجتمع الرأي، لا تفرقه التفرقة ولا تلعب به الأهواء؛ وأما الجنود فيرى فيهم الإمام حصناً حصيناً للشعب، وزينة للحكام، ودعامة للسلام والامن لا يقومان بدونهم . فعلى الحاكم ان يستميلهم لتكون لهم فيه الثقة الكاملة والمحبة الخالصة، واحسن وسيلة لذلك الحفاظ على حقوقهم .

وفي الكتاب الى جنب هذه التعاليم آراء شتى في الفلسفة الماورائية والفقه، ومعلومات تاريخية جمة، مما يجعل له محلاً رفيعاً في عالم الادب والدين والاجتماع .

ب - زباد ابنه (٦٧٣ م / ٥٥٣ هـ)

١ هجاءه : ابو المغيرة زياد بن سمية المعروف بزياد ابن ابيه من أهل الطائف، قد اختلف المؤرخون في سنة مولده فذهب الكثيرون منهم الى أنها السنة الاولى للهجرة؛ واختلفوا في من هو أبوه، ف قيل عبيد الرومي - وهو غلام للحارث بن كعدة - وقيل ابو سفيان . وكانت أمه سمية جارية للحارث بن كعدة الثقفي . فأسلم الغلام في عهد ابي بكر وظهرت عليه النجاسة منذ حداثة، فاتخذوه موسى الاشعري كاتباً له أيام إمرته على البصرة، ثم ولّاه علي بن ابي طالب إمرة فارس فأخذ ثورتها وضبطها؛ ولما توفي علي امتنع زياد على معاوية وتحصن في قلاع فارس، فجده معاوية في أسنائه لما عرف من شدته وحسن ادارته وبعد نظره، واستلحقه بنسبه بعد ان شهد ناس من المسلمين انه ابن ابي سفيان، وكتب اليه بذلك وأمنه، فسار اليه زياد وسلمه ما لديه من خراج فارس ويُقدّر بمليون دينار، فولّاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان ثم جمع له الهند والبحرين وعمان، ولم يزل في تلك الولاية حتى توفي سنة ٦٧٣ م / ٥٥٣ هـ .

وكان العراق في تلك الفترة من الزمن يضطرب بالثورة ويعيج بالخوارج، فكان زياد حرباً عليهم، فاشتد على المعارضة حتى اضطرّها الى السكينة والإذعان، وقد لجأ الى الوسائل الفعالة، وبطش بالمشاغبيين والمفسدين بطشاً شديداً، حتى استتب

الأمن في البلاد . فكان زياد ابرع شخصية تقلدت الولاية في عهد الامويين ومن أقوى اهل زمانه بطشاً وشدة مراس ؛ وقد قال الأصمعي : « الدُّهَاءُ اربعة : معاوية للرؤية، وعمرو بن العاص للبديهة، والمغيرة بن شعبة للمعضلة، وزياد لكل كبيرة وصغيرة » .

٢ آثاره : لزياد خطب سياسية وإدارية متفرقة في كتب الادب، أشهرها الخطبة المعروفة بالبراء لانه لم يبتدئها بحمد الله كما يفعل الخطباء عادة . القاها سنة ٦٦٥ م / ٤٥ هـ حين قدم البصرة والياً من قبل معاوية، « فوجم لها الناس، فمنهم من أذعن لها خائفاً، ومنهم من أثنى متملقاً، ومنهم من حاول الإنكار، ولكن سياسة زياد العملية لم تلبث أن بيّنت للناس انه جادٌ غير هازل في ما اعلن من نذير » .

١) قيمة الخطبة البراء :

١ - القيمة السياسية : هذه الخطبة هي أشبه شيء بالتصريحات الوزارية الحاضرة من حيث إبانيتها عن اغراض الحكم الجديد ومذاهبه، ووجوه المنافع والإصلاح فيه . رمى فيها زياد الى قمع كل ثورة وقتنة، وحمل الناس على الاذعان والخضوع . فاتاهم أولاً بكلام الدين 'مظهراً عاقبة العاصين لأوامر الله الخارجين عن طاعته، المندفعين وراء الشهوات . وأوضح لهم سيئاتهم وسفاههم وفساد أمورهم . ثم عرض للإصلاح فكانت وسيلته الشدة والقسوة بل العنف وتجاوز الحدود فيه، واذا دستور العقوبات ينال كل ذنب بعقوبة من نوعه : « مَنْ غَرَّقَ قَوْماً غَرَّقْنَاهُ، وَمَنْ أَحْرَقَ قَوْماً أَحْرَقْنَاهُ، وَمَنْ نَقَبَ بَيْتاً نَقَبْنَا عَنْ قَلْبِهِ، وَمَنْ نَبَشَ قَبراً دَفَنَاهُ حياً فيه . » وهو يُلَيِّنُ هذا الدستور الصارم بالوعود السارة للمذعنين الخاضعين ويتناسى الاحقاد وأسباب العدا .

وبعد ذلك يدعوا الى طاعة بني امية . فيثبت أولاً حقهم بالخلافة، فهي من الله : « نسو سكم بسلطان الله الذي اعطانا »، وهي من ثم جدرة بأن تطاع كما

انها تعد الرعية بالعدل : « فَلَنَّا عَلَيْكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِي مَا أَحْبَبْنَا، وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَدْلُ فِي مَا وَلَيْنَا . » ثم يدعو الى الإذعان لأن فيه خيراً للذعرين .

وهكذا كانت تلك الخطبة أشبه بالأحكام العرفية منها بالخطب السياسية العادية، وهي تجمع الصرامة القصوى الى الوعود المعسولة .

٢ - القيمة الفنية : توفرت لهذه الخطبة قيمة فنية حقة قامت على حسن التأليف وشدة العاطفة وروعة الاسلوب .

فالخطبة البتراء حسنة التأليف، مقسمة الى فقر، وكأن لكل فقرة وحدة قائمة بنفسها على غير ما عهدناه في الخطابة القديمة ؛ تتسلسل الافكار في إيجاز محكم من غير غموض ولا تعسف، في قوة تستمدّها من عاطفة شديدة تعصف بالكلام عصفاً فيجري على الاساليب المتنوعة متقلّياً بين تحذير وتهديد ووعد ووعيد، وضروب من الاستفهام والقسم والتعجب وما الى ذلك مما يُكسب الكلام حياة قوية فيبقي في النفوس أثراً عميقاً . كل ذلك في صياغة حسنة وعناية باللفظ ظاهرة، وعبارات لا تحلو من التشبيه والاستعارة، وموسيقى شديدة الإيقاع . فلا عجب بعد ذلك كله ان قال الشعبي : « ما سمعتُ مُتَكَلِّماً على منبر قطّ تكلم فأحسن إلا تمنيت أن يسكت خوفاً من أن يُسيء إلا زياداً فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً » .

م - الحجاج بن يوسف (٦٦١ - ٧١٤ م / ٤١ - ٩٥ هـ)

١ هبانه : أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي وُلد في الطائف نحو سنة ٦٦١ م / ٤١ هـ . وعلم الغلمان محترفاً في ذلك حرفة أبيه . ثم ترك التعليم وانضم الى جيش حبيش بن دُلْجَة القينبي الذي أرسله مروان بن الحكم لقتال عبد الله بن الزبير، وبعد انهزام حبيش لحق الحجاج بروح بن زُنباع الجذامي وزير عبد الملك بن مروان فكان في شرطته ثم وُلّي على جند عبد الملك فضبط أمره . وفي سنة ٦٩١ م / ٧٢ هـ سار على رأس ساقية جيش عبد الملك لقتال مُضْعَب بن الزبير في العراق، فقتل مُضْعَب

ولم يبقَ من أعداء الخليفة إلا عبد الله بن الزبير في الحجاز . فسار اليه الحجاج بجيش عظيم سنة ٦٩٢ م / ٧٢ هـ ، وحاصر مكة ورمى الكعبة، وقتل ابن الزبير . ثم تولى العراق عشرين سنة والبلاد نار ملتهبة بفقنة الشيعة والخوارج، فاخذ الناس بالشدة، وكان ماضي الغزيرة لا يثنيه عن رأيه أمر، فأرجع الأمن الى نصابه . ومن أهم الأحداث التي جرت في تلك المدة خروج ابن الأشعث على الحجاج واستيلائه على العراق بأكثر من مئتي الف جندي . فقاتله الحجاج ستة اشهر حتى هزمه بدير الجماجم قرب الكوفة سنة ٧٠١ م / ٨٢ هـ . وقد توفي الحجاج سنة ٧١٤ م / ٩٥ هـ بعد حياة مלאها بجليل الاعمال الإصلاحية والإدارية والعمرانية . وكان ذا شخصية قوية تحب الاستئثار بالقوة والسلطان، وتنزع منزع الخزم والشدة الى حد القسوة والظلم . وكان الى جنب ذلك لا يقبل شفاعاة، كريماً مبسوط اليد، يحب مطارحة الادباء والشعراء ويرتاح الى مسامراتهم وأبحاثهم ويشاركهم في آرائهم الادبية وتذوقهم للشعر والغناء، ويعقد عليهم العطاء .

٢ آثاره :

١- ماهي : بلغنا من آثار الحجاج خطب كثيرة ورسائل متفرقة في كتب الادب . وشهرته الادبية قائمة خصوصاً على خطبه، ولاسيما الخطبة التي فاه بها عندما ولي العراق، والخطبة التي القاها بعد واقعة دير الجماجم .

٢- قيمتها : اسلوب الحجاج في خطبه هو مرآة تتجلى فيها نفسيته الصاخبة الهدارة التي تسلحت بالخزم والشدة، وسياسته التي ألقت العنف والصرامة، وفصاحته وبلاغته اللتان ملأتا النفوس والقلوب روعةً وهولاً .

أراد الحجاج ان يكون لسانه كسيفه يقرع الشاثرين والمفسدين قرعاً . فرمى في كلامه الى التهويل والتخويف، وجعله قوياً في معانيه، قوياً في صورته، قوياً في مبناه، ولهذا عني بكلامه عناية شديدة ونمقه تنميماً ملموساً .

اما قوة المعاني فقائمة على الإكثار من ذكر الموت والضرب والقتل وما الى

ذلك، ونشر المساوىء بكلام شديد الصراحة، والتعير بكل خسيس شائن، وتقوية كل ذلك بالتأكيد والقسم، والاستفهام وغير ذلك من وجوه البيان .

أما قوة الصور فقامة على تراكمها، وبعدها، وغرابتها، وهولها :

« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ اسْتَبْطَنَكُمْ^(١)، فَخَالَطَ اللَّحْمَ، وَالْدَّمَ، وَالْعَصَبَ، وَالْمَسَامِعَ، وَالْأَطْرَافَ، وَالْأَعْضَاءَ، وَالشَّغَافَ^(٢). ثُمَّ أَفْضَى إِلَى الْأَمْخَاخِ^(٣) وَالْأَصْمَاخِ^(٤). ثُمَّ ارْتَفَعَ فَعَشَّشَ^(٥)، ثُمَّ بَاضَ وَفَرَّخَ^(٦)، فَحَشَاكُمْ نِفَاقًا وَشِقَاقًا^(٧). »

أما قوة المبنى فقامة على إيجاز العبارة وجزالتها، وسرعة تدفعها، وشدة موسيقاها، وغرابة الفاظها : « أَمَا وَاللَّهِ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، وَمَعْدِنَ الشَّقَاقِ وَالْتِفَاقِ، وَمَسَاوِي الْأَخْلَاقِ، لَا لُحُونَكُمْ^(٨) لِحَى الْعَصَا، وَلَا عَصَبَكُمْ^(٩) عَصَبِ السَّلْمَةِ^(١٠)، وَلَا قَرَعَكُمْ^(١١) قَرَعِ الْمَرْوَةِ^(١٢)، وَلَا ضَرْبَكُمْ^(١٣) ضَرْبِ غَرَائِبِ الْإِبِلِ^(١٤). »

وقصارى القول أن الحجاج يعتمد إلى الاغراب لتفخيم الأمور وتهويلها على السامعين، وهو يكثر من الصور المفزعة، والألفاظ الزاجرة، والاشعار الغريبة، في تحجير وتنميق ورصف وتجويد .

(١) استبطنكم : دخل بطنكم (٢) الشَّغَاف : غلاف القلب، وحبته (٣) الْأَمْخَاخ ج منح وهو ما يُعرف بالنخاع (٤) الْأَصْمَاخ ج الصمخ وهو خرق الاذن الباطن الماضي الى الرأس (٥) لَحَى الشجرة : قشرها (٦) عَصَبُ الشَّيْء : طواه، لواه (٧) السَّلْمَةُ : نوع من الشجر يُدبغ به (٨) قَرَعَهُ : ضربه (٩) الْمَرْوَةُ : حجارة الصوان (١٠) غَرَائِبُ الْإِبِلِ الإبل الغريبة القادمة لورود الماء فتضرب وترد عن الماء .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي - القاهرة ١٩٤٦ ص ١٧ - ٣٨
 محمد عبد المنعم خفاجي : الحياة الادبية بعد ظهور الاسلام - القاهرة ١٩٤٩
 انيس الخوري المقدسي : تطوّر الأساليب النثرية في الادب العربي - بيروت ١٩٣٥ ص ٨٧ - ١٥٢
 طه حسين : من حديث الشعر والنثر - القاهرة ١٩٣٦ ص ٢٤ - ٤٦
 عبد الرزاق حميدة : ادب الخلفاء الامويين - القاهرة
 عمر ابو النصر : معاوية بن ابي سفيان - بيروت ١٩٣٦
 عباس محمود العقاد : عبقرية الإمام - القاهرة
 عبد الفتاح عبد المنصور : الإمام علي بن ابي طالب - القاهرة ١٩٤٦
 عبده حسن الزيات : الاغراض الاجتماعية في نهج البلاغة - الحديث ٢ ص ٤٧٣، ٣٧٣
 سعيد صدر الدين : علي والسياسة - العرفان ٣ ص ٦١، ٢٠٣، ٩٤٥
 ابو النصر اليافي : الدهاة الثلاثة : ابن العاص وزباد ابن ابيه والمغيرة بن شعبة - القاهرة ١٩٤٦
 عبد اللطيف شرارة : الحجاج طاغية العرب - بيروت ١٩٥٠
 عمر فروخ : الحجاج بن يوسف الثقفي - بيروت ١٩٤١
 عبد الرازق حميدة : سيف بني مروان - الحجاج - القاهرة ١٩٤٧
 ابراهيم الكيلاني : الحجاج بن يوسف - دمشق ١٩٤٠

٢ المراجع الاجنبية :

- W. Marçais : Les origines de la prose littéraire arabe, in Revue Africaine, 1929.
 Jamil Sultān : Études sur Nahj Al-Balāgha. Paris, 1940.
 Zaki Mubārak : La Prose Arabe au IV^e siècle de l'Hégire (X^e siècle). Paris 1931, 9-32.
 Cl. Huart : 'Alī in Encycl. de l'Islam, t. I, 283-287.

موضوعات للبحث

- ١ - بين النثر الجاهلي والنثر الراشدي والاموي صلة بيّنة . أوضحها ذاكراً اسبابها .
- ٢ - للخطابة الراشدية نزعة غير نزعة الخطابة الأموية . أوضح أسبابها السياسية والاجتماعية .
- ٣ - وازن بين بلاغة علي وبلاغة زياد والحجاج .
- ٤ - قال عبد الملك ابنه لما حضرته الوفاة : « أكرموا الحجاج فإنه الذي وطئ لكم المناير ، ودوَّخ لكم البلاد ، وأذلّ الأعداء » . تبسّط في هذا القول مبيناً أثر الحجاج في خدمة الخلافة .

النثر الفني في العهد الراشدي والاموي

الفصل الثاني

النثر التفصيلي

- ١ الانتقال من النثر الایجازي الى النثر التفصيلي : كان الانتقال نتيجة امتداد سلطان العرب وامتزاجهم بغيرهم من الشعوب، وأخذهم بقسطٍ وافر من التخصُّر، وتنظيم حكومتهم، وتعدّد دواوينهم، وتضافرهم مع الموالي.
- ٢ ميزات الكتابة الفنية التفصيلية : اهم ميزاتها التطويل، والعناية باختيار الالفاظ وبالاسلوب، والتوفّر على الترادف الصوتي.
- ٣ انواع الكتابة واغراضها : اهمها الترسل (الرسائل السياسية، والرسائل الاخوانية)، والتصنيف التاريخي.

عبد الحميد الكاتب

- ١ حياته : هو فارسي شامي، علّم الاولاد، ثم كتب لمرّوان بن محمد اذ كان عاملاً على أرمينية، ثم في زمن خلافته.
- ٢ آثاره : له رسائل سياسية وإخوانية وأدبية.
- ٣ الجديد في آثاره وميزات تلك الآثار :
 - ١ - بالنظر الى الموضوع : اصبحت الرسائل الكبرى مع عبد الحميد تُشبه الكتب المستقلة التي تُعالج فيها الموضوعات معالجةً مفصّلة.
 - ١ - بالنظر الى الاسلوب : تمتاز رسائله بالتطويل والتفصيل، والتنسيق والمنطق، والموسيقى، والتصوير، والسهولة والرشاقة.
 - ٤ اثر عبد الحميد : جعل عبد الحميد للكتابة قواعد مُعيّنة، وشرع لها رسوماً، فاستحسن الناس طريقته، وتبّعته الكتاب.

- ١ الانتقال من النثر الایجازي الى النثر التفصيلي : لما امتدّ سلطان العرب وكثرت المصالح وتعقّدت، كان لا بُدّ لهم من كتابة الرسائل والعهود، وقد لبثت تلك الرسائل والعهود في أوّل أمرها تمتُّ الى النثر القديم بصلة وثيقة، وتتمشى على قاعدة الإيجاز. ثم

اتَّسع في عهد بني أمية سلطان الخلافة كما اتسعت مواردها، وازدادت مصالح الدولة تعدُّداً وتعقُّداً، واشتدَّت المنافسات بين الاحزاب، فكان لا بدَّ للدولة - فضلاً عن الكتابة لبعث المسافة بين السلطان وعمله - من أنظمة واضحة يجري عليها الجميع، وقواعد مفصَّلة تجري عليها الإدارة وامور الجيش والخراج . - فوسَّعت الدواوين التي أنشئت في عهد عمر، وزيد عليها ديوان الخراج وجعل عليه سرجون الرومي، وديوان الخاتم لتسجيل رسائل الخلافة وختمها حتى لا يطلَّع عليها احد سوى المرسل اليه، وديوان الرسائل لكتابة رسائل الخليفة وجعل عليه أوس النسائي . واستعان العرب لذلك بالامم المغلوبة، فاستعاروا نُظُمها أول الامر، كما لجأوا في اغلب الاحيان الى غير العرب من فُرس وروم وسريان وسواهم لكتابة الدواوين . فكان النظام فارسيّاً واللغة فارسية في دواوين العراق وفارس ؛ وكان النظام يونانيّاً واللغة يونانية في دواوين الشام ؛ وكانت اللغة قبطية في دواوين مصر . وما كانت تلك الحال لتدوم طويلاً فتبقى معاملات الدولة الرسمية بلغات أجنبية . وقد تمَّ نقلها من الفارسية الى العربية على يد الصالح بن عبد الرحمان في زمن الحجاج، ومن الرومية الى العربية على يد سليمان بن سعد في زمن عبد الملك ؛ ثم نُقلت في مصر من القبطية الى العربية في زمن الوليد، واصبحت لغة الدواوين كلها عربية .

ولم يتخلَّ العرب عن الموالي حتى بعد نقل الدواوين الى العربية، وذلك لما كان لهؤلاء من نُظم وثقافة وحضارة ؛ بل كان من الموالي انهم حذقوا لغة العرب حتى بدَّ بعضهم أصحابها، فجمعوا الى حسن تضلعهم من اللغات الاجنبية اتقان اللغة العربية، فجعل منهم الخلفاء كتاباً حرصوا على مجاراة العرب ببلاغتهم .

فكان من امتداد سلطان العرب، وامتزاجهم بغيرهم من الامم الراقية الحضارة، ومن أخذهم بقسط وافر من التحضُّر والثقافة، وتنظيم حكومتهم، وتعدُّد دواوينهم وصناعاتهم، وامتداد تفكيرهم، انهم تضافروا مع الموالي مستعينين بما لهؤلاء من اساليب في لغاتهم ووجوه أداء في تلك اللغات، فضمُّوها الى اساليب العرب ووجوه أدائهم؛ ووجهوا النثر العربي توجيهاً جديداً هو التوجيه التفصيلي، يحفزهم في عملهم

ما كان للدولة من حاجات الى تفصيل الرسائل وايضاح العهود . فوسَّعوا نطاق
الذثر، واذلَّوه اكل الافكار والمعاني في تفصيل اجزائها، وترابط عناصرها، في
اتحاد اصولها وتشعب فروعها . وهيأوه للتصنيف بجميع انواعه . وقد يكون
أول من ظهر تفوقه في صناعة الكتابة التفصيلية هذه ابو العلاء سالم مولى هشام
ابن عبد الملك الذي كان يُجيد العربية واليونانية، ثم تلميذه عبد الحميد بن يحيى
الذي نقل تقاليد الفرس الى الكتابة العربية، وصار إمام هذه الصناعة حتى لقَّب
« بالكاتب » تعظيماً لشأنه، وحتى قيل : « بُدئت الكتابة بعبد الحميد » . وقد
اتَّفَق الجميع على ان عبد الحميد هو زعيم الكتابة لانه قد يكون أول من وضع
للكتابة الاصول والقواعد واخذ الكتاب باتِّباعها .

٢ مبررات الكتابة الفنية التفصيلية : اخذ الكتاب يحتفلون بالكتابة احتفالاً
شديداً، وكانوا لا يستطيعون ان يصبحوا
موظفين في الديوان إلا اذا اظهروا تفقُّناً وابتكاراً وبلاغةً وبياناً . فتدرَّجت
الكتابة على يدهم في التأنق واساليب البيان والصنعة والاطناب . فكانت
الظاهرة الأولى الطول في الكتابة وما يُطوى فيه من صنعة في بسط التعبير ومدّه،
ثم العناية باختيار اللفظ اختياراً لا يُخاو من مبالغة، والعناية بالأسلوب للملازمة بين
الفاظه ملازمةً تخرج به الى ضروب من الترادف الصوتي .

٣ انواع الكتابة واغراضها : تعددت في ذلك العهد انواع الكتابة، فكانت
ترسلاً وتصنيفاً . وكان الترسل على أنواع منها
الرسائل السياسية الصادرة عن ديوان الرسائل، ويلحق بها التوقيعات ؛ ومنها
الرسائل الاخوانية في العتاب والشوق والشكر والتهنئة وما الى ذلك مما لم نعهده
قبل هذا العصر، وأصبحت لفظة « رسالة »، في آخر هذا العهد وفيما بعده خصوصاً،
تطلق ايضاً على الجاث طويلة في شتى الموضوعات، وليس لها من الرسائل إلا مقدمة
موجهة الى شخص من الاشخاص او ما يشبه ذلك .

أما التصنيف فقد وُجّهت إليه العناية أيضاً، فترع نزعة التاريخ بنوع خاص . وقد جاء في الفهرست لابن النديم ان زياد ابن أبيه أوّل من ألّف كتاباً في مثالب العرب، وأنّ صَحاراً العبديّ وضع كتاباً في الأمثال، وعبيد بن شربة ألّف كتاب الملوك واخبار الماضين . وكتب أبان بن عثمان تاريخ محمد وغزواته وكتب غيره أيضاً، إلا أن تلك الكتابات لم تبلغ من الفن ما بلغت الرسائل . واننا سنقتصر هنا على دراسة زعيم كتاب هذا العصر، ورأس المدرسة الحميدية، عبد الحميد بن يحيى الكاتب .

عبد الحميد الكاتب (٧٥٠ م / ١٣٢ هـ)

١ مَبَازة : أبو غالب عبد الحميد بن يحيى فارسيّ من أهل الشام على الأرجح . علّم الاولاد في شبابه منتقلاً من بلد الى بلد . وتخرّج في الكتابة على صهره سالم مولى هشام وكاتبه، وكان ذا فصاحة وبلاغة . ثم اتّصل بمروان بن محمد عامل أرمينية فكتب له . ولما بويع مروان بالخلافة (٧٤٥ م / ١٢٦ هـ) نقله معه فأصبح كاتب الخلافة . وعندما اندلعت نيران الثورة الخراسانية وتقدّمت جيوش ابي مسلم، وقُتل مروان، قُبض على كاتبه عبد الحميد الذي مكث على ولائه لسيّده، وقُتل .

٢ آثاره : أبقي عبد الحميد بضع رسائل سياسية واخوانية وادبية، منها رسالة كتبها على لسان مولاه مروان بن محمد الى ابنه ووليّ عهده عبدالله، حينما وُجّهه الى محاربة الضحّاك بن قيس الشيبانيّ، رأس الخوارج بالجزيرة سنة ٧٤٥ م / ١٢٧ هـ، وهي تربو على ثلاثين صفحة كبيرة، وكانّ عبد الحميد وضعها دستوراً لتنظيم قوّاد الدولة لجيوشهم من الوجهة المادية والوجهة الحربية . - ومنها رسالة وُجّهها الى الكتّاب يرشدهم فيها الى آداب الصناعة، وصوّن أنفسهم عن النقائص، ويدعوهم الى أن يتعاطفوا وأن يتعاونوا عند الحاجة، وكانّ به يشير

الى ما يشبه «نقابة كتّاب» . - ومنها رسالة جعلها على لسان الخليفة الى احد عمّال الامصار يأمره ان يزجر اهل مصره عن لعبة الشطرنج، ويبين لهم معايبها ومضارّها .

٣ الجبريد في آثار عبد الحميد وميزات تلك الآثار :

١ - بالنظر الى الموضوع : أصبحت الرسائل الكبرى مع عبد الحميد تُشبه الكتب المستقلة التي يعالج فيها موضوعات لم يكن العرب يميلون الى معالجتها فيما قبل . ففي رسالته العسكرية مثلاً بين ما ينبغي ان يتخذه القادة لانفسهم من سياسة وخلق، وما ينبغي ان يتخذه في الحرب من تنظيم للجيش وإعداد له، وما يتصل بذلك من وسائل كيد ومكر؛ وفي تلك الرسالة ثلاثة أقسام : قسم اقتبسه عبد الحميد من الثقافة الفارسية، وبناء على ما عُرف من آداب الفرس في الملك والسياسة، فضمنه ما ينبغي للقائد ان يكون عليه في سلوكه مع نفسه وحاشيته وقوّاده؛ وقسم خصّ به سياسة الجيش وما يُتَّخذ فيه من شرطة وقضاة ورجال مال؛ وقسم تحدّث فيه عن التنظيم الداخلي للجيش وكيفية إعداد وحداته . وقد يكون عبد الحميد بنى هذا القسم الثالث على ما كان معروفاً في الشام عن الجيش الروماني ووحداته .

٢ - بالنظر الى الاسلوب : امتازت رسائل عبد الحميد بصفات خاصّة منها :

١ - التطويل والتفصيل والإطناب : لقد جرت الرسائل قبيل عبد الحميد هذا المجري من التطويل، ولكنها لم تبلغ ما بلغته رسائله في ذلك .

٢ - التسيق والمنطق : والتزم عبد الحميد في رسائله، ولاسيما الرسمية منها، التمهيد للموضوع بما يناسب المقام من الصورة، ينتقل منه الى غرضه فيعالجه بحجة قويّة، حتى اذا انتهى منه، ختم رسالته بخاتمة تُشعر بالانتهاء؛ وكل ذلك في منطق دقيق يُسلسل الافكار في فقر تودّي كل فقرة منها معنى خاصاً، وترتبط بما قبلها وما بعدها

ارتباطاً وثيقاً؛ فلا اضطراب ولا إسراع، بل استيعاب للمعاني وتعبير عنها بأناة وبيان رائع ومراعاة لاحوال المخاطبين في تنويع طرق الخطاب .

٣ الموسيقى : وتوفر عبد الحميد على إخراج كلامه مخرجاً موسيقياً لا يعتمد على السجع بل على ضرب من التوقيع استمدّه من الترادف الصوتي كما استمدّه من العناية بلفظه وأن يكون جزلاً متيناً .

٤ التصوير : وعني عبد الحميد في رسائله القصيرة ورسائله الشخصية بالتصوير القائم على التشبيه والاستعارة والتشخيص؛ ومن امثال ذلك قوله في رسالة الى اهله وهو منهزم مع مروان : « أَمَا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الدُّنْيَا مَخْفُوفَةً بِالْكُرْهِ وَالسُّرُورِ، وَجَعَلَ فِيهَا أَقْسَامًا مُخْتَلِفَةً بَيْنَ أَهْلِهَا، فَمَنْ دَرَّتْ لَهُ بِحُلَاوَتِهَا، وَسَاعَدَهُ الْخَطُّ فِيهَا، سَكَنَ إِلَيْهَا وَرَضِيَ بِهَا وَأَقَامَ عَلَيْهَا، وَمَنْ قَرَصَتْهُ بِأُظْفَارِهَا، وَعَضَّتْهُ بِأَنْيَابِهَا، وَتَوَطَّأَتْهُ بِثِقَلِهَا، قَلَّهَا نَافِرًا عَنْهَا، وَذَمَّهَا سَاخِطًا عَلَيْهَا... »

٥ السهولة والرشاقة : وقد عمد عبد الحميد في كتاباته الى الالفاظ الدقيقة الأداء، اللينة، التي لا يستغلق على العقل فهمها، والتي تسير مع الطبع من غير تعقيد ولا إغراب .

٦ أثر عبد الحميد : كان الكاتب قبل عبد الحميد يعتمد على سجيته وفصاحته، وما فطر عليه من البلاغة واكتسبه بالممارسة من أساليب البيان، فلما اتى عبد الحميد جعل للكتابة قواعد معينة، وشرع لها رسوماً، وشقّ طريقاً جديدة استحسنها الناس وتبّعها الكتاب حتى قيل : « بُدِئَتِ الْكِتَابَةُ بِعَبْدِ الْحَمِيدِ » . ومن أشهر تلاميذ عبد الحميد صديقه عبد الله بن المقفع . وقد قال طه حسين عنهما : « هذان هما الكاتبان اللذان نستطيع ان نعتبرهما عنواناً للكتابة الفنية . أما عبد الحميد فلا غبار على لغته، وربما لم يوجد كاتب يعدل عبد الحميد

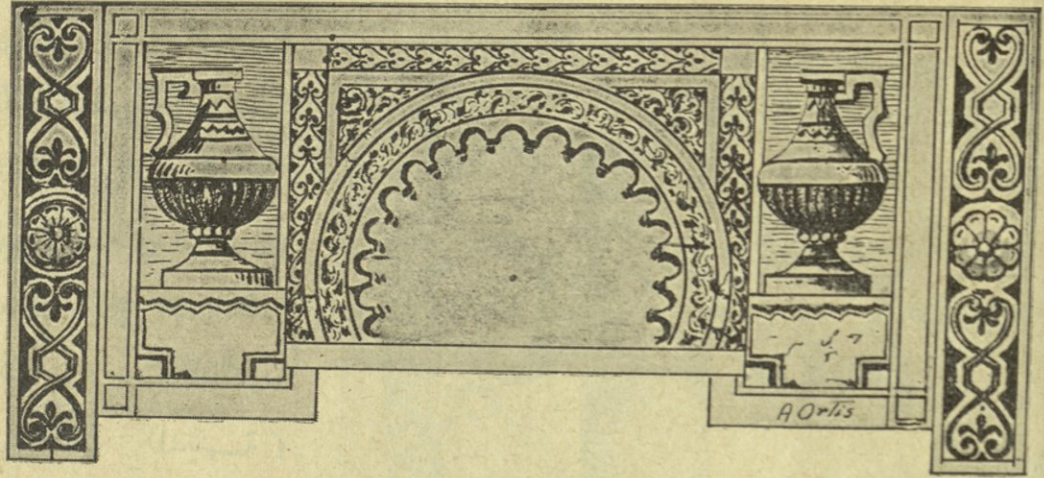
فصاحة لفظ، وبلاغة معنى، واستقامة أسلوب . فهو أحسن من كتب العربية ومرئها، وأقدرها على أن تتناول المعاني المختلفة وتؤدّيها . وربما كان عبد الحميد الاستاذ المباشر للكتّاب المترسلين، وبنوع خاص للجاحظ .

بعض المراجع

- طه حسين : من حديث الشعر والنثر - ١٩٣٦ ص ٤٧ - ٧٩
 انيس الخوري المقدسي : تطوّر الأساليب النثرية في الادب العربي - بيروت ١٩٣٥
 ص ١٣٥ - ١٧٥
 شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي - القاهرة ١٩٤٦ ص ٣٣ - ٤٦
 عبد الرازق حميدة : ادب الخلفاء الأمويين - ص ١٩١ - ١٩٣
 احمد فريد رفاعي : عصر المأمون - المجلد الاول - مصر ١٩٢٧
 محمد كرد علي : امراء البيان - الجزء الاول - القاهرة ١٩٣٧ ص ٣٨ - ٩٨
 خليل مردم : عبد الحميد الكاتب - مجلة المجمع العلمي العربي ١٤ - ص ٣٩٥ - ٤٠١

موضوعات للبحث

- ١ - قال ابن النديم : « عن عبد الحميد اخذ المترسلون، ولطريقته لزموا، وهو الذي سهّل سبيل البلاغة في الترسل » . فصل هذا القول .
- ٢ - لقد قيل : « عبد الحميد هو الاستاذ الاول للكتابة الفنية عند العرب » . اوضح تطوّر الكتابة الفنية عند العرب في العهد الجاهلي والعهد الراشدي والاموي، وبيّن محلّ عبد الحميد في ذلك التطوّر .



الباب الثامن

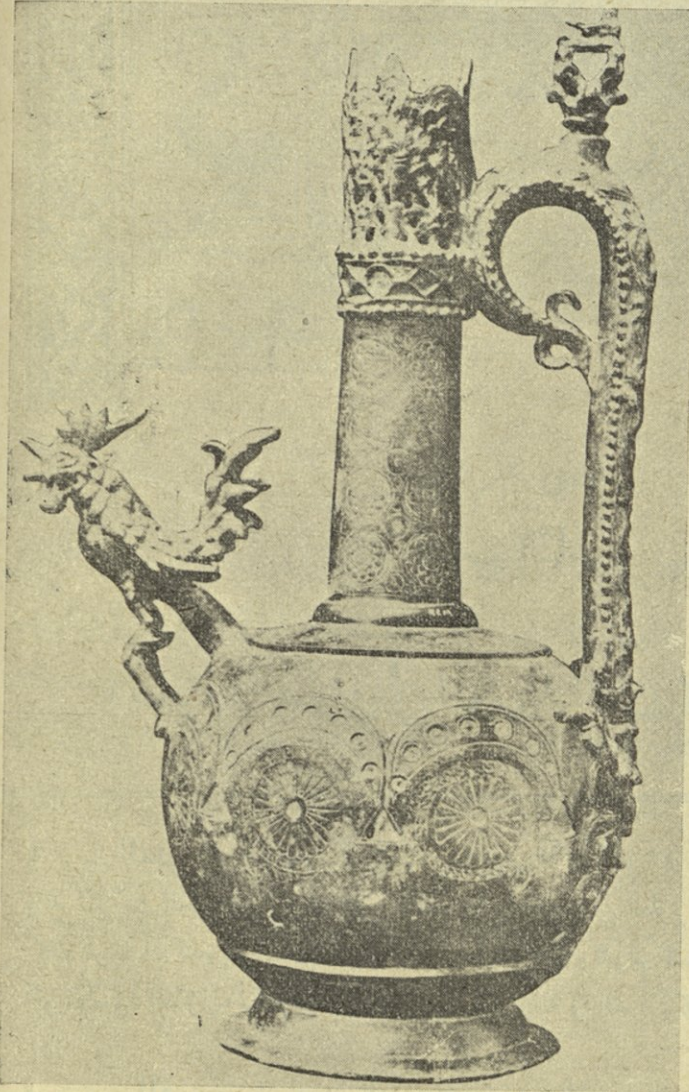
العلوم والفنون في العهد الراشدي والأموي

أ — العلوم: كانت مراكز الثقافة: مدارس الاسكندرية ونصيبين والرها وجند يسابور وقد تهرّبت العلوم الى العرب بالاحتكاك والترجمة. ومن العلوم ما كان دينياً كالفقه، ومنه ما كان تاريخياً كتدوين السيرة، ومنه ما كان في الادب وتقويم اللسان كالنحو الذي وضعه ابو الاسود الدؤلي، وكالاعجام والتشكيل، والرواية والنقد. وكانت تلك العلوم بدائية بسيطة.

ب — الفنون: استمدّ العرب فنونهم من الشعوب التي جاؤرتهم ولاسيما الفرس والروم، وزادوا عليها من روحهم صبغة خاصة بهم. وقد مارسوا فنّ الزخرفة والبناء والموسيقى وكان لهم في كل ذلك حضارة راقية.

أ — العلوم: كانت نتيجة امتداد سلطان العرب، واختلاطهم بشعوب مختلفة راقية الحضارة والمدنية من مثل الفُرس والروم والسرّيان، ان أقبلوا على العلوم يتدارسونها، وعُنوا بها في شتى ميادينها، إلا أنها بقيت في هذا العهد بدائية، لا تخرج عن المحاولات، ولكنها محاولات مشكورة.

١ مراكز الثقافة : تسرّبت الثقافات الأجنبية، ولاسيما اليونانية، الى العرب من



إبريق من البرنز يُنسب الى الخليفة الاموي مروان الثاني
(القرن الثامن - دار الآثار العربية بالقاهرة)

مراكز كثيرة أهمها
الاسكندرية موطن
الثقافة اليونانية والفكر
اليوناني، الذي انتقل الى
العرب على يد علماء
كثيرين وجدّهم الفاتحون
في تلك المدينة؛
ومدرسة نصيبين،
على شاطئ الفرات،
حيث ازدهرت فلسفة
الافلاطونية الحديثة؛
ومدرسة الرها،
موئل السريان، حيث
امتزج العقل اليوناني
بالعقل الكلداني؛
ومدرسة جنديسابور
في الاهواز، التي أسسها
كسرى انوشروان
(٥٣١ - ٥٧٩ م)

وجعلها معهداً للدراسات الفلسفية والطبية، ومعظم اساتذتها من النساطرة؛ وكانت
تُدرس فيها الثقافة الهندية بجانب الثقافة اليونانية، وكانت من ثم مركزاً لثلاث
ثقافات : اليونانية والهندية والفارسية . وقد اشتهرت بالطب، وظلّت تؤدّي
خدمتها الثقافية في العهد العربي .

٢ تسرب الثقافة : تسربت تلك الثقافة المختلفة الى العرب بواسطة الاحتكاك أولاً . وقد كان هذا الاحتكاك في العهد الاموي شديداً بين العرب واصحاب الثقافات اليونانية والآرامية في بلاد الشام، وكثيراً ما استقدم الخلفاء الى بلاطهم العلماء والفلاسفة والاطباء . وكانت الترجمة هي الطريق الثانية لتسرب الثقافات ؛ إلا انها، في عهد بني أمية، محدودة، يقوم بها افراد أولعوا بالعلم وانصرفوا اليه ؛ وقد وجهوا جهودهم بنوع خاص الى نقل كتب الطب والكيمياء والتاريخ .

٣ انواع العلوم :

١ - العلوم الدينية : عندما صار الاسلام دولة عمد الى استخراج الشريعة من القرآن والحديث، فنظم بها المسلمون حكومتهم وقضوا بها بين رعاياهم . وهكذا كان علم التفسير والفقه .

٢ - العلوم التاريخية : دخلت بعض الامم غير العربية في الاسلام واخذت تذكر تاريخها وتنشره بين المسلمين مما حفز هؤلاء على تدوين تاريخ نبيهم وصحابته، واعمال ابي بكر والفتوح وما الى ذلك . وقد سبق لنا في هذا الموضوع كلام فيه كفاية .

٣ - العلوم اللسانية والادبية :

١ النحو وما اليه : اختلط العرب بالامم الاعجمية، فضعفت الملكة العربية، وفشا في الكلام اللحن، واللكنة . خوفاً من تحريف القرآن، وتقويماً لفساد اللسان، وضع النحو لضبط اواخر الكلمات ؛ وأول من وضعه ابو الأسود الدؤلي (٦٨٨ م / ٦٩ هـ) فرك المصاحف وجعل علامة النصب نقطة فوق الحرف، وعلامة الجر نقطة تحته، وعلامة الرفع نقطة بين يدي الحرف . ولم يضع ابو الأسود علامة للسكون مكتفياً بأن إهمال الشكل هو السكون . وقد انتشرت تلك الطريقة، وأضاف اليها الناس علامة التنوين فكانت نقطتين الواحدة فوق الأخرى ؛ وزاد

اهل المدينة علامة التشديد فجعلوها قوسين يُجملان فوق المشدّد المفتوح وتحت المكسور وعن يسار المضموم، ووضعوا نقطة الفتحة داخل القوس، والكسرة تحت حذبتة، والضمة على شماله، ثم استغنوا عن النقطة وقلبوا القوس مع الضمة والكسرة وأبقوه على أصله مع الفتحة . وزاد اهل البصرة السكون، فجعلوه جرة أفقية فوق الحرف منفصلة عنه هكذا [-] .

أثبتت طريقة ابي الأسود في زمن بني أمية وصدر بني العباس، وبقيت مستعملة في الاندلس الى اواسط القرن العاشر . ولما استكثر الناس من إعجام الحروف



لتسهيل التعليم (وقد كانت قبلاً غير مُعجمة)، اشتبهت نقط الإعجام بنقط الشكل، فاخترع الخليل بن أحمد (٧٨٦ م / ١٧٠ هـ) الشكل المستعمل الآن بأن كتب الضمة واواً صغيرة، والفتحة ألفاً، والكسرة ياءً، والشدة

كتابة من قرآن يرتقي الى القرن التاسع

رأس شين (مختزلة من لفظ « تشديد »)، والسكون رأس خاء (مختزلة من لفظ « تخفيف ») وهمزة القطع رأس عين (مختزلة من لفظ « قطع »)، ثم جعلت همزة الوصل رأس صاد (مختزلة من لفظ « وُصل ») .

٢ الرواية والنقد : عادت في العهد الاموي للرواة مكانتهم بسبب العودة الى العصبية وإحياء الماضي الجاهلي ؛ وظهر في الرواة بعض المختلقين والمتريدين . واشتهر في ذلك العهد حماد الراوية (٧٧١ م / ١٥٥ هـ)، وابو عمرو بن العلاء (٧٧١ م / ١٥٤ هـ)، وخلف الأحمر (٧٩٦ م / ١٨٠ هـ) . وكان الرواة وعلماء اللغة، بحكم عملهم، شديدي التعصب للماضي الجاهلي، لا يفضلون شاعراً الا اذا اشتدَّ

قربُه من الشعراء الجاهليين، بل كانوا يعجبون بالشاعر المعاصر ثم لا يقدرُونه لانه لم يُدرك الجاهلية . وكان حكم هؤلاء الرواة نافذاً بين الناس ؛ والخلفاء يستحضرونهم عند انشاد الشعر ويطلبون رأيهم . وكان النقد مقصوراً على بعض احكام عامة بعيدة عن التحليل، وكثيراً ما يدور حول المبنى دون المعنى . وكانت مجالس النقد كثيرة : من قصور الخلفاء والامراء والولاة، الى مربد البصرة وكناسة الكوفة، الى مجالس الشعراء والرواة . وبما لا شك فيه ان الرواة والنقاد في ذلك العصر كانوا من اسباب جمود الشعر ومن دعاة التقليد .

٤ - العلوم الفلسفية وما اليها : كانت الدراسة الفلسفية قديماً متصلة بالدراسة الطبية ؛ وقد انتشرت في العالم الاسلامي على يد النصارى بنوع خاص . ومن اشهر الاشخاص الذين ادخلوا التفكير اليوناني والمسيحي الى الاسلام القديس يوحنا الدمشقي، ابن سرجون مدير المالية في دمشق . ومن المدارس السابق ذكرها اكثر الاطباء الذين كانوا في قصور بني امية كابن أثال النصراني طبيب معاوية، وماسرجويه اليهودي الذي عاش في زمن عمر بن عبد العزيز .

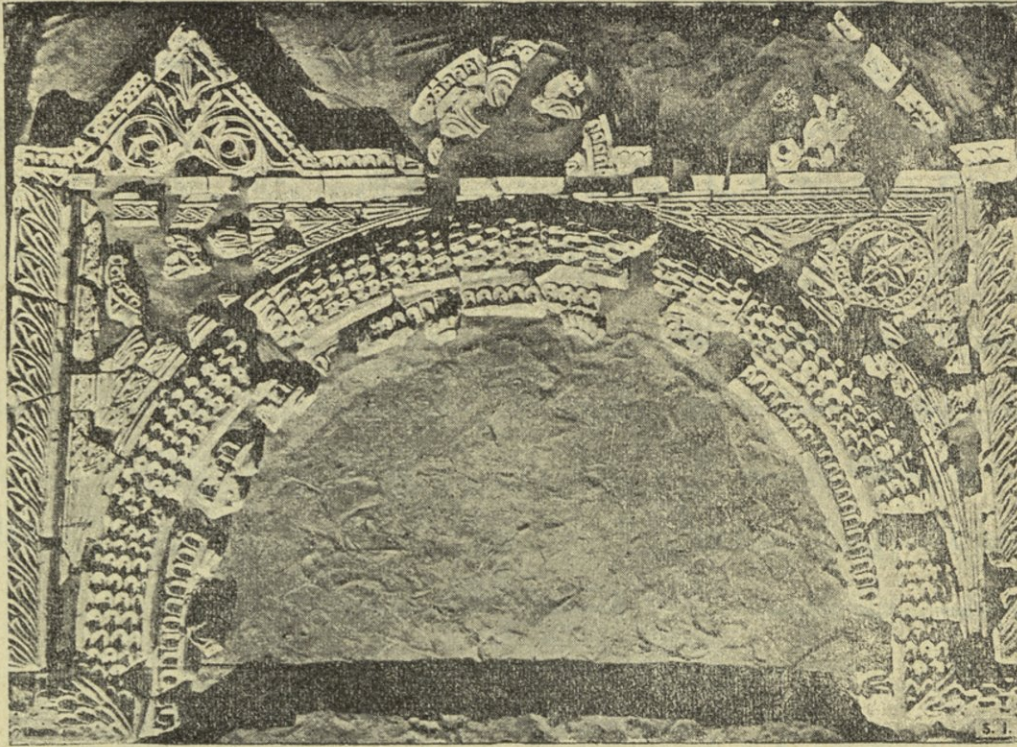
٥ - الكيمياء والنجوم : كانت الكيمياء قليلة الاثر في عهد الامويين، وقيل ان اول من تفرغ لها واشتغل فيها خالد بن يزيد بن معاوية . وكانت الكيمياء رائجة في مدرسة الاسكندرية، فاستدعى خالد مريانوس الكاهن المسيحي وطلب اليه ان يعلمه الطب وصناعة الكيمياء . ثم امر بنقل كتب تلك الصناعة من اليونانية والقبطية الى العربية . وكان خالد مغرمًا بعلم النجوم ايضاً، وقد انفق المال الوفير في طلب هذا العلم واستحضار آلاته .

ب - الفنون : من الثابت أنَّ العرب استمدوا فنههم من المدينتيّ القديمة التي ازدهرت قبلهم، فكان امتداداً للفنَّين البيزنطي والفارسي،

مع بعض التعديل .

١ - فن التصوير والبناء : اقتصر العرب المسلمون، في فن التصوير، على تمثيل بعض الحيوانات واستعمال بعض الخطوط الهندسية

للزينة، وكان هذا الفن الزخرفي خاصاً بهم، عُرف « بالفن العربي » . وقد وُجد في قصر الحير (بالقرب من تدمر) بقايا رائعة من فن الزخرفة والتصوير العربي .



عقد منقوش في مدخل إحدى قاعات قصر الحير، وهو قصر هشام بن عبد الملك قرب تدمر

ولما استولى العرب على الشام وفارس أخذوا بفن البناء، فزادوا على فنّ غيرهم روحاً خاصّة، وامتاز بناؤهم بالاعمدة والمنحنيات والقباب وما الى ذلك .

٢ فمّه الموسيقى : انتشر الغناء عند العرب انتشاراً واسعاً، وعُرف الحجاز في هذا العهد بكثرة المغنين . واشتهر منهم طويس، وابن سريج، ومعبّد . وكان المغنون الاجانب، من فرس وروم، يؤثرون في الغناء العربي، وقد ادخلوا فيه انعاماً أجنبية فارسية ورومية، كما ادخلوا آلات موسيقية جديدة، فالطنبور والنّاي مثلاً من فارس، والقانون يوناني . وعُرف في هذا العهد الغناء على ضربيه المختلفة : عُرف الغناء العادي، كما عُرف الغناء المصحوب بجوقة تضرب على الآلات الموسيقية، والغناء المصحوب بالرقص .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- عمر ابو النصر : الحضارة الاموية العربية في دمشق - بيروت ١٩٤٨ ص ٣٤٩ - ٣٩٣
 جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي
 جماعة من المستشرقين : تراث الاسلام - الترجمة العربية - القاهرة ١٩٣٦
 محمد عبد المنعم خفاجي : الحياة الادبية بعد ظهور الإسلام - القاهرة ١٩٤٩

٢ المراجع الاجنبية :

- Le Bon* : La Civilisation des Arabes. Paris 1868.
Arnold : Painting in Islam. 1928.
Rivoira : Moslem Architecture, Oxford 1919.
Edward G. Browne : La Médecine Arabe — Traduction française par H. P. J. Renaud, Paris, 1933.
G. Marçais : L'Art de l'Islam. Paris, 1946.
H. Martin : L'Art Musulman, Paris, 1947.

THE JOURNAL OF THE
ROYAL ANTHROPOLOGICAL INSTITUTE

VOL. LXXV. PART I. 1945

CONTENTS

THE JOURNAL OF THE
ROYAL ANTHROPOLOGICAL INSTITUTE

VOL. LXXV. PART I. 1945

CONTENTS

THE JOURNAL OF THE
ROYAL ANTHROPOLOGICAL INSTITUTE

VOL. LXXV. PART I. 1945

CONTENTS

THE JOURNAL OF THE
ROYAL ANTHROPOLOGICAL INSTITUTE

VOL. LXXV. PART I. 1945

CONTENTS

THE JOURNAL OF THE
ROYAL ANTHROPOLOGICAL INSTITUTE

VOL. LXXV. PART I. 1945

CONTENTS

الكتاب في معرفة النجوم الجزء الأول في النجوم التي هي في الدنيا

عطار بن محمد بن
عبد الله بن محمد بن
عبد الله بن محمد بن
عبد الله بن محمد بن



هذا الكتاب في معرفة النجوم
الجزء الأول في النجوم
التي هي في الدنيا
الكتاب في معرفة النجوم
الجزء الأول في النجوم
التي هي في الدنيا

العهد العباسي

١

العهد العباسي في المشرق

٧٥٠ - ١٢٥٨ م / ١٣٢ - ٦٥٦ هـ

— الانقلاب وأثره في الحياة والثقافة

— الأدب العباسي

— أدب الثورة التجديدية

— أدب الحركة المعاكسة

— ادب الاستقرار والتدرُّج نحو

الصنعة والزُخرف والتعقيد والجمود

— العلوم والفنون •

الباب الاول

الانقلاب واثره في الحياة والثقافة

١ انقلاب سياسي وتوجيه جديد : قامت الدولة العباسية على اكتاف الفرس خاصة والشعوبية عامة ، ونُقلت قاعدة الدولة الى بغداد، فتحوّل وجه الدولة نحو فارس، وغلبت فيها العادات والانظمة الفارسية ؛ ونشأت نزعة الى التجديد والتخير .

٢ البيئة الجديدة :

١ - البيئة الاقتصادية : كانت اقتصاديات البلاد واسعة جداً مما فسح مجالاً واسعاً للترف .

٢ - البيئة الاجتماعية : نشأ عن الترف انحطاط في الاخلاق .

٣ - البيئة الدينية : امتازت البيئة الجديدة بإطلاق الحرية الدينية .

٤ - البيئة الثقافية : شجّع الخلفاء الحركة العلمية . وشاعت في تلك الايام الثقافة العربية الخالصة، والثقافة اليونانية، والثقافة الشرقية، وذلك بفضل المدارس والترجمات .

٣ الثقافات الاجنبية وأثرها في الثقافة العباسية :

منزع الفلسفة والتحليل والعلم، فكان من بواعث التصنيف والاشتغال بالعلوم . وينزع العقل الهندي منزع التأمل، فكان من بواعث الزهد والحكمة . وكانت الحضارة الفارسية مؤلفة من عناصر ثلاثة : عنصر فارسي وعنصر يوناني وعنصر هندي، وتغلب عليها المادة ؛ فكانت من بواعث الزخرف والتفخيم والموسيقى .

فقد افادت الثقافة العربية الفاظاً وأساليب وافكاراً وعلوماً جديدة . كما انتظم علم الكلام بفضل الفلسفة، وتنوّعت مجاري الفكر، وعمد ارباب الفرق الى المنطق والفلسفة يدعمون بها الآراء ؛ وانتشر التصوّف، وعقيدة التناسخ والحلول، وفنّ الموسيقى .

١ انقلاب سياسي ونوحيه هبربر : سقط الامويون في الشام فانتمت الخلافة الى

بني العباس عمّ محمد . وكان مؤسس دولتهم

ابا العباس السفّاح (٧٥٠ - ٧٥٤ م / ١٣٢ - ١٣٦ هـ) الذي قتل أمراء بني أمية، وجعل مدينة الأنبار في العراق قاعدة ملكه، ثم خلفه أخوه ابو جعفر المنصور (٧٥٤ - ٧٧٦ م /

١٣٦ - ١٥٨ هـ) الذي بنى بغداد ونقل اليها كرسي الخلافة .

قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس خاصة والشعبية عامة، والعرب المناهضين للدولة الأموية ممن يناصرون الهاشمين (علويين وعباسيين)، فشالت كفة العرب والعروبة، ورجحت كفة الأعاجم، وأصبح العرب عنصراً من العناصر الكثيرة التي احتوتها الامبراطورية .

وتغلغل الفرس في صلب الدولة، فكان منهم قواد ووزراء وحجّاب وولاة وكتاب؛ ونقلت قاعدة الدولة من دمشق العربية الى بغداد على حدود فارس وبحوار مدائن كسرى، فتحول بذلك وجه الدولة عن البحر المتوسط وتوجّه شطر فارس؛ وأدخل الفرس على العرب سياسة الحكم المطلق، وجعلوا قصور الخلفاء في بغداد أشبه بقصور الأكاسرة في المدائن، كما أدخلوا طرائق



هارون الرشيد كما تخيّل الفنان أرتورو أوريس

الفرس في تنسيق الدواوين وأساليب الحرب ونظم الحكم والحياة الاجتماعية وفي الأكل والشرب واللبس وتأثيث القصور والاعياد واللهو والعبث . ومن ثمّ كان تأثير الفرس شديداً، فتمحوّت الانظار عن العرب وعاداتهم وتقاليدهم، وانفتحت على الجديد والاستفادة منه، ونشأت من ثمّ النزعة الى التجديد، وعلت المناداة بمذهب «التخيّم»، اي تخيّر احسن ما في الحضارات القديمة غير العربية، وتوسيع الصدر لها والعمل بها .

٢ البيئة الجبرية :

١ - البيئة الاقتصادية : وما هي ذي بيئة جديدة تنتشر فيها العربية وينشأ

ويتدعرع فيها الادب العباسي . فالعراق قطر اشتهر من قديم الزمان بالحضارة والرقي .



وتداولت عليه أمم

وشعوب كثيرة عريقة

في المدينة من مثل

الأشوريين والفرس

والسريان، وتركت

فيه آثارها العلمية

والفنية؛ وهو الى ذلك

قطر غني خصب تكثر

مياهه وخيراته .

وأما بغداد عاصمة

الخلافة فهي تقع على

ضفة دجلة الغربية ،

وموقعها هذا يحولها

أهمية كبرى حتى قال

المأمون كما تخيّل الفنان ارتورو أوريس

الخليفة المنصور : « هذا موضع معسكر صالح، هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين

شيء . يأتينا فيها كل ما في البحر، وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك؛

وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء . من الشام والرقّة وما حول ذلك » . (الطبري

ج ٣ ص ٢٧٢) . وكانت المدينة عبارة عن دوائر ذات مركز واحد يقوم في قلبها

قصر الخليفة المسمى بباب الذهب او القبة الخضراء . وكان الى جانب القصر

المسجد الجامع . وابتنى المنصور على ضفة دجلة، خارج اسوار مدينته ، قصراً آخر

سمّاه قصر الخلد تشبيهاً له بجنة الخلد، كما انه ابتنى قصراً ثالثاً في الجانب الشرقي

الى الشمال سمّاه الرّصافة لسكنى ابنه المهديّ وليّ العهد . وابتنى الوزراء الفرّس ايضاً، ولاسيما البرامكة، قصوراً فخمة في الجانب الشرقي من بغداد ، وكان القصر الجعفريّ في وسط تلك البقعة ؛ وقد أنشئت هذه القصور على شاطئ دجلة وأنشئت خلفها البساتين الرّحبة . ولن تلبث أن تصير بغداد قلب العالم الشرقيّ، والمرفأً الاكبر لتجارة الهند، والمركز التجاريّ الخطير في ميدان الاقتصاد، والوارثة لمجد وعزّ المدائن وبابل ونيوى وغيرها من عواصم الشرق القديم .

وكانت اقتصاديات البلاد واسعة جداً ممّا فسح مجاًلاً واسعاً للتّرف . قال الخطيب البغدادي : « لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها، وفخامة أمرها، وكثرة علمائها وأعلامها، وتميّز خواصّها وعوامّها، وعظم اقطارها، وسعة اطرارها ، وكثرة دورها ومنازعها ودروبها وشعوبها ومحالّها وأسواقها وسككها وأزقتها ومساجدها وحماماتها وطرزها وخاناتها، وطيب هوائها، وعذوبة مائها، وبرد ظلالها وأفيائها ، واعتدال صيفها وشتائها، وصحّة ربيعها وخريفها » . وكان البلاط الملكي والقصور مفروشة بالطنافس النادرة ومجهّزة بالسّجف البديع . وكانت اواني المائدة احياناً في البلاط مصنوعة من الذهب والفضّة ومرصّعة بالجواهر .

وكان البلاط موثّل الشعراء والناهبين وارباب الموسيقى والغناء وسواهم من السُّمّار والنُّدما . واصحاب اللهو ومرّي الكلاب والديكّة وغيرهم ، حتى اصبح القصر مركزاً لمختلف الثقافات وضروب اللهو .

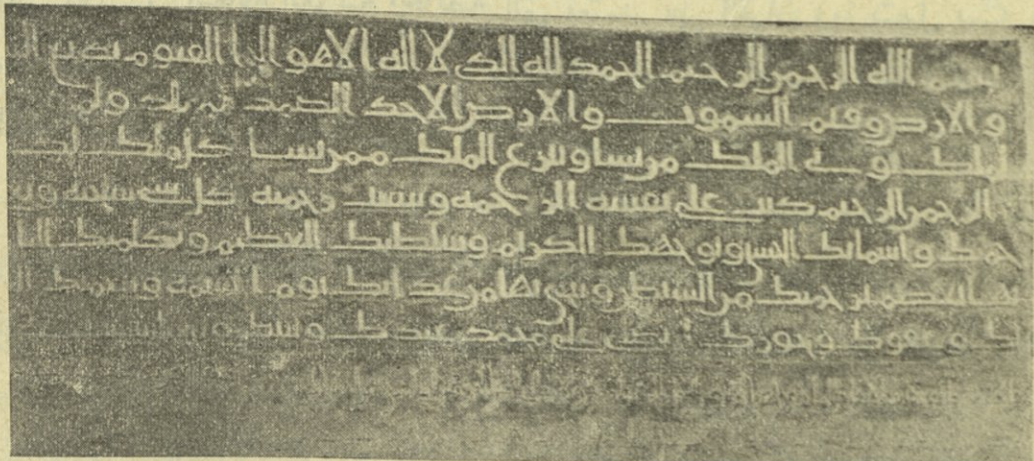
وكان للتجارة شأن كبير في البلاد ولاسيما في بغداد . فأقيمت لها الاسواق المختلفة ووردت اليها البضائع من كل الجهات، من خزف الصين وحريرها، الى طيوب ومعادن الهند، الى ياقوت ولازورد بلاد الترك، الى عسل وشمع وفرو أسوج ونزوح وروسية، الى عاج وتبر افريقية، الى غير ذلك . وكان يدخل في تلك التجارة تجارة الرقيق المجتلب من اواسط آسية، ومن عبّيد افريقية .

٢ - البيئة الاجتماعية : أما البيئة الاجتماعية فلم تعد عربية لما دخل الدولة

من عناصر مختلفة من فارسية وتركية وسريانية ورومية وبربرية، ولما كان لتلك العناصر من تمازج ولكل منها اخلاق وعادات واعتقادات . وهذا التمازج جراً انحطاطاً في الاخلاق ولاسيا وقد شاع التسري، وتعاطى الناس المسكرات سرّاً وعلناً، وعاقرو الحرة حتى بعض الخلفاء . وكانت تعقد لمعاقرة الحرة والغناء حلقات أنس تُسمى مجالس الشراب . وتوافر الطلب على العلماء والشعراء والمغنين وأرباب الموسيقى فاتخذهم الامراء والاعيان ندماء لهم .

وكان من الملهي الشائعة في تلك الايام لعب الشطرنج وسباق الخيل والصيد، والصيد أحبّ ضروب اللهو عند الخلفاء والامراء . ولذا أولع الناس بتربية البزة وكلاب الصيد وما الى ذلك .

وكان اكثر الخدم من الأرقاء من شعوب غير مسلمة انتزعوا قسراً من بلادهم او أسروا في الحرب او اشتروا بالمال . ومن الأرقاء غلمان يلبسون الخلس الجميلة ويتزيّنون ويتعطّرون كالنساء، وقد تغزل بهم بعض الشعراء كأبي نواس . وكان من الرقيق ايضاً الغلاميات وهنّ جوارح حسان يقصّصن شعورهنّ ويلبسن ثياب الغلمان .



كتابة كوفيّة للخليفة المأمون (٨١٦ هـ) في قبة الصخرة بالقدس

٣ - البيئة الدينيّة : أما البيئة الدينية فقد امتازت باطلاق الحوية لما ضمت الدولة من شعوب مختلفي الاجناس والديانات، من مسلمين متعدّدي

الفرق، ونصارى مُختلني النزعات، ومن يهود وصابئة وزرَادَشْتِيَّين ومَانَوِيَّين مُتبايني المذاهب . وكان للمانوية اثر كبير في العراق خصوصاً، كما كان لها أثر كبير في من انضموا حديثاً الى الاسلام؛ وقد اهتم الخلفاء العباسيون الاولون بالدين ايضاً، وحاولوا ان يحاربوا المجاري الغريبة؛ فقتل عدّة شعراء او كتّاب لتزوعهم منزع الكفر والزندقة على ما يُظن، ومن أولئك ابن المقفع وبشار وابن عبد القدوس .

٤ - البيئة الثقافية : وأما البيئة الثقافية فقد كانت من اقوى العوامل في النهضة العباسية اذ اخذ الخلفاء يشجعون الحركة العلمية في شتى نواحيها ويدّونها بالهم وجاههم . وقد بالغوا في إكرام الادباء وجالسوهم، وولّوهم احياناً المراكز العالية . ثم حذا الامراء والوزراء حذو الخلفاء في اكبر مدن الدولة، وكانوا يتنافسون في ذلك كما يتنافسون في فتح دور العلم؛ وظهر في الجيل الجديد ميل شديد الى الحياة العلمية، ولا عجب في ذلك وقد رأينا ما كان هنالك من تمازج مدنيّات واختلاط حضارات ووعي عام نال ما للشعوب المتمدّنة من ثقافات .

أما الثقافات التي كانت شائعة في تلك الايام والتي كان لها أثر كبير في الادب فهي ثلاث : الثقافة العربية الخالصة التي تعتمد على القرآن وما يتصل به من علوم الدين، وعلى الشعر وما يتصل به من العلوم الادبية كالنحو واللغة وغيرهما . ثم الثقافة اليونانية، ثم الثقافة الشرقية . وقد وصلت علوم اليونان وآدابهم الى الشرق من عهد فتوحات الاسكندر، فنشر اليونان في الشرق فلسفتهم وطبّهم وفلكهم ووصلت ثقافتهم ايضاً على يد الفرس . أما الثقافة الشرقية فهي ثقافة معقّدة وهي التي نجدها عند الفرس والهنود والامم السامية التي كانت منتشرة في العراق؛ وقد

(١) كان يُطلق اسم « زنديق » عند الساسانيين على كل من تجرّأ وأتى بتفسير جديد للأفستا (زند) . ثم اطلق هذا الاسم بعد ذلك على المانويين والمزديكيين خصوصاً . وقد اتسع معنى الزندقة في العهد العباسي فأطلقت على التهتك ثم التدرّج فيه الى الخروج عن الدين احياناً بألفاظ ماسّة، ثم المغالاة في ذلك الى اقوال فيها معنى الإلحاد لا عن نظر وتفكير؛ واطلقت ايضاً على اعتناق الاسلام ظاهراً والتدّين بدين الفرس القديم باطناً، وخاصةً مذهب ماني .

وصلت الثقافة الفارسية بواسطة امتزاج العرب بالفرس وانتقال الخلافة الى بغداد واشتغال الوزراء والكتّاب الفرس بالعربية . وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالدولة بواسطة التجارة والفتوحات التي شملت قسماً كبيراً من الهند، وبانضمام بعض الهنود الى الاسلام، وكان منهم شعراء وعلماء بالعربية كأبي عطاء السندي الشاعر، وابن الاعرابي . وكان الفرس القناة الثانية التي جرّت ثقافة الهند الى العرب .

وكانت هذه الثقافات المختلفة تؤلف التراث العلمي في ذلك العصر، وفيها زبدة علوم الاشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان .

وكان لا بُدَّ للرجل المستنير الذي يعمل في مناصب الدولة إذ ذاك، ويقوم في الأئمة مقام الرجل القائد، من أن يأخذ بحظّ من هذه الثقافات جميعاً .

وأما كيفية انتشار تلك الثقافات في البلاد فرجعها الى المدارس والترجمات وتشجيع الخلفاء ونشرهم لها . فمدارس جنديسابور والرُّها ونصيبين وحرّان كانت تنشر الثقافة اليونانية، كما كانت مدرستا الرُّها ونصيبين ترّخران بالفلسفة اليونانية والتعاليم المسيحية . وكان في حرّان جماعة وثنية نبعوا في الدراسات اليونانية، علمية وأدبية، يسمّون الصّابئة . أما جنديسابور فقد أسس النساطرة فيها مركزاً هاماً للثقافة اليونانية، وقد نالت شهرة فائقة في الطب . وكانت هذه المدارس كلّها مراكز إشعاع في جميع العالم الاسلامي .

وأما حركة النقل والترجمة والنسخ فكانت القناة الكبرى التي جرّت جميع العلوم القديمة الى الدولة العباسية، وكانت المطبعة الحية التي نشرت في جميع اقطار البلاد تلك العلوم وجعلتها على منال الجميع . وقد ساعد الخلفاء واولو الامر تلك الحركة المباركة فأثرت بأطيب الاثمار . واذا بارسطو وافلاطون وابقراط وجالينوس وغيرهم ينطقون بلغة العرب ؛ واذا كتاباتهم في ايدي الكثيرين توقد في العقول نار نهضة مشمرة . ومما يؤسف له ان الحركة العلمية العباسية لم تستغلّ الادب اليوناني استغلالاً يُذكر كما استغلّت العلم اليوناني والفلسفة اليونانية ؛ فمع

كثرة ما نقلوه عن اليونان لم يتعرّضوا شيء من كتبهم التاريخية او الادبية او الشعر، مع انهم لم يُغفلوا ما يقابلها عند الفرس والهنود، فنقلوا جملة صالحه من تاريخ الفرس واخبار ملوكهم، ولكنهم لم ينقلوا تاريخ هيرودوتس ولا جغرافية استرابون ولا الياذة هوميرس ولا اوديسسته؛ كما انهم لم ينقلوا روايات اليونان التمثيلية ولا سائر فنونهم الادبية . ولعل اسباب ذلك ان العرب لم يتذوّقوا الآداب اليونانية لبعدها عن الذوق العربي ولانها مملوءة بذكر الآلهة التي تنفر منها عقائدهم؛ ثم ان اكثر ما بعث العباسيين على النقل رغبتهم في الفلسفة والطب والنجوم والمنطق لحاجتهم اليها اكثر من غيرها . زد على ذلك ان العلوم التي هاجرت من اليونان الى الشرق كانت خصوصاً الطب والفلسفة والهندسة والرياضة لا الادب والتاريخ والجغرافية .

٣ الثقافات الاجنبية وأثرها في الثقافة العباسية : انتشرت الثقافات الاجنبية

المختلفة في العالم العربي، وكان لكل ثقافة نزعة خاصة . أما العقل اليوناني فيّال الى فلسفة التعليل والتحليل، ميّال الى المعنويات اكثر من ميله الى الماديات، ميّال الى التعمق والعلم . فكان من البواعث الكبرى على التصنيف والاشتغال بالعلوم عند العرب .

وأما العقل الهندي فهو ميّال الى التأمل، والفكر الهندي هو من ثمّ تاملي شعري اكثر مما هو علمي، هو فكر تصويري خيالي تمثيلي، شديد الاتصال بالعاطفة؛ وعاطفة الزهد والتصوّف عند الهنود قوية لها أثر كبير في حياتهم . فكان العقل الهندي من البواعث الكبرى على الحكمة والمجاري الزهدية والقصصية عند العرب .

وأما العقل الفارسي فهو وعاء حوى العلم القديم كلّ تقريباً، فكان مؤلفاً من عنصر فارسي وعنصر يوناني وعنصر هندي . والاثر الهندي في الثقافة الفارسية أوسع من الاثر اليوناني . إلا ان الحضارة الفارسية تغلب عليها المادّة . فكان العقل الفارسي من البواعث الكبرى على الزخرف، والتفخيم والاطناب في الكلام

والكتابة، وتوسيع حقل الموسيقى وآلاتها . وكان أثر الفرس متفوقاً في الحضارة العباسية، وما تفوقهم الادبي إلا نتيجة طبيعية لتفوقهم السياسي .

فيتضح من كل ذلك ان الثقافة العربية قد اتسعت بامتزاجها بالثقافات الاجنبية، فأضيف الى ثروتها اللغوية الفاظ جديدة عُرِبت أو أُخذت عن اليونانية (الفاظ علمية خصوصاً)، والهندية (الفاظ مختلفة الموضوعات)، والفارسية (الفاظ موسيقية وما الى ذلك مما تتطلبه دواعي الاجتماع والحضارة والترف)؛ وأضيف الى ثروتها العلمية علوم نقلت، وكان اكثرها يونانياً، أما ما أخذ عن الفرس او الهنود في هذا الباب فلا يتجاوز كتباً في التنجيم والسّير والتاريخ والهندسة والدين الفارسي القديم؛ وأما ما أخذ عن اليونان فالمنطق والطب والهندسة والهيئة والفلسفة . وأضيف الى الثروة الادبية العربية معانٍ جديدة واساليب علمية وقصصية مبتكرة؛ وكانت سيطرة الفرس على الادب العباسي شديدة، وقد مرّت هذه السيطرة بدورين : دور الترجمة - وكان للفرس يد واسعة فيها - ، ودور القراءة والمزج . ولا يُنكر ما كان للفرس من فضل كبير على الادب العربي بما نقلوه من آثارهم وبما بثّوه في اساليب الكتابة من توجيهات جديدة .

وبعد ان انتشرت الفلسفة والعلوم اليونانية انتظم علم الكلام الاسلامي ونزعت العلوم الدينية واللسانية في اكثرها نزعة فلسفية، وتوثقت آفاق الثقافة العربية، وتنوّعت مجاري الفكر العربي، وانتشرت المكتبات العامة والمعاهد العلمية، وانتظمت الحركة العلمية والبحث العلمي .

وبسبب انتشار الثقافات الاجنبية ايضاً تعددت الفرق الاسلامية وانصرفت كل فرقة الى تأييد مذهبها بالفلسفة وما فيها من استدلال ومنطق؛ كما انتشرت فلسفة التصوف وطرائقه، وعقيدة التناسخ والحلول ونحوهما من عقائد الهند واليونان؛ وذاع فن الموسيقى وتعددت وتنوّعت آلاته واصواته مما كان له الاثر الكبير في الحياة الاجتماعية والادبية .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- جرجي زيدان : تاريخ التمدّن الاسلامي - القاهرة ١٩٠٢
- » : تاريخ آداب اللغة العربية - الجزء الثاني - القاهرة ١٩٣٠
- احمد فريد رفاعي : عصر المأمون - المجلد الاول - القاهرة ١٩٢٧ ص ٦٩ - ١٨٢
- عبد الرحمن بدوي : التراث اليوناني في الحضارة الاسلاميّة - دراسات لكبار المستشرقين - القاهرة ١٩٤٦
- جميل نخله المدوّر : حضارة الاسلام في دار السلام - القاهرة ١٩٠٥
- الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد - القاهرة ١٩٣١
- فيليب حتي : تاريخ العرب - الجزء الثاني - بيروت ١٩٤٩
- احمد امين وزكي نجيب محمود : قصة الادب في العالم - الجزء الاول - القاهرة ١٩٤٥ ص ٣٧٦ - ٣٧٨
- احمد امين : ضحى الاسلام - الجزء الاول - القاهرة ١٩٣٨

٢ المراجع الاجنبية :

- C. Brockelmann : Histoire des Peuples et des États islamiques. Traduction de M. Tazerout, Paris 1949, 98 sq.
- J. Pirenne : Les Grands Courants de l'Histoire universelle II, Paris 1947, 11-14.
- R. Blachère : Un Poète Arabe du IV^e s. de l'Hégire Abou-t-Tayyib al-Motanabbî, Paris 1935, 1-20.

الباب الثاني

الأدب العباسي

١ العباسيون والأدب العباسي : كانت الخلافة زعامة دينية دنيوية، ثم اخذت مع الأيام تتحول الى زعامة دينية مُستضعفة . والأدب الذي يُنسب الى العباسيين هو أدب العباسيين في بغداد، والبويهيين في فارس، والحمدانيين في الشام، والفاطميين في مصر والمغرب .

٢ مراكز الأدب العباسي : اهم مراكز الأدب العباسي بغداد، والبصرة، والكوفة، وحلب .

٣ نزعة الأدب العباسي : نزع الأدب الى ان يكون مرآة تتجلى فيها البيئة الجديدة .

٤ الشعر العباسي :

١ - أغراضه وفنونه : ضعف الشعر السياسي والحماسي؛ وأهمل الغزل العذري؛ وظهر الشعر الفلسفي والصوفي، والتعليمي، والقصصي، والتهكمي، والرسائي؛ واستقلّ الزهديّ والحمريّ والطُرديّ؛ وقوي المدح والرائي والهجائي؛ وازداد الشعر الحكمي عمقاً، والغزليّ فساداً؛ ومال الشعر الوصفيّ الى ذكر مظاهر المدينة الجديدة .

٢ - أساليبه وصياغته : مال الشعر الى الابتداءات الجديدة أحياناً، والحرص على التناسب والترابط بين اجزاء القصيدة، ومراعاة الترتيب في التركيب، واختيار الاوزان الخفيفة، واعتماد العذوبة والوضوح، والتزام المحسنات البianaة والبدعيّة .

٥ النثر العباسي :

١ - أغراضه وفنونه : ضعفت الخطابة، وتمددت فنون الكتابة فكان منها الرسائل، والتصانيف، والمقالات، والمناظرات، والعهود، والقصص، والمقامات . . .

٢ - أساليبه وصياغته : مال الكتّاب الى ربط الاسباب بالمُسببات، والى السهولة، والتأنق، والاطناب والتتويج، مع المحافظة على الجزالة والمتانة .

٦ اقسام الأدب العباسي :

١ - أدب الثورة التجديدية : من ابرز شخصيات هذا الطور بشّار وابو نواس وابو العتاهية؛ وابن المقفع .

٢ - أدب الحركة المعاكسة : من ابرز شخصيات هذا الطور ابو تمام والبحري وابن الرومي؛ والجاحظ . . .

٣ - أدب الاستقرار والتدرّج نحو الصنعة والزخرف : من ابرز شخصيات هذا الطور المتني وابو العلاء المعري والشريف الرضي . . .

١ العباسيون والادب العباسي : كانت الخلافة في عهد الراشدين زعامة دينية دنيوية، والدين فيها أقوى وأظهر . وكانت في عهد الامويين ملكاً عظيم الشأن ذا قوة مركزية واسعة . ثم أخذت الخلافة تتحول تدريجياً من سلطة ملكية مهيمنة الى زعامة دينية مستضعفة .



الخليفة المأمون يزور مجلساً من مجالس العلم

وما أطلَّ القرن العاشر (القرن الرابع الهجري) حتى ضعفت الحكومة المركزية في بغداد ولم يبقَ للخلافة من نفوذ فعليٍّ في المملكة : فكانت بلاد فارس في يد بني بُويه، والموصل وديار بكر وديار ربيعة ومُضر في يد بني حَمْدان، ومصر والشام في يد محمد بن طُغج ثم في أيدي الفاطميين، وخراسان والبلاد الشرقية في أيدي السامانية . وهكذا يُقسم العهد العباسي، من الوجهة السياسية قسمين كبيرين : عهد ازدهار وورقيٍّ يشمل القرنين الثامن والتاسع، وعهد انحلال سياسي . فان الخلفاء الأولين، وان اعتمدوا على الفرّس، احتفظوا بالسلطة ولم يُهجموا أمام القسوة التي

أُتزلوها أحياناً بأولئك الفرّس من مثل أبي مسلم الخراساني والبرامكة . أما من أتى بعدهم من الخلفاء فقد أصبحوا العوبة في أيدي الجند وغيرهم .

والادب الذي يُنسب الى العباسيين إنما هو منسوب على وجه التغليب لقوة أثرهم فيه، ولأنه نشأ وترعرع في ظلهم ؛ وهو في الحقيقة ادب العباسيين في بغداد، والبويهيين في فارس، والحمدانيين في الشام، والفاطميين في مصر والمغرب .

٢ مراكز الادب العباسي : المركز الرئيسي الأول للادب العباسي هو بغداد قاعدة الخلافة العباسية ثم عاصمة الدولة البويهية . وكانت في ذلك العهد من أهم حواضر العلم والمدنية . اجتمعت فيها الشعوب والمدنات، واتسعت فيها دور العلم .

ومن مراكز الادب العباسي ايضاً البصرة والكوفة في العراق، وكان التنافس بينهما شديداً . وقد دارت مفاخرات كثيرة بين البصريين والكوفيين، مما نشط الحركة الثقافية في مختلف فنون العلم من نحو ولغة وأدب وكلام وغير ذلك . وكان للعربد أثر كبير في الحياة العقلية، ولاسيما اللغوية، فقد أصبح في ذلك العهد غرضاً يقصده الشعراء لا ليتهاجوا، ولكن ليأخذوا من الأعراب الملكة الشعرية ؛ ويخرج اليه اللغويون ليدوتوا عن أهله ما يصحح قواعدهم ويؤيد مذاهبهم .

واشتهر من مراكز العلم، فضلاً عما ذكرناه من مدن العراق، المدينة بالحجاز حيث نضجت علوم الدين ؛ والفسطاط ببصر حيث ازدهرت علوم الدين واللسان ؛ وبخارى عاصمة الدولة السامانية بخراسان وتركستان ؛ وجرجان عاصمة الدولة الزيارية بطبرستان ؛ وعزنة قاعدة الدولة الغزنوية بالهند وأفغانستان ؛ والقاهرة عاصمة الدولة الفاطمية بمصر ؛ وخصوصاً حلب مقر الدولة الحمدانية بالشام .

أما معاهد العلم في العصر العباسي فهي الكتاتيب لتعليم الصبيان ؛ والمساجد أمكنة العبادة وأمكنة الثقافة ؛ ومجالس المناظرة في الدور والقصور والمساجد، وبين العلماء، وفي حضرة الخلفاء ؛ والمكتبات، ومن أشهرها خزانة الحكمة أو بيت الحكمة ببغداد، أسسها الرشيد وأغناها المأمون .

٣ زُعم الادب العباسي : كان لا بُدَّ للادب من تطوُّرٍ لما طرأ عليه من عوامل



جديدة . فقد امتزجت
المدنية الآرية بالمدنية
السامية، بدخول العناصر
الفارسية والتركية
والسريانية والرومية
والبربرية في تكوين
الدولة، وتمازج تلك
العناصر بالتزاوج
والتناسل، فاصطبغت
العقلية والميول بصبغة
جديدة تغلب عليها
الفارسية، وشبَّ النزاع
بين الشعوبية والعرب،

وطلبت الشعوبية المساواة، ووقفت وقفة شديدة في وجه العرب، ثم شبَّ النزاع بين
أرباب القديم الذين يقدِّسون القديم ولا يرون في سواه خيراً، وأرباب الحديث الذين
يرون الخير كله في الجديد، كما شبَّ النزاع بين الفرق الدينية، وقد كثرت في هذا
العهد، واندفعت على العرب العلوم والآداب الأجنبية بواسطة النقل والترجمة،
فكان الادب مرآة لهذا الشعب الجديد في ميوله وعقليته، في نزاعه المختلف المناحي،
في عيشه وترفيه، في زخرفة قصوره والوان بيئته، في ثقافته وانطلاقه
وراء العلوم .

وقد ظهر أثر كل ذلك في الشعر والنثر، وإذا هما مزيج من تراث الارض
وثررة المدنيات الجديدة، ينتهي اليهما أدب الجاهلية وأدب العهد الراشدي والاموي،
فيصبّ فيهما اللغة والأساليب الكتابية والعلوم الإسلامية والثروة الشعرية، ويتناول

ذلك كله العقل الجديد فيجور فيه ويزيد عليه، ويسقط منه . والنظرة التالية على الشعر والنثر في هذا العهد، توضح تلك النزعة الجديدة بتفصيل .

٤ الشعر العباسي : انتقل الشعر من هدوء البادية الى ضوضاء المدينة ، ومن الصحراء المجدبة الى القصور تحف بها البساتين، ومن الرصانة العربية الى الانغماس في الملهي الحضري، ومن مجالس الادب والسياسة الى مجالس الغناء، فكان لذلك اثر في اغراضه وفنونه، وفي معانيه وافكاره، وفي اساليبه واوزانه .

١ - اغراض الشعر وفنونه : ظهر الانقلاب في اغراض الشعر وفنونه ظهوراً ملموساً، ومضى ارباب الجديد في سبيلهم بالرغم من المقاومة الشديدة التي قابلهم بها أصحاب القديم، إلا ان مضيهم لم يكن حاسماً، وتجديدهم لم يكن انقلاباً جوهرياً، وتقدمهم لم يكن واسع الخطى بحيث يخلق فنوناً جوهريّة جديدة من مثل الملاحم والروايات التمثيلية وما الى ذلك مما ظلّ مفقوداً عند العرب ؛ فلبثت اكثر فنون الشعر العربي راسفة في قيود التقليد او ما هو قريب منه، ولم تكسح تخرج عن النوع الغنائي إلا في نواح قليلة لا يُعتدُّ بها .

أما ما ضعف او باد من الاغراض القديمة فالشعر السياسي الذي كاد يهمل إهمالاً تاماً لقلة الحاجة اليه . ولئن بقيت له بقية في العصية بين الشيعة والعباسيين، وبين الشعوبية والعرب . وكذلك أهمل الغزل العذري لتفشي الفساد ؛ كما ضعف شعر الفخر والحماسة .

وأما النواحي الجديدة في اغراض الشعر فظهر الشعر الفلسفي الذي يحاول النظر التحليلي في الكائنات ؛ والشعر الصوفي الذي يرفع الغزل من المادة الى الروح، وينتقل الى جوّ الروحانيات والتأمل في الله وكمالاته وصفاته ؛ والشعر التعليمي الذي كان مظهرًا من مظاهر نفوذ العقل في هذا العصر، والذي اتخذ أصحابه وسيلة الى نظم ألوان من فنون العلم تسهيلًا لحفظها واستظهارها ؛ فنظم كتاب كيلة ودمنة، ونظمت قصائد في الفقه وغير ذلك ؛ ويلحق بهذا النوع ما ظهر

من قصص الحكايات شعراً ؛ والشعر التهكمي والهزلي الذي نظمه امثال ابن حجاج وابن سُكَّرَة وصريع الدلاء ؛ والتراسل بالشعر . ومن ذلك استقلال بعض الابواب كالزهد الذي أصبح مع أبي العتاهية ذا نزعة فلسفية وذا كيان مستقل ، والحجر الذي سار به ابو نواس شوطاً بعيداً ، ووصف الصيد وما اليه .

واما ما قوي من فنون الشعر فالمدح والثناء وما اليهما . فقد أصبح الشاعر في هذا العهد يوقاً للعظماء يُعَلِّي شأنهم ويُذيع اخبارهم الحقيقية والمُختلفة ، ويرسل الاقوال الرنانة في ما يُنسب اليهم من صفات وأخلاق . وكانت هذه المدائح ذات نعمة واحدة تقريباً قلماً يتميز فيها بمدوح عن آخر الا في ما هو من شدة قرينة الشاعر وما تُنتجه من اقوال ؛ فلكل أمير صفات فائقة في الحرب والشدة والبأس والسيخاء ، ولكل عالم بحر زاخر من صفات المعرفة والعقل . وقد زاد الاقبال على المدح لانه سبيل الرزق ، ولان العظماء في حاجة اليه بسبب ما قام بينهم من تنافس . وقد بلغ فيه الغلو حداً مقبهاً .

وكذلك الهجاء أصبح أداةً للتكسب يُستدر بها العيش . وازداد تتبعاً للسبتات وإقذاعاً شنيعاً من غير ما نعومة ولا لطافة إلا في النادر .

وأما الشعر الحكمي فقد ازداد عمقاً وتحليلاً بسبب انتشار الحكمة الفلسفية والهندية ؛ وأما الغزل فقد أصبح في اكثره فاحشاً لا يأنف من ذكر المخازي بصراحة شنيعة ، بل أصبح ميداناً للفسق والفجور يُذَكِّيه توفر الإماء الاجنبيات وضروب الترف ومجالس اللهو . ومن وصحات الغزل انصرافه الى التشبيب بالغلمان من الروم والديلم والترك مما سُمي بالغزل المذكور .

وأما الوصف فقد مال ، فضلاً عن الموضوعات القديمة ، الى ذكر المباني والمصنوعات كالبركة والفؤارة والشمعة وأنواع الأطعمة ، والى ذكر البساتين والرياض تحف بالقصور وتبعث النشوة في النفوس .

وقصارى القول ان الشعر العباسي قد عُني على العموم بالنظر الى الواقعية ، وما توحى به من اندفاع اليها ونفور من مفاسدها ، من غير إغفال للتراث القديم .

٢ - اساليب الشعر وصياغته : ومع ما بلغه الشعراء من تفنن في الاغراض فإنهم حافظوا عموماً، في بناء القصيدة، على الاوضاع الموروثة عن الاقدمين من التزام الروي الواحد والبحر الواحد، ومن الافتتاح بالغزل وذكر الديار، ووصف الراحة، وما الى ذلك مما يُمهّد به للمدح او للهجاء او غيرهما . واثن أجروا تغييراً أو تجديدًا ففي ترك الابتداء بذكر الأطلال أحياناً الى وصف القصور والحدود وفي الخوص على التناسب والترابط بين اجزاء القصيدة أحياناً أخرى، ومراعاة الترتيب في التركيب ؛ والاكتثار من النظم على البحور الخفيفة، وابتداع اوزان أخرى كالاستطيل والممتدّ وهما عكس الطويل والمديد، والميل الى هجر الغريب من التراكيب والالفاظ واعتماد العذوبة والوضوح، والتزام البديع واساليب البيان التزاماً، والاستكثار منها . وبالجملة فقد غلبت الصنعة على الشعر، وأخذت هذه الصنعة تردّد وتنمو الى ان اصبح الشعر في أواخر العهد العباسي زخرفة مقيمة .

ومما يلاحظ في هذا العهد ان « شعر العراق والشام قبلة العالم العربي كله يُقلّد في مصر والمغرب والاندلس وسائر الاقطار ويُحذى حذوه . فلا تشعر شعوراً قوياً بطابع اقليمي، ولا بفنون مخترة تقتضيها بيئة الإقليم . . . بل كلهم يقلّد العراقيين في مذهبهم ومنحاهم وموضوعاتهم واساليبهم » .

٥ النثر العباسي : واصل النثر العباسي ما لمسناه من فنون واساليب في آخر العهد الأموي، وراح ينمو في ظل الحضارة الجديدة، متخطياً الحدود التي وقف عندها الشعر ؛ فظهرت فيه آثار المدنية العباسية والتفكير العباسي اكثر مما ظهرت في الشعر ؛ واذا استعرضنا اغراضه واساليبه وقفنا على مدى ما وصل اليه من هذا القبيل .

١ - اغراض النثر وفنونه : لقد ضعفت الخطابة في هذا العهد شيئاً فشيئاً . وذلك لضعف الدواعي اليها واضعف القدرة عليها . ومن اكبر دواعي الخطابة روح العصبيّة والحزبية . ففي صدر العهد العباسي ظلت اسباب الخطابة قوية لما جرى من انقلابات خطيرة وما ظهر من دعوات مذهبية حادّة، وثورات اجتماعية عنيفة ؛ ولم

يكن اختلاط العرب بالاجانب بعد شديد الاثر على الاسنة ؛ فكان للخطابة بسبب كل ذلك شأن يُذكر، فتعددت موضوعاتها وتشعبت مناحيها . ثم اخذ ظلُّها يتقلص عندما استحكم الامر لبني العباس واصبح الفضل للسيف والسلطان لا للسان، وعندما خبت نار الاحزاب والثورات وضعفت الفصاحة العربية، وانصرف الناس الى الثقافة والكتابة للإقناع، واستعاضوا عن الاسنة بخطب بالاقلام تكتب. وحلّت محلّ الخطابة الرسائل الادارية، والمنشورات الدولية، والمناظرات العلمية والادبية ؛ ولم يبق لها إلا بعض الاصداء في المساجد والجموع تبسط الموضوعات الدينية في الجمع والاعياد .

أما الكتابة فلم تعد مقصورةً على الدواوين بل تعدتها الى وصف الحضارة الجديدة بما فيها من لهو وترف وقصور ورياض، والى وصف النفس البشرية بما لها من نزعات واهواء، ونقد الكتب الادبية وشرحها، وبسط المسائل العلمية والدينية، ورواية القصص والاعمال الخيالية والتاريخية، والمفاخرات وما الى ذلك .

وتعددت فنون الكتابة في العهد العباسي فكان منها الرسائل الاخوانية في الشكر والعتاب والتعازي والتهاني والاستعطاف وغير ذلك ؛ ومنها التصانيف العلمية والادبية، ومنها المقالات، والمناظرات، والعهود، والروايات القصصية، والمقامات ...

٢ - اساليب النثر وصياغته : ظهر اثر الفلسفة والعلوم في النثر العباسي فاتسع مجال التفكير، وعني الكتّاب بربط الاسباب بالمسببات ؛ وامتدت العقول، بتأثير النقل والترجمة، الى وضع الكتب واتباع الاساليب التصنيفية فيها . - وظهر الاثر الفارسي^١ والآداب الفارسية والتurf العباسي في الكتابة، فمالت الى السهولة في العبارة، والتأنق في اللفظ، والجودة في الرصف، واطالة المقدمات، وتنويع البدء واختتام، ومالت الى الغلو والاكثار من الالقب والدعاء ؛ كما مالت قبل

(١) من الآثار الفارسية التي بلغت العهد العباسي كُتب في صناعة المراسلات وما قد يحسن في بدنها وما قد يحسن في نهايتها ...

كل شيء. وبعد كل شيء. الى التفصيل والاطناب . - وظهر الاثر العربي ايضاً في الكتابة فكانت جزلةً متينةً لا تخلو من ايجاز احياناً ، وظهر الایجاز بنوع خاص في التوقيعات .

تلك كانت اهم ميزات النثر العباسي ، اوردها على وجه التعميم والتغليب ؛ وسنرى ان ذلك النثر سينحدر شيئاً فشيئاً في سبيل التنميق والزخرفة حتى يصبح مع الايام مجرد صنعة .

٦ اقسام الادب العباسي : لاجل تسهيل دراساتها رأينا ان نقسم الادب العباسي ثلاثة اقسام :

١ - ادب الثورة التجديدية : (من فجر العهد العباسي الى اوائل القرن التاسع الميلادي / الثالث الهجري) . في هذا الادب محاولات تجديدية جريئة وذلك في ميادين مختلفة : في الهجاء والمجون (بشّار) ، في الخمر (ابو نواس) ، في الزهد (ابو العتاهية) ...

أما في النثر فنجد امتداد اسلوب عبد الحميد مع ابن المقفع وتلاميذه من امثال احمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح ، عمارة بن حمزة ، سهل بن هارون ، الحسن ابن سهل ، عمرو بن مسعدة ...

٢ - ادب الحركة المعاكسة : (من اوائل القرن التاسع الميلادي / الثالث الهجري ، الى اوائل القرن العاشر الميلادي / الرابع الهجري) . نلمس في هذا الادب حركة معاكسة لروح الثورة التي وجدناها في العصر السابق ، ورجوعاً الى القديم ، والى التقاليد العربية في الفقه وسائر العلوم الدينية وفي الادب . ولكن هذا الرجوع متأثر بالحركة التجديدية التي سبقته . اما في الشعر فزعياً الحركة هما ابو تمام والبحري ، وقد احقنا بهما ابن الرومي وان كان في شعره خروج عن بعض التقاليد ... - وأما في النثر فتظهر طريقة الجاحظ في إطنابها ، ودقة وصفها ، وكثرة استطرادها ، وشدة استقصائها للامور .

٣ - ادب الاستقرار والتدرج نحو الزخوف الى حد الاغراق في الصنعة :

(وهذا الطور يمتد الى آخر العهد العباسي) . أما الشعراء فقد كثروا جداً واما النابغون القليلون فاشهرهم المتنبي ، وابو فراس ، وابو العلاء المعري ، وابن الفارض ، والشريف الرضي . . .

وأما النثر فقد ظهرت فيه طريقة ابن العميد وطريقة القاضي الفاضل في الترامها السجع ، والاكثر من التحسينات البديعة والاقتباس . . .
وسندرس في هذا الطور الفن القصصي العباسي ولاسيا سيرة عنترة ، والف ليلة وليلة ، وما الى ذلك .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

طه حسين : من حديث الشعر والنثر - القاهرة ١٩٣٦ ص ٤٢ - ١٥٢
احمد امين : ضحى الاسلام : الجزء ان الاول والثاني - القاهرة ١٩٣٨
علي الجارم ، محمد احمد جاد المولى ، محمد ابو بكر ابراهيم . . . : التوجيه في الادب العربي - القاهرة ١٩٣٨ ص ١١١ - ١٢٦
انيس المقدسي : تطوّر الاساليب النثرية في الادب العربي - ص ١٣٥ - ١٥٢
شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي - القاهرة ١٩٤٦ ص ٤٤ - ٤٦

٢ المراجع الاجنبية :

R. Blachère : Un poète arabe du IV^e s. de l'Hégire About t-Tayyib al Motanabbî, Paris 1935, 1-20.
Zaki Mubarak : La prose arabe au IV^e s. de l'Hégire, Paris 1631.

موضوعات للبحث

- ١ - قيل : « الادب ابن بيئته » . ناقش هذه الفكرة وطبقها على الادب العباسي .
- ٢ - أقم موازنة بين تطوّر النثر وتطوّر الشعر منذ العهد الجاهلي الى هذا العهد .
- ٣ - ما الفنون الشعرية والنثرية التي خلا منها الادب العباسي ؟ فصلها واذكر اسباب خلوّ الادب منها .

الباب الثالث

أدب الثورة التجديدية - الشعر

الفصل الاول

بشار بن برْد (٧١٤ - ٧٨٤ م / ٩٦ - ١٦٨ هـ)

١ مكانه من عصره : كان بشار صلة بين عهدين : القديم والجديد .

٢ حياته : وُلد بشار في البصرة، ونشأ أعمى حادّ الذكاء ، فحاول الاتصال ببني أمية فلم يُفلح ؛ وقد اتصل بمحلفات الادب والفقه (واصل بن عطاء) ؛ وتطرق في حياته العابثة وفي آرائه فطرد من البصرة، فقصد حرّان والعراق حيث مدح يزيد بن عمر بن هبيرة ؛ ثم عاد الى البصرة فنفي ثانية قسرد الى ان مات مناوئوه فساد الى البصرة، ومنها كان يتردد الى بغداد . مدح المهدي فوصله، ثم عاد فغضب عليه بسبب خبث لسانه، وغضب عليه الوزير يعقوب بن داود فأغرى المهدي بقتله . فقتل .

٣ نفسيته : كان سيئ الخلق إباحياً، متقلباً، مادي النزعات، ناقماً، ثائراً، ساخراً، كثير الاعتداد بنفسه وكثير الجبن ؛ إلا انه كان عطوفاً على ذويه .

٤ آثاره : لم يبلغنا إلا القليل من آثاره . وأهم اغراض شعره المدح، والهجاء، والفخر، والغزل، والرثاء .

٥ شعره : اجتمع الشعر لبشار طبعاً وفتناً . وكان شعره تقليدياً في إرضاء الرجبين، وتجديدياً في إرضاء الشعب والمجددين . وهكذا كان شعره صورة لنفسه المتقلبة، وليسته المتأرجحة بين القديم والحديث .

١ - التقليد : ينحصر شعر بشار التقليدي في المدح . وبشار يفتن في اتباع الاساليب التقليدية من مجور طويلة، ووقوف على الاطلال، وما الى ذلك ؛ ويردد المعاني القديمة ولاسيا معاني الكرم والجود التي تخدم اغراضه التكسبية .

٢ - التجديد : دعاه الى التجديد ما جرى من انقلاب في البيئة . وظهر تجديده في هجائه وفخره، وفي غزله . ففي هجائه يُكثر من وصف المهجور بأوجه العار الشائنة، ويتعرّض لنسبه العربي، ويجعل مهجوه ضحكة ؛ وذلك في عبارة قريبة المأخذ، سهولة الحفظ، واسلوب رشيق .

— وغزله جديد في معانيه المجوَّنة المترفة، جديد في تصاويره الحضريَّة الناعمة، جديد في ألفاظه الموسيقيَّة السهلة؛ يجمع الى الدقَّة في تصوير لجاجة الشهوة، وتباريح الهوى، والى الرخاء في المحاورات الغرامية، والى الواقعية في الوصف، خيالاً ناعماً، وموسيقى بديعة الايقاع، واسلوباً رقيقاً؛ وغزله شديد الخطر على العفاف.

٣ — بين التجديد والتقليد : شعر بشار، في الاجمال، إما تجديد تزلق فيه تقليدات غير واعية، او تقليد مقصود، تتخلَّله تجديدات لا بُدَّ منها لانها طابع الشخصية.

٦ شاعريته : لبشار قريحة سمحة، وعقل نير، راجح، رحب النطاق؛ ونفس مشبوبة الشعور؛ وخيال يأتي بالصور الطريفة الزاهية الشفافة، والالوان والانوار الناطقة العجيبة؛ وصوره منتزعة من الاحساس الواقعي.

٧ فنّه : لغة بشار نقيّة في سعتها وغناها، عذبة في صحتها وبلاغتها وماتنتها؛ واوزانه سلسلة رقيقة، مطربة بموسيقاها. ولا يخلو شعر بشار من المحسنات البديعة.

١ مكانه من عصره : عاش بشار بين عصرين : عصر ينزع الى العروبة والحفاظ على العادات العربية والتقاليد العربية، ويزخر بالنضال الديني والسياسي؛ وعصر ينزع الى « الكيسروية » التي تقف في وجه العرب الذين اعتزوا بعروبيتهم التليدة بخلقها وبيانها، والطريقة بالدين الجديد وبغلبتها واستيلائها على البلاد، وتثير في وجههم تياراً عكسياً، فتفاخرهم بمجدها الواسع، وحضاراتها الراقية، وغناها العريض؛ ويضمّ بشار صوته الى صوتها وإن وقف في ابواب العرب يستدرّ اكف سلاطينهم.

وشهد بشار نضالاً عنيفاً بين ارباب القديم وارباب الجديد في الاخلاق والادب. فتتبع مجاري الاخلاق الجديدة، وتقلّب في ادبه يريد إرضاء اصحاب القديم، كما يريد إرضاء البيئة الجديدة، فنظم شعراً على الاساليب القديمة وفي متانة القديم وشدته، ونظم شعراً يلائم روح العصر وفنّه، لشعوره ان الادب هو ابن البيئة، وأن من واجبه ان يكون ابن عرقه وزمانه. فكتب وأخرج فناً كان أدب المولدين، وفتح الباب واسعاً لمن يريد الولوج من الشعراء والادباء.

وهكذا كان بشار صلة بين عهدين.

٢ حياته :

١ - مولده ونشأته : وُلد بشار في البصرة حوالي سنة ٧١٤ م (٩٦ هـ) من أب طيَّان فارسي الأصل، يدعى بُرداً كان مع امرأته ملكاً لامرأة عقيليَّة اعتقت بشاراً فانتمت إلى بني عقيل بالولاء، فنشأ صحيح العروبة ثم أبدى حيناً ليقوم لسانه على لغة عربية خالصة؛ وعاد يستأنف صباه في البصرة وهي إذ ذاك إحدى حواضر العلم والادب، فحصل منها ما استطاع؛ وقد امتاز منذ حدثته بذكاء حادّ وعبقريّة باكرة، وراح ينظم الشعر، فيما قيل، وهو في العاشرة من عمره؛ إلا أنه قد ذهب في الحياة على غير تهذيب ولا رادع ولا قيد، فقضى صباه شأن الاولاد الاشقياء خبيثاً شريراً، هجأ، ينتهك أعراض الناس ولا يتورّع من شيء.

٢ - الشاب المتطرف : وقيل إن بشاراً قد تصدّى لجريز بالهجاء، كي يردّ عليه الشاعر الأموي فينتشر اسمه، ولكن جريراً لم يلتفت إليه؛ ومن المرجح أنه حاول التقرب من خلفاء بني أمية، إلا أنه، على ما يظهر، لم يصب لديهم حظوة. وكان في بدء أمره لا يزال كثير الاختلاف إلى حلقات العلم والادب في البصرة، دائم الاتصال بشيوخها وكبار رجالها ولاسيما واصل بن عطاء شيخ المعتزلة. وما عمّ أن تطرّف إلى آراء زندقة وإلحاد. ولما اتّسعت حاله، أقام له منزلاً جميلاً جعله داراً له ومجون. وفي تلك الاثناء تعرّف إلى عبدة التي سيتغنّى بها في شعره الغزلي. وكان ذلك كله مما اثار على بشار حفيظة الفقهاء والشيوخ وواصل بن عطاء نفسه، فظلّوا به حتى نفوه عن البصرة حوالي سنة ٧٤٤ م (١٢٧ هـ).

٣ - حياة قلق وتشرد : فيتمّ بشار إذ ذاك حرّاً، قاصداً سليمان بن هشام؛ إلا أن سليمان لم يحفل به، فعاد به بشار مُحنقاً إلى والي العراق يزيد بن عمر ابن هبيرة الفزاري الذي كان يعظمه لحسن مدحه لقيس عيلان. فأقام الشاعر لديه في الكوفة يمدحه حتى قُتل سنة ٧٥٠ م (١٣٢ هـ) وسقطت الدولة الاموية. فعاد

الى البصرة وكان اعداؤه لا يزالون حافظين عليه، فنفي ثانية، وما برح شريداً يتقلب من مدينة الى مدينة حتى اطمأن ان كل مناوئيه قد ماتوا فانقلب راجعاً الى البصرة سنة ٧٦٢ م (١٤٥ هـ) وظلّ فيها يتمدح ولاتها ويتردد بين الحين والحين على المنصور في بغداد، بعد أن دعا الى قتله والمنصور لا يدري بتلك الدعوة؛ غير أن الخليفة كان مشهوراً بقلّة سخائه على الشعراء، فلم يظفر منه بشأ بشي كثير.

٤ - بشار والمهدي : لما تولّى المهديّ الخلافة سنة ٧٧٥ م (١٥٨ هـ) كانت

شهرة بشار في الشعر قد امتدّت، فقدم الى الخليفة طمعاً بالخطوة؛ وقد توصل اليه فدمه، ونال منه ثواباً حسناً؛ إلا ان بشاراً كان سيئ التصرف يضرّ بنفسه لكثرة ما يأتيه من شرور؛ فراح، على علة او غير علة، يهجو وزراء المهديّ والمقرّبين اليه؛ واتفق أن المهدي كان كثير الغيرة على النساء؛ فوشى اعداء بشار الى الخليفة بما للشاعر من غزل فاسق متعهر؛ فعنف الخليفة ببشار، ومنعه عن النسيب، وتهدّده بالقتل إن هو عاد إليه. إلا ان بشاراً كان ابدأ اسير طبيعته الشريرة، فما كان يتمالك من معاودة الغزل ولو متقنعاً، فأهمله المهديّ ولم يعد يحفل به.

٥ - موته : وتولّى يعقوب بن داود وزارة المهديّ، فحاول بشار ان يستميل

بدمه خطوة الوزير الجديد، ويستعيد بواسطته خطوة الخليفة، ولكنّ الوزير لم يكثر له، فسخط بشار وهجا المهديّ ووزيره هجواً لاذعاً، فاشتدّت نقمة يعقوب عليه، وما فتى يلحّ على الخليفة، ويقسح بشاراً في عينيه، ناسباً إياه الى الزندقة، حتى أمر المهديّ بقتله. فضرب سبعين سوطاً مات منها حوالي سنة ٧٨٤ م (١٦٨ هـ).

ويروي صاحب الاغانى أنه لما نعي بشار الى اهل البصرة تباشروا بذلك النبأ، وهناً بعضهم بعضاً بوفاة من لم يدع أحداً في مأمن من لسانه، وقيل انه لم يشيع جثمانه غير أمة سوداء أعجمية.

٣٧٧ نقيم بشار : 'خلق بشار قبيح المنظر، سمج الهيئة، كفيفاً؛ على أنه كان بوسعه لو أحسن التصرف، وركن الى الوقار، أن يُرغم الناس على أخذ عاهته بالعطف والرحمة، وتأدية الاحترام لذكائه ونبوغه .

وكان يجمع الى قبح المنظر، قبحاً شبيهاً في الخلق، ولم يتهياً له في صباه من يهذب ذلك الخلق ويقوم اعوجاجه؛ فنشأ بشار سيئ الادب ينقاد لكل تزعاته، وتزعاته كتلة من العيوب البغيضة؛ فكان بالطبع مقيتاً .

ورأس عيوبه الاباحة، فهو مغرم بالخروج عن قيود الفضيلة والتقاليد المرسومة، لا يريد لنفسه قيداً ولا وازعاً، ولا يراعي حرمةً لاحد، ولا يعترف بمبدأ او ضمير او دين؛ وهو متقلب، لا يثبت على عهد ولا مذهب، لا اكتراثي غير مبال بأي شيء يفعل ما دام يُرضي تزواته وغرائزه .

وتزواته وغرائزه مادية نهمة الى اللذة الدنيوية، متكالبة على تنبُّهها، غير عابثة في سبيل ذلك بتذليل النفس وبسلوك الفسق والمجون، وإظهار القحة في طلب المال لان المال هو غالباً الذريعة الضرورية للمتعة . وبشار الى ذلك لا يقيم للقيم الروحية أي وزن، إنما كل احتكامه الى الحسني الملهوس .

ولم يكن بشار ليظفر دائماً بما يود بسبب عاهاته الجسمية والنفسية؛ ولم يكن خالياً، مع ذلك، من حدة البصيرة ودقة الاحساس، ليشعر بما لعاهاته من الشأن في حظه دون مستوى سائر الناس . فنشأت فيه من ثم روح ثائوة، ناقمة على الجنس البشري، مسرفة في قصد الشر . فهو لا يرتاح حتى ينهش الأعراض نهشاً مُتلفاً، ويصب على الناس ما في نفسه من حققد ومرارة وهجر . وإن لان فهو هازل ساخر، حاد السخرية في الغالب؛ حتى انه كان يُظهر الاعتباط بالعمى الذي يجلب عنه مرأى الناس .

ولا عجب في ذلك، فقد كان بشار كثير الاعتداد بنفسه، لا يرى لها نظيراً،

ويؤثرها على الجميع، ولذلك كان انانياً من الطبقة الاولى لا يقف عند الآخرين إلا كما يقف النحل على الزهر ليمتص منه ما هو بحاجة اليه، ولذلك جعل فنه كله احبولة صيد . وبسبب اعتداده هذا وبسبب تكالبه على الحياة وملذاتها نشأت فيه روح الجبن . فإنه كان يخشى أبداً التورط في ما يعلن ذلّه وانكساره على الملا، فلا يتصدى لأحد ما لم يأمن شره، ولا يتعرض لخطر ما لم يحسب له كل حساب، ويتق غوائله بجميع الطرق . وهو يحب الدنيا ويتفانى في الطبيعة التي ليست الحياة إلا أهم مظاهرها وأبلغ آياتها؛ فكان يحرص شديد الحرص على حياته، ويجبن كلما خشي شراً .

والجبن يقود غالباً الى الكذب والنفاق فكان بشار من اكبر المنافقين . ومع ذلك فقد قيل انه كان عطوفاً براً بذوي قرياه .

٤ آثاره : اشتهر بشار، في زمانه، بوفرة القول، فقد ترك - على حد ما قيل - آثاراً في الفارسية، وخطباً مع مقطوعات شتى في النثر، وشعراً جمّاً ادعى بشار أنه يبلغ اثني عشر ألف قصيدة؛ فإن كان ذلك صحيحاً فيجب أن نجزم بأن الكثير من أدب بشار قد فُقد، إذ لم يبلغنا منه إلا نُتف يسيرة من القصائد التي دونتها كتب الأدب ولاسيما الاغاني؛ ومجموعة اسمها «الختار من شعر بشار» وضعها ابو بكر وأبو عثمان الخالديان، خازنا دار كتب سيف الدولة، وأثبتا فيها ما يقرب من الثلاث مئة والعشرين بيتاً؛ ومما لا شك فيه أن الكثير من شعر بشار قد أُتلف عمداً، لما فيه من فحش .

وأما اغراض شعره فهي الأغراض التقليدية من مدح وهجاء وغزل ورتاء وما الى ذلك .

٥ شعره : كان الشعر في أيام بشار إما صنعة للتكسب او اداة للهو؛ وكان بشار شاعراً مطبوعاً وطماعاً مطبوعاً اي كان كثير المطالب والمطامع، جشعاً الى المال الذي كان بحاجة كبرى اليه، نهماً الى اللذة، وماله من ذريعة

لبلوغ مآربه سوى الشعر . فسخر بشار نبوغه لأغراضه بعد ان اسبغ عليه من فقه ما شاء من الألوان الحريّة بأن تجعل شعره يلائم أهواء المقصودين به ؛ فشعر بشار تقليديّ إذا قصد به المقلّدين، وهو تجديديّ إذا ابتغى إرضاء الشعب والمجدّدين، وهو على كل حال صورة لنفس الشاعر المتقلّبة، المتأثرة بالعصرين الأموي والعبّاسي، موسوم بمختلف ألوانها وتزعّاتها، متأرجح أحياناً بين التجديد والتقليد .

١ - التقليد (المدح) : لم يكن بشار عموماً ليلجأ الى التقليد، إلا اذا رأى فيه ما يفي بغرضه ، ويأتيه بما يقصده من وراء شعره من لبانات ؛ ولذا يكاد ينحصر تقليده في شعره المدحي . ولم يكن بشار جاهلاً لطرائق الشعر القديم، غريباً عن أساليبه ومعانيه ؛ فقد أخذ اللغة عن أهلها الخالص، ووعى من غاذج التقليد الشيء الكثير، وآنس من نفسه المقدرة على مجاراته . فجرى في مديحه على ما ألفه الشعراء الاقدمون، مما يروق أميال ممدوحيه، ويأخذهم من حيث يتزعون . وركب البحور الطويلة، وعد الى نظم متين، رصين، جزل، قليل العلاقة المنطقية يستهل بالغزل والتولته، ووصف الرحيل وندب الأطلال، وذكر الفرس او الوجناء، حتى إذا بلغ الممدوح أطراه وغالى في الإطراء، ولا سيما اطراء جوده، لئلا يدع له من العطاء محيصاً . ويستجدي ويلجّ في الاستجداء، بل يتهدّد أحياناً؛ وهو لا ينسى، الى ذلك، أن ممدوحيه، مهما بلغ منهم ميلهم السلفي، يتأثرون الى حدّ ما بالحياة الجديدة، فيبث في شعره، من هنا وهناك، معاني طريقة، وتساوير ناعمة حضرية .

وبالجملة فإن بشاراً يتخذ المدح اداة للتكسّب لا غير، ويفتن في التقليد، لا عن انقياد او كسل شأن عامة المقلّدين من قبله، بل عن قصدر وتعمّد .

٢ - التجديد :

١ دواعي التجديد : لقد ظهر لنا بشار مولعاً بالحياة الواقعيّة، واقفاً شعره على تصوير حياته . وإنّه قد شهد تجدد البيئة في جميع مرافقها، إثر الانقلاب الذي

حدث في الأوضاع السياسية، والاجتماعية، والدينية والعلمية، وطفئت فيها العناصر الفوضوية الجديدة بما فيها من حريات مختلفة .

وقد صادف هذا الانقلاب ميلاً ملائماً في نفس الرجل وهو الجنوح أبدأً الى الانطلاق من القيود والتقاليد، ومخالفة الأوضاع الجامدة المرسومة، والى التمتع بالحياة، في حرية ونهم؛ والفنان الماهر في تكييف شعره على ما يريد من الالوان ليلبغ منه شتى غاياته .

٢ مواطن التجديد : كل ذلك قد جعل شعر بشار، في بعض أغراضه، صورةً أمينة لحياة عصره، مُتَّسِمَةٌ بما كان يصنفها من تجديد في مختلف نواحيها .

— الهجاء والفخر : إن أول ما طرق بشار من أبواب الشعر، هو الهجاء . وقد هجا أشخاصاً كثيرين منهم حماد عجرد والمنصور والمهدي . . . وكان الهجاء عنده إماً اندفاعاً تلقائياً يسكب فيه ما في نفسه من سخط وازدراء ورغبة في الشر؛ او اداة للتكسب يهول بها على الناس، كي يردوا عنهم شره بشيء من المال؛ او ذريعة للدفاع عن نفسه، فينسب الى مهجوه ما فيه من مغامر كأنه بذلك يدفع تهمتها عن ذاته ويحصرها في المهجوة .

الهجاء في شعر من سبق بشاراً من الشعراء كثير، والإقذاع فيه غير قليل؛ الا ان بشاراً جاوز الحدود السابقة، وخرج الى ما لم يخرج اليه السلف؛ ونحن لا نجد شاعراً واحداً تقدمه وفي كلامه مثل هذه الجملة من الهجاء الشخصي القبيح والقذف الصريح؛ وكان الشعراء قبله اذا هجوا يتعلّقون على الاكثر وفي الغلب بالمعاني الاجتماعية فيعييبون المهجوة بما يُعدُّ نقصاً في هذا الباب كالبلخل والجن وقلة المروءة وما الى ذلك، وكان الذمُّ الشخصي او الطعن في العرض قليلاً اذا قيس الى ما قال بشار بمفرده؛ وقد اخش ابن بُرْد في نيله من الأعراض كما بالغ في تناول المحسوس في تشبيهه .

وفي جميع الاحوال يظهر بشار مجدداً، سواءً بالاكتثار من وصف مهجوة
بأوجه العار الشائعة كالبحون والتهتك، أم بالتعرض لنسبه العربي آخذاً في ذلك
بالتزعة الشعبية الجديدة، التي تردري العرب، مفتخرة بالأصل الأعجمي .

وهذا النوع من التجديد يشترك فيه الفخر والهجاء، اذ يتباهى الشاعر، في
الاول، بنسبه الفارسي؛ وفي الثاني، يتناول اصل مهجوة العربي بأقبح التشنيع
واصفاء إياه بالذل والهوان، وسرعة الانحطام، مما لم يجرؤ عليه شاعر من قبل . ومن
ذلك قوله :

- أرفق بمعمري وإذا حرّكت نسبته فإنه عرّيت من قوارير
- سأخير فاحسر الأعراب عني وعنه حين تأذن بالفخار
أحين كسيت بعد العري خزاً ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا ابن راعية وراع بني الأحرار، حسبك من خسار
وكنت إذا ظميت إلى قراح شركت الكلب في ولغ الإطار

وبشار يحرص بعد هذا ان يجعل مهجوة ضحكة بين الناس، فيتعمد ما
يرضيهم، وينتزع من بيثتهم وحياتهم معاني وتصاویر على منالهم؛ ثم ينظم
شعره في عبارة قوية المأخذ، سهلة الحفظ، وأسلوب وشيق، يختلف عن اساليب
الأقدمين وشعرهم الجافي الصعب، الذي لا يفهمه سواد الشعب - واغلبهم في
عصر بشار موال وأعاجم أو عرب تأثروا بالأعاجم - . واذا بهجاء بشار - وبفخره

(١) القوارير ج فارورة وهي إناء من الزجاج . قال الشاعر هذا البيت في هجاء ابي عمرو بن
العلاء وكان ابنه رمى بشاراً بأنه مولى لا عربي؛ فيقول : لا تبحث في نسب عمرو بحثاً عتيقاً فإنه نسب
مغموز، سريع الانكسار (٢) الخنز : الحرير . نادته على الشراب : جالسه عليه . العقار :
الحمرة (٣) الخسار . الضلال . يريد ببني الاحرار الفرس، والشاعر منهم؛ وفي هذا البيت من
احتقار الشعوبية للعرب شيء كثير (٤) القراح : الماء الصافي . الولغ : ان يشرب الكلب
بطرف لسانه . الإطار : الحفير حول البيت يتجمع فيه الماء .

أحياناً - طريف المعاني والتساوير، طريف الأسلوب، عليه من عصره صورته وتزعاته .

- الغزل : وكذلك الامر في الغزل عند بشار . فهو جديد في معانيه المجونية المترفة، جديد في تصاويره الحضريّة الناعمة، جديد في الفاظه الرشيقّة، السهلة الموسيقية، لانه اصدق صورة لذلك العصر الإباحي المترف، المتأثر بالأعاجم والفنون الرقيقة .

وجدير بالذكر هنا، أن بشاراً لم يعرف للحب معنى صحيحاً مستقيماً، او أنه لم يعرف منه غير اللذة السّمجّة، النّهمة التي لا تشبع . ولئن صدّه عماه عن اكتناه معنى الجمال، فقد ضاعف فيه قوّة الإحساس، وحصر غزله ضمن دائرة المحسوس، ولذلك تراه لا يرتفع عن نطاق الحسّ إلا في النادر وعلى سبيل التقليد . وقبلما يرتقي إحساسه بالمرأة الى المعاني النفسيّة . وكان شعوره بقدرته الفنيّة يستحثّه أبداً الى تغشية عاهاته الخارجيّة بمبتدعات فنه، فاستطاع من ثمّ ان يخلق في الغزل غودجاً فذاً، يجمع الى الدقّة في تصوير لجاجة الشهوة، وتباريح الهوى ونزواته، والى الرخاء والتخنث في المحاورات الغرامية، والى الواقعية في وصف التهنّك المكشوف احياناً، خيالاً ناعماً، وموسيقى بديعة الايقاع، طروبّة النغمة، واسلوباً رشيقاً، مجنّحاً لبّقاً، لا تجدد النفوس النضرة، والقلوب الفتيّة سبيلاً الى مقاومة تأثيره؛ ولذا كان غزل بشار شديد الخطر على فتيات عصره، لانه صدّى لبيثتهنّ الإباحيّة، وصورة لتزواتهنّ الماجنة، مصنوعاً لاجلهنّ عمداً، مغموراً لاجل ذلك بسحر الفنّ؛ يتطرقّ من غير مانع الى نفوسهنّ، ويستقرّ في ذاكرتهنّ، ويفسد عليهنّ الحياة . انه منتزع من عصره، موضوع في عصره، موسوم بميزاته وخواصّه؛ وإن النغمات التي يسمّعنا إياها بشار في قصائده الغزلية نغمات طريفة كليّة الطرافة، ولا يذكرنا بها إلا أصداء في شعر ابن أبي ربيعة الذي يجاريه بشار في معانيه الحسيّة من غير تقليد، كما هي الحال في قصائده التي يقول فيها :

- لَمْ يَطُلْ لَيْلِي وَلَكِنْ لَمْ أَنْمِ وَنَفَى عَنِّي الْكَرَى طَيْفُ أَلَمٍ
- يَا لَيْلَتِي تَرْدَادُ نُكْرًا مِنْ حُبٍّ مَنْ أَحْبَبْتُ بِكُرًا
- يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَفَاحًا مُفْلَجَةً أَوْ كُنْتُ مِنْ قُضْبِ الرَّيْحَانِ رِيحَانًا

* * *

ويمكننا ان نستخلص من ذلك، نقطة خطيرة في تجديد بشار، وهي أنه انزل الشعر العربي من طبقته الارسطقراطية او الفردية التي كانت غالبية عليه من قبل، وبعد إذ كان محصوراً في بيئة معهودة، وأخيلة معروفة، وعواطف فردية أو قبلية محدودة، ومعانٍ « لم يغادر فيها الشعراء من متردّم » ؛ بعد إذ كان أحياناً كثيرة خادم أهواء ذوي السلطان، وصورة ناقصة مشوهة للعطاء، نقله بشار الى الحياة الواقعية، وخاصة الى حياة الشعب الواسعة المتعددة النواحي والاشكال، المليئة بالمآسي والافراح . وبالتالي فقد فسخ للفن مجال بروزه، وهيئاً له، من البيئة الجديدة ومعارف العصر وأميال الشعب، مواضيع جديدة بالالتفاتات، وموارد لا يغيض لها معين، ورواجاً ونجاحاً جليلاً .

ولذا فبشار لم يقتصر من حياة الشعب، على الناحية المترفة او الجانب العاطفي، بل راح يتطرق حتى الى المواضيع اليومية المبتذلة المضحكة التي لم يكن الشعراء القدماء ليحطوا فيها نظرة، مثل قوله في جارية :

رَبَابَةُ رَبَّةِ الْبَيْتِ نَصْبُ الْحَلِّ فِي الزَّيْتِ
لَهَا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ وَدِيكٌ حَسَنُ الصَّوْتِ

أو مثل تلك القصيدة الهزلية، على لسان حمار، قد شطّه الغرام، حتى أودى به، فوافي الشاعر في الحلم يطلعه على حقيقة أمره . . . فأين هذا التساهل العامي من رصانة الاقدمين المترفة ؟

(١) الْكَرَى : النوم . الطَّيْفُ : الخيال . أَلَمٌ : أذى (٢) الْفَكْرُ : الامر الشديد .
(٣) الْمُفْلَجَةُ : المشققة ؛ وراحتها على هذه الحال اسطع نفحاً .

وبشّار لم يقتصر كذلك، في شعره، على حياة الشعب، ونواحي الترف والابتذال بل احاط علماء بمختلف نواحي التجديد في عصره، وأبى إلا ان يشارك في مبتدعات السياسة والعلم، والفلسفة والدين، وينال من كل ناحية طوقاً، متقلّباً بين جميعها، مظهراً مدى اتصاله بعصره .

هذا فضلاً عما كان يُضني على شعره من خفة في الأسلوب، وسلاسة عذبة في النعم ولطافة في التشبيه، ولدونة في المعاني، مما يوافق حياة عصره الرخوة الناعمة ولين الأمزجة، ونفور العامة من الاساليب القديمة الجافية الشاقة .

وبالجملة فإنّ بشّاراً كان اول من امتزج بحياة عصره، واستوعبها من جميع نواحيها . وأدرك نزعاتها وحاجاتها وميزاتها الخاصة الجديدة، ثم وقف شعره عليها، ليلبي تلك النزعات والحاجات او يصوّر تلك الميزات، خارجاً في ذلك عن نهج الشعراء السالفين، الذين كانوا غالباً يقصرون شعرهم على نفوسهم او على اصحاب النفوذ، ويتسابقون في مجال التقليد، دائبين على ترسم خطوات من سبقهم، شاقين على هذا النحو هوة سحيقة بين الادب والحياة .

٣- بين التجديد والتقليد: لقد رأينا أنّ بشّاراً كان يعتمد احياناً الى التقليد ويلجأ احياناً أخرى - اي في الغالب - الى التجديد، ولكن من العبث أن نحاول وضع حدّ فاصل بين تجديد بشّار وتقليده، او أن نحكم حكماً مطلقاً على أي نوع من أنواع شعره فنقول هذا تجديد صرف، او ذاك تقليد صرف؛ فقد يغلب التقليد في مدحه اسلوباً ومعنى؛ ومع ذلك فهو لا يخلو - كما المعنا - من تصاوير ومعانٍ طريفة؛ وقد يغلب التجديد في غزله، اسلوباً ومعنى، الا ان ذلك الغزل ليس بريئاً من المعاني القديمة كذكر الليالي الساهرة الوهلة؛ وهكذا الامر في الفخر والهجاء وسائر ابواب الشعر التي لم نأت على ذكرها لقلة أثرها وخطورها في شعر بشّار؛ فهو احياناً ينظم معاني جديدة في اسلوب قديم، او معاني قديمة في اسلوب جديد . وشعره، في الاجمال، اما تجديد تزلق فيه تقليدات غير واعية، او تقليد مقصود، تتخلله تجديدات لا بد منها لأنها طابع الشخصية؛ ولا بدع في ذلك

فبشار قد عاش في آخر العهد الأموي وأول العهد العباسي، وبقيت في نفسه آثار من كلا العهدين؛ وإن كان أكثر ميلاً إلى الحياة العباسية فإن أثر نشأته العربية والبدوية راسخ في نفسه، لا يمكن محوه بسهولة. هذا فضلاً عن عماء الذي كان يرغمه إلى النظر أحياناً بعيون الشعراء السالفين، وفضلاً عن أن كل انقلاب مهما كان عنيفاً، لا يستطيع أن يغيّر الحياة أو الأدب تغييراً تاماً، ودفعة واحدة؛ فالصلة بين الحديث والقديم وثيقة، لا يبتثها إلا تطاول السنين.

فلا عجب إن مثل بشار مثل هذه الصلة، وكان شعره متأثراً بكل العهدين، متأرجحاً بين التجديد والتقليد.

٦ شاعريته :

١ - العقل والعاطفة : لقد أوتي بشار من قوى الشعر، مواهب جميلة خصبة؛ فهو يمتاز بقريحة سمحة طيبة، قلما تعصاه في قول، أو تحجم به عن خلق وإبداع، يعضدها عقل نير، راجح، رحب النطاق؛ ومن ثمّ تهيأ لبشار أن يطرق ابواباً من الشعر متنوعة، على غير مشقة، مجدداً كان أم مقلداً، وأن يحيط علماء بمختلف الآراء والمذاهب الشائعة في عصره، ويأتي من مبتدعات المعاني بمقدار وافر؛ وهو يمتاز بنفس متوثبة دفءة الاحساس، مشبوبة الشعور. وكان إذا نغم نارا ملتهمّة لا تلوي على شيء. قال مثلاً يهجو المهدي ويستفزّه على وزيره يعقوب بن داود :

بني أُمَيَّة هُبُوا طَالَ نَوْمُكُمْ إِنَّ الْخَلِيفَةَ يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدَ
ضَاعَتْ خِيْلُكُمْ يَأْقُومُ فَالْتَمِسُوا خَلِيفَةَ اللَّهِ بَيْنَ الرِّقِّ وَالْعُودِ

وإذا افتخر فله صدره نشوة من الحمية لا تقاوم :

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضِبَ مُضَرِيَّةٌ هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ نَمَطِرَ الدِّمَا

(١) الرِّقُّ : جلد يُستعمل لحمل الماء أو لحفظ الخمر؛ وقد استعار الشاعر هذه اللفظة لشرب الخمر (٢) هَتَكْنَا : خَرَقْنَا.

واذا احتدمت فيه شهوته، ورغبته في اجتذاب القلوب، عالج شعره بفن واجتهاد،
كبي يخرجها موهناً، ساحراً، يذوب رقةً ولهفةً . وقد يذهل أحياناً عن حقيقة أمره،
فينسب الى نفسه ما يصلح نسبته الى كل أحد سواه، كما في قوله :

إِنَّ فِي بُرْدَيَّ جِسْماً نَاحِلاً لَوْ تَوَكَّأْتُ عَلَيْهِ لَأَخْدَمَ^١

مما حدا بعض نقادنا (ولاسيما طه حسين، في كتابه حديث الاربعاء) الى نفي صدق
العاطفة عن بشار ووصف شعره بالكذب والتضنع . ومما لا ريب فيه أن ما يصف
به بشار نفسه من نحول، ورقة جسم، وسهر الليالي مثلاً، لا يطابق الواقع في شيء،
بل هو ابعد ما يكون عن الحقيقة، غير أن هذا الكذب بعينه يصوغه بشار في
لهجة تُظهر جلياً أنه اعتمده عن قصد، ليكون برقاً يسبله على عاهته او عذراً
يشفع فيه، فتغفل العيون، ولو حيناً، عن قبحه .

ومجمل القول ان بشاراً صادق العاطفة قوياً، مضطرب الاحساس، يلجّ به
شعره، فيسعى الى تلميته بشتى الطرق، وينتحل لذلك بفنه أساليب مختلفة، قد
تكون مخالفة للواقع في ظاهرها، إلا أنها براقع للأنظار، لا تنفي ما في نفس بشار
عموماً من اندفاع صحيح، وشعور مستعر .

٢ - الخيال : اما خياله فليس بالمتوثب الجبار . والظاهر أن العمى قد
حدّ من قوّة اندفاعه، غير ان ما وعاه بشار من الشعر، وحسّه المتيقّظ، والانتباه
الشديد الذي يمتاز به اصحاب عاهته عن سائر الناس، فيدركون به دقائق المحاسن،
ويستقرون ميزاتها في كل شيء، كل ذلك قد ساهم في تحويل بشار خيالاً ناعماً،
شديد القدرة على ابداع الصور الطريفة، الزاهية، الشفافة، وصوغ الالوان
والانوار الناطقة العجيبة .

على ان بشاراً قليل الغزو في مناطق الخيال الصّرف، لان عماء، كما يبدو،

(١) في بُرْدَيَّ : اي في ثوبي . الناحل : الرقيق .

قوى فيه الحواس الى حد بعيد، حتى جعل المحسوسات موضوع انتباهه الاوحد، فكان متيقظاً لأدق المدركات الشمية، مغرماً بالطور، متنبهاً لمؤثرات اللمس في أخفى ما تطبعه على الاحساس، فطناً الى ما في خلجات الصوت من وقع سرّي شديد على الشعور؛ وكلما ادرك شيئاً، عن اي طريق من طرق الحس، حاول ان يتمثله صوراً وألواناً، فتهيأ له من ثمّ معانٍ قلما تخطر على بال المبصرين مثل قوله :

يَزْهِدُنِي فِي حُبِّ عَبْدَةٍ مَعْسُورٍ قُلُوبُهُمْ فِيهَا مُخَالِفَةٌ قَلْبِي
فَقُلْتُ دَعُوا قَلْبِي وَمَا اخْتَارَ وَارْتَضَى فَبِالْقَلْبِ لَا بِالْعَيْنِ يُبْصَرُ ذُو الْحُبِّ
فَمَا تُبْصِرُ الْعَيْنَانِ فِي مَوْضِعِ الْهَوَى وَلَا تَسْمَعُ الْأُذُنَانِ إِلَّا مِنَ الْقَانِبِ

ونشأ في شعره ذلك الخيال الرقيق الذي عماده التصور المنتزع من الاحساس، كما شاعت في قصائده ايضاً الطويقة الواقعية، التي تعتمد الواقع، فتنبه له على غير تبديل خيالي تصوّري، مبيّنة دقائق المؤثرات الحسية، غير نافرة من ذكر أغراض، تُعدّ - في عرف العموم - وضعية مبتذلة؛ وقد تكون الواقعية افضل وصف لكثير من شعر بشار وأخيلته، فهو يسرد أحياناً بعض حوادثه المجونية في واقعية خشنة، ويكثر من مثل هذه الابيات :

- إِذَا وَضَعْتَ فِي بَجَاسٍ لَكَ نَعْلَهَا تَضَوّعَ مِسْكَاً مَا أَصَابَ وَعَثَبَهَا
- فَإِذَا أَدْنَيْتَ مِنْهَا بَصَلًا غَلَبَ الْمِسْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصْلِ

٣ - الذوق : ولكن لا تمنع تلك الواقعية ان يكون لبشار ذوق مرهف بصير، يرشده على غير تلوّ أو تعرّج الى اهواء المقصودين من شعره، فيكفل له وسائل البلوغ الى ارضائها؛ ويقوده خصوصاً الى مواطن الائتلاف والكمال الفني .

* * *

وبالإجمال، فقد اجتمعت لبشار من قوى الشعر مزايا فريدة، وإن لم تكن كافية لرفعه الى مستوى العبقرية، فإنها تجعل منه واحداً من اقدر الشعراء .

٧ فم : كانت لبشار، كما أسلفنا، يد كبيرة في تجديد الاساليب الشعرية؛
والناظر في شعره لا يجد أية جدّة او فنّ مستحدث في تأليف
قصائده المنطقي .

وإنما الجدّة والفن اللذان أدخلهما بشار على أسلوب الشعر العربي، هما في تعبيره
الشعري : في لغة شعره، واوزانه، والوانه .

١ - اللغة : لغة بشار هي اللغة العربية النقية، في سعتها وغناها، وقد
رقت حواشيها، إثر احتكاكها بالذوق العباسي المترف؛ فقد كان بشار من أوفر
الشعراء اطلاعاً على أسرار اللغة، وأقومهم ذوقاً لاختيار اللفظة الوضعية الملائمة،
التي تقرن الى الصحة والبلاغة والمتانة وخلوص العروبة، عذوبة الوقع والبراءة
عن الحوشية، وطلاوة الحضارة؛ وإن كان ذلك جلياً في شعر بشار التجديدي
المتحضر، كالغزل والهجاء، فلا يخفى أثره في شعره الذي يتحدّى به أساليب
الشعراء الاقدمين كالمدهح والفخر وما اليهما . وهو في الصنف الاول يجعل شعره على
منال العامة بسهولة ألفاظه وسلاستها، ويرفع عنهم بفصاحة لغته ونقاها؛ وفي
الصنف الثاني يجاري الاقدمين بمتانة تعبيره وجزالته، ويمتاز عنهم بتلافيه كل جاف
أبدٍ عسير؛ وهو في كلا الحالين يبدي وقوفاً واسعاً على اسرار اللغة ومقدراتها .

٢ - الاوزان : وكذلك الامر في صيغة شعره واوزانه، فهي إما سلسلة
رقيقة بالغة في السهولة والرشاقة، جامعة الى ذلك صحة التركيب وسلامته من
كل شائبة؛ او متينة متوقّعة، جزلة تمتاز بالاطراد وعدم التعقيد وجمال
الوقع؛ وهي في الحالتين تقرن الصفاء الى القوة، والحلاوة الى الشدة،
وتمتاز خصوصاً بفهم بعيد دقيق خلفاها النغم الموسيقي، الكامنة في كل
حرف، ومزاوجة الحروف على أتم ملازمة من غير ما تنافر؛ ومن ثمّ فقد عمرت
الموسيقى على اختلاف أصنافها شعر بشار بأجمعه، ناعمة شجيّة مجنّحة في الغزل،
حماسيّة مضطربة في الفخر، متدفقة شديدة الوطأة في الهجاء، باثّة في

جميع شعره حياة خافقة وحركة ودفعاً . فكل لفظ بل كل حرف يتزعم وينطق، ويعبر عن معنى خاص، ضروري لتناسق الكل .

٣ - الالوان : وقد زاد بشار شعره حيوية، بما كان يوشيه به من مجملات بديعية موفقة، ولاسيا الاستعارات الرقيقة، ذات الخيال الناعم المتحضر، والالوان الزاهية . وهو وإن كان يأخذ بها في اقتصاد، فسلامة ذوقه كانت ترشده أبداً الى مواضعها الملائمة، ليتم بناء شعره الفني، خالصاً محكم الاتقان .

٨ منزله :

- بشار زعيم ثورة ادبية : تضاربت الآراء كثيراً في الحكم على بشار، وذهب النقاد في شعره مذاهب . ففي الاقدمين من يخوله رئاسة الشعر غير منازع، ومنهم من يعدّه من المتطفلين ؛ وفي النقد الحديث كذلك من يطرئه الى حدّ المغالاة، ومن يحمل عليه بعنف، ولا يكاد يقيم له قدراً ؛ إلا أن الناقد المتجرد في ايامنا، لا يصعب عليه أن يرى أن بشاراً، وإن لم يكن من العباقرة الأفاضل في الشعر، فما اجتمع له من مواهب جدير برفعه الى مستوى النابغين المبرزين . فما هو بالفرد الذي لا يجارى، ولا هو على العكس بالمتطفل الوضع، ولكنه يحتل بين كبار شعرائنا منزلة رفيعة .

وعدا ذلك فإن لبشار فضلاً جزيلاً لا سبيل الى جحده، إذ كان من أوّل من خرج عن سنّة التقليد الاعمى التي جرى عليها سواد الشعراء من قبله، وفتح بتوثيقه الصلات بين الادب والحياة، وبتوفره على إتقان الاداء الفني، باباً رحباً للتجديد في الشعر العربي ؛ ووضع فيه نماذج لو أخذ بها جميع الشعراء العباسيين من بعده، وكيّفوها كلّ واحد طبق عبقريته الخاصة، ورفعوها بتقدّم مطّرد الى الكمال، لأغنوا شعربنا العربي غناءً جمّاً ؛ إلا أنهم لسوء الحظّ قد حادوا عنها في الغالب، وعادوتهم النزعة التقليدية، ولم يكد يجاريه في مضمار التجديد غير عدد قليل من الشعراء كأبي نواس الذي شاركه في زعامة الثورة الادبية .

بعض المراجع

- طه حسين : حديث الاربعاء - الجزء الثاني الطبعة الثانية - القاهرة ص ٢٣٨ - ٢٦٨
 ابراهيم عبد القادر المازني : بشار، في كتابه « اعلام الاسلام »
 اسماعيل مظهر : تاريخ الفكر العربي - القاهرة ١٩٢٨ ص ١٦٣ - ١٨١
 حنا نمـر : بشار بن برد - الطرائف ١ - حصص ١٩٣٣
 مارون عبود : الرؤوس - بيروت ١٩٤٦ - ص ٧٨ - ١٠٠
 زكي مبارك : بشار بن برد - تعليق على بحث J. Hell في دائرة المعارف الاسلامية -
 الترجمة العربية
 عبد القادر المغربي : بشار بن برد - مجلة المجمع العلمي العربي ٩ ص ٧٠٥ - ٧٢٢
 عمر فروخ : بشار بن برد - بيروت ١٩٤٩

موضوعات للبحث

- ١ - لقد قيل : « بشار في المولدين كامرئ القيس في الجاهليين » . ما معنى هذا القول ؟
- ٢ - قال الجاحظ : « بشار من المطبوعين اصحاب الإبداع والاختراع المتفنتين في الشعر ، القائلين في أكثر اجناسه وضروبه » . تبسّط في هذا القول .
- ٣ - قيل : « الشاعر ابن يئته » . ناقش هذا القول وطبقه على بشار في طورَي حياته الاموي والعباسي .

أدب الثورة التجديدية — الشعر

الفصل الثاني

أبو نواس (٧٦٢ - ٨١٣ م / ١٤٥ - ١٩٨ هـ)

١ الشعر الحمري :

١ - الحمريات في عهد أبي نواس : كانت معاقرة الحمرة من أبرز مظاهر الحياة المترفة اللاحية، وقد انبثت حانات الحمرة في سواد بغداد وارباضها .

٢ - الحمريات في الأدب العربي : تعرّض الأدب العربي للخمر منذ أقدم عصوره ؛ فوصفت الحمرة في الجاهلية للفخر والتمدح وذلك من غير تفصيل ولا استقلال ؛ ووصفت في العهد الأموي ، وبلغ الشعراء في وصفها شأواً بعيداً ، إلا أن الشعر الحمري لم ينل إذ ذاك استقلاله ؛ وفي العهد العباسي أغرق الناس في حب الخمر ووصفها وصفاً مستقلاً .

٣ حياة أبي نواس : وُلد أبو نواس في الأهواز ، وكانت طفولته معذبة ؛ وقد أخذ العلم عن علماء البصرة ولاسيما أبي عبيدة ، وحصل ثقافة واسعة ؛ وكان إلى جنب ذلك ميالاً إلى الرذيلة . ثم أنه اتصل بالبرامكة وآل الربيع وأفاد مالاً وافراً . واتصل بالرشيد إلا أنه سجنه . ثم قصد الحصيب في مصر فدحه ثم هجاه ؛ ولما صار الأمين خليفة جعل أبا نواس شاعره الخاص .

وتوفي الشاعر وله من العمر ٤٥ سنة ، وذلك بعد حياة لهو وشرب ومجون . وقد تاب قبل وفاته ونظم قصائد جميلة في الزهد .

٣ نفسيته ومذهبه في الحياة : كان أبو نواس حادّ الشعور ، خفيف الروح ، ميالاً إلى الخلاعة من فطرته ، فاتخذ المتعة مذهباً منذ صباه . وكان فيها واقعياً صريحاً ، يعتمد على عفو الله الواسع .

٤ آثاره : له ديوان فيه خمر ومجون وغزل ومدح ورثاء وهجاء ووصف وطرد وزهد وأدب وعتاب . وقد نُسب إليه شعر ليس له .

٥ زعيم التجديد : بشار وأبو نواس : اتفق الشاعران في جعل الشعر صورة لحياتهما ؛ ولكن تجديد بشار كان عن اندفاع نفسيّ وكان صورة واسعة لعصره ، أما تجديد أبي نواس فكان أيضاً عن مبدأ واعٍ وقد صوّر فيه نفسه والترف عموماً .

٦ **التقليد عند أبي نواس** : اضطر أبو نواس ان ينظم الشعر التقليديّ، فتكلّفه تكلّفاً، واجاد فيه . وقد جاء تقليده في المدح والرثاء وبعض الوصف والفخر والهجاء . فتنبّع الأساليب القديمة وردّد معاني الاقدمين .

٧ **أبو نواس الشاعر المجدّد** : دعا ابا نواس الى التجديد ميله الى الانطلاق والشذوذ والخلاعة والترف، والبيئة الملائمة لنزعاته الطبيعية .

١ - **الهجاء** : هجاء ابي نواس إما دفاعيّ ينافح فيه عن نزعاته وعقائده السياسية والادبيّة، ويوجهه خصوصاً الى العرب ؛ وإما انتقاميّ يثار فيه لنفسه من الذين لا يقدرونه حق قدره ؛ وإما مزحّيّ يداعب به اصدقاءه . وهذا الهجاء لا يمتاز جميعه بالتجديد : ففيه القديم بأساليبه وجزالته، وفيه الجديد بأزدرائه للعرب والدعاء الى الحياة اللاهية، ومدح الاعاجم، بأسلوب رشيق .

٢ - **الطرديات** : جعل أبو نواس الطرديات فناً مستقلاً، وأطال الوصف فيها، في دقّة وابداع، واعتمد البديع والخيال، الا انه لم يخرج عن غرابة اللفظ وحوشيتته، ورتابة النغم .

٣ - **الزهديات** : هي من اجل شعر ابي نواس وأرقّيه، واعمه عاطفة، وأشدّه تأثيراً .

٤ - **الغزل** : يصطنع أبو نواس الغزل اصطناعاً ولا يجيد الا في غزل الغلاميات والغلمان . وشعره هذا مليء بالفحش والشذوذ وأن اتصف بالرشاقة والحيويّة وجمال التصوير .

٥ - **الخمرات** : أبو نواس شاعر الخمرة فكان حبّها عنده عبادةً وعشقاً، وقد شربها في جماعة من المجّان لا يطلبون في الحياة الا المتعة، فيتعبدون عن عيون الشرطة، وينصرفون الى معاقرة الخمر بين الرياحين وعلى خيرير المياه وعزف القيان ؛ وقد نزع أبو نواس في شعره الخمري الى الواقعيّة، فكان وصفه للخمرة شاملاً يحفل بالقصص، والتشخيص، وخفّة الروح، والطبيّة، والصراحة، في كلام واضح سهل، عذب الموسيقى، وفي قصائد مستقلة ذات قيمة ادبية كبرى .

٨ **شاعرية أبي نواس** : شاعريّة ابي نواس مكوّنة من خاطر غنيّ متدفّق ؛ وخيال قويّ يحسن تشخيص الاشياء الجامدة، وتألّف المشاهد الرائعة، ورسم اللوحات الزاهية؛ وعاطفة محدودة لا تخلو من رقّة وتوثّب وصراحة، وسداجة حلوة . فشاعريّته شخصيّة تلقائيّة .

٩ **فنه** : يقوم فنه على العناية، والتنوّع في المعاني والصور والاسلوب ؛ وعلى اللغة الطيّبة ؛ وعلى الاوزان المتنوّعة السلسة، المعجبة الموسيقى .



أبو نواس كما تخيَّله الفنان ارتورو اورتيس

١ الشعر الحمري :

١ - الحمريات في عهد أبي نواس : لقد غدت معاقرة الحمرة من أبرز مظاهر الحياة المترفة اللاهية في المدينة العباسية الجديدة، وكانت قد انتشرت عاداتها في

البلاد الاسلامية، وانبثت حاناتها في سواد بغداد وارباضها على طرق القوافل والمسافرين، بعيدة عن عيون الشرطة، وعن عيون المترمّتين وأصحاب الرصانة، يقوم عليها رجال أو نساء من المجوس أو النصارى أو اليهود، منهم الفرس والروم والأنباط والأكراد والسودان . وكانت تلك الحانات مباءة لاهل البطالة، يُقيمون فيها اليوم واليومين والثلاثة، كما يقيمون فيها الشهر بكامله، في شربٍ ولهو .

وكانت ديورة النصارى ايضاً منتشرة في البلاد، تقع في الظواهر والأرباض، منفردة في القفار وعلى سفوح الجبال، ينشد فيها بعض الافراد عبادة ربهم في العزلة، بعيداً عن الضوضاء؛ وكانت من ثمّ في طريق المسافرين، والخارجين للصيد أو للزهوة، لا يتأخر أحد في التعرّيج اليها بين الحين والحين طلباً للراحة ولأسيا وقد ألف الرهبان إكرام الضيوف بسخاء، وكانت تلك الديورة لا تخلو من خمور جديدة ومعقّقة، يتّجر بها الرهبان احياناً في سبيل الحصول على ما يقوم بمعيشتهم، ويقدمون منها لمن له فيها رغبة من ضيوفهم، فكثير بالتالي قاصدو الديورة لشرب الخمر .

وكان أبو نواس صاحب عصابة من طلاب اللهو، يتردّد الى الحانات حيناً، والى الديورة حيناً آخر، فيشرب ثم يندفع في التغني بالخمر ووصف السكر، متفنناً في كلا الوصف والغناء .

٢ - الخمرات في الادب العربي : والخمر شربها الناس منذ أقدم العصور، وتغنّوا بها في كل لسان؛ وقد تعرّض لها الادب العربي، كذلك منذ اقصى عهوده، فقلّ بين شعراء الجاهلية من لم يتصدّ لها، ولطرفة وعنترة وعديّ بن زيد العبادي وكثير سواهم أقوال شهيرة فيها، فضلاً عن الأعشى الذي وقف الجزء الكبير من شعره على وصفها والتغني بها؛ إلا ان الجاهليين عموماً كانوا يصفون الخمر للفخر والتمدّح بكرم الخلال والجود، وكانوا في وصفها مجملين غير مفصّلين، لا يذهب وصفهم الى أبعد من لونها وطعمها وشكل أقداحها، وما تُحدثه من نشوة؛ زد على ذلك أنهم لم يتّخذوا وصف الخمر فناً مستقلاً من فنون الشعر .

ثم جاء الاسلام، وحرّم القرآن الخمر، فسكت الشعر عنها حيناً، وإن لم يبطل شربها في الحفاء . وما زال الامر كذلك، حتى استقرت الدولة الأموية ، فشرب بعض خلفائها الخمر، واشتهر بشربها الوليد ويزيد ؛ إلا ان شأنهم في شربها ما برح بين التستر والظهور، يُنظر اليه بعين الغرابة والاستهجان ؛ ومن اشهر شعراء الخمر إذ ذاك الاخطل الذي فسحت له حظوته لدى الخليفة مجالاً واسعاً حرّاً للمجاهرة، بل للمفاخرة في معاقرة الخمر والاستقصاء في التغني بها ؛ ومن شعرائها كذلك الوليد بن يزيد إمام شعراء طريقة الخلاعة والاستهتار والخمر والمجاهرة بالزندقة والكفر ؛ وقد بلغ الشعر الخمري في ذلك العهد شأواً بعيداً، الا انه لم يكن بعد باباً مستقلاً، ولا استوعب جميع المعاني .

ولما كان العهد العباسي على ما عهدناه فيه من حريات وترف ، وانتشار الحانات ودور اللهو، اغرق الناس في حب الخمر وكثر الجدل في حلالها وحرامها، إلا ان بعض الشعراء قد أجازوا لانفسهم معاقرتها من غير قيد، بل راحوا يجهرون بولوعهم بها؛ ومع الخمر والجواري ذاع الغناء وملأت أصدائه الدور والقصور، وأضيف الى ذلك حب الغلمان والتغزل بهم غزلاً مكشوفاً .

ولقد ترك كل ذلك في الادب أثراً بليغاً، فكثير عشاق الخمر وكثير شعراؤها . وكان زعيم هذه الحركة وشاعرها المجلي وأميرها الذي سبق المتقدمين والمتأخرين أبو نواس .

٢ مباحة أبي نواس : إن الروايات، في ما يتعلق بأبي نواس، قليلة . وهي، على قلتها، كثيرة التضارب والاختلاط .

١ - مولده ونشأته : وُلد الحسن أبو نواس في الأهواز، إحدى قرى خوزستان في فارس نحو سنة ٧٦٢ م / ١٤٥ هـ من أب اسمه هاني قيل انه من دمشق من جند مروان، آخر خلفاء بني أمية، وقيل إنه من أصل فارسي؛ أما أمه جُلْبَان ففارسية ؛ وكان أبواه مغموري الأصل، على ما يظهر، لا يملكان من المال ما يجعلهما في يسر .

وانتقلت الأسرة الى البصرة والطفل في الثانية او السادسة من عمره . فكانت البصرة موطنه أقام بها حتى سن الثلاثين، وما إن كبر قليلاً حتى عهد به والده الى مَنْ يقرئه القرآن . إلا ان طفولته كانت معذبة، إذ ما عمَّ أن مات أبوه وألّمت الفاقة بأمه، فأسلمته الى عطار يعمل عنده كأجير يبري عيدان الطيب نج

وكانت البصرة لذلك العهد مركزاً من مراكز الثقافة والعلم لا ينافسها في موضعها منهما إلا بغداد، وكان فيها المحدثون والرواة الواسعون الاطلاع كالأصمعي وأبي عبيدة والنحاة المجيدون، والقراء الأعلام واللغويون والمتضلعون كأبي زيد الأنصاري؛ وكان بعض الشبان يتردّدون على هؤلاء العلماء ليأخذوا عنهم . وكان أبو نواس يعمل بيديه في السوق، وفي نفسه اندفاع قوي الى الادب والعلم؛ فتلذّذ بنوع خاص لابي عبيدة وخلف الأحمر الإمام اللغوي . وأكب على العلم وهو في عقده الاول، وشغف به وما زال عليه حتى حصل ثقافة واسعة؛ وقد روى ابن خلدكان في تاريخه أن اسماعيل ابن نونجيت قال : « ما رأيت قط أوسع علماً من أبي نواس، ولا أحفظ منه، مع قلّة كتبه »؛ وقد ذكروا أن خلفاً الاحمر لم يأذن لتلميذه بنظم الشعر إلا بعد ان أحفظه جملة صالحة من أشعار العرب ثم طالبه بنسيانها .

ولم تكن البصرة مركز علم خصب، بل كثر فيها اصحاب اللهو والمجون، وكثرت مجتمعاتهم، وشاعت الخلاعة بين الفتيان؛ وكان أبو نواس من طبيعة مزاجه ميّالاً اليها، فأخذ منها بنصيب وافر وهو لا يزال حدثاً؛ ومما زاده إقبالاً على الخلاعة مصادفته للشاعر الخليلع والبة بن الحباب الذي أعجب بأدب الشاعر الفتي وذكاؤه فاصطحبه معه الى الكوفة، وتعهّد بتثقيفه على الشعر والادب، وما زال عليه حتى نقل اليه الكثير من أخلاقه المتطرّفة، ونظمه في سلك عصائب السوء .

وهكذا نشأ أبو نواس لا يذهله اللهو عن العلم، ولا العلم يعدل به عن المجون؛ وقد أبى إلا ان يقوم لسانه على لغة عربية خالصة، فأقام في البادية سنة ليأخذ اللغة عن اهلها الخُلص . وكان قد ناهز إذ ذاك الثلاثين، وبلغ ملء الثقة من نفسه ومن

أدبه، فطمحت أنظاره الى بغداد، حيث المال والجمال، والحياة السعيدة، وفيها يروج الشعر، وتغدق على أصحابه الهبات .

٢ - أبو نواس والبرامكة وآل الربيع : قديم الشاعر بغداد نحو سنة ٧٩٥م/

١٧٩ هـ في خلافة هارون الرشيد، واتصل بالبرامكة، وهم القابضون على زمام الامر إذ ذاك، فمدحهم ونال جوائزهم ^{لما} وقد يكون اتصل بآل الربيع عندما ينس من البرامكة، وآل الربيع بيت جاء وغنى كان ينافس البرامكة؛ فانقطع أبو نواس في بغداد الى تلك الأسرة، وأكثر من مدحها؛ ولا زيب أنه أفاد من غيرها الشيء الكثير .

٣ - أبو نواس والرشيد : لم يجرؤ أبو نواس على دخول البلاط والتقرب

من الخليفة في بدء أمره، لما كان يمتاز به من شذوذ في طرائق حياته وشعره؛ والأرجح انه لما بلغ الفضل بن الربيع الى كرسي الوزارة، سنة ٨٠٤م/ ١٨٧ هـ بعد نكبة البرامكة، اتصل أبو نواس على يده بالخليفة هارون الرشيد ومدحه بقصيدة أنشدها إثر فوز الخليفة على يقفور في تلك السنة عينها ثم ألحقها بقصائد أخرى عديدة . ويبدو أنه قد ظفر بشيء من حب الرشيد وتقريبه أول أمره . إلا أنه ما لبث أن غدا البون فاضحاً بين وقار الخليفة، وحرّيات الشاعر المتطرفة وإغراقه في الخمر والمجون والزندقة؛ وقد ذهبت به الجرأة يوماً الى هجو قبائل عدنان، والإفخاش في ثلب قريش، فاضطرّ الخليفة الى سجنه مدة طويلة، قد تكون بلغت الأربعة أشهر؛ ومما لا ريب فيه أن قد ضاق صدر الشاعر في السجن، وهو المعتاد على تلبية نزعاته الى حيث تدعوه، وطرق جميع أبواب اللهو التي تشتهيها نفسه، فأرسل بقصائد عدة الى الخليفة يستمد العفو .

٤ - أبو نواس والخصيب : خرج أبو نواس من السجن، وفي نفسه شوق إلى معاودة

ما قد ألفه من تبذير وإسراف في المذات؛ إلا ان يده كانت رصفاً من المال، فضاقت به الحال، ولم ير لها حلاً غير الانتقال الى مصر، حيث اتصل بالخصيب أميرها

الذي كان على ديوان الخراج . وقد وصف سفره اليه في قصيدة عدّد فيها الامكنة التي مرّ بها . وتختلف الروايات في المتزلة التي وصل اليها ابو نواس عند الخصيب؛ ومن الواضح انه مدح الخصيب، وأنّ الخصيب قد استعذب مدح الشاعر ومجلسه، ومنحه من الصّلات ما اخرجته من عسره . الا ان مصر لم تستطع ان تقوم مقام بغداد، ولم تُشبع عطايا الخصيب رغائب شاعر المتعة واللذة، فعاد الى بغداد، وهجا الخصيب ورماه بالبخل .

٥ - ابو نواس والامين : عرف ابو نواس الامين وهو لا يزال طالب علم، وقد احبه الامين وآثره لنفسه رفيق شباب، فراح ابو نواس يداعب الحلم بأن يكون يوماً شاعر الامين ونديمه الخاص، اذا ما بويع بالخلافة . وقد تحقق مطمعه، فما إن تبوأ الامين كرسيّ الخلافة حتى قرّب صديق شبابه واتخذته نديماً له وشاعراً خاصاً؛ فكانت إذ ذاك أعذب ايام ابي نواس، إذ قد تهيأ له ان يعبّ من السعة واللذة ما يشتهي، ولا يتكلّف في الشعر من مشقّة لما بينه وبين الخليفة من سابق معرفة وألفة، انما يرسله كيفما اتى مسرفاً في المدح الاطراء؛ ولكن هذه النعمة، على ما يُرجح، لم تدم أكثر من سنتين، إذ وقع الخلاف بين الامين واخيه المأمون، وترامى الى سماع الخليفة أن الحسن بن سهل في خراسان قال : « كيف لا يحلّ قتال الامين وشاعره ونديمه يقول :

أَلَا فَاسْقِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أَمَكَنَّ الْجَهْرُ

فتطرقّ الوجل والجذر الى نفسه، وبادر الى إصلاح امره وإبعاد الظنون، وتهدئة الخواطر . فعنف فجأة في تصرفه مع شاعره، وابدى عليه غضباً، وأتهمه بالزندقة . وزجّ به في السجن مدة ثلاثة أشهر، ثم اطلقه، ونهاه عن الشرب .

٦ - الشاعر الماجن : عاش ابو نواس في الاماكن المختلفة التي وُجد فيها، ولاسيا بغداد، عيشة لهو وسكر واستهتار ومجون؛ وكان يصاحب عصابة من المُجّان، يختلف وإياهم الى الحانات حيث يقضي الزمن الطويل في المعاقرة وسماع الغناء واللهو .

ومع وفرة ما كان يناله من هبات ثواباً لشعره، فإنه لم يحرص يوماً على شيء من المال، بل كان يبذره جميعه في الخلاعة، ويصبح بعدئذٍ في عسره واضطراب . وقد أحب في شبابه جارية اسمها جنان، واكثر من ذكرها في شعره؛ إلا انه لم يقف قلبه عليها وحدها، بل كان يصبو الى كل جمال يراه؛ وما زالت حياته على تلك الحال من الحرية الادبية المتطرفة، حتى انحطت قواه وانحل جسمه .

٧ - وفاته : وعندما قُتل الأمين سنة ٨١٣ م (١٩٨ هـ) طغى القنوط على نفس الشاعر، وكان قد بلغ منه الانحطاط مبلغاً، فراودته اطياف الموت والآخرة، وفطن الى حياته التي بددها هدرًا في السوء، فتاب الى ربه، وجنح الى الزهد، حتى توفي في بغداد، وما له من العمر غير ٥٤ سنة .

وقد روى الشافعي قال : « دخلت على ابي نواس فقلت له : ما اعددتك لهذا اليوم ؟ فقال :

تَعَاظَمَنِي ذَنْيٌ فَلَمَّا قَرَنْتُهُ بِعَفْوِكَ رَبِّي، كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمًا

٣ - نفسه ابي نواس ومذهبه في الحياة : 'خلق أبو نواس أداةً صالحةً للهو والشعر؛ فقد كان وسيم الطلعة، حسن القوام، رقيق النفس، نافذ الشعور، خفيف الروح، يجمع الى ذلك كله، ذكاءً فريداً تثقف ثقافة عالية في الرواية واللغة، والحكمة الهندية واليونانية، والنجوم والطبيعات .

وكان هذا الانسجام بين قوى جسمه وقوى عقله، يجعله رفيقاً من اطيب الرفاق وجليساً من اخف الجلساء ظللاً، واعذبهم لساناً، وشاعراً في ابلغ وادق وأجمع ما تدل عليه هذه الكلمة .

وكان الى ذلك، ميلاً الى الاخلاعة من فطرته . فزادته نشأته الشاردة الطائشة - إغراقاً فيها، فاتخذ المتعة منذ صباه، مذهباً وديناً :

- تِلْكَ لَسَدَاتِي وَكُنْتُ فَقِيٍّ لَمْ أَقُلْ مِنْ لَذَّةِ حَسَنِي ...
 - طَرَبْتُ إِلَى الصَّنَجِ وَالْمَزْهَرِ وَشُرْبِ الْمُدَامَةِ بِالْأَكْبَرِ
 وَأَلْقَيْتُ عَنِّي ثِيَابَ الْهُدَى وَخُضْتُ بِجُودٍ مِنَ الْمُنْكَرِ
 وَأَقْبَلْتُ أَسْحَبُ ذَيْلَ الْمُجُونِ وَأَمْشِي عَلَى الْقَصْفِ فِي مِثْرَةٍ

ولم يتهياً لابي نواس من رحابة الصدر، واتزان الحس، والصبر المتبصر، ما
 يُتيح له النظر في عواقب المجون، والبحث عن طريقة رزينة، تنشي سعادة دائمة؛
 وقد ساهم في نزعه هذه تلك النفسية الصبائية التي كادت تلازمه سحابة عمره،
 فقد قضى معظم حياته كولد، لا يقدر المسؤولية، وينفر من الاضطلاع باعبائها، ولا
 تكاد تلفت اهتمامه الاحداث الاجتماعية والسياسية مهما كانت جسيمة، بل هو
 كالغريب عنها يرح هازئاً مستهتراً، لا ينضوي الى حزب، ولا ينحاز الى مذهب
 سواء كان ذلك في السياسة أم في الاجتماع؛ انما مذهبه الحمرة واللذة الحسية؛ وكل
 ما يعززهما ويوقر اسبابهما في المذاهب الاخرى ينتحله أبو نواس، وكل ما ينافيها،
 يعاديه ويحاربه ..

وهكذا كان مرماه ابدًا التمتع باللذة الحاضرة السانحة، على غير مبالاة بما
 قد تنتجه في الغد؛ وكان بالتالي، شأن اغلب المؤمنين بالمتعة، واقعياً يحل الطبيعة
 على علائها ونزواتها المتطرفة أية كانت، لا ينفر ولا يستحي من مظهر من مظاهرها
 مهما شابها من عيب او خزي؛ صريحاً يأبى التستر ولو على القبح، ويهوى كل مُعلن
 مجهور، ولو كان مدعاة الى العار؛ لا يطيق للطبيعة من قناع، ولا للجهر بحبها
 والاخذ بسننها من لثام؛ وقد ساهمت في ذلك حياته البسيطة الحرة، البعيدة عن
 سامي المناصب وما تقتضيه من تكلف وتستر، فلم يخش يوماً الجري مع طبعه،
 والمجاهرة بما آتته ومغامراته، بل راح يردد :

وَدَعَ التَّسْتُرَ وَالرِّقَاءَ فَاُفْهَمَ شَانِيَةَ

إلا ان اللذة لم تكن لتدوم لابي نواس على صفاء، وتأثيره ابدًا بما يبتغي من ورائها، إذ سرعان ما ولى الشباب بما فيه من ترقق وطيش ونشاط يقاوم ما تحدثه الخلاعة من دمار؛ فرأى اذ ذاك ان يُبدد غيوم السكر بالسكر، ويقتل الندم الذي يعقب اللذة، بالإغراق في اللذة، حتى تتخدر أعصابه وافكاره ويذهل عن الحياة . وهكذا تصبح الحياة في مذهبه ذهوًا عن همومها وشقاواتها عن طريق الإغراق في اللذة المخدرة . ولا يخفى ما يتوارى خلف هذه اللذة، في نفس أبي نواس، من تشاؤم كثيف مرٍّ قد يبدو عندما لا يجد الشاعر من سبيل الى المتعة التي تستره، فيأتي بمعانٍ مثل هذه :

عَلَيْكَ بِالْيَاسِ مِنَ النَّاسِ إِنَّ الْغِنَى وَيَحْكُ فِي الْيَاسِ

وكان لا بد ان يبدر منه إذ ذاك تطلُّع الى مستقبل الحياة، وغايتها الاخيرة، فيرى ذلك الأفق الساحم الرهيب، افق الموت الذي سينتهي اليه كل إنسان لا محالة، ويخامره ريبة وخشية لما وراء ذلك الافق من اسرار مخبآت؛ فتتعمد معضلة الحياة في نظره، إذ يُضطر الى إيجاد حلٍّ يوفق بين اللذة والدين، فيستنبط من الدين حلاً هو الايمان بعفو الله الواسع، والثقة المفرطة به، ثقة تحمله في ضلاله على إتيان جميع المنكرات وأخفها من غير خوف . فيرسل طبيعته على سجيئتها، ويطلق لها حرية الانقياد وراء ميولها الحيوانية، وهو هادئ السرب، يسخر ويستهزئ ولا يعبا، ويوغل في السكر والاستهتار، موقناً ان الايمان يكفي

(١) ومن ثم قوله :

— اتركِ التَّقْصِيرَ فِي الشَّرْبِ وَخُذْهَا بِنَشَاطٍ —

— لَمْ — وَعَفَّوْا لِلَّهِ مَبْذُولٌ غَدًا عِنْدَ الصَّرَاطِ —

— خَلِقَ الْغُفْرَانُ إِلَّا لِمَرِيٍّ فِي النَّاسِ خَاطِي؟ —

فيه - على ما ذهب اليه المرجئة - التصديق بالقلب، وأن الله يغفر الكبائر
باجمعها، إلا الكفر^١.

ومن ثم نرى أن أبا نواس، لم يردل الدين وإن لم يعمل بفرائضه وشعائره،
وإن لم تكن التقوى متمكنة من نفسه، بل حاول أن يبقى حياته مؤمناً؛ وعندما
خارت قواه وشعر بدنوّ المنية، تولّته عواطف دينية عميقة .

تلك كانت نفسية أبي نواس، الذي اتخذ الازدّة مذهباً، وجدّ طول حياته أن
يوفق بينها وبين ما كان من شأنه أن يعكّر اندفاعه نحوها .

٤ آثاره :

١ - ما هي : لأبي نواس ديوان شعر طبع مراراً في بيروت ومصر، يتضمن
حوالي ١٢ ألف بيت من الشعر، مرتبة على اثني عشر باباً، مرجعها إلى الخمر والمجون
والغزل، والمدح والرثاء، والهجاء والوصف والطرّد، والزهد والعتاب
وما إلى ذلك .

٢ - صحة نسبتها إليه : من اليقّن أنه قد نُسب إلى أبي نواس شعر كثير
ليس له، ولا سيما في الخمر والمجون والطرّد . ولا بدع، فقد أصبح رجل الشعب،
والمثل الأعلى لكلّ ما هو من الخمر والعبث وما يشبههما، حتى نُسج حول اسمه
جمّ من الاساطير، ونُسب إليه كل ما جهل مصدره من الأبواب التي برع فيها .
وبعكس ذلك قد أهمل كثير من شعره الجدّي، لأن أبا نواس لم يدوّن شعره
بنفسه، بل دوّنه غيره بعد ثلاثين أو أربعين سنة من وفاته .

(١) وكان أبو نواس يبغض من يقول بغير ذلك حتى لينبذ مودّته . وهذا ما جرى له مع
النظام شيخ المعتزلة، الذي ألف أن ينهيه عن أفعاله، ويقول له أن الكبائر مُخلّدة في النار، فهجّاه
أبو نواس معرّضاً به وبعلمه، وقائلاً :

دَعْ عَنْكَ لَوْ مَيَّ فَإِنَّ اللَّوْمَ لِغُرَاءِ وداوِني بالتي كانت هي الداءُ
وقُلْ لِمَنْ يَدْعِي فِي الْعِلْمِ فَلَسَفَةٌ : « حَفِظْتَ شَيْئاً وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ ! »
لَا تَحْظُرِ الْعَفْوَ إِنْ كُنْتَ أَمْرًا حَرَجًا فَإِنَّ حَظْرَكَهُ بِالْدِّينِ إِزْرَاءُ

وعلى ذلك يُظنُّ ان اكثر الضعيف المنسوب اليه إنما هو من المنحول، او مما
قاله ارتجالاً في آونة الشرب والمجون .

٥ زعماء التجديد : بشار وابو نواس :

١ - التجديد : شاء ابو نواس، شأن بشار بن بُرد، ان يجعل شعره صورة
صادقة لحياته، وأن لا يُقيم فرقاً بين الادب والواقع . ولما كان ذلك المذهب مخالفاً
لما ألفه سواد الشعراء السابقين، ولا سيما المقلدين منهم، فقد كان ابو نواس، نظير
بشار مجدداً، إلا ان ثمة وجه تباين بين الشاعرين اللذين يُعدَّان بحقّ زعميّي
التجديد في العهد العباسي؛ فبينما كان ابن بُرد مجدداً يعامل اندفاع نفسي، وملاءمة
بينه وبين نزعات عصره، اضاف ابو نواس الى ذلك شيئاً آخر، فاتخذ التجديد
مبدأً واعياً، جليّ المعالم والأهداف، يجري على سننه ويدافع عنه، ويعمل على هدم
ما هو مخالف له .

٢ - التقليد : وبين الشاعرين تشابه ايضاً من الناحية التقليدية، وقد اضطرَّ
الى اصطناع اساليب من سبقهما وبعض معانيهم ارضاء لذوي السلطان وتقرُّباً منهم
للحصول على صلاتهم . وكاننا بحاجة الى تلك الصلات التي تمكنهما من العيش وتوفّر
لهما سُبُل اللهو . زد على ذلك ان الثقافة العربية التي نشأ عليها الرَّجلان قد أثرت
في عقليتهما فمالت بهما الى التقليد احياناً عن غير وعي .

وإننا سنلقي نظرة على تقليد أبي نواس قبل الاخذ في تتبُّع مواطن تجديده
ولاسيما الباب الذي كان فيه نسيج وحده، اعني به باب الحمريات .

٦ النقد عند أبي نواس (المرح - الرما، ...) :

١ - الداعي اليه : لم يكن ابو نواس ليعمد الى التقايد في اكثر الاحيان إلا
عن اضطرار . وكان ذلك يورثه شيئاً غير قليل من التبرم والضجر لانه يتكلفه
تكلفاً، ولا يخشى ان يقول في مطلع احدى قصائده المدحية :

أَعْرُ شَعْرَكَ الْأَطْلَالَ وَالْمَتَرِلَ الْقَفْرَا فَقَدْ طَالَمَا أَزْرَى بِهِ نَعْتُكَ الْحَمْرَا
دَعَانِي إِلَى وَصْفِ الطُّلُولِ مُسَلِّطٌ يَضِيقُ ذِرَاعِي أَنْ أَرُدَّ لَهُ أَمْرَا
فَسَمَّأَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَطَاعَةً وَإِنْ كُنْتُ قَدْ جَسَّمتَنِي مَرْكَبًا وَعُرَا

٢ - قيمة تقليده : وغني عن القول، بعد ما عرفنا من سعة اطلاع أبي نواس على الادب القديم، وتضلعه من اللغة، ومقدرته الشعرية، أن يحيد التقليد الى حذر بعيد، فيأتي بمدحهم مشابهاً كل المشابهة لمدح الشعراء السابقين، ولا سيما الامويين منهم، يستهله بنذب الأطلال، او بالغزل المصطنع وذكر الرحيل، ووصف الناقصة أحياناً، حتى يبلغ الممدوح فيُسبغ عليه الأوصاف المعهودة من كرم الاصل والجود، والاتصال بالنسب النبوي، وتمثيل الله، قصد الاستجداء، وكل ذلك على غير علاقة منطقية، في أسلوب شريف اللفظ ضخمه، طويل الاوزان جليهاً، بادي التصنع في العاطفة والمغالة في كل شيء. واذا آنس أبو نواس من ممدوحه شيئاً من الألفة والمودة، لا يحجم عن إرسال شعره اكثر جرأة وطبيعة كما يجري له خصوصاً في مدحه اصدقاءه الامين. واننا نستطيع ان نعدّ رثاء أبي نواس ايضاً، على قلته، من الشعر التقليدي. ولا بدع أن يتصنع ابو نواس ويُقلد في الرثاء. وهو ممن تستحيل عليهم الاجادة في مثل ذلك، لما أَلِفَ من محاربة الحزن والألم طوال حياته، حتى نفى من قلبه غرامه بالذلة كل عاطفة شفقة.

وفيا عدا ذلك فإن شعر ابي نواس، كشعر بشار، لا يخاو من بعض التقليد، سواء كان ذلك في اللجوء الى اساليب قديمة، ام في اقتباس معانٍ ردها عدد جم من الشعراء الذين تقدّمه. واننا اذا استقرينا اكثر ابواب شعره من وصف وفخر وهجاء وغير ذلك، لمسنا أثر التجديد والتقليد فيها، ولقينا اضطراب الشاعر بين النزعتين. ولكن للتجديد في تلك الابواب حظاً اوفر وأثراً أبلغ.

٧ أبو نواس الشاعر المجدد :

١ - الداعي الى التجديد : كان أبو نواس نظير بشار مدفوعاً الى التجديد

بحكم ما اجتمع له من العوامل الخارجية والنفسيّة .

ففي الحياة الجديدة تحطم قيود وإطلاق حريّات وخروج على التقاليد؛ وأبو نواس من فطرته مغرم بالانطلاق والشذوذ :

- في الأوضاع الاجتماعية فشت الخلاعة والاباحة وشاع المجون؛ وفي نفس أبي نواس اندفاع طبيعي جارف الى الخلاعة والاباحة والمجون .

- وفي السياسة احتدم النزاع بين العرب والأعاجم ولاسيا الفرس ؛ فكان من ناحية المتحزبون للعروبة، ومن أخرى أنصار الشعوبية . وكان أبو نواس ذا عرق فارسي، أو بالأحرى كان مغموّر النسب، لا يقيّده إيثار عرقيّ، وليس له من دافع على التفضيل بين حزب وحزب، إلا ما يُبديه كلُّ منهما من مغريات . وكان الأعاجم، ولاسيا الفرس، يُبيحون من الحرّيات ومرافق الترف واللهو والفنّ ما لا مثيل له في العقليّة العربية المتّصّنة التي تتشبّث بالتقاليد وتنزع الى إيثار القديم؛ وأبو نواس ابغض الناس للتقاليد والظواهر المتكاثفة، وجفاء حياة الاعاريب والبدو، واكثرهم ولهاً بالترف واللهو والفنّ .

- وفي العلم والفلسفة، آراء ومذاهب جديدة أجنبية لم يكن العرب الاقدمون ليحلّوا بها؛ وأبو نواس مغموّر بالعلم والفلسفة، وبكل حديث من المذاهب والآراء .

- وفي الدين حرّيّة فكير، لم يكن العهد السابق ليطيّقها، وتأويلات شخصيّة رجة؛ وأبو نواس لا يجد مناصاً من الدين، وهو بالتالي احوج الناس الى مثل تلك الحرّيّة والتأويلات .

وعلى الإجمال ، فقد وُجد أبو نواس في بيئة توافق نزعاته الطبيعية أشدّ الموافقة .

وكان أبو نواس الى ذلك شاعراً، وكان بوسعهم لو شاء، ان يجري على مثل ما ألفه كثير من الشعراء الذين سبقوه، فيكون مجدداً في الحياة مقلداً في الشعر . إلا ان طبعه الصريح، ونفسه الصابية الى الحرية، قد انصرفا به بعيداً عن ذلك التناقض . ثم كان لا بُدَّ أن يعالج شعر بشار التجديدي، في نفس أبي نواس ونزعة الشعرية، أثراً حقيقياً . فذهب نظير بشار الى التوفيق بين الحياة والادب ، وجعل شعره صورةً لنفسه وحياته، صورةً جديدةً للوان حياة حديثة المرافق .

وقد أبى أبو نواس ان يقف عند هذا الحدّ الإيجابي، فنهج خطةً حديثة، لا تكفي بصوغ الناذج الجميلة في ميدان التجديد بل تسعى في الدفاع عنه وإبراز مزاياه وامتداحها، ومهاجمة الشعر القديم والحياة العربية السالفة، وتتناولها بالتهكم المرّ .

٢ - مظاهر التجديد في شعر أبي نواس :

١ الهجاء : من الظاهر ان أبا نواس لم يكن من الشعراء المطبوعين على الهجاء ؛ فلم يكن له، من فطرته، تلك النعمة الطبيعية على الجنس البشري، التي تلازم أغلب الهجائيين المطبوعين فلا تدعهم يرتاحون إلا الى كشف النقاب عن العيوب ، وتناولها بالنقد والثلث ؛ ولم يكن غرامه بالخمرة من جهة أخرى ليفسح لخياله مجال العبث بالصور المشوهة المضحكة التي تتخذها فئة أخرى من الهجائيين عماداً لأدبها X

ومع ذلك فقد كان أبو نواس يعتمد الى الهجاء احياناً ، فيأتي به إما حزيباً دفاعياً ينشر فيه نزعة له سياسية أو عقيدة أدبية، ويكافح ما ينافيها من نزعات وعقائد . وهو كثيراً ما يوجه ذلك الشعر الى العرب عموماً، ويحارب بنوع خاص عقلية الأعراب القدماء .

وهو تارة يطعن في الأسر المالكية وذات النفوذ، او يعرض بالقبائل العربية،

ولاسيا الزارئة منها، فيتناول كل قبيلة بثلب جارح مُرّ؛ وتارة ينحى على عقلية الاعارب الاقدمين أبناء البادية، فيفضح ما فيها من سخف وذلة، وما في حياتهم من جفاء وخشونة وضعة منقورة، وما في الذين ينحون نحوهم ويتأثرون بعقليتهم من خطل وشرود عن الصواب .

ففي الصنف الاول، وهو الذي يتألف من القصائد السياسية، يتجلى ميله الفارسي وقلة اعتداده بالقبائل العربية؛ وفي الصنف الثاني، وهو الذي يستهل به عادة قصائده الحمريّة، يجهر بشغفه الجُم بالحياة الجديدة الواقعية، تلك الحياة المترفة الناعمة؛ ويجهر بازدرائه الذين لم يعرفوها، أو الذين عرفوها وراحوا مع ذلك يتغنّون بحياة البادية، حياة الشقاء والخشونة .

ثم هنالك هجاؤه الانتقامي الذي يثار فيه لنفسه ممّن لا يقدرّون منزلته الشعرية على نحو ما يقدرها هو، ومن الممدوحين المقبوضي اليد الذين لا يُثيّمون شعره بمثل ما يستحقّ، أو يظنّه مستحقاً؛ أو بمثل ما يرغب من مال جزل يفسح له مجال اللهو والعبث .

وأخيراً هجاؤه المزّحّي الذي كان يداعب به أصدقاءه وندماءه، أو يعارض به مُنافسيه . وهو، وإن لم ينطو على نقمة عميقة، فإنه مع ذلك حادّ مؤلم .

ولكن ينبغي أن نلاحظ أن هجاء أبي نواس لا يمتاز جميعه بالتجديد . فذلك الأسلوب الذي انتهجه في كثير من شعره الهجائي والذي يذهب فيه الى الإسراف في القذع والفجور والتعريض بعوائد القبائل المختلفة، في عبارة رزينة محكمة، إن هو إلا الأسلوب الذي ابتدعه جرير، فتأثرت به طائفة من المعجبين به، ومن جملتهم أبو نواس .

على أن في هجائه، فضلاً عن ذلك، ميزات جديدة لا اختلاف في قدرها وجدتها: منها تلك المجاهرة بازدراء العرب والعقلية العربية، والدعاء الى التمتع والتوغل في الحياة الحديثة الواقعية الالهية؛ وعدم الخشية من مدح الاعاجم ولاسيا الفوس

منهم؛ ومنها كذلك تلك الرشاقة في الاسلوب التي كان يسم بها هجاءه أحياناً،
فيأتي سلساً، خفيف الحركة في التجول بين مغامر المهجوة، لبقاً في خمشها، متوثباً خبثاً
وحدة طبع، سهلاً يعلق سريعاً في الحواظ، ويسير على الاسنة، جاعلاً المهجوة
ضحكة شائعة.

٢ - الطرديات : الطرديات، أو وصف الصيد، من الابواب الشعرية التي
كانت معروفة عند العرب؛ إلا أنها حتى عهد أبي نواس لم تقم فناً مستقلاً بذاته،
بل كانت كالخمريات تأتي في أغلب الاحيان مدموجة في عرض قصيدة مختلفة
المواضيع، موجزة في الإجمال، قلما تتعدى بضعة أبيات.

وقد عني أبو نواس عناية خاصة بهذا الباب، لانه كان من الامور التي يؤثرها
الأمراء، وأغلبهم مولع بالصيد. وكان شاعرنا يخرج بصحبته اليه، ويرجع وملئ
حقيقته صوراً رائعة متنوعة، صور الكلاب والطرائد، وآلات الصيد، وسائر ما
يستخدم ويرى في مثل تلك الحال؛ ثم يتحفهم بقصائد في تصوير تلك الايام
اللاهية، يتناول فيها الصيد من جميع نواحيه، ويفتن في وصفه ويتأدى ما شاء،
حتى يولف لوحات عليها من البراعة والاتقان ما قلما اتفق لسواه. وأبو نواس
يكثر في هذا الباب من الصناعة البديعية، والاستعارات والتشابه الخيالية،
والصور المستمدة من حضارة العصر المترفة.

وقد ذكر من القصائد الطردية، الموثوق من صحة نسبتها اليه، بضع وثلاثون
أغلبها أراجيز على روي واحد، لا تحاو من حوشية وغبابة في اللفظ، ورتابة
في النغم.

٣ - الزهديات : هو العنوان الذي ألف النقاد إطلاقه على تلك القصائد
القليلة التي قالها أبو نواس في أخريات ايامه، وقد تحطمت قواه، وقعد به العجز عن
تتبع الملهي، فانكفاً على نفسه يسير، بعين موجعة وقلب كسير، غور المعاصي التي
ملأ بها حياته؛ فهاله ذلك المشهد القاتم، وراعه ما تراه له من تجههم أفق الحياة
الأخرى التي كان يحس بدنوها.

والحق أن « زهديات » أبي نواس، هي أبعد ما تكون عمّا عرفناه من الزهديات في تاريخ الشعر العربي، تلك التعاليم الجافة، وتلك العظات المصطنعة في كثير من الأحيان والتي لا تتمكن من التأثير في النفس لأنها قلما تصدر عن عاطفة شديدة .

فزهديات أبي نواس هي من الشعر الغنائي الخالص؛ هي نغمات شجية يتراجع فيها نواح قلب صادق الألم والخوف والندم والزهد في الدنيا؛ هي على قلتها، من أجمل شعر أبي نواس، وارقته، وأعمقه عاطفة، وأبعده تأثيراً، وأصدقه عبارة؛ بل هي جديرة أن تذكر في جملة أروع ما قيل من الشعر الغنائي العربي القديم .

٤ - الغزل : لم يكن مزاج أبي نواس ومذهبه في الحياة اللاهية الشاردة وراء اللذة الوقتية، ليُتيح له اكتناه الحب الصحيح الخالص، أو ليجعله يوماً من العاشقين، وهو إذا تغزل يصطنع الغزل اصطناعاً، ومع ذلك فقد يبلغ أبو نواس أحياناً، في غزله هذا، إلى شيء من اجادة فنية لا تخفى ما في جيده من مخادعة في العاطفة، وتكلف بادٍ، ورديء ساقط .

ثم إن لأبي نواس صنفاً آخر من الغزل، يكاد يكون جديداً في الأدب العربي، لانه صورةٌ ظاهرة جديدة في الحياة الاجتماعية العباسية، وهو التشبيب بالعلماء والعلاميات، والعلماء جماعة من الفتيان المتخفين، المسرفين في التطرف والتبرُّج، أما العلاميات فجوارٍ متطرفات خليعات، يتخذن المظاهر الملفقة، ويتزيّنن بزيّ الفتيان، وينصرفن إلى المشاركة في الأدب والشعر والموسيقى، وإبداء الكثير من الظرف؛ وقد كان أبو نواس مغرماً بتلك الظواهر فوصفها، وتغزل بهن في شعر يلائهن خفةً وسوء أدب، وإباحةً، ووقوفاً عند الزخرف السطحي والاشكال الحسية الخارجية، من غير تغلغل إلى العاطفة الصادقة والجمال الحق .

أما العلماء فكان أبو نواس يندفع إلى التغزل بهم عن عاطفة مشبوبة، فيأتي غزله جامعاً من الرشاقة والحيوية، واضطرام الشعور، وحلاوة الفن والموسيقى، وجمال التصوير، المقدار الوافر، ومن ثم فقد تهياً له أن يُعبد من أول مبتدعي

باب الغزل المذكور عند العرب، واشهر اعلامه؛ إلا انها شهرة، في الواقع مخزية، لأن أغلب شعره في هذا الموضوع حافل بالشذوذ والخلاعة العارمة، يحمل من وصف المنكرات والعار والمرض الاخلاقي ما لا يقوى الفن، مهما تسمى، ان يستر شناعته القبيحة، او يرفعه الى درجة الادب الحق الرفيع؛ ولا ريب « ان هذه الطريقة التي شرعها هذا الشاعر الماخن، على حد ما قال احمد حسن الزيات، كانت جناية على الادب، ووصمة في تاريخ العرب » .

الخمریات: ابو نواس شاعر الخمرة غير منازع، والخمرة عروس شعره الحقيقية، وفيها تجلت عبقريته المجددة التي رفعت فوق السابقين واللاحقين، فكان زعيم شراب الخمرة كما كان زعيم القائلين فيها؛ وقد جعل لها في الادب العربي باباً مستقلاً كاملاً.

أحب أبو نواس الخمرة حباً كان عبادة وكان عشقاً . فكانت الخمر معبوداً يحق له السجود، وتبذل في سبيله نواهي الديانة، ولا يوقف من اجله عند تحريم او تعنيف، ويكون كل من التف حوله كريماً يستحق الإكرام ومجدداً لا يتعلق برفات القديم وعوائده . وكانت الخمر معشوقاً قد شغصه الشاعر وبنت فيه عاطفته روحاً حية؛ وهو يعشقها بقدر ما تكون مغرقة في القدم؛ وهو يعشق لاجلها كل ما يتعلق بها ويرجع اليها ويذكر بها . واشتد كلفه بها حتى صارت جزءاً من ذاته لا يطيب له عيش بدونها، ولا يفهم للحياة معنى اذا خلت . فهي ملء قلبه وجميع جوارحه وحواسه، وهي كل متمناه على هذه الارض، وهي الدواء لكل ما تحويه الارض من مرارة وشقاء .

وقد التقى هوى ابي نواس وهوى بعض الرفاق في طلب لذة الحياة في الخمر . فعاش صاحبنا في جماعة من المجان، من كل ظريف وفاتك خليع، مجاهر بالخلاعة والمجون، لا يهتم بشيء ولا يبالي ما يقول وما يصنع، هائلاً باوضاع الجماعة، لا يهتم امر الناس؛ وكانوا لا يطلبون في الحياة الا المستعة، ويرون الحكمة في انتهاب الفرصة بمبادرتها في ابنة العنقود . وهم يريدونها كاملة من غير ما حد الكمالها،

وقويّة باشد ما تكون القوّة، ومتواصلة من غير ما انقطاع، يستوعبونها استيعاباً، ويعتبرون منها ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً .

اما وسائلهم الى ذلك فخرج عن عيون الشرطة، وانطلاق الى الدساكر العامرة بالقصف والاهو والريبة، المبتوثة في سواد بغداد وأرباضها ؛ او مُلتقى في الخلاء وسط الحدائق تحت اعراش الكرم، او في دار احد الرفاق ؛ وذلك في صدر النهار وفي غيش المساء، وفي الغالب بعد مضي القسم الاكبر من الليل . ثمّ جوّ مشبع



صحن من خزف ذي بريق معدني من القرن التاسع عليه رسم ضارب على العود
(مجموعة الدكتور علي باشا ابراهيم)

بأسباب السرور والبهجة والطرب، من الحان ربيع تبعثها الطبيعة من خريف المياه وتغريد الطيور، ومن أنغام توقّعها جوارح حسان على العידان والمزاهر والبرابط ؛ ومن مشاهد سحرية تشلج الصدور، وعطور تتصاعد من قلوب الرياحين المنتشرة هنا وهناك، الى غير ذلك مما يساعد على التمتع بنشوة الخمرة، والمكوث عليها اليوم

واليومين والثلاثة، بل الشهر الكامل أحياناً، في شرب لا يقف عند القدح الصغير
أو الرطل، بل يتعداهما إلى القدح الكبير وإلى الرطل بعد الرطل .

أسلوبه في خمريّاته وقيمة شعره : ولما كان أبو نواس واقعياً وأراد
الكلام على الخمرة، لم يتغنّ في شعره هذا إلا بالواقع، ولم يكد يعتمد فيه على
غير الحسّ؛ فهو يتناول الخمرة كما تقع في حوائسها . وإذا كان يعبد الخمرة ويعشقها
فقد تقصّى الكلام عليها، ولم يدع فيها واردة ولا شاردة إلا التفت إليها وأحاط
بها وأثبتها، بما يتعلق بمنظورها ومشموها ومذاقها وتأثيرها في الحسّ
وفي النفس .

- أما ما يرضي النظر فألوان ساحرة . فهناك الخمرة الحمراء، بل دم العناقيد،
بل الياقوتة والعقيقة والعندم القاني، تلك الخمرة التي تنتظم ألوانها جميع الألوان
من الحمرة الداكنة إلى الصفرة أو الزرقة الباهتة؛ وهناك الخمرة الصفراء، بل
الزعفران والورس، بل الذهب الذي لا يعدله ذهب :

وَكَاثِمَا الذَّهَبُ الْمَذُوبُ بِكَأْسِهَا بَحْرٌ يَجِيْشُ بِأَعْيُنِ الْحَيْتَانِ

بل النار بلونها وحركتها وشعاعها؛ وتلك الخمرة الحمراء أو الصفراء إذا انحدرت
في الكأس كانت كالمصباح الوضي، والكوكب الدرّي والشمس المتوقدة :

أَذْكَى سِرَاجًا وَسَاقِي الْقَوْمِ يَمْزُجُهَا فَلَاحَ فِي الْبَيْتِ كَالْمِصْبَاحِ مِصْبَاحُ
كَيْدُنَا عَلَى عِلْمِنَا - لِلشَّكِّ - نَسْأَلُهُ : « أَرَأَيْتُمْ نَارُنَا أَمْ نَارُنَا الرَّاحُ ؟ »

وإذا خالطها الماء ثارت، وتزوّت فقاقيع حبّتها كالشرر .

- وأما ما يرضي الشمّ فالنكهة الطيبة كنفع المسك التي تنبعث من تلك
الخمرة وتحيي النفس قبل الجسد؛ وهذا ما إهاب الشاعر إلى أن يطلق عليها
« ريحانة الكأس » .

- وأما ما يرضي الذّوق فطعم لذيذ، وحرقة كقرص الفلفل . وهذا الطعم

يزداد لذة بازدياد عمر الخمرة ؛ وقد افتنَّ الشاعر في وصف قدم الخمرة افتناناً شديداً، ومن ذلك قوله :

مِنْ سُلَافٍ كَأَنَّهَا كُلُّ شَيْءٍ يَتَمَنَّى مُخَيَّرٌ أَنْ يَكُونَا
أَكَلَ الدَّهْرُ مَا تَجَسَّمُ مِنْهَا وَتَبَقَّى لُبَّاهَا مَكْنُونَا
فَإِذَا مَا اجْتَلَيْتَهَا فَهَبَاءٌ نَمْنَعُ الْكَفَّ مَا تُبَيِّحُ الْعِيُونَا



- وأما ما يرضي النفس والجسد

كليهما فسكرة بعد سكرة تتمشى في المفاصل كتمشي البرء في السقم، فتطارد الموم والالم، وتذهل عن الحياة وشدائدها .

ويزيد أبو نواس على وصف الخمرة نفسها وتسجيل درجات مفاعيلها في النفس الكلام على أصلها وكرومها وطرق صنعها وحاناتها وآنياتها التي تزينها أحياناً الرسوم الفارسية، والخمارين والسقاة ؛ والندامي والمطربات ؛ حتى اجتمع في شعره من اوصاف الخمرة وما إليها جملة ما يردُّ على الخاطر فيها من الاخيلة والمعاني . ومصادر وحي الشاعر في ذلك أولاً شغفه بالخمرة وادمانه لها والملاحظة الحسية لادق ما يرجع إليها، ثم ما تركه له من تقدسه من الشعراء ولاسيما الأعشى والاختل.

دن من الفخَّار من عهد أبي نواس

- (١) السُّلَافُ : الخمرة، أو أوَّل ما يُعَصَّرُ مِنْهَا (٢) أي أصبحت كأنها غير مادية
(٣) الهباء : الشيء الدقيق المتلصِّب في ضوء الشمس إذا دخل من كوة البيت .

فقد افاد ابو نواس الشيء الكثير من مبتكرات الاقدمين حتى انك لتجد عنده كل ما انتجه الاعشى والاخلط وسائر شعراء الخمرة . ولكن استقصاءه وشموله وما له من مبتكرات، وما له من صور طريفة اوحى بها اليه تحريم الخمرة الديني، كل ذلك جعل لابي نواس محلاً فريداً بين عشاق الخمرة وشعرائها .

والذي يستهوي في كلام ابي نواس على الخمرة ما هنالك من تشخيص يرفده قصص يشيع فيه ظوف الشاعر؛ ثم ما هنالك من خفة الروح والطبيعة والوضوح؛ زد على ذلك الصراحة والصدق المتأئين عن خبرة عميقة وعاطفة صادقة . فالشاعر في الخمريات يسكب روحه كما يسكب فنه، في طرافة فنية نادرة، وتعبير سهل تسمو به موسيقى مطربة، وجو فني تخلقه لفظة بسيطة، ووزن رشيق، وقافية خفيفة .

وقصارى القول ان خمريات ابي نواس، على ما فيها من بعض الشعر الساقط، مما هو منحول او مما قيل في آونة السكر والعريضة، ذات قيمة ادبية كبرى، وهي صورة صادقة لنفس الشاعر الخليع كما هي صورة للروح البغدادية الماجنة في ذلك العصر .

٨ شاعرية ابي نواس : يمتاز أبو نواس بقوة شاعرية فريدة، قد تبلغ احياناً حدّاً من النبوغ بعيداً يلامس العبقرية، وترفع شاعرنا الى مستوى مجيد بين اكابر الشعراء في الادب العربي .

١ - العقل : ومن أبرز تلك المقدرات التي أوتيها ذهن واع، وبديهة سريعة الذكاء؛ وخاطر مولّد غني يدرك بلحظة طائفة جمّة من المبتدعات والمعاني الطريفة، قد زادت ثروته بما وعاه الشاعر من ثقافة رحيمة، وبجملة ما اكتسبه من الحياة الواقعية عن طريق السماع والنظر والمعايشة، وبما كان يوحيه اليه طبعه الهازي من مبتكرات وافرة .

٢ - الخيال : ومن اجل مبتكرات أبي نواس تلك الصور الرائعة، التي كان

يجتمع على إبداعها عين له فطنة، لا يفلت من نطاق ملاحظتها أمر، وخيال قوي يأتي بما يفرض الإعجاب :

مَا زِلْتُ أَسْتَلُّ رُوحَ الدِّنِّ فِي لُطْفٍ وَأَسْتَقِي دَمَهُ مِنْ جَوْفِ نَجْرُوحٍ
حَتَّى أَتَنَبَّئْتُ وَلِي رُوحَانِ فِي جَسَدٍ وَالدِّنُّ مُنْطَرِحٌ، جِسْمًا بِإِلَا رُوحٍ

وروعة الصور ترفع غالباً من قيمة معانٍ مبتذلة، في ابواب التقليد خصوصاً، كما يتجلى ذلك في البيتين التاليين وهما من الشعر المدحى :

إِنَّمَا أَنْتَ عَطَايَا أَبَدًا لَا تَسْتَرِيحُ
بِحَ صَوْتِ أَلْمَالِ مِمَّا مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيحُ

وقد ساهم في إبداع تلك الصور الخيالية، ما أوتيهِ أبو نواس من قدرة على تشخيص الأشياء الجامدة وبث الحياة فيها، حتى كأنها أشخاص تحس وتضطرب وتعبّر عن عواطفها :

قَدَرُ الرِّقَاشِيِّ مَضْرُوبٌ بِهَا الْمَثَلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، خِلَا النَّيِّرَانِ، تُبْتَذَلُ
تَشْكُو إِلَى قَدَرٍ جَارَاتٍ إِذَا التَقَتَا : أَلْيَوْمَ لِي سَنَةٌ مَا مَسَّنِي بَلَلُ

غير أن قوة أبي نواس على التصوير ودقة ملاحظته لا تظهران في مثل هذه الصور الخيالية ظهورهما في مقدرته على تأليف المشاهد الرائعة، وبراعته البالغة في رسم اللوحات الزاهية الناطقة الألوان . وفي أوصافه للخمرة امثلة جمّة تشهد بما يمتاز به شعره من التصوير، وبما له فيه من طاقة نادرة .

وان هنالك ظاهرة غريبة في تصوير أبي نواس لا يمكن إغفالها، وهي قلّة احتفاله بجمال الطبيعة وبوصفها، مع ما هو معروف من رونق البساتين التي كان يختلف إليها غالباً لمعاقرة الخمرة ؛ فهو إن وصف شيئاً منها، فوصفه خاطف لا يغني، وكأنه مقدّمة أو إطار يهللها الشاعر أو يتخطأها مسرعاً الى الموضوع الذي يستحق

وحده في نظره كل العناية ، الى الخمرة التي كانت تستأثر بكل اهتمامه ، وتكاد تُنسيه كل ما سواها .

٣ - العاطفة : أما عاطفة أبي نواس ، فالظاهر ان حياته اللاهية قد حدثت من عمقها وُبعد تأثيرها . واكتنفا على بساطتها تحمل من صفات الرقّة المتنبهة لأخفى الاحساسات وأعذبها ، والتوثب الدائم المتشوق ابدأ الى المتعة الجديدة ، والارهاق في استجلاء المحاسن والمتع ، والتناغم مع كل جمال ، والصراحة التي لا تحاو احياناً من سذاجة حلوة في وصف نزعات نفسه ومُتعتها ، ما يضني على شعره ألواناً فاتنة من الطلاوة والحيوية والاستساغة ، فضلاً عن روح الدعابة والفكاهة والسخر الذي يشيع في اغلب شعره ، فيسبغ عليه من السحر ما يجعله لذيذاً محبباً ، قريباً الى القلب . ولا يخفى اننا لا نعني بدعابة أبي نواس كل ما له في هذا الموضوع من مجون ، فإنه كان غالباً يبلغ في شعره هذا من الاسفاف ما لا يجوز لنا ان نعدّه من الأدب في شيء .

ومهما أتى ابو نواس من جمال الوصف ومن الصراحة في تصوير نفسه ، فإنه في الاجمال يقف عند ما يدركه بالحواس ولا يتعداه الى التأثيرات النفسية العميقة ؛ وهو قد يُثير في القارئ عاطفة فرح وابتهاج ، وقد يرغمه على الإعجاب ، إلا انه قلماً يشقّ لحياله آفاقاً للإيجاء رحبة ، يجول فيها ، في ما وراء المحسوس ، شأن شعراء الخيال الكبار ؛ وقلماً يتراجع لأنغامه في النفس أصداء تتوالى تموجاتها طويلاً بعد إنهاء قراءة القصيدة ، فعل الغنائيين العباقر . وهذا ما يُثبت الاستاذ مارون عبود بقوله : « أرى شعر أبي نواس كجرس ينقطع رنينه عند التوقف عن قرعه ، بخلاف الاجراس التي ترسل نغماً إثر نغم ، ورنيناً إثر رنين ، فسترعي سمعك الى ما يُدرك . . . وأبو نواس يتراءى لي كأنه مركب من جسد فقط ، جسد بلا نفس ، او نفس لا قيمة لها فيما بعد ، فهي آلة في يد اللهو والطرب ، لا يذكرها بخير ، فكأنه لا يدرك الا بجواسه فقط » .

ولا يفوتنا ان نستثني من هذه الملاحظة زهديات الشاعر التي تحتل ، كما أسلفنا ،

مقاماً فريداً في شعر أبي نواس العاطفي، بل في الشعر الغنائي العربي عموماً .
وفي الجملة يمكننا إيجاز وصف شاعرية أبي نواس بأنها شخصية تلقائية :
شخصية لأنها تقوم على أصالة اصطبغت بها نفسيته ومقدرته الشعرية بلون فريد ،
ولأنه قصر شعره على تمثيل تلك النفسية وتلك القوى ؛ ثم لأنه أبدى إخلاصاً تاماً
في تصويرها تصويراً كانت تقتضي طبيعة حاله ان يكون طريفاً فذاً .
وتلك الشاعرية الشخصية تلقائية اي انها حرة طبيعية ، لا تقيد نفسها بقيود
أجنبية، إلا في حالة الاضطرار كما في المديح مثلاً .

٨ فـ :

١ - العناية : لقد تولّى أبو نواس إخراج شعره الفني بعناية خاصة ، ولا سيما
في قصائده الحمزية ؛ وقد كان فناناً ذا ذوق بصير، يطرب الى فنه، ولا يرضى منه
إلا الخالص الأحكام . وكان لا يجيد الشعر إلا وهو مطمئن النفس والبال، يتحرى
الحالات النفسية التي تستدعي تقاطر المعاني والأخيلة، فيبادر الى انتقاء جميلها وتنسيقه،
ويُسقط كل ما هو مبتذل لا غنى فيه ؛ ثم يعود الى ما انتخبه يتذوقه وينقيّه من
كل ما يعكر صفاء الفن فيه .

٢ - التنوع : وبفضل هذه العناية الفنية النشيطة استطاع أبو نواس ان يتلافى
التكرار الممل الرتيب، والجود والتقليد ؛ أما التكرار الممل والجود، فقد كان
معرضاً لها بسبب وحدة المواضيع ؛ فقد نظم مثلاً في الخمر عدداً من القصائد جمّاً،
ولولا فنه لجاءت جميعها متشابهة ؛ الا انه قد تنبّه الى هذا الخطر فتلافاه ، بما طبع
عليه شعره من تنوع غزير : تنوع في المعاني أتاحته له قريحته المولدة الخصبة ؛
وتنوع في الصور يسهّره له خياله القوي على الإبداع ، المرن في التكييف بأوجه
التخيّلات، والتجسيد، ورسم اللوحات الفنية ؛ وتنوع خصوصاً في الاسلوب الذي
يصطبغ بمختلف الالوان من وصفي وخطابي وغنائي وقصصي ؛ والاسلوب

القصي هو الذي غلب على شعر أبي نواس، وقد جدد فيه الشاعر تجديداً رحباً، وسكب شخصيته، على غناها، في مداه الحرّ الواسع .

٣- اللغة : وقد ساعده على ذلك لغة طيّعة غنية، لا تعصاه في شيء. ولا تقف به عن أداء أي معنى اراد، وأتية صورة شاءها لشعره؛ فأبو نواس، كما عرفنا، قد تزلّج من اللغة تزلّجاً قوياً، وأخذها عن أهلها الخالص حتى استقامت له ملكتها وانفتحت بين يديه جميع كنوزها؛ فاستطاع ان يتكيف في استخدامها على هواه، فإذا بها متينة جزلة، مترفعة في المديح والطرديات، شديدة الاسر سهلة في الغناء؛ لينة، قريبة المنال، تامّة الوضوح، على غير تبدل في الفكاهة والخرم والقصص عموماً .

٤ - الاوزان : ولا تختلف اوزان أبي نواس الشعرية عن لغته، في تكيفها وانقيادها، فقد استطاع ان يكسرها على جميع الاشكال، وينتزع منها جميع أصناف الانغام، ويأتي بها أعجوبة في التنوع والسلاسة :

أما تنوعها فظاهر جلياً بتنوع الابواب التي طرقها، والتي اتخذ لكل منها أوزاناً خاصة ملائمة : من رصانة المديح واستطالة أوزانه، الى أراجيز الطرديات، الى الرزانة والقصر في الزهديات، الى الرشاقة والدعابة ومرونة الاوزان في الخمریات .

أما السلاسة فبيّنة خصوصاً في الاوزان القصيرة، في أساليبه الخطابية والغنائية والقصصية على السواء؛ ولا ريب أن ابا نواس كان في ذلك من أسبق المجددين؛ وأجملهم فناً؛ فهو من أول من نفى عن الشعر العربي تلك الرتابة التي طالما لازمته وصاغته على وتيرة واحدة، فقطعت القصيدة الى أبيات مستقلة، وقسمت البيت الى شطرين منفصلين، فجاء النظم القديم كالمومياءات المحنطة . أما أبو نواس فقد حطّم ذلك الجمود، فسكب أحياناً عاطفته على حريتها في مدى البيت غير حافل بالشرط :

يا نفس كيف لطفت بالصبر حتى صبرت

ألست صاحبي يوم ودّعوني، ألست؟

وأحياناً جعل من البيت جملة حديث تسير طليقة كالنثر :
تَفْتِيرُ عَيْنَيْكَ دَائِلٌ عَلَى أَنَّكَ تَشْكُو سَهْمَ الْبَارِحَةِ

ولم يحشَ الأخذ أحياناً كثيرة بالتضمن كما في قوله :
فَمَاجَ النَّاسُ فِي النَّاسِ وَظَنُّوا أَنَّهَا الرِّجْمَةُ
إلى الله ...

ونحن إذ نصف أوزان أبي نواس الشعرية، نصف بحكم الحال ، الموسيقى التي هي صدى لتلك الاوزان وثمره حركتها وتنوعها وتآلف أصواتها وحروفها؛ وقد أبدى أبو نواس، فيما عدا التنوع، براعة نادرة في جعل النغم ملائماً لخلقان العاطفة وحركتها الداخلية؛ والأمثال التي ذكرناها أدلة ناطقة جلية على ذلك؛ وفي الغنائيات خصوصاً تغمر الموسيقى شعر أبي نواس، بجو ينقل الى نفس القارئ حالة الشاعر النفسية نقلاً أميناً . وبفضل هذه الموسيقى مضافة الى التنوع في الاساليب واللغة والاوزان الشعرية، قد أقصى أبو نواس الجلود عن شعره كما أقصاه بالحوية الشخصية الطليقة التي تشيع في عامة قصائده، وبالتناغم المحكم الذي أنبته بين فنه من ناحية، واحساساته وظرفه ودعابته من ناحية أخرى .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- عبد الحليم عباس : ابو نواس (ساسلة اقرأ) - مطبعة المعارف بمصر
 عبد الرحمن صدقي : الحان الحان - دار المعارف بمصر ١٩٤٧
 مجلة الهلال، السنة ٤٤، الجزء ١٠ : عدد خاص بابي نواس
 الدكتور عمر فروخ : ابو نواس الطبعة الثالثة - بيروت ١٩٤٦
 طه حسين : حديث الاربعاء ٢ : ٦٢ - ١٧١
 مارون عبود : الرؤوس - بيروت ١٩٤٦ ص ١٠٨ - ١٢٦
 انيس الخوري المقدسي : امراء الشعر العربي - بيروت ١٩٣٦ ص ٧٥ - ١١٠

٢ المراجع الاجنبية :

Brockelmann : Abū Nuwās, in Encycl. de l'Islam, t. I, 104-105.

— Gesch. d. Arab. Litter., I, 75.

موضوعات للبحث

- ١ - أوضح الصلة بين حياة الشاعر ونفسيته وشعره .
- ٢ - هل كانت بيئة ابي نواس تفسح له مجالاً للحياة التي انصرف اليها ؟
- ٣ - قال الجاحظ : « بشار وابو نواس معناهما واحد والعدة اثنان : بشار حلّ من الطبع بحيث لم يتكلف قولاً ولا تعب في عمل شعر، وابو نواس حلّ من الطبع بحيث يصل شعره الى القلب بغير اذن » .
- ٤ - كان ابو فراس زعيم ثورة ادبية . ما كان مدى ثورته، وما كانت نتيجة تلك الثورة ؟
- ٥ - أبو نواس شاعر الخمر . أوضح ما وصل اليه الشعر الخمري منه، وبيّن فنه فيه .
- ٦ - ابو نواس مصوّر ماهر . فصّل عوامل تصويره، وفنه في ذلك .
- ٧ - سأل سليمان بن أبي سهل بن نوْبخت ابا نواس : « ما الذي استجيد من أجناس شعرك ؟ » فقال : « أشعاري في الخمر لم يُقل مثلها، وأشعاري في الغزل فوق اشعار الناس وهما اجود شعري، ان لم يُزاحم غزلي ما قلته في الطرد . » ما رأيك في ذلك ؟

أدب الثورة التجديدية — الشعر

الفصل الثالث

أبو العتاهية (٧٤٨ — ٨٢٥ م / ١٣٠ — ٨٢١ هـ)

١ مكانه من عصره : امتاز مطلع العهد العباسي بمجرى خلاعة، ومجرى زهد كان ردة فعل للمجرى الاول وصدى من اصداء الحكمة التي اندفقت اذ ذاك على بلاد العرب.
٢ حياته : ولد في قرية تدعى عين التمر، وتعاطى بيع الفخار، ثم قصد بغداد وتقرّب الى الخليفة المهدي، وحظي لديه؛ وعلق جارية اسمها عتبة واكثر من التشبيب بها. ثم مال الى دراسة مذاهب المتكلمين والزهّاد، الى ان زهد بالدنيا قولاً ومعيشة. ولكن ولعه بالمال لم يبارحه فظل يتنقل من قصر الى قصر، فقرّبه الرشيد وقربه المؤمنون من بعده. وقد توفي في بغداد ودُفن فيها.

٣ آثاره : لابي العتاهية ديوان طبع سنة ١٨٨٦، وفيه قسمان كبيران: قسم للزهديات، وقسم لسائر فنون الشعر.

٤ فنون شعره :

١ - الغزل : يحمل شعره الغزلي صورة نفسه، نابضاً بحرارة قلب مُتيم. هو غزل الحب المثالي المتألم الذي لا يخرج في معانيه عن القديم المعروف، ولكن الشاعر يسوقه في بحور رشيقة مطربة.

٢ - المدح : كان مدحه تجارياً، واحسنه ما قيل في المهدي والرشيد. وقد سلك فيه الشاعر مسلك البراعة فارضى نفسه وارضى ممدوحه. اما طريقته فتقليدية ومعانيه قديمة أفرغها في قالب شخصي جمع السهولة والرشاقة والعذوبة. ومدحه لا يتخلو من غلو في التمليق.

٣ - الشكر والعتاب : ادخل عليها نغمة جديدة من التطرّف فيها حذق وحلاوة.

٤ - الرثاء : اسلوبه فيه اسلوب المديح والزهّد.

٥ - الهجاء : فيه براعة ومقدرة عجيبة على خلق الفكرة الشائكة الجارحة. وهو من

نوع الشعر اللين السهل.

٥ أبو العتاهية شاعر الزهد : تضاربت الآراء في صدق ابي العتاهية في زهده. والارجح انه ظل متأرجحاً بين رغبته في الحياة المثلى وضعفه الذي يجرفه نحو الاباطيل. وكان مذهبه في زهدياته الإغراق في ازدراء الدنيا والدعاء الى القناعة. وفي زهدياته دروس قيّمة لا تخلو من مغالاة وتشاؤم. وزهديات الشاعر موجهة الى العقل اكثر منها الى العاطفة، وقد اخرجها في قالب زاهي الالوان، رائع السلاسة والعذوبة والانسجام.

٦ أبو العتاهية الشاعر المجدّد : كان ابو العتاهية مجدّداً في معانيه فقد توفّر على تصوير ناحية الجدّ من عصره؛ وكان مجدّداً في فنه فامتاز شعره بالطبيعية، وسهولة اللفظ، والموسيقى العذبة الساحرة، على ما هنالك من رتابة.

١ مكانه من عصره : لقد امتاز مطلع العهد العباسي، شأن جميع عصور الانقلاب حيث تتوفر أسباب الغنى والترف، بمجريين متناقضين : مجرى خلاعة ومجون، ومجوى زهد وتقشف هو كردة فعل للاول .

وقد وفر الانقلاب العباسي للعرب رخاء عيش، وامتداد سلطان وسعة خير، فامتدت موجة من الترف، وشاعت حتى تغلغلت من اقصى البلاد الى اقصاها، فانبرى بشار وأبو نواس يُنشدان للناس أغاني المجون والخمرة ويدعوان الى الاستمتاع ونشدان اللذات حيث كانت .

واندفعت في الوقت نفسه على بلاد العرب مجاري الحكمة، آتية من الديانات المختلفة التي تمازجت في بغداد وفي جميع أنحاء الامبراطورية . فمن هندية الى يهودية، الى مسيحية الى اسلامية، الى ما سوى ذلك من الديانات التي تدعو الى نبذ الابطال والتعلق بالآخرة، والزهد في مُتَع الحياة، فنشأت من كل ذلك نزعة زهدية، تواصل الحركة التي نجدها في الادب العربي منذ أقدم عصوره، ونلمس آثارها عند قس بن ساعدة وأمية بن أبي الصلت، وتماشي ما تدعو اليه الديانات . وكان زعيم هذه النزعة في العهد العباسي، الذي ردّ على اغاني بشار وابي نواس، بألحان جديدة نظيرها، ولكن في الزهد واحتقار الدنيا، وذكر الموت، مكتملاً من ثم الصورة التي تركاها لعصرهما : الشاعر ابو العتاهية .

٢ مائة :

١ - اصله ونشأته : ولد ابو اسحاق اسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان، المعروف بأبي العتاهية، في قرية بالقرب من الانبار تدعى عين التمر، وكان مغمور النسب يزاول أبوه الحجامه، ويتعاطى هو واخوه زيد بيع الفخار في دكان صغير بالكوفة .

وقد اختلف المؤرخون في اصله فمنهم من عدّه عربياً ينتهي نسبه الى عترة، ومنهم من صدف به عن الاصل العربي فنسبه الى عترة بالولاء فقط، والرأي الثاني هو الأرجح .

ونشأ أبو العتاهية في الكوفة، كثير الروع باللهو والتخنث، كثير المعاشرة لاهل الخلاعة، الى ان آنس من نفسه مقدرة على الشعر العالي وابتدأ يطير له في الشعر صيت، وشعر انه أهل لطرق ابواب الخلفاء، فبرح الكوفة وقصد بغداد .

٢ - شاعر الخلفاء : وصل الشاعر الشاب الى بغداد في عهد المهدي (٧٧٥ - ٧٨٥ م) فتقرب الى الخليفة، ولقي لديه حظوة كبيرة، حتى غدا جليس خلوته، ورفيق نزواته . وقد مدحه ونال منه ثواباً جزيلاً .

وكان في قصر المهدي جارية اسمها عتبة . فعلقها أبو العتاهية واكثر من التشيب بها، ولكنه لم يلق منها الا كرهاً ونفوراً؛ وكانت خيبته فيها اول ما صرفه عن طلب اللهو والتخنث، وحطم حدّة مطامعه في الدنيا، فشرع يميل الى دراسة مذاهب المتكلمين، وأهل الشيعة والجبرية، والزهاد، متنقلاً من مذهب الى آخر حتى كوّن له عقيدة أفضت به شيئاً فشيئاً الى العبادة والزهد بالدنيا قولاً ومعيشة .

إلا ان ولعه المفرط بالمال لم يبارحه، وظلّ يتنقل به من قصر الى قصر؛ وقد قرّبه الرشيد وأجرى عليه وظيفة مقدارها خمسون ألف درهم غير الجوائز منه ومن امرائه؛ وجدير بالملاحظة ان ابا العتاهية لم يتقرب من البرامكة في تلك المدة، ولم ينل حظوة لديهم، مع ما كان له من شيوع شعر وحسن إنشاد، ومع ما كانوا عليه من كرم وبسطة يد .

وحدث في تلك المدة ايضاً ان اقلع ابو العتاهية عن الغزل، وقصر قوله على الزهد في الدنيا، والتذكير بالموت واهواله . ولكنه مع ذلك لم يعدل عن مدح الخليفة ورجال الدولة ولم يكف عن أخذ جوائزهم . ثم عرضت له حال امتنع فيها عن قول الشعر امتناعاً تاماً، فحبسه الرشيد لرفضه تلبية ما كان يقترحه عليه من القول، ولم يطلقه إلا بعد ان نزل عند رغبته، وعاد الى الشعر هاجراً الغزل والهجاء .

ولما استخلف المأمون كان الشاعر ايضاً من بطانته، صحبه بضعة عشر عاماً ينال من عطاياه؛ وقد ظلّ طوال خلافة الرشيد والأمين، وخلال اكثر ايام المأمون، على حاله في قول الشعر الزهدي الى ان مات .

٣ - وفاته : اختلفت الروايات في تاريخ وفاة أبي العتاهية . فهناك رواية تُعزى الى ابنه محمد تقول انه توفي سنة ٨٢٥، وهناك روايات أخرى تذكر انه توفي سنة ٨٢٦ او ٨٢٨ . ودفن في بغداد وكان قد اوصى ان يُكتب على قبره :

أُذِنَ حَيَّ تَسْمَعِي إِسْمَعِي ثُمَّ عِي وَعِي
أَنَا رَهْنٌ بِمَصْرَعِي فَأَحْذَرِي مِثْلَ مَصْرَعِي
عِشْتَ تَسْمَعِينَ حِجَّةً أَسْلَمْتَنِي لِمَضْجَعِي
كَمْ تَرَى الْحَيَّ ثَابِتًا فِي دِيَارِ التَّنَزُّعِ
لَيْسَ زَادٌ سِوَى الثَّقَى فَخُذِي مِنْهُ أَوْ دَعِي

٣ آثاره : لم يصل الينا كل شعر أبي العتاهية . ويتفرع ما بلغنا منه الى قسمين رئيسيين يدور أكبرهما وأوسعهما نطاقاً على الزهد، ويتناول القسم الآخر منظومات مختلفة في شتى فنون الشعر من غزل ومديح ورثاء وهجاء ووصف وحكم وأمثال ؛ وقد جمع زهديّات أبي العتاهية في القرن الحادي عشر الإمام أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر التّيمري القرطبي المتوفى سنة ١٠٧٠ م / ٤٢٣ هـ . أما سائر فنون شعر أبي العتاهية فقد ظلت مبعثرة في كتب الادب القديمة والمخطوطات المتنوعة الى ان ضمهها الاب لويس شيخو الذي نشر ديوان أبي العتاهية ووقف على طبعه سنة ١٨٨٦ وأسماه « الانوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية » ثم نشر منه طبعة مدرسية مختصرة تقع في ٣٠٧ صفحات .

٤ فنونه شعره : تناول أبو العتاهية، أوّل أمره، من فنون الشعر الغزل والمدح والرثاء والهجاء، والعتاب والاستعطاف وما الى ذلك مما ألفه الشعراء من قبله ؛ ثم راح يصدف شيئاً فشيئاً عن هذه الابواب الشائعة، ويقف شعره على الزهد والوعظ والحكمة والمثل، فمهر الشعر العربي من ذلك بثروة قيّمة طالما كان مفتقراً اليها .

١ - غزله : وقف أبو العتاهية سواد غزله على الجارية 'عتبة التي علقها أول قدومه ببغداد، ولم يبلغنا أنه تغزل بامرأة أخرى إلا ما جاء عن نسيب قاله، وهو حدث بالكوفة، في جارية يُقال لها 'سعدى، فشكته إلى مولاه فأمر بضربه مئة سوط . واما حبه لعتبة فكان حباً صادقاً، فيه 'عنف وفيه نبل، وفيه عاطفة شديدة لا تحجم به عن أقصى التضحيات بالرغم مما كان يلقاه من نفور وصد . وقد جاء غزل أبي العتاهية فيها، مستهلاً الكثير من قصائده المدحية، يحمل صورة نفسه، نابضاً بحرارة قلب متيم، مؤثراً في تصوير صبوة الشاعر وما يلاقيه من صُدود، خالصاً من كل ما أدخله 'مجان عصره على الغزل من فجور وتهتك . وغزل أبي العتاهية هو غزل الحب المثالي المتالم :

أَذَابَ الْهَوَى جِسْمِي وَعَظْمِي وَقُوَّتِي فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الرُّوحُ وَالْبَدَنُ النَّضْوُ

وإن كان أبو العتاهية قد توفّر في مجمل شعره على المعاني القديمة المعروفة، إلا أنه قد ساقه في بحور وشيقة مضطربة، واتى أحياناً بابتكارات جميلة :

وَلَقَدْ طَرَبْتُ أَلَيْكَ حَتَّى صِرْتُ مِنْ أَلَمِ التَّصَايِ

يَجِدُ الْجَلِيسُ إِذَا دَنَا رِيحَ الصَّبَابَةِ مِنْ ثِيَابِي

٢ - مدحه : لازم أبو العتاهية قصور عظماء عصره وخلفائه، طول حياته، سالماً جميع طرق الحيل لإرضائهم واستدراار اكفهم . وقد أكثر من مدحهم، إلا أن مدحه كان تجارياً أكثر مما كان عن عاطفة صادقة ؛ واحسنه ما قاله في المهدي والرشيد . وقد مدح بني العباس مع أنهم لا يقرؤون عقيدته الشيعية، وحاول أن يحتفظ بشعره بعيداً عن الخصومات السياسية التي كانت ناشبة في عصره بين العباسيين والعلويين ؛ إلا أنه لم يبلغ من ذلك حدّ الخيانة ولم يذمّ العلويين لكسب حظوة العباسيين ؛ وكان، على طمعه بالمال، يعرف كيف يرفضه إذا ما كان في قبوله له ما

يس كرامته او يحط من شأنها . وعلى الإجمال ، فقد سلمك من البراعة احسن السبل ، ليرضي دائماً نفسه ، ويرضي بمدوحه على السواء .

واتبع أبو العتاهية في مدحه الطريقة التقليدية ، فهّد له بالغزل ، وأحياناً بالخمريات ، إلا انه قد ألف تقصير التمهيد . ولم يجدّد كذلك في المدح بل جرى على المألوف فيه من تعظيم رتبة الخلافة ، وما تكسب صاحبها من مكان لدى الله وجلال يأتي بالمعجزات ؛ وكرم المحمّد ، وسعة الكرم ، والحلم ، وحسن البلاء في الحروب وما الى ذلك . ولكنّه قد استطاع ان يُجلّي هذه المعاني القديمة على وجه طريف أخاذ ، بما ابداه من براعة في إفراغ المعنى القديم في قالب شخصي ، وفي إظهار العواطف التقليدية على نحو من الود والإخلاص يحاكي الصدق أحسن محاكاة ، بحيث تستأثر بقلب المدوح قسر إرادته ؛ ثم بما سكب على شعره من سهولة ورشاقة ، وطلاوة ، وطبعيّة عذبة ، وان غالى أحياناً في التمليق ، مثل قوله في عمرو بن العلاء :

لَوْ يَسْتَطِيعُ النَّاسُ مِنْ إِجْلَالِهِ لَحَذَوْا لَهُ حُرَّ الْوُجُوهِ نِعَالاً

ومع ذلك ، فقد عرف أبو العتاهية أحياناً ، ولاسيما في عهد ترثده ، ان يقف إزاء مدوحه موقف المرشد المتفوّق ، غير متهمّب من وعظه وهدايته ، ومطالبته بحقوق الرعيّة في بسالة وترفع .

٣ - شكوه وعتابه : ولم يخرج أبو العتاهية في شكوه وعتابه عن طريقة مدحه ، فكلّاهما ملحق بالمدح ، إلا انه ادخل عليهما نغمة جديدة من التطوّف ، فيها من الحذق والحلاوة الشيء الكثير .

٤ - رثاؤه : ولم يفرق أبو العتاهية أحياناً بين المديح والرثاء ، فاتخذ هذا الباب الأخير كمجال لتعظيم شمائل الفقيّد والتغنّي بها ؛ وقد لا يفرق بين الرثاء والزهد

فيملاؤه بالحكم واعتبار الحياة والموت ؛ إلا ان في رثائه لأصدقائه والمحسنين اليه نعمة تلهّف مخلصه، ودمعة أمتى حقيقية .

٥ - هجاؤه : أما الهجاء فلم يكن ابو العتاهية يعمد اليه إلا مضطراً ليدافع به عن نفسه في وجه خصم او منافس، او ليعتبر عن خيبته عندما لا يلقي من مكافأة على مدائح غير الإهمال والنسيان، وعندما لا يلقي لإخلاصه وصداقته غير الجفاء، ولا تلبية لطلبه غير الصد . وليس في هجاء ابي العتاهية تفوق ، ولكن فيه من البراعة المقدار الوافر ؛ فللشاعر مقدرة عجيبة على خلق الفكرة الشائكة الجارحة، التي تخدش وتؤلم في كلام قليل محكم . وهجاء ابي العتاهية من نوع الشعر اللين السهل، الذي يطرب من غير حاجة الى كدّ الذهن .

٦ - زهده : ولما كان للزهد أهمية كبرى في ديوان ابي العتاهية، رأينا ان نبسط فيه القول ونفرد له مكاناً خاصاً .

٥ أبو العتاهية شاعر الزهد :

١ - هل كان ابو العتاهية زاهداً : لا يزال زهد ابي العتاهية منذ ايام الشاعر حتى اليوم موضع ريبة تضاربت حوله الآراء متناقضة، بين قائل انه مصنوع مفتعل، لا تدلّ ظواهره على واقع داخلي حقيقي، وقائل انه خالص صادق، لا يشوبه رثاء ؛ وفي سيرة أبي العتاهية وشعره ما يؤيد كلا الطرفين على السواء ؛ فقد روي أنه كان يلبس المسح، ويحيي بعض الليالي سهراً للصلاة ؛ وقد انقطع عن الغزل منذ ترّده، فلم يعد اليه مع ما كان يجد من تشجيع عليه، ومن مضايقة أحياناً في هجره ؛ ولكنه مع ذلك كان أحياناً أخرى لا يبالي بشعائر الدين، ويتهاوت على حطام الدنيا بجشع ونهم، ولم يكفّ حتى مماته عن طلب المال الذي كان شحيحاً به الى حد الافراط، ولم يدع فرصة تغفلت من غير ان يستدرّها مصرحاً بالاستجداء، غير واجدٍ في ذلك بأساً .

والرأي الأرجح الذي يمكن استخلاصه من هذا التناقض، انه قد اجتمع لابي العتاهية في نفسه وفي الاحوال التي احاطت بحياته، عوامل متباينة كانت ترغبه تارة في الدنيا وتارة عنها، فظل متقلّباً بين هاتين النزعتين لا يجد سبيلاً الى الاستقرار على حالٍ؛ فقد كان من فطرته جنوحاً الى المثل الروحانية ميّالاً مع ذلك الى المرح والمتعة والحياة اللاهية، ولكن من غير ان يتعدّى في ذلك حدود الاعتدال؛ إلا ان ضعة مولده قد صدمته منذ فجر حياته بواقع قاسٍ، فحطمت حيناً طمعه في الدنيا؛ ثم ما عثم ان اومضت له بوارق الشهرة وآمال الثروة، إذ ارتفع بشعره وراح الخلفاء والعظماء يُعقدون عليه عطاياهم، فعاوده الطمع في الدنيا، غير ان الصدمة الجديدة لم تتأخر، اذ خاب حبه لعُتبة امرّ خيبة، وكانت تلك الصدمة قاسية على نفسه فأرغمته على القناعة والتأمل، ولاسيا وقد كانت مشاهد ما افضت اليه الخلاعة بمعاصريه، نظير ابي نواس واتباعه، لا تزال ماثلة امام عينيه، فعزم على الزهد في مُتَع الحياة، والصبوّ الى عيشة متقشفة مجردة . والظاهر ان عزمه كان صادقاً، غير انه كان ضعيف النفس، لا يملك قوّة كافية للاندفاع وراء مُثله العليا بكلّ جوارحه، والتضحية في سبيلها بكلّ شيء، ولاسيا المال الذي كان لا ينفكّ يندفق عليه، فيجد فيه سعادة كبرى بعد ما كان يظنّ نفسه محروماً منه من جراء ضعة نسبه، فظلّ الرجل متأرجحاً بين رغبته في الحياة المثلى، وضعفه الذي يحوفه نحو الاباطيل؛ يلبس المسح مقتنعاً ويتنسكّ مخلصاً، ثم لا يتحرّج من خلع المسح إذا ما رأى في خلعهِ ضرورة وكسباً؛ ويقصد الزهد عن عقيدة، ثم يتوسّم فيه نفعاً، فيذهل عن عقيدته ويمضي في سبيل النفع . واذا كان الزُهد قد غلب على شعر ابي العتاهية، فلأنّ شعره صورةٌ لنفسه وإرادته الميَّالتين الى الزُهد، اكثر مما هو صورة لضعفه وتقلّبه، وربما داخل زهده حتى في شعره، شيء من حب الذات وطلب الشهرة، إذ رأى اصحاب الجدّ والتزمّت ورجال الدين يقبلون عليه، ويحتفلون به، بحيث يرفعونه الى درجة من الزعامة في الزهد تقابل زعامة إشار وابي نواس في الناحية المناقضة .

٢ - مذهب ابي العتاهية في زهدياته : ليس لابى العتاهية في زهده مذهب فلسفي ملتحم الاجزاء، ولا هو يجري في بنیان آرائه على طريقة فلسفية . وان كان قد تقلّب أحياناً بين مذاهب متنوّعة فانه لم ينحز انحيازاً صريحاً الى واحد منها، ولم يمتاز قط بنزعة فلسفية خالصة ؛ ولم تكن زهدياته غير مواعظ ادبية وتاملات شعرية في الحياة والموت ؛ ونقطة انطلاقها في الغالب فكرة مأثورة عن كتب الدين، او عقيدة شائعة بين اصحاب الزهد والتصوّف، واحياناً أمثال ساذجة معروفة لدى الجميع . وقد طغت على تلك الزهديات نزعة الاغراق في ازدراء الدنيا والدعاء الى القناعة ؛ وكان مدارها أن الدنيا لا تستأهل شيئاً من العناية والاجتهاد في سبيلها، فهي مجمع اباطيل خداعة، زائلة، حافلة بالمكر والخداع، والألم والخيبة والتقلّب . وقد تنفسح احياناً لشيء من المسرة والمتعة، الا انها لا تعيّن أن تهوي بذلك الى القبر حيث يبلى الفناء والموت بلاء مريعاً، ويكون تشنيعهما ذريعاً بقدر ما يكون الانسان محظوظاً في الحياة . ومن أعظم ما يُعنى به الانسان في موته النسيان الذي لا يلبث أن يحو ذكره من قلوب اقرب الناس اليه حالما يواريه التراب :

يَكْبِي عَلَيْهِ قَلِيلاً ثُمَّ يُنْجِرْجُهُ فَيُمْكِنُ الْأَرْضَ مِنْهُ، ثُمَّ يَنْسَاهُ^١

فما بال الناس يلهون عن هذه الحقائق القاسية، وينحوضون غمار العيش والمنكرات، ويُسرفون في طلب المال وفي البخل، ذاهلين عن بُطل ما يفعلون، كأن القبر ليس خاتمة الحياة في نظرهم، وكأن ليس وراء القبر من حياة . فليرجع الناس إذن الى نفوسهم، وليبيدوا منها الاوهام والمطامع والرغبات الباطلة، وليسلكوا سُبُل الخير كما جلّى معالمها الدين، مزددين الحياة بما فيها من مُتعة ومال، قانعين بما قسم لهم من خير، مكتفين منه بالضروري اليسير، متزكّين بما زاد ليشترؤا به أجوراً الآخرة، فالآخرة وحدها جدرة بالاعتبار ؛ وخير ما يتزوّد به المرء في سبيلها الزهد والتقوى .

(١) يُمكن الأرض منه : أي يجعله في الارض .

٣ - قيمة الزهديات الاجتماعية : لا جرم أن في زهديات أبي العتاهية دروساً قيّمة ؛ فهو يعلمنا ألا ننطلق وراء اوهام الحياة والغرور، ولا نسرف في طلب الأعراض الزائلة، وأن نقبس أبداً الحياة الدنيا بميزان الآخرة، عازفين عن سبُل اللهو والغي، عاكفين على البرّ والصلاح .

إلا أن في ازدراء أبي العتاهية للحياة مغالاةً وتشاؤماً مضرّين : فهو لا يكاد يرى في الحياة غير ظلام وفناء، من شأنه أن ينشئ القنوط في نفوس الأحياء، وهو يغفل عمّا للحياة من قدر قيم، بكونها الطريق الضروري إلى الآخرة، طريقاً يتسع لمآثر جليلة من الشجاعة والبطولة، كما أنه يذهل عن قيمة الجهاد الذي يتحتّم على كل إنسان لنوال الآخرة، بحيث إذا توقّف الإنسان عند نظرات أبي العتاهية، وجب عليه أحياناً أن يكتف يديه ويستسلم للخمول .

ثم إن الشاعر قد اقتصر على ترديد مبادئ عامة معروفة ولم يبيّن مبادئ خطة كاملة لحياة مثلى . وعلى الجملة فإن وجدنا في الزهديات دروساً رفيعة عامة لتوجيه جهودنا، فلا يمكننا ولا يحسن بنا أن نتخذها دستوراً كاملاً نسير عليه حياتنا .

٤ - قيمة الزهديات الأدبية : لزهديات أبي العتاهية قيمة فنية أدبية قد اهتم لها الشاعر اهتمامه لفكرة والموعظة ؛ وإن كان قد تورّط في الركاكة والبرودة أحياناً فذلك نادر . وقد استطاع، على وجه الإجمال، أن يُبعد الجود والجفاف عن شعره، وأن يُخرجه بريئاً من غثائفة الشعر التعليمي، بإتقان أدائه الفني، وتوشيته بالوان زاهية من الصور الخيالية الغريبة الحلوة حتى جاءت صيغته الفنية مغمورة بالسلاسة والعذوبة والانسجام ينسي أحياناً رونقها الحلاب ما في المعاني من تقشّف ومظهر قائم، ويذهل عن الموعظة .

وقد برهن أبو العتاهية في زهديّاته عن قدرة عجيبة على تمثيل المعنى المجرد تمثيلاً حسياً يكسبه قوةً وجمالاً :

نُسْنِي الْمُنَى وَالرَّيْحُ يَلْقَاكَ عَاصِفًا وَفَوْقَكَ أَمْوَاجٌ وَتَحْتَكَ أَمْجُرُ

وقد استغل الواقعية أحياناً ليحدث منها ابلغ أثر، ولا سيما عندما يوقفنا امام القبور، ويرينا إتلاف الفناء وبلاءه ؛ وكان يجد للتعبير عن تلك الحقائق الواقعية البسيطة صوراً واساليب صريحة غاية في القوة والبلاغة :

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَأَبْذُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَى تَبَابٍ
لَسِنٌ نَبْنِي وَنَحْنُ إِلَى تُرَابٍ نَصِيرُ، كَمَا خُلِقْنَا مِنْ تُرَابٍ...
لِلَّهِ دُنْيَا أَتَّاسٍ دَائِبِينَ لَهَا قَدْ أَرْتَعَوْا فِي رِيَاضِ الْغَيِّ وَالْفِتَنِ^٢
كَسَائِدَاتٍ رِنَاعٍ تَبْتَغِي سِمَنًا وَحَتَفُهَا، لَوْ دَرَّتْ، فِي ذَلِكَ السِّمَنِ^٣

وقد تحقق نفس ابي العتاهية بجميع جوارحها لدى مشاهد البؤس البشري، فيرسل صرخات ملؤها اليأس والمرارة، تجمع الى جلاله النظرة، عمق التأثير :

حَسَمْتَ الْمُنَى، يَا مَوْتُ، حَسَمًا مُبَرِّحًا وَعَلَّمْتَ، يَا مَوْتُ، الْبُكَاءَ الْبَوَاكِياءَ
وَمَزَقْتَنَا، يَا مَوْتُ، كُلَّ مُمَزَّقٍ وَعَرَفْتَنَا، يَا مَوْتُ، مِنْكَ الدَّوَاهِيَا
أَنِّي كُلَّ يَوْمٍ نَحْنُ نَلْقَى جَنَازَةً وَفِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْكَ نَسْمَعُ نَادِيَا
وَفِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْكَ نَرَى لِمُعْوَلٍ وَفِي كُلِّ يَوْمٍ نَحْنُ نُسْعِدُ بِالْيَاسِ^٤؟؟

إلا ان زهديات ابي العتاهية على الاجمال، موجهة الى العقل اكثر منها الى العاطفة والخيال، وهي اقرب الى الخطب المنبرية البليغة منها الى الشعر الرفيع .

ومن ثم تختلف تلك الزهديات عن زهديات ابي نواس : هذه صرخات متألم، تتصاعد من نفس قد فقدت كل امل وقوة، ولمست الفناء والموت واليأس لمساً،

(١) التَّبَابُ : الهلاك (٢) دَائِبِينَ : جادِّين في سبيلها . الْغَيِّ : الضلال . الْفِتَنِ : فتنة وهي الضلال والكفر (٣) السَّائِدَاتُ : المواشي (٤) حَسَمْتَ الْمُنَى : قطعها (٥) نَرَى لِمُعْوَلٍ : نرى لنائح .

فهي زاخرة بجرارة وخفقان الحياة، وبعد التأثير؛ وتلك تأملات رجل يزدري الحياة وينقل عليها، في تودة، أنظاراً متشائمة، معدداً مواطن البؤس فيها، موفراً لنفسه أسباب الايغال في ازدرائها، معبراً عن ذلك في قوة وبلاغة. زهديّات ابي نواس في مجملها عاطفيّة، وزهديّات ابي العتاهية في سوادها عقليّة.

وقد اشتهر أبو العتاهية في زهده بوفرة جوامع الحكمة وهي تلك الأبيات المحكمة السبك، التي تعبّر في كلام قليل عن فكرة انسانية شاملة، مما يخولها الجدارة بأن تسير مسير الأمثال. ومن أشهر آثار ابي العتاهية في ذلك ارجوزة معروفة «بذات الامثال» قد عدّها الاقدمون رائعة فريدة بطولها الذي قيل انه يبلغ أربعة آلاف مثل. إلا انه لم يبلغنا منها إلا ما يقارب الخمسين بيتاً، لا يربط فيها بين البيت والبيت رابط، وقد جمعت الى جانب الحكم السامية، كثيراً من المعاني العادية المبتذلة.

٦ أبو العتاهية الشاعر المجرد:

١ - تجديده في موضوع شعوره: لقد سار أبو العتاهية على التجديد، منطلقاً

في مجرى عصره الادبي الذي كان فضل توجيهه وزعامته لبشار وابي نواس. وكان هذان الشعاران يريدان بالتجديد ان يكون الشعر صورةً للعصر، موضوعاً ليفهمه أبناء العصر. فخارهما أبو العتاهية في ذلك، وكان مجدداً في معانيه، مجدداً في أسلوبه. اكنه، شأن سابقه، قد طبع تجديده بميزة نزعة الشخصية، فتوفّر على تصوير ناحية الجدّ من عصره، لانه كان من نفسه أميل الى جانب الجدّ، كما توفّرهما على تصوير ناحية المجون، لانهما كانا من أبناء الخلاعة، مندفعين بفطرتهما الى اللهو والمجون.

ولأبي العتاهية في تجديده هذا فضلٌ رفيع، لانه ارتقى بالشعر الى رتبة سامية خوّلته رسالة الهداية والإصلاح، والتوجيه الى مناحي الجدّ في الحياة، وفتح من ثمّ

للشعر العربيّ باباً جليلاً لم يعرفه من الاقدمين الا القليلون الذين طوقوه طوقاً رقيقاً، من امثال قسّ بن ساعدة وأمية بن ابني الصلت .

وقد ارضى ابو العتاهية، بسمو موضوع شعره هذا، أصحاب الجدّ، والعليّة في عصره، وأرضاهم ايضاً بسلامة فنه، وحسن سبكه .

٢ - تجديده في فنه : ليس لابي العتاهية شاعرية العباقرة الرفيعة، فهو لم يسمُ بفكره الى مقام أصحاب الآراء العالية المبتكرة، ولم تنهياً له قوى الخيال المبدع الجيّد، ولم يَتَزَّ بعَمق عاطفته واتساعها وُبعد تأثيرها إلا في القليل . إلا أنه، وإن كان من طبقة المتوسّطين، ففي توتّطه تفوّق، لما اجتمع له من طبعيّة في القول، وسرعة خاطر، ووقوف على اسرار الموسيقى العذبة، السائغة، المترققة . وكان الى ذلك، يذهب مذهب شعراء التجديد، في النفور من الغريب الفخم، والتكلّف المقيت، وفي النزوع الى تقريب الشعر من متناول العامة ومن أفهامهم، ومن ثمّ فقد امتاز شعره بالطبعيّة : فهو يندفق من شاعرية مطبوعة، فيأضة البديهة، تنقاد الى سجيّتها، فلا تقيّدُها بشيء، ولا تلجأ الى أيّ جهدٍ في تهذيبها ؛ ولا تجد في العروض وصوغ الشعر من قيد أو مشقّة؛ فقد قال ابو العتاهية : « لو شئتُ أن اجعل كلامي كله شعراً، لفعلتُ » . وقد سئل : « هل تعرف العروض ؟ » فأجاب : « أنا اكبر من العروض ! » وبرهن عن ذلك إذ قال يهجو قاضياً :

هَمْ الْقَاضِي بَيِّنْتُ يُطْرِبُ قَالَ الْقَاضِي لَمَّا عُوْتِبُ
مَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا مُذْنِبٌ هَذَا عُذْرُ الْقَاضِي وَأَقْلَبُ

وهذا الوزن الشعري لم يكن معروفاً لدى العرب من قبله، وقد أخذه المحدثون من بعده وسمّوه دقّ الناقوس . ولكن لم تكن طبعيّة ابي العتاهية خالية من الضرر على شعره . فقد قادته احياناً الى عاديّ الافكار والصوّر، وقلّة التفنّن والإبداع، وقرّبت شعره احياناً كثيرة الى النثر المنظوم .

(١) يريد أنه لو صحّفت لفظة « عُذْر » صارت « غدر » .

ومما زاد في طبعية شعر أبي العتاهية، وطابعه النثري سهولة الفاظه وبعدها عن كل أبدح حوشي، وتوخي الشاعر جعلها قريبة أبداً الى افهام الجميع .

إلا أن تلك الالفاظ السهلة قد بلغ الشاعر في انتقائها حدّاً رفيعاً من البراعة، بحيث استطاع ان يحدث من اثلافها انعاماً رشيقاً، وموسيقى عذبة ساحرة، تغمر القسم الاكبر من شعره، وتلبسه جمالاً أخاذاً، وطلاوة سائغة متناهية؛ وكان يعتمد، شأن بشار وأبي نواس، الى الاوزان القصيرة، الخفيفة، الراقصة، والقوافي اللينة، ويتجافى كل تعقيد يفسد النغم، او يعكر سلاسة شعره وانسجامه .

وقد يرتفع ابو العتاهية بشعره احياناً الى درجة من البلاغة وشدة الأسر، لا بأس بها، تنوع شيئاً من موسيقاه اللينة التي لا تخلو من رتابة، ويلجأ في سبيل ذلك الى ترديد بعض الالفاظ فيحدث منها أثراً موسيقياً جميلاً، مثل قوله :

بَسَطْتَ لَنَا شَرْقًا وَغَرْبًا يَدَ الْعُلَى فَأَوْسَعْتَ شَرْقِيًّا وَأَوْسَعْتَ غَرْبِيًّا
وَوَشَّيْتَ وَجْهَ الْأَرْضِ بِالْجُودِ وَالنَّدَى فَأَصْبَحَ وَجْهُ الْأَرْضِ بِالْجُودِ مَغْشِيًّا

ولكنه قد أسرف في هذا النوع من التكرار وأتى به احياناً كثيرة لغير ما داع، فكان أثره سخيلاً :

مَاتَ وَاللَّهِ سَعِيدُ بْنُ وَهْبٍ رَحِمَ اللَّهُ سَعِيدَ بْنَ وَهْبٍ
يَا أَبَا عُثْمَانَ أَبْكَيْتَ عَيْنِي يَا أَبَا عُثْمَانَ أَوْجَعْتَ قَلْبِي

ولكن رغم هذا الخلل تبقى قصائد أبي العتاهية، على إجمالها قطعاً موسيقية، مستوفية الاتقان وعذوبة النغم، قد يعكر جمالها ما فيها من رتابة، تريدها بروزاً رتابة المعنى المحدود والخيال الضيق المدى، إلا أنها جديدة في موضوعها وفي فنّها ولها في الجودة فضل كبير .

بعض المراجع

- الاب لويس شيخو : ابو العتاهية، في سلسلة الروائع، طبعة ثانية ١٩٣١
- الاب لويس شيخو : مقدمة ديوان أبي العتاهية - بيروت ١٩١٤
- محمد احمد برانق : أبو العتاهية - القاهرة ١٩٤٧
- انيس المقدسي : ابو العتاهية، في كتاب «امراء الشعر العربي في العصر العباسي» ص ١١١-١٤٠
- عبد المتعال الصعيدي : شاعرنا العالمي ابو العتاهية . الرسالة ٣ (١٩٣٥) : ٦٦٥ و ٧٤٤ و ٩٠٢ و ٩٨٦ و ١٠٦٤ و ١١٤٣ و ١٣١٠ و ١٣٨٨ و ١٤٢٢ و ١٥٠٥ و ١٧٤٥ و ١٦٦٣

موضوعات للبحث

- ١ - حدثت هارون بن سعد قال : حضرت ابا نواس في مجلس ، وأنشد شعراً ، فقال له من حضر في المجلس : « أنت اشعر الناس » . قال : « أمّا والشيخ حيّ فلا » (يعني بالشيخ أبا العتاهية) . أبسط رأيك في هذا القول مقيماً الموازنة بين شاعرية ابي نواس وشاعرية ابي العتاهية .
- ٢ - قيل : « ابو العتاهية يتناول شعره من كفه ويرسله سلساً عذباً ، عليه طابع النثر » . أوضح هذا القول وأظهر أثر السهولة في شعر الرجل .
- ٣ - يريد ابو العتاهية ان يسنّ للحياة دستوراً . فصلّل هذا الدستور وبين قيمته الاخلاقية والفكرية .
- ٤ - كيف تتمثّل عصر شعراء التجديد من شعرهم ؟

أدب الثورة التجديدية — الشعر

الفصل الرابع

مُسلم بن الوليد — العباس بن الأحنف الحسين بن الضحّاك

١ — مُسلم بن الوليد :

وُلد في الكوفة، واتَّصل بقوَّاد الدولة وعمَّالها فدحهم ونال جوائزهم ؛ ومدح الخلفاء وحصل بشعره بعض المناصب . وكان جنوحاً الى العزلة، ميّالاً الى اللهو ووصف الشراب . كان في شعره كثير الافتقار الى المعاني، صائغاً ماهراً للكلام . احدث « البديع » وتعمده فكان زعيم التصنيع البديعي .

ب — العباس بن الأحنف :

هو من اصل عربيّ عاش في بغداد، وقصر شعره على الغزل والتشبيب من غير تصريح بفحش .

ج — الحسين بن الضحّاك :

وُلد ونشأ بالبصرة . كان شاعراً خليعاً نظم الشعر في الخمر والغزل . وكان في شعره مفتناً رقيقاً .

١ — مسلم بن الوليد (٧٤٧ - ٨٢٣ م / ١٣٠ - ٨٢٠ هـ)

١ مبيّنة : وُلد مُسلم بن الوليد الأنصاريّ في الكوفة ونشأ فيها وتوفّي في جرجان، وقد اتّصل بقوَّاد الدولة وعمَّالها فدحهم ونال جوائزهم كما مدح الخلفاء وحصل بشعره بعض المناصب؛ إلا أنه، على ما يظهر، كان جنوحاً الى العزلة، فبقي

خامل الذكر في حياته؛ وقد أولع باللهو ووصف الشراب، إلا أنه لم يبلغ في لهوه من الإسراف والأسفاف ما بلغه المَجَّان من أمثال النواصي .

٢ شعره : أما شعره فقد فقد منه الشيء الكثير ولم يبقَ إلا ما دون أَلْفِي بيتٍ ؛ ويبدو الشاعر فيها مقلِّدًا في الإجمال، قليل الابتكار، كثير الافتقار إلى المعاني، ومع ذلك، صائغاً ماهراً للكلام، وصانع أَلْفاظ بالغا في اللباقة ؛ فهو يفهم الشعر على أنه صياغة جميلة، وصقل متقن براق، فيبطئ في النظم، ويتوفّر على زخرفته، حتى يخرج جامعاً إلى صفاء الشعر الجاهلي ومتانته، وصحّته، وغرابة أَلْفاظه أحياناً، لألأة في الصقل جميلة، وصوراً صغيرة رائعة، وألفاظاً فنية محكمة الرصف ؛ وقد يفتقر هذا القالب الجميل في الغالب إلى معانٍ تملأه، فيعتمد الشاعر لشدّ هذا الفراغ إلى ألوان أنيقة زاهية، واستعارات ومحسنات بديعة جمّة، تقوم مقام المعاني في الكثير من شعره وتقوم عماده ؛ فشعره في سواده قالب محكم الجمال الخارجي .

أحدث مسلم بن الوليد التصنيع البديعي إحداثاً يكاد يكون كاملاً، وإن سبقه إلى بعض ذلك بشّار، واقترح له اسم «البديع» ، واتخذ مذهباً يطبّقه على نأذجه بيتاً بيتاً، وعني بضروب التصنيع والزُخرف المختلفة من جناس، وطباق، واستعارة، ومشاكله ؛ وعمّم تلك المحسنات الدقيقة في قصائده .

وهكذا كان مسلم بن الوليد زعيم التصنيع الذي عمّت موجته من بعده، فأصبح من ذوق عصره، تُقاس به مهارة الشعراء، وتعرف آية حذقهم وبراعتهم ؛ وقد حذا حذو مسلم بن الوليد شعراء كثيرون أشهرهم أبو تمام، ودعبل، والبحثري وابن المعتز، وقد أخذوا جميعهم بالصياغة اللفظية البديعية، إلا أنهم تكيّفوا فيها، كلٌ واحد طبق ما اتفق له من ثقافة وشخصية خاصة .

ب - العباس بن الأحنف (٨٠٨ م / ١٩٢ هـ)

أبو الفضل العباس بن الأحنف من أصل عربي، من بني حنيفة، سكن بغداد

الى ان توفي . قصر شعره على التغمي بحته، فلم يمدح ولم يهج بل كان شعره كله غزلاً وتشبيهاً من غير تصريح بعهر وفحش . من قوله :

لَا جَزَى اللَّهِ دَمْعَ عَيْنِي خَيْرًا وَجَزَى اللَّهِ كُلَّ خَيْرٍ لِسَانِي
نَمَّ دَمْعِي فَلَيْسَ يَكْتُمُ شَيْئًا وَرَأَيْتُ اللِّسَانَ ذَا كِشَانٍ
كُنْتُ مِثْلَ الْكِتَابِ أَخْفَاهُ طِيٌّ فَاسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِالْعُنْوَانِ

ج - الحسين بن الضحَّاك (٧٧٩ - ٨٦٤ م / ١٦٢ - ٨٢٥٠ هـ)

الحسين بن الضحَّاك بن ياسر مولى بَاهِلَة، وُلِدَ ونشأ بالبصرة، وتوفي ببغداد .
اتصل بالأمين وناداه ومدحه . ولما ظفر المأمون خافه الشاعر فانصرف الى البصرة
حتى صارت الخلافة للمعتصم فعاد ومدحه ومدح الواثق .

وكان الحسين بن الضحَّاك شاعراً خليعاً نظم الشعر في الخمر والغزل المذكر .
وكان في شعره هُفْتَةً رقيقاً .

بعض المراجع

حسن علوان : صريع القواني مُسلم بن الوليد - القاهرة ١٩٤٩

محمد جليل سلطان : صريع القواني - دمشق ١٩٣٢

أدب الثورة التجديدية - النشر

الفصل الخامس

عبد الله بن المقفع (٧٢٤ - ٧٥٩ م / ١٠٦ - ١٤٢ هـ)

١ حياته : ولد ابن المقفع في قرية جُور بفارس ونشأ بقرب أبيه يعمل على تحصيل الثقافة الفارسية، ثم رحل الى البصرة، وعاش في آل الأهم، وخالط الاعراب؛ ولما طار صيته في الكتابة كتب لعمر بن هبيرة ولابنه يزيد، ثم لداود بن هبيرة، ثم لعيسى بن علي عم السفاح حتى قُتل .

٢ مذهبه وأخلاقه : كان ابن المقفع علوي السياسة، فارسي النزعة، متظاهراً بالصدقة لبني العباس . وكان زرادشتياً، فأسلم، واتهم بالزندقة . اما خلقه فنبل وكرم، واما عقله فشديد الاتساع، واما لسانه فقوي .

٣ آثاره : لابن المقفع آثار جليلة في التاريخ، والفلسفة، والادب، والاجتماع، والاخوانيات . واكثر آثاره مترجم . واشهرها : رسالة الصحابة، الادب الصغير والادب الكبير، كليمه ودمنة .

ا - رسالة الصحابة : تتضمن كلاماً على بطانة الخلفاء والولاة، هو تقرير في نقد نظام الحكم ووجوه اصلاحه . والرسالة مبنية في مضمونها الإصلاحية على تاريخ الفرس ونظمهم السياسية والإدارية، وهي ذات قيمة إصلاحية كبرى؛ والآراء فيها متراسة متلاحمة، واضحة البرهان، قوية الحجّة .

ب - الادب الصغير والادب الكبير : هما كتيبان في الاخلاق وحسن التصرف، يتضمنان اقوالاً في سياسة الاجتماع وتهذيب النفس وترويضها على الاعمال الصالحة ومعرفة الخلق، وحسن معاملة الناس بعضهم لبعض . - وفي الكتاين اثر فارسي ويوناني وهندي، واعتماد على العقل في كل شيء، وسمو عظيم في الاخلاق والتفكير، ما عدا ما هنالك من سوء الظن بالمرأة وتعظيم لشأن المال .

ج - كتاب كليمه ودمنة : هو كتاب وضع على السنة البهائم والطير وحوى تعاليم اخلاقية . وهو من اصل هندي، نُقل الى الفهلوية ومنها الى العربية، ثم من العربية الى سائر اللغات . وقد نُظم الكتاب شعراً . وهو يحتوي تفصيلاً لواجبات الراعي والرعية، ولما يجب على كل انسان ان يحافظ عليه من جهة الصدقة، والصدق في القول والعمل، وأدب الضيافة وما الى ذلك .

والكتاب قيمة تاريخية اذ يُطلعنّا على احوال وعقليّات واضعيه ومترجميه ؛ وله قيمة فلسفيّة تجعله من كنوز الحكمة الآدميّة ؛ الا ان حكمته لا تخلو من تشاؤم ؛ ثم للكتاب قيمة ادبيّة تظهر في اسلوبه الذي ادخل على الادب العربي تفصيل القصص والحكمة على ألسنة الحيوانات .

المثّل : يظهر المثل في كلفة ودمنة بمظاهر مختلفة، فمنه الوجيز المجرّد من كل حياة، ومنه ما يشبه المسرحيّات .

- والرواية في الامثال الطويلة بطيئة تسير بجلال ، وهي في الامثال القصيرة اوفر حياة . ولكنّ الرواية وُضعت في كلفة ودمنة للحكمة، ولا عجب اذا اتسعت احياناً وتفرّعت .

والحيوانات في المثل قد جمعت بين طبيعة الحيوان وطبيعة الانسان ؛ وقلّما غني المؤلّف بوصف دقيق للحيوانات في خارجها وعلاماتها الفارقة . - والبشر يعملون في جوّ من التشاؤم يظهر مساوئهم ولكن لاجل إصلاحها .

- والامثال في كلفة ودمنة هي في مجملها مسرحيّات، منها ما يشبه المآسي الشكسبيريّة ، ومنها ما يشبه المآسي الأخلاقيّة، ومنها ما يجمع بين المسرح والملاحم . والعمل في الامثال القصيرة ابسط تركيباً واقلّ تعقّداً ؛ ولكنه على كل حال يجري على طريقة طبيعيّة تتوثّق فيها العقدة ثم تنحلّ شيئاً فشيئاً، والمحلّ الاول للحكمة وإيرادها لا للفنّ وتوفير اساليبه .

- أما المسرح فهو عادةً المكان الذي يليق بالحيوانات ؛ وفي الوصف اقتصاد شديد .

- واما الحكمة فهي جوهر المثل كلّها في كلفة ودمنة، وهي منشورة في كل مكان وكل ساحة ؛ كما انها، في مجملها، نتيجة الخبرة والعقل والتفكير .

٤ ابن المقفّع المصلح الاجتماعي : كان الدّاعي الى الاصلاح بطش بعض الملوك وامراض المجتمع العبّاسي . فرمى ابن المقفّع الى مداواة الظلم والاستبداد في الراعي بحسن اختيار الاعوان، وحسن الاستشارة، وإنشاء نظام قوامه العقل العادل ؛ ورمى الى مداواة جهل الرعيّة بالتسلّح بالعقل، والصدافّة، ومحاسبة النفس وذكر الآخرة ؛ وكانت نزعة ابن المقفّع في اصلاحه فارسيّة مثاليّة .

٥ ابن المقفّع الكاتب : كان ابن المقفّع مفكراً يخضع عنده الفنّ للفكر ؛ ومن ثمّ فهو لا يلهو بالصناعة اللفظيّة . واحتفاؤه بالمعنى يدفعه الى استخدام الاسلوب المنطقيّ، والى إطالة الجُمْل، متذرّعاً بالروابط ؛ وجهه احياناً مُتداخلة كما ان اسلوبه يميل الى الابهام الذي يقوم بجمل الالفاظ على مقدار المعاني . وألفاظه مختارة . وهو يتعمد عن مبالغات الفنّ .

واسلوبه لا يخلو من عنق وغموض وثقل .

٦ اثر ابن المقفّع ومؤلفاته : كان لابن المقفّع ومؤلفاته اثر كبير في الادب والفلسفة والاجتماع .



ابن المقفّع كما تخيّلهُ الفنّان ارتورو اورتيس

١ - حياته :

١ - الرجل : أبو محمد عبدالله رُوزِيَه بن داذُوِيَه المعروف بابن المقفّع فارسيّ
وُلد نحو سنة ٧٢٤ م / ١٠٦ هـ في قرية بفارس اسمها « جُور » وهي مدينة فيروزآباد

الحالية . وقضى بضع سنين في احضان ابيه بفارس منصرفاً الى تحصيل الثقافة الفارسية،
يدين بالزرداشتية . ثم رحل الى البصرة وكانت إذ ذاك من اوسع ميادين العلم
ترخر بالادب والادباء والشعراء والمتكلمين . فنشأ الشاب مولى لآل الأهمم
المشهورين بالفصاحة والبيان، وخالط الأعراب، فحصل من ملكة العربية القسط الوافر .
ولم تضر سنوات حتى كان الشاب ناضج العقل، غزير المعارف، حسن الادب، فنبه
شأنه في عالم الكتابة وطار له صيت، فاتجهت انظار الولاة والامراء اليه، وارادوه
في دواوينهم يتقلد عندهم بعض الوظائف التي كان يقوم بها امثاله من الموالي في
ذلك الوقت .

٢ - الكاتب : افتتح ابن المقفع حياته الكتابية في دولة بني أمية . وكان
في نحو العشرين من عمره . فكتب لعمر بن هبيرة في دواوينه على كرم ان .
وعندما كان عبد الحميد بن يحيى يكتب بالشام لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية
كان ابن المقفع يكتب ليزيد بن عمر بن هبيرة والي العراق من قبل مروان . ثم
كتب ل اخيه داود بن هبيرة .

وبعد الانقلاب العباسي اتصل بعيسى بن علي عم السفاح والمنصور، والي
الاهواز فأسلم على يده وكتب له، ولزم بعض بني أخيه يؤدبهم ويشغل بتعليمهم
وتهذيبهم .

٣ - وفاته : استمر ابن المقفع يعمل في خدمة عيسى حتى قتله سفيان بن معاوية
والي البصرة من قبل المنصور . وقد اختلف في قتله وسببه . والاعلم انه قتل
لتشدده في كتابة صيغة الامان التي وضعها ابن المقفع ليوقع عليها ابو جعفر المنصور
اماناً لعبد الله بن علي عم المنصور . فأفرط ابن المقفع في الاحتياط فيها، حتى لا
يجد المنصور منفذاً للإخلال بعهد، فقد ذهب فيها الى ان المنصور إن أخل بشرط
من شروط هذا الامان كانت نساؤه طوالق وكان الناس في حل من بيعته، مما اغاظ
المنصور فقال : «أما احدٌ يكفينيه؟!» وتصادف ان سفيان بن معاوية كان يضطغن

على ابن المقفع أشياء كثيرة، فاستغلَّ الفرصة وطلبه، ولما قدم عليه أمر بتشور فسُجِر، ثم اخذ يقطعه عضواً فعضواً ويرمي به في التنور .

٢ مذهبهم واهلهم : لم يقض ابن المقفع من حياته في العصر العباسي إلا عشر سنوات تقريباً، وقضى ما بقي منها في عهد بني أمية، وقد شهد اضطهاد العرب الموالي وقاسى من جرأ ذلك الاضطهاد ما قاساه اخوانه مما ولا شك افعم قلبه كرهاً للعرب . ثم انه أظهر - مع الموالي - ميله الى العباسيين وان لم يكن قلبه معهم . فما كان عباسياً الهوى ولا كان عربياً الميل . ولكنه كان علوي السياسة، فارسي النزعة قبل كل شيء، متظاهراً بصداقته لبني العباس .

ثم ان ابن المقفع كان على مذهب الجوس زرادشتياً، وكان قوي العقيدة في ديانته والظاهر انه لم يُسلم إلا مراعاةً للأحوال وتقرباً الى مواليه العباسيين . وقد اتهم ابن المقفع بالزندقة؛ والظاهر انه لم يخلُ من شيء من ذلك .

وكان الى ذلك من اقوى الشخصيات في عالم الادب العربي فكان قوياً في خلقه، قوياً في عقله وسعة علمه، قوياً في لسانه .

« أما خلقه فنبل وكرم، وتعهد لذوي الحاجات يواسيهم، وتقدير دقيق للصداقة، ومراقبة شديدة لنفسه يحملها على الاجدر والأنبل، ورغبة شديدة في إصلاح الراعي والرعية، الى ظرف الخاصة، والتمسك بأداب اللياقة، ومراعاة الدقة فيما يتطلبه الذوق . »

واما علمه فكان واسعاً لاتساع معارفه . فقد جمع الى الثقافة الفارسية الثقافة العربية، والثقافة اليونانية والهندية عن طريق الفارسية .

وكان يزرع نزعة قوية لقومه الفرس ويريد ان يحيي أُمته بنشر آدابها وسياساتها وتاريخها، ويرى عيوب النظم الاجتماعية في عصره فينادي بإصلاحها، بتطبيق الصالح من النظم الفارسية . وكان ماهراً لبقاً في محاولته للإصلاح ولاحياء تراث قومه،

فأخذ بالتقية واصطنع الحذر وأظهر من الميل للعباسيين والعرب ما يستر به
توعته ورغائبه .

٣ آثاره : لقد قُتل ابن المقفع في مقتبل العمر إلا أنه مع ذلك قد أبقى من الآثار
الكثيرة ما يشهد بعظم فضله وسعة علمه . ولئن كانت أكثر كتبه مترجمة
عن الفهلوية حتى قيل عنه « علمه أكثر من عقله »، فإن عقله في اختيار ما ترجم وفي
تفهّمه والتعبير عنه، وعقله الذي أملى عليه رسائله الباقية، يبدو لنا واسعاً متحلياً
بالمنطق والعمق والذوق السليم . وقد رمى ابن المقفع في آثاره إلى غايتين : إحياء
تاريخ الفرس وسياستهم وآدابهم، وإصلاح المجتمع العباسي وسياسته بتطبيق الصالح
من نظم الفرس . واليك لائحة أهم آثاره :

١ - في التاريخ وما إليه : نقل ابن المقفع عن الفارسية من كتب التاريخ وما
إليه كتاب « خدائنامه » في سير ملوك العجم الذي كان أحد مصادر الفردوسي في
الشاهنامه ؛ وكتاب « آيين نامه » في عادات الفرس وآدابهم ؛ وكتاب « التاج » في
سيرة انوشروان ؛ وكتاب « الدرة اليتيمة والجوهرة الثمينة » في أخبار السادة
الصالحين ؛ وكتاب « مزدك » .

٢ - في الفلسفة : يُنسب إلى ابن المقفع أنه نقل عن الفارسية أيضاً ثلاثة كتب
لأرسطو منقولة عن اليونانية وهي كتاب « قاطيغورياس » أو المقولات العشر، وكتاب
« باري أرمينياس » أي في العبارة، وكتاب « أنالوطيقا » أو تحليل القياس . كما أنه
يُنسب إليه نقل كتاب « إيساغوجي » أو المدخل لفرفوريوس السوري، وذلك عن
الفارسية أيضاً . إلا أن بعض العلماء يشكّون في صحة نسبة هذه الكتب الفلسفية .

٣ - في الأدب والاجتماع والاخوانيات : لابن المقفع في هذا الباب رسائل،
والادب الصغير والادب الكبير، وكليلة ودمنة .

١ - رسائله

أبقى ابن المقفع عدة رسائل من سياسية إدارية، وإخوانية في التعزية أو التهنية أو نحو ذلك مما يدور بين الاصدقاء وأشهرها «رسالة الصحابة».

١ - ما هي : هي رسالة كتبها ابن المقفع لأبي جعفر المنصور، والبالغ فيها من تأليفه . واثن ظهرت فيها أحياناً آثار الترجمة الحرفية من تعثر وارتباك في التركيب، فما ذلك إلا دليل على ان ابن المقفع استعان في تأليفها ببعض الكتابات والنظم الفارسية . وقد سميت «رسالة الصحابة» لتضمنها كلاماً على الصحابة وهم بطانة الخلفاء والولاة الذين يقربونهم وينادونهم ويجعلونهم موضع السر منهم، ويستشيرونهم في أمورهم؛ وسميت أيضاً «الهاشمية» نسبة لبني هاشم وهم أجداد بني العباس .

أورد هذه الرسالة ابن طيفور في كتابه «المنظوم والمنثور» ونشرت مع رسائل أخرى لابن المقفع في مجموعة «رسائل البلاء» لمحمد كرد علي سنة ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م ثم سنة ١٣٣١ هـ / ١٩١٣ م .

٢ - مضمونها : الرسالة تقرير في نقد نظام الحكم ووجوه اصلاحه وذلك بالاعتماد على ما للفرس من نظم وخطط . افتتحها المؤلف بتوطئة لموضوعه تهيئ له قلب الخليفة ونفسه، فدحه وبين استعداداه لقبول النصيحة، ثم اخذ يفصل تقريره مظهراً الداء والدواء .

فتناول أولاً «الجند» وجعل قسماً كبيراً من رسالته يدور حولهم، وذلك لما لهم من شأن في دولة ناشئة واسعة الاطراف . وجعل محور كلامه الجند الجراسانية لانهم كانوا مثله فرساً ولانهم كانوا عماد قوى الخليفة . وقد اهتم لشؤونهم المادية والادبية . فأشار الى وضع قانون يبين لهم ما يفعلونه وما يتجنبونه، ثم طلب ان يحول الخليفة بين الجند وبين ادارة الشؤون المالية وذلك «ان ولاية الخراج

مفسدة المعاقلة» وان ذلك مدعاة الى ظلم الرعية والى خروج الجند عن طاعة السلطان، ثم مراعاة الكفاية في القيادة فيؤلى القيادة خيار الجند؛ ثم تشييف الجند ثقافة علمية وخلقية؛ ثم تعيين وقت محدد للجند يقبضون فيه اوزاقهم، وذلك من دواعي الطمأنينة؛ ثم أشار اليه أخيراً ان يتقصى احوال الجند ويعرف اخبارهم وحالاتهم ففي ذلك حزم واستئصال للشر قبل استفحاله .

١٢ ثم انتقل الى اهل العراق فأوصى بهم أمير المؤمنين خيراً، وان يعتمد عليهم في امور الدولة ويدافع عنهم لانهم ظلّوا ايام بني أمية .

١٣ ثم انتقل الى موضوع هام هو «فوضى القضاء»، فبين ما يعثور القضاء من فوضى واضطراب، وما ينجم عن ذلك من ظلم . فأظهر كيف ان الحادثة الواحدة يحكم فيها بقضاءين متناقضين وكيف ان الفقهاء يحتجون لهذه الآراء المختلفة . فاقترح العلاج وذلك بوضع قانون رسمي تجري عليه المملكة الإسلامية في جميع أنحائها ويرجع في هذا القانون الى ما يرشد اليه العقل في معنى العدالة .

١٤ ثم انتقل الى الشام واهله فطلب الى الخليفة ان يحتاط في سياسته وان يشتدّ عليهم في عدل . وتكلّم بعد ذلك على «الصحابة» فندّد بهم وطلب الى الخليفة ان يحسن اختيار بطانته لأن بطانة الخليفة كما يقول «بهاؤه وزينته، وخاصته من عآمته، وألسنة رعيته . لا تصلح الرعية إلا بهم ولا تستقيم الامور إلا على أيديهم» . وتزعة ابن المقفع في اختيار الصحابة نزعة ارسطقراطية فارسية، فهو يراعي في اختيار الصحابة أمرين هما : ان يكونوا ذوي رأي أمناء عدولاً، ثم ان يكونوا ذوي حسب ونسب .

١٥ ثم انتقل الى الكلام في «الخواج» اي المال المفروض على الاراضي، فشكا الفوضى في هذا الموضوع، وعرض الإصلاح بتخير من يتولون هذا العمل وشدة الرقابة عليهم وتغييرهم عند ظهور الخيانة منهم .

١٦ وقبل ان يختم رسالته عرض لجزيرة العرب فطلب الى المنصور ان يعنى بها عناية

خاصة ثم ختم كلامه ببيان ما للخليفة من أثر عظيم اذا صلح ، ذلك ان العامة لا تصلح إلا بصلاح الخاصة والخاصة لا تصلح إلا بصلاح إمامها .

٣ - قيمتها : هذه الرسالة مبنية في مضمونها الاصلاحى على تاريخ الفرس ونظمهم السياسية والادارية لا على الدين ولا على تقاليد العرب ؛ وقد يكون لآراء ابن المقفع اتصال بالثقافة اليونانية وبالقوانين والشرائع التي نشرها يوستينيانس اي مجموعة القوانين الرومانية .

ثم ان لآراء ابن المقفع قيمة اصلاحية كبرى ؛ وقد قال احمد أمين معلقاً على ما اقترحه ابن المقفع في اصلاح القضاء ووضع قانون رسمي عام : « هو رأي له قيمته ووجاهته ، وهو يتفق في كثير من نواحيه والآراء الحديثة في التشريع ، ولو عمل به المسلمون لكان له أثر كبير في الحالة الاجتماعية وخاصة من الناحية القضائية » .

ثم ان ابن المقفع لا يكتفي بإرسال الآراء من غير برهان ، بل هو يدعم كل رأي بعلته ووجته ، حتى اتت آراؤه متراصة متلاحمة ، واضحة البرهان ، قوية الحجة ، مقنعة .

ب - الادب الصغير والادب الكبير

١ - ما هما : هما كتيبان حويا بين دفتيهما كلمات حكمة في الاخلاق وحسن التصرف . وهما مترجمان في مجملها يظهر فيهما أثر الترجمة بما يعتور جملهما من اضطراب تركيبي وتعقيد وما الى ذلك . وقد قال ابن المقفع نفسه في مقدمة الادب الصغير : « قَدْ وَضَعْتُ فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ الْمَحْفُوظِ حُرُوفاً فِيهَا عَوْنٌ عَلَى عِمَارَةِ الْقُلُوبِ وَصَقَالَهَا وَتَجْلِيَةِ أَبْصَارِهَا ، وَإِحْيَاءِ لِلتَّفَكِيرِ ، وَإِقَامَةِ لِلتَّذْيِيرِ ، وَدَلِيلٌ عَلَى مَحَامِدِ الْأُمُورِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ » . وقال في مقدمة الادب الكبير : « مُنْتَهَى عِلْمِ عَالِمِنَا فِي هَذَا الزَّمَانِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ عَلَيْهِمْ (يريد القدماء) ، وَغَايَةُ إِحْسَانِ مُحَسِّنِنَا أَنْ يَقْتَدِيَ بِسِيرَتِهِمْ . . . وَلَمْ نَجِدْهُمْ غَادِرُوا شَيْئاً يَجِدُ وَاصِفٌ بَلِيغٌ فِي صِفَتِهِ لَهُ غَايَةٌ لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهَا . . . وَمِنْ ذَلِكَ بَعْضُ مَا أَنَا

كَاتِبٌ فِي كِتَابِي هَذَا مِنْ أَبْوَابِ الْأَدَبِ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا النَّاسُ . « فالكتابان مترجمان أو فيهما ترجمة كثيرة . - وقد عني بنشر الادب الصغير للمرة الاولى الشيخ طاهر الجزائري في مجلة المقتبس، ثم نشره احمد زكي باشا سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م)، ثم نشره محمد أمين بمصر سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٣ م)، وترجم الى الالمانية سنة ١٩١٥ . أما الادب الكبير وهو المطبوع احياناً خطأ تحت عنوان « الدرّة اليتيمة » فقد طبع مرّات عدّة في مصر ولبنان، أما في لبنان فطبع ببيروت سنة ١٨٩٧، ثم طبع مرّة أخرى وقد ضبط نصّه وعلّق عليه جرجي شاهين عطية؛ وأما في مصر فطبع في القاهرة مُصدراً بمقدمة للامير شكيب ارسلان .

٢ - مضمونها : يدور الادب الصغير حول سياسة الاجتماع وتهذيب النفس وترويضها على الاعمال الصالحة ومعرفة الخالق . فهو يعرض للعاقل فيبين له الخلال التي يجب ان يتحلّى بها والنقائص التي يجب عليه تجنبها فيحسن له العلم والتبصر في الامور، والحزم والثبات والأخذ باوامر الدين لان « الدّين أفضلُ المواهب التي وَصَلَتْ مِنْ اللَّهِ إِلَى خَلْقِهِ وَأَعْظَمُهَا مَنَفَعَةً »، ويوصيه بالصديق والحذر من العدو، ويقدم له طريقة لاستئصال عيوبه، وهي محاسبة النفس ومخاصمتها فيقول : « على العاقل مَخَاصِمُهُ نَفْسِهِ وَمَخَاسِبُهَا وَالْقَضَاءُ عَلَيْهَا وَالْإِثَابَةُ وَالتَّنْكِيلُ بِهَا » . . . وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يُحْصِيَ عَلَى نَفْسِهِ مَسَاوِيَهَا فِي الدِّينِ وَفِي الْأَخْلَاقِ وَفِي الْآدَابِ، فَيَجْمَعَ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي صَدْرِهِ أَوْ فِي كِتَابٍ، ثُمَّ يُكْثِرَ عَرْضَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَيُكَلِّفَهَا إِصْلَاحَهُ، وَيُوظِّفَ ذَلِكَ عَلَيْهَا تَوْظِيفاً مِنْ إِصْلَاحِ الْخَلَّةِ وَالْخَلَّتَيْنِ وَالْخِلَالِ فِي الْيَوْمِ أَوْ الْجُمُعَةِ أَوْ الشَّهْرِ . فَكُلَّمَا أَصْلَحَ شَيْئاً مَحَاهُ، وَكُلَّمَا نَظَرَ إِلَى مَخْسَرٍ اسْتَبْشَرَ، وَكُلَّمَا نَظَرَ إِلَى ثَابِتٍ أَكْتَابَ . . . » ويريد من العاقل ان يستعين على اصلاح نفسه بذكر الموت « في كلّ يومٍ وَكُلِّ لَيْلَةٍ مِرَاراً، ذِكْراً يُبَاشِرُ بِهِ الْقُلُوبَ^٦، وَيَقْدَعُ الطِّمَاحَ^٧ . . . »

(١) الإثابة: المجازاة والمكافأة (٢) التَّنْكِيلُ: المعاقبة التي تكون عبرة (٣) وظَّفَ عليه عملاً: قدّره وعيَّنه (٤) الْخَلَّةُ: الخصلة (٥) اسْتَبْشَرَ: سُرَّ (٦) يُبَاشِرُ بِهِ القلوب: يدخله القلوب (٧) يَقْدَعُ الطِّمَاحَ: أي يكسر منه .

ومن تلك التعاليم ما هو موجه الى الملوك والسلاطين لحثهم على القيام بواجباتهم نحو رعيتهم، وعلى حسن اختيار وزرائهم وعملهم .

أما الأدب الكبير فمقسم الى بابين، يحوي الباب الاول كلاماً على السلطان وعلاقته بالرعية وعلاقة الرعية به، ويحوي الباب الثاني، اي باب الصديق، كلاماً على علاقة الرعية بعضها ببعض . وقد استوفى الكلام في البابين استيفاءً حسناً . فجمع ابن المقفع في الباب الاول مآثر الاولين وتجارب الآخرين . وتقسّم نصائحه للسلطان الى قسمين : قسم يحتوي ما يرجع الى حياة السلطان الشخصية ويهيئه لان يحسن العلاقة بالرعية، فيوصيه ان لا ينتقص من ساعات عمله « فَيَزِيدَهَا فِي سَاعَاتِ دَعْتِهِ وَفَرَاغِهِ وَشَهْوَتِهِ وَعَبَثِهِ وَنَوْمِهِ »، ويوصيه باجتناب حب المدح الى غير ذلك مما يحافظ على هيئته . أما القسم الآخر فيحتوي ما يرجع الى علاقات السلطان بالرعية، فيوصيه بتفقد الرعية وبعدم العجلة في الثواب والعقاب الى غير ذلك من الواجبات .

أما نصائحه للرعية بالنظر الى السلطان فقائمة على تجنب كثرة التمليق وعلى حسن المداراة والخضوع الا في ما يخالف الدين والعقل والعرض والمروءة الى اشباه ذلك .

وجمع ابن المقفع في الباب الثاني اقوال الحكماء في حسن العلاقة بين الناس والتأدب في معاملة الاصدقاء . وقد كان ابن المقفع يرى في الاصدقاء عماد الحياة ومرآة النفس، يفضى اليهم وحدهم بدخائل النفس ومكنونات السر . ولاجل ذلك أثقل في شروط الصديق ونصح بالدقة التامة في اختياره . ومما يوصي به العاقل . تجنب الهزل والادعاء وضبط اهواء النفس، وحب السخاء الى غير ذلك من النصائح الرائعة .

٣ - قيمتها: يختلف الادب الصغير عن الادب الكبير في طريقة التأليف فإن الآراء فيه غير مترابطة بل منشورة من غير ما واصل ولا ترتيب، فيما انها في الادب الكبير مرتبة غالباً بحسب الموضوع وهي فيه اطول على الإجمال .

في الكتابين اثر فارسي ويوناني وهندي : أما الفارسي فظاهر في الحكم
الكثيرة المنقولة عن الفرس والمأثورة عنهم ، وفي بعض نظم الساسانيين في الحكم ،
وفي بعض وصايا منقولة عن عهد أزدشير كالنظام المتعلق بولي العهد . والكتابان
يوضحان العقل الفارسي المتحضر او العقل الفارسي الذي استأثرت السياسة باعظم
حظ من تفكيره وعنايته . وفي رأي الكثيرين من الباحثين ان الأديبين الكبير
والصغير يمكن ان يكونا مصدرين من المصادر الهامة التي نعرف منها شيئاً عن
السياسة الداخلية للدولة الساسانية .

وأما الاثر اليوناني فظاهر في امور عدّة ، منها ما بينه الكاتب ، في تفضيل
لذة على لذة ، من واجب مراعاة الشدة والمدة ، وهذا يذكر بفلسفة ابيقور . ولكن
هذه الفلسفة ممزوجة بفلسفة ارسطو وافلاطون اذ يبين الكاتب للعقل واجب تفضيل
الذائد العقلية والروحية على الذائد البدنية .

وأما الاثر الهندي فظاهر في الحكم الكثيرة المنقولة - احياناً بحرفها - عن
كتاب كليلة ودمنة ؛ وظاهر في محاسبة النفس التي نجد لها ذكراً في كليلة
ودمنة ايضاً . . .

والامر الذي يلاحظ في الكتابين اعتماد الكاتب على العقل في كل شيء . فهو
قلماً يعتمد على تعاليم الدين . فالخلق في رأيه امر يتصل بالعقل قبل كل شيء ،
والعقل يميز بين الحسن والقبيح ، ويعرفها بطبيعته من غير ما حاجة الى شرع او وصية .

وفي الكتابين مع ذلك سمو في الاخلاق والتفكير عظيم . والله فيهما محل
رفيع ، وللدين احترام واضح وتقدير كبير .

وبما يستغرب في الكتابين سوء الظن بالمرأة الذي نلاحظه في مجمل الادب
العباسي ؛ ثم تعظيم شأن المال : « مَنْ لَا مَالَ لَهُ ، فَلَا شَيْءَ لَهُ ؛ وَالْفَقْرُ دَاعِيَةٌ إِلَى
صَاحِبِهِ مَثَلُ النَّاسِ . » ولكن تعظيم شأن المال يصحبه النهي عن الاغترار

بالكثير منه . وسنسمع صدى هذا التعظيم في دواوين بعض الشعراء ولا سيما المتنبي القائل :

فلا مجد في الدنيا لمن قلَّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلَّ مجده

ب - كتاب كليله ودمنة

١ - ما هو : هو كتاب وضع على السنة البهائم والطير حوى تعاليم اخلاقية موجهة اولاً الى الحكّام، وقد سمي باسم أخوين من بنات آوى : كليله ودمنة؛ وذلك من باب تسمية الكلّ باسم الجزء، لان خبر كليله ودمنة لا يتناول غير بآبين من ابوابه وهما باب الاسد والثور وباب الفحص عن امر دمنة .

٢ - اصله : لقد اختلف المؤرخون في اصل كتاب كليله ودمنة، فذهب بعضهم الى أن ابن المقفع وضعه ثم ادعى انه ترجمه ليمعد عنه تبعة ما فيه من تعليم للملوك وذوي الامر؛ واستندوا في رأيهم الى اقوال بعض القدماء كابن خلكان الذي قال في كتابه وفیات الأعيان : « يُقال ان ابن المقفع هو الذي وضع كتاب كليله ودمنة . وقيل انه لم يضعه، وإنما كان بالفارسية فنقله الى العربية، وان كان الكلام الذي في اول هذا الكتاب من كلامه »؛ وكالجاحظ الذي يقول : « ونحن لا نستطيع ان نعلم ان الرسائل التي في أيدي الناس للفرس انها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة ، اذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هرون وأبي عبيد الله وعبد الحميد . . . لا يستطيعون ان يولدوا مثل تلك الرسائل ويصفوا مثل تلك السيرة . » فيظهر لهم ان الجاحظ كان في ريب من هذا القيل، وان ابن المقفع هو واضع كليله ودمنة وأنه ان ادعى الترجمة فما ذلك إلا لينجو من تبعة ما ورد في كتابه . ويدعمون رأيهم ببراهين أخرى اصبحت كلها واهية في يومنا الحاضر بعد الدراسات العلمية التي أنشئت حول هذا الكتاب، وبعد الاكتشافات التي أدت الى البت من غير ما شك في ان ابن المقفع مترجم ايضاً في كليله ودمنة .

اصل الكتاب هندي مكتوب باللغة الهندية القديمة اي السنسكريتية، والكتاب نفسه ناطق بأصله، ففيه ذكر لاسماء هندية وعادات بوذية كالامتناع عن اكل اللحم وغير ذلك، وفيه قصص تلائم العقل الهندي والخلق الهندي والاساليب الهندية في الكلام والرواية؛ زد على ذلك ان



رسم هندي على احد المخطوطات القديمة

العلماء وقفوا على الكثير من قصص كليلة ودمنة، في أصله السنسكريتي، متفرقاً في عدة كتب هندية قديمة، منها كتاب « بنج تنترا » (اي خمس مقالات - وتنترا معناها « صندوق المعاني الطيبة ») الذي كان مؤلفاً من مقدمة وخمسة أبواب، وفيه الابواب الخمسة الاولى من كليلة ودمنة (باب الاسد والثور - باب الحمامة المطوقة - باب البوم والغربان - باب القرد والغليم - باب الناسك وابن عرس - وقد جاء في باب الاسد والثور باب السائح والصواغ الذي نجده مفرداً في كليلة ودمنة) .

ومنها كتاب « مهابهارتا » الذي يحوي ثلاثة أبواب من كليلة ودمنة (باب الجرد والسنور - باب الملك والطائر فتزة - باب الأسد وابن آوى) .

ثم برهن العلماء والمحققون ان باب إيلاذ وإيراخت وشادرم ملك الهند، وباب البهوة والاسوار، وباب ابن الملك واصحابه، من اصل هندي ايضاً لما فيها من الدلالة الواضحة على ذلك .

وقد عرف من قبل العلامة المحقق ابو الريحاني البيروني ذلك الاصل الهندي

فقال في كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة» : «ولهم (اي الهند) فنون من العلم آخر كثيرة، وكتب لا تكاد تُحصى؛ والكني لم أحط بها علماً . وبودّي ان كنت اتكن من ترجمة كتاب پنج تنترا، وهو المعروف عندنا بكتاب كليله ودمنة؛ فإنه تردد بين الفارسية والهندية ثم العربية والفارسية على ألسنة قوم لا يؤمن تغييرهم إياه، كعبدالله بن المقفع في زيادته باب برزويه فيه قاصداً تشكيك ضغنى العقائد في الدين وكسرهم للدعوة الى مذهب المنازية . واذا كان مُتَّهماً في ما زاد لم يخلُ عن مثله في ما نقل .»



الاسد يفتك بالثور

عن مخطوط قديم لكليلا ودمنة يرتقي الى القرن الرابع عشر (المكتبة الوطنية بباريس)

زد على ذلك أننا نجد في الشاهنامه للفردوسي (الجزء ٢ ص ١٥٤ - ١٥٦) وفي كتاب اخبار ملوك الفرس، خبر نقل كتاب كليله ودمنة الى خزانة كسرى انوشروان، وسفر برزويه الى الهند لاجل ذلك . ونجد الامر نفسه في كتاب الشعالي «غرر اخبار ملوك الفرس» .

٣ - نقله الى الفهلوية : يُخبرنا « باب بعثة برزويه » بنقل كليلية ودمنة من الهندية الى الفهلوية - وهي اللغة الفارسية القديمة - في عهد كسرى انوشروان (القرن السادس) . ويُستخلص من قراءة كتاب « الاخبار الطوال » للدينوري ان الفرس في عهد كسرى وبهرام كانوا يعرفون كتاباً باسم « كليلية ودمنة » . والاغلب أن قصص الكتاب لم تكن في اصلها الهندي مجموعة في كتاب واحد كما لم يكن لها مؤلف واحد، فقد تكون نسبت الى « بيدبا » الفيلسوف، وجعل الحوار بينه وبين الملك دبشليم بمثابة السلك الذي ينظم هذه القصص ويصل بينها . وقد زاد الفرس على ما نقلوا عدة ابواب منها « باب بعثة برزويه » « وباب ملك الجرذان » ؛ كما انهم لخصوا وحوروا في القصص وجعلوها مطابقة لمزاجهم .

٤ - نقله من الفهلوية الى العربية : لما زال عهد الدولة الاموية وزال معه ما كان يلحقه العرب بالفرس من شدة واحتقار، وعاد الموالي الى حياة مستقرة ونظام جديد، قاموا ينافسون العرب في نقل الكتب الفهلوية القديمة ونشر الثقافة الفارسية القديمة، يساعدهم انتصار الدولة العباسية على يدهم . فاشتد التنافس بين الفريقين، فلجأ العرب الى الدين والفتح والشعر يفاخرون بها الفرس، ولجأ هؤلاء الى علومهم يُصلون بها العرب وينقلون الى العربية تراث آبائهم . وكان ابن المقفع في طليعة اوائل الفرس . فنقل عن الفهلوية الى العربية كتاب كليلية ودمنة . . .

وكان يرمي من نقله الى اغراض شتى اصلاحية اجتماعية قومية، منها انه اراد ان يُطلع العرب على آثار قومه الفرس، ومنها انه اراد إصلاح الخلفاء بطريقة لا تعرضه لبطش ابي جعفر المنصور .

ويذهب البعض الى ان الكتاب ترجم الى العربية غير مرة معتمدين في رأيهم على ما قال صاحب الفهرست عندما عدّد اسماء كتب الهند في الخرافات والاسمار والاحاديث وعرض لكليلية ودمنة قائلاً : « كتاب كليلية ودمنة - وهو سبعة

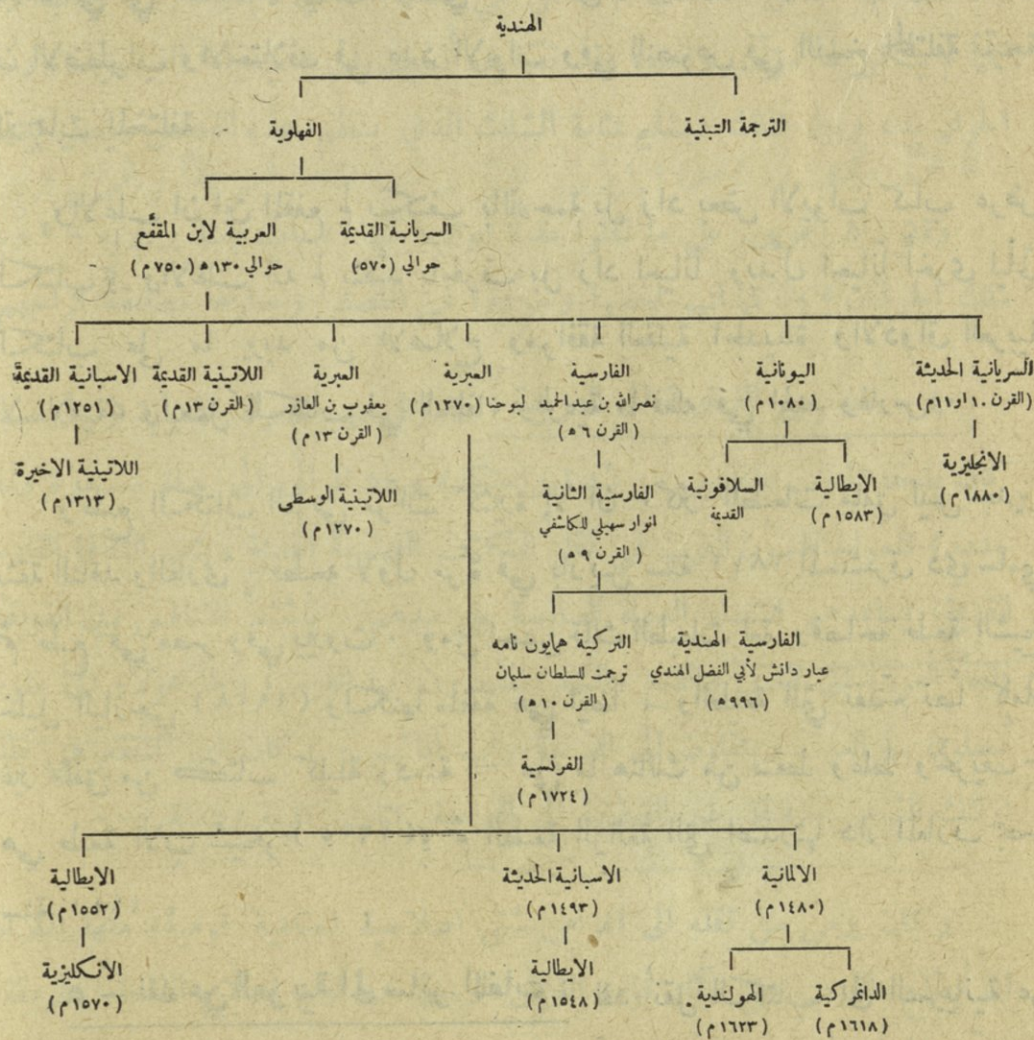
عشر باباً وقيل ثمانية عشر باباً - فسرّه (اي ترجمه) عبدالله بن المقفع وغيره . «
- وعلى ما جاء في « كشف الظنون » لحاجي خليفة القائل : « ثم ترجمه في الاسلام
عبدالله بن المقفع كاتب ابي جعفر المنصور العباسي من اللغة الفارسية الى اللغة
العربية . ثم نقله من الفارسية الى العربية عبدالله بن هلال الاهوازي ليحيى بن خالد
البرمكي في خلافة المهدي وذلك في سنة خمس وستين ومئة (٧٨١ م) . » والظاهر
ان الاضطراب والاختلاف في عدد الابواب وفي النصوص في النسخ المختلفة نتيجة
للتجمات المختلفة .

والاغلب ان ابن المقفع لم يكتب بالترجمة بل زاد بعض الابواب كباب عرض
الكتاب ؛ والاغلب انه لم يتقيّد بالحرف بل زاد احياناً وبدّل احياناً أخرى ليأتي
الكتاب على ما يريد من الاصلاح وموافقة العقلية الجديدة والاذواق العربية
الاسلامية، وليعمل الكتاب في الخلفاء والرعية ما فعله في الهند وفارس .

وُطبع الكتاب العربي مرّات كثيرة إلا ان اكثر الطبعات ملفّق ليس جديراً
بثقة الناقد والقارى . فطبعه لاول مرّة في باريس سنة ١٨١٦ المستشرق دي ساسي
ثم طبع في مصر وفي بيروت . ومن احسن تلك الطبعات لغةً وفصاحةً طبعة الشيخ
خليل اليازجي (١٩٠٨) ولكنها ملفقة هي ايضاً . والطبعة التي تقدّم نصّاً كاملاً
غير ملفّق من كتاب كليله ودمنة - على ما هنالك من سقط وغلط وتحريف -
هي طبعة الاب شيخو (١٩٠٥) ، ثم الطبعة الرائعة التي اصدرتها دار المعارف بمصر
سنة ١٩٤١ .

٥ - نقله عن العربية الى سائر اللغات : لقد نُقل الكتاب الى السريانية عن
الفهلوية حوالي سنة ٥٧٠ م ، ثم نقله ابن المقفع الى العربية نحو سنة ٧٥٠ م .
ومما يجدر بالذكر ان الترجمة العربية هي أمّ لسائر ترجمات الكتاب الى اللغات
العالمية حتى الفارسية منها، لان الاصل الفارسي القديم قد ضاع، ولان الترجمة السريانية
القديمة بقيت مدّة طويلة ضائعة . واليك جدولاً بترجمات كليله ودمنة منقولاً عن
مقدمة طبعة دار المعارف بمصر للدكتور عبد الوهاب عزّام :

ماخوذ عن فلكنز مع تغيير قليل



- عن كتاب كلية ودمنة طبعة دار المعارف بمصر -

٦ - نظمُه شعراً : وقد نُظم كتاب كليله ودمنة شعراً، نظمه بعض الشعراء اولهم أبان اللاحقي (٧٥٠ - ٨١٥ م) جعله في اربعة عشر الف بيت، وقدمه الى يحيى بن خالد البرمكي . وقد ضاعت هذه الترجمة وبقي منها في كتاب « الاوراق » للصولي نحو ثمانين بيتاً منها في باب الاسد والثور :

وإنَّ مَنْ كَانَ دَنِيَّ النَّفْسِ يَرْضَى مِنَ الْأَرْفَعِ بِالْأَخْسَرِ
كَمَثَلِ الْكَلْبِ الشَّقِيِّ الْبَائِسِ يَفْرَحُ بِالْعَظْمِ الْعَتِيقِ الْيَابِسِ
وإنَّ أَهْلَ الْفَضْلِ لَا يُرْضِيهِمْ شَيْءٌ إِذَا مَا كَانَ لَا يُعْنِيهِمْ



ونظمه سهل بن نونجت وقدمه ايضاً ليحيى بن خالد البرمكي ، ثم نظمه ابن الهبأرية نحو سنة ١١٠٠ م . وجعل عنوانه « نتائج الفتنة » في نظم كليله ودمنة . وقد وصل اليينا نظمها كاملاً تقريباً . ونظمه شعراء آخرون ؛ إلا ان هذا النظم عموماً يُضيع شيئاً كثيراً من بهاء وطلاوة قصص الكتاب في النثر .

٧ - مضمونه : يتضمن كتاب كليله ودمنة تفصيلاً لواجبات الراعي والرعية ولما يجب على كل إنسان ان

يحافظ عليه من جهة الصداقة والصدق في القول والعمل وأدب الضيافة وما الى ذلك :
مثل الناسك واللس (باب الاسد والثور)
عن مخطوط لكليته ودمنة يرتقي الى القرن الرابع عشر
(مكتبة اكسفورد)

١. أدب الملوك والسلطين : شغل السلطان مكاناً كبيراً في الكتاب، وهو موجه قبل كل شخص آخر إلى السلطان، ويصور بكل تفصيل احواله في مختلف وجوه حياته، فيظهر لنا الملوك وبلاطهم بظواهر مختلفة لكي يجد كل سلطان او وال لنفسه مثلاً، ويجني لنفسه درساً؛ لا بل نجد في بعض الابواب - كباب الاسد وابن آوى - قانوناً كاملاً لتصرف الملوك .

وترجع تعاليم كلية ودمنة في شأن الملوك الى الامور التالية : العلم بالامور؛ والحلم والعقل؛ والتأني عند الغضب؛ وحفظ العهد والوفاء؛ ووضع المعروف والاحسان في موضعهما؛ وحسن السيرة؛ وحسن السياسة الداخلية في انتخاب الاعوان والحرص على الامناء منهم، وعدم الإكراه في انتخاب العمال، والاحتفاظ ببعض الاعمال، والوقوف على صفات العمال والاعوان ومواهبهم وتوجيه كل الى ما يوافقهم، وتفقد العمال والاعمال والمكافأة، والاستشارة، وتحسين الاسرار، والعدل؛ وحسن السياسة الخارجية وتفضيل السلم على الحرب، وحسن اختيار السفراء، وما الى ذلك . ومن جميل ما قال في هذا الباب :

« إِنَّ الْمُلُوكَ وَغَيْرَهُمْ جُدْرٌ أَنْ يَأْتُوا الْخَيْرَ إِلَى أَهْلِهِ، وَأَنْ يُؤْمَلُوا مَنْ كَانَ عِنْدَهُ شُكْرٌ، وَلَا يَنْظُرُوا إِلَى أَقَارِبِهِمْ وَأَهْلِ خَاصَّتِهِمْ، وَلَا إِلَى أَشْرَافِ النَّاسِ وَأَغْنِيائِهِمْ وَذَوِي الْقُوَّةِ مِنْهُمْ، وَلَا يَمْتَنِعُوا أَنْ يَضَعُوا الْمَعْرُوفَ إِلَى أَهْلِ الضُّعْفِ وَالْجَهْدِ وَالْفَاقَةِ؛ فَإِنَّ الرَّأْيَ فِي ذَلِكَ أَنْ يُجَرَّبُوا وَيَخْتَبَرُوا صِغَارُ النَّاسِ وَعُظَمَاءُهُمْ فِي شُكْرِهِمْ وَحِفْظِهِمْ الْوَدَّ، وَفِي غَدَرِهِمْ وَقِلَّةِ شُكْرِهِمْ، ثُمَّ يَكُونُ عَمَلُهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى قَدَرِ الَّذِي يَبْدُو لَهُمْ » . (باب السائح والصواع) .

« شَرُّ الْمُلُوكِ الَّذِي يَخَافُهُ الْبَرِيُّ » . (باب الملك والطائر) .

« عَلَى الْمَلِكِ تَعَهُدُ عَمَالِهِ وَالتَّفَقُّدُ لِمَا مَوْرِهِمْ حَتَّى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ إِحْسَانُ مُحْسِنٍ وَلَا إِسَاءَةُ مُسِيءٍ » . (باب الاسد وابن آوى) .

٢ أدب الصداقة : تحتل الصداقة ايضاً محلاً كبيراً في الكتاب، وهناك باب بكامله يمثل الصداقة أحسن تمثيل ويوضحها أجمل إيضاح، وهو باب الحمامة المطوقة . ومرجع التعاليم في الصداقة الى ما يلي : ضرورة الصداقة ومنافعها في الحياة فليس في الدنيا سرور يعدل صحبة الإخوان، وشروط عقد الصداقة وطرق تقويتها ومن ذلك قوله : « رأس المودة الاسترسال » اي حسن الثقة بالصديق والاستئناس به . وهو يذكر ثلاثة اشياء تزداد بها الصلة بين الاصدقاء : المؤاكلة، والزيارة في البيت، ومعرفة الاهل والحشم .



الغراب ينقل الجرذ الى قرب السلحفاة (باب الحمامة المطوقة)
(عن مخطوط المكتبة الوطنية بباريس)

والكتاب يبين أنواع الصداقة وإذا هي نوعان : إما بتبادل ذات النفس (اي السريرة المضرة)، وإما بتبادل ذات اليد (اي المساعدة)، والاولى هي المصافاة وهي أفضل من الثانية . ثم يميز بين الصداقة الخالصة والصداقة الكاذبة، ويجعل الغدر بين الاصدقاء كفراً، بل يطلب ان يُفضّل الصديق على الذات كما فعلت المطوقة . ومن علامات الصديق في نظره ان يكون لصديق صديقه صديقاً، ولعدو صديقه عدواً .

٣ أدب النفس : يرجع تعليم كليّة ودمنة في هذا الباب الى ضرورة العقل وأهميته في الحياة، فهو أهم من القوة، لان الامور ليست بالقوة ولكن بالرأي، والحيلة تغلب القوة؛ ثم الى ان العاقل ضابط لنفسه، ضابط لأموره، وضابط لآحواله زمانه، وضابط لغيره؛ وانه يحذر من الناس؛ وانه يستشير غيره، وهو يقول في ذلك :

« المُستشيرُ وإن كانَ أفضلَ مِن المُستشارِ رأياً، فإنَّه يزدادُ بالمشورةِ رأياً وعقلاً، كما تزدادُ النَّارُ بالودكِ ضوءاً » .

والكتاب يحضُّ على الإقدام والمروءة وحسن المعاشرة، والصدق والوفاء والامانة والاخلاص، والتقوى والزهادة في الدنيا والرغبة في الآخرة، والضيافة؛ وينقِر من اضداد هذه الصفات ويحذر من الحقد ويقول : « اللسان لا يندملُ جرحه .
ونارُ الحقدِ لا تخبو » .

٨ - قيمته : إن ما بلغه كتاب كليّة ودمنة من ترامي الذكر وُبعد الشهرة وكثرة تداول الايدي له واشتغال الناس به على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم، كل ذلك دليل على ما للكتاب من قيمة تاريخية وفلسفية وأدبية .

١ القيمة التاريخية : أما القيمة التاريخية فتتجلى في ما تضمنه الكتاب من الاخبار عن احوال وعقليات واضعيه ومترجميه من الهندية الى الفارسية فالى العربية . فهو يطلعنا على احوال الهنود ونظرهم الى الدنيا والآخرة، فيكشف لنا عن الكثير من عاداتهم وتزعاتهم، وأحوالهم الاجتماعية كالعداوة بين البراهمة والبوذية (باب إيلاذ وإيواخت وشادرم ملك الهند)، ولبس البراهمة للمسوح والتكفير والسيجود وما الى ذلك (باب مقدمة بهنود بن سحوان)؛ وكتحريم اللحم والاقتيات بالفاكهة (باب اللبوة والاسوار)، والنظرة السيئة الى المرأة (باب القرد والغيلم، وفي أبواب أخرى كثيرة)؛ وهو يطلعنا على عقلية الفرس ونظرتهم الزهدية ومثلهم

العليا ؛ كما يطلعنا على فتوح الاسكندر وما خلفت من أساطير في الشرق ؛ وعلى بلاطات الملوك في العصور القديمة وما كان يجري فيها من سعايات ومكايد وما الى ذلك (باب الاسد والثور) ؛ وعلى سياسة الدول الخارجية والحرب بين الملوك والامم (باب البوم والغربان) . ثم يطلعنا على بعض احوال الدولة العربية في عهد ابن المقفع وما كانت بحاجة اليه من إصلاح .

✓ القيمة الفلسفية : وأما القيمة الفلسفية فظاهرة في تعاليم الكتاب الاخلاقية وقد قال الشيخ ابراهيم اليازجي : « لم يُحَظَّ فيه حرف إلا قصد به شيء من الحكمة العائدة الى توفير مادة العقل وتهذيب السيرة والسريرة والدربة في الاحوال المعاشية والمعادية . . . حتى انه معدود من كنوز الحكمة المشرقية ، بل الحكمة الآدمية ، التي لم يجتمع منها في كتاب ما اجتمع فيه على صغر حجمه وقلة جرمه . » وحكمته في مجملها غير مادية ، بل هي روحية مبنية على الرحمة وحب الخير وبث الفضيلة ومساعدة الناس ، وتزيين النفس بأبهى الفضائل .

وتتجلى في الكتاب آثار الفلسفة اليونانية والحكمة الهندية والفارسية مترجمة أحسن امتزاج ؛ فالعقل اليوناني ناطق بتقسيمه ومنطقه ؛ والعقل الهندي والفارسي ناطق بمثله العليا وتزعمته الى الزهد والتصوف وما الى ذلك .

وتحوم فوق فلسفة كليلة ودمنة فكرة القَدَر ، فهو أصل كل شيء . : « لَيْسَ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ مَحْتَمٌ عَلَى مَنْ يُصِيبُهُ بِأَيَّامِهِ وَعِلَلِهِ وَمُدَّتِهِ ، وَكَنْهٍ مَا يُبْتَلَى بِهِ مِنْ قَلَّتِهِ وَكَثْرَتِهِ » . (باب الحمامة المطوقة) . - وهو أمرٌ مُغِيبٌ لَا يُرَى فَيَتَوَقَّى : « وَهَلْ يُغْنِي الْكَئِيسُ مَعَ الْقَدَرِ الْمُغِيبِ الَّذِي لَا يُرَى فَيَتَوَقَّى . » - وهو لا يُدْفَع ؛ ومن ثم فالمرء غير مسؤول عما يفعله . إلا انه على العاقل - وان كان القدر محتوماً - أن يلجأ الى التوقي ، وان يجمع التصديق بالقدر والأخذ بالقوة والحزم . (باب الملك والطائر فنزة) .

ويشوب فلسفة كليلة ودمنة تشاؤم يسود صحيفة الملوك ويسبي الظن بالناس

عموماً وبالمراة خصوصاً: « إِنَّ الذَّهَبَ يُعْرَفُ بِالنَّارِ، وَأَمَانَةُ الرَّجُلِ بِالْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ، وَقُوَّةُ الدَّوَابِّ تُعْرَفُ بِالْحَمْلِ الثَّقِيلِ، وَالنِّسَاءُ لَيْسَ لَهُنَّ شَيْءٌ يُعْرَفْنَ بِهِ ». (باب القرد والغليم) « النِّسَاءُ لَا يُوثَقُ بِهِنَّ وَلَا يُسْتَرْسَلُ إِلَيْهِنَّ ». (باب القرد والغليم) .

ويجعل الفقر اصل كل بلاء: « الْفَقْرُ رَأْسُ كُلِّ بَلَاءٍ، وَدَاعِيَةُ الْمَقْتِ إِلَى صَاحِبِهِ، وَهُوَ مَسَلَّةُ الْعَقْلِ وَالْمَرْوَةِ، وَمَذْهَبَةُ لِلْعِلْمِ وَالْأَدَبِ وَمَعْدِنُ لِلتَّهْمَةِ، وَمَجْمَعَةُ لِلْبَلَاءِ ». (باب الحامة المطوقة) .

ولا يخالو الكتاب من بعض تناقض في الآراء . إلا أنه في مجمله يعزز العقل ويجعله في الحل الاول .

٣ القيمة الادبية :

اسلوب كليلة ودمنة : قال ابن المقفع في الادب الصغير : « إِذَا جُعِلَ الْكَلَامُ مَثَلًا كَانَ ذَلِكَ أَوْضَحَ لِلْمَنْطِقِ وَأَبْيَنَ فِي الْمَعْنَى وَأَنَقَ لِلسَّمْعِ وَأَوْسَعَ لِشُعُوبِ الْحَدِيثِ ». وعلى هذا الأسلوب أتى كتاب كليلة ودمنة، فأدخل على الادب العربي تفصيل القصص على السنة الحيوانات تفصيلاً طويلاً ووضع الحكم والعظة على ألسنتها، فاستبطن فنون العلم والحكمة تحت ثوب الفكاهة واللهو بحيث أخذ من كل فؤاد موضعاً وكان فيه لكل ناظر أرب ولكل مُطالع لذة « فَأَخْتَارَهُ الْحُكَمَاءُ لِجَهَنَّمِهِ وَالْأَغْرَارُ لِلْهَوَاهِ ». وقد كثرت فيه الحكايات المتواصلة والامثال المتداخلة بحيث يجد فيه المتفكّر فنوناً من الحديث ذاهبة كل مذهب على ارتباط بعضها ببعض وإيراد كل عن سبب . وهذا التداخل في الحكايات فن من فنون بلاغة الكتاب التي تجبر القارئ ان لا يقف عند مثل واحد بل يواصل مطالعة سائر الامثال للوقوف على نتيجة جميعها وهكذا يُغذّي عقله ونفسه وقلبه بالحكمة المنشورة خلال تلك الامثال، على أيسر طريق وألذ مذهب .

والذي يزيد في روعة اسلوب كليلة ودمنة امتزاج الاسلوب المنطقي بالاسلوب القصصي الذي يليته، والحوار الذي يبعث فيه حياة . إلا ان هذا التداخل شائن

أحياناً، فقد يطغى المنطق على القصة وتتوافر البراهين المتتابعة حتى يثقل سير الكلام، وقد يقود البرهان برهاناً آخر يخرج عن موضوع الكلام أو استطراداً يُجري في الكلام تشويشاً، وذلك لاهتمام المؤلف بتأدية الحكمة الكثيرة . ثم إن تركيب الابواب جملة لا يخلو من وتابة لتماثل الابتداءات والابتدال في التخلُّص من باب الى باب وفي عرض القضية التي يُبرهن عنها في كل باب . ولكن هذه الرتابة يصحبها الوضوح في تأدية الغرض وعرض القضية وفي الاشارة الى الحكمة التي يجب اجتناء ثمرتها .

ولما كان المثل مذهباً يجري عليه الكلام في كليلة ودمنة، ومركباً للحكمة أردنا ان نفرده محلاً خاصاً في درسنا هذا ولاسيما وإن لامثال كليلة ودمنة أثراً كبيراً في الامثال العالمية المشهورة .

المثل في كليلة ودمنة :

المثل وتاريخه : المثل في اصل وضعه رواية موجزة يعمل فيها الحيوانات في سبيل غاية حكيمية تعليمية . وقد طرأ على هذا الاصل الوضعي تطور كثير على مر العصور، واصطبغ المثل بألوان مختلفة حتى عدّه البعض «ملحمة الحيوان» وحتى عدّه لافونتين، الشاعر الفرنسي، «مسرحية رحبة ذات فصول متعددة متنوعة»؛ وقد يكون المثل على ألسنة الناس فيدور بين اشخاص تظهر الحكمة على السنتهم او تستخلص من تصرفهم .

والمثل من اقدم الابواب الادبية عهداً ومن اكثرها شيوعاً، وقد سبق الشرق الى استغلاله لما في الخلق الشرقي من الميل الفطري الى ضرب الحكمة ووجوه الاستعارة، وكانت الهند من اسبق البلاد الشرقية اليه، إن لم تكن اسبقها على الاطلاق، وقد حفلت بالاساطير والحكمة، وكانت آدابها ينبوع الثر الذي استقى منه جميع مؤلفي الامثال، وكانت كليلة ودمنة منهلاً من اعظم تلك المناهل وأقدمها عهداً . وقد عرف العرب المثل على ألسنة الحيوان ولكنه بقي عندهم قليل الانتشار ضيق النطاق .

أنواع المثل في كلیلة ودمنة : يظهر المثل في كلیلة ودمنة بمظاهر مختلفة والوان متباينة . فهناك أمثال تشبه امثال إيزوب الكاتب اليوناني وفيدر الشاعر اللاتيني، قد جردت من ثياب الرواية وأبرزت هيكلًا عظيمًا لا ترمي الا الى الحكمة باوجز كلام واقرب سبيل . فضعت فيها الحياة وخلت من العمل المسرحي واصبحت اشخاصها رموزًا لا غير تشير الى الحكمة من غير ان تثقل ما يدل عليها من الاعمال، ومن غير ان تشعر وتؤثر بشعورها وحياتها . ومثل هذه الامثال يكثر في باب برزويه الطبيب .

ثم هنالك امثال أخرى هي روايات مسرحية وقصص أخاذة؛ منها الطويلة التي تمتد بامتداد الباب كله كمثال الاسد والثور (باب الاسد والثور)، ومثل البوم والغربان (باب البوم والغربان)؛ ومنها القصيرة التي تتخلل الامثال الطويلة وتأتي برهانًا على حقيقة او دعمًا لحكمة او ايضاحًا لقضية، كمثال القرد والنجار ومثل السلحفاة والبطين (باب الاسد والثور)، وكمثال الاسد وابن آوى والحمار (باب القرد والغليم) .

وهذا المثل المسرحي هو الذي يدور عليه الكلام في درسنا هذا .

عناصر المثل : لما كانت الامثال مسرحيات اجتمع لها من العناصر ما يجتمع للامثال والمسرحيات، فكان فيها اولًا الرواية التي يقوم المؤلف نفسه بسردها وبسطها على القارئ؛ وكان فيها الاخلاق الناطقة على ألسنة الناس وبها تم حية تروق بذاتها كما تروق باقوالها؛ وكان فيها العمل المسرحي الذي تقوم به اشخاص الرواية وتتعاون به على توثيق العقدة ثم على حلها؛ وكان فيها المسرح الذي تضطرب عليه تلك الاشخاص، ثم أخيراً كان فيها الحكمة التي وضعت الامثال لاجلها وكان فيها العنصر الجوهرى الذي يسود في سائر عناصرها من غير ان يلحق ضرراً جسيماً برونقها الفني .

- الرواية : اما الرواية فهي في الامثال الطويلة بطيئة تسير بجلال، يعنى

فيها المؤلف بتفصيل المقدمات والاحوال المكانية والزمانية، وربط الافكار والاعمال بعضها ببعض وتبيان التأثيرات المختلفة الناتجة عن الاقوال والاحداث، والتعليقات لبعض ما يُقال وما يجري، مما يشغل السَّير ويعوقه ويضعف نبض الحياة، وإن اكسب الرواية رصانةً وجلالاً : « فدعا له شَرَبَةَ (الثور) وَأَثْنَى عَلَيْهِ . ثُمَّ إِنَّ الْأَسَدَ قَرَّبَ شَرَبَةَ وَأَذْنَاهُ وَكَرَّمَهُ وَأَنَسَ مِنْهُ رَأْيًا وَعَقْلًا فَأَثْنَمَهُ عَلَى أَسْرَارِهِ وَشَاوَرَهُ فِي أُمُورِهِ وَلَمْ تَرِدْهُ الْأَيَّامُ إِلَّا إِعْجَابًا بِهِ وَرَغْبَةً فِيهِ وَتَقَرُّبًا لَهُ، حَتَّى صَارَ أَحْصَ أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ مَنَزَلَةً » . (باب الاسد والثور) .

وتكثر في هذه الابواب الطويلة الاستطرادات التي تتيح للمؤلف ان ينثر حكمته، التي لاجلها وُضع الكتاب، على اوسع نطاق وأعظم مقدار .

اما الامثال القصيرة فالرواية فيها اكثر حياة . فالمقدمة فيها وجيزة تعرض علينا الاشخاص وتنقلنا الى مسرح الحادث، وتطلعنا بالفاظ قليلة على جميع ما نحتاج اليه لاستقرار المثل وحسن إدراكه : « زَعَمُوا أَنَّ أَسَدًا كَانَ فِي أَرْضٍ مُخَصَّبَةٍ كَثِيرَةِ الْوُحُوشِ وَالْمَاءِ وَالْمَرْعَى . . . » (مثل الارنب والاسد . باب الاسد والثور) « زَعَمُوا أَنَّ أَسَدًا كَانَ فِي أَجْمَةٍ وَمَعَهُ ابْنُ آوَى يَأْكُلُ مِنْ فُضُولِ صَيْدِهِ . فَأَصَابَ الْأَسَدَ جَرَبٌ . . . » (مثل الاسد وابن آوى والحمار - باب القرد والغليم) . وحالما تنتهي المقدمة يبدأ الحوار : « فَقُلْنَا لَهُ : إِنَّكَ لَا تُصِيبُ مِنَّا الدَّابَّةَ إِلَّا بَعْدَ تَعَبٍ وَنَصَبٍ . . . » (مثل الارنب والاسد) ؛ « فَقَالَ لَهُ ابْنُ آوَى : مَا سَأَلْتُكَ يَا سَيِّدَ السَّبَاعِ . . . » (مثل الاسد وابن آوى والحمار) . وعند ذلك يختفي الكاتب ولا يظهر بعد ذلك إلا في فُرَصٍ نادرة ليجمع شمل اشخاصه بعد افتراقهم، وينقلنا معهم الى مسرح آخر، او يصل بين كلام احدهم وجواب الآخر .

ولكنَّ الرواية وُضعت في كليلة ودمنة للحكمة، فأمثاله من ثمَّ فصول في الاخلاق والتربية والتعليم، ولا عجب اذا اتسعت احياناً وتفرّعت وتداخلت وأتاحت للكاتب ان يُسهب في إيراد الحكمة، وأن ينصرف الى احاديث لها استطراداتها

وشجونها ولكنها ابدأ بمتعة لذينة بما فيها من تنوع المشاهد ومن تعاليم ودروس ومفاجآت .

وأما ختام المثل في كلية ودمنة فهو عادة إعادة الموضوع والمغزى وتحريض على إتيان المحامد التي شوهدت في الاشخاص وتحذير من المساوئ والمغامز .

- الأخلاق : جرت الامثال في كلية ودمنة على السنة البهائم والبشر ، وكان منهم أبطال لتلك الروايات يضطرب فيها كل بحسب طبيعته ، ومن ثم نرى في كلية ودمنة دراسات واسعة للأخلاق والطبائع . أما الحيوانات من البهائم والطيور فقد جمعت في كلية ودمنة بين طبيعتين متباينتين طبيعة الانسان وطبيعة الحيوان ، وقد وفق الكاتب في جمعه بين تلك الطبيعتين توفيقاً حسناً فجعل للحيوانات غرائزها وميزاتها وجعل لها في الوقت نفسه سجايا الانسان واميله وافكاره والتنوع في أخلاقه والتقلب والتناقض في أحواله الفردية والاجتماعية . فنرى ابن آوى مثلاً خبيثاً محتالاً وزاه ناسكاً متعقفاً حكيماً . ونرى كلية ودمنة أخوين يختلفان شديد الاختلاف في مذاهبهما وآرائهما مما زاه في حياة الناس كل يوم . ولكننا نجد الجرد الى جنب ذلك دائم العداوة للسنور لا يستريح اليه ولا يستقيم بل « يودّه من بعيد » .

وعلى كل حال فإننا لا نجد في كلية ودمنة وصفاً دقيقاً للحيوانات في خارجها وفي علاماتها الفارقة ؛ فالمؤلف تهمة الحكمة قبل كل شيء . وهو يدع ما بقي للقارى .

وأما البشر في أمثال كلية ودمنة فكثيراً ما يدور الكلام على سنتهم ويكونون أبطالاً للرواية ، ويعملون في جو من التشاؤم الذي يظهر مساوئهم أكثر مما يظهر محاسنهم ، ولا عجب في ذلك فالمؤلف يرمي الى إصلاح الاخلاق ، والى مداواة الامراض الاجتماعية ، فلا يتحرج من نشر تلك المساوئ من لؤم وكيد وخيانة وجشع وظلم وما الى ذلك ، للابعاد عنها والتنفير منها . . . ويظهر تشاؤمه بنوع خاص في كلامه على المرأة فهو قلماً يظهرها بظهر شريف .

الحسين

والنقد في كلیلة ودمنة موجه الى المجتمع الانساني عموماً والى الملوك ورعاياهم خصوصاً . فهو نقد اجتماعي واسع النطاق ؛ وذلك النقد لا يُقصد لذاته فهو دائماً مصحوب بالدواء ، مذكور لاجله وليس فيه من الهجاء ظل ولا أثر .

- العمل : الامثال في كلیلة ودمنة هي عموماً مسرحيات تختلف بين الطول والقصر . أما الامثال الطويلة فهي تارة كباب البوم والغربان تجمع بين المسرح والملاحم وتبدو أشبه بالملاحم الهوميرية تضطرب بجوادث القتال في افسح الميادين وتشتعل فيها نيران الحروب ، وتجري فيها المكاييد والحيل على احسن وجه ، حتى تتوثق عقدها وتصبح ذات شأن خطير ، ثم تنحل في شيء من البطء الجليل ، والاستطرادات الملحمية التي تزيد الآفاق انفتاحاً والمجالات اتساعاً وانفساحاً . وهي تارة كباب الاسد والثور اشبه بالمآسي الشكسبيرية التي يمكن تقسيمها الى فصول ومشاهد تزدهم فيها التحليلات النفسية والاعمال المسرحية التي تمسك القارى في قلق حتى تُسفر النتيجة عن فاجعة القتل . وهي تارة كباب الاسد وابن آوى الناسك ، من المآسي الاخلاقية التي ينتصر فيها الحق على الباطل . وفي هذا الباب المذكور من التركيب المسرحي ما يُدهش ، فهناك مأساة من خمسة فصول حسنة التأليف واضحة الاقسام والمشاهد لا يكاد ينقصها شيء من مقتضيات المسرح والتمثيل . والعمل في الامثال القصيرة ابسط تركيباً واقل تعقداً .

والاشخاص في كل حال تنبض فيها الحياة ، فتضطرب امامنا على المسرح وتعمل على تكوين العقدة وعلى توثيقها ثم على حلها بطريقة طبيعية على حد ما يجري بين الناس . الا ان تلك الاشخاص لا تنسى ان مهمتها الاولى إبراز الحكمة ، وان عملها لاجل الحكمة قبل كل شيء . فليس هو عملاً فنياً مجرداً ، كما ان الرواية ليست مجرد فن ؛ كما ان وصف الاخلاق والاشخاص ليس مجرد الفن .

- المسرح : مسرح الامثال هو عادة المكان الذي يليق بالحيوانات اي البرية في جوانبها المختلفة بين البساطة والعظمة والسحر ، من دوحة فيها وكر غراب ، الى

شجرة تين على الساحل قد امتدَّ ظلُّها على المياه فاتخذها القردُ مسكنًا، الى عريش ظليل يلتئم تحته خلَّان اربعة للمحاورة العذبة .

ولا يرمي المؤلف الى وصف الطبيعة في أمثاله، فهو لا يقصد الوصف للوصف، ولا نجد في كتابه صوراً مفصلة للمشاهد، إنما هو مقتصد جدًّا الاقتصاد، يصف بكلمة او بعض كلمات، ويشير الى ما يحتاج اليه الاشخاص للعمل، وما هو ضروري لفهم الرواية : « زَعَمُوا أَنَّ أَرْضاً مِنْ أَرْضِ الْفَيْلَةِ، تَتَابَعَتْ عَلَيْهَا السِّنُونَ أَجْدَبَتْ فَقَلَّ الْمَاءُ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ وَغَارَتِ الْعُيُونُ وَأَصَابَ الْفَيْلَةَ عَطَشٌ شَدِيدٌ . . . » (مثل الارنب وملك الفيلة - باب البوم والغربان) .

- الحكمة : الحكمة في كليلة ودمنة جوهر وأما ما بقي فعرض . والاشخاص في جملتهم حكماء ينطقون بالحكمة كما يضربون احياناً الامثال، ويحاولون الإقناع بصحة الحكمة وضرورة الجري بموجبها . والحكمة في كليلة ودمنة ليست مقصورة على ما يُستخلص من الامثال ويُشار اليه في صدر تلك الامثال وخاتمتها ولكنها منشورة ايضاً في كل مكان وفي كل سائجة . فهي غزيرة جدًّا الى حدِّ مملِّ احياناً؛ وهي مختلفة الاغراض والموضوعات في المثل الواحد وفي الكلام الواحد، لا يُنظر فيها احياناً إلا الى غزارتها والإكثار منها . وهي مصبوعة بالصبغة الشرقية من التدنُّ والتقوى، ولكنها غير مؤسسة على الدين في مجملها، بل هي عموماً نتيجة الخبرة والعقل والتفكير .

٤ ابن المقفع المصلح الاجتماعي :

١ - الداعي الى الاصلاح : لقد دعا ابن المقفع داعي التنافس الى ترجمة كليلة ودمنة والادبين الصغير والكبير، والى كتابة رسالة الصحابة . وذلك ان الموالي كانوا محتقرين في عهد بني أمية فلما عادوا مع العباسيين الى حياة مستقرة ونظام جديد، ولما قصر العرب عن مقاومة حركتهم واخذوا يفاخرونهم بالشعر وما اليه، عمد اولئك الموالي الى نقل الكتب الفهلوية القديمة واجتهدوا في نشر الثقافة

الفارسية القديمة، وهكذا كان لديهم اقوى الوسائل لمحاربة العرب . ثم راحوا ينتقدون المجتمع العربي والنظم العربية ويطّيبون الداء في ذلك المجتمع بدواء فارسي . وهم يرمون الى ان يصبح المجتمع فارسياً بنظمه وسياسته واخلاقه واساليبه الادبية .

وكان ابن المقفع من زعماء تلك الحركة الاصلاحية الفارسية . وقد شهد الانقلاب وعرف ابا العباس السفّاح (٧٥٠ - ٧٥٤ م) ، و ابا جعفر المنصور (٧٥٤ - ٧٧٦ م) اللذين ارادا ان يبنيا الملك على القوة والبطش . قال عبد اللطيف حمزة : « ان المنصور كان رجلاً مكيفاً في السياسة . ولاحق ان حياة هذا الخليفة - ونخص بالذكر الجانب الخفي من هذه الحياة - تدلّ دلالة واضحة على نزعة، وتوضح للمؤرخين مجلاء كيف اصبحت الخلافة على ايدي العباسيين ملكاً يُستهانُ فيه بواجبات الدين والقراة والاخلاق معاً ، ولا يُنظر فيه إلا للعطامع المادية والاهواء السياسية ليس غير » .

وقف ابن المقفع على الكثير من امراض المجتمع والسياسة في عصره واستنكر الكثير من الامور في الدولة الناشئة وكان يرى ان معظم تلك الامور يرجع الى الحكماء كما كان يرى ان الحرية السياسية غير متوافرة، فاراد ان يقف من حكامه موقف بيدبا من دبشليم، وان يتخذ الطرق التي تتيح له النصيح من غير تعرّض للهلكة . فكتب رسالة الصحابة ومزج نقده فيها بكثير من المدح للخليفة ونسب اكثر الشدة التي يراها الى غيره . ثم عمد الى الترجمة فنقل سائر كتبه ليقدم للدولة وابنائها امثلة من النصيح ومن شواهد التاريخ الفارسي . وعني بنوع خاص بنقل كتاب كليلة ودمنة، وشدد في امر مطالعته وتفهم معانيه والعمل بموجبه حتى يصل به الى غايته الاصلاحية .

٢ - مادة الاصلاح : عرضنا في دراستنا لآثار ابن المقفع لمادة الاصلاح، فاظهرنا الامراض التي حاول معالجتها، والتي واجهها في الخلفاء والحكام، ورجال البلاط، والقضاة، والجنود، والجباة، والشعب . و خلاصة ذلك ان ابن المقفع ادرك

ان مرجع امراض الراعي الى الظلم والاستبداد، وان مصدر امراض الرعية هو الجهل . فداوى الظلم والاستبداد في الراعي بحسن اختيار الاعوان وحسن الاستشارة وإنشاء نظام قوامه العقل العادل ؛ وداوى الجهل في الرعية بالتسلح بالعقل والمعرفة عن طريق التفكير والمشورة والصدقة الحقة، ومحاسبة النفس، وذكر الآخرة .

٣ - نزعة ابن المقفع في اصلاحه :

١ نزعة فارسية : نزع ابن المقفع نزعة فارسية فجعل تاريخ الفرس وشرائعهم وآدابهم أساساً لاصلاح المجتمع العباسي ؛ فكان يؤلف من تاريخ الفرس ما كان يصل اليه من نظريات في السياسة والاجتماع، وكان يرى في حكومة الساسانيين مثلاً أعلى للحكومة الرشيدة المستنيرة، فاجتهد ان ينقل للعرب صورة دقيقة لتلك الحكومة وكانت مهارته تساعد في تطبيق ما ينقل على عقلية العرب .

٢ نزعة مثالية : ابن المقفع مثالي، يتجه دائماً في ادبه كما ينزع في تفكيره الى المثل الاعلى . فاذا كتب عن السلطان كتب عنه كما يجب ان يكون اي إماماً عادلاً بين الناس ؛ كما يجب الكاتب نفسه ان يكون عليه السلطان الكامل في حكمه وسياسته واخلاقه وحسن سيرته . واذا كتب عن الصديق كتب ايضاً في المثل الاعلى لما ينبغي ان يكون عليه الصديق .

٥ ابن المقفع الكاتب :

١ - زعامة ابن المقفع : ابن المقفع احد زعمي المدرسة الكتابية الاولى في العهد العباسي، وهو ايضاً احد ابوي النثر الفني العربي الذي دخل بفضل له الى حقل الترجمة بعد دخوله ديوان الرسائل . فقد عمل ابن المقفع كما عمل عبد الحميد بن يحيى على تليين قناة النثر، وتذليله لشق الموضوعات، وزاداه رونقاً بما أدخله عليه من عناصر الفن والجمال .

ولئن تكلمنا على فن ابن المقفع في كتابته فلا يعزب عن فكرنا ان هنالك اختلافاً واضحاً بين ما لدينا من أدبيته الصغير والكبير وبين كتابه كليله ودمنة وبين سائر رسائله . ومصدر ذلك أن الطبقات المُلَقَّقة لكليته ودمنة قد تداولت نصّها الايدي على ممر العصور فأزالت ما فيه من خشونة وتعقيد وجعلته أملس ناعماً؛ على ان النص في المخطوطات القديمة يوضح بجلاء ان كتابة ابن المقفع في ذلك المؤلف لا تختلف اختلافاً جوهرياً، عن كتابته في سائر مصنفاته، وإن النثر لم يستقم لابن المقفع كما كان يستقيم لرجل كعبد الحميد ؛ ولا عجب في ذلك فان ابن المقفع اصطدم بمعانٍ فلسفية وحكومية لم يسبق لها ترويض، فجهد وظهر نصبه وجهده في كتابته . ثم ان كتابة ابن المقفع في الادب الصغير لم تكن مما اتّمه مؤلفه، بل كانت خطرات تخطر من اقوال الحكماء فتُنقل من غير ما عناية زائدة ولا ترتيب نهائي، فتوافر فيها الغموض والتعقيد وما الى ذلك . ونحن اذا القينا نظرة اجمالية على آثار ابن المقفع تتجلّى لنا الخصائص التالية لفنّه .

٢ - فن ابن المقفع : ابن المقفع فارسيّ استقى اسلوبه الكتابي من صميم العروبة ومزج فيه الروح الفارسية واليونانية والهندية فكان قالباً جديداً على عروبه، عربياً على فارسيته، يجمع بين ايجاز العرب وبلاغتهم الخطابية الى إطناب الفرس، الى منطق اليونان، الى حكمة الهند؛ ففي اسلوبه عذوبة البداوة التي اقتبسها من آل الاهم، الى لين الفارسية، الى صبغة اليونان العلمية، الى ارستقراطية الهنود الكلامية .

كان ابن المقفع مفكراً قبل كل شيء يخضع عنده الفن للفكر، ويوجّه الفكر الفن يختار من اساليبه ووجوهه ما يحتاج اليه ليعبر للبيان واضحاً جلياً كاملاً . ومن ثمّ فالكاتب لا يلهو بالصناعة اللفظية والمحسنات البديعية والوجوه البيانية ولا يأخذ منها إلا بقدر معلوم وعندما تدعو الضرورة وذلك بنوع خاص في رسائله . فان المقفع لا يفكر في الجمال الماديّ للاساليب إنّما همّه في الجمال المعنويّ ولذلك قلما تقف عنده على سجع او ترادف صوتي كالذي يعمد اليه عبد الحميد ،

إلا ما هنالك من بعض المزاوجة والتوازن الذي نجده في بعض كتاباته كما في باب عرض كتاب كليله ودمنة .

واحتفاؤه البالغ بالمعنى يدفعه الى استخدام الاسلوب المنطقي فيقسم موضوعه الى فقرات، تنقسم الى جمل ذات فواصل يمكن الوقوف عندها . فافكاره متسلسلة ، لا يلجأ فيها الى الغلو بل يواجه الحقيقة بهدوء ويبرهن عنها بقوة . وكذلك يحمله احتفاؤه بالمعنى على اطالة الجملة بهدوء ورصانة، فهي تمتد امتداداً ارستقراطياً من غير ما تؤثرب ولا تقلب ولا تلون ، متذرعة بالروابط المختلفة من حروف الجر والاسماء الموصولة وحروف العطف وما الى ذلك . وقد تدفعه الاطالة، يحفزها احياناً داعي الترجمة، الى تداخل الجمل بعضها ببعض الى حد يستحيل معه تقسيمها الى عبارات قصيرة : « اما البطتان اللتان رأيتهما طارتا من وراء ظهورك فوقعتا بين يديك، فإنه يأتيك من قبل ملك بلخ من يقوم بين يديك بفرسين ليس في الارض مثلهما ... » (باب ايلاد وايراخت وشادرم ملك الهند) .

إلا ان إطالته هذه ليست من قبيل الإسهاب . فابن المقفع زاهد في كثرة الالفاظ وان كان لا يكتفي بالإشارة ولا يعتمد الى الحذف والتقدير ؛ فهو يميل الى الإيجاز، ذلك الإيجاز الخاص الذي يقوم بجعل الالفاظ على مقدار المعاني؛ والذي لا يتعدى هذه الخطة إلا عندما يشعر ان معنى من معانيه قد يستغل على فهم الرجل العادي، فتراه اذ ذاك فقط يردّد ذلك المعنى في تراكيب متشابهة، وحياناً يضرب مثلاً او مثلين او يقص حكاية او اكثر زيادة في تبيان الفكرة الواحدة، كما يبدو ذلك في باب عرض كتاب كليله ودمنة .

وحرص ابن المقفع على المعنى يقوده الى اختيار اللفظ اختياراً دقيقاً لكي يؤدي ذلك المعنى بدقة تامة وبوضوح بعيد عن التشويش والابهام . وفي ذلك يُحكي ان ابن المقفع كثيراً ما كان يقف اذا كتب، فقليل له في ذلك، فقال : « ان الكلام يزدهم في صدري، فأقف لتخيره » .

وحرصاً على الوضوح واتباعاً لطبيعته اللينة الصريحة كان يتحاشى عن الإغراب في اللفظ والتوَعُر فيه، وكان يقول : « إياك والتتبع لوحشي » الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإن ذلك هو العيِّ الأكبر . وكان يقول أيضاً : « عليك بما سهل من الالفاظ مع التجنُّب لالفاظ السَّفلة » .

وكان يبتعد ابتعاداً كبيراً عن مبالغات الفن سواء ارتبطت هذه المبالغات بجمال الصوت أم بجمال التصوير، فليس في أساليبه عناية بالاختيلة الدقيقة إلا ما جاء في كليله ودمنة وهو منقول عن الاصل . وهو إن عمد الى التشبيه كان تشبيهه بعيداً عن الغموض قريباً الى الافهام، وكانت غايته منه ايضاحية لا فنية مجردة .

وقادته دقته أحياناً الى ضروب من العنت لم يحسن التخلص منها ولا سيما في ترجماته، فوقع في بعض الغموض الذي يتأتى خصوصاً من المخالفة في ارجاع الضمائر . قال في رسالة الصحابة : « ومما ينظر فيه لصالح هذا الجند ألا يولى أحد منهم شيئاً من الخراج، فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة، ولم يزل الناس يتحامون ذلك منهم وينحونه عنهم؛ لأنهم اهل ذاك ودعوى بلاء، واذا كان جلاباً للدراهم والدنانير اجترأ عليهما » . (فالضمير في الجملة الاخيرة مفرد وكان حقه ان يكون مجموعاً) . وقال في الادب الصغير : « يبلغ المرء مبلغ الفضل في كل شيء من أمر الدنيا والآخرة حين يؤثر بحبته، فلا يكون شيء أمراً ولا أحلى عنده منه » . (فقد اعاد الضمير في كلمة « منه » الى الايثار المفهوم من الكلام، وهذا يؤدي الى الغموض) .

وكذلك يثقل كلامه أحياناً بسبب تقديم كلمة وتأخير أخرى، وحذف نالئة، وقد يقع ذلك للجمال ايضاً، فتأتي جملة اعتراضية مكان جملة اساسية، أو جملة اساسية مكان أخرى اعتراضية، أو تأتي جملة يكثر فيها استعمال « أن » وما الى ذلك كما في قوله من الادب الكبير : « وَمِنَ الْأَخْلَاقِ الَّتِي أَنْتَ جَدِيرٌ بِتَرْكِهَا - إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ حَدِيثًا تَعْرِفُهُ - أَنْ لَا تُسَابِقَهُ إِلَيْهِ، وَتُفْتَحَهُ عَلَيْهِ، وَتُشَارِكَهُ فِيهِ، حَتَّى كَأَنَّكَ تَظْهَرُ لِلنَّاسِ كَأَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّكَ تَعْلَمُ مِنْ مِثْلِ الَّذِي يَعْلَمُ، وَمَا عَلَيْكَ أَنْ تُهَيِّئَهُ بِذَلِكَ وَتُفَرِّدَهُ بِهِ » .

إلا ان ذلك كله لا يحيط من شأن ابن المقفع الذي يظل أسلوبه رمزاً للكتابة الكلاسيكية القديمة، في سلاسته وأرستقراطيته وانسجام عباراته وحلاوة تراكيبه ولين الفاظه وسهولتها وعذوبتها . ولا عجب ان سُمي أسلوبه بالسَّهل الممتنع، الذي يحسب الجاهل انه يستطيع مجاراته حتى اذا حاول ذلك امتنع عليه .

فلا عجب بعد ذلك كله اذا كان لابن المقفع اثر كبير في العالم العربي من بعده، ولا عجب اذا كانت الافكار التي نشرها معيناً ثراً ينهل منه الشرق باجمعه، فتسرب الى شعر الشعراء، وفلسفة الفلاسفة والمفكرين، وتآليف الكتّاب في مختلف حقول الفكر والادب .

٦ اثر ابن المقفع ومؤلفاته : كان لابن المقفع ومؤلفاته - ولا سيما كتيبة ودمنة - اثر كبير في عقل الشرق ونظمه وآدابه :

١ - في الادب والفلسفة : لقد عني الشعراء والكتّاب عناية كبرى بكتب ابن المقفع فنظم الشعراء بعضها كما فعل أبان اللاحقي بكليلة ودمنة، وكتاب « مزدك » ؛ واغترفوا من حكمته وآرائها التي تجلّت واضحة في شعر كلثوم بن عمرو ابن ايوب المعروف بالعتّابي، وفي شعر المتنبي وغيرهما . لا بل انبثت آراؤه في المرأة والمال والعقل وتقديم الرأي على الشجاعة في الادب العباسي كله تقريباً .

أما الكتّاب فكان المجال امامهم أوسع ؛ فإنهم عرفوا من ابن المقفع طريقة الترجمة الفنية، وعرفوا ضرورة الاخذ بثقافات مختلفة وتوسيع نطاق المعارف والوقوف على ما للغير من علوم وآداب، واستناروا بابن المقفع في ما هو من طريقة التحليل والجدل والكتابة الفنية الراقية ؛ وراحوا يقتفون آثاره في ما هو من الجمع لاقوال الحكماء والعلماء وغيرهم، واذا بابن قتيبة في « عيون الاخبار »، وابن عبد ربه في « العقد الفريد »، والطرطوشي في « سراج الملوك »، وابن حزم في « كلمات في

الاخلاق» وغيرهم يسировن على خطى ابن المقفع . ثم لم يقفوا عند هذا الحد بل اخذوا منذ عهد ابن المقفع تقريباً يحذون حذوه في تأليف ما يماثل كليله ودمنه؛ فوضع سهل بن هارون «ثعلله وُعره»، وابن الهبارية «الصاح والباغم»، وابن عربشه «فاكهة الخلفاء ومناظرة الطرفاء»، وأبو العلاء المعري «القائف». وفي رسائل اخوان الصفا رسالة في المناظرة بين الحيوان والانسان فيها الوان من كليله ودمنه، هي الرسالة السابعة عشرة من الجسمانيات الطبيعية. زد على ذلك ان ابن المقفع فتح باب القصص على السنة الحيوانات وفصله تفصيلاً لم يكن معهوداً لدى العرب .

وقد تعدى أثر ابن المقفع الادب الى الفلسفة، فظهر في ما كتبه الفارابي وابن سينا وغيرهما في الفلسفة المدنية، واذا أقوالهما في السياسة والولة والاصدقاء وما الى ذلك تذكر بأقوال صاحب كليله ودمنه . واستعار «اخوان الصفا» اسمهم من باب الحمامة المطوقة في كليله ودمنه؛ كما انهم اقتبسوا طائفة من الافكار المبسوطه في كتب ابن المقفع . وقد جاء في الرسالة الرابعة من العلوم الناموسية والشرعية شيء كثير من آراء ابن المقفع في الصداقة ومن ذلك قول اخوان الصفاء : «إخوان الصدق هم الأعوان على أمور الدين والدنيا جميعاً . . . وإذا وجدت منهم واحداً فتمسك به فإنه قرّة العين ونعيم الدنيا وسعادة الآخرة، لأن إخوان الصدق نصرة على دفع الأعداء . . . وأركان يعتمد عليهم عند الشدائد والبلوى . . . فإذا أسعدك الله يا أخي بمن هذه صفة فابذل له نفسك ومالك وقر عرضه بعرضك، وافرش له جناحك، وأودعه سرّك، وشاوره في أمرك . . . » .

٢ - في الاجتماع : دعا ابن المقفع الى الاصلاح في البلاط وفي القضاء والخراج وفي كل ما يتعلق بالراعي والرعية، واذا الخلفاء بعد المنصور يعنون باختيار «صاحبتهم»، واذا البطانة تصبح بعد قليل - ولا سيما في عهدي الرشيد والمأمون - معروفة بالعلم وحسن الرأي، ومولفة في كثير من عناصرها على ما كان ابن المقفع يرغب فيه .

ودعا ابن المقفع الى إصلاح القضاء واذا بالمحاولات 'تبذل بعده لايجاد قانون يسير عليه القضاة . الا ان هذه المحاولات لم يُكتب لها النجاح لما لاقت من مقاومات الفقهاء العنيفة .

ودعا ابن المقفع الى الاصلاح في الخراج واذا الخلفاء يسمعون الدعوة، واذا الرشيد يدعو أبا يوسف الفقيه لوضع كتاب في الخراج .

وهكذا أخذت آراء ابن المقفع الاصلاحية تتحقق شيئاً فشيئاً تحفزها حوافز اخرى دينية وزمنية، فتنبث في شؤون الولاة والقضاة والجند وعمال الخراج وفي تأديب الشعب نفسه .

وهكذا كان لابن المقفع فضل جمة على الادب العربي والعقل العربي . وهو خير مثال للثقافة الواسعة والفكر الصافي العميق، والاسلوب العالي الرصين .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- عبد اللطيف حمزة : ابن المقفع - القاهرة ١٩٤١ ✓
 محمد سليم الجندي : عبدالله بن المقفع - دمشق ١٣٥٥ هـ ✓
 خليل مردم : ابن المقفع - دمشق ١٩٣٠ ✓
 شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي - القاهرة ١٩٤٦ ص ٤٤ - ٥٢ ✓
 عبد الوهاب عزّام وطه حسين : مقدّمتا «كليلة ودمنة» . طبعة دار المعارف بمصر ١٩٤١ ✓
 محمد كرد علي : امراء البيان - الجزء ١ القاهرة ١٩٣٧ ص ٩٩ - ١٥٨ ✓
 الاب لويس شيخو : المقدمة العلمية التي صدر بها «كليلة ودمنة» - بيروت ١٩٢٣ ✓
 احمد امين : ضحى الاسلام ١ - القاهرة ١٩٣٨ ص ٢٠٤ - ٢٣٩ ✓
 عبد الرحمن بدوي : التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية - الطبعة الثانية - ١٩٤٦ ✓
 ص ١٠١ - ١٢٠ (التراجم الارسططالّية المنسوبة الى ابن المقفع للاستاذ بول كيرّوس) .
 طه حسين : من حديث الشعر والنثر - القاهرة ١٩٣٦ ص ٢٤ - ٧٩

٢ المراجع الاجنبية :

- Cl. Huart : Ibn Al-Mukaffa', in Encycl. de l'Islam, t. II, 429.
 C. Brockelmann : Gesch. der arab. Litter. I, 151.
 » : Kalila wa-Dimna. in Encycl. de l'Islam, t. II, 773-741.

موضوعات للبحث

- ١ - لقد قيل : « تفكير ابن المقفع اعجمي اكثر مما هو عربي » . ناقش هذا القول .
- ٢ - كان ابن المقفع فارسياً يريد تعزيز قومه . وكان مُصلحاً يريد الإصلاح كما يفهمه الفارسيّ الفخور بحضارة قومه . ما الذي حمل ابن المقفع على موقفه هذا ، وكيف عالج إصلاحه ؟
- ٣ - قال الخليل بن احمد عن ابن المقفع : « علمه اكثر من عقله » . ماذا اراد الخليل ، وهل حكمه صائب ؟
- ٤ - كان ابن المقفع من مدرسة عبد الحميد الكاتب . وازن بين فتىّ الرجلين في الكتابة ، واظهر الصلة بينهما .
- ٥ - هل يستفيد الأحداث من مطالعة كليلة ودمنة ؟ كيف ذلك ؟
- ٦ - لا بُدّ انك قرأت كتاب كليلة ودمنة واستحسنته . ما ميزات هذا الكتاب الادبيّة ، وأخصّ منها القصصيّة ؟ وهل يمثّل هذا الكتاب فنّ ابن المقفع في الانشاء ؟
- ٧ - اعمد الى مثل الاسد وابن آوى والحمار في باب القرد والغيلم من كليلة ودمنة وحلّله تحليلاً ادبياً .

ادب الثورة التجديدية — النثر

الفصل السادس

احمد بن يوسف — سهّل بن هارون

عمرو بن مسعدة

١ — احمد بن يوسف :

ابو جعفر احمد بن يوسف بن صُبَيْح وُلد بالقرب من الكوفة، ونشأ كاتباً شاعراً، عالماً متمكناً من الشرع . تولى ديوان الرسائل للمأمون ووزّر له . — اعتمد في رسائله المُرسل من الكلام في طابع نقّي بريء من كل شائبة ، خالٍ من التعمّل .

ب — سهّل بن هارون :

سهل بن هارون فارسيّ الاصل، اتصل بيحيى بن خالد البرمكي ثم بالمأمون الذي جعله قِيماً على بيت الحكمة . — وكان سهل بن هارون مؤلفاً مُصنّفاً ذكر له المؤرخون عدداً كبيراً من المؤلفات امتاز فيها بجمال الفكر وجمال المادة ؛ اما جمال الفكر فيقوم عنده بقوة المنطق وحسن التحليل والتعليل . واما جمال المادة فيقوم باختيار اللفظة وحسن تركيبها في الجملة، وحسن التوازن .

ج — عمرو بن مسعدة :

عمرو بن مسعدة من اصل تركي، تولى الكتابة بين يدي جعفر البرمكي، ثم اصبح كاتب المأمون ووزيره .

ضاع القسم الاكبر من آثاره . ورسائله تمتاز بالالفاظ المختارة السهلة، والاسلوب الرصين المُرسل، المتسلسل الافكار في إيجاز خالٍ من الغموض .

١ — احمد بن يوسف (٢٨٢٨ / ٥٢١٣)

ابو جعفر، احمد بن يوسف بن القاسم بن صُبَيْح وُلد في قرية بالقرب من الكوفة، وورث من ابيه وجده حبّ الادب والشعر، ونشأ كاتباً شاعراً، عالماً متمكناً من

الشرع . وتولى ديوان الرسائل للمأمون ووزر له بعد أحمد بن أبي خالد الاحول، وتهالك في خدمته ودعوة الناس اليه . وكان أحمد بن يوسف غزير العلم، حسن البلاغة .

أما آثاره فبعض الشعر المتفرق في كتب الادب، ورسائل تأثر فيها بأسلوب عبد الحميد الكاتب . واعتمد فيها على المرسَل من الكلام في طابع نقى بريء من كل شائبة، خالٍ من التعمُّل ؛ ولم يلجأ الى السجع إلا في بعض التمجيدات .

ب - سهل بن هارون (٨٣٠ م / ٢١٥ هـ) :

١ حياته : سهل بن هارون فارسي الاصل ولد في دستميسان بين البصرة والأهواز، ثم انتقل الى البصرة فبغداد حيث اتصل بيجي بن خالد البرمكي في زمن الرشيد، ثم اتصل بالمأمون الذي أعجب به وبترعته الشعبية فجعله قتيماً على بيت الحكمة . وقد توفي سنة ٨٣٠ م / ٣١٥ هـ .

كان سهل بن هارون شعوبي المذهب شديد العصبية على العرب وقد اشتهر بالحكمة حتى لقب « بُزْجَهَرُ الاسلام » . وكان من مدرسة عبد الحميد فواصل، كسائر تلامذة تلك المدرسة، المجرى الفارسي في الادب العربي، ولئن كان فضل ابن المقفع في الترجمة والنقل، ففضل سهل بن هارون قبل كل شيء . بالتأليف والتصنيف .

٢ آثاره : وصف الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » وابن النديم في « الفهرست » كتب سهل بن هارون، ومما ذكر له من المؤلفات « ثُعلَّة وُغفرة » - في معارضة كتاب كليله ودمنة وأسلوبه - ، وكتاب « الإخوان »، وكتاب « المسائل »، وكتاب « المخذومي والهلالية »، وكتاب « النمر والثعلب »، وكتاب « الوامق والعذراء »، وكتاب « ندود وودود ولدود »، وكتاب « الضربين »، وكتاب « الغزالين »، وكتاب « أدب أسل بن أسل »، وكتاب « الى عيسى بن

أبان في القضاء»، وكتاب «تدبير الملك والسياسة». وله رسائل في البخل، إلا أنه لم يبق لنا من هذا المجهود الضخم إلا بقية ضئيلة أهمها «رسالة البخلاء» التي صدر بها الجاحظ كتابه «البخلاء»، والتي وجهها سهل إلى بني عمه من آل راهيون حين ذموا مذهبه في البخل وتبعوا كلامه في الكسب.

٣ في الكتابي: جمع سهل بن هارون في كتابته جمال الفكر وجمال المادة وبهذا يقوم فنه. أما جمال الفكر فيقوم عنده بقوة المنطق وحسن التحليل والتعليل على طريقة الجدل.

وأما جمال المادة فيقوم في كتابته باختيار اللفظة وحسن تركيبها في الجملة، تركيباً يتوفر معه التوازن الغير المبني على السجع في اغلب الاحيان، ولكن على تقطيع خاص تتصاعد منه موسيقى خفيفة ترافق الصوت والتنفس من غير امتداد ولا ثقل. فعبارته وثابة يلجأ فيها الى نوع من الترادف اللفظي يحتاج اليه لتقويم توقيعه الصوتي.

فهو اذن يجمع بين منطق المدرسة الحميدية، ويزيد على ابن المقفع التقطيع الصوتي والترادف الموسيقي؛ وهو يخطو بروحه الجدلية، وبزغته التأليفية، وبموسيقى الفاظه وخفتها، خطوة واسعة نحو الجاحظ فيبسط امامه طريقاً ممهدة، واسلوباً سيكون به شديد الإعجاب وجد متاثر به. وهكذا كان سهل بن هارون حلقة الوصل بين المدرسة الحميدية والمدرسة الجاحظية.

م — عمرو بن مسعدة (٨٣٢ م / ٢١٧ هـ)

١ — حياته: أبو الفضل عمرو بن مسعدة بن سعيد بن صول، هو ابن عم إبراهيم بن العباس الصولي. وكان جدُّهما صول تركياً من أشرف جرحان، تمجَّس بعد التركية وتشبه بالفرس. وكان عمرو أحد إخوة اربعة احسن ابوهم تربيتهم؛ إلا أن التاريخ قد اغفل الشيء الكثير من حياة الرجل، فلم يُطلعنا على أحداثه ونشأته ومحاولاته الاولى في الادب، واكتفى بأن يقدمه لنا كامل الاداة

طائر الشهرة، يتولى الكتابة بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي^١، ثم أصبح كاتب المأمون ووزيره، فكانت حياته وقفاً على مهام الخلافة، وقد اقبلت عليه الدنيا إقبالاً عظيماً، وقصده القاصدون، وطابت نفسه باصطناعهم والإحسان اليهم، فكثُر أنصاره لانبساط يده في العطاء ولحسن معاملته من يقصده .

وتوفي عمرو بن مسعدة في غزوة من غزوات المأمون ببلدة أذنة من بلاد الروم - وهي المعروفة الآن بأطنة - وذلك سنة ٨٣٢ م / ٢١٧ هـ .

٢ آثاره : لم يؤثر عن عمرو أنه ألّف في موضوع خاص . فقد شغلته مهام الدولة عن وضع الكتب والانصراف الى التأليف . انما كان همه معالجة الموضوعات التي تتعلّق بما وكل اليه من اعمال لدى الخليفة . وقد ضاع القسم الاكبر من آثاره، ولم يبلغنا إلا بعض الرسائل، فعُدّ لذلك من المقلّين .

٣ فنه : شهد لعمرو بن مسعدة بالبلاغة أعيان البيان في عصره، ومنهم الفضل ابن سهل الذي قال فيه : « إنه أبلغ الناس، ومن بلاغته ان كل احد اذا سمع كلامه ظنّ انه يكتب مثله، فاذا رآه بعُد عليه » .

وتماز كتابة ابن مسعدة بتخيّر الالفاظ السهلة الدقيقة الأداء عن المعنى . واسلوبه موسّس رصين، متسلسل الافكار تسلسلاً رائقاً، في ايجاز حميدي لا يعرفه غموض، ولا يعرقله ثقلٌ او جمود .

بعض المراجع

محمد كرد علي : امراء البيان - الجزء الاول - القاهرة ١٩٣٧
شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي - القاهرة ١٩٤٦

(١) قال عمرو بن مسعدة : « كنت اوقع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي، فرفع اليّ غلفانه ورقة يستريدونه في روايتهم، فرمى بها اليّ وقال : أجب عنها ؛ فكتبت : « قليلٌ دائمٌ خيرٌ من كثيرٍ منقطع » . فغضب بيده على ظهري وقال : « أيّ وزيرٍ في جلدك ! »
وقد صدّقت الايام فيه ظنّ جعفر ، فصار فيما بعد احد وزراء المأمون الثقات عنده، وكان يُعجبه بلاغته في ايجازه .

الباب الرابع

أدب الحركة المعاكسة - الشعر

الفصل الاول

أَبُو تَمَّام (٧٩٦ - ٨٤٣ م / ١٨٠ - ٢٢٨ هـ)

١ خاتمة الثورة وبدء الاستقرار : عقب عهد الثورة التجديدية حركة معاكسة واختار في الاجتماع والعلم والادب . أما في الاجتماع فقد انصرف الناس الى واقع أرصن ؛ وأما في العلم فقد مال الناس الى علم أرزن ؛ وأما في الادب فالشعراء الى تقليد القديم ، وقد ظهرت في شعرهم مع ذلك آثار العقلية اليونانية والزخرف الفارسي .

٢ حياة أبي تَمَّام : وُلد أبو تَمَّام في جاسم وانتقل الى دمشق فعمل في صباه عند حائك . ثم انتقل الى حمص حيث صادف ديك الجن فتنهذه . ثم قصد مصر وسقى فيها الماء بالجامع متبعاً حلقات العلم . واتصل بعبّاش بن لهيعة فلم يظفر بكبير طائل ؛ فعاد الى الشام وحاول التقرب من المأمون فلم يفلح . ولما استخلف المعتصم قرّبه اليه واغدى عليه العطاء . وكان أبو تَمَّام في كل تلك المدّة كثير التجوّل . وقد لقي لدى الحسن بن وهّاب اكراماً خاصاً اذ ولاه على بريد الموصل . الا ان ولايته هذه لم تمتدّ السنتين فانتهت بموت الشاعر .

٣ نفسيته : لابي تَمَّام شخصية ارسقراطية قوامها العزّة والانفة والاعتداد بالنفس ؛ وشخصية شعبية قوامها طيب المعشر والتمتع بالحياة المترفة اللاهية .

٤ آثاره : لابي تَمَّام ديوان شعر فيه مدح وثناء ووصف وغزل وفخر وما الى ذلك . وله سبع مجموعات شعرية اشهرها « كتاب الحماسة » و « نقائض جرير والاختل » .

٥ أبو تَمَّام شاعر العظام :

١ - المديح : اكثر شعر ابي تَمَّام في المدح ، واسلوبه فيه هو الأسلوب القديم . وكان ابو تَمَّام يخلق لجميع ممدوحيه مثلاً اعلى صيغ من الشجاعة والنجدة والكرم والمروءة . وقد طبع الاسلوب القديم في المدح بنزعته الشخصية الى الزخرف البديعي والى جودة التفكير ، كما طبعه بعزّة وكبره . إلا ان مدائح ابي تَمَّام لا تخلو من غثاء وابتذال وفساد في الذوق .

٢ - الهجاء والعتاب : هجاء أبي تمام تارة عتاب رفيق مترفع، وتارة صرخة أسف وخيبة أمل، وهو أحياناً أخرى قتال عنيف . واسلوب الشاعر في هجائه هو عموماً أوفر طبعيةً ويسراً منه في سائر شعره .

٣ - الرثاء : نخصر الكلام هنا في رثاء العظماء والمشهورين في زمن الشاعر . وهو رثاء تفجع وأسف تقوم العاطفة الفنية فيه مقام العاطفة الحقيقية، وتنطق بالغلو في كل شيء من غير تأثير حقيقي، في اسلوب رصين وكلام جزل .

٦ أبو تمام الشاعر الغنائي :

١ - الغزل والإخوانيات : في ديوان أبي تمام مقطوعات غزلية ترق فيهما الالفاظ وتغلب الاوزان وتتجلى نفس حساسة، عميقة الشعور . وقد تضمنت تلك المقطوعات تصاویر رائعة لآظهر عوارض الحب . اما في الاخوانيات فيتجلى أبو تمام اقرب الى الإجادة في وصف عواطف الصداقة منه الى الإجادة في وصف الحب .

٢ - الرثاء : شعر أبي تمام في رثاء اصدقائه وأنسابه بكاء حقيقي، وانين يتصاعد من جرح بليغ، ولوعة ملموسة .

٣ - هجاء الاصدقاء وعتابهم : تظهر في هذا الباب رقّة عاطفة الشاعر وعمق تأثره بخيانة الصديق .

٤ - الفخر : يفخر الشاعر بعقله، وشاعريته، وبصبره ومضائه، وبقيلته . ويلحق بهذا الفخر وصف أبي تمام للمعارك، فهو يتغنّى فيه ببطولة قومه .

٥ - الزهد : زهديات أبي تمام تصوّر نفساً كثيرة الآمال والمطامع ترى كل شيء ينهار ويزول .

٧ أبو تمام شاعر الوصف :

١ - وصف الطبيعة : يمتاز بدقّة الملاحظة، والتأمل الفكري، والإكثار من المحسنات البدئية ومن الاعتماد على الصور والمعاني القديمة، يُنعش كل ذلك انفعال نفسيّ شديد وخيال قويّ مُبدع .

٢ - وصف المعارك : هو مثال للشعر الملحمي بتصويره الواسع لأحداث خطيرة، وخياله الرحب الذي يعتمد الواقع التاريخي ويفخّمه في اسلوب جزل هدار الالفاظ، كثير الصناعة .

٨ أبو تمام شاعر المعاني : امتاز ابو تمام بذكاء نادر صادف من حالة عصره الثقافية ما وفّر له مادّة التفكير والتحليل، فكان شاعر المعاني المبتكرة والمعاني البعيدة الغور . وقد تجلّى مذهبه التفكيرى هذا في حكمه، ونظراته في النفس والحياة والارشادات الادبية، والكلمات الجامعة .

إلا ان كثرة احتفال الشاعر بالمعاني افسدت عليه موسيقى الشعر احياناً كثيرة كما افضت به الى التعقيد .

٩ فتمّه : لشعر ابي تمام وجهان متناقضان يتفاوتان تفاوتاً شاسعاً من إهمال وعناية. وابو تمام في شعره صائغ كلام، دائب على الصنعة والتحكيك، تنتج عن ذلك وعن عقليته الخاصة الاسراف في الاخذ بالمحسنات البديعية والزخرف، والتعقيد والإغراب ؛ وكان شعره يجمع احياناً قوةً وشدةً أسر فريدتين في وقع خطائي مؤثر .

١٠ قيمة ابي تمام الحقيقية : ذهب النقّاد في الحكم على قيمة شعر ابي تمام مذاهب متباينة، فكان له وعليه احزاب مفرطة في التعصب . والواقع ان ابا تمام قد اوتي عبقرية نادرة لم يتمكن من تنظيم قواها تنظيم الاتزان والذوق . وهو يُعدّ في طليعة الذين جمعوا الثقافة الى الشعر .

١ ثامن الثورة وبر، الاستقراء : كان القرن الثامن (الثاني الهجري) عهد ثورة تجديدية عنيفة، مضطربة الاهداف مختلفة النواحي، وما إن توارى ابو نواس والمأمون حتى انطفأت معها حدة تلك الثورة . وإذا بالقرن التاسع (الثالث الهجري) يؤذن بعهد جديد، عهد حركة معاكسة واختار في الاجتماع والعلم والادب .

ففي الحياة الاجتماعية انصرف الناس عن ضوضاء الظواهر الى واقع ارضن، وقام التزمّت الديني يقاوم الاباحة الشائعة، فخفضت دوي الوقاحة في الجهر بالمجون والتهتك والخلاعة، وانهارت «مدرسة الخلاء»، وأصبح اللهو والعبث يؤخذ بهما في اقتصاد أو يُسرف فيهما ولكن في تسرّ وخفاء .

وفي العلم بدأ العلماء يخلصون مما كان يعتري نشأته الجديدة من الاضطراب في اكتناحه وتوثيق الصلة بينه وبين اللغة العربية الحديثة العهد به ؛ ومالوا عن دُوار الآراء الجديدة الغامضة الخلابة الى علم أرزن، واضح المعالم . وغدا التأليف ووضع الكتب دأب كل اديب متعلم .

اما في الادب فقد عدل الشعراء عن بهجة الاساليب الرشيقية اللامعة التي حطمت عنها قيود التقاليد، وعن الصراحة الطليقة والنزعة الديمقراطية التي اتخذها بشار وابو نواس مذهباً للشعر الجديد، وعادوتهم رغبة التقليد كما عاودهم الحنين الى متانة الاساليب القديمة، فراحوا يتحرّون ما خلفه الاقدمون لا يعنيههم في غالب الاحيان سوى مضاهاتهم في الصلابة والاغراب، وتكرار الصور التي ابتدعوها . وهكذا كان شبه ردة فعل قوية، فعاد الشعر الى ابواب العظماء، فأراً من سعة الحياة الرحبة، وصار في اكثره شعر مناسبات وأداة استجداء لا يخلو من تأثيرات المدنية والثقافات الجديدة .

وقد فشت حينئذ رغبة شاملة بين المثقفين في نظم الشعر، حتى اصبح عنصراً ضرورياً من عناصر الثقافة والعلم، وزياً يُقبل عليه كل متعلم وكل خليفة ووزير، سواء اجتمعت لقائله مؤهلات الشعر ام لم تجتمع ؛ وكلٌ يحرص ان يدخل على شعره ما حصّله من الثقافات الاجنبية الجديدة، والعلوم المترجمة الحديثة . فاصطبغ الشعر بعقليّات طريفة ولاسيا العقلية اليونانية . أما في الصنعة الشعرية، فقد طغى التأثير الفارسي بما فيه من وفرة التفخيم والتنميق وگرام اللون، يساعد على ذلك ما امتازت به المدنية الفارسية من زخرف وأصباغ في المساكن والملابس ومرافق الحياة واللهو، ووُشي وترصيع في عاّمة الفنون .

وقد ذاع بالتالي نوع من علم خاص للشعر وللمحسنات اللفظية والبديعية بعث موجته مسلم بن الوليد . وبعد ما كان الشاعر القديم يأتي بالشعر عن انقياد فطري، ولا يلجأ الى المحسنات الا عفواً او عن محاكاة بريئة، غدا شاعر هذا العصر ينظم وهو واع لكل كلمة من قصيدته، عارفٌ من قبل كيف يرتب ابياؤها، عالم

بطرق البيان التي ينبغي انتهاجها لتجويد الفاظه ومعانيه . وهكذا أمسى التصنيع
البديعي دأب كل شاعر كبير او صغير .

٢ حياة ابي تمام :

١ - مولده وصباه : ولد حبيب أبو تمام على ما يُرجح في جاسم، وهي قرية
قرب دمشق على طريق طبرية وذلك نحو سنة ٧٩٦م/ ١٨٠هـ من ابرأ جمع المؤرخون على
أنه نصراني اسمه تدؤس (تصغير تدأوس او ثيودوسيوس)، ومن أصل غير عربي
قد يكون يونانياً . وعندما انتحل الشاعر الاسلام ديناً، غير اسم ابيه فدعاه أوساً،
وانتسب الى قبيلة طيئ العربية، فعُرف بالطائي . وقد انتقل مع ابيه الى دمشق
حيث عمل عند حائك .

٢ - طلائع قلقة : وكانت مواهب أبي تمام الشعرية قد بدأت تتفتق عندما
انتقل من دمشق الى حمص ونظم أولى قصائده في الهجاء . وفي حمص صادف
الشاعر ديك الجن، الذي عالج في أدب شاعرنا تأثيراً يُذكر، ولا سيما في ما يتعلق
بالصناعة اللفظية .

ثم غادر حمص الى مصر، وهو لا يزال يافعاً في نحو السابعة عشرة من سنه .
والأرجح أنه قصدها في انتجاع الرزق؛ فكان يسقي الماء في الجامع، والجامع اذ
ذاك مثابة العلماء والطلابين، ويواظب الى جانب مهنته على تتبع حلقات العلم، حتى
تضلع من الادب العربي والشعر .

وقد حاول حينئذ ان يبرز مقدرته الشعرية، فاتصل بعباش بن لهيعة الحضرمي

(١) ديك الجن شاعر شامي وُلد في حمص سنة ٧٧٧م/ ١٦١هـ، وتوفي سنة ٨٤٩م/ ٢٣٥هـ.
سكن حمص ولم يبرح نواحي الشام منتجعاً بشعره ولا متصدياً لأحد إلا في النادر . - وكان خليعاً
ماجنأ منعكفاً على القصف واللهو، متلافاً، شديد العصبية على العرب .

هو شاعر مجيد . قصر شعره على نفسه، فوصف الحمرة وتغزل . وهو يذهب مذهب ابي تمام في
شعره، وقد تلمذ له ابو تمام وأخذ عنه اساليب شعرية جرى عليها .

ومدحه ؛ الا انه لم يظفر منه بكبير طائل ، فهجاه بعد مدحه . وضائق حاله في مصر ، وكثر تبرمه ، فما لبث ان هجرها عائداً الى الشام حيث حاول ان يتصل بأبي المغيث موسى الرافعي ، فلم ينل منه اكثر مما نال من عيَّاش في مصر ؛ ثم توسل الى الظفر بحظوة المأمون فلم يُفلح ؛ واضطر الى مغادرة بغداد والضرب في مختلف الانحاء . إلا انه قضى في الموصل معظم أوقاته .

٣ - عهد الاقبال : ولم ينقطع أبو تمام في كل تلك الأثناء عن قول الشعر . وكانت شهرته تتسع شيئاً فشيئاً ، ومقامه في الشعر يسمو ؛ حتى بلغ ذكره المعتم فاستقدمه ، واكرم مشواه ، واتخذ شاعراً له يمدحه ، ورفيقاً يمضي معه في غزواته ، ويصف مواقفه .

الا ان أبا تمام لم يكن ليتخذ له مكاناً يستقر فيه ، بل ظلّ دائماً على التجوال بين مختلف الانحاء ، فتهاياً له الاتصال بكثيرين من أولي النفوذ اذ ذاك ، ونال جوائزهم ؛ وقد يكون جمع في احدى تلك الجولات « ديوان الحماسة » وكان ذلك ، على ما قيل ، بأن اعترضه الثلج في فارس ، فعكف على العمل ريثما يذوب الثلج . ولقد لقي الشاعر إكراماً خاصاً ، لدى الحسن بن وهب كاتب ابن الزيات الذي تولى فيما بعد ديوان الرسائل . فقد أقر له مقاماً في الموصل التي كان الشاعر يؤثرها ، وولاه على بريدها .

غير ان ولايته هذه لم تتعد مدتها السنتين ، إذ ما عزم ان توفي سنة ٨٤٣ م / ٢٢٨ هـ ولماً يناهز الخمسين .

(١) قال جر جي زيدان في الجزء الاول من تاريخ التمدن الاسلامي ص ١٩٨ : « يراد بالبريد في الدول الاسلامية غير ما يراد به الآن ، فقد كان صاحب البريد او صاحب الخبر ، أشبه برئيس البوليس السري او رقيب اصحاب الاعمال ، او هو عبارة عن جاسوس الخليفة او الأمير او عينه الباصرة وأذنه السامعة ، ينقل اليه اخبار عماله ، او مساعي اعدائه . فالبريد من هذا القبيل اشبه بقلم الخبرات في نظارة الحربية ؛ وكان الخلفاء لا يولون البريد إلا ثقتهم من اهل التعقل والدراية ، لأن على ما ينقلونه من الاخبار تتوقف علاقات الخلفاء بعمّالهم او بعاصريهم ، وكان البريد واسطة العلاقة بين الولاة والخليفة ، ينقل الاوامر ... »

٣ نفسه : يمتاز أبو تمام بشخصيتين متباينتين ، شخصية ارسطوقراطية مترفعة
انصفت بها حياته الخارجية والرسومية ، وشخصية شعبية بسيطة
- مبتذلة أحياناً - تتجلى في حياته الخاصة .

١ - الشخصية الارسطوقراطية : أما في الاولى ، فيبدو أبو تمام ذاعزّة وانفة
عارفاً قدر مواهبه ، مبالغاً في تقديرها ، معتمداً بنفسه الى حد الكبر ، لا يجالس إلا
العظام ، يدحهم في غير ترؤف ، ولا يرضى لشعره فيهم العادي من الجوائز والثواب .
وهو الى ذلك ، قلق النفس ، كثير الطموح ، لا يستريح الى البسيط من العيش ؛
يغالي الى التحمس للدين وللقومية ؛ ويتأبى القليل في كل شيء ، يتأباه في العلم
فينصرف في رغبة نهجه الى الوعي والتحصيل ، ويتأباه في المال فيسعى وراءه مقتحماً
أجسم الاخطار .

فكان من ثم مغامراً شديداً ذا عنفوان وبأس ومضاء ، لا يكاد يستقر في
مكان ، بل كان ابدأ دائب التنقل والسفر ، يكسب في سفره من المال ما يوفر له
أسباب الرفعة ، ومن العزم ما يزيده عنفواناً ، وينشر صيته في جميع الانحاء .

٢ - الشخصية الشعبية : ولا ياتي تمام الى جانب هذه الحياة الجبارة حياة
شعبية أوفر إنسانية وبساطة ، يظهر فيها الرجل طيب المعشر ، كريماً ، دمث
الاخلاق ، كلفاً بمظاهر الألفة والصدقة ، مغرماً بالطرب والشرب والتمتع بالحياة
المترفة الالهية ؛ لا بل كان يرسل نفسه أحياناً الى دركات بعيدة من الاهمال
الديني ، والاسفاف الخلقي ؛ فيتخلى عن عقائده في سبيل مكسب رخيص ، ويهون
من قدر نفسه لاجل لذات مبتذلة ، معنأ في المجون والاستهتار على غير مبالاة .

ومن كل ذلك يتجلى لنا في مزاج ابي تمام الميل الى التناقض . ولم يتمكن
أبو تمام من ضبطه وتقويمه ، فظهرت له تناقضات صارخة في حياته وفي شعره .

٤ آثاره :

١ - الديوان : لابي تمام ديوان شعر جمعه الصولي ورتبه على حروف المعجم ، ثم رتبته بعد ذلك علي بن حمزة الاصفهاني حسب موضوعاته ؛ وطبع الديوان مراراً في مصر وفي بيروت ، إلا ان جميع هذه الطبعات قد فشا فيها الكثير أو القليل من التحريف والتخليط ؛ أما محتويات هذا الديوان فمختلف فنون الشعر العربي المعهودة ، من مدح ، وثناء ، ووصف و غزل ، وفخر ، وعتاب وهجاء ، وزهد .

٢ - المختارات : ولم يقتصر ابو تمام على ديوانه شأن شعراء العرب السابقين ، بل فتح في الادب باباً جديداً ، جراه فيه كثير من الشعراء والأدباء من بعده ، إذ عكف على تصنيف الكتب ، وجمع آثار شعراء آخرين ، فكان له فيما عدا ديوانه الخاص ، سبع مجموعات شعرية هي :

١ - كتاب الاختيار من اشعار القبائل : يشتمل على أشعار اختارها من شعراء القبائل المختلفة .

٢ - كتاب الاختيارات من شعر الشعراء : يشتمل على مختارات من شعر شعراء لا يعرف عنهم إلا القليل .

٣ - كتاب الفحول : فيه مختارات من أجود قصائد شعراء الجاهلية والاسلام تنتهي بابن هرمة .

٤ - كتاب الحماسة : قيل ان ابا تمام جمعه في دار ابي الوفاء بن ابي سلمة ، في همدان عندما اضطرته الثلوج الى الالتجاء الى هذه المدينة في اثناء عودته من زيارة عبدالله بن طاهر ، وقد رتبها على عشرة ابواب خص كل باب بفن ؛ وكان باب الحماسة أولها ، فأطلق اسمها على الكتاب بأجمعه . وقد ضمن ابو تمام كتاب « الحماسة » ما رآه أحسن الشعر العربي من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي .

٥ - اختيار المقطعات : وقد رتبته على نسق « الحماسة » ولكنه بدأه بالغزل .

٦ - مختارات من شعر المحدثين .

٧ - نقائض جوهر والاخلط : ذكر فيه الشاعر عشرين نقيضة للشاعرين ، ومعها نقيضة للفرزدق ، وشعراً مختلفاً للسفاح التغلبي ، والمرقش الأكبر ، والزبان الشيباني ، وعمرو بن لآي التميمي .

ولم يصل إلينا من جميع هذه المجموعات ، سوى كتابي « الحماسة » ، « والنقائض » .
نشر هذا الأخير لأول مرة الأب انطون صالحاني . إلا أنه قد فُقد من أصل النسخة بعض أوراق ، وفسد بعضها ، وعرا ترتيبها شيء من الاضطراب .

٥ ابو تمام ساعر العظماء :

١ - المديح :

١ - كثرة مديحه : شغل المدح القسم الأكبر من حياة أبي تمام ومن شعره ، فإنه لم يكد يغفل في عصره أحداً من عليّة القوم ، ومن العظماء ونخبة الأدباء إلا تقرب منه ومدحه ، طمعاً في المال والشهرة ، حتى بلغ عدد ممدوحيه نحواً من ستين شخصاً .

٢ - أسلوبه ومعانيه : ليس لأبي تمام أسلوب واحد ، يميز جميع قصائده المدحية . فهو تارةً يوظف المدح بالحكم والوصف ، وتارةً يشرع فيه من غير توطئة . ولكن أسلوبه عموماً ، هو الأسلوب القديم ، فيستهل قصائده بالوقوف بالديار ، والبكاء والاستذكار ، والتحدث إلى الأحباب . ثم ينتقل فجأةً إلى المدح الذي يمتاز بالجزالة وطول البحور ، وشدة الجرس ، والفخامة في الالفاظ ، يساعده على ذلك كثرة محفوظه من الشعر القديم وتعمقه فيه ، وميله إلى النزعة العربية في الأدب .

ولم يكن أبو تمام عموماً يذكر في ممدوحه الصفات التي يجدها فيه واقعياً ، بل كان ينظر إليه ، أياً كان ، نظرةً جديةً ، مفعمة بالنبل والعظمة ؛ وإذا الممدوح دُمية

بديعة، يطلق الشاعر لخياله الحرّية في نحتها وزخرفتها؛ حتى أفضى به ذلك الى خلق مثال اعلى لجميع ممدوحيه صيغ من الشجاعة والنجدة، والكورم والمروعة، وما الى ذلك من الخلال التقليدية، يطبعها جميعها بسمة خاصة من السمو البعيد عن البسيط العادي، وبصبغة عربية خالصة، مغرقة في العروبة والبداءة. قال في مدح المأمون :

الله أكبر، جاء أكبر من جرت فتعشّرت في كنهه الأوهام^١
من شرّد الإعدام عن أوطانه بالبذل حتى استطرف الإعدام^٢
وتكفل الأيتام عن آبائهم حتى ودّدنا أننا أيتام

وقال في مدح المعتصم :

هو البحر من أيّ النواحي أنبتة فلجّته المعروف والجود ساحله^٣
نموّد بسط الكف حتى لو أنه ثناها لقبض لم تطفه أنامله^٤
ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها، فليستق الله سائله

وقد أدخل أبو تمام على الاسلوب القديم ناحية من نواحي التجديد فطبعه بنزغته الشخصية الى الزخرف البديعي، الزاخر بالصور المبتدعة الطريفة، والى جودة التفكير التي تكسب قصائده تلاحماً منطقيّاً بين مختلف أجزائها. وأدخل على قصائده ايضاً طابع عزّته وكبره. فهو في ختام الكثير منها يهديها الى الممدوح، مفرطاً في إطرائها، كأنها اجمل ما يمكن ان يقال في الشعر، وأنفس ما يهدى الى عظيم :

سور القرآن الغر فيكم أنزلت ولكم تصاغ محاسن الأشعار^٥

(١) تعشّرت : أصابها العي. في كنهه : في حقيقته. الأوهام : الظنون (٢) الإعدام : الفاقة والفقر. البذل : العطاء. استطرف : وجد طريقاً اي حديثاً مستحسنًا (٣) اللجة : معظم الماء. يشبهه ممدوحه بالبحر فيجعل الفضل لجة له، والجود ساحلاً (٤) ثناها : عطفها وردّها. ففي هذه الايات معان قديمة معهودة ولكن الشاعر بقوة شاعريته وابتكاره كساها قوة فريدة، وطبعها بطابع عزّته وكبريائه (٥) القرآن : القرآن. الغر : الحسنة والكرمية.

وإننا سنجد هذه الميزة الجديدة، في المعاني والاسلوب، عند أغلب شعراء المدح الكبار الذين عقبوا أبا تمام، ولاسيما المتنبي منهم، حتى لتكاد تكون ميزة طور جديد في المدح العربي بل في العقلية العباسية .

إلا أن مدائح أبي تمام لا تخلو، الى جنب ذلك، من غشائية . وهذه الغشائية تباع أحياناً حداً بعيداً، ولاسيما إذا تكلف الشاعر المدح تكلفاً، وهو لا يؤنس من نفسه اليه دافعاً غير الرغبة في نوال غرض يبتغيه كفرس أو ثوب أو مال . فيكثر من الاستجداء المكشوف، ويشيع الابتذال في معانيه، وفساد الذوق في صورته .

٢ - الهجاء والعتاب : لم يكن أبو تمام شاعراً هجاءً، إنما كان يلجأ الى الهجاء في احوال طارئة بين الحين والحين، دفاعاً عن نفسه وشعره، وحرصاً على أن يظل شاعر العظماء الاثير . وهجاؤه يتنوع بتنوع الاحوال التي كانت تدعوه اليه، والإشخاص الذين يخصهم به .

فهو تارة عتاب رفيق مترفع يلفت به نظر ممدوحيه الذين يكرّمون مشواه الى إغفال فرط منهم فلم يثيبوا شعره الثواب الحسن، ولم يقدروه مثلهما يستحق أو كما كان طمعه يشتهي .

وهو تارة صرخة اسف وخيبة امل . وقد كان ذلك في اوائل عمره خصوصاً، إذ كان يقنط من ممدوحيه، ولا يجد لشعره صدى في نفوسهم، فيتظاهر بالترفع عنهم واستصغاره لشأنهم، بعد ما أبدى لهم من تودّد ورغبة في نيل حظوتهم . ويمتاز هذا النوع من هجائه، بمزيج من الرثاء والحزن والمرارة .

وهجاؤه أحياناً أخرى قتال عنيف يُجهز به على كل حسود أو منافس من شعراء عصره، أو على الذين ينتحلون شيئاً من شعره . فهو يريد أن يظلّ أبداً المقدم الفرد، ولا يطيق لنفسه زميلاً أو مبارياً . وفي هذه الفئة من هجائه يبدو الرجل شديد العنف والكبر والحنق، مهاتراً غير مهاود في التجريح والتعزيق، مفحشاً أحياناً في السباب والتعيير .

ثم إن هناك هجاء قليلاً موجهاً الى اصدقائه ادخلناه في باب شعره الغنائي .
 وأسلوب ابي تمام عموماً، في الهجاء، هو اوفر طبيعية ويسراً منه في سائر شعره .

٣ - الرثاء : رثاء ابي تمام قليل جداً بالنسبة الى مدحه . وهو يُقسم الى قسمين : ما قاله في ذوي قرباه، وما قاله في العظماء والمشهورين في زمانه . واننا سنقتصر هنا على درس القسم الاخير لا غير .

وبديهي أن هؤلاء الذين رثاهم في شعره هذا، لم يرثهم عن قلب مجروح ولوعة صادقة . إنما هي احوال قضت بالندب، فأطلق الشاعر صوته جارياً على ما يقتضيه هذا النوع الادبي من تفجع واسف، قد يغالي فيها الى حد غير طبيعي، ويعمد في الغالب الى تعداد مناقب الفقيد، مبالغاً في إطرائها، مبالغاً بالتالي في تعظيم الرزء، واستصغار الحياة الزائلة الخداعة التي لا تراعي لمثل تلك الحلال الفريدة حرمة .

وتغلب في أسلوب ابي تمام الرثائي هذا الجزالة والوزانة، والصناعة اللفظية . فالعاطفة من ثم هي عاطفة فنية مصطنعة، بعيدة عن الحزن الحقيقي وعن التأثير .

إلا أننا نلمح في نفس الشاعر أحياناً عاطفة أسمى عميقة كامنة في صدره، تساعد تلك الاحوال على انفجارها، فتبرز في شكل حكمة متجهمة، مثقلة بالتشاؤم وازدراء الدهر، أو في صرخة ألم يتناغم فيها حزن الشاعر الداخلي والحال الفاجعة التي تدعوه الى الرثاء .

٦ أبو تمام الشاعر الغنائي :

١ - الغزل والاخوانيات :

١ الغزل : لا نعدُّ طبعاً، من غزل ابي تمام، ما كان يهدف به لقصائده المدحية أحياناً من ابیات متكلفة، كاذبة، جافة من كل عاطفة وحياة؛ فالشاعر لم يكن يقصد التعبير بتلك الابيات عن عاطفة ما، إنما هو تلفيق أدبي معروف .

وإنما لابي تمام في ديوانه بابٌ في الغزل منفرد، يتألف من مقطوعات صغيرة قلماً تتجاوز الواحدة منها بضعة أبيات، كأنها ومضات إنسانية عابرة، في جو تلك الحياة المزدحمة بالمغامرات والشدة، وفلتات عاطفية طبيعية، في سواد ذلك الشعر المصنوع.

ففي هذه المقطوعات الصغيرة تكاد تتمحي آثار التكلف والصناعة، فتروق الالفاظ، وتعذب الاوزان أحياناً، وتتجلى نفس حساسة، سريعة التأثر، عميقة الشعور، جذابة، تنبض بالطف المشاعر وارقتها.

وإن لم يكن غزل ابي تمام عموماً غزل حبٍ ناثراً عفيفاً، وإن كانت أغلب مقطوعاته الغزلية تأثرات وقتية، فإنه قد ترك فيها تصاوير مقتضبة رائعة لأظهر عوارض الحب وما ينتابه من اعجاب، وامل، وغيرة، وخيبة.

ومع أن أغلب غزل ابي تمام في الغلمان، فهو عموماً بريء من تهتك شعراء المجنون وخشهم.

٢ الإخوانيات : والظاهر لمستقري شعر ابي تمام ان الشاعر كان اقرب الى الاجادة في وصف عواطف الصداقة منه الى الاجادة في وصف الحب. وقد برع من ثم في ما يدعوه نقاد العرب « الإخوانيات ». فأبو تمام يؤمن بالصداقة، ويبتغيها بجرص، ويحتفل لها بحفاوة جمّة، مظهراً اصدق الإعجاب بمظاهرها الرائعة :

مَنْ لِي بِإِنْسَانٍ إِذَا أَغْضَبْتُهُ وَجَهِلْتُ كَانَ الْحِلْمُ رَدَّ جَوَابِهِ
وَإِذَا طَرَبْتُ إِلَى الْمَدَامِ شَرِبْتُ مِنْ أَخْلَاقِهِ، وَسَكِرْتُ مِنْ آدَابِهِ
وَتَرَاهُ يُصْغِي لِلْحَدِيثِ بِقَلْبِهِ وَبِسَمْعِهِ، وَلَعَلَّهُ أَذْرَى بِهِ

وقد يبلغ من الصداقة حدّاً يثار الاصدقاء ايثاراً سخياً جميلاً، حتى لنراه يبدي تألماً لآلم ساور احدهم، ويأسف لسرور لم يشاركه فيه، ولا يرضى بنفسه في

سبيل سعادتهم . وفي « اخوانياته » شبه لمحات في فلسفة نفسية الحب، ومقاطع رائعة تعبر عن ألم فراق الاصدقاء، وفراغ الديار الخالية منهم وبؤسها، وما لمنازل الصداقة من سلطة على النفس لا تقاوم، ومن اروع قوله في ذلك :

نَقَلَ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
كَمْ مَتَرَلِ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى وَحَبِيبُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَتَرَلِ

ولست عاطفة ابي تمام الودية مقصورة على قصائده في الغزل والاخوانيات، بل قد تبدو ايضاً في المدائح الموجهة الى من يخصهم بحب صادق وفي هذا البيت الذي يختم به قصيدة مدحية :

كَتَبْتُ وَلَوْ قَدَرْتُ هَوَى وَشَوْقًا إِلَيْكَ، لَكُنْتُ سَطْرًا فِي الْكِتَابِ

كما تتجلى في رثاء اصدقائه وانسابه وهجائهم وعتابهم احياناً .

٢ - الرثاء : أما في رثاء اصدقائه وانسابه فنتبين قلباً شديداً التأثر بالفاجعة . شعره بكاء حقيقي وانين يتصاعد من جروح بليغ، ولوعة مالموسة ، تتردد له اصداء بعيدة في نفوس قارئيه . ومن اروع قصائده في ذلك اثنتان : واحدة قالها في ابنه فأبدع في تصوير حركاته الاخيرة الموجعة، العالقة في مخيلة الاب المسكين وقلبه لا تفارقهما؛ وفي تصوير فراغ النفس وحزنها عقب تلك الوفاة . والاخرى في أخيه، وهي، على قصرها، رائعة في وصف النزاع، وألم الفراق الاخير، تستحق لابي تمام مقاماً رفيعاً في الشعر الغنائي . ومما قاله فيه :

يَا هَوْلَ مَا أَبْصَرْتُ عَيْنِي وَمَا سَمِعْتُ أَذُنِي، فَلَا أَبْصَرْتُ عَيْنِي وَلَا أَذُنِي
لَمْ يَبْقَ مِنْ بَدَنِي جُزْءٌ عَاشَمْتُ بِهِ إِلَّا وَقَدْ حَلَّتْهُ جُزْءٌ مِنْ الْحَزَنِ
كَانَ اللَّحَاقُ بِهِ أَهْنًا وَأَحْسَنَ لِي مِنْ أَنْ أَعِيشَ سَقِيمَ الرُّوحِ وَالْبَدَنِ

٣ - هجاء الاصدقاء وعتابهم : وهنا ايضاً نرى رقة عاطفة الشاعر في الصداقة،

وعمق تأثره بخيانة الصديق، وابتعاده بعد ألفه، ونسيانه المعروف؛ كما نرى بغض الشاعر للتقلب وقلة الاخلاص .

٤ - الفخر : لابي تمام قصائد قليلة في الفخر، يبدي فيها إعجابه بعقله الباكر الفذ، وعبقريته الشعرية، وبصره ومضائه في اقتحام الصعاب، وسعيه واسفاره؛ كما يُعرب فيها عن إعجابه بقبيلته طيّ، وما تمتاز به دون سواها من حُجى وحلم وشجاعة، ومن مجد أثيل، وندى فياض . ويمكننا ان نلحق بفخر أبي تمام وصفه للمعارك، حيث يتجلى بوضوح اعتزازه بمآتي قومه البطولية . وفي هذا الشعر الفخري والحاسي نلغي غالباً نفساً متأججة تتنزي اندفاعاً عاطفياً جبّاراً، وتغمر شعر ابي تمام بقوة لا تُقاوم .

٥ - الزهد : لم يقل ابو تمام في الزهد شعراً كثيراً . إلا ان زهدياته، على قلتها، تصوّر بأمانة نفس الشاعر الكثيرة الآمال والمطامع، وقد ظفرت ببعض رغائبها؛ بعد ان أغرقت احياناً في طلبها الى حدّ الافراط؛ ثم رأت كل شيء ينهار ويزول، مع تقدّم السنّ والمشيب، ولا يدع أثراً غير الاسف على سرور تقضى كالحلم، والندم على خطأ اقترّف في سبيله، والقلق الحائر إزاء سرّ الآخرة الرهيب . وفي الزهد تتجلى نفس أبي تمام عميقة الإحساس بالحياة، شديدة التأثر بالحالات النفسية الجدية المحزنة .

وهكذا يتجلى لنا ما يمتاز به ابو تمام، في الاجمال، من عاطفة حادة الارهاق سريعة الشعور، غنيّة بمختلف التأثيرات، يتراجع فيها لكل طارئ من طوارئ الحياة اصداً بعيدة .

٧ ابو تمام شاعر الوصف : ترك أبو تمام في الشعر الوصفي قدراً لا بأس به نجد بعضه في قصائد مستقلة، قد أفرد لها باب خاص في ديوانه، والبعض الآخر موزعاً بين مختلف أبواب شعره، تنطوي المداخل على اغلبه . ويتفرّع وصف ابي تمام الى فئتين رئيسيتين : وصف الطبيعة ووصف المعارك .

١ - وصف الطبيعة : أما الطبيعة فقد استرعت اهتمام أبي تمام، واستهوته، واستولت على فؤاده، وشغلت القسم الأكبر من وصفه، فقد فتن جميع مظاهرها، وفصولها وحركاتها . وتوفّر على التمتع بكل جمال فيها ووصفه والتغني به . وقد ابقى لنا لوحات متنوعة في الازهار والرياح، والربيع والمطر والبرق . . .

واظهر ميزات وصف أبي تمام للطبيعة :

- دقة الملاحظة والتوفر على استقراء اخفى دقائق الموصوفات ؛ فقد اوتي الشاعر عيناً يقظة حادة، لا يكاد يفلت من مجال مراقبتها شيء، ولا تغفل عن شكل أو لون ؛ فأوصافه نقل للواقع المحسوس، مستوف لجميع التفاصيل الى حد بعيد .

- التأمل الفكري والانعكاف على خفايا الاشياء المحسوسة، لاستخراج معانيها ورموزها . فأبو تمام لا يقف عند الظاهر وما يؤثر به على الاحساس، من ألوانه الزاهية العجيبة، بل يتخطاها الى نظرات وخواطر شعرية رائعة أحياناً :

دُنْيَا مَعَاشٍ لِلنَّوَرِ حَتَّى إِذَا حَلَّ الرَّبِيعُ فَأَيُّهَا هِيَ مَنَظَرٌ

الاكثار من المحسنات البديعية، والتوغل في المجاز الى حد يكاد يسبق فيه أبو تمام جميع الشعراء السابقين .

كثرة الاعتماد على الصور والمعاني القديمة .

وكان امتزاج هذه الميزات جميعاً حرياً بأن يطبع وصف أبي تمام بسمة التكلف والجفاء والانتقاض، وقد حدث ذلك أحياناً ؛ إلا ان الشاعر يجمع في الغالب الى هذه الميزات جميعها، من الانفعال النفسي الشديد لمراى الجمال، ومن قوة الخيال المبدع الذي يمتاز خصوصاً بمقدرة عجيبة على تشخيص الجماد وبث الحياة والحركة والدفء في كل شيء، ما يكسب دقة وصفه اتساعاً وشمولاً، وتأمله عمقاً، والمحسنات البديعية لألأة ولمعاناً ودقة شقافة، وما يبعث معانيه وصوره

التقليدية في حلبة طريفة، نابضة بالحياة والشخصية؛ وما يجعل وصفه عموماً بارعاً
أخذاً يرفع أبا تمام في ادبنا الى مستوى رفيع بين شعراء الطبيعة العباقرية .

٢ - وصف المعارك : وقد اشتهر ابو تمام، الى جانب وصف الطبيعة، بوصف
المعارك . ومن اروع ما قاله في ذلك بائيته الشهيرة، في فتح عمورية، وبعض ابیات
اخرى قليلة تأتي في عرض مدائحها؛ وهذا الشعر يعدّ مثلاً للشعر الملحمي في
أدبنا، لما فيه من تصوير واسع مهيب لاحداث خطيرة، وخيال رحب يعتمد الواقع
التاريخي ويتفنن بحرية في تفخيمه والتكثيف به، وألفاظ فخمة هدايرة، وأساليب
جزل ترخر فيه الصناعة اللفظية على مختلف ضروبها، كما يغمر الانفعال النفساني كل
بيت من ابياته، مما مهد السبيل للمتمني . قال في فتح عمورية :

تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ ، بِاللَّهِ مُنْتَقِمٍ اللَّهُ مُرْتَقِبٌ ، فِي اللَّهِ مُرْتَغِبٌ
لَمْ يَغْزُ جَيْشًا وَلَمْ يَنْهَضْ إِلَى بَلَدٍ إِلَّا تَقَدَّمَ جَيْشُهُ مِنْ الرُّعْبِ
لَوْ لَمْ يَقْدَحْ جَحْفَلًا يَوْمَ الْوَعَى لَعَدَا مِنْ نَفْسِهِ وَحْدَهَا فِي جَحْفَلٍ لَجِبِ

وخلاصة القول في وصف ابي تمام أنه من اخطر اركان نبوغه، يمتاز فيه الشاعر
بخيال واسع، خصب الابداع لا ينطق الا بالصور؛ تعضده ملاحظة دقيقة
نافذة، ومقدرة عجيبة على بث الحياة .

٨ ابو تمام شاعر المعاني :

١ - عوامل تفكيره : امتاز أبو تمام بذكاء حاد نادر، كلف بتقصي المعاني
والنزول الى اعماقها، وقد صادفت هذه النزعة فيه موافقة من حالة عصره العقلية

(١) يقول : ان فتح عمورية هو من تدبير حكمة المعتصم الذي ينتقم بمعونة الله من اعدائه،
وينتظر الله فيستمد منه العون ويعمل في سبيله، ولا يرغب الا فيه جلّ جلاله . وفي هذا البيت من
التشطير وشدة الايقاع الموسيقي ما يكسبه قوة وتأثيراً عظيمين (٢) الجحفل : الجيش .
الوعى : الحرب . اللجج : الجيش العظيم الجلبة لكثرة عدده .

وتشجيعاً؛ فقد فرغ من نقل طائفة حسنة من كتب الفلسفة والمنطق، عن اليونانية، فأقبل على استيعابها بشغف، وافاد منها ثقافة لم يكن لادباء العرب عهد بمثلها من قبل؛ وقد ظهرت آثار تلك الثقافة في شعره، فكثرت المعاني الجديدة، والادلة العقلية، واثتم المنطق في التفكير والتأليف. بل أصبح التوفر على المعاني من اميز صفات أبي تمام، في عامة ابواب شعره؛ فهو قلماً ينقاد في نظمه الى إيماءات عابرة، او يرضى بما تأتي به من خواطر بديهيّة. ومن ثمّ امتازت افكاره بالابتكار وببعد مطارح النظر، لانها ثرة تأملات عميقة أحاطت بالمعاني من جميع نواحيها، وبلغت أقصاها.

٢ - مذهبه واغراضه في تفكيره : وقلما يكتفي أبو تمام بفرض المعنى الطريف عرضاً سهلاً كما يتبدى له، بل يذهب في تعليقه المنطقي حتى يُبيده راسخاً وطيداً، بريئاً من كل تقلقل. وذلك ظاهر كل الظهور في كثير من آرائه وحكمه التي يعبر عنها غالباً في بيتين، يعرض في الاول خاطرته، ويأتي في الثاني بمثال أو برهان يدعمها به، فيقول مثلاً :

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيحَةٍ طَوَّيْتُ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودٍ
لَوْلَا أَشْتَعَالُ النَّارِ فِيهَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرِفُ طِيبَ عَرَفِ الْعُودِ

ولابي تمام جملة من مثل هذه الخواطر الطريفة المحكمة، المعروفة بالحكم وهي جارية على الالسنّة، يُتمثل بها في مختلف الاحوال وتقوم دليلاً جليلاً على قوى الشاعر العقلية، وجمال معانيه.

ومن آيات براعته المعنوية أيضاً، طائفة من النظرات في النفس والحياة، والارشادات الادبية لا يقتصر فيها أبو تمام على الخبرة البديهيّة، بل يعتمد الى الثقافات العريقة المنقولة، يقتبسها، ولا يرسل آراءه إلا بعد اختبار مختبر، وتأمل شخصي طويل. ومجمل آرائه : أَنَّ العقل فخر رفيع، لا يتسنى إلا لافراد قليلين؛

وَلَيْسَ يُجَلِّي الْكَرْبَ رُمَحٌ مُسَدَّدٌ إِذَا هُوَ لَمْ يُؤْنَسْ بِرَأْيِ مُسَدَّدٍ

ومع هذا فالدهر خوان يُسعد الجاهل، ويُشقي الحكيم؛ ولكن ليس على الحكيم أن يبتئس، بل عليه أن يصبر على معاكسات الدهر، ويُبدي إزاءها شدة وتفوقاً وحلماً، فهذا أعظم سلاح وزاد؛ والحكيم لا يكفيه عقله، بل يلزمه المال للقيام بمقتضيات شخصيته، والمال يُجتنى بالسفر الذي يكسب فوق ذلك اتساع الخبرة، وتجديد الشخصية :

أَلْصَبْرُ كَاسٍ وَبَطْنُ الْكَفِّ عَارِيَّةٌ وَالْعَقْلُ عَارٍ إِذَا لَمْ يُكْسَ بِالنَّشَبِ^٢

إلا أنه ليس لذلك كله قيمة بالنظر الى زوال الدنيا .

ولاني تمام فيما عدا ذلك، ما يسؤونة «الكلمات الجامعة» . وهي عبارات مقتضبة، محكمة في شكل يكاد يكون نهائياً، تُعبر في ألفاظ قليلة عن معنى كبير واسع، مثل قوله «موطن النهى» للدلالة على الرأس والعقل؛ وهذه «الكلمات الجامعة» هي أيضاً من دلائل توفر الشاعر على المعاني .

وعلى الجملة، فالشاعر، في أي تمام، هو ذلك المتأمل المتبصر، الكثير الاحتفال بالمعاني والكثير العناية بها، الى حدٍ يتعمد معه الشعر وتفسد موسيقاه . فهو يتكلم الى العقل المتبصر قبل كل شيء، ويطبع بسمة عقله جميع عناصر شعره حتى العاطفة والخيال .

ولسنا ننكر ما لاي تمام من الساقط في افكاره، فانه كان ينحط في بعض منها الى دركات لا تليق بعبقريته؛ واصل ذلك متأثر عن انه لم يستطع الاحتفاظ دائماً بالتوازن في تفكيره، او أنه لم يتمكن من استساغة جميع ما وعاه من الثقافات والعلوم التي ألم بها . إلا أن اعتماد التفكير في شعره، وما اتاه من معاني جميلة لا تكاد تحصى، كل ذلك جعل له محلاً فريداً بين شعراء عصره . فكان رجلاً الطليعة الذي شقَّ الطويق ومهدا لمن سيأتي بعده من شعراء المعاني .

(١) يُجَلِّي: يُذهِب . لم يُؤْنَس: لم يُصَحَّب . الرأي المسدَّد: المُصِيب (٢) النَّشَب: المال .

٨ فم : أبو تمام إذن شاعر المعاني، قد طغى العقل على جميع قواه ونظم جميع عناصر شاعريته، في امتزاج وثيق محكم، فغدا شعره فكراً عميقاً، يعبر عن نفسه بالصور الخيالية، ويسكب عليها الشاعر من انفعاله النفسي حياة وحركة . وقد كانت العبارة، عند أبي تمام، في أوثق اتصال بالفكرة والصورة والعاطفة، تتكيف معها جميعاً، فتسفت أحياناً، وتتعمد في الغالب، وأحياناً أخرى، وهي نادرة، تُشرق جلاءً ووضوحاً .

ولا بدع في ذلك، فلشعر أبي تمام، كما لنفسيته، وجهان متناقضان يتفاوتان تفاوتاً شاسعاً . فهو تارة يرسل شعره على عواهنه في إهمال شنيع، فتسفت فيه الأفكار والصور والتعبير جميعاً، إسفافاً مفرطاً، فيه كثير من الركافة واختلال الذوق ؛ وهو تارة يولي تعبيره من العناية والجد بقدر ما يولي معانيه . وأبو تمام عادة لا يرضى بالطبع معيناً وحيداً لفنه وشعره، بل يعتمد على التهذيب والتثقيف، ويعين في ذلك، حتى يلقي شعره الصنعة، ويقومه على ما يتعمده منها فهو في سواد فنه صانع كلام « من السلالة الزهيرية »، دائب على الصنعة والتحكيك، يتكبد في سبيلها الكثير من العنت والعناء ؛ وكانت نتيجة هذه الصناعة في الغالب : الاسراف في الاخذ بالمحسنات البديعية، والزخرف والتعقيد والاغراب :

١ - الاسراف في البديع والزخرف : اتصل أبو تمام بمسلم بن الوليد، وتأثره في تعمّد البديع، إلا انه ذهب فيه الى ابعد مما ذهب مسلم، فبلغ حدّ الاسراف والافراط ؛ وازاد اليه من عقليته وثقافته الخاصتين علماً وتعقيداً . فحفل شعره بالجناس والطباق وضروب الاستعارة والكناية ومراعاة النظير وما الى ذلك . وكان أبو تمام شديد الولع بالطباق فأمعن في تقصّده حتى غدا كأنه الميزة الأساسية لتفكيره وتصويره وتعبيره . وقد أغرق كذلك في المجاز، حتى غفل عن مراعاة التناسب بين ذلك المجاز والحقيقة، فبالغ في اسناد الشيء الى غير ما هو له كما بالغ في التشخيص، مما ملأ اوصافه بالصور الغريبة الغير المألوفة .

ثم إن أبا تمام لم يستخدم الزخرف استخداماً بسيطاً، شأن مسلم بن الوليد، الذي يأتي بألوانه منفردة، متعاقبة في غير اختلاط، بل يعقده تعقيداً شديداً، فيمزج ألوانه بعضها ببعض، ويرتبط بعضها على بعض؛ فتتغير هيئاتها، ويتشعشع اللون بلون آخر، حتى يتراءى لنا خيال أبي تمام، دائماً على تحليل الأصباغ ليطل بها صورته الحسية الملموسة.

٢ - التعقيد والاغراب : وكان هذا الإسراف في البديع والزخرف حرياً وحده بأن يسم شعر أبي تمام بالتعقيد والاغراب؛ إلا أن الشاعر لم يقف عند ذلك، بل راح يضيف إلى الصناعة البديعية والزخرفية صناعة عقلية تزيد شعره تعقداً وغوضاً؛ فإنه لم يكن من الشعراء الذين يحرصون على أن يعانون وحدهم معالجة الفكرة المعقدة حتى تتضح لهم، فيعرضوها في وضوح على الناس، إنما كان دأبه أن يشرك قراءه أو سامعيه في هذه المعاناة، وأن يعرض عليهم فكرته، بكل ما فيها من عمق وتعقيد، وبكل ما ركن إليه في استيضاحها من أقيسة منطقية؛ زد على ذلك افراطه في استخدام الألفاظ الحوشية الأبدية التي يجد فيها أفضل أداة للتعبير عن خوارطه، والتراكيب المشبكية المضطربة التي تدلّ على جهوده في التعبير عما يحس به؛ وقد نجم عن ذلك أن فسدت الموسيقى في شعر أبي تمام أحياناً كثيرة، واختلطت فيه الانغماس في تنافر مزيج؛ وشاع الغموض « حتى صار كثير مما أتى به من معانٍ، على حدّ قول الآمدي، لا يُعرف، ولا يُعلم غرضه إلا مع الكدّ والفكر، وطول التأمل، ومنه ما لا يُعرف معناه إلا بالظنّ والحدس ».

ولم يكن أبو تمام كثير الاهتمام لذلك، فلا يعنيه فهم الناس شعره أم لم يفهموه. ولم يعن نفسه قطّ للتنازل إلى مستواهم أو اتخاذ رغباتهم وأفهامهم مقياساً لشعره، إنما كان يرى له المقياس الوحيد في عبقريته وهواه؛ وكان إذا اعترض عليه أحد وقال له : « لماذا تقول ما لم يفهم ؟ » يجيب : « لماذا لا تفهم ما يُقال ؟ »

ولا ننكر أن شعر أبي تمام لا يخلو من وضوح وسهولة في بعض حكمه وغزله مثلاً، إلا أن ذلك نادر. وكان يجمع شعره أحياناً أخرى إلى ميزات البديع والزخرف

والإغراب، قوّةً وشدةً أسرَ فريديتين هما مزيج من اندفاع العاطفة المضطربة، وجزالة التعبير الموفق في اختيار محسناته البديعية، من جناس يُكسب الكلام دويّاً خاصاً، وطباق يساهم في إبراز المعاني ويكسوها لوناً باهراً فريداً؛ ويغلب على مثل هذا الشعر عند أبي تمام الوقع الخطائي، فكان عباراته إذ ذاك، كما صورها ابن الأثير: «رجال قد ركبوا خيولهم واستلّوا سلاحهم، وتأهبوا للطراد».

هذا فضلاً عن جمال المعاني، الذي يُنسي أحياناً كثيرة ما عُوني في اكتشافه من عنّت ومشقة، خلال شذوذ ينافي الذوق والعقل أحياناً، وصناعة مسرفة مغلقة.

٩ فَمِمَّا أَبِي تَمَامُ الْخَفِيفَةُ : لقد ذهب النقاد في الحكم على قيمة شعر أبي تمام مذاهب متباينة، وتضاربت آراؤهم فيه تضارباً شديداً. وقد ساهم في توسيع هذا الخلاف توزّع الناس بينه وبين شعراء آخرين، ولاسيما البحتري. فكان له وعليه أحزاب مفرطة في التعصب؛ فهؤلاء لا يرون فيه إلا المسفّ في معانيه المغلقة وتعاييره البعيدة عن الذوق؛ وأولئك لا يرون فيه إلا العبقري الذي لا يجارى.

والواقع أن أبا تمام الحقيقي هو مزيج من هذا وذاك، فقد أوتي عبقريةً نادرة لم يتمكن من تنظيم قواها تنظيم الاتزان والذوق، بل أفسدها أحياناً من حيث أراد تهذيبها، فأفرط في الصناعة. ولم يأت إلا بالقليل من الروائع التي كان بإمكانه أن يُتحف بها الأدب العربي.

وهو يُعدّ في طليعة الذين جمعوا الثقافة إلى الشعر فارتقوا به إلى مستوى العقول الرفيعة كما أرسلوه على السنة الناس أمثالاً فيها ما يُدهش من روعة الصناعة والإيجاز والبيان، وقوّة السيل الشعري، ورجاحة العقل، وسلامة الذوق. وهكذا مهد سبيل الشعر العقلي لأبي العلاء، كما مهد طريق الحكم والأمثال لأبي الطيّب المتنبي وأوضح له طريق الشعر الملحمي الذي لمخنا بعض آثاره في العصور السابقة.

بعض المراجع

- مارون عبود : الرؤوس - بيروت ١٩٤٦ - ص ١٢٨ - ١٣٩
 طه حسين : من حديث الشعر والنثر - ص ١٥٢ - ١٨٧
 خليل مردم : شعراء الشام في القرن الثالث - دمشق ١٩٢٥
 الاب نقولا ابو هنا ب م : فوضى الاقلام - المسرة ٢٣، ٢٤
 محمد عبده عزّام : ليالٍ خمس مع ابي تمام - القاهرة
 علي ادم : الحب والصدّاقة في شعر ابي تمام في (كتاب « على هامش الادب والنقد »)
 ص ٩٢ - ٩٨
 شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي - القاهرة ١٩٤٥ - ص ١٣١ - ١٦٤
 عبد الرحمن شكري : ابو تمام شيخ البيان - الرسالة ٧ (١٩٣٩) - ص ٦١٧ - ٦١٨
 و ٦٦٠ - ٦٦٣
 جبر ضومط : ابو تمام حبيب بن اوس الطائي - الكليّة ٥ - ص ٥ - ١١ و ٤٧ - ٥٢
 و ٨٢ - ٨٧
 برهان ابراهيم الاتاسي : ابو تمام نفسيّته وشعره - الكشّاف ٤ ص ٤٢٠ - ٤٣٦

موضوعات للبحث

- ١ - كان ابو تمام في طليعة الذين أرجعوا للشعر نزعتة الارستقراطية . ناقش هذا القول وأظهر بعض آثار القديم والجديد في شعر ابي تمام .
- ٢ - كان لنفسيّة ابي تمام أثر عميق في توجيه تفكيره وتصويره وتعبيره . اوضح ذلك .
- ٣ - هل استطاع ابو تمام ان يستمض عن العاطفة الطبيعيّة الصادقة بالعاطفة الفنيّة، وأن يُرضي الفنّ ويرضي من وجّه اليهم شعره ؟
- ٤ - قال ابن الأثير : « اما ابو تمام فإنه ربّ معانٍ وصيّقل ألباب واذهان، وقد شهد له بكل معنى مبكر، لم يمش فيه على أثر » . ناقش هذا القول .
- ٥ - قيل لأبي تمام : « لم تقول ما لا يفهم ؟ » فقال : « لم لا تفهم ما يُقال ؟ » ناقش هذه الفكرة مبتدئاً اسباب غموض شعر ابي تمام .
- ٦ - من اين استمدّ ابو تمام موصوفاته، وما مبلغ الفن فيها ؟
- ٧ - اعمد الى إحدى قصائد ابي تمام وحلّلها واستخلص ميزاته منها .

أدب الحركة المعاكسة - الشعر

الفصل الثاني

دُعْبِلُ الْخَزَاعِيّ (٧٦٥ - ٨٦٠ م / ١٤٨ - ٢٤٦ هـ)

١ حياته وأخلاقه : هو من أصل عزي، نشأ بالكوفة في صفة الشطّار والصعاليك . وتخرّج في الشعر على مسلم بن الوليد . اتصل بالرشيد وحظي عنده . ثم وُلّي على سَمِينْجَان ثم على أسوان . نشأ دُعْبِلُ نافعاً هجّاءً، جمع إلى بغضه للناس جفاءً في الطبع .

٢ آثاره : لم يصل إلينا من دُعْبِلُ إلا شعر قليل أكثره في مدح آل البيت، وفي الهجاء .

٣ قيمة شعره : دُعْبِلُ هجّاء مطبوع . وهو يقول هجاءه عن اندفاع نفسيّ، أو يتّخذُه أداةً للتكسُّب، أو يجعله هجاءً سياسياً . وهو إذا هجا يلجأ إلى التجريح والسب والطعن في فحش وإفداع .

ودُعْبِلُ متأثر في شعره بمسلم بن الوليد، يأخذ بالصناعة والزخرف البديعيّ ولكن في بساطة وسهولة . وشعره نابض بالحياة .

١ مَبَارَءُ وَاعْهَرُوه : أَبُو عَلِيٍّ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ رَزِينِ الْخَزَاعِيّ الملقب دُعْبِلًا من أصل عربي ينتهي نسبه إلى قحطان ؛ نشأ في الكوفة مصاحباً الشطّار والصعاليك، ثم قصد بغداد حيث اتصل بمسلم بن الوليد، فتولاه هذا بعنايته وخرّجه في الشعر، وكان له استاذاً يحدو حذوه في الأساليب الجديدة .

وما إن شبَّ دُعْبِلُ حتى اتصل بالرشيد وحظي عنده، فخلع عليه الخليفة وأجرى له رزقاً لإعجابه بشعره وتشجيعاً لشاعريّته الناشئة . وفي نحو سنة ٧٩٠ وُلّي دُعْبِلُ على مدينة سَمِينْجَان من أعمال طخارستان . وفي نحو سنة ٨١٥ مضى إلى الحجّ ثم

هرب الى مصر لاجئاً الى المطلب بن عبدالله بن مالك الخزاعي أميرها، فأواه وأكرم مشواه، وولاه أسوان، ولكنه مع ذلك هجاه فطرده الأمير واقصاه .

وقد نشأ دعبل بفطرته ناقماً هجاء، لا يرضى عن شيء، ولا يرتاح الى مدح احد، ينقاد الى النقد والثلب كلفاً بهما، لا يكف عنها . وهكذا ظلّ طول حياته ساخطاً على الجنس البشري جميعاً يهجو في أشخاص الافراد الذين يبسط فيهم لسانه، فيقول مثلاً :

إِنِّي لَأَفْتَحُ عَيْنِي حِينَ أَفْتَحُهَا عَلَى كَثِيرٍ وَلَكِنْ لَا أَرَى أَحَدًا !

وقد جمع الى بغضه للناس جفاءً في الطبع، فقضى سواد ايامه يذرع الآفاق مشرّداً تحت كل كوكب، في صحبة الصعاليك وقطّاع الطرق واللصوص، وطوى اكثر عمره متخفياً متوارياً عن العيان، خشية أن يقع في قبضة أحد الكبار الذين هجاهم . وقد اعتسف الطريق من العراق الى الشام ومصر وبلاد فارس فتك في كل بلد عدواً ينذر دمه، ولم يدع أحداً في مأمن من خبث لسانه ؛ وقد تناول بهجوه هارون الرشيد، والمأمون، والمعتصم، وابراهيم بن المهدي، كما تناول به ذوي قرابته أنفسهم، ومن حموه وأجاروه، ومن قوله في المعتصم :

مُلُوكُ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي الْكُتُبِ سَبْعَةٌ وَلَمْ تَأْتِنَا عَنْ ثَامِنٍ لَهُمْ كُتُبٌ
كَذَلِكَ أَهْلُ الْكَهْفِ فِي الْكَهْفِ سَبْعَةٌ خِيَارٌ إِذَا عُدُوا وَثَامِنُهُمْ كَذِبٌ
وَإِنِّي لَأُعْلِي كَلْبَهُمْ عَنْكَ رُتْبَةً لِأَنَّكَ ذُو ذَنْبٍ وَلَيْسَ لَهُ ذَنْبٌ

وكان يرى ان هذا المذهب من الهجاء الذي ذهب اليه هو الاجدر بأن يلفت الى شعره نظر الناس، ويقيم له فيما بينهم منزلةً واعتباراً ؛ وهو على كل حال يرجع عليهم بنفع اوفر جداً من المديح، ويضطرهم الى إصلاح نفوسهم تهيباً من لذعات الثلب المرة . وقد اجاب من نبهه الى ما قد تجرّه عليه أهاجيه من وبال، قال :

« أنا احمل خشبتي على كتفي منذ خمسين سنة ولست أجد احداً يصلبني عليها ! »

وكان دعبل متعصباً لآل البيت، ولهذا نقم على بني العباس؛ وقد أفضى به هجاؤه وتمزيقه للأعراض إلى القتل، في خلافة المتوكل سنة ٨٦٠ م / ٢٤٦ هـ .

٢ آثاره : ينسب ياقوت في « معجم الأدباء » إلى دعبل مؤلفاً وضعه في « طبقات الشعراء » وديوان شعر، إلا أن أكثر شعر دعبل قد فُقد ولم يُحفظ منه سوى قصائد قليلة ومقطوعات مبثوثة في كتب الأدب، وأغلبها في مدح آل البيت من العلويين، وفي الهجاء خصوصاً .

٣ قيمة شعره : يُذكر لدعبل أبيات جميلة في الغزل والوصف، إلا أن هذا الشاعر قبل كل شيء هجاء مطبوع قد « وُلد - على حد قول العقاد - ليذمَّ ويبغض ويصل إلى المدح والحب من طريق الذم والبغضاء، وهو في تكوينه كله قصيدة هجاء حية، تلقى الناس ابتداءً بالتجهم والعبث والشذوذ » .

ولهجائه ثلاثة عوامل هامة تميزه بصبغات مختلفة، فهو إما يقوله عن اندفاع نفسي، فيعبر فيه عما في طبعه من جفاء وخبث ونقمة على الناس؛ أو يتخذ أداة للتكسب، فيفحش في هجاء بعض الناس، شأن بشار، ليحمل الآخرين على اتقاء شره وإسكاته بشي. من المال؛ وقد ينحو به نحواً جديداً، فيجعله هجاءً سياسياً يبدي فيه غضبه على السلطان وحكومته ويتناول به الملوكة والوزراء وأصحاب الشيع السياسية المختلفة التي لا يقرّها في زمانه .

وهو إذا هجا جأ إلى التجريح والسب والطعن، في فحش واقتداع مسرفين؛ ويركن خصوصاً إلى سلب مهجوه جميع الفضائل التي تفخر بها النفس البدوية الصارمة، كالنخوة والكرم والبأس، حتى إذا ما تدبّر بدوي صفاته اعترف أنه حقاً حقير مردول .

وقد تأثر دعبل في شعره بمسلم بن الوليد الذي أزمه زمناً، فأخذ بالصناعة والخوف البديعي ووشى بهما شعره، لأنها كانا زِيَّ العصر الضروري لسيرة

الشعر وبلوغ الشهرة . ويروى ان مسلماً لم يسمح لتلميذه دعبل بنشر شعره الا بعد ما سمع منه القصيدة التي يقول فيها :

لا نَعَجِّي يا سَلَمَ مِن رَجُلٍ ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى

وفي هذا البيت من الاستعارة والطباق وسائر اوجه البديع ما يرضي ذوق مسلم .
إلا أن دعبلاً ما فتىء سحابة حياته بدويّاً ينفر من التصنع المفرط والتعقيد، فلم يكن تأثره بمسلم الا كتأثر البحّري؛ وقد حرص على ألا يدخل في شعره شيئاً من الصعب والغير المأنوس، وحفظ صناعته ابدأً بسيطة، قريبة الى الطبع العربي الصافي الصريح، ولم يتورط في إسراف ابني تمام وغموضه .

وشعر دعبل الى ذلك نابض بالحياة لان روح قائله الشائبة المتمردة تنفخ فيه؛ وهو على الإجمال سهل الالفاظ، واضح المعاني، حسن الانسجام، تتردد فيه أنغام موسيقية عذبة .

بعض المراجع

عبد العظيم قناوي: دعبل الشاعر الشجاع الوفي - الرسالة ١٤ (١٩٤٦) - ص ١٠٦٠ - ١٠٦١

مارون عبود : الرؤوس - ص ١٣٦ - ١٣٩

حسن علوان : صريع الغواني مسلم بن الوليد - القاهرة - ص ١٥١ - ١٦٣

البستاني : دائرة المعارف : دعبل

أدب الحركة المعاكسة — الشعر

الفصل الثالث

البُحْثَرِيّ (٨٢١ — ٨٩٧ م / ٢٠٦ — ٥٢٨٤ هـ)

١ حياته : وُلد البُحْثَرِيّ بِنَج، ونشأ في قومه الطائيين فتغلَّبَ عليه فصاحتهم، ثم تلمذ لابي تمام واخذ عنه طريقته في البديع . ثم انتقل الى العراق ، وهو ميدان للقلق والاضطراب، والخلافة ضعيفة لاستيلاء الاتراك على زمام الامر . فتردَّد الشاعر في بغداد على دور عليتها . واتصل بالمتوكل فحظي لديه واصبح عنده شاعر القصر يُنشد الاشعار فتُفقد عليه الاموال الوافرة .

ولما قُتل المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان لبث الشاعر في العاصمة يتقلَّب مع كل ذي سلطان مستجدياً، حتى عاد اخيراً الى منبج يقضي فيها ايامه الاخيرة فادر كنه الوفاة سنة ٨٩٧ م / ٥٢٨٤ هـ .

٢ آثاره : للبُحْثَرِيّ ديوان شعر كبير طبع مراراً في القسطنطينية ومصر وبغروت . وقد شرح ابو العلاء المعري قديماً هذا الديوان وسمَّاه «عَبَث الوليد» . وللبُحْثَرِيّ « كتاب الحماسة »، و « كتاب معاني الشعر » الذي لم يصل الينا .

٣ شعره : البُحْثَرِيّ بدويّ النزعة في شعره، ولم يتأثر الا بالصبغة الخارجية من الحضارة الجديدة . وقد اكثر من تقليد المعاني القديمة .

١ - غزله : غزل البُحْثَرِيّ مبتذل المداني سطحي العاطفة ، إلا ما قاله في علوة فهو حقيقيّ الشعور متوثب العاطفة . وهو على كل حال عامر بالرقّة والحلاوة، مستوفي الجمال الفني . وقد دُعي البُحْثَرِيّ « شاعر الطّيف » لإكثاره من ذكر خيال الحبيب .

٢ - الرثاء : اسلوب البُحْثَرِيّ في الرثاء فخم جليل تغطّي فيه العاطفة الفنيّة على العاطفة الحقيقية . واحسن رثائه ما قاله في المتوكل .

٣ - الفخر : اودعه الشاعر إعجابه بقومه وبنفسه .

٤ - الحكم : اجتزأ فيها البُحْثَرِيّ بالمعاني الشائعة القرية المنال، وليدة الاختبار البسيط .

٤ - البحري شاعر التكسب :

١ - المديح : يقدم لنا مديح البحري فوائد نفسية، وفوائد تاريخية، ومتمعة أدبية . أما الفوائد النفسية فيطلعنا فيها الشاعر على تحرق ممدوحه الى الإطراء، وعلى تعبده لوثن المال، يضحي له بعزته وكرامته وشاعريته . - أما الفوائد التاريخية فيقدم لنا فيها الشاعر صورة واسعة لما تقلب على مسرح السياسة اذذاك من احكام واحداث، ومطامع ودسائس ومنافسات، وحروب . - واما المتعة الادبية فيوفرها لنا البحري بجمال اسلوبه المنسجم الرقيق، وبإظهار الرقة واللفظ في ألوان عذبة أخاذة .

وقد اجتاز مدح البحري اربعة اطوار رئيسية : الحيرة بين تقليد معاني ابي تمام وبديع مسلم ابن الوليد وإباحية ابي نواس وصراحتة ؛ بدء بروز الشخصية في العراق ؛ نضوج الشخصية مع المتوكل ؛ الضعف بعد المتوكل، وطغيان الصنعة .

٢ - الهجاء والعتاب : هجاء البحري ضعيف ؛ اما عتابه فقد ابدى فيه حذقاً ومهارة، وسياسة قرن فيها الرقة واللفظ الى المؤاخذه، والنعمومة وخفة الروح الى التائب والتهديد ؛ وذلك كله في سهولة وحلاوة .

٥ - البحري شاعر الوصف :

١ - وصف الطبيعة : ضمن البحري هذا الوصف لوحات عديدة جمع فيها ألواناً مختلفة من مباحج الطبيعة . وقد كانت اوصافه في الطبيعة على الإجمال قليلة الحظ من الابتكار ، تقليدية في أغلبها ؛ غير ان البحري تمكن من ترقية هذا التقليد الى درجة رفيعة من التفوق والشخصية والأصالة . وقد ابتدع طريقة خاصة تقوم باختيار التفاصيل الطريفة المحسوسة لتأليف لوحات متناسقة تروع باثلاثها، وتؤثر بما يبثه فيها من حياة وحرارة، وبما يجعل فيها من موسيقى رائعة .

٢ - وصف العمران : أولع البحري بمظاهر العمران ووصف القصور وما الى ذلك . وقد ابدى في وصفه براعة في تخير التفاصيل النათية، ودقة في رسم تلك التفاصيل رسماً حسيّاً وانفعالاً نفسياً شديداً .

٦ - البحري الشاعر :

كان البحري ذا نفس شفافة، وخيال صافٍ ، وذوق سليم . وهو من اطبع شعراء العرب، ويرى ان الشعر لمح، ومذهبه فيه مذهب امرئ القيس . اما فن البحري فيقوم على زخرف بديعي يأخذه به في اقتصاد وذوق ؛ وعلى موسيقى ساحرة تغمر جميع شعره، وتأتي عن حسن اختيار الالفاظ والتراكيب التي لا يشوبها تعقيد ولا غرابة ولا خشونة، بل تجري مؤلفة في عناصرها وفي تسلسلها، موافقة للمعنى، تشتد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين . وموسيقى شعر البحري من اروع ما في الشعر العربي من موسيقى .

١ - مبادي :

١ - مولده وصباه : أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى البحري ولد سنة ٨٢١ م (٢٠٦ هـ) ببلدة منبج بين حلب والفرات ؛ ومنبج قرية مشهورة بجبال مناظرها وحسن موقعها ؛ وقد نشأ فيها البحري ، وتثقف ثقافته الاولى ، وبقي طول حياته معلق القلب بها ، يكثر الحنين إليها ؛ وكان قومه الطائيون يقطنون ضواحي منبج ، فاختلف بهم ، وترعرع بينهم حتى تغلبت عليه فصاحتهم .

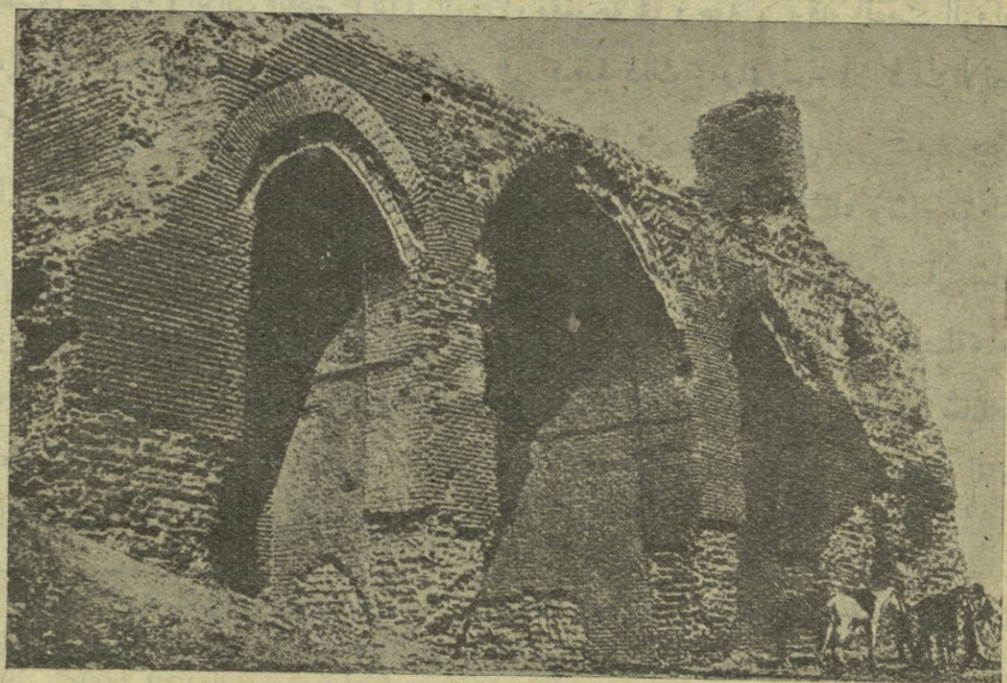
٢ - تلميذ ابي تمام : ظهر البحري ، وابو تمام في الذروة ، تردد البلاد كلها صدى شعره ، وابواب القصر ودور الوزراء مفتوحة في وجهه . وقد اتفقت الروايات على ان البحري اتصل به ، وان اختلفت في كيفية ذلك ؛ والارجح ان ذلك الاتصال كان بمحض ، في احد الايام ، وقد تجتمع الشعراء لعرض شعرهم على ابي تمام . فيكون البحري قد تقرب اليه مع المتقربين ، فلما آنس منه ابو تمام ذكاء وشاعرية احبه وعطف عليه ؛ ولما عرف حاجته الى ما يتعیش به ، كتب الى معزة النعمان في شأنه ، وأرسله اليهم ، فاكرموه ، ووظفوا له اربعة آلاف درهم ؛ فأحكمت الصلة ، منذ ذلك الحين ، بين الشاعرين ، ولزم البحري استاذه ، فأخذ عنه ، واقتبس شيئاً من معانيه وطريقته في البديع ؛ والظاهر ان ابا تمام قد تعهده بعنايته ، ووضع له في تلك الاثناء وصيته الشهيرة لنظم الشعر .

(١) قال البحري : « كنت في حدثي أروم الشعر ، وكنت أرجع فيه الى طبعي ، ولم اكن أفق على تسهيل مأخذه ، ووجوه اقتضابه ، حتى قصدت ابا تمام ، وانقطعت فيه اليه ، واتكلت في تعريفه عليه ، فكان اول ما قال لي : « يا أبا عبادة تحب الأوقات ، وانت قليل الموم ، صفر من الغموم ؛ واعلم ان العادة جرت في الاوقات ، ان يقصد الانسان لتأليف شيء او حفظه في وقت السحر ، وذلك ان النفس قد نالت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم . وان اردت التشيب ، فاجعل اللفظ رقيقاً ، والمعنى رقيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوابع الكتابة ، وقلق الاشواق ، ولوعة الفراق ؛ فإذا أخذت في مديح سيد ذي أباد ، فأشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأين معاله ، وشرّف مقامه ، ونضيد المعاني ، واحذر المجهول منها ، وإياك ان تشين شعرك بالألفاظ الزرّية ، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد . واذا عارضك الضجر ، فارح نفسك ، ولا تعمل شعرك إلا وانت فارغ القلب ، واجعل شهوتك الى الشعر ، الذريعة الى حسن نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين ؛ وجملّة الحال ، ان تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسّن العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد إن شاء الله » .

قال البحري : « فأعملت نفسي فيما قال ، فوفقت على السياسة » .

٣ - في العراق :

١ الحالة السياسية والاجتماعية : ولد البحتري في عهد المأمون (٨١٣-٨٣٣ م) إلا انه بدأ حياته الواعية في عهد المعتصم (٨٣٣-٨٤٢ م) وامتدت حياته حتى استغرقت عهود عشرة خلفاء؛ وكانت تلك المدة في سوادها حافلة بالاضطراب تقلقها عواصف فتن، ولدتها البغضاء، اذ ضمقت الخلافة باستيلاء الاتراك على زمام الامر، وقد احبهم المعتصم، وبني لهم مدينة سامراً (سُرَّ مَنْ رَأَى) لما نشروا من الاضطراب في بغداد، وجعل المدينة الجديدة مقراً لخلافته وحكمه؛ ثم لما تولى

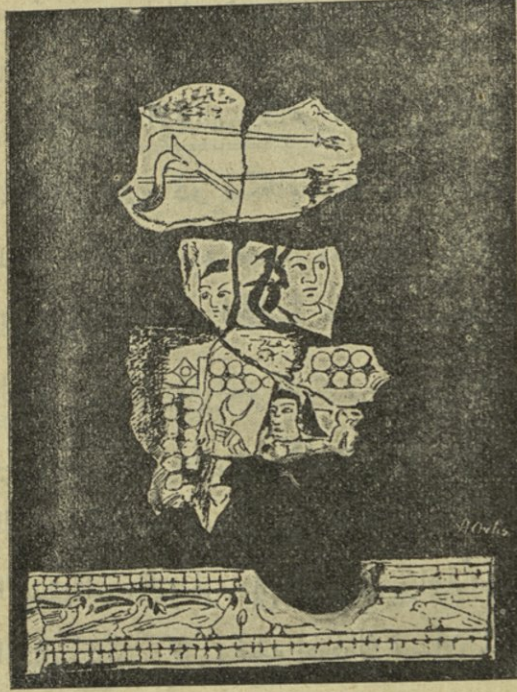


سامراً - دار الخليفة

المتوكل الخلافة (٨٤٧-٨٦١ م)، قوى نفوذهم، طمعاً منه في مناصرتهم له على الشيعة العلوية. فما عثموا ان قويت شوكتهم، ومددوا سلطانهم على الخلافة نفسها، يرقون اليها من راقهم، ويعزلون او يقتلون من أرادوا ومما زاد في سوء الحال ان بعض الخلفاء، قربوا الخدم، واستكثروا منهم لايبعاد شرّ الاتراك عنهم، فكان من الخدم من تولى قيادة الجند؛ وكان منهم من توصل، كالخادم مؤنس،

الى التصرف في مصالح الدولة بحسب هواه، والى تولي رئاسة الجيش وإمارة الامراء، وبيوت الاموال . فاستفحل الفساد بسبب كل ذلك، وعمت الرشوة، كما تكاثرت،

القتك، واصبح الناس يخافون على اموالهم وارواحهم، لانها طوع إرادة الخليفة او الوزير او القائد، وصار لا يقوم خليفة إلا وله عدو يناوئه، ويسعى الى خلعه للجلوس على العرش مكانه، يؤيده دائماً حزب من اعداء الخليفة السابق .



٢ سفر البحتري : وفي سنة ٨٤٠ م

(٢٢٦ هـ) أي في اواخر حكم المعتصم، فكر البحتري في السفر الى العراق، وقد

ضاقت به بلاده، فيما كانت انحاء العراق رسوم باقية من جدران احد قصور سامرا

زاهرة بعوامل الحضارة، وزاخرة بما أتينا على وصفه من اضطراب . وكان البحتري إذ ذاك شاباً ممتلئاً من الامل، موفور القوة، وله في العراق صديق يعطف عليه هو استاذة ابو تمام . وكان سفره عن طريق الجزيرة، حيث وفد على واليها مالك بن طوق زعيم بني تغلب ومدحه ؛ وفي مسراه لقيه الذئب فوصف حكايته معه في قصيدته الدالية الرائعة .

٣ في مجالس الكبار (٨٤٠-٨٤٧ م) : قضى البحتري سبع سنوات ببغداد يتردد

في اثنائها على دور العلية والكبراء من رجال الدولة، ويغشى مجالسهم ومجالس الادباء، وهو في صحبة أبي تمام، بين آل طاهر، واولاد حميد بن عبد الحميد الطوسي وآل سهل، وقد مدحهم البحتري وحظي بجوائزهم ؛ وأحب آل حميد، فرعى لهم هذا الحب، وتوثقت اللفة بينه وبين أكبرهم محمد بن حميد المعروف بأبي نهشل ؛

وكثر فيه قصائده؛ وفي تلك الاثناء توفي ابو تمام، ثم دعبل الخزاعي، فرثاهما
البحتري بأبيات لم تُثبت في ديوانه إنما ذكرها الصولي في أخبار أبي تمام؛ وخلا
الجو للبحتري لا ينازعه في أماره الشعر أحد .

٤ عهد الإقبال : شاعر المتوكل (٨٤٧-٨٦١ م) : وكان في ذلك الحين عند
المتوكل وزير ذو مكانة ورئاسة ونفوذ، اسمه الفتح بن خاقان، فنال البحتري حظوة
لديه، وكثرت فيه قصائده، كما انتهالت على الشاعر عطايا الفتح الذي أهدي إليه
البحتري كتاب « الحماسة » وقد جمعه مقتفياً في ذلك آثار استاذه أبي تمام؛ فقرّبه
الفتح من الخليفة المتوكل، وما عم البحتري ان غدا شاعر القصر، وبلبله الغريد،
ينشد في كل حفل ولكل داع، يُطري مناقب الخليفة ويصف ما يأتيه من روائع
البناء والتشييد وينال على شعره الجوائز السنية . والظاهر ان غرام المتوكل بحياة
الاستهتار والتوفر على الشرب واللذات قد صادف أتم موافقة في نفسية البحتري
الذي كانت كل رغبته إذذاك نسيان شظف البادية وعيشة الشدة والتزمت، والعب
من الحياة المترفة ومن اللهو ما يستطيع الى ذلك سبيلاً، لا يهجه من الدنيا وهمومها
غير مسرته ولذته؛ وقد سرّ الخليفة به، وطرب الى خفة روحه وشعره، فقرّبه
وملاً ما في نفسه من مآرب وأطباع، فقضى لديه نحواً من اثني عشرة سنة وكان
جميع أيامه اعياد . وكان شعر البحتري في تلك الحقبة سجلاً لأعمال الخليفة الذي
كان مولعاً بهندسة البناء، كريماً مبسوط اليد للعطاء .

٥ عهد المجاملة (٨٦١-٨٩٢ م) : وفي مساء احد الايام، قُتل المتوكل، وقُتل
معه وزيره الفتح بن خاقان، والبحتري حاضر تلك الفاجعة، ولكنه استطاع ان ينجو
حاملاً في نفسه الاسف وفي قلبه الحزن الممض على ولى نعمته، وما برح يندبهما في اغلب
انواع شعره الذي قاله بعدهما؛ ثم توالى بعد المتوكل خمسة خلفاء في مدة وجيزة،
وكلهم اضداد واعداً كثر في عهدهم الفتك والانتقام؛ ولبث البحتري في
عاصمة الخلافة يمدح الخلفاء مستجدياً، ويتقلب مع كل مجرى مجارياً الاحوال، وهو
بين الخوف والحذر، يتمشى ظاهرياً مع اغراض الدولة الحاكمة، لانه شاعر الدولة

الرسمي، يُطري ولاتها وأصحاب الامر فيها، سواء في ذلك الأنصار والأضداد؛ وهو في كل حال يستجدي ويتقبل الهبات التي كانت تُغدق عليه .

٦ في منبج (٨٩٢-٨٩٧ م) : كان البحري يتردد بين الحين والحين الى منبج، إلا انه في عهد المعتضد (٨٩٢-٩٠٢ م) عاد الى مسقط رأسه يقضي فيه ايامه الاخيرة، وقد ادركته الوفاة سنة ٨٩٧ م (٢٨٤ هـ) وله من العمر ما يناهز الثمانين .

٢ آثاره :

١ - الديوان : ناشروه وشارحوه : للبحري ديوان شعر كبير يسمى أحياناً « سلاسل الذهب » طبع في القسطنطينية سنة ١٨٨٢ م (١٣٠٠ هـ) عن مخطوط يرجع تاريخه الى سنة ١٠٣٢ م (٤٢٤ هـ) وهو مرتب حسب أسماء الأسر والاشخاص الذين قيل فيهم الشعر؛ ثم طبع في مصر سنة ١٩١١ م (١٣٢٩ هـ) وفي بيروت في السنة نفسها . وقد جمعه قديماً أبو بكر الصولي ورتبه على حروف المعجم . وجمعه أيضاً علي بن حمزة الاصفهاني، ورتبه على الموضوعات . وقد شرح ابو العلاء المعري ديوان البحري ونقده وسماه « عبث الوليد »، وشرحه أيضاً محمد ابن اسحق الزوزني المتوفى سنة ١٠٧٠ م (٤٦٣ هـ) .

٢ - كتاب الحماسة : جمعه البحري عن طلب القتح بن خاقان، تشبهاً بأبي

تمام ومعارضة لحماسته؛ وقد نشره الاب لويس شيخو في بيروت سنة ١٩١٠ عن مخطوطة فريدة عثر عليها في مكتبة ليدن .

وتمتاز حماسة البحري عن حماسة استاذه، بكثرة ابوابها، فهي تحوي ١٧٤ باباً ضمنّت معظم المعاني الادبية التي دارت على السنة الشعراء، ورتبت بحسب هذه المعاني والخلجات النفسية؛ ثم تمتاز بعدد الشعراء الذين يبلغون نحو ٦٠٠ جلهم من الجاهلية وصدر الاسلام؛ كما تمتاز أخيراً بحسن الاختيار، وسلامة الذوق .

٣ - كتاب معاني الشعر : وهو لم يصل الينا .

٣ شهره : كان من الطبيعي ان يتأثر البحتري بعصره الذي جمع بين عوامل القديم والجديد على السواء ، وقد استهواه القديم بنوع خاص ، دفعته اليه نشأته الاولى ، فظلاً ، على الاجمال ، بدوي النزعة في عهد الحضارة ، التي لم يتأثر إلا بصبغتها الخارجية ، وشذ بذلك عن سواد شعراء عصره الذين توفروا على اقتباس الثقافات والفلسفات الدخيلة وإدخالها في شعرهم . ومن ثم صح فيه قول الأمدى : « إنه أعرابي الشعر ، مطبوع ، وعلى مذهب الاوائل ، وما فارق عمود الشعر المعروف » .

وقد طرق البحتري في شعره جميع الابواب المعروفة عند العرب تقريباً ، واكثر فيها من تقليد المعاني القديمة :

١ - غزله : والتقليد ظاهر في قسم كبير من غزله الذي أتى في 'مستهل' مدائحه ، وقد تكلفه البحتري في بعض الاحيان عن حاجة فنية وتقليد شائع لا غير ، فاذا هو مبتذل المعاني ، سطحي العاطفة . إلا ان الشاعر تمكن احياناً أخرى من طبع ذلك الغزل بطابعه الخاص مضيئاً عليه رقة وحلاوة يملك وحده سرهما . وللبحتري فيما عدا ذلك غزل صادق ، قاله خصوصاً في إحدى مغنيات الشام اسمها علوة ، وهي من بطياس قرب حلب ، علقها الشاعر وهو في ميعة الشباب ؛ ويمتاز هذا الغزل بشعور حقيقي ، فيه حرارة وعاطفة متوثبة مؤثرة ، غاية في الرقة والارهاف ، وفيه جمال ساحر في الوصف . ولئن كانت اوصاف الشاعر في اكثرها حسية ، فهو يبلغ من الابداع ، في رسمها وإفراغها في قالب جذاب شفاف ، حداً بعيداً .

وقد جاء البحتري في غزله على أوصاف جمّة لما يعترض الحب من صد وهجران وفراق ، وألم النوى والرحيل والمشيب الذي يُنبئ الغواني . إلا انه اكثر بنوع خاص من وصف الطيف او خيال الحبيب الذي يتراءى في المنام ، حتى عرف بشاعر الطيف . وقد أبدع أحياناً في وصفه إبداعاً فذاً في مثل قوله :

أَجِدَّكَ مَا يَنْفَكُ يَسْرِي لَزِينًا خِيَالُ إِذَا أَبَ الظَّلَامُ تَأَوَّبًا
مَرَى مِنْ أَعَالِي السَّامِ يَجْلِسُهُ الْكَرَى هُبُوبَ نَسَمِ الرِّوْضِ يَجْلِبُهُ الصَّبَا
وَمَا زَارَنِي إِلَّا وَلَهْتُ صَبَابَةً إِلَيْهِ، وَإِلَّا قُلْتُ: أَهْلًا وَمَرْحَبًا!

إلا أنه قد أسرف في تكرار ذكر الطيف، وأدخله على الكثير من غزله حتى
ليخامرنا الشك في صدق عاطفته أحياناً، وإن كان شعره فيه، على الإجمال،
مستوفي الجمال الفني والعدوبة؛ ثم إن للبحتري شيئاً من الغزل المذكر جرى فيه
على العادة الشائعة بين شعراء عصره المجان، فأكثر فيه من وصف المتعة الحسية؛ كما
إن له مقطوعات في المحون، لم يبرأ فيها من الفساد الأخلاقي والتعهر الذي عهدناه
لامثال أبي نواس، وقد قال هو عن نفسه :

لَا يَرُعُكَ الْمَسِيبُ مِنِّي، فَإِنِّي مَا ثَنَانِي عَنِ التَّصَابِي الْمَسِيبُ^٢

٢ - الرثاء : لم يخرج البحتري في الرثاء عن السنته المألوفة، فاتخذ شعراً
رسمياً لا بد منه في بعض المواقف؛ وجرى فيه على تعظيم الفاجعة بإطراء مناقب
الفقيد، في أسلوب جليل فخم لا يخلو أحياناً من ضعف وغثاثة . وفي رثاء البحتري
عموماً صنعة تكاد تغطي على الصنعة لأن العاطفة الفنية فيه تظهر كأنها تغني عن
العاطفة الحقيقية، وإن لم تخل منها أحياناً؛ وقد ظفر بنو حميد من شعر البحتري
بمراث بلغت غاية الروعة الفنية؛ ومن أشهر رثائه ما قاله في المتوكل حيث تتجلى
روعة الصنعة وخفاتها .

٣ - الفخر : وكذلك امره في الفخر وقد أودعه، شأن عامة الشعراء، إعجابه
بقومه، مباهياً بكارمهم، معدداً مناقبهم، مقابلاً شرف اليمن وعزها بنجشونة عرب
الشمال، وسوء حالهم؛ كما أودعه إعجابه بنفسه، وكبره المفرط، ذلك الكبر الذي

(١) أَجِدَّكَ : أي ما لك، أجدد منك؟ يسري : يسير ليلاً . أَبَ : تأوَّب : رجع
(٢) وَلَهْتُ إِلَيْهِ : ملْتُ إِلَيْهِ (٣) ثَنَانُهُ عَنْهُ : أماله . التَّصَابِي : الميل إلى اللهو والفتنة .

طالما حال التكسب دونه في حياة الشاعر، فاضطره الى كسر عنفوانه وعناده، وهضم الاهانة في حذر، خشية صد العطاء .

٤ - الحكم : اما الحكم فلم يأت فيها البحتري ببدع ذي بال، ولم يكلف نفسه معالجة الفلسفة والاعتبار الطويل لاستخراج العميق منها . بل اجتزأ بالمعاني الشائعة، القريبة المنال، وليدة الاختبار البسيط، وأتى منها خصوصاً بما طالما رددته الاقدمون من شكوى الزمان وصروفه .

إلا أن للبحتري في الحكم احياناً من المعاني، ما يتراجع فيه، على بساطته، نعمة إنسانية عميقة .

* * *

هذه جملة من ابواب الشعر المعهودة، التي طرقها البحتري عرضاً، من غير ان يقصدها في ذاتها، كعرض مستقل لشعره، لان هناك غرضاً رئيسياً قد استأثر باهتمامه وشاعريته، هو التكسب، وباباً آخر قد برهن فيه عن مقدرة فريدة هو الوصف .

٤ البحثري شاعر التكسب : البحتري شاعر بدوي، نشأ في البادية، وآنس من نفسه قدرةً ونبوغاً، وعرف ما للشاعر في الحواضر والقصور من مكان رفيع، وتكريم، ونعمة سابعة، فطمع في المال، وهجر مسقط رأسه وهو لا يزال شاباً، وراح يتنقل من حاضرة الى أخرى، ومن قصر الى آخر، يعرض شعره على كل كبير ذي نفوذ، متطلعاً بشوق الى جزيل العطاء والثواب، واقفاً السواد الاعظم من شعره على التكسب، في المديح وما يتعلّق به أحياناً من هجاء وعتاب .

١ - المديح : ولا جرم ان المديح من أوفر ابواب الشعر العربي شيوعاً فقد طرقه جميع من الشعراء قبل البحتري، وأغرقوا في التفنن فيه، وما لبثوا أن أتوا على عموم ما يمكن أن يقال فيه من معاني، فاضطر كل شاعر ان يكرّر ما قاله سابقوه،

فقلّ الإبداع في هذا الباب ، وذاع فيه التقليد ؛ إلا أن كل شاعر نابغ تمكّن من اخراجه في صورة خاصة ظهرت فيها نزعة الشعرية الفردية ، وآثار عصره . وهذه الصورة الخاصة هي التي نجدها في مدح البحري ، وهي قوام المتعة الأدبية في شعره . ومن ثمّ فمدح البحري يقدم لنا فوائد نفسية ، وفوائد تاريخية ، ومتعة أدبية :

١- الفوائد النفسية : في مدح البحري أولاً فوائد نفسية لانه ، وإن لم يمثل دائماً نفوس الممدوحين على حقيقتها ، بسبب ما جرى عليه في العموم من إطراء مفرط ينافي الواقع ، يمثل على كل حال ، أحسن تمثيل ، تلك الناحية من نفوس الممدوحين المتحرّقين ابداً الى روائح الإطراء والتفخيم تتصاعد اليهم من مباخر المداجاة والرثاء ؛ ويقدم لنا صورة لذاته تتجلّى فيها نفسية ذلك الشاعر المتعبد لوثن المال ، حتى لا يكاد يبتغي من الدنيا سواه ، ويضحى له بعزته ، وكرامته ، وشاعريته على السواء ؛ فلا يخشى من التذلل بين ايدي اي كبير يأمل منه عطاء ؛ ولا يثبت على مبدأ او عهد او وفاء ؛ ويتخذ شعره سلعة يعرضها على كل من ينقده مقابلها ثمناً جزيلاً ، غير متحرّج من المساومة الدنيئة أحياناً . فقد يمدح في مدح احد العظماء تحفة رائعة تنال الاعجاب ، وترجع عليه بكسب وافر ، ثم لا يلبث أن يدخل عليها شيئاً من التغيير في الاسماء والألقاب ، ويوجهها الى ممدوح آخر ، طمعاً في نوال ثواب الثاني ، كما ظفر بثواب الاول ؛ ثم لا يتردد عن عرضها على كثيرين آخرين ، عن نفس الدافع الخسيس . وقد يطمع من عظيم بعطاء فيطريه ، ويظفر منه بالثواب فيعود الى مدحه ، فاذا تباطأ الممدوح في العطاء هجاه . وقد يمدح الخليفة في حياته ، ولا يلبث أن يهجوّه اذا مات ، لارضاء خصمه الذي خلفه .

ولا ريب أن ما ساد عصر البحري من فساد واضطراب يفسر شيئاً من تلك النفسية المتقلبة ، فقد كان يرى أن ممدوحه أعداء بعضهم لبعض ، واغلبهم لا يصلحون إلا لأن يتخذوا وسيلة للثروة والغنى ، كما كان يعلم أن أكثر الخلفاء الذين قتلوا في زمانه ، قتلوا إما بسيف الاتراك ، أو بمكيده يشترك فيها ولي العهد نفسه . ومهما يكن من أمر فالبحري من النفوس الضعيفة ، فقد شهد الفساد في عصره ، وعرف أنه سبيل الأمن والنعمة ، فانطلق في غماره ، على غير تحرّج ، ولم يستطع او لم يشأ أن يقاومه .

وقد لا تحلو نفس البحري من نزعة طبيعية الى الوفاء، يشهد بذلك ما أبداه احياناً لاصدقائه والمحسنين اليه من إخلاص حقيقي؛ وقد لا تحلو من بعض الترفع والرقّة، يشهد بذلك ما كان يظهره احياناً من إعجاب بنفسه وشعره وقومه، ومن حنين رقيق الى وطنه الشام، مع أن العراق موئل رزقه؛ إلا ان عبادته للمال، وطول ملاحظته له، قد خنقا فيه تلك النزعات النبيلة، فكان، على العموم، خووناً، بخيلاً، مسرفاً احياناً في زشدان اللذة الدنيئة .

٢ الفوائد التاريخية : ثم إن في مدح البحري فوائد تاريخية وافرة لأن ملازمته نحو ستين سنة لذوي النفوذ في زمانه، واتصاله بستة خلفاء، ونحو مئة من الامراء والوزراء والقواد، وحرصه على ان يقول في كل حال وعند كل داع رسمي، جميع ذلك قد ابقى في مدحه مادة خصبة لتاريخ عصره، حتى انه اتى على ذكر حوادث اغفلها المؤرخون . فقد ترك صورة واسعة لما تقلّب على مسرح السياسة اذ ذاك من احكام واحداث واحزاب واضطرابات، ولما كان شائعاً بين ذوي النفوذ من مطامع وفسائس، صورة قرن اليها إشارات وافرة الى المنافسات التي كانت ناشبة بين العباسيين والعلويين من جانب، وبينهم وبين الأمويين من جانب آخر . وترك مشاهد للوقائع والحروب التي دارت حينئذ، ولما أحرزه ذلك العصر من تقدّم في الفن والحضارة، وهندسة البناء والعمران .

٣ المتعة الادبية : اما المتعة الادبية فقد تبلغ في مدح البحري درجة من التفوق مرموقة . فإنه، وإن قلّد في الأسلوب، وصدر مدائح بغزل لا يمت الى المدح بصلة ولا يربطه به في الغالب منطق، وإن لم يأت بكثير من الجديد في المعاني، ولم يخرج عن المألوف فيها من إطراء الشجاعة والكرم، والحلم والوقار، وسمو السيرة التي تكسب حظوة لدى الله؛ وإنه، وإن لم يتمكن من ان يجاري شدة أسر ابي تمام وسعة خياله في تصوير المواقع التي قلّده في التوفّر عليها، قد عرف، على الاجمال، ان يتلافى ما تورط فيه عامّة المدّاح من الاسراف في المغالاة وتخطي المعقول، ولم تبدُ على مدحه آثار الصنعة الباردة إلا في النادر، لما ألبسه من جمال

اسلوبه المنسجم الوقيق، ومن براعة سياسته في اظهار الرقة والطف في الوان عذبة اخاذة، وبفضل طريقة خاصة ابتدعها في هذا الباب، تقوم على اختيار أجمل المناقب التي يتحلّى بها ممدوحه او التي بإمكانه التحلّي بها، ليؤلف منها صورة شخص فيه من الصفات ما يجعله محبوباً، قريباً الى القلب، يمدى له الشاعر من العاطفة الفنية البالغة في الرقة، ما يزيد صورته جمالاً جذاباً، وما يجعلها مشرقة، نيرة، تدهش بقرنها من الحقيقة، وإغراقها في الجمال، واستكمال الفن فيها الى حد بعيد . وكانت مدائح البحترى في الخلفاء مقتضبة على الاجمال، لعله بأن ممدوحيه هؤلاء سريعون الى الملل وضيق الصدر، لا يرتاحون الى الخطب الطويلة شأن المتأدبين الذين أطبب البحترى في مدحهم وتفنن بقدر ما شاء .

وقد اجتاز مدح البحترى اربعة أطوار رئيسية، كان الشاعر في أولها فتي حائراً بين تقليد معاني ابي تمام، وبديع مسلم بن الوليد، وإباحية ابي نواس وصراحتة؛ ثم بدأ يستقيم له الشعر لما اتى العراق، وقد بلغ أشده وشارف الثلاثين من سنه، وصار بإمكانه ان يتفهم نفسيات الممدوحين، وان يتقن السياسة في التصرف معهم، كما بدأ يتضح له سبيل الشخصية في القصيدة التي مدح بها ابن الزيات والتي اتسمت بطابع شخصي بارز وإن لم تخلص من شوائب الطور الاول . وقد بلغت هذه الشخصية أوجها عندما غدا البحترى شاعر المتوكل، فنظم أنضج مدائحه وأجملها . وما إن توارى المتوكل حتى تسربت الشيخوخة الى الشاعر، ودبّ الضعف في طاقته الشعرية شيئاً فشيئاً، فراح يستتر ضعفه تحت ظواهر الصنعة التي طغت على الشعر فافقدته نضارة الشباب ورونقه واندفاعه، وإن لم تفقده المتانة والسلامة .

٢ - الهجاء والعتاب : ولم يقف البحترى، في التكسب، عند المدح وحده،

بل تخطأه الى الهجاء يهدّد به البخل، او يتظاهر فيه بمشايعة ممدوحيه الذين يشلب مناوئتهم وأعداءهم . وللبحترى ايضاً هجاء يصدر عن غير بواعث التكسب، فينظمه الشاعر لداع سياسي او للدفاع عن نفسه او لما اشبه ذلك . وهكذا هجا

عدداً من الشعراء، كما هاجم بعض النحاة . الا ان هجاءه بمجمله ضعيف يذهب فيه الشاعر الى مجرد حشد التعابير البديثة في غير اصالة ولا فن .

وقد طرق البحري باب العتاب ايضاً في سبيل التكسب؛ لينتبه بمدوحه الى تباطئهم في العطاء، او تقصيرهم فيه . وقد ابدى في ذلك العتاب من الخدق والمهارة الشيء الكثير، واخرجه مخرج السياسة التي قرن فيها الرقة واللفظ الى المؤاخذه، والنعومة وخفة الروح الى التانيب والتهديد؛ وسكب عليه من الحلاوة، وسهولة الماخذ الشيء الكثير، حتى كان من ابرع الشعر العربي في هذا الباب .

٥ البحري ساعر الوصف : اتفقت للبحري عوامل كثيرة فعالة أهلتها لإجادة الوصف فقد أوتي خيالاً صافياً، مفتوناً بالأصباغ الزاهية، بارعاً في ابداع التصورات الرقيقة؛ وحساً مرهفاً سريع التأثر . فكان به شبه غرام شديد بالجمال، زادته نشأة الشاعر البدوية اضطراباً، ثم لبته الحضارة التي انتقل اليها، وهي زاخرة بمظاهر البهجة والبهاء، فلأت عينه بما كان يشتهي من ألوان، ووفرت له ضروباً شتى مما كان يصبو اليه من رونق؛ فاهتز للجمال من ناحيتيه الرئيسيتين : الجمال الطبيعي، والجمال المصنوع، ولا سيما البناء الرائع الفخم؛ فتفرع وصفه الى فئتين بارزتين : وصف الطبيعة، ووصف العمران .

١ - وصف الطبيعة :

١ موضوعه : للبحري لوحات عديدة يجمع فيها ألواناً مختلفة من مباحج الطبيعة الفاتنة التي استأثرت بفؤاده، واستلوات على حسه طوال حياته، كما له جملة من الاوصاف في موضوعات منفردة من الطبيعة كوصف الربيع، أو وصف المطر بما فيه من سحب وبروق، أو وصف النسيم أو شقائق النعمان، أو الرياض المزهرة الخضراء العابقة بذكي الاطياب وما الى ذلك . . .

٢ مذهبه فيه : ولا ريب أن اغلب هذه الموضوعات طُرقت من قبل البحري،

وأتى فيه الشعراء العديدون بمعانٍ جميلة ؛ فأكثر البحري من التوكؤ على معاني هؤلاء الشعراء من قداماء ومعاصرين، ولا سيما أستاذه أبي تمام ؛ وكانت أوصافه في الطبيعة على الأجمال قليلة الحظ من الابتكار، تقليدية في أغلبها .

غير أن هذا التقليد نفسه قد تمكن البحري من ترقيته الى درجة رفيعة من التفوق، والشخصية، والأصالة، بما أضفاه عليه من فيض روحه الشعري، أو بما أكسبه من حيوية هي ثمرة تأثره الصادق بمجالات الطبيعة، أو بأدائه الفني المتقن السهل، الذي لا تحجب صنعته ومحسناته البديعية ما فيه من شخصية وجمال .

وقد ابتدع البحري، في وصفه للطبيعة، طريقة خاصة، يتوفر فيها على اختيار التفاصيل الطريفة المحسوسة، لا رغبة منه في التفاصيل المتفرقة، والواقع الجامد، بل ليؤلف من تلك التفاصيل لوحات متناسقة تروّع بائتلافها أكثر مما تروّع بتفاصيلها، ولكي يكون بألوانه الحسية الزاهية ما يسكبه على أوصافه من حياة دافقة، وما يبثه فيها من حركة نابضة، بل ما يمزجه بها من انفعال عاطفي رقيق أو انفعال حسي شديد يشترك فيه السمع والشم والبصر على السواء ؛ ومن ثم ترعر أوصاف البحري للطبيعة بالتشخيص، وتكثر أمثال هذين البيتين :

فَرَأَيْتِ الْأَرْضَ بَعِثَ رَغْدٍ مِنْ وَشْيِ أَنْوَارِ الرُّبِيِّ فِي بُرْدٍ
كَأَنَّهَا غُدْرَانُهَا فِي الْوَهْدِ يَلْعَبْنَ مِنْ حَبَابِهَا بِالنَّرْدِ^٢

ويشتد توثق الموافقة بين المعاني والألفاظ والأوزان الشعرية، وترقّق الموسيقى المناسبة التي تعبر عن تلك المعاني .

ويمتاز وصف البحري أيضاً بوفرة صورهِ وجمالها ؛ وصورة البحري في الإجمال بسيطة واقعية، فيها سذاجة بدوية، وفيها طرافة ودقة، وفيها حركة وقوة إيجاء :

(١) الوشي : التحسين بالألوان، النممة والنقش . الأنوار ج نور وهو الزهر ولاسيا الأبيض منه . البرد : الثوب المخطط (٢) الوهد : الأرض المنخفضة . الحباب : الفقاع التي تملأ الماء . النرد : لعب الطاولة .

- كَأَنَّ الشُّجُومَ الْمُسْتَسِرَّاتِ فِي الدُّجَى سِكَكَ دِلَاصٍ أَوْ عُيُونُ جَرَادٍ
- سُرْعَانَ مَا وَلَّى الشِّتَاءَ وَلَمْ يَقِفْ تَسْلُلَ شَخْصٍ الْخَنَائِفِ الْمُشْنَكِرِ

وإلى جنب هذه الاوصاف التي يمكننا ان ندعوها حضرية، نجد عند البحري اوصافاً أخرى اوفر بداوةً، يتناول بها بعض الحيوانات كالذئب والاسد والفرس؛ ولكنه وان أتى في هذه الاوصاف - ولاسيما وصف الذئب - ببراعة عظيمة تتجلى خصوصاً في دقة المراقبة والوصف الحسي، والموافقة بين الالفاظ والمعاني، ظلّ في الغالب دون الشعراء الذين برعوا في مثل هذه الموضوعات، ولم يبلغ فيها ما بلغه في الطبيعة عموماً من تفوق.

٢ - وصف العمران :

١ موضوعه : لقد تأثر البحري تأثراً شديداً بمشاهد الحضارة الفخمة، واستهوته مظاهر عمرانها، فأولع بوصفها، ولاسيما وصف القصور من مثل ما شاهده المتوكل، وقصري المعتمد المعروفين بالمعشوق والمشوق؛ كما انه وصف الزاو وهي السفينة التي كان يركبها الخليفة لذهنته، والعيون التي اقامتها أم المعتز لسقاية الحبيج، وحروب الموفق وقواده في ثورة الزنج. وقد أتى البحري في هذا الباب بأوصاف شهيرة يعرفها كل مطلع على الادب، أهمها وصفه لأطلال إيوان كسرى التي زارها بصحبة ابنه ابي الغوث؛ ولدوسق المعتز المعروف بالكمال؛ ووصفه ببركة المتوكل.

٢ جدة العمران : ولعلّ البحري أوّل من انطلق في هذا الميدان، وقد بلغ فيه مستوى من الإبداع رفيعاً يكاد يكون فيه منفرداً، إذ قلّم انبرى له فيه مساجل او منافس.

(١) المستسرات: المتخفية. السكك ج سَكَّ هي الدّرع الضيّقة الخلق؛ اراد بها الخلق الذي على الدّرع. الدّلاص: الدّرع اللينة البراقة.

٣ - طريقته فيه : ولا ننكر أن البحري لم يكن من اصحاب الخيال الجبار، الذي يجلي الواقع، بما يبني عليه من تصورات رحبة مدهشة، وآفاق خيالية فسيحة، ولكنه، مع ذلك، قد بلغ من الروعة في هذا الباب درجة عالية، إذ سلك فيه الطريقة التي انتهجها في وصف الطبيعة على العموم، وقوامها البراعة في تخيّر التفاصيل الناتجة التي تمتاز عن المجموع ببهاء خاص، والدقة في رسم هذه التفاصيل رسماً حسيّاً، يجعلها تلمس باليد، وتؤثر على العين؛ والانفعال النفسي الشديد الإعجاب والتأثر الذي يتسرّب الى الموصوفات فيشيع بينها حركة وحياة؛ هذا فضلاً عن الصور الخيالية الطويلة التي يلجأ اليها أحياناً، وينتقل فيها الى مناطق الخيال الصرف، مما يغمر وصفه بجو من الحلم الرائع الجليل .

٦ - البحري الشاعر :

١ - شاعريته : خلق البحري شاعراً بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من معانٍ، فقد أوتي نفساً شفافة، فطرت على الحسّ الرقيق الذي يهتزّ للجمال حيثما يصادفه؛ وامتازت بخيال صافٍ صقلته البادية واكسبته جلاءً، ثم صبغته الحاضرة بأصباغها الزاهية؛ وتوكت على ذوق سليم، سلامته سليقة لا تكاد تعثر، وادراك لأسرار الموسيقى الفنية، ادراكاً طبعياً يميز الصوت الناشئ من الصوت المتناغم في غير مشقة، ويجيد التأليف بين الاصوات إجادة لا يكاد يشوبها خلل .

وإن كان الشعر بنفوذ النظر ودقة الملاحظة، وصدق الحس، وتنبيه الفكرة والعاطفة، وروعة البيان، فالبحري هو الشاعر حقاً؛ وهو من اطبع شعراء العرب باحساسه ووجداناته، وعامة أسلوبه من الفاظ وتراكيب وقوافٍ .

البحري يمثل الشاعر الجاهلي الفطري في عهد الثقافة العربية، فهو يأبى إلا ان يطلق نفسه على سجيتها، لا ينحرف بها عن مجراها الطبيعي للتقيد بسنن او قوانين، ولا يكلفها التعمق في اي شيء، لا في التفكير المنطقي الذي اتخذ بعض معاصريه مذهباً للشعر، ولا في تعقيدات البديع، الذي جعل منه آخرون علماً ذا أصول؛ انما

يرى ان الشعر لمح^١ للأشياء خاطف، والاشارة عنها ببيان بليغ . ومذهبه في ذلك مذهب امرئ القيس امام شعر الطبيعة الذي يتخذه مثالا أعلى للشعر، يستند اليه في مناهضة شعراء عصره الذين يذهبون غير مذهبه، ويعيرونه احيانا لشذوذه عن طريقتهم، فيقول :

كَلَفْتُمُونَا حُدُودَ مَنْطِقِكُمْ فِي الشَّعْرِ، يَكْفِي عَنْ صِدْقِهِ كَذِبُهُ
وَلَمْ يَكُنْ ذُو الْقُرُوحِ يَلْهَجُ بِالْمَنْطِقِ مَا نَوْعُهُ وَمَا سَبَبُهُ
وَالشَّعْرُ لَمْ يَحْكُمْ تَكْفِي إِشَارَتُهُ وَلَيْسَ بِالْهَذَرِ طَوَّلَتْ خُطْبُهُ

وكان لا بد ان تترك الحضارة أثرا في البحري، إلا ان ذلك الاثر قد عالجته في عينه دون عقله . فكان كل ما أخذه الشاعر من عصره ميله الى الزخرف وشغفه ببهاء الالوان الزاهية ؛ وظل في معانيه وعقليته متأخرا عن شعراء زمانه، وان تفوق عليهم تفوقا عظيما بنقاء صناعته وبما أدخل عليها من فن عجيب .

٢ - فن البحري : قال البحري يصف كتابة ابن الزيات، وبطريقة غير مباشرة، صنعته الخاصة :

وَبَدِيعِ كَأَنَّهُ الزَّهْرُ الضَّاحِكُ فِي رَوْثِ الرَّيِّعِ الْجَدِيدِ
وَمَعَانٍ لَوْ فَصَّلَتْهَا الْقَوَافِي هَجَنْتَ شَعْرَ جَرُولٍ وَلَبِيدٍ
حُزْنَ مُسْتَعْمِلِ الْكَلَامِ اخْتِيَارًا وَتَجَنَّبِينَ ظُلْمَةَ التَّمْقِيدِ
وَرَكِبِينَ اللَّفْظَ الْقَرِيبَ فَأَدْرَكْنَ بِهِ غَايَةَ الْمَرَامِ الْبَعِيدِ

- الزخرف البديعي : وقد شغف البحري بزخرف البديع الذي ألف شعراء عصره أن يوشوا به شعرهم، الا انه لم يذهب فيه الى مثل ما ذهبوا بسبب ما كان بينه وبينهم من تباين في الثقافة والعقلية ؛ فقد كانوا إما متحضرين يبلغون من استخدام البديع حد الترف والإسراف، او مثقفين على الفلسفة والمنطق، قد جعلوا

من البديع علماء، وخضوا كل نوع من أنواعه بتأدية لون خاص من التفكير ؛ اما
البحثري فقد كان بدوياً يغوم بالزخرف، ولكنه يأخذ به في اقتصاد،
ولم يكده يحيط بشيء من ثقافات عصره، فعهد الى فطرته الشعرية وسلامة ذوقه
السليقة بمهمة القيام على استعمال ضروب الصناعة المختلفة ؛ فجاءت صناعته بمجملها
صافية، طبيعية، سليمة، على ما اجأ اليه الشاعر من ألوان البديع الكثيرة كالطباقي،
والجناس، والاستعارة والتشبيه، والتشخيص .

- الموسيقى : وقد زاد في صفاء صناعة البحثري حرصه على ان يغمرها أبداً
بموسيقى لا يعكّر انغامها اي نشوز، موسيقى هي ثمرة ما يمتاز به شعره من
سلاسة الالفاظ وحلاوتها واثلافتها، وسلامة التركيب وإبداع رصفها، والملازمة
المحكمة بين المعاني والتعابير .

فالفاظ البحثري منتخبة بعناية ومهارة، يسيرة على الإجمال، بعيدة عن
الإغراب، لينة ؛ وقد تشدد أحياناً ويعمض معناها، إلا انها لا تقسو، ولا تحشن،
ولا يثقل وقعها، بل تجمع الشدة الى سهولة اللفظ، والجزالة الى الفصاحة، « قلاً الفهم
وتقرع الأذن، على حد ما قال في وصفها طه حسين، ولكنها قلاً الفهم دون أن
يضيق بها الفهم، وتقرع السمع دون أن تؤذيه » .

أما تراكيبه فبريئة من كل تنافر بين الالفاظ المتتابعة، بريئة من كل تعقيد،
فلا تقديم ولا تأخير، ولا اضطراب من أي نوع كان . ففي جمل البحثري من
العناية مثلما في الفاظه، وهي تترقق أحياناً في اطراد وانسجام في الاجزاء، آخذة
بعضها ببعض في غير التواء، يمتد معها الصوت مرتاحاً في مدى البيت، لا يعرقلها منطق
مشتبك، ولا تفكير عميق . وهي أحياناً اخرى مقسمة اقساماً صغيرة، كأنها انغام
مقطعة تتساقط متتالية، في رخاء تارة :

أَغْتَدِي رَاضِيًا وَقَدْ بَتُّ غَضْبًا نَ وَأُمْسِي مَوَالِي، وَأَصْبَحُ عَبْدًا

وفي تدفق من الحيوية النابضة، تارة أخرى :

عوى ثم أقعى، فأرتجزت فهجته فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد^١

وهنا ينبغي أن نلاحظ أن البحري يملك سرّاً فريداً في استعمال الأفعال، بحيث يؤلف منها أجمل وقع، وأعمق إيجاء .

وقد عني البحري كذلك عناية خاصة بالموسيقى الملائمة بين اللفظ والمعنى من جهة، بحيث يجعل اللفظ صورة ناطقة للمعنى :

يقضضُ عصلاً في أسرتها الردى كقضضة المقرور أرعده البرد^٢

كما عني بالملائمة بين المعنى والأوزان الشعرية والقافية من جهة أخرى؛ فأكثر من اختيار الروي الذي يلين في مواقف الرقة، ويشدد في مواقف القوة؛ فعمد في وصف الذئب مثلاً، إلى الدال المشددة وإلى قوافٍ من أمثال « مسودٌ ... ومنأدٌ » تنطق بالقوة؛ أما في وصف البركة فقد لجأ إلى المد المختوم « بها » فإذا بقوافيه تمتد على حلاوة وعذوبة؛ وعلى العموم فقد كانت أوزان البحري الشعرية بالغة في جمال الغنة الموسيقية، على ما يعترضها أحياناً من بعض الخلل ينجم عن مجازاة الشاعر للأقدمين في استعمال « مفاعِلُنْ » عوضاً عن « مفاعيلنْ » في حشو البحر الطويل .

وهكذا كانت موسيقى شعر البحري، على الإجمال، من أروع ما في الشعر العربي من موسيقى، حتى دعا بعض النقاد البحري « قينة الشعراء »؛ غير أن وفرة اهتمام الشاعر بالموسيقى قد تذهله أحياناً عن مضمون شعره، فلا نرى له إذ ذاك من معنى غير ما توحى به موسيقاه من طرب، ولهذا قال ابن الأثير : « أراد البحري أن يشعر فغنى . » فقد يخلو شعر البحري من كل معنى، إلا أنه لا يخلو أبداً من جمال الوصف والصناعة، وروعة الموسيقى وعذوبتها؛ ومن ثم صحت أيضاً تسمية أبي

(١) أقعى : جلس على مؤخره . ارتجزت : رفعت صوتي، أو قلت رجزاً (ومن عادة البدو عند مباشرة الحرب انشاد الرجز للتحمس) . الرعد : استعارة لصوت الذئب (٢) يقضضُ عصلاً : يصوت بأسنان صلبة معوجة . الأسيرة ج سرار : الخطوط . المقرور : من أصابه القر أي البرد .

العلاء لديوان البحري « بعبث الوليد »، كما صح اتخاذ بعض النقاد أسلوب الشاعر مثلاً لما شاءوا أن يدعوه، على غير تمييز كثير، أسلوب المدرسة الشامية، وهو الأسلوب الذي يمتاز، في نظرهم، بصفاء الديباجة العربية، والجزالة والفصاحة، والعدوبة والانسجام .

بعض المراجع

- عبد السلام رستم : طيف الوليد أو حياة البحري - القاهرة ١٩٤٧
 جرجي كنعان : البحري - حماه ١٩٤٧
 محمد رجب البيومي : صحائف مطوية من أخلاق البحري : علاقته بالخلفاء - الرسالة ١٤ (١٩٤٦) ص ١٠٥٣ - ١٠٥٦ و ١٢٥٧ - ١٢٥٩
 عبد الرحمن شكري : البحري أمير الصناعة - الرسالة ٧ (١٩٣٩) ص ٧٠٧ - ٧٠٩ و ٧٥٥ - ٧٥٧
 حميد الدجيلي : البحري - العرفان ٢٥ (١٩٣٤) ص ٤٧٠ - ٤٧٨
 مارون عبود : الرؤوس - ص ١٥٧ - ١٦١
 شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي - ص ١٠٧ - ١١٥
 سيد نوفل : شعر الطبيعة في الأدب العربي - ص ١٧٨ - ١٨٢
 طه حسين : في حديث الشعر والنثر - ص ١٨٨ - ٢٢٦

موضوعات للبحث

- ١ - كانت حياة البحري مزيجاً من بدادة وحضارة ؛ وكان لذَيْنِكَ العُنُصْرَيْنِ مزاجية في نفس الرجل . ما كان أثر تلك المزاجية في أدبه ؟
- ٢ - جعل البحري شعره سلعةً تُعرضُ في الأسواق، ولكنه وإن تكسَّب في شعره فقد كان رجل الفن يحرس عليه، ويتوقر عليه في جميع شعره . ما رأيك في هذا القول ؟
- ٣ - قال الآمدي : « ان البحري أعراي الشعر مطبوع، وعلى مذهب الاوائل، وما فارق عمود الشعر المعروف » . اوضح هذا القول وناقشه .
- ٤ - قال ابن الأثير : « أما ابو عبادة البحري فإنه أحسن في سبك اللفظ على المعنى، وأراد أن يشعر فغنى » . اوضح هذا القول .
- ٥ - من أين استمدَّ البحري موصوفاته، وما قوة التصوير عنده ؟
- ٦ - قال البحري : « الشعرُ لمعُ تكفي إشارته وليس بالهذر طُولُ لَتِ خُطْبِهِ » . اوضح هذا القول .
- ٧ - كيف تتراءى لك شاعرية البحري من وراء سنيته ؟
- ٨ - أقم موازنة بين فنّي البحري وإني تمام واذكر عوامل تشابهها وعوامل اختلافها .

أدب الحركة المعاكسة - الشعر

الفصل الرابع

ابن الرومي (٨٣٥ - ٨٩٦ م / ٢٢١ - ٢٨٣ هـ)

١ حياته : أغفل المؤرخون ابن الرومي فأعاضنا بشعره عن إغفالهم ؛ فعرفنا انه رومي من ناحية ابيه فارسي من ناحية أمه، ولد ونشأ ببغداد، وحصل فيها ثقافة واسعة . وكانت حياته سلسلة متواصلة من الخيبة والأرزاء فتزعزع كيانه واعتلّت أعصابه، فتشكّاهم وتطير . ونكسب في أسرته، فزاده ذلك جزعاً وتساؤلاً . ولم ينل حظوة عند الخلفاء والعظماء فكان ديدنه التشكّي والتألم . وسخر به الناس فأبغضهم وجرد لسانه اللاذع لهجوم . واندفع وراء أهوائه فهدّت جسمه . ثم توفي مسموماً .

٢ آثاره : لابن الرومي رسائل، وديوان فيه مدح وهجاء ورثاء وغزل ووصف وفخر وعتاب وطرد .

٣ الشخصية في شعره : كان ابن الرومي مرفه الإحساس والشعور الى حد بعيد، شديد التنبيه، وشعره صورة لنفسيته :

١ - المدح : في مدحه تملق وسؤال وإلحاف وتذلّل مما يكشف عما في نفس الرجل من جشع -هم . وفي مدحه تظلم وتذكير بالوعود، وثورة نقمة وتهديد ؛ وفيه اعتداد وتقريع أو عتاب حاذق، مما يدل على اضطراب الرجل وانقياده لنزوات إحساسه . ويمتاز مدح ابن الرومي بالإطالة .

٢ - الهجاء : هجاؤه نقمة محروم، وأنّة جريح، ولسعة مهتاج، ونزقة متطير .

٣ - الرثاء : رثاؤه قسبان : قسم في ذويه، وقسم آخر في اشخاص مختلفين . اما الاول فتلوّع عميق وزفرات حرّى ؛ واما الثاني فيعتبر عن عاطفة عميقة في نفسه . وهكذا نلّس في القسم الاول قلبه الحفّاق الذي حطّمته المحن، وفي القسم الثاني نفسه الحساسة في تشاؤمها من الحياة وأسفها عليها .

٣ - الغزل : غزله يكشف عن شهوته الجنسية المستكلبة، والشاعر فيه مقلّد لا يكاد يرى من الجمال غير مظاهره الخارجية .

٤ الوصف في شعر ابن الرومي :

١ - وصف الطبيعة الخارجية : اكثر هذا الشعر تقليد مبتذل . ولكن فيه قصائد قليلة بلغ فيها الشاعر من الإبداع ذروة سامية فريدة ؛ وفيها يظهر حبه للطبيعة وخصائص وصفه لها .

ويتأز ذلك الوصف بتنبه الحواس، ولاسيا السمع والنظر . وشعور ابن الرومي بالطبيعة شعور عميق، دقيق، يتقصى الموصوفات الى ابعاد غاياتها، وينزل الى البواطن النائية منها . ووصفه كثير التشخيص، يث فيه نفسه بما فيها من حيوية .

٢ - وصف الطبيعة الداخلية : هو وصف النفوس ولاسيا نفس الشاعر، وقد برهن فيه الشاعر عن بصيرة نافذة ولوع بالاستقصاء والتحليل، وعن عاطفة شديدة التأثير . فجاءت بعض اوصافه النفسية نموذجاً رقيقاً للشعر الانساني .

٣ - وصف المآكل : وصف ابن الرومي المآكل عن نههم فيه ملبح . وفي ذلك الوصف دقة ملاحظة وتصوير تدل على مقدرة الشاعر الفريدة، ولاسيا في تمثيل الحركة .

٤ - السخر : لجأ ابن الرومي الى السخر عن حدة في شعوره بالجمال جعلته يشمئز ويشور لمراى كل قبيح، وعن نقمة وتشاؤم . وسخريته مبطننة بالمرارة والعنف، الا انها تاذج رقيقة للفن، لما فيها من المقارنات الغريبة وتوارد الافكار، ودقة المراقبة، وبغت الصور البعيدة الالحاء .

٥ فلسفة ابن الرومي : هي فلسفة إحساس مرهف متقلب لا تخلو من اضطراب وتناقض :

١ - فلسفة الحياة : هي فلسفة أبيقورية اظهر فيها الشاعر للحياة والتمتع بها شيئاً من العبادة . فهو يرى انه ينبغي الاقبال على الحياة واستيعاب جميع ما فيها من ملذات بنهم وشدة . ولكن شقاء الحياة حله على التطير والتشاؤم .

٢ - فلسفة الادب : يرى ابن الرومي ان الادب جدير بأن يُخدم وينقطع له اهله، ويكرمه العظماء؛ ويرى ان الشاعر بوق للحقيقة والهدى في قومه .

٣ - فلسفة الدين : كان ابن الرومي في تقواه طوع الإحساس الطارئ، وكانت عاطفته الدينية خاضعة لفلسفة الحياة . وكان شيعياً معتزلياً، ويقول بالطبيعتين .

٦ شاعريته : كان ابن الرومي شاذاً في شعره بسبب عبقرية الخاصة، واصله اليوناني، وشخصيته، وحياته واحوال بيئته .

٧ فنه : ابن الرومي قليل الاهتمام للصياغة اللفظية، يصرف همه لإبراز الإحساس في أدق تفاصيله، وابتكار الصور والمعاني الجديدة واستقصائها الى ابعاد غاياتها؛ وقد غلب على أسلوبه طابع الارتهال . ولغته سهلة طبيعية غنية، فيها دقة وسلامة من غير جزالة وترفع . وهو يعنى بالطرق المنطقية، والروابط العقلية . وكلامه طويل لا يخلو من بعض الحشو .



ابن الرومي كما تخيَّله الفنان ارتورو اورتيس

١ ميانه : أغفل مؤرخو العرب ابن الرومي، فلم يتركوا لنا عن سيرته سوى
أشتات زهيدة متفرقة، ليس من كبير طائل تحتها، الا ان الشاعر قد
خص نفسه بقسم من شعره، سجَّل فيه كثيراً من وقائع حياته، فأعاضنا بذلك عن
إغفال المؤرخين .

١ - أصله ونشأته : أبو الحسن علي بن العباس بن جريج أو جورجios، المعروف بابن الرومي، رومي من ناحية أبيه، فارسي من ناحية أمه، وقد قال منوهاً بنسبه :

- كَيْفَ أَغْضِي عَلَى الدَّيْسَةِ وَالْفُرْسِ خُوْثِي وَالرُّومُ أَغْامِي ١...
- وَنَحْنُ بَنُو الْيُونَانِ قَوْمٌ لَنَا حِجْيٌ وَنَجْدٌ وَعِيدَانٌ صِلَابُ الْمَعْجَمِ ٢...

ولد ابن الرومي يوم الاربعاء في ٢١ حزيران سنة ٨٣٥ ؛ ونشأ في بغداد عاكفاً على طلب العلم الذي ظل مولعاً بتحصيله ومذاكرته الى ما بعد سن الكهولة، حتى استقامت له ثقافة واسعة النطاق، قوامها العلوم العربية من نحو ولغة وأدب، والعلوم الدخيلة الشائعة في ايامه من فلسفة وفلك وأساطير، فضلاً عن علوم الدين، ولا يزال شعره يقوم شاهداً بأنه كان من اوسع شعراء العربية ثقافة ؛ قال يخاطب القاسم ابن عبيد الله معدداً مقدراته :

إِنْ أَكُنْ غَيْرُ مُحْسِنٍ كُلَّ مَا تَطْلُبُ إِنِّي لَمُحْسِنٌ أَجْزَاءُ
فَمَتَى مَا أَرَدْتَ طَالِبَ فَحْصٍ كُنْتُ رِجْمَنُ يُشَارِكُ الْحُكْمَاءُ
وَمَتَى مَا أَرَدْتَ قَارِضَ شِعْرِ كُنْتُ رِجْمَنُ يُسَاجِلُ الشُّعْرَاءُ ٣
وَمَتَى مَا خَطَبْتَ مِنِّي خُطْباً جَلَّ خَطْبِي فَفَاقَ بِي الْخُطَبَاءُ ٤
وَمَتَى حَاوَلَ الرَّسَائِلَ رَسَلِي بَلَفَّتَنِي بَلَاغِي الْبُلْغَاءُ ٥

وقد صرف ابن الرومي معظم ايامه في بغداد، لا يبارحها قليلاً حتى يرجع اليها متشوقاً؛ والظاهر أنه قصد مرة سامراً، انتجاعاً للرزق، وطالت اقامته فيها بعض الوقت، ولم يؤاته الحظ، فأكثر من ذكر الحنين الى موطنه .

(١) أغضى على الامر : سكت وصبر (٢) الحجي : العقل . المعجم ج معجم وهو موضع اختبار الصلابة في العود . كنى بقوله « عيدان صلاب المعجم » عن شدة قومه وصرامتهم (٣) ساجله : باراه وفاخره (٤) خطبت مني خطيباً : طلبت . الخطب : الشأن (٥) الرسل : سهولة الترسل .

٢ - الشاعر البائس :

١ في حياته الشخصية : وكان ابن الرومي متعشقا للحياة الى حد الوله، كثير الطمع فيها ؛ الا ان حياته لم تكن سوى سلسلة متواصلة من الخيبة والأرزاء ، ووافق ذلك فيه شعوراً قد بلغ من التوفر غاية الشذوذ، فعالج فشله ونكباته في نفسه أوجع أثر وأعنفه، مما زعزع جميع كيانه، فاعتلت اعصابه، وتجهمت الدنيا في عينيه، حتى لم يعد يرى في اغلب مظاهرها سوى شر يترصده ؛ فاستولى عليه جن صياني، وتفاقت طيرته حتى غدت مضرباً للمثل، وموضوعاً للاقاصيص، وألبت عليه جماعات المستهزئين من كل صوب ؛ وكان قد ركبته، الى ذلك، غرور جامح جعله يتوهم انه فوق الخلق طراً، وأنه من ثم جدير بكل اكرام وتعظيم . فتضاعفت آلامه إذ راح يقارن بين ما يحسب نفسه اهلاً به ، وما تؤتيه الدنيا من حظ هزيل ؛ زد على ذلك انه ، وإن تيسر عيشه بعض اليسر احياناً ، قد رافقه الفقر في معظم ايامه، وكان يبلغ من الاعدام ما يستدعي الشفقة ؛ والظاهر أنه كان اول امره يملك دُوراً وضيقة واثاثاً، إلا انه ما عثم ان توالى عليه المحن، فأتى الحريق على بعض ملكه، وغضب البعض الآخر، وبقي هو، ما بين لجاجة شهواته وحرمانه، يشكو ويتضورهما وألماً .

٢ في حياته العائلية : ونكب ابن الرومي في أسرته، فمات والده وهو حدث، ولم يبق له غير أخ اكبر منه كان له معاوناً على ملأت الحياة، فخرمه كذلك وهو في نحو الثلاثين من عمره ؛ ثم توفي ابناؤه الثلاثة، وتوفيت زوجته . ولم تكن تلك الضربات المتتالية إلا لتزيده جزءاً وتشاؤماً واختلال اعصاب .

٣ في حياته الاجتماعية : ولم يكن حظه في الحياة الاجتماعية اسعد منه في حياته الفردية والعائلية ؛ فقد أدرك المعتصم وهو طفل ، ثم أدرك سن البلوغ في عهد المتوكل، وامتدت حياته الى خلافة المعتضد فعاش في اثناها اربع سنوات ؛ الا انه لم يترك في مدح الخلفاء شيئاً يذكر ، لانه لم ينل حظوتهم ؛ ولا عجب في

ذلك، فإنَّ أعصابه كانت أقوى من إرادته، فلم يتمكن من قهر غرابية أطواره، والتظاهر بالمرادغة، وإتقان سياسة الرثاء التي كانت في عصره السبيل الوحيد للفلاح في مثل تلك الميادين؛ وظلَّ في علاقته مع العظاماء ضيق الصدر، سليط اللسان، شديد الحلفاء، سيئ التصرف. وكان جلَّ من اتصل بهم ابن الرومي من رجال الدولة، أعاجم، من أمثال الوزير إسماعيل بن بلبل، وآل طاهر، وآل وهب، وآل المنجيم؛ إلا أنه لم ينل عند جميع هؤلاء ما يملأ رغبته في الإسراف والبذخ، فكان التشكي والتألم ديدنه في كل حال؛ وقد سخر به الناس لغرابية أطواره، وعبثوا به وآلموه، فاشتدت عليهم ضغينته ونقمته، فجرَّد لسانه اللاذع لهجوهم، وجعل ثلبهم دأبه طوال حياته. وثقلت عليه وطأة الآلام من جميع الأصناف، إلا أنها لم تنهه عن مواصلة الإيغال في معاقرة الذنات، فشحب وجهه وتجمَّد، وتقوَّس ظهره، وضعف سمعه وبصره، وخارت جميع قواه، وآنس من نفسه هذا الهبوط، فراح يبكي شبابه بمرارة.

٣ - وفاته : وكانت خاتمة تلك المأساة أن مات ابن الرومي بالسم، نهار الأربعاء في ١٤ حزيران سنة ٨٩٦ على الأرجح، سمَّه القاسم بن عبيد الله بن سليمان ابن وهب وزير المعتضد، أو والد ذلك الوزير، بسبب ما كان للشاعر من سلطة لسان بعثت في قاتله الخوف من هجائه.

٢ - آثاره : ترك ابن الرومي بعض النثر، منه رسائل إلى القاسم بن عبيد الله، وإلى بعض أصدقائه؛ ومنه نبذة في تفضيل النرجس. وفي نثره بلاغة وتفوق؛ إلا أن أثره المهم ديوان ضخم في الشعر جمعه أبو بكر الصولي، ورتبه على حروف المعجم، وطبع الجزء الأول منه في القاهرة سنة ١٩١٧ مع شرح للشيخ شريف مسلم؛ ثم نشر كامل كيلا في مختارات من شعر ابن الرومي جعلها ثلاثة أجزاء. في مجلد واحد، يقع في نحو ٥٠٠ صفحة، وصدرها عباس محمود العقاد بمقدمة قيمة في عبقرية ابن الرومي.

ولربما كان ديوان ابن الرومي احسن دواوين الشعراء الاقدمين حفظاً فلم يُفقد منه الا اليسير؛ وهو متعدد الاغراض والفنون، ينطوي على عموم ابواب الشعر العربي المعروفة من مدح وهجاء ورثاء وغزل ووصف وفخر وعتاب وطرد وما الى ذلك .

٣ الشخصية في شعر ابن الرومي : كان ابن الرومي مرهف الاحساس والشعور الى حد بعيد، وكان في الوقت عينه، شديد التنبه لما يجري حوله ولما يجري في نفسه، مدرّكاً جميع جوانب الحياة، يزيد الى يقظته انعام النظر في جميع التأثيرات المنطبعة على أعصابه المرأة للتحسس، واستقصاء اخفى دقائقها وعواملها، الى ان تصير غذاء لعقله ومخيلته وذاكرته، بل شيئاً من ذاته، حتى اذا نظم كان نظمه صدّى لتلك التأثيرات، وسجلاً اثبت فيه صوراً متنوعة لحالات نفسه، وألواناً من التفاتات عقله؛ ومن طالع ديوان ابن الرومي رأى انه اصدق ترجمة لنفسه، لانه في الغالب لم يقيم فيه حاجز بين الشاعر والانسان، فبرزت شخصية الرجل في جميع ابواب الشعر التي طرقها :

١ - المدح : فقد مدح ابن الرومي، وجرى في مدحه على مألوف شعراء المديح من تملق وسؤال ينقلب الى الاحلاف احياناً؛ وتدلّل بين أيدي العطاء والوجهاء، الا ان كل ذلك يشفّ بجلاء عن تكالبه على اطايب الحياة، وعن تألّمه من الحرمان الذي يدفعه الى جميع ذرائع الكسب، وعن امله في نوال ما يبتغيه من شهواته، ذلك الامل الذي توليه الشهوات قوّة ثائرة، ويكشف عمّا في نفس صاحبه من جشع وهم وسخط على الاقلال . ولم يكن الشاعر لينال دائماً مبتغاه، ولذلك يُعيد الكرة، متظلماً احياناً، مذكراً بالوعود، متشكّياً في انكسار ووجع، ويشور احياناً اخرى ناقماً، مهدداً، معالماً جميع وسائل الإقناع، لإرغام الممدوح على العطاء :

إذا ما مدحتُ المرءَ يوماً ولم يُثبِّ مدبّحي، وحقّ الشعر في الحكم واجبُ
كفاني هجائيهِ قيامي بمدحِهِ خطيباً، وقولُ النَّاسِ لي : «أنتَ كاذبٌ»

وهو، الى ذلك، لا يتخلّى عن اعتداده بنفسه، فيقرّع الممدوحين على الالتفات الى سائر

الشعراء دونه وهو وحده الجدير بالالتفات ؛ ويفخر، وفخره أحياناً كثيرة بشعره :
شِعْرِي شِعْرٌ إِذَا تَأَمَّلَهُ الْإِنْسَانُ ذُو الْعَقْلِ وَالْحِجَى عَبْدَهُ

ويحقر الشعراء أصحابي الخطوة فيصفهم بالحيف الثقنة، والثناء الطافي على وجه اليم .

وقد يحاول باوغ مآربه عن سبيل البراعة، فيودع مدحه نعمة من العتاب مستوفية الحذق الى حد بعيد، ويلبس كلامه عذوبة ورفقاً، ويتودد في لهجة المستخذي، مبرئاً نفسه من كل ما قد يحول عنه الإحسان والعطاء، مُظهراً نفسه في صورة المحب المخلص .

ولكنه في كل ذلك مضطرب، منقاد لنزوات احساسه، لا يستطيع الى الاتزان سبيلاً . فبينما هو مفكر رزين، يُدلي بالآراء الصائبة، والاقوال الساحرة، إذا به فجأة هائج منفعل لا تقيده رزانة، يندفع مع غرابة اطواره، غير مبالي بالمعاقبة المرة والتهديد العنيف، ولا ينفك يتقلب بين عذوبة المداواة، وعنف التقريع، تعبت به شهوته الى النوال في جميع الجهات، وتذهله اعصابه عن مقتضيات الاحوال .

ويمتاز مدح ابن الرومي على الاجمال بالاطالة، فالشاعر يُغرق في التفصيل، محاولاً الاقناع بجميع الوسائل، حتى ينقلب مدحه أحياناً حجة منطقية، تربط بين أجزائها الروابط العقلية، وتتعاقب فيها الاقيسة والبراهين موجهة الى العقل أحياناً، وأحياناً الى الشعور؛ وكأنني به يبغي من ذلك إشعار ممدوحيه بانقباض ايديهم :

وَإِذَا أَمْرٌ مَدَحَ أَمْرًا لِنَوَالِيهِ وَأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَرَادَ هِجَاءَهُ^١

٢ - الهجاء : لا يختلف هجاء ابن الرومي عن مدحه في عرض صورة خالصة لنفسه، فهجاؤه نعمة محروم، وانة جويح، ولسعة مهتاج، ونزقة متطير .

فقد كان ابن الرومي يريد أن يحيا حياة تليق برتبة الشاعر السامية في نظره،

وبالمثلة التي كان يرى نفسه أهلاً لها ؛ إلا أنه لم يظفر بشيء من ذلك، وزاوله الحرمان، فسخط وهجا .

وكان حساساً مصقول النفس، لا تني آراؤه وعقائده تصطدم بواقع الحياة القاسي، ومظاهرها الجافية، ولم يكن يستطيع تكييف طبعه بحسب الاحوال، فشقلت وطأة ذلك على نفسه وأوجعته ؛ ولم يتمكن كذلك من إغماض عينيه عن الدنيا، وإنامة أعصابه كي لا تحس ما فيها من جور وتناقض وفساد، فتضاعف ألمه وتشاؤمه، وسخط على المجتمع، وغدا سريع التهيج والغضب على معاصريه، سهل الاندفاع الى الشتم والذم، ينال بلسانه كل ما يكرهه من غناء قبيح، أو صوم في رمضان، او ما الى ذلك .

وكان غريب الاطوار، ضيق الصدر، وكان الناس يعجبون به، عائبين شعره، او ساخرين من مشيته، او ناعين عليه صلعه، وما أشبه ذلك من الهنات التي كانت تهيج وتثيره، فيعبر عن ثورته وهياجه بشلب مر .

ثم انه كان متطيراً، كثير الاعتقاد بالشؤم في الاشخاص والاشياء، يهجو كل ما يرى فيه نحساً، سواء أكان أحذب، أو صاحب حيلة طويلة .

وهكذا كان شعور ابن الرومي بشقل القيود التي تغل آماله ورغباته، وبجفاء العقبات التي تعترض سبيله، ذريعة فعالة لوعي شخصيته، وإبرازها في الهجاء، وقد تهيأت للرجل مؤهلات للهجاء نادرة، من قدرة على التهكم، وبراعة في الخيال لإبداع الصور المضحكة اللاذعة، ودقة في التصوير، تتناول القبح في أخفى مظاهره، وتعرضه في أمانة تفضح عيوبه بجلاء، وقد اسرف ابن الرومي في الفحش في هجائه وبسط لسانه بسطاً بديئاً في اعراض مهجويته، ايأ كانوا، في غير ما تحرّج ؛ ولم يجد من عصره ما يجد إسرافه في هذا المجال، فأتى بأشنع من كل ما أتى به شعراء الهجاء، بحيث لا يدانيه لا الخطيئة ولا جرير ولا الفرزدق ولا غيرهم . ولا ريب أن في ضيق خلق ابن الرومي وخشه برهاناً على اختلال في توازن أعصابه، واضطراب جنسي في بنيته .

٣ - الرثاء : وشخصية ابن الرومي بارزة ايضاً في رثائه على قَلْتِه ؛ ورثاؤه قسمان : قسم خص به ذويه اي اولاده الثلاثة وزوجه وأمه وأخاه، وقسم آخر خص به اشخاصاً مختلفين .

اما رثاؤه في اهله، فلا يمكن أن يقال فيه إلا انه تلوُّع عميق وزفرات حري تتصاعد من قلب جريح، وقد تركت فيه النواثب أثراً بليغاً، وأوسعته جزعاً وتحطيماً، فهو يرسل أناته في لهجة مؤثرة، ولهفة متحرقة، ويتوفر على تحليل دواعي حزنه، فلا يرى لنفسه من سبيل غير الجزع، ولا يدع لقارئه من مجال غير التأثر المؤلم السحيق، والشفقة الحقيقية .

اما رثاؤه لغير اهله فيعتبر عن عاطفة عميقة في نفسه، تختلف باختلاف المراثين؛ فهو إذ رثى بستان المغنية بكى حبه الضائع، وإذ رثى أبا الحسن يحيى بن عمر الطالبي الذي قتله العباسيون وكان قد ثار عليهم، انتصر لتشييعه للعلويين، وارسل على المقتول دمنة صادقة، وهجا قاتليه وهددهم، وجمحت به المخيلة فتصور قائماً يقوم عليهم من بني علي بجيش جرار فيوقع بهم ؛ وإذ رثى عبد الله بن اسحاق، ضمن القسم الاكبر من رثائه اعتبارات في الحياة والموت، وتصور الدهر والدنيا والدي جميع الخلق، والدين خالين من الشفقة، يريبان اولادهما حتى يأكلاهم :

إِنْ رَبِّيَا قَتَلَا أَوْ سَمَّنَا أَكَلَا فَمَا دَمٌ طَمِعَا فِيهِ بِمَحْقُونٍ !

وبسط في أبيات طويلة نظراته المتشائمة الى العالم والوجود ؛ واذ رثى البصرة تلهف ولهفة صادقة على جمالها المهدم، وعجب من الناس كيف يرتاحون الى مثل ذلك الانتهاك، ولا يشعرون، ولا ينتقمون له ؛ وحضهم بلهجة فيها حمية وشدة، وفيها قوة مؤثرة . وهكذا نامس في القسم الاول من رثائه قلبه الخفاق الذي حطمته المحن، وفي القسم الثاني نفسه الحساسة في تشاؤمها من الحياة واسفها عليها .

٤ - الغزل : وتتجلى شخصية ابن الرومي في غزله، من حيث شهوته الجنسية

المستكلبة؛ فهو لا يكاد يرى في الحياة غير متعة الحواس؛ وحواسه مرهفة، وإحساسه مجرد الاعصاب؛ ومن ثمَّ فإنَّ غزل ابن الرومي، على قلَّته، يشهد بشهوة مادية لا تشبع، ولا تني من ثمَّ متألمة معرَّبة دائمة التلوع .

وغزل ابن الرومي، وإن نبضت فيه الحياة الشهوانية متدققة، حافل بتقليد الاقدمين، فهو لا يكاد يرى من الجمال غير مظاهره الخارجية، ويستعير لوصفه استعارات الاقدمين وتشبيهاتهم المعهودة؛ إلا انه يصف أحياناً احتلال الحب للنفس فيجيد؛ وهو يتغزل عموماً بالقيان والغلمان والغلاميات، ويدخل على غزله وصف الصوت الحسن، ويكثر من التصوير الحسي .

وفي غزل ابن الرومي مجون شنيع، وإن لم يخل من شعر وجداني رقيق .

٤ الوصف في شعر ابن الرومي : إنَّ حبَّ ابن الرومي للحياة والجمال، وما اجتمع له من عاطفة متوقفة متوتبة تحتلج لكل مظهر من مظاهرهما، ومن خيال جبار مسلَّح بعين حادة يقظة لتتبعهما في أدقِّ حالاتهما، كل ذلك دفعه الى الوصف الذي أدخله على أغلب ابواب شعره، وطبعه بيزات جانب كبير من شاعريته . إلا ان هناك ثلاثة ألوان رئيسية سنميزها في درس وصف ابن الرومي وهي وصف الطبيعة، ووصف المآكل، ثم السخر .

١ - وصف الطبيعة : وينقسم وصف الطبيعة نفسه في شعر ابن الرومي الى نوعين هامين : الطبيعة الخارجية، والطبيعة الداخلية او التحليل النفسي :

١ - الطبيعة الخارجية : أما وصف الطبيعة الخارجية، فهو الوصف الذي طالما كان شائعاً في شعر القدماء والعباسيين الذين سبقوا ابن الرومي ؛ وقد اكثر الشاعر من تحديهم فيه ومن اقتباس معانيهم، ولا سيما في وصف السحاب والمطر والليل والطرْد، فجاء قسم كبير من شعره في هذا الباب مبتدلاً، قد شاع فيه التقليد وجهود العاطفة

والخيال على السواء، وفتور العبارة؛ وغدا بجملة اشكالاً متتالية لا ابتكار فيها ولا روعة ولا حياة .

إلا ان لابن الرومي، فيما سوى ذلك، قصائد قليلة بالاضافة الى سائر شعره، قد بلغ فيها من الابداع ذروة سامية فريدة؛ كما ان له موقفاً خاصاً تجاه الطبيعة يتجلى في هذه القصائد وفي ابيات أخرى متفرقة في مختلف ابواب شعره؛ وهذا ما يُقصد لى التكلم على ابن الرومي شاعر الطبيعة، وفي ذلك الشعر نبتين بجلاء مزينة حبه للطبيعة وخصائص وصفه لها .

أما حب ابن الرومي للطبيعة لجديد في لونه، قلماً نجد له نظيراً في شعر سابقه؛ فهو لا ينظر اليها، شأنهم، كمتحف حسن التنسيق قد حشد فيه كل رائع زاهر من الاشكال والالوان التي يرتاح اليها النظر، وتطرب لها النفس، ويعجب بها الخيال الى حد ان يشور احياناً فيث فيها حركة واضطراباً؛ وإنما يعتبرها كحياة وثيقة الاتصال بحياة الانسان، قد وضعت في سبيل خدمتها وسخرت لاجلها؛ الا ان في الطبيعة ما يخرج عن هذه السنته، فيبعث الشاعر الى النفور، فيتهكم به ويهجو، فعله بالعوسج :

عَذَرْنَا النَّخْلَ فِي إِبدَاءِ شَوْكِهِ يَذُودُ بِهِ الْأَنَامِلَ عَنْ جَنَاهُ^١
فَمَا لِلْعَوْسَجِ الْمَلْعُونِ أَبْدَى لَنَا شَوْكًا بِسَلَامٍ نَرَاهُ^٢
نَرَاهُ ظَنَّ فِيهِ جَفَى كَرِيماً فَأَظْهَرَ عُدَّةً تَحْمِي حِمَاهُ^٣!
فَلَا يَتَسَلَّحَنَّ لِدَفْعِ كَفِّهِ كَفَاهُ لَوْمُ بَجْنَاهُ كَفَاهُ!

اما الذي يحقق في الطبيعة غايته فهو صديق محبوب يلجأ اليه الشاعر من الناس الذين يخشى ابداء اذاهم، والذين يدفعونه الى التشاؤم، فيعيده كل ما في نفسه من صبرة الى الجمال والحياة والحب، ويشاطره افراحه وشجوه، ويتوفر على تحليل عواطفه طبق ما في نفسه من عواطف فيقول مثلاً في حزنه :

وَأَظْلَمَتِ الدُّنْيَا وَبَاخَ ضِيَاؤُهَا كَمَا دَاوَسَ الصَّخْرَ حَيْرَى عَلَى الْقِسَمِ^٢

(١) ذاد: دفع وطرده. الجنى: ما يُجنى من ثمر (٢) باخ ضياؤها: ذهب .

وَأَبْدَى أَكْتِسَابًا كُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ مُنْتَهَى وَأَضْعَفُ مَا أَبْدَاهُ مِنْ ذَاكَ مَا كَتَمَ

ومن ابرز ما يمتاز به وصف ابن الرومي للطبيعة إذ ذاك تنبه الحواس، فكان للمشاهد التي يجدها قدرة غريبة على إيقاظ كل ما في نفسه من مشاعر، وكل ما في حواسه من حدة، وكأنه يتملى جمالات الطبيعة بكل جوارحه من جوارحه، ويشترك في تمتعه بها اللمس والشم، والذوق أحياناً، إلا أن الحظَّ الأوفر للسمع والنظر؛ فبالسمع قد استطاع أن يميز بين الاصوات ادق تمييز، وأن يأتي في تصويرها بأوصاف عجيبة، متتبعاً لحفايا النغم، نازلاً الى اعماق اسراره، حتى وكأنه يلمس تموجاته، ويراها صوراً تتحرك أمام ناظره، وعليها زخارف متنوعة . قال يصف صوت المغنية وحيد :

وَأَرَقَّ الدَّلَالُ وَالْفُجْجُ مِنْهُ وَبَرَاهُ الشَّجَى فَكَادَ يَبِيدُ
فَتَرَاهُ يَمُوتُ طَوْرًا وَيَحْيَا مُسْتَلْذِ بِسِطْطِهِ وَالنَّشِيدُ
فِيهِ وَشِيٌّ وَفِيهِ حَلِيٌّ مِنَ النَّفْسِ مَصْصُوغٌ يَخْتَالُ فِيهِ الْقَصِيدُ

وفي وصف ابن الرومي حظ كبير أيضاً للعين، تلك العين النهمة الى الجمال، التي تستقر به بشغف، متبينة ادق خطوطه والوانه، لتؤلف من كل ذلك لوحات كاملة، ناتئة، تنطبع في المخيلة بشدة؛ فقد أوتي ابن الرومي حاسة متوهجة، فريدة، ذكية لادراك الالوان، سريعة الى التقاط كل خلجة من خلجاتها، وكل دقيقة من دقائقها، بارعة في تكييفها ومزجها لتؤدي ابلغ أثر .

وشعور ابن الرومي بالطبيعة على الإجمال شعور عميق دقيق يتقصى الموصوفات الى ابعاد غاياتها، ويتخطى فيها الظواهر المحسوسة الى البواطن النائية؛ وهو من نوع «الاحساس الشعري» على ما يحدده المازني، أي انه إزاء مباحج الطبيعة ومشاهد

(١) الشَّجَى : الالم النفسي والحزن (٢) بسِطْطُهُ : ما يتدبَّر به الصوت ويرق . النشيد : ارتفاع الصوت في الغناء (٣) الوَشِي : مزج الاصوات بعضها ببعض . الحَلِي : الزخرفة . يَخْتَالُ : يسير في هدوء وتهادٍ .

جمالها يهيج في الشاعر جميع قوى خياله وعاطفته ؛ وهو في حالة التهيّج هذه يأبى الاقرار بأن مثل هذا الشعور الشديد تحدثه فيه اشياء جامدة، خالية من القوة والعاطفة والارادة، بل يتمثل تلك الاشياء في شكل اشخاص حيّة تشعر شعور الاحياء، فتتألم وتسعد، وتحب وتريد نظيرهم سواء بسواء :

بَلَدٌ صَحِبْتُ بِهِ الشَّيْبَةَ وَالصَّبَا وَلَبَسْتُ ثَوْبَ الْعُمَرِ وَهُوَ جَدِيدُ
فَإِذَا تَمَثَّلَ فِي الضَّمِيرِ رَأْيُهُ وَعَلَيْهِ أَغْصَانُ الشَّجَابِ تَمِيدُ

ومن ثمّ فقد عمّ هذا التوفر على التشخيص والتجسيم جميع شعر ابن الرومي تقريباً حتى غدا مزية اساسية لوصفه . وقد دفعه اليه، فضلاً عن قوة خياله وشعوره، اضطراب اعصابه الذي كان يعمر مخيلته بضروب شتى من التصورات والاشباح .

ولست هذه الاشخاص التي يخلقها ابن الرومي بغريبة عن نفسه، بل هي مرآة لها، تعكس كل ما فيها من آلام وافراح وصبوة وشهوة وذكريات، يعيرها عواطفه، ويسكب عليها من فيض حياته، ثم يكبّ على تلمس خفقاتها حيث يسمع اصداً خفقات قلبه، فلا يرى من فرق بين ربيعها وشبابه، وجمالها ومُتعة، وحياتها وحياته، ويزج بين وصفه لها ووصفه لنفسه؛ ومن ثمّ تلك الالهفة الملهثة التي تجعل من أغلب اوصاف ابن الرومي للطبيعة غزلاً بها، لا يفرق الشاعر بين جمالها والجمال الانساني، ومن ثمّ ذلك الخلق الدائم المتواصل، الذي يجعل الشاعر منه نموذجاً رفيعاً للوصف الحي، كما يجعله من اجمل الشعر الغنائي العاطفي .

٢ الطبيعة الداخلية : ولم يقف ابن الرومي عند الطبيعة الخارجية، بل تعدّاها احياناً كثيرة الى نوع جديد من الوصف : وصف النفوس الذي اندفع اليه من تلقاء ولعه بالتحليل وتقصي بواطن الامور، فخل شعره بتلك المشاهد الداخلية التي تكشف لنا عن سرائر النفوس في مختلف حالاتها، وتعطينا مفتاح أدق اسرارها

وخفاياها؛ ولاسيا نفس الشاعر في شتى احوال حزنه وغرامه، ونقمتة على الدهر
الظالم الخؤون الذي رماه بين آمال سامية فسيحة يطمح اليها وواقع قاس يضاده،
وموقفه إزاء الحياة بين طمع نهم بها وأسف على كل ذرة تفوته منها، او
تنقضي لغير ما رجعة؛ وقد وصف كذلك نفوس بعض بمدوحيه معللاً اسباب
تقصيرهم في العطاء، وأنانيتهم وإغفالهم واجباتهم الرفيعة، كما أنه ترك لنا أوصافاً
مختلفة رائعة في رسم عواطف انسانية خالدة كحب الوطن والصدقة، وغدر
النساء، والحسد والزهد.

وفي جميع تلك الاوصاف النفسية برهن ابن الرومي عن بصيرة نافذة،
ولوع بالاستقصاء والتحليل، والانحدار الى اغوار القلوب البعيدة، كما برهن
عن عاطفة شديدة التأثر، يترك فيها تأمل الحياة وتدبر النفوس أثراً سحيقاً؛
فجاءت بعض اوصافه النفسية نموذجاً رفيعاً للشعر الانساني، فيها من عمق
النظر ما يخولها جدارة البقاء، ومن قوة التأثير ما يبعث في نفوس قارئها أصداء
بعيدة، تمتد تموجاتها في مدى رحب طويل.

٢- وصف المآكل والمشاهد: الا ان لابن الرومي، فيما عدا هذا الوصف

الذي غلبت عليه قوى العاطفة والعقل، وصفاً آخر هو اقرب الى التصوير الفني، يتجلى
خصوصاً في وصف بعض المآكل ورسم مشاهد صغيرة، كما يتجلى في السخر؛ أما
المآكل فقد أكثر ابن الرومي من وصفها، عن نهم فيه ملح، وحاجة لجوج الى
تمثيل اطايب الحياة في صور باقية، تعيد اليه شيئاً من لذتها، بعد انقضائها؛ وقد
وصف الخمر في قصائد كثيرة، غير ان تلك القصائد في عمومها تقليدية، لم يكديأتي فيها بجديد
يذكر، بخلاف اوصافه للدجاج المقلّي مثلاً، والموز والعنب، والقطائف، والطريقة
التي بينها لصنع «المآكل اللذيذ». ففي كل ذلك، من دقة الملاحظة والتصوير،
ومن النهم الذي للعين فيه من الحظ مثل ما للذوق، والذي ملأه الشاعر بشهوته
العارمة، ما يجعلنا نقر له بمقدرة فريدة على التصوير الفني؛ ففي ابن الرومي مثل
ما في المصور او الرسّام من واسع بالاشكال والالوان والحركات، ودقة نظر

تتقضى كل ما خفي ودقّ منها، « لا تنقصه، على حد ما قال فيه العقّاد، الا الريشة واللوحة، بل لا تنقصه هاتان لانه استعاض من الريشة بالقلم، ومن اللوحة بالقرطاس، فاكتفى بهما، وأثبت في النظم البديع ما لا تثبته الالوان والاشكال ». ومن أبرز ما يفوق به ابن الرومي الرسّام في تصويره، قدرته على وصف الحركة، وهي اصعب شيء في الوصف يعجز عنها عامة الشعراء، كما يعجز عنها المصورون؛ أما ابن الرومي فإنه يبلغ من تصوير الحركة غاية بعيدة من الابداع، ولا يكتفي بإثباتها منفردة في صورة بسيطة، بل يعتمد الى الصور المركّبة، حيث تجتمع في ابيات قليلة مشاهد مختلفة، تتعاقب متتالية، مترابطة، خفاقة . وآية ابن الرومي في هذا النوع وصفه للخبّاز .

٣ - السخر : وقدره ابن الرومي العجيبة في التصوير بارزة ايضاً بأجلى خصائصها في ابياته السخرية او صورّه المشوّهة المعروفة، التي دفعته الى رسمها في الغالب، حدة في شعوره بالجمال جعلته يشمئز ويثور لمؤاى كل قبيح، فكأن صورّه المشوّهة انتقام للجمال مما يشوّهه، يفرّج فيها الشاعر في الوقت عينه عما يزدحم في نفسه من نقمة وتشاؤم؛ ولذا فقد كانت تلك الصور على العموم، رغم ما يبدو عليها من تهكم وسخرية، مبطنة بالمرارة والعنف؛ الا انها نماذج رفيعة للفن، لما طواها عليه الشاعر من المقارنات الغريبة، وتوارد الافكار التي تبعث مقابلتها واقترابها شرارة عجيبة، وانفجارية من الضحك، كما في قوله في رجل طويل أبله :

طولٌ وعرضٌ بلا عقلٍ ولا أدبٍ فليسَ يحسُنُ إلّا وهوَ مصلوبٌ

او قوله في صاحب الادعاء الفارغ :

أطلقَ الجرّذانَ بالليلِ وصحّ : « هل من مبارزٍ ؟ »

وابن الرومي لم يُقلع في صورّه الهزلية عن الطريقة التي كان يسلكها في رسم المشاهد، وعن براعته في دقة المراقبة، واثبات الحركة، وبعث الصور البعيدة الایحاء؛ وقد افضت به دقة التصوير الى تمثيل الدّمامة في اتم اشكالها،

حتى كأنها تنطق بنفسها عن معانيها ؛ وجره حبه للتقصي الى استقراء مقابح الذين
يسخر منهم الى نهاياتها ؛ وقد أتى في ذلك بآيات من المهارة يعرفها كل متأدب،
أشهرها وصف الاحدب، ووصف البخيل :

يُقْتَرُ عَيْسَى عَلَى نَفْسِهِ وَلَيْسَ بَبَاقٍ وَلَا خَالِدًا
فَلَوْ يَسْتَطِيعُ لِنَفْسِهِ نَفْسٌ مِنْ مِخْرٍ وَاحِدٍ

وعلى الإجمال فإن ما أبداه ابن الرومي من حذق في التصوير عظيم، لم يخرج
به قط من مجال الشعر، فقد اجتمعت له ملكتا الشعر والتصوير معاً، ممتزجتين في
اوثق توافق . وإن غلبت على وصفه العاطفة تارة، والعقل تارة أخرى، ودقة الرسم
والالوان أحياناً، لا يخلو وصفه العاطفي والنفسي من رونق الالوان، كما لا يخلو
تصويره الفني من الشعور ونفاذ الذكاء ؛ وكلا الوصف والتصوير عنده يستعملهما أبداً
خيال متحرك جبّار له قوة على الإيحاء تُضَمِّن القليل من الالفاظ عوالم من المعاني
لا تُحَدِّد :

أَهْيَ شَيْءٍ لَا تَسَامُ الْعَيْنُ مِنْهُ أَمْ لَهُ كُلُّ سَاعَةٍ تَجْدِيدُ

٥ فلسفه ابن الرومي : ليس ابن الرومي فيلسوفاً ذا مذهب خاص، انما هو
رجل تأمل وتحليل قد طوى شعره على طائفة جمّة
من الآراء، ثبوته في عالم الافكار مقاماً مرموقاً . وهذه الآراء هي التي تُعْنَى لدى
التكلم على فلسفه ابن الرومي . وليست هذه الفلسفة دائماً نتيجة تفكير متبصر،
مستقل سليم، انما هي احياناً كثيرة ثمرة احساس موهف متقلب، جعل ابن الرومي
أشبه بولد كبير، ينقاد الى مختلف التأثيرات الطارئة على حسّه، على غير تقيّد بمنطق
سويّ أو سنّة عقلية مطّردة ؛ كما انما ثمرة عاطفة جاححة، تتحكّم بالعقل وتستخدمه
لتعليل وفلسفه ما تصبو اليه، ومن ثمّ لم تخلُ فلسفه ابن الرومي التي تناولت الحياة

والادب والدين، من التواء واضطراب وتناقض، لانها فلسفة شعور الساعة الحاضرة، لا فلسفة العقل المجرد عن مؤثرات الاحوال والطوارئ.

١ - فلسفة الحياة : أما آراؤه في الحياة، فهي آراء المغرم بها، الذي تغلب فيه الحس على العقل والإرادة، فاندفع بكل قواه يتطلبها معتقداً انه ينبغي الاقبال عليها، على علامتها، واستيعاب جميع ما فيها من ملذات، بنهم وشدة؛ وبدا له كل ما في الوجود من امرأة وخمرة وطعام وربيع ورياض وما الى ذلك، كأنه أدوات للسرور ووسائل للتمتع؛ وبقدر ما يستطيع الانسان أن يستفيد من تلك المتع، يكون حظه من الحياة متوقفاً سعيداً؛ ومن ثم فقد أحب ان يعيش بقوة، ليتمتع بقوة، ويطول تمتعه؛ واشتد هلهله لمراى المشيب يغزو رأسه، فبكى بمرارة شبابه المفقود، لان الشباب هو عهد القوة والتمتع، والحياة الحافلة لا فرق بينها وبينه.

وقد تضخم حب الحياة في نظر ابن الرومي حتى غدا شيئاً يشبه العبادة، وحتى أصبحت الحياة في رأيه أمراً يحاكي الدين، يحرم ويحلل، ويأمر ويطاع، وان ناقض شرائع الدين :

شَرِبْتُ وَقَدْ كَانَ الشَّبَابُ مُحَلَّلاً لِي الرَّاحَ مَا كَانَ الْكِتَابُ مُحَرَّمًا
وَقَدْ طَابَقَ الشَّيْبُ الْكِتَابَ فَحَرِّمْتُ عَلَى فَيْكِ تَحْرِيمِينَ إِنْ كُنْتُ مُسْلِمًا

وفي هذا المذهب الابيقوري يتلاقى ابن الرومي وابو نواس، الا انها يفتقران من حيث استخدامهما للحس فكلاهما يسعى وراء اللذة الحسية، الا ان أبا نواس يبتغيها في ذاتها؛ ولا يتطلب من الاحساس غير المتعة باللذة، فيما ان ابن الرومي يبتغي إشباع الحس وإشغاله، والتغفل وراء إحساسات النفس البشرية واستيعابها واكتناهاها، سواء نجم عن ذلك لذة ام لا؛ فغاية ابي نواس ارتشاف اللذة، لا غير؛ وغاية ابن الرومي ان يشغل الاحساس ويوسع نطاقه، وقد يتناول هذا الاحساس

لذة، وقد لا يتناول من اللذات شيئاً، إلا أنه، على كل حال، امرٌ جدير بالعناية والاهتمام.

شُغف ابن الرومي بالحياة، ولكن الحياة لم تكن لتطالعه ابداً بالاقبال والسعادة، فكانت المِحن لا تنفك تنهال عليه، والحرمان ينهش قلبه، وكانت تالمه من شقاء الحياة بقدر شغفه بها، فأسرف في التطيُّر، وملاً شعره بانعام التشاؤم؛ فرأى أن حياة الإنسان سلسلة من النوائب والحرمان تصل بين مهده ولحده، ولا تدع له مجاًلاً للتمتع بما يشاء، وأكبر نوائب الحياة فقدان الشباب. ورأى أن الظلم شائع في كل شيء بين الناس ولا سيما في توزيع المتع، فهي موفرة للذين لا يقدرونها وليسوا أهلاً لها، محرمة على الذين هم وحدهم جديرون بها؛ ورأى أن الشر بين الناس شامل مشترك، أما الخير فطاري غير مشترك، وأن اللوم موثق بالطبع البشري؛ فلا بد إذن من الحذر واستشارة الحزم، إلا أنه مع كل ذلك لم يتخلَّ عن حب الحياة، وظلَّ يعدُّ زوالها أكبر مصاب، والتهافت على مُتعتها خير سبيل إلى نسيان رزاياها، وكأنني به يفرق بين الحياة والاحياء الذين يفسدون بها وبين الدهر الغاشم الذي يعبث بالناس ولا يتيح لهم التمتع بها كما يشاؤون.

٢ - فلسفة الأدب: وقد أتى ابن الرومي بآراء جديدة في الأدب، وهو في نظره فنٌ رفيع، جدير بأن يُخدم وينقطع له أهله ويكرمه العظماء، بدل أن يكون هو

(١) قال العقَّاد: «ابن الرومي حسُّ متوفز وأبو نواس لذة حسيَّة، ومن هنا يتلاقيان، ومن هنا كذلك يفترقان. فابن الرومي يطلب اللذة الحسية لأنه يطلب كل ما يشغل الحس، فهو وأبو نواس في هذا متلاقيان؛ ولكن أبا نواس لم يطلب الحس لغير اللذة، ولم يشغل نفسه بغير المتعة، فهو وابن الرومي في هذا مفترقان بل جدَّ مفترقين.

ماذا يبقى من أبي نواس بعد المتعة الحسيَّة؟ - لا شيء!

وماذا يبقى بعد المتعة الحسيَّة في ابن الرومي؟ - يبقى الحس كله، ويبقى ابن الرومي كله، وتبقى لنا نفس إنسانية، تعرف الآلام والمتع وتعرف المحاسن ولو لم تستخرج منها اللذات والمتعات، فلو لا اللذات لما بالى أبو نواس بأن يحسَّ الحياة، ولكن ابن الرومي يحسَّ الحياة، ولو لم تكن فيها لذات، لأن الإحساس عنده هو الأصل الاصيل.

خادم أهوائهم ؛ وان يرعى له الناس حرمةً واجبةً وحققاً سامياً . وهو يُكبر فنَّ الشعر ولا يحصره في العرب ولا يؤثرهم فيه على سواهم ؛ ويرى ان الشاعر بوق للحقيقة والهدى في قومه، فلم يخشَ من تفتين ممدوحيه الى واجباتهم تجاه الرعية، وقد أبدى احياناً حميةً متقدمة في هداية الشعب الى مواطن السداد، كما يظهر ذلك في قصيدته التي رثى بها البصرة .

٣ - فلسفة الدين : أما الدين فلم ينكره ابن الرومي ولكنه كان في تقواه طوع الاحساس الطارئ وكانت عاطفته الدينية خاضعة لفلسفة الحياة ؛ وكان ابن الرومي الى ذلك شيعياً يوالي العلويين، ويتشيع لهم عن عقيدة وهوى، ويأمل الوصول، عن طريق هذا التشيع، الى مستقبل خير من الحاضر وادنى منه الى كشف الظلامات وردّ الحقوق ؛ وكان يجمع الى تشيعه الاعتزال فيقدم العقل على النقل، ويذهب مذهب القدريّة الذين يقولون بان الانسان مُخيّر لا مسير ويتزهدون الله عن عقاب المجر على فعله ؛ وكان، مع ذلك، ينجح احياناً الى مذهب الجبرية القائلين بالقدر المحتوم ؛ ولا تناقض في ذلك لان القدريّة يقولون بالاختيار في ما يُعاقب عليه الانسان ويُثاب لا في ما يناله من الرزق وحفظ الحياة . وهو يعتقد بالخط وينيطه بطوالع الكواكب .

وكان ابن الرومي يقول ايضاً بالطبيعتين اي ان في الانسان طبيعة شر وطبيعة خير، أما طبيعة الشر ففي الجسم لانه ارضي، وأما طبيعة الخير ففي النفس لانها سماوية « تسمو سمو النار » .

٦ شاعريته : شذّ ابن الرومي في شعره، كما شذّ في حياته، وسلك طريقاً جديدة في الشعر العربي لم تكن معهودة من قبله، رأينا أمثالا كثيرة عليها في درس فنون شعره الهامة ؛ وفي توفره على المعاني الشخصية الجديدة . ولا ريب ان علّة هذا الشذوذ هي ما امتاز به هذا الشاعر من عبقرية خاصة،

هيأت له اسباب الانفراد عن سائر الشعراء؛ وساهمت البيئة، والاحوال التي احاطت بحياته، في توسيع نطاق تلك العبقرية وحملها على الايفال في هذا الانفراد .

وقد شاء بعض النقّاد ان يفسروا خصائص هذه العبقرية، بإرجاعها الى اصل الشاعر اليوناني؛ وقد يكون لاصله، في الواقع، اثر في توجيه شاعريته، ولعرقه يد في مساعدته على استيعاب الحضارة العباسية المختلطة، وفيها للثقافة اليونانية نصيب وافر . فاستطاع من ثم ان يمزج بين مؤهلاته الوراثية، ومكتسبات الثقافة، مزجاً خصباً فريداً قرّب عبقريته من العبقرية اليونانية من بعض النواحي، وأنشأها من نواح أخرى؛ وليس من العسير إدراك مواطن البون بين شعر ابن الرومي وأي شاعر إغريقي، ولا سيما من حيث قلة اعتدال شاعرنا في الاحساس، وعدم ملازمته خطة متزنة في التفكير، وكثرة احتفاله للمعاني مع إهماله العبارة أحياناً كثيرة؛ كما لا يخفى ما تقترب به عقلية ابن الرومي من العبقرية اليونانية وخصوصاً من حيث عبادته للجمال الى حد ان يجعله مبدأ الخير، ومن حيث شغفه بالحياة ومُتعتها، واتخاذها الاحساس موضوعاً للادب يكشف به عن اخفى حركات النفس البشرية .

ولا ريب ان لشخصية ابن الرومي يداً واسعة في صوغ عبقريته، وصبغها بميزات الخاصة من شعور متوفر، حاد، دقيق الاحساس الى حد بعيد؛ وخيال جامع، ذي مقدرة عجيبة على الابداع، غاية في دقة الملاحظة والتصوير، جعله يتمثل كل شيء، حتى الطبيعة الجامدة والخواطر المجردة، اشخاصاً حية، تستولي على نفسه باخفى مظاهرها، فيندفع الى تدبرها من جميع نواحيها، حتى زخر شعره بالخلق والتشخيص، واستفاض فيه استقصاء المعاني .

ثم إن حياة ابن الرومي، واحوال البيئة التي عاش في ظلها ساعدت على إنماء عبقريته ودفعها في اتجاهها الطبيعي؛ فصرفته خيبته لدى العظماء عن هدر عبقريته في مجال التقليد الهزيل، وألجأته الى النزول الى ابعاد قرارات شخصيته؛ وجعلته

النكبات المتتابعة، وضربات الألم أوفر لصوقاً بالحياة العميقة، في مأمن من سطحيات العيشة الخالية الهنية، كما اكتسبت شعوره إرهافاً مضاعفاً أتاح له أن يقدر الجمال - الذي ظلّ ابداً حلمه المنشود - حقّ قدره، بل فوق قدره أحياناً، وأن يوطد الصلة بين الشعر والاحساس النفسي أوثق توطيد . ثم ان التشاؤم ضاعف مقدار خياله الخلاق، فعدا يتوسّم الحياة والاشباح والرؤى الغريبة في كل شيء . وزاد من ولعه في الإطالة والاستقصاء خشيةً منه أن تبقى زاوية من شعره ناقصة الاستيفاء، وألا يدرك الناس كل ما يقصد اليه من معانٍ، لتوهمه العجز في عقولهم . فتوفّر على الاحاطة بالمعاني من جميع أطرافها ونوافلها، حتى يبرزها مستوفية الجلاء، ويتيقن انه ان تفوت سامعيه ذرة منها .

ومن ثم اختلف ابن الرومي عن شعراء العرب الذين كانوا يعدّون الشعر لمُحاً للأشياء خاطفاً، واختلف عن أبي تمام الذي لم يُخلِ شعره من ايجاز وعسر لحرصه على إشراك سامعيه او قارئيه في معالجة المعنى الصعب العميق، ومكابدة العناء في استيضاحه . فقد كان أبو تمام ارستقراطياً في مخالطة العظام وفي شعره، وظلّ ابن الرومي في حياته وشعره رجل الشعب، وابن الحياة . ولئن اتخذ كلاهما العقل عمدة للشعر يطبعانه بطابعه، فقد كان يقصده أبو تمام في ذاته، وكان ابن الرومي يستخدمه كأداة لتحليل احساسه بالحياة والجمال .

وعلى الاجمال، ان هذه الشاعرية مزيج من طبيعة شعرية خصبة فذة، بعيدة في وراثتها عن العرق العربي، وثقافة ملائمة رحيمة . وقد ساهم في صوغها وتوجيهها، حياة الشاعر المتألّمة في بيئة معاكسة، وعبادته للحياة والجمال، وغرابة أطواره، واختلال الاثران في اعصابه وتفكيره وخياله وإحساسه، وهياها كل ذلك للشذوذ . إلا أن للشذوذ أحياناً يداً قديرة في تكوين العبقريات .

فنه : لم يكن ابن الرومي الذي شدّ في سواد شعره، ايقلد في فنه . وقد امتاز عن جميع سالفيه، بقلّة اهتمامه للصياغة اللفظية، وجماليات البديع الموهوة

الذائعة في عصره؛ فهو يهتم قبل كل شيء لابرار الاحساس في ادق تفاصيله، وابتكار الصور والمعاني الجديدة، واستقصائها الى ابعد غاياتها. اما التعبير عن كل ذلك، فإن الشاعر يرسل نفسه فيه على سجيته ولا يعنيه في اي تكلف، ومن ثم غلب على اسلوبه طابع الارتجال.

ولا ريب أن في شعر ابن الرومي آثاراً من البديع، كالجناس والطباق، وان في بديعه احياناً بعض الاسراف. الا ان بديع ابن الرومي مُصَادَف لا منشود، يعرض للشاعر فلا يرى بأساً من الاخذ به، او لا يعرض فلا يسعى في طلبه الا نادراً لابرار معنى دقيق، لا يتهماً له الا عن طرق البديع، ولاسيا الجناس، الناجم عموماً عن اللجوء الى مشتقات جمّة من اصل واحد، كي يأتي المعنى كاملاً من جميع جوانبه، وفي اخفى دقائقه:

قُلْتُ إِنْ تَغْلِبُوا بِغَالِبٍ مَغْلُوبٍ فَحَسَنِي بِغَالِبٍ غَلَّابٍ

وهذا لا يحلو من نعم مزعج احياناً.

وقد تأتني في شعر ابن الرومي الفاظ غاية في الغرابة، والتزام ما لا يلزم من قوافٍ عصية، ولاسيا عند ما يبتغي بذلك اقناع خصومه بمقدرته اللغوية، وتبرئة نفسه من تهمة العجمة. الا ان ابن الرومي في العموم يستخدم اللغة استخدام سيد لها، قدير على رياضتها، يقصرها على ابراز معانيه وصوره؛ فلفته سهلة، طبيعية، غنية، دقيقة، بريئة من الابتذال وبعيدة عن الجزالة والترفع؛ وهي من ثم أقرب الى لغة النثر البليغ.

واسلوب ابن الرومي في شعره أقرب الى اسلوب النثر: فمن تطويل في القصائد يتعدى احياناً مثني بيت ويتأخم احياناً اخرى الثلاث مئة، من غير كلال او خور؛ ومن عناية بالطرق المنطقية، واستخدام الروابط العقلية، وخروج عن السنّة الشائعة بين نظام العرب في جعل البيت وحدةً مستقلة، وقد ابقى ابن الرومي البيت مستقلاً عما سواه من حيث الاعراب، اما من حيث المعنى فهو جزء من كل لا يتم إلا في ابيات متعددة.

ولا جرم ان كثرة احتفال ابن الرومي بالتحليل قد أفقدت شعره الشيء الكثير من بلاغة المعنى الموجز ورونقه، وان عدم اهتمامه للجمال اللفظي جعله يُدخل على شعره بعض الحشو النافل، فغشيته الفتور احياناً كثيرة، وخلا من الموسيقى، وكان اشبه بالنثر الموزون. واما ما حمّاه من الاسفاف والاضطراب، فاستقامة المعاني، وبهاء الوصف، وبراعة التشخيص الاخاذة، واندفاق الحياة عن عاطفة خفاقة ابداً، لم تفقدها الشيخوخة شيئاً من حيويتها الحادة، وعن منطق متلاحم يُشيع فيه اضطرام الشعور حرارة ودفئاً؛ مع غنى باهر في الاساليب فلا تنفك تتنوع بين خطابية في الارشاد والدفاع والمدح، وغنائية في الوصف وتحليل النفس ومواقف الحزن، وقصصية عمّت القسم الاكبر من شعر ابن الرومي، وحواريّة احياناً عندما يشخص الشاعر المعاني، فاذا بقصائده اذ ذاك أشبه بمسرحيات مصغرة، تتناقش فيها اشخاص مجردة في مسرح النفس والضمير .

هذا فضلاً عما لابن الرومي من تحفٍ برئت من إهمال الصناعة اللفظية، واستوفى فيها الفن حظه، في غير إسرافٍ ولا نقصان، فهي من الروعة في اسمى مكان .

بعض المراجع

- عباس محمود العقاد : ابن الرومي (حياته من شعره) الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٣٨
 عباس محمود العقاد : تعليقات وتعليقات - مجلة الرسالة ١٠ (١٩٤٢) : ٤٩٣ - ٤٩٥
 ابراهيم عبد القادر المازني : حصاد الهشيم - الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٣٢ : ص ٣١٣ - ٤٤٢
 مارون عبود : الرؤوس - ص ١٤٠ - ١٥٦
 عبد الرحمن شكري : ابن الرومي الشاعر المصور - الرسالة ٧ (١٩٣٩) : ص ٢٤٣ - ٢٤٦
 و ٢٩٥ - ٢٩٨
 عبد الرحمن شكري : بين شكبير وابن الرومي - الرسالة ٤ (١٩٣٦) ص ٤٩٨ - ٤٩٩
 حنفي غالي : فلسفة السحر بين ابي العلاء وابن الرومي وأتاتول فرانس - الحديث ٦
 (١٩٣٥) - ص ٤٣١ - ٤٣٩
 كمال حريري : الالوان والصور في شعر ابن الرومي - الرسالة ٢ (١٩٣٤) ص ٦١٥ - ٦١٧
 انيس المقدسي : امراء الشعر العربي - الطبعة الثانية ص ٢٢٧ - ٢٦٦
 شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي - القاهرة ١٩٤٥ - ص ١١٦ - ١٣٠
 سيد نوفل : شعر الطبيعة في الادب العربي - القاهرة ١٩٤٥ - ص ١٧٤ - ١٧٨

موضوعات للبحث

- ١ - كانت حياة ابن الرومي سلسلة من المحن . فكان لتلك المحن اثر عميق في نفسه، وأثر عميق في عبقريته الشعرية . كيف ذلك ؟
- ٢ - يؤس ابن الرومي من ألفة الناس، فارغم في احضان الطبيعة، يُحيي جمادها، ويحيي نباتها، فكان له منها خير أليف . ناقش القول وأيد رأيك بأمثلة من شعره .
- ٣ - كان ابن الرومي مستعبداً للحياة، يضحّي لها بكل شيء، ويعملها المقياس في كل شيء . ولكن الحياة قمرّت عليه وبطشت به بطشاً مُربعاً . ما السبب في ذلك ؟
- ٤ - كان الشعر عند ابن الرومي كلام العقل، ولكنه لم يتبع فيه سنّة ابي تمام، فكان بين الرجلين بؤنٌ شاسع . اوضح ذلك .
- ٥ - قيل : « ابن الرومي طائر في غير سربه » . ناقش هذا القول .
- ٦ - قال ابن الرومي : « شعريّ شعريّ لو تأمّله الانسان ذو العقل والحجى عبدة » . ماذا اراد الشاعر، وما الذي يحمله على الفخر، وما قيمة الشعر في نظره ؟
- ٧ - يقولون ان ابن الرومي هو أبرع من صوّر الاخلاق والصفات . ما مبلغ هذا القول ؟
- ٨ - حلّل قصيدة ابن الرومي في رثاء ابنه الاوسط .

أدب الحركة المعاكسة — الشعر

الفصل الخامس

ابن المعتز (٨٦٣ — ٩٠٨ م / ٢٤٩ — ٢٩٦ هـ)

١ حياته : وُلد ابن المعتز في سامراء، وانصرف منذ حداثة إلى الدراسات الادبية، وتخرج على جماعة من العلماء، ثم نشأ نشأة لهو وترف، يشرب وينظم الشعر. ولما توفي المكتفي نوذي بابن المعتز خليفة، ولكن خلافته لم تدُم الا يوماً وليلة قتل بعدها.

٢ آثاره : لابن المعتز ديوان شعر، وله « كتاب البديع » و « كتاب طبقات الشعراء »، ورسائل.

٣ فنون شعره : عالج ابن المعتز اكثر فنون الشعر العربي، ولكنه صرف همه بنوع خاص إلى الوصف بأنواعه من خمر وصيد وغزل ومجون وطبيعة. ونُسب إلى ابن المعتز موشح يشك اكثر النقاد في صحة نسبته اليه.

٤ قيمة شعره، وفننه فيه : شعر ابن المعتز شخصي، فيه للطبيعة محل واسع؛ وهو لا يخلو من التقليد في المعاني والاساليب. وشخصية ابن المعتز الشعرية ظاهرة خصوصاً في وصفه وأهم موصوفاته الطبيعة والخمر والترف. وقد جمع الشاعر في وصفه إلى دقة الملاحظة خالق التشابه والصور الجميلة. وصوره تمتاز بعمق الخيال وطرافته، والواقعية، والطرافة في التشخيص؛ كما تمتاز شعره عموماً بجمال الزخرف.

١ حياته :

١ — مولده وصباه : ابو العباس عبدالله بن الحليفة المعتز بن المتوكل وُلد في سامراء ولا تُعرف سنة ميلاده معرفة ثابتة؛ وقد انصرف منذ حداثته إلى الدراسات الادبية، فتخرج على جماعة من العلماء نذكر منهم المبرد (٨٢٥ — ٨٩٨ م / ٢١٠ — ٢٨٥ هـ) النحوي البصري والاديب الشهير، وأبا العباس ثعلب (٨١٥ — ٩٠٣ م / ٢٠٠ — ٢٩١ هـ) إمام الكوفيين في النحو واللغة، واحمد بن سعيد الدمشقي الاديب المتفلسف؛ فكان ابن المعتز من الطبقة المثقفة وإن لم تكن ثقافته عميقة، وقد نظم الشعر وهو في نحو الثالثة عشرة من عمره.

٢ - حياة اللهو : نشأ ابن المعتز نشأة امير مُترف، « في ميسادين من النور والبنفسج والترجس ٠٠٠ وفاخر الفرش، ومختار الآلات، ورقة الخدم » على حد قول ابي الفرج الاصفهاني؛ وما ناهز الشباب حتى انتحل لنفسه في الحياة مذهب الابيقورية الاباحية الماجنة، المسرفة في حب الذمة وفي اجتنائها لجميع الذرائع، باذلاً كل شيء في سبيلها من كرامة ومال، في غير حساب ولا تورع ولا مبالاة؛ وقد عبّر غالباً في شعره عن مذهبه هذا، ومن اظهر قوله فيه :

وما العيشُ إِلَّا لِلسُّتَهْرِ تَظَلُّ عَوَازِلُهُ فِي شَفَبِ
يَجِيءُ إِلَى كُلِّ مَا يَشْتَهِي وَإِنْ رَدَّه الْعَذْلُ لَمْ يَنْجَذِبْ
وَيَسْنَخُو بِمَا قَدْ حَوَتْ كَفُّهُ وَلَا يُتَّبَعُ الْمَنْ مَا قَدْ وَهَبَ
فَكَمْ فِضَّةٍ فَضَّهَا فِي سُرُو رِيَوْمٍ وَكَمْ ذَهَبٍ قَدْ ذَهَبَ

انطلق ابن المعتز في غمار اللهو، وأمعن في الشرب وسماع الغناء، والغزل والمجون، وغرام الصيد؛ وكانت حياته محفوفة بالترف، وله مكانة رفيعة في بلاط ابن عمه الخليفة المعتضد (٨٩٢ - ٩٠٢)، وكان الى ذلك ملازماً لكبار العلماء والشعراء، وأعلام الادب في بغداد وسامراء، وقد أبى ان يزج بنفسه فيما بين دسائس البلاط العباسي وهو إذ ذاك يجتاز أسوأ عهوده .

٣ - الخليفة : لما توفي المكتفي (٩٠٢ - ٩٠٨) واستخلف المقتدر (٩٠٨ - ٩٣٢) شبت فتنة عظيمة، فالتأم العلماء والكتاب والقضاة، وخلصوا المقتدر، منادين بابن المعتز خليفة؛ ولما رأى غلمان المقتدر ان الامر سيفلت من بين ايديهم، انتظموا في مقاومة عنيفة ضد اصحاب ابن المعتز، وتغلبوا عليهم، فقبضوا على الخليفة الجديد بعد يوم وليلة فقط من خلافته، ثم قتلوه في ٢٩ ك ١ سنة ٩٠٨ (٢ ربيع الثاني ٢٩٦ هـ) .

(١) المُستَهتر : الذي يتبع هواه فلا يبالي بما يفعل . الشَّعَب : كثرة الجلبة واللفظ المؤذي الى الشر . (٢) المَنْ : تعداد وذِكْر ما فُعِل من خير .

٢ آثاره : لابن المعتز ديوان شعر طبع في مصر سنة ١٨٩١، ثم في بيروت سنة ١٩١٣ . وله غير الديوان طائفة من الكتب أهمها «كتاب البديع» ، طبعه كراتشكوفسكي سنة ١٩٣٥، ثم طبع بمصر سنة ١٩٤٥ ؛ و «كتاب طبقات الشعراء» المطبوع بأوربة سنة ١٩٤٢ ؛ ثم إن لابن المعتز رسائل جمعها محمد عبد المنعم خفاجي، ونشرها سنة ١٩٤٩ منها رسالة نقدية في محاسن ومساوي شعر أبي تمام، استند إليها الأمدى في موازنته بين البحتري وأبي تمام، وفي حملته على هذا الأخير .

٣ فنونه شعره : طرق ابن المعتز أكثر فنون الشعر العربي وأجاد فيها إجاداً لا بأس بها، إلا أن ما صرف إليه همه، وأنفق فيه جهداً خاصاً، هو الوصف على أنواعه من خمر وصيد وغزل ومجون، وطبيعة في حيوانها ونباتها، مما أوحى به إليه حياته اللاهية، المترفة، وحياة القصر .

ثم إن هنالك باباً في شعر ابن المعتز يحاكي في ظاهره وأسلوبه الشعر التعليمي الذي نظمت فيه المتون، ويمتاز إلى ذلك بطابع قصصي، وهو يشمل أرجوزتين رئيسيتين الواحدة في تاريخ الخليفة المعتضد (٨٩٢ - ٩٠٢) تبلغ نحو ٤٢٠ بيتاً، وفيها صورة مصغرة لأسلوب الملاحم ؛ والأخرى طواها على ذم الصُّبوح، وعلى الكثير من الدعابة، وجعلها أقرب إلى الهزل منها إلى الجد، وقد جرى فيها على الأسلوب الذي انتهجه في الأولى .

وفي ديوان ابن المعتز أيضاً، موشح منسوب إليه - والموشح شعر موضوع للغناء، على أوزان خاصة - . ولا جرم أن اطلاع ابن المعتز على الغناء والكلام المغني، وسيرته المترفة، كانا جديرين بأن يقوداه إلى نظم مثل ذلك الشعر، إلا أن

(١) طبعت هذه القصيدة وحدها في مصر سنة ١٩١٣ وقد ترجمها إلى الألمانية لانج الألماني، وطبعت في المجلة الألمانية الشرقية سنة ١٨٨٦ وطبعها ليث في ليبسك سنة ١٨٨٢ .

سواد النقّاد يُجمعون على الشك في نسبته اليه، والارجح أنه ليس له . ومطلع
الموشح هو :

أُثِمَّ السَّاقِي إِلَيْكَ الْمُشْتَكِي قَدْ دَعَاكَ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْ

٤ فجمه شعر ابن المعتز وقفه في شعره : ان اصل ابن المعتز الملكي أصله منزلة

خاصة، انفرد بها عن جميع شعراء عصره .
فلم يكن نظيرهم بحاجة الى تلقى ذوي الامر والنفوذ، ومداجاتهم بالشعر ؛ وقد
كفاه ما اتسع له من بجموحة ورغد عيش مؤونة التمدح، وان مدح اقتخر بالاصل
الرفيع الذي ينتسب اليه، وبما يمتاز به جميع افراده من شجاعة واقتدار يتجلبان
خصوصاً في احراز الانتصارات الباهرة التي كاد يقصر ابن المعتز مدحه على وصفها؛
غير ان المدح، وكل ما يذهب مذهبه من الشعر ضئيل الاثر عند هذا الشاعر،
وشعره شخصي قبل كل شيء، قد وقفه على نفسه دون سواه .

ثم ان حياة الترف التي عاش في احضانها، والتي زخرت فيها اسباب اللهو على
جميع صنوفها، صرفته في العموم عن الجد والتعمق في اي شيء، فلم يكن يتكلف
الشعر يوماً لاي غرض غير متعنه، ولم يكن ليكلف نفسه مشقة التوفر على التفكير
والتحليل الفلسفي . وقد جمع شعره الى الشخصية طبعية شديدة، لا تخلو من
سطحية احياناً .

ولا يعني ذلك ان كل ما في شعر ابن المعتز مبتكر، فقد اكثر من التوكؤ
على معاني الشعراء الاقدمين واساليبهم، ولاسيا في الخمر والطرد حيث اغرق في تقليد
ابي نواس شاعرهما المبرز . هذا فضلاً عما كان يلجأ اليه من استخدام طرائق القدماء
في بعض الاوصاف البدوية كالفرس والناقة، ومن اصطناع اساليبهم معارضة لهم
وسيراً على مناهجهم، وان كان قد أضفى على هذا التقليد، عموماً، ثوباً فنياً بديعاً .

ويتجلى ابتكار ابن المعتز كما تتجلى شخصيته الشعرية بكاملها في جمال فنه
وصنغته، ولاسيا في الوصف .

ففي الوصف تبرز شاعرية ابن المعتز الغنية، التي جمعت من لطف العاطفة وتوثبها، ومن عمق الخيال وقدرته الجبارة على ابداع الصور ذات الالحاء والرمز البعيد، ومن سلامة الذوق وطرافته، ما يجعل لهذا الشاعر الامير مكاناً رفيعاً بين اكابر شعرائنا الغنائيين والوصافين .

أما موصوفاته فأهمها الطبيعة، ذلك المتحف الواسع الذي تنقل الشاعر في أرجائه مأخوذاً بجمال صورته واشكاله من كواكب ورياض، ونبات على اختلاف اصنافه، وحيوانات أليفة وآبدة، فتترك في كل ذلك أوصافاً رائعة؛ كما انه وصف الخمرة وافتن في وصفها، ووصف الترف الذي كان يحفُ بشربها، ولا سيما ترف الموسيقى، والآنية المزخرفة بشتى الرسوم الفنية؛ وعلى الاجمال فقد وصف ابن المعتز كل ما التقطته من الصور والمشاهد عينه المتيقظة لأدق الالوان، ولجميع اشكال الجمال .

ولكنه لم ينصرف في وصفه الى دقة الملاحظة فحسب، بل اهتم اهتماماً شديداً بخلق التشابه والصور الجميلة، ذات الطرافة والالحاء، فبرهن فيها عن طاقة واسعة فريدة قل ان نجد لها نظيراً في الادب العربي .

وتمتاز صور ابن المعتز بعمق الخيال الذي ينشر عليها جواً مليئاً بسحر الرموز

السحيق :

والريحُ قد باحت بأسرارِ الندى وتنفسَ الرِّيحانُ بالحناتِ

كما تمتاز بواقعية حلوة في الغالب لما يقرنها به الشاعر من طرافة في الخيال، ومهارة في التشخيص والتصور، مثل قوله في وصف الهلال :

كسِجِلٍ قد صيغَ من فضةٍ يَحْصِدُ من زَهَرِ الدُّجَى تَرْجِساً

أو قوله في وصف الثريا :

وقَدْ لَمَعَتْ حتى كأنَّ بَرِيقها قَوَارِيرُ فيها زَيْبِقٌ يَتَرَجَّرُجُ

الا ان هذه الواقعية لا تخلو احياناً من تعهر . فان الشاعر لا يتحرج

من اية صورة بديئة أو معنى قبيح، من شأنهما ان يجرحا سلامة الآداب والاخلاق . وقد ظهرت آثار الترف على صور ابن المعتز، فاكثرت في تشابيهه من ذكر الاشياء النفيسة التي عرف ان يؤلف منها معاني وألواناً أخاذة، كقوله في وصف الحمر :

فَهَانَا عُقَارًا فِي قِمِصِ زُجَاجَةٍ كَيَاقُوتَةٍ فِي دُرَّةٍ تَتَوَقَّدُ^١
يَصُوغُ عَلَيْهَا الْمَاءُ شُبَّاكَ فِضَّةٍ لَهَا حَلَقٌ بَيْضٌ تُحَلُّ وَتُعَقَّدُ^٢

ولست هذه العذوبة الخلابية الحلوة متأتية عن المشبهات النفيسة فقط، بل عما يمتاز به خيال الشاعر نفسه ايضاً من نعومة ورقة ؛ ويبدو ذلك في مثل قوله يصف مشهداً من الكواكب :

وَكَاَنَّ الْجَرَّ جَدُولُ مَاءٍ نَوَّرَ الْأَفْجُحُونَ فِي جَانِبَيْهِ^٣
وَكَاَنَّ الْهِلَالَ نِصْفُ سِوَارٍ وَالثَّرِيَّا كَفُّ تُشِيرُ إِلَيْهِ

وبالجملة قد اتى ابن المعتز بما يدهش حقاً في تأنيق صورته وبراعتها ؛ وصوره تروع بإحكامها وطرافتها، وبعده إيجانها، كما تروع باقتضائها الذي تُغني فيه الإشارة الخاطفة الساحرة عن الاطناب الممل ؛ وتدفق العاطفة المتقدمة، بين ألوانها وتفاصيلها باثثة فيها حرارة وحركة ونوراً ونضارة .

وليس رونق الصورة هو العنصر الوحيد لجمال وصف ابن المعتز ؛ فقد تعدى الشاعر ذلك، الى جمال الزخرف . فأخذ بالصنعة في بساطة واقتصاد، وتمكن، مع ذلك، أن يحدث بها أبلغ أثر . وكانت مهارته قائمة خصوصاً على اختيار الاستعارة الناطقة، والجل المقتضبة، التي يحشد فيها جملاً من المعاني الشعرية والتخييلات الفسيحة .

(١) العقار : الحمر (٢) الشبّاك : الشبكة (٣) الجمر : اي الجمرّة وهي مجموعة من الكواكب معروفة « بدرج الثبّانة » .

وقد أولى ابن المعتز هذا الجانب من فنه عناية خاصة، حتى جاء بكل لفظة من الفاظه تقريباً حافلة بالالوان والتخييلات والجمال .

ونظم ابن المعتز يجمع الى الجزالة والسلامة ألواناً عجيبة من الانسجام والرقّة، والسهولة والصفاء . فهو نموذج لأعذب الشعر العربي وأحلاه، وان كان هناك ما يفوقه في العمق .

بعض المراجع

- عبد العزيز سبّ الأهل : عبدالله بن المعتز - بيروت ١٩٥١
 محمد عبد المنعم خفاجي : ابن المعتز وتراثه في الادب والنقد والبيان - القاهرة ١٩٤٩
 شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي - ص ١٦٤ - ١٧٥
 سيد نوفل : شعر الطبيعة في الادب العربي - ص ١٨٢ - ١٨٨
 طه حسين : من حديث الشعر والنثر - ص ٢٦٩ - ٣١٢

موضوعات للبحث

- ١ - يجمع شعر ابن المعتز جمال الشعر البدوي وصفاءه، ورقّة الشعر الحضري وروثقه .
 أوضح ذلك .
- ٢ - أقم موازنة بين فن ابن المعتز في شعره وفن أبي نواس .

أدب الحركة المعاكسة - النشر

الفصل السادس

المجاhez (٧٧٥ - ٨٦٨ م / ١٥٩ - ٢٥٥ هـ)

١ - حياته : وُلد الجاهز بالبصرة ، ولما شبَّ اخذ العلم عن المسجدين ، ثم عن خطباء العرب بالمربد ، ثم عن رجال العلم في بغداد من مثل الاصمعي والنظام . ثم انصرف الى الكتابة والتأليف ، فطارت له شهرة واسعة ، فاستقدمه المأمون واقامه على ديوان رسائله ، فلم يلبث فيه سوى ثلاثة ايام . واتصل الجاهز بابن الزيات وكتب له ، واهده « كتاب الحيوان » . ثم اتصل بابن ابي دؤاد وقدم له « كتاب البيان والتبيين » . ثم اتصل بالفتح بن خاقان وكانت له معه مودة . ثم مات الجاهز وقد فُجع وأصيب بداء النقرس .

٢ - شخصيته :

١ - شخصيته الأخلاقية : كان الجاهز مطبوعاً على الظرف والفكاهة ، ميّالاً الى التفاؤل ، وكان واقعياً ، حريصاً على الوقت ، حلو الحديث ، سريع الجواب والنكته ، ساخراً ، يحب اللهو .

٢ - شخصيته الثقافية : كان الجاهز علامة عصره ، يأخذ من كل شيء بطرف .

٣ - شخصيته الدينية : كان الجاهز دينياً ولكنه لم يكن من المتشددين في امر الدين . وكان معتزلياً جاهزياً .

٤ - شخصيته الادبية : يريد الجاهز الحرية في الادب كما يريد في اللغة . يريد المناسبة بين الالفاظ والمعاني ومراعاة مقتضى الحال ، كما يريد التنقيح والتهذيب في الكتابة من غير مبالغة ، ووضوح الدلالة والايجاز .

٣ آثاره : للجاهز آثار كثيرة في الفلسفة والدين ، والسياسة والاقتصاد ، والتاريخ والجغرافية والطبيعات والرياضيات ، والعصية ، والادب وما الى ذلك . وهي تؤلف موسوعة علمية وادبية . واشهرها « رسالة التربيع والتدوير » ، و « كتاب البيان والتبيين » ، و « كتاب الحيوان » .

١ - رسالة التربيع والتدوير :

١ - ما هي : هي رسالة كتبها الجاهز في هجاء احمد بن عبد الوهاب .

٢ - قيمتها : لهذه الرسالة قيمة علمية، وقيمة أدبية فنية . تتجلى فيها سعة اطلاع الجاحظ، وهي تتضمن أهم القضايا الفلسفية والعلمية والتاريخية . وفيها تتجلى أساليب الجاحظ في السخر اللاذع : المفارقات والمتناقضات، والجدل والسفسطة والمغالطة، والتصوير الكاريكاتوري... الخ.

ب - كتاب البيان والتبيين :

- ١ - ما هو : هو كتاب في الادب .
- ٢ - اقسامه : يخلو الكتاب من ترتيب وتسلسل . تترج فيه علوم البلاغة والادب والتاريخ .
- ٣ - قيمة الكتاب : للكتاب قيمة تاريخية وقيمة أدبية : تظهر فيه نزعة الجاحظ العربية . وهو مزيج من ثقافات مختلفة تغلب عليها الثقافة العربية . والكتاب أصل من أصول فن الادب واركانه .

ج - كتاب البخل :

- ١ - ما هو : هو كتاب جمع فيه الجاحظ اخبار البخل والمقتصدين .
- ٢ - الباعث على وضع الكتاب : الفائدة التي جناها الناس من كتب اخرى للجاحظ يشبه موضوعها هذا الموضوع .
- ٣ - مضمون الكتاب : يتضمن الكتاب، فضلاً عن رسالة سهل بن هارون في البخل، ورسالتى ابن العاص وابن التوام، قصص البخل ونواديرهم، ثم كلاماً على اطعمة العرب .
- ٤ - قيمة الكتاب : لم تكن غاية الجاحظ الهجاء بل الإصلاح . وهو إن ذم البخل لا يغفل عن تحسين الاقتصاد . وبخلافه احياء، واصحاب جدل ومنطق ؛ فهم من خفة روح الجاحظ، وعلى لسانهم من نكته ما يجيب اخبارهم الى النفس . - والكتاب يطلعنا على ناحية من نواحي المجتمع العباسي .

د - كتاب الحيوان :

- ١ - ما هو وغاية المؤلف من وضعه : يتضمن الكتاب وصف طبائع الحيوانات وإظهار حكمة الله فيها .
- ٢ - مصادره : للكتاب مصادر كثيرة منها ما هو عربي كآثار اساتذته، ومنها ما هو اجني ككتب أرسطر وجليون وجالينوس، وكتب الفرس ...

٣ - مضمون الكتاب : ضمّن الجاحظ كتابه معلومات واسعة في الحيوان وغير الحيوان، ومزج الجدّ بالهزل، والعلم بالأدب، والفكاهة بالمجون...

٣ - قيمة الكتاب : كتاب الحيوان خالٍ من الوحدة التأليفية، فيه تنقل من موضوع الى موضوع، واستطراد، ومزج الجدّ بالهزل، وجدل ومناظرة. وهو خزانة معلومات كثيرة عن تاريخ العرب وغير العرب. اما من الوجهة العلمية فيظهر فيه الجاحظ عالماً يتناول الموضوعات العلمية ويتدبّع اصول العلم في التحقيق؛ فيعتمد الحواسّ والعقل، ويجعل الشكّ سبيلاً الى اليقين، ويضيف الى الشكّ النقد العلمي. ولكن علم الجاحظ لا يخلو من ضلال، كما فات الرجل روح الترتيب، وقدرة العالم على التعميم واستنباط القوانين العامة، والتمكّن من إنشاء المقاييس العلمية.

٤ فنّ الجاحظ : الجاحظ رجل العقل والجدل يعدل عن اساليب المجاز الى الطريقة الواقعية المحسوسة؛ ويراعي ابدأ مقتضى الحال، فيلجأ الى الاسلوب الطبيعي في الحديث، الذي ينزع نزعة الحياة الحرّة الطليقة، ويكثر فيه الاستطراد والاستشهاد والجدل والهزل، ولا يخلو من موسيقى عذبة.

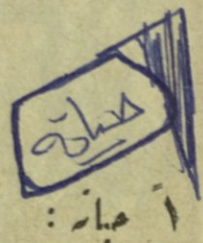
ولغة الجاحظ هي لغة طيّعة، تنفصح فيها الالفاظ عن المعاني، عن طريق الحقيقة، بدقّة ووضوح وسهولة وحسن ايقاع. - ويظهر الجاحظ على كل حال مصوّراً واقعياً بارعاً.

٥ منزلة الجاحظ : الجاحظ راس المدرسة النثرية الثانية، وقد مثل عصره بأساليبه وآثاره : حرية الفكر، ونتيجة تلك الحرية (تشعّب الحركة الفكرية، وانحلال الاخلاق في فئة كبيرة من الناس).

وقد لقيت آثار الجاحظ رواجاً كبيراً عند ابناء عصره، كما كان للجاحظ وآثاره اثر كبير في الادب العربي.



الجاحظ كما تخيَّله الفنان ارتورو اورتيس



١ - أصله ومولده : اختلف المؤرخون والنقاد في أصل الجاحظ، فذهب بعضهم الى انه من اصل عربي، وذهب البعض الآخر الى انه من العناصر الافريقية التي تداخلت في العنصر العربي، والفريقان ينسبانه الى كنانة أصيلاً او مولى .

ولد ابو عثمان عمرو بن بخر، الملقب بالجاحظ لبوز عينية من حدقتيهما الواسعتين، في البصرة نحو سنة ٧٧٥ م / ١٥٩ هـ . وتوفي والده وهو بعد حديث السن .

٢ - طالب العلم: ولما شبّ وتفتّح ذهنه طلب العلم برغبة شديدة رافقته كل حياته، واقبل على الكتب يطالعها بكمد كيفما حصلت له ووقعت بين يديه .

١ في البصرة: وكانت البصرة، مسقط رأسه، اكبر حواضر العلم والادب بعد بغداد، في ذلك العصر، يجتمع في مسجدھا طائفة حسنة من العلماء وارباب الادب والنحو واللغة عرفوا

«بالمسجدين»، فاقبل اليهم الجاحظ يجالسهم وياخذ عنهم الكثير بفضل ذكائه المتوقد وحافظته القوية، بعد ان تعلّم القراءة والخط في احد الكتاتيب . وما إن ايفع حتى تلقى الفصاحة وأساليب التعبير شفاهاً عن خطباء العرب في المربد، وقد ألف التردد اليه منذ حداثة . وكان الى ذلك يكتري حوانيت الوراقين ويبيت فيها احياناً المطالعة .



فقهاء يتجادلون في مسجد
(عن مخطوط قديم بدار الكتب المصرية)

٢ في بغداد: ولما كبر، واجتمع له قدر صالح من العلم والادب، قصد بغداد

واتصل فيها بالكبار من رجال الدين وعلماء اللغة . فأخذ اللغة عن الاصمعي، وأبي زيد الانصاري، وأبي عبيدة معمر بن المثنى، وأخذ النحو عن الاخفش، والحكمة عن صالح بن جراح اللخمي، وعلم الكلام عن النظام إبراهيم بن سيّار البلخي .

وتردد الى مجالس الادباء كابن وهب وابن الزيات، فوجد عندهم - على ما قال هو نفسه - ما لم يجده عند مشايخه الذين أخذ عنهم الشعر والادب، وبهم عرف ماهية الشعر وقام بحق الادب والكتابة .

وظلَّ هكذا يزاول فنون الادب وال اخبار واللغة والحكمة والكلام، ويعمل الفكر ويحلل، ويتوسع في ما حصله، حتى تمت له ثقافة راقية، وتنبه عقله، فتسكن من التعرض لقضايا خطيرة في الدين، فكان له مذهب وأتباع .

ويقال انه كان يعرف الفارسية . وكان مولعاً بالكتاب يُكثر من مطالعة المؤلفات الفكرية والفلسفية .

٣ - اتصاله بكبار الدولة :

١ في ديوان المأمون : ولما توفر علم الجاحظ واستحكمت ملكته شرع في تأليف الكتب ؛ وكان ينسبها في اول امره الى ابن المقفع وسهل بن هارون حتى تسير . وما إن كان القرن التاسع (الثالث الهجري) حتى استوت له شهرة كبيرة بين كتّاب عصره، وترامت تلك الشهرة الى اذن المأمون - وقد قرأ للجاحظ « كتاب الإمامة » وأعجب به - فاستقدمه وسأله ان يكتب له رسالة في العباسية والاحتجاج لها، وأقامه على ديوان رسائله، غير ان الجاحظ لم يكتب فيه سوى ثلاثة ايام، وكأنه لم يستطع الخضوع لنظم الدواوين وما يقتضيه سير العمل، ولم يستطع الإقلاع عن العيب في عمل يتطلّب الرصانة والوقار، ولم يحتمل منافسة الحساد الذين ثارت عليه حفائظهم خوفاً على شهرتهم ومزلتهم في الدولة ومجالس الادب .

٢ الجاحظ وابن الزيات : اختار المعتصم سنة ٨٣٥ محمد بن عبد الملك المعروف بابن الزيات وزيراً له، وكذلك استوزره الواثق من بعده . وكان ابن الزيات من اكبر رجال الادب والسياسة، فاتصل به الجاحظ اتصالاً مكيناً، وكتب له، ومدحه، واهداه « كتاب الحيوان » فأجازه الوزير بخمسة آلاف دينار . وفي تلك

الاتناء قام الجاحظ بأسفار الى دمشق وأنطاكية وربما وصل الى مصر ايضاً، فزادته الاسفار اطلاعاً ومهّرت خياله بصور جديدة .

٣ الجاحظ وابن ابي دؤاد (٨٤٧ - ٨٥١) : وجرى سنة ٨٤٧ ان منافس ابن الزيت، القاضي احمد بن دؤاد، استمال الخليفة المتوكل، وهو عدو المعتزلة والحرية الفكرية، فأسقط ابن الزيت وقتك به ؛ فهرب الجاحظ، ولكنه قبض عليه، فكسب عطف القاضي بظرفه وخفة روحه . ثم قدّم له « كتاب البيان والتبيين »، فأعطاه فيه ابن ابي دؤاد خمسة آلاف دينار . ولما فُليج القاضي وخلفه في القضاء ابنه ابو الوليد لزمه الجاحظ الى ان صُرف عن القضاء سنة ٨٥١ .

٤ الجاحظ والفتح بن خاقان : واتصل الجاحظ بالفتح بن خاقان، وزير المتوكل، وقدم له بعضاً من كتبه منها « كتاب مناقب الترك وعامة جند الخلافة » . وكانت بين الرجلين مودة ومراسلة . وطالما اتنى الفتح على الجاحظ عند المتوكل وأخذ له الجوائز . الا ان المتوكل لم يقرب به منه لدمامة خلقه .

٤ - وفاته : ولما ثقلت على الجاحظ وطأة السنين، ووهنت قواه، أصيب بفالج نصفي، فعاد الى البصرة حيث لزم بيته سجين الهرم . فهرع العلماء والادباء الى زيارته، من البصرة وبغداد وسواهما من البلدان، وكان المبرّد صاحب « الكامل » من جملة من زاره .

ثم أصيب، على فالجه، بداء النقرس، فتوفي سنة ٨٦٨ م / ٢٥٥ هـ، وقد انتهات عليه الكتب يوماً وهو جالس بينها يقرأ فقضت عليه .

٢ شخصية الجاحظ :

١ - شخصيته الاخلاقية : كان الجاحظ قبيح المنظر، مشوّه الوجه، ناتق العينين، ولكنه جمع الى قبح الخارج صفات كثيرة جعلت منه رجل العصر يروق الكبير والصغير ؛ فكان مطبوعاً على الظرف والفكاهة، ينظر الى الامور نظراً

لا أكثر أثباتاً، ليس هو نظر السوداوي ولا نظر العصبي؛ وكان أميل إلى التفاؤل منه إلى التشاؤم، يبدو عليه السرور وحب الدعابة وخفة الروح.

وكان رجلاً واقعياً ينظر إلى الأمور كما هي، يحاسن الكبراء دون إسفاف، ويجتنب مخاشنتهم تفادياً من شرهم، ويحلم عن الأشرار طبعاً وتطبعاً، ويتعبد عن الحاسدين.

ولئن حرص على شيء في حياته فعلى الوقت الذي كان لديه اثنان من المال والمال يبذله بسخاء، أما الوقت فلا يضيع منه ما يمكن شغله بالمفيد.

أما معاشرته فكانت معاشرة رجل حلو الحديث حسن المحاضرة، حاضر الجواب، سريع النكتة، ساخر سخره ناعم، يلتمس النكتة حتى على نفسه. وكان إلى ذلك يحب اللهو وسماع القيان والمغنين؛ كما كان مفطوراً على الوفاء لأصحابه والثبات على ودهم.

٢ - شخصيته الثقافية : كان الجاحظ ذكياً غريب الذكاء، محباً للمطالعة حتى قال أبو هفان : « لم أرق قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته، كائناً ما كان، حتى أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبعث فيها للنظر ».

وكان الأديب في أيام الجاحظ لا يقتصر على الثقافة الفنية وحدها، وإنما كان يتوسع في بعض العلوم كالمهندسة وعلم الفلك والحساب، فضلاً عن الفقه والاجتماع والتاريخ وما إلى ذلك. فاراد الجاحظ أن يكون من أكابر الأدباء، فسعى ونال بسعيه فوق ما أراد.

أخذ الجاحظ اللغة عن عرب المربد، وأخذ الأدب، بما يتضمنه من أخبار العرب

وأشعارهم وملحهم ونواديرهم وغرائبهم وما أشبه ذلك، عن أبي عبيدة^١، والأصمعي^٢،
وأبي زيد الأنصاري^٣، والأخفش^٤. وتخرج في الفلسفة والدين على النظام^٥. واقتبس
علوم اليونان مما ترجمه ابن البطريق، وحنين بن اسحاق، وبختيشوع، وسهلويه،
وغيرهم من علماء عصره. وكان على الأغلب يعرف الفارسية، فعرف بواسطة الفرس
الثقافة الفارسية والهندية. وزاد على ما علمته الكتب ما قدمت له التجربة والمعاينة.
وهكذا كان الجاحظ علامة عصره، يأخذ من كل شيء بطرف، وإن لم يحدق
كل شيء. وكان رجل العقل يجعل له المحل الأول في البحث والتحقيق.

٣ - شخصيته الدينية: اختلف الناس في دين الجاحظ فتعامل بعضهم عليه

وثلهوه في دينه حتى قال الشاعر:

لو يُمسَخُ الحِثِيرُ مَسْخًا ثَانِيًا مَا كَانَ إِلَّا دُونَ قُبْحِ الجَاحِظِ
رَجُلٌ يَنُوبُ عَنِ الجَحِيمِ بِنَفْسِهِ وَهُوَ الْقَذَى فِي كُلِّ طَرَفٍ لَاحِظِ

(١) أبو عبيدة (٧٢٨ - ٨٢٤ م / ١١٠ - ٢٠٩ هـ) هو الذي قال فيه الجاحظ: «لم يكن
في الأرض خارجي ولا إجماعي أعلم بجميع العلوم منه». تتجاوز تصانيفه المئة، منها كتب في الحما،
والحيات، والمقارب، والخيل، والإبل، والزرع. وهي موضوعات عالجهما الجاحظ أيضاً.
(٢) الأصمعي (٧٣٩ - ٨٣٠ م / ١٢٢ - ٢١٦ هـ) هو صاحب لغة ونحو، وإمام في الأخبار والنوادر
والمناج والغرائب؛ جمع شتيت اللغة في الشجر، والنبات، والإبل، والشاء، والوحوش وغير ذلك.
(٣) أبو زيد الأنصاري (٨٣٠ م / ٢١٥ هـ) هو من أئمة الأدب، غلبت عليه اللغة والنوادر والغريب.
كان ثقة في روايته. وقد ألّف في القوس، والترس، والإبل، والوحوش، وخلق الإنسان،
والطر، والنبات (٤) أبو الحسن الأخفش (٨٣٠ م / ٢١٥ هـ) هو من أكابر أئمة النحو في البصرة.
(٥) أبو اسحاق النظام (٨٣٥ م / ٢٢١ هـ) من الموالي، تلهذ للعلاّف في الاعتزال ثم انفرد عنه
وكون له مذهباً خاصاً. عاش في بغداد حيناً ومات وهو شاب في نحو السادسة والثلاثين من عمره.
كان آية في النبوغ حتى قال عنه الجاحظ: الاوائل يقولون: في كل ألف سنة رجل لا نظير له، فإن
كان ذلك صحيحاً فهو أبو اسحاق النظام. وقد أثر النظام في الجاحظ من نواح كثيرة.

وكان النظام مطبوعاً على البحث عن أصل كل شيء، وعن علته، ولا يقتصر على الانقياد والتقليد؛
ولم يكتف بطلب الفلسفة والكلام، وإنما عكف على طلب العلم ولا سيما علم الطبيعة. وكان يؤثر الجمّل
القصيرة في كتابته، ويعتبر الشك أساساً للبحث، ويستخدم المنطق في بحثه عن الحقائق، ويجارب أوام
العامّة وخرافاتهم. وكان واسع الحرية في التفكير شديد الجرأة على المحدثين قليل الايمان بصحة
رواية الحديث.

والحقيقة ان الجاحظ دين، يظهر شعوره الديني في جميع آثاره، فهو لا ينفك يرتفع من الخليفة الى الخالق ليظهر قدرته وعظمته وحكمته . هو مؤمن لا زنديق، ولكنه ليس من المتشددين في امر الدين، ولا من الذين يؤمنون بأحكام الدين من غير ان يحتكموا الى عقولهم .

وكان معتزلياً يعتمد على العقل، ويتخذة إماماً في تفسير الشرع والنظر الى الاحاديث . وكان له فرقة خاصة في المعتزلة تدعى الجاحظية جارت المعتزلة بأشياء، منها نفي الصفات عن الله، وخلق القرآن . وانفردت بمسائل، منها أن المعارف كلها طباع، وليس شيء من ذلك من افعال العباد، وليس للعباد كسب سوى الارادة؛ فليس للانسان في تحصيل معارفه الا توجيه الارادة، وما يحدث بعد ذلك فاضطرار وطبيعة . ومنها ان اهل النار لا يخلدون فيها عذاباً، بل يصيرون الى طبيعة النار، فهي تجذب اهلها الى نفسها دون ان يدخل احد فيها .

ومذهب الجاحظ في التفسير والتأويل اجتناب الغريب منها . فهو يذهب في امور الدين مذهبه في امور العلم، وينبئ على كل مسألة لا تطابق العقل، ولا يريد الا العلة والبرهان في كل قضية من القضايا .

(١) المعتزلة، من ذوي التفكير الحر، وهم رجال العقل في الدين . ومما يذهبون اليه ان الله قديم، والقديم اخص وصف ذاته . وهو عالم بذاته، قادر بذاته، حي بذاته، لا يعلم وقدرة وحياة، اذ لو شاركته الصفات في القديم الذي هو اخص الوصف لشاركته في الالوهية . واتفقوا على نفي رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القرار، وعلى نفي التشبيه عنه من كل وجه : جهة، ومكاناً، وصورة، وجسماً، وتحيزاً، وانتقالاً، وزوالاً، وتغيراً، وتأثراً . واتفقوا على ان الانسان خالق لأفعاله خيراً وشرّاً، مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة...

وقد افترقت المعتزلة الى فرق عديدة تربو على العشرين منها الجاحظية .

(٢) مثال ذلك انك اذا فتحت عينيك وادركت ان هذا الشيء احمر، وهذا اصفر، وان هذا اكبر من ذاك، ففتحت لعينك عمل إرادي اختياري كسبي، واما المعارف التي تحصل منه فاضطرارية . وكذلك الشأن في توجيه الفكر الى البحث واستعراض البرهان، فتوجيه النظر عمل إرادي، ولكن اقتناع الناظر او عدم اقتناعه وتحصيل العلم به عمل ضروري او اضطراري لا كسبي .

(عن ضحى الاسلام)

تحليله (١) به

٤ - شخصيته الادبية : (١) كان الجاحظ من اصحاب الادب المجرد، يريد تسمية الاشياء باسمائها من غير لجوء الى الكناية والتلميح . فهو يريد الحرية في الادب كما أرادها في كل شي . ويريد الحرية في اللغة بإثبات كلام الغير على علته، كما قيل وكما ورد، وان وقع فيه لحن والفاظ غير معربة وما الى ذلك . وهو يقول :

«مَنْ سَمِعَ، حَفِظَكَ اللهُ، بِنَادِرَةٍ مِنْ كَلَامِ الْأَعْرَابِ، فَإِيَّاكَ وَأَنْ تَحْكِيَهَا إِلَّا مَعَ إِعْرَاجٍ وَمَخَارِجِ أَلْفَافِهَا، فَإِنَّكَ إِنْ غَيَّرْتَهَا بَأَنْ تُلَحِّنَ فِي إِعْرَاجِهَا، وَأَخْرَجْتَهَا مَخْرَجَ كَلَامِ الْمُؤَلَّدِينَ وَالْبَلَدِيِّينَ، خَرَجْتَ مِنْ تِلْكَ الْحِكَايَةِ وَعَلَيْكَ فَضْلٌ كَبِيرٌ» . وكذلك إذا سَمِعْتَ بِنَادِرَةٍ مِنْ نَوَادِرِ الْعَوَامِّ، وَمُلْحَةٍ مِنْ مُلَحِّ الْحِشْوَةِ وَالطَّغَامِ، فَإِيَّاكَ وَأَنْ تَسْتَعْمَلَ فِيهَا الْإِعْرَابَ، أَوْ أَنْ تَتَخَيَّرَ لَهَا لَفْظًا حَسَنًا . . . فَإِنَّ ذَلِكَ يُفْسِدُ الْإِمْتَاعَ جَمًّا، وَيُخْرِجُهَا مِنْ صُورَتِهَا، وَمِنْ الَّذِي أُرِيدَتْ لَهُ . . .»

(٢) وهو يريد في الادب المناسبة بين الالفاظ والمعاني، ومراعاة مقتضى الحال ؛ ويقول :

«لِكُلِّ ضَرْبٍ مِنَ الْحَدِيثِ ضَرْبٌ مِنَ اللَّفْظِ، وَلِكُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْمَعْنَى نَوْعٌ مِنَ الْأَسَاءِ، فَالسَّخِيفُ لِلْسَّخِيفِ، وَالْخَفِيفُ لِلْخَفِيفِ، وَالْجَزْلُ لِلْجَزْلِ، وَالْإِفْصَاحُ فِي مَوْضِعِ الْإِفْصَاحِ، وَالْكِنَايَةُ فِي مَوْضِعِ الْكِنَايَةِ، وَالْإِسْتِرْسَالُ فِي مَوْضِعِ الْإِسْتِرْسَالِ . . .»

ويقول :

«يَنْبَغِي لِلْمُسْتَكَلِّمِ (أَيِ مَنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ عِلْمِ الْكَلَامِ وَالْجَدَلِ) أَنْ يَعْرِفَ أَقْدَارَ الْمَعْنَى وَيُوزِنَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَقْدَارِ الْمُسْتَمْعِينَ وَبَيْنَ أَقْدَارِ الْحَالَاتِ، فَيَجْعَلَ لِكُلِّ طَبَقَةٍ مِنْ ذَلِكَ كَلَامًا، وَلِكُلِّ حَالَةٍ مِنْ ذَلِكَ مَقَامًا، حَتَّى يَقْسِمَ أَقْدَارَ الْكَلَامِ عَلَى أَقْدَارِ الْمَعْنَى، وَيَقْسِمَ أَقْدَارَ الْمَعْنَى عَلَى أَقْدَارِ الْمَقَامَاتِ، وَأَقْدَارِ الْمُسْتَمْعِينَ عَلَى أَقْدَارِ تِلْكَ الْحَالَاتِ .»

(٣) وهو يريد الاهتمام بالتنقيح والتهذيب في الكتابة واختيار الالفاظ الشريفة، الا انه يأبى المبالغة في ذلك :

« ينبغي لمن كتب كتاباً أن لا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء، وكلهم عالم بالأمور وكلهم متفرغ له، ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلاً، ولا يرضى بالرأي الفطير، فإن لا بداء الكتاب فتنة وعجبا، فإذا سكنت الطبيعة... أعاد النظر فيه، فيتوقف عند فصوله توقف من يكون وزن طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب ».

(٤) والجاحظ يريد أخيراً في الكتابة البيان أو وضوح الدلالة، والايجاز. ويقول: « كلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أيسر وأنور، كان أنفع وأنجع... » ويقول: « الاستعانة بالغريب (من الالفاظ) عجز ». ويقول: « أحسن الكلام ما كان قليلاً يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه ».

وفي ذلك رجوع الى البساطة الطبيعية، والايجاز العربي، من غير إهمال للثقافة الجديدة والطرق الجديدة، وللصناعة ووجوه الفن الجديدة.

٣ آثاره: عني الجاحظ بتأليف الكتب والرسائل وأكثر من ذلك حتى قالوا انه ترك ما ينيف على مئة وسبعين كتاباً. وقد ساعده على كثرة التأليف امتداد عمره، وانصراف العطاء عن استخدامه في قصورهم ودواوينهم لدماة خلقه، ومرضه الطويل الذي اضطره الى ملازمة بيته وقطع فراغه بالكتابة والتأليف، ثم ميل علماء عصره ولاسيما اساتذته، الى التأليف.

وآثار الجاحظ تؤلف موسوعة علمية وأدبية كاملة، وهي خير مثال للثقافة العربية والنضج الفكري والعلمي، وللادب البليغ والاسلوب الانشائي الرفيع. وقد ضاع الكثير منها، وأما ما وصلنا فقد طبع معظمه، ولا يزال بعضه مخطوطاً ومبعثراً في شتى الخزائن بين الشرق والغرب.

وانه لمن الصعب جمع تلك المؤلفات في فئات مرتبة على حسب مادتها لان الكثير منها مختلف الموضوعات، متعدد المعاني. ومن ثم كان تقسيمنا التالي لآثار الجاحظ على وجه التغليب.

١ - في الفلسفة والاعتزال والدين :

- « كتاب الاستطاعة وخلق الافعال » (وضعه الجاحظ لتقرير مذهب الاعتزال) ،
 « كتاب الاعتزال وفضله » (ولعل هذا الكتاب هو المسمى ايضاً « فضيلة المعتزلة »)
 والذي رد عليه ابن الراوندي بكتابه الذي سماه « فضيحة المعتزلة » ، « كتاب
 خلق القرآن » ، « كتاب آي القرآن » ، « كتاب الاحتجاج لنظم القرآن » ، « كتاب
 وجوب الإمامة » ، « كتاب الرد على اليهود » ، « كتاب الرد على المشبهة » ...
 « كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير » (يبحث في تعليل الاشياء الطبيعية
 وما في الكائنات من الدلائل على وجود الصانع) .

٢ - في السياسة والاقتصاد :

- « كتاب الاستبداد والمشاورة في الحرب » ، « رسالة في مناقب الترك وعامة
 جند الخلافة » .
 - « رسالة في الخراج » ، « كتاب اقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات »
 « كتاب الزرع والنخل والزيتون والاعناب » .

٣ - في الاجتماع والاخلاق : من آثار الجاحظ في ذلك :

- « رسالة في إثم السكر » ، « كتاب اخلاق الشطار » ، « كتاب اخلاق
 القتبان وفضائل اهل البطالة » ، « كتاب خصومة الحول والعور » .
 - « كتاب البخلاء » ...

٤ - في التاريخ والجغرافية والطبيعات والرياضيات :

- « كتاب الاخبار وكيف تصح » ، « كتاب الملوك والامم السالفة والباقية » ...
 - « كتاب الامصار » ، « رسالة في الكيمياء » ، « كتاب المعادن » ، « كتاب
 نقض الطب » ، « رسالة في القيان » ، « كتاب في طبقات المغنين » .

- « كتاب الحيوان »، « كتاب الكلاب »، « كتاب الاسد والذئب » ...

٥ - في العصبية وتأثير البيئة :

- « كتاب القحطانية والعدنانية »، « كتاب العرب والعجم »، « كتاب العرب والموالي » .

- « رسالة في فخر السودان على البيضان »، « كتاب مفاخرة السودان والحران » ...

٦ - في الادب والشعر والعلوم اللسانية والادبية :

- « كتاب البيان والتبيين »، « كتاب المحاسن والاضداد والعجائب والغرائب »، « كتاب عناصر الآداب » ...

٧ - في موضوعات شتى من صداقة وعداوة، وتهكم ... :

- « رسالة التربيع والتدوير »، « رسالة في العشق والنساء »، « كتاب الاخوان » .

تلك نظرة خاطفة على مخلفات الجاحظ، وقد نُسب اليه مؤلفات كثيرة ليست له، حتى بلغت آثاره في رأي البعض نحواً من ٣٦٠ كتاباً ما بين كبير وصغير . وهي على كل حال ثروة عقل واسع تناول كل ما يستطيع إنسان ان يتناوله في أيامه، من كل شيء . وضده، ومن كل علم وكل فن ؛ واذا كتاباته موسوعة علمية كبرى بحث فيها المؤلف في جغرافية البلاد ؛ ثم تكلم على المدن والسكان وألحق بذلك الفرق بين الشعوب المختلفة من حيث الاخلاق والنشأة الطبيعية والفوارق الظاهرة، ثم معتقدات البشر فذكر الاديان وتشعباتها والهياكل وما يُعبد فيها ؛ ثم انتقل من الجغرافية الطبيعية والبشرية الى الجغرافية الاقتصادية فكتب في المعادن والكيمياء وما الى ذلك، ثم ارتقى الى النبات ثم الى الحيوان .

واننا سنجتزئ بدراسة اربعة من آثار الجاحظ هي « رسالة التربيع والتدوير »، و « كتاب البيان والتبيين »، و « كتاب المخلأ »، و « كتاب الحيوان »، وفيها

الدليل الكافي على ما لغيرها من قيمة؛ وسنلقي نظرة 'عجلى' على النواحي المختلفة من شخصية الجاحظ العلمية والادبية خاتمين بحثنا بكلمة في فنه وأثره .

١ - رسالته الترييع والتدوير

١ - ماهي : هي رسالة كتبها الجاحظ في هجاء احمد بن عبد الوهاب، فنعتته بالعرض والضخامة دون الطول وفصل لذلك شكل الترييع والتدوير الذي سُميت به الرسالة . وقد وصف ابن عبد الوهاب بأنه من بحيلة ومن اصحاب صالح ابن علي وسليمان بن وهب وندماء جعفر الخياط، وقال انه من الرافضة المشبهة، ونعته بأنه « يعدّ أسماء الكتب ولا يفهم معانيها، ويجسد العلماء من غير ان يتعلّق فيهم بسبب، وليس في يده من جميع الآداب الا الانتحال لاسم الادب » . وذكر انه كان يخاشنه ويطاوله . ولاجل ذلك كله انشأ هذه الرسالة يتنادر بها على ابن عبد الوهاب ويصف ما هو عليه من دمامة الخلق وقبح التركيب والجهل، ويعايبه بمئة مسألة يطلب اليه الجواب عنها؛ وقد ضمن اسئلته جميع معارف عصره المشكلة سواء في المنطق والفلسفة، ام في الكيمياء والصّنع، ام في الانسان والحيوان ام في تاريخ العرب وتاريخ غيرهم من الامم؛ وقد اكثر فيها من الخرافات والاساطير .

وطُبعت هذه الرسالة مع «رسالة في مناقب الترك» و «رسالة في فخر السودان على البيضان»، بليدن سنة ١٩٠٣، ثم بمصر ضمن «مجموعة رسائل» سنة ١٣٢٤ هـ، ثم بمصر ايضاً سنة ١٩٣٣ في «رسائل الجاحظ» .

٢ - قيمتها : لرسالة الترييع والتدوير قيمة علمية، وقيمة ادبية فنية .

١ - قيمتها العلمية : تتجلى لنا في هذه الرسالة سعة اطلاع الجاحظ . فقد استقى معلوماته فيها من تاريخ العالم عموماً وتاريخ العرب واساطيرهم خصوصاً، ومن القرآن والحديث، ومن كتب الفلسفة والعلوم اليونانية والفارسية وغيرها .

وقد ذكر المؤلف في رسالته اهم القضايا الفلسفية والعلمية والتاريخية . فعرض لمشكلة المعرفة ورأى ان « الخطأ كثير غامرٌ ومُسْتَوَلٍ غَالِبٌ ، والصواب قليلٌ خاصٌ ومَقْصُوعٌ مُسْتَخَفٌ » ، وأن الحواسَّ تُخْطِئُ وتُضِلُّ : « لعمري إنَّ العيونَ لتُخْطِئُ ، وإنَّ الحواسَّ لتُكْذِبُ ، وما الحكمُ القاطعُ إِلَّا لِلذِّهْنِ ، وما الاستبانةُ الصحيحةُ إِلَّا لِلْعَقْلِ . . . » وعرضَ لقضية اصل الانسان وما بينه وبين القرد من تشابه ، وقضية الالوان فقال : « وخبرني عن لونِ ذنَبِ الطَّائِوسِ ما هو ، أَتَقُولُ بَأَنَّهُ لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَإِنَّا يَتَلَوْنُ بِقَدَرِ الْمُقَابَلَةِ ، أَمْ تَقُولُ إِنَّ هُنَاكَ لَوْنًا بَعِينَهُ وَالْبَاقِي تَخْيِيلٌ » . وعرضَ لانتقال الصوت ، والمد والجزر وأثر القمر فيهما « فَإِنَّا يَكُونُ الْجَزْرُ وَالْمَدُّ عَلَى مَقَادِيرِ جَذْبِهِ لِلْمَاءِ وَإِرْسَالِهِ لَهُ » . وعرضَ للمرأة والصورة التي تعكسها أهى خيالية أم حقيقية ؟ وللقمر ومحاقه ، الى غير ذلك مما يُدهش .

إلا ان هذه القضايا التي يوردها الجاحظ ، لا يحلها في هذه الرسالة ، وهو يُحيل صاحبه فيها الى سائر كتبه التي تعطيها حلاً لكل شيء . وتبرهن على سعة علمه . ثم ان الجاحظ يورد بعض تلك القضايا على سبيل التهكم ، ومن ذلك قضية إدراك الحواس مثلاً ، عندما يذكر انها تخطئ .

ومهما يكن من أمر فالرسالة مفعمة بالمعلومات في شتى فروع العلم مما يجعل للجاحظ محلاً رفيعاً في دولة المعرفة لتلك الايام .

٢ قيمتها الادبية الفنية : وإلى جنب قيمة الرسالة العلمية نجد لها قيمة أدبية فنية كبيرة . فقد بلغ الجاحظ من سخريته بابن عبد الوهاب ما لم يبلغه كاتب ولا شاعر في اللغة العربية من سخريته بشخص من الاشخاص .

أما أسلوبه الهجائي فلم يكن عن طريق السب والشتم ، بل عن طريق التهكم والسخرية اللاذعة .

وهو يعتمد في سخريته الى المفارقات والمتناقضات مستعيناً على ذلك بضروب

من الجدل والاحتجاج والحوار، وضروب من السفسطة والمغالطة ومقابلة الحقائق بعضها ببعض، أو المقابلة بين الرجل وأشياء أخرى.

- فبواسطة المفارقات والمتناقضات استطاع الجاحظ أن يشوه جسم ابن عبد الوهاب وعقله، ويصوره لنا تصويراً «كاريكاتورياً» مضحكاً، فيقول مثلاً: «ومن غريب ما أعطيت وبديع ما أوتيت أنا لم نرَ مقدوداً واسعَ الجفيرة غيرك، ولا رشيماً مُستفيضَ الخاصرة سواك! فأنت المديد، وأنت البسيط، وأنت الطويل وأنت المتقارب». فيا شعراً جمع الأعاريض، ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول!

ويأخذ الجاحظ بالحوار والجدل فيتسع في فكرة الطول والقصر اتساعاً شديداً، فيقف تارة في جانب القصر فيحتج له، ويقف تارة في جانب الاعتدال، وقد يقف في جانب الطول، ويُدلي في كل ذلك بالحجج والبراهين كأنه يناقش مسألة علمية، و«كأنني بالجاحظ - على حد قول شوقي ضيف - أحال أحمد بن عبد الوهاب إلى مشكلة من مشاكل الاعتزال أو قل إلى مشكلة من مشاكل الفلسفة...» إذ يتناوله مرة بالطول ومرة بالعرض، وهو أثناء تناوله يمدّه تارة، ويقصره تارة أخرى، وتارة ثالثة يبعجه في مناظر تستخرج منا الضحك على ما يصنع بصاحبه من تشويه. وهو يُكثر في كل ذلك من السفسطات، فيأخذ بحجج وأقضية غير صحيحة، وهو عالم بعدم صحتها، فيفضلها كالمؤمن بها، ضاحكاً في دخيلته من كلامه، مثيراً معه الضحك. وهكذا برهن الجاحظ، في هذه الرسالة عن فن رفيع، ومقدرة فلسفية عجيبة، وبيان شحذته الثقافية، ولباقة في الحديث نادرة. والكن حديثه كثير التكرار والاستطراد.

ب - كتاب البيان والنبين

١ - ما هو: هو كتاب في الأدب من آخر ما ألف الجاحظ، يتضمن مختارات من الأدب من آية قرآنية أو حديث أو شعر أو حكمة أو خطبة، ممزوجة بما له

من آراء في مسائل مختلفة . قدمه الجاحظ الى القاضي احمد بن أبي دؤاد . وزعم
ياقوت أن المؤلف وضع من هذا الكتاب نسختين كانت الثانية منها اصح واجود .
وقد طبع الكتاب في مصر سنة ١٩٢٦ في ثلاثة اجزاء .

٢ - اقسامه : تشيع في هذا الكتاب، كما في سائر كتب الجاحظ، فوضي
في التأليف، لا نستطيع معها حصر موضوعاته في اقسام متسلسلة ؛ فسنكتفي
بإيراد خلاصة ما في ابواب الكتاب من موضوعات . فالجاحظ يمزج في كتابه
علوم البلاغة بالادب والتاريخ .

اما ما يرجع الى البلاغة فكلام على ماهية البلاغة، وعلى نعمة الفصاحة، ثم على
عيوب اللسان والعيب^١، كاللحن^٢، والدُّكْنَة^٣، والفأفة^٤، والتمتمة^٥، والتشديق^٦،
والتقمير^٧، والتقميع^٨ . ويلحق بالبلاغة ايضاً الكلام على الخطابة وعيوب الخطيب
من نحنة وسعلة، والاسنان وعلاقتها بالخطابة . ويلحق كذلك بالبلاغة ما يرجع
الى موسيقى الكلام من حروف والفاظ متنافرة، ومن سجع وما الى ذلك .

- أما ما يرجع الى الادب فيراد الكثير من كلام العرب في العهد الراشدي
والاموي والعهد العباسي : من شذرات مأثورة منتقاة ومن خطب بليغة .

- اما ما يرجع الى التاريخ فكثير من اخبار الخطباء والعلماء والامراء والكهّان
والنساء وغيرهم .

٣ - قيمة الكتاب : للكتاب قيمة تاريخية وقيمة ادبية :

(١) العيب : الحصر في المنطق اي عدم الإنصاح (٢) اللحن : الخطأ في الإعراب ومخالفة
وجه الصواب (٣) الدُّكْنَة : الثقل في اللسان (٤) الفأفة : الإكثار من الفاء في الكلام
والتردد فيها (٥) التمتمة : التعجيل في الكلام من غير إيفهام (٦) التشديق : هو ان يلوي
المتكلم شذقه لتفصيح (٧) التقمير : إخراج الكلام من الحلق (٨) التقميع : إخراج
الكلام من قعر الحلق .

١ قيمه التاريخية : في هذا الكتاب تظهر نزعة الجاحظ العربية ، فهو يرد على الشعوبية ، ويكثر من إيراد ما للعرب من مظاهر البلاغة . فهو في موقف معاكس لزعماء الثورة التجديدية ؛ وهو مع ذلك يضيف في كتابه الى الثقافة العربية الواسعة عناصر مختلفة مما تقدمه الثقافات الاخرى اليونانية والفارسية والهندية وغيرها ، حتى يمكننا القول ان كتابه مزيج من ثقافات مختلفة تغلب عليه الثقافات العربية ؛ فهو يعرض ادب العرب والفرس ، وحكم الهنود ، ونصائح اليهودية والمسيحية ؛ وهو يتكلم على مذهب التناسخ ، وينقل اقوالاً لداود والمسيح ، ويذكر عادة الرهبان في اتخاذ العصا وعادة الجاثليق في اتخاذ القناع والمظلة والعكازة والعصا ، كما يذكر ان للهنود كتباً في الحكم والاسرار ، وان لليونان منطقاً يُعرف به الخطأ من الصواب ، الى غير ذلك من المعلومات الواسعة .

٢ قيمه الادبية : لا شك أنَّ كل فصل من فصول الكتاب فوضى لا تضبط واستطراد لا يُجد . فالجاحظ لا يرمى للوحدة التأليفية نظماً ولا يُقيم لها وزناً . الا ان للكتاب قيمة حقيقية جعلت له محلاً خاصاً ما بين اصول فن الادب وأركانه حتى قال ابن خلدون : « سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم ان اصول فن الادب واركانه اربعة دواوين ، وهي : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرّد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لابي علي القالي . وما سوى هذه الاربعة فتبع لها وفروع عنها » . وقد ذكرنا فيما سبق آراء الجاحظ في بلاغة الانشاء والادب مأخوذة من « البيان والتبيين » ومن « كتاب الحيوان » . وغيرهما .

ب - كتاب النخبة

١ - ما هو : هو كتاب طريف جمع فيه الجاحظ اخبار البخلاء «المقتصدین» ، فصور حالاتهم المختلفة كما شاهدها او بلغه خبرها ، مورداً طرائف مشاهيرهم ، متندراً بمُلح البخلاء من العلماء والادباء ، مثبتاً ما يلحق ذلك من مناظرات بين الكرم والبخل وغير ذلك من الفوائد عن آداب العرب وعاداتهم في مآدب الضيافة . وقد صدر الكتاب برسالة سهل بن هارون في البخل .

طبع كتاب البخلاء مراراً وكان أول من طبعه المستشرق فان فلوطن Van Vloten وذلك في ليدن سنة ١٩٠٠، ثم طبع بمصر ثم بدمشق سنة ١٩٣٨ . وفي سنة ١٩٤٧ تولى محمد طه الحاجري إصدار طبعة علمية جديدة للكتاب .

٢ - الباعث على وضع الكتاب : يذكر لنا الجاحظ في مقدمة كتابه ان ما حمّله على وضعه هو الفائدة التي اداها كتاب له آخر عنوانه « تصنيف حيل لصوص النهار وتفصيل حيل سُراق الليل »، فقد سدد به الناس كل خلل وحسنوا به كل عورة؛ ويذكر ان احد اصدقائه سأله ان يفصل « نوادر البخلاء واحتجاج الاشياء، وما يجوز من ذلك في باب المنزل، وما يجوز منه في باب الجدة » ليجعل المنزل مستراحاً، والمزاحة جماعاً .

ويذكر الجاحظ ان الذي ساعده على توفير مادة الكتاب « مُلح الحزامي » واحتجاج الكندي، ورسالة سهل بن هارون، وكلام ابن غزوان، وخطبة الحارثي، وكل ما حضره من اعاجيبهم واعاجيب غيرهم » واحتجاجهم للبخل، وشذوذ البخلاء في تفكيرهم، الى غير ذلك مما لم يكن بُد من تقويمه وتوضيحه، حتى يكون من الكلام فائدة للبصير، ودرس للبيب .

٣ - مضمون الكتاب : اراد الجاحظ ان يفتح الكتاب بنظرة عامة على نفسية البخلاء جعلها مقدمة بين يدي موضوعه؛ فهو يعجب شديد العجب « بمن قد فطن لبُخله، وعرف إفراط شحّه، وهو في ذلك يُجاهد نفسه ويُغالب طبيعته؛ وليس بما ظن أن قد فطن له وعرف ما عنده، فموّه شيئاً لا يقبل التسمويه، ورقع خرقاً لا يقبل الرقع . فلو أنه، كما فطن لعيبه وفطن لمن فطن لعيبه، فطن لضعفه عن علاج نفسه . . . وعن استرجاع ما سلف من عاداته . . . لترك تكلف ما لا يستطيعه . . . »

والجاحظ يذكر، فضلاً عن تقويمه البخلاء، فطنتهم لعيوب غيرهم، ويقول : « فما باله (البخيل) يفطن لعيوب الناس إذا أطمعوه، ولا يفطن لعيوب نفسه إذا أطمعهم، وإن كان عيبه مكشوقاً، وعيب من أطمعه مستوراً » .

وبعد هذه المقدمة يُثبت الجاحظ رسالة سهل بن هارون في البخل وفيها

رُدود الرجل على بني عمه من آل راهيون الذين ذُئِموا مذهبهم في البخل وتبعوا كلامه في الكسب .

ثم ينتقل الجاحظ الى موضوع كتابه فيبدأ بقصة اهل خراسان ولاسيما اهل مرو، واذا البخل في اهل مرو طبع، واذا ديوكهم نفسها تسلب الحب من مناقير الدجاج . ويتبع قصة اهل خراسان بقصة اهل البصرة من المسجدين، وقصص زبيدة بن حميد الصيرفي، وليلى الناعطية، واحمد بن خلف، وخالد ابن يزيد، وابي جعفر، والحزامي، والحارثي وغيرهم .

ثم يُثبت الجاحظ رسالتين، إحداهما من ابي العاص الى الثقيفي في ذم البخل ومدح الكرم؛ والاخرى جواب ابن التوام على رسالة الثقيفي في إظهار مفاصد البذل وما الى ذلك .

ويختتم كتابه بكلام على اطعمة العرب .

٤ - قيمة الكتاب :

١ - دراسة الاخلاق : اول ما يلاحظ في هذا الكتاب ان صاحبه قصر همه على ناحية واحدة من نواحي الاخلاق هي البخل، وانه مع ذلك أنشأ كلاماً طويلاً مما يدل على سعة ادراك الرجل، ودقة ملاحظته لآعمال الناس التي تجبر عن نفسياتهم وامياهم، والتقاطه لادق حركات البخل . ولكن اسلوبه في كلامه لم يكن اسلوب من يُقدّم في اشخاصه وموزاً الى كل من احب المال وعلق المادّة، ومُثلاً شاملة عامة ؛ فالجاحظ يعرض علينا قصصاً وروايات متتابعة من غير ما ترتيب في يكون وحدة تأليفية .

ولست غاية الجاحظ في كتابه الهجاء لمجود الهجاء، وإن حوى كلاماً على الكرم والبخل وحجج هذا وذاك؛ انما غايته اصلاح تلك الفئة من الناس التي اتخذت البخل مذهباً تؤيده عن عقيدة او عن تقويه . وهو، إن ذم البخل ووضح مفاصده، لا يغفل عن تحسين الاقتصاد .

واشخاص الجاحظ في كتابه احياء يتحركون، ويتكلمون بلغة هي لغتهم؛ ويكشفون لنا عن انفسهم . وهم عادة اصحاب جدل ومنطق، يلجأون الى البراهين المختلفة والسفسطات التي تضحكننا من حيث تقنعهم او تظهر أنها تقنعهم . ونجلا، الجاحظ هم من « طيَّاب البخلاء » لا تشمئز النفس منهم ولا تقل قراءة اخبارهم؛ فقد عرف الجاحظ ان يثبت فيهم من خفة روحه، وان يجعل نكتته على لسانهم، ويبرهنهم من التعدي الذميم على مال الغير مهما اشتد حرصهم على مالهم؛ لا بل يوضح من اقتصادهم احياناً ما يُحمد وما يعتمد عليه في تدبير المنزل .

٢ - الفائدة التاريخية : يُطلعنا الكتاب على ناحية من نواحي المجتمع العباسي ولاسيا مجتمع البصرة وخراسان؛ ويفصل لنا طرق العيش في تلك الفئة من الناس، وأساليب كلامها؛ ثم يمتد الى كثير من عادات العرب وآكلهم وامثالهم واخبارهم، والى بُنجل الروم، وغش الفرس، وغير ذلك مما يطول سرده .

د - كتاب الحيوان

١ - ما هو وغاية المؤلف من وضعه : يشتمل هذا الكتاب على وصف طبائع الحيوانات، وقد اودعه صاحبه كل ما شاء ايداعه من الحكمة والادب والظرف، ودون فيه كل ما تفرق في كتب العلم والادب، وما انتشر على افواه الناس من الاشعار والاقوال، والاحكام والاسمار، عن الحيوانات وعلاقتها ببني الانسان . وذكر الجاحظ في مواضع عدة من الكتاب انه وضعه لبيان ما في الحيوان من الحجج على حكمة الله العجيبة وقدرته الباهرة .

وطبع الكتاب مراراً في عدة اجزاء تختلف عدداً باختلاف طبعاته، طبع بمصر في سبعة اجزاء سنة ١٩٠٧، ثم طبع طبعة أخرى أنيقة بتحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون سنة ١٣٥٧ هـ . (١٩٣٨ م) .

٢ - مصادر المؤلف في وضع كتاب الحيوان : ان المراجع التي لجأ اليها الجاحظ في وضع كتاب الحيوان كثيرة حتى يصعب جداً الاتيان على ذكرها كلها . فقد برهن المؤلف في هذا الكتاب عن معارف واسعة ، واطلاع نادر على جميع الثقافات المعروفة لزمانه من عربية ويونانية وفارسية وهندية ، وعلى جميع الديانات وتعاليمها من مانوية وزرادشتية ودهرية ، ويهودية ونصرانية وإسلامية ، وعلى جميع الفرق والنزعات .

اما مصادر الجاحظ العربية فهي آثار الاصمعي ، وابي عبيدة ، وابي زيد الأنصاري ، والنظام ، وبشر بن المعتز ، احد زعماء المعتزلة ، الذي نظم قصيدتين في الحيوان فوصفه واستخرج منه الحكمة ، وقد اورد الجاحظ القصيدتين في كتابه وشرحهما شرحاً مطولاً ، ثم القرآن والحديث ، وما رواه الرواة من اخبار ، واشعار العرب ومؤلفاتهم ، ثم من عاصر الجاحظ من علماء واطباء ، اكثر الرجل من التحدث اليهم والاستفادة من معارفهم .

واما مصادر الجاحظ الاجنبية فهي كتب ارسطو اولاً ، ولارسطو كتاب في الحيوان يقع في تسع عشرة مقالة ، نقله ابن البطريق ، ولخصه غيره . ولم يقتصر الجاحظ على ارسطو بل نقل ايضاً عن اقليمون صاحب الفراسة في الكلام على الحمام ، وعن جالينوس في ما يصلح له لحم الضب ، وفي معارف البهائم والطيور . ونقل عن الفرس وتكلم على اساطيرهم ونيوانهم . ونقل كذلك عن اليهود والنصارى اموراً كثيرة تتعلق بديانتهم .

٣ - مضمون الكتاب : لم يقتصر الجاحظ في كتابه على طبائع الحيوانات ، بل شط عن موضوعه ، وغايته ، واخرج كلامه مخرج الشمول العلمي والادبي ، فضمنه معلومات واسعة في الحيوان وغير الحيوان ، ومنزج الجسد بالهزل ، والعلم بالادب ، والفكاهة بالمجون ، مزجاً غريباً .

وقد جعل الجاحظ كتابه في سبعة اجزاء :

- الجزء الاول : يتضمن مقدمة ردّ فيها الجاحظ على من انتقد كتبه التي ذكر منها ما يزيد على الاربعين كتاباً، ثم انتقل الى تفصيل فضل الكتاب وضرورة اقتنائه . وما إن انتهى من مقدمته حتى انتقل الى باب الخصاص ومنافعه وجعله توطئة للكلام على الحيوان الذي ذكر منه الكلب والديك .

- الجزء الثاني : يتضمن تنمّة الكلام على الكلب .

- الجزء الثالث : يتضمن كلاماً على الحمام وطبائعه، وعلى الذبّان، والغربان وغيرها . وفيه استطرادات الى صدق الظنّ والفراسة والجنون .

- الجزء الرابع : يتضمن كلاماً على الذرّة، والنمل، والقرد، والخنزير، والحيات، والظليم . ومن استطرادات هذا الجزء الكلام على النيران بأنواعها : ما كان منها للعرب وما كان منها للعجم، ما كان للديانات وما كان لغير الديانات .

- الجزء الخامس : يقسم هذا الجزء قسمين : يتضمن القسم الاول تنمّة الكلام على النار، وتفسير بعض الآيات، ثم ما قيل من مديح في النصارى واليهود والمجوس والانذال وصغار الناس . ويتضمن القسم الثاني كلاماً على بعض الحيوانات كالغار والجردان والسنانير وغيرها، وعلى الفرق بين الانسان والبهيمة، والانسان والسبع .

- الجزء السادس : يتضمن تفسيراً لقصيدة البهراني في الحيوان، ولقصيدتي بشر ابن المعتز، وكلاماً على الثأر عند العرب وعلى الجبان . والى جنب ذلك يتكلم على بعض الحيوانات كالهدد والتمساح والارانب وغيرها .

- الجزء السابع : يتضمن هذا الجزء برهاناً على ما رمى اليه الجاحظ من وضع الكتاب : اعني اظهار حكمة الله وقدرته الباهرة . ففيه إظهار ما امتازت به الحيوانات من الحكمة العجيبة، وما ألهمها الله من المعرفة ووهبها من الجبن والجرأة وأشعرها من الفطنة بما تحاذر به عدوّها . ولا يخلو هذا الجزء ايضاً من الكلام على بعض الحيوانات كالفيل والزرافة وغيرها .

٤ - قيمة الكتاب :

١ - القيمة الادبية : ان نبحت هنا في فن الجاحظ الكتابي لاننا سنفرد له محلاً خاصاً ؛ إنما نقصر كلامنا على اسلوب الجاحظ التأليفي في كتاب الحيوان فهو يقول فيه : « متى خرج (القارئ) من آي القرآن صار إلى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ، ثم يخرج من الخبر إلى الشعر ومن الشعر إلى نوادر ، ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس شداد ، ثم لا يترك هذا الباب ولعله أن يكون أثقل ، والملا ل إليه أسرع حتى يفضي إلى مرح وفكاهة وإلى سُخْفٍ وخُرَافَةٍ ، ولست أراه سُخْفًا . وهو يقول أيضاً : « إني أوشح هذا الكتاب بنوادر من ضروب الشعر ، وضروب الأحاديث ، ليخرج قارئه من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، فإني رأيت الأسماع تمَلُّ الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأونار الفصيحة إذا طال ذلك عليها ، وإذا كانت الأوائِلُ قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة ، كان هذا التدبير لما طال وكثر أصْلَح ، وما غابنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيراً » .

فالجاحظ من ثم أستاذ يريد ان يلقي على العالم العربي دروسه ، وهو يريد ان يستفيد سامعوه خيراً ، فيجعل همه كله في إساعة ما يقول ، وإرساله على الطرق التي تبعد الملل ، حتى تنفتح له القلوب ، وتتفهمه العقول ؛ وهو من ثم يرى التنقل من موضوع إلى موضوع ، والاستطراد ، ومزج الجدّ بالهزل ، خير طريق إلى الافهام . ولذلك نراه يخلط دائماً جداً بهزل ، ويسيع اللقمة الجافة بكثير من الحلوى - وإن كثرت فيها الإحماض والمجون المكشوف - .

ذلك أسلوب الجاحظ في كتاب الحيوان ، وهو بأسف أساوكه هذا السبيل ، ولكنه لا يرى مناصاً منه ، فيقول : « ولولا سوء ظني بمن يظهر التماس العلم في هذا الزمان ويظهر اصطناع الكتب في هذا الدهر لما احتججت إلى مداراتهم واستمالتهم ، وترقيق نفوسهم وتشجيع قلوبهم - مع فوائد هذا الكتاب - إلى هذه الرياضة الطويلة وإلى كثرة هذا الاعتذار ، حتى كأن الذي أفيدُهُ إياهم أستفيدُهُ منهم ، وحتى كأن رغبتي في صلاحهم رغبة من رغب في دنياهم » . والجاحظ يعترف بأنه عانى في هذه الطريقة أكثر مما كان قد عانى لو كتب كتاباً في موضوع واحد من غير استطراد .

ليس للكتاب اذن من وحدة تأليفية فالمؤلف يراعي فيه اهواء قارئيه لا قواعد المنطق والعقل ؛ فكان فيه عالماً واديباً يرضي العلم والبلاغة ، كما كان معتزلياً يرغب في الجدل والمناظرة ، حتى اذا لم يجد من يناظره خلق شخصين يتناظران في مسألة يريد الكلام فيها ؛ فاذا تكلم على الكلب والديك مثلاً خلق لكل منهما صاحباً يذكر فضائله وفوائده ، ويستشهد على ما يقول بالاخبار القديمة والاقاصيص وبما ورد في النوراة والانجيل والقرآن والحديث ...

٢ القيمة التاريخية : من استقرأ موضوعات الكتاب تتجلى لنا قيمة الكتاب التاريخية ، فهو خزانة معلومات كثيرة الاصول والفروع ، تتناول تاريخ العرب وغير العرب ، وثقافتهم ، وعاداتهم ، ودياناتهم واحوالهم الاجتماعية مما يؤلف مجموعة واسعة من الحقائق التي اعمل فيها الجاحظ عقله وروحه النقدية ، وبرزها بقدر ما استطاع من تدقيق وتحرر .

٣ القيمة العلمية : اختلف النقاد في قيمة الجاحظ العلمية ، فمنهم من عدّ الرجل عالماً من اكبر العلماء ومنهم من حط من شأنه العلمي . والحقيقة ان الجاحظ عالم وان غلبت عليه الصبغة الادبية ، ولكن علمه لا يخلو من اضاليل لضعف الوسائل العلمية لايامه . فقد تناول الموضوعات العلمية ، واتبع اصول العلم في التحقيق ، يحفزه على ذلك روحه المعتزلية التي تجعل العقل في اساس البحث كما يحفزه مثل استاذة النظام ابي الروح العلمي في ذلك العهد وحامل لواء العقل .

٤ - أما موضوعات الجاحظ العلمية فهي مما ادر كناه في دراسة ابواب الكتاب . وقد كان الكتاب الى ما قبل ظهور الجاحظ يصرفون همتهم الى الاختصاص بالضرب الواحد او الضربين من انواع العاوم ، اما الجاحظ فلم يتخصص بل شاء ان يكون « دائرة معارف » تحيط بأكثر ما عُرف من علوم الانسانية وآدابها حتى عهده وأن يزيد عليها . وفي كتاب الحيوان اكبر شاهد على ذلك .

- أما اصول تحقيق الجاحظ ، فهي الاصول العلمية . وقد قال في مقدمة كتابه :

« هذا كتابٌ تستوي فيه رغبة الأمم ، وتشابه فيه العربُ والعجمُ لأنه وإن كان عربياً أعرابياً ، وإسلامياً جماعياً ، فقد أخذ من طرفِ الفلسفة ، وجمع معرفة السماعِ وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة » .

فهو إذن يعتمد الحواس والعقل في درك الأمور . فالعنصر الأول من عناصر تحقيقه هو المعاينة يضم إليها التجربة والفروض والمقابلة والتصنيف . وكل قول في نظره « يكذبه العيان فهو أفحش خطأ ، وأسف مذهباً ، وأدلى على معاندة شديدة ، أو غفلة مُفرطة » .

أما التجربة فكان يعتمد الجاحظ إلى طرق مختلفة منها : فتارة يقطع أعضاء الحيوان ، أو يلقي على الحيوان ضرباً من السم ، وتارة يذبح الحيوان ويفتش جوفه وقانصته ؛ تارة يجمع اعداد الحيوان في إناء ليعرف تقاطعها ، وتارة يلجأ إلى إحدى مواد الكيمياء ليعلم تأثيرها على الحيوان .

أما معرفة السماع فكان الجاحظ يلجأ إليها ، ويتردد على أهل المعرفة من زمانه ويعتمد إلى كتب أرسطو وغيره . ولكنه كان يعمل في كل ذلك تمييزه ، فيناقش ويحاول تحقيق ما يسمع . فتارة يسمع الخبر فيثبت كما هو ، وتارة ينفى الشبهة عن يأتيه بالخبر ، وتارة يكذبه ، وتارة يعجب لقوله إذا لم يجد سبيلاً إلى التحقيق .

والجاحظ يجمع إلى معونة الحواس معونة العقل ، ويقول : « فلا تذهب إلى ما يريك العين ، وأذهب إلى ما يريك العقل ، وللاُمور حُكمان : حُكمٌ ظاهرٌ للحواس ، وحُكمٌ باطنٌ للعقول ، والعقل هو الحجة » . وبهذا وذاك كان الجاحظ تلميذاً للنظام الذي كان يعتبر الشك أساساً للبحث والذي عمد إلى التجربة واستخدم المنطق في البحث عن الحقائق . فكان الجاحظ يجعل الشك سبيلاً إلى اليقين ، ويقول : « إعرف مواضع الشك والحالات الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له » . ولم يكن الشك عنده لمجرد الشك بل كان طريقاً إلى المعرفة .

والجاحظ يضيف إلى الشك النقد العلمي ، وهو مُعزم بالثبنيهِ على الخرافات

والنيل من اصحابها . وقد نال بنقده طائفة من العلماء وأرسطو نفسه . فأخذ على هذا الأخير انه لم يعتمد في تحقيقه على العيان والسمع والامتحان، وانه اذا تكلم ، في بعض الاحيان، على حيوان لا يستوفي عجائبه . ولم يكن نقد الجاحظ لمجرد النقد إنما كان طريقاً الى درك الحقيقة .

تلك قيمة الجاحظ العلمية كما تتجلى لنا من كتاب الحيوان . إلا ان علم الجاحظ يعتوره كثير من الاوهام والضلالات التي نجدها عند سائر علماء القدم . وقد فات الجاحظ روح الترتيب في ما خبره وعينه ودونته، كما فاتته قدرة العالم على التعميم واستنباط القوانين العامة، والتمكن من انشاء المقاييس العلمية .

٤ فن الجاحظ : ليس الجاحظ رجل الخيال الفسيح الارزاء، وليس هو رجل العاطفة التي تستبد بجميع كيانه، إنما هو رجل الاعتزال، اي رجل العقل والجدل، يتطلب الحقيقة بكل قواه، ويبحث طويلاً في سبيل الحصول عليها، ثم يسعى جهده للتعبير عنها تعبيراً بياناً يظهر جميع دقائقها قريبة الى الافهام .

ولاجل ذلك نرى الجاحظ يعدل عن اساليب المجاز ما استطاع؛ وإن عمد الى شيء من التشبيه والاستعارة فما ذلك للزخرف وتطلب الصنعة، ولكنه لوضوح الإبانة بطريقة واقعية محسوسة . ومن ثم فاستعاراته وتشبيهاته بعيدة كل البعد عن التعقيد والاغراب، قريبة كل القرب من الافهام . قال يصف حية رمالاً بلعنبر : «... غسست هذه الحية ذنبها في الرمل، ثم انتصبت كأنها رُمحٌ مَرَكُوزٌ أو عودٌ ثابتٌ» . فالتشبيه حسي، سهل المأخذ لا يحتاج الى تفكير ولا الى تخيل عميق .

ثم ان الجاحظ - شأن الاستاذ الحاذق - يراعي ابداً مقتضى الحال . فهو خبير بنفسية الانسان ومفتنٌ ماهر، لا ينسى من يضع لهم كتبه، ولا يغفل عن الاحوال المكانية والزمانية . فتراه لذلك يتحدث الى قارئيه بأسلوب طبيعي بعيد عن الصنعة

والتعوييه، فترى عبارته تمتد تارة وتنقبض أخرى، ترسل تارة ارسالاً من غير توبيخ ولا تقطيع، وتقطع تارة أخرى تقطيعاً موسيقياً، وموسيقاها هي موسيقى التقطيع الطبيعي الماهر؛ وترى اسلوبه ينزع نزعة الحياة الحرة الطليقة التي تروق ابناء العصر، ويميل عن جفاف الاسلوب العلمي المجرد، ويسترسل في الاستطراد والاستشهاد والجدل، ويعمد الى الهزل في مواطن الجدل، وإذا نفس الكاتب الخفيفة الظل، المطبوعة على الدعابة والمرح، تتراءى في كل حال وكل مقال، وإذا جفاف العلم يلبثه السرور، وإذا السرور تبعه نادرة غريبة، او فكرة لطيفة، او ترخم هازي، او ما الى ذلك من ضروب الهزل. ولا شك ان ذلك الاستطراد وما يتبعه من ضروب مراعاة الاحوال يلحق ضرراً بالوحدة التأليفية، والمنطق العلمي، ولكنه يروق ابناء العصر، ويروج المصنفات، ويفهم الحقائق وينشرها، والجاحظ لا يطلب غير ذلك.

أما لغة الجاحظ، فهي اللغة التي يقتضيها العقل ويطلبها الأداء عن الحقيقة. فالجاحظ يرمي الى الإفهام، والى استعمال الالفاظ التي تفصح عن المعاني عن طريق الحقيقة، فهو يقول: «ليس الكتاب الى شيء أحوج منه الى إفهام معانيه حتى لا يحتاج السامع لسماعه، الى الروية؛ ويحتاج من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السنلة والخشونة، ويحطه من غريب الأعراب ووحشي الكلام».

فذهبه من ثم واضح؛ وقد جرى عليه، فكانت الفاظه دقيقة، واضحة الاداء واقعية حسية، بعيدة عن الخشونة والغرابة، يحسن تصيدها، فيقدر اللفظة بجرسها ورنتها وما ينتظر من تأثير توقيعه وتلحينها اذا قرنت الى اختها؛ ويميز الثقيلة والخفيفة، والمأنوسة والوحشية، فيختار ما يؤدي معناه حق الاداء ويتزله في منزله، ولا تعصيه كلمة مهما دق موضوعه، ولا يطوي لسانه على معنى في قلبه لا يتسنى له ابرازه بالنطق او تمثيله باللفظ. وكان الجاحظ نحائلاً وبناءً في آن واحد، ينظر الى شئين في الفاظه: الدقة والموسيقى. ومن ثم شاعت العذوبة في كلامه الا ان تلك السهولة وتلك الدقة لا تخلوان احياناً من غموض ينجم عن التباس

الضائر فلا يُعرف الى من ترجع لتعاقبها؛ ويعتمد الجاحظ أحياناً الى الفاظ اعجمية وعامية مراعاةً لمقتضى الحال .

وهما يكن من امر فالجاحظ، مصور بارع، يصور بجملة والفاظه، فيذكر الدقائق والتفاصيل بأوضاعها لا بسلسلة تصويرات او تشبيهات او ما الى ذلك، وهو في كل ذلك رجل الواقع لا يجيد عنه في حال من الاحوال .

٥ منزلة الجاحظ :

١ - مدرسة الجاحظ الكتابية : يُعدُّ الجاحظ رأس المدرسة النثرية الثانية في الادب العربي، وقد كان عبد الحميد مع ابن المقفع رأس المدرسة الاولى . وفي اسلوب المدرسة الثانية نزعة الى الطراوة الملائمة لتقدم الحضارة، وميلاً الى الاسهاب والإطالة الملائمة للرجل المتحضر، ورجوعاً الى العرب والاستقاء من ينابيع ادبهم، وتكييف اساليبهم لتأشّي المدنية والثقافة؛ والشغف بالمنطق كلما دعت اليه الحال .

٢ - آثار الجاحظ صورة لبيئته : شبَّ الجاحظ في زمن الرشيد، ونبغ في عهد المأمون، وقد امتاز عصره بحرية الفكر، فصور الجاحظ تلك الحرية بواقعيته، وظهرت في علمه، وفي دينه، وفي ادبه .

أما في علمه فقد ظهرت في تحقيقه العلمي وفي نقده وشكّه وحججه؛ وأما في دينه فظهرت في اعتزاله وتفسيره وتأويله، وتأسيس كل شيء على العقل؛ وأما في ادبه فظهرت في انطلاق اسلوبه ولغته .

وكما مثَّل الجاحظ حرية الفكر في عصره، مثَّل ايضاً نتيجة تلك الحرية . وهي مزدوجة : نتيجة حسنة هي ازدهار العلوم العقلية، ونتيجة سيئة هي الانحلال في العقيدة والاخلاق . فمثَّل الجاحظ في آثاره تشعب الحركة الفكرية، وانطلاق العلوم، واتساع الآفاق، والبحث العلمي المؤسس على العقل؛ وقد اخذ من كل علم بطرف حتى خاض في ابواب شتى في الاجتماع والاخلاق، والتربية والتعليم، والطبيعة،

والتاريخ الطبيعي، وفلسفة اللغة وما الى ذلك . ومثل الجاحظ من جهة اخرى الاخلاق والعقائد واطهر انحلالها في فئات من اهل عصره، فصور حيل التجار، وخزعبلات المتسولين، وسخافات الشبان المتخنثين، وزندقة المتردقين وما اشبه ذلك من ضروب الفساد .

٣ - رواج الجاحظ عند ابناء عصره : كان الجاحظ استاذاً في عصره يلقي دروسه على العالم العربي باسره . وقد لقي رواجاً عظيماً لسعة علمه، وكثرة مؤلفاته، واعتزاله وجرأته في النهوض على التقاليد - تلك الجرأة التي وفرت له الاعداء والاصدقاء - ونظرة النقدي المقعد على المعقول والتجربة، واتساع آفاق مواضعه اذ كان كل انسان يجد فيها ما يروقه، والتنوع الذي كان يبعد السأم، وتصوير اخلاق العصر وفئات الناس - وهذا النوع من الادب كثير الرواج -، واسلوبه السخري ومزجه الجد بالهزل، وتبسيط المسائل العلمية والفلسفية في اسلوب واضح يصطبغ بالصبغة العربية . وهكذا وجد الناس صلة بينهم وبين ما مثل لهم الجاحظ، بخلاف ما وجدوا عند ابن المقفع الذي قدم لهم ادباً وضع لزمان غير زمانهم وشعب غير شعبهم . وقد أعجب الناس بابن المقفع قبلاً لانهم رأوا في كتبه شيئاً جديداً لم يكن لهم عهد بمثله ولانها كتبت بلغة سمحة تملأ الصدور جلالاً . اما في هذا العصر فقد آثروا كتب الجاحظ لانها اكثر استنباطاً وبرز شخصية، واوسع مادة، وابرع فنناً، واقرب الى حياة الشعب .

٤ - اثر الجاحظ في الادب العربي : ان شخصية الجاحظ قد اشتهرت الادباء في عصره وبعد عصره، فكان للرجل اثر كبير في الادب العربي . وكان هذا الاثر حسناً من جهة، سيئاً من جهة اخرى .

كثر طلاب الجاحظ والمتعلمون له . فمنهم من اخصوا بعض آثاره كما فعل عبد اللطيف البغدادي (١١٦١ - ١٢٣١ م / ٥٥٧ - ٦٢٩ هـ) الذي اخص كتاب الحيوان في مؤلف سماه « اختصار كتاب الحيوان »، وكما فعل ابن سناء الملك

الشاعر المصري (١١٥٥ - ١٢٥٩ م / ٥٥٠ - ٦٥٨ هـ) الذي لخص الكتاب نفسه
وسماه « روح الحيوان » .

ومنهم قلّدوا الجاحظ في تأليفه، فحفلت كتبهم بشتى الموضوعات وحفلت
بالاختلاط وسوء الترتيب . ونذكر من هؤلاء ابن قتيبة (٨٢٨ - ٨٨٩ م / ٢١٣ -
٢٧٦ هـ) صاحب « عيون الاخبار »، و ابا العباس المبرد (٨٢٦ - ٨٩٨ م /
٢١٠ - ٢٨٥ هـ) صاحب « الكامل »، وابن عبد ربه (٨٦٠ - ٩٤٠ م / ٢٤٦ -
٣٢٨ هـ) صاحب « العقد الفريد »، و ابا بكر الصولي (٩٤٦ م / ٣٣٥ هـ) صاحب
كتاب « الاوراق في اخبار الخلفاء والشعراء »، والآمدي (٩٨١ م / ٣٧١ هـ)،
وابن الفقيه الجعفي (القرن العاشر) والشعالبي (٩٦١ - ١٠٣٨ م / ٣٥٠ -
٤٢٩ هـ) صاحب « يتيمة الدهر »، والبيهقي (القرن العاشر) صاحب « كتاب المحاسن
والمساوي »، والقزويني (١٢٠٨ - ١٢٨٣ م / ٦٠٥ - ٦٨٢ هـ) والدّميري (١٣٤٩ -
١٤٠٥ م / ٧٥٠ - ٨٠٨ هـ) صاحب « حياة الحيوان الكبرى » .

وقد تكون رسالة الترييع والتدوير من عوامل ظهور فنّ المقامات في
الادب العربي .

ومهما يكن من امر ففضل الجاحظ على الادب العربي فضل جم . فقد
قرّب الفلسفة والعلوم الى كل ذهن، وصاغها صياغة ادبية مزج فيها كلام ارسطو
باشعار الجاهليين، واقوال الفلاسفة باقوال الادباء، وجعل اللغة العربية لغة الحياة التي
تنطق بكل علم وتعبّر عن كل فن .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- حنا الفاخوري : الجاحظ (سلسلة نوابع الفكر العربي) - بيروت ١٩٥٣
- شفيق جبري : الجاحظ معلم العقل والادب - القاهرة ١٩٤٨
- حسن السندوني : ادب الجاحظ - القاهرة ١٩٣١
- فؤاد البستاني : الجاحظ - الروائع ١٨، ١٩، ٢٠ - بيروت ١٩٢٨
- خليل مردم : الجاحظ - دمشق ١٩٣٠
- محمد المبارك : فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ - دمشق ١٩٤٠
- محمد كرد علي : امراء البيان - الجزء الثاني - القاهرة ١٩٣٧ - ص ٣١١ - ٤٨٧
- انيس المقدسي : تطوّر الاساليب النثرية - بيروت - ص ١٧٦ - ٢٠١
- احمد امين : ضحى الاسلام - الجزء الاول - القاهرة ١٩٣٨ - ص ٤٠٨ - ٤٢٤
- » » - الجزء الثالث - القاهرة ١٩٤١ - ص ١٢٧ - ١٤١
- شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي - القاهرة ١٩٤٦ - ص ٥٨ - ٧٨
- طه حسين : من حديث الشعر والنثر - القاهرة ١٩٣٦ - ص ٨٠ - ١٢٣
- محمد فهمي عبد اللطيف : دعاية الجاحظ - الرسالة ٥ (١٩٣٧) ص ٢٢٠، ٢٥٥، ٣٠٧، ٣٤٠، ٣٨٥، ٥٠٨
- زهدي حسن جار الله : المعتزلة - القاهرة ١٩٤٧

٢ المراجع الاجنبية :

- Carra de Vaux : Les Penseurs de l'Islam, t. I.
- Zaki Mubarak : La Prose Arabe au IV^e siècle de l'Hégire, Paris 1931, passim.
- Brockelmann : Gesch. d. Arab. Litterature, I, 152.
- Brockelmann : Al-Djāhīz, in Encycl. de l'Islam, t. I, 1028-1029.

موضوعات للبحث

- ١ - ما أثر بيئة الجاحظ في توجيه حياته العلمية والأدبية؟
- ٢ - شخصية الجاحظ ظاهرة ظهوراً شديداً في آثاره وأساليبه . اوضح ذلك .
- ٣ - للجاحظ اساليب خاصة في التهكم . تكلم على رسالة الترييع والتدوير واطهر تلك الأساليب فيها .
- ٤ - الجاحظ ركن من اركان الادب . كانت له آراء في التأليف ذات قيمة تذكر . اوضح مكان الجاحظ من علم الادب والانشاء وناقش آراءه في ذلك .
- ٥ - قال بعضهم : « لو عرف الجاحظ فنّ التمثيل لكان من اكبر المسرحيين في كتاب البخلاء . هل لديك من الشواهد ما يؤيد هذا القول ؟
- ٦ - قال ابن العميد : « كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والادب ثانياً » . ناقش هذا القول ، ووضح قيمة الجاحظ العلمية في كتاب الحيوان .
- ٧ - قال بديع الزمان : « كلام الجاحظ بعيد الإشارة ، قريب العبارة ، قليل الاستعارة » . ناقش هذا القول .
- ٨ - قابل بين الجاحظ وابن المقفع من ناحية الاسلوب . واذكر اسباب رواج الجاحظ في عصره وإيثار الناس لاسلوبه على اسلوب ابن المقفع .
- ٩ - اعمد الى احد نصوص الجاحظ وحلّله مستخلصاً منه أخصّ ميزات الكاتب الفنيّة .

الباب الخامس

أدب الاستنفاذ والتدرج نحو الجمود

الفصل الاول

ملحة تاريخية

١ الحالة السياسية والاجتماعية : فسدت السياسة في هذا العهد لانحلال الدولة العباسية، وأدى ذلك الى الاضطراب والى سوء الحالة الاقتصادية والحالة الاجتماعية، فعمّ المكر والظلم، وانتشرت الفتنة.

٢ الحالة الدينية : وكان العصر عصر شك واضطراب في العقائد. ورأى الناس في الدين اروج التجارات، يستغله كل ذي طمع؛ كما كثرت ادعاءات المتنبيين واصحاب المقالات الخارجة عن عقائد الاسلام.

٣ الحالة الفكرية : كان القرن العاشر من أزهى العصور العربية فزجج فكر، ورفق عقل. وقد دخل العلماء وطلاب العلم في طور الاستساغة والاشتراك في المجهود العقلي الذي تُرجم. وساعد تنافس الامراء على نشر العلم.

٤ الحالة الادبية : غدت الكتابة في هذا العهد اشبه بزي مستظرف يأخذ به كل متأدب. فكان الى جنب بعض الشعراء الكبار سيل من الشعر الذي تسرب اليه الجمود شيئاً فشيئاً. وقد ظهر الشعر الصوفي، وانتعش الشعر الفخري والحماسي، وانصرف الشعراء الى نظم الدهريات والاكتار منها.

اما الكتاب فراحوا يصرفون همهم شيئاً فشيئاً الى المفردات وطرق التعبير المعقدة، واغرقوا في التصنع. وحذا الشعراء حذوهم فهدوا بذلك الطريق للانحطاط.

١ الحالة السياسية والاجتماعية : انحلت الدولة العباسية شيئاً فشيئاً، واندكت اركان الامبراطورية العربية الكبرى، فسقطت هيبة الخلافة، وعجز السلطان المركزي عن جمع اطراف الدولة، فاستقلت تلك

الاطراف المشتتة وطمح الى الملك كل من آنس من نفسه طمعاً فيه وهمة اليه، فقام بنو بويه في بغداد، والاششيديون في مصر وسورية، والفاطيون في افريقية، والأمويون في اسبانية، والقرامطة في البحرين، والدَّيلم في جرجان، والهريدي في البصرة وواسط، والمُحْدانيون في الموصل وديار بني ربيعة ثم في حلب... فأدَّى فساد السياسة الى الاضطراب وعجّت البلاد بالقلق والدسائس، وفشا الذعر في الناس، وأصبحت الاموال نهباً للطامعين. وآلت الحالة الاقتصادية الى فساد، كما ساءت الحالة الاجتماعية. وعمّ المكر والخداع والظلم، فاندلعت الثورات، وتشجع البيزنطيون على العرب، فهبوا يعيدون الكرة على بلادهم، واقتحموا كيليكية وسورية اكثر من مرة.

وكثرت، الى ذلك، الفتن، في القرن العاشر، وكثر الثائرون من العلويين والمتذرعين بالدعوة العلوية كوسيلة الى المجد والسلطان؛ فازدادت غارات الاعراب والخواارج، وقويت دعوة الشيعة في المشرق، وعظمت آمالهم بنهوض الدولة الشيعية الكبيرة، دولة الفاطميين. وعاث القرامطة، وهم اذ ذاك من اعظم الفرق إيذاً، وقد ظلّوا نحو ثلاثين سنة ينشرون الفرع في جزيرة العرب والحجاز والشام، فلا تكاد تخلو سنة من غارة لهم على بلد من البلدان.

٢ الحالة الدينية : وكان هذا العصر، الى ذلك، عصر شك واضطراب ضعفت فيه العقيدة الدينية، فرأى الناس في الدين أروج التجارات في جميع الاقطار الاسلامية، يستغله الطاغى والثائر، وصاحب التحلة الجديدة، ويتسلح

(١) القرامطة « طائفة مؤولة باطنية حلوية، جعلوا للشرع ظاهراً وباطناً، وبنوا مذهبهم على تأويل الاحكام والآيات. ظهوروا سنة ٨٩٦ م (٢٧٨ هـ)، وانتشروا بالشام وسواد الكوفة، ثم اشتدّ أمرهم حتى زحفوا على حمص، وخضعت لهم دمشق على جزية. ثم زحفوا الى الكوفة وعظّم خطرهم وتفاقم شرّهم، وعجز جند الخلافة عن إخضاعهم، وما زال أمرهم الى قوة حتى استولوا على اكثر بلاد الفرات، وأسسوا دولة بالبحرين، ودحروا جيوش الخليفة المقتدر ».

به كل ذي مطمع، لبلوغ الأرب . فتقلب المعرضون واصحاب المصالح الدنيوية بين المعتزلة يوماً والشيعة يوماً آخر، عارضين في كل سوق ما يروج فيها .

هذا، فضلاً عن كثرة ادعاءات المتنبيين واصحاب المقالات الخارجة عن عقائد الاسلام . فقد قام سنة ٩٣٤ بباسند من أعمال الصغانيان رجلٌ ادعى النبوة، وحارب من عارضه، فتبعه خلقٌ كثير . وفي السنة عينها، قُتل في بغداد ابو جعفر السلمغاني الذي ذهب مذهباً غالباً في التشيع والتناسخ وحلول الالهية فيه .

وحفلت حوادث تلك الايام بذكر الدعاة والخارجين . وكان تضاؤل هيبة الخلافة واخلال العصبية العربية من أهم الأسباب في تكاثر تلك الطوائف والانقسامات .

٣ **الحالة الفكرية:** اما من الوجهة الفكرية، فقد كان القرن العاشر من ازهى العصور العربية نضوج فكر ورقي عقل . وقد أخذت الحضارة العباسية تؤتي ثمرها في كل فرع من فروع العلم والفلسفة والادب والفن . فهبت الثقافة العربية وتم لها ازدهار واسع في العلوم الشرعية واللغوية . - وانتهى العرب من ترجمة الثقافة اليونانية وسواها من الثقافات، فانتظمت جميعاً في شكل موسوعات، كما تجدها عند الفارابي مثلاً، وهكذا دخل ارباب العلم وطلابه في طور جديد، هو طور الاستساعة والاشترك في المجهود العقلي الذي ترجمه فكان منهم من اشتغل بالفلسفة، وراح الكثيرون يعملون الفكرة في مخلقات سابقهم وترجماتهم، وينقدونها ويرتبونها ويقتبسونها ويضيفون اليها .

وكان من كثرة الدول وتنافسها في المجد العلمي ان حرص كل امير على استئالة العلماء والادباء والشعراء، وأجزل لهم الهبات، على ان يتغنوا بمناقبه، ويدونوا اخباره، ويعيشوا تحت ظلّه، فينتشر بهم صيته . فتعددت، في القرنين العاشر والحادي عشر، عواصم العلم والادب في البلاد، واشتهرت بخارى وجرجان وغزنة، وحلب والقاهرة، وقرطبة وإشبيلية وبلنسية، وبغداد والكوفة والبصرة . وكانت

حلب على الخصوص من أشهر مدن العلم، ولاسيا في ظل الحمدانيين، وهم من السلالة العربية الشيعية، وفي عهد الأمير الأكبر سيف الدولة (٩٤٤ - ٩٦٧)، وقد اجتمع حول هذا الأمير أكبر العلماء والادباء، لذلك الزمان، كالشاعر المتنبّي، والكتاب ابن نباتة، والفيلسوف الفارابي، وسواهم.

وهكذا راجت سوق العلم، فوضعت في ابوابه دراسات مستفيضة؛ وانتشر الروح الفلسفي، فعرفت الفلسفة مذاهب جديدة، واقدمت على محاولات جديدة، منها مسألة التوفيق بين الفلسفة والقرآن، التي عاجلها الفارابي المعلم الثاني للفلسفة بعد أرسطو؛ وظهرت نزعة «انسيكلوبيديّة» تواصل عمل الجاحظ، بسطها اخوان الصفاء في رسائلهم؛ وبان في الشعر ميل إلى الفلسفة فشاعت فيه آراء فلسفية وصوفية. وقد غلبت على اللغة حينئذ المرونة والأتزان.

٤ الحالة الادبية: تعدّد الادباء في تلك الحقبة، في المشرق والمغرب على السواء، وغدت الكتابة، ولاسيا الشعر، أشبه بزي مستظرف ياخذ به كل متادب، اجتمعت له المؤهلات أم لم تجتمع. وقد برز من الشعراء في الشرق ابو الطيّب المتنبّي، وابو فراس الحمداني، وابو العلاء المعرّي، والشريف الرضي، وتلميذه مهيار الديلمي، وابن الفارض؛ واشتهر من الكتاب والمؤلفين ابن العميد، والصائي، والهمذاني، واخوارزمي، وابو الفرج الاصبهاني...

وتبع هذا الازدهار نزعة شديدة الى التقليد، امتازت بالجمود، فقيدت القرائح شيئاً فشيئاً. واخذ الشعر يتقلّب على الخواطر المعهودة كأنما أغلقت دونه جميع الابواب الى مواطن فنية جديدة، فشاع تحوير المعاني القديمة، وذاعت السرقات الشعرية التي تفضح فقر الشخصية الحقة، كما فشا الاقتباس والتضمين في الكتابة، فشوا ما عثم ان غدا زرياً. ولم يفلت من هذه الآفات إلا القليلون، فأقدم بعضهم على تجديد ابواب شعرية كثر الاقبال عليها دون سواها بسبب البيئة واحوالها. واهم هذه الابواب: الشعر الصوفي، وقد ازدهر بازدهار النزعة الفلسفية والتصوف وانتشارهما؛

والشعر الفخوري والحماسي، وقد اعارته الحروب والغارات الكثيرة اندفاعاً نابضاً وأنعاماً شديدة . وكان من اضطراب الاحوال ان لجأ كثير من الناس الى التشكي، فنظموا ابياتاً مستقلة او مُعجمة في اثناء القصيدة، طووها على ذم الدهر، فدعيت بالدهريات .

اما الكتّاب فراحوا يصرفون عنايتهم الى المفردات وطرق التعبير المعقدة، وأغرقوا في التصنع حتى صار احدهم يكتب، مثلاً، رسالة تُقرأ طرداً فإذا هي رسالة، وتُقرأ عكساً فإذا هي جواب على تلك الرسالة ؛ او يكتب رسالة خالية من حروف منفصلة، كالراء في بدء الكلمة، وما اشبه ذلك من العبث البهلواني . وقد شجعهم على المضي في هذا السبيل جنوح النقاد الى عدّ ذلك من وجوه البلاغة .

ثم انطلق الشعراء وراء الكتّاب ينافسونهم، فنظموا قصائد تتألف جميع الفاظها من حروف مُعجمة او مهملّة، وقصائد يلزمون فيها ما لا يلزم، فيتقيدون، في القافية مثلاً، بحرفين او ثلاثة، ويعقدون في الأداء ويتصنعون ما شاؤوا على غير تحرّج . زد على ذلك سخافة مواضيعهم، على الاجمال، وتفاهتها وبعدها عن مواطن الشعر كل البعد، وقد عكفوا على نظم الرسائل والنكات الهزلية والمجون وما شابه ذلك .

وامتزج اذ ذاك الشعر والنثر، فخلّ الكتّاب الشعر، ونظم الشعراء النثر؛ واقبلوا على اساليب الرسائل، يصطنعون براعة الاستهلال والتطويل والختام بالدعاء، ولا يستنكرون التكرار والحشو واقحام الكثير من الجمل المعارضة ؛ واقبل الكتّاب من جهتهم على المنظوم، يزخرفون به كتاباتهم . فنتج عن ذلك بضاعة كثيرة الاسفاف، ضئيلة الفن ؛ ولا عجب، فالشاعر غير الكاتب، وربما تعذّرت عليه الكتابة، كما قد يتعذّر النظم على الكاتب .

وكان من اسباب هذا الجمود والتقليد الهزيل، انصراف العرب في شعرهم عن الوجهة الفلسفية والعلمية التحليلية، وتقدير النقاد للأسلوب تقديراً مُفرطاً، حتى بات الاسلوب عندهم قوام الادب الاكبر .

وسط هذا المجود الادبي، وفي هذا الجو المضطرب سياسياً واجتماعياً، والذي دوت فيه اصوات الثائرين والخارجين واصحاب النحل، وانحلت تحت تأثيره العصبية العربية فقلوب العرب على امرهم وانحاز منهم نفرٌ الى الشام والجزيرة، وخضع للذل من اقام منهم في العراق، واصبحت البلدان الاسلامية في ايدي امراء من الفرس وسواهم؛ في هذه البيئة التي كان السلطان فيها للظاهرين من القواد والكبراء، وكانت « الدنيا لمن غلب »، والدين وسيلة الى الغايات؛ في هذه البيئة التي دعت كل ذي طموح واقدام الى التشبه بالقواد والكبراء ودعاة البدع الجديدة، ظهر رجل فيه عبقرية، وفيه طموح واقدام، فثقل وحده أمة وعصرًا بكاملهما، في بُرد شاعر . وهذا الرجل هو ابو الطيب المتنبي .

أدب الاستقرار والتدرج نحو الجمود

الشعر

الفصل الثاني

أبو الطيّب المتنبي (٩١٥ - ٩٦٥ م / ٣٠٣ - ٣٥٤ هـ)

١ حياته : وُلد المتنبي في الكوفة، واشتهر منذ حداثة بجدّة الذكاء؛ وقد اختلط بأعراب السأوة واخذ عنهم ملكة اللغة؛ ثم طلب المجد والسيادة بشعره، ولما اخفق طلبها بسيفه فقاد ثورة كانت تبيحها السجن والإخفاق ايضاً.

واتصل المتنبي ببدر بن عمّار في طبرية ثم ما عتّم ان تركه بسبب الحساد، واتصل بسيف الدولة امير حلب ولزمه تسع سنوات كانت اطيب حقبة في حياة المتنبي، ثم تركه وقصد كافوراً بمصر طامعاً في ولاية وعده بها الامير الاخشيدي ثم اخلف وعده فانحرف عنه المتنبي وهجاه، ثم راح يضرب في البلاد متقلّباً بين العراق وفارس، متّصلاً بابن العميد وعضد الدولة. ثم قُتل في طريقه الى بغداد.

٢ آثاره : لابي الطيّب ديوان كان هو اول من جمعه، وقد شرحه الكثيرون منهم العكبري واليازجي، وتعددت طبعاته. والديوان يحتوي مدحاً، ورثاء، وهجاء، وفخراً، وغزلاً، ووصفاً، وحكماً؛ وهو يُقسم قسمين كبيرين: شعر الصبّا الى سنة ٩٤٨، وشعر الكهولة.

٣ شخصيته في شعره : كان شعر المتنبي شديد اللصوق بشخصيته، فكان صورة لنفسه في جميع احوالها: في مجازفتها وفي تقديسها للقوة، في صبرها وأنفتها، في ثورتها وتشاؤمها، وفي إعراضها عن القيم الروحية. وقد انقسم شعره بالنظر الى بروز شخصيته الى اربعة اقسام: قسم هو شعر الفتوة تتضمن الفخر والتهديد، لا يخلو من صبغة انسانية استنقاها الشاعر من انعكاسه على نفسه وتحليل آلامها وآمالها؛ وقسم قيل عند سيف الدولة، وهو شعر القومية والجهاد، فيه فرجة غالبية وحسرة كامنة؛ وقسم قيل في مصر هو عصارة نفس فاشلة يحفل بالملاني الانسانية والشعور الانساني، وفيه سخر اليم؛ وقسم قيل في فارس والعراق، فيه لين والتفات الى الطبيعة.

٤ فنونه الشعرية :

١ - المدح : يشغل المدح القسم الأكبر من ديوان المتنبي، وقد ما شخصاً أشهرهم سيف الدولة. وكانت معاني مدحه ما عهدناه عند ساء بصغة خاصة تلائم نفسية المتنبي القويّة. وكان أسلوبه أيضاً الا نفس الشاعر. اما قيمة مدح ابي الطيب فحقيقة لما يتجلى في رائع، وعلو نفس، وشدة جرس موسيقي. وفي فضلاً عن ذلك فان لمدح المتنبي قيمة تاريخية فؤارة.

٢ - العتاب : عتاب المتم.

٣ - الرثاء : كان

رثاء من يحبهم كان

٤ -

ال

مات فلسفته : سرف المتني همه الى الانسان في حياته واخلاقه وعواطفه
 ش فيها : فالحياة في نظره مسرح من مسارح تنازع البقاء وساحة حرب
 محبة الى كل انسان . - والموت امر محتوم ينبغي استقباله من غير
 خوف المتني اليه . - واما الزمان فهو في نظر المتني عدو الاحرار
 يخلو على الناس ولا يجمع بين الفهم والحظ . - واما الناس
 يستأهلون الا احتقاراً ؛ واخلاقهم ثابتة فيهم . - واما
 ن ازدراء للناس والزمان، وطموحاً الى مجد رفيع

اعتماد شديد على الفكر الجازم،
 -ة ؛ وجمعت تعاليم اخلاقية
 احياناً، ومن تشاؤم



المتنبي كما تخيَّله الفنان ارتورو أوريس

١ - مبادء :

١ - أصله ونشأته (٩١٥-٩٢٨ م / ٣٠٣-٣١٦ هـ) : أبو الطيب أحمد بن الحسين المعروف بالمتنبي من أصل عربي "جُفني" ينتهي إلى كهلان من القحطانية. ولد

في الكوفة سنة ٩١٥ من اسرة وضيفة في محلة تدعى « كندة » فنسب اليها، وكان أبوه سقاء في الكوفة يستقي على جملة لاهل محلة كندة ويعرفه القوم بعبدان السقاء، والمرجح ان أمه ماتت وهو طفل، فقامت له جدته مقام الام .

ونشأ الفتى في الكوفة، أحد مواطن الحضارة العباسية وأهم موطن الشيعة من قديم، وما عثم ان اشتهر بقوة الذاكرة وشدة النباهة والذكاء، والجد في النظر الى الحياة، والمقدرة على نظم الشعر .

وفي سنة ٩٢٥ م (٥٣١٢ هـ) استولى القرامطة على الكوفة، ففر الشاعر مع ذويه الى السماوة الشرقية - والسماوة بادية بجبال الكوفة مما يلي الشام - ومكث فيها سنتين اختلط خلالها بالبدو حتى تمكن من ملكة اللغة العربية الاصيلية؛ ثم عاد الى الكوفة سنة ٩٢٧ م (٥٣١٥ هـ) واتصل بأحد اعيانها أبي الفضل الكوفي . وكان ابو الفضل قد اعتنق مذهب القرامطة فتشرب الشاعر المذهب القرمطي .

٢ - طالب المجد والسيادة (٩٢٨ - ٩٣٧ م / ٣١٦ - ٣٢٦ هـ) :

١ بالشعر : ثم قدم بغداد مع أبيه في اواخر سنة ٩٢٨، حيث مدح محمد بن عبيد الله العلوي، إلا انه هجر عاصمة الخلافة بعد حين قاصداً الشام، متنقلاً بين باديتها وحاضرتها، وحافظاً الكثير من فصيح اللغة وغريبها ومن اشعار الجاهلية؛ وقد انتحل منذ ذلك الحين فلسفة رواقية متشائمة؛ والظاهر ان الشاعر الشاب لم ينل بشعره في جولاته الخطوة التي كان يسمو اليها وتحدثه بها نفسه، ولذلك بان في شعره الذي قاله إذ ذاك سخط على الحظ والناس والحياة، وتبرؤ تسري فيه رجفة الثورة، وينفخ فيه روح الكبرياء :

أَبْنُ فَضْلٍ إِذَا قَنَعْتُ مِنْ الدَّهْرِ بَعِثْ مُعْجَلِ التَّنْكِيدِ ...
أَبْدًا أَقْطَعُ الْبِلَادَ وَنَجْصِي فِي نُحُوسٍ وَهَمِّي فِي سُعُودِ

(١) التأكيد : التأكيد (٢) لا تزال همّي عالية مع قلّة حظي .

أفكرُ في مُعاقرة المنايا وقود الخيل مشرفة الهوادي^١
 زعيمُ للقنا الخطي عزمي بسفك دم الحواضر والبوادي^٢
 إلى كم ذا التخلُّف والتواني وكُم هذا السَّادي في التادي^٣
 وشغلُ النفس عن طلب المعالي يبيع الشعر في سوق الكساد^٤
 فأموتُ أعذرُ لي والصبرُ أجملُ لي والبرُّ أوسعُ والدنيا لسن غلبا^٥

٢ بالثورة: بلغ المتنبي اللاذقية في اواخر سنة ٩٣٣ م / ٣٢١ هـ وفي نفسه غيظ واحتدام طاغيان، فاتصل هناك ببعض أشخاص ينزعون الى المذهب القرمطي وبث آراءه الثورية، ثم انتقل الى السماوة فدعا البدو - وهم قوم ألفوا الغزو والخروج على السلطان - الى اتباعه في ثورته .

وهنا يجدر بالذكر ان المؤرخين اختلفوا في امر ثورة المتنبي، فمنهم من يثبت ان الشاعر ثار مرة واحدة في بادية السماوة، ومنهم من يذهب الى انه ثار مرتين، مرة في الكوفة، واتسمت ثورته فيها بصبغة علوية فقبض عليه والى البلدة وسجنه حتى لا ينتشر أمره، ثم اطلقه؛ ومرة اخرى في السماوة اذ خرج الى بني كلب وادعى انه علوي فتبعه قوم من الاعراب .

واختلف المؤرخون ايضاً في ادعاء المتنبي النبوة؛ ومما لا ريبه فيه ان الشاعر قاد ثورة اصطفت صبغة دينية سياسية، وخبل بني كلب بذلاقة لسانه وبراعة بيانه، ولا يبعد انه ادعى النبوة بينهم، وتلا عليهم كلاماً زعم انه أنزل عليه فشوا وراءه؛ ولما شاع امر هذا الثار قصده أوّل أمير حمص من قبل الاخشيذ فقاتله وبدد اتباعه

(١) معاقرة: ملازمة. مشرفة: طويلة وعالية. الهوادي: الاعناق (٢) زعيم: كفيل.
 الخطي: المنسوب الى خط هجر، وهو موضع تباع فيه الرماح (٣) التخلُّف: التأخر. التواني: التقاعد والتقصير. التادي: بلوغ المنتهى. والشاعر يلوم نفسه على بلوغها اقصى حدود الافراط في التقصير (٤) شغله عن الشيء: لاه عنه. الكساد: عدم الرواج (٥) أعذر لي: يكون لي فيه عذر أبلغ.

وأُسره وسجنه سنتين في حمص، حتى تعهد ألا يعود الى دعوته فأطلق سراحه؛
ولقب منذ ذاك الحين بالمتني، وقصائده في تلك الحقبة ناطقة بشورته :

سَيَصْحَبُ النَّصْلُ مِنِّي مِثْلَ مَضْرِبِهِ وَيَنْجَلِي خَبْرِي عَنْ صِمَّةِ الصِّمِّمِ^١
لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حَقَّ لَاتٍ مُصْطَبِّرٍ فَلَا أُنْ أَقْجَمُ حَقَّ لَاتٍ مُقْتَحِمٍ^٢
لَأَتْرُكَنَّ وُجُوهَ الْخَيْلِ سَاهِمَةً وَالْحَرْبُ أَقْوَمُ مِنْ سَاقٍ عَلَى قَدَمٍ^٣

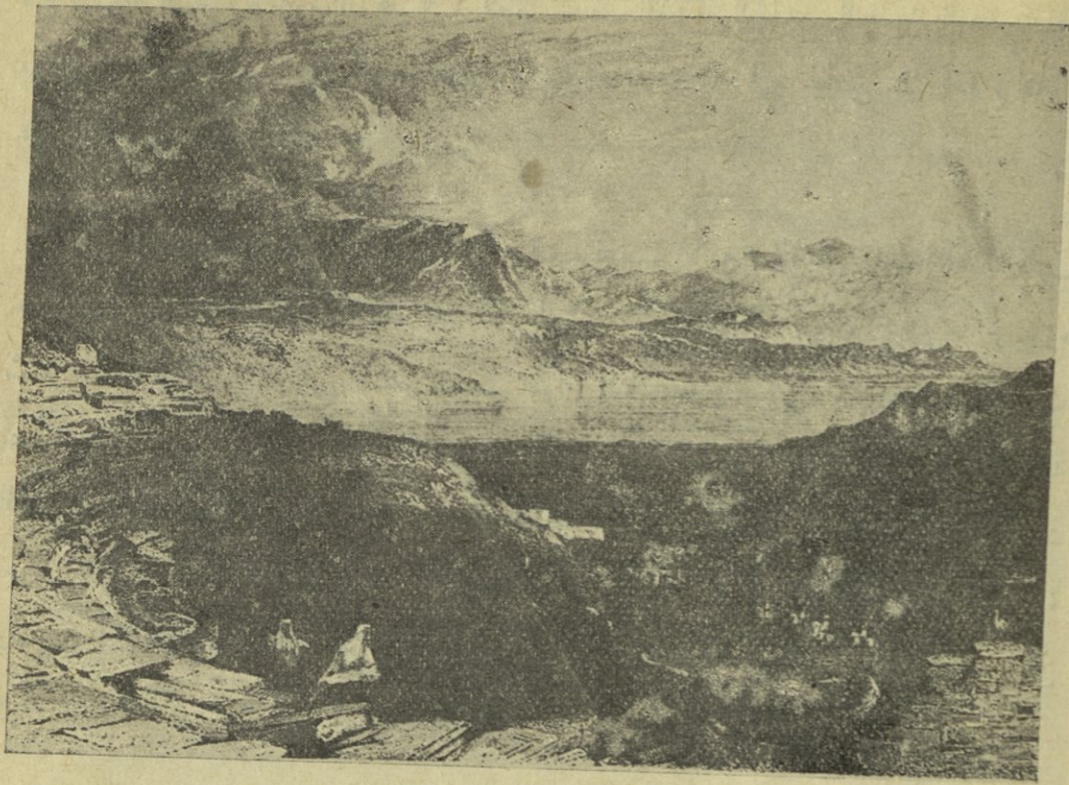
وبين سنة ٩٣٧ وسنة ٩٣٩ طاف الشاعر في الشام يدح رجلاً مختلفي الرتبة
غير يائس ولا قانط من نفسه .

٣ - في ظل الامراء وارباب السلطان :

عند بدر بن عمار (٩٣٩-٩٤١ م / ٣٢٨-٣٣٠ هـ) : كان بدر عربياً يتولى الجيش
في طبرية فلزمه المتني نحو سنتين وقد لقي فيه ضالته المنشودة من كرم ورجولة
ومجد قومي . ولكن الحساد لم يدعوه يتمتع طويلاً بهذه الخطوة اذ أثاروا خلافاً
بينه وبين بدر أدّى الى ابتعاد المتني، فعاد الشاعر الى تنقله وذلك من سنة ٩٤١
الى سنة ٩٤٧ - وفي تلك الاثناء ورد عليه خبر بوفاة جدته فنظم فيها رثاءه
المشهور الذي طواه على كل ما في نفسه من مرارة؛ وكانت نتيجة ذلك ان
عاودت المتني فكرة الثورة :

مَدَحْتُ قَوْمًا، وَإِنْ عِشْنَا نَظَمْتُ لَهُمْ قَصَائِدًا مِنْ إِيَّاتِ الْخَيْلِ وَالْحَصَنِ^٤
تَحْتَ الْعِجَاجِ قَوَافِيهَا مُضْمَرَةٌ إِذَا تُنْوِشِدُنْ لَمْ يَدْخُلْنَ فِي أُذُنٍ^٥

(١) مضربه : حدّه . ينجلي : ينكشف . صِمَّةُ الصِّمِّمِ : اشجع الشجعان . والصِمَّةُ : الشجاع .
يقول : سيصحب السيف مني رجلاً مثل حدّه في المضاء، ويتبين للناس اني اشجع الشجعان (٢) لات
بمعنى ليس (٣) ساهمة : عابسة . وقد تغيّر لونها من الهزال . يقول : لأتركَنَّ الخيل ساهمة الوجوه
من شدّة ما ينالها من الاهوال حين اترك الحرب قائمة كقيام الساق على القدم (٤) الحصن ج حصان .
يقول : مدحتهم ولكنني سوف آتيهم بخيل بدل القصائد (٥) العجاج : الغبار . مضمرّة : خيل
معدّة للسباق . يقول : قوافي هذه القصائد خيل مضمرّة اذا انشئت لم تدخل في الأذن بخلاف
قوافي الشعر .



بحيرة طبرية عن لوحة قديمة

٢ عند سيف الدولة (٩٤٨-٩٥٧ م / ٣٣٧-٣٤٦ هـ) : قدم سيف الدولة انطاكية سنة ٩٤٨ ومها أبو العشائر الحمداني ولديه المتنبي يمدحه، فقدمه الى سيف الدولة وأثنى عليه . وكان سيف الدولة عربياً يملك على حلب منذ سنة ٩٤٤، وكان محباً للأدب وأصحابه، يجمع في بلاطه عدداً كبيراً من الادباء والشعراء^١ حتى قال ابن خلكان : « يقال انه لم يجتمع بباب احد من الملوك، بعد الخلفاء، ما اجتمع ببابه

(١) كان في بلاط سيف الدولة من الشعراء امثال ابي فراس، وابي العباس النامي، وعلي بن عبدالله الناشي، والسري الرفاء، وابي الفرج البغاء، وأبي الفرج الوأواء، وابي الفتح كشاجم، وأبي نصر بن نباتة، وابي العباس الصفري، وابن كوجك، وابن دينار، والخالدين، وابي حصين الرقي، وابي القاسم الشيطمي، وابي ذر استاذ سيف الدولة ؛ ومن الادباء امثال عبدالله بن خالويه، وابي علي الفارسي، وأبي الطيب اللغوي، والقاضي التنوخي، وابن نصر البازيار، والشمشاطي، والفياض ؛ وقد لجأ كذلك الى سيف الدولة ابو نصر الفارابي .

من شيوخ الشعر، ونجوم الدهر» . فضم سيف الدولة الشاعر الجديد اليه، ورجع به الى حلب، فنال المتنبّي لديه حظوة كبيرة، وصحبه في بعض غزواته وحملاته على الروم والبدو .

وقد لاقت نفسية الشاعر احسن ملائمة مع نفسية الامير، فكانت تلك الحقبة اطيب حقبة في حياة المتنبّي وأخصبها، فقد حاز لدى سيف الدولة من الاكرام ما لم يجزه شاعر آخر، وطار له في الشعر صيت طوى البلاد؛ ولكن كثير من جراء ذلك حسّاده؛ وراحوا يرمونه بالوشايات وهو يقاومهم بعنف وكبرياء، حتى نغصوا عليه العيش؛ وقد لاحظ في آخر عهده عند سيف الدولة جفوة من الامير وانحرافاً، إذ جرت في حضرته مناظرة بين الشاعر وابن خالويه أدّت الى المهاترة والغضب، وضرب ابن خالويه الشاعر بفتح شجّ به رأسه؛ فعادر المتنبّي حلب وفي نفسه حنق جبّار وحزن أليم عميق على فردوسه المفقود .

٣ عند كافور (٩٥٧-٩٦٢ م / ٣٤٦-٣٥٠ هـ) : توجه الشاعر الى دمشق ولكنه لم يلبث فيها طويلاً، وأتى الرملة بفلسطين، فسمع كافور الاخشيدي بأخباره ورغب في ان يكون الشاعر الكبير في بلاطه بمصر؛ فكتب الى امير الرملة يطلبه . وكان كافور عبداً زنجياً توفي سيده ابو بكر محمد بن طنج صاحب مصر عن ولد صغير، فانفرد ذلك العبد بخدمته وما عثم ان انتزع الملك من ابن سيده، واستبد به دونه .

وقصد المتنبّي الفسطاط عاصمة مصر الاخشيدية اذ ذاك ومدح كافوراً فوعده بولاية طمعاً في ابقائه بالقرب منه؛ ورأى المتنبّي في ذلك الوعد تحقيقاً لاحلامه في السيادة التي لم تبارحه سحابة حياته، ووسيلة لقهر حسّاده؛ وانقضت سنتان والوعد لا يزال وعداً، فشرع ابو الطيب بمكر العبد الاسود وتبيين حيلته، فانحاز الى قائد اخشيدي اسمه ابو شجاع فاتك لقي منه حسن التفات وإخلاص مودّة، الا ان الحظ لم يمتعه به طويلاً، فمات ابو شجاع فجأة وترك للشاعر لوعة واحتداماً، وقد عزم أن يهرب، ولكن كافوراً مانعه في ذلك وضيق عليه، خشية من لسانه وهجائه؛ وفي كانون الثاني

من سنة ٩٦٢ (ذي الحجة ٣٥٠) سبحت الفرصة فهرب المتنبي، وهجا كافوراً هجاءً ضمنه كل ما في نفسه من حرارة واحتقار لذلك العبد الماكر . وراح يضرب في البلاد، قاصداً العراق؛ وقد وصف رحلته هذه في قصيدة شهيرة عدّد فيها الأماكن التي مرّ بها وختمها بهجاء كافور، ومطلعها :

أَلَا كُلُّ مَاشِيَةٍ الْخَيْزَلَى فِدَى كُلِّ مَاشِيَةٍ الْهَيْذَلَى

٢ بين العراق وبلاد فارس (٩٦٢-٩٦٥ م / ٣٥١-٣٥٤ هـ) : قدم الشاعر بغداد ومكث فيها نحو سنة التفّ حوله، في خلالها، جماعة من علماء اللغة والنحو كعملي البصري، والربعي، وابن جني، فشرح لهم ديوانه واستنسخهم أيّاه؛ ثم برح بغداد وقصد ابن العميد في أَرْجَان، وكان ابن العميد وزير ركن الدولة البويهّي، فأنتهى إليه في شباط من سنة ٩٦٥ م (٣٥٤ هـ) ومدحه، وأبث عنده نحو ثلاثة أشهر، ثم انطلق الى شيراز تزوّلاً عند طلب عضد الدولة السلطان البويهّي، ولقي ثمة حظوة كبيرة، ومدح السلطان بقصائد عدّة، وفي شهر آب من سنة ٩٦٥ م (٣٥٤ هـ) غادره متشوّفاً الى بلاده، وودعه بقصيدة كانت آخر ما نظم، مطلعها :

فَدَى لَكَ مَنْ يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاكَ فَلَا مَلِكٌ إِذْنُ إِلَّا فِدَاكَ

٤ - مقتله : ترك المتنبي شيراز وعاد الى أَرْجَان، ووقف قليلاً في واسط بالعراق، ثم نوى الوصول الى بغداد؛ فحذّر كثيراً من اللصوص الذين يكمنون في الطريق من واسط الى بغداد الا انه لم يصغ الى احد، وسار مع ابنه وبعض غلمانه، فعرض له فاتك بن جهل الاسدي في رهط، وكان الشاعر قد هجا أخته، فقتل المتنبي وتناثر ديوانه الذي خطّه بيده، وذلك في شهر ايلول من سنة ٩٦٥ م (رمضان ٣٥٤ هـ) بعد حياة حافلة بالطموح والفشل .

(١) الخيزلى : مشية فيها تناقل وتفكّك . الهيدى : مشية للخيل فيها جدّ . ومراده أنه يفضل الخيل والسفر على الحسان ومجالستن (٢) اي : يفديك المقصرون عنك وجميع الملوك منهم .

٢ آثاره :

١ - في النثر : لابي الطيب نثر لم يبلغنا منه إلا النزر اليسير، وهو يمتاز بمقارنة سبكته، وحسن تنميقه؛ إلا ان قيمة المتنبي تقوم على شعره .

٢ - في الشعر : الديوان :

١ - جمعه : للمتنبي ديوان كان هو اول من جمعه ورتبه وقرأه الناس عليه، وأملى شرحاً لبعض أبياته، وناقشه فيه من أخذوا عنه، وقد روى الديوان عن أبي الطيب ثقات، منهم أبو الفتح بن جني (١٠٠١) الذي شرحه وناظره في كثير من أبياته، وعلي بن حمزة البصري (٩٨٥) الذي تول المتنبي داره حينما قدم بغداد بعد مغادرته مصر، وبقي ضيفه الى ان رحل؛ ومحمد بن احمد المغربي احد أئمة الادب والشعر الذي ألف كتابين في فضائل المتنبي ورذائله، والقاضي الحاملي محمد بن احمد ابن قاسم الذي سجع الديوان من ابي الطيب ببغداد .

٢ - شروحاته : وقد تعددت شروحات ديوان المتنبي والتعليقات عليه، حتى بلغت نحو الحسين مصنفاً؛ ومن اشهر شروحاته شرح ابي العلاء المعري (١٠٥٨) وشرح الواحدي (١٠٧٥) وشرح العكبري (١٢١٩) وشرح اليازجيين الشيخ ناصيف والشيخ ابراهيم، الذي سماه «العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب» وقد نهجا في ترتيب قصائده طريقة الواحدي .

٣ - طبعاته : وكذلك تعددت طباعات الديوان ومن احسنها وأوفاهها طبعة الشيخ ابراهيم اليازجي في بيروت سنة ١٨٨٧ .

٤ - محتواه : يجمع الديوان كل ما بقي من شعر المتنبي الا شذرات لا يُعابها؛ وقد اخبر ابن جني ان الشاعر اسقط الكثير من شعره؛ فتدارك بعضه الشراح وأضافوه الى الديوان، وهو ضعيف في اكثره .

ويدور شعر المتنبي على المدح، والثناء، والمجاء، والفخر، ويتخلل ذلك غزل، ووصف، وحكم .

هـ أقسامه : يقسم الديوان قسمين كبيرين : القسم الاول يتضمن ما قاله الشاعر في صباه، الى ان مدح الامير الحسن بن عبدالله بن طنج بالرملة سنة ٩٤٧، وله اذ ذاك من العمر ٢٢ عاماً . وقد نظم المتنبي وهو حامل، حين كان، على حد قول الثعالبي «مدح الغريب والقريب، ويصطاد ما بين الكركي والعنديل» . والممدوحون في هذا القسم حاملون الاثلاثة او اربعة ذكروا قليلاً في كتب التاريخ .

والقسم الثاني يتضمن ما قاله الشاعر بعد ان نُبّه أمره، من سنة ٩٤٨ حتى مقتله، وقد مدح به جماعة من الكبراء والامراء والملوك . ومعالم هذا القسم واضحة، وتاريخه معروف حتى ان القارئ المحقق لا يجد فيه قصيدة خالية من التاريخ؛ وهناك مقدمات طويلة، تذكر الاحوال التي نُظمت فيها اكثر القصائد؛ وقد يكون ذلك كله من املاء المتنبي على رواة ديوانه .

٣ شخصيته في شعره :

١ - لصوق شخصيته بشعره : لم يكن شعر المتنبي سوى عبارة عن خلجات نفسه، وصورة لاحواله المختلفة، فكان ديوانه اشد الدواوين إبرازاً لشخصية صاحبه وقد بلغ به الروع بالتحدث عن نفسه حداً جعله لا ينساها في غزل او فخر او وصف او شكوى او تهكم، او مدح ولو كانت العادة فيه ان يتضائل المادح ليرفع من قدر ممدوحه .

ولا عجب في ذلك، لان المتنبي قال اكثر شعره، وهو يتقلب بين الامل والالم، وقد غلب عليه الانفعال؛ بل كان لا يتأتى له الإبداع، الا حين يثب به أمل واسع، او يضطرم في صدره غيظ صاحب .

٢ - شخصيته والعوامل التي كوّنتها : لقد شغف المتنبي بالمجد وطمح الى السيادة والانفراد، فكان به شبه جنون بالعظمة، تغريه بها قوة بنيته، واندفاع عاطفته، وفروط اعجابه بنفسه . فهو في نظر ذاته فوق كل بشر :

إِنْ أَكُنْ مُعْجِبًا، فَمُعْجِبٌ عَجِيبٌ . لَا يَرَى قَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدٍ

بل هو عديل الانبياء في الناس، يرى ان « كل ما قد خلق الله وما لم يخلق » هين الى جانبه، محتقر في همته . وهو رب الشعر ينام ملء جفونه عن قوافيه ، ولا يتزلف به الى الملوك الا في سبيل غاية بعيدة ؛ وإن انشده فيهم لم يقف على عادة الشعراء بل ظل جالساً، اذ يعد نفسه من طبقة الملوك ؛ وإن جوزي على شعره عدة الجزاء واجباً وعدة دون « الدر الذي ينظمه » .

وقد بقي، سحابة حياته، يسعى وراء الآمال العظام، فكان حروباً مجازفاً، بأسلاً، جبار الهمة، يرى الحياة صراعاً عنيفاً، ويقدر القوة كيفها اعتلت . وكان صبوراً، ثابت العزم، لا تفشله معاكسات الدهر، انوفاً، مترفعاً عن كل ما ترتاح اليه صغار النفوس من الملاهي ومجالسة النساء ومعاورة الحمر :

فَلَا تَحْسَبَنَّ الْمُجَنَّدَ زَرْقًا وَقَيْنَةً فَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السَّيْفُ وَالْفَتَكَةُ الْبَكْرُ

فلذة المتنبى في قرع الاسنة وهواه ركوب اوعر المسالك في سبيل العزة، وإقباله على غير اللذة الهيئة وقد صلب قلبه حب القوة والبطش، فما تذلل لجيب، ولا تعدى تقاليد البساطة وحدود الادب . ولئن طمع في المال وحرص عليه فلعلمه بأن « لا مجد في الدنيا لمن قل ماله » .

ولكن طموحه المفرط أدى به الى الشذوذ والمغاليات السخيفة، فلم يرض من الآمال بالمعقول المحدود، بل ظل ينزع الى ما فوق طاقته، الى شيء عظيم لا مثيل له، ولكنه لا يعرفه جلياً، الى شيء جبار يدهش الدنيا ويترك فيها دويًا هائلًا :

وَتَرَكُوكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّا تَدَاوَلَ سَمْعَ الْمَرْءِ أَثْلُهُ الْعَشِيرُ

- (١) الزرق : وعاء للخمر . القينة : الجارية المغتنية . الفتكة البكر : التي لم يسبق اليها احد
(٢) أثله : رؤوس أصابعه . اي وأن تكثر في الدنيا الوقائع والغارات حتى يُسمع فيها دوي من صلصلة السلاح وجلبة المقاتلين كما يسمع المرء اذا سدّ أذنيه بأنامله .

وهو في كل ذلك غافل عما بين مقدرته وامانيته من بُعد، لا ينفك يتقلب بين آمال شاسعة لا تُنال، وخيبات قاسية لا مفر منها ✓

ثم كان يومٌ أفاق فيه المتنبي، فرأى أن الأحوال غير جديرة به، وأنَّ النظم الاجتماعية غير مؤاتية له، فثار على الدهر والنظم جميعاً، ولبث ثائراً متمرداً متشائماً، في نفسه بغض للناس وازدراء شديد، وأنانية مطبقة أودت بما كان في قلبه، أيام الشباب، من تفاؤل، وكرم، وبعض الحب للخير العام . ثم ازداد به التشاؤم، حتى امست فكرته جدية، حزينه، وبات منقبضاً متجهماً، كثير الوسواس، شديد الشعور بالاضطهاد، لا يتمثل سوى الحساد الكائدين، والدهر العاشم المتألب عليه .

وقد انتهى به كل ذلك الى جفاء في العاطفة، فقلَّ من محضهم المودة، والى ضيق في الصدر وحدة في المزاج، فكان عنيفاً، يجهل المسامحة، ولا يحسن مداراة الناس، بل يسرع الى الهياج وقذف الشتائم . ولولا حرصه الدائم على آماله، لتأدى في ذلك تمادياً منكرًا .

وإنه ليؤسفنا أن يشين هذه الشخصية العظيمة المدهشة، إفراطها في احتقار الناس والتشاؤم والكبرياء، واعراضها عن القيم الروحية، فقد ظلت، على اتساع مطامعها، قصيرة النظر، لم ترتفع قط عن الأرض ولا طمحت الى غير أهداف مادية . ولعلَّ للبادية يداً في ذلك، كما كان لها يد في ما علق في نفس المتنبي من القوة والأنفة والصراحة، واثير الطبيعة الفطرية التي لم تمرَّ عليها يد التقنيع والتمويه والتصنع، وحب السيادة والنفور من العبودية .

٣ - مظاهر شخصيته في شعره : يسعنا ان نقبين في ديوان المتنبي، باعتبار بروز الشخصية، اربعة اقسام رئيسية تناسب اطوار حياة الشاعر :

١ - اما القسم الاول فيشمل ما قاله المتنبي قبل اتصاله بسيف الدولة .

هو شعر الفتوة ، فتوة شاب نشأ على حب المجد والعظمة ، وطلبهما بالقوة ؛ ثم رأى ان الشعر وسيلة من الوسائل التي يمكن استخدامها لبلوغ مظهره ، فلجأ اليه ، وقاله عن نفس مضطربة ، يعجز فيها الهوى والطيش والغرور والاقدام بلا روية ولا حد ، وينفخ فيها السخط بيق الثورة ، ويتأجج فيها الالم ولكن بلا يأس ولا ضعف ، وتقودها آراء استقاها الشاعر من العلوية والقرمطية الكلفة بسفك الدماء .

فكان شعر المتنبّي ، اذا ذاك ، فخراً وتهديداً ، يلهج فيه الشاعر بالمجد والسؤدد ، والغلبة والملك ، ويذكر مطاعمه الجسام ، ويرى نفسه أحق بالسيادة ممن سادوا .

واذا وقعت السلاح تدوي في أوزانه وقوافيه :

لَا تَحْسُنُ الْوَفْرَةَ حَتَّى تُرَى مَنشُورَةَ الضَّفَرَيْنِ يَوْمَ الْقِتَالِ^١
عَلَى فَتَى مُعْتَقِلٍ صَعْدَةَ يَعْلُهَا مِنْ كُلِّ وَافِي السَّبَالِ^٢

واذا حب المغامرة والتغريب بالنفس يتردد صدهاء بين ابياته :

رِدِّي حِيَاضَ الرَّدَى يَا نَفْسَ وَاتَّرِكِي حِيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى لِلشَّاءِ وَالنَّعَمِ^٣

واذا أُنات الآمال المحطمة تتصاعد ناقمة ، بعد أن تراءت الآمال عظيمة واسعة ، وتتحول الى صواعق مدوية ، وذمّ للزمان والناس والامراء وثورة مندلعة النيران محرقة :

أَفَاضِلُ النَّاسِ أَغْرَاضُ لَدَى الزَّمَنِ يَخْلُو مِنْ الهمِّ أَخْلَاهُمْ مِنَ الْفُطَنِ^٤

(١) الوفرة : ما اجتمع من الشعر على الرأس . الضفّر : الخصلة المصفورة من الشعر ، وكانوا ينشرون شعورهم يوم الحرب تهويلاً للعدوّ . (٢) معتقل : حامل . الصعدّة : الرمح القصير . يعدها : يسقيها مرة بعد اخرى . السبّال ج سبلة وهي الشارب او ما استرسل من مقدّم اللحية . (٣) ردي : من ورد . الشاء والنعم : الغنم والإبل . (٤) الاغراض ج غرض وهو الهدف يُرمى بالسهم . والضمير من اخلاهم للناس . يقول : ان الافاضل من الناس كالاغراض للزمان يُصيبهم بنوائبه وآفاته اذ هم اشدّ اهتماماً من سواهم ، فكأنهم هم المقصودون بها ؛ ولذلك كلّها خلا الانسان من الفطنة كان أخلى من الهمّ لانه لا يبالي بالنوائب ولا يفكر في العواقب .

مَدَحْتُ قَوْمًا وَإِنْ عَشْنَا نَظَمْتُ لَهُمْ قَصَائِدًا مِنْ أُنَاسِ الْخَيْلِ وَالْحُصْنِ
تَحْتَ الْعِجَاجِ قَوَافِيهَا مُضْمَرَةٌ إِذَا تَنَوَّشَدْنِ لَمْ يَدْخُلْنَ فِي أُذُنِ

(وإذا الفشل يتحول الى عزم جبار يقاوم الدهر :

فَلَا عَبَرْتُ بِي سَاعَةً لَا تُعْزِئُنِي وَلَا صَحْبَتِي مُهْجَةً تَقْبَلُ الظُّلُمَا

(وفي هذا القسم من شعر المتنبي صبغة انسانية استقاها الشاعر من تحليل نفسه
واله وانعكافه على ذاته في ساعات مرارته . ويتجلى هذا التحليل، بنوع خاص،
في الشعر الذي قاله بين مصاحبته لبدر بن عمار واتصاله بأبي العشائر وقد درس
الشاعر قلبه ومال الى ينابيع نفسه يستنبط منها الآراء والنظرات .)

٢ وأما القسم الثاني من شعر المتنبي فهو ما قاله في حلب عند سيف الدولة، وقد
بلغ من العمر الرابعة والثلاثين، وذاق من الدهر حلوه ومره، وخبر الناس وسبر
أعماق قلبه .

(هو شعر من ظفر ونال بغيته، وان لم يمت حساده، ينشده في بلاط امير يثمل
في نظره القومية العربية وما تنزع اليه نفسه من فروسية وبطولة وتطلع الى المعالي .
وهو ايضا شعر القومية والجهاد) شعر ينقل قلب الرجل من منزلة الى اخرى،
من منزلة الاحساس الشخصي المنفرد الضيق، الى الاحساس الشخصي المتوَّج في
المجتمع المزاحم في سياسته، المؤمل من سيف الدولة رد السلطان الى العرب .

وانا نلهس في هذا الشعر قلب الشاعر المنتفض بالفرح والاعتزاز، العاصر
بالثقة، كما نلهس قلبه الدامي، وقد اجتمع عليه من ضروب الكيد، بالمنافسة والحسد
وتكاثر الخصوم، ما صرف عنه الامير من وقت الى آخر، وأدى اخيراً الى الافتراق
النهائي . فهناك نزاع قائم في قلب الشاعر، بين الفروحة الغالبة والحسرة المتمكنة،
جعلته يرجع الى نفسه ليستوعب ما فيها من فرح وألم، ويستغرق في تأمل ما تقادم
منهما وما جد، ويرد بعضه الى بعض، رابطاً الغائب بالشاهد، معبراً عن الكل

بأبيات تحفّق فيها حياة مضطربة ويتجلى فيها الصراع الشديد، ناطقاً تارة بفخر نابض وتارة بشعر هو من أصنى الشعر الغنائي وأروع الشعر الملحمي، وطوراً بحكمة هي من أبلغ الشعر الحكمي وأرقاه .

ومن قوله يمدح سيف الدولة، في إحدى ساعات افراحه وفخره القومي :
 إِذَا الدَّوْلَةُ اسْتَكْفَتْ بِوَ فِي مُلْسَمَةٍ كَفَاهَا فَكَانَ السَّيْفُ وَالْكَفُ وَالْقَلْبُ
 تُهَابُ سُيُوفِ الْهِنْدِ وَهِيَ حَدَائِدُ فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ تِرَارِيَّةٌ عُرْبًا

ومن قوله في إحدى ساعات ألمه وثوراته النفسية :

أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدْيِي وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بَوَّ صَمَمٌ
 أَخِيلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تُعْرِفُنِي وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ

٣ وأما القسم الثالث من شعر المتنبي فهو الذي قاله بمصر بعد مغادرة سيف الدولة وبيئته العربية، فتجشم الشاعر النصب الشديد قاصداً قوماً يدحهم على كره منه، وذلك طمعاً بنوال يدفع به شماتة الحساد، ويبلغه بعض الاماني .

ويمثل هذا الشعر درجة عظيمة من الألم النفسي، وهو عصارة نفس فاشلة، تطمع في المستقبل من غير أن تنسى خذلان الماضي، وفيه لهجة من كسرتة الايام فلان بعض اللين ومال الى الفن والسياسة؛ وهكذا طفح الشعر المصري في ديوان المتنبي بالمعاني الانسانية الخالدة، والشعور الانساني الصادر من أعماق القلب الجريح والنفس الحزينة .

ولقد اظهر فيه ابو الطيب مقدرة جديدة مكنته من نظم قصائد تعدّ من ابرع الشعر السخوي وامهره .

لقد علّمت مصر المتنبي الحزن الطويل العميق والتأمل الذي كاد يرقى به الى

الفلسفة، كما علّمته الهجاء اللاذع الممض الذي يبقى على الدهر ولا يخاو من نفع وموعظة . ومن اقوال المتنبي اذ ذاك :

- إذا ساءَ فِعْلُ الْمَرْءِ ساءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمٍ . . .

- فَأَحْسَنُ وَجْهِ فِي الْوَرَى وَجْهُ مُحْسِنٍ وَأَيْمَنُ كَفٍّ فِيهِمْ كَفٌّ مُنْعِمٍ

- مَا كُلُّ مَا يَتَسَنَّى الْمَرْءُ يُذَكِّرُهُ تَجْرِي الرِّيحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي السُّفُنُ

وأما القسم الرابع والاخير من شعر المتنبي فهو ما قاله بعد مغادرته مصر، في فارس والعراق .

هو انتفاضة السراج قبل ان ينطفئ؛ فيه خفقة قلب خاب كل امله في الحياة، فازداد لينه، وانحطت غلواؤه . ومما يجدر بالذكر في هذا القسم ان المتنبي يلتفت الى الطبيعة فيصفها، على غير مألوف منه؛ ومن ذلك وصفه لشعب بؤان وما اكتنفه ثمة من احوال الطبيعة، قال ذاكراً الاشجار :

وَأَلْقَى الشَّرْقُ مِنْهَا فِي ثِيَابِي دَنَانِيرًا تَفِرُّ مِنَ الْبَنَانِ

لَهَا ثَمَرٌ تُشِيرُ إِلَيْكَ مِنْهُ بِأَشْرَبَةٍ وَقَفْنَ بَيْلَا أَوَانِ

وَأَمْوَاهُ تَصِلُ بِهَا حَصَاهَا صَلِيلَ الْحَلِيِّ فِي أَيْدِي الْغَوَانِي

وهكذا قد اتم شعر المتنبي بميزات أطوار حياته، وكان سجلاً لمختلف ما تقلّب عليه من أحوال نفسية، حافظاً صور ثورته وهياجه، وطموحه وحرمانه، وافراحه واحزانه .

(١) يعتاده : يتنابه (٢) أئمن من اليمن أي البركة (٣) البنان : اطراف الاصابع . ويعني بالدنانير ما يتخلل الورق من ضوء الشمس الشارقة، ولذلك قال : وألقى الشرق (٤) أوان : ج آنية ج إناء وهو الوعاء . يقول : انه يمكن رؤية ماء الثمر من وراء القشر، لرفقته، فكأنه شراب قائم بنفسه، بلا إناء يضبطه (٥) تصل : تصوّت . الغواني : النساء الحسان .

٤ فنون الشعرية: لقد شارك المتنبي من سبقه من الشعراء في ولوج الابواب الشعرية المعهودة، من مدح ورثاء ووصف وهجاء وفخر وغزل وما الى ذلك، وكان من المجيدين. الا ان ما اجتمع له من عبقرية واتساع مدارك وسمو إيجاء، جعله في الغالب، يتخذ هذه الابواب التقليدية كإطار لشعر جديد في روحه ولهجته. وله، الى ذلك، قصائد كثيرة خصها بالاعراب عن عواطفه وآرائه الشخصية، فتضمنت من سمو النفس وعلو الهمة والترفع عن الدنيا والاقدام، وروعة الحكمة الاخلاقية والاجتماعية، ما تفرّد به المتنبي دون سواه. وقد تمكن بفضل ما أوتي من قوة بيان أن يصوغ كثيراً من اقواله وحكمه صيغة عامة، فخل شعره بما جرى مجرى الامثال، وما تداولته الالسن من القواعد الخلقية والاجتماعية.

وسوف نبحث الآن في اهم الفنون الشعرية التي تناولها ابو الطيب، مبينين ما له في كل منها.

١ - المدح:

١ محله في ديوانه وفي حياته: يشغل المدح القسم الاكبر من ديوان المتنبي. ولا عجب، فقد اتخذ الشعر، كما اتخذه جميع شعراء عصره تقريباً، وسيلة للعيش وبلوغ المجد. كان عربياً فيه من نزعات البدو وأخلاقهم الشبي. الكثير، وقد لاحظ ما في الكبراء من شغف بالمدح، وما يجهدهم من المنافسة في ذلك العهد، فمدح وأغرق في المدح، وطرق ابواب القصور طمعاً في النوال، والمال عنده ضروري لا يقوم المجد بدونه:

فلا تجد في الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده

وكان يستمر على الشناء ما استمرّ العطاء، حتى اذا غفل عنه، انقلب وراح يضرب في البلاد ناقماً، ولقد أدت به بعض الاحوال الى سلق ذوي نعمته بالسنة حداد، وما ذلك إلا لانه شديد التقدير لشعره، لا يرى في عطاء، مهما وفّر، وفاء كافياً.

٢ ممدوحوه: مدح المتنبي نحواً من خمسين شخصاً، واكثرهم من ذوي الرتب

أخيراً صا فريد

العالية، نذكر منهم سيف الدولة الحمداني، أمير حلب، وقد خصه المتنبي بنحو ثلث ديوانه؛ وبدر بن عمار، القائد العربي، وكان يقربه من الشاعر بغضه للعجم ونقمته عليهم، لما أزلوه بالدولة من التفرقة والتمزيق؛ وأبا العشائر الحمداني، والي انطاكية من قبل سيف الدولة؛ وعضد الدولة البويهية.

٣ معاني مدحه : أما معاني مدحه فهي التي تعودنا سماعها عند جميع الشعراء المداحين، من كرم وشجاعة، ورجاحة عقل، وسعة إدراك، وقوة حزم، وحسن تدبير، وفتك شديد بالأعداء، وما إلى ذلك. وقد تصادف هذه الأوصاف ما يزيد لها قوة ولعناً، في تاريخ بعض المدحون، كسيف الدولة الذي تحلى بالسخاء والشجاعة الحقة، والدراية الحربية، وروعة الانتصارات. حتى كانت انكساراته تبدو للشاعر موضوع فخر لحسن بلاء الجيش العربي فيها، على كثرة عدد الروم ووفرة عددهم.

بيد أن المتنبي رجل قوي نزوع إلى القوة، محب للمال، تلتصق شخصيته بشعره، فاذا مدح، أملت عليه هاتان التزعتان معانيه، فألقى مدحه عامماً، لا يصور بمدحاً خاصاً، بل بمدحاً مثالياً له من الصفات ما يلائم القوة والسخاء، ويرضي مخيلة الشاعر وقلبه الحديدي، وأعجابه بالمثال العربي الاسمي.

٤ أسلوبه في مدحه : إن أسلوب المتنبي في مدحه هو الأسلوب القديم، فتراه يستهل القصيدة بالغزل ووصف المطية والسير إلى المدح حتى يتخلص إلى المدح. ولكن الغزل يتضائل عندما تهيج الشاعر ثورة نفسية قوية، كما يظهر ذلك في أكثر مدائحه لسيف الدولة، وقد أفسح فيها مجالاً واسعاً للمدح والوصف الملحمي.

وكان أبو الطيب، قبل اتصاله بالحمدانيين، يبدأ مدائحه عادةً بنفسه، فيمجدها؛ وكيف ينساها، وفي نظره أن مدحاً يصدر عن رجل يتصف بما ينسبه إلى نفسه من المناقب الفريدة، يرفع من قدر المدح؟ ثم ينتقل، بعد ذكر نفسه، إلى عرض آرائه في الدنيا، والكشف عن الثورة القائمة في ضميره وقلبه، وإذا به ينذر ويتوعد. ولكنه، لما اتصل ببني حمدان، أقلع عن هذا المنهج، إلا نادراً، وصار يسبغ على

مدوحيه ما كان يسبغ على نفسه من ثياب المجد، ويرتقي بهم الى اوج السمو في القوة والسلطان والسماحة والمروءة وعظم المطلب، فلا يأتي على ذكر نفسه إلا عندما يخرجه الوشاة والساعون بالشر بينه وبينهم .

هـ قيمة مدحه :

قيمه الادبية : في مدائح المتنبي معانٍ ساقطة، وألفاظ مبتذلة، وتعبير معقّدة؛ وفيها مغاليات بالغة، ولاسيا في وصف القوة، حيث يعمد الشاعر الى تشابيه شاذة، فاسدة الذوق او قليلة الاحتفال بجرمة الاشياء المقدسة . واليك بعض الامثال على ذلك :

- متى ما يُشِرْ نَحْوَ السَّمَاءِ بوجهِهِ، تَحِرَّ لَهُ الشَّعْرَى وَيَنْخَسِفَ الْبَدْرُ
- فَبَعْدَهُ وَالى ذَا الْيَوْمِ، لَوْ رَكَضْتَ بِالْحَيْلِ فِي كَهْوَاتِ الطِّفْلِ، مَا سَعَلَا
١- أَوْ كَانَ لَفُظُكَ فِيهِمْ، مَا أَتَرَكَ الْفُرْقَانَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَا .

إلا ان هذه المآخذ، قليلة الى جانب ما في مدائح المتنبي من جمالات قيمة، اهمها الخبرة بالاخلاق والحياة العامة، والتصوير الرائع للصفات التي يطمناها لنفسه كل مدوح، وعلو النفس في المقاطع الملحمية، وشدة الجرس الموسيقي، في مدائح سيف الدولة خصوصاً . وان هذه الجمالات تغطي بعض المغاليات وتسحو بالقصيدة كلها الى جو رفيع، قوي التأثير، تدوي فيه أبيات مسكوكة سكاء، تنطلق انطلاق السهام . فاسمعه يقول في مدح سيف الدولة :

وقفت، وما في الموت شكٌ لواقفٍ كأنك في جنن الردى، وهو نائمٌ
تمرُّ بك الأبطالُ كلهم، هزيمةً، ووجهك وضاحٌ، وثوركُ باسمٍ

(١) تخرّ: تسقط . الشعري : نجم (٢) لو ركضت اي لو ركضت تيم (بعد انكسارها) .
لهوات ج آلهة وهي لحمة في مؤخر الخلق . يريد انهم بعد ذلك لقلبتهم وضعفهم لو ركضوا بخيلهم في
لهاة الطفل ما شعر بهم ولا سعل (٣) الفرقان : القرآن (٤) كلّمى : جرحى . هزيمة :
منهزمة . وضّاح : مشرق .

ضَمَمْتُ جَنَاحِيَهُمْ عَلَى الْقَلْبِ ضَمَّةً، نَمَوْتُ الْخَوَافِي تَحْتَهَا وَالْقَوَادِمُ ١...
إِذَا زَلِقَتْ مَشْيَتَهَا بَطُونُهَا، كَمَا تَمَشِّي فِي الصَّعِيدِ الْأَرَاقِمُ ٢.

وفي مدح المتنبي، تحسينات بديعية موفقة، من طباق وتلاعب بالالفاظ،
تكثر خصوصاً في مدائح سيف الدولة، وتزيد شعره جمالاً وقوة وتأثيراً . وفيه
ايضاً فنٌّ ومهارة في تقليب المعاني، وأجلى ما يبدو ذلك في مدح كافور، حيث
استعاض الشاعر عن اندفاع النفس بالسياسة والدهاء، وهو لم يمدح العبد الاسود إلا
طمعاً في نواله . وله في كافور ابيات هي غاية في الفن، مزج فيها التهكم الخفي
بالمدح، والعتاب بالملاطفة، والذم بالثناء . وكفى بهذا البيت دليلاً على ظرف تهكمه،
وإحكام فنه :

وَمَا طَرَبِي لَمَّا رَأَيْتُكَ، بِدْعَةٍ، لَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَرَاكَ، فَأَطْرَبُ ٣

وعلى الجملة، إن المتنبي عمد الى المعاني والاساليب القديمة، إلا انه اضفى عليها
لباساً بهياً عاد بها الى نضارتها، وسكب عليها من شخصيته وعبقريته روحاً وحياة
ودفناً، بعد ان كادت تصير في عهده باهتة، لا حياة فيها .

قيمه التاريخية : كان المتنبي اعظم المتغنين بحروب العرب ضد الروم، كما تغنى
بالحروب التي نشبت بين سيف الدولة والقبائل العربية . وموقفه من الروم موقف
العدو الناقم، الذي يفرح بانكسارهم ويغالي في السخر منهم وإظهار جانب السوء
فيهم . اما موقفه من القبائل العربية، وهو العربي الصميم، فوقف العاطف، المضطرب بين
الاشادة بانتصار الامير عليها، والتحسر على ما اصاب القبائل، ومحاولة الاعتذار عنها .

(١) الجناحان : ميمنة الجيش وميسرته . وقلبه : الكتيبة في وسطه . القوادم : ريش مقدم الجناح؛
والخوافي ما تحت القوادم ؛ استعارها لرجال الجناحين . والمعنى : اهلكتهم جميعاً (٢) اذا زلقت : اي
خيلك . الصعيد : وجه الارض . الاراقم ج ارقم وهو الحية فيها سواد وبياض . اي اذا زلقت خيلك
في مهابط تلك الجبال لشدة انصبابها مشيتها زحفاً على بطونها كما ترحف الحيات في الصعيد (٣) يقول :
لا بدع في طربي عند رؤيتك فاني كنت ارجو ان اراك فأطرب على الرجاء . وهذا البيت يشبه الاستهزاء
لانه يقول طربت على رؤيتك، كما يطرب الانسان على رؤية المضحكات .

ولقد حفل شعره بالمعلومات التاريخية، وهو شاهد عيان سجل كل موقعة بقصيد
او اكثر، وذكر من اسماء الاماكن ما اغفل بعضه المؤرخون، ومن تفاصيل المكان
والزمان ما له اهميته في التاريخ؛ وأشاد بمهارة سيف الدولة، ودرايته الحربية،
وسرعة انتفاض جيوشه، والهزائم المختلفة؛ ووصف أسلحة الروم وضخامة جيوشهم
وحسن نظامها، على ما هناك من المغالاة :

أَتَوَكَّ يَجْرُونَ الْحَدِيدَ، كَأَنَّمَا سَرَوْا بِجِيَادٍ مَا لَهْنٌ قَوَائِمٌ؛
إِذَا بَرَقُوا لَمْ تُعْرِفِ الْبَيْضُ مِنْهُمْ : ثِيَابُهُمْ مِنْ مِثْلِهَا وَالْعَصَائِمُ؛
خَمِيسٌ بَشَرَقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ زَحْفُهُ، وَفِي أُذُنِ الْجُوزَاءِ مِنْهُ زَمَازِمُ؛

وأطلعنا على عاداتهم في إيفاد الرُّسل لطلب الهدنة . زد على ذلك، ما في قصائده
من معلومات عن احوال أشخاص كثيرين كسيف الدولة وكافور وسواهما .

وقد ترك لنا ايضاً صورة عن عصره، غير انها مشوهة، بسبب قرّء الشاعر
وتشاؤمه وازدراؤه . ولكنها تمثل لنا جلياً تراحم الناس على عطايا ذوي السلطان،
ووفرة الدسائس والمنافسات وسوى ذلك من الاحداث والاحوال .

٢ - العتاب : كان المتنبي يقحم العتاب احياناً في مدحه . ومن اشهر ما
قال في العتاب ميميته في سيف الدولة، ومطلعها :

وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مَسَّنَ قَلْبَهُ شَبِيمٌ وَمَنْ يَجِيسِمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمٌ؛

(١) السُّرى : سير الليل . الجياد : الخيل . اي اتوا مدججين في السلاح يجرّونه على جوانب
الخيال حتى غابت قوائمها تحت الاسلحة وما عليها من دروع الحديد فكأنها بلا قوائم (٢) البيض :
السيوف . وقد عبّر عن الدروع والخوذ بالثياب والعمائم . يقول : اذا برقوا عند وقع الشمس عليهم
لم تتميز السيوف منهم لأن ابدانهم مغطاة بالدروع ورؤوسهم بالخوذ، وكها من الحديد (٣) الخميس :
الجيش . الجوزاء : برج من أبراج السماء . الزمازمج زمزمة وهي صوت الرعد اراد بها الاصوات
الشديدة المتداخلة (٤) الشَّبِيم : البارد .

وفيها يقول :

يا أعدلَ النَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي، فَبِكَ الْخِصَامُ، وَأَنْتَ الْخِصَمُ وَالْحَكَمُ

وعتاب أبي الطيب أشبه بمحاسبة، لا يتدال ولا ينكسر، بل يفخر بمزايده في جرأة، ويقابلها بقلّة التفات المعاتب، مؤنباً إياه، وطالباً منه استدراك الامر . وليس في تأنيبه غلاظة، فهو يشق بمودة من يعاتبه، ويودع لهجته اصفى عواطف الحب، فيأتي عتابه مقنعاً، بعيد التأثير، شديد الروعة .

٣ - الرثاء : تناول المتنبي الرثاء في عدة قصائد ؛ وأهم مراثيه جدّته، وأمّ سيف الدولة وابنه وأختاه الكبرى والصغرى، ومحمد بن اسحاق التنوخي، وعمّة عضد الدولة . الا ان تصلّب عاطفته وقوّة نفسه، وكثرة ما لاقى من الاهوال في حياته، حالت به دون الانطلاق في لطم الخدود، والتحسر الكمد . فهو لا يحسن البكاء ولا تنقاد له اللهجة المنكسرة، فتراه يعمد، لسدّ عجزه، الى ضرب الحكم وبسط فلسفة متشائمة في الموت والحياة، او يلجأ الى مدح الفقيد واهله، وربما أتى بأبيات فخرية، يذمّ فيها الخصوم . وقد لا يخلو رثاؤه من اسفاف في المعنى يخرجّه عن حدود الذوق .

ولكنه كان يشعر، في رثاء من يحبهم، بحزن عميق جبار، يزعزع كيانه، فينفث ابياتاً مثقلة، يرجفها الالم النفسي النائر المتجهّم، كالآبيات التي قالها في جدّته وكان يحبها حباً جمّاً لخنائها وعطفها عليه :

أَحِنُّ إِلَى الْكَأْسِ الَّتِي شَرِبْتُ بِهَا وَأَهْوَى، لِمَتَوَاهَا، الثَّرَابَ وَمَا ضَمًّا
أَنَاهَا كِتَابِي بَعْدَ يَأْسٍ وَتَرْحَةٍ فَمَاتَ سُرُورًا رِي، فَمِتُ بِهَا غَمًّا
حَرَامٌ عَلَى قَلْبِي السُّرُورُ، فَإِنِّي أَعُدُّ الَّذِي مَاتَ بِهِ بَعْدَهَا سُوءًا...

(١) أحنّ : أتشوّق . لمتواها : بسبب دفنها في التراب (٢) الترحة : الحزن والهم

(٣) الذي ماتت به أي السرور .

ونلمس ايضاً عاطفة صادقة في رثاء ابي شجاع فاتك، وقد احبه الشاعر، لما
لقي فيه من شجاعة ووفاء، حين كان يتألم شديد الالم من مطل كافور . ومطلع
القصيدة :

أَلْحُزْنُ يُقْلِقُ وَالتَّجَمُّلُ يَرُدُّعُ وَالدَّمْعُ بَيْنَهُمَا عَصِيٌّ طَيِّعُ^١

٤ - الوصف :

١ محلّه وموضوعه : يشغل الوصف حيزاً رحباً في ديوان المتنبي، وهو منشور في
القصائد المختلفة، لا يستقل بوحدة منها الا نادراً .

كان ابر الطيب موجه النظر الى دخائل نفسه ونفوس الناس، والى ما يظهر
من اخلاقهم، اكثر من توجهه الى مظاهر المراثيات، ولذلك ضؤل عنده وصف
الطبيعة والمناظر الخارجية . ثم انه كان بدويّ النزعة، لا تستهويه مشاهد الترف
المنمقة، كما تستهوي شاعراً متحضراً، كابن الرومي مثلاً . وكان، الى ذلك،
كلفاً بالقوّة، فلم يستغزّه من الكون إلا ما تجلّت فيه تلك القوّة كالاسد، او
ما كان فذاً كشعب بوّان، وجبال لبنان، وبحيرة طبرية .

وهناك ايضاً القصائد الحربية، وقد مزج الشاعر فيها الوصف بالقصص والغناء في
نفس ملحمة سامٍ ؛ وهي تبلغ ثلثي عشرة قصيدة، في نحو سبع مئة وسبعين بيتاً .

٢ أسلوبه وقيّمته : للمتنبي أسلوب خاص في الوصف، اكثر ما يبدو في وصف
الطبيعة . فتراه يحرص على التأثير القويّ فيتوفّر على الخطوط الناتئة، مهملًا
التفاصيل التي لا تزيد صورته روعة وأثراً . وقد يُكثر من التوكؤ على صور
الاقدمين، ولا سيما في وصف الحيوانات، الا انه يعيرها من اندفاعه النفسي ومن قوة

(١) التجمّل : التصبر . يردع اي عن الجزع .

موسيقاه الملائمة، ما يُخرج تلك الصور في هيئة جديدة أو كأنها جديدة . قال
يصف أسداً :

يَطأُ الثرى مترقياً من تيهه فكأنه آسٍ يحسُّ عيبه
ويردُّ عُفْرته إلى يافوخه حتى تصير لرأسه إكليله
وتظنه ممّا يُزجر، نفسه عنها لشدة غيظه مشغولة...
ما زال يجمع نفسه في زوره حتى حسبت العرض منه الطولة

ومع ان ابا الطيب اشد براعة في تصوير الاخلاق، لا تخلو قصائده من نظرات
يلقيها عرضاً على جمال الكون، فتوحي اليه بلوحات رائعة، فيها دقة الملاحظة،
والتعبير المحكم، الذي نحس فيه، على ايجازه، بنحوق الحياة .

الا ان اروع شعره الوصفي هو، ولا ريب، ما ورد في قصائده الحربية .
ولست تلك القصائد كالشعر الملحمي، الغير الشخصي الذي نعهده في سائر اللغات ؛
فالمتنبي لم يستطع ان يتخلّى عن شخصيته، وقد شهد بنفسه اكثر الوقائع التي يصفها،
واشترك فيها، واهتز لها، وأبقت في نفسه أصداء بعيدة . فمثل لنا هول المعارك
اقوى تمثيل، وحملا الى جوّ من العجاج لا نبصر فيه سوى ومضات الشفار، ولا
نسمع غير قعقة السلاح :

أتوك يجرّون الحديد، كأنما سرّوا بجياد ما لهنّ قوائم
إذا برقوا لم تُعرف البيض منهم ثيابهم من مثيلها والعمائم
نحيسُ بشرق الأرض والغرب زحفه وفي أذن الجوزاء منه زمازم

واذا كل شيء يعجّ ويدوي ويتحرك ويقاقل :

تَحْمِلُ الرِّيحُ بَيْنَهُمْ شَعَرَ آلِهَا وتذري عليهم الأوصال...

(١) مترقياً : برفق واطافة. التيه : الكبرياء. الآسي : الطيب (٢) عُفْرته : شعر
مؤخر رأسه. اليافوخ : أعلى الرأس (٣) زجر الأسد : ردّد زئيره. نفسه : فاعل تظنه .
مشغولاً : مفعول ثانٍ للظن، اي ان نفسه تظنه مشغولاً عنها لكثرة ما يُزجر من شدة غضبه
(٤) الزور : وسط الصدر (٥) الاوصال ج وُصل وهو كل عظم على حدّته، يعني الاعضاء
يريد قرب العهد بقتلهم وان شعورهم واعضاءهم باقية تحملها الريح وتلقيها عليهم .

أَبْصَرُوا الطَّعْنَ فِي الْقُلُوبِ دِرَاكًا قَبْلَ أَنْ يُبْصِرُوا الرِّمَاحَ خِيَالًا...
 بَسَطَ الرُّعْبُ فِي الْيَمِينِ يَمِينًا فَوَلَّوْا، وَفِي الشِّمَالِ شِمَالًا
 يَنْفُضُ الرُّوعُ أَيْدِيًا لَيْسَ تَدْرِي أَسِوْفًا حَمَلَنَ أَمْ أَغْلَالًا؟

هي القوة تنطلق من كل بيت ولفظة وقافية، تريد لها اشتداداً صور الشاعر واستعاراته الميالة دوماً الى المغالاة، والى كل عظيم جبَّار من الاخيلة، حتى استطاع الدكتور عبد الوهاب عزَّام ان يقول، في بعض الغلو: «قصائد الحروب...» يبلغ فيها أبو الطيب الغاية التي ليس بعدها متقدِّم لشاعر او ناثر... إن هذا المقدار من الشعر الحماسي البليغ في ديوان الشاعر العربي لا نظير له في الإلياذة ولا الشاهنامة، وأحسبه منقطع النظير في الإلياذة الرومانية، والمهابارتا والراميانا الهنديتين. وهي أروع شعر حماسي في اللغة العربية.

ولا عجب، فهذا الشاعر الذي يتعمد القوي من الموضوعات والقوي من الاقوال، كان حريئاً، بحكم الحال، ان يُبدع في وصف المعارك والحروب.

٥ - الهجاء:

١ - محله والداعي اليه: لم يكن للمثني ولع خاص بالهجاء، ولم يكن ميلاً اليه من طبعه، لان نفسه الكبيرة كانت مشغولة بجو من العظمة، بعيد عن مثل هذه الملاحية السخيفة. ولذلك ندر الهجاء في ديوانه، فأتى غصبة عارضة يثور فيها على كاذب، مثل كافور، لا يصدق له وعد، وقد تجشم الاسفار لاجله، ومدحه على كره منه، طمعاً بنواله ومواعيده؛ او يثور فيها على رجل كابن كيغلق، الى الشاعر

(١) دواكاً: متتابعاً. خيالاً: أي متخيلاً. أي لشدة خوفهم منك وتصوّرهم لما صنعت بهم قديماً ابصروا الطعن في قلوبهم تخيلاً قبل ان يبصروا الرماح حقيقة. (٢) يقول: عمهم الخوف حتى كأنه بسط يمينه في ميعنة جيشهم وشماله في ميسرته فتولَّوا هارين (٣) الرُّوع: الفزع. الاغلال: القيود. أي ان ايديهم ترتعد من الخوف فلا تقدر على الضرب حتى كأن السيوف التي عليها اغلال لها.

ان يدحه، فحبسه عن السفر من طرابلس الى انطاكية، عدّة ايام؛ اما هجاؤه لضبّة، فقد اكره نفسه عليه، تزوّلاً عند رغبة بعض الرفاق من الكوفيين . وما بقي فأبيات منشورة في القصائد المختلفة، هي اشبه بصرخات أليمة، انبعثت من صدره، بعد ما قاساه من الزمان وأهله، ومن الحساد الكثيرين الذين نغصوا عليه عيشه .

فهجاء المتنبي اذن انتقام لكرامته، واثّار من زمانه، واشتمزاز من الدناءات، واحتقار للؤم، واستصغار للناس . لقد سخط كثيراً، واصبح صدره كبر كان يشور، إن هاجه أحد عربد وقذف حممه، ولم يتورّع ان ينقلب على من سبق لهم إنعام عليه، فيسلقههم بأقذع ما تجيش به قريحته . وقد احفظ عليه انقلابه هذا بعض النقاد، حتى ان ابن خلدون نفى عنه الشاعرية .

٢ أسلوبه وقيّمته : لم يكن المتنبي ممن يحسنون دغدغة المهجوة، والهزء به بطريقة ناعمة، فهو لا يعرف إلا الطعن الجارح البليغ . يسخط بقوة، ويشور بقوة، ويرمي مهجوة بقوة، من غير ترور ولا هواة . ينفث كل حقده حتى لا يترك رجاء، لشدة ما يضر من السخط . وهكذا أسقط كافوراً وضبة وابن كيغلع الى الابد، وألصق باسمهم وصحات ان تزيلها الايام . قال يهجو كافوراً، وهو من الشعر المتداول على الالسنّة :

ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم إلا وفي يده من نقيها عوداً
لا تشتري العبد إلا والعصا معه إن العبد لأنجاس مناكيداً
ما كنت أحسبني أحيى الى زمن يسي في فيه عبداً وهو محمود ...
جوعان يأكل من زادي ويمسكني لكي يقال : عظيم القدر، مقصود ...
أولى اللثام كوينفير بمعدرة في كل لؤم، وبغض العذر تقييداً

(١) اي ان ارواحهم مننته من اللؤم فاذا هم الموت بقبضها لم يباشرها بيده تقدراً من نقيها بل يتناولها بعود كما ترفع الجيفة (٢) المناكيد ج منكود وهو قليل الخير (٣) التقييد: التبريع والملامة. يقول: ان كافوراً أعجز الناس عن المكارم وأحقهم بالمعدرة. ولكن هذه المعذرة تبريع له.

وقد جمع الى الحقد أداة أفعل من الهجاء، أداة السخو، والمتنبي يُعدّ من
 اقدر أربابه في الادب العربي، وهو يستمدّه من عين حادة، وحقد جبار، واحتقار
 كبير، وكبرياء شديدة الأنفة. ويتجلى تهكمه حتى في الفاظه. قال يهجو كافوراً:
 ونُعجبُني رجلاك في النعل، إنني رأيتُك ذا نعل، اذا كنت حافياً...
 فإن كنت لا خيراً أفدت، فإنني أفدت، بلحظي مشفرك الملاهيا
 ومثلك يُؤتى من بلاد بعيدة ليضحك ربأت الحداد البواكيا!

الا ان مرارة السخط قد طغت عموماً، في هجاء المتنبي، على الفكاهة الساخرة،
 فانحدرت به احياناً الى دركة بعيدة من الاقذاع والفحش في الالفاظ والمعاني.
 وقد شمل التشاؤم هجاء المتنبي، فشكا من الدهر والناس جميعاً.

٦ - الفخر: أما الفخر فله منزلة كبرى، ما دبرها المتنبي

١ محله والداعي اليه: الفخر كثير في ديوان المتنبي، وهو مبثوث في جميع
 قصائده تقريباً، وإن لم يستقل بوحدة منها. فابو الطيّب يفخر في جميع احواله،
 سواء رثى ام مدح ام هجا ام تغزل ام شكى. ولا عجب، فهو لا يرى له مثيلاً
 في الوجود، يعبد نفسه ويكاد لا يعرف في الارض سواها. أحس بعظمة شخصيته،
 وقدر صفاته، من أنفة وعزة وبسالة وشاعرية، حق قدرها بل فوق قدرها، فامتلاً
 صدره وفاض عمداً وكرهاً. زد على ذلك اشتهار اصله العربي بالفصاحة والبيان،
 وقبيلته اليمينية بالفروسية والشجاعة. وكان له ايضاً من نشأته البدوية ما مكّن فيه
 النزعة المفاخرة، حتى اصبحت فيه طبعاً، ومن معاكسات الزمان، ومناهضة الحساد،
 ما جعله يعمد الى الفخر، تفريجاً وتعزية للنفس.

٢ موضوع: قلّ فخر المتنبي بقومه، واذا فخر بهم، أوجز وأجل، لقلة ما
 عُرف عن آبائه الاقربين من المآثر والمفاخر، ولانه كان يعدّ نفسه مفخرة قومه:

(١) أفدت: اعطيت. أفدت: استفدت. مشفرك: شفيتك، وتُسعمل اللفظة للبعير.

لا بقومي شرفت، بل شرفوا بي وبنفسي فخرت، لا يحدودي!

ولذلك حصر فخره في نفسه، مطوئاً عزمه وصبره، وتصلبه، وخبرته :

كأنني دحوت الأرض من خبرتي بها كأنني بنى الإسكندر السد من عزمي^١

وهو يجب ان يتمثل بعنزة، فيصف نفسه في المعمة، يوقع بالعدو المذخور بالسيف والرمح . وكما تسمعه يتغنى بشاعريته، ذاكراً مقدراته في الشعر وانقياد القوافي له :

أنا ملء جفوني عن شواردها ويسهر الناس جراًها ويختصم^٢

وسيرة شعره :

وما الدهر إلا من رواق قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدًا

وبهاء منظوماته وحسن سبكها :

وما قلت من شعر نكاد يبوئه إذا كتبت يبيض من نورها الحبر

والمتنبي يعد نفسه من مرتبة الانبياء والملوك، وكثيراً ما يجعل نفسه فوق الجميع، ويجمع فيها كل الصفات :

سيفلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأنني خير من تسقى به قدم

الحيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

٣ أسلوبه وقبيلته في المتنبي صريح، جويء في كبريائه الجموح، بل مغال فيها الى حد مفرط، وكثيراً ما يبطن كبريائه بازدياء شنيع يشمل الناس والكون جميعاً .

الا ان فيه من الانفة والترفع عن الدنيا، وجمال الصفات الرجولية، واندفاع الروح الشعرية النابضة، ما يغطي شيئاً من تلك المعاييب الضخمة .

(١) دحوت : بسطت . السد : الحاجز (٢) يقول : أنا ملء جفوني عن شواردها الشعر لاني ادر كها متى شئت على السهولة، وغيري من الشعراء يسهرون في تحصيلها وينازع بعضهم بعضاً على ما يظفرون به منها لعزته .

٧ - الغزل : لم يتوفر المتنبي على الغزل، وكيف يرتاح الى النسيب قلبه شغله طلب المعالي؛ وكيف تتوق الى مجالسة النساء نفس مشغوفة بالقوة وبكل قوي . وإن جرى له ان يميل الى امرأة، أثر البدوية، التي تثقل الطبيعة الفطرية، البعيدة عن التصنع، وتذكر البادية، مربية ذوقه .

وغزله، على الاجمال، ضعيف العاطفة، تقليدي، يأتي في مستهلات بعض القصائد . الا أنه لا يخلو احياناً من بعض الاجادة، لتمكن الشاعر من الصناعة البيانية، وشعوره ببعض خلجات الحب التي لا يخلو منها فؤاد . وقد يتخذ المتنبي النسيب كإطار للام نفسه، فتأتي ابياته خافقة العاطفة، صادقة التأثير .

ومما يلفت النظر، أن ابا الطيب مزج غالباً بين المروءة والحرب، فوصف حبيبته بالمناعة، وتصور نفسه يخوض، للوصول اليها، غمار حرب زاهرة بالشدائد والاهوال؛ وقد تتمثل له الحرب كعشوقة يقننه جمالها . قال يصف نفسه :

محب كني بالبيض عن مرهقاته وبالحسن في أجسامهن عن الصقل
وبالسمر عن سمر القنا، غير أنني جناها أجبائي وأطرافها رُسلي

تلك اكثر فنون الشعر في ديوان المتنبي، وفي جميعها نواح من شخصيته وعبقريته واسباب شهرته . الا ان هناك باباً خاصاً قد برز فيه اكثر من سواه، وكان من اركان خلوده الرئيسية، ألا وهو الحكمة .

٥ المتنبي شاعر الحكمة : فلسفة المتنبي :

١ - ما المقصود من فلسفة المتنبي ؟ لم يكن المتنبي فيلسوفاً بمعنى الكلمة

(١) أي انا محبّ اعشق الحرب دون النساء، فاذا ذكرتُ البيض فرادي بهنّ السيوف، واذا ذكرتُ حسنهنّ فهو كناية عن صقل السيوف (٢) اي واكني بالسمر عن سمر الرماح؛ ويعني بجناها ما تحتنيه من الدماء والمهج وما تكسبه من المعالي . يقول : هذه هي اجبائي، واطراف الرماح أي اسننتها، هي الرسل التي تتردد بيني وبين هذه الاحباب تجمع بيني وبينها .

الصحيح، إذ ليس له آراء شاملة في أصل العالم أو الحياة أو الأخلاق، يقوم عليها نظام من الفكر متصل، متماسك، وإنما له خطرات في الحياة والاحياء، منشورة هنا وهناك، لا يجمع بينها سوى نفس الشاعر والجو الذي يسمح فيه ويتشرب به . وهو لا يتوقف على تحليل هذه الخطرات ودعمها منطقياً بتؤدة وإسهاب، شأن الفلاسفة، ولكنه شديد الاعتقاد بها، شديد الإثبات لها، وكثيراً ما يدعمها بصورة مؤثرة، أو دليل موجز يُقرآن صحتّها في نظره، بقوة جازمة .

٢ - مصدر فلسفة المتنبي : أما مصدر حكمة المتنبي فهو قبل كل شيء نفسه وتجاربه والهامه، لا دراسة الفلسفة، أو التأملات في ما وراء الطبيعة، ووراء الزمان والمكان، وإن كان قد استقى أحياناً بعض حكمه مما وصل إليه من نظريات اليونان وآرائهم، ومما أطلعت عليه ثقافته .

ولما كانت نفسية الشاعر مفضوعة على القوة والاعتداد والطموح، كانت فلسفته تعظم القوة وتقدها، وتضحي بكل صغير ضعيف في سبيل كل كبير جبار، مترفع عن الدنيا، وإذا لم يصادف طموحه سوى المعاكسات والاختناق أغرق في التشاؤم، والنقمة على الزمان، لأنه لم يسهفه، وعلى الناس لأنهم لم يحققوا أمله، فلو كانهم لا يستحقون الملك، والشعب يرضى بالملاهي والبؤس، ويقم على الذل .

إن فلسفة المتنبي، على الأجمال، فلسفة الأمل الطامح المؤمن بالقوة، والأمل الخائب المثقل بالنقمة والثورة والتشاؤم .

٣ - موضوعات فلسفته : قلماً تعرّض المتنبي لنظريات في مبدأ العالم ومنتهاه، وإنما صرف همه إلى الإنسان في حياته وأخلاقه وعواطفه وعلاقته بالجماعة التي يعيش فيها، فجال فكره بين الحياة والموت، والقوة والضعف، واللذة والالم، والنيل والحرمان وما إلى ذلك، وتناولت حكمه سنن الحياة وصروفها، مهجلة مصادرها ومصايرها .

- الحياة : الحياة في نظر المتنبي مسرح من مسارح تنازع البقاء، بل هي

ساحة حرب ، وميدان جهاد، لا يفتأ الناس فيه متجالدين من غير ما رحمة ولا
هوادة، فلا يثبت غير القوي ولا يُفلح سوى الشجاع الذي لا يهاب :

إِنَّمَا أَنْفُسُ الْأَنْبِيَاءِ سَبَاعٌ يَتَفَارَسْنَ جَهْرَةً وَأَغْتِيَالًا
مَنْ أَطَاقَ التَّسَامُ شَيْءٌ غِلَابًا وَأَغْتَصَابًا لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالًا

والحياة دار فناء لا يدوم فيها نعيم ولا تثبت فيها حال، والناس فيها أفواج إثر
أفواج، بين الوجود والفناء :

يُدَقِّنُ بَعْضُنَا بَعْضًا، وَتَمَثَّلُ أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي

ولكن الحياة، على ما فيها من سرعة زوال، وقصر يعتوره الاضطراب والاضطراب،
محبة الى كل انسان يتعلق بها تعلقاً وثيقاً :

وَلِذِي الْحَيَاةِ أَنْفَسُ فِي النَّفْسِ وَأَشْهُى مِنْ أَنْ يُمَلَّ وَأَحْلَى
وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ أَفٍّ، فَمَا مَلَّ حَيَاةً، وَإِنَّمَا الضَّعْفُ مَلًّا

— اما الموت فهو أمر لا بد منه، محتوم على كل حي، لان الحياة من كسب
الزمان، والزمان لا شك مطالب بها، والاجسام من تراب الارض، وسوف تستعيد
الارض ما أخذ منها، ولذلك ينبغي الانحزاع امام الموت وأن نستقبله كأمر محتوم :

نَحْنُ بَنُو الْمَوْتِ فَمَا بَأَلْنَا نَعَا فَمَا لَا بُدَّ مِنْ تُرْبِهِ
تَبْخُلُ أَيْدِينَا بِأَرْوَاحِنَا عَلَى زَمَانٍ هُنَّ مِنْ كَسَنِيهِ
فَهَذِهِ الْأَرْوَاحُ مِنْ جَوَرِهِ وَهَذِهِ الْأَجْسَامُ مِنْ تُرْبِهِ

— الدين : يظهر ان المتنبي أهمل الجانب الديني من الحياة إهمالاً يكاد يكون
تاماً، وظلّ، بالنظر الى الخلود، في شبه شك او لا معرفة . وقد كان، في العموم،

(١) الانيس : هنا الإنس ضد الوحش . السباع ج سبع وهو كل حيوان مفترس . الاغتيال :
اخذ الانسان من حيث لا يدري (٢) غلاباً : أي مغالبة .

واهي العقيدة الدينية، يلمّ بكثير من التحلّ الشائعة في عصره، من غير أن يعتقد بوحدة منها، وإنما يأتي على ذكر بعضها في شعره كالعلوّية، والمأنوية أصحاب الثنوية، والمجوس، مجارةً لمألوف سائر الشعراء أو مجارةً للممدوح . ولكننا، وإن ضعفت عقيدته الدينية وكثر استخفافه بالدين، لا يمكننا أن نزميه بالإلحاد والزندقة، فإنّنا نلمس فيه حميّة دينية، ونزعة إسلامية، ولاسيا في عهد سيف الدولة، بسبب حروب العرب مع الروم، ونسمعه أحياناً يصرّح بأنه لا يخضع لمخلوق مطلقاً، إنّما خضوعه لله، الذي له التصرف المطلق في الكون، وهو الملحوظ في كل فعل وحركة . ولكن ذلك لا ينفي قلّة التفات المتنبي الى الدين .

- الزمان : إن الزمان - أو الدهر - عدو الاحرار وكرام النفوس، في نظر المتنبي . هو الذي يقسم الحظوظ والمواهب على الناس، ولكنه مطبوع على الجور، يمنع التقاء العقل والحظ، وينتهك ابدأ حرمة العقل فلا ينيله ما يحق له من التكريم والسلطان :

وَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ فِي يَدِي بِأَصْعَبَ مِنْ أَنْ أَجْمَعَ الْجَدَّ وَالْفَهْمَا

وقد بلغ المتنبي من حنقه على الزمان أن اعتبره غريباً حياً يطارده ويعاكسه .

- أما الناس - والمتنبي ينظر خصوصاً الى اهل زمانه - فهم في هوة من الصغارة والهوان، مجرّدون من كل خلة حسنة، ولا يستأهلون الا الاحتقار :

أَذُمُّ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْيَاةُ فَأَعْلَسُهُمْ قَدَمٌ وَأَحْزَمُهُمْ وَغَدٌ
وَأَكْرَمُهُمْ كَلْبٌ وَأَبْصَرُهُمْ عَمٌّ وَأَسْهَدُهُمْ فَهْدٌ وَأَشْجَعُهُمْ قِرْدٌ

إِذَا مَا النَّاسُ جَرَّبَهُمْ لَيْبٌ، فَإِنِّي قَدْ أَكَلْتُهُمْ وَذَاقَهُ
فَلَمْ أَرِ وَدَّعُهُمْ إِلَّا خِدَاعًا، وَلَمْ أَرِ دِينَهُمْ إِلَّا نِفَاقًا

(١) الجدّ : الحظّ (٢) القدم : قليل الفهم . الوغد : الاحق (٣) عمّ : اعمى . أسهدهم : أيقظهم . فهّد : يشبه به في كثرة النوم (٤) يقول : انا اعرف المجرّبين بأحوال الناس، فإن كان غيري يُعَدّ ذائقاً لهم فإنّي قد كرّرت ذوقهم حتى صرت آكلاً .

وهذه الاخلاق التي فُطر عليها الناس ، ثابتة فيهم ، لا يستطيعون عنها تحوُّلاً .

- تصرّف اللبيب : تلك صورة الكون التي تمثلها المتنبى . وهو يرى أن العاقل من أقبل على الدنيا كما هي ، مهملًا ملاهي اللذة ، مسلحاً نفسه بالقوة ، فلم يرتج الى صديق ، - فإنه ليس من صديق - بل عوّل على نفسه ، وطلب المجد في اسمي اشكاله :

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَرُومٍ فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ

مضحياً في سبيله أجلّ التضحيات ، غير متهيب شيئاً حتى الدم والموت ، لأنّ الزكوص والجن ذلة واستكانة وحرمان ، في حياة تقضي ولا تعود .

وعلى العاقل ان يحذر الناس ، فلا يتكل على احد ، ولا يشتكي الى احد ، ولا يرحم احداً ؛ وعليه ان يتصلّب فلا تغره دمة بالك أو بشاشة مبتسم ، علماً انه ينال من الدنيا بالهول ما لا ينال بالرفق :

وَمَنْ عَرَفَ الْآيَّامَ مَعْرِفَتِي جِهَاً وَبِالنَّاسِ رَوَى رُحْمَهُ غَيْرَ رَاحِمٍ

تلك سنة الحياة : ازدياد للناس والزمان ، وطموح الى مجد رفيع ، لا تنيله الا القوة او الحيلة ، وهي نوع من القوة . والقوة أصل الاخلاق والفضائل ، ومحور المحامد والمناقب ، وعليها ان تنقلب بطولة ، لا يشوبها أدنى ضعف ، لانه :

مَنْ يَحْنُ يَسْهُلَ الْهَوَانُ عَلَيْهِ ، مَا لِيُجْرِحَ بِمَيْتَةِ إِسْلَامٍ

وإذا تعود المرء الهوان ، لم ينل من الدهر غير الهوان إذ « لكل امرئ من دهره ما تعوداً » . وقد يكون الموت نتيجة هذه البطولة ؛ وما هم ، فالحياة البسيطة غير جديرة بالعيش ، والموت لا بد منه ، فلتحفل الحياة بالشجاعة والقوة ، ولتزه نهايتها بالشرف ولو دامياً !

(١) غامرت : دخلت في الغمرات وهي الهالك . وقوله : في شرف ، أي في طلب شرف

(٢) يقول : من كان هيناً في نفسه لا يستعصب ورود الهوان عليه فهو كاليت الذي لا يتألم بالجراحة .

٤ - ميزات فلسفة المتنبي : ليس أبو الطيب من ذوي الحيرة والتردد في آرائه، شأن أبي العلاء، فهو يجزم في خواطره حتى الغريبة منها، كأنه يسن شريعة، ويعتمد على فكره اعتماداً شديداً مطلقاً.

وقد بلغ في نظم آرائه أرقى غاية في التعبير، ففاق شعراء الحكم جميعاً في الجمع بين القوة والإيجاز والأحكام، فجاءت أبياته عذبة بليغة، تنبض حياة وقوة، وتشمل آفاقاً شاسعة ومعرفة عميقة للنفس الإنسانية لقنته إياها الآلام والأسفار والتجارب الواسعة، فاستطاع - كما قال الشيخ إبراهيم اليازجي - أن « ينطق باللسنة الحدثن ويتكلم بخاطر كل إنسان ». زد على ذلك تعاليم أخلاقية سامية تلقن الترفع عن الدنيا، والصبر ابتداءً إلى كل رفيع، والإقدام الجريء الذي يحطم كل صعوبة ولا يحجم عن عظيم . وهكذا جاءت حكم المتنبي، قسم كبير منها، قيماً إنسانية رفيعة تسمو إلى مرتبة الشعر الخالد .

٥ - إلا أن هنالك بعض الآراء التي ينقصها الاتزان . فقد كان الشاعر، إبان شبابه، متهوراً في حب الثورة والدمار، وطلب الآمال الخيالية التي لا قرار لها ولا سبيل إلى تحقيقها، ثم هبطت ثورته أثناء كهولته . إلا أن بعض آرائه التزم إذ ذاك بلون من التشاؤم كثيف، يزيده ضعف العقيدة الدينية ادلهاماً .

ولكن الخواطر التفتت إلى الجانب الصالح من حكم المتنبي دون الباقي، فسار على اللسنة، في كل عصر وكل بلد، وقد وجد الناس فيه الفكرة الصادقة العميقة الجميلة في التعبير البليغ الموجز المحكم .

ولقد كانت مواطن كثيرة من حكميات المتنبي نواة لفلسفة أبي العلاء، اكتسبها المعري اتساعاً وإسهاباً، ولكنه أفقدها روعة أصلها .

٦ - المتنبي الشاعر القومي :

١ - المتنبي والنفس العربية : لقد صحب المتنبي العرب في البدايات، أثناء

صباه، وظلَّ سحابة حياته بدويّ النزعة، خالص العروبة، يقدس القومية العربية ويؤثر الجنس العربي؛ وقد أدرك وأنى في ذاته أظهر شمائل النفس العربية كالسخاء، والأنفة، والجلد، والبسالة، والطموح الى السيادة والمجد، وأحبها في نفسه فصورها في شعر خالد :

ذَلَّ مَنْ يَفِطُ الذَّلِيلَ بِعَيْشٍ رَبَّ عَيْشٍ أَخْفُفْنَاهُ الْحِمَامُ
مَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ مَا لُجْرَحَ بِمَيِّتٍ وَإِسْلَامُ

وقد شغل مثال النفس العربية المثلى عبقرية المتنبي طول حياته، فاتخذ هذفاً لجميع شعره، يدأب في توضيح ملاحمه والتغني به .

٢ - المتنبي والدعوة الى القومية العربية :

نواحٍ متعددة من شعره، فتسمعه يحفز العرب على جمع كلمتهم لتحطيم نير السلطات الاجنبية، والتحرر من قيودها، مبيناً بقوة وجلاء، ضرورة استيلاء العرب على أزمة الحكم، وإعادة الملك العربي الى صفائه وصحته :

وَإِنَّا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ وَمَا تُفْلِحُ عَرَبٌ مُلُوكُهَا عَجَمٌ
لَا أَدَبَ عِنْدَهُمْ وَلَا حِسْبَ وَلَا عُهودٌ لَهُمْ وَلَا ذِمَّةٌ
لِكُلِّ أَرْضٍ وَطَنُهَا أُمَّمٌ تُرعى بِعَبْدٍ كَأَنَّهَا غَنَمٌ

اما سبب هذه الدعوة النابضة، فضالة احوال العرب في ذلك الزمان، وما كان عليه السلطان العباسي، وقد آذن بالأفول، من تضعع وانحلال، لكثرة ما ضم من اقطار متفرقة لا تجمعها قوة حازمة، وشعوب مختلطة، مختلفة النزعات، كثيرة المذاهب والشيعة، استفحل امرها وطمعت بالحكم، وقامت تعرض تفوقها الثقافي، فيما كان العرب منكفئين على نفوسهم للتأمل والتحصيل .

(١) يغبط الذليل : يتمنى مثل حاله . الحمام : الموت (٢) الحسب : شرف الأصل . الذمم : ج ذمّة وهي الامان والعهد .

٣ - نضال المتنبي وإخلاصه : ثم اخذت تبدو مظاهر يقظة عربية، فراح المتنبي، منذ صباه، يناضل في سبيل استعادة المجد العربي، باذلاً من الحمية والتضحية الشيء الكثير؛ وقد لاقى من جراء ذلك السجن والمضايق . الا انه ما كاد يتوسم أملاً في أمراء خالصي العروبة كسيف الدولة، حتى عاد يهوى للنهضة العربية، ويهيب بالعرب، في لهجة نابضة ملتزمة، الى الانضمام والتحرر .

وقد أراد بعض النقاد ان يغضوا من قدر صراحة المتنبي في موقفه هذا، لملازمته بعض الامراء الاجانب، وامتداحه إياهم، إلا ان ذلك تهمة واهية، فقد كانت الاحوال اذ ذاك تضطر الشعراء في الغالب، الى ملازمة من يكرهون ومجاراتهم، وان ألجأهم ذلك الى حجب عقائدهم الخاصة . والمتنبي لم يلجأ الى الاجانب إلا عندما خاب أمله في العرب . ثم خاب أمله في الاعاجم ايضاً، فعاد يتغنى بالعروبة . فكان اجمل شعر قاله في تمجيد العرب ما نظمه عند سيف الدولة، وكانت أعنف دعواته الى القومية العربية تلك التي نادى بها بعد إخفاقه لدى كافور :

ساداتُ كلِّ أناسٍ من نفوسهم وسادةُ المسلمين الأعيدُ القزمُ^١

وهكذا لم ينجز المتنبي يوماً عن الهدف الذي ارتآه وسعى اليه منذ مطلع عمره، حتى مقتله . وان شعره نابض بذكرى وطنه وقومه، وشاهدٌ بأن فكرة العروبة قد لازمته اينما حل، حتى كانت اوفر الاشياء فتنة وسحراً تعجز عن ملء نفسه واسعاده، ما دامت احوال العرب هزيلة قاصرة . وهذا ما يبينه قوله في
شعب يوان :

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان^٢
ولكن الفتي العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

(١) الأعد : ج عبد . القزم : سفلة القوم (٢) المغاني : المنازل . طيباً : تميز اي من حيث الطيب .

٤ - طريقة نضاله وجدتها زولا ريب ان هذا الضرب من الشعر القومي كان مجهولاً عند العرب الاقدمين، فالجاهليون والامويون كانوا يفاخرون احياناً بقبائلهم المختلفة، الا انهم لم يتناولوا قط معاني القومية العربية، ولم يجدوا ضرورة للدفاع عنها، اذ كانوا باجمعهم صريحي العروبة لا يناوئهم فيها احد. اما الشعراء العباسيون فقد كانوا في سوادهم من اصل غير عربي، ينحازون الى نزعة شعبية محقرة للعرب، وان وجد بينهم من دافعوا عن العرب، فانهم لم يأتوا ما أتاه المتنبي من قوة القاهرة بل سلكوا على العموم سبيلاً غير سبيله، فصرفوا همهم الاكبر الى رد ادعاءات الشعبين بتفوق حضارتهم وفنونهم، بادعاءات مشابهة، يدعونها بالادلة والبراهين، وكانوا يفاخرون خصوصاً بتفوق دينهم، ويتخذونه اساساً للمعارضة .

اما المتنبي فقد تبين ما في هذه الطريقة من ضعف وقابلية للجدال، فأعرض عن ذكر الدين، الا في مناسبات قليلة كانت تقتضي منه ذلك . ولم يكن يعنيه غير العروبة في مداها الرحب الشامل، خالصة من ميزات الدين والميزات الفردية، على انه كان يميل احياناً الى حصر انقى مظاهر العروبة وأصفاها في عرب الجنوب، في الاصل اليميني الذي كان ينتمي اليه .

اما براهينه على تفوق العرب فقليلة، لا ينظر فيها الى ثقافتهم وخدمات حضارتهم، بل الى التاريخ الذي حفظ لهم مجاداً سنية . وحسب القومية العربية عنده انها اقوى القوميات، وأنبلها اصلاً ووراثه، واكرمها طبعاً، واذكاها عقلاً . (واشد ما لديه من الادلة التأكيد القاطع، الذي يريد ان يفرض المراد فرضاً لا يقبل الجدل) وأفضل ما يراه من الوسائل لفرض السيادة العربية الثورة الدموية، ولا غرو، فقد اقتضت ذلك نزعة المتنبي الشخصية وحالة الحروب والتضييق في ذلك العصر .

٧ شاعرية المتنبي : أوتي المتنبي عبقرية خصبة، تهيأ لها من الثقافة والمؤثرات الخارجية غذاء ملائم، ساهم احسن مساهمة في انماها وانضاجها

وابرازها في سعة مداها .

١ - العقل : فقد وهب عقلاً قوياً سمحاً، لا يضيق على نفسه في دقائق الامور، ولا يحفل بالطرائق المنطقية، ولكنه عجيب الالتفات، قدير على اكتشاف المعاني السامية، تمرُّ عليه ومضات تكشف له في لحظة واحدة عوالم جديدة وافرة الغنى. وقد اضاف المتنبي الى موهبته الطبيعية ما حصل من ثقافة واسعة في العلم والفلسفة والمذاهب العقلية الشائعة في عصره، وفي اللغة، وهو يعد من أيسمتها المبرزين؛ وما توفر له من تجارب وملاحظات في اسفاره الكثيرة؛ فأضحت مقدرته على الابداع اوفر سلاسة ولباقة، واكتسبت افكاره ومعانيه نضوجاً وثباتاً. على أن شغف هذا العقل بالعظيم الفخم، واقتصاره عليه، جعله يُسفّ أحياناً كثيرة، كما أن جنونه بالعظمة عوّده ضرباً من التفكير قليل الاتزان ذهب بكثير من معانيه مذهب التطرّف والشذوذ، وكفى بما قاله الشاعر في وصف آماله ونزعاته واعتداده بنفسه دليلاً على ذلك، قال في صباه :

أَيَّ مَحَلٍّ أَرْتَقِي أَيَّ عَظِيمٍ أَتَّقِي
وَكُلُّ مَا قَدْ خَلَقَ اللَّهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقْ
مُخْتَفَرٌ فِي هِمَّتِي كَشْفَرَةٍ فِي مَفْرَقِي

٢ - العاطفة : ليست عاطفة المتنبي تلك العاطفة الرقيقة المرهفة، السريعة التأثير، انما هي عاطفة بعيدة الغور بالغة الشدة، تأتي، اذا ثارت، بالعاصف الجبار من الاحساس . ولقد اكتسبتها الحياة التي خاض المتنبي غمارها، وادرك جميع الوانها، ثروة كثيرة التنوع، فعرفت نشوة الآمال والثقة، وألم الحيرة ومرارة الألم، واندفاع الثورة والحماسة والاعجاب، وانتفاض الحقد والبغض، والتهوُّس والاضطراب وما الى ذلك من العواطف الانسانية .

وقد كان الألم على الخصوص يدُّ واسعة في تصفية تلك النفس، والصاقها بواقع الحياة، فتهيأ لها، اذا عبّرت عن عواطفها، ان تعبّر عن عواطف النفس البشرية في مظاهرها الحيّة الخالدة. ولقد وقى الألم المتنبي من معاييب كثيرة، اذ شغله غالباً

بالواقع الانساني الجدي عن اللهو بالصناعة اللفظية والمغاليات السخيفة وضروب
الايغراب التي كان يجنح اليها في صباه متأثراً بأبي تمام وأخذاً بالزي
البديعي الشائع . وقد حمله الالم ايضاً على انشاد الشعر العاطفي الوجداني، الذي
كان من شأن كبريائه وجوح خياله أن يُنثيأه عنه؛ فجاء بشعر غنائي بعيد الاثر،
قلّت فيه العاطفة الناعمة والانآت الشجية، ولكنه صادر عن نفس قوية طالما
كتمت آلامها وكظمت احزانها، حتى اذا بلغت من الاسى أبعد غاياته، انفجرت
بأبيات كهذه:

لَمْ يَتْرُكِ الدَّهْرُ فِي قَلْبِي وَلَا كَبِدِي شَيْئاً نُتِجَهُ عَيْنٌ وَلَا جِيداً
يَا سَارِقِي، أَخْمَرُ فِي كُوُوسِكُمَا أَمْ فِي كُوُوسِكُمَا هَمْ وَتَسْهِيْدُ
أَصْخْرَةَ أَنَا مَا لِي لَا تُخَرِّكُنِي هَذِي الْمُدَامُ وَلَا هَذِي الْأَغَارِيْدُ
إِذَا أَرَدْتُ كُمَيْتَ اللَّوْنِ صَافِيَةً وَجَدْتُهَا وَحَيْبُ النَّفْسِ مَفْقُودُ
مَاذَا لَقِيتُ مِنَ الدُّنْيَا؟ وَأَعْجَبُهُ أَنِّي بِمَا أَنَا شَاكٍ مِنْهُ مَحْسُودُ

فهي تحمل حزناً عميقاً مُبهماً يتسرّب الى ابعد قرارات النفس . وفي شعر المتنبي
الذي قاله من مصر وفارس، وفي رثائه لجدته ابيات كثيرة مثل هذه ~~للم~~ ثم ان هناك
حكم المتنبي التي يمكننا ان نعدّها من اروع شعره الغنائي، فهي لا تتخذ مظهر
الشعر العقلي إلا لان العاطفة قد تعدّت فيها حدود الفردية، وارتقت الى مستوى
العواطف الانسانية الشاملة، وقد ضمّنها الشاعر خلاصة ألمه واختباره وعواطفها

٣ - الخيال : أما خياله فله مثل ما لعقله من قدرة الابداع، وفتح اجواء
فسيحة جديدة، ومثل ما لعاطفته من ولع بالكبير الفخم القوي . خيال جبار،

(١) تَجَمَّه: استعبده . الجيد: العنق (٢) التَسْهِيْد: الحَمْل على السهاد وهو السَّهَر
(٣) المُدَام: الخمر: الاغاريد اي الاغاني (٤) الكُمَيْت: الاحمر فيه سواد؛ اراد خمرأ
كُمَيْت اللون . يقول: اذا طلبت الخمر وجدتها واذا طلبت الحبيب لم أجده، يعني ان شرب الخمر
لا يطيب إلا مع الحبيب والحبيب بعد عنه .

محقق أبدأ في أعال سحرة مغرم بكل عظيم يبهز النفس والعين، لا تستهويه الصور اللطيفة ولا يصبر على تنميقها ١٠ خيال واقعي لا يعمد إلى الرؤى ولا يعرف جو الأحلام، تخدمه عين حادة تلتقط الأشكال ولكنها لا تكاد ترى من الأشياء غير خطوطها الناتئة المدهشة، ولا تختار من المشاهد إلا العظيم فتتعلق بمراقبته ١١ ولا ريب أن هذه الواقعية وهذا الولوع بالفخامة، قد ضيقاً جداً من مجال ذلك الخيال الجبار، إلا أن الأسفار الوافرة وكثرة تنقل الشاعر بين الحواضر والبوادي، قد عوضت عن ذلك التضيق، وفوّرت للشاعر مجالات جديدة للتخيل وتنوعاً في الألوان؛ فاستطاع أن يخلق الصور والمشاهد الفسيحة الرائعة ١٢ ولقد أوحى إليه أحياناً هوسه النفسي، واضطراب تفكيره بصور متطرفة ولكنها على نصيب وافر من الجمال الفني لأنها بلغت من التشخيص أبعد مدى، ومن ابرعها تلك التي ألف الشاعر أن يتخيل فيها الدهر خصماً حياً يصارعه :

وَلَوْ بَرَزَ الزَّمَانُ إِلَيَّ شَخْصًا لَخَضَبَ شَعْرَ مَفْرِقِهِ حُسَامِي

وقد اختلف العقل والعاطفة والخيال في أكثر ما نظم المتنبي، وساهم اضطراب حياته الدائم على حفظ مواهبه هذه في حالة من التيقظ والاندفاع بعيدة عن الخمول والعقم . فبرزت شاعريته في ملئها، وتهياً لها من الفن ما أحلها مقاماً رفيعاً في عالم الأدب .

وعلى الجملة ، لقد أوتي المتنبي عبقرية قوية، افتقرت إلى الاتزان في بعض مظاهرها الحيوية والفنية .

٦٩

٨١ فن المتنبي : ليس المتنبي من الفنانين الذين يتوفرون على تزيين المعاني وإخراجها أبدأ في ثوب منسق زاهي الألوان، إنما فنه هو بجملة فن الطبيعة الحية المتدفقة، هو الفن الشخصي الذي يصدر عن النفس ويصطبغ بألوانها . ومن ثم رجعت ميزاته إلى ما يلي :

١ - الشخصية : كان المتنبي قبل اكتماله الشخصي وقبل اتصاله بسيف الدولة شديد التأثر بأساليب الغير من أعراب تزعزع ثقتهم وتعتمد ما ألفته اذواقهم من الفاظ ضخمة وتعابير مقتضبة لا تخلو من غرابة وغموض ؛ ومن متصنعين يتوفرون على الصناعة اللفظية والمعنوية كأبي تمام الذي هذا المتنبي حذوه في سواد شعر صباه متطلباً نظيره الطباقات والجناسات وما الى ذلك من وجوه البديع ؛ ومن متصوفين مغرمين بالاكثار من اسماء الاشارة والنداء وبتكرار الالفاظ ؛ ومن متفلسفين اخذ عنهم بعض القوالب الفلسفية الخارجية .

وما إن اكتملت شخصية الشاعر حتى راح ينظم ما توحى به تلك الشخصية الجبارة، وعلى الاساليب التي تلائمها، فأهمل الاساليب الشائعة التي تهافت عليها الشعراء من قبله واتخذوها قوالب جامدة يفرغون فيها نتائج قرائحهم ؛ وأعرض، ما استطاع، عما اعتمدوه من طرائق الصناعة والتنميق، مبتكراً لشعره قوالب شخصية حية تنسجم فيها معانيه وعواطفه وصوره . ومن أغرب ما توصل اليه في هذا المضمار طريقة مديح اصطنعها في بلاط كافور . فقد اراد المتنبي من شعره الكافوري استلاب الهبات والولاية من يد ذلك العبد، وكان في الوقت عينه يأنف من أن يبذل ماء وجهه ويلوث رونق شعره بمديح عبد زعيم لم يضر له قط سوى الاحتقار ؛ فقال شعراً ذا وجهين : وجه خارجي فيه مدح واسترسال في الاطراء، ووجه داخلي حشوه السخر والنقمة . وهكذا كان المتنبي من ابرع الساخرين وامهرهم .

وقد صبغت الشخصية المعاني التي اخذها المتنبي عن غيره، وطبعها بطابعها الخاص، فخرجت تلك المعاني كأنها جديدة، وكان المتنبي اول من اتى بها .

٢ - التنوع : ولما كان للشخصية اثر كبير في فن المتنبي فقد اصطبع ذلك الفن بألوان تلك الشخصية ؛ ومن ثم كان متنوعاً بتنوع الحياة، لا يسلك طريقة مقررة ولا يستند الى سوى الاندفاع الشخصي ؛ فكان شعر المتنبي في صباه نابض الثورة، وثاباً الى المعالي ؛ وشعره عند سيف الدولة مدوي الحماسة تشيع في اوزانه

الثقة الكاملة، والكبرياء المنتصرة؛ ومداعباته لكافور هازئة لاعبة يحد من وثبتها
أحياناً ألم الخيبة وحزن الإخفاق .

فللمتنبي في التعبير عن الامل والمرارة، وفي المدح والعتاب، وفي الهجاء الساخر
والوصف الرائع، اساليب والوان تختلف باختلاف العواطف والحالات النفسية .

٣ - القوة والضحامة : كان المتنبي رجل القوة فكان شعره قوياً تتجلى
القوة في معناه وفي مبناه؛ فحمل بذكر العظمة والبطولة، ووصف المعارك والسلاح؛
بل كاد فكر الشاعر لا يقف إلا عند كل فذّ جبار، حتى افضى به الامر أحياناً الى
مغاليات بعيدة عن المعقول .

واعتمد الشاعر القوة في تراكيبه، فأتى بها غاية في الإيجاز لا يكاد يجاريه في
ذلك احد من شعراء العرب؛ فهو يضمن الالفاظ القليلة دنيا من المعاني النادرة
العجيبة، وتصرفه غزارة مادته عن تقليب المعنى الواحد والتعبير عنه في صور مختلفة،
كما يصرفه اعتداده بنفسه عن التوفر على ايضاح معانيه والتوسع فيها؛ والمتنبي
يأبى ان ينحط شعره الى مستوى العوام، ويريد ان يفرضه فرضاً على ارباب الصناعة؛
ولهذا اكثر من التعابير القاطعة المرسلة لإرسال السنن والشرائع ١٢

وتجلّت القوة في متانة الجمل وصلابة الالفاظ، وتوخي الحروف الضخمة التي
يقتضي لفظها جهداً والتي تقرر الآذان وتستلفت الانتباه، وفي تطالب القوافي الشديدة
في اغلب المواقف . وقد بلغ المتنبي بذلك الى موسيقى غير موسيقى الاوزان،
موسيقى خالية من الرقة والعدوبة والانسجام، ولكنها في تمثيل العنف والقوة وجلبة
الحرب في أسمى مكان وأروع منزلة . ولهذا الموسيقى الجبارة جلجلة مدوية تمتد
تموجاتها في النفس بعد قراءة شعر المتنبي امتداداً طويلاً .

وكانت لغة المتنبي بمجملها لغة بدوية أصيلة في صفاتها، وسلامتها، ومتانتها،
وغناها؛ وقد صقلها المِران كما صقلتها البيئة الشامية حيث قضى الشاعر قسماً كبيراً
من حياته الادبية .

٤ - الشدوذ والتطرف : كان في نفسية المتنبي شدوذ وتطرف ظهر اثرهما في ما وقع في شعره من غثاثة وغموض . اما الغثاثة فقد كانت نتيجة الاحوال التي اضطرت الشاعر الى النظم عن غير اندفاع، او نتيجة جموح الخيال يجهد وراء معنى هزيل يغمره بالصور الضخمة، او يهجد بعد وثبة جبارة ويريد مع ذلك تتبع سبيله والتحليق في اجوائه، فيتعمت في اصطياد الغريب من الصور .

واما الغموض فقد بلغ فيه المتنبي درجة لم يبلغها غيره من الشعراء، ومن اسباب ذلك ان الشاعر تكلف احياناً اوجه البديع تكلفاً شنيعاً فاوغل في تطلب مراعاة النظر والطباق والمعاظلة والجناس إغفالاً شديداً استغلق معه المعنى المراد؛ وان الشاعر تعمّد احياناً الالفاظ الحوشية والتراكيب الغريبة المعقّدة لإظهار التفوق في اللغة وأساليبها ولاسيا في حدائمه وفي بلاط سيف الدولة حيث كثر حساده وناقذوه؛ وأنّ الشاعر قصد التشكيك احياناً في معاني شعره، ولاسيا في مدحه لكافور، فكان يأتي بأبيات ذات معنيين متناقضين ظاهرهما مدح وباطنهما هجاء؛ وأن الشاعر الى ذلك اغرق في الايجاز احياناً اخرى فحشر المعاني الكثيرة في الفاظ قليلة ضاقت عنها فاضطربت وصعب فهم ما فيها .

وهكذا لم يرافق المتنبي ذوق فني رشيد يُسعفه اذا خمدت عاطفته او ثارت، ويقيّل عثاره اذا جمح خياله .

ولكن هذا الشاعر الذي هوى في بعض الاحيان الى دركات من الاسفاف بعيدة، يملك مقدرة فريدة على التحليق في اجواء من الشعر لم يخفق فيها جناح شاعر آخر، ولم يُتيح لغيره ان يسمو اليها .

٩ شهرة المتنبي وغموره : « ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس » . كلمة قالها ابن رشيق، وهي لا تزال احسن تعبير عن الشهرة والسيرورة اللتين نالهما شعر المتنبي، منذ ظهوره حتى اليوم .

١ - عوامل شهرته : ان العوامل التي هيأت لشعر المتنبي هذه الشهرة،

وأفضت بالناس الى هذا الاهتمام به والاختلاف في شأنه، كثيرة، تنبثق من مصدرين رئيسيين، هما شخصية الشاعر، ووجه شعره المختلفة .

١ شخصيته : استرعت شخصية المتنبي بعظمتها الفذة وجسامتها الضخمة انتباه الجميع ولا تزال حتى اليوم - بفضل الشعر الذي تجلّت فيه - تستلفت كل انتباه، وفيها الخلال العظيمة البالغة في السمو وفيها المساوىء العظيمة المغمورة في التعسف . فانقسم الناس بين متحمّس للخلال ومحتقر للمساوىء، وكلا الفريقين يرى بعين واحدة . وقام من يحاول النظر بالعينين الاثنتين، فيحدّ روعة الخلال بالمساوىء، ويلطّف تطرّف المساوىء بالخلال .

٢ شعره : ١ - واما شعر ابي الطيب فقد ساهم على توسيع شهرته كثرة المترصدين الحاسدين، الذين اجتهدوا في إسقاطه وبالغوا، فحملوا الشاعر نفسه والمتشيعين له على المغالاة في التسامي ؛ فتمّ له ان ينتشر بين المتأدبين . وقد ساعد على ذلك ايضاً تنافس الكبراء في اجتذاب المتنبي اليهم، وتقلب الشاعر بين الامراء المتبارين في تعظيم شعره في اعين الناس .

٢ - زد على ذلك ما حفل به هذا الشعر من عناصر مختلفة جمّة، وافقت نزعات طوائف متنوعة من الناس في مختلف الازمنة، وما تركت فيه شخصية الشاعر الغنية من آثار كثيرة الالوان، جعلته شرعة اكل وارد . فاحبه المقلدون لما يُشتمّ منه من رائحة البداوة، وما فيه من المحافظة على الاساليب المعهودة واستقلال البيت الشعري، وجزالة التركيب . واحبه المجددون لما رأوا فيه من جرأة على تحطيم التقاليد القديمة، وابداع في الصور والمعاني، وما وجدوا في فنه من حيوية وقوة، وتلاؤم بين المعاني والمقاطع .

واحبه اصحاب الشذوذ لما فيه من تطرّف . واهتم له اللغويون لما ابدى الشاعر من معرفة للغة ووقوف على اسرارها . واهتم العلماء لما جمعه من فوائد تاريخية وثقافية في ذلك العصر .

٣ - ثم إن في شعر المتنبي عنصرين من شأنهما ان يجعلاه على كل لسان،

فهناك تصوير القوة والعظمة في تعبير محكم متلّهب يستهوي جميع النفوس، فان الانسان من طبعه مولع بالعظمة، ميال الى اظهار القوة ولو في الكلام .
وهناك العنصر الانساني الذي لا يكاد ينجو من تأثيره احد، وقد عمل كثيراً على سيورة شعر المتنبي . فقد جمع الشاعر في بعض ابياته من معرفة اسرار النفس البشرية، والتأثر العميق بمختلف العواطف، والملاحظات الانسانية الشاملة، والآراء العملية، والفن القوي الايجاز، الجميل الاحكام، ما يجعلها تعلق بالذاكرة، فتصبح تعبير العواطف في شتى احوالها، يرددها الناس في كل عصر وكل مكان .

٢ - الحركة المتنبية على مر العصور : شغل المتنبي الناس ، فانقسموا في شأنه . وكان من اشد المتحيزين له حمّة في اواخر العهد العباسي الشاعر ابو العلاء . وقد شرح ديوانه وسمّاه « معجز احمد » . اما الناقون فكان في طليعتهم صاحب ابن عبّاد وابو سعيد العميدي . وكان دأبهم على الخصوص التنقيب عن سرقات المتنبي في معانيه وتعابيره . واما الفريق الوسط فنهم القاضي الجرجاني صاحب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » ، وابو منصور الثعالبي الذي افرد للشاعر في كتابه « يتيمة الدهر » فصلاً واسعاً بين فيه ما له وما عليه ؛ وابو علي الحاقمي الذي ألف رسالة أوضح فيها توارّدات الافكار في شعر المتنبي وحرّم أرسطو . ثم أتى ابن الاثير فذكر كثيراً من محاسن المتنبي ومساوئه في « المثل السائر » .

واستمر الخلاف في العهد التركي او عهد الانحطاط . واشهر الناقين عليه في ذلك العهد ابو هلال العسكري، وابن خلدون الذي نفاه من هيكل الشعر . وكان لهذه المظاهرات التهجمية ردة فعل عنيفة في عهد النهضة، فبلغ التشيع ببعضهم ابعد حد، حتى غدا اسم المتنبي يعني الشاعر العظيم، واعتبر ديوانه كالمثل الاعلى للشعر، الذي ينبغي تقليده . ومن اشهر المتشيعين له ومقلّديه اذ ذاك الشيخ ناصيف اليازجي وقد قال : « كأن المتنبي يمشي في الجوّ وسائر الشعراء يمشون على الارض » . وكان لنبرات المتنبي القوية اصداً في شعر البارودي وشعر شوقي .

وتعدى اسم المتنبي تخوم المشرق، الى المغرب، فوضع ابو جعفر القزاز المتوفى سنة ١٠٢١ م / ٤١٢ هـ كتابين هما « ابيات معاني في شعر المتنبي » و « ما أخذ على

المتنبي من اللحن والغلط . . وشاع ذكر أبي الطيب في الاندلس وعُرف ديوانه، وكان موضوع احاديث الاندية، كما شاع ذكره والاعجاب به في المغرب الاقصى، حيث اختصر عيسى بن عبد العزيز الجزولي المتوفى سنة ١٢١٣ م / ٦١٠ هـ شرح ابن جني لديوان المتنبي، وحيث كثر المهتمون بشأن هذا الشاعر من الادباء والمؤلفين .

ولقد كلف النحاة واللغويون ايضاً بشعر المتنبي منذ القدم، فوضعوا مصنفات مسهبة تتناول كل بيت من ابياته، وتناقش ما فيها من غرابة او شذوذ او صحة او جمال بديعي، كما فعل ابن هشام في كتاب « المغني » . واتخذ آخرون كعبد القاهر الجرجاني وابي يعقوب السكاكي، مرجعاً ينتقون منه نماذج وامثالا تؤيد مذاهبهم في النحو واللغة .

أضف الى ذلك الشروح الوافرة التي وضعت لديوان أبي الطيب وغزارة الابحاث التي تناولت شعره واتفق على وضعها اكبر النقاد الشرقيين والمستشرقين، من ابن جني الى الشيخ ابراهيم اليازجي في الشرق، ومن رايסקه الى دي ساسي الى هامر الى نيكلسون الى بروكلين الى بلاشير الى فرنشيسكو كبريالي في الغرب . . .

جولة جبارة جالها شعر المتنبي بين السنين والقرون، منذ ايامه حتى الآن .

٣ - اثر المتنبي وشعره في الادب : سار شعر المتنبي واهتم له الادباء ، فكثرت مقلدوه كثرة مدهشة . ولم يكن ذلك بالاثر الصالح من كل الوجوه، فإن كثيرين من مقلديه جاروه في صيغته الخارجية عاجزين عن مجاراته في عبقريته، فأغرقوا شعرهم في بحر من الطباقات والجناسات والتكلفات البديعية ، وضروب الشذوذ والعموض، واكثروا من استعمال الالفاظ المدوية الجوفاء .

اما الاثر الصالح فهو ان المتنبي ترك في شعره نماذج رائعة في التجديد والتحرر من التقاليد المصطنعة وأساليب المدح الرثة، وأدخل في الحكم نفساً شعرياً قوياً، أخرجها من باب الشعر التعليمي الجاف، وبعث في القوائد قوة وفخامة حافظتا من جهة أخرى على متانة الشعر العربي وحيويته النابضة .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- طه حسين : مع المتنّي (جزآن) - القاهرة ١٩٣٦
- فؤاد افرام البستاني : ابو الطيب المتنّي - الروائع (١١ و ١٢) - بيروت
- » » : اثر المتنّي : المشرق ٣٣ (١٩٣٥) - ص ٢٨٩ - ٢٩٧
- عبد الوهاب عزّام : ذكرى ابي الطيّب بعد الف عام - بغداد ١٩٣٦
- شفيق جبيري : المتنّي - دمشق ١٩٣٠
- حنّا عمر : المتنّي - سلسلة «الطرائف»
- شوقي ضيف : الفنّ ومذاهبه في الشعر العربي - القاهرة ١٩٤٥ - ص ١٨٠ - ٢٤٢
- احمد امين : فيض الخاطر : المتنّي وسيف الدولة وفلسفة القوّة في شعره - ص ٧٣ و ٩١
- » : ظهر الاسلام ١، ١٩٤٦
- عباس محمود العقاد : مطالعات في الكتب والحياة - ص ١١٨ - ١٧٩
- ابراهيم عبد القادر المازني : حصاد الهشيم - ص ١٨٤ - ٢٢٩
- مارون عبود : الرؤوس - ص ١٦٤ - ٢٧٧
- عبد الرحمن شكري : المتنّي وسرّ عظّمته - الرسالة ٧ (١٩٣٩) - ص ١٥٣ - ١٥٥
- و ١٩٥٥ - ١٩٨
- سعيد الاقفاي : دين المتنّي - الرسالة ٤ (١٩٣٦) - ص ١٢٥٣ - ١٢٥٧ و ١٢٩٣ - ١٢٩٧
- عبد الوهاب عزّام : علم المتنّي باللغة والادب، في كتاب «ذكرى ابي الطيب بعد الف عام» - بغداد، وفي مجلة الرسالة ٤ (١٩٣٦) - ص ١٤٣٠ - ١٤٣٣
- عبد الوهاب عزّام : البداوة في طباع ابي الطيب - الرسالة ٤ (١٩٣٦) - ص ١٣٣١ - ١٣٣٣
- سامي الكيالي : نشأة المتنّي وعصره - مجلة الحديث ٦ (١٩٣٥) - ص ٤٧٨ - ٤٨٥
- علي ادعم : على هامش الادب والنقد - ص ٦٣ - ٩١
- امين الريحاني : المتنّي شاعر العروبة - المكشوف، الاعداد ٦٦ (٨)، ٦٧ (٦)، ٦٩ (٦)، ٧٠ (١٠)
- الشيخ ابراهيم اليازجي : تذييل ديوان المتنّي
- ابو منصور الثعالبي : ابو الطيب المتنّي واخباره - الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٢٥
- طاهر الكيالي : ابو الطيب المتنّي : شعره ونسبه - المطبعة المصرية

٢ المراجع الاجنبية :

R. Blachère : Abou-t-Tayyib al-Motanabbî - Paris, 1935.

Al-Mutanabbi (Mémoires de l'Institut Français de Damas) - Beyrouth, 1936.

موضوعات للمبحث

- ١ - كانت حياة المتنبي مأساة من مآسي العظمة والطموح . اوضح ذلك .
- ٢ - اخفق المتنبي في حياته، وكان لهذا الإخفاق أثر عميق في شعره . اوضح ذلك .
- ٣ - كيف تظهر شخصية المتنبي في فنونه الشعرية، وهل تطوّرت تلك الفنون بتطوّر شخصيته صاحبها؟
- ٤ - قال الشيخ ابراهيم اليازجي : « المتنبي ينطق بألسنة الحداث و يتكلم بخاطر كل انسان » . توسّع في هذا القول .
- ٥ - /ظهرت النزعة القومية في شعر المتنبي/ كيف كان ظهورها وما الاحوال التي عملت على تقوية تلك النزعة في الرجل ؟
- ٦ - قال المتنبي :
وما الدهرُ إلا من رُواة قصائدي إذا قلتُ شعراً أصبح الدهرُ مُنشدًا
هل صدق المتنبي في قوله، وما الاسباب التي عملت على سيرورة شعره ؟
- ٧ - قال ابن رشيق : « ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس » . اوضح هذا القول .
- ٨ - 'نسب الى المعري انه قال : « ابو تمام والمتنبي حكيان والشاعر البحتري » . ما رأيك في هذا القول ؟
- ٩ - ما هي الاسباب التي دفعت ابن خلدون الى اعتبار المتنبي ناظماً لا شاعراً ؟
- ١٠ - جمع ابو العلاء المعري آثار ابي تمام والبحتري والمتنبي في كتب ثلاثة سماها « ذكرى جيب » ، و « عبث الوليد » ، و « معجز احمد » . فاذا قصد بهذه التسمية ؟
- ١١ - قيل عن المتنبي انه جمع في حكمته بين اختبار طرفة ومشاهدة زهير . ناقش القول، وابد رأيك بشواهد .
- ١٢ - كيف تتمثل البيئة السياسية والاجتماعية من دراستك لشعر المتنبي ؟
- ١٣ - احمد الى قصيدة المتنبي التي مطلعها :
واحرّ قلباه ممّن قلبه شبنمٌ ومّن بحالي وجسمي عنده سقمٌ
واظهر فيها احوال المتنبي النفسية، وميزاته الادبية .
- ١٤ - احمد الى قصيدة المتنبي الدالية في هجاء كافور وحليها تحليلًا ادبيًا .

أدب الاستقرار والتدرج نحو الجمود

الشعر

الفصل الثالث

أبو فراس الحمداني (٩٣٢ - ٩٦٨ م / ٣٢٠ - ٣٥٧ هـ)

١ حياته : ولد أبو فراس في الموصل من أسرة أمراء، وقتل أبوه وهو بعد طفلاً، فنشأ في بلاط سيف الدولة وحظي بثقافة حسنة ودربة على أساليب الفروسيّة . ثم ولاه سيف الدولة على منبج وحرّان . وقد أسره الروم مرّتين على الأرجح، وحملوه في المرّة الثانية إلى القسطنطينية . وطال به الأسر، فكتب إلى ابن عمه سيف الدولة في أمر افتدائه، فنبأ سيف الدولة، وظلّ يُبجّلُه حتى كانت سنة ٩٦٦، فبذل فديته . وبعد سنة، مات سيف الدولة، فرغب أبو فراس في توسيع مقاطعته، فحاربه أبو المعالي، ابن سيف الدولة، فسقط في ميدان القتال وهو في السادسة والثلاثين من عمره .

٢ آثاره : لابي فراس ديوان شعر، جمعه له استاذُه ابن خالويه . وقد طُبِعَ مراراً، وأفضل طبعاته طبعة الدّهان الحديثة . وفيه منظومات في ابواب الشعر المعهودة من غزل واخوانيات ورثاء وفخر . ولكنّ أشهر ما فيه واجله « الروميّات » .

٣ فنونه الشعرية :

- ١ - الغزل : رقيق، لين، ولكنه قليل المبتكر، ضعيف الخيال .
- ٢ - الاخوانيات : فيها شوق وعاطفة رقيقة، ونصيحة، ومشاطرة الافراح والاحزان .
- وفيها تشكّ من تقلّب الأصدقاء وقلّة الوفاء .
- ٣ - الرثاء : قليل، قصير، صادق، فيه شيء من التفجّع وكثير من الحزن .
- ٤ - الوصف : حمي، ولكنّ اغلبه ضعيف .

٥ - الفخر : فخر الشاعر بعزّ قومه واجادهم كما فخر بشائله ومحامده ؛ وكان فخره عالي النفس، حيّ العاطفة .

٤ الروميّات :

١ - دواعي نظمها : ألم الأسر - تباطؤ سيف الدولة في فدائه - ألم أمّه - رقّة قلبه .

٢ - أقسامها وموضوعاتها :

- آلام نفسه : شوق، وحنين، وحزن، واحلام، وتجلد، وشكوى .

- الى أمّه : شكوى، وتوصية بالصبر والثقة بالله .

- الى اصدقائه : شكوى وعتاب وردّ على الحساد، وفخر .

- الى سيف الدولة : استعطاف - مدح - فخر - شكوى - عتاب - بعض التهديد - قصائد فخرية .

٣ - قيمتها : صورة تامة لنفس الشاعر، وعاطفة عميقة فيّاضة، تبلغ أحياناً الى القيم الانسانيّة .

٥ شاعريّته وفنّه :

١ - المعاني والم عاطفة : عاطفة متغلّبة، تستقي منها المعاني، غير عميقة ولكنها مؤثرة .

٢ - الخيال : ضعيف، تطفئ عليه العاطفة .

٣ - الاسلوب : منطق العاطفة، ومزج المعاني مزجاً فنياً .

٤ - المبنى : الفاظ توافق المعنى والم عاطفة، وتراكيب منسجمة، وقعت فيها اغلاط لغويّة ونحويّة .



ابو فراس الحمداني كما تخيَّله الفنان ارتورو اورتيس

١- حياته :

١ - أصله ونشأته : ابو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان بن حمدون الحمداني وُلد في الموصل سنة ٩٣٢ م (٣٢٠ هـ) من أبٍ عربيٍّ وأمٍّ رومية، منتسباً الى اسرة امراء كانوا في أوج العزِّ والمجد . وقُتل ابوه وهو طفل لم يتجاوز الثالثة من عمره،

فنشأ تحت رعاية ابن عمه سيف الدولة حين كان في خدمة الخليفة يتنقل بين بغداد والموصل وديار ربيعة، ثم في حلب عندما اقتطع لنفسه حصص وحلب واستقل بالإمارة وانشأ حوله بلاطاً جمع من الادباء والشعراء والعلماء العدد الكبير، وخلق حوله جواً فسيحاً من الثقافة والعلم والبطولة، ترعرع فيه ابو فراس ينهل منه الشيء الكثير ويتدرب على اساليب الفروسية . وكان سيف الدولة يعطف على نسيبه الصغير لما توسم فيه من الخلال الطيبة في الشجاعة والادب حتى اذا قوي ساعد الشاب استصحبه الامير في غزواته وأراه انتصاراته وانكساراته، واضرم في قلبه نار الحماسة والشجاعة . وهو في اثناء ذلك يقول الشعر وينصرف في البلاط الى مناظرة الشعراء والعلماء ويملاّ بذلك قلب الامير سروراً وفخراً .

٢ - امير منبج : كان سيف الدولة معجباً بحاسن ابن عمه كما كان يطرب لشعره ويجزيه خير جزاء، حتى انه اقطعه ضيعة باعمال منبج تغل ألفي دينار في السنة . وذلك، على ما يُروى، لانه اجاز للامير بيتاً من الشعر . وزاد سيف الدولة على ذلك ان ولّاه على منبج وحرّان واعمالها جميعاً . وكانت منبج حصناً منيعاً لحلب ومكاناً مكيّناً من نظام العواصم والثغور، وكان على الامير الشاب ان يدفع عنها هجمات الروم ويذلّ القبائل الثائرة بابن عمه . فقضّى سنوات عدّة في مقارعة الكتائب للذود عن حماه وحمى الامير، وهو لا ينفك في اثنائها ينظم الشعر ويتعاطى الادب .

٣ - الامير الاسير (٩٥٩-٩٦٦) : وفي سنة ٩٥٩ وقع ابو فراس في ايدي اعدائه الروم . وقد اختلف مؤرخو الادب في اسره فمنهم من ذهب الى انه أُسر مرة واحدة، ومنهم من قال انه أُسر مرتين . والرأي الثاني هو الأرجح وهو الذي يُستخلص من مقارنة الروايات، كما انه هو الحلّ الاصلح الذي يوفق بين المؤرخين الاقدمين . وقد كانت مدة اسره كلها سبع سنين وأشهرًا . اما الاسر الاول فقد جرى في سنة ٩٥٩ في مغارة الكحل . فكان من الروم ان حملوا الشاعر الى خرشنة وهي حصن على الفرات قرب مَلطية . ولكن ابا فراس ما لبث ان نجا

من سجنه . وقد اختلف في امر نجاته هذه، فمنهم من قال ان سيف الدولة فداه، ومنهم من قال بل هو فرّ بنفسه .

وأما الاسر الثاني فكان سنة ٩٦٢ . وذلك ان ابا فراس عاد الى الحرب بعد نجاته فقبض عليه الروم وحملوه الى القسطنطينية وعاملوه معاملة حسنة تليق بمقامه . وطالت به المدة في الاسر وسيف الدولة متغاض عنه لا يلتفت الى فدائه . فكتب اليه الرسالة تلو الرسالة يستعطفه تارة ويلومه أخرى . وقد هدّده بالجوء الى الغرباء والخصوم في خراسان او مصر ان هو اصر على التباطؤ في بذل الفداء . وكتب ايضاً الى والدته يعزيها عن مصابها به ويحرّضها على الصبر . وكانت رسائله طافحة بالشعور الأليم والحنين الى الوطن وتذكير سيف الدولة بالخدمات التي اداها له عندما كان يناضل في سبيله .

ولم يذكر المؤرخون سبب تباطؤ امير حلب عن فداء أبي فراس، ولعله شام منه طموحاً كبيراً واحس منه طمعاً في الملك، وترّيب من ادلاله وزهوه وشجاعته، فرأى ان يمدّ في أسره ليكسر من شوكته ويحط من غلوائه ويأمن شره . حتى اذا كانت سنة ٩٦٦ بذل فديته فعاد ابو فراس الى وطنه بعد مدة من العمر قضاها في مرارة، وبعد طعنة اصابته في فخذه، وبعد انكفاء على جروحه الجسدية والنفسية علمه ان يشرح قلبه ويكشف أسرارته، كما علمه ان يبكي وان يجد في الدمع عزاء، وان يقول شعراً هو عصارة تلك النفس الشريفة المتألّمة، وهو نفحة من اجمل نفحات الشعر الانساني، فكان ذلك الشعر ما سُمي « بالروميات » .

٤ - مقتله: ولم تمض سنة على فداء الشاعر حتى توفي سيف الدولة (٩٦٧)

وخلفه ابنه ابو المعالي سعد الدولة وهو ابن اخت الشاعر، يعاونه على الامر قرغونية مولى ابيه، فعزم ابو فراس على التغلب على حمص واقتطاعها لنفسه، واتصل خبره بأبي المعالي، فوجه اليه جيشاً بقيادة قرغونية، فسقط ابو فراس في ميدان القتال في الرابع من نيسان سنة ٩٦٨ م (٢ جمادى الاولى عام ٣٥٧ هـ) وهو في السادسة والثلاثين

من عمره . وقد ذكر ابن خالويه ان آخر شعره هو قوله لما ادر كتته الوفاة،
يخاطب ابنته :

أَبْنَيْتِي ، لا تحزني كل الأنام إلى ذهاب
أَبْنَيْتِي ، صبراً جميلاً للجيل من المصاب
نُوحِي عَلَيَّ بِحَسْرَةٍ من خلفِ ستركِ والحجاب
قُولِي ، إذا ناديتني وعيبتُ عن ردِّ الجواب :
« زَيْنُ السَّبَابِ أَبُو فِرَاسٍ لم يَمْتَعْ بالشَّبَابِ ! »

٢ آثاره : الديوان :

١ - جمعه : كان أبو فراس يأنف أن يُحسب في عداد الشعراء وهم من حاشية
الامراء، فأعرض عن جمع منظومه ولم يرجع اليه لضبطه وتنقيحه . فكان استاذ
ابن خالويه المتوفى سنة ٩٨٠ م يجمع في بلاط سيف الدولة، ما يلقي اليه أبو فراس
من الشعر، حتى اذا توفي الامير، نشره وقد علّق عليه مقدمات وشروحاً . وانتخب
الشعالبي من بعده قسماً كبيراً مما رُوي له من القصائد ولا سيما الروميات، وأورده
في كتابه « يتيمة الدهر » .

٢ - طبعااته المختلفة : ظهرت اول طبعة للديوان في بيروت سنة ١٨٧٣ بالمطبعة
السليمية، وهي مشوّهة بالاطاء الكثيرة وبالنقص الجسيم . وظهرت الطبعة الثانية
في بيروت ايضاً سنة ١٩٠٠ مع بعض الشروح، وهي كذلك ناقصة مشوّهة، وظهرت
طبعة ثالثة سنة ١٩١٠ هي صورة لطبعة ١٩٠٠ من غير ما تغيير ولا تبديل . ثم اخيراً
اظهر الدكتور سامي الدهان طبعة علمية لديوان ابي فراس كان حلقة من سلسلة منشورات
المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، وطبعها في بيروت سنة ١٩٤٤ . وهي
انيقة قدّم لها بدراسات تاريخية ذات شأن وعلّق عليها شروحات وحواشي قيّمة كما
وضع لها فهرس طويلة . وان لم تكن هذه الطبعة خالية من الاخطاء والاوهام
فهي محاولة موفّقة لما فيها من دراسة للمخطوطات المنشورة في اقطار العالم، وما
بُذل من الجهود في اختيار الاصح منها .

٣ - محتواه: يحتوي ديوان ابي فراس ما يمكن ان يحتويه ديوان شاعر أمير اتخذ الشعر أهوة يتلهم بها، وصرخة يصعد فيها آلامه النفسية، وعبارة عما يحتلج في صدره من عواطف الفخر، والحب، والصدقة، والثراء، والشكوى وما الى ذلك . ولا يخلو ديوانه ايضاً من الوصف والحكم . وقد قال الشاعر في منظومه :

لم أعد فيه مفاخري ومديح آبائي الشجب
لا في المديح ولا الهجاء ولا المجون ولا اللعيب

واكن القسم المهم في ديوان الشاعر، هو ما نظمته في اسره وما يسمى «الروميات» .

٣ فنونه الشعرية :

١ - الغزل : يأتي الغزل في ديوان ابي فراس إما مستقلاً في مقطوعات قصيرة، قلما زادت على خمسة ابيات، ينشدها الشاعر في احايين لهوه، حين ينصرف عن الحرب وميادين الجهاد الى الراحة ومجالس الانس، وإما استهلالاً لمنظومة في المدح والفخر وسواهما، يجري فيه على اسلوب الاقدمين في قصائدهم، فلا يقصد الغزل لذاته، في الاغلب، بل يتخذ مطية الى موضوعه، كما فعل الشعراء من قبله .

ولم يتعد في اكثر هذه الاستهلالات ما جاء في غزل القدماء من بكاء على طلول الاحبة، وتذكر الربع الراحل، وفراق الحبيب وايراد محاسنه الخارجية موصوفة بالصور والاساليب المعهودة . وفيها ايضاً دمع غزير، وعناء قاس، وحنين، ومجادلة للعدال . وقد يوفق الى نظم الابيات الرقيقة المستظرفة، كقوله في مطلع احدى روميّاته :

تُساألني : « من أنت ؟ » وهي عليمةٌ وهل بقى مثلي، على حاله، نكرًا ؟

(١) على حاله : مع شهرته . النكر : الجهل بالشخص وعدم معرفته .

فقلتُ، كما شاءت و شاء لها الهوى : «قتيلك!»، قالتُ : «أَيُّهم فُهمُ كُثرُ!»...
وقالتُ : «لقد أزرى بك الدهرُ بعدنا!» فقلتُ : «معاذَ الله ! بل أنتِ والدهرُ»
فعدتُ إلى حُكم الزَّمانِ وحُكمها لها الذَّنْبُ لا تُجْزى بهُ، وليَ العُذرُ

أما الغزل المستقل، ففيه وصف لجمال الحبيب، وتعداد لصفاته وهي في أكثرها خارجية، وذكرُ لصدوده وعشه بقلب المحب . وفيه وصف للعاشق المعنى، بفؤاده السقيم، وطرفه الدامع، ونفسه المشوقة، وخضوعه للهوى، وصفحه عن الجفاء، وتعرضه لكيد الحساد . وفيه أيضاً وصف متعفف لساعات الانس . ولا تخلو هذه المقطوعات من رقة ولين، وبعض التحليل النفسي، كما أنها لا تخلو، على ضعف خيالها، من الصور الطريفة والتعابير المستملحة، كما في قول الشاعر :

وشادنٍ قالَ لي، لما رأى سَقَمي وضعفَ جِسْمي والدَّمعَ الذي انسَجَمَ :
«أَخَذْتَ دَمْعَكَ مِنْ خَدِّي، وَجَسْمَكَ مِنْ خَضْرِي، وَسُقْمَكَ مِنْ طَرْفِي الَّذِي سَقَمَا»

٢ - الاخوانيات : الاخوانيات هي القصائد والايات المنشورة التي كان ابو فراس يرسلها الى اصحابه وانسابائه وخلَّانه من امثال ابي الهيثم، أخيه، وابي العشائر نسييه، وابي الحُصين صديقه، وسواهم .

وان فيها من رقة العاطفة، وصفاء التودد، وتكرار التحيات، وحرارة الشوق، والدعاء الصادق، شيئاً كثيراً . كتب ابو فراس الى صديقه ابي الحُصين القاضي، وقد عزم على المسير :

يا طُولَ شَوْقي، إِنْ كَانَ الرَّحِيلُ غدا لا فَرَّقَ اللهُ فِيمَا بَيْنَنَا أَبَداً!
يا مَنْ أَصَافِيهِ فِي قُرْبٍ وَفِي بُعْدٍ وَمَنْ أَخَالَصُهُ إِنْ غَابَ أَوْ شَهِدَهُ
راعَ الْفِرَاقُ فَوَادِئاً كُنْتَ تَوْنُسُهُ وَذَرَّ بَيْنَ الْجُفُونِ الدَّمْعَ وَالسَّيْدَةَ

(١) أزرى بك : أذلك وحقرك (٢) لا تُجْزى به : لا تعاقب به (٣) الشادن : ولد الظبية، ويشبهون به المرأة . السَّقَم : المرض . انسجم : سال وانصب (٤) أصافيه : أخلص له المودة . شهد : حضر (٥) راعه : أفزع . ذرَّ : نثر ورش . السَّهْد : الأرق وعدم النوم .

لا يُبْعِدُ اللهُ شَخْصًا، لَا أَرَى أَنْسَا وَلَا تَطِيبُ لِي الدُّنْيَا إِذَا بَعْدًا!

وهناك أيضاً، في بعض المواقف، إسداء النصيحة، والحثُّ على التجلُّد والصبر، وتذكير المحبة والمصافاة، ومشاطرة الأفراح والاحزان، والسعي في وقاية الصديق من المكروه، وإقالة أثرته بلطف ودراية، واليك أبياتاً من قصيدة بعث بها إلى نسييه أبي العشائر وقد أسره الروم :

لذِئذُ الكرى حتى أراكُ مُحَرَّمٌ ! ونارُ الأسى، بين الحشا، تنفُرمُ !
وأتركُ أن أبكيَ عَلَيْكَ تطيُّراً وقلبي يَبْكِي والجوانحُ تلطمُ^٢

وله في باب الاخوانيات أبياتٌ عتائية ومقطوعاتٌ يشكو فيها من الدهر ومن الصداقة السخيفة التي يُبدِّلها تغيُّر الأحوال . فتراه يمتدح الوفاء في من حفظ له المودة على نكبتة في الأسر، ويفتخر بلطف معاتبته ومعاملته لصديقه :

وإذا وُجِدْتُ مَعَ الصَّدِيقِ شَكْوَتُهُ سَرًّا إِلَيْهِ، وَفِي الْمَحَافِلِ أَشْكُرُ

والصديق الصديقُ في نظره، من صان الغيب، وحافظ على العهد في القرب والبعد، ومحض المودة سرًّا وعلناً :

وَأَحَبُّ إِخْوَانِي إِلَيَّ أَبْرَثُمْ لَصَدِيقِي، فِي سِرِّهِ أَوْ جَهْرِهِ؟

وصبر على الصديق في زلَّته :

يَجْنِي عَلَيَّ، فَأَخْنُو صَافِحًا أَبَدًا لَا شَيْءَ أَحْسَنُ مِنْ حَانٍ عَلَى جَانٍ^٤

إن في اخوانيات أبي فراس من مظاهر الشعور المرفف والعاطفة المتدفقة

(١) الكرى : النوم . الأسى : الحزن . تنفُرمُ : تلتهب (٢) تطيُّراً : تشاؤماً . الجوانح : الضلوع . تلطم : تلتج . يقول : إني اضبط نفسي عن البكاء، تشاؤماً منه، لئلا أكون كمن يبكي على من أودى به المصاب . ولكن قلبي في داخلي يبكي، وضلوعي تلتج، على نكبتك (٣) أبرَّهم : أحسنهم معاملةً عن حبٍّ (٤) أخنو : أديل إليه وأعطى عليه .

ما ينال من القلب، ولكنه قلما يسمو به الخيال الى الجو الفسيح، ليصيب الصور البديعة التي تسترعي الانتباه .

٣ - الزناء : لم يرث ابو فراس الا بعض ذويه كأخته وأمه، وبعض انسبائه من بيت ابن عمه سيف الدولة، وبعض اصدقائه المقربين، وذلك لانه لم يتخذ الشعر صناعة، بل قاله للتعبير عن العاطفة الصادقة والتفريغ عن النفس الكثيرة .

ورثاؤه قصير، يرسله زفرة متأهة، آسفة، لا تجد للمصاب عزاء، ولا تقدم على تعزية الاقارب فكأنما هوى كل شيء بموت الفقيده . وان هو اقدم على التعزية فذلك بمشطرة الاسى، وسكب الدمع الغزير وحرمان اجفانه النوم . قال يرثي أخت سيف الدولة :

أوصيك بالحنن، لا أوصيك بالجلد ! جلّ المصاب عن التّعنيف والفند
إني أجلك أن تكفى بشعيرة عن خير مُفتقد، يا خير مُفتقد ...
بي مثل ما بك من حزن ومن جزع وقد لجأت إلى صبر فلم أجدر
أبكى بدمع له من حشرتي مدد وأسريح إلى صبر بلا مدد ...

ثم تراه بعد التحسر والحزن، خاضعاً لحكم القضاء الذي لا يُردّ، قليل التفعج، وذلك لتعوده مجابهة الردى في الحروب؛ ولكنه متى نالته الرزية في الصميم، سالت عاطفته صادقة، مؤثرة، عليها صبغة الوفاء الخالص والمودة الحقة . قال يرثي غلاماً له :

أعزّ عليّ بأن يبيت مُوسداً وأبيت أندبهُ مع الإخوان
ولقد وددتُ بأن أكون مكانهُ تحت التراب وأن يكون مكاني

٤ - الوصف : اما الوصف فقد جاء في الفخریات وذكر الوقائع، وفي اراجيز قصيرة . وهو حسيّ، لا يخلو من الدقة ولكن أغلبه ضعيف، فيه بعض

(١) الجلد : الصبر . جلّ المصاب ... اي ان المصاب اعظم من ان يلام صاحبه ويرمى بضعف العقل لحزنه (٢) الجزع : فقد الصبر (٣) المدد : العون .

الاغراب اللفظي، كما في وصف السحاب . وتغلب عليه رقة الحضارة، وزخرف الترف واللهو .

ولابي فراس قصيدة طردية طويلة، تبلغ ١٣٧ بيتاً، فيها شيء من الرواء والمتعة الادبية .

٥ - الفخر : لقد افتخر ابو فراس كل حياته، حتى في اسره، واقحم الابيات الفخرية في اغلب منظومه، ايّا كان نوعه .

١ الدواعي الى الفخر :

١ - كان لابي فراس من عزّ قبيلته تغلب ومكانة آبائه الذين اشتهروا بالشجاعة والجلد وعلو الهمة، داعٍ يستفزّه الى الفخر، ولاسيا وانه قد تفتحت عيناه للنور في قصر تملأه طائفة من حملة السيوف وارباب الادب .

٢ - ولما شبّ رأى في نفسه انفة وفتوة ناضرة، وشجاعة ترغب في قراع الاسنة واقتحام المخاطر، وشماثل اثارت في نفسه الاعجاب .

ولما خاض ميدان القتال واحرز من الانتصار على مناهضي ابن عمه سيف الدولة ما هزّ اعطافه طرباً، هبّ يترنم بوقائعه، وترنّسه بالشدة والتصلب في مجابهة الاخطار . ثم لم يلبث ان أسر، فتبدلت حاله، ولكنه ابى المذلة، فشرع يتعزّى ويتنشط بذكر مآثره وخصاله .

٣ - ولعلّ تقيمه في حادثة سنه، الذي حرّمه عطف والده وحفاوة المتزلفين، دعاه الى الفخر، استعاضةً عن مديح الشعراء .

٢ موضوعه :

١ - فخره بقبيلته وقومه : لابي فراس في قبيلته وذويه مفاخر كثيرة، منها قصيدة طويلة تبلغ ٢١٥ بيتاً، مطلعها :

لعلَّ خيالَ العامريَّةِ فائزٌ فيسمعَدَ مهجورٌ، ويسعدَ هاجرٌ

وهو يرى في قبيلته الخير كله، فإن ماضيها وما لها من الايام الماثورة، قبل الاسلام وبعده، يشهدان بمفاخرها . وناهيك بآل حمدان دليلاً . هم اولو المناقب الرفيعة، والمآثر الجليلة، وهم اصحاب الكرم والمجد والشجاعة :

لَسِنٌ خُلِقَ الْأَنَامُ لِحَسَوِ كَأْسٍ وَمِزْمَارٍ وَطَنْبُورٍ وَعُودٍ
فَلَمْ يُخْلَقْ بَنُو حَمْدَانَ إِلَّا لِمَجْدٍ أَوْ لِبَأْسٍ أَوْ لِحُجُودٍ

وفي آل حمدان السياسة المحنكة، وقد بذلوها في سبيل الخلافة فأقدموا على الحرب ردعاً للخوارج، وتذليلاً للثائرين، وقهراً للروم، وإخضاعاً للقبائل المتشتمة .

قال في قصيدة يفخر بها على ترار :

تُفَضِّلُنَا الْأَنَامُ وَلَا تُحَاشِي وَنُوصَفُ بِالْجَمِيلِ وَلَا تُخَابِي
وَقَدْ عَلِمْتَ رِبْعَةَ بَلِ تَرَارُ بَأْنَا الرَّأْسُ وَالنَّاسُ الذُّثَانِي

ولا يقف أبو فراس عند ذكر اسلافه الابعدين، بل ينتقل الى تعداد مناقب جده، ووالده، وابن عمه سيف الدولة، فتبدو له مفخرة باقية أبد الدهر، يصونها الاحفاد بعد الاجداد، ويكملون تشييد ما بُني قبلهم من صروح العز الرفيعة :

نَشِيدُ كَمَا شَادُوا، وَنَبْنِي كَمَا بَنَوْا لَنَا شَرَفٌ مَاضٍ وَآخِرٌ غَايِرٌ

٢- فخره بنفسه : وهكذا يصل الشاعر الى نفسه، فيقتخر باشتداد عزيمته، وإقدامه، وتصلب قوته في وقائع الحروب، وأنفته، وانبساط كفه، وترفعه عن الدنية :

إِذَا مَا الْعِزُّ أَصْبَحَ فِي مَكَانٍ سَمَوْتُ لَهُ، وَإِنْ بَعْدَ الْمَزَارُ . . .

- (١) لحسو كأس : لشرب كأس . الطنبور . آلة طرب ذات عُثْقٍ طويل لها اوتار من نحاس
(٢) تُحَاشِي : تستحي احداً . لا تُخَابِي : لا يُعَالِ إلينا خلافاً للحق (٣) الذُّثَانِي : الذنب .
(٤) غاير : باقٍ، ضد ماضٍ .

أَبَتْ لِي هَمَّتِي وَغِرَارُ سَيْفِي وَعَزَمِي، وَالْمُطِئَةُ، وَالْقِفَارُ^١
وَنَفْسٌ لَا تُجَاوِرُهَا الدُّنْيَا وَعَرَضٌ لَا يَرْفُ عَلَيْهِ عَارُ^٢...

ومهما يكن من اشتداد النوائب وإيقاعها به، فلا تزال نفسه تأبى مواطن
الذلّ وتحمل الإهانة وهبوط العزيمة، ولكنها لا ترى ضيراً في التشكي والعتاب،
وتذكير الواجب، وما سوى ذلك مما وسعته الروميات . وذلك لانه ظلّ في حياته
شريعاً عزيزاً :

وَكَيْفَ يَنْتَصِفُ الْأَعْدَاءُ مِنْ رَجُلٍ أَلْعَزُّ أَوَّلُهُ وَالْمَسْجِدُ آخِرُهُ^٣

٣ - قيمته: يتوكأ أبو فراس في فخره على مفاخر قدامى العرب من مثل عمرو
ابن كلثوم والمهلهل فيكثر من ذكر أسماء الرجال ومواقع القتال، ويجعل فخره
قومياً أكثر منه ذاتياً . إلا انه لا يُجيد وصف القتال، ولا يُطيل فيه كما كان
يفعل المتنبي . فكانت قصائده في هذا الباب تعداد مفاخر تخر بعواطف الزهو
والمجد، وينفخ فيها نفس عالٍ فيه من الكبرياء والعزة القومية الشيء الكثير .
ولا يخلو فخر أبي فراس من الغلو ولكنه غير مفرط، ولا يخلو من اللطف الذي
يسمو به عن الفخر الصبياني . وأبو فراس صادق العاطفة، مندفع الحماسة وإن كان
ضعيف الوصف، غير دقيق التصوير .

زد على ذلك ان لفخر أبي فراس قيمة تاريخية كبيرة لانه سجلّ لأعمال
الرجل وما أثر قومه واجداده .

٤ الروميات :

١ - ما هي : الروميات هي القصائد التي نظمها أبو فراس في أسره ببلاد
الروم وأرسلها الى ابن عمه سيف الدولة، او الى والدته الكثيرة او الى اصدقائه،

(١) القفار: حدّ السيف (٢) لا تجاورها: لا تساكنها ولا تقيم بقربها (٣) انتصف
منه: اخذ حقه منه، انتقم منه .

وهي كيوميّات سجّل فيها الشاعر الاسير ما يجري له من حوادث مزعجة ومناظرات كلاميّة مع بعض الروم، وما يعيش فيه من احوال الأسر القاسية الزرّيّة، وما يشعر به من الاسى على فقيد بعيد ونسيب مُصاب، او من نخوة الفخر والبطولة، وما يحنّ اليه، في شكوى لطيفة او شديدة، ومقابلة بين ذلّ الاسر ونعيم الايام السالفة، أيام الحرية والرغد والفروسية .

٢ - دواعي نظمها :

١ ألم الأسر : كان اللام اليد الطولى في تكوين نفسية شاعر الروميّات، واثّر بعيد في ذلك الشعر . واللام يُرّقّ العواطف ويُرْهف الاحساس فيجعله متيقظاً لآخني المشاعر، وقد يميّط الستار عن مواطن في النفس مكتومة كامنة، فتتفجّر عيون صافية لشعر صافر ويهتدي الشاعر الى موارد جديدة ثرّة . وهكذا جرى لابي فراس الشاعر الوجداني السريع التأثر، الشديد الشعور، الذي قضى زمن شبابه في نعمة ومجد، يطمح الى مستقبل زاهر، ثم أُسر ولحق به من جرّاء الاسر ذلّ كثير، وتحطيم لآمال واسعة، وانكفاء على الذات لاكتناه معنى الحياة والتقاط العواطف . وناله ألم في الجسد وألم في النفس، وتنكر له كل شيء، وعادته ذكرى الماضي السعيد . . .

٢ تباطؤ سيف الدولة في فدائه : وزاده ألماً ما بلغه عن ارتياح ابن عمه الى الحساد واصحاب المكاييد الذين فرحوا بمصابه وساءه ان يتناساه سيف الدولة، ولا ينفكّ يرجئ افتدائه، ويُعرض عن رسائله بأسبابها وعتابها واستعطافها وبعض ما فيها من تذكير الصنيع والتهديد .

٣ ألم أمه : وقد بلغه ايضاً ما كانت أمه الكثيرة تتكبّد من مرارة الاسى، وما كانت تحاوله في سبيله لدى سيف الدولة، فتردّ خائبة، « تُمسك احشاءها على حرق » أليمة ولوعة جارحة . فقام يعاتب سيف الدولة ويعزي أمه ويوصيها بالتجلّد وانتظار الفرج من الله، حتى اذا توفيت رثاها بأبيات متفجعة، طويلة الارنان . . .

١٠ رقة قلبه : كل ذلك حلّ بنفس بسيطة، صريحة، تغلبت في قواها الناحية العاطفية الى حدّ يدلّ على بعض الضعف في خلقه، وشيء من الشعور الانشوي يجعله قليل الجلد، عميق التأثير بدقائق الامور، فيتألم لأدنى معاملة جافية، وينطلق اثر الذكريات فيضيق صدره وتغوررق عيناه .

ولكنّ هذه النفس الرقيقة، مع ميلها الى الودّ والعطف والتقرب القلبى، كانت ذات أنفة وشجاعة وإقدام، تميل الى التضحية العالية، في إباء ملوكي وعزة فطرية، فضلت، وسط الآلام التي صقلتها وأوضحت جمالها، قائمة على إبانها، متذكرة كرم محتدها، تأبى التذلل للاعداء وتُحاول التجلّد والصبر، حتى اذا تعذّر عليها كتمّ الألم واحتباس الشكوى، عمدت الى التغني بالالم تفرجاً للكربة، وتنشطاً على اليأس والاستسلام للوهن .

ولذلك ترى في روميّات ابي فراس مزيجاً من الشكوى، ووصف الاسر في ذلّه وشقائه، والاستعطاف، والعتاب، والفخر، والتعزية، والرتاء، والاعتصام بالصبر، وانتظار الفرج من الله الذي «يوتي ويُعزّ» .

٣ - اقسامها وموضوعاتها : لقد ضمّن ابو فراس روميّاته شيئاً من النسيب والرتاء، وكثيراً من النحيب والشكوى والحنين وتذكر النعيم السالف والفخر والمجادلة . ولكنك لا تجدها جميعاً في كل قصيدة من روميّاته . فمن الروميات :

١١ ما ضمّنه آلام نفسه، فوصف علة له، وذكر أسره، ووطأة الوحشة عليه، وتعتسر احواله، وتوقعه للفشل، وتذكره الايام الماضية، وحنينه الى الاحباء والخلائ المخلصين، وتشكيه من انقلاب الاصدقاء الذين قلّ وفاؤهم، حتى حقّ له ان يشكّ في حقيقة الصداقة، ولكنه مع كل ذلك واثق بالله ينتظر من لدنه الفرج عاجلاً او آجلاً :

مصابي جليل، والعزاء جميل، وظنّي بأنّ الله سوف يُبدلُ

جراحٌ، وأمرٌ، واشتياقٌ، وغربةٌ . أُحْمَلُ . إني بعدها لحَمُولٌ^١...
جراحٌ تحامها الأساةُ، بخوفةٌ، وسُقمانٍ : بادٍ مِنْهُمَا، ودَخِيلٌ^٢...
أُقَلِّبُ طَرْفِي لَا أَرَى غَيْرَ صَاحِبِ يَمِيلُ مَعَ السَّعَاءِ، حَيْثُ تَمِيلُ^٣...
وَصِرْنَا نَرَى أَنَّ الْمُتَارِكَ مُحْسِنٌ وَأَنَّ صَدِيقًا لَا يَضُرُّ، خَلِيلٌ^٤...

وفي هذه القصائد الوجدانية من الشوق الكبير والحزن العميق، ومعاودة الاحلام الاليمية، والرغبة في التخلص، مع إكراه النفس على التجلّد، ما ينهم عن شعور مرهف، يعاني مضطراً جارحاً، ويؤلمه تباطؤ الانسياب، فكأنهم أضاعوا المودة ونسوا العهود . فاسمعه يناجي حمامة تنوح على شجرة :

أقولُ، وقد ناحتْ بِقُرْبِي حَمَامَةٌ : أَيَا جَارَتَا، هَلْ تَشْعُرِينَ بِجَالِي؟...
أَيَا جَارَتَا، مَا أَنْصَفَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا، تَعَالَيْ أَقَاسِمُكَ الْهَمُومُ، تَعَالِي°
تَعَالَيْ تَرَيِ رُوحًا لَدَيَّ ضَعِيفَةً، تَرَدَّدُ فِي جِسْمٍ يُعَذِّبُ، بِالرَّ...
لَقَدْ كُنْتُ أَوَّلَى مِنْكَ بِالدَّمْعِ مُقَلَّةٌ؛ وَلَكِنَّ دَمْعِي، فِي الْخَوَادِثِ، غَالٍ!

٢ ومن الروميات ما وجهه الى والدته المجوز، رائيًا لحالها، شاكيًا من تحييب آمالها وردّها متلوّعة، لاهفة، يملأها الاسى؛ ومشاطراً لها كآبتها، موصياً لها بالصبر وتسليم أمرها لله، والثبات في الامل المنشط :

يَا أُمَّتَا، لَا تَحْزَنِي وَثَقِي بِفَضْلِ اللَّهِ فِيَّ !
يَا أُمَّتَا، لَا تَيْأَسِي لِلَّهِ الطَّافُ خَفِيفَةٌ !...
أَوْصِيكَ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ فَإِنَّهُ خَيْرُ الْوَصِيَّةِ

٣ ومنها ما وجهه الى اهله واصدقائه، وفيه شكوى، وردٌّ على الحساد الذين

(١) حمول : كثير الاحتمال، صبور (٢) تحامها : تجنبها . الأساة : الأطباء . دخيل : داخلي أي في النفس (٣) النماء : النعمة ويسر العيش (٤) المتارك : الذي يترك عمل المنكر فلا يسيء (٥) تعالي : كسر اللام لضبط القافية .

يسترسلون في ذمّ الاسير ويفرحون لنكبتهم، ومنهم كثير ممن انتفعوا ب صداقته، ثم انقلبوا وناصروا الدهر عليه . وهو يرى في ذلك مفخرة له جديدة، اذ لم ينل الحسد يوماً الا من كان ذا مقام سام :

ومن شرفي ألا يزال يعيبي حُسودُ على الأمر الذي هو عائبٌ . . .
فهم يُطْفِشُونَ المجدَ واللهُ واقدٌ وهم ينقصون الفضلَ، واللهُ واهبٌ

٢ - ومنها ما وجهه الى سيف الدولة : وفيه بعض قصائد رثائية لانسابه من أهل امير حلب . ولكن اهم ما فيها طلب الفداء العاجل . اما الوسائل التي يتخذها لذلك فكثيرة متنوعة :

١ - منها استعطاف الامير، بوصف حالته في الاسر وما هي عليه من ضيق وقسوة، وهو رجل تعود العيش الحرّ في بلاد واسعة، وهو فارسٌ اعزُّ مناه ان يموت في حومة القتال :

ولكنني أختار موت بني أبي على صهوات الخيل، غير موصدٍ

فكيف يطيق احتمال المذلة وضغط الهوان وانهباء الاماني، في جماعة من الخللان وشركاء الاسر :

أقلبُ طرفي بين خيل مكبلٍ وبين صفى، بالحديد مصفدٍ
دعوتك، والأبواب ترتج دوننا فكن خير مدعوٍّ، وأكرم منجيدٍ

٢ - ومنها مدح سيف الدولة ووصفه بالاباء، والاقدام على صنع الجميل، وتذكيره ما سبق له من افضال على الاسير وعلى ذويه :

وأنت الذي بلغتني كل رتبة مشيت اليها فوق أعناق حُسدي

(١) ينقصون : يخطّون من قدره (٢) صهوات ج صهوة : مقعد الفارس من ظهر الفرس . موصد : نائم على وسادة او فراش (٣) مكبل : مقيد . الخلل والصفى : الصديق . مصفد : موثق (٤) ترتج : تغلق . منجيد : معين .

فبقي أن يُتمَّ صنيعه بمأثرةٍ جُلِّي، فيفتدي الاسير :

فيا مُلبِسي النُعمى التي جَلَّ قدرُها لقد أخلقتُ تلكَ الشَّبابُ، فجدِّدا

٣ - وليس الذي يطلب الفداء رجلاً لا يحمل البذل الكثير في سبيله، بل هو الفتى الذي يجعل به الفخر، والذي يتصلَّب في الشدة ولا يذل، ويتبوأ ذروة العلى، ويذود عن أمجاد ذويه بشجاعته وعزيمته، ولو كان اصغرهم :

أما انا أعلى من تعدُّون، همَّةٌ وإن كنتُ أدنى من تعدُّون، مولِدا

ولا يزال الاسلام والبلاد في حاجة اليه .

٤ - فكيف يسمع سيف الدولة، بعد ذلك، الى الحسَّاد والمسيئين . أو ما تحقَّ للاسير الشكوى، أو ما يتاح له العتاب : ألم يكن قد محض سيف الدولة الحب وأخلص له الوفاء، فتفانى في خدمته، واجتهد في تحقيق امانيه، مخاطراً بنفسه في سبيله . فكيف يتيح لنفسه ان يتناسى نسييه، ويتباطأ في فدائه، مستمعاً للحساد، ويردَّ أم الاسير بخيبة مُرَّة :

بأيِّ عُذرٍ ردَدْتَ والهةً عليك دونَ الورى، معوَّ لها ؟

وكيف ينسى القرابة، والمواعيد، وكيف يرضى بالنعيم والاسير في الشقاء :

تلك الموداتُ كيفَ تهملُها ؟ تلكَ المواعيدُ، كيفَ تُفعلُها ؟ ...

أينَ المعالي التي عُرِفَتْ بها تقوُّلُها دائماً وتفعُّلُها ؟ ...

يا ناعمَ الثَّوبِ، كيفَ تُبدِّلُه ؟ ثيابنا الصَّوفُ ما نبدِّلُها ؟

٥ - وعلى كل حال، فان كان سيف الدولة يأبى إلا ان ينسى الاسير ويعرض

(١) جَلَّ : عظم . أخلقت : بليت (٢) والهة : شديدة الحزن . معوَّ لها : اتكأها

(٣) تغفلها : تهملها وتنساها .

عن فدائه، فهو يهدد باللجوء الى الغرباء . ولكنه يأنف ان يُعاب ابن عمه به، اذا افتداه سواه . فيعود اليه يلاطفه ويستلينه .

وانك لتجد في القصائد التي بعث بها ابو فراس الى سيف الدولة، من تنوع اساليب الكلام، والتودد، ومزج الشكوى بالعتاب والفخر والاستعطاف، ما يدل على فن رائع، بعيد الاثر .

هـ ومنها ما قيل للفخر، ردًا على مجافاة من الاعداء، او توسعاً في مفخرة له، او انتفاضاً لدى سماع تقريع باحسان ومئة :

يَمْنُونُ أَنْ خَلَوْا ثِيَابِي، وَإِنَّمَا عَلَيَّ ثِيَابٌ، مِنْ دِمَائِهِمْ، حُمْرُ^١،
وَقَائِمَ سَيْفٍ، فِيهِمْ ائْدَقَ نَصْلُهُ، وَأَعْقَابَ رُمْحٍ، فِيهِمْ حُطَمَ الصِّدْرُ^٢

٤ - قيمة الروميات : على الروميات تقوم شهرة ابي فراس، فقد بلغ فيها اسمى ما كانت تؤهله له موهبته الشعرية . ولا عجب، فهي صورة لنفس الشاعر في عزتها وأنقتها وتجلدها في المصاب وثقتها بالله، وحنينها العميق الى الاهل والبلد . وكأنها لم تخطر للاسير فكرة نابضة، ولا هزّ فؤاده شوق رقيق او ذكرى يلاها الاسى، او مقابلة بين ايام النعمى وايام السوء، او عتاب شديد، او كلام صارم، إلا أرسل ذلك شعراً حياً، خافقاً، تطفى عليه العاطفة العميقة . وكفى بصدق العاطفة وورقتها عاملاً فعلاً يترك في نفس القارئ اثراً بعيداً .

هـ شاعريته وفنه :

١ - المعاني والعاطفة : لقد انبثق الشعر على لسان ابي فراس عن عاطفة قوية،

(١) يَمْنُونُ : يقرعون بالاحسان (٢) قائم سيف : مقبض سيف، وهو معطوف على «ثيابي» في البيت السابق . ائدق : انكسر . نصله : حديدته . اعقاب رُمح ج عَقِب : ما بقي منه اذا كسر اعلاه ونزع سنانه . الصدر : اعلى الرمح الذي يحمل السنان .

عميقة، صادقة الى حدٍّ قلَّمَا بلغت اليه عاطفة في الشعر العربي المتداول . ومن هذه العاطفة استمدَّ الشاعر معانيه، فما هو بالمشتغل بالفلسفة، ولا هو بالمفكر الذي يصمت، فيسود عقله على قلبه وخياله، إنما هو الامير الرقيق القلب، الذي لا تزال العواطف تنتاب فؤاده، وقد يضعف احياناً حتى لا يطيق الصبر، ولا يمتنع عن التشكي والحنين الجزوع .

وإن استلهامه للعاني من العاطفة قد اكسبها تأثيراً قوياً، ولكنها اتت غير عميقة ولا صامدة، وقلَّ ان تترك في النفس سوى رعشة المشفق او حنوِّ المؤاسي .

٢ - الخيال : اما خيال ابي فراس، فقد نالت منه العاطفة، فخفضت جناحه عن التحليق في الفضاء الفسيح . ولذلك قلَّت في شعر ابي فراس الصور الجميلة، والتشابه الناصعة .

٣ - الاسلوب : وليس في منظومات ابي فراس منطق غير منطق العاطفة ودراية النباهة الفطرية . واجمل مظهر لفنه العاطفي، ما ورد في الروميات، من تنويع الاساليب الخطائية، والتودد، ومزج الشكوى بالعتاب والفخر والاستعطاف والحنين، مزجاً رائعاً . وعليك بقصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها :

يا حمرّة ما أكاد أحملها آخرها مزعج، وأولها

فإنك تجد فيها نموذجاً ناطقاً لاساوبه وفنه .

ولا يكاد الشعر يستحثّ ابا فراس حتى ينطلق لسانه بالفاظ توافق المروء من المعاني ودقائق الشعور، وتراكيب منسجمة قلَّمَا أثقلتها المحسنات البديعية وعقدها التكلف والاغراب . ولقد شغلت الشاعر عاطفته المستولية عليه، عن التعمّل اللفظي، فيشتد نظمها في الفخر والعتاب الصارم، ويرقّ في الحنين والشكوى والتعزية . ورُبَّ موقف طغت فيه العاطفة على الشاعر، فنالت من صحة الفاظه ودقّة تراكيبه، فوقع في الابيات غلط لغويٍّ ونحويٍّ، وجرت على لسانه ابيات او تعبيرات لغيره من الشعراء، وهو لا يهتم لذلك همّاً كبيراً او صغيراً .

ومهما يكن من امر، فقد تمّ لأبي فراس، ان ينشد شعراً، تدفقت فيه العاطفة الرقيقة، فبوّأته منزلةً حسنة في عالم الفن، وقربته ابدأ الى القلوب، لان العاطفة العميقة الصادقة من القيم الانسانية التي لا يقضي عليها مرور الزمان .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- فؤاد افرام البستاني : ابو فراس الحمداني - الروائع ١٦ - بيروت ١٩٢٨
 السيد محسن الامين : ابو فراس الحمداني - الروائع ١٦ - بيروت ١٩٢٨
 سامي الدهان : ديوان ابي فراس الحمداني - بيروت ١٩٤٤
 حنا الفاخوري : على هامش كتاب جديد : ديوان ابي فراس الحمداني - المسرة ٣٤ (١٩٤٨) ص ٣٥ - ٤٢
 عبد الغني باجقني : فخر ابي فراس وابي الطيّب - دمشق ١٩٣٢
 نعمان ماهر الكنعاني : شاعرية ابي فراس - بغداد ١٩٤٧
 محمد محمد الحوفي : الحلان والزمان بين ابي فراس والبارودي - الرسالة ١٥ (١٩٤٧) ص ٨٦٨
 حنا نمر : ابو فراس الحمداني - (سلسلة الطرائف)

٢ المراجع الاجنبية :

- Brockelmann* : Abū-Firās, in *Encycl. de l'Islam*, t. I.
Freytag : Geschichte der Hamdaniden, X, 190 sq., XI, 1 sq.

موضوعات للبحث

- ١ - ابو فراس رجل العاطفة الرقيقة والعزة الملكية . هل تظهر شخصيته في شعره ؟
- ٢ - قال صاحب بن عباد : « بُدئ الشعر بملك وختم بملك »، يقصد امرأ القيس و ابا فراس . ما الذي جمعه على هذا القول ؟
- ٣ - أوضح قيمة شعر ابي فراس ومبلغ شاعريته في الروميات .
- ٤ - فخر ابو فراس بنسبه والتمني بشعره . اتيها السابق ؟
- ٥ - لقد قيل : « احتل المتنبي في شعره مقام العظمة و ابو فراس مقام العواطف » . ناقش هذا القول .
- ٦ - اجتمع المتنبي و ابو فراس في عصر واحد، وفي بلاط واحد، فهل اجتمعا في نواح واحدة ؟ و اتيها اعمق تأثيراً في نفسك ؟

أدب الاستقرار والتدرج نحو الجمود

الشعر

الفصل الرابع

الشَّريف الرضي^٣ (٩٧٠ - ١٠١٦ م / ٣٥٩ - ٤٠٦ هـ)

١ حياته : وُلد الشَّريف الرضي في بغداد، وتلقَّى العلوم على اساتذتها وعلمائها ؛ وقد اعتُقل والده وحُبس وصودرت املاكه . ثم أنس الشَّريف بالخليفة الطائع ومدحه بإخلاص كما مدح القادر من بعده ؛ إلا أنه ما عتَمَّ الشَّريف أن مال عن القادر ومدح الوزراء والملوك حرصاً منه على منفعة عالية وطمعاً في عرش الخلافة . ثم توفي بعد حياةٍ شريفة ملاًها بالإباء وعلوِّ الهمة .

٢ آثاره : ترك الشَّريف عدَّة مؤلفات ضاع أكثرها . وأشهر ما بقي ديوان ضخم من الشعر، ومجموعة «نهج البلاغة» .

٣ شعره : كان شعر الشَّريف تغنياً بحبه وآلامه، ونشيداً من أناشيد الفخر والعزة، يقول الشاعر عن حاجة نفسيَّة لا للتكسُّب . ومرجع ذلك الشعر إلى الغزل والرثاء والفخر والاخوانيات وما إلى ذلك .

٤ شاعر الغزل (الحجازيات) : غزل الشَّريف يتمُّ عن لوعة صادقة تفجَّر القريحة بكلام لين عذب يزخر بالابتكار والروعة .

٥ شاعر الرثاء : رثاء الشَّريف ثلاثة أقسام : رثاء الأهل والأصدقاء، ورثاء الملوك والعظماء، ورثاء الحسين . أما القسم الأول فهو حافل بذكر الآلام، والمرارة، والتوجُّع الباكي، والشكوى من الزمان . وأما القسم الثاني فتغلب عليه الصبغة الرسميَّة، وتتوفَّر فيه الحكم والاعتبارات في الحياة والموت، ولا يخلو من عاطفة حيَّة . وأما القسم الثالث فهو وصف للحسين وتهديد بالتأثر، وكلام حزين حكيم .

٦ **شاعر الفخر** : فخر الشريف قسبان : فخر بقومه وفخر بنفسه . اما الاول فهو فخر العزّة والمحبة الذي يمازجه الحزن الاليم ؛ واما الثاني فهو يصدر صدوراً طبيعياً عن تلك النفس الهائمة بالعلاء، المعجبة بصفاتها واخلاتها وشاعريتها . وفي فخر الشريف شدّة ولين، وشكوى، وتوعد .

٧ **شاعر المدح** : مدح الشريف بعض الملوك والعظماء ، والخليفين الطائع والقادر، كما مدح بعض اقاربه ولاسيما والده . الا ان مدحه لم يكن للتكسب الذميم . وقد قلّد الشريف المتني في مدحه إلا انه لم يبلغ شأوه .

٨ **شاعر الوصف** : وصف الشريف حيوان البرية، والمواقع وركب الحجيج، والشيب وبعض مظاهر الطبيعة . ويمتاز وصفه بالالوان والاصباغ المبتكرة التي لا تخلو من رونق الصنعة الجميلة .

٩ **فن الشريف الرضي** : فن الشريف مزيج من البداوة والحضارة، فيه صفات الشعر القديمة ما خلا الحشونة، وفيه ليونة الشعر الحضري ونعومته وزخرفته . وقد كثرت في شعر الشريف اساليب الوجدان من مثل المناجاة والمناداة والاستفهام وما الى ذلك، كما حفل شعره بالموسيقى الساحرة .

١ حياة :

١ - **مولده ونشأته** : محمد بن الحسين المعروف بالشريف الرضي يرتقي نسبه الى علي بن ابي طالب . وُلد في بغداد سنة ٩٧٠ م / ٣٥٩ هـ ونشأ فيها ؛ وتلقى العلوم والآداب على اساتذتها وعلمائها، فأخذ الفقه عن الشيخ المفيد ابي عبدالله محمد ابن النعمان الفقيه الإمامي، ودرس اللغة على الشيخ ابي الفتح عثمان بن جني ، حتى صار بارعاً في الفقه والفرائض والآداب، وسائر فروع العلم .

وكان العهد عهد قلاقل واضطرابات عادت على بغداد بأعظم الفجائع، وعادت على الشاعر الشاب بأشدّ البلايا، فاعتقل والده وحبس في إحدى قلاع فارس ودام حبسه من سنة ٩٧٩ - ٩٨٦ م (٣٦٩ - ٣٧٦ هـ)، وصودرت املك الرجل، وتتابعت

الرزايا على الشاب الصغير، وكان رقيق الحس، مرهف القلب، يحب اباه حباً جماً، فتلهف عليه تلهفاً موجعاً ونظم فيه الشعر الرقيق .

٢ - صلته بالخلفاء العباسيين : عاش الشريف في عهد ثلاثة من الخلفاء هم المطيع والطائع والقادر . وكان في عهد المطيع طفلاً .

وكان عهد الطائع مسرحاً للعراك بين الفرس والترك، وقد سيطر الديلم على العراق . فحرص الشريف على الظهور بمظهر الولاء للديلم والترك، كما أنس كل الانس بالطائع ومدحه بصدق وإخلاص، لانه رأى فيه رجلاً عربياً هو البقية الباقية من مجد بني العباس . وكان الطائع يغدق الهدايا على الشاعر . ولما مات الخليفة رثاه الشريف بعدة قصائد . ثم مدح القادر من بعده، إلا انه ما عثم ان مال عنه عندما اتهمه الخليفة بالميل الى العلويين والفاطميين؛ وراح يمدح الوزراء والملوك .

ولم تكن مدائح الشريف للتكسب، إنما كانت عبارة عن اشتباكه في المعارك السياسية الناشبة في فارس والعراق، ووسيلة الى اغراض سياسية، وعنواناً على متابعتها لتقلب الاحوال .

ولم يكن اتصاله بالوزراء والملوك لاجل منفعة مادية بل حرصاً على منفعة عالية هي ان يكون رجلاً ذا شأن في تصريف المعضلات السياسية، وطمعاً في تسنم عرش الخلافة؛ وقد تم له بعض ما اراد، فاستطاع ان يكون صلة الوصل بين الحجاز والعراق، وبين فارس والعراق، وبين الشام والعراق .

٣ - وفاته : وتوفي الشريف الرضي في ٢٦ حزيران سنة ١٠١٦ (٦ محرم عام ٤٠٦ هـ) ودفن في بيته بالكرخ من ضواحي بغداد، ودفنت معه آماله الواسعة بعد ان كان نقيباً للأشراف في زمن لم يكن فيه للأشراف عرش ولا تاج بل كان لهم مجد العلم والادب والبيان .

وكان الشريف في حياته ابي النفس، عالي المهمة، لم يجد من الايام معيناً على المعالي .

٢ آثاره : للشريف الرضي مؤلفات عدة ضاع أكثرها، وأهمها :

- « كتاب مجازات الآثار النبوية » : طبع أولاً في بغداد طبعاً

ممسوخاً، ثم طبع في القاهرة بعناية الاستاذ محمود مصطفى .

- « كتاب حقائق التأويل في متشابه التنزيل » : طبع بالنجف .

- « كتاب تلخيص البيان عن مجازات القرآن » .

- « كتاب الخصائص » .

- « كتاب اخبار قضاة بغداد » .

- « نهج البلاغة » : جمعه الشريف، وقد اتينا على ذكره في دراستنا لعل بن

ابي طالب .

- ديوان كبير في الشعر جمعه عدة أدباء منهم ابو حكيم الحيري . وطبع في

بيروت سنة ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م) .

٣ شعره : كان الشعر عند الشريف الرضي حاجة نفسية لا وسيلة للكسب

ومركباً للدعابة والرثاء؛ ينظمه الشاعر عن عاطفة متأججة، ويضمّنه

حرارة قلبه، وتنفس وجدانه . فقد احب الشاعر، وطمع في المعالي، ولكنّ الايام

لم تحقق له الآمال، بل اذاقته طعم الحبيّة من غير أن تذّله وتنسيه مجده العريق .

ومن ثم كان شعره تغنياً بحبه وآلامه، ونشيداً من اناشيد الفخر والعزة؛

توحي اليه مواسم الحليج وطريق الحليج بموضوعات « حجازياته »، ويوحي اليه

العلويون والطالبيون المحرومون من السلطان بموضوعات « شيعياته »، وتذلل به

الامراض وتعرّضه للاخطار فيرتاع من الشيب ويكثر من وصفه؛ ويحلّ القضاء

بالاصدقاء والاقرباء فيذرف الدموع الصادقة في « رثائياته »؛ ويذكر امجاده

القديمة فتوحي اليه بموضوعات « فخوياته » . وهكذا كان شعره ابداً عبارة

قلبه ونفسه .

٤ سَاعِرُ الْغَزَلِ (الْحِجَازِيَّاتُ) : كَانَ الْأَقْدَمُونَ يَقُولُونَ مَا خَفَا : لَا تُثْقَلْ
نَفْسُ الْمُتَأَدِّبِ إِلَّا إِذَا حَفِظَ هَاشِمِيَّاتِ الْكَمِيتِ،
وَحَمْرِيَّاتِ أَبِي نَوَاسٍ، وَزَهْدِيَّاتِ أَبِي الْعَتَاهِيَّةِ، وَتَشْيِيهَاتِ ابْنِ الْمُعْتَزِّ، وَمَدَائِحَ الْبَحْثَرِيِّ
وَحِجَازِيَّاتِ الشَّرِيفِ الرَّضِيِّ .

والحجازيات هي نحو أربعين قصيدة ضمنها الشاعر لوعة صبايته، وقد تفتحت
بها عبقريته بفضل طريق الحلي ومواسم الحلي . وهي تحوي ميزات غزله جميعها .

غزل الشريف الرضي شديد اللصوق بنفسه، صادر عن قلب صادق الحب
ولوعة الصباية، وشعور حي عميق الاحساس . وعشق الشاعر نزاع بين العقل والقلب،
وصراع بين عزّة الجاه وذلة القلب ؛ تدفع العزّة الشعور فيذوب جوى، ولكنه
لا يهبط في حمأة الخالعين بل يظل مترسماً خطى العذريين، نازعاً نزعة البیداء .

فالغزل عند الشريف نظرة يحدّ التصوّن من شهوتها :

عَفَا فِي مَنْ دُونَ التَّقِيَّةِ زَاجِرٌ وَصَوْنُكَ مِنْ دُونَ الرَّقِيبِ رَقِيبٌ
عَشَقْتُ وَمَا لِي، يَعْلَمُ اللَّهُ حَاجَتِي سِوَى نَظَرِي وَالْعَاشِقُونَ ضُرُوبٌ

نظرة مزدوجة للعين وللقلب :

وَتَلَفَّتْ عَيْنِي فَبُذِّ خَفِيتُ عَنْهَا الطَّلُولُ تَلَفَّتَ الْقَلْبُ

وهو ذوبان العين والكبد، أو نار في الكبد ودمع في العين ؛ والشريف يُكثِّرُ
من تشبيه الحب بالداء :

دَاءٌ طَلَبْتُ لَهُ الْأُسَاةَ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا التَّعَلُّلَ بِالذُّمُوعِ طَيِّبُ

ويستعير للحب ما استعاره الأقدمون من حيوان البیداء، ويحمل الريح والركب
تحياته ونظراته واشواق نفسه، ويكثر من السؤال، وإثارة الذكريات ولا سيما

ذكرى الوداع . كل ذلك في لوحة ظاهرة، وعاطفة دافقة، ولهجة بدوية رقيقة،
الحاضرة، وابتكار رائع في وصف الالوعة والشوق، وتفجر في الكلام اللين العذب
الذي يسحر بموسيقاه وسلاسته .

٥ شاعر الرثاء : ومن اروع الشعر الوجداني ايضاً في ديوان الشريف رثاؤه وهو
ثلاثة اقسام : رثاء الاهل والاصدقاء، ورثاء الملوك والعظماء،
ورثاء صريع كربلاء .

اما القسم الاول فهو زفرات طويلة يصعدها الشاعر وإرئان نفس نكبتها الايام فلا
تزال تذكر الآلام وتحكي ذكوى من فارقوها بتشاؤم وجيع، ومرارة من
ينتظر الموت ويعلم ان الموت آت لا محالة . وهكذا رثى والدته وعدداً من
اصدقائه، وكاد يكتفي في كلامه بالتوجع وارسال الدمع، ووصف ما لقي من
وطأة الرزية، وبالشكوى من الزمان . ومن جميل قوله في رثاء صديق :
إلّا يكن جسدي أُصيبَ فإنني فرقتُه فدفنتُه أعضاء

واما القسم الثاني، وهو رثاء الملوك والعظماء، فتغلب عليه الصبغة الرسمية،
وتتوفر فيه الحكم والاعتبارات في الحياة والموت . وتتضاءل فيه العاطفة الحادة .
فهو نعي، وتذكار ما اتى الفقيه من اعمال، ومدح . ومن هذا النوع رثاء الشاعر
لاي الفتح بن الطائع لله، ورثاء صاحب عميد الجيوش ابي علي . ولئن تضاءلت
العاطفة في هذا النوع فهي ابداء حية، متألمة، تبث شكواها في كل سائجة
يتراءى لها فيها شبح الموت، وتذكر آلامها لدى كل فاجعة، فتنطق بكلام الوجدان،
وترسل الحكمة والمثل فيهما من شكوى الزمان واعتبار تقلب الحدثان ووجع
النفس ما يبرئهما من الجود .

واما القسم الثالث، وهو رثاء صريع كربلاء، الحسين بن علي، فهو يقع في
خمس قصائد طوال، يصف الشاعر فيها الحسين بالكرامة في المات، ويهدد بالثأر
لاهل البيت . وكلامه في الحسين كلام الحزين الحكيم .

٦ شاعر الفخر : فتح الرضي عينيه وهو فتى يافع، فعرف قدر نفسه، وعلم انه فرع شجرة رفيعة، رأى حقه مغبوطاً وملكه مغصوباً، فنشأ وعينه تنظران الى عرش الخلافة وصوران الملك، وشبّ واذناه تسمعان اخبار أسرته، وقلبه يتضخم بآتي اجداده؛ وأحس من نفسه بشاعرية عظيمة، وبأنفة وإباء قلما اجتمع لغيره من الشعراء ما اجتمع له منهما، وبشجاعة وبأس يبعثان في نفسه حب المغامرة في سبيل المعالي . فاخذ يتغنى في شعره بالمجادة . وقد تفرّع فخره الى فرعين هامين : فخره بقومه، وفخره بنفسه .

اما فخره بقومه فقد تناول فيه الشريف مجد أسرته، والتألد والطريف من شرفه؛ ويأتي فخره هذا مستقلاً او منشوراً في قصائد مختلفة الاغراض، وكله إعجاب بآل البيت، فهم اشرف الناس :

كالصخر إن حُلِمُوا، والنار إن غَضِبُوا والأسد إن ركبوا، والوبل إن بذلوا^(١)

ويبذل الشاعر كل شيء في سبيل حبه :

محبكم ولو بُغِضت حياقي وزائركم ولو عُقرت ركابي^(٢)

وفخر الشريف بقومه هو فخر العزة والمحبة، فخر نفس شريفة وقلب رقيق، يشور ثورة العزة ثم يلين لين الرقة؛ يدوي كالرعد ثم لا يلبث ان يمتزج بكلام الوجدان؛ يُغرق في الغلو ولكنه غلو مستلذ مستعذب لما هو فيه من جو العظمة والرقة .

ومن ثمّ تراه حافلاً بالحزن الاليم الصادر عن الحيبة، الا انه حزن لا يقطع الامل ولا يثبط الهمم :

إذا ما اليأس خيبتنا رجونا فشجعتنا الرجاء على الطلاب

(١) الوبل : المطر الشديد (٢) عقره : نحّره؛ عقر الإبل : قطع قوائمها بالسيف .
الركاب : الإبل .

حزن يحمل الشاعر على احياء ذكرى من قتل من آل البيت ولا سيما الحسين، وعلى الحنين الى مرأى قبورهم في لهفة وحرقة، ثم على التهديد ومفاخرة الخليفة نفسه :

١ مهلاً أمير المؤمنين فإئنا في دوحه العلياء لا تفرق

٢ ما ينسنا يوم الفخار تفاوت أبدأ كلانا في المعالي معرق^١

٣ إلا الخلافة ميزتك، فإنني أنا عاطل منها وأنت مطوق^٢

واما فخر الشريف بنفسه فيصدر صدوراً طبيعياً عن اخلاق صاحبه المغموم بالمجد والهائم بالعلياء، والساعي في التخلُّق باخلاق الابطال :

- يا نفس من همَّ الى همَّة فليس من عبء الأذى مستراح

- الى المجد دون الربع رمت عزائي وبالعزّ دون الغيد بان نخولي^٢

وهو لا يرى لنفسه غير غايتين : النصر او الموت :

إما فتي نال العلى فاشتفى أو بطل ذاق الردى فاستراح

ويفخر بشجاعته وعزته وانفته :

حسني غنى نفسي الباقي وكل غنى من المغاير والأموال ينتقل

مقي تراني والجواد خدني^٢

والنصل عيني والسيّتان أذني

وأُمّي الدرع ولم تلدني...

ويفخر الشريف بشاعريته وشعره ايضاً؛ فيرى نفسه مشابهاً زهير، او يرى شعره فوق شعر زهير، او يرى لسانه أمضى من السيف :

(١) المعرق في المعالي : الذي له اصل فيها (٢) العاطل : الخالي (٣) رمت : بليت . الغيد : الحسان (٤) الحدن : الصاحب .

شعرٌ أثيرٌ به العِجَاجُ بِسَالَةٍ كَالطَّعْنِ يُدْمِي وَالْقَنَا تَحْطَمُ^١
وفصاحةٌ كَوَلَا الحَيَاءُ لَهْجَتِ أَعْلَامَ مَا قَالَ الْوَلِيدُ وَمُسْلِمُ^٢

وشعره يرفع اقدار الرجال، وهو اعز من ان يمدح به غير الخلفاء .

ولكن هذا الفخر حافل ايضاً بشكوى الزمان الذي يقاوم الاحرار :

- ولم أَدْرِ أَنَّ الدَّهْرَ يَخْفِضُ أَهْلَهُ إِذَا سَكَنَتْ فِيهِمْ نَفُوسُ الضَّرَاغِمِ^٣
- فَهَلْ نَافِعِي أَنْ يَنْصُرَ الْمَجْدُ عَزْمِي عَلَى هَذِهِ الْعَلْيَاءِ وَالْمَالُ ظَالِمِي

والشريف كثيراً ما يجمع بين الفخر والنسب ؛ فلا يزال شعره مزيجاً من شدة ولين، يشهد على اشتباك النوازع في تلك الروح التي تجمع بين العنف واللفظ، والقسوة والدونة .

وقد يتوعد في فخوره توعد الباطشين، ووعيده يكشف عن صدر صهرة الغيظ وقلب اضرمت الضغائن . وهو يحاول التوكؤ على المتنبى في معانيه وصوره، الا انه يبقى دونه قوة واندفاعاً .

٧ شاعر المدح : خص الشريف الرضي بعض الملوك والعظماء بقسم من شعره مدحهم به . فمدح الخليفتين الطائع والقادر، ومدح بعض الملوك البويهيين كشرف الدولة ابي الفوارس بن عضد الدولة، وبهاء الدولة وغيرهما ؛ ومدح بعض اقاربه كخاله ابي الحسين احمد بن الحسين الناصر ولاسيا والده الذي خصه باكثر من اربعين قصيدة .

ولم يكن مدح الشريف للتمكسب وان لم يخلُ احياناً من غرض نفعي . ولم يتبع فيه الشريف اسلوب الاقدمين في الاستهلال بالغزل والوقوف على الديار، ولكنه

(١) العجاج : غبار الحرب . القنا : الرماح (٢) هجئت : قبحت وعابت . الوليد ومسلم اي البحري ومسلم بن الوليد (٣) الضراغم : الأسود .

يفتتحه بشكوى الزمان، او الفخر، او بعض كلام الوجدان، ثم ينتقل الى ممدوحه فيكثر من وصف القتال والايقاع بالاعداء، ثم يفخر بنفسه وبفعاله لكي يستميل الممدوح، فيقول مثلاً للملك بهاء الدولة :

فَجَرَّبَنِي تَجِدُنِي سَيْفَ عَزَمٍ يُصَمِّمُ غَرْبُهُ، وَزِنَادَ رَأَى

وهو في كل ذلك يشبه المتنبي الذي يحاول الشريف ان يقلده في معانيه واساليبه وصوره من غير ان يبلغ شأوه . فبعيد ما بين اندفاع المتنبي وثورته العاطفية، وقوته الجبارة، واندفاع الشريف الذي يازجه اللين حتى في اعظم مواقف الشدة .

اما مدح الشريف لابييه فيقسم ثلاثة اقسام : قسماً يتضمن التوجع لابييه وهو سجين، وفيه تصوير للحزن والجزع والتفجع ؛ وقسماً يتضمن تهنئة ابيه باخلاص ورداً املاكه اليه، ويغلب على هذا القسم الابتسام وان فاض بالسّم الزعاف ثورة على الناس وشرهم ؛ وقسماً ثالثاً يتضمن تهنئة ابيه بالاعیاد بعد ان لان الزمان . والشريف يخلع في هذا القسم الثالث على ابيه رداء الملوك، فهو يدخل عليه في كل عيد بقصيدة كما يصنع الشعراء في تحية الخلفاء والملوك .

٨ ساعر الوصف : أكثر الشريف من الوصف واغلب وصفه يقع عن طريق الاستطراد . وقد تناول فيه حيوان البرية كالاسد والذئب والحية، وتناول المواقع وركب الحجيح وما الى ذلك، وتناول الشئب وبعض مظاهر الطبيعة .

ويمتاز وصف الشريف بما يُلقى عليه الشاعر من الوان واصباغ مبتكرة فيها من الصنعة رونق وجمال . والشريف اذا وصف الوحوش اعسر نظير الشعراء الاقدمين، واذا وصف القتال حاول تقليد المتنبي . فهو في مجمل وصفه مقلد .

(١) صمّ السيف : مضى وقطع . الغرّب : الحدّ القاطع . زناد راء : اي صاحب رأي مضى .

٩ فن الشريف الرضي : كان الشريف الرضي يرى العلم والفلسفة يجيئان به من كل جانب، والناس لا يقنعون بالمواعظ الفطرية التي كانت تنغي في عصر امرئ القيس ؛ وكان يُحسّ من نفسه نزوعاً الى البداوة والصفاء البدوي . فأراد ان يوفق بين نزعتيه الطبيعية ونزعة عصره ؛ وقد أوتي من صفاء الطبع وحسن الذوق ما ساعده على ذلك مساعدة كبرى . وهكذا كان فنه مزيجاً من البداوة والحضارة، فيه صفات الشعر القديمة ما خلا الحشونة، وفيه لين الشعر الحضري ونعومته وزخرفته .

١ - احتفال الشريف بشعره : كان الشريف شديد الاحتفال بقرض الشعر، يتخير المناسبات، ويحرص على تحبير قصائده وارسالها في لغة جزلة بريئة من الركاكة، وهو يرى ان البلاغة بريئة من البهرج والتكلف وانها مع ذلك لا تكون دائماً من عفو الطبع وانما يُوصل اليها بالجهاد والجلاد في تحيّر الالفاظ وتصيّد المعاني، فهو ان ثار على التقاليد الادبية التي شاعت في عصره والتي كانت تعتمد على الزخرفة والبريق، وان رأى في البيان كشفاً وجلاء لا مجرد صنعة، لا يُعرض عن وجوه التتميق التي تزيد كلامه بلاغة وتكسبه رونقاً، فيأخذ بالاستعارات والتشبيهات الطريفة التي يرشده اليها ذوقه حتى كان من اروع الشعراء استعارة وابلغهم تشبيهاً ؛ ولكن تنميته لم يكن ليقوده الى الحشو والاطناب، وهو يقول في قصائده الجياد :

مُنْتَصِبَاتٌ كَالْقَنَا لَا رَى عَيّاً مِنَ الْقَوْلِ وَلَا أَفْنًا
لَا يَفْضُلُ الْمَعْنَى عَلَى لَفْظِهِ شَيْئاً وَلَا اللَّفْظُ عَلَى الْمَعْنَى

٢ - نزعة الشريف الوجدانية واساليب الوجدان في شعره : الشريف الرضي شاعر الوجدان ولهذا كان أقرب شعراء عصره الى الاقدمين وان أخذ بنصيب من الصنعة العبّاسية . وقد جعل في خدمة الوجدان وللتعبير عنه ما يقدم له البيان من

اساليب المناجاة، او النداء، او الاستفهام، او النفي الوجداني، او الإخبار بصيغة التحقيق والتأكيد، او الامر، او ما الى ذلك . وهو يجيد استخدام تلك الاساليب في غزله وراثته واخوانياته وتحسره على انحسار الشباب ومناجاته للديار، ويحسن استعمال الادوات والحروف من مثل «يا» للنداء او «الهمزة» او «اين» او «كيف» للاستفهام، او «ان» او «قد» . ففي رثاء احبابه ينادي الدهر فيقول :

يَا دَهْرُ، رَشَقًا بِكُلِّ نَائِبَةٍ قَدْ أَتَيْتَنِي الْعَتَبُ وَأَنْقَضَى الْعَجَبُ
رُدَّ يَدِي مَا اسْتَطَعْتَ عَنْ أَرْبِي لَمْ يَبْقَ لِي بَعْدَ مَوْجِعِ أَرْبُ

ففي هذين البيتين استخدم الشاعر النداء والإخبار بالتحقيق والامر والنفي، وذلك بطريقة وجدانية مؤثرة .

ويتفنن الشريف في المناجاة والنداء الوجدانية فينادي النظرة، وينادي وقفة الاحباب، وينادي نفسه ويشجعها على تحمُّل آلام الحياة، وينادي الشباب :

فَمَنْ يَكُ نَاسِيًا عَهْدًا فَإِنِّي لَعَهْدِكَ يَا شَبَابِي غَيْرُ نَاسٍ
فَإِنَّ الْعَيْشَ بَعْدَكَ غَيْرُ عَيْشٍ وَإِنَّ النَّاسَ بَعْدَكَ غَيْرُ نَاسٍ

والشريف في كل ذلك يشخص بل يُكثر من التشخيص لتدفق العاطفة عنده ؛ ويكثر من « الصنعة الوجدانية » التي لا يحسن القارئ انها صنعة ؛ وتتصاعد من الفاظه وقوافيه موسيقى ساحرة تمتد تموجاتها في النفس وتبقي أثراً عميقاً ؛ وهو يضارع في موسيقاه البحثري شيخ النغم الشعري .

* * *

وهكذا نرى ان الشريف لا يضارع ابن الرومي في تحليل المعنى والتقصي فيه ؛ ولا يضارع ابا تمام في ما يُتقنه من فلتات الصنعة النادرة التي تأتي بالآيات الفذة فتستهوي القلوب وتُشعل الخيال ؛ ولا يضارع المتنبي في التفكير والانطلاق في أجواء النفس والحياة والاخلاق . الا ان له نصيباً لا يُستهان به من تلك الميزات،

وهو قد بزّ جميع أولئك الشعراء في الشعر الوجداني؛ وقد آمن ما يعتور ابن الرومي في بعض الاحيان من الفتور بسبب إفراطه في التقصي والتحليل وتتبع الجزئيات؛ وأمن زكّل المبالغة في الصنعة الذي يقع فيه أبو تمام؛ وأمن المبالغة غير المعقولة والمعاظلة اللتين نجدتهما في بعض شعر المتنبي .

بعض المراجع

- ع . محفوظ : الشريف الرضي - بيروت ١٩٣٨
 زكي مبارك : عبقرية الشريف الرضي - القاهرة ١٩٤٠
 طارق كيلاني : الشريف الرضي
 مارون عبود : الرؤوس - بيروت ١٩٤٦ - ص ٢٧٨ - ٢٩٠
 عبد الرحمن شكري : الشريف الرضي - الرسالة ٧ - ص ٥ - ٧ و ٥١ - ٥٣
 احمد عارف الزين : الشريف الرضي - العرفان ٣ - ص ٦٥٧ - ٦٨٠

موضوعات للبحث

- ١ - قال ميار الديلمي مخاطباً الشريف الرضي :
 حَمَسَتْ حَتَّى قِيلَ : صَبَّ دِمَاءُهَا وَغَزَلَتْ حَتَّى قِيلَ : صَبَّ مُدَامُهَا
 وهو بقوله يصوّر حماسة الشريف ورقته، وجمعه بين الشدة واللين . توسّع في هذا القول .
- ٢ - اقم موازنةً بين فنّ البحري وفنّ الشريف الرضي .
- ٣ - اعمد الى احدى قصائد الشريف الرضي واستخلص منها بعض ميزاتة الادبية .

أدب الاستقرار والتدرج نحو الجمود

الشعر

الفصل الخامس

أبو العلاء المعري (٩٧٣ - ١٠٥٨ م / ٣٦٣ - ٤٤٩ هـ)

١ حياته : وُلد أبو العلاء في المعرة ومرض بداء الجدري فعميت حدقته؛ وقد اخذ عن أبيه مبادئ العلم، ثم قصد حلب وزار مكاتبها وتحدث إلى علمائها، ثم قصد أنطاكية ومرت باللاذقية ثم انتقل إلى طرابلس وهو يطلب العلم؛ ثم يَمُّم بغداد واشترك في مجالس العلم والأدب. ولما سمع بمرض أمته عاد إلى المعرة. ولما وصل إليها كانت أمه قد فارقت الحياة، فزَم العزلة في بيته يؤلف الكتب، ويُزوره العلماء وأرباب الأدب إلى أن مات سنة ١٠٥٨ م / ٤٤٩ هـ.

٢ شخصيته : كان أبو العلاء ذا نفس كبيرة، وذكاء متوقد؛ وكان دقيق الشعور يميل إلى التشاؤم.

٣ آثاره : ترك أبو العلاء نحو سبعين مؤلفاً من أشهرها : سقط الزند، والزمريات، والفصول والغايات، ورسالة الغفران.

٤ أبو العلاء المعري الشاعر : سقط الزند : سقط الزند ديوان شعر نظمته أبو العلاء في صباه وشبابه وشرح شروحاً كثيرة، وفيه مدح وفخر ورثاء ووصف ونسيب.

١ - المدح : يقسم قسمين : قسماً في الأمراء وأرباب السلطان تكثر فيه المبالغات ويُعنى فيه الشاعر باتقان الصناعة، وقسماً آخر في أصدقائه ومراسليه يحوي عاطفة حقيقية. وشعر أبي العلاء المديح لا يخلو من وثبات شعورية صحيحة كما لا يخلو من البحث العقلي. وهو في مجمله تقليدي.

٢ - الفخر : يفخر الشاعر بنفسه وبقومه. وفي فخره نبضٌ وشخصية قوية، ومبالغات.

٣ - الرثاء : اشهر شعره في الرثاء داليتته في ابي حمزة وقد جمعت صدق اللوعة وعمق الفكر، فكانت مزيجاً من عاطفة خفافة وحكمة عميقة، في صور رائعة .

٤ - الوصف : اكثر ما وصف ابو العلاء المعنويات ؛ وهو في وصفه لسواها متوكي على غيره، حسي في صورته ؛ وفي وصفه استطراد تشبيهي او ثبيلي . من اوصافه المشهورة الدرعيات .

٥ ابو العلاء المعري المفكر : اللزوميات : اللزوميات ديوان شعر كبير يحتوي آراء الرجل التي نورد خلاصتها :

١ - العقل : هو في نظر المعري إمام وني يجب تحكيمه في كل شيء .

٢ - الطبيعيات : قال المعري بالعناصر الاربعة، واضطرب في مسألة قدم العالم ؛ وهو يرى ان عالم الكواكب يعمل في العالم السفلي، وان الجسد وعاء دنس للنفس، وان الانسان مسير لا مخير .

٣ - الماورائيات : ابو العلاء في الماورائيات كثير الاضطراب والحيرة والتناقض .

٤ - الادبيات او الفلسفة العملية : ادبيات ابي العلاء مبنية على التشاؤم . فالشاعر ساخط على الدنيا لا يرى فيها إلا فساداً، ومع ذلك نرى ابا العلاء يكثر من ذكر الخير في شعره . وهو يسيء الظن بالمرأة، ويرى ان المجتمع فاسد، وان لا خير الا في الانعزال وممارسة الفضيلة .

٥ - قيمة اللزوميات : آراء ابي العلاء كثيرة التناقض والتشاؤم . اما شعره في اللزوميات فهو بعيد عن نتاج الخيال الشعري، يكثر فيه التكلف .

٦ ابو العلاء المعري الكاتب : الفصول والغايات - رسالة الغفران :

١ - الفصول والغايات : هو كتاب عظات ونصائح، يتضمن آراء ابي العلاء التي احتواها كتاب اللزوميات في تناقضها واضطرابها . وفي اسلوب الكتاب تكلف لغوي وتعقيد .

ب - رسالة الغفران : هي رسالة كتبها ابو العلاء الى ابن القارح جواباً

على رسالة بعث بها اليه يذكر فيها شوقه الى لقائه ويسأله عن عدة مسائل في موضوعات شتى، وينحى فيها على الزنادقة .

— مضمونها : تتضمن رسالة الغفران قسمين : يحوي القسم الاول رحلة ابن القارح في السماء (الفردوس - الموقف - جنّة العفارىت ، الجحيم) . ويحوي القسم الثاني الردّ على رسالة ابن القارح .

— قيمتها :

١ — القيمة العلمية الفلسفية : كان أبو العلاء في رسالة الغفران ناقد ادب ولغة وتاريخ واجتماع ودين ؛ وظهر عقله فيها دائرة معارف واسعة . ونقده ممزوج بالسخرية والهزء . يتناول المعرّي بتهكمه اخبار الجنّة والنار ، وفكرة الغفران ، ويهاجم البعث والعودة ، ويشجب التناسخ .

وهو يتناول بنقده الادبي المعاني والمباني، فيحمد في المعاني الابتداع والابتكار والاتزان وما الى ذلك . ويعيب في المباني استعمال الالفاظ النافرة والقوافي الغير المعجبة وما الى ذلك . ونقده لا يخلو من عمق وطرافة وإحكام .

٢ — القيمة الفنية : في اسلوب المعرّي حوار وظرف وفكاهة . ولكن فيه تعقيداً شديداً، وعبثاً لغوياً بعيداً عن الفن والطبع .



ابو العلاء المعري كما تخيَّله الفنان ارتورو اورتيس

١ مَبَانِي :

١ - مولده ونشأته : في معرَّة النعمان، بين حمص وحلب، كانت تعيش أسرة عريقة في القدم يمتد اصلها الى نبعة تنوخ، من قضاة، من قحطان . ولقد أنبتت تلك الغرسة فرعاً كريماً هو عبد الله بن سليمان بن محمد الذي عُرف بالعلم

والقضاء، والرئاسة والثراء . وكان له في دولة القريض محلٌ كما كان لأجداده من قبله . وقد شاطرته مشاق الحياة امرأة من نبعة كريمة ايضاً لم يذكر لنا التاريخ ما يوقفنا على حالها تماماً . ففي ذلك البيت نهار الجمعة الواقع في السادس والعشرين من كانون الاول سنة ٩٧٣ م (٣٦٣ هـ) وُلد طفل دعى احمد وعُرف بأبي العلاء . ولم تمض عليه ثلاث سنوات حتى دبَّ اليه داء الجدري الخبيث ولم يغادره إلا وقد وسم وجهه بسمات قبيحة وختم عينيه بخاتم العمى، فانطفأ بصره عن جمالات الكون . إلا ان عاهته لم تقعد به عن طلب العلم، وتحصيل الشهرة .

لقي الغلام مبادئ العلم عند ابيه، في المعرفة، فاطلع على اسرار اللغة والنحو . ولم تُرو تلك الصبابة نفسه فحمل عصاه وراح يجوب البلاد ينشد ضالته . يتم حلب حيث رفع سيف الدولة الحمداني لواء النهضة الثقافية، فزار مكاتبها وتحدث الى علمائها واخذ عن محمد بن عبد الله بن سعد النحوي تلميذ ابن خالويه . ثم ولي وجهه شطر انطاكية وهي بعد بأيدي الروم، فزار مكتبتها الشهيرة واختلف الى دور العلم فيها وسمع وسأل . وصر باللاذقية فتزل بدير وأخذ فيه آراء كثيرة عن راهب كان له يد في الفلسفة والعلوم الدينية . ثم انتقل الى طرابلس الشام .

٢ - في بغداد : (١٠٠٧-١٠٠٩ م / ٣٩٨-٤٠٠ هـ) . ودعا أبا العلاء ما في بغداد من دور علم ومذاهب مختلفة، فودع امه وسافر الى عاصمة الخلافة . وبغداد كما قيل، « وسط الدنيا وسرة الارض، والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الارض ومغاربها سعة وكبراً وعمارة » . وأهلها « ليس عالم أعلم من عالمهم، ولا أروى من راويتهم، ولا أجدل من متكلمهم، ولا اعرب من نحويهم، ولا أصح من قارنهم » . فسكن ابو العلاء حياً قديماً يدعى « سويقة ابن غالب »، ولم يدع بيت علم إلا ولجه، ولا مجلس أدب إلا حضره، ولا بيثة من بيئات الفلسفة إلا اشترك فيها . فعلا له صوت مسموع وبادره الناس بالتجلة والاكرام لسعة معارفه، فأوغر ذلك صدور البعض عليه حسداً . وحمل اليه البريد نبأ مرض أمه فترك بغداد، بعد ان عرفته سنة وسبعة اشهر، وقصد المعرفة . غير ان الاجل المحتوم وافى والدته،

وهو بعد في الطريق فجزع عليها جزءاً عظيماً . ووصل ولسان حاله يقول ما سيقوله في إحدى رسائله : « ولما فاتني المقام بحيث اخترت، أجمعت على انفرادي بجعلني كالظي في الكناس » .

٣ - عزله ووفاته : (١٠٠٩ - ١٠٥٨ م / ٤٠٠ - ٤٤٩ هـ) . حزن الشاعر لموت أمه، فزاد سواد الدنيا في عينيه وانتقل من عينيه الى قلبه، فمال الى الزهد . ولزم بيته وسمى نفسه « رهين الحبسين » يعني حبس نفسه في المنزل وحبسه عن النظر الى الدنيا بالعمى ؛ بل سمي نفسه أحياناً رهين المحابس الثلاثة : العمى والمنزل، وحبس آخر كان أكثر تبرُّماً به هو حبس روحه في جسده . وشرع في التصنيف فنظم « لزومياته » وألف « رسالة الغفران » وكتباً أخرى . وملاّت شهرته البلاد، فتوجهت الى « شيخ المعرفة » كل الانظار، فقصده الطلاب، وكاتبه من لم يصل اليه من علماء ووزراء وذوي الرتب . لبث أبو العلاء على تلك الحال مدة غير قصيرة، حتى عراه المرض ولم يمهله أكثر من ثلاثة ايام فتوفي نهار الجمعة الواقع في ٢٠ ايار سنة ١٠٥٨ م (٤٤٩ هـ) فضجت البلاد بتلك الفاجعة، ووقف على قبره لا اقل من ثمانين شاعراً يرثونه ويودعون فيه « فيلسوف الشعراء » .

٢ شخصية أبي العلاء : كان أبو العلاء ذا خلق دميم، قصير القامة، نحيف الجسم ضعيفه، واسع الجبهة، مشوه الوجه بآثار الجدري والعمى . غير أن ذلك الثوب الرث كان يحوي نفساً كبيرة . فلقد كان أبو العلاء متوقفاً الذكاء وافر البضاعة من العلم، له يد في الحديث والفقه والفروع والمذاهب، وباع طويل في اللغة والنحو والأدب، حتى قال التبريزي : « ما أعرف ان العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعري » . وحسبك بالزوم والغفران دليلاً على ما نقول . وكان شاعرنا معلماً بعلم الملل والأديان وفرق المسلمين، واسع الاطلاع على التاريخ والاخبار، ولم يفته علم النجوم مع عدم إيمانه بأحكامها . وكان في علمي العروض والقوافي

استاذاً وعمدة . ولقد وعى من الفلسفة الشائعة في ايامه شيئاً كثيراً ونظن انه لم يتعمق فيها التعمق الكافي ولا سيما في نظرياتها .
 وجمع ابو العلاء الى توقد الذهن قوة الحافظة . والعميان أصبح الناس حفظاً لان قوة بصرهم تتحول الى قوة السمع والحفظ . فكان شاعرنا يقول هو نفسه :
 « ما سمعت شيئاً إلا وحفظته وما حفظت شيئاً فنسيته » .

وكان المعري رقيق القلب، دقيق الشعور، سريع الانفعال، شديد الحياء، وافر الحرص على سمعته، خبيراً بمواقع النقص من البشر وطرق السخرية اليها، محباً للعزلة، كارهاً للندى . مزاج عصبي جعله متقلباً كثير الشكوك يميل الى التشاؤم والانفراد شأن سائر العاطفين . وكان طعامه العدس والتين، لا يمد يده الى اصناف اللحوم والصيد والبيض واللبن والعسل وحيوان البحر، ولا يستبجح الحرة بل يجذر منها . وكان مواظباً على الصلاة كثير الخض عليها .

٣ آثاره : ان المواهب الفطرية الفريدة التي أوتيها ابو العلاء ، والعلوم الواسعة التي حصلها بجده واجتهاده، وعماه الذي ابعده عنه تشتت الباصرة ، وعزله التي مكنته من التوفر على التأليف، كل ذلك اتاح له ان يبرز الى حيز الوجود تأليف كثيرة قد تبلغ السبعين ما بين منشور ومنظوم، تتناول مواضيع مختلفة من ادب ولغة وفلسفة ودين واجتماع وما الى ذلك . ومن اهم تلك الآثار في الشعر : «سقط الزند»، و «الدرعيات» (وتسمى ايضاً بضوء السقط، وهي في الحقيقة قسم من سقط الزند يتناول وصف الدروع)، و «اللزوميات» .

ومن اهم تلك الآثار في النثر : «رسائل ابي العلاء» (وهي كثيرة طبع ما وجد منها في كتاب ظهر في بيروت سنة ١٨٩٤، وفي اكسفورد سنة ١٨٩٨ مع ترجمة انكليزية)، و «رسالة الغفران»، و «رسالة ملقى السبيل» (وهي رسالة فلسفية نشرتها مجلة المقتبس في الجزء الاول من سنتها السابعة، ثم نشرها كامل كيلاني مع رسالة الغفران)، و «كتاب الأيك والغصون» (ويسمى ايضاً «بالمهزلة

والردف» (لأن أبا العلاء بناه على إحدى عشرة حالة للهمزة في حال أفرادها وإضافتها، وفيه أدب، وأخبار، وموعظة وزهد)، و«رسالة الملائكة» (أنفها أبو العلاء على جواب مسائل تصريفية القاها إليه بعض الطلبة، فأجاب عنها بأسلوب ظريف . وقد عُني المجمع العلمي العربي في دمشق بطبعها)، و«كتاب الفصول والغايات»، وكتاب «معجز أحمد» (وهو شرح شعر المتنبي، وقيل إن أبا العلاء اختصر فيه ديوان المتنبي، وتكلم على غريبه)، وكتاب «ذكرى حبيب» (قال ياقوت أنه مختصر في غريب شعر أبي تمام؛ وقال ابن خلكان إن أبا العلاء اختصر في هذا الكتاب ديوان أبي تمام وشرحه)، وكتاب «عبث الوليد» (اختلف المؤرخون في موضوع الكتاب، والأشهر أنه شرح لشعر البحتري وتعليقات عليه).

وقد ضاع أكثر آثار المعري وبقي قسم آخر منها مخطوطاً في خزائن الكتب . وإننا سنقتصر دراستنا على بعض ما وصلنا من تلك الآثار فنتكلم على «سقط الزند» و«اللزوميات» في الشعر، وعلى «الفصول والغايات» و«رسالة الغفران» في النثر، وفي هذه المؤلفات الأربعة الدلالة الكافية على أدب الرجل وأسلوبه الشعري والنثري، وعلى مبلغ تفكيره وقيمه .

٤ أبو العلاء المعري الشاعر : سقط الزند :

١ - ما هو كتاب سقط الزند : هو ديوان شعر يحتوي أكثر من ثلاثة آلاف بيت، نظمه أبو العلاء في صباه وشبابه إلى بعد رجوعه من بغداد، وسماه بذلك لأن السقط أول نار تخرج من الزند، فشبه شعره الأول به؛ وقد رتبته الشاعر نفسه ولكنه لم يتبع فيه ترتيباً تاريخياً ولا فنياً .

٢ - شروحه : شرح سقط الزند شروحاً كثيرة أولها شرح لأبي العلاء نفسه؛ ثم شرحه الفخر الرازي، ومجد الدين أبو الفضل قاسم بن حسين بن محمد الخوارزمي في كتاب سماه «ضرام السقط»، وابن السيد البطليوسي، وغيرهم .

٣ - مضمونه : لقد ضممتنا « الدرعيّات » الى « سقط الزند » ، لانها في الحقيقة قسم منه وُصفت فيه الدروع بنوع خاص . وديوان ابي العلاء يشتمل على المدح، والفخر، والرثاء، والوصف، والنسيب ؛ إلا انه يخلو من الهجاء والمجون والعتث والصيد والخمر .

١ المدح : يقسم مدح ابي العلاء قسمين : قسماً خص به الامراء وارباب
السلطان، وقسماً خص به اصدقائه ومراسليه، فكان الاول مدحاً رسمياً والثاني
من باب الاخوانيات . اما الاول فتكثر فيه المبالغات ولا يرمي فيه صاحبه الا الى
اتقان الصناعة التي تقوم مقام العاطفة الحقيقية ، واما الثاني فتقل فيه المبالغات لما
هنالك من عاطفة حقيقية .

وابو العلاء لا يتخرج من استثمار عقله، في سبيل المدح، فترى شعره أحياناً يتحول الى بحث علمي او خلقي ليس فيه من الشعر سوى الوزن وبعض الصور، كما في قوله :

والكِبَرُ وَالْحَمْدُ ضِدَّانِ اتَّفَقَ هُما مِثْلُ اتَّفَاقٍ فِتَاءِ السِّنِّ وَالْكِبَرِ
يُجْنِي تَرَايِدُ هَذَا مِنْ تَنَاقُضٍ وَاللَّيْلُ إِنْ طَالَ غَالَ الْيَوْمُ بِالْقَصْرِ

الا ان شعره المدحي لا يخلو من وثبات شعزية صحيحة قوام جملها الاندفاع
الموسيقي، والحركة التمثيلية، والصورة المبالغية، وعق الاعتبار الفلسفي؛ وهو لا
يخلو ايضاً من استطرادات تصويرية اذ يقع الشاعر على معنى يروقه او صورة
يستعذبها فيستغل نواحي ذلك المعنى او تلك الصورة ويتوسع في القول مفصلاً،
موضحاً صورته بصورة اخرى .

(١) الفتاوى: الفتوة، باباً طبعياً فزاد «لحقها» واخترع «الفتاة» بالفتح يفتي بفتح الفاء.

ويجاري المتنبي في كثرة المعاني ويقصر عنه في إحكام الشعر وبعده الوقع؛ وله من البحتري دقة التصوير وبعده الالحاء دون الانسجام؛ والمعري يستأثر بإيجاد الصور عن طريق المقارنة والمقاربة واستخدام المحسوس للارتقاء منه الى معانٍ أدبية . وهو يهتم لصقل المعاني المعروفة ويحاول ان يربطها بصور حسية او حقائق علمية او نفسية .

٢ الفخر : لابي العلاء بعض القصائد في الفخر اشهرها واحسنها اثنتان،
اولاهما همزية مطلعها :

ورائي أَمَامٌ والأَمَامُ وراءُ . إذا أَنَا لم تكبُرْ في الكُبَرَاءِ

وثانيها اللامية التي مطلعها :

أَلَا في سبيلِ المجدِ ما أَنَا فاعِلٌ عَفَافٌ وإِقْدَامٌ وحَزْمٌ ونَائِلٌ

والشاعر يفخو بنفسه وبقومه . اما نفسه فيفخر بصفاتها الادبية من شجاعة وكرم وذكاء . واما قومه فيفخر بسلطانهم على الشعر، واستيلائهم على الارض، وغنائم عن الناس، وافتقار الناس الى ما عندهم من معروف .

وابو العلاء يكسد ويجهد في البرهان عن مفاخره، وكأنه يخشى من علته وقبح خارجه ان يسقطاه في اعتبار الناس، فينظم الشعر النابض بنزعات شخصيته القوية، ولا يتخرج من المبالغة في التمدح . ويتأق له في موقفه هذا اشعار حكمية يتجلى فيها فضل الروح على المادة، وفضل الغنى الداخلي على الثروة المادية، فيقول مثلاً :

وإن كانَ في لُبْسِ الفتي شَرَفٌ لَهُ . فإِلسِيفُ إِلَّا غِمْدُهُ والحِمَائِلُ

٣ الرثاء : لابي العلاء سبع قصائد في الرثاء اشتمل عليها سقط الزند، رثى فيها أمه، وأباه، وأبا حمزة الفقيه، وجعفر بن علي بن المهذب، وغيرهم . ولكن

احسن ما قاله الشاعر في هذا الباب رثاؤه لابي حمزة في قصيدته الدالية الشهيرة التي مطلعها :

غيرُ مجْدٍ في مِلَّتِي واعتقادي نوحُ بكٍ ولا ترثُمُ شادُ

وهي من روائع شعر ابي العلاء بل من اروع الشعر العربي، جمعت صدق اللوعة، وعمق الفكر، فكانت مزيجاً من عاطفة خفاقة تتغلغل الى اعماق النفس، وحكمة عميقة تتجلى خلالها قيمة الحياة بإزاء الموت، في صور رائعة حسنة الاختيار :

صاحِ هُذِي قُبُورُنَا نَمَلًا الرُّحْبَ فَأَيْنَ القُبُورُ من عهدِ عادٍ
خَفِيفِ الوَطءِ ما أَظُنُّ أَدِيمَ الأَرْضِ إِلَّا من هَذِهِ الأَجْسَادِ
سِرٌّ إِنِ اسْتَطَعْتَ في الهَوَاءِ رُوبِدًا لا اخْتِيالًا على رُفَاتِ العِبَادِ
رُبَّ لَحْدٍ قد صارَ لَحْدًا مِرارًا ضاحِكٍ مِن تَرَاحُمِ الأَضْدَادِ
تَعَبٌ كُلُّهَا الحَيَاةُ فما أَعْجَبَ إِلَّا مِن دَاغِبٍ في ازْدِيَادِ

وإجادة ابي العلاء في الرثاء تنحصر في هذه القصيدة وفي قصيدته التي رثى بها جعفر بن علي بن المهذب . الا ان الاولى اشد روعة واقوى عاطفة واصدق لهجة وكأنني به رثى فيها البشرية جمعاء ، والثانية اوفر حكمة وكأنها نظمت في فلسفة الموت .

٤ - الوصف : لم يعد وصف ابي العلاء الاشياء المعنوية كالحزن والالم والفرح، وهي مما يمكنه الوصول اليه بعقله وخياله دون باصرته . وقد تعرض لوصف غير المعنويات ولكنه كان فيها متوكلًا على غيره من الشعراء يستعير منهم صورته ومعانيه . وصوره اذ ذاك ملاصقة للمادة .

وإصباحِ فَلَيْنَا اللَّيْلَ عَنْهُ كما يُفْلَى عن النَّارِ الرَّمَادُ

(١) يقول : اني اعتقد أن نوح الباكي وترثم الشادي لا ينفعان (٢) عاد : هو ابن عوص بن آرام بن سام بن نوح ؛ وهو اصل القبيلة العربية المعروفة باسمه .

أَبْلَ بِهِ الدُّجَى مِنْ كُلِّ سَقَمٍ وَكَوْكَبُهُ مَرِيضٌ مَا يُعَادُ

وفي وصفه استطواد تشبهي أو تمثيلي . فهو مثلاً يصف النوق ويشبهها بالطيور المحلقة في السماء باحثة عن مورد ماء، حتى إذا بدا لها ذلك المورد، انتقل الشاعر الى وصفه واسهب في الوصف .

ومن اوصافه المشهورة ما سُمي «بالدرعيات»، والشاعر فيها يفتن في تشبيه الدرع بالغدير مرة، وبعين الجراد مرة أخرى، وفي ذكر بلائها في تسليم السيوف وتحطيم الرماح، وحيطة الدارعين . ولهجة الشاعر في الدرعيات جاهلية، واسلوبه بدوي يكثر الغريب في الفاظه .

* * *

وبالجملة، إن أبا العلاء المعري قليل الروائع الشعرية، كثرت في شعر حدائمه المبالغة وظهر التكلف كما ظهر التقليد ومحاكاة الشعراء ولا سيما المتنبي .

٥ أبو العلاء المعري المفسر : اللزوميات :

١ - ما هي اللزوميات : اللزوميات، أو لزوم ما لا يلزم، أو اللزوم، ديوان شعر كبير مرتَّب على حروف المعجم، يذكر كل حرف بوجوهه الاربعة من ضم وفتح وكسر وسكون؛ وهذا الديوان يحتوي نحو احد عشر الف بيت وكله

(١) أبل من مرضه : برى . (٢) قال المعري في آخر مقدمة الكتاب : « وهذا حين ابدأ بترتيب النظم وهو مائة وثلاثة عشر فصلاً، لكل حرف اربعة فصول . وهي على حسب حالات الروي من ضم وفتح وكسر وسكون، وأمّا الالف وحدها فلها فصل واحد لأنها لا تكون إلا ساكنة . وربما جئت في الفصل بالقطعة الواحدة او بالقطعتين ليكون قضاء لحق التأليف . وبالله التوفيق » .

والذي يُنعم النظر في فصول الكتاب يرى ان الاوزان في كل فصل مرتبة على ترتيب الدوائر والابجر عند العروضيين ؛ فالبحر الطويل في الفصل مقدّم على غيره، والمتقارب مؤخر عن غيره، والابجر بينهما على ترتيبها . وليس معنى هذا ان المؤلف استوفى في كل فصل الابجر الخمسة عشر، بل المعنى ان ما يوجد من الاوزان في فصل يلتزم فيه الترتيب .

فلسفة واعتبار ونقد للحياة . وُسِي كَذَلِكَ لَانْ صَاحِبِهِ التَّزَمَ قَبْلَ الرُّوْيِ حَرْفًا اِذَا
غَيْرَ لَمْ يَكُنْ مُخَلًّا بِالنَّظْمِ . وَقَدْ نَظَّمَهُ الشَّاعِرُ بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ بَغْدَادَ، اِذَا اكْتَمَلَتْ
شَخْصِيَّتُهُ .

وُطُبِعَتِ الزُّوْمِيَّاتُ بِالْهِنْدِ سَنَةَ ١٣٠٣ هـ، وَبِمِصْرَ سَنَةَ ١٨٩١ - ١٨٩٥ م .

٢ - مضمونها : الزُّوْمِيَّاتُ تُمَثِّلُ حَيَاةَ عَقْلِ ابْنِ الْعَلَاءِ وَوُجْدَانَهُ وَخَلْقَهُ تَمَثُّلًا
صَادِقًا . وَهِيَ تَحْتَوِي آرَاءَ الرَّجُلِ الَّتِي كَانَ يُبَلِّغُ بِهَا إِلَى طَالِبِي الْعِلْمِ . فَقَدْ كَانَ
الْمَعْرِي شَيْخَ مَدْرَسَةٍ يَأْتِي إِلَيْهِ طُلَّابُ الْعِلْمِ مِنْ كُلِّ فَجٍّ وَصُوبٍ، فَكَانَ يَمَاجُ
قَضَائِيَهُمْ وَيَهْدِيهِمْ نَفْسَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ، وَيُعَلِّمُهُمْ نَظْرِيًّا وَعَمَلِيًّا، وَمَصْدَرُ نَظَرِيَّاتِهِ عَقْلُهُ،
وَيَحْتَضِرُ عِلْمِيَّاتِهِ جِسْمُهُ النَّحِيلُ الَّذِي قَسَا عَلَيْهِ . وَهَكَذَا كَانَ الْمَعْرِي لِمُرِيدِيهِ وَقَاصِدِي
فَضْلِهِ وَاعْظًا بِاللسَانِ وَالْمَثَلِ يُطَبِّقُ عِلْمَهُ عَلَى عَمَلِهِ .

وَإِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْدَّ آرَاءَ ابْنِ الْعَلَاءِ فِلْسَافَةً بِالْمَعْنَى الْحَصْرِيَّةِ، وَلَا أَنْ نَعْدَّ
صَاحِبَهَا فِيلْسُوفًا بِالْمَعْنَى الدَّقِيقَةِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ صَاحِبَ مَذْهَبٍ مُنْظَمٍ كَأَرِسْطُو وَابْنِ سِينَا،
وَلَمْ يَبْتَكِرْ شَيْئًا فِي الْفِلْسَفَةِ يَعْدُّ رَأْيًا لَهُ خَاصًّا أَوْ مَذْهَبًا خَاصًّا . فَإِنْ آرَأَهُ مَأْخُودَةً
مِنْ أَصُولٍ قَدِيمَةٍ اخْتَارَهَا وَآمَنَ بِهَا، أَوْ تَأَمَّلَاتٍ فِي الْحَيَاةِ تَرْجِعُ إِلَى مَا لَقِيَ مِنْ
تَجَارِبٍ وَأَحْدَاثٍ انْتَهَتْ عِنْدَهُ كَمَا انْتَهَتْ عِنْدَ غَيْرِهِ إِلَى أَفْكَارٍ عَامَةٍ . وَيَذْهَبُ
الْأَسَازُ مَارُونَ عُبُودَ إِلَى أَنَّ كِتَابَ الزُّوْمِيَّاتِ هُوَ كِتَابُ الْمَذْهَبِ الْفَاطِمِيِّ، وَأَنَّ
أَبَا الْعَلَاءِ صَوَّرَ فِيهِ لِلنَّاسِ شَخْصِيَّةَ الْحَاكِمِ وَخَصَالَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرُونَ، وَأَيَّدَ فِيهِ
مَذْهَبًا، وَوَضَعَ فِي شَعْرِهِ طَرِيقَةً، فَكَانَتْ آرَأُوهُ نَوْعَيْنِ : نَوْعًا مُسْتَمَدًّا مِنَ الْإِخْتِيَارِ
الْإِنْسَانِيِّ، وَهُوَ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْفِلْسَفَةِ الْعَامَةِ، وَنَوْعًا يَتَجَهَّزُ اتِّجَاهًا مُعْلُومًا وَيُعَبَّرُ

(١) الْحَاكِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ (٩٨٥ - ١٠٢٠ م / ٣٧٥ - ٤١٠ هـ) مِنْ خُلَفَاءِ الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ بِمِصْرَ .
كَانَ جَوَادًا سَفِيًّا كَأَلَدِمَاءٍ، وَكَانَ يَشْتَغِلُ بِعُلُومِ الْفِلْسَفَةِ، وَيَنْظُرُ فِي النُّجُومِ، وَقَدْ اتَّخَذَ نَيْتًا فِي الْمَقْطَمِ
يَنْقُطِعُ فِيهِ عَنِ النَّاسِ؛ وَادَّعَا إِلَى تَأْلِيهِهِ فَفُتِحَ سَجَلَاتُ كُتُبِهِ فِيهِ أَسْمَاءُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، فَكَتَبَ مِنْ أَهْلِ
الْقَاهِرَةِ سَبْعَةَ عَشَرَ أَلْفًا كَلَّمَهُمْ يَحْشُونَ بَطْشَهُ، وَفِي سُلْبِهِ مَتَاقِضَاتٌ كَثِيرَةٌ : يَأْمُرُ بِالشَّيْءِ ثُمَّ يَعْاقِبُ عَلَيْهِ،
وَيُعْلِي مَرَاتِبَ الْوُزَيْرِ ثُمَّ يَقْتُلُهُ . . .

او يترجم عن مذهب بعينه هو مذهب الفاطميين^١ . اما التناقض الذي يوجد في آراء ابي العلاء فما هو، في نظر الاستاذ مارون عبود، الاسخرية او « تقيّة في عصر كانت فيه كلمة « علم الاوائل » تقضي على الرجل » .

الا اننا نرى ان الاخذ بالتقية لا يمكنه ان يفسر التناقض والحيرة اللذين يحفل بهما كتاب المعري ؛ ونرى ان ابا العلاء عقلٌ كبير لم يملك زمام الذائبة والعاطفة بالتعمق في ما سمع من الآراء المختلفة والمذاهب المتباينة، فأخذ من كل مذهب بطرف وتأثر تأثراً عميقاً بالفاطمية، وكان في الحقيقة كما قيل « لَمَّا فلسفة يجمعها من هنا وهناك » وقد تناول بنوع خاص كليات المثني الفلسفية وبسطها فكان بذلك « مكبراً فوتوغرافياً » لصور شاعر سيف الدولة ؛ كما تناول آراء المعتزلة والفاطمية وغيرهما، وزاد على ذلك اختبارات، ونصب نفسه معلماً ينثر الآراء سواء اكانت صائبة ام فاسدة، مغرقاً في الحيرة والتردد، جاداً تارة وهازلاً ساخرأ تارة أخرى، تؤثر العاطفة المتألّمة في عقله فتطبعه بطابع التشاؤم . واليك خلاصة آراء المعري :

١- العقل : اعلى ابو العلاء شأن العقل متبعاً في ذلك رجال الفكر في عصره . فكان العقل عنده الامام الفرد والني الذي يرشد الى الحقيقة :

- كَذَبَ النَّاسُ لَا إِمَامَ سِوَى الْعَقْلِ مُشِيرًا فِي صُبْحِهِ وَالْمَسَاءِ
- أَتُحِبُّ الْفِرُّ إِنْ خُصِمْتَ بِعَقْلٍ فَاسْأَلْنَهُ فَكَلَّ عَقْلٌ نَبِيٌّ

وقد اراد ابو العلاء ان يحكم العقل في كل شيء، ولكنه اضطرب في ذلك التحكيم ولم يكن له من الفلسفة العميقة والعلم الراسخ ما يوضح له معالم طريقه

(١) قال الاستاذ مارون عبود : « الفاطمية مذهب فلسفي، وقدم اصبح ابو العلاء فيما أثبت وقرّر في اللزوميات شيخها الاعظم وامامها الباقي، فهو لم يدع شيئاً يعني « المستجيب » الى هذه الدعوة الا ذكره له وفنّده، وهو لا يقرر القضية مرة ومرتين بل يعالجها في كل ابواب كتابه » . ويعتقد الاستاذ ان ابا العلاء لم يسافر الى بغداد الا لاجل التمكن من مذهبه .

فتقلب كثيراً حتى وصل مرة إلى أن الإنسان لا يرى الحقيقة بعد أن اثبت أن العقل نبي :

أما اليقين فلا يقين، وإنما أقصى اجتهادي أن أظن وأحدس^١

٢ الطبيعات : قال المعري مع علماء القدم بالعناصر الأربعة النار والماء والتراب والهواء، واضطرب في مسألة قدم العالم، فأثبت القدم حيناً وانكره حيناً آخر :

وليس اعتقادي خلود النجوم ولا مذهبي قدم العالم

والمعري يرى أن عالم الكواكب يعمل في العالم السفلي بكل ما فيه من إنسان وحيوان وجماد، وأنه لا بد من إعظام الكواكب لأن الله عظمها .

وهو يرى أن الجسم وعاء دنس للنفس، وأن النفس تحب الموت ولا تخافه وهي تظهر بترفها عن الجسد . وقد اتخذ المعري في ذلك آراء افلاطونية وغير افلاطونية ولكنه لم يحسن تمحيصها . ودان بالجبرية وقال : أن الإنسان يولد مكرهاً، ويهرم مكرهاً، ويعيش مكرهاً، ويُقيم مكرهاً، ويسير كذلك مكرهاً :

ما باختياري ميلادي ولا هرمي ولا حياتي، فهل لي بمدّ تخيير
ولا إقامة إلا عن يدي قدر ولا مسير إذا لم يقض تيسير

فكان الإنسان من ثم مكرهاً على الفساد لأنه من طبعه فاسد . وفي كل ذلك تشاؤم مطبق استولى على الشاعر من جرأ مصائبه ونكباته ومن جرأ عدم تفهمه لنواميس الطبيعة الحقة .

٣ الماورائيات : أن لابي العلاء، في كل ما يخرج عن حدود المحسوس، موقفاً

« لا ادرياً » يكثر فيه القلق والاضطراب والتناقض . فهو يؤمن بوجود الله ولكنه يعترف بجهله لحقيقته تعالى :

أَثَبْتُ لِي خَالِقًا حَكِيمًا وَلَسْتُ مِنْ مَعَشَرِ نُفَاةٍ

وهو يثبت كمالات الله، وخلقه للعالم؛ وتراه يارس بعض فرائض الدين، ويذكر الدين احياناً بخير، ثم تراه يصارح بجمود الدين ويعتقد ان ارباب الدين لا يدينون بحسب العقل اي لا يحكمون العقل في دينهم، بل يرى احياناً اخرى ان جميع الديانات متساوية في الضلالة . فهو ينكر الديانات وهو متعبد وهو دين، لا بل تجد في كلامه اجمل الحث على اقتناء الفضيلة والتقوى والعبادة . ومن اضطرابه وتناقضه يتضح لنا ضلاله في تهجمه على الدين .

والمعري يؤمن بالبعث وإن اضطرب في ايمانه بعض الاضطراب .

في الادبيات او الفلسفة العملية : ادبيات ابي العلاء مبنية على التشاؤم، فالرجل شديد التشاؤم، ساخط على الدنيا، متبرم بالعالم، لا يرى فيه الا شراً مستطيئاً لا سبيل الى دفعه؛ والدنيا في نظره أفرغت الشر على كل ما فيها سواء اكان حيواناً ام انساناً :

قَدْ فَاضَتْ الدُّنْيَا بِأَدْناسِهَا عَلَى بَرَايَاهَا وَأَجْناسِهَا
وَكُلُّ حَيٍّ بِهَا ظَالِمٌ وَمَا بِهَا أَظْلَمُ مِنْ نَاسِهَا

والانسان في نظره يصنع الشر طبعاً واخيراً تكلفاً، لا بل يرى في مكان آخر ان الخير مقتقد :

مَفْعُولٌ خَيْرِكَ فِي الْأَفْعَالِ مُفْتَقِدٌ كَمَا تَعَذَّرَ فِي الْأَسْمَاءِ فَعْلُولٌ

ومع ذلك نرى ابا العلاء يكثر من ذكر الخير في شعره ويعدد صفاته، واذا الخير محبب الى النفس يجد فيه العاقل لذته وسعاده؛ الا ان اللذة التي

يَجِدُهَا الْإِنْسَانُ فِي الْخَيْرِ لَيْسَتْ غَايَةُ الْفِعْلِ وَلَا هِيَ مَبْدَأُ مِنْ مَبَادِئِهِ لِأَنَّهَا تَنْقَلِبُ إِلَى الْمُبَادِئِ فَالْخَيْرُ يَجِبُ أَنْ يُطْلَبَ لِدَاتِهِ لَا لِنَفْعِهِ ؛ وَالْخَيْرُ لَا يَكُونُ خَيْرًا حَقِيقِيًّا إِلَّا إِذَا كَانَ خَاضِعًا لِحُكْمِ الْعَقْلِ .

وَالْمَعْرِي يَسِيءُ الظَّنَّ بِالْمَرْأَةِ، فَهِيَ فِي نَظَرِهِ مَصْدَرُ كُلِّ شَرٍّ، فَهِيَ غَادِرَةٌ مَتَهَالِكَةٌ عَلَى لَذَاتِهَا، وَهِيَ حَبْلٌ غِيٌّ بِهَا يُضَيِّعُ الشَّرَفَ التَّلِيدَ . وَهُوَ يَطْلُبُ حِجَابَ الْمَرْأَةِ وَعَدَمَ انْصِرَافِهَا إِلَى التَّعَلُّمِ .

أَمَّا الْمَجْتَمَعُ فَيَرَاهُ الْمَعْرِي فَاسِدًا يَسُودُ فِيهِ الْمَوَى وَالْجَهْلُ وَالْفُرُورُ وَالرُّثَاءُ، وَلَا يَرَى أَرْبَابَ السُّلْطَةِ إِلَّا أَهْلَ مَطَامِعٍ .

وَإِذَا كَانَ الْفُرَادُ وَالْمَجْتَمَعُ مَغْمُورِينَ بِالْفُسَادِ، فَلَمْ يَبْقَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا الْإِنْعِزَالُ وَمُمَارَسَةُ الْفُضِيلَةِ .

٣ - قِيَمَةُ الزُّوْمِيَّاتِ الْإِدْبِيَّةِ : قَالَ الْمَعْرِي فِي مَقْدَمَةِ الزُّوْمِيَّاتِ : « قَدْ تَكَلَّفْتُ فِي هَذَا الْكِتَابِ ثَلَاثَ كَلَفٍ : الْأَوَّلَى أَنَّهُ يَنْتَظِمُ حُرُوفُ الْمَعْجَمِ عَنْ آخِرِهَا ؛ وَالثَّانِيَةُ أَنْ يَجِيءَ رَوِيُّهُ بِالْحُرُكَاتِ الثَّلَاثِ وَبِالسَّكُونِ بَعْدَ ذَلِكَ ؛ وَالثَّالِثَةُ أَنَّهُ لَزِمَ مَعَ كُلِّ رَوِيٍّ فِيهِ شَيْءٌ لَا يَلْزَمُ مِنْ يَاءٍ أَوْ تَاءٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحُرُوفِ » . فَهَذَا شَعْرٌ حَدَّدَ مَوْضُوعَهُ وَاخْتَارَ لَهُ نِظَامًا فِي الْقَوَافِي وَتَرْتِيبًا عَلَى الْحُرُوفِ وَحَرَكَاتِهَا . وَلَيْسَ هُوَ شَعْرًا كَسَائِرِ الشُّعْرِ، لَا بَلْ هُوَ بَعِيدٌ عَنْ نَتَاجِ إِخْيَالِ الشُّعْرِيِّ ؛ يَظْهَرُ فِي مَبْنَاهِ التَّكَلُّفِ الشَّدِيدِ مِنْ غَرَابَةِ فِي اللَّفْظِ، وَجُنَاسٍ كَثِيرٍ، وَالتَّزَامِ مَا لَا يَلْزَمُ فِي الْقَوَافِي، وَاسْتِعْمَالِ الْفَاضِلِ الْعُلُومِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنْ عُرُوضٍ وَنَحْوٍ وَفَقْدِهِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ .

٦ - أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعْرِي السَّكَنَابُ : الْفُصُولُ وَالْفَافَاتُ - رِسَالَةُ الْفُفْرَانَةِ :

١ - الْفُصُولُ وَالْفَافَاتُ

١ - مَا هُوَ كِتَابُ الْفُصُولِ وَالْفَافَاتِ : هُوَ الْكِتَابُ الَّذِي قِيلَ أَنَّ أَبَا الْعَلَاءِ

عارض به القرآن، وسماه الفصول والغايات في معارضة السور والآيات . وليس في هذا الكتاب إلا عظات ونصائح .

وهو يتألف من فصول يحتوي كل فصل منها عدة جمل مسجوعة لا يتساوى عددها في جميع الفصول ؛ وينتهي كل فصل بكلمة تسمى الغاية يلتزم ابو العلاء وزنها والحرف الاخير منها في عدة فصول . والمؤلف ينتقل في الغايات من حرف الى حرف متبعا للترتيب الهجائي للحروف، ولا يهمل الا الالف وذلك لان الغايات او الفواصل مبنية على ان يكون ما قبل الحرف المعتمد فيها ألفا، ومن المحال ان يُجمع بين ألفين ؛ وقد يلتزم قبل الالف حرفا آخر في طائفة من الغايات كما يلتزم ضربا شتى من السجع والتفنن اللغوي .

وقد قيل ان ابا العلاء بدأ في وضع هذا الكتاب قبل رحلته الى بغداد وانه بعد عودته الى المعرة . وقد فسر ابو العلاء غريبه وألغازه في كتابين آخرين عنوان احدهما « السادن » وعنوان الآخر « إقليد الغايات » . ولم يبلغنا من الكتاب إلا اقله .

٢ - مضمون الكتاب وقيمه الادبية : في « الفصول والغايات » ما في « الزوميات » معنى ومبنى . فيه آراء مختلفة لا تخلو من تناقض واضطراب، وفيه تكلف لغوي شديد والتزام ضروب من القيود اللفظية تظهر مقدرة ابي العلاء اللغوية ولكنها تبعد كتابته عن الطبع، وتجعلها صعبة المنال .

ب - رسالة الغفران

١ - ما هي : هي رسالة كتبها المعري الى علي بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح، جوابا على رسالة بعث بها اليه يذكر فيها شوقه الى لقائه ويسأله عن عدة مسائل تتعلق بالادب والفلسفة والزندقة والتصوف والتاريخ وأمور الدين والفقه والنحو واللغة وغير ذلك، وينجى فيها على الزنادقة، ويتنقص الوزير المغربي صديق

أبي العلاء . فقد كان الجواب « رسالة الغفران » وهي أشبه « بكوميديا إلهية »
مسرحة الجنة والنار .

طُبعت هذه الرسالة بمصر سنة ١٣٢٥ هـ .

٢ - مضمونها : تُقسم رسالة الغفران الى قسمين كبيرين :

١ القسم الاول : رحلة ابن القارح في السماء : يتخيّل المعري ان قد خطر لابن القارح ان يقوم بنزهة في دار البقاء، فركب جملاً كريماً من جمال الجنة خلق من ياقوت ودرّ، وسار في الجنة على غير منهج، ورأى ما فيها من نعم، ورأى يوم الموقف وما فيه من هول وشفاعة وقد أقام فيه ستة أشهر حتى اعياء الحرّ والظمأ، وهو واثق بدخول الجنة لان معه صك التوبة، وقد فكر في ان ينجذ سدة الجنة بما كان ينجذ به الناس في الدنيا من الشعر فلم يُفلح، وأخيراً شفع فيه فنال ما ابتغى، وعاد الى نعيم الفردوس ومنه قصد زيارة الجحيم ليرى حال اهلها، فركب بعض دواب الجنة وسار فر الجنة العفاريت وهم جن آمنوا بحمد، ثم وصل الى الجحيم فرأى ابليس مضطرباً في الاغلال والسلاسل . وهو في رحلته هذه يمر بعدد كبير من الشعراء ورجال الادب، فيرى في الجنة جماعة ممن كان ينتظر ان يراهم في النار، ويرى في النار جماعة من الذين كان ينتظر ان يراهم في الجنة فيسأل الاولين عن سبب الغفران لهم، والآخرين عن منع الغفران عنهم، فيجيبونه مفصلين رواية حالهم وموردين اسباب الغفران او منعه، ولذلك سمي الكتاب « رسالة الغفران » .

٢ القسم الثاني : الرد على رسالة ابن القارح : في هذا القسم يتناول المعري المسائل

التي وجهها اليه ابن القارح فيجيبه عنها واحدة واحدة، ويعرض خلال ذلك لمسائل اخرى لم يسأل عنها . فنراه يتكلم على الزمان والمكان، والتناسخ، والقرامطة، ومذهب الحلول وغير ذلك مما سُئل عنه او مما عرض له او اراد هو اثارته .

٣ - قيمة رسالة الغفران :

١ القيمة العلمية الفلسفية : رسالة الغفران تدلّ على قوة خيال صاحبها وعظم

ابتكاره، كما تدل على سعة معارفه، فهو دائرة معارف في التاريخ والرواية والاديان والمذاهب واللغة والنحو وما الى ذلك . وقد وقف فيها المعري موقف الناقد الساخر، فكان ناقد ادب ولغة وتاريخ واجتماع ودين .

ونقد ابي العلاء ممزوج بالسخرية والهزء، وكلامه في ذلك شديد الوقع على خصومه، موثلم اللذع . وهو يتناول بتهكمه اخبار الجنة والنار، وفكرة الغفران وكيف يدخل قوم الجنة عن غير استحقاق، ويدخل آخرون النار وليس لهم ذنب، وهو يهاجم البعث بكل قواه، وينفي العودة، ويشجب التناسخ الى غير ذلك مما يدل على شكوكه . وهو يحاول ان يخفي شكوكه بظاهر ما في قوله من ايمان بكل شيء، كما يحاول ان يخفي تصريحاته تحت ستار التوريات والغريب من الالفاظ وغير ذلك من ضروب التعبير .

اما نقد ابي العلاء الادبي فهو يتبع نفس الطريقة في السخر والتهمك، وهو يتناول المعاني والمباني . اما المعاني فيحمد فيها الابتداع والابتكار والاتزان وعدم الغلو . فيمتدح ابا تمام مثلاً لانه « صاحب طريقة مبتدعة، ومعان كاللؤلؤ يستخرجها من غامض بحار » . يأخذ على ابن هاني الاندلسي غلوه الشديد في مدح المعز ؛ يأخذ على الوليد بن يزيد اشعاراً فيها كفر ويرميه بقوارص الكلام فيقول ان عقله عقل وليد وقد بلغ سن الكهل . وهو يأخذ على الشعراء عموماً تزلفهم .

واما المباني فيعيب على بعض الشعراء استعمالهم الفاظاً نادرة وقوافي غير معجبة، يأخذ على رؤبة بن العجاج مثلاً صنعه رجزاً على الغين والطاء والظاء، كما يأخذ على غيره بعض الضعف العروضي .

وان لم يعرض ابو العلاء في نقده الادبي للفنون الادبية، وان لم يبسط الكلام في النقد بسطاً وافياً، فنقده لا يخلو من عمق، وطرافة، وصواب واحكام .

٢ القيمة الفنية : اسلوب ابي العلاء اسلوب لا يخلو من طرافة ومتمعة لما فيه من حوار وظرف وفكاهة . ولكنه اسلوب تظهر فيه مقدرة الرجل على التعقيد الصناعي، فهو يفرغ وقته الطويل في ضروب من العبث والاغراب، فيستخدم الشعر الغريب والامثال والاشارات التاريخية . ويستمد اكثر عقده في صناعة نثره من اللغة، فيستعمل الالفاظ الغير المألوفة، ويلتزم في اكثر جوانب سجعته ان تكون نهاية السجعة لا حرفاً بل حرفين او اكثر، كما يلتزم الجناس غالباً في عباراته، ويعتمد غالباً في جناسه على الاغراب في الالفاظ . فجناساته اقرب الى اللغة والاغراب اللغوي منها الى الفن الخالص .

هذا هو ابو العلاء كما ظهر لنا من دراسة اهم آثاره، وتلك هي ميزات شعره ونثره . وقد كان لهذا الرجل شأن كبير في التاريخ، والناس فيه فريقان : فريق يرفعه الى اسمى مراتب التعظيم والتكريم، وهو مؤمن بما يدعو اليه المعري، مكبر لكل ما يقوله ويفعله من غير تمييز او من غير انزان في الرأي ونظر عميق في الحقائق؛ وفريق آخر يعتقد ان آثار الرجل مزيج من حق وباطل وشك ويقين، وان الكثير من كلامه يدعو الى الانحراف عن الصراط المستقيم .

ومهما يكن من امر فابو العلاء من العقول الكبيرة التي لم يتهياً لها ان تحصل من العلم العميق ما يخرجها من حيرتها ويسهل لها طريق التفكير النير . وقد وجد ابو العلاء في عصر شاعت فيه الصناعة فاندفع يستغل ما فيها من افانين، ويُفرق في العبث اللغوي . وانه مع كل ذلك لا يسعنا الا الإعجاب بما ابقاه ذلك الاعمى من آثار جليلة تنطق بعظم قدره وسمو مواهبه .

بعض المراجع^١

١ المراجع العربية :

- طه حسين : ذكرى ابي العلاء - الطبعة الثالثة - القاهرة ١٩٣٧
» : مع ابي العلاء في سجنه - القاهرة ١٩٣٩
مارون عبود : زوينة الدهور - بيروت ١٩٤٥
فؤاد افرام البستاني : ابو العلاء المعري - الروائع ١٧ - بيروت ١٩٢٨
احمد تيمور باشا : ابو العلاء المعري - القاهرة ١٩٤٠
عبدالله العلايلي : المعري ذلك المجهول - بيروت ١٩٤٤
كمال خليل اليازجي : جولة في لزوميات المعري - بيروت ١٩٤٢
عبد العزيز الراجكوتي : ابو العلاء وما اليه - القاهرة ١٣٤٤ هـ
المهرجان الالفى لابي العلاء المعري - دمشق ١٩٤٥ (في الكتاب عدد كبير من الابحاث
لاكابر الكتاب والمفكرين)
مجلة الاديب : عدد خاص عن ابي العلاء - حزيران ١٩٤٤ - يحتوي ٢٦ بحثاً
مجلة الثريا : عدد خاص عن ابي العلاء - ابريل ١٩٤٤ - يحتوي ١٤ بحثاً
الهلال : عدد خاص - يونيو ١٩٣٨ - يحتوي ٢٦ بحثاً

٢ المراجع الاجنبية :

- Baerlein : Abu'l-'Alā', the Syrian — London 1910.
Brackenbury : Abu'l-'Alā' Al-Maarri, Rissālat al-Ghufrān — London 1943.
G. Brockelmann : Gesch. d. Arab. Litt. t. I, 254.
Von Kremer : Abu'l-'Alā'. Z. D. M. G., XXIX, XXX, XXXI, XXXVIII.
H. Laoust : La vie et la philosophie d'Abu'l-'Alā'. Bull. Et. Orient., t. X* (1944), 119-158.
D. S. Margoliouth : Mukātabat Abi-'Alā, with English translation — Oxford 1898.
Nicholson : Abu'l-'Alā', in Encycl. de l'Islam, t. I, 77-79.

(١) لقد اصدر الاستاذ يوسف اسعد داغر كتيباً عنوانه « ٣٥٠ مصدر في دراسة ابي العلاء » وذلك بداعي الذكرى الالفية التي اقيمت لشاعر المعرة ؛ وفي ذلك الكتيب كل ما يحتاج اليه الباحث من مصادر عربية وأجنبية - بيروت ١٩٤٤

موضوعات للبحث

١ - أبو العلاء ذو شخصية قوية لم يستطع ضبط زمامها . اوضح معالم تلك الشخصية من دراسة حياة الرجل وآثاره .

٢ - قال المعري :

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانهُ لآتٍ بما لم تستطعهُ الاوائلُ

ما رأيك في هذا المقال ؟

٣ - وازن بين شاعريّة ابي العلاء وشاعريّة المتني .

٤ - قال المقدسي : « كان الشعراء قبل ابي العلاء لا يرون في الحياة الا انفسهم ولا يرون في الادب الا ما يوصل الى اغراضهم ، فجاء المعري ينظر الى البيئة التي تحويه محاولاً رفعها واصلاح شؤونها . على انه لم يرَ فيها غير أوجه الفساد والظلام » . ناقش هذا القول .

٥ - رسالة الغفران كوميديا إلهية مسرحها الجنة والنار . اوضح ما في هذا الاثر الأدبي من طرافة وخيال وفنّ .

٦ - أبو العلاء ناقد ساخر . اظهر ما وصل اليه النقد الادبي معه .

٧ - اعمد الى قصيدة ابي العلاء الدالية في رثاء ابي حمزة ، وحلّليها تحليلًا أدبيًا .

أدب الاستقرار والتدرج نحو الجمود

الشعر

الفصل السادس

ابن الفارض (١١٨١ - ١٢٣٤ م / ٥٧٦ - ٦٣٢ هـ)

١ حياته : وُلد ابن الفارض في القاهرة ونشأ في التزهد والصيانة، ثم اشتغل بالفقه والحديث وانحاز إلى التصوف، وأوى أولاً إلى وادي المستضعفين في المقطم، ثم إلى مكة. ولما عاد إلى مصر احتفل به احتفالاً عظيماً. وقد توفي بالقاهرة.

٢ نفسيته : كان ابن الفارض شديد التأثر العصبي، شديد الاهتزاز لكل مشهد من مشاهد الجمال، ميلاً إلى التشكف، مترقياً عن حطام الدنيا، محباً، سخيّاً، كثير الخير، طيب العشر.

٣ آثاره : لابن الفارض ديوان شعر من أشهر ما فيه قصيدته الحميرية، وثائيته الكبرى المعروفة بنظم السلوك والتي ضمنها الشاعر تجاربه الصوفية.

٤ ابن الفارض شاعر الحب : كان لابن الفارض مذهب في الحب، كما كان له فيه انصراف شديد الوطأة على نفسه. أما مذهبه فهو أن يستسلم الإنسان للحب الإلهي استسلاماً كاملاً لا يعرف الحياء ولا الحدود إلى أن يذوب الحب في حقيقة المحبوب.

وأما تصرف الشاعر فانطلاق شديد في طريق الحب اسقمه وقتله، وأسعده من حيث أشقاه وعذبه.

٥ فنه : في شعر ابن الفارض تكرار لفظي ومعنوي، وإكثار من وجوه البديع والتصغير وأساليب الوجدان، وموسيقى عذبة. وفيه أيضاً غموض وإهمال لغوي وإعرابي.



ابن الفارض کا تجلّہ الفنان ارتورو اورتیس

١ هبانه : أبو حفص عمر بن علي السعدي المعروف بابن الفارض حموي الاصل،
وُلد في القاهرة سنة ١١٨١ م / ٥٧٦ هـ ؛ ونشأ في كنف والديه في
عفاف وصيانة وترُّهد . واشتغل بالفقه الشافعيّ واخذ الحديث عن ابن عساكر،
ثم انحاز الى التصوف، فاعتزل الناس عدّة سنوات وانفرد للعبادة والتأمل والتجرد،
وأوى أولاً الى مكان خاص في جبل المقطم يُعرف بوادي المُستضعفين كان
المتجردون يختلفون اليه، ثم انقطع عنه ولزم اياه . ولما تُوفي الوالد عاد ابن الفارض
الى التجريد والسياسة الروحية او سلوك طريق الحقيقة، فلم يُفتح عليه بشيء . ولم
يبلغ الكشف، فقصّد مكّة واقام فيها مجاوراً نحواً من خمس عشرة سنة، فنضجت
شاعريته وكملت مواهبه الروحية .

ولما عاد الى مصر استقبل كرجل بار، وكان الايوبيون هناك شديدي العناية
بفتح المدارس وبعث الروح الدينية، كما كان للصوفيّة مكانة فريدة بسبب عنايتها
الكبرى برياضة الروح . فاحتفل القوم بابن الفارض احتفالاً عظيماً واكرموه على
اختلاف طبقاتهم إكراماً جزيلاً، حتى قيل ان الملك الكامل نفسه كان ينزل لزيارته
بقاعة الخطابة في الجامع الازهر .

(١) ابن عساكر هذا غير الحافظ الشهير صاحب التاريخ الكبير (٢) التصوف مذهب
روحانيّ يرمي اصحابه الى الوحدة اي اتحاد النفس بالله، وهم يحصلون عليها بالتقوى ووقع الشهوات؛
فيارسون المجاهدة والخلوة والذكر، ويضيفون الى المجاهدة محاسبة النفس على الافعال والتروك، وهكذا
يحصل لهم الترقى من حال الى حال حتى يبلغوا الكشف غالباً، وهو كشف حجاب الحس والاطلاع
على عوالم من امر الله ليس لصاحب الحس ادراك شيء منها . وذلك ان احوال الروح تقوى بالمجاهدة
والخلوة اللتين تضعفان الحس، ثم ان الذكر هو بمثابة غذاء للروح، وهكذا يغلب سلطان الروح على
سلطان الحس، فيصير شهوداً ما كان علماً، وهكذا تحصل المشاهدة . فيتعرض الانسان عند ذلك
للمواهب الربانية والعلوم اللدنيّة والفتح الالهيّ، ويدرك من حقائق الوجود ما لا يدرك سواه،
وكذلك يدرك كثيراً من الوقائع قبل وقوعها .

اما الشوق الى الاتحاد بالحقيقة الالهية فهو الحب الذي يتغنى به الصوفيون، ويجعلونه اساس ايمانهم،
ويستعيرون له الحجرة ومفاعيلها .

وتوفي ابن الفارض بالقاهرة سنة ١٢٣٤ م / ٦٣٢ هـ ، ودُفن في حضيض جبل المقطم .

٢ تقييده : كان ابن الفارض شديد التأثر العصبي ، بل كانت نفسه كالوتر الحساس تهتز لكل مشهد من مشاهد الجمال سواء أكان في الاشكال ام في الاصوات ؛ وكان اهتزازها له شديداً جداً حتى لتقع في شبه ذهول حتي او في شبه سكرة تواجدية .

وكان ابن الفارض لاجل ذلك يحب التأمل ببهاء الطبيعة ، ويهوى أوديتها ووحشتها :

فَلِي بَعْدَ أَوطَانِي سُكُونٌ إِلَى الْفَلَا وَبِالْوَحْشِ أَنِّي إِذْ مِنَ الْإِنْسِ وَحْشِي^١

وكان ميلاً الى التقشف ، يعمل على قهر النفس بالصيام ، وقد ذكرت له أربعينيات كان يحييها بالصيام والتأمل .

وكان الى ذلك كله مترفعاً عن حطام الدنيا ، محباً ، سخيّاً ، كثير الخير ، طيب المعشر .

٣ آثاره : لابن الفارض ديوان شعر هو ، على صغر حجمه ، من اشهر الدواوين . وقد توفّر الكثيرون على شرحه إلا انهم ذهبوا في ذلك مذهبين متباينين ، فمنهم من فهموا معانيه على ظاهر لفظه وادّعوا أن حبّ ابن الفارض أرضي مادي ، وان غزله هو كغزل ابي نواس وغيره ؛ ومنهم من تفهّموا معاني الديوان الحقيقية ، ووقفوا على اسرار نفس صاحبه المتجرّدة ، ففتروه تفسيراً صوفياً .

وأشهر من شرحه على ظاهر معناه الشيخ حسن البوريني سنة ١٠٢٤ هـ (١٦١٥ م) ؛ وأشهر شروحه الصوفية شرح الشيخ عبد الغني النابلسي سنة ١١٤٣ هـ (١٧٣٠ م) . وقد جمع رشيد بن غالب بين الشرحين في كتاب طبع عدّة مرات .

وفي ديوان ابن الفارض مقطوعات كثيرة تصلح للغناء، قد يكون الشاعر نظمها للتغني بها . إلا أن أشهر شعر ابن الفارض الصوفي قصيدتان هما :

١ - الحمزية، ومطلعها :

شربنا على ذكر الحبيب مدامةً مسكرنا بها من قبل أن يُخلق الكرمُ

وتد تغني فيها الشاعر بجمرة الوحدة الالهية وبالسكر الروحي ؛ وبين صفات تلك الجمرة :

صفاء ولا ماء، ولطف ولا هواً ونور ولا نار، وروح ولا جسم

وبين مفاعيلها، وإذا هي مبددة للهموم، مسكرة بالافراح، مقيمة للموتى، شافية للاسقام، مذبذبة للاخلاق . ثم بين عشق الشاعر لها وإذا روحه ممتزجة بها امتزاجاً لا يعرف الانفصال :

وعندي منها نشوة قبل نشأتي معي أبداً تبقى وإن بلي العظم

٢ - التائية الكبرى : وهي قصيدة تقع في ٧٦٠ بيتاً وتسمى « نظم السلوك »

لأنها شبه طريق روحي للارتقاء الى الله، و « التائية الكبرى » تميزاً لها من قصيدة تائية أخرى، أما مطلعها فهو :

سقتني حمياً الحب راحةً مقلتي وكأني محياً من عن الحسن جلست

وقد ضمنها الشاعر تجاربه الصوفية، فكانت نشيداً من أناشيد الوجد الروحي، وتمثيلاً للعراك المستمر بين الصلاح والشر، والفوز النهائي بمشاهدة الجمال المطلق أي جمال الله الذي يتجلى في كل ما هو جميل في الطبيعة والانسان .

اهتم المتصوفون والعلماء لهذه التائية اهتماماً كبيراً فأكثروا من تفسيرها والتعليق عليها . ومن شارحيها الفرغاني (١٨٧٦ م / ١٢٩٣ هـ) والكاشاني (١٨٩٢ م / ١٣١٠ هـ) .

٤ ابهم الفارض شاعر الحب : ابن الفارض شاعر الحب وقد دُعي « سلطان العاشقين » . إلا ان حبه هو ذلك الحب الرفيع الذي يسمو على المادة ويتفلسف من قيودها للحاق بمبدع الجمال وينبوع كل بهاء . وكان لابن الفارض مذهب في الحب كما كان له فيه انصراف شديد الوطأة على نفسه .

أما مذهبه فهو ان يستسلم الانسان للحب الالهي استسلاماً كاملاً، وأن يتلاشى فيه، فإن الموت فيه حياة، والتلاشي نعيم وسعادة :

فإن شئت أن تحيا سعيداً قُتُّ به شهيداً وإلا فالغرام له أهل

وابن الفارض يريد ان يخلع المرء الحياء في اتباع ذلك الحب السامي . وهو لا يخفي انه قتال وأن « أوله سُقمٌ وآخره قتلٌ » . وهذا القتل هو ان تتلاشى ارادة الحب في ارادة المحبوب، وان يذوب الحب في حقيقة المحبوب .

وأما تصرف الشاعر فكان انطلاقةً شديداً في طريق الحب أسقمه وقتله :

وقد علموا أنني قتيلٌ لحاظها فإن كها في كل جارحة نصل

وحبه ليس له مثل كما انه ليس لمحبوبة مثل، وليس له بعد ولا قبل، كما انه ليس لمحبوبة بعد ولا قبل؛ وهو حب سخي مندفع يجود حتى بالروح :

ما لي سوى رُوحِي وبازلِ نفسي في حبٍّ من يهواه ليس بمُسرفٍ

وقد استولى على كل جوارح صاحبه، فأسعده من حيث أشقاه وعذبه :

وتعذيبكم عذبٌ لَدَيَّ وجوركم عليّ بما يقضي الهوى لكم عدلٌ

٥ فم : ابن الفارض شاعر اضطر في الحب اضطراراً شديداً حتى أذهله أحياناً، وقد اراد التعبير عن ذلك الحب، والافصاح عما يجول في نفسه منه،

(١) رفع كلمة « نصل » خطأ، ومن حقها النصب على أنها اسم إن . الجارحة : العضو .

(٢) المُسرف : المفرط ، المبدّر .

فكان كلامه شعراً تضيق بحوره وقوافيه عن اندفاع الحب وثورته، وتقتصر الالفاظ عن تصوير حقيقته؛ ولهذا نحسّ ان الشاعر في ضيقة فيطيل القصائد، ويعمد الى التكرار اللفظي والمعنوي، ويحاول ان يحتمل اللفظ مثل ما يحتمل المعنى، فيمحشر فيه وجوه البديع من جناس وطباق، ويغالي في ذلك مغالاةً قلماً وصل اليها شاعر؛ ويعمد الى التصغير فيكثر منه كما يعمد الى اساليب الوجدان من مناجاة ومناداة :

يا ساكني البطحاء كل من عودَةٍ أحيّا بها يا ساكني البطحاء^١

ومن تلّهُف صارخ :

وا لهُفّي ضاع الزمانُ ولم أفرز منكم أهيلَ مودّتي بلىء

ومن استفهام، وتعجب، وقسم، وأمر ونهي وما الى ذلك مما تردحم به اشعار ابن الفارض وتضطرب به اضطراب عواطفه الخفاقة :

وحياتكم وحياتكم قسماً وفي عمري بغير حياتكم لم أحلف

وهو في كل ذلك يهمل اللغة والاعراب اهملًا شنيعاً، لا يهجمه غير معاني حبه واضطرام عواطفه، وهو يقع في غموض كثير يتأتى عن بعد إشاراتِهِ او عن تعسفه في الصناعة .

وابن الفارض لا يغفل عن الموسيقى الشعرية إلا نادراً ، فهو يتغنى بشعره تغنيًا وينظمه موقّعاً على اوتار نفسه، فتتصاعد انغام عذبة من البحور اللينة، وتآلف الالفاظ والحروف، وتكرار بعضها تكراراً موسيقياً، ومن القوافي التي تردد صدى ألحان الحب الداخلية :

- خَفِيفَ السَّيْرِ وَاتَّيْدُ يا حادي إغما أَنْتَ سائِقٌ بِفُؤادي^٢

- قِفْ بالديارِ وحيِّ الأربُعِ الدُّرُسا ونادِها فَعَساها أَنْ تُجيبَ عني^٣ . . .

وقصارى القول ان ابن الفارض شاعر سامي الروح، صادق العاطفة، متدفق المعاني، جمع من الموسيقى الشعرية وعذوبة الكلام الشيء الكثير، وإن لم يخلُ شعره من ثقل وغموض بسبب الصناعة التي انتشرت في عصره انتشاراً شديداً .

(١) البطحاء : المسيل الواسع فيه رمل ودقاق الحصى . (٢) اتَّيْدُ : تمهّل ، تأنّ . الحادي :

الذي يسوق الإبل ويفني لها (٣) الأربع الدُّرُس : التي عفت وامّحت .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- الاب يوحنا قير : ابن الفارض - بيروت ١٩٤٧
 انيس المقدسي : امراء الشعر العربي في العصر العباسي - بيروت ١٩٣٦ ص ٥٦ - ٦٠
 و ٣٦٩ - ٤٠٢
 ع. محفوظ : ابن الفارض والشعر الرمزي (في كتابه : الشريف الرضي) - بيروت ١٩٣٨
 ص ١١٧ - ١٣٥
 امين الحسن : ابن الفارض - العرفان ١١ ص ٣٦٩ ، ٤٩٩ ، ٧١٨ ، ٧٣٥
 يوسف يعقوب مسكوني : عمر بن الفارض - الرسالة ١١ ص ٧٥٢
 ابن خلدون : المقدمة ص ٤٦٧ - ٤٧٥

٢ المراجع الاجنبية :

- Louis Massignon* : Taṣawwuf, in *Encycl. de l'Islam*, t. IV, 715-719.
R. A. Nicholson : *The Mystics of Islam*, London 1914.
 « » : *Studies in Islamic Mysticism*, Cambridge 1921, 199-266.
 « » : 'Omar Ibn al Fārid, in *Encycl. de l'Islam*, t. III, 1047-1048.

موضوعات للبحث

- ١ - ليس الحب تلك العاطفة السَّجِجَة التي تهبط بالانسان الى درجة البهائم، ولكنه سمو الى عالم الروح، وإخلاص، وسخاء في التفاني وبذل الذات. توسّع في هذه الفكرة مظهراً كيف فهم ابن الفارض الحب، وما الأثر الذي كان للحب في حياته.
- ٢ - فنّ ابن الفارض هو وليد فوران العاطفة وتدفعها. ناقش هذه الفكرة مؤيداً كلامك بالبرهان.

ادب الاستقرار والتدرج نحو الجمود

الشعر

الفصل الرابع

سائر الشعراء

ا — ابو بكر الصنوبري : وُلد في انطاكية، وعمل خازناً في مكتبة سيف الدولة. اشتهر بروضيّاته.

ب — كشاجم : هو هنديّ الاصل. اتّبع في شعره طريقة الادب الواقعيّ وجعل للطبيعة في ديوانه محلاً واسعاً.

ج — السريّ الرّفّاء : وُلد ونشأ بالموصل. شعره شعر الخيال الصافي، المشرق بصوره والوانه.

د — ابو الفتح البستي : وُلد في بُست. اشتهر شعره نونيّته.

ه — مهيار الديلمي : هو فارسيّ ديلمّي برّز في الغزل الوجداني والرتاء والاخوانيّات والعتاب وشكوى الزمان. يمتاز شعره بالموسيقى العذبة، وقرب التشبيه والاستعارة، وكثرة التأنق.

و — الطُّغرائيّ : هو فارسيّ من اصبهان، اشتهر شعره قصيدته المعروفة « بلاميّة العجم ».

ز — بهاء الدين زُهير : وُلد بمكّة ونشأ في قُوص بصر. ووزر للملك الصالح الايوبيّ، وكان له كثير الاخلاص فجعله الملك صاحب سرّه.

للبهاء ديوان شعر اكثر ما فيه الغزل والعتاب والرتاء. واسلوبه يمتاز بخفّة الروح والعذوبة والبهولة؛ وشعره موسيقيّ عذب.

١ — ابو بكر الصنوبري (٩٤٥ م / ٣٣٤ هـ)

ابو بكر محمد بن احمد الصنوبري ولد بانطاكية وعمل خازناً في مكتبة سيف الدولة . الا انه كان محباً للتجول، محباً للطبيعة يستلهمها شعره، ويتغنى بجمالياتها . وقد برز في وصفها حتى عدّه بعض النقاد اول شاعر للطبيعة في العربية^١ . وانه وان لم يكن في الحقيقة اول شعراء الطبيعة، فقد ابقى فيها شعراً رائعاً، واشتهرت « ووضياته » كما اشتهرت خمرات ابي نواس . فصور الطبيعة في نشاطها وحركتها، وبث فيها حياة، واذا هي ذات مجتمعات تتحاسد جماعاتها وتتنافس في تضارب الالهواء، وتباين النزعات، والشاعر يميل معها أتي مالت، ويرنو اليها كيفما بدت بشغف وحُبّ عظيمين .

ب — كشاجم (٩٧٠ / ٣٦٠ هـ)

ابو الفتح محمود بن الحسين بن شاهر المعروف بكشاجم^٢ هندي الاصل . كان طبّاح سيف الدولة، وله ديوان طُبع في بيروت سنة ١٣١٣ هـ (١٨٩٥ م) . ومن مؤلفاته « كتاب ادب النديم » .

اما شعره فقد اتبع فيه طريقة الادب الواقعي التي تعنى بوصف الحياة المحسوسة . واحبّ كشاجم الطبيعة حباً شديداً فكان لها في ادبه محل واسع .

ج — السري الرفاء (٩٧٦ م / ٣٦٦ هـ)

ابو الحسن السريّ بن احمد بن السري الكندي الرفاء ولد ونشأ في الموصل .

(١) آدم متر Adam Mez : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع — الترجمة العربية . ص ٣٠٤

(٢) كشاجم كلمة مركّبة من الكاف من كاتب، والشين من شاعر، والالف من اديب، والجيم من جواد، والميم من مُنجم .

وقد اتصل بسيف الدولة ومدحه وأقام عنده مدّة، ثم انتقل بعد وفاة الأمير الحمداني الى بغداد حيث اتصل بالوزير المهلي . وكان بينه وبين الخالدين الشاعرين الموصلين معاداة ومهاجاة .

للسري الرفاء ديوان شعره اكثره في مدح سيف الدولة والوزير المهلي وبني حمدان، وفيه هجاء للخالدين، ووصف ورثاء .

وشعر السري الرفاء هو شعر الخيال الصافي الذي يأتي بالصور عامرة بالحياة، طافحة بالنور، تريد الصنعة البيانية زهواً والواناً . وذلك في لغة سهلة مشرقة، واوزان يغمرها الفن، وتفيض بالعدوبة، وتتصاعد منها موسيقى مطربة .

د - أبو الفتح البستي (١٠١٠م / ٤٠٠هـ)

أبو الفتح علي بن الحسين بن عبد العزيز البستي ولد في بُست بالقرب من سجستان، وولي كتابة ديوانها، ثم انتقل الى بخارى ومات فيها . له ديوان شعر اشهر ما فيه النونية التي مطلعها :

زِيَادَةُ الْمَرْءِ فِي دُنْيَاهُ نُقْصَانُ وَرَبْحُهُ دُونَ مَحْضِ الْخَيْرِ خُسْرَانُ

هـ - مرزبان الديلمي (١٠٣٦م / ٤٢٨هـ)

أبو الحسن مهيّار بن مرزويه الفارسي الديلمي ولد ببغداد، وتخرّج في النظم على الشريف الرضي . وقد ترك في الشعر ديواناً كبيراً ضمنه اكثر الفنون الشعرية المعروفة .

(١) الخالديان (نسبة الى الخالدية بلدة بالموصل) هما الاخوان ابو بكر محمد بن هاشم وابو عثمان سعيد بن هاشم . وكانا قِيَمَيْنِ على مكتبة سيف الدولة .

برز مهيار في الغزل الوجداني الرقيق، والرياء، والاخوانيات، والعتاب،
وشكوى الزمان. اما مديحه ففيه تطويل يقرب اساليب القصيدة من اساليب
الرسائل النثرية. واما وصفه فكثير ولاسيا في الشمع، والسك، والطبل،
والاسطربلاب وما الى ذلك؛ وهو لا يجيد فيه اجادته في موضوعات الوجدان.

ويمتاز شعر مهيار عموماً بموسيقاه العذبة التي لا تتوقف على الوزن وحده بل
على الوزن وعلى اسلوب الشاعر في الافصاح؛ كما يمتاز بقرب التشبيه والاستعارة.
ومهيار كثير التأنق في نظمه، إلا ان شعره لا يخلو من بعض الميوعة والحشو.

و - الطغرائي (١١١٩م/٥١٣هـ)

مؤيد الدين ابو اسماعيل الحسين بن محمد المعروف بالطغرائي ولد في اصبهان
من اسرة فارسية. وقد اصبح وزيراً للسلطان مسعود السلجوقي بالموصل؛ ثم أُسر
وقُتل ظمأً مرمياً بالإلحاد.

للطغرائي ديوان شعر كبير اكثره في المدح، وخير ما فيه قصيدته اللامية
المعروفة «بلامية العجم»، تميزاً لها من «لامية العرب» للشنفرى، وفيها يشكو
الشاعر الدهر والاخوان، ومطلعها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل وحلية الفضل زانتني لدى العطل

ز - بهاء الدين زهير (١١٨٥ - ١٢٥٨م/٥٨١ - ٦٥٦هـ)

أ - بهاء: ابو الفضل بهاء الدين زهير بن محمد المهلبى، ولد بمكة ونشأ في قوص
وهي احدى مدن مصر، واتصل بسلاطين الدولة الايوبية ووزر الملك

(١) أصالة الرأي: جودته. الخطل: الخطأ. العطل: الخلو من الزينة. يقول: جودة
عقلي حفظتني من الخطأ، وحلية العلم زانتني عند خلوي من الزينة.

الصالح ابن الملك الكامل، وانتقل معه الى دمشق واقام في خدمته حتى دارت الدائرة على الملك الصالح واسره ابن عمه بقلعة الكرك . فبقي البهاء زهير في نابلس مقيماً على ولاه مولاه الى ان عاد الملك الى الديار المصرية، فعاد معه وقد ازداد به الملك تعلقاً وكان يستشيريه في اكثر امور الدولة .

كان البهاء زهير آين الطبع رقيق الاخلاق عذب الكلام، شديد العطف على المظلوم .

٢ شعره : لبهاء زهير ديوان شعر فيه نحو ٤٠٠٠ بيت، طُبع مراراً في مصر وبيروت وترجمه الى الانكليزية شعراً المستشرق بالمر سنة ١٨٧٥ .
اما موضوعاته فهي خصوصاً الغزل والعتاب والثناء .

البهاء زهير شاعر الحب، يمتاز اسلوبه بخفة الروح والعدوبة، والسهولة . واكثر شعره يخلو من التمنيق والتصنع، ولكنه في بعض الاحيان يحفل بضروب البديع من جناس وطباق وتورية .

وقد يتطرق البهاء في السهولة حتى ليملاً شعره احياناً بكثير من الكلمات العامية والاساليب الشعبية .

وهو في شعره يميل الى الاوزان المجزوءة والمستحدثة .

والى جنب هؤلاء الشعراء اشتهر شعراء كثيرون منهم الواواء الدمشقي (٩٩٩ م / ٣٩٠ هـ) وابو الحسن السلمي (١٠٠٢ م / ٣٩٣ هـ) وابو الفرج البیضاء (١٠٠٧ م / ٣٩٨ هـ) وابو العباس النامي (١٠٠٨ م / ٣٩٩ هـ)، وابن نباتة السعدي (١٠١٤ م / ٤٠٥ هـ)، وصريع الدِّلاء (١٠٢١ م / ٤١٢ هـ) الخ .

بعض المراجع

سيد نوفل : شعر الطبيعة - القاهرة ١٩٤٥

احمد امين : ظهر الاسلام - القاهرة ١٩٤٦

جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربيّة - الجزء الثاني - القاهرة ١٩٣٠

علي علي الفلال : ميار الديلمي وشعره - القاهرة ١٩٤٧

عبد الرحمن شكري : شعر ميار الديلمي - الرسالة ٧ - ص ١٠٠ - ١٠٣

شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي - القاهرة ١٩٣٥

اسماعيل مظهر : تاريخ الفكر العربي - القاهرة ص ١٥٢ - ١٧٣

ادب الاستقرار والتدرج نحو الجمود

النثر الفني

الفصل الثامن

الترسل (طريقة ابن العميد — الطريقة الفاضلية)

أ — ابن العميد ومدرسته : ابن العميد فارسي الأصل، وزر لركن الدولة وعضد الدولة . وكان له طريقة خاصة في الكتابة هي مزيج من زخرف أنيق وموسيقى رائعة .

— عناصر طريقته : — التزام السجع القصير الفقرات — التصوير والتلوين والتنميق بدمج وشي السجع في وشي البديع وضروب أساليب البيان — عدم التقيد بالسجع والتنميق تقييداً مطلقاً — الميل الى الترادف والاطناب — البراعة في حسن استعمال حروف الجرّ وسائر الروابط الكلامية — الإغراب في الاشارات التاريخية واللغوية والعلمية .

— تلاميذه : من تلاميذه ابو بكر الخوارزمي، وابو اسحاق الصايي، والصاحب بن عباد، وبديع الزمان الهمداني .

ب — القاضي الفاضل : كان وزير صلاح الدين الايوبي . وكانت له طريقة خاصة في الكتابة .

— عناصر طريقته : التصوير التشخيصي — الايغال في الجناس والطباق والتورية — الإكثار من حلّ المنظوم والتضمين — الإطناب .

— أثره : انتشرت طريقة القاضي الفاضل في الشرق والغرب، وكانت من اسباب انحطاط الكتابة الفنية .

ظل النثر الفني سائراً في طريقه وكان للحضارة والترف أثر كبير في أساليبه ومعانيه . فاخذ يتدرج في التجميل والزخرف كما تدرج الناس في تنميق ألبيتهم وأطعمتهم وسائر مرافق حياتهم، وكثر فيه استعمال البديع والسجع، واصبحت الكتابة صناعة محضة، يُعنى فيها الكاتب أحياناً بالمبنى أكثر مما يُعنى بالمعنى . وقد ظل في هذا العهد اكابر الكتّاب محافظين على أساليب البلاغة العربية لسلامة ذوقهم وغزارة علمهم ومعارفهم، فلم تنحط كتابتهم كما انحطت كتابة غيرهم ولا سيما المتأخرين منهم الذين افتقرت عقولهم الى الثقافة كما افتقرت أذواقهم الى التمييز الصحيح، فكانت كتابتهم الفاظاً مرصوفة، كثيرة الزخرفة والتضمين، بعيدة عن كل معنى مبتكر، وبعيدة عن كل فن حقيقي .

ومن أشهر كتّاب هذا العصر ابن العميد، والقاضي الفاضل، وتلاميذهما الذين جروا على أثرهما وتبعوا طريقتهما .

١ - ابن العميد ومدرسته :

١ - ابن العميد (٩٧٠ / ٥٣٦٠ هـ) : ابو الفضل محمد بن الحسين المعروف بابن العميد فارسي الاصل من مدينة قم، نشأ في بيت أدب وكتابة، ووزر لآل بويه وكان تقلده للوزارة سنة ٩٣٩ م (٥٣٢٨ هـ)، ووزر أولاً لركن الدولة ثم لابنه عضد الدولة، وأقام في وزارته الى وفاته سنة ٩٧٠ م (٥٣٦٠ هـ) .

كان ابن العميد واسع الحفظ يُلم بجميع ضروب الثقافة لعصره من فلسفة وعلوم طبيعية وهندسة وحيل وما الى ذلك حتى سمي بالجامع الثاني، وقد مدحه المتنبي ومما قال فيه :

مَنْ مُبْلِغُ الْأَعْرَابِ أَنِّي بَعْدَهُمْ شَاهَدْتُ رَسَاطِيسَ وَالْإِسْكَندَرَا
وَسَمِعْتُ بَطْلِيمُسَ دَارِسَ كُتُبِهِ مُتَمَاكِكًا، مُتَبَدِّيًا، مُتَحَضِّرًا
وَلَقِيتُ كُلَّ الْفَاضِلِينَ كَأَنَّمَا رَدَّ إِلَهُهُمُ وَالْأَعْصَرَا

له مجموعة رسائل في النصح والعتاب وما اليهها، كما له بعض الشعر الرقيق .

٢ - طريقته في الكتابة : طريقة ابن العميد هي طريقة الوشي والزخرف التي كانت شائعة في اقليمه وظاهرة بنوع خاص في صناعة السجاد ؛ هي مزيج من زخرف انيق وموسيقى رائعة او قل هي تطريز تصويري وموسيقى . فقد كان ابن العميد ذا شغف بفن الرسم والتصوير، وذا أذن موسيقية تطرب للاصوات الرخيمة، وتحسن تميز أعذبا جرساً وادقها معنى . ومن ثم كانت عناصر فنه الكتابي ترجع الى ما يلي :



سجادة من صنع العجم، في وشيها وزخارفها الرائعة

١ - التزام السجع الكثير الفقرات :

كان ابن العميد يحصل على الموسيقى بواسطة السجع والتقصير، فيوازن بين العبارتين المتجاورتين؛ وإن طال زمن العبارتين المسجوعتين قصره « بإحداث المعادلات والموازنات بين الفاظ العبارتين حتى لا تخرج الاذن من الفاظ العبارة الاولى إلا وتُحَسَّ براحة صوتية إزاء كل كلمة من كلمات العبارة الثانية لأنها تُمَثِّل قرينة لها في العبارة السابقة من الوجهة الصوتية تمام التماثل » .

٢ - التصوير والتلوين والتنسيق :

وكان ابن العميد يحصل على التصوير والتلوين و « التطريز » بدمج وشي

السجع في وشي البديع وضروب اساليب البيان . فيجلى عباراته بألوان

البديع من طباق وجناس وغيرهما، ويصور بأساليب البيان من استعارة وكناية وغيرهما؛ ومن قوله في ذلك: «لا جرمَ أني وقفتُ بينَ مِيلٍ إِيْلِكَ ومِيلٍ عَلَيْكَ»، أقدمُ رجلاً لصدِّكَ، وأؤخِّرُ أخرى عن قصدِكَ...».

٣٠ عدم التقييد بالسجع والتنسيق تقيداً مطلقاً: يتعمد ابن العميد السجع والزخرفة ولكنه لا يتقيّد بهما تقيداً دائماً وان كانا شائعين في كتابته شيوعاً عظيماً؛ وهو بذلك لا يشبه سواد المتأثقين الذين عاصروه أو أتوا بعده، بل قد ترى في رسائله أحياناً ما يذكرُك بأسلوب العهد السابق، كما في قوله: «أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعَرِّفَنِي بِرَكَّتِهِ... وَيُرُدَّ عَلَيَّ غُرَّةَ سُؤَالٍ، فَهِيَ أَسْنَى الْغُرَرِ عِنْدِي، وَأَقْرَبُهَا لِيَعْنِي، وَيُطْلِعَ بَذَرَهُ، وَيُزِيلَنِي الْأَيْدِيَّ مَتَطَلِّبَةً هَلَالَهُ بِسُفْرِ...».

٣١ الميل إلى الترادف والإطناب: إنَّ الأسلوب المنمَّق المسجَّع الذي يعمد إليه ابن العميد في كثير من الأحيان يتطلَّب من طبيعته الإطناب والترادف. وهذا ما نجده في رسائل الكتاب، فيقول مثلاً: «قد يَغْرُبُ الْعَقْلُ ثُمَّ يُوْثِبُ، وَيَغْرُبُ اللَّبُّ ثُمَّ يُوْثِبُ، وَيَذْهَبُ الْحَزْمُ ثُمَّ يَعُودُ، وَيَفْسُدُ الْعَزْمُ ثُمَّ يَصْلُحُ...».

٣٢ البراعة في استعمال حروف الجرِّ وسائر الروابط الكلامية.

٣٣ الإغراب في الإشارات التاريخية واللغوية والعلمية، إلا أن إغرابه قليل بالنسبة إلى ما نجده عند سواه من المترسلين.

— وهكذا كان نثر ابن العميد صلة وصل بين عهد السجع المتناثق والعهد الذي سبقه.

٣ — تلاميذ ابن العميد: جرى على طريقة ابن العميد مع زيادة في السجع والتنسيق طائفة من المترسلين أشهرهم:

١ أبو بكر الخوارزمي (٩٩٣ م ٣٨٣ هـ): وصلنا منه ديوان شعر ومجموعة رسائل، وهو يعتمد فيها السجع القصير وينتخب لفظه كما ينتخب

استجاءه؛ ويعني عناية خاصة بألوان الطباق والتصوير والجناس . وقد يُغرق أحياناً في التزيين والزخرف .

٢ أبو إسحاق الصابي (٩٩٤ م / ٣٨٤ هـ) : وصلنا منه مجموعتان في الترسل، واسلوبه فيهما اسلوب ابن العميد؛ وهو يُعنى عناية شديدة باختيار الفاظه وصقل عباراته وتنقيح سجعاته، إلا أنه لا يُغرق في استخدام ألوان البديع، بل يهتم قبل كل شيء الموسيقى والجزالة والاطراد البليغ .

٣ الصاحب بن عباد (٩٣٨ — ٩٩٥ م / ٣٢٦ — ٣٨٥ هـ) : من آثاره مجموعة رسائل، و« المحيط » في اللغة . كان يُعنى عناية خاصة ببلوغي التصوير والجناس، وقد بلغ بمذهب التثنيق مبلغاً عظيماً . وكان شديد الولع بالسجع حتى في الكلام فضلاً عن الكتابة، وقد قيل فيه : « انه لو رأى سجعةً تنحل بموقعها عروة الملك ويضطرب بها حبل الدولة لما هان عليه التخلي عنها » .

٤ بديع الزمان الهمداني (٩٦٩ — ١٠٠٧ م / ٣٥٨ — ٣٩٨ هـ) : سنأتي على ذكره في فن المقامات . له رسائل مجموعة في كتاب يُعرف « برسائل بديع الزمان »، طُبعت في الآستانة سنة ١٢٩٨ هـ وفي بيروت سنة ١٨٩٠ م . والبديع يحاول دائماً أن يأتي بجديد في فنه، وقد أفرط في استخدام التثنيق فأخرج عباراته أحياناً مثقلة بالجناس والإغراب فيه كما في قوله مفضلاً العرب على العجم : « أَلْعَرَبُ أَوْفَى وَأَوْفَرُ، وَأَوْفَى وَأَوْفَرُ . . . وَأَحْلَى وَأَحْلَمُ، وَأَقْوَى وَأَقْوَمُ، وَأَبْلَى وَأَبْلَغُ، وَأَشَجَى وَأَشَجَمُ، وَأَسْمَى وَأَسْمَحُ، وَأَعْطَى وَأَعْطَفُ . . . » وفي مثل هذا الكلام خروج عن الجمال الحقيقي، وعن رصانة الأسلوب التثنيقي وروعته .

والبديع، إلى ذلك، ينجح إلى الغريب في لفظه، وإلى الإكثار من الدعاء والتضمين، فيضمن كلامه كثيراً من الأمثال ومن آيات القرآن، فيقول مثلاً في رسالة إلى الخوارزمي : « أَنَا لِقُرْبِ الْأُسْتَاذِ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - « كَمَا طَرَبَ النَّشْوَانُ مَالَتْ بِوِجْهِهِ الْحُمْرُ »، وَمِنَ الْارْتِيَاكِ لِلْقَائِمِ « كَمَا انْتَفَضَ الْمُصْفُورُ بِلَلَّةِ الْقَطْرِ »، وَمِنَ الْامْتِزَاجِ بَوْلَانِسِهِ « كَمَا

التَّقَتِ الصَّهْبَاءُ وَالْبَارِدُ الْعَذْبُ»، ومن الابتهاج بِمَرَّاهُ «كَمَا أَهْتَرَتْ تَحْتَ الْبَارِحِ^٢ الْغُصْنُ
الرَّطْبُ»، فكيف نشاطُ الأُستاذِ لِصَدِيقِ طَوَى إِلَيْهِ مَا بَيْنَ قَصَبَتَيْ الْعِرَاقِ وَخُرَّاسَانَ...»

ب - القاضي الفاضل ومدرسته :

١ - القاضي الفاضل (١١٣٤ - ١١٩٩ م / ٥٢٩ - ٥٩٦ هـ) : الوزير مجير الدين

عبد الرحيم البيساني المعروف بالقاضي الفاضل وُلد بمدينة عسقلان في فلسطين، وجاء
مصر في اواخر الدولة الفاطمية، نخدم في ديوان الظاهر بالقاهرة؛ وبعد سقوط
الدولة الفاطمية وزر اصلاح الدين الايوبي وأصبح كاتبه ومشيره؛ وبعد وفاة
صلاح الدين أبقاء ابنه الملك العزيز على حاله من الرفعة ونفاذ الامر . ولم يزل كذلك
حتى توفي . وقد قال صلاح الدين الايوبي في ملاٍ من الناس : « لا تظنوا ملكتُ
البلادَ بسيوفكم بل بقلم الفاضل » .

للقاضي الفاضل ديوان لا يزال مخطوطاً، وله مجموعة رسائل .

٢ - طويقته في الكتابة : لقد نشأ القاضي الفاضل في عصر بلغ فيه التأنيق

البياني في الشعر والنثر مبلغاً عظيماً، حتى أصبح التنميق غاية الكاتب يصرف كل
همه الى إلباس الكلام لباساً موشى تشقله الزخارف البديعية واللفظية . وقد كانت
للقاضي الفاضل يد طولى في هذه الحركة حتى عُدد شيخ الصناعة الكتابية، وكانت
له طريقة خاصة سُميت « الطريقة الفاضلية » ترجع عناصرها الى ما يلي :

١ - التصوير التشخيصي : يقوم ذلك بالتوقف على الاستعارات وطرق المجاز

المختلفة، ثم بالتشخيص الكثير، مما هو من ميزات الشعر .

٢ - الايفال في الجنس والطباق والتورية : لقد أولع بها القاضي الفاضل، وأكثر من

استعمالها في رسائله وأطال جملته وباعد بين فواصلها المسجعة ، حتى تتم له القرائن
والمرشحات لبيان التورية والجناس؛ فنشأ عن ذلك كله غموض وتعقّد وغثاءة .
قال من رسالة كتبها عن صلاح الدين الى الخليفة ببغداد يبشّره بفتح بلد من بلاد

(١) الصهباء : الخمر (٢) البارخ : الريح الحارة .

الثوبة وانهمزام ملكها بعساكره : « ولم يبقَ إلَّا موقدُ نيرانِ رحلتِ قلوبهم بضرامها ،
وأثافي^١ دُهمهم^٢ أعجلت المهابة ما ردَّ سغبهم^٣ عن طعامها ، وغربان^٤ بين كائناتها في الديار ما
قُطِعَ من رؤوس بني حامها^٥ ، وعوافي^٦ طير كانت تنتظر من أشلائهم^٧ فطر صيامها .
وعادت الرسل المنفذة لاقتفاء آثارهم ، وأداء أخبارهم ، ذاكرة^٨ أنهم لبسوا الليل
حدادا على النعمة التي خلعت ، وغسلوا بماء الصبح أطماع نفس كانت قد تطلعت ، وأتتهم
طلعوا الأوعار^٩ أوغالا^{١٠} ، والعقاب عقبانا ، وكانوا لها بطر الأودية سيولا ، ولأعالي الشجر
قضايا . . . » .

٣ الإكثار من حل المنظوم والتضمين : وأولع القاضي الفاضل بالإكثار من حل
المنظوم وتضمين كلامه الامثال والحوادث المشهورة .

٤ الإطناب : وكثر في هذه الطريقة الاسهاب فمال القاضي الفاضل ولاسيا من
تبعه من الكتاب الى العطف والترادف وغير ذلك من اساليب التطويل .

٣ - اثر القاضي الفاضل : كان للقاضي الفاضل أثر كبير في من عاصره ومن
أتى بعده من الكتاب من مثل ابن الخطيب الاندلسي . وقد انتشرت طريقته سريعا
في المشرق والاندلس ، وجرى عليها الكثيرون فجاءت كتاباتهم كثيرة التكلف
قليلة البلاغة ، ولاسيا وقد ضعف التفكير واصبحت الكتابة رصف الفاظ ، وزخرفة
بيان ، والأعيب لغوية فارغة كانت احسن ممهد لعهد الانحطاط .

بعض المراجع

- خليل مردم : ابن العميد - دمشق ١٩٣١
انيس المقدسي : تطور الاساليب النثرية في الادب العربي - بيروت
شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي - القاهرة ١٩٤٦
محمد كرد علي : امراء البيان - الجزء الثاني - القاهرة ١٩٣٧

(١) الأثافي ج أثفية وهي الحجر توضع عليه القدر (٢) السغب : الجوع (٣) بني
حاما : اي الثوبة لسوادم (٤) عوافي الطير : الطير التي تطلب الرزق (٥) الأوعال ج وعل
وهو ما يعرف بتيس الجبل .

ادب الاستقرار والتدرج نحو الجمود

النثر الفني

الفصل التاسع

الادب القصصي عند العرب

١ ما هي القصة : القصة فنّ ادبي يقوم بسرد أحداثٍ تاريخية أو خيالية .

٢ أنواعها : تكون القصة شعرية أو نثرية . اما الشعرية فتكون ملحمة ، او قصيدة قصصية ، او مثلاً . واما النثرية فتكون خبراً ، او حكاية او رواية ؛ وتكون الحكاية فكاهة او سراً او ما الى ذلك .

٣ تاريخها :

١ - القصة في العالم : بدأت القصة بالخرافات والاساطير ، ثم وُجّهت توجيهاً اجتماعياً ، ثم ظهرت قصص الرحالة ، ثم ارتفعت القصة بتقدم الايام الى ان صارت في العصور الاخيرة من ارقى الفنون واروعها واكثرها انتشاراً .

٢ - القصة عند العرب : نشأت القصة العربية على اساس من الطبيعة والحقيقة ، موجّهة الى التسلية الشعبية . والادب القصصي عند العرب واسع النطاق منه الموضوع ومنه المنقول .

١ القصص الموضوع : اشهره سيرة عنترة . وهي رواية غرامية بطولية وضعها عدة مؤلفين على الاغلب ، ثم جمعت في القرن العاشر . وهي تخلو من الوحدة التأليفية ، والعمل فيها بطيء متناقل ، والاسلوب سهل مسجع يمتزج فيه النثر بالشعر ، ويكثر فيه الركيك والمنحول . وعنترة في الرواية مضخم في بطولته وحروبه وكل ما يرجع اليه ، وهو مثال الفروسيّة والبطولة . وقد انتشرت سيرة عنترة انتشاراً واسعاً ودعيت « الباذة العرب » .

٢ القصص المنقول : من أشهره كتاب الف ليلة وليلة ، وهو مجموعة حكايات وأسمار مختلفة الموضوعات والأساليب والأغراض ؛ وحكاياته من اصل فارسي هندي زاد عليه العرب وصبغوه بصبغتهم .

وقد اشتهر الكتاب الفنيّة هزيلة ، واسلوبه سهل المأخذ ، مبسوط العبارة ، سوقيّ اللفظ ، كثير الفضول والتضمين ، يسائر العامة في صراحتهم وثرثرتهم . وقد انتشرت حكايات الف ليلة وليلة انتشاراً واسعاً في الشرق وفي الغرب .

١ ماهي القصة : القصة من الفنون الادبية تقوم بسرد احداث تاريخية او خيالية . ومن شروط القصة ان تهدف الى غاية ادبية فنية تبلغ اليها عن طريق الوحدة الموضوعية ، والتحليل النفسي ، والمتعة الاخاذة ، والانشاء المتين .

٢ انواعها : تكون القصة شعرية او نثرية . فإن طالت القصة الشعرية وتعددت أحداثها وصورت أزمة وطنية شاملة، واشتبكت مصالح ابطالها بمصالح الآلهة، واتسع نطاقها للخوارق، سُميت ملحمة . وقد تقتصر القصيدة على سرد حادثة مفردة او إظهار عبرة حكمية فتكون قصيدة قصصية او مثلاً . وليس الكلام على ذلك في هذا الباب .

واما القصة النثرية فتكون خبراً طريفاً يُنقل ويُتحدث به وهو مما يمت بصلة الى التاريخ؛ أو حكاية قصيرة تدور حول حادث بسيط، وتشتبك فيها العقدة اشتباكاً تنتج عنه متعة ادبية حقيقية، وتسمى الحكاية فكاهة أو فادرة اذا قامت على النكتة والرشاقة، وتسمى سيمواً اذا تُحدث بها ليلاً؛ او رواية تضرب حوادثها حول حادث رئيسي واحد، وتكثر اشخاصها، وتتصادم مصالح ابطالها، وتعتمد على التحليل النفسي، في وحدة العمل ووحدة الغاية . وقد تطول الرواية حتى تبلغ عدة مجلدات .

٣ تاريخها :

١ - القصة في العالم : القصة حاجة من حاجات الشعوب في كل الامصار وكل الازمنة . وقد أثرت عوامل الطبيعة ومشاهدها في عقلية الانسان البدائي، واندست مفاعيلها في حياته الفردية والاجتماعية وتركت له حائراً متردداً امام الغازها، الى ان خولها روحاً وحياة ، فنشأ عن ذلك التفاعل بين الجهاد والروح البشرية خوافات

واساطير قامت عليها سير الابطال والحروب . وتطوّرت الاساطير وتضخمت الى ان اتيح لها ان تتناولها عبقرية شاعر او قصّاص، فتوحد ما فيها من تشعب، وتهذيبها وتخرجها للعالم أثراً رائعاً كاليادة هوميروس وشاهنامه الفردوسي .

ولما نضج العقل الانساني تحوّلت وجهته من القصة الخرافية البطولية الى القصة الموضوعية لغاية اجتماعية، وحلّ فيها الدرس الاجتماعي والتحليل النفسي والنقد التهمكي محلّ الخرافة والسذاجة والعبث، كما يظهر ذلك في دون كيخوتي لسرفنتس الكاتب الاسباني .

ولمّا كان عصر الاكتشافات والرحلات البعيدة بجرأ وبرأ، ظهرت قصص الرحالة وحكايات اخبارهم في جميع الامم المتحضرة .

وواصل فن القصة ارتقاؤه مع تقدّم العصور، وتخصّص الأدباء في هذا النوع من الكتابة، واتضحت معالمه شيئاً فشيئاً وقرّرت قواعده، الى ان صار في القرون الاخيرة من ارقى الفنون وأروعها واكثرها انتشاراً .

٢ - القصة عند العرب : ذكرنا في غير هذا الموضع الاسباب التي حالت دون ظهور الملاحم في التراث الادبي العربي : فن قلّة اساطير العرب الخرافية، الى رقة في عقائدهم الدينية، الى بساطة في نظمهم الاجتماعية، الى روح انفرادي واكتفاء باديهم الخاص، الى غير ذلك مما وقف حاجزاً بين العرب والادب الملحمي وادب الاساطير البدائي . وقد استعاضوا عن ذلك بالتذاكر والتفكّه بأخبار السلف واحداث الحاضر . ويجد العربي، اذا جلس للتحدّث، من قوّة ذاكرته، وحدة انتباهه للدقائق، ورشاقة كلامه، وسرعة تأثره، وشدة حيويته، وسائل فعّالة لإجادة القصة .

هكذا نشأت القصة العربية على اساس من الطبيعة والحقيقة، الا أنها نشأت موجهة الى التسلية الشعبية لا الى المتعة الفنية الادبية . وقد خرجت بسبب ذلك، في قسم كبير منها، عن القواعد المقرّرة للقصة من وحدة موضوع وتحليل نفسي وحرص على العقدة، وسرعة في الحديث بعيدة عن التطويلات المشقّلة، والاحداث النافلة .

وقد اجتمع للعرب من احوال حياتهم وايامهم تراث قصصي تداولته ألسنة الرواة والقصاصين الى العهد الاموي والعباسي حيث اهتم بعض الكتّاب لجمع ذلك الشتات المنشور، والزيادة عليه والتحويل فيه ؛ وضخّم ذلك التراث اختلاط العرب بالفرس والهند والروم، فاقتبسوا من قصصهم، ونقلوا عنهم، وصهروا ما اقتبسوه ونقلوه في بوتقة عوائدهم ونظريتهم، فكان من ذلك كله ادب قصصي واسع النطاق، له مسحة الخاصة وقيمتة الحقيقية . ويُقسم هذا الادب القصصي قسمين : القصص الموضوع والقصص المنقول .

١ - الفصص الموضوع

يتضمن هذا القصص الحكاية والرواية . اما الحكاية فقد حفلت بها المجموعات الادبية العربية كالآغاني للاصمعي وكتاب البخلاء للمجاحظ . وقد تتجمع النوادر حول شخص تاريخي كأشعب مثلاً، فتنبض بحياته وخفة روحه، ولكنها متقطعة لا تؤلف سيرة كاملة للرجل ولا رواية طويلة كاملة المشاهد والعناصر .

وأما الرواية فلما اتسع فن القصة في العصر الاموي والعباسية بحكم عوامل سياسية واجتماعية، اهتم لها الكتّاب اهتماماً كبيراً، فتناولوا اخبار المتيمين وسير الابطال، وانشأوا روايات مختلفة تدور حول مجنون ليلى وجميل بثينة وغيرهما، وتقدم مقطوعات شتى واخباراً مختلفة تتألف من عناصرها رواية طويلة، كاملة المشاهد، وان خلت من وحدة الموضوع والسياق القصصي المتلاحم الاجزاء، والتحليل النفسي العميق، والجمال التأليفي . وكان من اهتمام ابن طفيل بالفلسفة ان وضع رواية «حي بن يقظان»، وأدت اخبار الحروب الى وضع سير الابطال في مجلدات ضخمة، واشهر تلك الروايات «سيرة عنترة» و«قصة الزير»، و«قصة بني هلال» و«قصة الملك سيف بن ذي يزن» ؛ وهي موضوعة لتسلية العامة، تتألف من اخبار شتى لا تخلو من اصل تاريخي، تداولتها الالسنه، الى ان أتيح لها من لم شتاتها وأطال فيها ما استطاع، وأضاف اليها من الاحداث والاشخاص والاشعار ما لاشى وحدتها وأضاع عقدها . واننا سنحصر كلامنا في «قصة عنترة» :

— سيرة عنتره —

١ موضوعها : تتناول هذه الرواية حياة عنتره أشهر أبطال الجاهلية، فينسج الخيال حولها ألواناً من المغامرات التي توحى بها البيئة الجاهلية والخلق العربي المغرم بالشهامة والوفاء والتضحية . وإذا عنتره ابن الجارية الحبشية يتزعرع في جو من البطولة والحروب، ثم يستحوذ على قلبه حب ابنة عمه عبلة، فينال رضاها بمجيد خصاله ومجيد فعاله، وذلك بعد مصاعب جمة قامت في وجهه . ومن ثم يتضح لنا ان الرواية غرامية بطولية تعلي شأن قوة الارادة والثبات والجلد، وترفع القيم النفسية فوق المادة .

٢ واضعها : الاغلب ان قصة عنتره من وضع عدة مؤلفين، وقد تنقلت من عصر الى عصر ومن مكان الى مكان حتى قيض لها من جمع شتاتها . والمشهور انها جمعت في القرن العاشر (الرابع الهجري) جمعها يوسف بن اسماعيل المصري نزولا عند رغبة الخليفة العزيز بالله الفاطمي (٩٧٥-٩٩٦) . وقد نسبها بعضهم الى الاصمعي (٨٣١) ونسبها آخرون الى ابي عبيدة (٨٢٤) . وقيل ان جامعها هو ابن الصائغ من رجال القرن الثاني عشر؛ وقد يكون هذا الاخير هو الذي اعطاها شكلها الذي بلغ اليه .

اما ما وصل اليه منها فسيرة حجازية وهي اطولها، وسيرة شامية، وسيرة عراقية لا تختلف كثيراً عن الشامية .

٣ قيمتها الفنية : تخلو قصة عنتره من الوحدة التأليفية، ومن وحدة العقدة . ففيها اربعة عناصر تتجاذب المتعة القصصية : لون عنتره، حب عنتره، تمجيد البطولة، تمجيد الحسب والنسب . والعمل بطيء متثاقل لا تنفك الاحداث الطفيلية تعلق به في مسيره . واسلوب الرواية سهل مسجع، يمتزج فيه النثر بالشعر، ويكثر فيه الركيك من التعابير والمنحول من الشعر .

اما الاشخاص فأهمهم عنتره مثال البطولة والفروسية، وقد جمع الى الشجاعة

حباً شديداً لعبلة هوّن في وجهه جميع الصعوبات، ورفعة اخلاق تكوّنت من عفة وإباء وعدل ونصرة للمظلوم . وقد شوهد عنترة في القصة يخرج عن جوه الرفيع فيشرب الحمرة ويُعربد، ولكن ذلك قليل وخارج عن مجرى الامور العادي الذي يبدو فيه عنترة محبباً الى النفوس .

وقد ضيّع في القصة عنترة التاريخ، فجعل في إطار يُظهره المثال الاعلى للفارس الكامل والسريّ المقتدر والشاعر الفذ . فسواده اشد، ومعيّروه اشدّ الحاحاً في الغلظة، وهو البطل المظفر، عكّاز العاجز وسيف المظاوم، والطّمّاح الذي يبذل كل شيء . لاجل المجد المخلّد ؛ وحبّه لعبلة اشد وطلبه لها اوفر اندفاعاً، والمصاعب التي تقوم دونها اكثر هولاً، فالاعداء اشد بأساً، وابو عبلة اشد مناعة، والمعارك لا تُخصى، وهولها بلا قياس، وحاجة عبس الى فارسها اشد الحاحاً، وبطشه اشد وقعاً وابعد أثراً .

أما عبلة فهي مثال المرأة الامينة، المخلصة في حبها وخضوعها وإن لم تخل من غرور وصلف . - واما شيبوب فهو الاخ الامين الحكيم الذي يُرشد عنترة ويهديه سواء السبيل في الاخطار ؛ وهو حاضر عند كل حاجة يطير الى نصرة اخيه ؛ ويشبهه المستشرق غولدنزهر بسانشوپانسا في رواية دون كيخوتي .

٢- قصة عنترة الياذة العرب : انتشرت قصة عنترة في العالم العربي انتشاراً واسعاً، واهتم لها المستشرقون فتولوها بالدرس والترجمة كاملة او في بعض اجزائها، وقد سماها بعضهم « الياذة العرب » . فكما كانت الالياذة صورة لجاهلية اليونان، كانت قصة عنترة صورة لحياة العرب في باديتهم وحروبهم وأخلاقهم وعاداتهم . وقد تشابهت الروايتان في تصوير حنين الابطال الى القتال، وتشبيه سرايا الجيش بعصائب الطير، وتعظيم شأن الحسناء، وتشبيه الجيش بماء البحر، وتشبيه السيوف بالبروق، وتشبيه الفرس بالريح وما الى ذلك . اما من الوجهة الفنية فتختلف الروايتان اختلافاً شديداً، فالالياذة أبلغ إنشاء، واسمى تصويراً، واحسن تأليفاً ؛ وهي كلها شعر اما سيرة عنترة فمزيج من شعر ونثر .

ب — الفصص المقول

لم يقتصر العرب في العهدين الأموي والعباسي على تدوين أخبار العرب بل اهتموا أيضاً للنقل . فآخذوا عن اليونان بعض القصص والوقائع، واغترفوا من التراث الهندي والفارسي الشيء الكثير، ونقلوا بنوع خاص كتاب كليلة ودمنة في القصص التعليمي، و كتاب الف ليلة وليلة في القصص الفكاهي .

— الف ليلة وليلة —

١ موضوعها : كتاب الف ليلة وليلة مجموعة حكايات واسمار مختلفة الموضوعات والاساليب والاعراض، لا تتجاوز ٢٦٤ حكاية، وقد أُريد بعدد الالف التكثير لا التحديد .

٢ اصلها : ليس من اليسير على المدقق الكشف عن اصل هذا الكتاب . والارجح ان له اصلاً هندياً - فارسياً هو كتاب « هزار افسانه » اي الف خرافة ؛ وقد نُقل من الفهلوية في اواسط القرن التاسع (الثالث الهجري)، وأضيفت الى هذا الاصل طائفة من القصص العربية التي اصطبغت بصبغة البيئة البغدادية والبيئة المصرية . ويرى بعض النقاد ان محمد بن عبدوس الجهمشيري أضاف الى الكتاب مجموعة نوادر وحكايات للعرب والفرس والروم . وقد انصهرت تلك العناصر كلها على يد رواة العرب وقصاصيهم ، فكان منها كتاب اصطبغ بالصبغة العربية من غير ان تفقد اصوله مسحتها وخيالها الخاص .

اما التاريخ الذي استقر فيه الكتاب على وضعه الاخير فهو النصف الاول من القرن السادس عشر (القرن العاشر الهجري) .

٣ قيمتها الفنية : اما قيمة الكتاب الفنية فهي هزيلة . فان اسلوبه مختلف باختلاف الزمان والمكان والعرف والشخص . فهناك الاسلوب الهندي في سلسلة اقصيصه المتأسكة الحلقات، وهناك الاسلوب العربي الذي يأتي بالقصة مستقلة عن

اختها . وهناك القصص الرائعة بخيالها ومتعتها، كقصة السندباد، وقر الزمان، وعلي بابا، وهناك الحكايات الثقيلة العمل، الباردة في تكراراتها وضعف سياقها .

والاسلوب على كل حال سهل المأخذ، مبسوط العبارة، سوقيّ اللفظ، كثير الفضول والتضمين، جري. الاشارة لا يعرف الكناية ولا يقني الحياء ولا يصطنع التحفظ بل يساير العامة في صراحتهم وثرثرتهم .

٢. انتشارها : طُبع كتاب الف ليلة وليلة في الشرق والغرب مراراً . وكانت اولى طبعاته في كالكووتا سنة ١٨١٤ . وقد طبعه الاب صالحاني اليسوعي ببيروت طبعة منقحة مهذبة في اربعة مجلدات بعد ان قص من قصصه واختصر من جملة وهذب من تعابيره .

وُترجمت الف ليلة وليلة الى اكثر لغات العالم، وكان لها اثر كبير في كتاب الشرق والغرب .

بعض المراجع

١. المراجع العربية :

- محمود تيمور : نشوء القصة وتطورها - القاهرة ١٩٣٦
 موسى سليمان : الادب القصصي عند العرب - بيروت ١٩٥٠
 ه. ا. جب : الادب - في كتاب «تراث الاسلام» الجزء الاول - القاهرة ١٩٣٦ -
 ص ١٤٩ - ٢٢١
 فؤاد افرام البستاني : عنقرة التاريخ وعنقرة الاسطورة - المشرق ٢٨ - ص ٥٣٤، ٦٣١
 الآنسة سهير القلماوي : الف ليلة وليلة - القاهرة ١٩٤٣
 احمد حسن الزيات : الف ليلة وليلة، تاريخ حياتها - مجلة المجمع العلمي العربي ١٢ ص ١٢٩،
 ٢٠٤، ٢١٥، ٢٨٢

٢. المراجع الاجنبية :

- M. Hartmann : Roman d'Antar — in Encycl. de l'Islam, t. I, 366-367.
 Nikita Elisséeff : Thèmes et motifs des Mille et Une Nuits — Beyrouth 1949.
 Francesco Gabrielli : Les Mille et Une Nuits dans la Culture européenne. Cahiers de l'Est, 2^e série — 6^e vol., 73-85.

ادب الاستقرار والتدرج نحو الجمود

النثر الفني

الفصل العاشر

المقامات

١ ما هي المقامة : المقامة شبه قصة قصيرة تدور حول الكدية والاحتيال تُستخدم لظهار البراعة اللغوية والادبية .

٢ تاريخ فنّ المقامات : اراجع ان فنّ المقامات نشأ تدريجياً من رواية القصص والاخبار ومن شيوع اساليب التتميق البياني والبديعي، وان لبديع الزمان الهمداني فضل تنظيمها ووضعها في شكلها الفني الخاص .

٣ قيمة المقامات : للمقامات قيمة لغوية بيائية فوق كل شيء، وهي صورة جزئية لحياة العصر .

٤ اصحاب المقامات : اشهر اصحاب المقامات بديع الزمان الهمداني والحريري وناصيف البازجي .

١ — بديع الزمان الهمداني :

١ حياته : وُلد ونشأ في همدان ، ثم تنقّل كثيراً من بلد الى بلد حتى التقى بالحوارزمي في نيسابور وناظره، ثم توفي في هراة .

٢ مقاماته : بلغنا من البديع احدى وخمسون مقامة ذات موضوعات ادبية ولغوية وكلامية واخبار . راويتها عيسى بن هشام، وبطلها ابو الفتح الاسكندري وهو رجل ثقافة سلك سبيل الكدية والاحتيال للحصول على الرزق .

لمقامات البديع غاية تعليمية وقد كثرت فيها اساليب البيان والبديع والعروض والالفاظ الغريبة . وفي مقاماته الطويلة قصص طريف .

ب - الحريري :

١ حياته : وُلد في مَشَان، وقضى حياته في البصرة .

٢ مقاماته : وضع الحريري خمسين مقامة في الاحتيال والكدية بطرق شتى، وجعل راويها الحارث بن همام، وبطلها ابا زيد السروجي وهو فصيح اللسان ساهر البيان .

تنزع مقامات الحريري نزعة تعليمية ايضاً، ويكثر فيها التسجيع، والتعقيد، والكنائيات، والاحاجي النحوية، والمسائل الفقهية، والفتاوى اللغوية، والالفاظ الغريبة . وعبارة الحريري قصيرة، بليغة، مقطعة تقطعاً موسيقياً .

١ - ما هي المقامة : المقامة^١ شبه قصة قصيرة، تدور حول بطل وهمي يروي أخباره راوية وهمي ايضاً؛ وبطلها رجل احكم التحيل وقصر همه على تحصيل الطيف من الرزق، فكانت اخباره كلها تدور حول الكدية والخداع، والاحتيال والتمويه، لا تربطها وحدة موضوعية ولا تُحييها شخصية حقيقية . وهي ميدان لعرض النكتة وإظهار البراعة في التخلص من مآزق الحياة عن طرق ملتوية، وبنوع خاص لاطهار المقدرة اللغوية والادبية .

(١) المقامة اسم للمجلس او الجماعة من الناس، وسميت الأحداث من الكلام مقامة كأنها تُذكر في مجلس واحد تجتمع فيه الجماعة . - وفي اخبار بديع الزمان انه كان يختم مقامه او مجلسه في نيسابور بقصة من هذه القصص، ولعله من اجل ذلك اختار لها اسم « المقامات » . وهو في رسائله يستخدم لفظة « المقامات » بمعنى المجالس .

وقد تتبّع بروكلمن تطوّر معنى « مقامة » منذ العهد الجاهلي حتى عصر الهمذاني فرأى ان اقدم معاني المقامة يرجع الى ايام الجاهلية اذ كانت عبارة عن مجتمع القبيلة، ثم اتخذت شكلاً دينياً في عهد الامويين اذ اصبحت احاديث زهدية تُروى في مجالس الخلفاء، ثم تطوّر معناها فصارت تُقرن بالشعر والادب واخبار الوقائع القديمة . ولكنها في القرن التاسع تهبط من مستواها الرفيع الى مستوى الكدية والاستجداء بلغة مختارة، ولم تتخذ شكلها الحقيقي إلا على يدي بديع الزمان ثم الحريري .



مقامات الحريري - المقامتان الثانية عشرة والرابعة من مقامات الحريري
المصورة عن مخطوط يرتقي الى القرن الثالث عشر (١٢٣٧ م / ٦٣٤ هـ)
مزين بتسع وتسعين رسماً بريشة يحيى بن محمود الواسطي .
(المكتبة الاهلية بباريس)

٢ - تاريخ فن المقامات :

١ - الخلاف بين المؤرخين والادباء : اختلف المؤرخون والادباء في تاريخ فن المقامات اختلافاً شديداً، فذهب الحريري والقلقشندي وغيرهما الى ان البديع هو واضع ذلك الفن . قال الحريري في مقدمة مقاماته : « وبعد فانه قد جرى ببعض أندية الادب الذي ركدت في هذا العصر ريجه، وخبث مصابيحهم، ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان وعلامة همذان، فأشار من إشارته حكمهم، وطاعته غنم، الى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع . . . » وقال القلقشندي :



مقامات الحريري - اجتماع ادبي في بعض البساتين في ضواحي بغداد . - ابو زيد يلقي على رفقاءه ألغازاً في علم النحو (المقامة ٢٦ - عن مخطوط المكتبة الاهلية بباريس)

« إن اول من فتح باب عمل المقامات علامة الدهر وإمام الادب البديع الهمداني . وذهب جرجي زيدان الى ان البديع اشتغل في مقاماته على نسق رسائل الإمام اللغوي أبي الحسين احمد بن فارس (٩٩٩ م / ٣٩٠ هـ) . وقد اشتد الخلاف في إثبات العلاقة أو نفيها فيما بين الهمداني وابن دُرَيْد (٩٣٣ م / ٣٢١ هـ)، فان ابن عبد ربه

صاحب العقد الفريد وابن قتيبة يُرجعان المقامات الى عهد ابعد من عهد البديع .
وقال الحصري في عرض كلامه على بديع الزمان : « ولما رأى (البديع) أبا بكر
محمد بن الحسن بن دُرَيْدِ الازدِيَّ أغرب بأربعين حديثاً وذكر انه استنبطها من
ينابيع صدره... واهداها للافكار والضمائر في معارض عجمية والفاظ حوشية...
عارضها بأربعمائة مقامة في الكدية » .

٢ الرأي الأرجح : ولكن الأرجح في هذه المسألة « ان فنّ المقامات نشأ
تدريجياً من رواية القصص والاعبار وان للبديع الهمداني فضل تنظيمها ووضعها في
شكلها الفني الخاص » . فإن هذا الشكل الخاص لا نجده في احاديث ابن دُرَيْدِ
التي لا تتقيد بالسجع وان لم تخل منه، ولا تدور حول بطل واحد، ولا تبلغ الصناعة
اللفظية والبيانية فيها ما تباعه في المقامات، ولا تحتوي من ذكر النوادر والاعبار
والإشارة الى وقائع الزمان واعلام التاريخ، والحكم والأمثال والنكات واللغة
والادب، مثل ما تحتويه المقامات .

فقد استفاد البديع من احاديث ابن دريد ومن اساليب الترسُّل والكتابة
المنمقة التي تهتم اهتماماً شديداً بالمبنى المسجع المزخرف، فاستخلص منها اسلوب
المقامات، واستفاد من احوال عصره الاجتماعية ومن أدب الحرمان فاستخلص منه
موضوع المقامات^١ . فكانت المقامات صدى لحرفة الكدية الشائعة إذ ذاك، وصورة

(١) قال محمود غناوي الزهيري : « ادب الحرمان هذا كان صدى للحياة البائسة في الاوساط
الفقيرة... وقد كان الادب الذي يصور حياة البؤس نوعين . الاول ادب التسوّل او الكدية، وهو
يصور التشبث بأسباب الحياة والتحايل على كسب القوت بكل وسيلة ممكنة ؛ والثاني ادب الشكوى،
وهو يصوّر الإخفاق والفشل ومعاكسة القدر في الحياة وما تحدثه هذه الامور في نفس الانسان من
مرارة وجزع ونقمة على الاوضاع القائمة .

اما ادب التسوّل فقد كان صورة حياة طائفة كبيرة من المجتمع البويهي، هي طائفة المكدين الذين
تنكّرت لهم الايام، وقست عليهم ظروف الحياة، ففشلوا في الحصول على ما يقيم الأود عن طريق العمل
المثمر كالزراعة والصناعة والتجارة، ولهذا لجأت الى مختلف الحيل وشتى الاساليب فالتجذرت منها وسيلة او
وسائل للحصول على المال... وقد اشتهر من هؤلاء التسولين في هذا العصر جماعة تُعرف بالساسانية او
بني ساسان، نسبة الى رجل اسمه ساسان (كان حاذقاً في الاستعطاء دقيق الحيلة في الاستجداء)... وقد
ورد ذكر بني ساسان في مقامات بديع الزمان الهمداني، كما ذكرهم الحريري في مقامته المسماة « بالمقامة
الساسانية » التي اوضح فيها كثيراً من البواعث الدافعة على التسوّل » .

حياة المكدين ؛ وكانت في أسلوبها خاضعة للذوق الادبي العام الذي كان اذ ذاك يكلف بالسجع والمحسنات البديعية، ويميل الى تضمين النثر حكماً وأمثالاً وأشعاراً.

٣ - قيمة المقامات :

١- القيمة الادبية : ليس للمقامات عموماً قيمة قصصية حقيقية وإن وُضعت في



القالب القصصي، لأنها خلت من أهم مميزات القصة أي العقدة، كما خلت من الشخصيات الروائية الممتازة وتحليل نفسياتها ودرس اخلاقها . فهي بمجملها حيل تُفسر حياة متكدر، ألفت على صورة واحدة، وفيها انصراف عن الموضوع الى الاسلوب، وعرض للموعظة او النكتة المستملحة والالغاز اللغوية والنحوية في لغة جزلة كثيرة الغريب، وفي أسلوب مسجع . « فالمقامات - على حد قول ابن الطقطقي - لا يستفاد منها سوى التمرن على الانشاء والوقوف على مذاهب النظم والنثر . وفيها حكم وتجارب الا ان ذلك مما يصغر الهمة

مقامات الحريري - ابو زيد في بعض مواقفه الخطائية
(عن مخطوط المكتبة الاهلية بباريس)

إذ هو مبني على السؤال والاستجداء، فإن نفعت من جانب ضرت من جانب .

٢- القيمة التاريخية : كانت المقامات صورة جزئية لحياة العصر الذي فشت فيه عادة التلصص والكدية . وقد جاء مراراً على لسان أبي الفتح الاسكندري، في مقامات الهمداني، ذم للعصر الذي أصبح فيه الحق خيراً من التعقل :

هَذَا الزَّمَانُ مُشُومٌ كَمَا تَرَاهُ غَشُومٌ
الْحَقُّ فِيهِ مَلِيحٌ وَالْعَقْلُ عَيْبٌ وَلُومٌ
وَالْمَالُ طَيْفٌ وَلَكِنْ حَوْلَ اللَّثَامِ يَجُومُ

٤ - اصحاب المقامات : فتح البديع باب فنّ المقامات واسعاً فوجّه بعده كثيرون، بل قلما مرّ به أديب من الادباء المعروفين، منذ عهد الحريري الى اواخر القرن التاسع عشر، إلا طرقة . ولكن اشهر من عُرف بذلك الفنّ، وبرع فيه، ثلاثة : بديع الزمان الهمداني وابو محمد القاسم الحريري في العهد العباسي، والشيخ ناصيف اليازجي في عهد النهضة . واننا سنكتفي هنا بدراسة الكتابين الاولين، مرجئين دراسة اليازجي الى عهد النهضة .

١ - بديع الزمان الهمداني (٩٦٩ - ١٠٠٧ م / ٣٥٨ - ٣٩٨ هـ)

١ هيماء : ابو الفضل احمد بن الحسين المعروف ببديع الزمان ولد في همدان ونشأ فيها وقد اخذ اللغة عن ابن فارس اللغوي الشهير، ثم ضرب في الارض متنقلاً من خراسان الى جرجان الى سجستان الى افغانستان . وقد لقي في نيسابور سنة ٩٩٢ م ابا بكر الخوارزمي فناظره وتوصل بشقي اساليب الحيلة والدهاء ان يغلبه على امره، وان يحصل لنفسه من جرّاء ذلك صيتاً رفيعاً عند الملوك والرؤساء .

واخيراً القى عصاه بهراة - وهي اليوم حاضرة الافغان - وصاهر ابا علي الحسين بن محمد الحشنامي فانتظمت احواله، واقتنى بمعونته ضياعاً، وعاش عيشة راضية . وقد توفي سنة ١٠٠٧ م / ٣٩٨ هـ وهو لم يبلغ الاربعين من عمره . وكان نابغة في الحفظ والذكاء وسرعة الخاطر وقوة البديهة .

٢ مقامات : بلغنا من مقامات الهمداني احدى وخمسون مقامة طبعت في الآستانة سنة ١٢٩٨هـ، ثم في بيروت مشروحة شرحاً مختصراً للشيخ محمد عبده سنة ١٨٨٩ .

١ - موضوعاتها : تتناول مقامات الهمداني الموضوعات الادبية واللغوية، والكلامية والاختبار .

٢ - راويتها وبطلها : راوية مقامات الهمداني هو عيسى بن هشام، وهو رجل اسفار وتجارة واحتيال على الزمان الغشوم .

اما بطلها فهو ابو الفتح الاسكندري وهو رجل عقل وثقافة واسعة، يقول الشعر الرائع، ويسلك اوعر المسالك في اللغة والنقد والادب ويخرج منها خروج العالم المطمئن الى علمه، المعتمد على سداد رأيه، الذي لا تتغلب عليه صعوبة من اي نوع كانت، ولا تفوته حيلة . وقد خبر الحياة وذاق حلوها ومرها، وسعى في الاحتيال على الدهر القاسي بشتى طرق الكدية . ووقف في سبيل ذلك شتى المواقف فكان تارة خطيباً يلقي على الجماهير درر اقواله، وتارة مشعوذاً يسحر الناس بمضحكاته ومكره وأكاذيبه .

وقد حمل ابا الفتح الاسكندري - وهو العالم ورجل العقل الراجح - على ساوك هذه الطريق التي لا تليق بمثله، دهر قسا عليه كما قسا على غيره من اهل العلم والادب، فتصعلك وتسول، وانحدر الى هوة الكدية، فحمل اوزارها وتبعاتها المزرية بالكرامة والمروءة، وجعل حياته كلها سلسلة من الاسفار والمغامرات في طلب المال، فلم يترك بلداً في العراق وفارس وسجستان وخراسان وقزوين وطبرستان وارمينية واذربيجان والاهواز وبلاد العرب إلا دخله، وتقلب مع تقلبات الزمان قائلاً :

وَيَحْكُ هَذَا الزَّمَانُ زُورُ فَلَا يَفْرُتُكَ الْفُرُورُ
لَا تَلْتَرِمُ حَالَهُ، وَلَكِنْ دُرٌّ بِاللَّبَالِي كَمَا تَدُورُ

ولذلك نرى أبا الفتح في المقامة الساسانية زعيماً لجماعة من بني ساسان، ونراه في المقامة الحمرية اماماً يصلي في الناس وناسكاً يدعوهم الى اجتناب الحمر أم الكبائر، وفي المقامة القزوينية متنبِّهاً في زي الغزاة المجاهدين يخطب في الناس ويحثهم على الروم، وفي المقامة القردية قرّاداً يُرَقص قرده ويُضحك الناس، وفي الموصلية دجّالاً يدّعي إحياء الموتى وكشف الضرّ والبلاء، وكل ذلك عملاً بالمبدأ المكيا فيلي القائل: « الغاية تبرر الوسطة » .

٣ - قيمتها الفنية : لم يرم بديع الزمان في مقاماته الى غاية فنية خالصة ولكنه رمى فيها قبل كل شيء الى غاية تعليمية . ولهذا قال ابن الطقطقي : « ان المقامات لا يُستفاد منها سوى التمرّن على الانشاء والوقوف على مذاهب النظم والنثر » . ومن اجل ذلك أكثر الهمداني من اساليب البيان والبديع ومن الالفاظ الغريبة ، وقد حمّل كل مقامة من مقاماته ما استطاع من الفوائد اللغوية والبيانية والعروضية، وحشد في كلامه الزخرف وان لم يتقيد دائماً بالازدواج والسجع .

الا ان المقامات الطويلة عند بديع الزمان تتسع لبعض القصص الطريف النابض بالحياة والذي لا يخلو من متعة وروعة . فالمقامة المضيرية والمقامة الاسدية مثلاً حافلتان بالاسلوب القصصي الشائق، ولكن ذلك الاسلوب يشغله من حين الى آخر التطويل والتكلف، وتطلب الزخرفة، والاهتمام بالناحية التعليمية .

ويظهر في مقامات الهمداني ظرفه وخفة روحه .

ب - الحريري (١٠٥٤-١٢٢٢م/٤٤٦-٥١٦هـ)

١ - مبارة : ابو محمد القاسم بن علي الحريري ولد في مشان قرب البصرة، وقضى حياته في البصرة . وله عدة آثار منها «درة الغواص في اوهام الخواص»

وهو كتاب نقدي يبين فيه اغلاط الكتاب، ومنها ارجوزة في النحو سماها «ملحة الاعراب في النحو» .



مقامات الحريري .. (عن مخطوط المكتبة الاهلية بباريس)

٢ مقامات : وضع الحريري خمسين مقامة مقتفياً فيها آثار البديع، وقيل إنه وضعها اشرف الدين ابي نصرانو شروان بن خالد بن محمد القاشاني وزير الامام المسترشد بالله (١١١٨ - ١١٣٤) . وقد عني بها العلماء شرقاً وغرباً عناية كبيرة

فشرحت شروحاً كثيرة أهمها شرح المطرزي (١١٩٣ م / ٥٩٠ هـ)، وشرح العكبري (١٢١٩ م / ٦١٦ هـ)، وشرح الشريشي (١٢٢٢ م / ٦١٩ هـ)؛ وترجمت الى الفرنسية والانكليزية والالمانية والتركية والفارسية وغيرها .

بدأ الحريري كتابة مقاماته بالمقامة الثامنة والاربعين وهي المسماة باسم « المقامة الحرامية »، وكان ذلك سنة ١١٠١ م (٤٩٥ هـ) وانتهى من التأليف سنة ١١١٠ م (٥٠٤ هـ) .



مقامات الحريري - ابو زيد امام حاكم الاسكندرية
(المقامة ٩ - عن مخطوط المكتبة الاهلية بباريس)

١ - موضوعاتها : تدور مقامات الحريري حول الاحتيال بطرق شتى، وهي تتخذ تارة شكلاً دينياً وخلقياً كما في المقامة الصناعية، وتارة شكلاً ادبياً وفكاهياً كما في المقامة القطيعية والمقامة الواسطية، وتارة اخرى شكلاً مجونياً كما في المقامة الرحبية .

٢ - راويتها وبطلها : يعزو الحريري رواية مقاماته الى الحارث بن همام، وهو رجل رحالة، ابي النفس، بعيد عن مسالك اللصوصية .

واما بطلها فهو ابو زيد السروجي وهو من اهل الكدية الذين احترفوا التسول . وكانت وسيلته الكبرى في ذلك فصاحة لسانه وسحر بيانه .

٣ - قيمتها الفنية : مقامات الحريري تشبه مقامات الهمذاني من حيث النزعة التعليمية، لا بل تفوقها في ذلك . ومقامات الهمذاني اسهل مأخذاً واقل تكلفاً واكثر ابتكاراً للوقائع والحوادث، اما مقامات الحريري فاكثر ايغالاً في التسجيع والتعقيد وتصعيب الاداء؛ فقد حفلت بالكنايات التي جعلت جانباً كبيراً منها شبه بالالغاز، وحفلت بالاحاجي النحوية والمسائل الفقهية والفتاوى اللغوية من ذكر بعض الاشتقاقات والابنية الغريبة وما الى ذلك، وحفلت بالغريب من الالفاظ؛ وقد استحدث الحريري فيها فنوناً من اساليب العبث اللغوي فاستخدم ما لا يستحيل بالانعكاس مثل قوله : « كَثُرَ رَجَاءُ أَجْرٍ رَبِّكَ » فالعبارة تُقرأ طرداً وعكساً من غير ان يتغير معناها؛ واستخدم احياناً في تركيب جملة كلمات تتألف من حروف كلها معجمة او كلها عاطلة، او من كلمات مرقطة اي مؤلفة من حروف معجمة وغير معجمة بحيث يتبع كل حرف معجم حرف عاطل او عكس ذلك . وقد خلب الحريري بهذه الاساليب عقول من عاصره ومن اتى بعده ولا سيما في عهد الانحطاط .

وهكذا كانت مقامات الحريري ادق صنعة من مقامات البديع وافضل شعراً واكثر تعمقاً في اللغة وارضاعها وامثالها وما يتعلق بها من النحو وضروب الاشتقاق . واما العبارة فيها فقصيرة تتقطع تقطعاً موسيقياً، وبلغت مهماً جرى فيها من ضروب الصنعة والعنت .

بعض المراجع

- محمود غناوي الزهيري : الادب في ظل بني بويه - القاهرة ١٩٤٩ ص ٢٢٢ - ٢٣٩
 محمود تيمور : نشوء القصّة وتطورها - ص ٣٥ - ٣٨
 شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي - القاهرة ١٩٤٦ ص ١١٠ - ١٥١
 انيس المقدسي : تطور الاساليب النثرية في الادب العربي - بيروت - ص ٣٧٥ - ٤١٤
 محمد جميل سلطان : القصّة والمقامة - دمشق ١٩٤٢
 علي الجندي : بين الخوارزمي والهمذاني - الرسالة ٨ (١٩٤٠) ص ١٣٥ ، ١٧٥
 عبده حسن الزيات : موازنة بين مقامات البديع ومقامات الحريري - الحديث ٢ ص ١٣٤
 ١٦٢ -

موضوعات للبحث

- ١ - الى اية مدرسة ينتمي اصحاب المقامات؟ يبين الميزات الفنية لهذه المدرسة وانقدها نقداً ادبياً.
- ٢ - لقد قيل : « مقامات الهمذاني فنّ ومقامات الحريري صناعة ». ناقش هذا القول .
- ٣ - ما قيمة القصّة في المقامات؟
- ٤ - اعهد الى احدي مقامات الهمذاني واستخلص منها ميزات فنه .

أدب الاستقرار والتدرج نحو الجمود

النثر الفني

الفصل الحادي عشر

التصنيف في الأدب والنقد الأدبي

أبو الفرج الأصبهاني — ضياء الدين بن الأثير — سائر المؤلفين

١ — الأدب

١ أبو الفرج الأصبهاني: وُلد بأصبهان، وطلب العلم في بغداد فحصل ثقافة واسعة ولقي حظوة لدى وزير الدولة البويهية اسماعيل بن عبّاد والمهملّي.

أهم آثار الأصبهاني «كتاب الأغاني»، وهو كتاب ضخّم جمع فيه صاحبه اصوات الغناء الشائعة في عصره وذكر توقيعها وقائلها واستطرد الى ذكر عدد كبير من الشعراء والادباء والمغنين والمغنيات، في اسلوب قصصي غاية في اليجاز البليغ والمتانة، يفيض حياة ورشاقة، ويفيض عذوبة. والكتاب اغزر مورد وأوثق مستند لتاريخ الآداب العربية في العصور القديمة.

٢ ابن قسّيبية: أهم آثاره «عيون الاخبار» في المختار من الأدب، و«ادب الكاتب»، و«الشعر والشعراء».

٣ أبو العباس المبرّد: أهم آثاره «الكامل في الأدب».

٤ أبو بكر الصّولي: من اشهر آثاره «كتاب الاوراق في اخبار آل العباس وأشعارهم».

٥ أبو منصور الشعالي: اشهر آثاره «قيمة الدهر في شعراء اهل العصر».

ب — النقد الادبي

النقد الادبي عند العرب : كان النقد الادبي في العهد الجاهلي فطرياً ينقاد لإحساس مجمل بقيمة الشعر او بمكانة الشعراء، ويتناول الصياغة الخارجية والمعاني الجزئية، ويبين مكانة الشعراء بالمقارنة النسبية او بالتفضيل المطلق والحكم بالتفوق. وقد كان بمجمله سطحياً لا يخلو من اوهام كما لا يخلو من صواب.

وبقي النقد الادبي في العهد الراشدي والاموي معتمداً على الإحساس الفطري وقد اخذ في التطور وجنح الى شيء من الدقة، وحاول تحديد بعض خصائص الصياغة والمعاني. واعتمد في العهد العباسي على تراث المصور السابقة وعلى ثروة الحركة الجديدة، منبعثاً عن نزعة اللغويين ونزعة الادباء ونزعة العلماء والمتأثرين بالمعارف الاجنبية.

١ ضياء الدين ابن الاثير : نشأ في الموصل وكتب للسلطان صلاح الدين، ووزر للملك الافضل نور الدين. ثم اكثر من التنقل من مكان الى مكان بسبب كثرة حساده واعدائه؛ ثم توفي في بغداد.

اهم آثاره «المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر». وفيه مقدمة في اصول علم البيان، ومقالتان تدور الاولى منهما حول الصناعة اللفظية، والثانية حول الصناعة المعنوية. - وتغلب في الكتاب النزعة البلاغية النظرية، وفيه روح فلسفية، وروح تعليمية، وروح ادعاء.

٢ محمد بن سلام : له كتاب «طبقات الشعراء» وهو متضمن فكرتين بنوع خاص : الكلام في الشعر الموضوع، والكلام في الشعراء وجعلهم طبقات. وقد فطن ابن سلام الى الشروط التي يجب ان تتوفر في الناقد وفي النقد.

٣ ابو قاسم الآمدي : له كتاب «الموازنة بين الطائيين ابي تمام والبحري في الشعر»، وكان منهجه فيه المقارنة الموضوعية، كما كانت روح دراسته منهجية ناضجة بقطعة.

٤ قدامة بن جعفر : له كتاب «نقد الشعر» وقد نزع فيه نزعة علمية.

٥ القاضي الجرجاني : له كتاب «الوساطة بين المتني وخصومه» وقد بنى معظمه على «قياس الاشباه والنظائر».

٦ ابو هلال العسكري : له كتاب «الصناعتين النظم والنثر» ومنهجه فيه تقرير تعليمي.

واصل التصنيف سيره منذ اواخر العهد الاموي، وقد اصطبغ في القسم الاول من العهد العباسي بصبغة النقل والترجمة؛ وما إن انتقل العرب من طور التحصيل الى طور الهضم والابتكار حتى زحرت البلاد بالمصنفات وانتشر الإنتاج الجديد في جميع ميادين الفكر، ونبغ العلماء في كل علم وكل فن، فكان للادب والنقد من تلك الحركة حظٌ موفور . وقد تزع التأليف الادبي توعة علمية فلسفية وعُني عناية خاصة بتراجم الشعراء والكتّاب، كما عُني بنقد الادب الشعري والنثري . ومن اشهر من عُني بتراجم الشعراء ابو الفرج الاصبهاني في كتابه «الاعاني»، وابو منصور الثعالبي في كتابه «يتيمة الدهر في شعراء اهل العصر»؛ ومن اشهر من عنوا بالنقد الادبي الأمدي في كتابه «الموازنة بين ابي تمام والبحري»، والصاحب ابن عباد في كتابه «بيان عيوب المتنبي»، والقاضي الجرجاني في كتابه «الوساطة بين المتنبي وخصومه»، وضياء الدين بن الاثير في كتابه «المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر» .

واننا سنقتصر في هذا الفصل على دراسة ابي الفرج الاصبهاني وابن الاثير مقدمين للثاني منهما بنظرة وجيزة في النقد عند العرب . ولن نخص المصنفين الآخرين إلا بكلمة مختصرة .

١ - الادب

١) ابو الفرج الاصبهاني (٨٩٧-٩٦٧م / ٢٨٤-٣٥٦هـ)

١ - حياته : ابو الفرج علي بن الحسين القُرشي الاصبهاني عربي، اموي يتصل نسبه بمروان بن الحكم . ولد في اصبهان وانتقل الى بغداد فانصرف فيها الى طلب العلم وتحصيل ثقافة واسعة، فاتقن النحو واللغة، والفقه والانساب، والسيرة والحديث، وكان له إلمام بالطب والنجوم والموسيقى . فسَهّلت له ثقافته هذه الانتقال والتجول

بين بلاطي بغداد وحلب وقواعد بلاد فارس، ملتحقاً بماوك الدول الإسلامية وقد
لقي حظوة كبيرة لدى وزيرَي الدولة البويهية : اسماعيل بن عبَّاد والمهلي .

٢ - كتاب الاغاني : لابي الفرج الاصبهاني آثار كثيرة في الادب والتاريخ
لم يبلغنا منها إلا كتاب الاغاني وهو اهمها، وعليه تقوم شهرة صاحبه .

١ ما هو : هو كتاب ضخيم جمع فيه أبو الفرج الاصبهاني أصوات الغناء الشائعة
في عصره، وقد بناه على مئة صوت كان هارون الرشيد امر ابراهيم الموصلي مغنيه
ان يختارها له، وزاد عليها ابو الفرج بعض أصوات أخرى . فهو يذكر الصوت
وتوقيعه، ويذكر قائله ويترجم له، ويستطرد من ذلك الى غيره من الشعراء والادباء
والمغنين والمغنيات . وهو في كل ذلك يتقلب بين جدّ وهزل، وآثار واخبار وسير
واشعار متصلة بتاريخ العرب وملوكهم، حتى كان كتابه - على حدّ قول ابن خلدون
- « ديوان العرب وجامع اشئآت العلوم التي اجتمعت لهم » . وقد قيل ان ابا الفرج
جری على جمعه في خمسين سنة .

طُبع كتاب الاغاني بمصر عام ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨ م)، في عشرين جزءاً، ثم
طُبع في القاهرة سنة ١٩٠٥ - ١٩٠٦ في واحد وعشرين جزءاً .

٢ قيمته الفنية : لكتاب الاغاني قيمة فنية كبرى . فقد سار ابو الفرج فيه على
اسلوب قصصي غاية في الایجاز البليغ والمتانة، ينبض حياة ورشاقة وطبعية بما
فيه من حوار وسرد وجمل اعتراضية، ويفيض عذوبة بما فيه من سذاجة فطرية
مقترنة بفكاهة موافقة . فكل شخص في قصص الاغاني يتحرك في جوّ يوافقه
ويعمل على مسرح أقيم من مادة عصره، ويتكلم بلغته الخاصة التي كانت شائعة
في قومه وفي زمنه ؛ وينطق على حسب هواه، ولهذا لم يخلُ الكتاب من روايات
واقوال بذیئة .

٣ قيمته التاريخية : وللكتاب قيمة تاريخية جلی فقد وصف فيه الكاتب ايام
العرب وأخبارها وأنسابها ووقائعها وطرق معيشتها وسائر احوالها، وحشد فيه

المعلومات الادبية والجغرافية والفنية . فكان كتاب الاغاني اغزر مورد واثق مستند لتاريخ الآداب العربية في العصر الجاهلي وفي القرون الثلاثة الاولى للإسلام .

ولا عجب اذا تنافس الملوك في اقتناء هذا الكتاب . وقد قال صاحب بن عباد واصفاً الاغاني : « انه مشحون بالحسن المنتجة والفقر الغريبة ؛ فهو للزاهد فكاهة، وللعالم مادةٌ وزيادة، وللکاتب والمتأدب بضاعة وتجارة، وللبلبل رُجلة وشجاعة، وللمتظرف رياضة وصناعة، وللملك طيبة ولذاعة . ولقد اشتملت خزائني على مائة الف وسبعة عشر الف مجلد ما فيها سميري غيره » .

٢ ابه قتيبة (٨٢٨ - ٨٨٩ م / ٢١٣ - ٢٧٦ هـ)

أبو محمد، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري الفارسي الاصل من أئمة الادب ومن المصنفين المكثرين . وُلد ببغداد وسكن الكوفة، ثم ولي قضاء الدينور مدة فنُسب اليها، وتوفي ببغداد . وقد اتصل بنواح كثيرة من علوم عصره من لغة ونحو وأدب وشعر وحديث وفقه وتاريخ ومذاهب دينية . إلا ان تأليفه في أكثره جمع، وجمعه عن سعة اطلاع لا تظهر فيه شخصية قوية . وكان يكره الجاحظ ويأخذ عليه أضياعه وينسب اليه الكذب والإفساد .

آثاره كثيرة من أهمها «عيون الاخبار» في المختار من الادب، يحتوي عشرة أبواب في السلطان، والحرب، والسودد، والطبائع والاخلاق المذمومة، والعلم والبيان، والزهد، والاخوان، والحوائح، والطعام، والنساء . - وقد تبع الجاحظ في الإتيان بما يضحك دفعاً للسأم؛ إلا انه كان أكثر من الجاحظ في كتابه ترتيباً واقل استطراداً .

ومن آثاره ايضاً «ادب الكاتب»، و «الشعر والشعراء» .

٣ أبو العباس المبرد (٨٢٦ - ٨٩٨ م / ٢١٠ - ٢٨٥ هـ)

أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الاكبر الأزدي المعروف بالمبرد وُلد وتوفي

في بغداد . وكان من أئمة اللغة والادب في زمانه . أهم آثاره «الكامل في الادب» وهو يجمع ضروباً من الآداب من منشور ومنظوم ؛ وقد ضعفت فيه الوحدة التأليفية لانصراف المؤلف الى توفير ما يدفع السأم عن القارئ .

٤ أبو بكر الصولي (٩٤٦م / ٣٣٥هـ)

أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي من علماء الادب والتاريخ، ويعرف بالشطرنجي لما كان عليه من مهارة في لعب الشطرنج . توفي بالبصرة، وترك ثروة كبيرة من الكتب فقد معظمها . ومن أشهر مؤلفاته : «كتاب الاوراق في اخبار آل العباس واشعارهم» ، و «ارب الكتاب» . - وقد اهتم الصولي بجمع طائفة من دواوين الشعراء العباسيين .

٥ أبو منصور الثعالبي (١٠٣٧م / ٤٢٩هـ)

أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي وُلد بنيسابور، ونبغ في الادب حتى كان من اكبر ادباء عصره . له مؤلفات عديدة أشهرها كتابه «يتمية الدهر في شعراء اهل العصر» ، وضعه في اربعة مجلدات، وجمع فيه اخبار شعراء المئة الرابعة للهجرة، وخص شعراء كل قطر بباب فترجم لشعراء الشام، ولشعراء مصر والمغرب، ولشعراء الموصل، ولشعراء البصرة ثم العراق ثم بغداد، ثم ذكر محاسن الدولة السامانية وترجم اشعارها، ثم لفضلاء خوارزم . - اما طريقته فقد تزع فيها نزعة الإيجاز، واقتصر في اكثر الاحيان على ذكر مقام الشاعر الادبي في أسلوب مسجع، وعلى ايراد بعض شعره .

ب - النقد الادبي

١ النقد الادبي عند العرب : النقد هو فن دراسة الآثار وإظهار قيمتها والتمييز بين الاساليب المختلفة . واننا سنتتبع هذا الفن في أطواره التاريخية ومظاهره في الادب منذ نشأته في الجاهلية الى اليوم، مسجلين

الاصول التي اتخذها النقاد في كل عصر اساساً لاحكامهم . وسنقتصر في هذا الفصل على تاريخ النقد وتطوره حتى آخر العهد العباسي مرجئين مواصلة البحث الى عهد النهضة حيث يُفتح النقد الحديث الذي ستتسع ابوابه مع الايام ويصبح في القرن العشرين من اخطر ابواب الادب واعمقها تحليلاً .

١ - النقد الادبي في الجاهلية : الادب الانشائي او الإيجادي يستدعي الادب

الوصفي او النقد الادبي الذي يعبر عما يثيره الادب الانشائي في النفس من خواطر وأحكام وعواطف تتلون بألوان الإعجاب او الإنكار او الهزء وما الى ذلك . ولما كان للجاهلية أدب يُعَدُّ به كان لا بُدَّ ان يظهر معه نوع من النقد يوافق طبيعة الجاهليين ويكون فطوياً لا يعتمد أصولاً واضحة ولا طرائق معقّدة، بل ينقاد لاحساسٍ يحمل بقيمة الشعر او بمكانة الشعراء . وجل قوانين الجاهليين النقدية ان يأخذوا الشعر منقطعاً عن المؤثرات المختلفة، بل منقطعاً عن شخصية الشاعر ومذهبه الادبي، ومنقطعاً عن سائر شعره . والقيمة الشعرية ترتكز في عُرفهم على الصياغة الخارجية والمعماني الجزئية . فيكون النظم محكماً او غير محكّم ، والالفاظ مصقولة منسجمة او معقّدة نافرة، والقافية جارية على المعهود من السنن الشعرية او بخلاف ذلك ؛ ويكون المعنى مردوفاً اذا دخله غلوٌ كثير او أُسند الى غير ما يُسند اليه (استنوق الجمّل)، ومقبولاً اذا جارى الطبيعة وبلغ الى القوة والبراعة .

وأما مكانة الشعراء فكان النقد الادبي الجاهلي يُنَوِّه بها إما بالمقارنة النسبية اذا قوبل الشاعر ببعض زملائه ففُضِّل عليهم كما فُضِّل النابغة الاعشى على الخنساء، والخنساء على حسان ؛ وإما بالتفضيل المطلق والحكم بالتفوق، فيكون الشاعر أشعر العرب في قصيدة له، او بيت، او معنى .

وينحصر عادةً اسلوب الجاهليين النقدي في عبارات وجيزة، واحكام قاطعة، قلما تعتمد على الحجّة والاستدلال ؛ وقد يلقبون الشعراء والقصائد بألقاب إفصاحاً عن منزلة الشاعر وقيمة القصائد، كما لقّبوا قصيدة لسُوَيْد بن ابى كاهل « باليتيمة » ومطلعها :

بَسَطَتْ رَابِعَةً الحبلَ لَنَا فوصلنا الحبلَ منها ما اتَّسعُ

وليس لهذا النقد من غايات علمية، إنما كان الناقد يرمي الى الإعراب عن تأثر نفسي، او الى الاشادة بذكر الاصدقاء والاحلاف والنيل من الخصوم . والنقاد في العهد الجاهلي هم عادة الشعراء انفسهم الذين قامت بهم النهضة الجاهلية . ولما كان النقد مبنياً على الإحساس وعلى الذوق الفني الفطري والشخصي، كان سطحياً بمجمله، لا يخلو من اوهام واندفاع مع الأثرة، وان كان في اكثره مصيباً لما في طبيعة البدوي من مؤهلات لادراك الجمال الادبي .

٢ - النقد الادبي في العهد الراشدي والاموي : بقي النقد في اوائل هذا

العهد معتمداً على الاحساس الفطري، وربما تبع الحكم تأييد البرهان والتعليل . ثم اخذ يتطور، ويتسع أفقه، ويخرج الى شيء من الدقة، ويحاول تحديد بعض خصائص الصياغة والمعاني . وقد ساعد على ذلك تعدد البيئات الادبية في مكة ودمشق والمدينة، وتكاثر المجتمعات التذكيرية، وانتشار الغناء . فصار انتباه الناقد موجهاً الى الايقاع الموسيقي في الالفاظ، والى المعاني من حيث تناسبها، بل الى صحة الشعور الشعري وعمقه، فيفرق بين شعر منسجم وشعر متعسر، بين شعر مؤثر كشعر ابن ابي ربيعة، وشعر جاف جامد كغزل الفرزدق . وأشعر النقاد ان الشعراء طبقات، معتمدين في ذلك على ما طرّقه من موضوعات او ما أجادوا فيه من شعر .

٣ - النقد الادبي في العهد العباسي : واصل النقد تطوره، حتى اذا كان

العهد العباسي، عهد العلم والدراسات العلمية، والمناظرات الفلسفية والدينية، والمناقشات الادبية والنزاع بين ارباب القديم وارباب الحديث، خطا النقد خطوة واسعة، وحاول التجرد من تأثير العصبية والاهواء والثورة العاطفية، والاعتماد على الشعور الهادي والتحليل والبرهان، وتعليل الظواهر الادبية وإرجاع كل شيء الى اصل وسبب، وقد وضعت للنقد قواعد دقيقة وقوانين منتظمة .

اثر الحياة الجديدة في النقد تأثيراً بعيداً، لا في ظواهره فقط بل في جوهره، وفي الامزجة التي يصدر عنها، وفي الثقافة التي ينحدر منها . فالنقد في هذا العهد يقوم على تراث العصور السابقة من احكام ونظريات، ويقوم على ثروة الحركة الجديدة في البلاغة والمنطق والفلسفة والجدل؛ وهو ينبعث عن نزعات ثلاث: نزعة اللغويين انصار القديم الذين يُعنون قبل كل شيء بتراكيب اللغة والبحث في بنية الالفاظ وتحديد مدلولاتها، ورواية الشعر وشرح معانيه، وقد يتدخلون في بحوث ادبية كالمفاضلة بين الشعراء، الا انهم قلما يتعمقون لتحليل عناصر شعر المحدثين؛ ثم نزعة الادباء (كالقاضي الجرجاني) الذين يدرسون الادب القديم ويوجهون عناية خاصة الى الادب الحديث فينقدون عناصره ويقارنونه بالقديم بغير تشبُّع في البحث وإقامة للحجج، ونقدهم يقوم بجملة على ذوق الناقد؛ ثم نزعة العلماء المتأثرين بالمعارف الاجنبية، (كابن قدامة) الذين يعتمدون في نقدهم على علم البلاغة وعلم المنطق، فيقيسون باصولها الآثار الادبية، ويصدرون في نقدهم عن المبادئ العامة لا عن الادب الموضوع .

١ - ضياء الدين بن الاثير (١١٦٣ - ١٢٣٩ م / ٥٥٨ - ٥٦٣٧ هـ)

١ - حياته : أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد الشيباني وُلد في جزيرة ابن عمر، ونشأ في الموصل وتآدب فيها؛ واتصل بالسلطان صلاح الدين وكتب له ثم اتصل بأولاده من بعده، ووزر للملك الافضل نور الدين . ثم قصد مصر فخدم الملك العادل؛ ولكنه ما عثم ان ترك مصر قاصداً الشام واتصل بالملك الظاهر في حلب، ثم انتقل الى الموصل وكتب لأميرها ناصر الدين ابن الملك الظاهر وقد أرسله الامير بهمة الى بغداد فتوفي فيها، بعد حياة قلقة لكثرة ما هاجمه من حساد وأعداء، وقد أنمى ابن الاثير عددهم بما فطر عليه من ادعاء وكبرياء وبما كان عليه من الرغبة في التسلط والاستبداد .

٢ - « كتاب المثل السائر في ادب الكتاب والشاعر » : لابن الاثير تصانيف

عديدة ولكن أشهرها « المثل السائر » .

١ ما هو : هو كتاب تضمّن قواعد الادب فبحث في علم البلاغة متطرقاً منه الى اقوال الاقدمين من الشعراء والكتّاب، ومطّبقاً عليها تلك القواعد . وقد طُبع الكتاب في مصر سنة ١٩٣٩ في مجلدين كبيرين .

٢ اقسامه : قسم ابن الاثير كتابه الى مقدّمة ومقالتين . اما المقدّمة فتحتوي اصول علم البيان، وقد بحث فيها المؤلف في الحكم على المعاني ومعرفة أساليبها في التفسير والتأويل والترجيح بينها، ثم في جوامع الكلم، والحقيقة والمجاز، والفصاحة والبلاغة وأركان الكتابة .

أما المقالة الاولى فتدور حول الصناعة اللفظية ، وهي قسمان : الاول في اللفظة المفردة، والثاني في الالفاظ المركّبة . وهي تتناول انواع البديع اللفظي كالسجع والجناس، ولزوم ما لا يلزم، والمغالطة اللفظية .

واما المقالة الثانية فتدور حول الصناعة المعنوية كالتشبيه ، والاستعارة ، والتجريد، والتقديم والتأخير وما الى ذلك .

٣ قيسته : المثل السائر كتاب تغلب فيه النزعة البلاغية النظرية ، نزعة التعليم والتقنين .

تظهر في كتاب ابن الاثير روح فلسفية، وروح تعليمية ، وروح ادّعاء . اما الروح الفلسفية فظاهرة في التقسيم وتحري المنطق، وايراد الادّلة والشواهد، وسلوك مسلك الجدّل في الاسلوب .

واما الروح التعليمية فهي ظاهرة في وضوح المعالم، ووضوح الكلام وسهولته، وطبيّة الانشاء، والإسهاب في التفصيل والتبيين . فابن الاثير يبدو استاذاً يلقي دروسه على طلاب البلاغة، واسلوبه مبتكر شيق .

واما روح الادّعاء والمباهاة فظاهرة في جميع صفحات الكتاب، فالرجل لا يرى فوقه عالماً، ولا اكتابته مثيلاً، فيكثر من الاستشهاد بنقشات قلمه، ويعجب لها كل

الإعجاب ويُكثر من التحدث عن نفسه . ومن ثمَّ ترى شخصية ابن الاثير ماثلة في كتابته، تنبض بها جُملة نبضاً قوياً .

والكتاب حافل بالحجج الراسخة، والنظريات المصيبة في شتى قواعد البيان كالفضاحة والبلاغة، وخصائص بعض الصيغ من حيث موسيقاها اللفظية ووقعها في حسن التأليف .

٢ محمد بن سلام (٨٤٦ م / ٥٢٣٢ هـ)

أبو عبد الله محمد بن سلام الجَمَحِيّ نشأ في البصرة وأخذ عن الخليل . أشهر آثاره كتابه « طبقات الشعراء » وهو أول كتاب ألف في تاريخ الادب العربي . وإذا كان الادباء قد اكتنفوا الشعر بملاحظاتهم النقدية، واللغويون قد تعمَّقوا في الفهم الجزئي، فإن ابن سلام قد درس الادب، وبحث المسائل الادبية بحثَ عالم متأثر بروح عصره في الاستيعاب والشرح والتحليل . وكتابته يتضمن فكرتين بنوع خاص : الكلام في الشعر الموضوع الذي يُضاف الى الجاهليين وليس لهم، ويتخذ من التاريخ ومن القرآن أدلة على انتقال تلك الاشعار؛ والكلام في الشعراء، وجعلهم طبقات . فالتفاضل بينهم هو اساس الكتاب وقوامه .

وقد فطن ابن سلام الى كثير من الشروط التي يجب ان تتوفر في الناقد وفي النقد، ومن ذلك الدربة والممارسة، وتحقيق النصوص والآثار تحقيقاً يتناول صحتها وصحة نسبتها، وتفسير الظواهر الادبية من قلة الشعر او كثرتها او ما الى ذلك في مكان من الامكنة او زمان من الازمنة، واسس المفاضلة . وقد صدر في تقسيم الشعراء الى عشر طبقات عن مبادئ عامة اتخذها سبيلاً للحكم عليهم ؛ وهذه المبادئ هي كثرة شعر الشاعر، وتعدد اغراضه، وجودته وان كان قد غلبت الكثرة على الجودة ؛ وهو يفضل تعدد الاغراض على الاجادة في باب واحد .

وهذا السبيل الوعر في النقد جعل اضطراباً كثيراً في ترتيب ابن سلام للشعراء .

فليس من الممكن في حال من الاحوال ان تُوزع الشعراء على طبقات عشر، وإن اقتصر المؤلف على شعراء الجاهلية والاسلام .

لم يتقدم ابن سلام بالنقد الفني الى الامام تقدماً كبيراً، وان صدر في تحقيقه للآثار عن مذهب صحيح وحاول ان يُدخل في تاريخ الادب العربي اتجاهاً نحو التفسير ومحاولة للتبويب تقوم على احكام فنية .

٣ ابو القاسم الآمدي (٩٨١ م / ٣٧١ هـ)

ابو القاسم الحسن بن بشر الآمدي من اهل البصرة . انصرف الى دراسة الشعر العربي دراسة نقدية، واشهر آثاره في ذلك « كتاب الموازنة بين الطائيين ابي تمام والبحري في الشعر » .

يتزع الآمدي في كتابه نوعة جديدة فهو يقول عندما يصل الى الموازنة التفصيلية بين الشاعرين : « انا اذكر باذن الله الآن في هذا الجزء المعاني التي يتفق فيها الطائيان فأوازن بين معنى ومعنى واقول أيهما أشعر في ذلك المعنى بعينه، فلا تطلبني ان اتعدى هذا الى ان افصح لك بأيهما أشعر عندي على الإطلاق، فإني غير فاعل ذلك » . فنهجه يقوم على المقارنة الموضوعية تاركاً الحكم الكلي للقارئ .

يبدأ الآمدي موازنته بين الشاعرين بأن يورد حجج انصار كل شاعر واسباب تفضيلهم له ثم يأخذ في دراسة سرقات ابي تمام واخطائه وعيوبه البلاغية ويفعل مثل ذلك مع البحري الى ان يأخذ بالموازنة التفصيلية بين ما قاله كل منهما في كل معنى من معاني الشعر .

ومجمل القول ان روح الرجل في دراسته هذه روح منهجية فاضحة ، روح حذرة يقظة . فهو يتناول الخصومة كرجل بعيد عنها . وقد رُمي بالتحيز للبحري على ابي تمام، ولكن الاغلب ان الرجل منصف في نقده لا يريد التحيز لهذا او لذلك على غير بينة او عن هوى، وهو يلاحظ ان من ينتصر لهذا الشاعر او ذاك انما يفعل ذلك لميله الى اتجاه خاص في الشعر .

والآمدي يأتي، الى جنب الموازنة، بآراء كثيرة في النقد، ويوضح الكلام على الشعر والعلم، والشعراء والعلماء، والصّلات بين المؤدّبين والذين تلقّوا عنهم او بين المقيمين في بيئة واحدة، ويعرض لاساليب البيان والبديع فيوضح تاريخ انتقالها الى المحدثين، ووجوه حسننها، وفوائدها وما الى ذلك مما يجعل لكتابه قيمة كبيرة في عالم النقد .

٤ قدامة بن جعفر (٨٨٨ - ٩٨٤ م / ٢٧٥ - ٥٣٣٧ هـ)

من آثار قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي « نقد النثر » و « نقد الشعر » . اما كتابه « نقد الشعر » فتأليفه في ذاته هو بناء هيكل منطقي تصوّره قدامة بعقله المجرد، ولم ينظر فيه قبل كل شيء الى الشعر المنظوم فيدرسه ويحلّله، انما يوبّ كتابه ونظّم اقسامه ودرس الشعر بحسب تنظيمه، مخضّعا كل ما يدرسه للقوانين التي سنّها .

ويبن قدامة في كتابه حدّ الشعر، ووضح عناصره واذا هي اربعة : اللفظ والوزن والقافية والمعنى؛ ثم يبن شروط ائتلاف هذه العناصر، واذا به يقع على اربعة امور اخرى لا بدّ من النظر اليها في الشعر وهي : ائتلاف اللفظ مع المعنى، واللفظ مع الوزن، والمعنى مع الوزن، والمعنى مع القافية . ثم ذهب في ذكر محسنات الشعر وعيوبه في مفرداته ومركباته . وقد ذكر عشرين نوعاً من البديع لم يذكرها ابن المعتز .

يقوم فضل قدامة بوضع عدد من الاصطلاحات وتحديد بعض الظواهر الشعرية، إلا ان كتابه كان ضئيل الأثر في سير النقد، ومحاولته كانت شكلية عقيمة في أكثرها .

٥ الفاضلي الجرجاني (٩٠٢ - ١٠٠١ م / ٢٩٠ - ٥٣٩٢ هـ)

ابو الحسن علي بن العزيز بن اسماعيل الجرجاني وُلد في جرجان وتولى فيها القضاء ثم تُوفي في الري . له عدّة تصانيف أشهرها « الوساطة بين المتني وخضومه » . وقد ردّ فيها على كتاب وضعه صاحب بن عبّاد في مساوي المتني .

كان منهجه في كتابه هذا منهج القاضي الفقيه والمؤرخ الاديب، وقد بنى معظم «وساطته» بين المتنبي وخصومه على «قياس الاشباه والنظائر»، فبدأ كتابه بتعزيز الحقيقة التي لمسها بنفسه من تعصب الناس للمتنبي او عليه عن هوى وثورة عاطفة . وهو يلاحظ ان خصوم الشاعر قد عابوه مثلاً بالخطأ، فيحاول ان يُنصفه فلا يُناقش ما خطأوه فيه بل يقيسه بأشباهه ونظائره عند الشعراء المتقدمين ، وعنده انهم لم يسلموا هم ايضاً من الخطأ . وهو من ثم لا يناقش ما أخذ على الشاعر من عيوب فنية وأخطاء، ولكنه يحاول الدفاع والذود بالموازنة والمقايضة . وهو يعرض في الاستشهاد او التدليل او التماس العذر الى كثير من الشعراء، لا للنهي عليهم بل ليؤيد ان اللحن والغلط وفتور خاطر امور لا يكاد يخلو منها شاعر .

٦ ابو هلال العسكري (١٠٠٥ م / ٥٣٩٥ هـ)

عاش منعزلاً في انصراف تام الى العلم . واشهر آثاره «كتاب الصناعتين النظم والنثر» . ومنهجه فيه منهج تقرير تعليمي يعتمد على التعريف والتقسيم ويتحوّل معه النقد الى بلاغة . فالنقد يدرس ما قيل فعلاً، والبلاغة تضع قواعد تحاول ان تخضع لها الشعراء وان تحكمها فيهم ؛ والكتاب يمثل الأوج الذي وصل اليه مذهب البديع وذلك لان مؤلفه من انصار ذلك المذهب .

بعض المراجع

- محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب - القاهرة ١٩٤٨
 طه احمد ابراهيم : تاريخ النقد الادبي عند العرب - القاهرة ١٩٣٧
 نسيب عازار : نقد الشعر في الادب العربي - بيروت ١٩٣٩
 احمد امين : ضحى الاسلام .

موضوعات للبحث

- ١ - قال ابن خلدون واصفاً كتاب الاغاني : « انه ديوان العرب وجامع اشتات العلوم التي اجتمعت لهم » . تبسط في هذا القول .
- ٢ - وازن بين اسلوب الاصبهاني في كتاب الاغاني واسلوب ابن الاثير في كتابه المثل السائر .
- ٣ - اوضح مكانة ابن الاثير في النقد الادبي عند العرب .

الباب السادس

العلوم والفنون

١ - حركة النقل

١ تطور حركة النقل : بدأت حركة النقل في العهد الاموي فكان خالد بن يزيد اول من معني بنقل الكتب . ونشطت هذه الحركة في العهد العباسي ولاقت من الخلفاء تشجيعاً وقد ناصر المأمون الفلسفة والعلوم مناصرة شديدة .

٢ مشاهير النقلة : اشتهر في النقل آل بُخْتِيشوع، وآل مُحنين ولاسيا اسحاق بن حنين، واشتهر قسطا بن لوقا البعلبكي، وثابت بن قرّة، وسنان بن ثابت، وآل ماسرجويه، وآل نوبخت، والحسن بن سهل، ومثكة، وابن دُهن، وابن وحشية .

٣ العلوم المنقولة : اعتمد العرب في الفلسفة والطب والهندسة والفلك والموسيقى على اليونان، وفي النجوم والسير والآداب والتاريخ والحكم على الفُرس؛ واقتبسوا من الهند الطبّ والعقاقير والحساب والاقاصيص والموسيقى، ومن الانباط والكلدان الفلاحة والزراعة والتنجم والسحر والطلاسم، ومن المصريين الكيمياء والتشريح .

٢ - العلوم اللسانية

١ اللغة : اشتهر ما وُضع فيها « كتاب العين » للخليل، و « الكامل » للهبرّد، و « الجهرة » لابن دُرَيْد، و « التهذيب » للازهري، و « المحيط » لابن عبّاد، و « المجمل » للرازي، و « الصّحاح » للجوهري...

٢ النحو : ظهرت مدرستان في النحو مدرسة البصرة وهي تعتمد القياس والمنطق، ومدرسة الكوفة وهي تعتمد كلام الاعراب . واشتهر من علماء البصرة سيبويه، ومن علماء الكوفة الكسائي .

٣ العروض : كان الخليل اول من دوّن قواعد النظم وحصر اوزان الشعر في خمسة عشر وزناً زاد عليها الاخفش بحر المتدارك .

٤ **البلاغة** : اول من ألّف في البيان ابو عُبَيْدة . وواضع قواعد علمي المعاني والبيان هو الجرجاني، والمميّز بينهما هو السكّاني . واول من صنّف في البديع هو ابن المعتزّ .

٣ - العلوم الدينية

١ **التفسير** : اشتهر في علم التفسير ابن جرير الطبري، والثعلبي، والزمخشري، والرازي .

٢ **الحديث** : اشتهر في الحديث البخاري، والقشيري...

٣ **الفقه** : اشتهر فيه الايمة الاربعة : ابو حنيفة، ومالك بن أنس، والشافعي، وابن حنبل .

٤ **علم الكلام** : تعددت الفرق في الاسلام فكان من اهمها القدريّة والجبريّة والمعتزلة . ونشأ علم الكلام للدفاع عن العقائد . من اشهر متكلمي المعتزلة النظام، ومن اشهر علماء السنة الاشعري .

٥ **التصوّف** : من اشهر المتصوّفين الخلاج، وابن عربي، وابن الفارض .

٤ - التاريخ

اشتهر في علم التاريخ اليعقوبي، والطبري، والمسمودي، والبيروني .

٥ - الجغرافية

اشتهر في علم الجغرافية ابن خردادبه، وابن الحائك، واليعقوبي، وابن الجوزي...

٦ - الفلسفة

اشتهر في الفلسفة الكندي، والفارابي، وابن سينا، والغزالي .

٧ - العلوم الطبيعية

اشتهر في العلوم الطبيعيّة ابن ماسويه، وابن سهل، وابو بكر الرازي، وابن سينا .

٨ - العلوم الرياضية والفلكية

اشتهر في هذه العلوم الخوارزمي، والكندي، واولاد شاكر، والبوزجاني، والنيروزي، والكرخي، وابن الهيثم، والحيام، والطوسي .

٩ - الفنون

شاعت الفنون في العهد العباسي ولاسيما البناء والموسيقى .

كان العصر العباسي من ازهى عصور العرب أدباً وعلماً وفناً . فهو العصر الذهبي الذي اشرفت فيه شمس الحضارة، ونضجت ثمار الثقافة، فدونت الكتب في شتى انواع العلوم، وراجت سوق الفنون رواجاً عظيماً . وكانت بغداد اهم مراكز هذا الاشعاع العقلي والفني وهي أم الحواضر، ومقر الخلفاء، يتوافد اليها الادباء والعلماء من كل حذب . وساهمت معها في ذلك الكوفة والبصرة حاضنتا اللغة والنحو، وسائر الحواضر الاخرى كدمشق والقاهرة وحلب وغيرها . فنتج عن هذه الحركة المباركة، التي كلاًها الخلفاء والامراء بعين رعايتهم، تقدم كبير في العلوم اللسانية والدينية والتاريخية والجغرافية، واحدثت الكتب المنقولة أثراً بليغاً في عقول العرب، فنبع منهم جمهرة من العلماء في الفلسفة والطبيعات والرياضيات، وازدهرت الفنون ولاسيما العمارة والنقش والموسيقى ناهيك عن الادب . واننا سنلقي نظرة سريعة على حركة النقل في العهد العباسي ثم نستعرض النواحي المختلفة للمجاري العلمية في ذلك العهد .

١ — حركة النقل واثراها

بعد ان انقضى زمن الفتوحات الاولى وأدرك العرب بالاحتكاك ما بلغته الشعوب المجاورة لهم من الثقافة والمدنية التي لم يسبق لها نظير عندهم، عمدوا الى اقتباس ذلك التراث الغني ليكون لهضتهم دعامة وركناً . وها نحن نستقري تطور هذه الحركة، ونترجم لمشاهير النقلة الذين غدوها بعلمهم وجدّهم، مستعرضين انواع العلوم التي ترجمت الى العربية .

أ) **تطور حركة النقل :** بدأت هذه الحركة في العصر الاموي . فكان خالد بن يزيد (٧٠٤ م / ٨٥ هـ) حفيد معاوية اول من عني بنقل الكتب . فقد تعلم صناعة الكيمياء وأولع بها، فترجمها له عن اليونانية اسطغان النديم او الاسكندردي، ونشطت هذه الحركة في العهد العباسي ولاقت من الخلفاء تشجيعاً كبيراً . وكان اكثرهم عناية بها المنصور (٧٥٤ - ٧٧٦)

الذي اهتم خصوصاً بنقل كتب الفلك، والرشيدي (٢٨٦-٨٠٩) والميامون (٨١٣-٨٣٣) الذي ناصر الفلسفة وامر بنقل كتبها . ونحنا منجى الخلفاء وزراؤهم ووجهاء الدولة والامراء كالبرامكة وآل شاذلي في بغداد، والمحمدانيين في حلب، وملوك الدولة البويهية والدولة الساسانية .

٢ **مُساهِم النقلة** : لم يتصل العرب مباشرة بمؤلفات اليونان والفرس والهنود بل على يد نقلة اكثرهم من الاعاجم المستعربين ومن النصارى . فلقد كان السريان، يعاقبة ونساطرة، على جانب كبير من الثقافة، ملمين باللغة اليونانية بفضل معاهدهم وأديارهم : وهذه اسماء اشهر النقلة :

- **آل بجتيشوع** : وهم اسرة سريانية اشتهر اعضاؤها بالطب والفلسفة ونالوا حظوة كبيرة عند الخلفاء . عنوا خصوصاً بنقل كتب الطب .

- **آل حنين** : اسرة سريانية من الحيرة . أشهر افرادها حنين بن اسحاق (٨١٠ - ٨٧٣ م / ١٩٤ - ٢٦٤ هـ) ولد في الحيرة حيث كان والده يتعاطى الصيدلة وذهب الى بغداد فتعلم للطبيب يحيى بن ماسويه . ثم توجه الى بلاد الروم فأتقن اللغة اليونانية . ولما عاد الى بغداد أصبح طبيب المتوكل . وكان حنين بن اسحاق من اكثر المؤلفين والمترجمين نشاطاً . من مؤلفاته « كتاب المسائل في الطب المتعلمين » ومن الكتب التي نقلها « الفصول الايقراطية » وقصة « سلامان وإيسال » ومؤلفات اخرى لافلاطون وارسطو وجالينوس وابقراط وغيرهم . ولا مرأى في ان كثيراً من الترجمات التي نسبت له هي لابنه اسحاق بن حنين وابن اخته حميدش .

- **ثابت بن قرة** (٩٠٢ م / ٢٨٨ هـ) هو صابئي من حران . اطلع على العلوم الفلسفية والرياضية، فجعله المعتضد بين منجمي بلاطه، فاشتغل بترجمة كتب الرياضيين اليونان، وألف مصنفات في الرياضيات والنجوم، وتعاطى الطب، وكانت وفاته في بغداد : من آثاره « تركيب الافلاك » و « علة الكسوف والخسوف » و « كتاب الهندسة » وغيرها .

- قسطا بن لوقا (١٢٢ م / ٣١٠ هـ)، كان رومي الاصل وُلد في بعلبك واتفق اللغات اليونانية والسريانية والعربية وألم بالطب والفلسفة والرياضيات والموسيقى . توفي في ارمينية بعد ان ترجم كثيراً من الكتب عن اليونانية . فانه سافر الى بلاد الروم وجاء بعدد وافر من المصنفات نسج على منوالها او نقلها الى العربية . فخلف آثاراً في علوم الطب والصحة والفلسفة والطبيعات والرياضيات والالوان . منها : « كتاب الفلاحة الرومية » و « الفصل بين النفس والروح » و « المرايا المحرقة » و « كتاب هيرُن » في رفع الاجسام الثقيلة .

- سنان بن ثابت (٩٤٣ م / ٣٣١ هـ) كان رأس الاطباء في زمان المقتدر العباسي . ترجم « نواميس هيرمس » وله تصانيف كثيرة .

- آل ماسرجويه، وابن المقفع، وآل نوبخت، والحسن بن سهل وقد نقلوا عن الفارسية، ومنكه وابن دهن وقد نقلوا عن الهندية، وابن وحشية عن النبطية .

٣ العلوم المنقولة : أبدى العرب في حركة النقل نشاطاً عجبياً، وطرقوا كل ابواب العلوم، ونهلوا من كل الثقافات المعروفة عندهم، فاعتمدوا في الفلسفة والطب والهندسة والنجوم والموسيقى على اليونان، وفي النجوم والسير والاداب والتاريخ والحكم على الفرس، واقتبسوا من الهند طبها والعقائد والحساب والنجوم والاقاصيص والموسيقى، ومن الانباط والكلدان الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم، ومن المصريين الكيمياء والتشريح . وهكذا استحصلوا على بذار غني بالحياة، زرع في تربة خصيبة فأنتج الثمار الياضة .

(١) هذه اسماء أهم الكتب المنقولة :

١ عن اليونانية :

١ - في الفلسفة :

كتاب السياسة لأفلاطون نقله حنين بن اسحاق - كتاب النواميس لأفلاطون نقله حنين، ويحيى ابن عدي - كتاب طيلوس لأفلاطون نقله ابن البطريق وأصلحه حنين - كتاب الحسّ واللذة

٢ — العلوم اللسانية

تتناول تلك العلوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة . وسنعرض لكل منها
بوجيز الكلام، ثم نترجم لاشهر اربابها .

١ اللغة : ازداد احتكاك العرب بالاجانب لبأن العصر العباسي، فخافوا على
لغتهم من التحريف والتقهقر، فراحوا يضعون المعاجم العامة المرتبة على

لأفلاطون نقله يحيى بن عديّ - كتاب قاطيغوريوس (المقولات) لأرسطو نقله حنين بن اسحاق -
كتاب تحليل القياس لأرسطو نقله ثيودورس وأصلحه حنين - كتاب الكون والفساد لأرسطو نقله
حنين الى السريانية واسحاق الدمشقي الى العربية - كتاب النفس لأرسطو نقله حنين الى السريانية
واسحاق الى العربية - كتاب الأخلاق لأرسطو نقله اسحاق . ونقلوا ايضاً عن ثاوفريستس وبرقلس
والاسكندر الأفروديسي وفرفوريوس...

٢ - في الطب :

نحو عشرة كتب لأبقراط منها : عهد أبقرط، وكتاب الفصول، وكتاب الامراض الحادة وكتاب
طبيعة الانسان - وعدد وافر من كتب جالينوس، منها : كتاب الصناعة، والنفض وشفاء الامراض،
والحميات، والتشريح الكبير... ونقلوا ايضاً مؤلفات لروفس الأفسسي، وأوريباسيوس، ولديسقوريدس
ولاسكندروس .

٣ - في الرياضيات والنجوم وغيرها من العلوم :

من اقليدس : اصول الهندسة، وكتاب الظاهرات، والموسيقى . - من أرخيدس : نحو عشرة كتب
منها : كتاب في الكرة والاسطوانة، وآخر في تربيعة الدائرة وتسيمها، والدوائر المماسّة - من أبولونيوس :
كتاب المخروطات، وقطع السطوح... - ونقلوا ايضاً كتباً لأرسطرخس، وبطليموس وغيرها .

٢ عن الفارسية :

كتاب آيين نامه، وكتيلة ودمنة، وشهيرزاد مع أبرويز، وسير ملوك فارس وغيرها .

٣ عن الهندية :

اسماء عقاير الهند، كتاب سسردي في الطب، وزيج السند هند في حركات الكواكب . وكتب غيرها
في الحساب .

٤ عن النبطية :

كتاب الفلاحة النبطية، كتاب السحر الكبير، كتاب في الطلسمات وغيرها .

حروف الهجاء، ويضبطون الالفاظ ويدونون المفردات . ومن اشهر ما صُنف في هذا القبيل كتاب «العين» للخليل، وهو اول معجم شرح الالفاظ وضمها مرتبة بحسب مخارجها مبتدئاً بحرف العين، ثم كتاب «الكامل» لابي العباس المبرد، ثم كتاب «الجمهرة» لابن دريد، و«التهذيب» للزهري، و«المحيط» لابن عباد، و«المجمل» للرازي، و«الصّحاح» للجوهري، و«أساس البلاغة» للزمخشري، و«الجامع في اللغة» للقرّاز، و«الموعب» للثياني .

٢ النحو : ضبط ابو الاسود الدؤلي قواعد النحو، وما ان اطلّ هذا العصر حتى اصبح النحو موضوع نزاع قائم بين البصرة والكوفة، اكل منهما فيه مدرسة وآراء؛ اما البصريون فاهل منطق وقياس، والبادية حولهم عامرة بالاعراب الفصحاء يأخذون عنهم الصحيح وينبذون الفاسد والضعيف؛ واما اهل الكوفة فحجّتهم كلام الاعراب، والذين يعتمدون عليهم منهم ويتخذون اقوالهم شاهداً هم دون اعراب البصرة فصاحة، كما ان نقلهم عن العرب لم يقيم على ما قام عليه نقل البصريين من ذوق ومقدرة على التحليل .

اشتهر من علماء البصرة : ابو عمرو بن العلاء، وابو الخطّاب الاخفش الاكبر، والخليل بن احمد، ويونس بن حبيب، وسيبويه صاحب «كتاب النحو»، والاصمعي . واشتهر من علماء الكوفة : ابو جعفر الرؤاسي، ومعاذ الهراء واضع علم التصريف، والكسائي، وتلميذه الفراء وهو مؤلف كتاب «الحدود»، وقد قيل : «الفراء امير المؤمنين في النحو» .

(١) بلغ مجموع مسائل الخلاف بين علماء البصرة وعلماء الكوفة مئة مسألة واثنين، اليك بعضها :

- الاسم مشتق من السموّ عند البصريين، ومن الوسم عند الكوفيين .
- الفعل مشتق من المصدر عند البصريين، والمصدر مشتق من الفعل عند الكوفيين .
- يجوز عند البصريين تقديم خبر ليس عليها، ولا يجوز عند الكوفيين .
- عند البصريين لا يُبنى فعل التعجب من الالوان إلا بواسطة أشدّ ونحوها، ويجوز بناؤه بلا واسطة عند الكوفيين، فتقول : هو ابيض منه .

وقد استوفى علماء البصرة والكوفة موضوع النحو ولم يدعوا لمن اتى بعدهم، ولا سيما في بغداد، الا الشرح والتلخيص، او التوفيق بين الآراء او الجمع بينها من غير ما ترجيح او مفاضلة .

اما نزاع اهل الكوفة والبصرة فكان شديداً وقد ولد في قواعد النحو العربي تشعباً في الآراء، وتعمساً في التحليل اصبحت معها دراسة النحو عسيرة وعرة .

٣ المروفي: نظم شعراء الجاهلية وصدر الاسلام القصائد المتنوعة البحور والاوزان، سليقة وتقليداً، ولكن اول من دون قواعد النظم كان الخليل، فحصر اوزان الشعر في خمسة عشر وزناً سماها بحوراً وقد زاد عليها الاخفش بحراً دعي « المتدارك » .

٤ البلاغة: بعد ان فرغ العرب من جمع شتات الفاظهم وضبطها في المعاجم، راحوا يعنون ببلاغتها وحسن تأديتها للمعاني، فتكون من ذلك علم البيان والمعاني والبديع . واول من ألف في البيان ابو عبيدة (٨٢٤ م / ٢٠٩ هـ) صاحب « مجاز القرآن »، وتناول الجاحظ في كتابه « إعجاز القرآن » بعض اغراض علم المعاني . ولكن واضع قواعد هذين العلمين هو بلا مراء الجرجاني (١٠٨٠ م / ٤٧١ هـ) مؤلف « اسرار البلاغة » في البيان، و « دلائل الإعجاز » في المعاني . وجاء بعده السكاكي (١٢٣٠ م / ٦٢٦ هـ) صاحب « مفتاح العلوم »، فميز بينهما فأصبحا مستقلين . وتكلم ابن الاثير (١٢٣٩ م / ٦٣٢ هـ) على هذين العلمين في « المثل السائر » و « البرهان في علم البيان » . اما البديع فإن ابن المعتز هو اول

(١) كان النزاع بين البصريين والكوفيين موضوعاً ألف فيه عدد من العلماء . فقد وضع كمال الدين الأنباري كتاب « الإنصاف في مسائل الخلاف »؛ ووضع أبو البقاء البكري كتاب « التبيين في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين » . أما السيوطي فقد لخص مسائل الخلاف وجعلها في الجزء الثاني من كتابه « الأشباه والنظائر » .

من صنف فيه، فجمع من انواعه سبعة عشر نوعاً، زاد عليها الادباء بعده حتى بلغت المئة والاربعين في «خزانة الادب» لابن حجة .

— الخليل بن احمد (٧١٨-٧٨٦ م / ١٠٠-١٧٠ هـ) : هو عبد الرحمن الخليل ابن احمد الازدي . وُلد بالبصرة، وعاش فقيراً ولكنّه كان إماماً في اللغة والادب . وكان ملماً بالموسيقى، فوضع علم العروض وضبط اصول الغناء . وقيل انه كان مطلعاً على اللغة اليونانية . مات بالبصرة . من اشهر آثاره كتاب «العين» في اللغة . وقد سماه بهذا الاسم لابتدائه بحرف العين . فالخليل لم يدون الالفاظ بحسب ترتيب حروف الهجاء، بل بحسب مخارجها، فقسّمها الى حلقة وهي «ع ح ه خ غ ق»، وشجرية، نسبة الى الشجر وهو ما انفتح من منطبق الفم، وهي «ك ج ش»، وصافرة وهي «ص س ز»، واسانية وهي «ض ط د ت ظ ذ ث ر ل ن»، وشفهية وهي «ف ب م»، ثم معتلة وهي «و ا ي»؛ وقيل ان الخليل شرع في الكتاب فأكمّله تلامذته .

ومما ذكره له ابن النديم في الفهرست كتاب «النعم» وكتاب «الإيقاع» .

— سيّويه (٧٩٦ م / ١٨٠ هـ) : هو عمرو بن عثمان، ولد بفارس وترعرع في البصرة حيث لزم الخليل واخذ عنه . له «كتاب النحو» وفيه ٨٢٠ فصلاً، ومنه اغترف النحاة المتأخرون، وعنه قال ابو عثمان المزني : «من اراد ان يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد كتاب سيّويه فليستح» . وقصد سيّويه بغداد حيث ناظر الكسائي، ثم عاد الى فارس وتوفي بقرية البيضاء من قري شيراز . وهو يعدّ شيخ البصريين غير مدافع .

— الكسائي (٨٠٤ م / ١٨٩ هـ) : هو علي بن حمزة الاسدي . ولد بالكوفة وتعلّم النحو على معاذ الهراء وابي جعفر الرؤاسي ثم قصد البصرة وأخذ النحو عن الخليل . ولما قدم بغداد بعد طوافه بالبادية جعل في حاشية الرشيد ثم مؤدّباً لابنه الامين . فتعصّب الخلفاء له واعلماء الكوفة . توفي بالري في فارس .



الخليل بن احمد كما تخيَّله الفنان ارتورو اورتيس

كان احد القراء السبعة^١ وشيخ الكوفيين . لم يصلنا من تأليفه الكثيرة في النحو سوى الشيء النزر^٢.

(١) القراء السبعة هم الذين حرروا الفاظ القرآن .

٣ — العلوم الدينية

كانت العلوم الدينية في العصر السابق علماً واحداً، فإلّا لبثت أن تشعبت نواحيها فكثرت التأليف في التفسير والحديث والفقه وظهر علم الكلام والتصوّف .

١) التفسير : اشتهر بين مفسري القرآن ابن جرير الطبري (٩٢٣ م / ٣١٠ هـ) مؤلف «جامع البيان في تفسير القرآن»، والثعلبي (١٠٣٥ م / ٤٢٧ هـ) صاحب «الكشف والبيان عن تفسير القرآن»، والزمخشري (١١٤٤ م / ٥٣٨ هـ) وله «الكشاف عن حقائق التنزيل»، وفخو الدين الرازي (١٢١٠ م / ٦٠٦ هـ) مصنف «تفسير القرآن الكريم» .

٢) الحديث : مات الصحابة فراح المسلمون يدوتون الاحاديث لئلا تعبت بها يد الدهر، فامتحنوا مصادرها وشكّوا في صحة الكثير منها . وكان من مشاهير علماء الحديث مالك ابن انس صاحب «الموطأ»، وابن حنبل مؤلف «المستند»، وجاء بعدهما مؤلفو الستة الصّحاح .

— محمد البخاري (٨٧٠ م / ٢٥٦ هـ) : وُلد في بخارى . وأولع بجمع الاحاديث، فقام برحلة طويلة، وأخذ عن المحدثين . ولما تمّ له ما أراد وضع كتابه «صحيح البخاري» حيث جمع تسعة آلاف ومئتي حديث منها ثلاثة آلاف مكرورة بوجوه مختلفة . وكان قد عني بتمحيصها ونقدها، فأضحى كتابه حجة، واضحى هو إماماً يشهد له الجميع بالتفوق في هذا العلم . مات في خرتنك إحدى قرى سمرقند .

مسلم القشيري (٨٧٥ م / ٢٦١ هـ) : هو ابو الحجاج بن الحسن القشيري . ولد بنيسابور، ورحل في طلب الحديث . ثم ألّف «صحيح مسلم» الذي يضم اثني عشر ألف حديث، وكتابه هذا هو احد الصحيحين المعول عليهما عند اهل

السنة . وله مؤلفات أخرى كثيرة « كالمسند الكبير » و « الطبقات » و « الجامع » وغيرها . توفي في ظاهر نيسابور .

— الترمذي (٨٩٢ م / ٢٧٩ هـ) : وله « الجامع الكبير » .

— النسائي (٩١٥ م / ٣٠٣ هـ) : وله « السنن الكبرى » و « السنن الصغرى » .

— ابو داود السجستاني (٨٨٩ م / ٢٧٥ هـ) : وله « السنن » .

— ابن ماجه (٨٨٧ م / ٢٧٣ هـ) : وله « سنن ابن ماجه » هؤلاء الستة هم عمدة المحدثين، ومن اشهر من جاء بعدهم :

— سليم الرازي (١٠٥٥ م / ٤٤٧ هـ) : صاحب « غريب الحديث » .

— البيهقي (١٠٦٦ م / ٤٥٨ هـ) : وله مصنفات كثيرة منها : « السنن الكبرى » و « السنن الصغرى » .

٣ الفقه : اشتهر فيه الأئمة الاربعة : ابو حنيفة، ومالك بن أنس، والشافعي، وابن حنبل .

— ابو حنيفة (٦٩٩ - ٧٦٧ م / ٨٠ - ١٥٠ هـ) : وُلد ونشأ بالكوفة وكان فارسي الاصل . وهو صاحب المذهب الحنفي في الفقه، وقوامه الاعتماد على الرأي والقياس في استنباط الاحكام، اضعف ثقته بالاحاديث . توفي في بغداد بعد أن عاش بالزهد والورع . انتشر مذهبه في العراق وسورية وتركية والعجم وغيرها . وهو أعم المذاهب واكثرها تسامحاً .

— مالك بن أنس (٧١٣ - ٧٩٥ م / ٩٥ - ١٧٩ هـ) : وُلد بالمدينة وفيها نشأ وأخذ عن علمائها . أسس المذهب المالكي الذي يعتمد اصحابه على الحديث

والتقليد دونما اعتماد بالرأي والقياس، والذي انتشر في الحجاز والمغرب والاندلس .
توفي في المدينة . ومن أشهر آثاره كتابه «الموطأ» الذي يحوي مذهبه .

— الشافعي (٧٦٧ - ٨١٩ م / ١٥٠ - ٢٠٤ هـ) : هو أبو عبد الله محمد الشافعي . وُلد في غزّة وكانت نشأته بمكة . رحل الى البادية ليتخرج على فصحاء العرب، ثم تعلّم الفقه وحفظ «موطأ» مالك، وجاء بغداد فأخذ عن أتباع أبي حنيفة . أخيراً استقرّ بالفسطاط بمصر وهناك نشر مذهبه الذي مزج به طريقة سابقه أبي حنيفة ومالك . فهو يعتمد على الحديث والتقليد ولكنه لا ينفذ الرأي والقياس . انتشر مذهبه خصوصاً في مصر وله أتباع في سورية ولبنان . وكانت وفاته في مصر .

— ابن حنبل (٧٨٠ - ٨٥٥ م / ١٦٤ - ٢٤١ هـ) : هو عبد الله أحمد الشَّيباني . كانت ولادته ونشأته في بغداد . روى الحديث وضمّن كتابه «المُسند» نحو ٤٠ ألفاً منه . كان في أحكامه يتشبّه بالحديث ولا يعتمد على الرأي والقياس . اما أتباع مذهبه فقليلون منتشرون في العراق وسورية . توفي في بغداد .

هؤلاء الأربعة هم أساطين الفقه الاسلامي، وكل من جاء بعدهم كان ملخصاً أو شارحاً لهم . ومن أشهر الفقهاء في العصور التالية أبو الحسن الماوردي (١٠٥٨ م / ٤٥٠ هـ) وله «الاحكام السلطانية» و«الخواص» في فقه الشافعية، وعلي بن أبي بكر المرغيناني (١١٩٦ م / ٥٩٣ هـ) صاحب «الهداية في شرح البداية» .

٤ علم الكلام : تعددت الفرق في الاسلام لدخول الاعاجم فيه وإعمال الفكر في عقائده، فكان من أهمها القدريّة، والجبريّة، والمعتزلة . فقام كل فريق يناضل عن آرائه ويدافع عن موقفه، ويعمد الى المنطق لينتزع منه

(١) جحد أتباعها القدر وقالوا بحرية الانسان (٢) انكر أصحابها على الانسان الاختيار وقالوا انه مسير في أفعاله لا مخير .

حججاً تؤيد مبدأه . فأحوجوا اهل السُّنة الى مقابلتهم بالمثل، فكان علم الكلام لا إثبات عقائد الدين بالبراهين العقلية . فاشتهر بين متكلمي المعتزلة واصل بن عطاء، وابو الهذيل العلاف، والنظام، والجاحظ، والجُبَّائي . واشتهر الأشعري بين علماء السُّنة .

— ابو الحسن الأشعري (٨٧٤ - ٩٣٦ م / ٢٦٠ - ٣٢٤ هـ) : وُلد في البصرة، وتعلَّم مبادئ المعتزلة على شيخها ابي علي الجُبَّائي . ثم رجع الى السُّنة لخلاف جرى بينه وبين أستاذه في مسألة عرضها عليه . ومنذ ذلك الحين ناصب المعتزلة العدا، وعمل على تفنيد آرائهم . توفي في بغداد بعد ان أسس الطريقة الأشعرية . من تصانيفه : « مقالات المسلمين » و « مقالات الملحدين » و « الاسماء والاحكام » .

٥ النصوف : وشاع التصوف في الاسلام، فكان له دعاة ورسل وأتباع . ومن أشهر المتصوفين :

— الخلاج (٧٨٣ - ٩٢٢ م / ٢٤٤ - ٣٠٩ هـ) : وقد مات مصلوباً في بغداد .

— محي الدين بن عربي (١٠٧٦ - ١١٤٨ م / ٤٦٨ - ٥٤٣ هـ) : وقد وُلد في مرسية بالأندلس . وتزح الى الشرق وطوّف في أنحاء، ومات في دمشق؛ وله مؤلفات جمة أهمها : « ديوان ابن عربي » و « الفتوحات المكية في معرفة الاسرار المالكية والملكية » .

— ابن الفارض : (وقد سبق الكلام عليه) .

٤ — التاريخ

تكوّن علم التاريخ في العهد الاموي ولكن تدوينه لم يتم إلا في هذا العصر . فعُني أصحابه بالاحداث الواقعية والسير المتتالية وقلما عبثوا لتسلسل التاريخ وتتبع العلل والمستببات وربطها بنتائجها . فظهرت عند العرب مؤلفات تاريخية منها ما هو

خاصّ محدود الموضوع، ومنها ما هو عامّ جامع^١. اما في التاريخ الخاص فقد اشتهر :

— محمد بن إسحاق (٧٦٨ م / ١٥١ هـ) : وله « السيرة النبوية » .

— الواقديّ (٨٢٣ م / ٢٥٧ هـ) : ومن مؤلفاته : « المغازي النبوية »
و « فتوح الشام » .

— ابن السائب الكلبيّ (٨٢١ م / ٢٠٦ هـ) : ضابط أنساب العرب وأيامها،
وقد قيل انه ألف أكثر من مئة وخمسين كتاباً، نذكر منها « جمهرة الانساب »
و « بيوتات قريش » و « ملوك كِنْدَة » .

— محمد بن سعد الزهري (٨٤٥ م / ٢٣٠ هـ) : مؤلف « طبقات الصحابة » .

— الاصمعي (٨٣١ م / ٢١٦ هـ) : راوية العرب، الذي طاف البوادي
وتلقّى أخبارها .

(١) شمل التاريخ في العهد العباسي فنوناً مختلفة وتشعّب الى فروع شتى منها : — السيرة والمغازي :
في تفصيل حياة محمد نبي الاسلام وغزواته، ومن ذلك « كتاب المغازي » لابن مسلم الزهري (٧٤١ م
١٢٤ هـ)، و « سيرة ابن هشام » وهي اقدم سيرة لمحمد . وقد توفي عبد الملك بن هشام سنة ٨٢٨ م
٢١٣ هـ) .

— فتوح البلدان : وقد دعا العرب الى كتابة هذا الفن تحقيق امر الخراج والجزية وذلك لمعرفة
المفتوح من البلدان صلحاً وأماناً، والمفتوح عنوة . ومن اشهر ما كُتب في هذا الباب كتاب « فتوح
الشام » لابي اسماعيل محمد بن عبدالله الأزديّ البصريّ من اواسط القرن التاسع للميلاد .

— طبقات الرجال : في تعيين مراتب العلماء والادباء وغيرهم وذلك اما بالنظر الى زمانهم او الى
فضلهم وتفوّقهم . ومما وُضع في هذا الباب كتاب « طبقات الصحابة والتابعين » لابن سعد (٨٤٤ م
٢٣٠ هـ) .

— الأنساب : ومُن ألفوا في هذا الباب هشام الكلبيّ (٨٢١ م / ٢٠٦ هـ) وله « النسب
الكبير » في انساب القبائل من العدنانية والقحطانية .

— تاريخ الممالك : في تفصيل سير الملوك والسلاطين من العرب وغيرهم ؛ واقدم كتاب وصل الينا
من ذلك كتاب اليعقوبيّ . واشهر من ألف في هذا الباب ابن جرير الطبريّ ...

— معرفة ايام العرب ... الى غير ذلك من الفنون .

- ابو نصر العُتبيّ (١٠٣٦ م / ٤٢٧ هـ) : وقد صنّف « اليميني » .
وأما الذين بحثوا في التاريخ العام فأشهرهم :
- اليعقوبي (٨٩١ م / ٢٧٨ هـ) : وله « تاريخ اليعقوبي » الذي ينتهي الى خلافة المعتمد على الله العباسي، وكتاب « البلدان » .
- الطبري (٩٢٣ م / ٣١٠ هـ) : وهو ابو جعفر محمد بن جرير الطبري، وُلد في آمل بطبرستان، وحصل العلم في بغداد ومصر والشام وتوفي في بغداد . له في التاريخ كتاب « اخبار الرسل والملوك » .
- ابن البطريق (٩٤٠ م / ٣٢٨ هـ) : وقد وُلد في الفسطاط وكان طبيباً مؤرخاً ثم أقيم بطريقاً على الاسكندرية، وقد صنّف في التاريخ كتاب « نظم الجواهر » وفيه اخبار العالم منذ عهد آدم الى سنة ٩٣٥ م .
- المسعودي (٩٥٧ م / ٣٤٦ هـ) : وقد وُلد في بغداد ثم طاف الهند والصين ومدغشكر ومصر والسودان والشام وآسية الصغرى، ثم استقرّ في مصر وانقطع الى تصنيف كتبه التاريخية لجمع فيها الغثّ والسمين لانه لم يستقصِ البحث عمّا سمع ورأى، ولم يسع وراء المصادر الاولى كما فعل البيروني، بل اكتفى بعلومات سطحية، ولم يتحفظ من الخرافات والاساطير . ولم يتبع ترتيباً منطقياً في سرد الحوادث والاخبار فكثرت عنده الاستطرادات .
- ومن اشهر مؤلفاته « مروج الذهب » حيث استقرى التاريخ العام الى مقتل عثمان، ثم تاريخ الدولة الاسلامية الى زمانه . وله ايضاً « اخبار الزمان » و « اخبار الامم من العرب والعجم » وغيرها .
- ابن النديم (٩٩٥ م / ٣٨٥ هـ) : واضع كتاب « الفهرست » في تراجم الشعراء والكتّاب والفلاسفة والمؤرخين والفقهاء واللغويين .
- ابن مسكويه (١٠٣٠ م / ٤٠١ هـ) : وله « تجارب الامم » الذي ينتهي به الى سنة وفاة عضد الدولة (٣٧٢ هـ) .

- البيرُونِي (٩٧٣ - ١٠٤٨ م / ٣٦٢ - ٤٤٠ هـ) : هو من أهل خوارزم درس الرياضيات والفلك والطب والتاريخ، وقام برحلة الى الهند، وكان العرب قد افتتحوها آنذ، وأطلع على ثقافتها . ثم عاد الى غزنة وعاش في بلاط السلطان مسعود ابن محمود . وقد صنف مؤلفات جمّة في شتى انواع العلوم منها : « الآثار الباقية عن القرون الخالية » و « تاريخ الهند » و « القانون المسعودي في الهيئة والنجوم » و « الجواهر في معرفة الجواهر » . فكان من اكبر علماء العرب .
- ابن الأثير : له في التاريخ كتاب « الكامل » ضمّنه تاريخ الامم من البدء الى سنة ١١٣٠ ورتبه بحسب السنين .

٥ — الجغرافية

- توسّع العرب في الحضارة واختلطوا بالشعوب الاجنبية وراحوا يجوبون البلاد والبحار، فدوّنوا ما وصلت اليه أيديهم من المعلومات عن بلادهم وعن الامصار الأخرى . ولما نُقلت الكتب اليونانية والهندية والفارسية حصل العرب على كتاب المجسطي لبطليموس وكتاب السند هند، فازدادوا اطلاعاً على شكل الارض وعلاقاتها بالكواكب الأخرى، وحقّقوا كرويتها ومحيطها ومقدار درجاتها، وصحّحوا بعض ما وقع في كتاب بطليموس من الاخطاء . ومن مشاهير الجغرافيين العرب :
- ابن خُرداذبه (٨٩٣ م / ٢٨٠ هـ) : وقد تولى البريد على أيام المعتمد العبّاسي، في بعض نواحي العراق، فألف كتاب « المسالك والممالك » حيث ذكر مسافات الطرق .
- اليعقوبي : الذي لم يقصر كتابه على التاريخ بل تناول فيه المواضيع الجغرافية ايضاً .
- ابن الخائك (٩٤٥ م / ٣٣٤ هـ) : وله « صفة جزيرة العرب » و « المسالك والممالك » .
- الاسطخري : (القرن العاشر الميلادي، الرابع للهجرة) : له « مسالك الممالك » .
- ابن حوقل : وقد عاش في عصر الاسطخري ونقّح كتابه وجدّده .

— ابن الجَوْزِي (١٢٠١ م / ٥٩٧ هـ) : الذي صَنَّف نحو ثلاث مئة كتاب منها : « مختصر السَّيَر والآثار » و « المدهش » في التاريخ، و « تبصرة الاخبار » في نيل مصر وأنهارها .

— ياقوت الحَمَوِيَّ (١٢٢٨ م / ٥٢٦ هـ) : وهو من أئمة المؤرخين والجغرافيين . كان رومي الاصل، وقد أُسر في صغره وعاش مولى في بغداد . ولما أعتق اشتغل بالتجارة، ثم رحل الى مَرُو بخراسان، ومنها انتقل الى خوارزم فالموصل فحلب حيث ادركته الوفاة . له كتاب « معجم البلدان » في الجغرافية، و « المبدأ والمآل » في التاريخ، و « إرشاد الاديب » أو « طبقات الادباء » في الادب . وقد كان ياقوت في معاجمه جامعاً وملخصاً لاقوال من سبقوه، اكثر مما كان مؤلفاً .



ابن سينا كما تخيله الفنان ارتورو اورتيس

٦ — الفلسفة

تدفقت على العرب سيول الفلسفة اليونانية، ولقيت الفلسفة نشجيعاً من بعض الخلفاء، فنبغ فيها أعلام مشهورون، منهم :

— يعقوب الكندي (نحو ٨٧٣ م / ٢٦٠ هـ) : له في الفلسفة « إلهيات أرسطو » ورسائل عدّة منها « رسالة في العقل » .

— ابو النصر الفارابي (٨٧٤ - ٩٥١ م / ٢٦٠ - ٣٣٩ هـ) : من آثاره : « المدينة الفاضلة » و « الابانة عن غرض ارسطاطاليس في كتاب ما بعد الطبيعة » و « رسائل الفارابي » .

— ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧ م / ٣٧٥ - ٤٢٨ هـ) : كان طبيباً حاذقاً وفيلسوفاً كبيراً . مؤلفاته تربو على المئة منها : « الاشارات والتنبيهات » في المنطق والحكمة، و « كتاب الشفاء » في الطب والفلسفة و « كتاب النجاة » وهو ملخص السابق .

— الغزالي (١٠٥٨ - ١١١١ م / ٤٥١ - ٥٠٥ هـ) : هو ركن من اركان الفلسفة الاسلامية، ولد في بلدة غزاة من اعمال طوس . تولى التدريس في المدرسة النظامية ببغداد، ثم اقام بدمشق عشرين سنة ثم بالاسكندرية وأخيراً في طوس حيث توفي . كان جلُّ هممه محاربة الفلسفة المتزندقة وترسيخ قواعد الدين . من مصنفاته : كتاب « إحياء علوم الدين » و « مقاصد الفلاسفة » و « تهافت الفلاسفة » و « معيار العلم في المنطق » و « المنقذ من الضلال » و « ميزان العلم » .

— اخوان الصفا (القرن العاشر) : لهم « رسائل اخوان الصفا » .

٧ — العلوم الطبيعية

قدّم العرب شوطاً بعيداً في الكيمياء، فاكتشفوا كثيراً من المركّبات ووصفوا التقطير والترشيح والتعصيد والتبلور والتذويب . ودرسوا خصائص النبات وانواعه واستخرجوا العقاقير والادوية، وخطوا خطوة واسعة في الصيدلة والطب . ومن مشاهير اصحاب هذه العلوم فضلاً عن الذين ورد ذكرهم بين النقلة :

— ابن ماسويه (٨٥٧ م / ٢٤٣ هـ) : وله « نوادر الطب » و « الحميات » .

- ابن سهل (٨٦٩ م / ٢٥٥ هـ) : وله « كتاب الاقرباذين » و « قوى الاطعمة ومضارها ومنافعها » و « القول في النوم واليقظة » .



ابو بكر الرازي في معمله يشتغل بالكيمياء

- ابو بكر الرازي (٨٦٤ - ٩٢٥ م / ٢٥٠ - ٣١٣ هـ) : ولد في الري، وكان في حداثة مولعاً بالموسيقى والغناء . ولما كبر درس الطب والكيمياء فنبغ فيهما وتولى رئاسة اطباء البيمارستان ببغداد . ومات في مسقط رأسه . يعدّ الرازي بحق من اكبر اطباء العرب ان لم يكن اكبرهم . وكتابه « الحاوي » هو اوسع دائرة معارف طبية في اللغة العربية . فالرازي لم يكتفِ باتباع الاوائل ولكنه اعتمد ايضاً على التجريب والاختبار الشخصي فكان يتتبع بدقة تطور حالات المرض في الاعلاء، وهكذا تقدم علم الطب على يده . ألف اكثر من مئتي كتاب، منها، في الطب، كتاب « الحاوي » و « الطب المنصوري » و « كتاب الجديري

والحصىبة . وله ايضاً مصنفات في الرياضيات والفلك وعلم الحيل والفلسفة، وقد اكتشف في الكيمياء زيت الزاج (حامض الكبريت) والكحول التي استخرجها من مواد نشوية وسكرية مختمرة .



عرب يستقرون العقاقير الطبية في مارستان بغداد

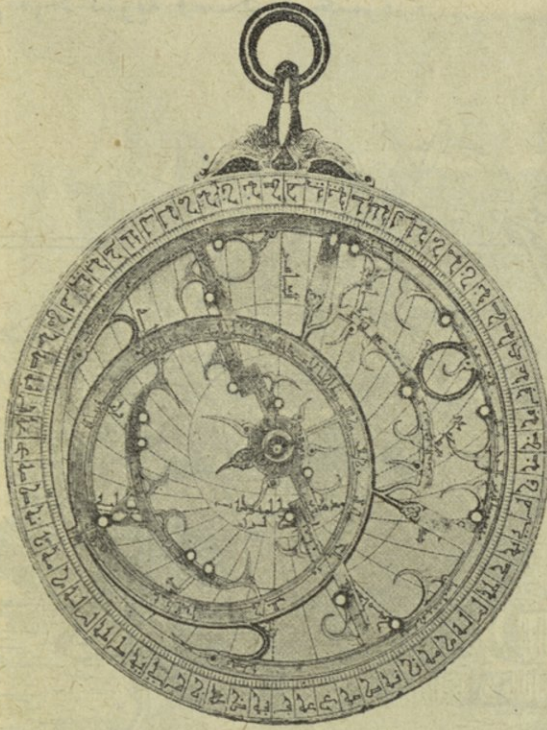
ولا بد هنا من ذكر ابن سينا الطبيب الفيلسوف، صاحب كتابي « القانون » و « الشفاء » . وقد قيل : « ان الطب كان معدوماً فأحياه جالينوس، وكان متفرقاً فجمعه الرازي، وكان ناقصاً فكمّله ابن سينا » .

٨ — العلوم الرياضية والفلكية

جميع العرب معارف الهند والفرس واليونان فألقوا في الجبر والهندسة والحساب والفلك . وبرع في هذه العلوم :

تاريخ الادب

— الخوارزمي (حوالي سنة ٨٤٤ م / ٢٣٠ هـ) : عاش في عهد
المأمون وكان متضلعا من الرياضيات والفلك والتاريخ والجغرافية . اخذ خصوصاً عن



اسطرلاب

الهنود والفرس . من اهم
مؤلفاته : « حساب الجبر والمقابلة »
الذي كان له أثر بليغ . وله
ايضاً زيج فلكي اعتمده العلماء
بعده ، وكتابان في الاسطرلاب ،
وكتاب « صورة الارض » .
فهو من ابرز علماء العرب ، إذ
وضع الجبر بشكل منطقي ،
وله فيه . وفي الحساب الجاث
مبتكرة ، وعرف الناس بالارقام
الهندية ، وكانت له دراسات
قيّمة في الفلك .

— ابو كامل شجاع بن اسلم : (اواخر القرن التاسع واول العاشر) وله
« كتاب الجمع والتفريق » في العمليات الاربع ، و « كتاب الكامل » في الجبر ،
و « كتاب المساحة والهندسة » .

— الكندي : (اواخر القرن التاسع) وُلد ونشأ في البصرة ، وكان عالماً
بالطب والفلسفة والحساب والهندسة والنجوم والاحان . من كتبه الرياضية : رسالة
في استعمال الحساب الهندسي ، ورسالة في استخراج مركز القمر من الارض ، و « كتاب
في البراهين المساحية » لما يعرض من الحسابات الفلكية .

— الدینوَرِي (٨٩٥ م / ٢٨٢ هـ) : وله « كتاب الجبر والمقابلة » ،
و « كتاب الانواء » وزيج .

— ابو العباس السَّرَخْسِي (٨٩٩ م / ٢٨٦ هـ) : له « المدخل الى صناعة
النجوم » و « كتاب الارثطقي » .

— موسى بن شاكر وبنوه : ظهر موسى في عهد المأمون ، واشتغل هو وبنوه
محمد واحد وحسن بالرياضيات والهيئة والفلسفة . وقيل انهم عرفوا الجاذبية العمومية ،



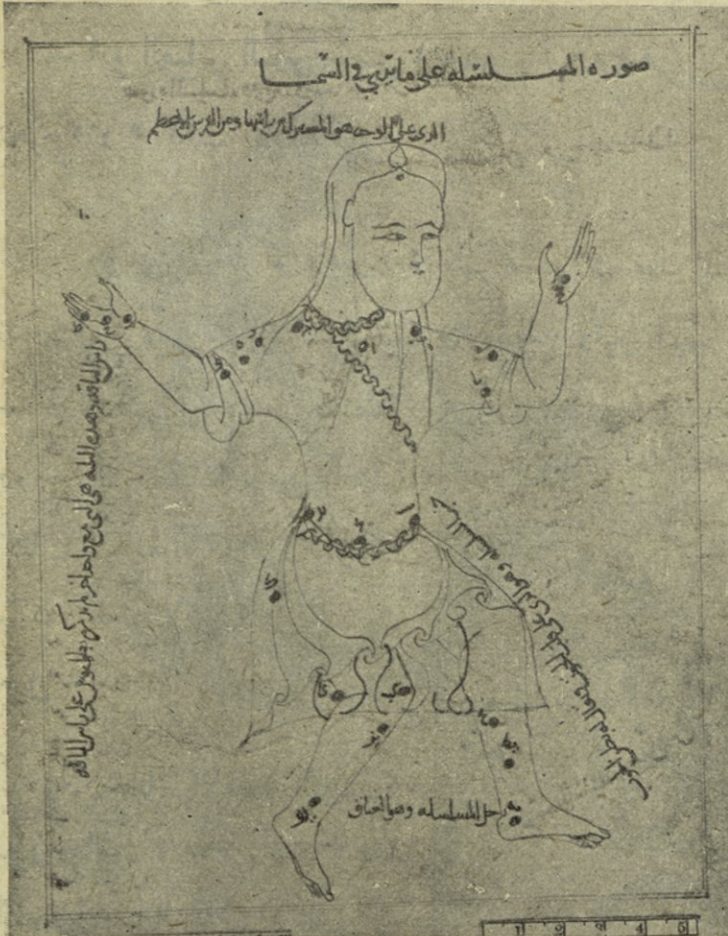
وحدّدوا ميل وسط منطقة
البروج « الإكبتيك » ومن تأليفهم
« كتاب مساحة الإكر » و « كتاب
حركة الفلك الاولى » و كتاب في
الحيل .

ومن علماء العصر التالية
البوزْجاني (٩٩٨ م / ٣٧٦ هـ)
والنيروزي والبتّاني (القرن
العاشر) والكوخِي وابن الهيثم
(في القرن الحادي عشر) . ولد
هذا الاخير في البصرة وكان ماهراً
في الهندسة والهيئة وعلم البصريات
الذي وصل بفضلهِ الى درجة عالية
من التقدم . له « كتاب المناظر
والبصريات » و « رسالة في الضوء »

صورة قنطورس والسبع على ما تُرى في الكُرة
رسالة في الابراج — عن مخطوط يرتقي الى ما قبل ١٤٣٧
لعبد الرحمن الصوفي (المكتبة الاهلية بباريس)

ومؤلفات أخرى في المساحة والشفق والفجر . ومن علماء القرن الثاني عشر اُخازن الذي وضع « ميزان الحكمة » وفيه بحوث مبتكرة في الهندساتيك . وبحث في الكثافة والجاذبية

ومراكز الاثقال .
وعمر الخيام الذي
اشتهر في الجبر واشتغل
في تعديل التقويم السنوي
للسلطان الملكشاه .
والاسطرلابي الذي
برع في صنع
الاسطرلابات . ومن
علماء القرن الثالث عشر
نصر الدين الطوسي
الذي بنى مرصد مراغة
المشهور بآلاته ومقدرة
راصديه . وله « كتاب
الشكل القطاع » في
المثلثات الذي نُقل الى
اللغات الاجنبية واخذ عنه علماء اوروبا .



احد رسوم كتاب البهان في التجيم
(عن مخطوط المكتبة البودليانية باسكفور)

الفنون



كان العصر العباسي من
أزهى عصور الادب، وقد
ظهر فيه ايضاً من انواع
الفنون البناء والموسيقى .
فلما تسلّم العباسيون زمام
الملك هدفوا الى مضاهاة
الملوك الاعاجم في بذخهم
وترفهم، فراحوا يشيدون
القصور الجميلة والمباني الشائقة،
ومن اشهر آثارهم قصر سامراً
الذي بناه المعتصم، والهاروني
والجوسق والجعفري التي بذل
المتوكل في بنائها مالا وفيراً،
وقصر الثريا الذي شيده
المعتضد . وبنوا البرك

رسم من كتاب « آثار النجوم » للصوفي
(عن مخطوط المكتبة البودليانية باكسفورد)

والاحواض، تحتال عليها اشجار من الذهب والفضة، تكلل غصونها الجواهر، وتجم
عليها الطيور، وتقوم حولها القائيل، كما فعل المقتدر .

ونقل العرب فيما نقلوا من العلوم كتباً في الموسيقى، فأصبح هذا الفن ذا اصول
وضوابط محكمة . وكانت الموسيقى العربية تمزج بين الحان العرب واليونان والهنود
والفرس، فاستنبطت ألحان جديدة واختُرعت آلات جديدة وألفت الكتب وبلغ
العرب درجة سامية من اتقان هذا الفن والبراعة فيه .

ومن أشهر المغنين اسحاق بن ابراهيم الموصلي . ثم قام ابراهيم المهدي أخو الرشيد ووجد في الموسيقى فصارت له طريقة دُعيت « بالغناء الحديث » وسَمَّوا طريقة اسحاق « الطريقة القديمة » . من أجل الكتب التي وُضعت في هذا الفن كتاب « الآداب الرفيعة » لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر، و « كتاب الموسيقى » للفارابي مخترع القانون . وقد ذكر الاصبهاني كثيراً من قواعد هذا الفن واخبار اصحابه في كتاب « الاغاني » .

وشاع كذلك في العهد العباسي فن الرسم والزخرفة والنقش مما لا تزال آثاره باقية الى اليوم تنطق بما بلغته تلك العصور من الرقي والحضارة .



صفحة مزخرفة من القرن التاسع (الفن الفارسي)

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي (الجزء ان الثالث والخامس) - القاهرة ١٩٠٢
- » : تاريخ آداب اللغة العربية (الجزء ان الثاني والثالث) - القاهرة ١٩٣١
- خير الدين الزركلي : الاعلام - القاهرة ١٩٢٨
- أحمد امين : ضحى الاسلام - القاهرة ١٩٣٨ و ١٩٤١
- أحمد فريد رفاعي : عصر المأمون - القاهرة ١٩٢٧
- أبو سعيد الحسن بن عبدالله السيراقي : أخبار النحويين البصريين - بيروت ١٩٣٦
- زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى - القاهرة ١٩٤٥
- أعلام المقتطف، الجزء الثاني : الرواد - ص ٣٦ وما يليها - القاهرة ١٩٢٧
- قدري حافظ طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك - هدية المقتطف - القاهرة ١٩٤١
- محمود احمد الحفني : مقدمة كتاب مؤتمر الموسيقى العربية - القاهرة ١٩٣٤

٢ المراجع الاجنبية :

- Encycl. de l'Islam.
- Le Bon* : La Civilisation des arabes, Paris 1868.
- Karl Sudhof* : Beitrage zur geschichte der chirurgie in Mittelalter, Leipzig 1918.
- Edward G. Browne* : La Médecine arabe — traduction française par H. P. J. Renaud, Paris 1933.
- T. J. de Boer* : The History of Philosophy in Islam, London 1903.
- G. Marçais* : L'Art de l'Islam, Paris 1946.
- H. G. Farmer* : History of arabian Music, London 1929.

1922

1921

1920

1919

1918

1917

1916

1915

1914

1913

1912

1911

1910

1909

1908

1907

1906

1905

1904

1903

1902

1901

1900

1899

1898

1897

1896

1895

1894

1893

1892

1891

1890

1889

1888

1887

1886

1885

1884

1883

1882

1881

1880

1879

1878

1877

1876

1875

1874

1873

1872

1871

1870

1869

1868

1867

1866

1865

1864

1863

1862

1861

1860

1859

1858

1857

1856

1855

1854

1853

1852

1851

1850

1849

1848

1847

1846

1845

1844

1843

1842

1841

1840

1839

1838

1837

1836

1835

1834

1833

1832

1831

1830

1829

1828

1827

1826

1825

1824

1823

1822

1821

1820

1819

1818

1817

1816

1815

1814

1813

1812

1811

1810

1809

1808

1807

1806

1805

1804

1803

1802

1801

1800

1799

1798

1797

1796

1795

1794

1793

1792

1791

1790

1789

1788

1787

1786

1785

1784

1783

1782

1781

1780

1779

1778

1777

1776

1775

1774

1773

1772

1771

1770

1769

1768

1767

1766

1765

1764

1763

1762

1761

1760

1759

1758

1757

1756

1755

1754

1753

1752

1751

1750

1749

1748

1747

1746

1745

1744

1743

1742

1741

1740

1739

1738

1737

1736

1735

1734

1733

1732

1731

1730

1729

1728

1727

1726

1725

1724

1723

1722

1721

1720

1719

1718

1717

1716

1715

1714

1713

1712

1711

1710

1709

1708

1707

1706

1705

1704

1703

1702

1701

1700

1699

1698

1697

1696

1695

1694

1693

1692

1691

1690

1689

1688

1687

1686

1685

1684

1683

1682

1681

1680

1679

1678

1677

1676

1675

1674

1673

1672

1671

1670

1669

1668

1667

1666

1665

1664

1663

1662

1661

1660

1659

1658

1657

1656

1655

1654

1653

1652

1651

1650

1649

1648

1647

1646

1645

1644

1643

1642

1641

1640

1639

1638

1637

1636

1635

1634

1633

1632

1631

1630

1629

1628

1627

1626

1625

1624

1623

1622

1621

1620

1619

1618

1617

1616

1615

1614

1613

1612

1611

1610

1609

1608

1607

1606

1605

1604

1603

1602

1601

1600

1599

1598

1597

1596

1595

1594

1593

1592

1591

1590

1589

1588

1587

1586

1585

1584

1583

1582

1581

1580

1579

1578

1577

1576

1575

1574

1573

1572

1571

1570

1569

1568

1567

1566

1565

1564

1563

1562

1561

1560

1559

1558

1557

1556

1555

1554

1553

1552

1551

1550

1549

1548

1547

1546

1545

1544

1543

1542

1541

1540

1539

1538

1537

1536

1535

1534

1533

1532

1531

1530

1529

1528

1527

1526

1525

1524

1523

1522

1521

1520

1519

1518

1517

1516

1515

1514

1513

1512

1511

1510

1509

1508

1507

1506

1505

1504

1503

1502

1501

1500

1499

1498

1497

1496

1495

1494

1493

1492

1491

1490

1489

1488

1487

1486

1485

1484

1483

1482

1481

1480

1479

1478

1477

1476

1475

1474

1473

1472

1471

1470

1469

1468

1467

1466

1465

1464

1463

1462

1461

1460

1459

1458

1457

1456

1455

1454

1453

1452

1451

1450

1449

1448

1447

1446

1445

1444

1443

1442

1441

1440

1439

1438

1437

1436

1435

1434

1433

1432

1431

1430

1429

1428

1427

1426

1425

1424

1423

1422

1421

1420

1419

1418

1417

1416

1415

1414

1413

1412

1411

1410

1409

1408

1407

1406

1405

1404

1403

1402

1401

1400

1399

1398

1397

1396

1395

1394

1393

1392

1391

1390

1389

1388

1387

1386

1385

1384

1383

1382

1381

1380

1379

1378

1377

1376

1375

1374

1373

1372

1371

1370

1369

1368

1367

1366

1365

1364

1363

1362

1361

1360

1359

1358

1357

1356

1355

1354

1353

1352

1351

1350

1349

1348

1347

1346

1345

1344

1343

1342

1341

1340

1339

1338

1337

1336

1335

1334

1333

1332

1331

1330

1329

1328

1327

1326

1325

1324

1323

1322

1321

1320

1319

1318

1317

1316

1315

1314

1313

1312

1311

1310

1309

1308

1307

1306

1305

1304

1303

1302

1301

1300

1299

1298

1297

1296

1295

1294

1293

1292

1291

1290

1289

1288

1287

1286

1285

1284

1283

1282

1281

1280

1279

1278

1277

1276

1275

1274

1273

1272

1271

1270

1269

1268

1267

1266

1265

1264

1263

1262

1261

1260

1259

1258

1257

1256

1255

1254

1253

1252

1251

1250

1249

1248

1247

1246

1245

1244

1243

1242

1241

1240

1239

1238

1237

1236

1235

1234

1233

1232

1231

1230

1229

1228

1227

1226

1225

1224

1223

1222

1221

1220

1219

1218

1217

1216

1215

1214

1213

1212

1211

1210

1209

1208

1207

1206

1205

1204

1203

1202

1201

1200

1199

1198

1197

1196

1195

1194

1193

1192

1191

1190

1189

1188

1187

1186

1185

1184

1183

1182

1181

1180

1179

1178

1177

1176

1175

1174

1173

1172

1171

1170

1169

1168

1167

1166

1165

1164

1163

1162

1161

1160

1159

1158

1157

1156

1155

1154

1153

1152

1151

1150

1149

1148

1147

1146

1145

1144

1143

1142

1141

1140

1139

1138

1137

1136

1135

1134

1133

1132

1131

1130

1129

1128

1127

1126

1125

1124

1123

1122

1121

1120

1119

1118

1117

1116

1115

1114

1113

1112

1111

1110

1109

1108

1107

1106

1105

1104

1103

1102

1101

1100

1099

1098

1097

1096

1095

1094

1093

1092

1091

1090

1089

1088

1087

1086

1085

1084

1083

1082

1081

1080

1079

1078

1077

1076

1075

1074

1073

1072

1071

1070

1069

1068

1067

1066

1065

1064

1063

1062

1061

1060

1059

1058

1057

1056

1055

1054

1053

1052

1051

1050

1049

1048

1047

1046

1045

1044

1043

1042

1041

1040

1039

1038

1037

1036

1035

1034

1033

1032

1031

1030

1029

1028

1027

1026

1025

1024

1023

1022

1021

1020

1019

1018

1017

1016

1015

1014

1013

1012

1011

1010

1009

1008

1007

1006

1005

1004

1003

1002

1001

1000

999

998

997

996

995

994

993

992

991

990

989

988

987

986

985

984

983

982

981

980

979

978

977

976

975

974

973

972

971

970

969

968

967

966

965

964

963

962

961

960

959

958

957

956

955

954

953

952

951

950

949

948

947

946

945

944

943

942

941

940

939

938

937

936

935

934

933

932

931

930

929

928

927

926

925

924

923

922

921

920

919

918

917

916

915

914

913

912

911

910

909

908

907

906

905

904

903

902

901

900

899

898

897

896

895

894

893

892

891

890

889

888

887

886

885

884

883

882

881

880

879

878

877

876

875

874

873

872

871

870

869

868

867

866

865

864

863

862

861

860

859

858

857

856

855

854

853

852

851

850

849

848

847

846

845

844

843

842

841

840

839

838

837

836

835

834

833

832

831

830

829

828

827

826

825

824

823

822

821

820

819

818

817

816

815

814

813

812

811

810

809

808

807

806

805

804

803

802

801

800

799

798

797

796

795

794

793

792

791

790

789

788

787

786

785

784

783

782

781

780

779

778

777

776

775

774

773

772

771

770

769

768

767

766

765

764

763

762

761

760

759

758

757

756

755

754

753

752

751

750

749

748

747

746

745

744

743

742

741

740

739

738

737

736

735

734

733

732

731

730

729

728

727

726

725

724

723

722

721

720

719

718

717

716

715

714

713

712

711

710

709

708

707

706

705

704

703

702

701

700

699

698

697

696

695

694

693

692

691

690

689

688

687

686

685

684

683

682

681

680

679

678

677

676

675

674

673

672

671

670

669

668

667

666

665

664

663

662

661

660

659

658

657

656

655

654

653

652

651

650

649

648

647

646

645

644

643

642

641

640

639

638

637

636

635

634

633

632

631

630

629

628

627

626

625

624

623

622

621

620

619

618

617

616

615

614

613

612

611

610

609

608

607

606

605

604

603

602

601

600

599

598

597

596

595

594

593

592

591

590

589

588

587

586

585

584

583

582

581

580

579

578

577

576

575

574

573

572

571

570

569

568

567

566

565

564

563

562

561

560

559

558

557

556

555

554

553

552

551

550

549

548

547

546

545

544

543

542

541

540

539

538

537

536

535

534

533

532

531

530

529

528

527

526

525

524

523

522

521

520

519

518

517

516

515

514

513

512

511

510

509

508

507

506

505

504

503

502

501

500

499

498

497

496

495

494

49

العهد العباسي

٢

العهد العباسي في الغرب

الأدب الأندلسي

٧١٠ - ١٤٩٢ م / ٩١ - ٨٩٧ هـ

— الفتح وأثره في الحياة والثقافة

— الأدب الأندلسي :

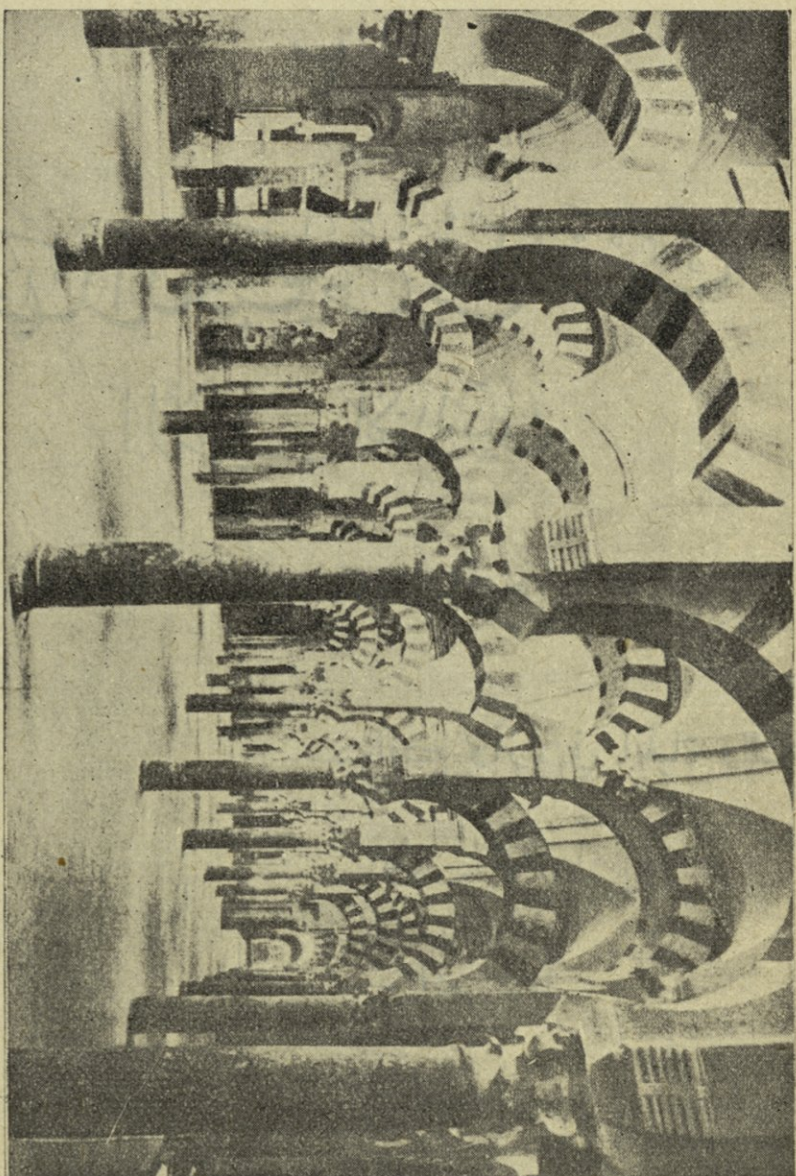
— الشعر عموماً

— الموشحات

— النثر الفني

— مشاهير الأدباء

— العلوم والفنون



جامع قرطبة - من الداخل
 بُدِيَءَ بِنْتَيْدِهِ سَنَةَ ٧٨٥ وَلَمْ يَنْتَهَ تَشْيِيدُهُ قَاطِبًا إِلَّا بَعْدَ ٢٠٠ سَنَةٍ

الباب الاول

الفتح وأثره في الحياة والثقافة

١ الفتح وتوابعه : أطلق العرب اسم الأندلس على البلاد التي افتتحوها في جزيرة إيبيرية . ولقد تم ذلك الفتح على يد موسى بن نصير والي المغرب ومولاه طارق ابن زياد . فبعد ان ظهر العرب على الملك لذريق تغلغلوا في البلاد واحتلوا اهم مدنها . وتتابع على حكمها الولاة ثم الخلفاء الأمويون وملوك الطوائف والمرابطون والموحدين . وانتهى الحكم العربي في الأندلس بسقوط غرناطة قاعدة بني الأحمر في حوزة فردينان الخامس (١٤٩٢م / ١٤٩٧هـ) .

٢ البيئة الجديدة :

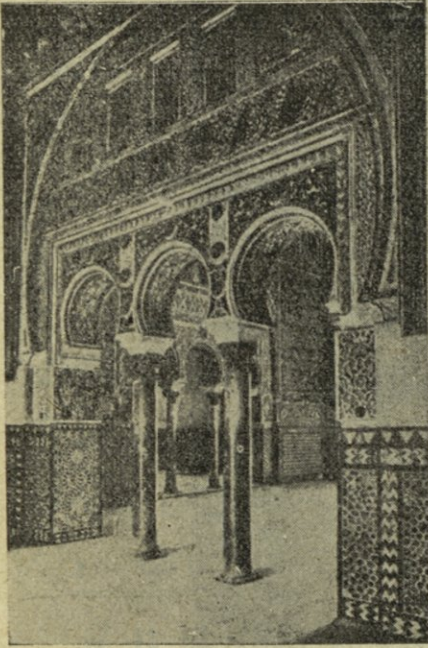
- ١ - البيئة الاقتصادية : كانت اقتصاديات الأندلس زاهرة لحصص الارض وتقدم العمران .
- ٢ - البيئة الاجتماعية : كونها عاملان : اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب ، ورغبتهم في محاكاة الشرق . وقد شاع الترف والغناء واللهو .
- ٣ - البيئة الثقافية : ازدهر الأدب والعلوم بسبب تشجيع الأمراء وتنافسهم ، وانشاء المكاتب والمدارس . ولكن الفلسفة لم تنل قسطها الكافي من التأييد فقل إنتاجها .
- ٤ - البيئة السياسية : حروب لرد هجمات الأعداء - فتن داخلية .

٣ اثر الحياة الجديدة في الأدب الأندلسي : ظهر في الاندلس جبهة من الشعراء والكتاب - وكان للادب فيها ميزات لا يُستهان بها - غير ان الأندلسيين لم يجيدوا كثيراً عن اساليب الادب الشرقي في ما خلا الموشحات .

١ الفتح وتوابعه : ان اسم الاندلس مشتق في الأرجح ، من كلمة فندال . والفندال هم قبائل غزت بلاد إسبانية في القرن الخامس للميلاد . واطلق اسمهم على الاقليم الذي احتلوه فيها . ولما دخل العرب اسبانية

أطلقوا ذلك الاسم على جميع البلاد التي وقعت في حوزتهم . اما حدود الاندلس فهي من الشمال الجبل الحاجز او الفاصل، ومن الغرب بحر الظلمات او البحر الغربي، ومن الشرق بحر الروم او البحر الشرقي، ومن الجنوب بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) .

اجتاح القوط الغربيون اسبانية في اوائل القرن الخامس، وأسسوا فيها دولة جعلوا عاصمتها مدينة طليطلة . وكانت البلاد قبيل الفتح العربي على أسوأ حال لما كان فيها من التنافر بين عناصر الشعب المختلفة، والضرائب الباهظة الملقاة على عاتق الامة، واستبداد الموسرين بالفلاحين، وتضعف السلطة . وكان العرب قد استولوا على شمالي افريقية فطمحت نفوسهم الى غزو الاندلس لمعرفة لمعرفتهم بخصبها وغناها .



قصر إشبيلية المشيد نحو سنة ١٣٤٥ م

فاستأذن موسى بن نصير الوليد بذلك فأذن له . فسير مولاه طارق بن زياد على رأس جيش دحر قوات لذريق في معركة وادي بكة سنة ٧١١ وتغلغل في البلاد . ولحق موسى بطارق وواصل الفتوحات، الى ان جاء امر من الوليد يدعو موسى اليه . فسافر موسى بعد ان خلف مكانه ابنه عبد العزيز وجعل مقره في إشبيلية . وتداول الحكم في الاندلس ولاية كثيرون مختلفون، وما زال العرب يغالبون جيوش الشمال الاسبانية الساعية الى استرداد البلاد حتى خانهم الحظ فسقطت غرناطة، آخر قواعدهم، في يد فردينان الخامس سنة ١٤٩٢ م / ٨٩٧ هـ .

٢ البيئة الجبرية :

١ - البيئة الاقتصادية : كانت الاندلس من انصر البقاع الاسلامية،

(١) هذه أهم السلالات التي تولت الحكم في الأندلس :
- عهد الولاة (٧١٠-٧٥٥ م) / ٩٢-١٣٨ هـ) ابتداء بطارق وانتهى بيوسف بن عبد الرحمن الفهري .

لجوتها معتدل، وأرضها خصبة، ومياهها غزيرة، وسهولها خضراء ترعى فيها الانعام. يحرثها الفلاحون ويستدرّها اصحاب المزارع فتمتج لهم انواع الحبوب والثمار والفواكه. فأفاض المؤرخون في وصفها وأغرم الشعراء بحسنها. قال ابن سعيد: «ميزان وصف الاندلس انها جزيرة قد احدثت بها البحار فأكثر فيها الخصب والعمارة من كل جهة. فتي سافرت من مدينة الى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع». وقال ابن أليسع انه «لا يتزوّد فيها احد ما حيث سلك لكثرة انهارها وعيونها، وربما لقي المسافر فيها اليوم الواحد اربع مدائن ومن المعامل والقرى ما لا يحصى، وهي بطاح خضر وقصور بيض». اما صوت الشعراء فنسمع صدها في قول ابن خفاجة:

- العهد الأموي (٧٥٥ - ١٠٣٠ م / ١٣٨ - ٤٢٢ هـ) افتتحه عبد الرحمان الأول، صقر قریش، وانتهى بهشام بن محمد.

- ملوك الطوائف (١٠١٢ - ١١٤١ م / ٤٠٣ - ٥٦٣ هـ)

- الدولة الزييرية (١٠١٥ - ١٠٩٠) في غرناطة.

- الدولة الحمودية (١٠٣٥ - ١٠٥٧) في مالقة.

- الدولة الهودية (١٠٣٩ - ١١١٠) في سرقسطة.

- الدولة العامرية (١٠٢١ - ١٠٦٥) في بلنسية.

- الدولة العبّادية (١٠٢٣ - ١٠٩١) في إشبيلية.

- دولة بني الأفطس (١٠٢٢ - ١٠٩٢) في بطليوس.

- الدولة الجهورية (١٠٣١ - ١٠٧٠) في قرطبة.

- دولة ذي النون (١٠٣٦ - ١٠٨٥) في طليطلة.

- دولة المرابطين (١٠٥٦ - ١١٤٦ م / ٤٤٨ - ٥٤١ هـ) أسسها يوسف بن تاشفين.

- دولة الموحدين (١١٢٩ - ١٢٦٨ م / ٥٢٤ - ٦٦٧ هـ) أنشأها محمد بن تومرت.

- دولة بني الأحمر (١٢٣١ - ١٤٩١ م / ٦٢٩ - ٨٩٧ هـ) في غرناطة.

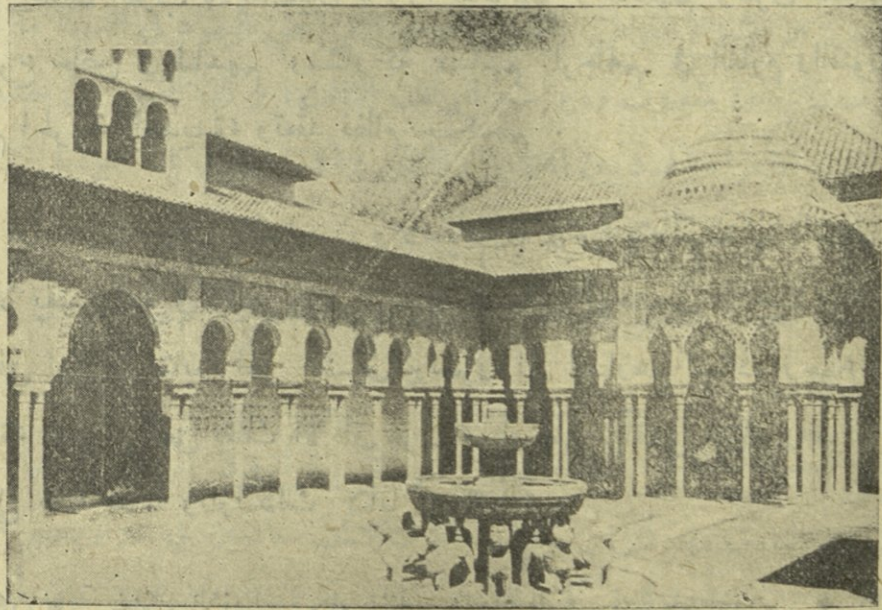
يا أَهْلَ أَنْدَلُسِ اللهُ دَرُّكُمْ ماءٌ وظِلُّهُ وَأَنْهَارُهُ وَأَشْجارُهُ
ما جَنَّةُ الْخُلْدِ إِلَّا فِي دِيَارِكُمْ ولو تَخَيَّرْتُ هَذَا كُنْتُ أَخْتَارُ



غرناطة : جَنَّةُ الْعَرِيفِ ، مَصِيفُ مَلُوكِ غرناطة

وكانت الحركة التجارية واسعة النطاق بالرغم من اكفهرار الجو السياسي بالحروب والثورات، وذلك لان الاندلس كانت بحكم طبيعتها وبحكم الفتح العربي حلقة وصل بين العالم العربي والعالم الاوربي . فالتجّار - واكثرهم من اليهود المستعربين - كانوا يجوبون الاقطار لاستجلاب البضائع والسلع وبيعها في الاسواق .

وانتشرت معامل الزجاج والورق والرق والحياكة ودكاكين الصيّاغ وغيرهم من ذوي الصناعات . وعمل الخلفاء والامراء بدافع المنافسة على تشييد المدن العامرة والقصور الفخمة والمساجد والحمامات والبرك والاحواض والجسور وغير ذلك مما بقيت آثاره حتى اليوم . وحسبنا شاهداً على المدى البعيد الذي بلغوه في هذا المضمار القصر الكبير والمسجد وقصر الزهراء وقصر الزاهرة في قرطبة ، وقصر إشبيلية وقصر الحمراء في غرناطة وفيه بركة السباع التي تقذف المياه من افواهها . فلا



غرناطة : الحمراء - ساحة السباع (القرن الرابع عشر)

غرابة ان يُعجب الشعراء بهذه الآيات الفنية فتسيل نفوسهم تأوهات حارة عندما تقوضها الفتن والغزوات فلا يبقى منها سوى أطلال .

وخلاصة القول ان اهل الاندلس كانوا في بجموحة من العيش فظهر ذلك الترف في حياتهم الفردية وتجلّى في ملابسهم وأطيابهم والتأنق في مآكلهم، كما تجلّى في مجالس انسهم وهوهم .

٢ - البيئة الاجتماعية : اما البيئة الاجتماعية فقد كوّنوها عاملان، اولها اختلاط العرب بالشعوب الاخرى في الاندلس وسواها، وثانيها الرغبة في محاكاة المشرق .

إن طبيعة الاندلس الجذابة أغرت الناس فأموها منذ العصور القديمة . فنزلها النكّلت والبسك والجلالقة، ونزلها البرابرة والقرطاجنيون، واستولى عليها الرومان والفنّندال والقوط فالعرب . فتكوّن من ذلك التمازج بين عناصر الشعوب المتنوعة الرجل الاندلسي بطابعه الخاص الذي يميّزه عن غيره .

ولما احتك العرب بالاندلسيين تأثروا بعاداتهم وأخلاقهم وطرق عيشهم وظهر ذلك بنوع خاص في لباسهم ومشاركة نسائهم لرجالهم في العلوم والفنون، وفي اساليبهم الحربية الجديدة، وتعمّد نظام حكمهم .

إلا ان العرب وهم المقتتحون والاسياد ما برحوا يتطلّعون الى الشرق ويرون فيه مثلاً يقتدى به في جميع نواحي الحياة . حتى قال صاحب الذخيرة : « إن اهل هذا الافق ابوا إلا متابعة اهل المشرق يرجعون الى اخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتادة، حتى لو نعت بتلك الافاق غراب، او طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لجشّوا على هذا صنماً وتلوا ذلك كتاباً مُحْكَمًا » .

وكان همّ خلفاء الاندلس وامراتها مضاهاة العباسيين ومنافستهم في كل شيء . ومن مظاهر هذا التقليد انهم كانوا يُسمّون مدّتهم وشعراءهم وخلفاءهم باسماء مدن الشرق وشعرائه وخلفائه . فيدعون غرناطة دمشق، وإشبيلية حمص . . . ويلقبون أبا غالب الاندلسي بأبي تمام، وابن زيدون بالبحثري، وابن هاني بالمتنبي، ونزى بين امراء الطوائف الرشيد والمأمون والمتوكل والناصر وغيرهم .

وكانت العلاقات وثيقة بين طرفي العالم العربي، والرحالة الكثيرون يذهبون الى الشرق للتزود بعلمه، ويأتون الى الاندلس طلباً للرزق او الشهرة . فوفد زرياب المغني تلميذ اسحاق الموصلي الى الاندلس عام ٨٢٢ وكان له أثر بليغ في فن الغناء والموسيقى، بل تعدى ذلك الى نواحي أخرى اذ سنّ لهم قواعد للطعام والشراب والزينة والاستقبال وأصبح بينهم حكماً للذوق والظرافة . وجلبت المغنيات من الشرق فحلت معها الى الاندلس فتنها وأديها . ومن اشهر هؤلاء القيان قمر البغدادية وفضل وعلم وقلم المدنيات .

وهكذا كانت حياة العرب الاجتماعية في الاندلس مزيجاً من حياة الاندلسيين وحياة المشرقيين . وقد شاع فيها الترف واللهو والغناء شيوعاً عظيماً .

اما الناحية الدينية فقد ترك فيها للمسيحيين حرية القيام بشعائر دينهم، وكان لهم كنائسهم واديّارهم ورؤساء روجيون يوافق الحكماء على اختيارهم ، وكان لهم شرع خاص هو الشرع القوطي القديم . وقد بلغ بعض اليهود في الدولة متزلة رفيعة فكان حسداي بن شهروت وزير عبد الرحمن الثالث، وكان الفضل بن حسداي من المقربين لدى الأمراء اليهوديين المقتدر والمؤمن والمستعين، وكان صموئيل بن نغريلة وابنه يوسف وزيري الزيديين في غرناطة .

ولكن تعصب البعض قد ضيق الخناق على الفلسفة فأُتهم أصحابها بالزندقة وأُحرقت كتبهم .

٣ - البيئة الثقافية: كانت اللغة العربية لغة البلاد الرسمية يحميها الأمراء ويسعون الى التفوق على أقرانهم بالاستعانة بكتّاب حاذقين في دواوينهم . وقد أنشئت في البلاد معاهد للعلم كثيرة . ويروى عن الحكم المستنصر بالله أنه أسس في قرطبة وحدها سبعة وعشرين مدرسة . واهتم الأمراء بحشد الكتب وأرسلوا البعثات الى الشرق لاقتناء النفيس منها، حتى جمعت الخزانة الملكية في قرطبة نحواً من اربع مئة ألف مجلد، واستعملوا الخدّاق في النسخ والضبط والتجليد، ووزعوا عليهم المال ليحافظوا على أوعية العلم هذه . وكان البادى بهذه الحركة المباركة

الخليفة الناصر وابنه الحكم^١ . فأقبل الناس ينهلون العلم والادب حتى كثّر فيهم سواد المثقفين . قال دوزي في كتابه تاريخ مسلمي إسبانية : « ان إسبانية المسألة كادت كلها تقرأ وتكتب على حين ان الطبقة الرفيعة في أوربة المسيحية لم تكن كذلك ، اذا استثنينا رجال الدين » .

أما مراكز الإشعاع العقلي فكانت العواصم الكبرى حيث تكثر المدارس ويتوافد الشعراء والكتّاب ، وأهمها قرطبة وإشبيلية وغرناطة وطليطلة . وهكذا راج الادب العربي وراجت العلوم بأنواعها في اسبانية ، ولكن الفلسفة كادت تصاب بالعقم ، لماواة المغالين في الدين لها وهي في عرفهم زندقة وخطر يهدّد الدين . ولهذا لم تظهر إلا في عصر متأخر واول فيلسوف عرف هو ابن باجة وقد تُوفي عام ١١٣٨ .

٤ - البيئة السياسية : لا نغالي إذا قلنا ان حياة العرب في الأندلس كانت حياة جهاد وفتن . فبعد زمن الفتوحات أرغموا على متابعة الحروب لردّ هجوم أعدائهم الشماليين الذين عقدوا النية على استرجاع بلادهم . فنشب بينهم وبين الفرنجة ، على ما أحصى المؤرخون ، ثلاثة آلاف وسبع مئة واقعة . وبعد انبعاث الفتنة ، في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي ، بقتل منصور ابن ابي عامر الذي جعل نفسه ولي عهد الخليفة ، تتابعت على البلاد سلسلة انقلابات سياسية وعمّها داء الانقسام .

٣ أثر الحياة الجبرية في الادب الاندلسي : ترح الادب العربي الى الاندلس فظهرت فيه آثار البيئة الجديدة

بما فيها من سحر الجمال الطبيعي ، والتمازج بين الشعوب ، والثقافة العالية . فنبع جمهرة من الشعراء والكتّاب خلفوا للأدب تراثاً لا يستهان به . وأشهرهم ابن عبد ربّه ،

(١) ومما يروى عن الحكم انه بحث يسأل أبا فرج الاصبهاني ان يرسل له نسخة من كتابه « الأغاني » ، قبل ان يُهدى الى ملوك الشرق ، تلقاء ألف دينار من الذهب العين .

وابن هانيء، وابن شهيد، وابن زيدون، وابن حمديس الصقلي، وابن خفاجة، وابن سهل الاسرائيلي، ولسان الدين بن الخطيب . واكن سُنة التقليد والرغبة في اقتفاء آثار المشرق جنباً على الاندلسيين فلم يحيدوا كثيراً عن الاساليب التي عهدناها في العصر الاموي والعصر العباسي اللهم الا في ما ابتدعوه من الموشحات . واننا سنوضح كل ذلك في كلامنا الآتي على الادب الاندلسي .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- فكتور ملحم البستاني : العرب في الاندلس والموشحات - جونه ١٩٥٠
جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي - الجزء الخامس - القاهرة ١٩٣٤
شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي - القاهرة ١٩٤٦
ج. ب. ترند J. B. Trend : اسبانيا والبرتغال - في كتاب تراث الاسلام - الجزء الاول - القاهرة ١٩٣٦ - ص ١ - ٧٩

٢ المراجع الاجنبية :

- C. F. Seybold : Andalus, in Encycl. de l'Islam. t. I, 354-357.
Henri Pérès : La poésie andalouse en arabe classique au XI^e siècle. Paris, 1937.
E. Lévi-Provençal : La civilisation arabe en Espagne. Paris, 1948.
C. Brockelmann : Histoire des Peuples et des États islamiques. Paris, 1949.
R. Dozy : Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne, t. I, Paris, 1881.

الباب الثاني

الأدب الأندلسي

الفصل الأول

الشعر الأندلسي

١ تطور الشعر الأندلسي :

١ - شعر التقليد : في العهد الأموي - يظهر ذلك عند ابن عبد ربته، وابن هاني، وابن شهيد...

٢ - بدء التحرر : في القرن الحادي عشر (الخامس للهجرة) - تتمثل تلك النزعة في شعر ابن زيدون، وابن عمار، والمعتد بن عبّاد...

٣ - شعر التجديد : في القرن الثاني عشر (السادس للهجرة) - شعر يمثل البيئة كما نجده عند ابن حمديس، وابن عبدون، وابن خفاجة، ولسان الدين بن الخطيب...

٢ اغراضه وفنونه : هي نفس الاغراض التي وجدناها قبلاً من مدح ورثاء، وهجاء... توسع في الوصف، ورثاء الممالك البائدة، والشكوى والاستنجد ونظم العلوم والفنون.

٣ الشعر الأندلسي والشعر العباسي : الشعر الأندلسي شديد الشبه بالشعر العباسي : ظهر التجديد في الغزل والمجون والخمر ووصف الطبيعة والعمران، وبقي التقليد مسيطراً على الابواب الاخرى.

- معاني الاندلسيين دون معاني المشارقة عمقاً .

- خيال الاندلسيين اكثر اصباحاً من خيال المشارقة، يتجلى في صور برّاقة نابضة بالحياة، وكلام كثير التصنع لا يخلو من ميوعة .

- لغة الاندلسيين دون لغة المشارقة متانة . فهي لغة سهلة وغير محكمة البناء في مجملها .

- اوزان الاندلسيين الشعرية موسيقية في اكثرها، وقد خرجت في قسم منها عمّا عهدناه عند العرب، ويبدو ذلك في الموشحات .

١ تطور الشعر الاندلسي : تطور الشعر الاندلسي، كما تطور الشعر العباسي، من التقليد الى التجديد، وذلك بدافع عوامل متماثلة، وبيئة جديدة كان لا بد لها ان تصنع الادب بلون خاص، لان الادب هو مرآة حياة الامة .

دخل العرب الاندلس وكان بينهم الشامي والعراقي والمصري، فعاشوا في بيئتهم الجديدة، في عهد الولاة والامويين، كغرباء، لهم تقاليدهم الخاصة لا يجيدون عنها، وشعرهم الخاص، يصوغونه على غرار الشعر الذي تعلموه في الشرق، فلم تُنسبهم الاندلس بلاد الشام، وكانوا في جميع مظاهر حياتهم محافظين على التراث القديم . ولنا مثال على هذه النزعة في حنين عبد الرحمن الداخل الى وطنه، وتحميله الركبان اشواقه، وحسبان نفسه غريباً في الاندلس . أبصر يوماً نخلة فأثارت شجونه وأنشد:

نشأت بأرض أنت فيها غريبة^١ فثلكت في الإقصاء والمُنتأى مثلي

وبقيت هذه الظاهرة التقليدية الى اوائل القرن الحادي عشر الميلادي، فبدت في شعر ابن عبد ربّه، وابن هانئ، وابن شهيد، وابن درّاج القسطلي وغيرهم من شعراء هذه الحقبة . فاسلوبهم ومعانيهم شرقية اموية في اكثرها . فإذا مدحوا غنوا بالاستهلال، والتموا الغزل، ووصفوا الفلاة والناقة والجواد ولفح الهواجر، وحنّوا الى البادية، وان لم يستفيضوا في ذلك . ومن امثال ذلك قصيدة لابن درّاج يمدح بها الحاجب المنصور بن ابي عامر، ويعارض رائية ابي نواس في مدح الحُصيب، قال فيها يصف سفره بعد وداع زوجته :

ولو شاهدتني والهواجر تلتطّي عليّ ورقراق السراب يور^١
أسلطُ حرّ الهاجرات إذا سطا على حرّ وجني والأصيل هجير^٢
وأستنشق السكباء وهي لوافح^٣ وأستوطئ الرّمضاء وهي تفور^٤

(١) الهواجر هاجرة وهي : شدة القيظ في نصف النهار . الرّراق : ما يتلأأ . يبور : يتحرك .
(٢) السكباء : الريح التي تتعرف عن مهابّ الرياح القوّم، فتقع بين ريحين . الريح اللافح : المحرقة . الرّمضاء : الأرض الحامية من شدة الحرّ . تفور : تغلي .

X وبدأت حركة التحرر في القرن الحادي عشر (الخامس للهجرة)، فأخذ الشعراء يمثّلون بيئتهم الجديدة ونزعات نفوسهم من غير ان يهتموا التقليد إهمالاً تاماً . ومن اعلام هذا الشعر الانتقالي ابن زيدون، وابن عمار، والمعتمد بن عباد، وابن الخداد... واسباب هذا التطور هي تعلق الشعراء بالوطن الجديد وجماله الفاتن، ونزعتهم التقليدية نفسها . لان الشرق الذي ما برحوا يترسمون خطاه، كان قد سار هو ايضاً في طريق جديدة بدافع الانقلاب العباسي وما رافقه من تطور في النظم والعادات والاخلاق والثقافة .

وقد بلغت هذه الحركة التجديدية مداها في القرن الثاني عشر (السادس للهجرة)، فكان شعر ابن حميدس، وابن عبدون، وابن خفاجة، ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم من المتأخرين صورة للاندلس، زاهية الالوان، بيّنة التعبير . وهكذا بدأ الاندلسيون بمحاكاة الشرق، ثم نافسوه في حب التجديد والتحرر .

ومن اهم مظاهر هذا التحرر تعلق الشعراء ببيئتهم الجديدة وتفضيلهم اياها على غيرها بعد ان كان هواهم عالقاً بالوطن القديم الذي ترحلوا عنه . قال ابن سفر المريني :

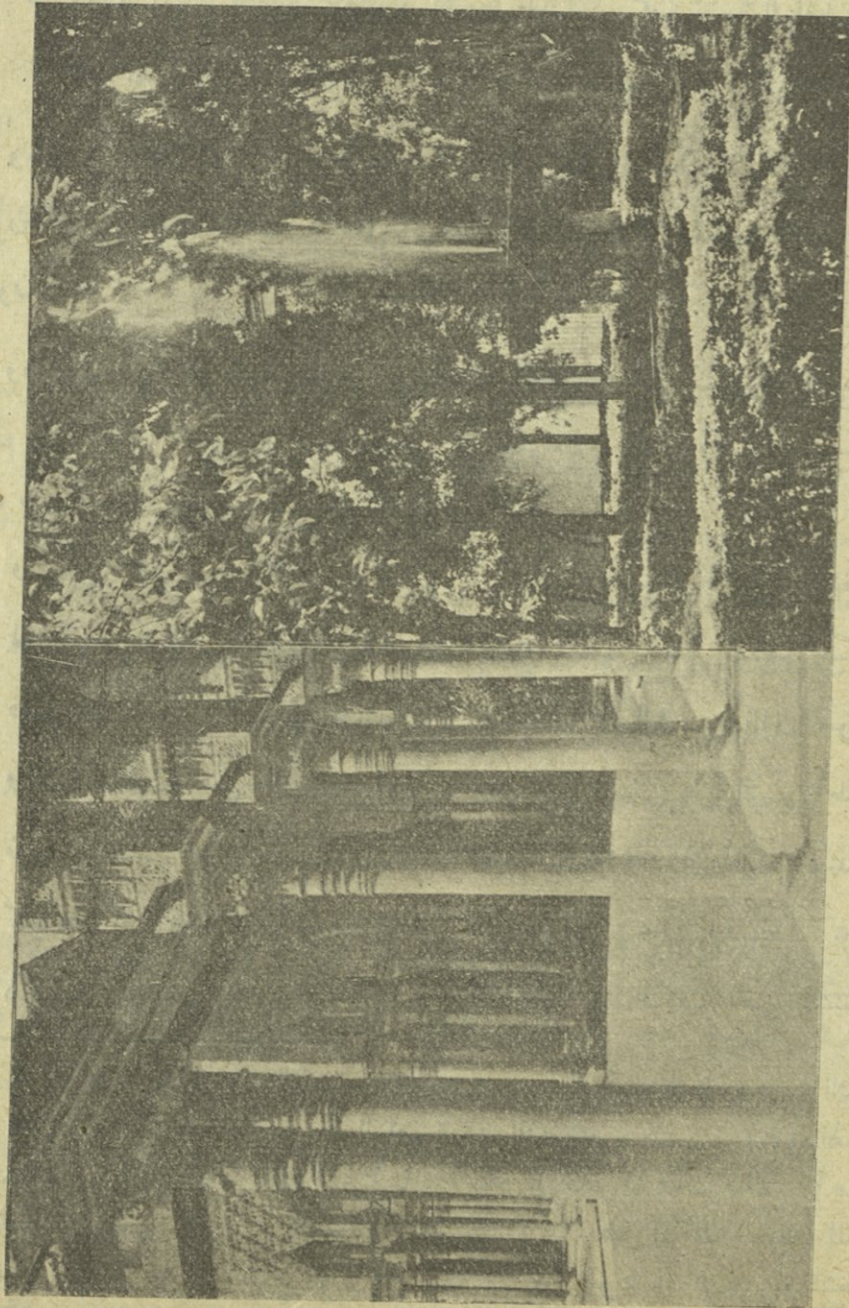
في أرضِ أندلسٍ تَلْتَذُّ نَعْمَاءَ ولا تُفَارِقُ فيها القلبَ سرّاً
وكيفَ لا تُبْهِجُ الأبصارَ رؤيتها وكلُّ رَوْضٍ بها في الوُشْيِ صَنْعاً
أَخْأَرُهَا فِضَّةٌ وَالْمِسْكُ تُرْبَتُهَا وَالْخَزُّ رَوْضَتُهَا وَالْدُرُّ حَصْبَاءُ

وانبرى كل شاعر يصف إقليمه وجمال الديار التي عاش فيها فكان ابن زيدون شاعر قرطبة وزهراتها، وابو الحسن بن تزار وناهض بن ادريس وصافي وادي آش، وأغرم مطرّف بغرناطة، وابن سفر المريني بإشبيلية، وابن الزقاق ببِلَنسية . ورسم

(١) النعماء : رغد العيش . السراء : المسرة (٢) صَنْعَاء : قصبة في بلاد اليمن اشتهرت بصناعة الاقشة المزخرفة (٣) الخَزُّ : الحرير .

غيرهم بألوان جميلة صوراً لوادي عذراء، وسَرْقُسطة، وبرجة، وجبل طارق، وجزيرة
ميورقة، وطليطلة، وشلب وغيرها .

وفُتِنَ الشعراءُ بجمال الانهر تنساب بين البساتين، وتُلقي في النفس غبطة وروحاً،
فاقتنوا في وصف المياه، والتزهات الشائقة على جوانبها .



غرناطة : مشهذان من مشاهد الحمراء : ناحية من رياضها، وجانب من ساحة السباع

ومن ذلك قول ابن خفاجة في وصف نهر :

تَسْعَطِفُ مِثْلَ السُّوَارِ كَأَنَّهُ وَالزَّهْرُ يَكْشِفُهُ مَجْرُ سَمَاءِ
قَدْ رَقَّ حَتَّى ظَنَّ قُرْصًا مُفْرَعًا مِنْ فِضَّةٍ فِي بُرْدَةٍ خَضْرَاءِ
وَعَدَّتْ تُحْفُ بِهِ الْغُصُونُ كَأَنَّهَا هُدْبٌ يَحْفُ بِمُقْلَةٍ زُرْقَاءِ
وَالْمَاءُ أَسْرَعَ جَرِيَهُ مُتَحَدِّرًا مُتَلَوِيًا كَالْحَيَّةِ الرَّقْطَاءِ
وَالرِّيحُ تُعَبِّثُ بِالْغُصُونِ وَقَدْ جَرَى ذَهَبُ الْأَصِيلِ عَلَى الْجَيْنِ الْمَاءِ

وبعد ان كان العرب ينفرون من البحر، ويخشون غوائله، راح شعراء الاندلس يصفون السفن الجارية فيه كما فعل ابو عمر القسطلي وابن خفاجة وابن الآبار وابن وهبون ...

وظهرت ايضا في الشعر الاندلسي النزعة القصصية التي تستقرى تاريخ الموصوف ومثال ذلك قول جعفر بن محمد المصحفي في سفرجله، تتبع وصفها من حين كانت تحتال بين الغصون حتى ذبلت في كفه، قال :

وَمُصْفَرَّةٌ تَحْتَالُ فِي ثَوْبِ نَرْجِسٍ وَتَبْقَى عَنْ مِسْكِ ذَكِيٍّ التَّنْفُسِ
لَهَا رِيحٌ مَحْبُوبٌ وَقُوَّةٌ قَلْبِهِ وَلَوْ نُحِبُّ حُلَّةَ السَّقَمِ مُكْتَسِي
فَصَفْرُهَا مِنْ صُفْرِ قِي مُسْتَعَارَةٌ وَأَنْفَاسُهَا فِي الطَّيِّبِ أَنْفَاسُ مُؤْنِسِ
وَكَانَ لَهَا ثَوْبٌ مِنَ الزَّرْغَبِ أَغْبَرُ عَلَى جَسْمِ مُصْفَرٍّ مِنَ التَّيْبَرِ أَمْلَسِ
فَلَمَّا اسْتَمْتَتْ فِي الْقَضِيبِ شَبَابَهَا وَحَاكَتْ لَهَا الْأَوْرَاقُ أَثَوَابَ سُنْدُسِ
مَدَدَتْ يَدِي بِاللُّطْفِ أَبْغَى اجْتِنَاءَهَا لِأَجْلَالِهَا رِيحَانِي وَسَطَ مَجْلِسِي
ذَكَرْتُ جَاهَا مَنْ لَا أَبُوحُ بِذِكْرِهْ فَأَذْبَلَهَا فِي الْكَفِّ حَرُّ التَّنْفُسِ

- (١) يكتفه: يحوط به. المجر: المجرة، أي ما تسميه العامة «درب التبانة».
(٢) البردة: ثوب مخطط، شبه به الشاعر النبات الذي يحوط بالنهر (٣) الهدب: شعر
اشفار العيون (٤) الحية الرقطاء: الحية بها نقط سود على بياض او عكس ذلك (٥) الاصيل:
الوقت الذي بين العصر والغروب. اللجين: الفضة (٦) عقب المكان بالطيب: انتشرت رائحة
الطيب فيه. تعبق عن المسك: تفوح منها رائحة المسك (٧) الزغب: الريش او الشعر الصغير.
التبر: الذهب (٨) السندس: صنف من نسيج الحرير او الديباج.

٢ اغراضه وفنونه : اذا قلبنا آثار الشعراء الاندلسيين وجدنا انهم لم يجيدوا في اغراضهم وفنونهم عما عهدناه سابقاً عند سائر شعراء العرب . وجل ما هنالك من جديد، في هذا الصدد، بعض محاولات ملحمة غير موفقة كأرجوزة ابن عبد ربه التي وصف فيها غزوات عبد الرحمن الناصر وفتوحه . وهي تبلغ اربع مئة وخمسين بيتاً . إلا ان قيمتها الشعرية ضئيلة فهي أقرب الى التاريخ منها الى الشعر .

ولئن انساق الاندلسيون وراء أهل المشرق في اغراض الشعر، فانهم قد أظهروا في بعض منها خصائص تميزهم عن سواهم، كما في الوصف، وثناء الممالك البائدة، والشكوى، والاستنجاد، ونظم العلوم والفنون .

١ - الوصف : اما الوصف فقد اكثروا منه، حتى اننا نستطيع ان نستخلص من شعرهم فيه صورة بينة للحياة الاندلسية في شتى نواحيها . فقد وصفوا اسبانية بمدنها ومنتزهاتها وعجائب عمارتها ؛ ووصفوا اوديتها وجبالها، وبساتينها ورياضها، وأزهارها وثمارها، وربيعها وشتاءها ؛ ووصفوا بحيراتها وسواقيها وانهارها، وكل ما هنالك من مظاهر طبيعية ؛ كما وصفوا الصناعات والولائم والمآكل، والزينة والعطور والاقمشة، والمعارك والجيوش، والموسيقى والرقص، واللهو والمجون . . . وهكذا نوّعوا الاوصاف ولكنهم بقيت بعجلها جزئية غير منتظمة لمشهد برمتيه، او مدينة بكاملها .

٢ - ثناء الممالك البائدة : واما رثاء الممالك البائدة فهو نتيجة الانقلابات السياسية وتطويع الدهر بالدول . فوقف الشعراء على اطلالها يندبون عزّها الحائل، ومجدها الزائل، ويتأملون في صروف الايام التي لا تُبقي على احد . فبكى ابن اللبانة على دولة العبّاديين، وابن عبدون على دولة بني الافطس، وندب ابو البقاء الرندي حظّ الاندلس بعد ان استردّها الاسبان .

٣ - الشكوى والاستعطاف : وأما الشكوى والاستعطاف فهما نوع من

الشعر جادت به قرائح الوزراء وارباب السلطة، لما نالهم من المحن وطوارئ الحدثن، فأضحوا في ذل بعد عزّ وندبوا ماضيهم السعيد متأوهين على الحاضر المؤلم .

٤ - الاستنجد : واما شعر الاستنجد والاستشفاع فهو وليد الضعف في البلاد، والخوف من الاعداء . فقد فزع الشعراء الى الاولياء يستشفعونهم والى الاعوان يستنجدون بهم . ومن اشهر قصائدهم في هذا الباب، قصيدة الوقشي البلنسي التي مطلعها :

أَبَتْ غَيْرَ مَاءٍ بِالنَّخِيلِ وَرُودَا وَهَامَتْ بِوَعَذْبِ الْجَمَامِ بَرُودَا

والقصيدة التي بعث بها لسان الدين بن الخطيب الى قبر محمد، ومطلعها :

إِذَا فَاتَنِي ظِلُّ الْحَمَى وَنَعِيمُهُ فَحَسْبُ فَوَادِي أَنْ يَهْبَ نَسِيمُهُ

٥ - نظم العلوم والفنون : وكثر في الاندلس نظم العلوم والفنون لتسهيل حفظها، فكان من ذلك ارجوزتان في العروض والتاريخ لابن عبد ربه، واللامية والرائية للشاطبي في القراءات ورسم المصحف .

٣ الشعر الاندلسي والشعر العباسي : الشعر الاندلسي شديد الشبه بالشعر

العباسي في اغراضه وتطوره . وقد

كان من نتائج منافسة الاندلسيين للمشارقة ان اتخذ شعرهم صبغة الشعر العباسي فظهر التجديد في الغزل والمجون والخرر ووصف الطبيعة والعمران وبقي التقليد مسيطراً على الابواب الاخرى . ولئن غلب الاندلسيون في وجه المشاركة في وصفهم وراثتهم للممالك البائدة وشعرهم الاستعطافي والاستنجدادي، فانهم لم يبلغوا شأورهم في سائر الفنون، لا بل كثيراً ما تهافتوا على معانيهم واساليبهم تهافت الغرثى . وليس من الغريب ان تفوت الاندلسيين الدقة في الفكر، والعمق في المعنى، فانهم لم يقتبسوا من الفلسفة والمنطق ما اقتبس منها المشارقة . فكانت معانيهم واضحة جليّة

X الا انها سطحية . وتبدو هذه الظاهرة في حكمهم التي قصّروا فيها تقصيراً فاضحاً عن ابي تمام والمتنبي وغيرهما، واجتزأوا فيها بما تعرفه العامة ولا يقتضي تفكيراً بعيداً .

اما خيال الاندلسيين فاكثر اصباغاً من خيال المشاركة، وهو غالباً رقيق لطيف يتجلى في اوصافهم وغزلهم، حيث تردحهم الصور البرّاقة، المنتزعة من طبيعة غنية بالجمال، تسكب جمالها في مخيلة الشاعر فيبرزه لنا في حلّة قشبية، وحياة نابضة، ورونق عجيب، ولين لا يخلو من ميوعة، وكلام موقّع توقيعاً موسيقياً لا يخلو من تصنع كثير . فإذا ما اراد ابن الزقاق مثلاً، ان يصف رياضاً تلطم شقائقها الرياح والغمام قال :

ورِياض من الشَّقَائِقِ أَضَحَّتْ يتهادى بها نسيمُ الرِّياحِ
زُرْحُها والغَمَامُ يَجْلِدُ مِنْهَا زَهْرَاتِ تَفُوقُ لَوْنَ الرِّياحِ
قَلْتُ « ما ذُنُبُها » ؟ فقالُ مُجِيباً : « سَرَقَتْ حُمْرَةَ الحُدُودِ المِلاحِ »

واذا ما عمد ابن سفر الى وصف المدّ والجزر في نهر إشبيلية، أبدى ذلك في صورة مبتكرة يشخص فيها النسيم والنهر ويقول :

شَقَّ النَّسِيمُ عَلَيْهِ جَيْبَ قَمِيصِهِ فانسابَ من شَطِئِهِ يَطْلُبُ نَارَهُ
فتضاحكت وُزُقُ الحَمَامِ بدَوْحِها هُزْأُها فَضَمَّ من الحَياءِ إِزارَهُ

واذا تناولنا بالبحث لغة الاندلسيين فيناها سهلة سلسلة غير محكمة البناء كالغة اهل المشرق، وما ذلك الا لبعد صقع الاندلس عن البادية ولوجود العرب في بيئة اعجمية اضعفت ملكتهم ورققت تعبيرهم ؛ ولئن كان هنالك بعض الصعوبة ففي شعر ابن هاني الذي رمى الى تقليد المتنبي فانصرف الى الاغراب والامعان في الخشونة والتعقيد .

اما الاوزان الشعرية فقد تتبّع الاندلسيون فيها اهل المشرق، ولكنهم عمدوا في اكثر الاحيان الى الموسيقى منها، كما اضافوا اليها اوزاناً جديدة اوحّت بها اليهم الموسيقى الشائعة في بلادهم، وهداهم اليها ولهمم بالغناء، فكان عندهم «الموشحات» .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي - القاهرة ١٩٤٥
 - سيد نوفل : شعر الطبيعة في الادب العربي - ١٩٤٥
 عبد الله كنون الحسني : الشعر الوطني في الاندلس - الرسالة ٣ (١٩٣٥) ص
 ١٠٩٠ - ١٠٩٢

٢ المراجع الاجنبية :

Henri Pérès : La Poésie andalouse en arabe classique au XI^e siècle — Paris, 1937.

موضوعات للبحث

- ١ - وازن بين تطوّر الادب العباسي في الشرق وتطوّر الادب الاندلسي في الغرب، واذكر
 عوامل ذلك التطوّر في القطرين ونتيجتها.
 ٢ - وازن بين العناصر الفنية في شعر الشرق وشعر الاندلس واذكر ما هنالك من تشابه وفرق
 موضحاً الاسباب.

الادب الاندلسي — الشعر

الفصل الثاني

الموشحات

١ نظرة في اساليب النظم عند العرب : اساليب متشابهة تقوم على الوزن الواحد والقافية الواحدة - إلى ان استنبطت الموشحات .

٢ التعريف بالموشحات : فن جديد استنبط بالاندلس وخولفت فيه القواعد المرعية في اوزان الشعر وقافيته . اما اساليب نظمه فهي تعتمد على الاقفال والبيوت في تركيب يختلف باختلاف الانواع .

٣ اصلها واشهر اصحابها : ابتدأت في الاندلس وكان المخترع لها مُقدّم بن معافر الفريري . وبرع بعده في هذا الفن كثيرون كمعبدة القرّاز، والأعمى الطليطلي، وابن باجة، وابن سهل، وابن الخطيب . وسبب نشوئها هو احتكاك العرب بالادب الغالي الاسباني ومراعاة مطالب الغناء .

٤ اغراضها : الغزل والخمر والمجون ووصف الطبيعة، ثم المدح والهجاء والرثاء والزهد .

٥ ميزاتها : - معانيها : لطيفة ولكنها مكرورة وطافية .

- مبنائها : سخيّف وضعيف مع كثير من المحسنات اللفظية - موسيقى

مطربة احياناً .

٦ اثرها : كان لها انتشار عظيم . وقد تولّد منها الزجل العامي .

١ نظرة في اساليب النظم عند العرب : كانت الموشحات من حيث اوزانها

وقوافيها فتحاً جليلاً في الشعر العربي ،

وثورة على الاساليب المرعية في النظم . فالقصيدة عند العرب تبنى على وزن واحد

وقافية واحدة، ولا يشذ عن هذه القاعدة الأساسية سوى الرجز الذي يستقل فيه كل بيت بقافيته، وقد يلتزم الشاعر قافية واحدة في جميع اعاريض الارجوزة وأضرها؛ وشذ أيضاً عن الاوزان المعهودة الشعر المعروف بالدُوَيْتِ الفارسي الذي استعمل في اواخر العصر العباسي . اما المواليا والقوما^١ البغدادي فهما شعر غير معرب .

٢ التعريف بالموشع : قال ابن خلدون في مقدمته : « وأما اهل الاندلس فلما كثر الشعر في قُطْرهم وتهذبت مناحيه وفنونه، وبلغ التتميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فناً سموه بالموشع^٢ ينظمون به أسطاً أسطاً، وأغصاناً أغصاناً، يُكثرون من اعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً، ويلتزمون عند قوافي تلك الاغصان واوزانها متتالياً فيما بعد الى آخر القطعة، واكثر ما تنتهي عندهم الى سبعة ابيات، ويشتمل كل بيت على اغصان عددتها بحسب الأغراس والمذاهب؛ وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد^٣ . »

وفي هذا التعريف لصاحب المقدمة تفصيل لعناصر الموشع، واصول تركيبه، وأغراضه؛ وهو على كل حال قصيدة او قطعة شعرية موضوعة للغناء .

(١) جاء في مقدمة الإلياذة في اصل المواليا أقوال اشهرها ان هارون الرشيد امر بعد نكبة البرامكة ان لا يرثهم احد بشعر فرثت احدى جواريمهم جعفرأ بشعر غير معرب حتى لا يعد شعرأ وجعلت تقول بعد كل شطر يا مواليا، قالت :

يا دار ابن ملوك الارض ابن الفرس^٤ ابن الذين جوها بالقنا والترس^٥

قالت نراهم رمم تحت الأراضي الدرس^٦ سكوت بعد الفصاحة الستهم خرس^٧

هذا الذي يقوله المؤرخون في اصل الشعر العامي، والذي نراه انه أقدم من ذلك العهد بل نخاله معاصراً للشعر الجاهلي .

وللبغداديين ايضاً من هذا النوع القوما، قيل كانوا ينشدونه عند السحور في رمضان، سمي بذلك من قول المغنين « قوما نسحر قوما » وجعلوه على وزن هذه الكلمات الثلاث، وتفرع عنه فروع دعوها الزهري والحمري وغيرهما (٢) في اللغة، وشَّح المرأة : البسها الوشاح وهو قلادة من نسيج عريض مرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها ؛ وشَّح الخطيب خطبته بالآيات : زينها بها . فالتوشح بالمعنى المجازي هو التزيين ولهذا استعيرت اللفظة للدلالة على الفن من الشعر المسمى بهذا الاسم لما فيه من تزيين وتنميق . (٣) مقدمة ابن خلدون - طبعة مصطفى محمد بالقاهرة - ص ٥٨٣ .

٣ عناصر الموسمى واصول تركيبه : يتضح مما سبق ان الموشحات تتألف من أسماط او اقفال، ومن ابيات تنفرع الى اغصان اي أجزاء وفقرات :

١ - القفل : هو بيت او عدة ابيات من الشعر تبتدى بها الموشحات في اغلب الاحيان، وتتكرر قبل كل بيت منها . ويسمى القفل سحطاً لانه كالقلادة في الموشح ؛ ويسمى ايضاً اللازمة للزوم تكراره عند كل بيت .

يشتط في الاقفال التزام القافية، والوزن، والاجزاء، وعدد الابيات الشعرية . وهكذا تكون كلها في الموشحة ذات موسيقى لفظية وتلحينية واحدة .

ولما كان القفل ذا روي واحد لا يتبدل كان نتيجة الاجزاء فقط دون الفقرات، والفقرة في الاصل تتألف من القافية او الروي في كلمة واحدة او تضم الى تلك الكلمة بعض الكلام القليل المنظوم قبلها .

والقفل لا يكون اقل من جزأين، وقد تبلغ اجزاؤه الثمانية وقد تبلغ ايضاً التسعة او العشرة إلا ان ذلك نادر :

- القفل المركب من جزأين :

شمس قارنت بدراً داح وندم

- القفل المركب من ثلاثة اجزاء :

حلت يد الأمطار أزرة النوار فيا خدني

- القفل المركب من اربعة اجزاء :

أدر لنا أكواب ينسى رجا الوجد واستحضر الجلّاس كما اقتضى الود

- الفحل المركب من خمسة اجزاء :

يا مَنْ أَجُودُ وَيَبْخُلُ عَلَى شِحْيٍ وَأَفْتِقَارِي
أَهْوَكَ وَعِنْدِي زِيَادَةٌ مِنْهَا شَوْقِي وَأَدِّكَ كَارِي - الخ...

٢ - البَيْت : هو ما نظم بين القفلين من أبيات شعرية، وهو يسمى الدور .
ويشتمل البيت على اجزاء تسمى اغصاناً وهي تتعدد بتعدد الاغراض والمذاهب .
ويتألف البيت على الاغلب من ثلاثة اجزاء وقد يتألف من جزأين او ثلاثة اجزاء ونصف .

ويتألف جزء البيت من فقرتين او ثلاث او اربع فقرات، وقد يكون الجزء مفرداً اي غير مؤلف من فقرات . ومن شروط الابيات ان تكون كلها متشابهة وزناً ونظاماً وعدد اجزاء، واما الروي فيحسن تنويعه .

ومن عادة الموشح ان يبدأ بقفل وينتهي بقفل ، وأن يتردد فيه القفل ست مرات، فان كان الامر كذلك سمي الموشح تاماً ؛ وإن بدأ الموشح بالبيت سمي اقزوع . وهكذا يتردد القفل خمس مرات في الموشح الاقزوع وست مرات في الموشح التام .

- البيت المؤلف من ثلاثة أجزاء مفردة :

أَرَى لَكَ مُهَنَّدَ أَحَاطَ بِهِ الْإِثْدُ فَجَرَّدَ مَا جَرَّدُ
فِيَا سَاهِرَ الْجَفْنِ حُسَامَكَ قَطَّاعَ

- البيت المركب من فقرتين وثلاثة اجزاء ونصف :

مَنْ أَوْدَعَ الْأَجْفَانَ صَوَارِمَ الْهِنْدِ
وَأَنْبَتَ الرَّيْحَانَ فِي صَفْحَةِ الْحَمْدِ
قَضَى عَلَى الْهَيْمَانَ بِالْدَّمْعِ وَالسُّهْمِ
أَتَى وَالْمُسْكِتَانِ ! ..

- البيت المركَّب من اربع فقرات وثلاثة أجزاء :

بأي ظي حَمَى تَكْنِيفُهُ أُسْدُ غِيلٍ^١
مَذْهَبِي رَشْفُ لَمَى قَرْقَفُهُ سَلْسَبِيلُ^٢
يَسْتَبِي قَلْبِي بِمَا يَعْطِفُهُ إِذْ يَمِيلُ...^٣

٣- الخُرْجَة : هي القفل الاخير من الموشح . وقد اشترطوا فيها ان تكون فكاهة، ملحونة الالفاظ، جارية على لسان ناطق او صامت ؛ فهي عادة عامية غير 'معربة' إلا في بعض المدح .

قال ابن سناء الملك : « والخُرْجَة عبارة عن القفل الاخير من الموشح . والشرط فيها ان تكون حجاجية من قِبَل السُّخْفِ ، قُزْمَانِيَّةٌ من قِبَل اللحن ، حارَّةٌ محرقة ، حادَّةٌ مُنْضِجَةٌ ، من الفاظ العامة ولغات الدأصة ؛ فإن كانت 'معربة' الالفاظ منسوجة على منوال ما تقدَّمها من الابيات والاقفال خرج الموشح من ان يكون موشحاً اللهم إلا ان كان موشح مدح وذكر الممدوح في الخُرْجَة فإنه يُحَسَّنُ أن تكون الخُرْجَة 'معربة' كقول ابن بقي :

إنما يجي سليل الكرام واحد الدنيا ومعنى الأنام

وقد تكون الخُرْجَة 'معربة' وإن لم يكن فيها اسم الممدوح ولكن بشرط ان تكون الفاظها غزلةً جدًّا ، هزآزةً سجَّارةً خلَّابةً ، بينها وبين الصبابة قرابة ، وهذا 'معجز معوز وما يوجد منه في الموشحات سوى موشحين او ثلاثة كقول ابن بقي :

ليلٌ طويل وما مُعِينُ يا قلبَ بعض الناس أما تَلِينُ...^٤

والمشروع بل المفروض في الخُرْجَة ان يجعل الخروج اليها وثبًا واستطرادًا ،

(١) تَكْنِيفُهُ : تصونه وتحرسه . الغيل : اللعي : سيرة في باطن الشفة او شربة سواد فيها وذلك ممَّا يُسْتَحْسَنُ ؛ وهنا كناية عن الشفة . القرقف : الخمر . (٢) اشتهر ابن الحجاج في المشرق بالموادر والهزل ، وابن قزمان باللحن في المغرب (٣) الدأصة : اللصوص . (٤)

وقولاً مستعاراً على بعض الالسنه إمّا الناطق منها وإمّا الصامت . . . واكثر ما
تجعل على السنه الصبيان والنسوان والسكرى والسكران . ولا بُدّ في البيت
الذي قبل الخرجه من : قال، او قلت، او غنى، او غنيت :

فما جعل على لسان الحمام قول عبادَة :

إِنَّ الحَمَامَ في أَيْكِها تشدو :

قُلْ هل عُلِمَ أو هل عُدَّ أو كان كالمعتم والمعتضد ملكان

ومما جعل على لسان الغرام قول ابن بقي :

أَنَا وَأَنَا أسوة هذا الهَجَرِ

بالصَّبَرِ بِنْتَا عند انصداع الفَجَرِ

وَمُنْذُ رَحَلْنَا غَنَى الجوى في صدري :

سافر حبيبي سَجَرَ وما ودَّعْتُو يا وحش قلبي في الليل اذا افكرتو

وقد تكون الخرجه عجمية اللفظ . . . ومن المتأخرين من يعجز عن الخرجه
فليستعير خرجه غيره^١ .

وقد شاعت العامية في الموشح شيوعاً كبيراً حتى قال ابن شهيد متكلماً على
عصره : « ليس اسبويه فيه عمل ولا للفراهيدي اليه طريق^٢ » .

إلا ان الابشيهي (١٤٤٨ م / ٨٥٢ هـ) يُنكر اللحن على الوشّاحين ويرى ان
الموشح والعروض والدوبيت يجب ان تكون معربة ابدأ ولا يغتفر فيها اللحن^٣ .

نموذج :

شَمْسُ فَارَنْتَ بِرّاً . . .

القفل : شَمْسُ قَارَنْتَ بِدَرّاً راحٌ وَنَدِمٌ

(١) دار الطراز - طبعة دمشق - ص ٣٠ - ٣٣ (٢) الذخيرة : رسالة التوابع
والزوابع - ٢٢٩ : ١ (٣) المستطرف ٢ : ٢٧٧ .

البيت : أَدِرْ أَكْثُوسَ الْحَمَرِ عَنبَرِيَّةَ الدَّشَرِ إِنَّ الرُّؤُوسَ ذَوِ بَشَرِ

القفل : وَقَدْ دَرَعَ النَّهْرُ هُبُوبُ النَّسِيمِ

وَسَلَّتْ عَلَى الْأُفُقِ يَدُ الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ سَيْوْفًا مِنَ الْبَرْقِ

وَقَدْ أَضْحَكَ الزَّهْرُ بُكَاءَ الْغَيْوَمِ

أَلَا إِنَّ لِي مَوْلى تَحَكَّمَ فَاسْتَوَى أَمَّا إِنَّهُ لَوَلَا

دُمُوعٌ تَفْضَحُ السِّرَا لَكُنْتُ كَتُومِ

أَتَى لِي كَيْسَانٌ وَدَمَعِي طُوفَانٌ شَبَّتْ فِيهِ نِيرَانٌ

فَمَنْ أَبْصَرَ الْجَمْرَا فِي لُجٍّ يَعُومِ

إِذَا لَأَمَنِي فِيهِ مَنْ رَأَى تَجَنَّبَهُ شَدَوْتُ أُغْنِيَهُ

الخرجة : لَمَلَّ لَهُ عُذْرَا وَأَنْتَ نَلُومِ

٤ اصلها واسرار اصحابها : إبتدأ فن الموشحات في الاندلس . قال ابن خلدون :

«وكان المخترع له بجزيرة الاندلس مقدم بن معاوية»

الفريوي من شعراء الامير عبد الله بن محمد المرواني، واخذ ذلك عنه ابو عبد الله احمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد . ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر، وكسدت

(١) سبق لنا القول ان في ديوان ابن المعتز العباسي موشحة او لها :

ايها الساقى إليك المشتكى قد دعوتك وإن لم تسمع

...

ونديم هيمت في غرتيه وبشرب الراح من راحته

كلها استيقظ من سكرته

جذب الزق إليه واتسكا وسقاني أربعا في أربع

ولكن علماء الادب يشكون في نسبتها اليه لان مؤرخي ابن المعتز لم يذكروا موشحته هذه التي رويت لشاعر آخر اندلسي يقال له الحفيد بن زهر، ولان المؤرخين اجمعوا على القول ان الموشحات من مستنبطات الاندلسيين، كما أجمع قدامى مؤرخي الادب على ان ابن سناء الملك المتوفى في اوائل القرن الثالث عشر، هو الذي ادخل فن الموشحات الى الشرق . اما ظهور فن التوشيح فقد كان في القرن التاسع، كما كان في القرن العاشر نموه وازدهاره .

موشحاتهما . فكان اول من برع في هذا عبادة القزّاز شاعر المعتمض بن صمّادح صاحب المروية . وشاع هذا النوع من الشعر وتعاطاه جمهرة من الشعراء كأيي بكر ابن زهر (١١١٣ - ١١٩٩ م) ، وابن بقيّ (١١٤٥ م) ، والأعمى الطلّطي (النصف الاول من القرن الثاني عشر) ، وابن باجة (القرن الثاني عشر) ، وابن سهل (١٢٠٨ - ١٢٥١ م) ، وابن الخطيب (١٣١٣ - ١٣٧٤ م) ، وابن زمرّك (١٣٣٣ - ١٣٨٩ م) وسواهم . ولما اتصل الموشح بالشرق نبغ فيه ابن سناء الملك المصري ، وصني الدين الحلّي ، وابن نباتة الفارقي ، وابن حجة الحموي وغيرهم .

وكان من اسباب اختراع هذا الفن اختلاط العرب بالاجانب في إسبانية واطلاعهم على آدابهم واغانيهم الشعبية المتحررة من القوافي والاوزان ، وميل الشرق الى الانطلاق من القيود الشعرية الموروثة .

وليس من المستبعد ان يكون لانشيد « الجُنْكَلِر » و « التروبادور » أثرها في تنبيه العرب الى استنباط الموشح واطلاق شعرهم من القيود القديمة فيصبح أداة طيعة للغناء . فلا مراء ان مطالب الموسيقى كانت العامل الاكبر في إيجاد الموشح . والموسيقى في الاندلس مطربة الامراء ، ورفيقة الافراح ، ومؤنسة أوقيات اللهو وليالي السمر . قال التجيبي يصف ليالي اعتلاله بمدينة مالقة : « كنت إذا جنّني الليل اشتدّ سهري وخفقت حولي اوتار العمدان والطنابير والمعازف من كل ناحية ، واختلطت الاصوات بالغناء فكان ذلك شديداً عليّ وزائداً في قلقي وتألمي فكانت نفسي تعاف تلك الضروب طبعاً وتكره تلك الاصوات جبلةً ، وأودّ لو أجد مسكناً لا أسمع فيه شيئاً من ذلك ويتعذّر عليّ وجوده لغلبة ذلك الشأن على أهل تلك الناحية وكثرته عندهم » .

(١) الجُنْكَلِر Jongleurs والتروبادور Troubadours ؛ شعراء مغنون من العصر الوسيط اشتهروا في غالية وإسبانية ، إذ كانوا يطوفون البلاد متنقلين من قصر الى قصر يتغنّون بأناشيد الغرام وقصص الفروسية ، في مقاطع غير محكمة الوزن ، لا تلتزم فيها القوافي التزاماً .

فلا عجب أن تهيب الموسيقى بالشعراء الى مجازاة رناتها والخضوع في قصائدهم الى أنغامها وألحانها، ولو أدى بهم ذلك الى الخروج عما تعودوه . وكـم من موشح نقرأه فلا توقظ فينا الفاظه لذّة، ولا يُحدث فينا وزنه هزّة، فهو للتلحين لا للإنشاد.

٥ اغراضها : أوجد الموشح، اول الامر للغناء وكان من اغراضه الغزل والخمر والمجون ووصف الطبيعة . ولما كانت أبهى مواسم الغناء تُعقد في بلاطات الملوكة والامراء والاعيان، تطرّق الشعراء الى المدح استدراكاً للأكف وطمعاً في نيل الهبات . وما لبثوا ان توسّعوا في معاني الموشحات فنظموها في الهجاء والثناء والتصوّف والزهد^١ . وفي غالب الاحيان يجتمع في الموشح الواحد اغراض عدة كالغزل والمدح ووصف الطبيعة . كما في موشح ابن زمرك الذي مطلعُه :

أبلغ لفرناطة سلامي وصف لها عهدي السليم^٢
فلو رعى طيفها ذمامي ما بيت في ليلة السليم^٣

أمّا وصف الطبيعة فهو كثير جداً، يتناول جمالات الاندلس بأنواعها من النهر الى الزهر الى الطير، كما بدا لنا ذلك في درس أغراض الشعر عموماً . فالطبيعة في عرف اصحاب الموشحات هي حبيبة يُتغزّل بحاسنها ويتشوّق القلب الى لقاءها، فيشخصها الشاعر ويجعل فيها عاطفة وشعوراً ويسمع احاديثها . قال ابن الخطيب :

فإذا الماء تناجى والخصى وخلا كل خليل بأخيه^٤
تبصر الورد غيورا برما يكتسي من غيظه ما يكتسي^٥
وترى الآس لبيبا فهما يسرق السمع بأذني فرس

(١) قال ابن سناء الملك : « وما كان منها في الزهد يُقال له « المكفر »، والرسم في المكفر خاصة ان لا يُعمل إلا على وزن موشح معروف وقوافي اقفاله، ويُنمّ بخرجة ذلك الموشح ليدل على انه مكفره ومستقيل ربّه عن شاعره ومستغفره ». دار الطراز ص ٣٨ (٢) العهد السليم : الثابت (٣) رعى العهد : حفظه . الذمام ج ذمّة وهي العهد . السليم : الذي لدغته الحية او الجربع المشرف على الموت . ليلة السليم هي التي لا يُنام فيها (٤) البرم : أي الضجير .

فقد جعل الشاعر بين الماء والحصى مناجاةً يغار منها الورد، فيلبس من غيرته حمرة، أما الآس فهو كاللبيب المتيقظ لاستماع الاخبار .

وإذا اراد ابن زمرك ان يصف لنا الفجر والبرق والغيث صور الصباح كفارس يُغير على الكواكب فتخاف منه، والليل الجوح يطلق أعنة البرق والأفق يغص بالمطر، قال :

فالشَّهْبُ مِنْ غَارَةِ الصَّبَاحِ تُرْعَدُ خَوْفًا وَتُخْفِقُ
وَأَذْهَمُ اللَّيْلِ فِي جَمَاحِ أَعْنَةُ الْبَرْقِ يُطْلِقُ
وَالْأَفْقُ فِي مُلتَقَى الرِّيحِ بِأَذْمَعِ الْغَيْثِ يَشْرِقُ

٦ مبرأها : يسمع واحدنا موشحاً فيطرب، وتروقه صورده اللطيفة الرقيقة، ولكنه عندما يستعيدده ليتعمق في تحليله وتذوق افكاره لا يقع منها الا على الطافي المكروور . فلولا تصاوير اخیال وموسيقى الالفاظ، لما كان الموشحات قيمة فنية . وقد يقع فيها الغموض من كثرة الصناعة اللفظية او سقم التعبير . وانك عبثاً تنشدها فيها تلاحماً في المعاني او ارتباطاً في الافكار، بل ترى الشاعر يتقلب بين صور مختلفة إيجائية تجاري النغم، وهذا حسبها .

واذا تتبعنا لغة الموشحات ألفيتها ضعيفة وكيكة ولا عجب في ذلك والاندلسيون ليسوا من العرب الخُص، ولا هم في البيئة العربية المحضة . والغناء يتطلب ألفاظاً لينة بعيدة عن التعقيد . وكثيراً ما قادهم ذلك اللين الى الخروج على قواعد اللغة والشروء في سبل العامة .

وغالى اصحاب الموشحات في استعمال المحسنات اللفظية والتزموا اوجه البديع يغشون بها سخف المعاني . فحفل شعرهم بالمجاز والتشبيه والاستعارات والكنايات .

اما اوزانهم فمنها ما هو رائق مطرب، ومنها ما لا يحدث إنشاده في الاذن لذّة، فكان للغناء لا للإنشاد كما أسلفنا .

قال ابن سناء الملك : « والموشحات تنقسم قسمين : الاول ما جاء على اوزان اشعار العرب، والثاني ما لا وزن له فيها ولا إلمام له بها . والذي على اوزان الاشعار ينقسم قسمين : احدهما ما لا يتخلل اقفاله وايياته كلمة تخرج به تلك الفقرة التي جاءت فيها تلك الكلمة عن الوزن الشعري، وما كان من الموشحات على هذا النسج فهو المرذول المخذول وهو بالمخمسات اشبه منه بالموشحات ولا يفعله الا الضعفاء من الشعراء والقسم الثاني من الموشحات هو ما لا مدخل لشيء منه في شيء من اوزان العرب، وهذا القسم منها هو الكثير والجهم الغفير، والعدد الذي لا ينحصر، والشارد الذي لا ينضبط . وكنت اردت ان اقيم لها عروضاً يكون دفترًا لحسابها وميزاناً لاوتادها واسبابها . فعز ذلك وأعوز لخروجها عن الحصر وانفلاتها من الكلف، وما لها عروض الا التلحين ولا ضرب الا الضرب، ولا اوتاد الا الملاوي، ولا اسباب الا الاوتار . فبهذا العروض يُعرف الموزون من المكسور، والسالم من المزحوف، واكثرها مبني على تأليف الأرغن، والغناء بها على غير الارغن مستعار، وعلى سواء مجاز » .

وهكذا افتنّ الوشاحون في النظم ايما افتنان وتصرفوا بالاوزان الشعرية تصرفاً ادى بهم الى اختراع اوزان جديدة كالـمستطيل^١ والممتد^٢، فكان للموشح ميدان واسع من الاوزان والالخان .

٧ أثرها : كان للموشحات أثر كبير في الاوساط الادبية، فاعرف فنّها حتى تناقلها الناس بعد ان تغنى بها المغنون، وليس أسير من الغناء إذا حسن، فطافت الاندلس والمغرب ومصر . وكان كلما ظهر موشح مستحب يتبارى الشعراء في

(١) دار الطراز، طبعة دمشق ص ٣٣ - ٣٥ (٢) المستطيل هو عكس الطويل ووزنه: مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مرتين . (٣) الممتد هو عكس المديد ووزنه : فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن مرتين .

مجاراته ومعارضته . وكان من نتائج انتشار الموشح بلغته السهلة واوزانه المختلفة وقوافيه المتعددة وملاءمته للغناء ان انبعث ادب جديد هو الزجل العامي^١ يعبر به من لا يحسنون اللغة الفصحى عن عواطفهم ويتغنون به في مواسمهم . قال ابن خلدون : « ولما شاع فن التوشيح في اهل الاندلس واخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وتصريح اجزائه، نسجت العامة من اهل الامصار على منواله ونظموا في طريقتهم بلغتهم الحضرية من غير ان يلتزموا فيه إعراباً، واستحدثوا فناً سموه بالزجل والتزموا النظم فيه على مناحيهم الى هذا العهد فجاءوا فيه بالغرائب ... واول من ابدع في هذه الطريقة الزجلية ابو بكر بن قزمان^٢ وان كانت قيلت قبله بالاندلس لكنها لم تظهر حلاها ولا انسكبت معانيها واشتهرت رشاقتها الا في زمانه » .

وعاد الشعراء المحدثون الى الموشح فكان لهم في تحرر اوزانه وقوافيه مساعداً على نظم الروايات التمثيلية والقصائد الملحمية . ولا شك في ان فضل الموشح من هذا القبيل جسيم، إذ يخول الشعر العربي من السهولة والطواعية ما يجعله كفيلاً بالتعبير عن كل معنى، والإحاطة بكل فن من الفنون التي تتجلى في الشعر الاجنبي . فالموشحات، وان لم تحدث ثورة في الاوضاع القديمة من حيث التفكير والشعور، كانت فتحاً مبيناً في الادب العربي .

(١) سُمِّيَ الزَّجَلُ زَجْلاً لترجيع الصوت به في الإنشاد (٢) توفي سنة ١١٦٠ م، وقد قيل ان اول من اخترع الزجل رجل اسمه راشد .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- ابن سناء الملك : دار الطراز في عمل الموشحات - تحقيق ونشر جودة الركابي - دمشق ١٩٤٩
 فكتور ملحم البستاني : العرب في الاندلس والموشحات - جونه ١٩٥٠
 جميل سلطان : الموشحات - دمشق ١٩٥٣
 مارون عبود : الرؤوس ص ٢٩١ - ٢٩٥ - منشورات دار المكشوف ١٩٤٦
 سليمان البستاني : مقدمة الإلياذة ص ١٥٠ - ١٥٢ - مصر ١٩٠٤
 ابن خلدون : المقدمة، الفصل الخمسون
 فؤاد البستاني : نشأة الموشحات في بلاد الاندلس - المكشوف عدد ١٤٣
 » : ابن الخطيب وقيمة الموشحات الاندلسية - المكشوف عدد ٩:١٤٤
 بطرس البستاني : الموشحات الاندلسية - المشرق عدد ٣٣، والمكشوف عدد ٥٦
 خليل تقي الدين : الموشحات الاندلسية ؛ غناء وموسيقى - المكشوف عدد ٢: ٢٢٧
 قسطنطين الحمصي : الموشح - الضياء ٣: ٢٦٦

٢ المراجع الاجنبية :

- Moh. Bencheneb : Muwashshah, in Encycl. de l'Islam t. III, p. 849-851.
 Martin Hartmann : Das arabische Strophen gedicht t. I: Das Muwaaššah, Weimar 1897.

موضوعات للبحث

- ١ - قيل : « إن شخصية الاندلس في الشعر العربي شخصية ضعيفة، ومع ذلك فانها استطاعت ان تحدث شيئاً جديداً في الشعر بتجاوب الى حد ما مع بيئتها وما كان فيها من ترف ولذة ونعيم ». ناقش هذا القول .
- ٢ - الموشحات خروج على التقليد العربي، ولكنه خروج يبقى في مجرى النفس العربية، ويصل الشعر القديم بالشعر المعاصر . اوضح ذلك .
- ٣ - ما العوامل التي عملت على نشأة الموشحات ؟
- ٤ - ما الفروق الفنية الاساسية بين الموشح والقصيدة، وهل تعتقد ان الموشح اقدر على استيعاب المعاني من القصائد ؟
- ٥ - ما هي قيمة الموشحات في الادب العربي، وأي أثر للطبيعة فيها، وهل معانيها على شيء من الدقة والسمو ؟

الادب الاندلسي

الفصل الثالث

النثر

١ تطوّره :

١ - في الصدر الاول من الفتح كان النثر الاندلسي صورة للنثر الأموي في الشرق، ولم يتعدّ الخطب والرسائل القصيرة .

٢ - في عهد بني أمية وملوك الطوائف ازدهر النثر وتعدّدت فنونه بسبب انتشار الثقافة وتنافس الامراء .

٣ - في عهد ملوك المغرب : بدأ النثر ينحطّ لتغلب الصناعة عليه، وكثرة الحروب .

٢ فنونه وميزاتها :

١ - الخطابة : كانت وليدة الفتح والعصية القبلية . وما لبثت ان تعدّدت اغراضها وتسرب اليها التتميق اللفظي، واخيراً ضعفت قيمتها وكادت تنحصر في المواعظ الدينية .

٢ - الترسل : تطوّر هو ايضاً، فكان منه الديواني والادبي، فتناول مواضيع كثيرة، وشاعت فيه الصناعة اللفظية حتى خنقت معانيه اخيراً . واشتهر فيه ابن زيدون، وابن شهيد، وابن الخطيب وغيرهم .

٣ - التصنيف : عندما اطلع الاندلسيون على مؤلفات المشاركة جاروم في كل فنّ وعلم . واصطبغ اسلوبهم، في العهد الاخير، بالتكلف والإعانة .

لقد طبع الاندلسيون في نثرهم على غرار الشرق، وقفوا إثرهم فيه كما في شعرهم وحياتهم الاجتماعية . فتطوّر النثر في الاندلس كما تطور في الشرق العباسي وتناول من الاغراض والفنون ما عهدناه في الشرق من خطابة وترسل وتصنيف .

١ **نظوره :** اما الاطوار التي مرَّ بها النثر الاندلسي فهي ثلاثة . ففي صدر الفتح واول العهد الاموي كان هذا النوع من الادب مقصوراً على الخطب والرسائل لان اصحابه الوافدين من الشرق ساروا في بيئتهم الجديدة على التقاليد التي ورثوها من الوطن الذي تزحوا عنه . ولم يكن الشرق يعرف آنذاك من مظاهر النثر سوى عظات تحمل الناس على القيام بفرائض الدين، واقوال تُذكى الحماسة في صدور المجاهدين، وتقطع دابر الشقاق والفتنة بالتهديد والوعيد، ورسائل يتبادلها الحكّام والعمال ويُظهرون فيها ضروباً من الفن والبراعة .

وما ان هبَّت ريح الثقافة على الاندلس، وراح الخليفة الناصر وابنه الحكم وملوك الطوائف يتبارون في انشاء المدارس والمكاتب، ويرسلون البعثات الى الشرق لتأتيهم بثمار نضوجه الادبي والعلمي وتحفهم بمصنفات كتّابه وشعرائه، ويتنافسون في اسناد مناصب الوزارة الى اصحاب الخدق والمهارة في الترسل، حتى اصبح النثر وله المقام السامي في عيون الامراء، يتعاطاه الادباء، ويفتخون في اغراضه والفاظه، ويبسطون فيه المقالات الضافية، ويطعمون في لقب الكتّاب كما يطعمون في لقب الخطيب والشاعر، فنهض هذا الفن نهضة محدودة واشتهر فيه كتّاب مجيدون .

ولما تقلد المغاربة، من موحدّين ومرابطين، زمام الحكم في الاندلس، كان النثر قد بلغ أوجه فبدأت تدبّ فيه عوامل الانحطاط وتذوي نضارته تحت زخرف التصنع اللفظي المقيت، وتحت نار الفتن المستعرة والحروب المستمرة .

٢ **فنونه ومبرمها :** اما فنون النثر الاندلسي فهي الخطابة والترسل والتصنيف وستتناول كلّاً منها بالبحث لإظهار خصائصه وميزاته .

١ - **الخطابة :** كانت الخطابة، اول الامر، وليدة الفتح ورفيقة الجهاد . دخل العرب بلاداً جديدة يترصد لهم فيها عدو قاس لا ينام على الضيم، فكان لا بدّ للولاة من الاستعانة بالخطابة لإيقاد الحميّة في الصدور، وحمل الناس على الصبر في

الجهاد، والاستماتة في الدفاع عما استحوذوا عليه او في إخضاع الاقاليم الاخرى لسلطانهم . فكان كلامهم كالذي سمعناه عند عليّ وزيد بن ابيه والحجاج جزوا فصيحاً مقتضباً يجري مع الطبع خالياً من السجع المتكلف . وكانت معانيهم واضحة جليّة محصورة ضمن دائرة الاغراض الحربية، ثم تعدّتها الى تأييد العصبية لما نشب الخلاف بين القبائل من مضرية ويمانية . ولعلّ خطبة طارق بن زياد من اصدق الناذج على الاسلوب الذي استعمل في العصر الاول، وإن شكّ البعض في صحتها .

ولما اتسع أفق الثقافة، وانتشرت العلوم واقبل الناس على درسها كثرت المناقشات والمناظرات فتنوعت اغراض الخطابة، وتبدلت اساليبها، وتسرب اليها السجع والتنميق الرقيق، وزاد سواد الذين يرتجلونها ويتعهدونها إذ بالغ الامراء في تعظيم من يجيدها حتى اضافوا القضاء الى الخطابة .

اما في ايام الملوك البرابرة فقد انحطت منزلتها وغلبت عليها الصنعة وشاع فيها السجع الممل، وكاد يقتصر فيها على الوعظ في المساجد، وكثيراً ما استعاض عنها برسومات تُقرأ في مواقف الخطابة .

هذا كان شأن فن الخطابة في الاندلس، وهو وإن لم يصل الى ما كان عليه في الشرق، فقد سما به جماعة من مشهوري الخطباء كالوليد بن عبد الرحمن بن غانم في ايام عبد الرحمن الاموي، وعبدالله الفخّار في زمن المرابطين، وابو الحسن منذر بن سعيد البلوطي قاضي قرطبة المتوفى سنة (٩٤٦م/٣٣٥هـ)؛ ولم يصل اليها من آثار الخطباء الاندلسيين سوى النثر اليسير مبعثراً في المؤلفات الاندلسية كالفلاذ ونفح الطيب .

٢ - الترسل : وهذا الاندلسيون حذو المشاركة في الترسل فعلمهم في كل شيء . فكان في القرن الاول من الفتح صورة للنثر الرسائي كما تجلّى لنا في مكاتبات الخلفاء والقواد والعمال في العهد الراشدي والاموي : اغراض محدودة تليها الاحوال من سياسية وغيرها، ومعانٍ جليّة تؤدّي على اوضح وجه وفي اسلوب موجز، خالٍ من الزخرف والتنميق إلا ما يأتي عفواً . ولنا مثال على هذه الطريقة في

ما كتبه بدر مولى عبد الرحمن الداخل عاتباً على سيده، قال : « اما كان جزائي في قطع البحر، وجوب القفر، والإقدام على تثبيت نظام مملكة وإقامة أخرى، غير الكجر الذي أهانني في عيون أكفائي^(١) وأشست بي أعدائي . . . فإننا إلى الله وإننا إليه راجعون » .

وسرعان ما تبدلت الحال لما اتسعت آفاق العلم والرقي تحت ظل الخلفاء، وفي رعاية ملوك الطوائف، وجاب الرحالة الشرق وحملوا الى بلادهم مؤلفات اشهر المترسلين فيه، وتعددت الدواوين، وانتشرت مظاهر الحضارة في جميع وجوه المعيشة . فاصبح الترسل فناً مستقلاً يتعهده الادباء كما يتعهدون الشعر، وكثرت اغراضه وتنوعت اساليبه . وكان منه نوعان : الديواني والادبي .

اما الترسل الديواني فموضوعاته مكاتبات الامراء والعمال وما يتخللها من تهنئة بالظفر، وإعلام بالخال، وتقليد وظيفه . اما الترسل الادبي فقد انصرف اليه جميع الكتاب، واحتوى على الاخوانيات بأصنافها، والمناظرات، والمناقشات، والمقدمات، والقصص الخيالية، والمقامات . وكان من اغراضه الاعتذار، والشوق، والمدح، والهجاء، والعتاب، والثناء، والشكوى والاستعطاف، والوصف، والاستهزاء، والمناظرات بين السيف والقلم، واصناف الزهور والحيوان، وما الى ذلك . وكان الوصف غالباً على نثرهم كما كان غالباً على شعرهم . فاستعاروا من جمالات الطبيعة تشابيههم، وتكلموا على السماء وسحبها، والرياح وزهورها، والانهار والطيور والقصور، والاسفار والحروب، والحمر والندمان ومجالس اللهو والطرب الى غير ذلك من مظاهر الحياة المترفة الناعمة . وبرع في الاندلس كتاب كثيرون منهم ابن زيدون، وابن شهيد، وابن بُرد الاصغر، وابن عبدون، وابن ادريس، وابن خفاجة، وابن الخطيب .

ومع تعدد الاغراض تطورت الاساليب، فشاعت الصناعة اللفظية في الاندلس شيوعها في الشرق، فانتشر السجع، وحفلت رسائلهم بالامثال، والاشارات التاريخية

(١) جابَ جوباً البلاد : قطعها (٢) الهجر : التَّرك والاهمال (٣) الأكفاء : ج كفاء وهو النظير .

والعلمية، والتضمين، وحل المنظوم، والاقتباس من القرآن، وتوشيح الكلام بأنواع المجاز والبديع . وكان نثرهم أول الامر مستساغاً رقيقاً لطيفاً، ولكن الأدباء في القرون الأخيرة، غمروه بالاسهاب الممل والسجع المتكلف، وخنقوا المعاني بزخرف الالفاظ، فبدت مكرورة طافية لا جديد فيها سوى ما يتصنع به الكتاب للتعبير عنها باستعارة غريبة او تلميح بعيد . وسنلاحظ هذه الخصائص عندما نعرض لدراسة الادباء الاندلسيين . وحسبنا الآن غرضاً على الترسل الاندلسي رسالة ابن زيدون يستعطف بها ابن جهور صاحب قرطبة . قال : « يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، واعتبادي عليه، واعتبادي به، وامتيادي منه . . . إن سلبتني أعزك الله، لباس نفاثك^١، وعطيتني^٢ من حلي إيناسك . . . بعد ان نظر الأعمى الى تأملي لك، وسمع الأصم ثنائي عليك^٣ وأحس الجأء باستحمادي اليك، فلا غرو قد يغص بالماء شاربته، ويقتل الدواء المستسفي به، ويوثق الحذر من مأمنه^٤ وتكون منية المتسني في أمنيته^٥، والحين^٦ قد يسبق جهد الحريس^٧ :

كل المصائب قد غرّ على الفقى وتسون غير شماتة الحساد

وهكذا تحفل الرسالة بالامثال وحل المنظوم والتضمين وانك لا تقضي في قراءتها حتى ترى الاقتباس من آيات القرآن في استكبار ابليس السجود لآدم، وقصة نوح، وعجل بني اسرائيل، وجيش طالوت . . . وتوقفك الاشارات التاريخية الى حياة محمد، وبيعة ابي بكر، وفتك ابي شجرة السلمي بجيش خالد بن الوليد، وغير ذلك من حوادث التاريخ، مما يجعل هذه الرسائل، ولاسيما في ايام ابن الخطيب ومن اتى بعده، أغزاً وأحجية، لا تُقرأ إلا بشق النفس .

(١) النعماء : الفضل (٢) عطله من حليه : نزعته عنه (٣) اشار الكاتب بقوله هذا الى شعر المتني :

أنا الذي نظرت الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلهاقي من به صمم

(٤) مثل، ومعناه أن الحذر قد يقع في الشر الذي يخاف منه، حيث يأمنه (٥) الأمانة : ما يؤمله الانسان ويتمناه (٦) الحين : الهلاك (٧) جهد الحريس : طاقته . وهذا مثل عند العرب . قال عدي بن زيد :

قد يدرك المبطي من خطيه والحين قد يسبق جهد الحريس

٣ - التصنيف : اما التصنيف فقد كان معدوماً في الطور الاول، ولم يتسع مجاله الا بعد ان اندفقت ثقافة المشرق العباسي على الاندلس، فهب ادباؤها يجارون المشاركة في كل فن وفي كل علم، من لغة وعلوم طبيعية ورياضية وفلسفية وتاريخ وجغرافية . اما المؤلفات الادبية فمنها المجاميع « كالعقد الفريد » لابن عبد ربه، و « الذخيرة » لابن بسام، و « قلائد العقيان » و « مطمح الانفس » لابن خاقان، ومنها النقدية ككتاب « التوابع والزوابع » لابن شهيد .

اما اساليب الانشاء فتنبعت بتنوع الموضوعات، وتطورت تطور النثر الرسائي . فبينما ترى الكلام جزلاً بليغاً يجري مع الطبيعة عند ابن عبد ربه، يحلّيه السجع احياناً ولكن من غير إفراط، إذ تراه يصبح فيما بعد، حتى في كتب العلم والتاريخ، كالشعر المنشور، فيه من انواع المجاز والبديع والتنميق اللفظي الشيء الكثير . وهاك مثالين من نثر ابن عبد ربه ونثر ابن بسام . قال الاول في مقدمة عقده : « وبعد . فإنّ أهل كلّ طبقة، وجهابذة كلّ أمة، قد تكلّموا في الادب، وتفلسفوا في العلوم، على كلّ لسان، ومع كلّ زمان . وإنّ كلّ متكلم منهم قد استفرغ غايته، وبذل مجهوده، في اختصار بديع معاني المتقدمين، واختيار جواهر ألفاظ السالّفين . واكثروا في ذلك حتى احتاج المختصر منها الى اختصار، والمتخير الى اختيار » . هذا كلام ابن عبد ربه في مقدمته، حيث يتأنق، دونما تكلف، واما في سياق كتابه فيرسل القول بلا زخرف ولا سجع . فشتان ما بين اسلوبه واسلوب ابن بسام . قال صاحب الذخيرة في ترجمة ابن شهيد : « كان أبو عامر شيخ قرطبة وفتاه، ومبدأ الغاية القصوى ومُنتهاها، ينبوع آياتها ومادة حياتها، ومبنى أسائها ومُسَمِّياتها، نادرة الفلك الدوّار، وأعجوبة الليل والنهار، إن هزل فسجع الحسام، أو جدّ فزئير الاسد الضّرغام . نظم كما انتسّق الدُرُّ على الشجور، ونثر كما خلط المسك والكافور » . فلقد اصبح السجع، كما ترى، طريقة لا يحاد عنها، وحفل الكلام بالاستعارات والتشابه حتى اصبح من النادر ان يُعبّر عن معنى بلفظه الاصيل .

(١) الجهابذة ج جهبذ وهو الناقد الذي يعرف ان يميز الجيد من الرديء (٢) النحور ج نحر وهو أعلى الصدر .

بعض المراجع

- الدكتور شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي - ص ١٥٩ - ١٧٤ القاهرة ١٩٤٦
 انيس المقدسي : تطور الأساليب النثرية في الادب العربي - الجزء الاول - بيروت ١٩٣٥
 زكي مبارك : النثر الفني في القرن الرابع - القاهرة ١٩٣٤

موضوعات للبحث

- ١ - هل جرى تطوّر النثر في الاندلس تطوّرّه في الشرق، وهل كانت العوامل متشابهة؟
- ٢ - اوضح اثر النثر الاموي والعباسي في النثر الاندلسي .

الباب الثالث

مشاهير الأدباء

الفصل الاول : طور القلب

ابن عبد ربه - ابن هاني - ابن شهيد

١ - ابن عبد ربه :

١ حياته : هو احد موالى بني أمية . وُلد في قرطبة ونشأ فيها . أُلِّمَ بعلوم عصره ، وبرع في الادب نثراً وشعراً . اتصل بأربعة من امراء بني مروان ونال عندهم حظوة .
٢ آثاره : له في الشعر قصائد غزلية ووصفية وزهدية وحكمية ، فُقد أكثرها - وله في النثر كتاب « العقد الفريد » الذي يقع في ٢٥ باباً ، ويدور حول مواضيع اجتماعية ، واخلاقية ، وادبية ، وتاريخية .

٢ ميزات : شعره متين 'محكم قلماً ظهرت فيه آثار التجديد - اما كتاب العقد فقد نعتة الادباء « بالفريد » لمنزلة الرفيعة ، وقيمته الادبية . أسلوبه جزل راقٍ في المقدمات ، ومرسل طبيعي فيما عدا ذلك .

ب - ابن هاني :

١ حياته : وُلد في اشبيلية ، وحصل فيها حظاً وافراً من الادب . وكان ماجناً خليعاً . اتهم بالزندقة فتوجه الى المغرب ، حيث اتصل بالقائد جوهر وبالمعز لدين الله الفاطمي ، فدحهما . وفيما هو لاحق بالمعز الى مصر توفي في برقة .

٢ آثاره : له ديوان شعر يحتوي قصائد في المدح والهجاء والثناء والوصف .

٣ ميزات : هو في الطبقة الاولى بين شعراء الاندلس ، ومتني الغرب . في اسلوبه

مغالة وتقليد لأبي الطيب . لم يظهر فيه أثر كبير للبيئة الاندلسية الجديدة، وكثيراً ما اصطبغ شعره بالصبغة البدويّة .

ج — ابن شهيد :

١ حياته : وُلد في قرطبة من أسرة شريفة . وعاش في أزهى عصور اللغة والادب في الاندلس . برع في العلوم والكتابة والشعر . وكان ظريفاً يحبّ النكتة والدعابة . اتصل بالموثقن عبد العزيز وكتب له .

٢ آثاره : له شعر في المدح والوصف والغزل . وله في النثر رسائل ، أشهرها « التوابع والزوابع » التي حاكى فيها رسالة الغفران . موضوعها أحاديث مع شياطين الشعراء في العالم الآخر .

٣ ميزاته : شعره رشيق ، يبدو فيه خيال واسع . لكنه يخلو من الصبغة الجدّية . وأسلوبه سلس . أما نثره فتمتاز بموضوعاته الطريفة ، وأساليبه القصصية الباردة المستظرفة ، ولا سيما في رسالة « التوابع والزوابع » التي لا تخلو من السجع والعبارات المتكلفة الغامضة .

١ — ابن عبد ربه (٨٦٠ — ٩٤٠ م / ٢٤٦ — ٣٢٨ هـ)

١ حياته : هو أبو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه . كان جده سالم مولى لهشام ابن عبد الرحمن الداخل ثاني خلفاء بني أمية في الاندلس . ولد في قرطبة سنة ٨٦٠ م (٢٤٦ هـ) وترعرع فيها ميلاً الى العلم والادب . فبرع في الفقه والتاريخ وأطلع على الموسيقى والطب ، واتقن الشعر والكتابة . وعاصر من خلفاء بني أمية محمداً الاول ، والمنذر ، وعبد الله وعبد الرحمن الثالث . ومدح هؤلاء الامراء فأكرموه . ومما يُنقل عنه انه كان في ايام الصبا لاهياً مولعاً بالغناء ، فنظم الشعر في الغزل والتشبيب ، ولما داهمته الشيخوخة فزع الى ربه ، وندم على سالف حاله ، ففعل مثل أبي نواس وغيره ، وأنشأ القصائد الزهدية على اوزان شعره الغزلي وقوافيه ، ليخص الله عنه ذنوب شبابه ، اي يطهره منها ، ولذا سُميت « بالمختصات » . ومات ابن عبد ربه سنة ٩٤٠ م (٣٢٨ هـ) بعد ان أصيب بالقالج .

٢ آثاره : اشتهر ابن عبد ربه بالشعر والكتابة، وخلف فيها آثاراً . أما آثاره الشعرية فكانت وافرة غزيرة، إذ رأى له منها الحميدي، على ما روى ياقوت، أكثر من عشرين جزءاً، 'جمعت للحكم بن عبد الرحمن الناصر، ومعظمها مكتوب بخطه . وقد فقد منها القسم الأكبر، فلم يُنقل إلينا سوى ما دونه له الثعالبي في يتيمة الدهر . وكانت اغراض شعره الغزل، والتشبيب، والوصف، والمديح والرثاء، والتاريخ، والزهد، والحكم .

وله في النثر كتاب العقد الفريد، الذي كسره على ٢٥ باباً، جعل لكل بابين منها اسم جوهرة، لتقابلها بالنسبة الى الواسطة، فنُظمت بائتلاف الجواهر قلادة جميلة . وموضوعات الكتاب اجتماعية وسياسية واخلاقية وادبية وتاريخية . ولقد تبع فيه ابن عبد ربه قاعدة مقررة في الادب، ونهجاً مطروحاً سلك قبله وسيسلك بعده، لان القدماء كانوا يعرفون الادب، كما أورد ذلك ابن خلدون، بأنه « حفظ اشعار العرب واخبارها، والاخذ من كل علم بطرف » . وقد قصره المؤلف على اخبار المشاركة، ولعل السبب في ذلك ان الشرق هو في نظر الاندلسيين موطن اللغة والادب، تحتل مؤلفاته المكان المرموق، واليه تتجه الانظار . وقيل، انه لما وقع الكتاب في يد الصاحب بن عباد، واقبل عليه ينشد فيه أدباً جديداً، طواه آسفاً، لما رآه خالياً من أدب الاندلس، وقال : « هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا » .

٣ مبرانه : أولع ابن عبد ربه بمحاكاة أهل المشرق، ولم يساير النزعة التجديدية في بلاده، وهي بعد ضئيلة ضعيفة، فكان شعره متيناً محكماً، ولكن آثار التجديد لم تظهر فيه بيّنة واضحة . ورُويت له موشحات واكبتها كسدت، ولم ينل فيها من الشهرة ما ناله الشعراء المتأخرون . وحاول ابن عبد ربه ان ينشئ ملحمة شعرية، في قصيدته المتضمنة اخبار عبد الرحمن الناصر والتي تربو أبياتها

على الاربع مئة، ولكنه اخفق، لضعف النَّفْس الشعري فيها . فهي الى النوع التعليمي اقرب منها الى النوع الخيالي او الوجداني .

واما شهرته في الكتابة فهي قائمة على كتاب العقد، الذي تواطأ الادباء على نعتهم « بالفريد »، لجودته ونفاسته . فهو مرجع للاديب، والاعوي، والعروضي، وصاحب الاخبار والملح .

كانت غاية ابن عبد ربه في العقد الفريد ادبية لاعلمية ؛ فهو، على ما قال محمد سعيد العريان : « يروي النادرة لحلاوة موقعها لا لصحة الرأي فيها، ويختار الخبر لتمام معناه لا لصواب موقعه عند اهل الرأي والنظر والاختصاص . . . ذلك كان شأنه وشأن المؤلفين في هذا الفن من قبله ومن بعده، على حدود متعارفة بينهم ورسوم موضوعة » .

اما اسلوب ابن عبد ربه فهو، في المقدمات، جزل، محكم، قصير الفقرات، ينمقه السجع عن غير التزام ولا كثرة ؛ واذا ما بلغ المؤلف موضوعه، اطلق لقلبه العنان، فجاء كلامه مرسلاً طبيعياً، لا تعمل فيه ولا زخرف . فتقصر جملة وتطول حسب مقتضى الحال .

ولقد كان للعقد اثر كبير في مؤلفات بعض اهل المشرق . فأخذ عنه القلقشندي في صبح الاعشى، والبغدادي في خزانة الادب، وابن خلدون في المقدمة وغيرهم كثيرون ممن دونوا القصص والنوادر والاخبار .

ب — ابن هاني (٩٣٨ — ٩٧٣ م / ٣٢٦ — ٣٦٢ هـ)

١ هبانه : وُلد ابو القاسم محمد بن هاني الازدي الاندلسي في مدينة إشبيلية . ونشأ في تربة خصيبة بالعلم والادب، اذ كانت اشبيلية آنذاك في عصرها الذهبي، تزخر بالثقافة والحضارة . فنظم الشعر وبرع فيه، واتصل بصاحب



اشبيلية : البهو في القصر الملكي

المدينة ونال عنده حظوة . غير انه مال الى اللهو والمجون، يقطف من ثمارهما دون رادع ولا وازع، وغالى في قوله حتى اتهم بالزندقة، ولا سيما وانه كان من طلاب الفلسفة التي ينكرها الناس في الاندلس . فنقم عليه اهل المدينة، وأوعز اليه

عاملها بالنزوح عنها ليهدأ ناثر القوم . فجاء شاعرنا المغرب، واتصل هناك بجوهر قائد المنصور الفاطمي، فدحه . وساعده الحظ فقرَّب به المعز بن المنصور اليه، وأغدق عليه العطايا . ولما فتح جوهر مصر ومضى اليها المعز، تخلف عنه الشاعر ريثما يأخذ عياله ويلحق به . وفيما هو في طريقه الى مصر، توقف في برقة، عند رجل أضافه . فراح يقصف ويسكر . وبعد ذلك وجد في السوق ميتاً وهو لم يتجاوز الست والثلاثين من سنه . وقيل ان الندامى المعربدين قتلوه، او ان سكرة الشرب قادتة الى سكرة الموت . وكان ذلك عام ٩٧٣ م (٣٦٢ هـ) .

٢ آثاره : ترك ابن هاني جملة من القصائد جمعت في ديوان طبع في مصر ثم في بيروت عام ١٨٨٤ . واكثره في المدح، وفيه هجاء ورثاء ووصف .

٣ مبراته : ابن هاني في الطبقة الاولى بين شعراء الاندلس . وقد قال المعز عندما بلغه خبر وفاته : « هذا الرجل كنا نرجو ان نفاخر به شعراء الشرق، فلم يقدر لنا ذلك » .

أولع شاعرنا بطريقة المتنبي وسار على منهاجه، فتطلب القوة في افكاره واوزانه والفاظه، وامعن في المغالاة حتى اذا مدح جعل الممدوح افضل الناس طراً، بل جمع فيه صفات الكمال وبلغ به الى شيء من الالوهة :

هو عليه الدنيا ومن خلقت له وليعلم ما كانت الاشياء
ليست سماء الله ما ترونها لكن أرضاً تحتوب سماء
تركت ملائكة السماء بنصره وأطاعه الإصباح والإساء

واكثر ابن هاني من وصف الجيوش والمعارك، فعلى المتنبي، وكان شعره جزلاً، قوي الأسر يكثر فيه الغريب من الالفاظ . وهذا ما حمل أبا العلاء على الاشتزاز من الموازنة بين المتنبي وابن هاني، وقد نعت الاندلسي بقوله : « ما أشبهه إلا برحى تطحن قروناً لاجل القمعة التي في الفاظه » .

ومهما يكن من امر، فإن ابن هانئ، وإن دعاه الادباء متبني الغرب، قد بقي بعيداً عن ابي الطيب بعد التقليد عن الطبع . فقعقة الفاظه وصوره البراقة وتشابيهه الغريبة تستر غالباً معاني معروفة او ضعيفة .

وكنا نتوقع ان يمثل ابن هانئ بيئته الجديدة، ولكن عوامل التقليد تسلبت عليه، فاصطبغ كثير من شعره باللون البدوي في الأسلوب والمعاني : فهو يحوب بمخيلته الجزيرة العربية، ويتفقد الحبيبة، ويصف الصحاري برمالها وآرامها وعقباتها وإبلها وخيلها . إلا أنه لم ينس ما حوله تماماً، فتخللت مدائح اوصاف شتى للطبيعة الاندلسية ومباهجها .

وعلى الجملة، ان شعر ابن هانئ لا يسمعننا سوى صدى خافت للانغام الجديدة، لا يتعلق به السمع .

ج - ابن شهيد (٩٩٢ - ١٠٣٤ م / ٣٨٢ - ٤٢٦ هـ)

١ مباحث : هو ابو عامر، احمد بن ابي مروان بن شهيد . ولد سنة ٩٩٢ م (٣٨٢ هـ) من أسرة شريفة لها مكانتها عند الخلفاء والامراء، ونشأ في قرطبة وهي اذ ذاك في أزهى عهودها، تتجلى فيها الثقافة الاندلسية بأبهى مظاهرها . فغرف منها ما امتدت اليه يداه، فكان كاتباً نحريراً وشاعراً مطبوعاً . وهو الى ذلك ظريف المعشر، يهوى النكتة والدعابة، ويجب مجالس الأئس ولا يحجم عن المجون والخلاعة . اتصل بالموثقن عبد العزيز العامري صاحب قرطبة، وكتب له، وكانت وفاته سنة ١٠٣٤ م (٤٢٦ هـ) .

٢ آثاره : لم يتوفر ابن شهيد على الشعر كما توفر على النثر، فكان له في الشعر قصائد مدحية ووصفية وغزلية، حفظها لنا من دونوا تاريخ الادب الاندلسي . اما آثاره النثرية فرسائل تناول فيها اغراضاً شتى . منها رسالته

في الخلواء حيث ذهب مذهب الهمداني في مقامته المضيرية ؛ ورسائله في وصف
البرد والنار والخطب، ورسائله المدعوة «حانوت عطار» . واشهر رسائله على الاطلاق
رسائله المسماة بالتوابع^١ والزوابع^٢ . وهي شبيهة برسالة الغفران لابي العلاء
المعري . اما موضوعها فمقامٌ على مرافقة الكاتب لشیطانہ الى عالم الارواح حيث
التقى بشياطين كثير من الشعراء الجاهليين والاسلاميين والعباسيين كما التقى بشياطين
بعض من كتّاب المشرق، فأنشده اشعاراً لأصحابهم وأنشدهم من شعره، وعرض
على توابع الكتاب شيئاً من رسائله . وفي الكتاب نقد ادبي يأتي في سياق الحديث .

٣ مبرراته :

١ - شعر ابن شهيد رشيق، يجتذبه خيال واسع . ولكن التفكير فيه
ضعيف لان صاحبه كان هازلاً لاهياً ينقصه الجِدّ والرصانة . وأسلوبه سلس
العبارة، جذّاب، لما فيه من الدعابة والرقّة في موضوعات اللهو . واكثر لهوه
مقبول، خالٍ من الفحش والهجس .

٢ - اما نثره، فيمتاز أولاً بموضوعاته الطريفة النادرة في النثر العربي، كما
نرى ذلك في رسالة التوابع والزوابع، ورسالة الخلواء، وما كتبه على لسان الحيوان،
ووصفه لشعل وبوغوث وبعوضة وغير ذلك . فهذه الرسائل وإن لم تكن بدعة
هي شاهد على سعة اطلاع صاحبها، وميله الخاص الى الفن القصصي . ويمتاز نثره
ايضاً بأساليبه البارة المستظرفة . فهو يفيض بالفكاهة حتى قيل عنه : «إنه
في تنسيق المزمل والنادرة الحارة اقدر منه على غير ذلك» . وهذا ما يقرب به من
الجاحظ . فنراه، في رسالة التوابع والزوابع يُقبل الى بركة في وادي الجن فيرى
حولها طائفة من الحُمُر والبغال . فتتقدم بغلة عليها الجُلّ والبرقع فتنشده شعراً
وتقول له : «أما تعرفني ابا عامر؟» فيقول : «لو كانت ثمّ علامة» . فأماطت

(١) التوابع ج تابعة وتابع : الجنّي (٢) الزوابع ج زوبعة وهي الشيطان او رئيس الجنّ .

لثامها فإذا هي بغلة ابي عيسى، والخال على خدّها . فتباكيا طويلاً واخذاً في ذكر أيامهما . وكلام ابن شهيد مسجّع عن غير اطّراد، فيه كثير من العبارات الغامضة الخافية المعنى، والاشارات والتلميحات المحتاجة الى شرح وإيضاح . إلا أن كاتبنا لم يعن في استعمال البديع .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- فؤاد البستاني : ابن عبد ربه - الروائع ٨ و ٩ - بيروت ١٩٢٧
 جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية - القاهرة ١٩٣٠
 جبرائيل جبور: ابن عبد ربه وعقده - بيروت
 سعيد عريان : العقد الفريد - القاهرة ١٩٤٠
 زكي مبارك : النثر الفني في القرن الرابع - القاهرة ١٩٣٤
 شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي - القاهرة ١٩٤٥
 » » : الفن ومذاهبه في النثر العربي - القاهرة ١٩٤٦
 سيد نوفل : شعر الطبيعة في الادب العربي - القاهرة ١٩٤٥
 حميد الدجيلي : ابن هانئ - مجلة العرفان ٢٥ : ٩٠١

٢ المراجع الاجنبية :

Brockelmann : Ibn Abd Rabbihi, in Encycl. de l'Islam, t. II, 375-376.

Moh. Ben Cheneb : Ibn Hani, ibid., t. II, 406-407.

Brockelmann : Geschichte der arabischen Litteratur, I.

مشاهير الادباء

الفصل الثاني : طور الانتقال

ابن زيدون - المعتمد بن عباد

١ - ابن زيدون :

١ حياته : وُلد في قرطبة في حجر أسرة شريفة . نال ثقافة واسعة . من اهم احداث حياته حبه لولادة الشاعرة ، ومنافسة ابن عبدوس له ، وسجنه ، ثم وزارته للمعتضد والمعتمد .

٢ آثاره : له ديوان شعر فيه مدح ، وثناء ، وعتاب ، وغزل ووصف ؛ وله رسائل من اشهرها الرسالة الهزلية ، والرسالة الجدّية .

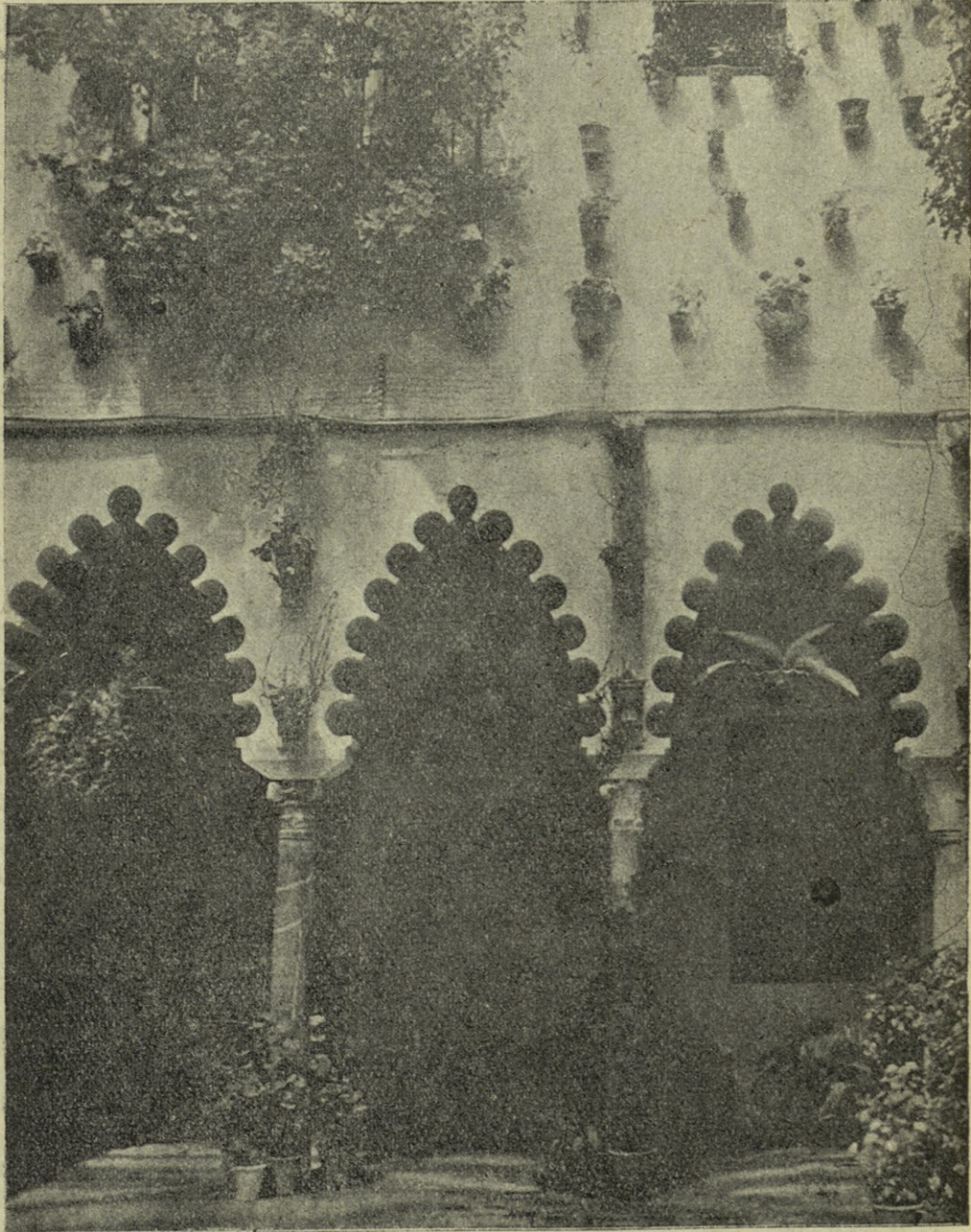
٣ ميّزاته : هو من اكبر ادباء الاندلس . يكتنّز شعره بالعواطف التي اثارها حبّ ولادة . ويظهر فيه التعلق بالبيئة الجديدة - إلا انه كثير التقليد لشعراء المشرق ولاسيا البحرّي . وهو في نثره طويل النفس ، يورد الامثال والاشعار ويقتبس من القرآن والتاريخ . ويتبع احياناً أسلوب الجاحظ - فأدبه يمثل طور الانتقال .

ب - المعتمد بن عباد :

هو ابن المعتضد صاحب اشبيلية ، ورث الملك عن ابيه ، وكان شاعراً يعزّز الادب . اسره ابن تاشفين ونفاه الى أغمت ، حيث توفّي . له قصائد شعرية تمتاز بالصبغة الوجدانية الشخصية في استعطاف ابيه والتظلم من الدهر .

١ - ابن زيدون (١٠٠٣ - ١٠٧١ م / ٣٩٤ - ٤٦٣ هـ)

١ مباد : هو أبو الوليد احمد بن عبد الله بن زيدون المخزومي . وُلد في قرطبة



قرطبة : قصر عربي

سنة ١٠٠٣ م (٣٩٤ هـ) وكان سليل اسرة شريفة . وقد كرّس اول سنينه للدرس فأبلغه جدّه ونبوغه الطبيعي الى الشهرة وهو بعد لم يتجاوز العشرين من عمره . وكان قد استقى ثقافة واسعة من معين العصر الزاهي الذي عاش فيه ، ملماً بطرف

من كل العلوم وبارعاً في الادب نثره وشعره . وقد ساهم الشاعر في الفتنة التي زلزلت اساس الدولة الاموية، فقامت على انقاضها في قرطبة دولة بني جهور (١٠٣٠ - ١٠٦٨ م) فتقرب ابن زيدون من مؤسسها فأناله لقب « ذي الوزارتين ». ومن اهم احداث حياته : حبه لولادة الذي اخذ منه كل مأخذ واوحى اليه بالكثير من شعره . وجرت بينه وبين الوزير ابن عبدوس منافسات لاشتراكهما في ذاك الحب . فأوغر عليه ابن عبدوس صدر الملك فسيجنه . فأنشأ ابن زيدون كثيراً من القصائد والرسائل يستعطف بها ابن جهور، ولما لم يظفر بنيل عفوه فرّ من السجن . وعاد لحظي عند ابي الوليد ابن الملك المائت بمكانة عالية، ولكنه خاف وشي الحساد واعدائه، فراح يتنقل في البلاد الاندلسية حتى اتصل اخيراً بالمعتضد صاحب إشبيلية فألقى اليه هذا مقاييد الوزارة . ولما ملك المعتضد بن المعتضد قرب اليه الشاعر وتوصل بتدبيره الى الاستيلاء على قرطبة فانتقل اليها معه، وجعلها قاعدة ملكه . ولما شبت ثورة إشبيلية على اليهود سعى اعداء ابن زيدون لدى المعتضد ليرسله اليها، ففازوا بإقصائه . وهناك وافته المنية سنة ١٠٧١ م (٤٦٣ هـ) فدُفن باحتفال مهيب .

٢ آثاره : لابن زيدون ديوان شعر نشره في مصر كامل الكيلاني وعبد الرحمن خليفة . وهو يضم بين دفتيه قصائد مدح ورناء وعتاب وغزل ووصف . وله ايضاً مجموعة من الرسائل، أشهرها رسالته الاستعطافية التي حاول فيها ان يستميل قلب ابن جهور فيخرجه من السجن، ورسالته الهزلية التي جعلها جواباً على لسان ولادة الى ابن عبدوس وكان هذا قد سعى في استمالتها اليه .

٣ ميراثه : ابن زيدون من اكبر شعراء الاندلس . وشعره الوجداني مغمور بعاطفة قوية متلوحة وصادقة، تسيل في ابيات كلها رقة . ولعل أشهر قصائده في هذا الباب نونيته التي يشكو فيها وجده الى ولادة :

أضحى التناي بديلاً من تدافينا وناب عن طيب لُقيانا نجافينا . . .

بِنْتُمْ وَبِنَاءً قَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَاقِينَا
نَكَادُ حِينَ نُنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى كَوْلًا تَأْسِينًا^٢...

وابن زيدون مغرم بالاندلس وجمالها، فالطبيعة مرتع شبابه وحاضنة لهوه، فهو يحبها لا لنفسها بل لما فسحت له من مجال اللهو . فإذا ما فاتته المتعة، جالت بخاطره الذكريات وعأوده الحنين والحسرة فيقول :

أَقْرُطِبُهُ الْفَرَاءَ هَلْ فِيكَ مَطْمَعٌ
وَهَلْ كَعِيدٌ حَرَى لِبَيْنِكَ تَنْقَعُ^٣
وَهَلْ لِلْيَالِيكِ الْحَمِيدَةُ مَرْجَعُ
إِذِ الْحَسَنُ مَرَأَى فِيكَ وَاللَّهُوُ مَسْمَعُ
وَإِذَا كَسَفَ الدُّنْيَا لَدَيْكَ مُوْطَأُ^٤

وشاعرنا كثير التقليد، يجري في مدحه مجرى المشاركة، وكثيراً ما يستعير معانيهم في شعره . فنونيته الشهيرة نفسها، اذا ما استقرت معانيها، قلما تقع منها على الجديد المستحدث . وكان ابن زيدون يُكثر من تقليد البحري حتى دعاه الادباء «بحري الغرب»، وقد نما نحوه في حسن النظم، ودقة الانسجام واشترك معه في صور كثيرة .

وكان ابن زيدون في نثره ولاسيما الادبي منه كرساليته الهزلية والاستعطافية يميل الى الاطناب والسجع، ويورد الامثال والشعار، حتى تكاد تكون رسائله منسوجة من اقوال الشعراء، وامثال العرب، والتلميحات التاريخية والآيات القرآنية . وهو في رسالته الهزلية ينحون نحو الجاحظ في رسالة الترييع والتدوير، فيقول لابن عبدوس : «إِنَّ بَطْلِيمُوسَ سَوَّى الْأَسْطُرْلَابَ بِتَدْبِيرِكَ، وَصَوَّرَ الْكُرَّةَ عَلَى تَقْدِيرِكَ، وَبُقْرَاطَ عِلِمِ الْعِلَلِ وَالْأَمْرَاضِ بِلُطْفِ حِسِّكَ، وَجَالِينُوسَ عَرَفَ طِبَائِعَ الْخَشَائِشِ بِدِقَّةِ حَدْسِكَ، وَكَلَامُهُمَا قَلْدَكَ فِي الْمِلَاجِ، وَسَأَلَكَ عَنِ الْمَزَاجِ، وَاسْتَوْصَفَكَ تَرْكِيبَ الْأَعْضَاءِ، وَاسْتَشَارَكَ فِي الدَّوَاءِ وَالِدَّاءِ...»

(١) بان : بُعد (٢) الأسى : الحزن . التأسي : التعزّي (٣) نَقَعَ بالشراب : اشتفى منه (٤) الكنف : الجانب والظل . موْطَأً : مدلل، ميسر (٥) الحدس : سرعة الانتقال في الفهم والاستنتاج .

وعلى الجملة إن ابن زيدون يمثل طور الانتقال من الادب الاموي الى الادب العباسي، في الاندلس . فهو، وان لم يخلق جديداً وان طبع على غرار اهل المشرق، يحتل بين ادباء مصره وعصره مكاناً رفيعاً .

ب — المعتمد بن عباد (١٠٤٠ — ١٠٩٥ م / ٤٣١ — ٤٨٨ هـ)

١ **هبار** : هو ابن المعتضد العبادي صاحب اشبيلية . اصبح وريث العرش بعد موت اخيه البكر اسماعيل، وجلس فيه سنة ١٠٦٩ م (٤٦١ هـ) واتخذ له وزيراً ابن عمّار الشاعر . وكان هو نفسه شاعراً وكاتباً . فتوافد اليه الادباء والعلماء، فاکرم مشواهم . امتلك قرطبة واتسع سلطانه حتى بلغ مرسية . ولكن خوفه من الادفـنـش ملك قشتالة (ألفـنـس السادس) جعله يستنجد بيوسف ابن تـلـشـفـين صاحب مرّاكش . ولكن هذا بعد دحره الفونس وجيوشه، عمل سراً على الاستئثار بالملك في بلاد الاندلس . فاثار الفتن على المعتمد، واستحوذ على قرطبة فإشبيلية . واستسلم المعتمد للأسر، فحُمل وأهله الى أغمت، قرب مرّاكش، وهنال وافته المنية بعد ان قاسى مرارة الفقر والهوان .

٢ **شعره** : للمعتمد بن عباد قصائد مبثوثة في كتب الادب . ومن ميزات شعره صبغته الوجدانية الشخصية . فليس شاعرنا بالمتكسب المتهافت على المال يجمعه عن طريق المدح، ولا هو بالمتخذ الشعر حرفة وصناعة، ولكنه يستعمله اداة للتعبير عن مشاعره، وعما تُوقد في صدره حوادث الدهر من عواطف واختلاجات . وهذا ما يجعل بينه وبين ابي فراس الحمداني شبيهاً كبيراً . ولا سيما وان الايام قد ناءت عليه بكل كـلـهـا، فذل بعد عز، وأسر ونفي بعد ملك، فكان له من ذكريات الماضي السعيد جرح يُض ولا يندمل . وشعره سهل بسيط،

ليس فيه تعمّل ولا تصنع، لا تعدوه صور الخيال، ولا رقة العاطفة . يستعطف
شاعرنا اباه، بعد ان هزم في موقعة، فيقول بلطف :

أَجِيبْ نِدَاءَ أَخِي قَلْبَ مَلِكِهِ أَسَى، وَذِي مُقَلَّةٍ أَوْدَى بِهَا السَّيْرُ ...
رِضَاكَ رَاحَةً نَفْسِي لَا فُجِعْتُ بِهِ فَهُوَ الْعَتَادُ الَّذِي لِلدَّهْرِ أَدَّخِرُ
هُوَ الْمُدَامُ الَّتِي أَسْلُو بِهَا فَإِذَا عَدِمْتُهَا، عَبِثْتُ فِي قَلْبِي الْفَكْرُ

ويبدو له سخط والده كسجاجة مطبقة لا يقشعها الا ريح الرضى :

عَلَّتْنِي مِنَ السُّخْطِ الْأَلِيمِ سَجَابَةٌ فَأَغْرَبَهَا رِيحَ الرِّضَى كِي تَقْشَعَا

ولما كان في الاسر كان شعره صوت الالم الشاكي في رصانة واباء . ولقد
سار بين الناس ذكر هذا الملك الشاعر، ولكن شهرته قائمة على ما اثارته حياته
المنكوبة من الشفقة في النفوس، اكثر مما قامت على فنه الادبي .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي - القاهرة ١٩٤٥

» : » » في النثر العربي - القاهرة ١٩٤٦

نهاد رفعة عنايه : ابن زيدون - دمشق ١٩٣٩

كامل كيلاني : مقدمة ديوان ابن زيدون - القاهرة ١٩٣٢

احمد الاسكندري : ابن زيدون : مجلة المجمع العلمي العربي ١١ : ٥١٣، ٥٧٥، ٦٥٦

٢ المراجع الاجنبية :

E. Lévi-Provençal : Al-Mutamid, in Encycl. de l'Islam, t. III, p. 832-834.

Dozy : Scriptorum arabum loci de Abbadidis. Leyde 1846.

A. Cour : Ibn Zaidūn, in Encycl. de l'Islam t. II. p. 455-456.

Brockelmann : Geschichte der arabischen Litteratur I.

مشاهير الادباء

الفصل الثالث : طور القمبر

ابن حمديس الصقليّ - ابن خفاجة

ابن سهل الاسرائيلي - لسان الدين بن الخطيب

ا - ابن حمديس الصقليّ : وُلد في صقلية - هرب يافعاً الى الاندلس واتصل بالمعتمد بن عباد - له ديوان شعر يمتاز بدقة التصوير، ورقة الشعور، والرصانة.

ب - ابن خفاجة : وُلد في جزيرة سُقُر وعاش في عهد دولة المرابطين. واشتهر بالشعر والنثر. له ديوان فيه مدح وعتاب، وورثاء، ويكثر فيه الوصف - ابن خفاجة هو شاعر الطبيعة، فقد استغرقت خياله، فتغنى بحاسنها، واكثر معانيه منتزعة من مشاهداتها. وهو ميال الى استعمال اوجه البديع فيظهر عنده التكلف والتعمل احياناً - له ايضاً قطع نثرية هي شعر منشور.

ج - ابن سهل الاسرائيلي : وُلد في إشبيلية ومات غريقاً. له ديوان شعر اكثره في الغزل. وهو فيه مقلد لمعاني من سبقوه، ولكنه جامع، ولفظه رقيق واسلوبه سهل سلس.

د - لسان الدين بن الخطيب : كان مولده في لوشه، وقيل في غرناطة، استوزره ابو الحجاج يوسف سلطان غرناطة، وابنه من بعده. نسب إليه حساده الزندقة، فاعتقل في فاس وخُنق ليلاً في سجنه. له مؤلفات كثيرة في التاريخ، والاخبار، ورسائل وديوان شعر. كان واسع الاطلاع شديد العناية بالصناعة اللفظية والتنميق، يميل الى الإطالة والاطناب.

١ — ابن حمديس الصقليّ (١٠٥٥ — ١١٣٢ م / ٤٤٧ — ٥٢٧ هـ)

وُلد في سيراكوزة من أعمال صقلية، ثم جلا عنها لما استولى عليها الزمنديون، فتوجه الى اسبانية وقصد إشبيلية . وكان يرغب في الاتصال بالمعتمد بن عباد فلم يعبا به هذا في بدء الامر، ولكنه اخيراً قرّبه اليه . ولما دارت الدوائر على المعتمد فنقاه ابن تاشفين تبعه الشاعر الى منفاه . وبعد موت الملك العبادي اقام ابن حمديس في المهديّة قاعدة افريقية، ثم انتقل الى جزيرة مَيُورقة حيث وافاه الاجل سنة ١١٣٢ م (٥٢٧ هـ) .

ترك ابن حمديس ديوان شعر طبعه المستشرق الايطالي مُنكادا في بالمو سنة ١٨٨٣، وطبعه المستشرق كازونياري ايضاً في رومة سنة ١٨٩٧ . يمتاز شعر ابن حمديس بدقة التصوير في أوصافه، واخراجها في ثوب قشيب من نسج الخيال . فإذا وصف النهر أراك الصبا تصقل متنه وتظهر مكنوناته، واسمعتك في خريره شكايته من الجراح التي تشخنه بها أطراف الحصى التي في قعره :

ومُطَرِّدُ الأجزاءِ يَصْقِلُ مَتْنَهُ صَبًا أَعْلَسَتْ لِلْبَيْنِ مَا فِي ضَمِيرِهِ
جَرِيحَ بِأَطْرَافِ الحصى كُلِّمَا جَرَى عَلَيْهَا شَكَا أَوْجَاعَهُ بِخَرِيرِهِ

وكان شاعرنا مُرهف الاحساس، يغلب عليه التشاؤم، ولعل سبب ذلك نكبة بلاده وما حلّ بها بعد سقوطها في يد المفتحين، فندب الزمان وشكا الاخوان، وأحب العزلة، فقال :

وَلَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ يُرْهَبُ شَرُّهُمْ تَجَنَّبْتُهُمْ وَأَخْتَرْتُ وَحْدَةَ رَاهِبٍ

وذهب مذهب ابي العتاهية في الزهد واستغفار ربه وبكاء ذنوبه :

يَا ذُنُوبِي ثَقَلَتْ وَاللّهِ ظَهَرِي بَانَ عَذْرِي فَكَيْفَ يُقْبَلُ عَذْرِي
كَلَّمَا ثَبَّتْ سَاعَةٌ عُدْتُ أُخْرَى لِضُرُوبٍ مِنْ سُوءٍ فَعَلِي وَهَجْرِي

إلا ان ايامه لم تكن كلها مجلبة بالسواد فقد سنحت له اوقات عذبة انشرح فيها صدره، فال الى الطبيعة يصف محاسنها وينشد الشعر في النهر والزهر والقصور والبرك والصيد؛ وحضر مجالس الطرب، وخالط اصحاب اللهو، ولكنه كان وقور النفس لا يُسِف ولا يتاجن، وهو يقول عن نفسه :

أَصِفُ الرَّاحَ وَلَا أَشْرِبُهَا وَهِيَ بِالشَّدْوِ عَلَى الشَّرْبِ تَدُورُ

وشعر ابن حمديس انيق اللفظ بيّن المعنى، لا تعدوه الاستعارات والتشابه الجميلة عن غير تعقيد ولا مغالاة .

ب — ابن خفاجة (١٠٥٨ — ١١٣٨ م / ٤٥٠ — ٥٣٣ هـ)

هو ابو اسحق ابراهيم بن خفاجة . وُلد بجزيرة سُقُر من اعمال بلنسية . وعاش في ايام ملوك الطوائف إبان دولة المرابطين، ولكنه لم يتعرض لاسماحتهم . عكف على اللهو، وتعاطى الشعر والنثر فبرع فيهما حتى أعجب به مواطنوه وعدّوه واحد عصره . أقلع في كهولته عن صبوته، وعكف على وصف الطبيعة . وقد توفي سنة ١١٣٨ م (٥٣٣ هـ) .

لابن خفاجة ديوان طبع في مصر عام ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ م) فيه من انواع الشعر المدح والعتاب والثناء والشكوى والوصف وما الى ذلك . ولكن الوصف هو الغالب على ادب شاعرنا . فقد كانت بلدته من اجمل بقاع الاندلس واخصبها تربة . فنشأ ابن خفاجة بين احضانها، مولعاً بمجال الطبيعة، لا ينفك عيلاً ناظريه ومخيلته من محاسنها، ويتغنى بمشاهدها . فإذا مدح ابتدأ بالوصف، وانتزع من الطبيعة صوره، وإذا رثى مزج البكاء بالوصف مزجاً بليغاً، فتصبح دموع الباكين جداول ماء، واهتزاز اجسامهم كاهتزاز الغصن الندي، وانينهم كصوت قبرة نائمة :

في كلِّ نادٍ منك رَوْضٌ ثَنَاءٌ وبكلِّ خَدٍّ فيك جَدْوَلٌ ماءٌ
ولكلِّ شخصٍ هَزَّةُ الغُصْنِ النَّدَى غِبَّ البُكَاءِ وَرَنَّةُ المُكَّاءِ^١

وقد شخّص شاعرنا الطبيعة، فأحالتها الى نفوس ذات احساس، تنطق وتشكو، واذا الجبل نفسه يرتعش رعشة الموحدة فيقول :

وما خَفِقُ أَيْكِي غَيْرَ رَجْفَةٍ أَضْلَعُ وَلَا نَوْحٌ وَرَفِي غَيْرَ صَرْخَةٍ تَادِبِ
وما غَيَّضَ السَّلْوانُ دَمْعِي وَإِنَّمَا تَرَفَّتْ دُمُوعِي فِي فِرَاقِ الصَّوْاحِبِ^٢

فابن خفاجة هو من شعراء الطبيعة ولعلّ ميزته هي في الكثرة لا في الجودة . وقد أكثر شاعرنا من صبغ شعره بألوان البيان والبديع من استعارات وتشابيه وجناس وطباق ، وقاده هذا الميل الى التكلف ، فاستغلت معانيه أحياناً على القراء .

ولابن خفاجة قطع نثرية، تعتمد فيها اسلوب ابن العميد والهمذاني من حيث السجع والتعمّل، والتزام المحسنات اللفظية .

ج — ابن سهل الاسرائيلي (١٢٠٨ — ١٢٥١ م / ٦٠٥ — ٦٤٩ هـ)

هو ابراهيم ابن سهل الاسرائيلي الاشيلي . عاش ايام بني هود والمرابطين في بيئة علم وأدب وترّف . وتلمذ لاشهر علماء النحو واللغة والادب في ايامه . ثم اتصل بصاحب سبّته ابن خلاص، وكتب له . وقيل انه اسلم في آخر حياته . توفي غريقاً مع ابن خلاص .

لابن سهل منظومات كثيرة جمعها وبوّبها الشيخ حسن العطار، فنُشرت في مصر

(١) غِبَّ: بَعَدَ. المُكَّاءُ: طائر ابيض اللون له صغير حسن (٢) غَيَّضَ الدمعَ: حَبَسَهُ. نَزَفَ الماءَ: أَخْرَجَهُ كُلَّهُ.

سنة ١٢٧٩ هـ . وفي بيروت سنة ١٨٨٥ م . يشتمل شعره على الغزل والوثناء والمدح والوصف والزهد، ولكن أكثره في الغزل . وقد عبّر شاعرنا فيه عن كل ما جال في خاطره، لا بل حام على ما جادت به قرائح الشعراء قبله في هذا الموضوع، حتى أصبح ديوانه صورة لوله العشاق، ومجموعة لما يدبّ في نفوسهم من المعاني وفي قلوبهم من الاحساسات . ولكن ابن سهل علق بالالوصاف الظاهرة أكثر مما حفل باختلاجات النفوس . أما أسلوبه فوحيق سهل، قلماً يذهب فيه مذهب التكلف في الاستعارات والمحسنات؛ وصوره جميلة يرسم لنا فيها مشاهد فتانة بلباقة واناقة فيقول مثلاً في وصف الاصيل :

أَنْظُرْ إِلَى لَوْنِ الْأَصِيلِ كَأَنَّهُ لَا شَكَّ لَوْنُ مُودَعٍ لِفِرَاقٍ
وَالشَّمْسُ تَنْظُرُ نَحْوَهُ مُصْفَرَّةٌ قَدْ خَمَسَتْ خَدًّا مِنْ الْإِشْفَاقِ
لَا قَتَ بِحُسْرَى خَالِجٍ فَأَلْفَا خَجَلَ الصَّبَا وَمَدَامِعَ الْعُشَاقِ
سَقَطَتْ أَوَانُ غُرُوجِهَا مُحْمَرَّةٌ كَالْحَمْرِ خَرَّتْ مِنْ أَثَامِلِ سَاقِ

د — لسان الدين الخطيب (١٣١٣ — ١٣٧٤ م / ٧١٣ — ٧٧٦ هـ)

هو محمد بن عبد الله بن سعيد، من أسرة عربية سُلَمانِيَّة ترحلت الى الاندلس . وُلد في لُوشة وقيل في غرناطة . وشبَّ ميّالاً الى الدرس، يأخذ عن العلماء والادباء، حتى برع بالادب وعلوم اللغة والفقه والفلسفة والطب، فكان من اشهر رجال الاندلس لذلك العهد . استوزره ابو الحجاج يوسف سلطان غرناطة، ثم ابنه السلطان محمد بعده . وراح حسّاده يدبّرون له الدسائس، فنسبوا اليه الزندقة لسلكه مذهب الفلاسفة، فاعتُقل في فاس، فأرسل اليه اعداؤه رجالاً خنقوه في السجن سنة ١٣٧٤ م (٧٧٦ هـ) .

ترك لسان الدين مُصنّفات مشهورة في التاريخ، منها : « الإحاطة في تاريخ غرناطة » في ثلاثة مجلدات، و « الحُلل المرقومة » وهو تاريخ الخلفاء في المشرق

والاندلس وافريقية، و « الإيلام فيمن يبيع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام »
و « اللوحة البدرية في الدولة النصرانية » و « نفاضة الجراب » في وصف مدن
الاندلس وعلمائها . وألّف ايضاً في التصوف والموسيقى والفقه والطب . وله رسائل
كثيرة، جمع قسماً منها في كتابه « ريجانة الكتاب ونجمة المُنْتَاب » . وله ايضاً
ديوان شعر، ليس من الطبقة العالية، فيه موشحه المشهور الذي اتينا على ذكره في
باب الموشحات .

كان كاتبنا واسع الاطلاع، غدّي عقله بثقافة عصره، وبرع في اللغة العربية
وفنونها فكان من اكبر الكتّاب والادباء . اما أسلوبه فهو اصدق مثال على ما
صار اليه النثر الاندلسي في عصره الاخيرة، وهو قريب من أسلوب القاضي الفاضل .
واهم ميزاته الشغف بالمجاز والبديع حتى الاسراف، والاستكثار من الاشارات
التاريخية والعلمية، والاسهاب والاطناب، واعتماد السجع غالباً، مما يقود الى
التعقيد والتضيق، فيملّ القارئ ذلك الزخرف، وتلك الصور المتتابعة، والصنعة
المتكلفة . قال في رسالة عن لسان سلطان غرناطة الى ملك مصر : « وُعِدْنَا الى
أريكة مُلْكِنَا كما رَجَعَ القمرُ الى بَيْتِهِ، أَوْ الْعَقْدُ الى جَيْدِهِ، بَعْدَ انْتِشَارِ قَرِيدِهِ، أَوْ
الطَّيْرُ الى وَكْرِهِ، مُفْلِتًا من غَوْلِ الشَّرِّكِ وَمَكْرِهِ . . . فطَوَيْنَا بِسَاطَ الْعِتَابِ طِيَّ الْكِتَابِ،
وعَاجَلْنَا سُطُورَ الْمَوَاحِظِ بِالْاضْطِرَابِ، وَأَنْسَنَا نُفُوسَ الْاِقْتِرَافِ بِالْاِقْتِرَابِ، وَسَهَّلْنَا
الْوُصُولَ، وَاسْتَغْفَرْنَا اللَّهَ لِنَفْسِنَا وَلِمَنْ جَنَى عَلَيْنَا » . وفي هذا الكلام دليل على ان
الصنعة اصبحت مقياس البراعة، ووزن التفوق .

(١) الفريد : الدرّ الذي نُظِمَ وفُصِّلَ بغيره (٢) القول من غاله : اهلكه واخذه من
حيث لا يدري (٣) اقترف الذنب : فعَلَهُ .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي - القاهرة ١٩٤٦
 » : » : » في الشعر العربي - القاهرة ١٩٤٥
 انيس المقدسي : تطوّر الاساليب النثرية في الادب العربي - بيروت ١٩٣٥
 محمد كرد علي : لسان الدين بن الخطيب : مجلة المقتبس ٢ : ٥٠٥ - ٥١١

٢ المراجع الاجنبية :

- C. F. Seybold : Ibn Al-Haṭīb, in Encycl. de l'Islam t. II. p. 420-421.
 Brockelmann : Geschichte der arabischen Litteratur, t. I.

الباب الرابع

العلوم والفنون

١ — علوم اللغة : اشتهر فيها ابو العلي القالي صاحب « الأمالي »، وابو بكر الزبيدي، وابن التبان، وابن سيده صاحب « المحكم » و « المختص »، والشنتمري، وابن خروف .

٢ — علوم الدين : برع فيها يحيى بن يحيى الليثي، وعبد الملك بن حبيب السلمي، وابو عبد الرحمن بقي بن مخلد، والقاضي ابو محمد عبد الحق بن عطية، والقاضي عياض .

٣ — الطبيعيات : نبغ في الطب ابو القاسم الزهراوي صاحب « التصريف لمن عجز عن التأليف »؛ واولاد زهر . وكان ابن البيطار عالماً بالنبات ومنافعه وبالادوية، وله كتاب « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » .

٤ — الرياضيات : من اهلها ابو القاسم أصبغ بن محمد وله كتاب « الهندسة » . وابو الحكم عمرو الكرماني وابن رشد .
— ومن علماء الاندلس المشهورين عباس بن فرناس الذي حاول الطيران .

٥ — الفلسفة : من أعلامها ابن باجة، وابن طفيل صاحب « رسالة حي ابن يقظان »، وابن رشد وله مؤلفات كثيرة، وابن ميمون اليهودي . وهناك أيضاً كتابان في التحليل النفسي والاجتماع هما « طوق الحمامة » لابن حزم « وسراج الملوك » للطرطوشي .

٦ — التاريخ والجغرافية : تناولها بالبحث كثيرون، منهم ابن حبان، والفتح بن خاقان صاحب « الفلاذ » و « مطمح الانفس »، وابن بسام صاحب « الذخيرة »، وابن بشكوال، وابن الأثير القضاعي، وابو عبيد البكري، والشريف الإدريسي صاحب « نزهة المشتاق »، وابو عبد الله المازني، والرحالة بن جبير .

٧ — فن العمارة والنقش : تأثر الاندلسيون بطراز ما بين النهرين ومزجوه بالطراز الإسباني القديم . وشيدوا مباني فخمة زينوها بأفخر النقوش العربية، ومن اشتهرها قصر الحمراء في غرناطة .

٨ — الموسيقى : شاعت كثيراً، واشتهر بين المغنين زرياب .

راجت الثقافة في الاندلس وعزّزها الخلفاء فنقلوا من الشرق العباسي أهم ما صُنّف في العلوم، وأسسوا المعاهد في المدن والقرى، وشيّدوا المكتاتب، وشجّعوا الحركة العقلية . فاشتهر في الاندلس طائفة من العلماء، عني بعضهم باللغة، وبعضهم بعلوم الدين، وغيرهم بالطبيعيات والرياضيات والفلسفة والتاريخ والجغرافية . وكان للفنون عندهم شأن يذكر ولاسيا العبارة والموسيقى .

أ علوم اللغة : صنف المشتغلون باللغة المعاجم والشروح اللغوية، وكتباً في الصرف والنحو . وأنبههم ذكراً :

١ - ابو العلي القالي (٩٠١ - ٩٦٧ م / ٢٨٨ - ٣٥٦ هـ) : ولد ونشأ في ديار بكر، ثم رحل الى العراق فالاندلس، في أيام عبد الرحمن الناصر، واستوطن قرطبة، فدرس في مسجدّها، وهناك وضع كتاب « الامالي »، وفيه معلومات شتى في اللغة والنوادر والامثال؛ وله ايضاً كتاب « البارع » في اللغة، وهو من قبيل المعاجم .

٢ - ابو بكر الزبيدي (٩٨٩ م / ٣٧٩ هـ) : هو احد تلامذة القالي . كان بارعاً في النحو واللغة والنوادر والسير . وقد ولّاه تلميذه هشام بن المستنصر بالله قضاء اشبيلية، مسقط رأسه، وفيها توفي . ومن مؤلفاته « الواضح » في النحو والعربية، و « لحنُ العامة » .

٣ - ابن التيمان (١٠٤٤ م / ٤٣٦ هـ) : وُلد في مرسية وتوفي في المرية . له كتاب « الموعب » في اللغة، وميزته الاختصار والاكتناز . وابن سيده (١٠٦٥ م / ٤٥٨ هـ) وهو ضرير ابن ضرير لغوي، اصله من مرسية . ومن آثاره « المحكم » وهو معجم رُتبت الفاظه على ترتيب كتاب « العين » للخليل، و « المُخصّص » وهو معجم نادر رُتبت فيه المواد بحسب المعاني، فاذا ذكر شيئاً ذكر اوصافه واجزائه واستوعب الالفاظ الدالة عليه . طبع بمطبعة بولاق بمصر في ١٧ مجلداً .

٤ - الشَّتَمُورِي (١٠١٩ - ١٠٨٤ م / ٤١٠ - ٤٧٦ هـ) : من شروحه « شرح ديوان المتنبي » و « شرح الحماسة » . وابن خروف (١٢١٣ م / ٦١٠ هـ) وقد اشتهر بالنحو .

٢ علوم الدين : أشهر من عني من الاندلسيين بالتفسير والحديث والفقه والاصول والتوحيد يحيى بن يحيى اللِّسِّي (٨٤٩ م / ٢٣٤ هـ) وقد سمع من الامام مالك وروى عنه . وعبد الملك بن حبيب السَّلَمِيّ (٨٥٣ م / ٢٣٨ هـ) . سكن قرطبة، وبرع في فقه المالكية . وابو عبد الرحمن بقي بن مخلد (٨٨٩ م / ٢٧٦ هـ) وهو من اكبر أئمّة الحديث في الاندلس . والقاضي ابو محمد عبد الحق بن عطية الغرناطي (١١٤٨ م / ٥٤٢ هـ) وهو مفسر فقيه، ولي القضاء وتوفي بأورفة . والقاضي عياض (١١٤٩ م / ٥٤٤ هـ) . ولي القضاء بسبّطة، وكان إمام الحديث في زمانه .

٣ الطبيبات : تعاطى بعض الاندلسيين الطب والصيدلة ، فشخصوا الامراض وزاولوا الجراحة، وركبوا العقاقير النباتية . وكان الفلاسفة اكبر من اشتهر في هذه العلوم . ومن اهم من اشتهر غير الفلاسفة :

١ - ابو القاسم الزهراوي (١٠١٣ - ١١٢٢ م / ٤٠٣ - ٥١٦ هـ) : وُلد في الزهراء، وبرع في الطب، ووضع كتاباً ضخماً في نحو ٢٠ جزءاً سماه « التصريف لمن عجز عن التأليف »، وقد تكلم فيه على الطب النظري وعلى الجراحة . وهو اول من استعمل ربط الشريان لمنع النزيف . وقد اهتم به علماء الفرنج .

٢ - اسرة بني زُهو : توارث افرادها الطب، ونبغ منهم اطباء حاذقون، ألّفوا في الادوية والاغذية وما الى ذلك .

٣ - ابن البيطار (١٢٤٨ م / ٦٤٦ هـ) : بحث في رحلاته الطويلة عن

الاعشاب، حتى أصبح حجة في معرفة انواعها وصفاتها وأماكنها، وخصائصها . ومن مؤلفاته « الجامع لمفردات الادوية والاغذية » عدد فيه الادوية المقتبسة من الجماد والنبات والحيوان، بحسب الترتيب الهجائي .

٤ الرياضيات : اشهر من اشتغل بها : ابو القاسم اصْبَغ بن محمد (١٠٣٥ م / ٤٢٦ هـ) وكان عالماً في الحساب والهندسة والفلك، وله كتاب كبير في « الهندسة » . وابو الحَكَم عمرو الكَرْماني (١٠٦٦ م / ٤٥٨ هـ) وكان راسخاً في الطب والهندسة . وقيل ان الفيلسوف ابن رشد تنبّه للسُّفَع الشمسية .

ومن علماء الاندلس المشهورين ابو القاسم عَبَّاس بن فرناس (القرن التاسع المسيحي والثالث الهجري) وقد صنع آلة لمعرفة الاوقات سمّاها « المِثْقَال » ؛ وحاول ان يطير، فكسا جسمه بالريش، ومدّ ليديه جناحين، ولكنه نسي الذنب، فسقط بعد ان طار مسافة بعيدة، وتأذّى . وكان اول طيار اخترق الجو .

٥ الفلسفة : ذاعت في الاندلس مؤلفات الفلاسفة من امثال الفارابي وابن سينا واخوان الصفاء، فأقبل عليها الطلاب، فعارضهم الفقهاء والمتزمتون؛ اما الامراء فعززوا الفلسفة تارة، ونقموا عليها أخرى مسترضين رعاياهم باحراق الكتب الفلسفية، لوقوع اصحابها تحت تهمة الزندقة . وكان للفلاسفة ايضاً يد في الطب والموسيقى والفلك، وقد تأثروا بالفلسفة اليونانية، ولاسيما مذهب ارسطو والافلاطونية الحديثة . ومن مشاهيرهم :

١ - ابن باجة (١١٣٨ م / ٥٣٣ هـ) : مات مسموماً في فاس، وهو ابو الفلاسفة الاندلسيين، ومن مؤلفاته « مجموعة في الفلسفة والطب والطبيعات » . وابن طُفَيْل (١١٨٦ م / ٥٨١ هـ) ، وكان طبيب السلطان ابي يعقوب يوسف الموحدي . له

مؤلف فريد من نوعه، اسمه «رسالة حيّ بن يقظان» أو «اسرار الحكمة الاشراقية»، وهذه الرسالة رواية فلسفية اتى فيها المؤلف على وصف مذهب الافلاطونية الحديثة الاسلامية، وقد بلغ اليه حيّ، وهو العقل، بمعزل عن كل علم.

٢ - ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨ م / ٥٢٠ - ٥٩٥ هـ) : هو اكبر فلاسفة الاندلس . صار كبير القضاة في قرطبة، ولكنه اُتهم بالزندقة والخروج على الدين فأحرقت كتبه ونُفي . ثم عاد من منفاه قبيل وفاته وحظي لدى السلطان الموحدى . ومن مصنفاته الكثيرة «فلسفة ابن رشد» و «فصل المقال في ما بين الحكمة والشرعية من الاتصال»، و «تهافت التهافت» ردّاً فيه على الغزالي، و «تلخيص كتب أرسطو» .

٣ - موسى بن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤ م / ٥٢٩ - ٦٠١ هـ) : يهودي من قرطبة، رحل الى الشرق واستقرّ أخيراً في القاهرة . من مؤلفاته «دلالة الحيران» للتوفيق بين مبادئ الوحي ومبادئ الفلسفة، و «مشنا التوراة» حيث درس بطريقة منظّمة الشرائع والتقاليد الدينية الاسرائيلية .

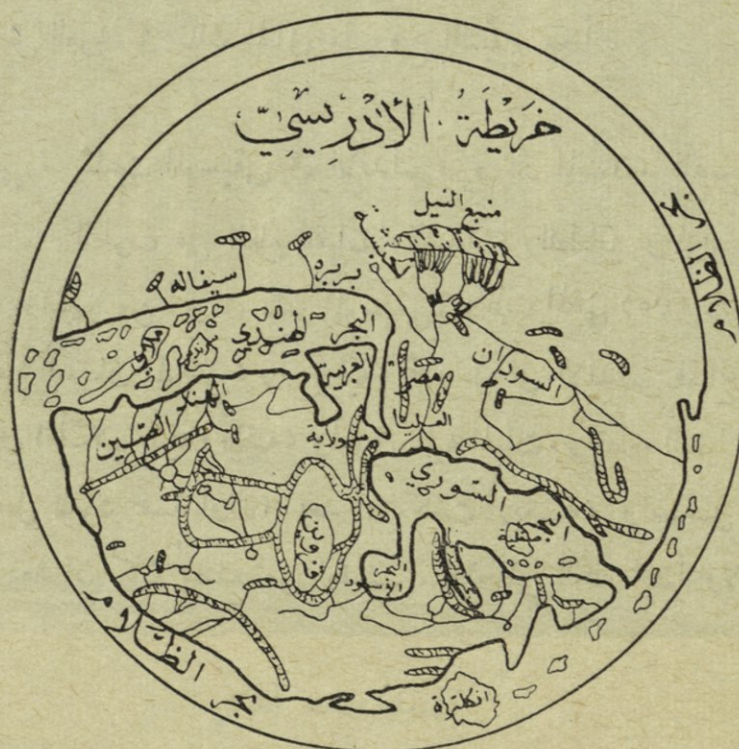
٤ - وقد ظهر في التحليل النفسي والاجتماع «طوق الحمامة» لابن حزم (١٠٦٤ م / ٤٥٦ هـ)، في الحب وعلاماته، والمحبين واحوالهم، بأمثال منتزعة من حياة الكتاب واهل عصره؛ و «سراج الملوك» للطوطوشي (١١٢٦ م / ٥٢٠ هـ) في سياسة السلطان، وصفات الوزراء ونظام الدولة .

٦ التاريخ والجغرافيه : ١ - اشهر من اهتم بتاريخ العرب وتاريخ الاندلس ابن حيان (١٠٧٦ م / ٤٦٩ هـ) وهو مؤرخ بجأته، ألّف «المبين» في تاريخ الاندلس، والكتاب يقع في ٦٠ جزءاً؛ والفتح بن خاقان (١١٣٤ م / ٥٢٩ هـ) نشأ في اشبيلية، واكثر من الاسفار والرحلات . له كتابان مشهوران هما «قلائد العقيان» في تاريخ الامراء والوزراء والقضاة والادباء والعلماء

من معاصريه في الاندلس، و «مطمح الانفس ومسرح التأنس في ملح اهل
الاندلس» في العلماء والقضاة والفقهاء؛ وابن بسّام (١١٤٧ م/ ٥٤٢ هـ) صاحب
«الذخيرة» في تاريخ الاندلس وآدابها في القرن الخامس الهجري؛ وابن بشكّو (١١٠٠ م/ ٤٩٤ هـ) وله نحو خمسين مؤلفاً في التاريخ؛ وابن الأثير القضاي (١٢٥٩ م/ ٦٥٨ هـ) ومن مؤلفاته «الحلّة السيّارة» في اخبار المغرب من المثة
الاولى للهجرة الى السابعة .

٢ - ومن مشاهير الجغرافيين والرحالة الذين وصفوا رحلاتهم وحالات البلدان
ابو عُبَيْدُ البَكْرِي (١٠٩٤ م/ ٤٨٧ هـ) سكن قرطبة، ومن مؤلفاته «معجم
ما استعجم» في ما جاء ذكره من البلاد في شعر العرب؛ والشريف الإدريسي
(١١٠٠ - ١١٦٥ م/ ٣٩٤ - ٥٦٠ هـ) وقد وُلِدَ في سبتة ودرس في قرطبة ثم طَوَّفَ في
البلاد، وانتهى به التجوال الى صقلية، ونزل على صاحبها روجر الثاني Roger II،
فألف له كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» او «كتاب روجر» وفيه شرح
لكرة الفضة التي امر الملك بصنعها، وقد نُقِشت عليها صورة الاقاليم السبعة
ببلادها واقطارها وأطوالها وسبلها، وخليجائها وبحارها ومجاريها وينابيع انهارها والمسافات
والمراسي . . . فزاد الإدريسي «وصف احوال البلاد والأرضين في خلقها وبنائها، وأماكنها
وبحارها وجبالها ومسافاتهما، وعملها واجناس نباتها، والاستعمالات التي تستعمل بها،
والصناعات التي تتقن بها، والتجارات التي تجلب منها، والعجائب التي تذكر عنها؛
مع ذكر احوال أهلها، وهيئاتهم وملابسهم ومذاهبهم، وزيتهم وملابسهم ولغاتهم»؛
ووصف أيضاً أشكال الارض وطبيعتها واستدارتها وأطوالها . فجاء هذا الكتاب
أجلّ المصنّفات الجغرافية في العصور الوسطى، فتناقله الأوربيون، ورسموا خرائطه
وهي إحدى وسبعون . ويعتد الإدريسي من اكبر علماء الجغرافية قبل العصر الحديث .

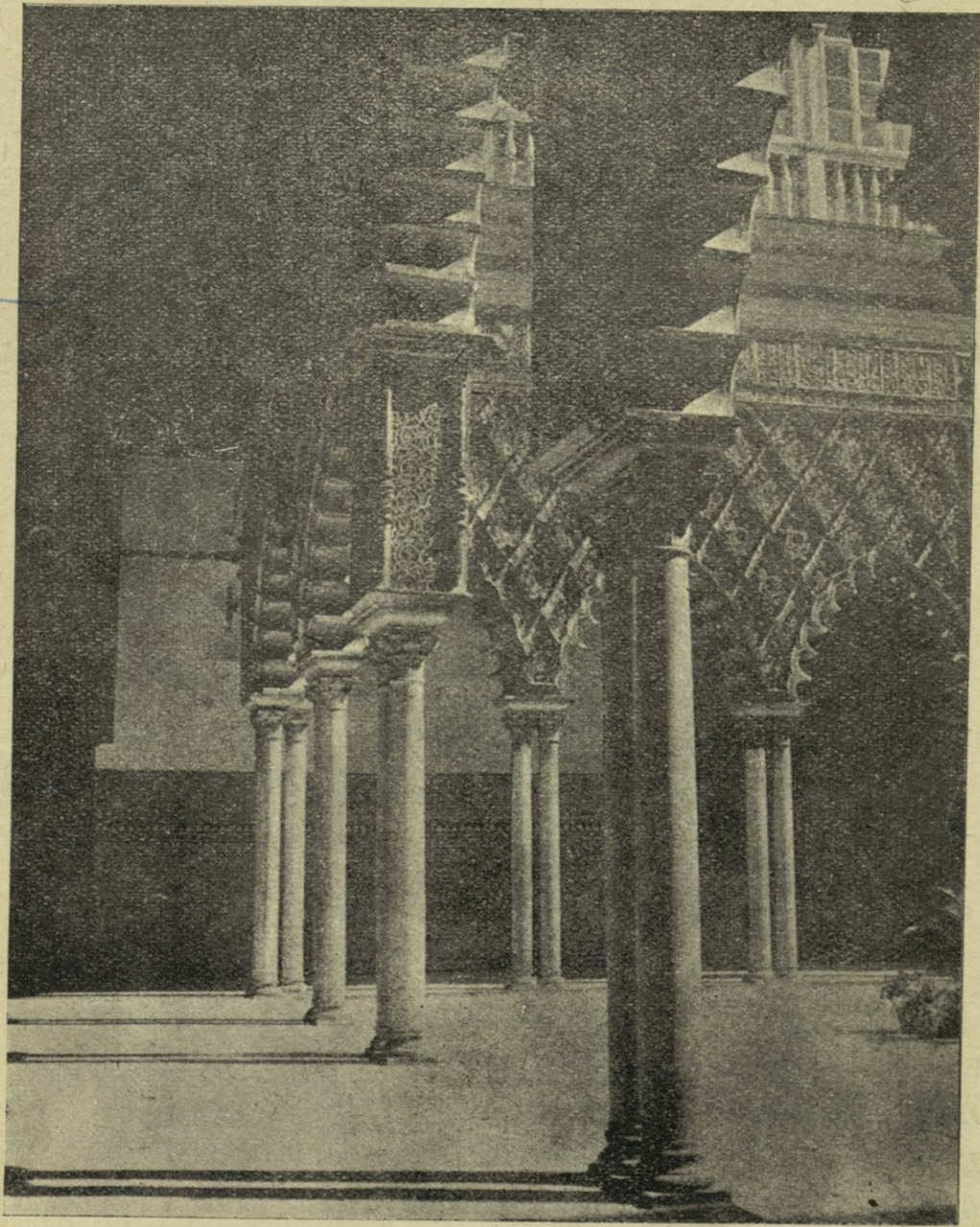
واشتهر أيضاً ابو عبد الله المازني (١١٧٠ م/ ٥٦٥ هـ) وقد رحل من غرناطة
الى مصر، فبغداد، فخراسان، فخلب، وتوفي بدمشق . ومن مؤلفاته كتاب «نخبة
الاذهان في عجائب البلدان»، وصف فيه رحلته في اسبانية وافريقية ومصر



وعسقلان وبلاد الحزر . وابن جُبَيْر (١١٤٥ - ١٢١٧ م / ٥٤٠ - ٦١٤ هـ) ، وقد كان بارعاً في الادب، مولعاً بالتنقُّل . مات في الاسكندرية في اثناء رحلته الثالثة الى الشرق . وقد وصف ما زاره من البلدان في كتابه « رحلة ابن جُبَيْر » .

٧ فن العمارة والنقش : تأثر الاندلسيون بطراز ما بين النهرين وبرزوه بالطراز الاسباني القديم . وقد امتاز فنُّهم بالنقوش والتزيين الهندسي، كما امتاز ببناء الحنايا على هيئة حدوة الفرس، ورفع الاقبية على عقود متقاطعة، على مثال ما اتبع في الطراز القوطي بعد ذلك . وقد شيّد الخلفاء والأمراء قصوراً ومساجد وحمامات، وبرك ماء، وجسوراً . واشهر مبانيهم القصر الكبير الذي بناه عبد الرحمن الداخل، ومسجد قوطبة، وقصر الزهراء وقصر الزاهرة، وقصر الحمراء الذي شيّده بنو الاحمر في غرناطة . وفي ما بقي من اعاجيب النقش العربي في تلك المباني ما يروع السائح عجباً .

٨ الموسيقى : شاعت الموسيقى في الاندلس، وكثر المغنُّون، فأقيمت حفلات الطرب على انغام القيان والعيدان، والطنابير والمزامير، وسواها من الآلات . واشهر من أثر في نشر الموسيقى زوياب المغني (٨٤٥ م / ٢٣٠ هـ) ، وقد تلقَّن الغناء عن اسحاق الموصلي، وبرع فيه، ثم رحل الى الاندلس فذاع صيته، فجعله عبد الرحمن بن الحكم نديمه ومغنيّه، وأغدق عليه الهبات، واقطعه الضياع والبساتين . وهو الذي جعل للعود خمسة أوتار، بعد أن كانت اربعة، واستعمل مضرباً من قوادم النسر بعد ان كان يُصنع من الخشب . وتعاطى الغناء ايضاً اولاده الثمانية .



إشييلية : القصر الملكي

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- جوجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية (الجزء الثاني والثالث) - القاهرة ١٩٣١
 » : تاريخ التمدن الاسلامي (الجزء الخامس) - القاهرة ١٩٠٢
 خير الدين الزركلي : الأعلام - القاهرة ١٩٢٨
 لجنة الجامعيين لنشر العلم : تراث الاسلام - القاهرة ١٩٣٦
 زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى - القاهرة ١٩٤٥
 أعلام المقتطف، الجزء الثاني : الرواد - ص ٣٦ الى ٥٧ - القاهرة ١٩٢٧
 قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك - هدية المقتطف ١٩٤١
 منصور جرداق : مآثر العرب في الرياضيات والفلسفة
 الدكتور غلاب : الفلسفة الاسلامية في المغرب
 الدكتور احمد عيسى بك : آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب - القاهرة
 محمود احمد الحفني : مقدمة كتاب مؤتمر الموسيقى العربية - القاهرة ١٩٣٤

٢ المراجع الاجنبية :

Encyclopédie de l'Islam.

Le Bon : La Civilisation des Arabes, Paris 1868.

E. Lévi-Provençal : La Civilisation arabe en Espagne, Paris 1948.

G. Marçais : Manuel d'art musulman, Paris 1926-1927.

G. Marçais : L'Art de L'Islam, Paris 1946.

H. G. Farmer : History of arabian Music, London 1929.

Terrasse : L'Art hispano-moresque des origines au XIII^e siècle, Paris 1932.

T. J. de Boer : The History of Philosophy in Islam, London 1903.

Edward G. Browne : La Médecine arabe — Traduction française par H. P. J. Renaud, Paris 1933.

العهد التركي

١٢٥٨ - ١٧٩٨ م / ٦٥٦ - ١٢١٣ هـ

- توطئة

- الأدب

- الشعر

- النثر

- العلوم



الضرب بالفلق - للمصوّر محمد قاسم من سنة ١٦٠٥
(متحف نيويورك)

توطئة

١ الحالة السياسية : يقسم هذا العهد من الوجهة السياسية الى طورين : الطور المغولي والطور العثماني . اما الاول فأهم احداثه استيلاء هولاء على بغداد واجتياح تيمورلنك بلاد الشام . واما الثاني فقد بدأ بانتصار سليم الفاتح على قانصوه غوري وامتداد سلطانه الى الشام ومصر، وانتهى بحملة بونابرت على مصر .

٢ الحالة الاجتماعية : كانت الاوقات عصيبة، فعمد البعض الى الاستمتاع بالدنيا ليسلوا همومهم، ولجأ غيرهم الى الزهد للاستعاضة بالآخرة .

٣ الحالة الادبية : اطفأ المغول جذوة الادب، ولكن المماليك في مصر والشام حفظوا له رونقه بتأسيس المعاهد والمساجد وتنشيط حركته . ولما جاء العهد العثماني وشاعت اللغة التركية انحط الادب العربي الى اسفل الدرجات .

١ الحالة السياسية : يُقسم هذا العهد من الوجهة السياسية الى قسمين اولهما الطور المغولي (١٢٥٨-١٥١٦م/٦٥٦-٩٢٢هـ) الذي يبدأ بسقوط بغداد في حوزة هولاء، وينتهي باستيلاء سليم الفاتح على الشام ومصر؛ وثانيهما الطور العثماني (١٥١٦-١٧٩٨م/٩٢٢-١٢١٣هـ) الذي ينتهي بحملة نابليون على مصر .

كانت الخلافة العباسية منذ عهد بعيد منكسة الاعلام، تستظل في فيء الفرس والأتراك الذين أبقوا عليها مع تضعف قواها وضعف سلطانها . فما عتمت ان انهارت لما هجم المغول على البقاع الاسلامية واستولوا على بغداد . فان جنكيزخان كان قد ترأسهم ووحد كلمتهم وقادهم الى الفتوحات . فهبوا من جنوب سيبيرية واندفقوا

على الشرق الاقصى، ثم عادوا فاكتسحوا مملكة شاه خوارزم، وخراسان وفارس وعاثوا في البلاد فساداً . ولما ولي امرهم هولاء كو حفيد جنكيزخان عقد النية على الايقاع ببغداد، فهاجم قلعة الموت واستحوذ عليها، ثم استولى على الري . وجاء بغداد فإذا اهلها في خلاف مستحكم يفرق السنيين عن الشيعيين، فلم تثبت امامه جيوش المستعصم بالله، فدخل المدينة سنة ١٢٥٨ م/ ٦٥٦ هـ وامر بذبح الخليفة والاعيان، واباح العاصمة العباسية اربعين يوماً فقتل من اهلها خلق كثير، وألقيت الكتب في دجلة، وديست معالم الثقافة بأرجل التتار، وغاضت مياه الحضارة في انضج البقاع العربية خصباً عقلياً واديباً . وبعد «هولاء كو» جاء تيمورلنك فكانت العاصفة الثالثة اشد هولاً من الاولين فاكتسحت آسية الصغرى وامتدت الى الشام التي سلمت قبلاً، وألوت بخيرة رجال البلاد علماً وصناعة . فاضحت المدن العامرة خراباً والمكاتب طعمة للنار . ولبثت مصر في حكم المماليك وكذلك الشام بعد نزوح «تيمورلنك» عنها .

وقويت شوكة الاتراك العثمانيين في آسية الصغرى وطمحوا الى ثلّ عرش قياصرة القسطنطينية فكان لهم ذلك على يد محمد الثاني سنة ١٤٥٣ . ولما تحالف اسماعيل شاه مؤسس الدولة الصفوية، مع قانصوه غوري سلطان مصر، على العثمانيين، هاجمهم السلطان سليم الثاني، فاحتل تبريز ثم تغلب على المماليك في موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦ واستولى على الشام ومصر .

٢ الحالة الاجتماعية : كانت الاحوال الاجتماعية تنطوي على ضنك وقلق . فان غزوات المغول لم تُبق ولم تذر، وظلم المماليك والاتراك قد ثقل كاهل الشعب بالضرائب، وكبتهم بالاستبداد، فتجاذب الناس في هذا العهد القاسي نزعتان هما رفيقا أيام الشدة والعسر : نزعة اباحية ونزعة زهدية . احتسوا مرارة العيش فال البعض منهم الى المخدرات والمسكرات ولذا ائذ الدنيا يستمتعون بها غير متورعين، ويكتبون عنها غير خجلين . وانصرف غيرهم الى امور الدين

يستعيضون برجاء المستقبل عن ألم الحاضر، فكثرت مدارس الصوفية، والتجأ الشعراء الى المدائح النبوية واستشفعوا بالاولياء .

٣ الحالة الاربعة : كان هذا العصر بمجمله وبالأعلى الادب . فقد بدد المغول نفائس المصنفات، واحرقوا المكاتب، وشرّدوا رجال العلم، في البلاد التي اسجودوا عليها . ونجت مصر من شرّهم كما ان الشام عادت فدخلت في حكم المماليك . فكان هذان البلدان ارقى البلاد العربية ادباً، لان سلاطينها كانوا ألين من المغول جانباً واكثر مجارةً للارعية في نزعاتها الدينية واللغوية . فغصّت القاهرة والاسكندرية وأسيوط والفيوم ودمشق وحمص وحلب وحماء بالمكاتب والمساجد والمدارس، ونزح اليها العلماء، ونشطت فيها الحركة الادبية ولكن ضمن نطاق التقليد غالباً . ولما جاء العهد العثماني انحط الادب العربي الى اسفل الدرجات لشيوع التركية في المخاطبات والمراسيم والدواوين، وتسلبت الحمول على العقول، والتقليد على المعاني، والصناعة المقيمة على الاساليب . وسيبدو لنا ذلك بأجلى وضوح في ما يلي .

الباب الاول

أدب العهد النحوي

الفصل الاول

الشعر

قلت اسباب نهوضه ولكن معينه لم ينضب .

ا — اميزاته : الإغراق في استعمال التثنية اللفظي ، والتفنن في تنويعها ، وإظهار البراعة بالتزام ما لا يلزم ونظم التواريخ الشعرية ، مما أضرّ بالمعاني . وقد شاع في هذا العصر وصف الأشياء المألوفة ، والكلام الصريح في المهجر . ودخلت الالفاظ العامية والاوزان الشعبية في الشعر .

ب — أهم الشعراء : الشاب الظريف وله غزل رقيق ، والبوصيري صاحب البردة ، وابن الوردي ، وصفي الدين الحلي الذي كان ذا مقدرة ادبية كبيرة والذي يعدّ في طليعة شعراء هذا العهد ، وابن نباتة الذي يتنازع الحلي زعامته الشعرية . وهو شاعر متشكّك يغلب على معانيه التكرار وعلى أسلوبه الصناعة اللفظية . والتلعفري ، والوراق ، وابن حجة الحموي ، وعائشة الباعونية ، وابن معنوق ، وعبد الغني النابلسي وعبد الله الشبراوي .

والت في هذا العصر كثير من الاسباب التي تنهض بالشعر وتحمل اصحابه على الاجادة ، فالملوك والسلاطين أعاجم لا يعنون الا في النادر بتشجيع الشعراء ، وتقريبهم اليهم وإغداق الخير عليهم . فعمل هؤلاء على كسب معيشتهم عن سبيل الحرف والصناعات فكان بينهم الجزّار والدهّان والكحلّال . وفترت العصبية والحمية اللتان نهضتا قديماً بالشعر الفخري والقومي ، وقلّت دواعي اللهو في جو الاضطراب السياسي وصرامة العيش . الا ان معين الشعر لم ينضب ، وقرائح الشعراء لم تجفّ . وها نحن نعرض اهم ميزات الشعر في هذه الحقبة ، ونترجم لمشاهير اصحاب هذا الفن .

١ - ميزات الشعر

أصيب الشعر في العهد التركي بوباء التجميل اللفظي الذي ذهب بمائه ورونقه وتركه مراراً كثيرة على حالة المريض المدنف بعد ان ألح عليه السقم والهزال . فاذا ما ازحت ستار الالفاظ البراقة لا تقع غالباً الا على معانٍ مكرورة مسروقة غثة . وافتن الشعراء في انواع البديع والتصنع . فجاء صني الدين مثلاً بأرثقياته وهي تسع وعشرون قصيدة تتألف كل واحدة منها من تسعة وعشرين بيتاً، وتختص كل واحدة بحرف من حروف الهجاء . يكون في اول وآخر كل بيت من ابياتها . وطلع علينا هو وغيره بالبديعيات التي يحوي كل من ابياتها نوعاً من انواع البديع وقد يشير الشاعر في البيت الى ذاك النوع، فيقول مثلاً :

لي في أبداً مدحكم يا عُربَ ذي سَلَمٍ بَرَاةٌ تَسْتَهْلُ الدَّمْعَ فِي الْعَلَمِ

وهكذا الى ان يأتي على انواع البديع كلها . فكيف يصح فن تقيده هذه الاغلال؟ وقد كثرت التشطير والتخميس والاقتباس والتضمين، حتى قال بعضهم :

أَطَالِعُ كُلَّ دِيْوَانٍ أَرَادُهُ وَلَمْ أَزْجُرْ عَنْ التَّضْمِينِ طَيْرِي
أُضْمِنُ كُلَّ بَيْتٍ فِيهِ مَعْنَى فَشِعْرِي نِصْفُهُ مِنْ شِعْرِ غَيْرِي

وأولع الشعراء خصوصاً بالتورية وتباهوا بأنها من خصائص عصرهم، فقال ابن حجة : « ولهذا وقع الاجماع على ان المتأخرين هم الذين سموا الى أفق التورية وأطلعوا شمسها، ومزجوا بها الذوق السليم لما أداروا كووسها » .

ونظموا الالغاز والاحاجي، واستكثروا، لاطهار براعتهم وحذقهم، من الالفاظ المصغرة والمعجمة والمهملة، والتزموا ما لا يلزم، واتوا بما لا يستحيل بالانعكاس

(١) دُعيت بهذا الاسم لانه قالها في مدح الملك المنصور الأرتقي الذي تولى الحكم في ماردين من

سنة ١٢٧٤ الى سنة ١٣١٢ .

وبالغوا في التاريخ الشعري وهو ان يأتي الشاعر بالفاظ تدل حروفها بحساب الجمل على سنة معينة . فقال مثلاً احدثهم مؤرخاً وفاة والي مصر محمد باشا :

قتلُهُ بالنَّارِ نورُهُ وَهُوَ فِي التَّارِيخِ «ظُلُمَةُ»

٩٧٥

ومما شاع في هذا العهد المدائح النبوية . فنظم البوصيري بردته الشهيرة التي مطلعها :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانِ بَذِي سَلَمٍ مَزَجَتْ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقَلَّةٍ بِدَمٍ

وهمزيتيه ولاميتيه التي عارض بها « بانث سعاد » . فراجت قصائده هذه، ولاسيما البردة، وقلدها الشعراء . وكثر الميل الى المقطوعات القصيرة التي تحوي نكتة او فكاهة ولم يحجهم الشعراء عن وصف الاشياء المألوفة كالسجادة والبساط والمسبحة والسكين والمروحة .

وقد أسرف الشعراء في استعمال الكلام العادي الصريح في الهجو، والتعابير البذيئة والغزل المذكر، وانتشرت في الشعر الالفاظ العامية والكلام غير المعرب والاوزان الشعبية من مثل « المواليا » و « القوما » و « الزجل » و « الدوبيت » والموشح وغيرها . فاستساغت آذان آل قلاوون وآل برقوق هذا الشعر، وأجازوا عليه . واشتهر فيه خلف الغباري واحمد بن عثمان الامشاطي واحمد الدرويش وغيرهم .

ب — اهم الشعراء

١) الباب الطريف (١٢٦٣-١٢٨٩م / ٦٦١-٦٨٨ هـ

هو محمد بن سليمان . وُلد في القاهرة ونشأ في الشام وفيها مات شاباً . كان ابوه عفيف الدين التلمساني شاعراً مجيداً، فقرض هو ايضاً الشعر الخفيف، ونظم الغزل

الرقيق، وأولع بالبديع، فألقى به عذباً رائعاً. له ديوان طبع مراراً في بيروت ومصر و «مقامة بن عفيف» التلمساني، وقد طُبعت في دمشق .

٢ البوصيري (١٢١٢-١٢٩٦ م / ٦٠٨-٦٩٦ هـ)

شرف الدين محمد بن سعيد ولد بدلاص في مصر ثم انتقل بعد ذلك الى بوصير ونُسب اليها . برع في الكتابة والادب وتولى مديرية الشرقية وتوفي بالاسكندرية . من آثاره البردة الشهيرة التي مدح بها محمداً وهي تقع في ١٦٢ بيتاً . وقد قلّدت وُشرت مراراً وُترجمت الى الهندية والفارسية والتركية والالمانية والفرنسية والانكليزية . وله ايضاً في الموضوع عينه الحمزية التي مطلعها :

كَيْفَ تَرْقَى رُقْيَاكَ الْأَنْبِيَاءُ يَا سَمَاءُ مَا طَاوَلَتْهَا سَمَاءُ

وقصيدة ذخر المعاد على وزن «بانت سعاد» . وهي تتألف من ٢٠٦ ابيات اولها :

إِلَى مَتَى أَنْتَ بِاللذَّاتِ مَشْغُولٌ وَأَنْتَ عَنْ كُلِّ مَا قَدَّمْتَ مَسْئُولٌ

ويمتاز شعر البوصيري بالرصانة والجزالة وحسن استعمال البديع في المدائح النبوية . وهو فيما سواها يجاري شعراء عصره فينظم القول الهزيل ولا يحجم امام الالفاظ العامية والمولدة .

٣ ابنه الوردي (١٢٨٩-١٣٤٨ م / ٦٨٩-٧٤٩ هـ)

هو زين الدين عمر . كانت ولادته في معرة النعمان ووفاته في حلب . برع في الادب والنحو واللغة والتاريخ والفقه . له مؤلفات كثيرة منها، في التاريخ : «تنمية المختصر في اخبار البشر» . وله في النحو «اللباب في الاعراب» و «شرح ألفية ابن مالك» و «شرح ألفية ابن المعطي» . وقد ترك في الادب ديوان شعر طبع في الآستانة سنة ١٣٠٠ هـ ، ومقامات، وقصيدة في النصيح تسمى «لامية ابن الوردي» وتقع في ٧٧ بيتاً اولها :

إِعْتَرِلْ ذِكْرَ الْأَغَانِي وَالْفَزَلِ وَقُلِ الْفَصْلَ وَجَانِبَ مَنْ هَزَلَ

شعر ابن الوردي متوسط الجودة، حافل بالتورية وأنواع البديع الأخرى .
وأشهره اللامية وفيها حكم بليغة تدل على نضوج صاحبها .

٤ صفى الدين الحلبي (١٢٧٨-١٣٤٩ م / ٦٧٧-٧٥٠ هـ)

هو عبد العزيز بن سرايا، ولد بالحلّة من مدن الفرات، واتصل بأمراء الدولة الأرتقية في ماردين، ثم رحل إلى مصر ومدح السلطان الناصر بن قلاوون . وكانت وفاته في بغداد .

لصفى الدين ديوان جمعه هو نفسه، وقد طبع مراراً في دمشق وبيروت وفيه جميع أبواب الشعر المعهودة . وله أيضاً « القصائد الأرتقيات » التي جاء ذكرها سابقاً .
وقد نظم القصائد الطويلة والمقطعات والموشحات والمخمسات والمشطرات والموالي والقوما وغيرها .

يُعد شاعرنا بحق في طليعة شعراء هذا العصر . أغرم بالبديع فكان أول من نظم القصائد التي تجمع أنواعه وتُعرف بالبديعيات . وكان ذا مقدرة أدبية كبيرة فيلن إذا أراد ويشتد في مواقف الشدة، ويطمح إلى معارضة المتنبي غير هيأب كما فعل عند ما مدح السلطان الناصر بقصيدته التي مطلعها :

أَسْبَلَنَ مِنْ فَوْقِ النُّهُودِ ذَوَائِبًا فَتَرَكْنَ حَبَّاتِ الْقُلُوبِ ذَوَائِبًا

وكان يترفع إلى هجر الكلام العويص واستعمال السهل السائغ ويقول :

إِنَّمَا هَذِهِ الْقُلُوبُ حَدِيدٌ وَلِذِيذِ الْأَلْفَاظِ مَغْنَاطِيصُ

٥ ابنه نباته (١٢٨٧-١٣٦٦ م / ٦٨٦-٧٦٨ هـ)

هو جمال الدين أبو بكر القرشي . يتصل نسبه بابن نباتة الذي كان خطيباً في بلاط سيف الدولة الحمداني . ولد في ميفارقين من أسرة عريقة في العلم والأدب

(١) النهودج نهج وهو الثدي . الذوائب ج ذؤابة وهي شعر في مقدم الرأس .

ونشأ في مصر . ثم ارتحل الى دمشق واتصل بالملك المؤيد صاحب حماة فكتب له . وقد توفي بمصر .

لابن نباتة ديوان طُبع في مصر سنة ١٩٠٥ ثم في بيروت . وله « الديوان الصغير » الذي يشتمل على « المؤيدات » وهي قصائد مدح بها صاحب حماة ؛ و « سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون » وفيه ترجمة لاهم شعراء الجاهلية وصدر الاسلام .

نازع ابن نباتة صفى الدين زعامة الشعر في عصره . فقد ولج جميع ابوابه، وكان للشكوى محلٌ كبير عنده لانه عاش في عهد كثرت فيه الفتن والقتل والاستبداد والافراط في سفك الدماء ومصادرة الاموال والتجسس . الا انه لم يقذع في الهجاء، ولم ينتقد اوامر الحكام، وكان عتابه لطيفاً ليناً، وهو لا يجرو ان يقاوم اعداءه، ولكنه يفوض امرهم الى الديان فيقول :

لِيْ خُصُومٌ وَلَسْتُ الْآنَ شَاكِيَهُمْ لَكِنَّهُمْ فِي غَدٍ يَذْرُونَ أَيْنَ تُشْكُوا

وهو يشكو من الكبر، ويفزع من الشيب، ويتحسر على الشباب ويتعهد في الدنيا، ويثن خيبة آماله، فينظم القصيدة التي مطلعها :

عَفْتُ الْإِقَامَةَ فِي الدُّنْيَا لَوْ اُنْشَرَحْتُ حَالِي فَكَيْفَ وَمَا حَظِّي سِوَى النُّكْرِ

ومني الشاعر بفقد زوجه وموت اولاده فبكاهم ونظم في الرثاء قصائد تثير الاشجان منها قصيدة عارض فيها التهامي وابتدأها بقوله :

اَللّهُ جَارُكَ اِنْ دَمْعِي جَارِي يَا مُوَحِّشَ الْاَوْطَانِ وَالْاَوْطَارِ

واغرم ابن نباتة بالصناعة اللفظية حتى عدّ امير الادباء فيها، فحفل شعره بأنواعها من تورية وتشبيه وتضمن وحسن تعليل وما الى ذلك . . . وقد وفق احياناً الى الاجادة إلا انها عدته مرات كثيرة، لان اهتمامه بالزخرف اللفظي قاده الى السخف وتكرار المعاني فكاد ديوانه لا يطلع علينا بمعنى مبتكر . ومن عيوب شعره

ما فيه من التعابير السوقية أحياناً، وما فيه من الاسفاف، واللجوء الى الضرورات الشعرية، والحشو والاختطاء اللغوية وما الى ذلك .

والكن ابن نباتة كان مع ذلك اماماً احتذاه كثير من معاصريه وسلكوا طريقته . ومما ذكر عن صلاح الدين الصفدي انه أغار على معانيه فغرف منها ما وصلت اليه يده ؛ فجمع ابن نباتة سرقاته في كتاب سماه « خبز الشعير » .

ومن تعاطى الشعر ايضاً في هذا العهد شهاب الدين التلعفري (١٢٧٦م/١٦٧٥هـ) وسراج الدين الوراق (١٢٩٦م / ٦٩٥ هـ) وابن حجة الجوي (١٤٣٤م / ٨٣٨ هـ) وعائشة الباعونية (١٥٢٣م/٩٣٠ هـ) وابن معنوق (١٦٧٦م/١٠٨٧ هـ) وعبد الغني النابلسي (١٧٣١م / ١١٤٤ هـ) وعبدالله الشبراوي (١٧٦٤م / ١١٧٨ هـ) وغيرهم .

ادب العهد التركي

الفصل الثاني

النثر

١ الكتابة الديوانية : موضوعاتها الرسائل التي تصدر عن «ديوان الانشاء». من ميزاتها المحافظة على الألقاب والنماذج المرمية . وقد طغى عليها الزخرف اللفظي فشوها . وقضى عليها انتشار اللغة التركية . اشتغل بها محي الدين بن عبدالله الظاهر ، وابنه فتح الدين ، وتاج الدين بن الأثير ، وشهاب الدين الحلبي ، والقلقشندي .

٢ الرسائل الادبية : موضوعها الإخوانيات . وقد ذهب برونقها تكلف المحسنات اللفظية . من اصحابها بدر الدين الحلبي ، والقلقشندي .

٣ النثر العلمي : سار اصحابه على الأسلوب المرسل - وأسف المتأخرون منهم فاقرب انشاؤهم من النثر العامي .

• • •

بينما كان الادباء ينشئون كان غيرهم يجمع المختارات ، كما فعل جمال الدين الوطواط ، وعلاء الدين البهائي ، وشهاب الدين الأبشهي ، وشمس الدين النواجي ، وداود الانطاكي .

تناول الكتاب في هذا العصر النثر الفني والنثر العلمي . وكان النثر الفني على نوعين : الكتابة الديوانية والرسائل الادبية .

١ الكتاب الديواني : اما الكتابة الديوانية فموضوعها ما يصدر عن السلاطين والحكام من الرسائل ، وقد أنشئ لها ديوان خاص عرف « بديوان الانشاء » ، تولى امره خيرة الرجال ادباً وسياسة وثقافة ، لان مهمة صاحبه تتطلب حسن الرأي والمشورة ، والدقة في العلاقات ، والمعرفة بأمزجة النفوس ، والاطلاع على أساليب البلاغة لتكليف الكلام بحسب مقتضى الحال فيصادف القبول والرضى .

وقد ألفت كتب كبيرة لاعداد المرشحين لهذا المنصب . ومن خصائص هذا النوع المحافظة على الالقب المصطلح عليها، فهناك الاشرف والشريف والكريم والعالي الى غير ذلك من صفات التفخيم؛ والمحافظة على نماذج مرعية في الموضوعات المختلفة من تهنئة بنصر، وتقليد منصب، ومكاتبات عامل او امير . وهذا الفن يحتاج الى كثير من الدقة في التعبير لعظم ما ينتج عن الاختلال بالدقة من وخيم العواقب . ولكن موجة السجع والبديع بانواعه قد طغت عليه ايضاً فشوهته أياً تشويه، فأسمعنا محي الدين بن عبدالله الظاهر وهو من اشهر كتّاب هذا العهد مثل هذا القول : « حَرَسَ اللهُ نَفْسَهُ مَوْلَايَ ، وَلَا زَالَ كَلِمُ السَّمْرِ مِنْ أَسْمِهِ وَفِعْلُهُ وَحَرْفُ قَلْبِهِ بِأَنْلَفٍ ، وَمُنَادَى جُودِهِ لَا يُرَخِّمُ وَأَحْمَدُ عَيْشِهِ لَا يَنْصَرِفُ ، وَلَا عَدَمُ مُسْتَوَصِلُ الرِّزْقِ مِنْ يَرَاعَتِهِ الَّتِي لَا تَقِفُ الْوَصْلَ وَلَا عَدِمَتْ نُحَاةُ الْجُودِ مِنْ نَوَالِهِ كُلِّ مَوْزُونٍ وَمَعْدُودٍ ، وَمِنْ فَضْلِهِ وَظِلِّهِ كُلِّ مَقْصُورٍ وَمَعْدُودٍ ، وَمَا خَاطَبَتْ الْأَيَّامُ مُلْتَمِسَةً إِلَّا بِلَامِ التَّوَكُّيدِ وَلَا عَدُوَّهُ إِلَّا بِلَامِ الْجُودِ » .

وكان انتشار اللغة التركية في العهد العثماني الضربة القاضية على النثر الديواني . ومن انبه كتّاب الدواوين في عهد المماليك محي الدين بن عبدالله الظاهر، وابنه فتح الدين، وتاج الدين بن الأثير، وشهاب الدين محمود الحلبي، والقلقشندي صاحب «صبح الاعشى» الذي سيأتي ذكره .

٢ الرسائل الادبية : واما النثر الادبي فيتناول الاخوانيات بأنواعها من مراسلات بين الاصدقاء، ومناظرات ادبية، ونحو ذلك . وقد سار كتّاب هذا النوع على الخطة التي انتهجها كتّاب الدواوين فراعوا شكل الالفاظ اكثر من جوهر المعاني واغرقوا في استعمال التورية والتضمين والاقتباس والجناس، ملتزمين السجع الممل، حتى اصبحت الكتابة اخيراً ولا لفظ لها يُستساغ ولا معنى يروق . ومن البارزين في هذا الفن بدر الدين الحلبي صاحب «نسيم الصبا» والقلقشندي الذي ألف رسالة دعاها «حلية الفضل وزينة الكرم في المفاخرة بين السيف والقلم» ؛ وقد امتاز القلقشندي عن غيره من كتّاب زمانه بالاعتقاد في استعمال البديع .

٣ النثر العلمي : وكثر اصحاب التصنيف في هذا العهد من لغويين ومؤرخين ورحالة . فكان اسلوبهم اقرب الى الطبع وابتعد عن التكلف لان غايتهم العلمية لم تدع لهم مجالاً للسعي وراء التجميل اللفظي فلان كلامهم وسهل كما هي الحال عند ابن خلدون . ولكن المتأخرين منهم لم يأمنوا من التعقيد والإسفاف فانحط انشاؤهم احياناً الى مستوى النثر العامي .

* * *

وبينما كان الشعراء والكتاب ينظمون وينشئون كان غيرهم يجمع المختارات من ادب هذا العصر والعصور السابقة . فوضع جمال الدين الوطواط (١٣١٨ م / ٧١٨ هـ) كتاب « غرر الخصاص الواضحة » وفيه نظم ونثر ؛ وألف علاء الدين البهائي (١٤١٢ م / ٨١٥ هـ) « مطالع البدور في منازل السرور » ؛ وألف شهاب الدين الأبشهي (١٤٤٦ م / ٨٥٠ هـ) « المستطرف في كل فن مستظرف » ؛ وألف شمس الدين النواجي (١٤٥٥ م / ٨٥٩ هـ) « حلبة الكميت » فيما قيل في الحمر وما اليها ، و « تحفة الاديب » في الاشعار التي جرت مجرى الامثال ؛ وألف داود الانطاكي (١٦٠٠ م / ١٠٠٨ هـ) كتاباً عن الحب وما قيل فيه سماه « تزيين الاسواق » .

الباب الثاني

العلوم

نشطت حركة التصنيف في هذا العصر فظهرت الموسوعات . ومن أشهر مؤلفيها : النويري صاحب « نهاية الأرب » ، وابن فضل الله العمري وله « مسالك الأبصار » ، والقلقشندي وله « صبح الأعشى » ، وبهاء الدين العاملي وله « الكشكول » ، والحاج خليفة وله « كشف الظنون » . وظهرت طريقة تأليف المتون والشروح والخواشي .

١ العلوم اللسانية : قلّ فيها الابتكار وكثر التطويل والاختصار . اشتهر :

في اللغة : ابن منظور صاحب « لسان العرب » والفيروزابادي صاحب « القاموس المحيط » ، والزبيدي صاحب « تاج العروس » .

في النحو : ابن مالك صاحب « الألفية » ، وعبدالله بن هشام ، وابن آجرّوم وله « المقدمة الآجرّومية » .

واشتهر أيضاً في هذه العلوم جلال الدين السيوطي .

٢ العلوم التاريخية والجغرافية : من أشهر من صنف فيها : ابن خلدون

صاحب « وفيات الأعيان » ، والقزويني صاحب « عجائب المخلوقات » ، وأبو الفداء وله « المختصر في تاريخ البشر » ، وابن بطوطة الذي وصف رحلاته الثلاث في كتاب « تحفة النظار » ، وابن خلدون صاحب « كتاب العبر » وقد وضع في « مقدمته » أساس فلسفة التاريخ والاجتماع ، والمقرئزي وله « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، وابن عربشاه وله « عجائب المقدور في نوائب تيمور » و « فاكهة الخلفاء » .

نشطت حركة التأليف في هذا العصر نشاطاً كبيراً ، ومما ساعدها على النمو تشجيع السلاطين والوزراء الذين كانوا يرغبون في الكتب النادرة ، وينشئون المساجد والمعاهد في أكبر الحواضر . وأوّل ما يسترعى الانتباه هو وفرة الموسوعات التي تجمع في مجلّدات ضخمة أنواعاً شتى من المعارف والعلوم . ومن أشهر مؤلفيها :

— شهاب الدين النويري (١٣٣٢ م / ٧٣٢ هـ) وله « نهاية الأرب في فنون

العرب » في السماء والآثار العلوية ، والارض والمعالم السفلية ، والإنسان وما يتعلّق به ،

والحيوان الصامت، والنبات، والتاريخ من بدء الخليقة الى سنة ١٣٣١ . وهذا الكتاب يقع في اكثر من ثلاثين مجلداً .

— ابن فضل الله العمري (١٣٤٨ م / ٧٤٨ هـ) مؤلف « مسالك الابصار في ممالك الامصار » في اكثر من عشرين جزءاً . وهو يحوي فوائد جمّة في الادب والتاريخ والجغرافية وغير ذلك ويفوق كتاب النويري من حيث التعبير وحسن الاداء . وله ايضاً « التعريف بالمصطلح الشريف » في فن انشاء الدواوين .

— القلقشندي (١٣٥٥ - ١٤١٨ م / ٧٥٦ - ٨٢١ هـ) : هو ابو العباس شهاب الدين احمد بن علي المعروف بالقلقشندي نسبة الى القرية التي وُلد فيها بمصر . اشتهر بذكائه وقوة حافظته، وقد وعى كثيراً من علوم الادب في عصره . ولي ديوان الانشاء في عهد المماليك، وتوفي في القاهرة . من مصنفاته : « صبح الاعشى في صناعة الانشاء » وهو يشتمل على مقدمة وعشر مقالات . اما المقدمة فموضوعها فضل الكتابة وصفات الكتاب، والتعريف بديوان الانشاء ونظمه ووظائف اصحابه . وتدور المقالات على ما يحتاج اليه الكاتب من الامور العلمية والعملية، والمسالك والممالك، وشروط المكاتبات ومصطلحاتها والولايات والبيعات والعهود والصلح . . . والخاصة تتعلق بالبريد وتاريخه . فكان القلقشندي اراد ان يجمع في كتابه كل ما يلزم الكاتب من المعلومات . وقد طُبع « صبح الاعشى » في مصر بين سنتي ١٩١٣ و ١٩٢٠ .

وللقلقشندي ايضاً مؤلفان في قبائل العرب هما « نهاية الارب في معرفة قبائل العرب » و « قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان » .

— بهاء الدين العاملي (١٦٢٢ م / ١٠٣١ هـ) : ومن اشهر كتبه « الكشكول » وهو يحتوي على طرف من كل علم وفن من الادب والتاريخ والفلسفة والتصوف وعلم الكلام والهندسة والطب والنجوم والجبر، وكل ذلك بلا ترتيب ولا نظام . و « المخللة » وهي تشبه الكشكول ولكنها مقتصرة على الادب والامثال والمواعظ .

— الحاج خليفة (١٦٥٦ م / ١٠٦٦ هـ) : له موسوعة دعاها « كشف الظنون في اسامي الكتب والفنون » وهي تشتمل على نحو خمسة عشر الف اسم، ذكر فيها ما اطلع عليه من الكتب مع اسماء مؤلفيها، وفذلكة عن انواع العلوم لدى ورود اسمها بحسب الترتيب الهجائي .

وكثرت في هذا العصر ايضاً الكتب التي تتبع طريقة المتون والشروح والحواشي، ولا سيما في العلوم اللسانية والدينية . فكان المؤلف يضع موجزاً يستميه متناً، ثم يفصل مجمله في الشرح، ويأتي بعده من يعلق على الشرح بالحواشي . ومن اشهر المتون « ألفية ابن مالك » في النحو .

١ — العلوم اللسانية

كثرت التأليف في هذه العلوم وقلَّ فيها الابتكار، فجُلَّ ما نرى اختصاراً لمطوّل، او تطويل لموجز او جمع لمتفرّق .

١) اللغة : ظهرت في هذا العصر المعاجم الكبرى . ومن اشهر مصنفيها جمال الدين بن مكرم المعروف بابن منظور (١٣١١ م / ٧١١ هـ) فقد اشتغل باللغة وعامها ووُظف في ديوان الانشاء بمصر ثم وُلي القضاء بطرابلس . وكانت وفاته في مصر . من مؤلفاته في اللغة « لسان العرب » وهو معجم مطوّل رتبت فيه الالفاظ بحسب اواخرها . وقد جمع فيه صاحبه « تهذيب » الازهري، و « محكم » ابن سيده، و « صحاح » الجوهري، و « جمهرة » ابن دريد، و « نهاية » ابن الاثير . وشرح الالفاظ مفصلاً، واتى بالشواهد من القرآن والاحاديث والاشعار والخطب، فكان الكتاب من اكبر القواميس العربية وادقها شرحاً . ولكن النقد اخذوا على صاحبه بعض الاضطراب والتناقض المتأنيين عن اعتماده مصادر مختلفة لم يحاول

. A 13.7 - 13.7

وهي أرجوزة من ألف بيت مطلعها :

قال محمد هو ابن مالك أحمد ربي الله خير مالك

وقد سُرحَت مراراً، ومن أشهر تلك الشروح شرح بهاء الدين بن عَقِيل . وطُبعت

مراراً على حدة او مع شروحها، وُترجمت الى الفرنسية . والالفيه هي في الواقع مختصر ارجوزة طويلة في النحو تسمى «الكافية الشافية» نظمها ابن مالك في ٢٧٥٧ بيتاً . ولابن مالك ايضاً «لامية الافعال» في ابنية الافعال، و«إيجاز التعريف في علم التصريف» و«الإعلام بمثلث الكلام» وهو ارجوزة ذكر فيها الالفاظ التي لكل منها ثلاثة معانٍ .

ومن أَلَف في النحو ايضاً عبد الله بن هشام (١٣٦٠م/٧٦١هـ) صاحب «قطر الندى وبلّ الصدى» و«معني اللبيب عن كتب الاعاريب» و«شذور الذهب في معرفة كلام العرب» وغيرها؛ ومحمد الصنهاجي ابن آجروم (١٣٢٣م/٧٢٣هـ) وله «المقدمة الآجرومية في مبادئ علم العربية» التي عوّت عليها المدارس في التعليم زمناً طويلاً .

ومن علماء اللغة والنحو جلال الدين السيوطي (١٥٠٥م/٩١١هـ) وكان دائرة معارف حيّة، زادت مؤلفاته على الثلاث مئة في التاريخ والدين والادب واللغة، منها «المزهر» وهو كتاب جزيل الاهمية لما فيه من فلسفة اللغة في الفاظها واصلها وخصائصها وعلاقاتها باللغات السامية . . . وله «الاشباه والنظائر» في النحو .

ب - العلوم الدينية

من اشهر المؤلفين فيها احمد بن تيمية (١٣٢٨م/٧٢٨هـ) الذي ولد بحران ونشأ بدمشق حيث خلف ابيه في تدريس الفقه الحنبلي، وكان بارعاً في علوم الشريعة . قيل انه صَنَّف نحو خمس مئة كتاب، منها «رسالة الفرقان بين الحق والباطل» و«الجمع بين العقل والنقل» و«مجموعة الرسائل الكبرى» وغيرها؛ وشمس الدين ابن قيم الجوزية (١٢٩٢-١٣٥٠م/٦٩١-٧٥١هـ) وقد ولد في دمشق وتلمذ لابن تيمية وتبحر في علوم الدين . له مؤلفات كثيرة منها «كتاب زاد المعاد» في الحديث، و«كتاب فوائد المشوق الى علم القرآن وعلم البيان» و«كتاب القدر» و«مفتاح دار السعادة ومنشور ألوية العلم والارادة» في العلم والشريعة والنبوة . . .

ج - العلوم التاريخية والجغرافية

امتاز هذا العصر بوفرة المصنفات في التاريخ وعلم البلدان والرحلات . وتبع اصحاب التاريخ من سبقهم في مزج الادب بالاخبار، وقد بالغوا في اطراء ممدوحيههم وتحقير من لم يرقهم، ولم يخصوا كل ما جمعوا من اخبار، واغفلوا الجانب المنطقي في تحليل الحوادث وتعليقها، واكثروا من العناية في تدوين سير الملوك والعظماء مهملين مظاهر الحياة الاجتماعية . ومن ايجاد هذا العصر ان تظهر فيه فلسفة التاريخ في مقدمة ابن خلدون . وفيما يلي اسماء اساطين هذه العلوم :

- احمد بن خلكان (١٢١١-١٢٨٢م/٦٠٨-٦٣٣ هـ) : ولد في إربل من اسرة تنتمي الى يحيى بن خالد البرمكي، ودرس على ابيه العلم في المدرسة المظفرية بإربل ثم رحل الى حلب ودمشق . وُلّي قضاء الشام مرتين وأخيراً عُزل . له « وفيات الاعيان » وهو كتاب جمع فيه تراجم العلماء والادباء والملوك والامراء ومشاهير الناس فضلاً عن الصحابة والتابعين والخلفاء . وقد تحرّى فيه الدقة ولاسيما في تاريخ الوفاة ولذلك دُعي الكتاب « وفيات الاعيان » ؛ وترك الخرافات وألفاظ الفجور ؛ وكانت عبارته سهلة جليّة . وقد ذيلّه ابن شاكر الكتبي (١٣٠٣ م) وسمى ذيله « وفات الوفيات » .

- القزويني (١٢٠٨ - ١٢٨٣ م/٦٠٥ - ٦٨٢ هـ) : هو زكريا بن محمد من سلالة أنس بن مالك . ولد في قزوين ورحل الى الشام والعراق وتولّى قضاء واسط والحلة، وكان في ذلك المنصب عند سقوط بغداد في حوزة هولاكو . وقد اشتهر بالتاريخ والجغرافية . له مؤلفات كثيرة منها : « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » وهو مقسوم الى قسمين : موضوع القسم الاول العلويات وفيه كلام على الكواكب وحركاتها وفصول السنة ؛ وموضوع الثاني السفليات اي الارض والهواء والبحور وحيوانها، واليبس وجماده ونباته وحيوانه . وللقزويني « آثار البلاد واخبار »

العباد» في التاريخ . - ابو الفداء (١٣٣٢ م / ٧٣٢ هـ) هو الملك المؤيد صاحب حماة واهله « المختصر في تاريخ البشر » . - ابن بطوطة (١٣٠٤ - ١٣٧٧ م / ٧٠٣ - ٧٧٩ هـ) ولد ونشأ في طنجة، ثم قام برحلات ثلاث فزار المغرب ومصر والشام وما يليها من البلدان حتى بلغ الهند والصين وجاوا . ثم عاد فزار الاندلس واخيراً تجوّل في السودان حتى بلغ تُنْبُكْتُو . وقد اتصل بالملوك والامراء، وتعرّف احوال البلاد، وفاق من سبقه في دقة وصفه، ولكنه وقع في اضاليل واوهام . وقد دوّن وصف رحلته في كتاب « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » الذي تُرجم الى اللغات الاوربية وطبع في القاهرة للمرة الثانية سنة ١٩٠٤ . وهذا الكتاب نفيس بما حواه من الفوائد وهو مصدر يعوّل عليه للوقوف على حالة العالم الاسلامي في عهد صاحبه .

- ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م / ٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) : هو أبو زيد عبد الرحمن ابن محمد . هاجر اجداده من الشرق وسكنوا إشبيلية، ثم انتقلوا منها الى تونس فولد فيها ابن خلدون وامتاز بذكاء العقل وسعة الاطلاع ودقة الملاحظة . وروى الكتابة والوساطة بين الملوك في المغرب والاندلس . ولما احس بالسعايات جاء مصر حيث قلّده السلطان بقوق قضاء المالكية . فاستدعى ذويه من تونس فغرقوا قبل وصولهم . فاستقال من منصبه وانقطع الى التدريس والتصنيف، ثم مات بمصر . وقد خَلَف ابن خلدون في التاريخ « كتاب العبر وديوان المبتدئ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر » . وهو مؤلف من ثلاثة كتب في سبعة مجلدات . واعظم اجزائه واشهرها الكتاب الاول المسمى « مقدمة ابن خلدون » والذي ضمنه صاحبه قواعد فلسفة التاريخ والاجتماع، ونقد فيه الذين سبقوه وبيّن عيوبهم، ثم وصف تطوّر الامم من البدارة الى الحضارة وترقي الشعوب في الاجتماع والدين والسياسة والاقتصاد والعلوم والفنون، وتكوّن الدول وغوّها وانهارها، وطبائع اهل البدو والحضر الخ . كل ذلك بطريقة متسلسلة، واسلوب منطقي، وتعبير سائغ سهل لا تكلف فيه ولا تقيد بسجع او ببيديع . وقد اخذ



ابن خلدون كما تخيَّله الفنان ارتورو اورتيس

العلماء على ابن خلدون ان كل ما جاء به من الامثلة والتطبيقات منتزع من التاريخ الاسلامي وحده، وانه لم يسر في تاريخه على النهج الذي سته في المقدمة . وقد طبعت هذه مراراً كثيرة في مصر والشام واوربة وترجمت بكاملها او بعض اقسامها الى اللغات الاجنبية . ولا يزال الاوربيون يعيرونها اهتماماً عظيماً . وكتاب العبر على ما في اقسامه من تفاوت في الإجادة، وما في عرضه للحوادث وقيمة وثائقه من النقص، يجمع فوائد حجة ولا سيما في تاريخ البربر الذي لا يزال المرجع النفيس لمعرفة احوال المغرب في العصور الوسطى . ولابن خلدون ايضاً « التعريف بابن خلدون » وهو كتاب بمثابة مذكرات شخصية عرض فيها المؤرخ احواله واسفاره وما عاناه من المحن .

— المقريزي (١٣٦٥-١٤٤١ م / ٧٦٦-٨٤٥ هـ) . هو ابو العباس تقي الدين احمد بن علي . أصله من بعلبك ونسبته الى حارة من حاراتها تدعى حارة المقارزة . وُلد ونشأ في القاهرة ووُلي مناصب كثيرة من حسبة وخطابة وإمامة، واتصل بالملك الظاهر برقوق وبولده الملك الناصر . وقد حصل ثروة كبيرة، واشتغل بالتأليف، ونَبه ذكره في علم التاريخ، ثم مات في القاهرة . من آثاره «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» المعروف بخط المقريزي، وقد جمع فيه ما تفرق من اخبار الاقليم



صفحة من القرن السادس عشر من صنع دمشق (متحف اللوفر)

المصري وجغرافيته ومدنيته . طبع مراراً ونشر المستشرقون بعض اجزائه بلغاتهم؛ و «السلوك في معرفة دول الملوك» وهو تاريخ مصر من سنة ٥٥٧ هـ الى سنة ٨٤٤ هـ . وله «نبذة العقود في أمور النقود» تكلم فيها على النقود القديمة والاسلامية؛ و «الإلام بمن في ارض الحبشة من ملوك الاسلام» . وله في الجغرافية

العامة كتاب « جني الازهار من الروض المعطار » . والمقرئ في توارينه ينقل كثيراً عن غيره، وليس له كبير عناية في النقد والتمحيص . ولكن كتبه، مع ذلك، مرجع جليل النفع، في تاريخ مصر واحوالها .

— ابن عربشاه (١٤٥٠ م / ٨٥٤ هـ) وُلد ونشأ بدمشق ثم تحوّل الى سمرقند لما غزا تيمورلنك الشام . وبعد رحلات طويلة أقام بمصر حيث ادركته الوفاة . من مؤلفاته « عجائب المقدور في نوائب تيمور » وفيه وصف لفتوحات ذلك الطاغية واحوال البلاد في ايام خلفه ولاسيما ما يتعلق بسمرقند . وله « فاكهة الخلفاء » والكتاب مرآة لحياة الملوك تنعكس انوارها من الامثال التي على ألسنة الحيوانات كما في « كيلة ودمنة » . وهو في الحقيقة تقليد لكتاب مرزبان نامه الفارسي .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية (الجزء الثالث) - القاهرة ١٩٣١
خير الدين الزركلي : الاعلام - القاهرة ١٩٢٧ - ١٩٢٨
احمد امين وزكي نجيب محمود : قصة الادب في العالم (القسم الثاني من الجزء الثاني) - القاهرة ١٩٤٥
زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في المصور الوسطى - القاهرة ١٩٤٥
فؤاد افرام البستاني : ابن بطوطة - الروائع ٤ ، ٥ ، ٦ - بيروت
» » » : ابن خلدون - الروائع ١٣ ، ١٤ ، ١٥ - بيروت ١٩٢٧ - ١٩٢٨

٢ المراجع الاجنبية :

- Encyclopédie de l'Islam.
Brockelmann : Gesch. d. arab. Litter.
R. Grousset : L'Empire des Steppes. Paris 1948.

عَهْدُ النّهضة

(١٧٩٨ الى يومنا الحاضر)

— مقدمات النهضة

— عوامل النهضة ومظاهرها

— ادب النهضة :

— الشعر

— النثر الفني

— مشاهير الادباء

الباب الاول

مقدمت النهضة

١ حالة البلاد العربية قبيل النهضة : كان الشرق قبيل النهضة مغلقاً على نفسه اغلاقاً يكاد يكون كاملاً، وكان الجهل مخيماً، فكان لا بد له من نور غريب ينير مسلكه .

٢ احتكاك الشرق بالغرب :

١ - احتكاك لبنان بالغرب : اتصل لبنان بالغرب في عهد فخر الدين الذي شجع هجرة الغربيين الى بلاده . واهتم للبنان بابا رومة، وملوك الغرب، والمرسلون الاوربيون، فوصلوه بثقافة الغرب بواسطة المدارس . وقد اشتهر من الرجال الذين يمثلون احتكاك لبنان بالغرب جبرائيل الصهبوني، وابراهيم الحاقلاي، والمطران جرمانوس فرحات، والسباعنة، وميخائيل الغزيري وغيرهم .

وكان من احتكاك لبنان بالغرب تنظيم الرهبانيات تنظيماً علمياً ثقافياً، وجمع المخطوطات، والتنبه للطباعة ولاهية المدارس الراقية . . .

٢ - احتكاك مصر بالغرب : احتكت مصر بالغرب بواسطة حملة نابوليون بوناپرت . وقد اتى الفاتح معه بطائفة من العلماء، ومطبعة عربية، ومكتبة . وأنشأ الفرنسيون بمصر مدرستين، وجمعاً علمياً، ومكتبة، وصدروا صحيفتين . ثم اتى محمد علي فارسل البعثات الى اوروبا، وفتح المدارس الكثيرة، وشجع حركة النقل، والطباعة، والصحافة ؛ ولما تولى اسماعيل زمام الامور وسع تلك الحركة توسيعاً عظيماً، فكان لها أثر كبير في انهاض الشرق من غفلته .

١ حالة البلاد العربية قبيل النهضة : إنطوى الشرق العربي على نفسه، بعد

الحروب الصليبية، زمناً طويلاً، وأغلق

على نفسه إغلاقاً يكاد يكون شاملاً، فلم يجد في ذاته الا فقرأ واعداماً معنوياً . « ولما بدأ الغرب في القرن الخامس عشر والسادس عشر يضع اساس نهضته في العلوم والفنون والسياسة والاجتماع والاقتصاد وغير ذلك مما غير وجه حياته تغييراً تاماً لم يصل الى الشرق شيء منها، ولم يشعر بها واستمر في دائرته المغلقة يقلد حياة الشرق الاولى من غير روح ويعيش على الثقافة القديمة بعد ان صارت قاثيل » . فكان الجهل في الشام مخيماً على العقول، فلا تجديد فيه ولا جديد الا النظر في قضايا

لاكتها الاسن قديماً . ولم تكن مصر احسن حالاً، فقد قال ثواني الرحالة الفرنسي الذي زارها في اواخر القرن الثامن عشر، وقد ادهشة ما رآه من سوء حال تلك البلاد : « الجهل عام ٠٠٠ وهو يتناول كل الطبقات، ويتجلى في كل العوامل الادبية والطبيعية وفي الفنون الجميلة . حتى الصنائع اليدوية فانها في ابسط احوالها » .

وهكذا كان الادب العربي في شعره ونثره راكداً يخلو من الحياة، ويتلهى في ازجال شعبية، واحاجي نحوية، والاعيب لفظية وعددية، تتراءى فيه حياة الامة التي ساءت حالها الاقتصادية والسياسية .

وقد كان في البلاد العربية قناصل للدول وتجار اجانب، ولكن هؤلاء كانوا يعيشون في شبه عزلة، ولم يكن لهم تأثير ادبي وثقافي يُذكر .

تلك كانت حال البلاد، ولم يكن من البيئة ما يساعد على النهوض، فكان لا بد من نور غريب ينير الازدهان ويرفعها الى مستوى المجاري الفكرية والادبية العالمية . وكما ان الشرق اثار اوربة في ايامها المظلمة كذلك استعان الشرق باوربة في عهد انحطاطه ليقم نهضته . فمن احتكاك الشرق بالغرب ستنبعث الشرارة التي ستصير اشراقاً في العالم العربي وتنير طريق العقول الى رقي واسع في ميادين الفكر والثقافة والادب . وقد كان هذا الاتصال بالغرب اقدم عهداً في لبنان منه في سائر البلاد العربية ؛ وانه وان لم يكن ذلك الاتصال القديم العهد فيه ببلاد الغرب وشعوبها وثقافتها مظهراً من مظاهر النهضة الاخيرة، فقد كان عاملاً من اقوى عوامل تلك النهضة، واحدى مقدماتها الكبرى، لانه كان من مهياتها الفعالة كما سنرى ذلك واضعاً في ما يلي .

٢ **احتكاك الشرق بالغرب :** كان احتكاك الشرق بالغرب اهم مقدمات النهضة واشدها تأثيراً . وقد جرى هذا الاحتكاك بنوع خاص في لبنان ومصر دون سائر البلاد العربية، وبطريقة اشد اثراً واعم نفعاً .

ولهذا سنحصر كلامنا في هذين البلدين غير غافلين عما قد نجده في جميع اقطار الشرق من آثار الاحتكاك او مظاهره .

١ - احتكاك لبنان بالغرب : للبنان موقع جغرافي يجعله سهل الانفتاح على العالم الغربي، سريع الاتصال بمرافقه وثقافته، ولهذا كان احتكاكه بالغرب قديم العهد يتجلى بنوع خاص في القرن السادس عشر وما يليه . فان فخر الدين امير



فخر الدين المعني الثاني

لبنان الاكبر (١٥٧٢ - ١٦٣٥) قصد اوربة واتصل بامراء توسكانة ليقف بنفسه

على الوسائل التي يقوم بها رقيّ بلادهم، وعقد معهم المحادثات التجارية والودية، فأمدّوه هم بعمالء كفاة يعملون معه على ترقية احوال بلاده، وفسح هو في لبنان مجالاً واسعاً للتجارة الاوربية، وشجع حركة البعثات الاوربية الى الشرق، فشىّد للاجانب دوراً رحبة، وبذل من امواله الخاصة لمساعدة المرسلين الاوربيين القادمين الى لبنان .



بيروت وجبل لبنان (عن رسم قديم)

واهتمّ الغربُ للبنان اهتماماً خاصاً ايضاً، فكان من اول المهتمين بابا رومة، اذ امر يوليوس الثالث (١٥٥٠ - ١٥٥٥) اليسوعيين بفتح المدارس في الشرق الادنى ولاسيا لبنان؛ ثم عمد البابوات الى نقل فتيان المواردنة الى رومة ليتلقّوا في مدارسها ويعودوا بعد ذلك الى بلادهم حاملين نوراً جديداً، وثقافة جديدة، وأساليب جديدة . فكانت البعثة الاولى الى رومة سنة ١٥٧٨ . وفي سنة ١٥٨٤ انشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر في رومة المدرسة المارونية التي سيكون لها الاثر المحمود في النهضة

اللبنانية . وكان تلامذة تلك المدرسة يعودون الى وطنهم فينشئون المدارس على غرار ما شاهدوه في اوربة، وكان الكرسي الرسولي يساعدهم على ذلك وبأخذ على نفسه احياناً تجهيز تلك المدارس ونفقاتها .

واهتم ملوك اوربة ايضاً لابناء لبنان، فأخذت باريس على عاتقها تخريج عدد يذكر منهم وتعهّد لويس الرابع عشر ملك فرنسا بتعليمهم مجاناً .

واهتم المرسلون الاوربيون للبنان اهتماماً خاصاً فتوافدوا اليه من عهد قديم جداً، وكانوا مختلفي الاجناس، مختلفي اللغات والثقافات، فأنشأوا المدارس ومكّنوا ابناء لبنان من الاطلاع على ثقافات الغرب المختلفة، فقابلوا بين ما هم عليه وما للغرب من رقي، وعرفوا الداء والدواء، وتجنّدوا لخدمة البلاد، وعملوا بكل نشاط على ترقية حالها .

ولا بُدّ لنا هنا من ذكر بعض الاعلام الذين يمثّلون احتكاك لبنان بالغرب احسن تمثيل، والذين عملوا بجد وإخلاص على توسيع آفاق اللبنانيين وغيرهم، وتهيئة النهضة الحديثة، ووضع حجر زاويتها . واننا سنجتري بالقليل منهم دون الكثير لوفرة عددهم واتساع دائرة أعمالهم .

واول من نأتي على ذكره القس جبرائيل الصهيوني الاهدني (١٥٧٧ - ١٦٤٨) خريج مدرسة رومة ومدرس العربية والسريانية في مدرسة الحكمة الشهيرة بتلك المدينة، والاستاذ في المدرسة الملكية بباريس حيث انشأ فرعاً العربية والسريانية . وقد ترك مؤلفات كثيرة وترجم الى اللاتينية كتاب « نزهة المشتاق في ذكر الامصار والآفاق » للشريف الادريسي .

ونذكر ابراهيم الحاقلاني (١٦٦٤) خريج مدرسة رومة ومدرس العربية والسريانية في المدينة نفسها وفي جامعة فرنسا Collège de France؛ وقد دعاه الكردينال

(١) ذكر الاستاذ جان غوليه مدرسة أسسها كولبير بباريس سنة ١٦٨٠ لتعليم الشرقيين .
J. Gaulmier : Volney et la pédagogie de l'Arabe, B E O, 1945-46, t. XI, p. 117.

الشهير ريشيليو « ترجمان البلاط » لانه ترجم له عدداً من الكتب العربية . وكتب في تاريخ العرب وأنسابهم، والفلسفة الشرقية، وله معجم عربي لاتيني لا يزال مخطوطاً في مكتبة باريس، و خلاصة اللغة العربية طبع سنة ١٦٢٧ . وقد كتب عنه الرحالة دياروك (القرن السابع عشر) في كتابه « رحلة في سورية ولبنان » ما ترجمته : « ان العلماء يعرفون شهرته الواسعة وآثاره الجليلة، ويعلمون ايضاً كم نال من التقدير والإجلال لدى أعظم رجال الكنيسة وأشهر اقطاب العلم في أوربة » .

وفي اواخر القرن السابع عشر ظهر المطران جرمانوس فرحات (١٦٧٠-١٧٣٢)



المطران جرمانوس فرحات
(مجموعة دار الكتب اللبنانية)

وهو من اسرة مطر التي ارتحلت من قرية حصرون بلبنان الى حلب . وقد كان من الذين وضعوا اساس النهضة في الشرق فكان شديد الاتصال بثقافة العرب يعرف من اللغات العربية والايطالية واللاتينية والسريانية ، كما كان متضلّعاً من المنطق والفلسفة وعلوم العرب والتاريخ الخاص والعام فضلاً عن العلوم اللاهوتية، وكان له ايضاً مشاركات في علوم أخرى كالطب والكيمياء والفلك والطبيعات . رحل الى رومة سنة ١٧١١ ومنها

الى اسبانية حيث تفقّد ما بقي من آثار العرب، وحصل على بعض المخطوطات، وقفل في سنة ١٧١٢ عائداً الى لبنان . ولما كان اسقفاً على حلب أنشأ مكتبة تُعرف بالمكتبة المارونية وفيها بعض المخطوطات العربية النفيسة . وقد ترك من المؤلفات ما يربو على المئة في النحو، والإعراب، واللغة، والعروض، والادب، والمنطق،

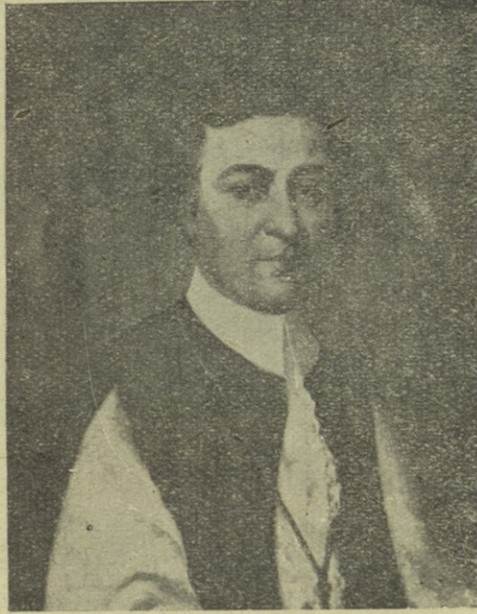
والفلسفة ؛ ومن كتبه المشهورة « بحث المطالب » في الصرف والنحو الذي طالما تكرر طبعه وظل مُعتمداً في المدارس الى عهد غير بعيد عنا . والحق يقال ان هذا الحبر العالم خدّم المعارف والآداب خدمة جليلة بتأليفه، وتصنيفه، وتوسيع دائرة البحث، وتعريبه، وتصحيحه المتأليف الكثيرة، وتعزيزه لدور التعليم، ونشره للعلم وطرقه، وجمعه لنفائس الكتب .

ومن تلامذة مدرسة رومة الاب بطوس مبارك (١٦٦٠ - ١٧٤٧) الذي تخرّج بالعلوم وأتقن من اللغات سبعة : العربية، والسريانية، واللاتينية، واليونانية، والعبرانية، والايطالية، والفرنسية . وقد ترجم الى اللاتينية عدّة مؤلفات، ودعا امير توسكانة واقامه على طبع الكتب الشرقية . وهو الذي أنشأ مدرسة عينطورة وسلم امر تدبيرها الى الآباء اليسوعيين .

ومن تلامذة مدرسة رومة ايضاً الحوري بطوس التوليّ (١٦٥٧ - ١٧٤٥)، وقد اشتهر بالعلوم التي كان يتقن منها الفلسفة، والفقه الاسلامي، والطبيعات . انشأ مدرسة بجلب، وتولى تدريس الايطالية واللاتينية في المدرسة المارونية بتلك المدينة، وجعل تلاميذه يتذوّقون آداب تينك اللغتين ويطلعون على آثارها الخالدة . وقد تتلمذ له الكثيرون فاشتهر المطران جرمانوس فرحات، والمطران عبدالله قرألي، والمطران جبرائيل حوّا، والشماس عبدالله زاخر، والحوري نقولاوس صائغ، وغيرهم كثيرون من كبار العلماء الذين تركوا المؤلفات النفيسة في الدين والدنيا .

وهناك أسرة السماعنة الشهيرة التي وضعت لنهضة الشرق اساساً مكيناً . ومن اشهر اعلامها يوسف سمعان السمعاني (١٦٨٧ - ١٧٦٨) خريج مدرسة الموارنة برومة، وكان ملفاناً في الفلسفة واللاهوت، متضلّعاً من الطبيعيات والرياضيات فضلاً عن الشرع والتاريخ، وكان يتقن عدّة لغات منها العربية، والسريانية، واليونانية، واللاتينية، والعبرانية، والفرنسية، والايطالية . وهو الذي وضع فهرساً للكتب الشرقية المخطوطة في المكتبة الفاتيكانية، واخصّ خاوي تلك المخطوطات على احسن اسلوب، وعلّق عليها تعليقات قيّمة . وقد اقامه البابا مترجماً للكتب العربية

والسريانية والكلدانية التي في المكتبة الفاتيكانية . وفي سنة ١٧١٥ جال جولة واسعة في الشرق للبحث عن الكتب المخطوطة الشرقية، فجمع منها عدداً وافراً كان موضوع مؤلفه الشهير « المكتبة



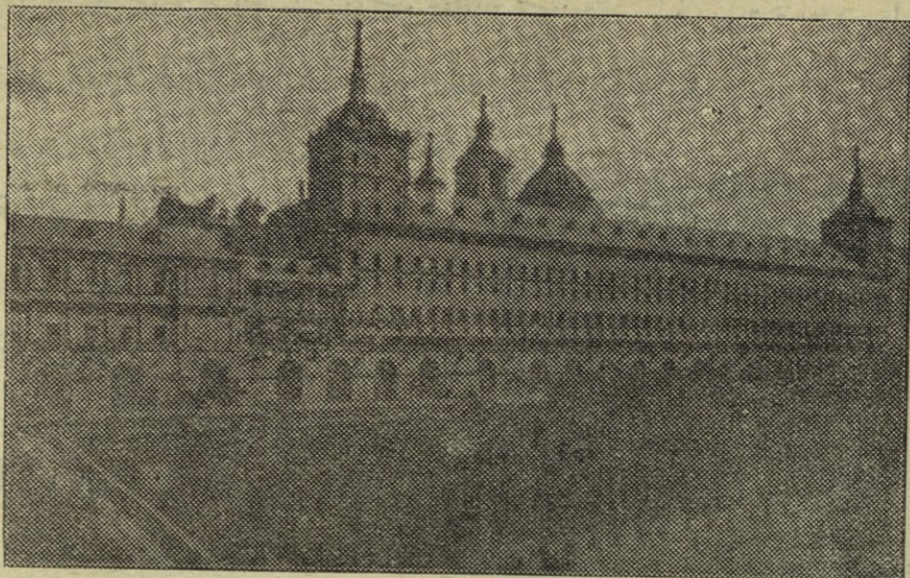
الشرقية» . ونال هذا الرجل العظيم من الرفعة في اوربة والشرق مكاناً عالياً جداً، وقد بثّ في بلاده الروح العلمية الحقة، ودعاه كرلس الرابع ملك نابولي وصقلية مؤرخاً لمملكة نابولي . اما مؤلفاته فقد بلغت المئة، فمن فهارس المخطوطات العربية، ومن تاريخ شرقي، ومن فلسفة وغير ذلك من كل جليل نفيس . ومن آثار هذا العلامة انه رأس المجمع اللبناني الماروني المنعقد في دير اللوزة سنة ١٧٣٦، وبثّ

يوسف السمعاني أمين مكتبة الفاتيكان
(مجموعة دار الكتب اللبنانية)

فيه روحه العلمية، وأمر بفتح المدارس لتهديب الاحداث، ووجه الاديار توجيهاً جديداً يسير بها الى العمل في سبيل النهضة بقوة وثبات .

ونذكر ايضاً المطران اسطفان عواد السمعاني الذي وضع فهرست الكتب المخطوطة الشرقية في المكتبة المديشية بمدينة فلورنسة من اعمال ايطالية، ونقل تاريخ ابن العبري الى اللاتينية؛ والحوري ميخائيل الغزيري (١٧٩٤) الذي دُعي الى مجريط (مدريد) وعُيّن عضواً في ندوة تاريخ مجريط الملكية، ثم عينه الملك مترجماً له في اللغات الشرقية، ثم عُيّن أميناً أول لمكتبة الاسكوريال .

(١) قال الاب بولس مسعد في مجلة المشرق ١٩٣٦ (ص ٦٠٣ - ٦٠٤) : « واعظم آثار ذلك العالم فائدة العلم هو مكتبته العربية الاسبانية Bibliotheca arabico-hispana ، وقد طبع هذا المصنّف بجلاّدين ضخمين في مدينة مدريد ما بين سنة ١٧٦٠ وسنة ١٧٧٠، وصدره بمقدمة طويلة، ثم أخذ في وصف وسرد مخطوطات مكتبة الاسكوريال التي تُعدّ من أغنى المكاتب الغربية بالمؤلفات



مكتبة الاسكوريال

والى جانب الموارنة كان ابناء الطوائف الأخرى في لبنان يجدون أيضاً في طريق العلم متّصلين بالغرب؛ وقد اخرجت لهم مدارس اوربة طغمة من رجال العلم والعمل كالحوري يوحنا العجيمي (١٧٢٤ - ١٧٨٥) صاحب الكتب التاريخية المشهورة، والقس حنانيا المنير (١٧٥٧ - ١٨٢٠) وله عدة كتب في التاريخ الديني والمدني، والحوري يوسف سابا (١٨٢٧) صاحب الكتب الجلية في الفلسفة والطبيعات، والهندسة، وغير ذلك .

كان من هذا الاتصال بالغرب، وثقافة الغرب، وأساليب الغرب العلمية، أن قبض على زمام الأمة اللبنانية بطاركة وأساقفة وكهنة ورجال علم استقوا علومهم من

العربية وخصوصاً الاسلامية . فالمجلد الاول يشتمل على النحويين، والشعراء، واللغويين، وكتاب التراجم والسير، والفلاسفة، وعلماء الاجتاع والسياسة، والاطباء، والرياضيين، والفلكيين . والمجلد الثاني مكرّس للجغرافية والتاريخ . وقد ضمّن مصنفه هذا عدة شهادات تاريخية عربية تساعد الباحث على التنقيب عن تاريخ اسبانية العربية . اما خطته في هذا الكتاب الفريد فهي انه يعطي اولاً عنوان المخطوط بحرف كبير ثم يصفه باللاتينية، وكثيراً ما يورد ترجمة المؤلف بايجاز، مع ذكر كتاباته، معززاً ذلك بشهادات عديدة من مضامين الكتب . . . ولا أظن ان دارساً متبحراً يستطيع التعمق بالآداب الشرقية دون ان يلجأ الى مؤلف عالمنا هذا .

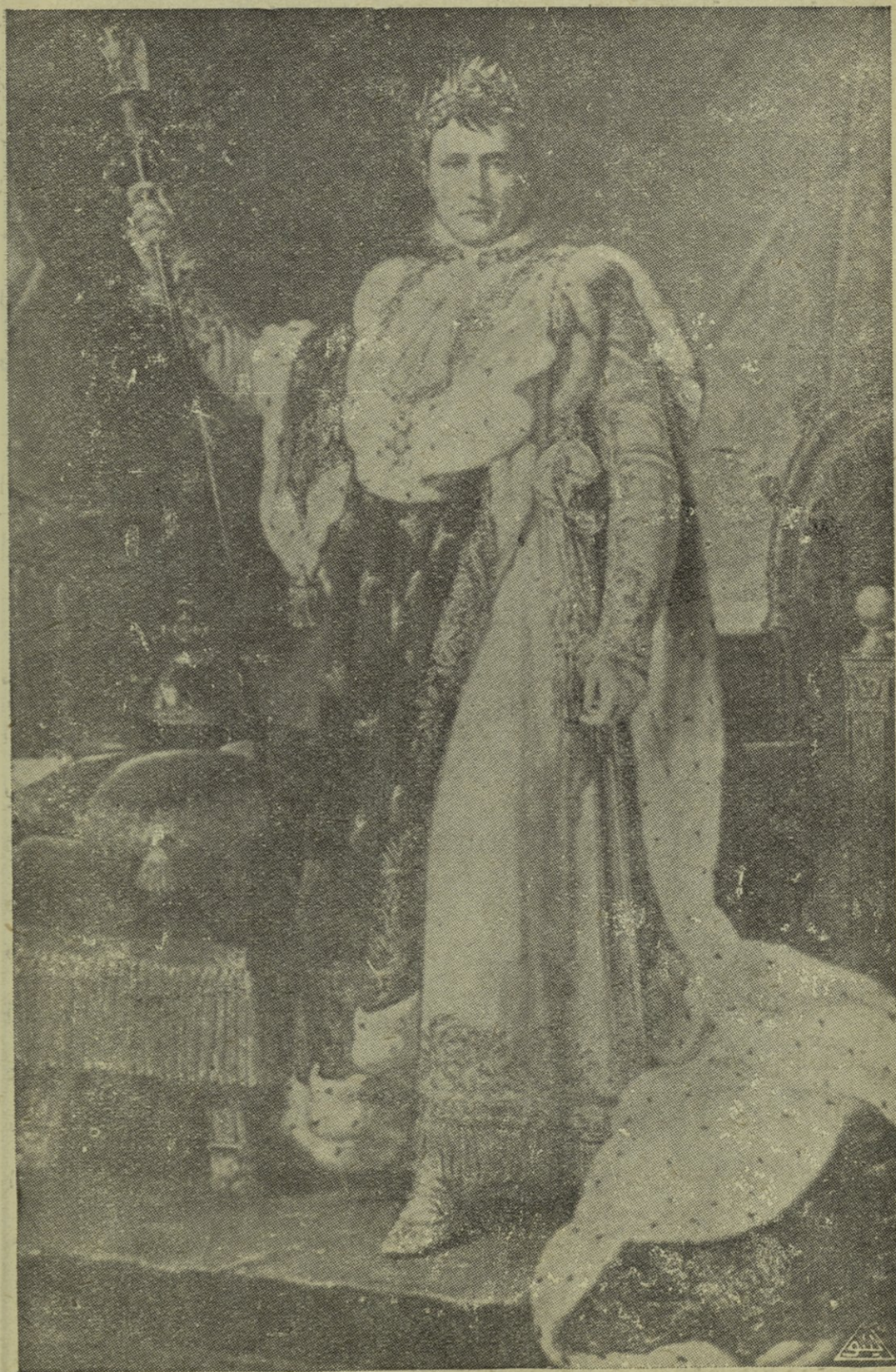
مدارس الغرب ونبغوا في فروع العلم المختلفة، فأرادوا ان ينهضوا بأمتهم ويوجهوها توجيهاً يضمن لها رقيّاً ثقافياً حقيقياً . فنظموا الرهبانيات تنظيماً راقياً، ووجهوها توجيهاً ثقافياً فضلاً عن توجيهها الديني . وقد سعى الرهبان في ترقية مدارسهم الاكليريكية وجعلها على مثال مدارس رومة وغيرها من عواصم اوربة، لتخريج كهنة يكونون من أركان النهضة؛ وسعى كذلك الرهبان في ارسال البعثات الى اوربة؛ وان عدداً من خريجي مدارس الغرب عادوا الى رهبانياتهم وتسلموا قيادتها وبشّوا الروح العلمية في ابنائها، فحملها هؤلاء الى معاهد العلم ودور الثقافة .

وكان من اتصال لبنان بالغرب أن انصرف ابنائه الى جمع المخطوطات ونقل الكتب الغربية الى العربية، والعربية الى لغات الغرب؛ وهكذا ساهموا في تهنيء ادوات العمل العلمي المثمر، كما ساهموا في تهنيء حركة الاستشراق .

وكان من ذلك ايضاً ان رهبان لبنان وسورية تنبّهوا للطباعة الآليّة وما لها من فوائد، فحملوها الى بلادهم وحفروا الحروف الطباعية العربية . وكذلك تنبّه ابناء لبنان لأهمية المدارس، واذا بهم ينشئون المدارس في كل انحاء الجبل؛ واذا بتلك المدارس تعمل على تشقيف عملة النهضة اصبحوا اساتذة بلادهم، وانبشّوا بطرقهم الجديدة واتساع دائرة افكارهم ينشئون المدارس او يعلمون في مدارس غيرهم . وهكذا مثلاً كانت مدرسة عين ورقة - على حد قول المعلم بطرس البستاني - «أم المدارس الوطنية في هذه البلاد» ، وعين ورقة - كما لا يخفى - من ثمار اتصال لبنان بالغرب، وقد كان نظام التدريس فيها وموادّه على غرار نظام التدريس وموادّه في معاهد رومة . ومن تلامذة تلك المدرسة المعلم بطرس البستاني صاحب اول «دائرة معارف» في العربية وصاحب «المدرسة الوطنية» الشهيرة التي خرّجت سليمان البستاني؛ ومن تلامذتها ايضاً احمد فارس الشدياق الذي سنبين مدى أثره على النهضة فيما بعد، والكونت رشيد الدحداح وغيرهم . . .

٢ - احتكاك مصر بالغرب: في اواخر القرن الثامن عشر رأت فرنسا ان

تحتل مصر رغبة منها في التوسّع ثم في سدّ طريق الهند في وجه انكلترة، فوكلت



نابوليون بوناپرت

الامر الى نابوليون بوناپرت، فاعدت الحملة، وفي النصف الثاني من شهر ايار سنة ١٧٩٨ سار أسطول له الى مالطة فاحتلها، ثم قصد الاسكندرية وتغلب على جيش المماليك، وكان المماليك اذ ذاك حكام مصر الفعلين لا تهتم الدولة العثمانية إلا بأن يصلها خراج مصر السنوي، ولم يكن للوالي التركي الذي تعينه القسطنطينية من سلطة تذكر، فكان المماليك مستبدن بالامر، يجبون الاموال كما يرغبون، ويتصرفون على حسب اهوائهم في ظلم الناس واضطهادهم . وقد عمت الفوضى في البلاد، وتناحر المماليك فيما بينهم، واشتد امرهم على الناس، كما اشتد امر الجند الذين عاثوا في البلاد فساداً باعتدائهم على الاموال والاعراض والارواح . فكانت من ثم حملة نابوليون بوناپرت على وادي النيل اشبه بصاعقة انقضت على تلك الفوضى المملوكية، وإن كانت غاية الفاتح غاية استعمارية سياسية، حدثت من غلواء المماليك، وبددت شملهم، وأيقظت مصر من سباتها العميق، ونبتت اهلها الى ما كان خافياً عنهم من حقوق، وعملت على تنوير اذهانهم؛ وقد اشتهر كوا في حكم بلادهم وفي تعرف ألوان الثقافة الحديثة؛ ولاسيا وان نابوليون قد اراد ان يكون غزوه لمصر لا بسلاح الحرب فقط بل بسلاح المعرفة والعلم ايضاً، ليكون له مجدان : مجد السيف ومجد العرفان، فيكتسب عطف علماء اوربة ومفكرها . ولهذا ضم الى حملته طفحة من العلماء واهل العقل والصناعة بلغ عددهم مئة وستة وأربعين، وكان ممّا جُهزت به الحملة مطبعة حروف عربية هي اول مطبعة قامت في مصر بطبع الكتب والصحف والمجلات؛ وأضيف اليها الكتب والمراجع عن مصر مما عثر عليه في فرنسة وايطالية .

وما ان استتب الامر للفرنسيين حتى انشأوا في القاهرة مدرستين لتعليم ابناء الفرنسيين المولودين بمصر، وانشأوا «مجمعاً علمياً» على غرار المجمع العلمي الفرنسي؛ وقد صدر الامر بتأسيس ذلك المجمع في ٢٢ آب سنة ١٧٩٨، وجعل شعاره «التقدم والاتحاد» اي العمل على تقدم البحوث العلمية الخاصة بمصر، والسعي في ادماج الثقافة الشرقية في الثقافة العلمية الغربية . وكانت المواد التي يتناولها اعضاء المجمع بالدراسة والبحث، الرياضة والطب، والعلوم الاقتصادية، والفنون، والآداب،

والموسيقى، وكل ما يتعلّق بتاريخ مصر، واشترط ان ينشر المجمع ابحاثه مرة في كل ثلاثة اشهر، كما سعى الى تأليف لجنّتين للتنقيب عن الآثار القديمة والبحث عن مخلفات الحضارة الفرعونية .

وانشأ المجمع مكتبة تحوي انفس الكتب التي جلبها الفرنسيون من اوربة والتي حصلوا عليها من المساجد وبيوت الممالك . وكانت المكتبة تفتح ابوابها يومياً لاستقبال طلاب العلم . وقد أفردت دار للاشتغال بكل علم ولاسيا الكيمياء والتجارب الكيماوية .

واصدر الفرنسيون صحيفتين باللغة الفرنسية هما Le Courrier d'Égypte اي « بريد مصر » وهي تعدّ لسان حال الحملة ؛ و La Décade Égyptienne اي « العشرة المصرية » وهي لسان حال المجمع العلمي . وانشأوا ايضاً مسرحاً للتمثيل، فضلاً عن المصانع والمعامل لصنع الاقشة والورق وغير ذلك، فضلاً عن المراصد الفلكية ودور النقش والرسم وما الى ذلك .

فكان من الحملة الفرنسية انها هزّت مصر هزة عنيفة بنقلها قوّة الغرب ومدنيّته اليها؛ فهبّ المصريون من غفلتهم وفتحوا اعينهم على ما لم يكن لهم عهد بمثله ، وعلى موارد الحضارة الاوربية، وتنبهوا الى حقوقهم التي هضمها الممالك، ونشأت فيهم القومية المصرية ولاسيا وقد دُعوا للاشتراك في حكم بلادهم بانفسهم وتعود الاضطلاع باعباء « الحياة النيابية » .

ولما خرج الفرنسيون من مصر سنة ١٨٠١ انتابت البلاد طوارئ مختلفة أدّت الى جلوس محمد علي على عرش حكومتها سنة ١٨٠٥، فأقدم على تثبيت دولته بتعزيز جيشه وتدريبه على احدث الوسائل الغربية، وعزم على اصلاح وادي النيل وانهاضه مما اوصله اليه الممالك، فارسل بعثات علمية الى فرنسا وغيرها من بلاد اوربة

(١) كانت اول بعثة الى اوربة في سنة ١٨١٣، ثم ظل محمد علي يوالي البعث بعد ذلك حتى سنة ١٨٢٦ حيث كان عدد البعثات اكثر من اربعين طالباً .



محمد علي

ليقف افرادها على
اسباب رقي تلك البلاد
ويرجعوا الى وطنهم بعد
ذلك فيعملوا على اصلاح
حاله وتعليم رجاله .
وكان على جميع التلامذة
الذين قصدوا باريس ان
يدرسوا الحساب والهندسة
والجغرافية والتاريخ
والرسم، ويتخصصوا بعد
ذلك في الفنون التي
ارتضوها لانفسهم^١ .

وأنشأ محمد علي في
مصر عدداً كبيراً من
المدارس، ورعى
بإنشائها قبل كل شيء
الى تعزيز قواه العسكرية
وما يلحق بها من اصلاح

(١) كانت فنون التخصص ترجع الى ما يلي، نقلاً عن كتاب « اسباب النهضة العربية » لانيس نصولي: « - ١ فن تدبير الامور الملكية، ويتشعب الى الحقوق الطبيعية والبشرية والوضعية، وعلم الاقتصاد، وتدبير المعاملات والحسابات، وحفظ بيت المال . - ٢ علم التدريب العسكري . - ٣ علم الامور البحرية . - ٤ علم السفارة والمراسلة ومعرفة اللسن والحقوق والاصطلاحات الدولية . - ٥ فن المياه ويتناول صناعة القناطر والجسور والارصفة والفساقي ونحوها . - ٦ الميكانيكيات . - ٧ فن المدفعية . - ٨ فن سبك المعادن لصناعة المدافع والاسلحة . - ٩ علم الكيمياء وصناعة الورق والبارود والسكر . - ١٠ علم الطب بفروعه كالتشريح والجراحة والبيطرة وغيره . - ١١ الفلاحة وأنواع الزروع وتشجير الارض ودرس الآلات الزراعية الحديثة . - ١٢ تاريخ الطبيعيات والنبات ومراتب المعادن . - ١٣ صناعة النقش والحفر والطباعة . - ١٤ فن الترجمة وخصوصاً التي تعنى بالكتب العلمية الاجنبية » .

الحالة الاجتماعية والاقتصادية، ومن أشهر تلك المدارس مدرستا الطب والحرية .
والكي تقوم تلك المدارس على اساس مكين اتاها بالاساتذة من ايطالية وفرنسة
وانكلمرة كما اتى بضباط فرنسيين لينظموا له الجيش . ولم يمض زمن قصير حتى
تعددت المدارس وضجت البلاد بطلّاب العلم، فاراد محمد علي ان يكون العمل
سائراً على احسن نظام، فأنشأ « ديوان المدارس » يقوم بما تقوم به اليوم تقريباً
« نظارة المعارف » .

ولم يقف محمد علي عند هذا الحد بل اتخذ اللغة العربية اداة للتعبير في الملك
والسياسة والقضاء، وشجّع حوكة النقل، فترجمت الكتب العلمية والاصلاحية من
اللغات الاجنبية الى العربية؛ وشجّع الطباعة التي تذيب تلك الكتب بين رعاياه
فيستفيد منها القاصي والداني، كما شجع الصحافة . وهكذا كان ذلك الرجل
العظيم ركناً قوياً من اركان النهضة الحديثة .

الا ان هذه الحركة قد فترت بعد محمد علي، فتوقف اكثر اعماله عندما صارت
الولاية الى حفيده عباس باشا الاول، ثم ابنه سعيد باشا . وما ان تولى اسماعيل زمام
الامور حتى اعاد النشاط الى الحركة التقدمية التي بعثها محمد علي، فكثرت في
ايامه المدارس والمطابع وغير ذلك من اسباب النهضة، وتكاثر تقاطر الاجانب في
عهده حتى قال عن مملكته : « انها قطعة من اوربة رغم كونها في افريقية » . ووافق
هذا العهد اضطهاد تركية للبنانيين والسوريين فكثرت المهاجرون منهم الى الديار المصرية
التي وجدوا فيها ميداناً واسعاً لحرية العمل، فعملوا هنالك على دعم الثقافة، بل
كانوا من اعظم خدّامها لان اكثرهم كانوا شعراء وأدباء، فأنشأوا الصحف والمجلات
الراقية، وانبثوا في جميع الحركات الثقافية والعلمية يعملون بنشاط . ولكثرة ما
أنشأ اسماعيل من المشاريع الاصلاحية تضخمت نفقات الدولة وأدّى ذلك فيما بعد
زمن الحديوي توفيق الى زيادة تدخل الاجانب وثورة عرابي باشا التي انتهت
بالاحتلال الانكليزي . وفي الحقيقة كان عهد اسماعيل عهد النهضة الادبية فيما كان
عهد محمد علي عهد النهضة العلمية والعسكرية .

فكان من ذلك ان احتكاك مصر بالغرب كان احتكاكاً شديداً، فقد انتقل اليها الغرب العلمي والعسكري في حملة نابليون، وانتقلت اليها النظم الاجتماعية واسباب الرقي على ايدي رجال كفاة؛ ورائت بأمر العين كيف تكون المدنية، وانتشر الوعي القومي، وتوات البعثات الى اوربة، ورجع رجالها حاملين العلوم ينشرونها في الديار ويعملون على انهض الامة بنقل الكتب، وطبع الصحف والمجلات، وانشاء المسرح، وغير ذلك مما سنأتي على ذكره بالتفصيل فيما بعد .

وكان للاحتكاك بالغرب أثر آخر في البلاد هو احتكاك من نوع خاص بين العقلية القديمة والعقلية الجديدة، والعلم القديم والعلم الجديد، والادب الحديث والفنون القديمة، وكان من ذلك ان نشأ في البلاد مجريان ادبيين يسيران جنباً الى جنب .

وكان هنالك احتكاك آخر هو احتكاك سياسي، فقد اُلفت نظر الدول ما في مصر من آثار قديمة وما لموقعها الجغرافي من اهمية في سياسة الشرق وافريقية، وما لقناة السويس التي فُتحت في عهد اسماعيل من خطر دولي، فتنازعت وتسابقت الى بسط النفوذ على مصر والتدخل في شؤونها، فكان من ذلك حركة قومية شديدة سيكون لها صدى شديد في الادب؛ ولما بسط الانكليز سلطانهم على البلاد اشتد الاحتكاك بالمدنية الانكليزية والثقافة الانكليزية وتوات البعثات الى انكلترة للدراسة فيها .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- انيس زكريا نصولي : اسباب النهضة العربية - بيروت ١٩٢٦ .
 انيس المقدسي : العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث - بيروت
 عمر الدسوقي : في الادب الحديث - الجزء الاول - القاهرة ١٩٤٧
 مارون عبود : صقر لبنان - بيروت ١٩٥٠
 الاب جبرائيل ابو سعدى : النهضة الادبية في لبنان - دير النخلص ١٩٤٤
 احمد امين : قصة الادب في العالم - الجزء الثالث - القسم الاول - القاهرة ١٩٤٨
 ص ٢٧٧ - ٢٩٢
 الاب لويس شيخو : الطائفة المارونية والرهانية اليسوعية - بيروت ١٩٢٣
 فؤاد افرايم البستاني : الحياة العقلية في لبنان قبل مئة سنة - المشرق سنة ١٩٢٩
 محمد امين حسونة : التأثير الفكري للحملة الفرنسية على مصر - مجلة الكتاب - السنة السادسة
 (١٩٥١) - ص ٣١٩ - ٣٢٥
 المطران يوسف الدبس : تاريخ سورية
 جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية - الجزء الرابع - القاهرة ١٩٣٧
 محمد كرد علي : خطط الشام - الجزء الرابع
 مصطفى زيد : ادب مصر الحديث - القاهرة ١٩٤٩
 الاب يوحنا الفاخوري : تمويه الحقائق - المسرة، في اعداد ك ٢، شباط، آذار، نيسان من
 سنة ١٩٥٠

٢ المراجع الاجنبية :

Henri Pérès : Les premières manifestations de la Renaissance littéraire arabe en Orient au XIX^e s. in Annales de l'Institut d'Études Orientales d'Alger, t. I, années 1934-1935, 233-256.

P. J. Nasrallah : L'Imprimerie au Liban — Harissa 1949.

Ch. H. Pouthas : Histoire de l'Égypte depuis la Conquête Ottomane. Paris, 1948.

الباب الثاني

عوامل النهضة ومظاهرها

١ المدارس : من اشهر مدارس لبنان مدرسة عين ورقة، والمدرسة الوطنية، والمدرسة البطريركية، ومدرسة الثلاثة الاقمار، ومدرسة الحكمة، والجامعتان الاميركية واليسوعية. ومن اشهر مدارس مصر الازهر، ومدرسة الطب، ومدرسة الحقوق، ومدرسة دار العلوم العالية، والجامعة المصرية؛ ومن اشهر مدارس سورية الجامعة السورية.

٢ الطباعة: دخلت الطباعة لبنان سنة ١٦١٠، وصنع عبدالله الزاخر اسماء الحروف العربية لمطبعة حلب ثم لمطبعة دير الشوير. وقد انتشرت المطابع انتشاراً واسعاً وكان تقدمها سريعاً فعملت على نشر العلم.

٣ الصحافة : كانت مصر المهد الاول للصحافة العربية، ولكن الصحافة لم تقم في الحقيقة الا على ايدي اللبنانيين. ومن اشهر الصحف الاهرام، والمقطم؛ ومن اشهر المجلات الهلال والمقتطف، ومجلة المجمع العلمي العربي، والاديب، والكتاب. وقد كانت الصحافة مدرسة متجولة تليّن اللغة، وتوسع المعارف، وتوقظ الروح الوطنية.

٤ الجمعيات العلمية والادبية : نشأت الجمعية الاولى في لبنان وهي « الجمعية السورية »، ومن اشهر الجمعيات اليوم « المجمع العلمي العربي » بدمشق؛ و « المجمع المملكي للغة العربية » بمصر. وقد عملت الجمعيات على التكتل، وسهلت التأليف والطبع والنشر، وعملت على تهذيب الالسنه والاقلام.

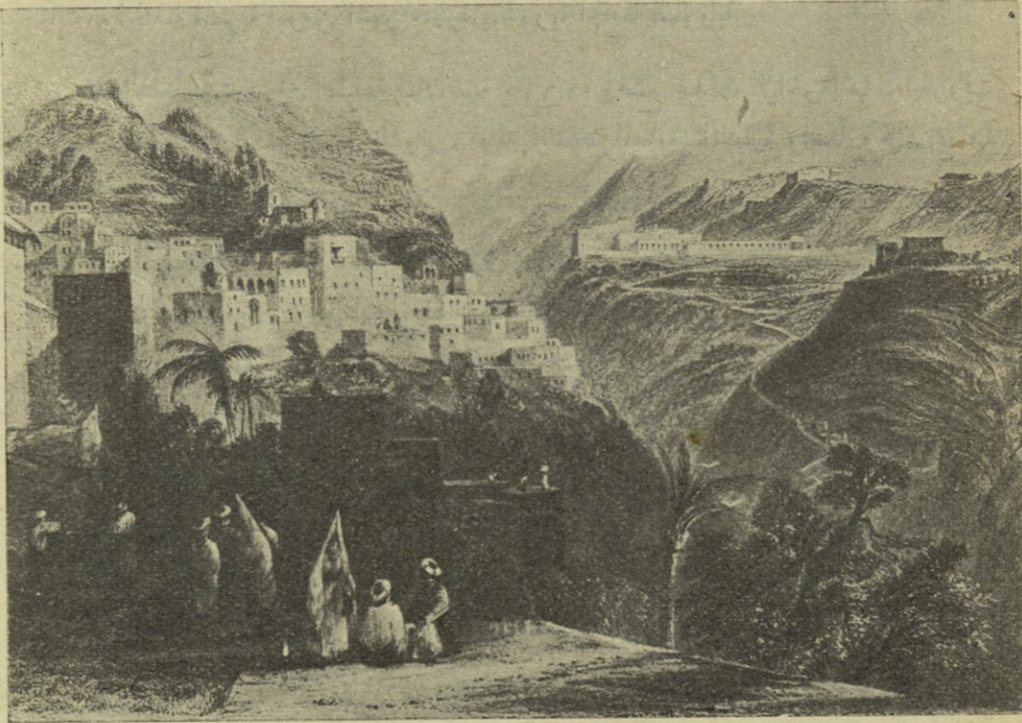
٥ المكتبات: من اشهرها المكتبة الظاهرية بدمشق، والمكتبة الشرقية، ومكتبة الجامعة الاميركية ببيروت، والمكتبة الخديوية، والمكتبة الأزهرية بمصر.

٦ التمثيل : التمثيل عرض واقعة تاريخية او خيالية على المسرح بواسطة اشخاص تنطبق افعالهم واقوالهم على حقيقة الواقع. ويُقسم الادب التمثيلي الى المأساة والمهابة. وقد نشأ الأدب التمثيلي العربي في لبنان انشاءً مارون النقاش، ثم انتقل الى مصر وقام اولاً على يد اللبنانيين والسوريين، ثم راح المصريون يجارون اخوانهم ويتخصّصون في فنّ المسرح حتى بقوا وحدهم تقريباً في الميدان. وقد ارتقى المسرح على يدهم واشتهر من فرقهم فرقة يوسف وهي، وفرقة محمد تيمور.

ومن اشهر من ألفوا المسرحيات الشعرية احمد شوقي وسعيد عقل.

٧ الاستشراق : ساعد الاستشراق النهضة بجمع المخطوطات، والدراسات العلمية. ومن اشهر المستشرقين سلفستر دي ساسي، ومرغليوث، وبروكلمن.

تعددت عوامل النهضة في البلاد العربية، وجرى في عروق الامة دم نشيط، فراحَت تقاوم العقبات القائمة في وجه رقيها وحريتها . فقد رأينا كيف تقلّبت الاحوال السياسية والاجتماعية في مصر . اما في لبنان فقد كان عهد الامير بشير (١٧٨٩ - ١٨٤٠) عهد ازدهار، وقد جعل الامير قصره في بيت الدين بلاطاً واسعاً ازدهم



دير القمر وبيت الدين (عن لوحة قديمة)

فيه الكتّاب والشعراء من امثال نقولا الترك، وبطرس كرامة، وناصيف اليازجي، كما اجال في مجالسه المناظرات . وعقب عهد الشهابيين انتشرت القلافل في لبنان وعمت الفتن الداخلية وقد انتهت بجوادث سنة ١٨٦٠ التي ادّت الى استقلال لبنان الذاتي والى قيام نظام المتصرفين، فازدهرت المدارس وانتشرت الثقافة ولكن العهد لم يخلُ من بعض التضييق على حرية الصحافة . ثم دبّ الفقر في اللبنانيين لضيق بلادهم وظلم سلاطين بني عثمان فهاجر قسم منهم الى مصر والبلاد الاميركية وساهموا هناك في النهضة الادبية العامة احسن مساهمة .

ولما تولى السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ - ١٩٠٩) عرش السلطنة استبد بالحكم وارهق الرعية بقسوته، وسعى في كتم افواه رجال الاصلاح الذين دعوا في البلاد العربية الى وضع دستور ينظم امور السلطنة، وقيام مجلس نواب يحد من طغيان عبد الحميد . ولم يعلن الدستور الا سنة ١٩٠٨، فكان لاعلانه صدى واسع في البلاد وفي الادب .

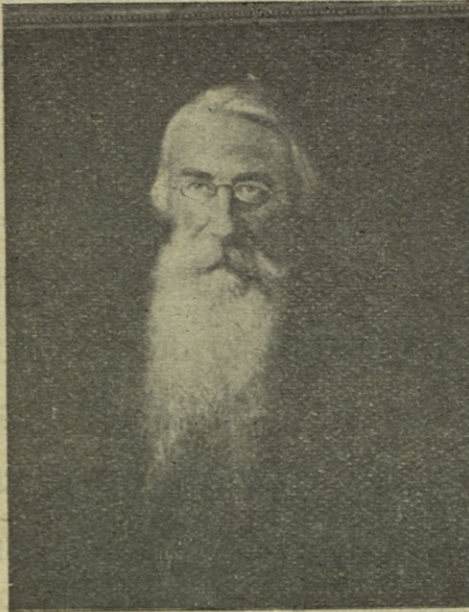
اما العراق فكان لسوء الحظ اقل نهضة واطول ركوداً اذ لم يجد من الاستقلال عن الدولة العثمانية ما وجدت مصر عند محمد علي وذريته، ولم يتوجه اليه المرسلون الاجانب لفتح المدارس، وكانت الدولة العثمانية تعدّه منى للمغضوب عليهم . ومن تثقف من ابناءه فثقافة عسكرية في الآستانة . ولهذا تأخرت نهضته الى عهد فيصل ولم يكن له من الثقافة الجديدة شيء . يُذكر لانصراف معاهده الى تعليم المواد العربية القديمة . وكان النابغون فيه محدودي الثقافة، وبرزهم في النصف الاول من القرن التاسع عشر الشهاب الالوسي (١٨٠٢ - ١٨٥٤ م / ١٢١٢ - ١٢٧٠ هـ) صاحب كتاب التفسير المشهور .

وها اننا سنستعرض عوامل النهضة ومظاهرها في جميع البلاد العربية وسنرى كيف ان هذه الحركة المباركة تغلبت على جميع التيارات المعاكسة وكان لها اطياف الثار في الوطن والمهجر .

١ المدارس : كان للمدارس الفضل الاكبر في ترقية البلاد ونشر العلم فيها، وقد تعددت في جميع الاقطار العربية ولا تزال حتى اليوم تعمل على تعزيز العلوم في مختلف نواحيها .

١ - اما في لبنان فالمدارس قديمة العهد وهي فرعان : مدارس اجنبية ومدارس وطنية . ومن اقدم المدارس الاجنبية واهمها مدرسة عينطورة التي اسسها الاب بطرس مبارك اللبناني سنة ١٧٣٤ ووكّل تديرها الى المرسلين اليسوعيين، ومدرسة عبيه العالية التي أسست سنة ١٨٤٧ وقام بادارتها الدكتور كرنيليوس

فانديك، ومدرسة غزير التي انشأها اليسوعيون سنة ١٨٤٧. وبعد سنة ١٨٦٠ تعددت المدارس الاجنبية واتسع نطاقها ومن اشهرها الجامعة الاميركية التي أنشئت سنة ١٨٦٦، والجامعة اليسوعية التي نُقلت الى بيروت سنة ١٨٧٤.



الدكتور كرنيلوس فانديك
(مجموعة دار الكتب اللبنانية)

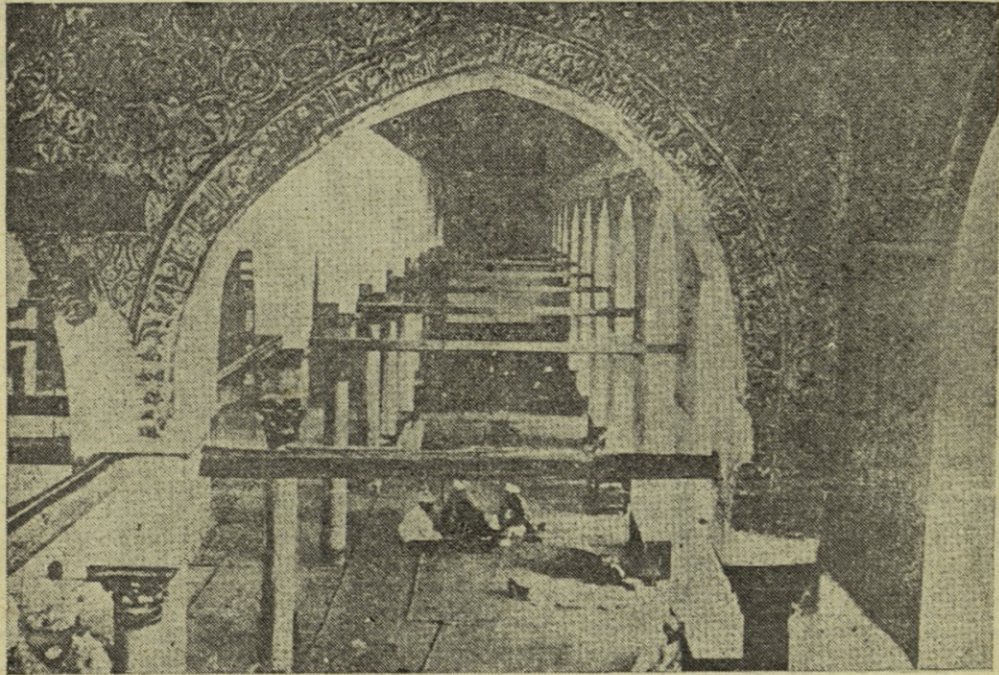
واما المدارس الوطنية فمن اقدمها واشهرها مدرسة عين ورقة، وكانت ديراً فامر البطريك يوسف اسطفان سنة ١٧٨٩ بتحويلها الى مدرسة، فكانت « ام المدارس الوطنية في هذه البلاد »، وقد اقيمت على مثال مدرسة رومة تُدرّس فيها اللغات السريانية والايطالية واللاتينية، والعربية بعلومها المختلفة من صرف ونحو وبيان وعروض، مع الفصاحة، والمنطق، والفلسفة، واللاهوت، والحق القانوني، والحقوق المدنية وغير ذلك مما جعل لها شهرة واسعة. ثم المدرسة الوطنية التي

انشأها المعلم بطرس البستاني سنة ١٨٦٣، والمدرسة البطريركية للروم الكاثوليك (١٨٦٥)، ومدرسة الثلاثة الاقهار للروم الارثوذكس التي كانت في سوق الغرب ونُقلت الى بيروت سنة ١٨٦٦، ومدرسة الحكمة للمطران يوسف الدبس (١٨٦٥) وهي للطائفة المارونية، والمدرسة الوطنية الاسرائيلية (١٨٧٤)، والكلية العثمانية الاسلامية (١٩٠٨).

وبعد الحرب العالمية الاولى انتشرت المدارس في لبنان انتشاراً كبيراً جداً، وأنشأت وزارة المعارف المدارس الرسمية الى جنب المدارس الخاصة، فضجت البلاد بالعلم، وكان لبنان من ارقى بلاد العالم ثقافة.

٢ - اما في مصر فقد كان التعليم قبل محمد علي محصوراً في الازهر، والكتاتيب المنبثة فيها حول القاهرة من المدن والارياف.

أما الأزهر فقد بناه القائد جوهر فاتح مصر للخلفاء الفاطميين سنة ٩٧١ م / ٣٦١ هـ . وكان في بدء أمره جامعاً للعبادة، ولكنه ما عثم أن أصبح جامعة لتدريس العلوم الدينية على مذهب الشيعة، ولتدريس العلوم اللغوية والعقلية وبعض العلوم الأخرى . وظلّ الأزهر مدرسة شيعية إلى أن تغلب صلاح الدين على الفاطميين فجعله مدرسة سنية يقصدها الطلاب من جميع الاقطار الإسلامية . وقد ثبت الأزهر



الأزهر

طول العهد التركي يؤدي رسالته . إلا أن الخطاط البلاد الثقافي أثر في مجرى التعليم فيه، فاقترص التدريس على العلوم الدينية مع بعض العمليات الحسابية الضرورية في حساب الموارث، وبعض مبادئ بسيطة في علم الهيئة لضبط مواقيت الصلاة، وما إلى ذلك مما يمت إلى الدين بصلة . وما أن كانت أواخر القرن التاسع عشر حتى اهتمّ عقلاء المسلمين لإصلاح الأزهر وأرادوا إدخال العلوم الطبيعية والرياضية فيه، ورأت الحكومة أن تمهد ذلك بفتوى من كبار الفقهاء . ثم تصدّى الشيخ محمد عبده لإصلاح الأزهر وتطبيق علومه على حاجة الأمة، فلقي مقاومة عنيفة إلا أن روحه

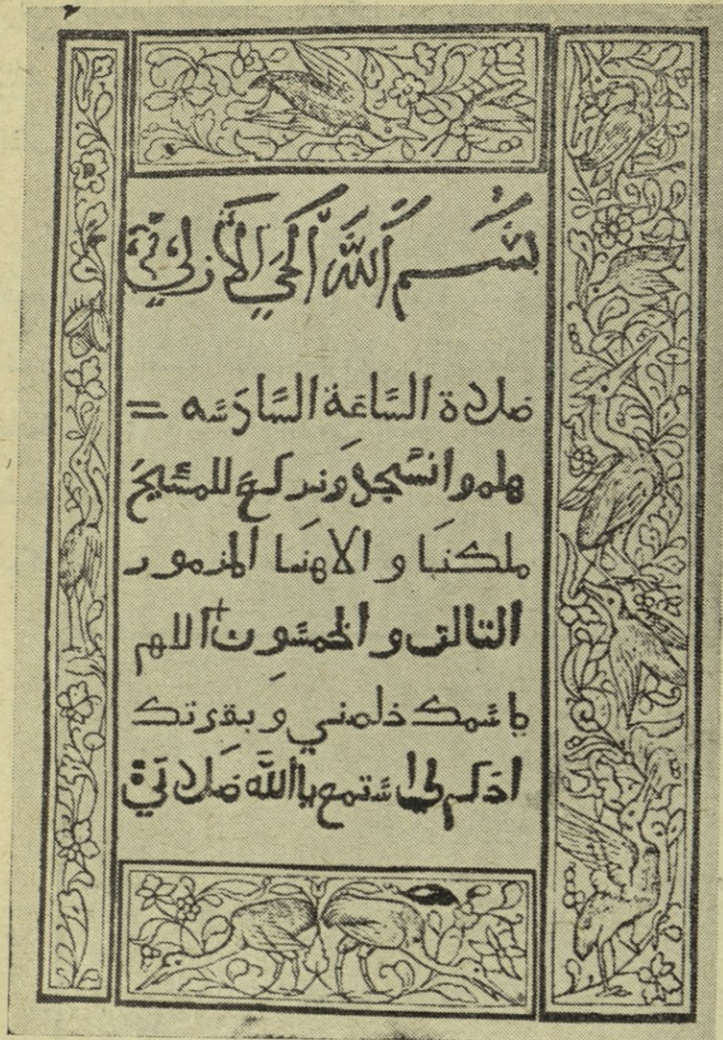
التحريرية قد انتشرت في ذلك المعهد الكبير، وقد تمّ الاصلاح في مستهل القرن العشرين، فأضيف الى مواد التدريس في الازهر طائفة من العلوم الحديثة، وقوّت مناهجه تقويّاً يجاري الحركة التقدمية، وجعل التعليم فيه ثلاث درجات : ابتدائياً وثانويّاً وعالياً .

كان فضل الازهر على اللغة العربية كبيراً اذ كان معقلها الحصين في عصور الانحطاط، وقد اعتمد محمد علي عليه في انتخاب رجال النهضة التي رمى اليها، كما اعتمد على ابنائه في نقل بعض كتب العلم وصياغتها في قالب عربي متين، ومن الازهر أخذ طلبة البعث التي ارسلها الى اوروبا .

وتعددت المدارس في عهد محمد علي الذي شعر بحاجة كبرى الى انشاء جيش منظم على الاساليب العسكرية الحديثة . وقد استتبع تنظيم الجيش تنظيم ما يلزمه من فنون اخرى كالطب والهندسة وما اليهما . وقد نتج عن ذلك إنشاء مدارس مدنية انقسمت الى ثلاثة انواع : ابتدائية وتجهيزية وخاصة . ومن المدارس الخاصة مدرسة الطب التي أسست سنة ١٨٢٦ وكان الفضل الاكبر في انشائها للدكتور كاوت بك الذي استقدمه محمد علي سنة ١٨٢٥ طبيباً لجيشه . وازدهرت المدارس ازدهاراً عظيماً في عهد اسماعيل الذي انشأ مدرسة الادارة - وقد سُميت فيما بعد مدرسة الحقوق - ، ومدرسة المعلمين، ومدرسة الفنون والصناعات، ومدرسة دار العلوم العالية لدراسة العلوم العربية . وفي سنة ١٩٠٦ أنشئت الجامعة المصرية .

٣ - اما في سائر البلاد العربية فقد بقيت سورية بلا جامعة حتى انتهت الحرب الكونية الاولى بتتويج فيصل ملكاً عليها، فأُسست في عهده الجامعة السورية. ثم انتشرت المدارس الابتدائية والثانوية في جميع البلاد العربية وتعهدها الحكومات بالعناية الخاصة فأنت اثمارها، وكانت من اشهى الثمار .

٢ الطباعة : الطباعة من اكبر الوسائل لنشر المعارف بين جميع طبقات الامة . وقد اخترعت في القرن الخامس عشر الميلادي . ولم تظهر الحروف



صفحة من كتاب السواعة الذي طبع في فانو من اعمال ايطالية
- وهو اول كتاب عربي ظهر الى الوجود بواسطة الطباعة

العربية مطبوعة إلا
سنة ١٥١٤ في بلدة
فانو بإيطالية، وكان
الكتاب العربي الاول
الذي ظهر الى الوجود
بواسطة الطباعة هو
كتاب «الاورلوجيون»
وهو المعروف بكتاب
«السواعة» الذي
يحتوي صلاة الساعات
في الكنائس المسيحية
البيزنطية .

وفي منتصف القرن
السادس عشر عرفت
الاستانة الطباعة .
واول مطبعة دخلت
البلاد العربية هي
المطبعة التي أنشئت

سنة ١٦١٠ في دير قزحياً ببلبنان،
وقد طُبعت فيها الكتب العربية
بحرف كرشوني . وكانت سورية
اسبق البلاد العربية الى الطبع
بالحروف العربية . فقد ظهرت
الطباعة في حلب نحو سنة ١٧٠٢،

انا الفقير عبد الله زاهر اسهد بانهم جعلوا كتابنا
ليوصوا به لعلهم يسمعوا الدعوى . ولذلك التفتت ان
ارد بكتابة هذه المقالة موضحاً الفرق بين الكرسي
الروماني وبين الكرسي الذي لا يظلم ولا يظلم ولا يظلم
عليها . وانما تعدد في الدعوى التي لا يجب ان
وهذه الكتابة ماهرة لبيان



انموذج من خط الزاهر مع ختمه، وهو من حفر يده

وذلك ان البطريرك اثناسيوس

الرابع الدبّاس استجلب ادواتها من بلاد الفلاخ، وقد صنع امهات الحروف العربية لتلك المطبعة الشماس عبدالله الزاخو . واول كتاب اخرجته مطبعة حلب هو كتاب المزامير لداود النبي .

ومنذ ذلك الحين اخذت المطابع تنتشر في لبنان، فأسس الشماس عبدالله الزاخو الملكي مطبعة في دير الشوير بلبنان، شرعت في العمل المنظم سنة ١٧٣٤، وقد صنع الزاخو نفسه امهات الحروف وكل ما يلزم لصب الحروف . وقد اشغلت تلك المطبعة نحو ١٥٠ سنة وخدمت الشرق خدمة جلّى . وظهرت سنة ١٧٥٣ في بيروت مطبعة القديس جاورجيوس للروم الارثوذكس . ولم تستفد مصر من الطباعة فائدة تذكر الا سنة ١٨٢١ حين انشا محمد علي المطبعة الاهلية التي عرفت باسم مطبعة بولاق .

وصل

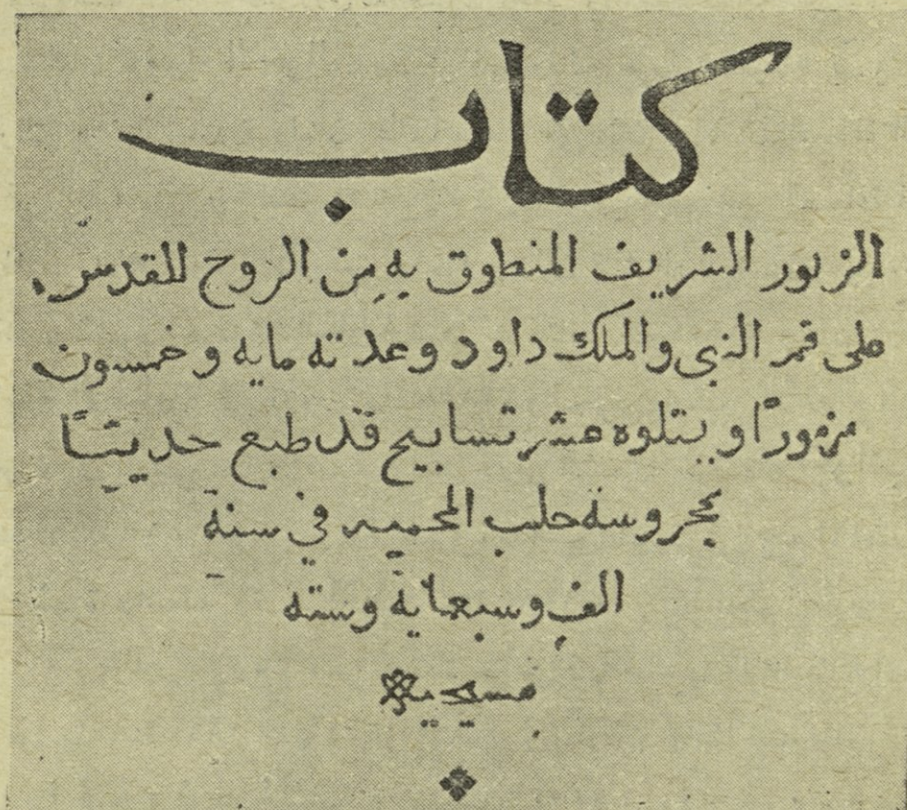
في قوة البنية وضعها

يُقال رَجُلٌ قَوِيٌّ الْبِنْيَةُ، شَدِيدُ الْأَسْرِ^٢، مُسْتَحْكِمُ الْخَلْقَةِ،
مُجْتَمِعُ الْخَلْقِ^١، مَعْصُوبُ الْخَلْقِ، مَجْدُولُ الْخَلْقِ، مُدْمَجُ الْخَلْقِ^٣،
وَمُدْمَجُ الْخَلْقِ^٤، وَثِيقُ التَّرْكِبِ، ضَلِيعٌ^٥، مَرِيرٌ^٦، مُتَمَسِكٌ^٧، وَانْه
لَذُو فِرَّةٍ^٨، وَانْه لَمُرِيرُ الْقَوَى^٩، وَمُمَرَّ الْقَوَى^{١٠}، مُلَزَّزُ الْخَلْقِ، مَكْتَنَزُ
اللَّحْمِ، صُلْبُ الْعِضَلِ، مَتِينُ الْعَصَبِ، شَدِيدُ الْبَضْعَةِ^{١١}، مُدْمَجُ
الْأَعْضَاءِ، مُوثِقُ الْأَرَابِ^{١٢}، شَدِيدُ الْأَضْلَاعِ، غَلِيظُ الْأَلْوَاخِ^{١٣}،

- ١ لين ٢ كدير ٣ الخلق ٤ اي قوي لم يهرم ولم يضعف
٥ قوي شديد الاضلاع ٦ من امرار الجبل وهو شدة قتله
٧ من قوى الجبل وهي طاقاته التي يقتل بعضها على بعض
٨ القطعة من اللحم ٩ الاعضاء ١٠ صفائح العظام

الحرف الاقتصادي الذي وضعه الشيخ ابراهيم اليازجي وطبع به
حواشي نجمة الرائد

وقد تقدّم فنُّ الطباعة تقدُّماً عظيماً وانتشرت المطابع في الشرق كله، ومن أشهرها اليوم مطابع الهلال والمعارف بمصر، والمطبعة الكاثوليكية والمطبعة البولسية ببلنّان .



عنوان كتاب المزامير الذي طبع في حلب

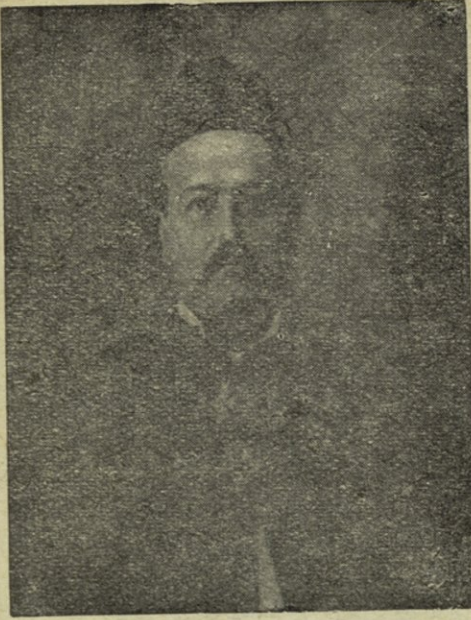
٣ الصحافة : كان لتأسيس الطباعة وتقدمها فضل في ظهور الصحافة وتقدمها . وكانت مصر المهد الاول للصحافة العربية، فقد أنشئت سنة ١٨٢٨ بإنشاء «الوقائع المصرية» التي كانت في عهد محمد علي جريدة رسمية تنشر اخبار الحكومة بالتركية ثم بالتركية والعربية، واخيراً صارت تصدر بالعربية فقط بإدارة رفاة بك الطهطاوي^١ احد رجال البعثة الاولى . واما ما سبق هذه الصحيفة من مثل

(١) وُلد الطهطاوي في طهطا بصعيد مصر سنة ١٨٠١، ثم دخل الازهر وصار ثقة في الفقه واللغة والحديث . ثم رافق البعثة الاولى الى باريس وانصرف الى التعنى في التاريخ والجغرافية . ولما رجع الى بلاده عُيِّنَ منصب الترجمة في مدرسة الطب فنقل كثيراً من الكتب العلمية والحريية الى العربية . وتولى ادارة عدد من المدارس .

« العُشارة المصرية » أو « بريد مصر » في زمن الفرنسيين، فما هو مما يُسمى بالصحافة العربية في شيء، وإن نبّه الافكار الى إنشاء الصحف .

وفي سنة ١٨٥٥ انشأ رزق الله حسون الحلبي في القسطنطينية جريدة اسبوعية سياسية سمّاها « مرآة الاحوال » وذكر فيها وقائع حرب « القرم » بين الروس والأتراك، واخبار سورية ولبنان، طاعناً بأعمال بني عثمان . إلا ان الصحافة العربية لم تقم في الحقيقة إلا على ايدي اللبنانيين، فما إن ترامى اليهم خبر الصحافة في العالم وما لها من الاهمية ومن الأثر حتى راحوا يزاولون تلك الصناعة بهمة عجيبة، فأنشأ اسكندر شلهوب جريدة « السلطنة » في الاستانة سنة ١٨٥٧، و خليل الحوري « حديقة الاخبار » في بيروت سنة ١٨٥٨، والكونت رُشيد الدّحداح « برجيس باريس » في باريس سنة ١٨٥٨، وأحمد فارس الشدياق جريدة « الجوائب » في اسطنبول سنة ١٨٦٠، وهي جريدة اسبوعية سياسية انتشرت في جميع الاقطار العربية ونالت شهرة واسعة، وقد انجبت سنة ١٨٨٣ . وانشأ المعلم بطرس البستاني سنة ١٨٦٠ « نفيروز سوريا » وهو جريدة حرّض فيها صاحبها اللبنانيين والسوريين، بعد حوادث سنة ١٨٦٠ الدامية، على التآخي والتعاون ؛ وانشأ ابنه سليم في السنة نفسها « الجَنَّة » ثم « الجَنَّة » في سنة ١٨٧١ . وفي سنة ١٨٧٠ ايضاً انشأ الآباء اليسوعيون جريدة « البشير » . وأنشأت جمعية الفنون الاسلامية في بيروت جريدة « ثمرات الفنون » سنة ١٨٧٥ .

ولمّا خيم العهد الحميدي باستبداده على البلاد العثمانية هاجر قسم من مفكرى لبنان وسورية الى مصر واميركة وغيرها من البلاد، فعزّزوا اللغة العربية والصحافة حيثما حلّوا . فارتقت الصحافة المصرية على يدهم وذلك لسبقهم الى معرفة اللغات الاوربية وخالطهم للأمم الغربية . وقد سبق وصولهم الى مصر ظهور بعض الصحف من مثل جريدة « نزّهة الافكار » (١٨٦١) لابراهيم المويلاحي ومحمد عثمان جلال ؛ وجريدة « الوطن » القبطية (١٨٧٧) لمخايل افندي عبد السيد . فنشط اللبنانيون والسوريون



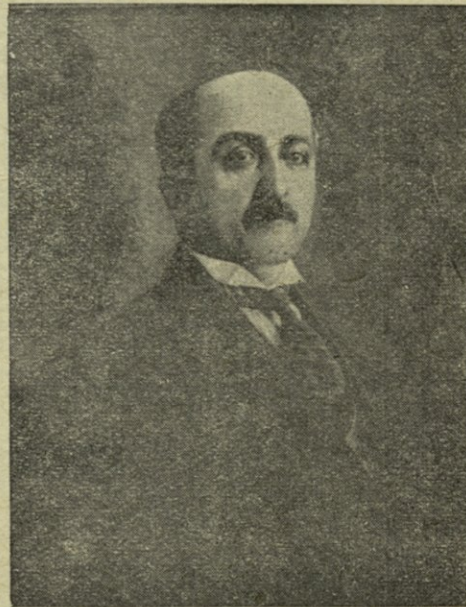
سليم نقلا مؤسس الاهرام
(مجموعة دار الكتب اللبنانية)

في مصر، فأنشأ سليم باشا حموي جريدة
«الكوكب الشرقي» في الاسكندرية
سنة ١٨٧٢؛ وأنشأ سليم وبشارة نقلا جريدة
«الاهرام» سنة ١٨٧٥ في الاسكندرية ثم
نقلت الى القاهرة وقد اصبحت مع الايام
كبرى الجرائد العربية . وصدرت
سنة ١٨٧٩ جريدة «المحرسة» لصاحبها
اديب اسحق وسليم نقاش . وفي سنة ١٨٨٩
ظهرت جريدة «المقطم» لصاحبها فارس
نمر ويعقوب صروف . الا ان المصريين ما
عُثموا ان راحوا يجارون اللبنانيين والسوريين
فأنشأوا الجرائد الكبرى «كالمؤيد» (١٨٨٩)

لصاحبها علي يوسف والشيخ احمد ماضي،
و «الواء» (١٩٠٠) لمصطفى كامل،
وغيرهما .

وظهرت في البلاد الاميركية جريدة
«الهدى» لنعوم مكرزل . وظهر غير هذه
الجرائد في نواح مختلفة من العالم .

ولم تكن الصحافة وقفاً على مصر ولبنان
فقد ظهرت في بغداد جريدة «الزوراء»
سنة ١٨٦٨، وظهرت في سورية صحف كثيرة
في غضون الحرب العالمية الاولى وبعدها اهمها
«المقتبس» التي اصبحت «القبس» فيما
بعد، و «الف باء» و «فتى العرب» .



نعوم مكرزل
(مجموعة دار الكتب اللبنانية)

اما المجلات العربية فقد ظهر اقدمها في مصر وهو «اليعسوب» (١٨٦٥) في

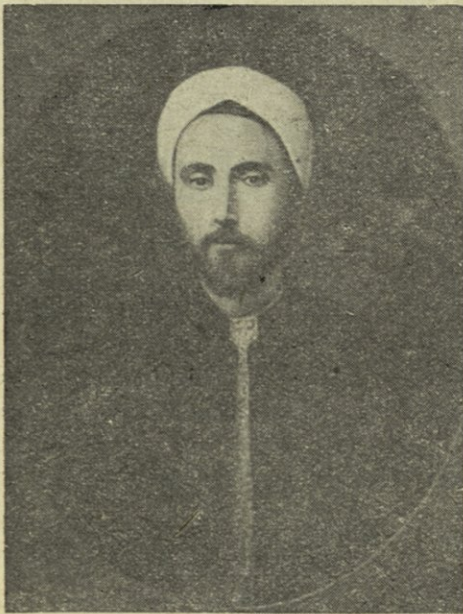
الطب . ثم ظهرت مجلة «الجنان» في بيروت سنة ١٨٧٠ للمعلم بطرس البستاني وهي مجلة جامعة كانت تجمع بين العلم والادب والسياسة وتصدر مرتين في الشهر، ثم مجلة «المقتطف» في بيروت سنة ١٨٧٦ لصاحبها الدكتور يعقوب صروف وفارس غمر، وهي تبحث في العلم والصناعة والرياضة والزراعة، وقد انتقلت الى مصر سنة ١٨٨٦ ؛ ثم مجلة «الطبيب» في بيروت للدكتور بوسط سنة ١٨٧٧ ؛ ثم «الهلal» في القاهرة سنة ١٨٩٢ لجرجي زيدان ؛ ثم تعددت المجلات في البلاد العربية ومن ارقاها اليوم «الهلal» و «المقتطف» و «مجلة المجمع العلمي العربي» و «الاديب» و «الكتاب» .

وقد كانت الصحافة في مطلعها ضعيفة الانشاء، يغلب عليها السجع والمحسنات البديعية، ثم اخذت ترتقي متوخية الانشاء السهل المتين البعيد عن الحشو والتنميق، منظمة الموضوعات تنظيمًا منطقيًا . وكان من اكبر العاملين على ترقية انشاء الصحافة اديب اسحق والشيخ ابراهيم اليازجي .

اما اثر الصحافة فكان واسعاً، فقد ايقظت روح الوطنية والقومية ومحاربة الاستبداد وطلب الحرية، ونقلت الى الشرق حضارة الغرب ونظمه الاجتماعية والسياسية، واختراعاته العلمية ؛ وكانت لغتها السهلة صلة بين العامة والفصحى فليئت هذه ورققت تلك، ووسعت الاساليب الكتابية ونطاق الالفاظ العربية، وكانت مدرسة متجولة في البلدان تهذب العامة وترتب افكار الخاصة وتنهض الهمم وتصلح الالسنه الفاسدة .

وكان للصحافة اثر سيئ ايضاً فقد مال بعضها احياناً عن رسالته السامية وراح ينشر الخلاعة والمفاسد، او ينشر ما يغاير اهداف الوطن واستقلاله او ما يؤيد الخير الخاص دون الخير العام، لا يطلب غير النفع المادي والمكسب الخسيس، وقد قال ولي الدين يكن : « الجرائد هي السن العقلاء تُنطقها الحكمة ولا يستميلها الهوى . وان الواجب عليها ان تقود لا ان تُقاد » .

٤ الجمعيات العلمية والأدبية : تعددت كذلك الجمعيات العلمية والأدبية في البلاد العربية وكانت من عوامل تقدم العلوم والثقافة لأنها كانت تحمل الأدباء والعلماء على التكتل وتبادل الآراء، وكانت تسهل لهم سبل الدرس والبحث وتيسر لهم طرق النجاح في مهامهم . وقد نشأت أولاً في لبنان، فظهرت في بيروت سنة ١٨٤٧ « الجمعية السورية »، بمساعي المرسلين الأميركان، وهدفها ترقية العلوم ونشر الفنون وتنشيط أسبابها ؛ وكان من أعضائها



الشيخ ناصيف اليازجي، والمعلم بطرس البستاني وغيرهما من كبار الكتّاب والمفكرين . ثم ظهرت « الجمعية العلمية السورية » في بيروت أيضاً، وقد اعترفت بها الدولة العثمانية رسمياً سنة ١٨٦٨ م / ١٢٨٤ هـ . ومن رؤسائها الحاج حسين بينهم . وتبع هذه الجمعية « المجمع العلمي الشرقي »، ظهر في بيروت سنة ١٨٨٢، ومن رجاله يعقوب

صروف والشيخ إبراهيم اليازجي ؛ الحاج حسين بينهم رئيس الجمعية العلمية السورية ولكنه لم يعيش طويلاً لأن الحكومة الحميدية أساءت الظن بأعضائه وضيق عليهم أسباب الحياة والحرية، فمات المجمع في مهده .

وانتشرت فكرة الجمعيات في البلاد العربية وقد ظهرت أول جمعية علمية أدبية في مصر سنة ١٨٦٨، كما ظهر فيها جمعيات مختلفة لنشر الكتب « كشركة طبع الكتب العربية » (١٨٩٨)، للتعريب والتأليف « كجمعية التعريب » (١٨٩٢)، و « جمعية تأليف الكتب » (١٩١١) . ومن أشهر الجمعيات التي لا تزال تعمل على نشر العلم في أيامنا جمعيتان هما : « المجمع العلمي العربي » في دمشق و « المجمع الملكي للغة العربية » في القاهرة .

١ - المجمع العلمي العربي : أسس بدمشق في العهد الفيصلي عن اقتراح للاستاذ محمد كرد علي رئيسه السابق، وذلك «لأحياء الآداب العربية وتلقين اصول البحث للدارسين وفق الطرق الحديثة في الدرس والتأليف» . وقد ضم المجمع طائفة من العلماء والادباء في جميع الاقطار العربية، ومن كبار المستشرقين؛ وقام باعمال مشكورة منها وضع الفاظ المصطلحات العلمية الحديثة، وإصلاح لغة الدواوين، وتصحيح الخطأ الشائع في كلام الكتاب والشعراء . . . والمجمع يصدر مجلة ينشر فيها دراساته ولاسيما اللغوية والادبية منها .

٢ - المجمع الملكي للغة العربية : صدر المرسوم الملكي بانشاء هذا المجمع في سنة ١٩٣٢، وفصل له الاغراض التي يكل اليه تحقيقها وهي : « ١ - ان يحافظ على سلامة اللغة العربية وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها، ملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر، وذلك بأن يحدد في معاجم او تفاسير خاصة او بغير ذلك من الطرق ما ينبغي استعماله او تجنبه من التراكيب . ٢ - ان يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية، وأن ينشر ابحاثاً دقيقة في تاريخ بعض الكلمات وتعديل مدلولاتها . ٣ - أن ينظم دراسة علمية للمجتمعات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية . ٤ - أن يبحث كل ما له شأن في تقدم اللغة العربية مما يعهد اليه فيه بقرار من وزير المعارف » .

٥ المكتبات : عرفت بلادنا المكتبات منذ امد بعيد، وعرفت ظلم الغاشمين وجهل الغافلين الذين أوديا بتملك المكتبات . وكان من ثمار احتكاكنا بالغرب ان قام ذوو الهمم يعملون على إنشاء المكتبات الخاصة والعامة، وعلى تنظيمها تنظيماً حديثاً ونشر الفهارس المختلفة، مما يسهل المطالعة وورود معين العلم . ومن اشهر المكتبات المكتبة الظاهرية بدمشق وقد أنشئت سنة ١٨٧٨ وضمت عدداً

كبيراً من المخطوطات النفيسة؛ والمكتبة الخديوية بمصر وقد أنشئت في عهد محمد علي؛ والمكتبة الازهرية وقد أسست سنة ١٨٧٩؛ والمكتبة الشرقية ببيروت أسسها الآباء اليسوعيون سنة ١٨٨٠، وفيها، على ما قال الاب لويس شيخو، «خطر التأليف واعزها في كل ضرب»، وهي من اغنى المكتبات الشرقية، ومكتبة جامعة بيروت الاميركية، التي نشأت مع الجامعة المذكورة. وهناك مكتبات كثيرة في جميع المدن الشرقية ولاسيما بغداد التي تحوي نحو ٣٠ مكتبة.

٦ التمثيل : وعمل كذلك التمثيل على نشر الثقافة والفنون وعلى تهذيب العقل والذوق وعلى التأليف المسرحي الفني واننا سنلقي نظرة على حركة التمثيل منذ نشأتها الى اليوم .

١ - ما هو التمثيل : التمثيل هو عرض واقعة تاريخية او خيالية على المسرح بواسطة اشخاص تنطبق افعالهم واقوالهم على حقيقة الواقع .

« فالتمثيل فن يحاكي الحياة محاكاة واسعة النطاق، ولا يقلدها تقليداً مقيداً بالزمان والمكان الواقعيين؛ وانما يختار الكاتب عناصر ذات مدلول من الحياة، سواء من شخصيات واحداث، ويؤلف بينها في فكره، ويحركها في عالم خيالي الى نهاية محتومة، فيقدم لنا صورة تمثل الحياة صافية من شوائبها وتفصيلها، ومسيّرة الى غاية قد لا نلمسها في الحياة » .

ويراعى في الادب التمثيلي العقدة، والعمل، والتحليل النفسي او تصوير الصراع النفسي، كما يُراعى في العمل الوحدة^١ .

(١) « تنقسم المسرحية الى فصول ومناظر وشخصيات وحوار . ويستلزم العرض المسرحي تقسيم المسرحية الى فصول يشغل تمثيلها ساعتين تقريباً . تعرض فيها الحوادث عرضاً تمثيلياً، وتركز حوادثه في كل فصل . ويجعل ارسطو للموضوع اهمية كبرى، على ان للشخصيات صلة قوية بالموضوع . وكلاهما يؤثر في الآخر ويتأثر به . ولا بدّ من انسجام هذا الموضوع . وقوة تأثيره عن طريق هذه الوحدة . ولا بدّ ان تتضح بدايته ووسطه ونهايته؛ وان تتضح الاسباب والمسببات، فتعرض الافتتاحية في الفصل

٢ - فنون الادب التمثيلي : يقسم الادب التمثيلي الى قسمين هامين :
المأساة، والملمهة . اما المأساة فهي عرض حادث هام يجري عادة بين اشخاص
ذوي مقامة عالية، ويحمل على الهول او الشفقة . واما الملمهة فهي عرض حادث
يحمل على الضحك، وهي تستمد صورها العامة من الشذوذ الانساني وتعرضه عرضاً
فكاهياً .

ويتفرع من المأساة والملمهة فروع عدة، فتكون المأساة ممزوجة بالملمهة
و « تسمى الدراما » وتكون مغناة وتسمى « المغناة » . وتكون الملمهة اجتماعية
او هجائية او ما الى ذلك .

الاول، سواء عن طريق حوار، كما هي الحال عند شكسبير، او مفاجأة كما عند أسخيلوس . على ان
الموضوع يتحرك بعد الافتتاحية مباشرة، ويسير نحو الأزمة فالانقلاب، فالاكشاف او التعرف .
ولا بد من تشبع الحوادث بالحياة، ولا بد من تمثيلها تمثيلاً يصل الى الجمهور عن طريق عواطفه .
ويستعين الكاتب في ذلك بالمفاجأة والشك والصراع والتهكم المسرحي، ويجب ان تتصل بالتطور الذاتي
للموضوع والشخصيات، لا ان تنوارد عن طريق الصدفة او الاقترال .

وتعتبر الشخصيات عن الموضوع وتتحرك في مجاله وتؤثر فيه . ويكسوها الكاتب بالحياة ويقابل فيها
بينها، ويوجز في تحليلها ويركز، مستعيناً بالتلميح والإشارة والإيجاز لا الإطناب . ولا بد من ان
تكون منسجمة الاقوال والافعال صادقة التصوير .

وتعتبر الشخصيات عن نفسها بالحوار، ولغة الحوار لغة فنية ليست كلغة الحياة العادية، وهي إما شعر
او نثر او شعر مرسل . على ان الشعر يغلب كتعبير للمأساة، اذ هو أنسب الوسائل للتعبير عن العواطف
والأهواء، وعن موضوع المأساة . ويغلب النثر كأسلوب للملمهة اذ هي تتناول ما هو عقلي . على انه
قد يوجد الشعر في الملمهة والنثر في المأساة تبعاً لمكانته الشخصية او لدواعي الموقف، وفي الحالين لا بد
من ان تكون اللغة نقية صافية مرتفعة عن مستوى الحديث العادي .

وليس الحوار غاية في ذاته، اذ يخضع لدواعي المسرح وسمات الشخصية ومعنى ذلك أنه لا يوجد
لصفات غنائية خالصة . والكاتب المبتدئ يسمي الى إحداث التأثير المسرحي عن طريق الشعر دون
التشخيص الجيد والتطور الداخلي للشخصيات، والموضوع، ويعتمد المنظر على المسرحية، بمعنى انه يوضح
ويجسم ما تستدعيه الحوادث المسرحية . ويتعاون الممثل والمخرج، وما يصور من مناظر وما يجهز من
أدوات مسرحية، من إضاءة وأصوات، على إكساب المسرحية ثوب الحياة وتجسيم ما يسعى الكاتب الى
تصوره في عالمه الخيالي الفكري .
(محمود حامد شكوت :

عن المسرحية في شعر شوقي ص ١٠ - ١١)

٣ - نشأة التمثيل العربي وتطوره : خلا الادب العربي القديم من التمثيل لاسباب أتينا على ذكر بعضها في توطئة هذا الكتاب^١ . وقد ظلت الحال على ما هي الى أن قدم نابوليون مصر، وكان بين رجال حملته العلمية رُجلان من اصحاب الفنون الجميلة وكبار الموسيقيين، فاهتماً بتمثيل بعض المسرحيات لتسلية الضباط والجنود . إلا ان هذا التمثيل لم يكن باللغة العربية، وقد ذهب بذهاب أصحابه . وفي منتصف القرن التاسع عشر قام في لبنان رجل اسمه مارون النقاش (١٨١٧ - ١٨٥٥) وقد جال في اوروبا ولاسيا ايطالية، وشهد فيها من روائع التمثيل ما خلف في ذهنه أثراً عميقاً، حتى اذا عاد الى بيروت نقل الى العربية رواية « البخيل » لموليير الشاعر الفرنسي بشيء من التصرف، وجمع نخبة من اصدقائه علمهم تمثيلها، ثم مثلها في منزله سنة ١٨٤٨، وحضرها قناصل الدول وأعيان بيروت . فكان لها أثر بليغ وتناقلت جرائد اوروبا أخبارها، فازداد النقاش نشاطاً، وألّف رواية « ابي حسن المغفل او هارون الرشيد » مثلها ايضاً في منزله سنة ١٨٥٠ أمام والي سورية وبعض الوزراء ورجال الدولة . ثم انشأ مسرحاً بجانب منزله (تحوّل بعد موته الى كنيسة عملاً بوصيته)، مثل عليه رواية « الحسود » وغيرها . وكان مارون النقاش تاجراً وانما اشتغل بالتمثيل حباً للفن وشغفاً به . ولكنه لم يُتيح له ان يصل بالمسرح الى ما كان يرمي اليه اذ تعجّلت الوفاة وهو في طرسوس لقضاء بعض الاشغال التجارية سنة ١٨٥٥، وقد نحا في مسرحياته منحى موليير الفرنسي . ونشر مؤلفاته اخوه نقولا النقاش في كتاب سمّاه « أرزة لبنان » طبع في بيروت سنة ١٨٦٩ .

وكان مثل مارون النقاش حافزاً على المضي في فن التمثيل فتصدى له بعض الكتاب كسليم النقاش ابن اخي مارون النقاش واديب اسحق ونجيب الحدّاد . وكان الشيخ خليل اليازجي واضع اول رواية تمثيلية في الشعر العربي، وهي رواية « المروعة والوفاء » وقد مُثِلت في بيروت سنة ١٨٧٨ .

ولما تبوأ اسماعيل عرش مصر شجع الادباء ورجال الفن، وتم حفر قناة السويس في عهده فاحتفل بافتتاحها احتفالاً مشهوراً، وبني الاوبرا الخديوية لذلك الغرض، واستقدم لها فرقة افرنجية مثلت رواية «عايدة» بالفرنسية . وقصد مصر عقب ذلك جماعة من ادباء لبنان وسورية وفيهم سليم النقاش، واديب اسحق، ويوسف الحياط، ومثلوا عدة روايات اكثرها مترجم . وفي اواخر القرن التاسع عشر ورد مصر الاديب السوري ابو خليل القباني الذي عالج مسرحاً خليطاً من جدٍ وهزل . ثم امتازت فرقة اسكندر فرح بادخالها سنة ١٩٠٤ الغناء في المسرح .

وما ان نهضت المسرحية في مصر حتى انشعب المؤلفون الى قسمين : قسم يعتمد الى اللغة العامية في ترجماته، وقسم يستمد من التاريخ العربي والادب الشعبي موضوعات يعبر عنها بلغة عربية فصحي يتخللها السجع .

ولم ينل المسرح المصري الاسبقية الا في عهد عباس الثاني الذي ارسل الى فرنسا رجلاً لبنانياً اسمه جورج ابيض ليتضلّع من فن التمثيل . فلما عاد الرجل



سعيد عقل

الى مصر ألف فرقة تمثيل رفعت المسرح الى درجة حميدة . ومنذ ذلك العهد اخذ المسرح المصري يرتقي شيئاً فشيئاً فيما المسرح السوري واللبناني ينحدر ويتقهقر . فحذا حذو جورج ابيض عدد من ادباء مصر، ووقفوا في اوربة على اصول التمثيل، وألفوا فرقاً مسرحية في وطنهم كان لها الاثر الحسن، ومن اهم تلك الفرق فرقة يوسف وهي، وفرقة محمد تيمور . وقد اشتهر في تأليف المسرحيات الشعرية احمد شوقي ولاسيما سعيد عقل شاعر زحلة الذي اتحف الادب

العربي « بنيت يفتاح » وخصوصاً « بقدemos » التحفة التي اوجدت مدرسة والتي قال عنها فؤاد البستاني : « ولدت [عبقرية الشاعر سعيد عقل] في المسرح قطعة لا يخجل الفن بأن ينعتها بالمأساة الحق، واخرجت في الشعر العربي رائعة طالما تاق الى مثلها، ودونت في الوطنية اللبنانية وثيقة لها ما بعدها . . . قدموس مأساة . فلها من المأساة جلال القدم، وكمال التعبير، ووحدات الفن المسرحي المدرسي . . . وخلاصة البحث ان الفن المسرحي يعود من قدموس بمأساة أصيلة، ويعود الشعر العربي براعة من اجل روائعه » .

٧ الاستشراق : من اكبر العوامل في إحياء الآداب العربية اشتراك الاجانب انفسهم في درسيها ونشر كتبها . وقد بدأ الاوربيون ينصرفون الى دراسة اللغة العربية وآدابها منذ القرن العاشر للميلاد . واشتدَّت تلك الحركة في القرون الوسطى لانصراف الكثيرين الى درس اللغات السامية لاجل التعمق في التوراة، ولنشاط البعثات الدينية، واهتمام بابا رومة وبعض ملوك اوربة لفتح مدارس تعلم لغات الشرق ولاسيما العربية والسريانية والعبرانية . وكان الحريجي المدرسة المارونية برومة يد كبرى في تنشيط حركة الاستشراق بما نشره من كتب وفهارس تُطلع الغرب على آثار الشرق .

ولما كان القرن التاسع عشر اشتدَّت حركة الاستشراق اشتداداً عظيماً لقيام الحكومات العربية بتأسيس مدارس تعلم لغات الشرق ليسهل عليها حكم مستعمراتها . وقد أنشئت الجمعيات، والمجلات الآسيوية، وعُقدت المؤتمرات الشرقية تضم بين اعضائها اقطاب الاستشراق وتشجع الحركة تشجيعاً قوياً حتى تعدد دارسو لغتنا والمتبحرون في آدابها .

قال عمر الدسوقي ملخصاً فضل المستشرقين على النهضة : « تفرَّغ المستشرقون للبحث، ومنحتهم أمهم المال والوقت، وتحت ايديهم المكاتب العامرة بالابحاث وبالمخطوطات النادرة، وكلهم يعرف عدة لغات غربية وشرقية ؛ فكان من الطبيعي

ان تتسم آثارهم بسمات التحقيق، والمثابرة، والاطلاع، والموازنة، ومراجعة الاصول والمخطوطات، ووضع الفهارس وغير ذلك مما كان مفقوداً في الكتب العربية .

ولقد مهدوا السبيل امام الباحثين بنشرهم المخطوطات الثمينة في طبقات انيقة مصححة، مزودة بتعليقات نفيسة، وبفهارس تيسر الاطلاع وتجمع الاشخاص والاماكن والموضوعات . واشتهروا بتحقيقاتهم اللغوية، وبأبحاثهم في اصول اللغات وفقه اللغة، والساميات، وباكتشافاتهم الاثرية في بلاد العرب، وقد غيرت هذه الاكتشافات كثيراً من نظريات التاريخ وحقائقه المتداولة . وامتازت أبحاثهم بحسن العرض وبالتدقيق العلمي، وبالنظرات الشاملة . واهم أثر للمستشرقين يتضح في الكتب العربية التي ألفت على غط كتبهم وان الدراسات الادبية، وتاريخ الادب بصورته التي نعرفها اليوم هي أثر من آثار المستشرقين وحسنة من حسناتهم » .

ومن اشهر المستشرقين الفرنسيين سلفستر دي ساسي Sylvestre de Sacy (١٨٣٨) ، ودي سلان De Slane (١٨٧٩) ، ولويس مسينيون L. Massignon ، ولقي بروثنسال L. Provençal ؛ ومن الالمان فرايتاغ Freytag (١٨٦١) ، وغوستاف فلوغل G. Flugel (١٨٧٠) ، والبارون فون كير Von Kremer (١٨٨٩) ، وتيودور نولدكه Theodor Dozy (١٩٣١) ، وبروكلمن C. Brockelmann ؛ ومن الهولنديين دوزي Dozy (١٨٨٣) ، ودي غويه De Goje (١٩٠٩) ؛ ومن الانكليز مرغليوث D. S. Margoliouth (١٩٤٠) ، ونيكلسون R. Nicholson (١٩٤٥) ؛ ومن المجريين غولدزيهر J. Goldziher (١٩٢١) ؛ ومن الايطاليين غريدي Ig. Guidi .

* * *

تلك اهم عوامل النهضة الحديثة . ومن هذه النظرة الاجمالية يتجلى لنا كيف انها قامت على اساس مكين وكيف انها شملت جميع فروع المعرفة والفن، وكيف كان من شأنها ان تنشي أدب ينبض حياة ويساير آداب العالم المتمدن .

بعض المراجع

١ المراجع العربية :

- الاب لويس شيخو : الآداب العربية في القرن التاسع عشر - بيروت ١٩٠٨
 المسرة تموز ١٩٤٨ - عدد خاص بعبدا لله زاهر .
 الفيكونت فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية - بيروت ١٩١٣
 داود بركات : الصحافة العربية : ماضيها وحاضرها ومستقبلها - الهلال ٢٦ (١٩١٧) ص ٩١
 جرجي زيدان : تاريخ النهضة الصحفية في اللغة العربية - الهلال ١٨ (١٩٠٩) ص ٤٨٣
 عيسى اسكندر المعلوف : الصحافة في الغرب والشرق - مجلة الآثار ٢ ص ١٦١
 محمد كرد علي : خطط الشام ٤ ص ٨٨
 حبيب زيات : خزائن الكتب في دمشق وضواحيها - القاهرة ١٩٠٢
 ادوار حنين : شوقي على المسرح - بيروت ١٩٣٦ - ص ١ - ١٨
 عبد الرحمن صدقي : المسرح العربي - الكتاب، يناير ١٩٥١ - ص ٤٣ - ٦٣
 محمود حامد شوكت : المسرحية في شعر شوقي - القاهرة ١٩٤٧ - ص ١٢ - ٢٧
 نجيب عقيقي : المستشرقون - القاهرة ١٩٤٧

٢ المراجع الاجنبية :

- P. J. Nasrallah : L'Imprimerie au Liban — Harissa 1949.
 J. A. Dagher : Répertoire des Bibliothèques du Proche et du Moyen-Orient.
 Harissa 1951.
 Gustave Dugat : Histoire des Orientalistes. Paris 1870.

موضوعات للبحث

- ١ - قيل : « كان اساس النهضة في مصر علمياً وكان في لبنان ادبياً » . ناقش هذا القول .
- ٢ - قيل ان قمرّس اللبنانيين باللغات المتعددة سهّل عليهم وضع أسس النهضة الادبية الحاضرة . فما رأيك ؟
- ٣ - لماذا سبق اللبنانيون غيرهم من ابناء اللغة العربية الى النهضة بأدائها ؟
- ٤ - كان لمصر فضل كبير على النهضة الادبية . اوضح ذلك الفضل .
- ٥ - ما العوامل التي ساعدت على ظهور النهضة الادبية في العالم العربي ؟ استعرض جميع العوامل ، وعالج واحداً منها بالتفصيل .

الباب الثالث

أدب النهضة

الفصل الاول

الشعر

١ الطُّور التقليدي (طور البعث والايقاظ) : يُقسم هذا الطور الى قسمين :

١ - طور التقليد المتأثر بالانحطاط : الشعر حافل بالاسفاف والركاكة التعبيرية . يمثّل هذا الدور نقولا الترك وبطرس كرامة في لبنان، واسماعيل الحشّاب والشيخ حسن العطار وعلي الدرويش في مصر، والشيخ امين الجندي في سورية .

٢ - طور التقليد العباسي : الشعر يجري على أساليب العباسيين وأغراضهم، في دقّة تعبير ومتانة لغة، وغنى معنوي، واستقامة نظم، من غير شخصيّة قويّة وابتكار شديد . يمثّل هذا الدور الشيخ ناصيف اليازجي، ومحمود سامي البارودي، وغيرهما .

٢ الطور التجديدي (طور النهضة الحقيقية) : يُقسم هذا الطور ايضاً الى

ثلاث مدارس كبرى :

١ - مدرسة المخضرمين : التجديد على اساس الادب العربي القديم . وقد بقي التجديد ضعيفاً، ضيق النطاق . من اشهر من مثّلوا هذا الدور احمد شوقي، وحافظ ابراهيم، ومعروف الرصافي، و خليل مطران .

٢ - مدرسة المتطرفين : استعارت من شعراء الغرب معارض التفكير والشعور والخيال . وقد نزعت اولاً نزعة رومانطيّة، ثم نزعة رمزيّة . وهي تتنازع بضعف الاسلوب ورقّة اللغة .

٣ - مدرسة المبدعين : نزعت الى توجيه الشعر نحو الفنّ الصحيح والتطلّع الى الناحية الانسانية في الادب، من اشهر شعرائها يوسف غصوب، وعمر ابو ريشة، وسعيد عقل .

٣ موضوعات شعر النهضة : بقيت الموضوعات في بدء الامر كما كانت عند

العرب . ثم ظهر الشعر السياسي، والشعر الاجتماعي، والشعر التمثيلي والقصصي ؛ وتناول الشعر المخترعات الحديثة وما الى ذلك .

٤ شروط النهضة الشعرية الحقيقية : ثقافة واسعة وعميقة، وملكة عربية

راسخة ولغة متينة .

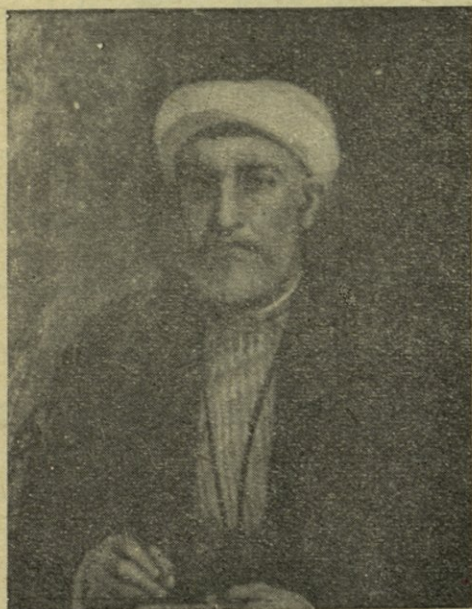
كان الشعر قبل النهضة وفي اوائلها بادي الضعف شديد الهزال، لما انتابه من عوامل الانحطاط، وقد كان الهزال فيه اظهر مما كان في النثر، لانه يعتمد على الجمال الفني وقد خلا منه في ذلك العهد وقام مقام الجمال الوان من الالاعيب اللفظية والعمليات الحسابية، فكان عدمه خيراً من وجوده . وما ان بزغ فجر النهضة وفتح الشرق عينيه على ما هو عليه من تقهقر، وعلى حقيقة الجمال الفني باحتكاكه بثقافة الغرب وعقلية الغرب، حتى راح يعمل على رفع مستوى الشعر، وكان سيره في هذا المضمار اطواراً نجمها في ما يلي :

١ - الطور التقليدي (طور البعث والايقاظ) : كان الطور الاول من اطوار نهضة الشعر عهد ايقاظ، وحركة بعث تعتمد الافكار والموضوعات والاخيلة والاساليب العربية القديمة . وهو ينشعب الى قسمين :

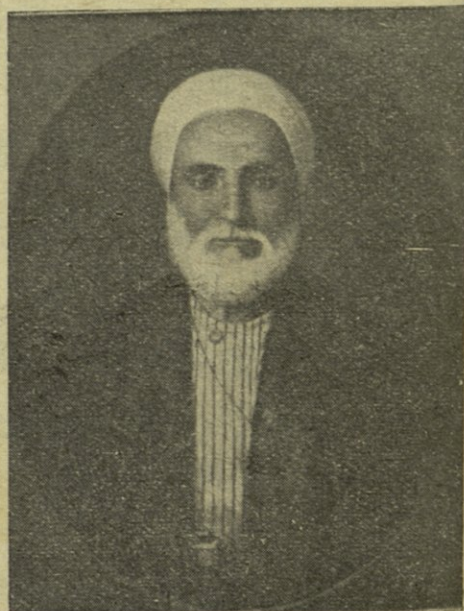
١ - طور التقليد المتأثر بالانحطاط : كانت النهضة في اول امرها نهضة تحصيلية وقد انصرف الناس الى تحصيل العلوم والثقافة فلم ينل الشعر من الرقي الا ما يناله شعر هو صلة بين الانحطاط والنهضة، ينظمه شعراء لم يطلعوا على اساليب الغرب ولم يكن لهم من الملكة العربية ما يصرفهم عن الرطانة والضعف، فقلدوا وابكن آثار الانحطاط طغت على تقليدهم، فكان شعرهم حافلاً بالاسفاف، والركاكة التعبيرية . وقد مثل هذا الدور نقولا الترك (١٨٢٨) وبطرس كوامه (١٨٥١) في لبنان، واسماعيل الخشاب (١٨١٥) والشيخ حسن العطار (١٨٣٤) وعلي الدرويش (١٨٥٣) في مصر، والشيخ امين الجندي (١٨٤١) في سورية . فكان هؤلاء الشعراء في الاغلب، شعراء الامراء ينظمون شعر المناسبات في التهنئة او الرثاء او التأريخ لدار او مسجد وما الى ذلك، او ينظمون الاخوانيات عن غير طبع وعن غير متانة ولا ابتكار .

٢ - طور التقليد العباسي : وما ان ارتقت الاحوال الاجتماعية والعمرانية في منتصف القرن التاسع عشر وتوفرت عوامل الثقافة، وتمكن الادباء من اللغة

العربية، حتى ادر كوا سر تقهقرها، ومواطن ضعفها . ونشرت دواوين الشعراء
الاقدمين اذ ذاك فتمكن ناشئة الشعراء من الاطلاع على شعر النوابع، ولا سيما
العباسيين منهم، وراحوا يقلدونهم ويُقلعون عن شعر زمانهم او ما يقرب من زمانهم،
ويتحرّون الدقة في التعبير، والمتانة اللغوية، والتوفّر على المعاني، والصفاء الشعري،
واستقامة النظم، وان لم يتخلّصوا تمام التخلص من بعض مخلفات الانحطاط كالتخمين
والتشطير، والتواريخ الشعرية، والالاعيب البديعية والنحوية . وانصراف شعراء
هذا الدور الى تقليد الاقدمين تقليداً، اضعف في شعرهم الشخصية والابتكار، فقد
راح كل منهم ينظم واضعاً امام عينيه شاعراً او عدة شعراء من العصور القديمة
يتتبع اساليبهم ومعانيهم واغراضهم، لا يكاد يجيد عنهم، ولا يكاد ينتبه انه من
زمان غير زمانهم او بيئة غير بيئتهم، واذا شعره بعيد عن حياته وعن حياة مجتمعه
بعيد عن مشاكل بيئته لا يعبر عن حاجات النفوس الا في القليل النادر، ولا يدل
على نهضة حقيقية تُنتج الشعر الانساني .



ابراهيم الاحدب
(مجموعة دار الكتب اللبنانية)



الشيخ يوسف الاسير
(مجموعة دار الكتب اللبنانية)

ومن مثّلوا هذا الدور الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٧١) والشيخ يوسف الاسير

(١٨٩٠) والشيخ ابراهيم الاحدب (١٨٩١) في لبنان، ومحمود سامي البارودي (١٩٠٤) في مصر .

٢ الطور التجديدي (طور النهضة الحقيقية) : وقوي اتصال الشرق بالغرب، ونهل أبناء الشرق من آداب الغرب وثقافته وعُلُوه، فراحوا ينعون على الشرق اضطرابه في اغلال القديم، وتطلُّعه الى الوراء، وادركوا ضعف الصلة بين نفوسهم ونزعاتها والادب القديم واغراضه، ورأوا ان الادب يجب ان يكون مرآة العصر وان ينطبع بطابع حياته، فكانت النهضة وليدة البعث والايقاظ، ووليدة الثقافة العامة والاطلاع على آداب الغرب - على ان يُفهم بالغرب عند البعض الفكر اليوناني - ووليدة الشخصية . ويقسم الطور الى مدارس ثلاث : مدرسة المخضرمين، ومدرسة المتطرفين، ومدرسة المبدعين .

١ - مدرسة المخضرمين : تزعت هذه المدرسة الى التجديد ولكنها ارادته على اساس الادب العربي القديم . وقد رأت ان الادب الحديث لا يمكنه ان يقوم بقطع الصلة مع القديم، فعليه ان يستفيد من اغراض الادب العربي واساليبه وان يعبر بطريقة عربية صحيحة، ولغة مثينة، وان يكون ذا صبغة عربية توافق البيئة والعصر . وقد حافظت هذه المدرسة على الديباجة العربية، وحاولت الاستفادة من اساليب الغرب، الا ان تجديدها بقي ضعيفاً، ضيق النطاق، فلم تنظم الشعر للتعبير عن فلسفة او عقيدة او حب للطبيعة، ولم تنشر مذهباً حديثاً في الادب ولم تحدث ثورة، فكان شعرها في الاغلب شعر مناسبات تُجمع قصائده في ديوان من غير ما وحدة او غاية مشتركة .

ومن مثلوا هذا الدور في اواخر القرن التاسع عشر واولئل العشرين الشيخ عبدالله البستاني (١٩٣٠) واحمد شوقي (١٩٣٢)، وحافظ ابراهيم (١٩٣٢) ومعروف الرصافي (١٩٤٥)، و خليل مطران (١٩٤١) . ومن محاولات التجديد في هذا الطور نظم المسرحيات كما فعل الشيخ خليل اليازجي واحمد شوقي .

٢ - مدرسة المتطرفين : وقامت الى جنب مدرسة المخضرمين وبعدها، ولاسيما بعد الحرب العالمية الاولى، مدرسة اخرى كان احتكاكها بالغرب او بالشعوب الاميركية المتحررة احتكاكاً شديداً، وكانت سطوة الاجانب عليها قوية، وثقافتهم الاعجمية اقوى من ثقافتهم العربية، فراحت تستعير من شعراء الغرب معارض تفكيرهم وشعورهم وصور خيالهم ؛ وقد اعجبها ذلك الادب لانصرافها اليه اكثر من انصرافها الى ادب العرب، ولانها رآته اقرب الى تصوير حياتنا الداخلية الذاتية والواقعية . وبسبب ما عاناه الناس في لبنان وسورية من الآلام لفشل الدستور (١٩٠٨) وبسبب الحرب الكونية، تزعت تلك المدرسة نزعة «رومانطيقية» فقلدت « رومانطيقية » الفرنسيين بنوع خاص، وبالعالم البعض في ذلك حتى اصبحت نماذج كثيرة من اشعارهم وكأنها ضروب من الترجمة للاساليب الغربية الا انها ترجمة رثة .

وذهب ابناء هذه المدرسة ينادون بهجر الاساليب العربية القديمة، والاخذ بالحياة الغربية كما هي، والادب الغربي كما هو، والثورة المطلقة الشاملة على كل ما هو عربي قديم، وعلى تقاليد شرقية كثيرة . فكان ادبهم بعيداً عن بيئتهم وعن احساس أمتهم وطرقها في التعبير عن الفكر والشعور .

ومن ابرز من مثّلوا هذا الدور جبران خليل جبران (١٩٣١) . وكان وطن هذا الادب بنوع خاص لبنان والمهاجر ؛ وقد امتاز بأشراق الديباجة، والموسيقى اللفظية وامتداد الخيال، ومحاولة خلق الشعر المرسل، والاشادة بالحرية والثورة على التقاليد وان مقدسة، مع ضعف في الصياغة ورقة في التعبير.

الا ان النزعة الرومانطيقية ما لبثت ان زالت، وقام مقامها نزعة اخرى هي رد فعل في وجه الرومانطيقية المائعة والادب العربي النصاعي، نعني بها المدرسة الرمزية التي اعوزتها وسيلة الاداء والتعبير عن الحياة الجديدة فلجأت الى الرموز والتعبير المعقّد ؛ وادخلت على الشعر ما حملته اليها الثقافة الحديثة من فكر ومجردات، وعُنيّت بالالفاظ الشفافة ذات الجرس الموسيقي ؛ وقد سجّرت احياناً كثيرة

البلاغة للغماء، واسرقت في تطلب السهل اللين حتى سقطت في اخطاء لغوية صارخة وأسفت إسفافاً شنيعاً .

ومن مثألو هذا الدور الاخير بشر فارس . ولا بدّ من القول ان هذا الادب الرمزي لا يخلو من مقطوعات جميلة، ولكنه بمجمله ادب حائر ولاسيما وقد عاجله شعراء لم تتوفر لهم الملكة الشعرية فهبط معهم هبوطاً مزرياً وكان سخيلاً . وقد احسن عباس العقاد حين قال : « الرمزية ضرورة لتمثيل الدقائق والاسرار ولكنها تخرج من الضرورة الى الضرر اذا اصبحت مطلوبة لغير سبب واصبح شعارها الرمز للرمز والغموض للغموض والتلفيق للتلفيق » .

٣ - مدرسة المبدعين : والى جنب هذه النزعات المتباينة قامت مدرسة ثالثة تعمل على توجيه الشعر نحو الفن الصحيح، وتخرجه عن كونه ملهاة غزلية، او مجاملة مدحية، او تقليداً عقيماً، او خروجاً عن حدود الرصانة، الى الاهتمام بالكيان الاجتماعي والتطلع الى الناحية الانسانية في الادب . وكان من رواد هذه الحركة يوسف غصوب، وصلاح لبائدي، وامين نخلة، والياس ابو شبكة، وفوزي المعلوف، وعلي محمود طه، واحمد زكي ابو شادي...

وسار الشعر الابداعي هذا شوطاً محموداً الى ان تناوله سعيد عقل، وصلاح لبكي، وعمر ابو ريشة، ورشدي معلوف وغيرهم من ارباب التفكير القوي، والشخصية البارزة والدونة الشعرية، فوجهوه نحو الانسان في جميع كيانه، وحاولوا ان يوفروا العنصر الفكري في شعرهم .

ولا حاجة الى القول ان انحياز بعض شعراء هذه المدارس المختلفة، الى نشر المخازي البشرية والافصاح عن استكلاب الاهواء الدنيا بطريقة بذئية، يحط من قدر الآثار الفنية، وينشر الفساد . وأحرر بالعقريات الكبيرة ان تبقى بعيدة عن قاذورات الحياة، وان لا تتمرغ في حمأة المفاسد .

* * *

واذا تطرقنا الى موضوعات الشعر وفنونه يمكننا القول انها بقيت في بدء الامر على ما كانت عليه في العصور القديمة من مدح ورتاء وما الى ذلك . ثم خلقت

المدنية والاحوال الاجتماعية الشعر السياسي الذي يعبر عن نزعة الشعوب الشرقية الى الاستقلال، والتحرر من كل ظلم او استعمار ؛ والشعر الاجتماعي الذي يعالج آلام الشعوب وامراضها الاجتماعية، فيدعو الى تحرير المرأة وتربية الاطفال، ويزيح الستار عن مزار القبار وما الى ذلك، ويكثر من التحدث عن الوطنيات والعطف على المظلومين والمنكوبين ؛ والشعر التمثيلي والقصصي الذي يطيل القصص ويتزعم فيه احياناً نزعة اجتماعية او فلسفية .

وقد تعرض الشعر للاغراض المستحدثة والمخترعات الجديدة كالقطار والغواصة والطائرة والمنطاد والكهرباء وما الى ذلك . . .

أما من ناحية المبنى الشعري فقد حافظ اكثر الشعراء على الاوزان المعهودة، وان اشتد الميل الى الخفيف والقصير منها . وقد حذا البعض، ولاسيما المجددين، حذو اصحاب الموشحات الاندلسية فنظموا القصائد التي لا تلتزم قافية واحدة بل تتعدد قوافيها في المقطوعات المختلفة ؛ وحاول البعض الآخر نظم الشعر المرسل او الشعر المنثور كما فعل اصحاب التجديد المتطرف .

* * *

تلك هي الاطوار الهامة التي عرفها شعر النهضة الحديثة . ولما بنا بحاجة الى ذكر النزاع الشديد الذي نشب في هذا العهد بين ارباب القديم وارباب الجديد، انما نقول ان الطريق الى التجديد المستقيم هي التمكن من الادب العربي القديم بفنونه، واساليبه، تعبيره، وصفاء لغته، ثم الاستمرار في التأثر بالفن العربي في تشعب موضوعاته واساليبه، والتعمق بالثقافة العربية تعمقاً حقيقياً لا يقف عند القشور ولا يكتفي بالتوقف عند بعض العناوين والصور والمعاني . فعلى شعرائنا ان يسعوا في تحصيل ثقافة واسعة تشمل الفلسفة والاجتماع والادب، كما تشمل مخلفات العصور القديمة ومنسجات العصور الحديثة في شتى نواحي الفكر، وان يهيئوا لتلك الثقافة ملكة عربية حقيقية ولغة متينة صقلها المران، وعند ذلك يمكنهم ان يؤدوا لهذه البلاد خدمتهم الحقة، وان يتحفوها بآثار شعرية خالدة، وقد رأينا عند البعض ثمرة مثل هذه الجهود ؛ وليس المبتغى بعزير .

أدب النهضة

الفصل الثاني

النثر الفني

١ تطور النثر : اجتاز النثر في هذا المهد ثلاثة اطوار : الطور الاول هو طور البعث واليقظة، وقد ظلّ النثر فيه متأثراً بأسلوب القاضي الفاضل واسلوب الانحطاط ؛ والطور الثاني هو طور المحاولات المحمودة، وقد قدّم المعنى على اللفظ، ولكن التحرّر لم يكن تاماً؛ والطور الثالث هو طور النهضة الحقيقيّة، وقد قصرت الكتابة على المعاني وجُريّ فيها على اساليب عالميّة رفيعة الفنّ .

٢ اغراض النثر وفنونه :

- ١ - النثر الادبي : اشتهر فيه الشيخ ناصيف اليازجي، واحمد فارس الشدياق، والشيخ ابراهيم اليازجي، وسليمان البستاني، ومصطفى المنفلوطي . يمتاز بتخيّر اللفظ والتأنق في نظم العبارات.
- ٢ - النثر الاجتماعي : اشتهر فيه المعلم بطرس البستاني، وقاسم امين، وجبران خليل جبران، واحمد زغلول . يمتاز بصحة العبارة والبعد عن الزخرف .
- ٣ - النثر السياسي : اشتهر فيه اديب اسحاق، ومصطفى كامل . يمتاز بالسهولة والوضوح . ويعتمد الادلّة الخطائيّة والتصوير السريع .

الخطابة

- ١ انبعاثها : انبعثت الخطابة بسبب الثورة العرابية، والاندية السياسية والاجتماعية، والجمعيات العلمية والادبية وتنظيم القضاء وإنشاء المحاكم الاهلية ونظام المرافعات ...
- ٢ اغراضها : تعددت اغراض الخطابة فكان منها السياسة والقضاء والاجتماع .

القصة

اجتازت القصة المصرية عدّة اطوار : طور الترجمة عن أدب الغرب وقد اشتهر في ذلك نجيب الحدّاد وطانيوس عبّده وفرح انطون ؛ وطور التأليف وقد اشتهر فيه سليم البستاني وجرجي زيدان اللذان عالجا الموضوعات التاريخية .

وتعددت اغراض الروايات مع الايام فن تاريخ الى اجتماع الى بوليستيات الى غراميات الى غير ذلك . واشتهر في فن الحكايات ميخائيل نعيمة، وفؤاد البستاني، وتوفيق عواد، و خليل تقي الدين، ومارون عبود، وصلاح لبكي، وكرم البستاني . واشتهر في فن الروايات الطويلة فؤاد البستاني، وتوفيق عواد، في لبنان ؛ وتوفيق الحكيم، ومحمود تيمور، وطه حسين في مصر .

— النقد الأدبي —

كان سليمان البستاني من رواد النقد الحديث في مقدمة الالباذة، والدكتور طه حسين احد اركانها .

١ تطور النثر : كان تطور النثر في هذا العهد اكثر اتساعاً واعمق أثراً من تطور الشعر، وكان حظه من الرقي خيراً من حظ الشعر، لان اربابه كانوا اكثر توفراً على الاخذ بأسباب الثقافة . فكان النثر في مطلع هذا العهد شديد التأثير بأسلوب القاضي الفاضل ومن أتى بعده من أرباب الصياغة والصنعة الذين يغلب في كتابتهم اللفظ على المعنى، وتغلب عندهم فكرة التركيب على الادب . فالتزم الكتاب السجع ووجوه البديع المختلفة، وعاقبوا المجل على المعنى الواحد، وذلك اعجزهم عن الابتكار ولتقصيرهم في التفكير والبحث والتحليل . فكانت الكتابة بمجملها ركيكة التعبير، غامضة المعنى، تحفل بالاسفاف ولا عجب فهي قريبة الصلة بالانحطاط ولم تتوفر لها بعد الاسباب الكافية للنهوض . فكان هذا الطور الاول طور البعث واليقظة على ضعف في المقدرات والوسائل .

وما إن انتصف القرن التاسع عشر حتى كان احتكاك الشرق العربي بالغرب قد قوي وأخذ يوثق ثماره ؛ وحتى راحت المطابع تنشر الكتب والصحف، وفيها المترجم عن الادب الغربي، وفيها كتب الادب العربي القديم من امثال كليله ودمنة وآثار الجاحظ ؛ وحتى قلبت المدارس وجه الشرق الثقافي قلباً بليغاً فتحت عيون ابنائه على الفنون العالمية والاساليب الكتابية الغربية . فضج الشرق بنزاع صارخ بين

المحافظين والمجددين، ولكن النصر كان لارباب الجديد الذين ذهبوا الى ان الاساليب العربية القديمة لا تكفي للتعبير عن كل نواحي الحياة الحديثة، وقدّموا المعنى على اللفظ، والتحليل على التركيب؛ الا ان الكتابة لم تتحرّر تحرّراً تامّاً فكان الكتاب يرى لزاماً عليه ان يأخذ احياناً بأساليب الصنعة فيسجّع ويتطلّب البديع مجاراةً للاحوال . فكان هذا الطور الثاني طور المحاولات المحمودة وابتداء النهضة الحقيقية .

ثم أطلّ القرن العشرون، وقد شاعت ثقافات الغرب فيما بين ابناء هذه الاقطار، وانتشرت لغات الغرب على السنة ابناء الشرق، وتعمّق هؤلاء في دراسة آداب الغرب وفنونها . وجاءت الحرب العالمية الاولى فقوّت عوامل الثورة على القديم فتمّ الانتصار لارباب الجديد وتغيّرت طرق الكتابة لتغيّر طرق التفكير . فراح الكتاب يعتمدون لوناً طريفاً في ترتيب الكلام وتبويبه ويقصرون كتابتهم على المعاني ودقتها، وعلى الاساليب الفنية العالمية، لا يتوخّون إلا التعبير بعبارة صحيحة سهلة، خالية من الزينة والسجع وانواع البديع، تجوي مع الطبع ومع مقتضيات كل فن وكل حال . ودخلت اللغة صيغ جديدة وطرق جديدة لأداء معاني جديدة . وربما كانت الصحف من اهمّ العوامل التي قضت على البديع والسجع وكل انواع التصنع اللفظي . وهكذا كان هذا الطور الثالث طور النهضة الحقيقية في أساليبه وفنونه وان لم يخلُ من متطرفين يريدون القضاء على كل اسلوب عربي، وعلى اللغة العربية الفصحى نفسها .

٢ اغراض النثر وفنونه : اتسعت اغراض النثر وفنونه في هذا العهد فتناولت

مشكلات الحياة ومظاهرها وتزعّاتها المختلفة .

وباستطاعتنا أن نقسم النثر بالنظر الى أغراضه وفنونه الى ثلاثة اقسام : نثر ادبيّ ونثر اجتماعي، ونثر سياسي او صحفي، وسنّجمل الكلام في هذه الاقسام الثلاثة، ثم نتبعها بدراسة موجزة للخطابة والقصة والنقد الادبي .

١ - النثر الادبي : يشمل النثر الادبي المراسلات الاخوانية بانواعها من تهنئة

وتعزية وعتاب واعتذار وما الى ذلك، والاولى والمختلفة، والروايات، والدراسات النقدية والتحليلية، والتحدث عن الامور المعنوية كالجبال والعاطفة والذوق والانشاء وما الى ذلك . . . ومن اقطاب هذا الفن الشيخ ناصيف اليازجي، واحمد فارس الشدياق، والشيخ ابراهيم اليازجي، وسليمان البستاني، ومصطفى لطفى المنفلوطي. وهذا النوع من الكتابة هو اشد انواع النثر حاجة الى تخير اللفظ، والتأنيق في نظم العبارات، حتى يخرج الكلام مشرقاً، لطيف الموقع في النفوس وفي الاذان، وللخيال فيه أثر كبير يجعله ذا صلة بالشعر .

٢ - النثر الاجتماعي : دعا الى هذا النوع من الكتابة ما كان عليه الشرق من التقهقر والجهل والفقر الاقتصادي والمعنوي، وما كانت عليه المرأة من الحقوق المهضومة؛ وما جرّت الحرب والاتصال ببعض البيئات الغربية الفاسدة على البلاد من الفحلال في الاخلاق ومفاسد في الحياة الفردية والحياة العائلية . والنثر الاجتماعي يشمل المحاولات المختلفة في إصلاح مفاسد المجتمع وتحرير المرأة وتعليم الاحداث وما الى ذلك .

وأسلوبه صحيح العبارة، بعيد عن الزخرف والزينة وذلك لان الفكر منصرف الى تفهيق المعاني وسوق الحجج وضرب الامثلة لا الى الجري وراء كلمة او سجع . ويتوفر في هذا النوع من الكلام الوضوح . ومن اقطاب هذا الفن المعلم بطرس البستاني، وقاسم امين، وجبران خليل جبران، واحمد زغلول .

٣ - النثر السياسي : دعا الى معالجة السياسة في الكتابة ما كانت عليه البلاد من جرى ظلم عبد الحميد وغيره من الحكام العاشقين للمستبدين، وما كانت عليه من نظام الحكم المطلق او الاقطاعية، ثم ما أثار الاستعمار في نفوس الاحرار من غيظ وحفيظة . . .

فتناول هذا الفن الدفاع عن الشعوب المظلومة، وإيقاظها، والتنديد بما عليه ابناؤها من جبن واستكانة للذل؛ كما تناول الدعوة الى الاخذ بنظام الشورى في الحكم؛ ثم تناول محاربة الاستعمار وإثارة الحمية الوطنية في نفوس الشعوب المستذلة التي غلبت

على امرها وقادها ملوكها وزعمائها الى الدمار . ومن اقطاب النثر السياسي اديب اسحاق، ومصطفى كامل . . .

وهذا النثر يمتاز بالسهولة والوضوح بحيث يكون معناه في ظاهر لفظه، وذلك لان الصحف تُخاطب الجماهير . ويلجأ النثر الصحفي الى الادلة الخطابية لانها اشد وقعاً في نفوس الجماهير . وليس فيه الاحتفاء الكثير بالاسلوب او العناية الشديدة بتخيّر الالفاظ، او الجنوح الى الخيال، او التحقيق العلمي المنظم المبني على الاستقراء او ذكر المقدمات الوافية؛ ولكنه يعتمد التصوير السريع ويكثر من التكرار ومن كل ما يثير العاطفة .

الخطابة

١ انبعاثها: كانت الخطابة قبل عهد النهضة وفي مطلعها سبباً في الحال لا يكاد يُسمع لها صوت في غير المعابد والمساجد، وذلك لفقدان الحرية وخمود الوعي القومي . فقد عقل الظلم والاستبداد ألسنة الخطباء . فجمد الشعور القومي فجمدت معه الجهود في سبيل الحرية . وظلّت الحال على ما هي حتى انتصف القرن التاسع عشر وسرى في العروق دم جديد، وانفتحت العيون على الظلم؛ وشعر كلُّ بما له من حقوق وما عليه من واجبات نحو المجتمع والوطن؛ وكانت الثورة العرابية في مصر من مظاهر الوعي القومي ومن اكبر حوافز الخطابة . ثم كانت الاندية السياسية والاجتماعية، والجمعيات العلمية والادبية، ونُظُم القضاء، وأنشئت المحاكم الاهلية ونظام المرافعات، فانتعش المجال للخطباء، وقد انتعشت فيهم ملكة العربية، ووثبتت الخطابة وثبة عظيمة نحو الرقي والكمال في شتى الموضوعات .

٢ اغراضها: تعددت أغراض الخطابة لتعدد الدواعي اليها . فكان من اغراضها فضلاً عن الدين، السياسة وقد دعا اليها طموح الشرق الى

الاستقلال والمنافسات الحزبية والمناقشات البرلمانية، وكان من أشهر خطباء السياسة مصطفى كامل وسعد زغلول .

وكان من اغراضها القضاء، فهب الخطباء، من محامين وغيرهم، يرافعون في المحاكم معتمدين على براعة القول وروعة الأداء وقوة الحجج والبراهين . ومن أشهر الخطباء في هذا الباب احمد فتحي زغلول .

وكان من اغراضها اخيراً الاجتماع ، فاراد الخطباء حلّ المسائل الاجتماعية والاقتصادية وإيقاظ القوم الى مواطن الخطر في حياتهم وإصلاح ما في المجتمع من مفساد . واشتهر في هذا المضمار المعلم بطرس البستاني، ومحمد عبده، وجمال الدين الافغاني .

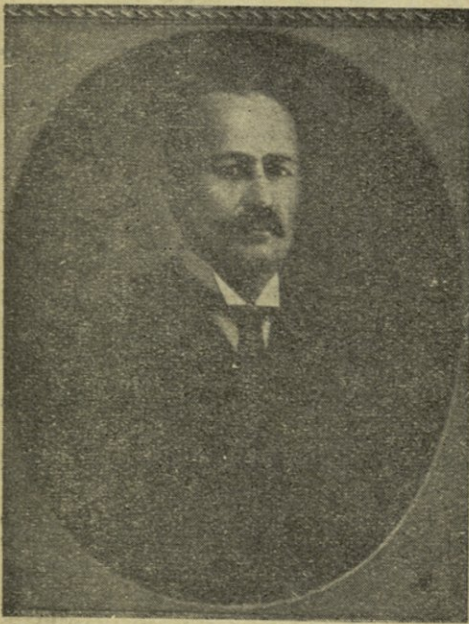
القصة

رأينا فيما سبق كيف نشأت القصة عند العرب وكيف تطوّرت، ودرسنا اهم ما عند العرب الاقدمين منها . وقد بقي علينا ان نلقي نظرة على ما بلغته القصة من الرقيّ في عهد النهضة، وقد احتكّ الشرق بالغرب وأطلع ابناؤه على ما هنالك من شيوع لهذا الفن، ومن اساليب راقية، واغراض متنوعة .

وكانت الخطوة الاولى أن اكبّ أبناء الشرق ولاسيما اللبنانيين منهم على ترجمة بعض القصص عن الادب الغربي . ومن اقدم الذين اشتغلوا بترجمة القصص نجيب حدّاد اللبناني (١٨٦٧ - ١٨٨٩) ومما ترجمه، فضلاً عن الروايات التمثيلية العديدة، رواية الفرسان الثلاثة من تأليف اسكندر دوماس الفرنسي في اربعة اجزاء طُبعت لأول مرة سنة ١٨٨٨ .

وفي اواخر القرن التاسع عشر قدم مصر عدد من ادباء اللبنانيين وكان بينهم نقولا رزق الله (١٩١٥) و خليل مطران (١٩٤٩) وطانيوس عبده (١٩٢٦)، وقد اشتغلوا بالصحافة . التحق نقولا رزق الله بجريدة الاهرام، وعكف على ترجمة

الروايات بأسلوب سهل جذاب، وفي سنة ١٩٠٤ ترجم رواية «سقوط نابوليون الثالث» في أكثر من ألف صفحة . وكان لهذه الروايات المترجمة أثر حسن، فنشط المصريون إلى الجري في الميدان وأنشأ أحدهم مجلة باسم «مسامرات الشعب» حشد فيها كثيراً من القصص الرخيصة . ثم أنشأ طانيوس عبده «مجلة الراوي» وقد ضمنها تعريب الروايات الشهيرة مثل «فوست» و «الملكة إيزابو» . وترجم فروح انطون (١٩٢٢) «الكوخ الهندي» و «بول وفرجين» و «أثالا» وغيرها من الروايات .



جرجي زيدان

(مجموعة دار الكتب اللبنانية)

وأما من فتح باب تأليف الروايات الطويلة وخطا بالقصة الخطوة الثانية فهو سليم البستاني (١٨٨٤) الذي سلك في الرواية الطويلة نهجاً تاريخياً فوضع عدة روايات منها «زنوبيا» و «بدور» ثم تبعه جرجي زيدان (١٩١٤) فنجا في تأليف الروايات منجى «ولترسكوت» الانكليزي، واستمد من التاريخ العربي قصصه وأبطاله، ومزج التاريخ ببعض عوامل التشويق، وأخرج عدداً كبيراً من هذه الروايات التاريخية منها «فتاة غسان» و «عذراء قریش»

و «الحجاج» . . . إلا أن روايات جرجي

زيدان مُخرَجة في أسلوب صحفي، ضعيف التحليل النفسي . فهي - على حد قول عمر الدسوقي - «تاريخ في قالب قصة لم تكمل شروطها الفنية، وتاريخ لم يحافظ فيه على الحقائق» .

والى جانب القصص التاريخي وُضعت قصص أخرى في الاجتماع فكانت تهدف إلى الحث على الفضيلة وتجنب الرذيلة كروايات «الهيام في جنان الشام» و «بنت

العصر»، و «أسماء» لسليم البستاني، و كروائتي «آدم الجديد» و «حواء الجديدة» لنقولا الحداد . وقد طغت في هذه الروايات الموعظة والدرس الخلقي على الفن .

وطما سيل الحكايات والروايات بعد الحرب الكبرى الاولى، فكان لنا من نوع الحكايات في لبنان « كان ما كان » لميخائيل نعيمة، و « على عهد الامير » لفؤاد البستاني، و « الصبي الاعرج » و « قيص الصوف » لتوفيق عوَّاد و « عشر قصص » خليل تقي الدين، و « وجوه وحكايات » لمارون عبّود ، و « من أعماق الجبل » لصلاح لبكي، و « الاساطير الشرقية » لكروم البستاني . وكان لنا من نوع الروايات « لماذا ؟ » لفؤاد البستاني، و « الرغيف » لتوفيق عوَّاد، و « اللقاء » لميخائيل نعيمة ، وعدة روايات لكروم ملحم كروم .

ومن أشهر واضعي الروايات بمصر في العهد الحاضر توفيق الحكيم، ومحمود تيمور، وطه حسين .

وقد عرفت البلاد العربية كلها فن القصص، وتوفّر عدد كبير من الكتاب على التأليف فيه، فكان من القصص ما ينحو النحو الغرامي الفياض بالعواطف، ومنه ما ينحو النحو البوليسي الحافل بالمفاجآت والغرائب، ومنه ما ينحو النحو الوعظي الرامي الى تهذيب الاخلاق .

ومما يؤسف له ان بعض الكتاب انصرفوا في رواياتهم الى سرد قصص رخيصة تتعلّق التزعات الدنيا عند الشعب، وتمثّل كثيراً من وجوه الحياة الانسانية المخزية فالاجرام بأنواعه وطرقه، والعشق السافل وما الى ذلك من نواحي الضعف الانساني، مما يُفسد الاخلاق ويلطم وجه الفضيلة والشرف . وكان الاجدر بمثل هؤلاء الكتاب ان يكونوا لآمتهم وبلادهم عوامل بناء لا عوامل دمار .

النقد الادبي

عرضنا للنقد الادبي فيما سبق وتتبّعناه منذ نشأته الى اواخر العهد العباسي . وقد واصل سيره في العهد التركي متقلّباً بين الضعف والاضطراب ؛ واصطبغ في

الطور الاول من عهد النهضة بصيغة الصياغة المغوية والنحوية لحرص ارباب النقد في ذلك العهد على انهاض اللغة من كبوتها وارجاع الكتابة الى صفائها القديم ومثانتها التي كانت لها في سالف العصور قبل ان تعمل بها عوامل الانحطاط .

ولكن النقد، والحق يقال، لم يظهر بأساليبه العلمية الشاملة، ولم يرق الى درجة الفن العالي إلا في هذا العهد ولاسيما بعد الحرب الكونية الاولى . فقد كان لاتصال الشرق بأساليب النقد الغربية، ولتخرج الطلبة على اساتذة توفر لهم الذوق الفني والثقافة الادبية الراقية، ولتقدم العلوم السيكلوجية، ولاتساع المجال لحرية القول والكتابة، أثر بليغ في نشوء الروح النقدية العصرية عند ابناء الشرق . فوثب النقد وثبة عظيمة، وراح يجري على مقاييس عقلية وفلسفية، ويعتمد المنطق والموازنة في البحث، ويذكر المسببات وأسبابها، رابطاً اللاحق منها بالسابق، متقصياً المعاني قبل المباني، متجرداً عن الاميال والاهواء الشخصية قدر المستطاع، لا ينظر الا بعين العلم ليزن كل شيء بميزانه .

ومما لا شك فيه ان سليمان البستاني هو من رواد النقد العلمي الحديث، فقد كانت مقدمة الاياداة فاتحة هذا الفن، بما تضمنته من دراسات وتحقيقات تاريخية وعلمية



ميخائيل نعيمة

وفنية، مبنية على ثقافة واسعة، وذوق سديد، ومقاييس تدعمها الفلسفة والمنطق كما سيتضح لنا ذلك في دراستنا لهذا الاثر الجليل . ومما لا شك فيه ايضاً ان الدكتور طه حسين في مصر هو من اهم أركان نهضة النقد الادبي؛ فقد كانت آثاره تلقي دروساً واسعة في العالم العربي كله وتعلم طرق التمحيص، والمقابلة، والتحقيق العلمي، والتحليل الفني والادبي، وان لم تخل من مغالاة في الآراء وضلال في العرض والاستنتاج .

وقد كثر الانتاج الادبي في العالم العربي بعد ان تسرب اليها كثير من مبادئ النقد الغربي في اصول

الفن والجمال . واشتهر في لبنان ميخائيل نعيمة الذي كان من رواد النقد الافراي

في كتابه « الغربال » إذ ظهرت مقالاته في « السائح » منذ السنة ١٩٢١ ، وعمرو
فاخوري صاحب الابحاث القيمة المنشورة في « المعرض » و « البيان » وغيرهما
منذ السنة ١٩٢٤ ؛ وفؤاد البستاني صاحب سلسلة « الروائع » التي اخذت في
الظهور منذ السنة ١٩٢٧ ؛ ومارون عبّود رجل الابتكار والدراسات الشخصية ؛
وبطرس البستاني صاحب « ادباء العرب » ؛ وانيس المقدسي صاحب « أمراء الشعر »
و « تطوّر الاساليب النثرية في الادب العربي » ؛ وجبرائيل جبور صاحب
كتاب « عمر بن ابي ربيعة » وكتاب « ابن عبد ربه » ؛ وادوار حنين مؤلف

« شوقي على المسرح » ؛

وعبدالله العلايلي

صاحب « المعري ذلك

المجهول » وغيرهم

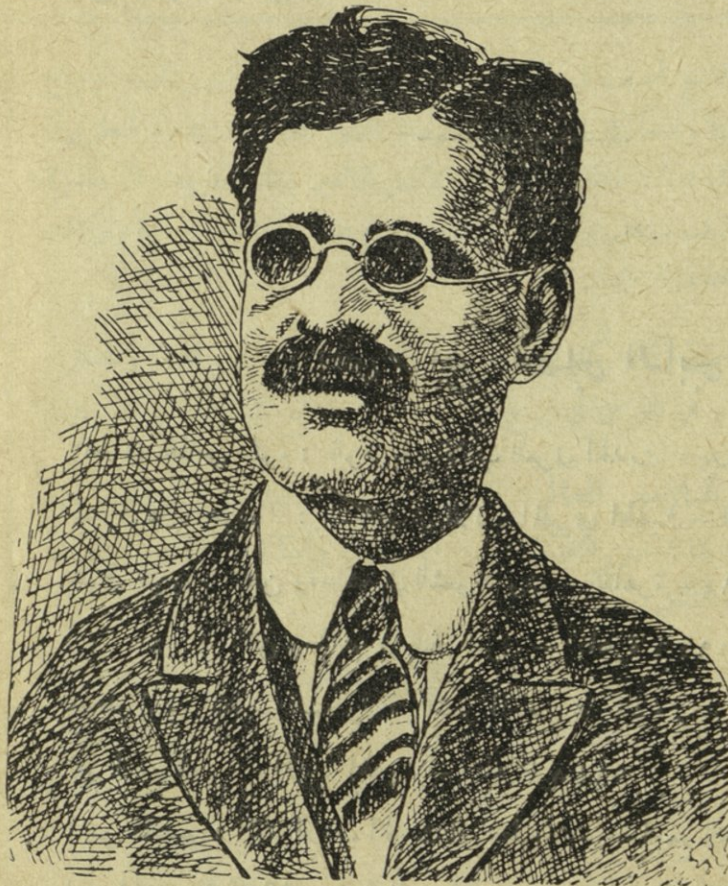
كثيرون ممن لهم

المحاولات المشكورة

وان لم تخلُ من ضعف

في البحث والاساليب

العلمية .



طه حسين

وتقدّم النقد الادبي

في مصر تقدّمًا حثيثًا

وبلغ درجة من الكمال

والاتساع لم يبلغها في

سائر البلاد العربية ،

فكانت دراسات طه حسين صاحب « الادب الجاهلي » ، وعباس محمود العقاد

صاحب « ابن الرومي » ، وابراهيم عبد القادر المازني صاحب « حصاد المشيم » ، واحمد

الشّايب صاحب « تاريخ الشعر السياسي » و « تاريخ النقائض في الشعر العربي » ،

وشوقي ضيف صاحب «الفن ومذاهبه في الشعر العربي» و«الفن ومذاهبه في النثر العربي» . . . كانت تلك الدراسات نموذجاً صالحاً تتجلى فيه المحاولات العلمية الحقة التي تدنينا مما وصل اليه النقد في الغرب .

وجارت سوروية وسائر البلاد العربية لبنان ومصر في هذا المضمار، واشتهر في سورية خليل مردم، ومحمد كرد علي (١٩٥٣) . ولا تزال الجهود مبذولة في البلاد العربية كلها، والنشاط موفوراً، ولن تمضي سنوات إلا والنقد الادبي في اعلى درجة من درجات الفن والعلم .

بعض مراجع الفصليين السابقين

- انطون غطاس كرم : الرمزية والادب العربي الحديث - بيروت ١٩٤٩
 عبد الوهاب حموده : التجديد في الادب المصري الحديث - القاهرة
 شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي - القاهرة ١٩٤٥ - ص ٣٨٠ - ٣٨٦
 » : الفن ومذاهبه في النثر العربي - القاهرة ١٩٤٦ - ص ٢٠٧ - ٢١١
 مصطفى عبد اللطيف السحروري : الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث - القاهرة ١٩٤٨
 عمر الدسوقي : في الادب الحديث - القاهرة ١٩٤٨
 انيس المقدسي : اتجاه الادب الحديث الى الطبيعة - مجلة المجمع العلمي العربي عدد ٢ ١٩٥١
 احمد امين : قصة الادب في العالم - الجزء ٣ - القاهرة ص ٢٩٣ - ٣٤٣

الباب الرابع

مشايير الأدباء - الشعر

الفصل الاول

الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ - ١٨٧١ م / ١٢١٤ - ١٢٨٧ هـ)

١ حياته : وُلد الشيخ ناصيف في كفرشيا وأخذ مبادئ القراءة عن راهب، ثم راح يطالع وينقب حتى حصل علماً واسعاً في اللغة والأدب وسائر العلوم العربية، فدعاه البطريك اغناطيوس الخامس ليكتب له، فكث عنده سنتين. ثم اتصل بالامير بشير ومدحه ونال حظوة لديه. ثم عاد الى بيروت يؤلف وينظم ويدرس في المدرسة الوطنية وفي البطريركية. وكانت حياته حياة شرف وإباء ونزاهة.

٢ آثاره : للشيخ ناصيف آثار كثيرة في الصرف والنحو، والبيان، واللغة، والمنطق، والطب، والشعر. واشهرها «نار القرى في شرح جوف الفرا» و«مجمع البحرين» والديوان.

٣ الشيخ ناصيف اليازجي العالم : كانت موضوعات علم اليازجي واسعة وموجهة توجيهاً مدرسياً. اما طريقته فقائمة بحسن التفهم وحسن الاختيار؛ وأما أسلوبه فدرسي يتصف بالبلاغة والدقة والوضوح والمنطق.

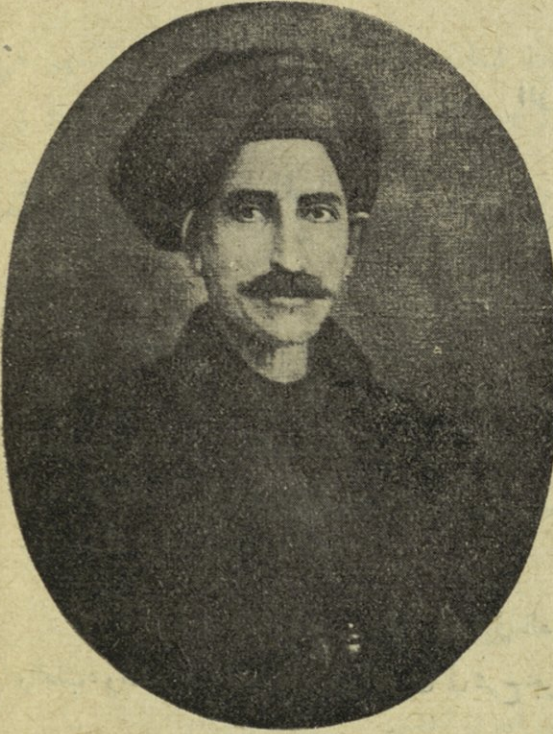
٤ الشيخ ناصيف اليازجي الشاعر : لليازجي ديوان شعر فيه غزل ومدح وراثا وحكمة. وله اراجيز عدة في العلوم المختلفة كما له شعر كثير مبثوث في «مجمع البحرين». أما غزله فنوعان : نوع مستقل فيه رقة وسداجة وعفاف؛ ونوع اتخذه سبيلاً الى المدح وهو تقليدي.

وأما مدحه فتقليدي حاول فيه الشاعر مجازاة المتني والبحثري. وأما رثاؤه فأنة يرسلها، ونصيحة يسديها، وكشف عن حقيقة الحياة، وحكمة فيها من معاني التعزية شيء كثير.

٥ منزلة الشيخ ناصيف : الشيخ ناصيف اليازجي زعيم المقلتين في القرن التاسع عشر؛ وقد كان له فضل كبير على النهضة اذ رفع مستوى الكتابة، وعمل على تهذيب اللغة وتقريب متناول العلوم، وقد تخرج على يده طغمة من ارباب الاقلام وعمال النهضة.

١ مبادئ :

١ - نشأته وشبابه : وُلد الشيخ ناصيف اليازجي في قرية كفرشيا جنوبي



الشيخ ناصيف اليازجي

بيروت، في ٢٥ آذار سنة ١٨٠٠،
من أسرة عريقة تزحت عن حوران
الى حمص، وهبط بعض افرادها
الساحل اللبناني . وكان والد الشاعر
عبدالله بن ناصيف، طبيباً مشهوراً
في زمانه على مذهب ابن سينا،
وربما تعاطى الشعر في السوانح
النادرة .

وشب ناصيف ذكياً يتلقن مبادئ
القراءة على راهب من بيت شباب
اسمه متى . ثم أخذ يطالع ما يقع
في متناوله من الكتب ، واذا لم

تكن لتكني رغبته في الاستزادة، نشط الى الديورة المجاورة ، يتصفح ما فيها من
الكتب فيحفظ منها ما شاءت له ذاكرته العجيبة، او ينسخ ما يخاف عليه عبث
النسيان . وما زال يحفظ وينسخ حتى تم له من العلوم قدر صالح في النحو والصرف
والبيان واللغة والشعر . وقد نظم الشعر وهو بعد في العاشرة، وأنشد المقطوعات
الزجلية الطريقة .

ولما بلغ السادسة عشرة - وقد عرف عنه من تيقظ الخاطر والعلم وجمال الخط،
وقول الشعر، ما جعل له شهرة غير يسيرة في الناحية - دعاه البطريرك المكي الكاثوليكي
اغناطيوس الخامس، الى مقره في دير القرقفة، وهو على رابية تطل على كفرشيا،
فكث عنده سنتين يكتب له . ثم انتقل البطريرك الى الزوق في كسروان فعاد

ناصر الى بيته يعكف على المطالعة والحفظ، ويطلع على اسرار الموسيقى، ويتلقن الطب الاختباري عن أبيه وينظم الشعر .



ما بقي من بيت الشيخ ناصيف اليازجي في كفرشيا

٢ - في قصر الامير بشير : وكان بعد ذلك ان انتصر الامير بشير على مقاوميه

فطرب لظفره شاعرنا الفتى، وأنشد في مدحه قصيدة نابضة، مطلعها :

يَهْنِيكَ يَهْنِيكَ هَذَا النَّصْرُ وَالظَّفَرُ فَأَنْعَمُ إِذَنْ أَنْتَ، بَلْ فَلْتَنْعَمِ الْبَشَرُ

فراقت الامير، فأكسبه رضاء وعطفه، وحفظ له ذكراً طيباً، حتى اذا ما

مرّت اربع سنوات، استدعاه الى بيت الدين، وكان ذلك سنة ١٨٢٨ . فأقام الشاعر في ديوان الامير الكبير يقول فيه المدائح، إلا أن ذلك الشعر لم يُطبع كله، وذلك لان الشاعر، على ما يقول ابنه الشيخ ابراهيم، لم يكن يكثر كثيراً لمنظومات صباه . وقد اتصل في قصر الامير بكثير من وزراء الدولة وأشراف القوم وعلماء ذلك العهد .

٣ - في بيروت : وفي سنة ١٨٤٠، غادر الامير بشير لبنان، فأقام الشيخ ناصيف في بيروت، وكان يصرف وقته في المطالعة والتأليف، ومجالسة العلماء والشعراء . ثم اتصل بالمرسلين الاميركيين، وصحّح مطبوعاتهم، وعمل على تنقيح ترجمتهم للكتاب المقدس، ونشّط حيوية الجمعية السورية التي أنشئت سنة ١٨٤٧ بمساعي سميت وثمبسون، وكان الشيخ ناصيف احد اعضائها الاولين وفي عمدتها الخصوصية .

ولما فتح المعلم بطرس البستاني المدرسة الوطنية، سنة ١٨٦٣، دعا الشيخ ناصيف فعلم فيها ارجوزته في النحو، واشتغل في تصحيح معجم البستاني « محيط المحيط » ولكن تصحيحه لم ينل الا الجزء الاول .

ثم انشئت المدرسة البطريركية، فكان الشيخ من اساتذتها المعدودين، كما كان مدرّساً في الجامعة الاميركية، وكانت تدعى في ذلك الوقت الكلية الانجليزية .

وكانت سنوات تدريسه سائجة حسنة، اتاحت له ان يؤلف كتبه اللغوية المدرسية . ولم يزل الشيخ ناصيف على تلك الحال من العلم العامل والمثمر حتى طارت له شهرة واسعة فتوافدت اليه رسائل التقريظ من جميع الاقطار العربية، وقصده طلاب العلم يبتغون الارتشاف من منهله الصافي، وحوّطه العلماء بالاكرام والاحبال، وعدّوه إماماً من ائمة العلم والادب .

(١) لقد وقف الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف على مجموعة من منظوماته في اول عهده، فيها « المحبكات الشهاية » وهي تسع وعشرون قصيدة في مدح الامير بشير . طالع « الفرر التاريخية » الجزء الاول، ص ١٦ .

٤ - مرضه ووفاته : وفي مساء ١٦ آذار سنة ١٨٦٦ دهمت الشيخ ناصيف أعراض منذرة من حُمى ودوار، وألم مبهم في الحواس، وكلال في البصر وبعض الارتخاء في الذاكرة، عقيبتها سكتة تزييفية، تركته مطروحاً وقد عطل الفالج شطره الايسر . ولكنه بقي صاحي الذهن، ينظم الابيات ويحل المسائل، حتى بُلي بوفاة ابنه البكر الشيخ حبيب، وهو في نضارة شبابه، فخرن عليه حزناً اليماً ورثاه بأبيات لم يتمكن من انتهائها؛ وما لبث لغرط حزنه ان اصابته في شهر شباط سنة ١٨٧١، سكتة دماغية، عاودته بعد انكفاء وجيز، في مساء الثامن من شباط، فكانت بها خاتمة حياته .

وهكذا قضى الشيخ ناصيف اليازجي بعد حياة ملؤها الرصانة والوقار، والاحتشام وعفة اللسان والاستقامة .

٢ آثاره : برع الشيخ ناصيف في العلوم اللغوية من صرف ونحو ومعانٍ وبيان وبديع وعروض وقافية ولغة، وأتقن المنطق، وتم له اطلاع واسع على الطب والفقه والموسيقى . وقد ألف في تلك العلوم جميعاً، ما عدا الفقه لانه لم يجب ان يشتهر به، والموسيقى لانها عند العرب فنٌ يُتناول بالسمع، وقيل من كتب فيه .

وللشيخ ناصيف ايضاً قدر غير يسير من القصائد المختلفة . وله مقطوعات زجلية، أنشدها في صباه .

١ - في الصرف والنحو : «لمحة الطّرف في اصول الصرف»، وهي ارجوزة قصيرة، وضع لها شرحاً بقلمه، وأتمها سنة ١٨٥٤؛ و «الجمانة في شرح الخزانة» وهي شرح وافٍ لارجوزته الصرفية المطوّلة التي دعاها الخزانة، وكان انتهاؤه منها سنة ١٨٦٦؛ و «طوق الحمامة» وهي رسالة موجزة في النحو؛ و «الباب في اصول الاعراب» وهو ارجوزة قصيرة في النحو، شرحها هو بنفسه؛ و «نار القري في شرح جوف الفرا» وهي تحتوي على شرح مفصّل لارجوزة نحوية مطوّلة، وقد ختمها سنة ١٨٦١؛ و «الجوهر الفرد» وهو رسالة مختصرة في الصرف والنحو؛

و « فصل الخطاب في اصول لغة الاعراب » وهو مطول في الصرف والنحو، يعدّه المدرّسون من افضل ما كُتب في هذا الموضوع لإيجازه واستيعابه وصحة توجيهه ؛ و « عمود الصبح » وهو رسالة في التوجيهات النحوية ، بلغ فيها الى المفعول به، ولم يتسمها، وهي لا تزال مخطوطة .

٢ - في البيان وما اليه : « عقد الجُمان » في المعاني والبيان والبديع ؛ وقد أضيفت اليه « نقطة الدائرة » في العروض والقافية ؛ « واللامعة في شرح الجامعة » وهي شرح علّقه الشيخ حبيب ابن الشيخ ناصيف على أرجوزة لابيّه في العروض والقوافي ؛ و « الطراز المُعَلَّم » وهو أرجوزة قصيرة في البيان، شرحها بقلمه وضمتها مبادئ البيان الاساسية ؛ و « القطوف الدانية » وهي شرح مطول في البديع لا يزال مخطوطاً .

٣ - في اللغة : للشيخ ناصيف رسالة مسهبة بعث بها الى المستشرق دي ساسي، عن طلب من قنصل فرنسة في بيروت، وفيها استدراقات وملاحظات على طبعة مقامات الحريري لذلك المستشرق، وشروح وتحليلات في اللغة وفروعها، وقد نشرها المستشرق ميهرن « Mehren » مع ترجمتها اللاتينية في مدينة ليبسيك بالمانية ؛ وللشيخ ناصيف ايضاً « جمع الشتات في الاسماء والصفات »، وهو معجم في أعضاء الانسان، لا يزال مخطوطاً والصفات التي على وزن « أفعل » .

و « جمع البحرين » : وهو مجموعة مقامات بلغت الستين . وقد قال الشيخ اليازجي في مقدمة الكتاب انه اراد « أن يجمع فيها ما استطاع من الفوائد والقواعد، والغرائب والشوارد والامثال والحكم والقصص . . ؛ ونوادير التراكيب، ومحاسن الاساليب ، والاشماء التي لا يُعثر عليها إلا بعد جهد » . وفيها ايضاً الرموز والاحاجي، والحوادث التاريخية والتفاصيل الدقيقة عن عوائد العرب ومفاخراتهم وغزواتهم وماكلهم ومشاربهم وملابسهم ومعاملتهم للغريب والضيف .

وقد جرى الشيخ ناصيف في مقاماته مجرى الحريري، من حيث الاسلوب وتعمّد السجع وجمع الغريب والشارد . ويطوف بأبطال روايته في جوّ البادية ،

كانه وليد القفر، ليبرهن عن معرفته الدقيقة الوافية لما يعرفه أئمة العرب كلهم معاً؛ ولذلك ضعفت الصبغة المحلية في مقامات الشيخ ناصيف، فكانت رواياته غريبة عن بيئته؛ وضعف فيها الفن القصصي بسبب الحرص على الفوائد اللغوية والتاريخية وغيرها مما وُضعت المقامات لاجله .

وموجز القول ان مجمع البحرين مجموعة لغوية عجيبة، فيها من ضروب النظم وأفانين التركيب والقوالب التعبيرية والالفاظ الوضعية بحر واسع الاطراف يستطيع كل عالم لغة وادب ان يغترف منه، كما يستطيع كل انسان ان يستفيد من معلوماته الواسعة وأساليبه الممتعة .

٤ - في المنطق : « قطب الصناعة في اصول المنطق » وهو موجز نثري يتناول اصول المنطق وانواع القياسات وطرق التعليل؛ و « التذكرة في اصول المنطق » وهي ارجوزة في مبادئ المنطق .

٥ - في الطب : « الحجر الكريم في الطب القديم » وهو ارجوزة قصيرة فيها بعض النصائح والفوائد وذكر لطرق المعالجة الاختبارية .

وذكرت للشيخ ناصيف رواية تمثيلية عنوانها « هارون الرشيد » مُثِلت في المدرسة البطريركية ببيروت . واشتغل الشيخ، فضلاً عن ذلك، في تنقيح ترجمة الكتاب المقدس البروتستانتية، وترجمة لمواعظ القديس يوحنا الذهبي الفم، وتصحيح معجم « محيط المحيط »، وطائفة حجة من الكتب والمطبوعات . وله خطب القاها في جلسات الجمعية السورية وقد مرّ ذكرها، منها خطابه في علوم العرب، تناول فيه اليازجي معارفهم الاولى في العصر الجاهلي، بالغاً في البحث الى ما بعد الاسلام .

وله ايضاً « رسالة في تاريخ لبنان »، وقد اثبتها له بعض المؤرخين العلماء^١ . وهي تبحث في تاريخ لبنان وبعض سكانه من امراء ومشايخ، وبعض طوائفه من درزية ونصيرية، وذلك من حيث المواطن والاحوال والدين والاسرار وما الى ذلك، ثم

(١) من هؤلاء الاب قسطنطين باشا الخولي (المسرة ١٩٢٩ «١٥»، ص ٨٠ و ٨١) والاستاذ عيسى اسكندر المعلوف (المسرة ١٩٢٤ «١٠»، ص ٢٠٦، والغرر التاريخية، الجزء الاول، ص ١٨) .

تصف عوائد اللبنانيين في المعيشة واساليب المراسلة الى مختلف الطبقات وكل ذلك في اسلوب واضح، متقن، بعيد عن الاغراب .

٧ - في الشعر : للشيخ ناصيف اليازجي مقطوعات زجلية قالها في صباه، وفيها من سهولة النظم، وحسن موقع القافية، والاساليب البيانية الظريفة المستحبة وجمال الصورة ورقة العاطفة، ما ينم عن شاعرية طبيعية غنية، لو أطلق لها العنان ودُرِّبَت على الفن الصحيح دون تقييد واذلال لاسلوب متداول، لأحلت صاحبها منزلاً رفيعاً في عالم الشعر والادب؛ وله «مجموعة من منظوماته في اول عهده»، لا تزال مخطوطة تحتوي على «المحسسات»، وهي ٢٩ قصيدة مدحية في الامير ملحم الشهابي، و«المحبوكات الشهابية»، وهي ٢٩ قصيدة مدحية في الامير بشير، كل قصيدة منها ٢٩ بيتاً .

وله ايضاً ديوان شعر مصحح بقلم ولده الشيخ ابراهيم، وهو يقع في ثلاث نبدات .

٣ الشيخ ناصيف اليازجي العالم : ان نظرة - ولو سريعة - على آثار الشيخ اليازجي، تنبئ عما وصل اليه ذلك الرجل من سعة المعرفة العلمية، واساليب التحري الدقيق، فقد وعى في صدره كل ما وصل اليه العقل العربي من ثقافة، ومحص تلك الثقافة، ونخلها تنخيلاً، ثم قدّمها لمن أتى في عهده وبعد عهده قريبة المتناول، بعيدة عن التعقيد والعموض والتشويش؛ تنطق بلسان ناصع الأداء، وجيز العبارة، بعيد عن التطويل الممل، يحسن الاختيار، ويحكم في ما يختار ذوقاً قلماً يُخطئ، ونظراً قلماً يزل .

١ - موضوعات علمه : طمع اليازجي في ان يكون أنسيكلوبيدياً، جامعاً

(١) لقد اورد الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف زجلية طويلة له في «الغرر التاريخية» الجزء الاول

لكل ما عرفه العرب، في ان يكون في القرن التاسع عشر ما كان الجاحظ في القرن التاسع . وكان له من انشغاله بالتدريس ما وجهه في تأليفه توجيهاً مدرسياً حصر همه ضمن نطاق المدرسة . ولهذا دارت ابحاثه حول النحو واللغة والبيان والعروض والمنطق وما الى ذلك مما كان يدور عليه التدريس لذلك العهد .

٢ - طريقته العلمية : تقوم طريقة اليازجي العلمية بحسن التفهم، وحسن الاختيار، ولما كانت الغاية مدرسية اتصفت طريقة الشيخ بميزات الاسلوب المدرسي من بلاغة ودقة، ووضوح ومنطق .

اما التفهم فقد بلغ فيه اليازجي مبلغاً بعيداً حتى انه تغفل في اسرار اللغة وعلومها، كما تغفل في فوضى المؤلفات اللغوية والنحوية والبيانية وغيرها، وتقلب في المطولات والمجلدات القديمة كلها، ومدّ نظره الثاقب الى مختلف الآراء والمجاري العلمية، وخرج من كل ذلك بالجوهر الجوهر، والخالص الخالص من كل علم وكل فن، مستعيناً بذلك متوقداً، وذاكراً نادرة، وذوق ليس عليه غبار؛ واذا بالمسالك المتشعبة والمفاوز التي اندثرت معالمها تصبح مناهج قويمه، لا يخيم عليها ظلام ولا يعترضها غموض او اضطراب .

وهكذا كان عقل اليازجي شامل المعرفة، شامل التفهم، وهكذا استطاع ان يختار، واذا اختياريه للآراء يمتاز بالدقة والافضلية مما عاشي البلاغة والذوق، ويقنع العقل، ويريح الأذن والقلب . وان من طالع كتاب « نار القرى في شرح جوف الفرا » في النحو، رجع معجباً اشد الإعجاب بسداد رأي الشيخ، وصدق اشارته، مع ما يعترضه هنالك من اضطراب في الاقوال والشواهد، وتباين في الروايات . قال الشيخ في باب المبتدأ والخبر : « ان المبتدأ قد اقتضى الخبر لانه يطلبه طلباً لازماً من حيث انه محكوم به عليه كما رأيت فاقتضى ان يعمل فيه لان اصل العمل للطلب . فيكون عامل المبتدأ معنوياً وهو التجرد، وعامل الخبر لفظياً وهو المبتدأ . وقيل ان التجرد عامل فيهما جميعاً لانه اقتضى كليهما فعمل فيهما معاً، فيكون عامل الفريقين معنوياً . وقيل غير ذلك حتى انتهى الخلاف الى سبعة

أقوال وهذان اقواهما . والاول منهما أشهر بين النُّحاة غير انه مُنتقدٌ بان المبتدأ لو كان عاملاً في الخبر لامتنع تقديم الخبر على الجامد منه ولم يَجْزِ الفصل بينهما كما هو شأن العوامل الجامدة، بخلاف الثاني فانه اسلم ولذلك كان اوجه عند المحققين^١ .

واليازجي في اسلوبه رصين شديد الرصانة، ودقيق الى اقصى حدود الدقة، وواضح شديد الوضوح، يسير بهدوء العلم الصحيح المطمئن الى المعرفة التي لا تخون، ويجعل المنطق مركباً للحجة القوية التي تستند الى عمق التفهم وحسن التمييز، مما يحول كلامه قدرة على الاقناع عجيبة، ومما يجعل كتبه مباءة للعلماء يستعوضون بها عن المطولات .

ويمتاز اسلوب اليازجي المدرسي ايضاً بالايجاز والاجمال ؛ وايجازه بعيد عن الغموض كل البعد، واجماله شامل على قلة الفاظه، وذلك لما عند المؤلف من تعمق بالمادة ومقدرة على التعبير ؛ قال في باب التصغير من كتابه « فصل الخطاب » : « التصغير ان يُزاد بعد ثاني الاسم ياء ساكنة للدلالة على التقليل . وحكمه ان يُضم فيه اولُ الاسم ويُفتح ثانيه مُطلقاً . واما ما بعد الياء فان كان طرفاً او متصلاً بعلامة التانيث او ألف الجمع او الالف والنون الزائدتين في علم او صفة لم يتغير عن حكمه كعُبيد ومهيرة وسليمي وسويداء وأصيحاب وسليمان وسكيران، وإلا كُسر بالاجمال^٢ » .

وهكذا استطاع اليازجي باطلاعه وتحرّيه واسلوبه ان يكون من شيوخ اللغة واثمتها المجلّين، وهكذا كان علماً من اعلامها ومصدراً من اوثق مصادرها، ورائداً من رواد التأليف المدرسي الرصين .

٤ السبع ماصيف اليازجي الشاعر : نظم اليازجي الشعر منذ صباه وقد اجتمع له ديوان حوى من فنون الشعر ما حواه

(١) نار القرى في شرح جوف الفرا - طبعة بيروت (١٨٨٩) - ص ٦٣

(٢) فصل الخطاب - ص ١٠٩

ديوان غيره من اصحاب شعر المناسبات في العصور القديمة . الا ان المطبوع من ذلك الديوان يخلو من قسم كبير من شعر الصبا اراد الشيخ ان يسقطه لما وجد فيه من ضعف، ولما حملته عليه رصانته من تأبٍ لشعر ينضح بهوى الشباب وغرام الفتوة .

وللشيخ ناصيف، فضلاً عن الديوان، أراجيز مختلفة في علوم العرب اتينا على ذكرها ونضرب الآن عنها صفحاً لبعدها عن الروح الشعري ولانها لم تُنظم لغاية فنية بل لغاية تعليمية .

وللشيخ ناصيف شعر مبثوث في « مجمع البحرين » منه الرائع الذي يسير على الالسنه، ومنه ما ينتظم في سلك الالاعيب اللغوية والبيانية ويخرج عن نطاق الفن الشعري .

اما اغراض شعر اليازجي في ديوانه فرجعها الى الغزل، والمدح والثناء، والحكمة .

١ - الشيخ ناصيف شاعر الغزل : غزل الشيخ ناصيف على نوعين : غزل صريح نظم للتغني بصفات المحبوب، وغزل تقليدي نظم في افتتاح القصائد المدحية وغيرها فكان وسيلة لا غاية ومقدمة تمهيدية لا موضوعاً يقف عنده الشاعر ويستوعب ما فيه من معاني .

اما النوع الاول ففي الديوان (النبتة الاولى) منه قصيدتان أثبتتا في المقدمة كنموذجين من شعر الصبا . وفي هذا الغزل رقة ونعومة، وفيه سذاجة، وفيه تدين وعفاف، وفيه اوصاف تقليدية . قال من قصيدة :

مِنْ غُمْجِجٍ عَيْنَيْكَ أَمْ مِنْ لُطْفٍ مَعْنَاكَ أَيْدِي الْهَوَى أَوْقَعَتْ قَلْبِي بِأَشْرَاكَ
يَا ظَنِيَّةً فِي الشَّقَا تَرْعَى الْخِزَامَ بِو لَمْ تَعْلَمِي أَنَّ عَيْنَ الصَّبِّ تَرْعَاكَ
رُوحِي فِدَاكَ، لَقَدْ أَضْنَى هَوَاكَ فَتَى مَا كَانَ يَدْرِي الْهَوَى وَاللَّهُ لَوْلَاكَ
وَرَدُّ نَجْدَيْكَ أَمْ هَذَا خِضَابُ دَمِي فَقَدْ أَرَاكَ دَمِي بِالسَّخْرِ عَيْنَاكَ . . .

وقال في قصيدته الثانية :

أَلْوَى عَلَيَّ فَضَمَّنِي وَضَمَّنْتُهُ وَصُدُّورُنَا بِصُدُورِنَا لَمْ نَعْلَمْ
أَهْوَى عَلَيْهِ وَفِيَّ عَفَّةُ يُوسُفَ حَتَّى يَمِيلَ وَفِيهِ عَفَّةُ مَرْيَمَ
فَيَرْوَحُ بَيْنَ صَبَابَتِي وَحَنِينِهِ وَأَرْوَحُ بَيْنَ حَدِيثِهِ وَتَبَسُّمِي ...

ويلحق بهذا النوع الاول من غزل الشيخ ناصيف ما نظمه من زجل . وهذا الشعر العامي من ارق شعر الشيخ واعذبه واصفاه صورة ومعنى، قال من موشح :

اسمك حسن وانت الحسن يا سيد والكل من شانك خدام وعبيد
سلمت لك الروح ايد بايد
قال اكتب الصفه ... بادرت بالحقه ... نكتب على الشفه
وانا محسب شفقتك ورقه

...

وانا محسب خدك المنتور قمت اقطفو بغيبة الناطور
ضحك وقال لي آه يا مغرور
قطف الحدود ما تم ... غير للنظر والشم ... هذا خضاب الدم
وان كنت مشبوه انشقو نشقه!

اما النوع الثاني من غزل ناصيف اليازجي فهو تقليدي تفتتح به قصائد المدح والرسائل الشعرية التي كان يبعث بها الشيخ الى الادباء من اصحابه . وهو بمجمله لين، يتسم بسمة الطرافة والعدوبة، وان كانت معانيه واوصافه بما عهدناه عند الاقدمين . قال في مطلع قصيدة مدح بها نائب ابراهيم باشا :

أَخَافُ إِذَا أَشَارَ بِرَاحَتَيْنِي لِعِلْمِي أَنَّ رُوحِي فِي يَدَيْهِ
وَيَخْفِقُ عِنْدَ نَظَرَتِهِ فُؤَادِي لِأَنَّ سَوَادَهُ مِنْ مَقْلَتَيْنِي ...
أُرِيدُ سُلُوءَهُ مِنْ كُلِّ قَلْبِي وَقَلْبِي لَا يُطَاوِعُنِي عَلَيْهِ .

٢ - الشيخ ناصيف اليازجي شاعر المدح : كان للمدح سوق رائجة في عهد الشيخ اليازجي، وكان الشعراء يتوقعون الاحداث ويترقبون ما يأتي به كبار الرجال، ليقولوا شعراً مُطرئاً الاقوال والاعمال، ويصيحوا بيق المدح والثناء على عادة شعراء بني العباس .

مدح شاعرنا الامير بشيراً الشهابي الكبير حين كان شاعره في قصره، ولما انتقل الى بيروت اخذ يوزع من بضاعته المدحية على النابهين من ابناء عصره، واذا الباشا والوالي والبطريك والقائمقام والشاعر والاديب والوجيه ينالون من سيبه ما ينالون، واذا مدح الشيخ تقليدي بمجمله، يسعى وراء مدائح المتنبي مع انطباق اوفر على شخصية كل ممدوح وميزات كل انسان، ويصفو صفاء شعر البحري وسهولته ولينه مع اخلاص وصدق اوفر من اخلاص البحري وصدقته، ولكن ما عند اليازجي من حب شديد للتقليد، وميل الى الصناعة الشعرية، وتذوق للتاريخ الشعري - بضاعة تلك الايام الرائجة - كل ذلك حدث من مجال تفكيره وخياله وانطلاقه، فهو في اكثر الاحيان سائر على خطى غيره، لا يطمع الا في مجارة هذا او ذاك، او في معارضة هذه القصيدة او تلك، يحفره في تقليده مدائح المادحين واطراء المطرئين .

والشيخ اليازجي من اقدر من عاجلوا التاريخ الشعري سواء كان ذلك في المدح او غيره، قال مارون عبود : « كان التاريخ الشعري من معجزات دهر الشيخ، رائج السوق في ذلك الزمان، فلات تواريخ شيخنا المقابر والقصور، واغبط بها الازواج والمواليد . حبا بها الباشوات بالملئات والآلاف في القصيدة الواحدة، فهي تتوالد فيها وتتكاثر « كالأبيب » التي يسميها العوام « جبل القر » . فالشيخ في هذه التواريخ امام الائمة، وواحد الدهر حقاً » .

قال الشيخ ناصيف مؤرخاً جلوس السلطان عبد العزيز بييتين يتضمنان ثمانية وعشرين تاريخاً :

عَبْدُ الْعَزِيزِ رَوَى جَاهَاً مُوَرَّخُهُ يُهْدِي حِسَابَ جَمِيلِ الْبَشَرِ لِلْبَشَرِ
فَرَعَا لِعُثْمَانَ مُلْكُ الْآلِ عَزَّ بِهِ لَا زَالَ بِالْخَيْرِ يُهْدِي كَامِلَ الْوَطَرِ

٣ - الشيخ ناصيف اليازجي شاعر الوثاء : لقد تفوق اليازجي على شعراء عصره بالوثاء، كما تفوق رثاؤه على أكثر شعره الباقي؛ والوثاء عند اليازجي انه يرسلها من اعماق نفس لا تخلو من تشاؤم، ونصيحة مخلصة يُسديها، وكشف عن حقيقة الحياة، وتسيير الحكمة في سبيل التعزية، ودعوة الى الاعتبار بالراجلين من كل طبقة وكل سن :

مَا زَالَ كُلُّ أَهْنٍ أَتَى مِنْذُ فَطَرْتِهِ فَرِيَسَةً بَيْنَ أَيْدِي الْمَوْتِ تَرْتَعِدُ
لِلْمَوْتِ كُلُّ أَبٍ فَوْقَ الثَّرَابِ مَشَى وَكُلُّ أُمٍّ وَمَا رَبَّتْ وَمَا تَلِدُ

...

لِلْمَوْتِ يُولَدُ مِنَّا كُلُّ مَوْلُودٍ يَا أَهْجَا الْأُمُّ رَبِّي الطِّفْلَ لِلدُّودِ

يفتح الشيخ ناصيف رثائياته بأبيات حكمية في زوال الدنيا وسطوة الموت الذي لا فرق عنده بين شيخ وفتى، وعالم وجاهل، وكبير وصغير، ثم يتخلص بأنة التأوه والحسرة الى ذكر المرثي وتعداد مناقبه وأفضاله، ومنه الى تعزية ذويه، ثم يختم قصيدته بأبيات حكمية او اعتبارات سامية، يستسلم فيها لمشئة الله .

ان رثاء الشيخ لاصدقائه وانسبائه ومن تربطه به أواصر المودة والصدقة، بليغ، فيه من اللوعة والبكاء وتعداد المناقب تعداداً ملحاً، ما ينبىء عن حرقه في الفؤاد، وعاطفة مجروحة، تأتي بالحكميات لتخفيف المصاب ومساعدة النفس على احتمال صروف الزمان .

(١) ان كل مصراع من هذين البيتين برمته تاريخ؛ والحروف المعجمة من كل مصراعين من مصاربعهما الاربعة تاريخ؛ ومثلها الحروف المهملة . فيجتمع من ذلك ستة عشر تاريخاً . وكذلك المعجمة مع المهملة، والمهملة مع المعجمة، فيجتمع اثنا عشر . ويكون المجموع ثمانية وعشرون كما يظهر بالامتحان .

قال من قصيدة يرثي بها صديقه المعلم مارون النقاش المتوفى في ترسليس سنة

: ١٨٥٥

ماتَ الحَبيبُ الَّذي ماتَ الشُّرورُ بِهِ مِنْ أَلْقُلُوبٍ وَعَاشَ أَلْحَزَنُ وَالضَّرَمُ
مِنْ بَعْدِهِ صَارَ صَوْتُ النُّوحِ يُطْرِبُنَا وَجَدًا وَتُرْعِجُنَا الْأَوْتَارُ وَالنَّغَمُ
مَضَى وَفِي كُلِّ قَلْبٍ بَعْدَهُ كَمَدٌ يَبْقَى وَفِي كُلِّ جَسَمٍ بَعْدَهُ سَقَمٌ
كَأَنَّهُ مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ مُفْتَطَعٌ فَكُلُّ قَلْبٍ بِهِ مِنْ فَقْدِهِ أَلَمٌ ...
قَدْ كُنْتُ أَشْكُو بَعَادَ الدَّارِ مِنْ قِدَمِ فَجَبَّذَا الْيَوْمَ ذَاكَ الْبُعْدُ وَالْقِدَمُ ...
مَا أَنْصَفْتِكَ جُفُوفِي وَهِيَ بِأَكْبَى دَمْعًا فَمِثْلُكَ مَنْ يُنْكِي عَلَيْهِ دَمٌ ...
حَقٌّ عَلَيْنَا رِثَاءُ فَيْكِ نُنْشِدُهُ لَكِنْ أَحَبُّ إِلَيَّ أَسْمَاعِنَا الصَّمَمُ
أَكَادُ مِنْ فَرَطٍ لَهْفِي حِينَ أَكْتُبُهُ أَمْحُو الْمِدَادَ بِدَمْعِي وَهُوَ يَنْسَجِمُ

اما رثاؤه لغير اهله واصدقائه، فاقول تفجعاً تطول فيه الابيات الحكمية في وصف زوال الدنيا، وضرورة المسلك المتزن وتحكيم العقل . وفيه ذكر رصين لحامد الفقيد، وتعزية للاهل، ولكنها تعزية لا تنال من نفس القراء والسامعين فكيف من نفس المنكوبين .

ولئن فترت عاطفة الشيخ احياناً فان شعره لا يخلو ابداً من تلك الموسيقى اللفظية اللينة، التي يهزُّ النفس جرُّها الناعم، وتنسي بعض الاسى غُثَّها الرتيبة .

٤ - الشيخ ناصيف اليازجي شاعر الحكمة : للشيخ ناصيف ارجوزة حكمية

مشهورة مطلعها :

إِنِّي لَقَدْ جَرَّبْتُ أَخْلَاقَ الْوَرَى حَقٌّ عَرَفْتُ مَا بَدَا وَمَا اخْتَفَى

الا ان معظم حكمياته في مطالع مدائح او مراثيه .

والشيخ ناصيف يعمد في حكمياته الى الاقوال المأثورة وما يجري على ألسنة الناس من الامثال والاعتبارات، وما يعرض له من الخواطر في اختباره للعالم

و « تجريبه لاخلق الوري »، فيرسل كل ذلك في ابيات خفيفة، سهلة، تترقق في انسجام محكم . والحكميات هي من اشهر شعر الشيخ ناصيف واكثره سيراً على السنة الناس . قال مارون عبود : « يتوسل [الشيخ ناصيف] الى رثائه بوصف زوال الدنيا والحكمة التي نجبها نحن، فيخرجها اخراجاً بطيئاً، كأنه مشي الشيوخ الاجلاء؛ انه لا يقذفها قنابل كالتى يرمي بها المتنبي الناس . فهو يقول مثلاً :

لِلْمَوْتِ يُولَدُ مِنَّا كُلُّ مَوْلُودٍ يَا أَبَّجَا الْأُمِّ رَبِّي الطِّفْلَ لِلدُّودِ

ويقول، ونعم القول :

مَتَى تَرَ الْكَلْبَ فِي أَيَّامِ دَوْلَتِهِ فَأَجْعَلْ لِرَجْلَيْكَ أَطَافًا مِنَ الزَّرْدِ
لَا تَرْتَجِحِ الْخَيْرَ مِنْ ذِي نِعْمَةٍ حَدَثَتْ فَهُوَ الْخَرِصُ عَلَى أَثْوَابِ الْجُدْرِ

الا ترى مثلي انه شعر طلي غير انه محتاج الى شيء لا ادري ما أسميه، ليذهب الى مدى ابعد في النفس، كأني احس بتكسره على ابواب الحواس فيقف عندها . لست تهابه كما تهاب شعر المتنبي وغيره ممن ارسلوا الشعر حكمة، فهو وشوقي ينظمان الحكمة نظماً، والفكرة ان لم تنبثق من اعماق نفس صاحبها فلا تبلغ الاعماق^١ .

٥ منزلة البيخ ناصيف الباربي : قال مارون عبود : « كان شيخنا، رحمه الله،

يستوحى الكتب القديمة لا يستلهم غيرها، فهو في كل ما نظم وما كتب زعيم المقلدين في عصره، لا ينازعه هذه الزعامة احد . فكأنني به ذات مجردة عن المكان والزمان فما علق شعره بشيء منهما . فمن لا يعرف انه نشأ في كفرشيا وشب، واكتهل في بتدين، وشاخ في بيروت، خاله من مواليد نجد واليمن . وحسبك برهاناً على هذا الزعم انه كتب في « مجمع البحرين » مقامة سمّاها « المقامة اللبنانية » وليس فيها شيء من « ريحة » لبنان .

ولا عجب في ذلك فقد كان الشيخ محدود الآفاق في ثقافته التي انحصرت ضمن حدود العربية وآدابها، وكان محدود الآفاق في بيئته لا يعرف من البلدان سوى بعض النواحي اللبنانية التي انسلخ عنها ليعيش في بيئة وهمية نسجها من تقاليد الشعراء والكتّاب العرب الاقدمين؛ زد على ذلك انه نشأ في عصر كان كل تطلّعه موجّهاً الى الادب العربي القديم لا يحلّ الادباء سواه ولا يستملحون الا ما نحا نحوه وتقلّده؛ وأنّ العصر كان عصر تفتّح ونهوض من كبروة الانحطاط، وان هذا النهوض لا يتم الا باحتذاء ارباب الاقلام من عهود الازدهار. هذا وفي نفس الشيخ غرض يرمي اليه وهو إبطال زعم القائلين بان «العربية لا تنصّر»، فكان همه الاكبر إظهار علمه اللغوي وتضلعه من علوم العرب كلها، ومجازاة ارباب الكتابة والشعر في ازهى عصور الكتابة والشعر. كل ذلك جعل اليازجي مقلداً بل زعيم المقلدين في القرن التاسع عشر، وقد جنى ذلك التقليد على وحي الشاعر الفني، وحال في خياله دون الالتفاتة العليا وتفتّح الجناح الطليق؛ ولكنه لم يحل دون بروز شخصيته العلمية التي تعمل النظر في كل شي. وتختار من كل شي. اصلحه.

الا ان الامر الذي نأخذه اليوم على اليازجي كان سبباً لشهرته وتقدير العلماء والادباء له في ذلك العهد، وهو يضيع في ما لشاعرنا من افضال على النهضة الحديثة في لبنان والعالم العربي اجمع. فقد كان اليازجي من اهم من عمل على رفع مستوى الكتابة والانشاء ونقلها من غثاة الانحطاط، وركاكة التركيب، وتعقيد الاساليب، الى المتانة التعبيرية المقترنة بالسهولة والانسجام والصفاء الشفاف.

ثم ان اليازجي كان في عهده اكبر العاملين على تهذيب اللغة وقد اصبحت معه طيعة تنقاد لكل معنى، ولينة تتكيف مع كل قصد. ووقر للكتّاب من تلك اللغة مورداً صافياً جعله في مؤلفاته المختلفة ولاسيما «مجمع البحرين».

زد على ذلك انه عمل على تقريب متناول العلوم بانواعها بما وضعه من الكتب المدرسية المتعددة، وكفى الطلاب مؤونة الرجوع الى الكتب القديمة المتشعبة الموضوعات، والمخطوطات التي عبثت بها ايدي النساخ تصحيفاً وتحريفاً. وقد اعترف

طلّاب العاصمة اللبنانية بذلك الفضل يوم جنازة الشيخ اذ خرجوا لتشييع جثمانه وكلّ منهم حامل نسخة من كتبه .

وكان الشيخ اليازجي اخيراً من اساتذة بيروت بل الاستاذ الاكبر الذي تخرّج على يده عدد كبير من ارباب الاقلام، والذي ساعد الكتّاب والأدباء، بتصحيحه وإرشاده، على السّير القويم في سُبُل البلاغة العالية والانشاء الرفيع . وهكذا كان الشيخ اليازجي شعلة خير نبّهت الضمير اللبناني الى ما فيه من مقدرة التخطي الى أبعد .

بعض المراجع

عيسى اسكندر المعلوف : الفرر التاريخية في الأسرة اليازجية - الجزء الاول . دير المخلص : ١٩٤٥ - ص ٦ - ٤٥ .

جرجي زيدان : مشاهير الشرق، الجزء الثاني، القاهرة ١٩٢٢ - ص ١٣ - ٢١

✓ مؤاد افرام البستاني : الشيخ ناصيف اليازجي - الروائع ٢١ - بيروت ١٩٢٩

✓ الاب نقولا ابو هنا : الشيخ ناصيف اليازجي - المسرة ١٥ - (١٩٢٩)

مقدمة النبذة الاولى من ديوان الشيخ ناصيف

المكشوف : العددان ٤٢٦ و ٤٢٧ من السنة ١٩٤٦

موضوعات للبحث

١ - اراد الشيخ ناصيف اليازجي ان يكون عالماً من علماء العربيّة وركناً من اركانها . فهل بلغ ما اراد ؟

٢ - لقد كان للشيخ ناصيف اليازجي فضل كبير على النهضة الحديثة . فمِمَّ يقوم فضله ؟

٣ - كان الشيخ ناصيف في شعره مقلّداً . كيف يتجلّى لك تقليده في مدحه ؟

مشاهير الادباء — الشعر

الفصل الثاني

محمود سامي البارودي — حُفني ناصف

اسماعيل صبري — حافظ ابراهيم

١ — محمود سامي البارودي

١ حياته : ولد البارودي في القاهرة ثم التحق بالمدارس الحربية فخرج منها ضابطاً. وكان مولعاً بالادب فنظم الشعر . واتصل بالخدوي اسماعيل فاسلكه في الجيش . واستحققت له خدماته الوطنية ان يرقى في المناصب العسكرية والادارية . وقد اشترك في الثورة العرابية ونفي الى سرنديب . وكان في تلك الاثناء كلها ينظم الشعر ويبدع فيه خوالج صدره .

٢ ثقافته : كانت ثقافة البارودي ثمرة مطالعته لدواوين الشعراء وحفظه لأخبار العرب واطلاعه على بعض الثقافات الاجنبية كالتركية والفارسية والانكليزية .

٣ آثاره : له ديوان شعر ، و « مختارات البارودي » .

٤ البارودي شاعر التقليد : تخرى البارودي مجارة الاقدمين في اساليبهم ومعانيهم ، ولكن محاكاته لهم مطبوعة .

٥ البارودي شاعر التجديد : في شعر البارودي قسم تنجلى فيه شخصيته وشخصية عصره ، وشخصية الطبيعة التي عاش فيها .

٦ البارودي شاعر النهضة : البارودي من اكبر العاملين على احياء الشعر وتجديده .

ب — حُفني ناصف

وُلد في ضواحي القاهرة وتلقن العلوم في الازهر ثم في مدرسة دار العلوم . ثم عُين مدرساً في المدارس الاميرية وفي مدرسة الحقوق . ثم وُلي منصب القضاء الاهلي ، فوكالة محكمة طنطا ، فرتبة مفتش اول للغة العربية في وزارة المعارف .

وقد ترك عدّة كتب مدرسية ولغوية، وديوان شعر . وفضله على النهضة قائم على تعليمه وآثاره النثرية أكثر مما هو قائم على شعره .

ج — اسماعيل صبري

وُلد في مصر، وقد رحل مع إحدى البعثات الى فرنسا فنال اجازة الحقوق . ولما عاد الى مصر تنقل في مناصب القضاء والادارة . وهو شاعر مُقِلّ، وشعره رقيق ناعم يحفل بالموسيقى . واسماعيل صبري هو شاعر الذوق وليس بشاعر القوة .

د — حافظ ابراهيم

وُلد حافظ بدويوط وتخرج في مدارس القاهرة الابتدائية والثانوية . ثم دخل المدرسة الحربية وترقى الى درجة ضابط، وأُرسل الى السودان مع الحملة المصرية . ولما عاد الى القاهرة اتصل بمحمد عبده . ثم عُين رئيساً للقسم الادبي في دار الكتب المصرية . من اشهر آثاره ديوان شعر .

وقد كان حافظ شاعر العاطفة، وشاعر الاجتماع، وشاعر الموسيقى .

محمود سامي البارودي (١٨٣٨ - ١٩٠٤ م / ١٢٥٥ - ١٣٢٢ هـ)

١ حياته : وُلد محمود سامي البارودي في القاهرة من ابر ينتهي نسبه الى المماليك الجراكسة البرجية . وقد تيمم الصبي وهو في السابعة من عمره، فعني بعض اهله بتعليمه؛ والتحق بالمدارس الحربية فخرج منها ضابطاً متقناً للفنون الحربية، ومولعاً مع ذلك بالادب والمطالعة . فقرأ دواوين الشعراء، وخالط من عاصره من الادباء، فقويت شاعريته، وتقوم لسانه على الفصاحة، فنظم الشعر وهو في نحو العشرين من عمره .

ثم راح يضرب في الافاق فرحل الى الآستانة واتقن فيها التركية والفارسية، واتصل بالخدوي اسماعيل فعاد به الى مصر واسلكه في الجيش . ثم سافر الى فرنسا وانكسرتة للاطلاع على النظم العسكرية؛ واشترك في الحروب العثمانية التي دارت بين بني عثمان ورجال البلقان .

وقد استحققت له خدماته الوطنية ان يُرتقى في المناصب العسكرية والادارية حتى بلغ نظارة الاوقاف والجهادية، بل رئاسة النظارة بعد سقوط شريف باشا .
ولما سبت الثورة العربية كان من جملة من خاضوا غمارها، وقد نُفي مع الثائرين الى جزيرة سرنديب Ceylan فسلخ في منفاه سبعة عشر عاماً دأب في اثرائها على تعلم الانكليزية ومراسلة الادباء . وكان يبت خواطره واشجانه وذكرياته في شعر جميل كان لنفسه عزاء ولعصره هادياً الى نهوض حميد في دولة القريض .

ثم عاد الى مصر برضى الخديوي عباس الثاني، وعكف فيها مدة خمس سنين على النظم والجمع والمطالعة الى ان توفي سنة ١٩٠٤ .

كان البارودي في صباه عالي الهمة، واسع الامل، عزوفاً عن اللهو والعبث ، الا ان الشباب والجاه والمال اغرته بحياة الترف والمجانة . وقد ظل كل حياته ودود القلب، مخلصاً في صداقته، متمسكاً بصراحته وشجاعته .

٢ ثقافته : ترجع ثقافة البارودي في معظمها الى مطالعة الدواوين الشعرية لمشاهير الشعراء، وتذوقها تذوق المفتون بجمالها المقدّر لغنها . وقد وعى الكثير من روائعها وتراكيبها والفاظها . ولم يُعن بكتب اللغة، ولا تلقن قواعد الاعراب، بل تصوّرت له، لما اكثر من القراءة والاستماع، هيئات التراكيب العربية، ومواضع المرفوعات والمنصوبات والمخفوضات، فصار يقرأ ويُنشد ولا يكاد يلحن .
وزاد على محفوظه الشعري قدراً كبيراً من اخبار العرب وأحاديثهم ، وأطلع على بعض الثقافات الاجنبية كالتركية والفارسية والانكليزية مما وسّع خياله وارهف ذوقه . وكان له من احوال العصر واحداث حياته واسفاره ونفيه دروس كانت من عوامل العنصر الشخصي في شعره .

٣ آثاره : للبارودي ديوان في جزئين ، يتضمن موضوعات تقليدية من مدح ونسب وفخر وحماسة ، وبعض الموضوعات المستحدثة في

السياسيات والافصاف والهجاء الاجتماعي . وله اربع مجموعات شعرية تعرف «بمختارات البارودي» جمع فيها مقتطفات من الشعر العباسي .

٤ البارودي شاعر التقليد : لم يكن للبارودي بدء من معارضة الشعر الذي استقامت عليه شاعريته ، وتلت من روعته حافظته وخياله . والواقع ان البارودي نظم في اغراض الشعر القديم ، وتحوى مجارة الاقدمين في اساليبهم ومعانيهم ، فوقف على الاطلال ، وذكر نجداً ورباهما وحيوانها ، والدمن والغيت والبرق ، وشبه المرأة بالمهاة والظبي ، وترسم عادات تعبيرهم ، وادوات بديعهم ؛ بيد انه ، اذا قلد الاقدمين ، فعن مقدرة شعرية ، ولغاية مفيدة . فجاء تقليده انفع ما في شعره للادب الحديث «لانه رد الى المعاصرين يقين القدرة على الاحتذاء بالشعراء العباسيين والمخضرمين والجاهليين ، في ميدان اللغة والاساليب» ، وكانوا في حاجة الى هذه الثقة بانفسهم ولغتهم ، بعد ركدة العصور الترككية ، وليس اوعى من هذه الثقة ، فيما بعد ، الى الاستقلال ، والافلات من قيود التقليد . والحق ان البارودي قد ارتقت به همته الى مجارة كبار الشعراء القدماء ، ومحاكاة جزالتهم ونصاعة لغتهم ، «محاكاة مطبوعة ليس فيها من التقليد سوى الرغبة . وكأنما البارودي هنا ، ممثل قدير ، لبس دور الشاعر البدوي ، فوفاه لغة وشعوراً ، وزياً وحركة ، خلقه خلقاً جديداً ، وجعل له تمثالاً من نفسه وحياته .»

٥ البارودي شاعر التجديد : لم يكن تقليد البارودي سوى وسيلة الى خدمة الادب ، ومجارة العصر الناهض . ولذلك فقد كان في طبيعة الذين ادركوا أن للادب وللعصر حقاً على شعرهم ، وأن الاعتماد على الاقدمين لا يفرض عليهم التقيد بهم كل التقيد . فإذا صرفنا النظر عن الموضوعات التي قضى بها حكم المجازاة ، نجد في ديوانه كثيراً من الاغراض المستحدثة ، والاساليب المبتكرة ، مما يدل على البارودي ، في شخصيته ، وشخصية عصره ، وشخصية الطبيعة التي عاش فيها .

١ - النضوح الشخصي : شعر البارودي مفعمٌ بنضوح شخصيته المتعددة النواحي، في تزعتها الشريفة الى الحياة العسكرية، وما تقتضيه من حرمان وزهد، وبذل وإقدام، وتزعتها المريضة الى حياة الترف والرخاء والمرح والغرام، ايام السلم والقيود . فتارةً نسمع الجندي الشاعر، المعرّم بقسوة حياته، وصليل سلاحه، ودوي معاركه، ينشد الشعر ويقول :

وَأَصْبَحْتُ فِي أَرْضٍ يُجَارِهَا الْقَطَا وَتَرَهَّبُهَا الْجَنَانُ وَهِيَ سَوَارِحُ^١
تَصْبِحُ بِهَا الْأَصْدَاءُ فِي غَسَقِ الدُّجَى صَبَاحَ الشُّكَاكِ هَمَّجَتِهَا النَّوَاحِ
مَدَافِعُنَا نُصَبَ الْعِدَى، وَمُسَانِنَا قِيَامٌ، تَلِيهَا الصَّافِنَاتُ الْقَوَارِحُ^٢

وتارةً نسمع الشاعر الذي ينشد الراحة، في نشوة الخمر والروض ويقول :

أَدْرِ الْكَأْسَ يَا نَدِيمُ وَهَاتِ وَأَسْقِنِيهَا عَلَى جَبِينِ الْفَدَا
شَاقَ سَمْعِي الْغِنَاءَ فِي رَوْنَقِ الْفَجْرِ وَسَجَّعَ الطُّيُورِ فِي الْعَذَابِ^٣

٢ - النضوح العصري : لا يخفى أن للشاعر القدير على تصوير نفسه، قدرة ايضاً على تصوير العصر الذي يعيش فيه . ولئن تمثّلت في رثائه ومديحه بعض الاحداث العرضية، فقد تمثّلت في أوصافه حركة النهضة الآلية، وفي اجتماعياته، حركة النهضة القومية المرتكزة على الحروب والثورات، وترميم الاخلاق . فتنوع شعره بوصف الكهرباء، والقاطرات، والسجون، والآثار المصرية، ووصف المشاهد الحربية . فكان ذلك فتحاً جديداً في الادب، يستمدُّ قيمته من الملاحظة الشخصية، واللون المستحدث، والتشابه المنترعة من قلب الحقيقة . وصوّر البارودي في حماسياته وتحريضاته آمال الأمة وتعطشها الى الحرية، ومحبتها للعدالة وللشورى والمساواة،

(١) الجنان ج جان، وهو اسم جمع للجن (٢) الصافينات : الخيل . القوارح ج قارح وهو من الخيل وكل ذي حافر الذي شقّ نابه وطلع، فكان من ثمّ قوياً شديداً (٣) العذابات ج عذبة وهي غصن الشجرة .

فاتحاً بذلك، على غير سابقة من شعراء عصره ووطنه، باباً واسعاً لحافظ وشوقي وغيرهما من ممثلي الروح الوطنية .

وأضاف الى وصف الحركات العامة، نقد العوائد الشائنة والعيوب المستتبحة، في شعر يشف عن تدمره وحنقه . وابتدأ نوعاً من الهجاء الاجتماعي الذي يقصد فيه الى تجسيم عيوب المجتمع في صورة ناثئة حيّة، تلفت الانتباه وتدعو الى الإصلاح . وهذا التصوير الاجتماعي الهجائي يذكرنا ببعض الشعراء العالميين، أمثال شكسبير وموليير، الذين صوروا مثالب الانسانية، في شخص من اشخاص رواياتهم وهزليّاتهم . واليك بعض ما قاله في الجارة الصاخبة واولادها المشاجرين :

إلى الله أشكو طول ليبي، وجارة نيتُ إلى وقت الصّباح بإعوال
لها صبّية لا بارك الله فيهم قباح النّواصي، لا ينمن على حال
كأنهم، ممّا تنازعن، أكلب طرّقن، على حين المساء، برّ ثبال
فهجن جميعاً هيجّة فزعت لها كلاب القرى، ما بين سهل وأجبال

٣ - نضوح البيئة الطبيعية : كان البارودي مفتوناً بجمال الطبيعة، يرى في كل خط من خطوطها مصدراً للإلهام . والجديد في وصف البارودي، أنه مستقل في قصائد كاملة، لا يُذكر عن عرض، او توسلاً الى غرض آخر؛ وأنه وضع للتغني بطبيعة خاصّة، ومشاهد عاينها الشاعر بنفسه، وأثرت فيه تأثيراً صورته بطرق شخصية، قد يعثرها بعض الهفوات . وأجمل ما وصفه الليلة العاصفة المطيرة، والنجوم، ومناظر الريف، والطيور .

٦ البارودي ساعر النهضة : قال الزيات : « إن كان لامرئ القيس فضل في

تمهيد الشعر وتقصيده، ولبشار في ترقيته وتجويده، فللبارودي كلُّ الفضل في إحيائه وتجديده »؛ وحسبه في ذلك الفضل ان يكون قد نبّه الافكار الى الحيويّة التي لم تزل كامنة في أنقاض اللغة العربية . فكان في

مصر اول من شمع شعره كأمل في قرائح الادباء، وحرّك الركود الادبي، وجعل نصب الاعين مثالا حياً للادب المنبعث . ولم يستمدّ ذاك المثال جماله من عمق المعاني وبعد التحليل، ولا من الابتكارات الرائعة، والتصاوير المبتكرة، بل من تقرُّبه الى العصر في معانيه وأغراضه، وانتائه الى القديم بنصاعة الكلام، وعروبة الاساليب، وذلك الانطلاق الشعري والتدفق الوزني، مما هو نتيجة ذاكرته المتشربة من مناهل الشعر الصحيح، وشعوره الفياض، وذوقه المهدّب على نور الجمال الشعري .

ب - حفني ناصف (١٨٥٦ - ١٩١٩ م / ١٢٧٢ - ١٣٣٨ هـ)

١ مبادئ : وُلد في بركة الحج من ضواحي القاهرة ونشأ يتيماً فتولّى امره خاله وجدته . وتعلم مبادئ



القراءة في كتاب بلدته ثم فرّ الى الازهر هرباً من معلم كان يضربه فقضى فيه ثلاثة عشر عاماً ثم انخرط في سلك مدرسة دار العلوم . ولما خرج منها عُيّن مدرّساً في المعاهد الاميرية ثم في مدرسة الحقوق . وبعد ذلك وُلي منصب القضاء الاهلي، فوكالة محكمة طنطا، فرتبة مفتش اول للغة العربية في وزارة المعارف . وقد وافاه الاجل سنة ١٩١٩ .

٢ آثاره : ترك حفني سلسلة كتب مدرسية في النحو والبلاغة، وكتاب « مميزات لغة العرب » وقد

حفني ناصف

قدمه للمؤتمر الذي عقده المستشرقون في فيينا سنة ١٨٨٦ ؛ وكتاب « حياة اللغة

العربية» وهو مجموعة الدروس التي القاها في الجامعة المصرية ؛ وكتباً غيرها في البديع والمنطق واللغة العامية ؛ وديوان رسائله وديوان شعره . ولم تطبع آثاره كلها .

٣٠ **فيمه الادبية** : كان حفي ناصف ضليعاً من اللغة ، ملماً بدقائقها وفنونها ، وكان، الى ذلك، حاضر البديهة، سريع الجواب، يحب النكتة والدعابة، فخل نثره بالموادر المليحة والنكت البارة . وجرى في بعض رسائله على اسلوب القاضي الفاضل والمتأخرين من كتّاب العهد العباسي فالترنم السجع وعني بالبديع، ولكنه انحرف في مقالات اخرى عن هذا النهج فارسل القول ارسالاً من غير قيد ولا تكلف . اما شعره فليس هو بالمطبوع ولكنه ضرب من النثر المنظوم المنطوي على كثير من المثلح والنكات واللباقة والتوفيقات اللفظية والفكاهات الخفيفة عن غير روعة وجمال في . ففضل حفي ناصف على النهضة قائم على تعليمه وآثاره النثرية لا على شعره .

ب - اسماعيل صبري (١٨٥٤ - ١٩٢٣ م / ١٢٧١ - ١٣٤٢ هـ)

١ **مهارة** : وُلد ونشأ في مصر، وارتقى من المدارس الابتدائية الى « التجهيزية » ثم الى « مدرسة الادارة » . ورحل مع احدى البعثات الى فرنسا فنال اجازة الحقوق من جامعة « إكس » . ولما عاد الى مصر تنقل في مناصب القضاء والادارة فتولى محافظة الاسكندرية وتقلد حيناً من الدهر وكالة الحَقَّانية . ولما بلغ الستين أُقيل من وظيفته وأحيل الى التقاعد، فاصبحت داره منتدى الشعراء يفدون الى صاحبها ويسمعونه قصائدهم فينقدونها ويدلّهم على مواطن الضعف فيها . وقد مُني بداء القلب فأودى به وهو في التاسعة والستين من عمره .

٢ آثاره : اسماعيل صبري شاعر مقلّ، له مقطوعات قصيرة في بيتين او ثلاثة الى الستة، وبعض القصائد الطويلة، موضوعها الحب والجمال والصدقة والاحداث السياسية والموت .

٦ شاعريته وفه : طبع اسماعيل صبري على ملكة الشعر، وتهياً له ذوق سليم،



اسماعيل صبري

وشعور مرهف

بالموسيقى اللفظية . فكان في اول عهده ينظم على غرار من سبقه ويقلّد النماذج التي يقع عليها في مجلة «روضة المدارس المصرية» . وأتاحت له رحلته الى فرنسا الاطلاع على الادب الاجنبي فرجع الى بلاده، كما ترجع النحلة الى القفير، عابقاً بشذا الازاهير التي امتص عطرها . فلم يقرض الشعر صناعة بل أحلّه من نفسه محلّ الصدى من الصوت . فبرزت مواهبه في كهولته وبدا شعره رقيقاً ناعماً عليه مسحة الترف الحضري واللين والجلاء . وكانت الفاظه سهلة ولكنها تحضن معاني واخيلة جميلة، كما في قوله :

عَبَّرَ كُلُّهَا اللَّيَالِي وَلَكِنْ أَيْنَ مَنْ يَفْتَحُ الْكِتَابَ وَيَقْرَأَ

وكانت موسيقاه منسجمة مطربة فاستغلّها المغنّون . وإن فات صبري شيء، فهو جيشان العواطف المثارة، وتوقّد النار المستعرة . فقد تغلّب فيه اللطف والنعومة .

اسماعيل صبري هو شاعر الذوق وليس بشاعر القوة . وكثيراً ما وُفق في مقطوعاته القصيرة فأبدع أليماً إبداع .

د - حافظ ابراهيم (١٨٧١ - ١٩٣٢ م / ١٢٧٨ - ١٣٥١ هـ)

١ مَبَارَ : هو محمد حافظ بن ابراهيم فهمي . وُلد بديروط في مصر من أب مهندس



حافظ ابراهيم

وأُم تركية
وما عَمَّ ان فقد والده
فنشأ تحت رعاية خاليه
في القاهرة وتخرَّج في
مدارسها الابتدائية
والثانوية . وانقطع حيناً
في طنطا الى قرض الشعر
ومطالعة الكتب . ثم
ولج المدرسة الحربية
وترقى الى درجة ضابط
وأُرسل الى السودان مع
الحملة المصرية فلم تطب
له الحياة فيه ، فثار مع
بعض الضباط وحوكم

وأُحيل الى التقاعد، فعاد الى مصر، وحاول الفرار من فشله الى معالجة الشعر ومخالطة
الادباء . وقد قويت في تلك الحقبة صلته بالشيخ محمد عبده فأفاد الكثير من علمه
وأدبه . وفي سنة ١٩١١ عُيِّن رئيساً للقسم الادبي في دار الكتب المصرية فنعم
في منصبه هذا بسعة العيش وحسن التقدير . وقد تُو في سنة ١٩٣٢ .

كان حافظ ابراهيم رقيق النفس عميق التأثر ، اميناً في صداقته ، مسارعاً الى الخدمة . وكان ، على ما قاساه من بؤس ومرارة ، حاضر النكتة ، خفيف الروح ، متلافاً . وقد ساعده ذكاؤه الفطري وقوة حافظته على اقتباس معلومات كثيرة ، وكانت ثقافته عربية اكثر مما كانت اجنبية .

٢ آثاره : حافظ ابراهيم في النثر كتاب « ليالي سطيح » ، وقد ترجم قسماً كبيراً من رواية « البؤساء » لشكتور هوجو Victor Hugo ، وساهم مع خليل مطران في نقل كتاب « الموجز في الاقتصاد السياسي » للرؤا بوليه Leroy-Beaulieu . وله في الشعر ديوان يقع في ثلاثة اجزاء ، يجمع الى الاغراض التقليدية كثيراً من القوائد الاجتماعية والسياسية .

٣ شاعريته : كان حافظ شاعر العاطفة ، وشاعر الاجتماع ، وشاعر الموسيقى .

١ - شاعر العاطفة : جمع حافظ الى رقة الشعور خبرة شخصية بالالم وأنواع الذل واليأس ، خفل شعره بوصف آماله وإخفاقه ، وبرمه بالحياة ولوعته على ما فاتته من السعد والجاه ، وثورته على كيد الناس وخداعهم . ولم يكن شعوره بالالم وقفاً على لواعج نفسه وأحداث حياته فقد شارك الشعب في مصائبه وسمع شكواي المظلومين وغزى المفجوعين . ولم تكن حدود الاقليم والوطنية وحواجز الأثرة القومية والدينية لتحد من شمول عاطفته التي انتظمت الانسانية جماء ورددت صدى الكوارث البعيدة والاحداث العالمية . ولذا فقد أجاد حافظ في مواقف الرثاء ووصف الفواجع فهو يستوحي الإلهام من كامن حزنه ، وتقديره الحقيقي لمن فقد من الاصحاب وأعلام الوطن ، ومن شففته المرفرفة على المآسي البشرية . فكان شعره صادق اللهجة بعيد الأثر .

٢ - شاعر المجتمع : لم ينل حافظ نصيباً كبيراً من التراث الاجنبي في الاجتماعيات فكان معينه تجاربه الشخصية ، وملاحظاته المباشرة التي حصلت له بمخالطة الشعب

والاتصال بقيادة الفكر ولاسيا الامام محمد عبده . وامتدته نزعته الشعبية وعاطفته الوطنية والدينية بالقوة التي تدفع الشاعر الى ميدان الكفاح في سبيل رقيّ الامة وازدهارها . ولئن أبعد شاعرنا عن ساحات الوغى فقد فتح له شعره مجالا أوسع للمناضلة والدفاع . فرجع الى الماضي وصاغ حول حياة عمر وعلي وغيرهما من ابطال الاسلام منظومات تعيد الى النفس العربية الرغبة في الكفاح وما سلف من الثقة والنخوة . وعالج الحاضر بشورته على داء التفرقة، وتدخّل الاجانب في مصالح الوطن، وبدعوته الى تهذيب الاخلاق، وتعميم الاخاء، وتعليم الفتاة، وتنشيط الثقافة والمشاريع العمرانية . فسار على نهج الشيخ محمد عبده، واقتبس من حياته نماذج التضحية الصادقة والاخلاص التام . ورمى بنظره الى المستقبل فتغنى بآمال الامة المصرية والعالم العربي بلهجة وثابة حماسية مضيئة بنور الامل الوطيد والاعتقاد الراسخ . فرسم للوطن صورة خلّابة تستفزّ الهمم وتستهوّي القلوب، وتآلف صوته مع صوت البارودي وشوقي، واستحق لقب « شاعر النيل »، الا ان بعض النعيم الذي فاز به حافظ في منصبه بدار الكتب قد خفف من حدة شعره الحماسي فاعتراه الفتور .

٣ - شاعر الموسيقى : حفظ لنا التاريخ ما كان لالقاء حافظ من الاثر البعيد في نفوس سامعيه . ولا ريب ان لهذا الالقاء فضلا في توجيه حكم معاصريه على شعره . فلا بدّ لنا الآن، وقد طوى التاريخ حافظاً وما رافق حياته من احوال، ان ننظر في آثاره نظرة المدقق الهادئة . فالنقاد متفقون على ان شعر حافظ خالٍ من روعة العنصر المعنوي، وايحاء الخيال الخفّاق . فيبقى ان جماله هو في قوة عاطفته وموسيقى الفاظه . اما العاطفة فقد سبق لنا الكلام عليها، واما الموسيقى فما هي في شعر حافظ سوى انعكاس شخصيته ونتيجة ثقافته . فهو رجل البؤس المتأني ليس فقط عن الجوع والظلم بل عن النفس الحزينة التي جفّت فيها الاماني، والقلب الذي تتنازعه العواطف المتناقضة، والعين التي تبكي لمصاب الشعب والوطن والانسانية . ولذلك شاع في شعره توقيع شجيّ مطرب . وهو رجل القلق والاضطراب الذي لا يتفرغ للعمل، ولا يتعمّق في القضايا والبحث عن الاوفق . ولذلك انقاد الى

السهولة المبنوية ولم يُعنّ نفسه بالغوص وراء المعاني وخلق الصور بل حفل برنّة اللفظ . وهو رجل الثقافة السطحية الذي تلهذ للفن العباسي من حيث هو صيغة مشرقة، ولفظ متساوق، ووزن منسجم . وآثر شعراء اللفظ على شعراء المعنى . وقد تهيأ له، لقوة حافظته وكثرة مطالعته، ثروة ضخمة من التراكيب والالفاظ وغوذجات السلف، فتخيّر منها ما كان ملائماً لزعته الموسيقية .

بعض المراجع

- عمر الدسوقي : في الادب الحديث - القاهرة ١٩٤٨
 عبد الوهاب حموده : التجديد في الادب المصري الحديث - القاهرة
 عباس محمود العقاد : شعراء مصر - القاهرة ١٩٣٧
 حسن كامل الصيرفي : حافظ وشوقي - القاهرة ١٩٤٩
 احمد عبيد : ذكرى الشعارين - دمشق
 طه حسين : حافظ وشوقي - القاهرة ١٩٣٣
 مصطفى زيد : أدب مصر الحديث - القاهرة ١٩٤٩ ص ٨٠ - ٨٧

مشاهير الادباء — الشعر

الفصل الثالث

احمد شوقي (١٨٦٨ — ١٩٣٢ م / ١٢٨٥ — ١٣٥١ هـ)

١ **حياته :** وُلد في القاهرة سنة ١٨٦٨، ودرس في مدرسة «المبتديان» ثم في المدرسة التجهيزية. التحق بمدرسة الحقوق ثم بمدرسة الترجمة؛ اخيراً درس الحقوق في مونبيليه بفاريس ثم عاد الى مصر بعد ان قام برحلة الى انكلترا والجزائر. لبث «شاعر العزيز» الى ان نفى زمن الحرب الى الاندلس، ولما عاد منها بايعته الوفود العربية بامارة الشعر في مهرجان سنة ١٩٢٧. توفي سنة ١٩٣٢.

٢ **شخصيته :** حائزة متقلقة لاختلاف عواملها من مؤهلات شعرية وثقافة بآداب مختلفة، وتقلب في حوادث سياسية خطيرة، كل هذا الى عناصر اصله المتشعبة.

٣ آثاره :

١ - في الشعر : ديوان «الشوقيات» في اربعة اجزاء - دول العرب وعظماء الاسلام - خمس مأسٍ اشهرها مصرع كليوباترا ومجنون ليلى - ملهات الست هدى.

٢ - في النثر : مسرحية اميرة الاندلس - ثلاث روايات - «اسواق الذهب» -

٤ **شعره :** فيه ثلاث مراحل بينة : التقليد، بين التقليد والتجديد - التجديد.

٥ شوقي شاعر التقليد :

١ - المدح : مدح اصحاب القصر والخلفاء وبعض الاعيان، وقد جارى في مدحه القدماء من حيث المعاني والاخيلة والمبنى. ولم يوفق في مدحه بل وُفّق في ما حوّطه به من الاغراض السياسية والاجتماعية.

٢ - الرثاء : رثى اقاربه، واولي نعمته، وبعض زعماء السياسة والاجتماع، وبعض الشعراء والكتاب. وهو يُعنى بالاطار اكثر من عنايته بالصورة. ورثاؤه صادق الا ان شوقي لا يظهر فيه شاعراً عاطفياً.

٣ - الغزل : حاول فيه التجديد ثم عاد الى تقليد متكلف لم يوفق فيه.

٦ **شوقي بين القديم والجديد (الوصف) :** قصّر شوقي في بعض

الموصوفات القديمة، وقد وصف بعض مظاهر المدنية الحديثة فبرهن عن خيال مجنح يكثُر من التشخيص .

٧ شوقي والتجديد :

١ - الدين : مصدره عاطفة صادقة . وهذا الشعر يتناول الدين الاسلامي ويتسع لساثر الاديان في تسامح كبير .

٢ - السياسة : ١ شوقي وتركى : يصدى لكل الحوادث السياسية في الدولة العثمانية بسبب اصله التركي وعاطفته الدينية والحفاوة التي كان يجدها في الاستانة . وهو يرمي الى رفع الاتراك وابقاء الخلافة فيهم .

٢ شوقي ومصر - سياسة القصر : مختلفة المظاهر، جوهرها ولاء خالص لبني اسماعيل، وتأيد لحكمهم وسياستهم . فيها كثير من الانانية التي أبعدت الشاعر عن تفهم نزعات الشعب . - سياسة الشعب : يتبع فيها الشاعر آمال الشعب في الحصول على الاستقلال التام وإبعاد الاستعمار، ويعبر عنها بكل صراحة وقوة .

٣ شوقي والشرق العربي : اتسعت شاعرية شوقي للتعبير عن آمال الشرق المتوقب الى الاستقلال، فكان مؤرخ عصره .

٣ - الاجتماع : يطلب الشاعر تعميم التربية واصلاح اساليبها لانها الركن الاساسي للاستقلال . ولهذه الغاية ألّف للاحداث أدعية وأنشيد، وخرافات ذات قيمة أخلاقية واجتماعية كبرى، اما قيمتها الادبية فهزيلة على الغالب . وشوقي يريد للمرأة الحرية ونبد الحجاب، ويحض على النشاط في العمل والوثام .

٤ - المسرح : ١ تحليل الروايات : - مصرع كليوباترا :

اشخاصها : كليوباترا المرأة : عاشقة، وفيّة لانطونيوس ما دامت مصر معززة ؛ وهي ربة بيت تعطف على اولادها وخدامها .

- كليوباترا الملكة : شديدة الدهاء، تحب بلادها، فيها الاباء والجرأة والحلم .

- انطونيوس : مزيج من القوة والضعف .

قيمتها : خير مآسي شوقي (اللون المحلي، تصوير الاخلاق، جمال الشعر) وإن لم تخل من حوادث متطفلة .

- مجنون ليلى :

اشخاصها : - قيس : عاشق مؤلّه، غير يسن الشخصية لانه دائم الإغماء .

ليلى : فتاة بدوية متمسكة بالتقاليد، محبة وفيّة في هواها .

قيمتها : تصوير موفّق للبادية وللعرب، والاتقالات المسرحيّة والصراع النفسي، ولكنّ في هذه الحسنات نفسها سقطات شائنة .

٨ شوقي والمسرح :

- موضوعات المسرحيات : مسرحيات شوقي مُستمدّة من تاريخ مصر والعرب وفيها تقيد مادي بالتاريخ دون تفهم حقيقي لروحه .
- حوادثها : العبث بوحدة العمل، والاكتار من الطفيليات .
- اشخاصها : حائرة غير متماسكة العناصر، ضحلة الغور، لا تتجاوز المسرحيات الى صور مثاليّة عالمية .

- مبناها : ذلّل شوقي الشعر العربي للتمثيل واكثر من الاساليب الغنائية .
- قيمتها : فاتحة الشعر المسرحي العربي، ولكنها لم تستوف شروط الشعر التمثيلي الحقيقي .

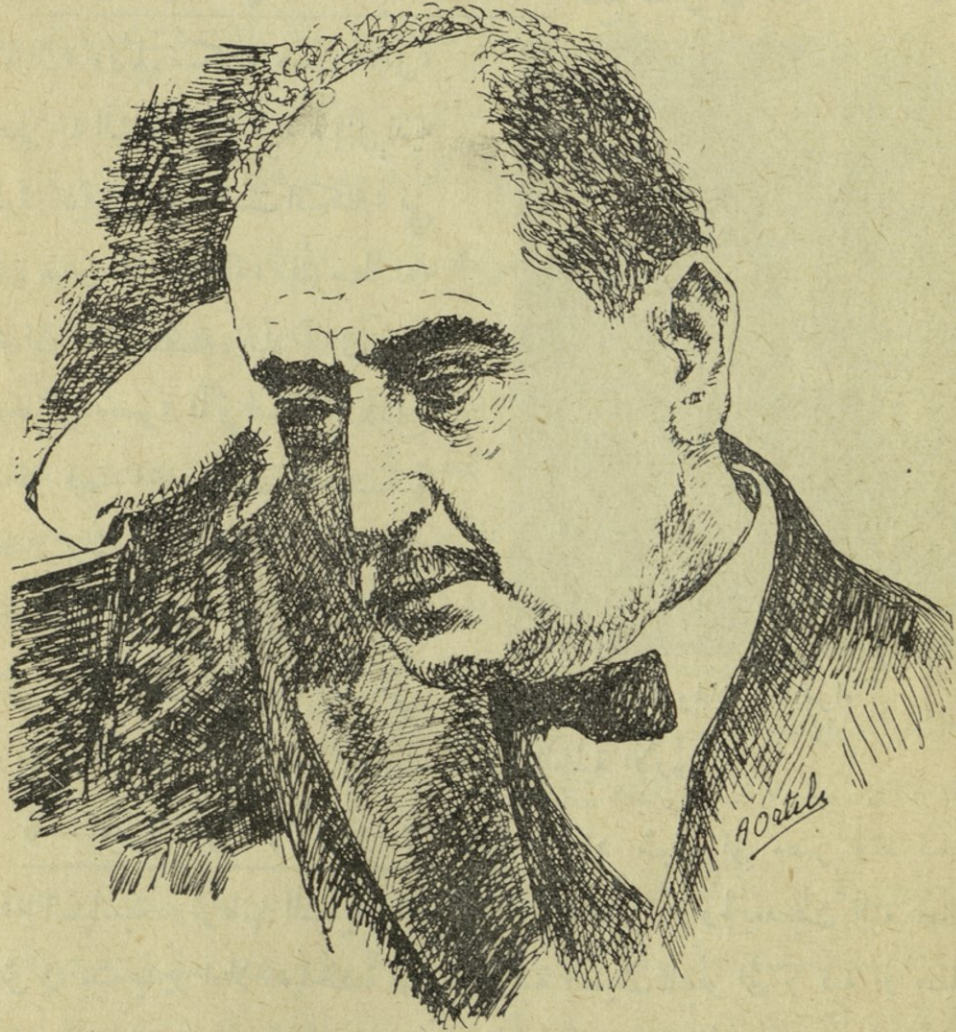
٩ منزلة شوقي : شاعر عبقرى يسمو الى حيث لا يُجارى اذا الهم في ما يملأ عبقريته، ويسف حتى لا يكاد يدانى اذا انحط الموضوع عن مستوى شاعريته . وشوقي شاعر ان لم يكن عالمياً فهو شرقي لا ينساه الشرق، ومجدّد لا يحى اسمه من تاريخ النهضة الادبية إذ هو من أظهر اعلامها .

١ مباح :

١ - اصله ومولده : وُلد احمد شوقي سنة ١٨٦٨، في زمن الخديوي اسماعيل، من أسرة ممتزجة العناصر، جمعت بين كردية الاب وتركية الأم، وشركسية الجدّة لابيّه، ويونانية الجدّة لأمه . فشخصيته تتألف على حد قوله، من « اصول اربعة، في فرع مجتمعة » .

٢ - الطالب (١٨٧٣ - ١٨٩١) : دخل مدرسة « المبتديان » وله من العمر اربع سنوات ثم انتقل الى المدرسة التجهيزية، وما كاد يتم الخامسة عشرة حتى انهى دروسه الابتدائية والثانوية . فالتحق، على صغره، بمدرسة الحقوق، ثم بمدرسة الترجمة فنال فيها الاجازة . ثم سافر الى فرنسا في سنة ١٨٨٧ لمتابعة دروسه على نفقة الخديوي توفيق بن اسماعيل . فطلب الحقوق في مونبلييه مدة سنتين زار في اثنائها

انكسرتة . وبعد الستين قصد الجزائر، للاستشفاء من داء اصابه، فبقى هناك نحواً من شهر ونصف الشهر ثم عاد الى فرنسا، فأكمل في باريس سنته الثالثة للحقوق ونال الاجازة فيها؛ ثم اقام بباريس ستة اشهر يتفقد متاحفها وآثارها ومعالم حضارتها، أخيراً قفل الى مصر، معرجاً في طريقه على الاستانة سنة ١٨٩١ .



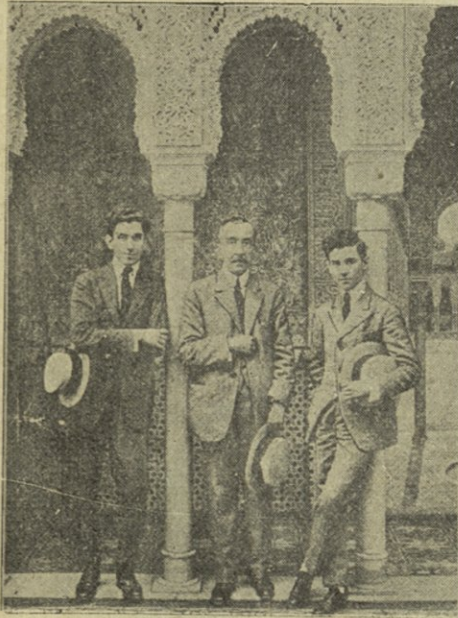
احمد شوقي

٣ - شاعر العزيز (١٨٩١ - ١٩١٥) : توفي توفيق سنة ١٨٩١ خلفه عباس

حامى الثاني، فأعرض مدة عن شوقي، ولكنه ما لبث ان قرّبه اليه كما فعل سابقاه، وجعله شاعر البلاط، فأيد الشاعر سياسة الخديوي فأصاب ثروة وجاهاً

واسعاً، كما افاد اطلائاً وافراً من رحلته التي قام بها في عواصم اوربة، موفداً من قبل عباس ليمثل مصر في مؤتمر المستشرقين الذي عُقد في مدينة جنيف (ايلول ١٨٩٤).
وقد تزوج شوقي فحملت له زوجته ثروة واسعة من ابنيها ؛ ورزق ابنة سماها امينة، وصبيين اسم الواحد علي واسم الآخر حسين .

٤ - الشاعر المنفي (١٩١٥-١٩١٩) : خلع عباس في سنة ١٩١٥ لاتصاله



شوقي ونجلاه في الحمراء

بالأتراك، ووُثِي مكانه حسين كامل، فاتصل به الشاعر، ولكنه لم ينل لديه حظوة كبيرة ؛ ثم ارادت انكلمة نفي شاعر عباس الى مالطة، فتوسط له، فنح ان يختار لنفسه البلد الذي يريد خارجاً عن مصر، فأثر اسبانية، وراح يتذكر فيها اجداد العرب القديمة ؛ واختار برشلونة له مقراً، فكانت له كبرج من عاج حبس فيه نفسه، واثنتي عليها يرقب نزواتها، ويبكي

جروحها ويحن الى الوطن حتى انتهت الحرب العالمية الاولى .

٥ - امير الشعراء (١٩١٩-١٩٣٢) : عاد شوقي الى مصر وقد تبدلت

احوالها السياسية ونزعاتها الشعبية اياماً تبدل فترك القصر - ولم يعد يت اليه بصلة - وعاش في بيته يدير املاكه الخاصة وينتزه فرصة الصيف للسفر الى تركيا او مصايف اوربة ؛ على انه منذ سنة ١٩٢٥ قصر اصطيفاه على جبال لبنان . - وفي بيته كان يصرف اغلب اوقاته ناظماً في موضوعات تتفق والوعي القومي الذي انسه من مواطنيه بعد الحرب، ولم يكن ليغفل عن البلدان العربية المجاورة بل نظم فيها قصائد كثيرة، فطارت شهرته، فبايعته وفود البلاد العربية كلها بامارة الشعر، في مهرجان عظيم عُقد في دار الاوبرا الملكية لتكريمه سنة ١٩٢٧ .

وظلّ عاكفاً على الشعر بعد ذلك، ولكنه مال بنوع خاص الى المسرحيات، فانصرف الى تأليف الروايات التمثيلية في السنوات الاربع الاخيرة من حياته الى ان توفاه الله في ١٣ تشرين الاول سنة ١٩٣٢، وهو ممتنع بجاه وثروة عظيمين، وكان لا يزال على اشد ما يكون من النشاط الى الانتاج الادبي .

٢ شخصية الشعرية : لقد اجتمعت عوامل مختلفة على خلق تلك الشخصية الغريبة . فانسجمت حيناً وتنافرت احياناً ؛ فبدت نفسية شوقي من خلالها، مضطربة حائرة في اغلب نواحيها، قلما توحد نزعاتها وجهة مهيمنة .

ولد شوقي وفيه من المؤهلات الشعرية ما كان كفيلاً بايصاله الى امارة الشعر غير مدافع . فقد توفرت له عناصر العبقريّة من اصوله الاربعة فكان له ذلك كتكثيف لعناصر الانسانية في نفسه، مهره من قوة الاشعاع ما وسع نطاق شعره في مختلف الوجوه . وكان له من المواهب الطبيعية خير حافظ على تسنّم ذرى الشعر : فهناك ذاكرة فريدة تدخر له الكثير مما يعي ويقرأ ؛ وهناك خيال فسيح بعيد الافاق غزير الخطوط والالوان، يوئف بينها في مهارة كبيرة ؛ وهناك حسّ مرهف دقيق الشعور بالحياة ونبضاتها ؛ وهناك نفس طمّاحة تأبى عليه إلا مجازاة الكبار من الشعراء في مختلف عصورهم وحضاراتهم واغراضهم الشعرية . كل هذا الى اعتداد بالشاعرية، وضيق بالنقد مال بشوقي الى كثير من التزلّف والمداورة .

وتأدب شوقي بآداب العرب، فأخذ عن كل شاعر افضل ما عنده : فراقه من ابي نواس مثلاً وصف الخمر والغزليات، وراقه من البحّري صفاء الخيال ودقة الصور وجمال الوقع الموسيقي، وأعجبه من ابي تمام والمتنبي احتفالهما للمعاني الرفيعة والسعي في إصابتها، ولو بجهد النفس، وشيوع الحكمة والامثال في شعرهما، كما اعجبه منهما قوة الشخصية التي لا تتقيّد بغلّ، بل تصب معانيها في قوالب قد لا تتسع لها، من غير اكتراث لغموض او اضطراب تعبيرى .

واطلع شوقي على الآداب الغربية ولاسيا الفرنسي منها، فأراد التشبه بلافونتين

في أمثاله، وبموسيه في صراحته المؤلمة، وبلامرتين في غزله المائع، وبكورنيه في بعض النواحي من رواياته التمثيلية . والظاهر ان اشد الشعراء الغربيين تأثيراً على شعر شوقي إنما هو فكتور هوغو، سيد الرومانطيقية المطلق، النافخ فيها من روحه الوثابة، ولسان الوطنية الناطق، وصوت فرنسة الصارخ في بوق الحرية؛ وقد كان لكل ذلك اثر بعيد في شعر شوقي .

ورأى شوقي في فرنسة من حرية الدين والفكر ما اوسع صدره لجميع الديانات - على استمساك شديد بدينه - ورأى في الحواضر الاوربية، ولاسيما في باريس، من حب الحياة والحرية والعلم ما كان له اقوى اثر في شعره، فعاد الى وطنه يريد نشر تلك العقائد بين ابناء امته .

وعاش شوقي في عصر مليء بالحوادث السياسية الخطيرة، فكان في شعره صدى عميق لمختلف السياسات التي تتجاذب القطر المصري والاقطار العربية . فهو في البلاط شاعر البلاط وسياسي الامير، وهو بين الشعب شاعر الشعب وسياسي القومية المصرية العربية .

فالثقافة الواسعة التي تثقف بها شوقي، والسياحات الطويلة التي وسعت معارفه الاجتماعية، والاحوال السياسية التي تقلب فيها، ومواهبه الشعرية وطموحه الى مجازاة كل ما نظمه الشعراء قداموهم ومحدثوهم، ثم ميله الى الزلفى، كل ذلك جعل من الرجل شخصية مزدوجة معقدة تتأرجح حائرة في سبل الادب وتضطرب حائرة في سبل السياسة .

٣ آماره : قلما توفر لشاعر عربي مثل ما توفر لشوقي من سهولة النظم وخصب

الانتاج .

١ - في الشعر : له من الشعر ديوان ضخمة يُعرف « بالشوقيات » ويقع في اربعة اجزاء من القطع الكبير . يشتمل الاول منها على منظومات الشاعر في القرن

الماضي، وقد مهّد له شوقي بمقدمة في الشعر والشعراء ضمنها ايضاً سيرة حياته . ثم اعيد طبعه في سنة ١٩٢٥ بعد ان أسقط منه المديح والثناء والانشيد والحكايات، وبقي مقصوراً على السياسة والتاريخ والاجتماع، وبعض قصائد تتناسب وهذه الاغراض . وقد صدره الدكتور محمد حسين هيكل بمقدمة في شاعرية شوقي . اما الجزء الثاني فطبع في سنة ١٩٣٠ وهو يتناول الوصف والنسب ومتفرقات في التاريخ والسياسة والاجتماع، وقصائد من الديوان القديم . وظهر الجزء الثالث في سنة ١٩٣٦ وهو مقصور على الرثاء ؛ ثم الجزء الرابع في سنة ١٩٤٣ وهو يتناول اغراضاً شتى، اخصها الشعر التعليمي .

وللشاعر ايضاً كتاب « دول العرب وعظماء الاسلام » الذي ظهر بعد وفاته، واغلبه اراجيز تتناول التاريخ الاسلامي وعظماءه حتى الفاطميين .

وله ايضاً ست روايات تمثيلية وضعت بين ١٩٢٩ و ١٩٣٢ ، منها خمس مآسٍ : مصرع كليوباترا، ومجنون ليلى، وقمبيز، وعلي بك الكبير، وعنترة ؛ وملهاة واحدة : الست هدى .

٢ - في النثر : اما في النثر فله ثلاث روايات، ومقالات اجتماعية، ومسرحية واحدة (هي اميرة الاندلس) نتكلم عليها في مسرح شوقي - اما الروايات الثلاث فهي : ١ عذراء الهند (١٨٩٧) وموضوعها من التاريخ المصري القديم يرجع الى زمن رمسيس الثاني . ٢ - لادياس او آخر الفراعنة (١٨٩٨) وهي صورة لحالة مصر بعد عهد بسماطيك الثاني، اي قبل القرن الخامس الميلادي . ٣ - ورقة الآس وهي مطبوعة قد تكون من انتاج القرن العشرين، لكون السجع فيها اقل مما في سابقتها - وموضوعها يرتقي الى زمن سابور ملك الفرس .

اما المقالات الاجتماعية فهي نظرات جمعت سنة ١٩٣٢ تحت عنوان « اسواق الذهب »^١ في مختلف الموضوعات كالحرية، والوطن، وقناة السويس، والاهرام،

(١) تأثر شوقي في اختيار هذا العنوان بعنوان كتاب للزحشرى اسمه « اطواق الذهب »، وآخر للاصفهاني اسمه « اطباق الذهب ».

والموت، والجندي المجهول؛ وقد ذُيّلت بطائفة من العرّ والحكم القصيدة، استقاها شوقي من حياته الشخصية .

٤ شعره : لم تقم شهرة شوقي الواسعة على شيء من نثره، فهو في أغلبه مسجع ظاهر الصنعة، هزيل المادة والفن الأدبي؛ وإنما قامت على منتجاته الشعرية الكثيرة . فنحن في دراستنا هذه نقتصر على درس شعره، غير محتفظين من نثره إلا « باميرة الاندلس » .

وقد تأثرت شاعرية شوقي بمختلف أطوار حياته وبالأحداث التي لاقاها في كل تلك الأطوار . فإذا ما نحن تتبعنا الشاعر من البلاط إلى المنفى، ومن المنفى إلى الوفاة، رأينا بين هذه الأطوار خطوطاً بيّنة تفرقها بعضها عن بعض، ورأينا أن هذه الأطوار الثلاثة تناسب على العموم مراحل ثلاثاً في شاعرية شوقي :

١ - مرحلة التقليد .

٢ - مرحلة الانتقال من القديم إلى الجديد .

٣ - مرحلة التجديد .

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ تقسيم هذه المراحل هو من باب التغليب لا غير إذ ليس هنالك طور تام الانفصال عن سواه، فهي جميعها متداخلة بعض التداخل .

٥ شوقي شاعر انقلاب (المرح - الرمّاء - الغزل - الفخر - المحرّة) :

عاد شوقي من مدارس أوربة وقد حمل من عاصمة الفن والجمال والحرية والإصلاح ما اكتملت به مواهبه الشعرية، فراح يُداعب أحلاماً زاهرة وطمح إلى أن ينفخ في الشعر العربي روحاً جديدة ويوجهه في مختلف الأغراض الشعرية على نحو ما رأى في الآداب الغربية .

ولكن سرعان ما مُني الشاعر من حيث أُوتي . فان نعمة الخديوي التي وفّرت

له الثقافة العالية والاطلاع الواسع والسياحات المفيدة، أصبحت اليوم قيماً تُرتهن به حريته، وسجناً تُستعبد فيه عبقريته الفوّارة . وان ما لقيه في قصر عابدين من سمو الجاه ووفرة الغنى كان له اثر سيمى في شعره من وجوه عدّة، واخص ما يقال في ذلك ان تلك المتزلة الرفيعة قد افضت بشاعرنا الى شي . من الخمول وقعود المهمة، فرام الشهرة الادبية من ايسر اسبابها . ودرج على طريق عبدها له الاقدمون فعالج موضوعاتهم ومشى على اساليبهم، واكتفى من الشعر بشهرة رخيصة تضمنها له رعاية الامير فهو :

شاعرٌ العزيز وما بالقليل ذا اللّقب

١ المدح :

١ - المدوحون : لزم شوقي القصر زمناً وكان عليه ان يمدح اولياء نعمته فيه، فمدح اسماعيل وتوفيقاً وعباساً والحسين وفؤاداً، ولكن اكثر مدحه كان لعباس الذي لزمه نحواً من ربع قرن، لا يكلّ عن مدحه في مختلف الاحوال . - اما الخلفاء فقد مدح منهم عبد الحميد الثاني الذي كان يحبه الشاعر لما لقي عنده في الاستانة من الحفاوة وكرم الضيافة، ولانه كان يرى فيه خليفة الاسلام ورئيس الدولة العثمانية، وكلاهما عزيز على قلب شوقي ؛ ثم مدح اخاه محمداً الخامس عندما خلف عبد الحميد . - ومدح طائفة من الاعيان الذين شاركهم في عاطفتهم المصرية والقومية من مثل سعد زغلول، ومحمد فريد وغيرهما .

٢ - اسلوب مدحه : اراد شوقي ان يجدد في قصر عابدين عهد البحري في قصر المتوكل وابي الطيب في بلاط سيف الدولة، وحاول احياناً معارضة اشهر قصائد الاقدمين كما فعل عندما مدح عباساً ووصف موكب عيده اذ عارض رائية البحري التي وصف فيها موكب المتوكل . وسخر عبقريته كما سخرها غيره من قبله لاتفه الموضوعات، وضيق نطاقها، وتذلل فقبل الاعتاب :

إليك، أوبر المؤمنين، بعثتها تقبل عني، دون أعتابك، التوباً

وأغرق في المغالاة غير متردد في جعل عصر السلطان عبد الحميد - على ما فيه من عسف واستبداد - خير عصور الخلافة :

هل كلام العباد في الشمس إلا أنها الشمس ليس فيها كلام ؟
إيه عبد الحميد جلّ زمان أنت فيه خليفة وإمام

واذا بالسلطان شبه إله في حكمته، فالناس يتساءلون :
هل من الناس بعد من قوله وحى كريم وفعله إلهام ؟

ولم يقتصر على تقليد المعاني وموضوعات المدح بل تجاوزها الى تقليد الاسلوب .
وقد ضعفت مظاهر هذا التقليد بعد الحرب، لا بل قلّ المدح نفسه، لتغير وجهة الشاعر وتطلعه الى الاصلاح قبل كل شيء .

٣ - قيمته : لم يكن شوقي من طبعه ميّالاً الى المدح، ولقد انكره على الشعراء في مقدمة الطبعة الاولى من ديوانه، وكان يودّ لو برى الشعر منه . الا ان اتصاله بالبلاط مدة ربع قرن قضى عليه بولوج هذا الباب فوجه ؛ ولكن الشاعر لم يوفق كثيراً في مدحه، وان وفق في بعض ما نسجه حواليه من سياسة واجتماع وتاريخ .

٢ الرثاء :

١ - المراثيون : اكثر شوقي من الرثاء فشغلت مراثيه الجزء الثالث من الديوان بكامله، وقد عمت أشخاصاً تباينت طبقاتهم وجنسياتهم واديانهم وآراؤهم : فمنهم اقارب الشاعر كجدته وامه وابيه ؛ ومنهم ذور نعمته كالجديوي توفيق وام الحسين ؛ ومنهم زعماء السياسة والاجتماع كمصطفى باشا فهمي، ورياض باشا، وقاسم بك امين، وبطرس باشا الغالي، ومصطفى كامل باشا، وسعد باشا زغول ؛ ومنهم الشعراء والكتاب والفنانون في الشرق والغرب كحافظ ابراهيم، ويعقوب صرّوف، وفكتور هوغو، وتولستوي، والمنفلوطي، وجرجي زيدان، والشاعر الموسيقي

فردى . اما رثاؤه للمالك والمدن البائدة فقد جعل فيه من الجدّة ما يحملنا على درسه في القسم الثاني عندما نتكلم على شوقي بين التقليد والتجديد .

٢ - اسلوب الرثاء : لم يكن شوقي في اغلب مرثيه ليقتصر على اظهار صورة الفقيد، بل كثيراً ما يُعنى بالاطار الذي يحيط بها اكثر من عنايته بالصورة نفسها، فمرثيته في الغالب قطعة من نسيج الحياة سداها بعض النواحي البارزة في حياة المرثي، ولحمتها الاحداث السياسية او الاجتماعية وقد لا تكون من الاهمية بمكان . وكثيراً ما كان الشاعر ينسب من يرثيه ويستطرد الى شتى الاغراض السياسية او الاجتماعية او غيرها، كما فعل في مدحه .

وشوقي كثير التحدث الى الاموات ولاسيا في مطالع مرثيه :
قد كنتُ أُوثرُ أن تقولَ رِثائي يا مُنْصِفَ المَوْتِ مِنَ الأَحْيَاءِ

فإما يسألهم عن الموت والآخرة، وإما ينحبرهم عن صيتهم وشهرتهم بعد موتهم، واما يستفزهم من القبور للعودة الى اعمالهم السابقة، كقوله للموسيقي سيد درويش :

أُجِبا الدَّرْوِيشُ قُمْ بُتَّ الْجَوَى وَأُشْرَحِ الحُبَّ وَناجِ الشُّهَداءِ
إِضْرِبِ العُودَ نَفْثُ أَوْتارُهُ بِالَّذِي خَوَى، وَتَنطِقْ ما تَسَاءُ

وكثيراً ما يغلو الشاعر في تصوير الفاجعة فمرثيه، على الاغلب، شمس توارت في الدجى، او قمرُ خسف في القبر، او كوكب سقط من عليائه الى ما هنالك من معاني الاقدمين واخيلتهم .

٣ - قيمه : لا شك ان الشاعر صادق في اغلب مرثيه لم يقلها ترلفاً :

يقولونَ يرثي الرَّاحِلينَ فويحهم ! أأَمَلْتُ عِنْدَ الرَّاحِلينَ الجَوازيبا؟

(١) هذا البيت هو مطلع قصيدته الشهيرة في رثاء صديقه الشاعر حافظ ابراهيم (٢) يريد ان فنّ الموسيقى الشهير كان بحيث اذا ضرب على العود فكأنما اوتاره تنطق معبرة عن كل ما في نفس صاحبه.

ولكن صدقه هذا لم يجعل منه شاعراً عاطفياً، فراثؤه الاشخاص بعيد عن البكاء واستثارة الحزن، ليس فيه للوعة الشديدة من اثر الا في القليل النادر؛ فهو على الاغلب خواطر فلسفية في الحياة والموت، ولجوء الى الحكمة يستر بها الشاعر ضعف الاحساس بالفجيعة .

وجوده هذا يظهر بنوع خاص في رثائه لاييه حيث يقف شوقي امام الجثة متفلسفاً قائلاً :

يا أي ما أنتَ في ذا أوَّلُ كلِّ نفسٍ للمنايا فرضُ عينٍ
ملكْتَ قبلكَ ناسٌ وقرى ونعى النَّاعونَ خيرَ الثَّقَلينَ^٢

الا ان رثاء شوقي لا يخلو احياناً من ابيات تدل على تأثر عميق، وشعور بعيد بالمصيبة . فن ذلك ابيات في مطلع القصيدة التي يبكي فيها والدته^٣ :

إلى الله أشكو من عوادي النوى سهماً أصابَ سويداءَ الفؤادِ وما أصمى^٤
تواردَ والناعي فأوجستُ رنةً كلاماً على سمعي وفي كبيدي كلاماً^٥
أبانَ ولم ينيسَ، وأدَّى ولم يفنْ وأدنى وما داوى، وأزهى وما رما^٦...

وقصارى القول ان رثاء شوقي للأفراد ينقصه الكثير من العاطفة والحزن

(١) العين : الذهب المضروب (خلافاً للورق) وهو المستعمل أصلاً في تأدية الضرائب . - يقول ان النفوس ضريبة واجبة للموت ولا بد من تأديتها . (٢) الثقلان : الانس والجن، وخير الثقلين هو محمد (٣) اعلنت الهدنة سنة ١٩١٨، واخذ الشاعر يعمل النفس بالرجوع القريب الى وطنه وذويه، واذا بالبرق ينمى اليه والدته، فتأثر ايما تأثر، ونظم مراثيته هذه في ساعة واحدة. وقد قيل انه من فرط تأثره بها تحاشى عن النظر اليها من بعد، فبقيت بين اوراقه ولم تنشر الا بعد وفاته (٤) النوى : البعد . سويداء القلب : صميمه . اصمى الصيد : رماه فقتله - يقول ان سهماً من عوادي النوى - اراد به منفى والدته - قد اصابه في صميم فؤاده ولكنه لم يقض عليه فيتخلص من الالم (٥) الناعي : الخبر بالوفاة . اوجس : احس او سمع . الكلم : الجرح - يقول ان هذا السهم اصابه عندما جاءه الناعي بالنيا المشؤوم، فاحس رنة هي صوت الناعي في اذنه وصوت السهم ينفذ الى قلبه (٦) نبس : تكلم . رم الشيء : اصلحه . - يقول ان هذا السهم برزنيته قد ادنى الخبر كاملاً، وان هو لم يفصح فقد فهمه الشاعر، فتركه السهم دامي القلب، منحط القوى .

ولا تجد فيه للوعة الصادقة سوى حظ هزيل جداً تفرّدت به ابيات تائهة في ديوانه، فلم تكن كافية لرفع الشاعر الى منزلة سامية في هذا النوع .

٣ الغزل :

١ - موضوعه : توفر شوقي على الغزل كما توفر على غيره من الاغراض القديمة ولكن المرأة لم تملأ في قلب الشاعر فراغاً كبيراً فهو يطلب الحُسن ويتغنى به اينما وجده .

٢ - اسلوبه : سافر الشاعر الى فرنسة وهو في مقتبل عمره، فرأى نفسه هناك في بيئة غير التي يعرفها فالمرأة تظهر على مسرح الحياة الاجتماعية من غير تقبّع، وأساليب الفتنه المتنوعة تملأ دور التمثيل وقاعات السينما . وقد اراد شوقي ان يقتبس من احوال العصر الجديد اسلوباً جديداً في الغزل . ولما بعث بمديحيته لتوفيق :
خدعواها بقولهم حسناء والفواني يغرهنّ الشناء

استهلهّا بذلك الغزل الطويف الناعم الذي يصور فيه مأساة الحب في إيجاز بليغ ودقة :

نظرةً فأبتسامه فسَلامٌ فكلامٌ فسَوعِدٌ فليقاء

فأرت حاشية الامير في مثل هذه الابيات بعض التطرّف فأوعزت الى الجريدة الرسمية ان تسقط الغزل وتنشر المدح، وودّ الشيخ عبد الكريم سلمان لو أسقط المدح ونُشر الغزل . فلم يُنشر هذا ولا ذاك . ثم عاد شوقي الى مصر وقد حفظ من الحادثة عبرتها، وفهم ان شاعر البلاط لا يليق به الاستهتار :

ما كنتُ أسلمُ للعبونِ سلامتي وأبيعُ حادثة الغرام وقاري

فال عن محاولته تقليد الغربيين، وعاد يقلّد غزل الاقدمين من العرب ، ولم يكن غزل هؤلاء ليؤذي حاشية البلاط . لا بل اراد شوقي معارضة قصائد شعراء العرب الشهيرة من مثل قصيدة ابن زيدون التي مطلعها :

وَدَّعَ الصَّبْرَ مُحِبُّو دَعَّكَ ذَائِعٌ مِنْ سِرِّهِ مَا اسْتَوْدَعَكَ

وقد عارضها بقوله :

رُدَّتِ الرُّوحُ عَلَى الْمَضَى مَعَكَ أَحْسَنُ الْأَيَّامِ يَوْمٌ أَرْجَمَكَ

وحاول ادخال الفاظ الحرب في غزله ، كما فعل عنتره :

فَلَكُمْ رَجَعْتُ مِنَ الْأَسِنَّةِ سَالِمًا وَصَدَرْتُ عَنْ هَيْفِ الْقُدُودِ طَعِينًا

لا بل اراد التشبّه بعمر وامرئ القيس في محاوراتها الغزلية .

ويدور الزمان دورته، واذا الشاعر في المنفى يتأمل على فراش الآلام النفسية ثم يعود الى وطنه ولم يعد له فيه سوى ذكريات الماضي السعيد، واذا حنين التجديد يعاوده - ولم يعد عليه حرج من مراقبة البلاط - فينظم قصائد « كباريس » و « غاب بولونيا »، او مقطوعات من مسرحياته كالمقطوعة « انا انطونيو وانطونيو أنا ... » في رواية مصرع كايوباترا .

وما ذلك الشعر الا محاولات في تقليد موسيه وفولين وبودلير ممن تذوق الشاعر ادبهم في فرنسة .

٣ - قيمته : لم يوفق شوقي في تقليد الاقدمين لما في ذلك من التكلف فقصر عن عمر وامرئ القيس في القصص الغزلي وصدق العاطفة تقصيراً مشؤوماً ، وانحطّ عن غزل عنتره الحربي ايام الخطاط، ولم يكن اكثر نجاحاً في تقليد العصريين من شعراء الغرب - اللهم الا في قبسات تلتهم في شعره وهي سريعة الانطفاء . وهو على كل حال لا يجيد سوى الاوصاف الخارجية من محبوه، وقد لا يسلم من العثار في الذوق الادبي .

اما في وصفه عواطف النفس فله نظر سطحي بعيد عن الايغال في التحليل :

يقول أناسٌ : لو وصفت لنا الهوى لعلّ الذي لا يعرفُ الحبَّ يعرفُ

فقلتُ : لقد ذُقتُ الهوى ثمَّ ذُقتُهُ فوالله لا أدري الهوى كيف يُوصَفُ

ولئن فات شوقي جمال الوصف النفسي وروعة الابتكار فلم يفته سحر الموسيقى الذي اضفاه على شعره الغزلي والذي انال شعره شهرة واسعة خصوصاً بعد ان تغنى به جماعة من كبار الموسيقيين ولاسيما محمد عبد الوهاب ، فضت له ابيات بل قصائد ، وقد لا يكون لها كبير قيمة ، يرددها الكبير والصغير في كل حفل وكل نادر .

* * *

ولشوقي ايضاً فخر عَبرَ به عن طموح نفسه ، وله شعر خموي قلد به ابا نواس . ولئن اكتفى في عهده الاول من الشعر بالتقليد فانه كان منذ نشأته ميالاً الى الابتكار والابداع ، ان لم يكن في المعاني فبالخيال واسلوب التعبير ، حتى لقد تقرأ عنده معنى لغيره فتظنه مبتكراً لم يُسبق اليه ، وهذا ما رمى اليه مارون عبود في ظرف وفكاهة حيث قال : « اذا قرأت شعر شوقي رأيت عنده تعابير جديدة ، ولكن اكثرها منبوش من أضرحة القدماء ، فهو كالذي يعثر عليه الاثريون في مدافن جميل والاقصر » .

٢ سُوفِي بَيْنَ الْفَرِيمِ وَالْجَدِيدِ : (الوصف) : نُنِي شَوْقِي إِلَى الْأَنْدَلُسِ حَيْثُ ذَاقَ أَلْمَ الْحَرَمَانِ ، وَاحْسَ بَشَقَاءِ غَيْرِهِ ، فَتَوَسَّعَتْ آفَاقُهُ وَتَفَتَّحَ عَلَى غَيْرِ نَفْسِهِ وَبَلَابُطِ وَمَصْرِ ؛ ثُمَّ عَادَ إِلَى وَطَنِهِ ، وَقَدْ تَقَطَّعَ مَا كَانَ يَرْبُطُهُ بِقَصْرِ عَابِدِينَ ، فَشَعَرَ بِتَيَّارَاتٍ جَدِيدَةٍ تَصِلُهُ بِكِبَارِ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ لَمْ يَكْتَفُوا بِالتَّغْنِي بِأَلَامِهِمْ ، بَلْ تَغْنَوْا بِأَلَامِ غَيْرِهِمْ ، فَقَلَّدَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ تَقْلِيدُهُ عَنْ مَجْرَدِ مَعَارِضَةٍ شَعْرِيَّةٍ ، بَلْ عَنْ دَافِعٍ دَاخِلِيٍّ ، وَحَاجَةٍ مُلِحَّةٍ فِي النَّفْسِ تَجْعَلُ الشَّاعِرَ فِي تَقْلِيدِهِ حَرّاً وَاضِحَ الشَّخْصِيَّةِ .

ثم إن نزعة الشاعر الاولى الى التجديد ما زالت حية في نفسه تغذوها الحضارة الجديدة ، وما إن سنحت الفرصة حتى انطلقت تجاري العصر وتحاول التجديد في

المعاني فضلاً عن المباني . الا ان انطلاقتها لم يكن قطعاً تاماً للصلة مع القديم، وانفلاتاً من جميع القيود .

تلك هي نزعة الشاعر المزدوجة التي سنحاول استكشافها في باب الوصف .

١ - الموضوعات القديمة : لقد قصّر شوقي عن الاقدمين في بعض نواحي الوصف كالغزل والخمرة . على ان هناك نوعاً من الوصف لم يقل فيه شاعرنا روعة عن كبار المتقدمين . وهذا النوع هو وصف المدن المنكوبة ورتاء اطلالها . فقد نظم في نكبة اليابان بالزلزال الشهير، كما نظم في الاندلس الجديدة اي ادرنة، وفي الاندلس القديمة وغيرها من حواضر الشرق المنكوبة كبيروت ودمشق .

ويمتاز هذا الوصف بخيال مطلق الجناح يخالق في اجواء سامية فيأتيك بالصور وفيها من روعة الابتكار ودقة الوصف وبلاغة الایجاز ما يقررهما في الذهن فلا تنسى . فاسمعه يصف روع النساء في نكبة دمشق (١٩٢٥) وحديثهن ما بين «القذائف والمنايا» في ليل لعلع فيه صوت المدفع، فما ان ينطلق بقنبلة حتى يحمر أفق بالنار الخارجة من فوهته، ويسود آخر بدخانه ونتائج تدميره :

إذا رُمنَ السلامة من طريقٍ أثبت من دونه الموت طريقُ
بليلٍ للقذائفِ والمنايا وراء سائيه خطفٌ وصفقُ
إذا عصفت الحديدُ احمرَّ أفقُ على جنبانه وأسودَّ أفقُ

واذا كان البلد المرثي عربياً او مسلماً زاد الشاعر على قوة خياله احساساً عميقاً وصدقاً في العاطفة يجعلان من مرثيه هذه مقطوعات خالدة . ومن ذلك قصيدته الشهيرة في دمشق التي يعارض بها نونية ابي البقاء الرندي في رثاء الاندلس، ومطلعها :
قُم ناجر جليلٍ وانشد رسمَ من بانوا مشيت على الرسمِ أحداثٌ وأزمانُ ...
مررتُ بالمسجدِ المحزونِ أسأله هل في المصلّى أو المحرابِ مروانُ ؟

تَغَيَّرَ الْمَسْجِدُ الْمَحْزُونُ وَاخْتَلَفَتْ عَلَى الْمَنَابِرِ أَحْرَارُ وَعُيُودَانُ
فَلَا الْأَذَانُ أَذَانٌ فِي مَنَارَتِهِ إِذَا تَعَالَى وَلَا الْأَذَانُ أَذَانُ

وكذلك القول في سينيته الخالدة التي عارض بها سينية البحري، ومطلعها :

إِخْتِلَافُ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ يُنْسِي أَذْكَرًا لِي الصَّبَا وَأَيَّامَ أَنْسِي

فهو يرق فيها « اثرى قرطبي » ويعيد ذكر « الداخل » و « الناصر » ويبيكي حصن
غرناطة ويستغيث

... لِحِمْرَاءَ جُلِّلَتْ بَغْيَارِ الدَّهْرِ كَالْجُرْحِ بَيْنَ بُرٍّ وَنُكْسٍ

وان قلّد شوقي او عارض في مثل هذه المواقف، فتقليده ومعارضته بعيدان عن
التقيد الاعمى بمعاني القدماء واخيلتهم ؛ وهو في وثائه المدن المنكوبة او الممالك
البائدة شاعر بين الشخصية بعيد الاثر في النفوس، له من بُعد الخيال وصدق
العاطفة ما يحلّه من الشعر في منزلة سامية .

٢ - الموضوعات الحديثة : تأثر شوقي بحضارة عصره، فصور بعض ما وصل
اليه العلم من المخترعات كالطيارة والغواصة ؛ ووصف ما بلغت اليه الحياة الحضرية
من مظاهر الترف كالمراقص الحديثة، ومجالس اللهو في قصر عابدين، كما وصف
المدن الغربية ومظاهر حضارتها، وبعضاً من المنشآت العصرية كالمصارف وجمعية
الصليب الاحمر، والهلال الاحمر...

تمتاز هذه الاوصاف بالجدة، وقد اجاد الشاعر فيها لكونها لا تحتاج الى تحليل
نفسى، وبث في المادة من الحياة ما جعل الموصوف مليناً بالحركة، فالطيارة مركب
« نصفه طير ونصف بشر » :

مُسرَّجٌ في كلِّ حينٍ مُلجَمٌ كميلُ المُدَقِّ مرموقُ الرُّؤاءِ...١

والغواصة :

هِيَ الْحَوْتُ أَوْ فِي الْحَوْتِ مِنْهُ مُشَابِهٌ فَلَوْ كَانَ فَوَلاذًا لَكَانَ أَخَاهَا

وقد وفق الشاعر في وصف المشاهد السريعة الحركة كقوله في غرق سفينة ضربتها غواصة :

طُعِنَتْ، فَأَنْبَجَتْ، فَاسْتَضْرَخَتْ فَأَنَاهَا حِينُهَا، فَهِيَ خَبَرٌ!٢

وقصارى القول ان خيال شوقي كان خيال شاعر عبقرى فذ اذا اندفع في التصوير صبَّ الوانه متنوعة، غنية، تتآلف في انسجام غريب فتخرج لوحات رائعة في الفن والدقة، وساق صورته وتشبيهاته واسعة المدى، مليئة بالحركة والحياة، مثقلة بما يلاّ العين ويقرعه الاذن .

٣ - حظ الطبيعة من شعر شوقي : لم يكن شوقي ليغفل عن الطبيعة في شعره، فقد كان في صغره عالق العينين بالسماء - على ما تقول الرواية - فانطبع في خياله صور لا تمحى للسماء وشمسها، وبدرها ونجومها؛ ولم يكن لينسى البحر - ولم ركبه! - وقد بعث في عناصر الطبيعة من الحياة ما عهدناه في وصفه عموماً، كقوله مخاطباً مدينة زحلة :

ضَمَّتْ ذِرَاعِيهَا الطَّبِيعَةَ رِقَّةً صَنِينُ وَالْحَرَمُونَ فَأَحْتَضَنَّاكَ

الا ان الشاعر، على احيائه مَوَات هذه الطبيعة، قلما يمزج فيها عواطفه، فهي على الغالب بعيدة عن نفسه لا يعنيه منها سوى تصوير خارجي بارع، اللهم الا في قصائد قليلة من مثل « غاب بولونيا » حيث جاء بآيات مليئة « بحس الطبيعة » .

٧ شوقي والتجديد (الدب - البساطة - الاجتماع - المسرح) :

عاد شوقي من المنفى وقد تحررت ربة شعره من قيود الرسميات، واذا بالنبي قد حدّ

(١) مرموق الرؤاء : ملحوظ البهاء (٢) انبجست : انشقت . الحين : الهلاك .

من أثرته، فوسّع آفاقه وشجّد شاعريته، فانفتح على عالم جديد كان قد جهله أو تجاهله، اعني به عالم الشعب وتوابعاته؛ واستلهمه فألممه، واذا بالشاعر يشد الى قيثارته اوتاراً تنطق بهذه النزعات، فمنها الجديد الجديد، ومنها القديم الناطق بنغمات ليست من القدم في شيء، بل هي من وحي العصر الذي عاش فيه شوقي . أما الاوتار القديمة التي وقّع عليها أنعاماً جديدة فهي الدين والسياسة والاجتماع، وأما الوتر الجديد فهو وتر الشعر المسرحي .

١ - الدين : بدأ شوقي شعره الديني، على عادته، بالتقليد، فكأنه ابنى الا معارضة الشعراء في كل فنونهم . فعارض، في « نهج البردة » و « الهمزية النبوية »، بردة البوصيري وهمزيته . ولم يكتفِ بمدح محمد، بل تجاوزه الى الاسلام والمسلمين، فنظم وهو في الاندلس كتاب « دول العرب وعظما الاسلام » ولكن ان نحن استثنينا من كل ذلك الهمزية النبوية ومطلعها :

وُلِدَ الْهَدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءُ وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَثَنَاءُ

وقصيدة « صقر قریش » ومطلعها :

مَنْ لِنِضْوٍ يَتَنَزَّى أَلَمًا بَرَّحَ الشَّوْقُ بِهِ فِي الْغَلَسِ

كان اكثر ما تبقي من هذه الحلقة اقرب الى الشعر التعليمي منه الى النفس الشعري الصحيح :

أَخْلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ أَرْبَعَةٌ مَرْضِيَّةٌ سُنَّتُهُمْ مُتَّبَعَةٌ
الْعُمَرَانِ وَأَبْنُ أَرْوَى وَعَلِيٌّ فِي الذُّرُورَةِ السَّمَاءِ وَالْأَوْجِ الْعَلِيِّ

على أن لشوقي في الدين شعراً غير هذا، عليه قامت شهرة الشاعر وفيه بدت شخصيته الدينية بأجلى مظاهرها .

(١) النِضْوُ : المهزول - يتَنَزَّى : يتوَّج - (٢) العُمَرَانِ : ابو بكر وعمر بن الخطاب .
- ابن أروى : عثمان بن عفان .

١ مصدره : لم يكن شوقي من المتشبهين بفرائض الديانة ، فهو يشرب الخمر سرّاً وعلناً، وهو يلهو في مجالس اللهو، وهو يتكاسل عن الحج من غير ما حرج . ولكنّه، على ذلك كله، مؤمن، ثابت العقيدة ، عظيم الثقة بعفو الله :

إِنْ جَلَّ ذَنْبِي عَنِ الْغُفْرَانِ لِي أَمَلٌ فِي اللَّهِ بِمِغْنَتِي فِي خَيْرِ مُعْتَصِمٍ

وكان الدين حاجة في نفسه لا راحة له بدونه، فقلّ ان تخلو له قصيدة من تلميحات دينية مختلفة .

٢ موضوعه : الاسلام : تغنى شوقي بالاسلام كأفضل ما تُغنى به فاكثر من ذكر محمد والصحابة والقرآن والخلفاء، والهلل وما الى ذلك، في نبضات لا تصدر الا عن قلب عامر بالايان .

ولا عجب فالشاعر راسخ الاعتقاد، خور بدينه، غيور على الاسلام والمسلمين . فان وصف مجي . محمد هتف متهللاً :

أَشْرَقَ النُّورُ فِي الْعَوَالِمِ لَمَّا بَشَّرَهَا بِأَحْمَدَ الْأَنْبَاءِ . . .
أَشْرَفَ الْمُرْسَلِينَ، آيَتُهُ النُّطْقُ مُبِينًا وَقَوْمُهُ الْفُصَحَاءُ

ويستعرض الشاعر الدول الاسلامية منذ نشأتها حتى بني عثمان، فلا يغفل ان يفاخر بها اعظم الدول القديمة كالامبراطورية الرومانية :

فَمَا احْتَوَتْ فِي طَرَاظٍ مِنْ قِيَاصِهَا عَلَى رَشِيدٍ وَمَأْمُونٍ وَمُعْتَصِمٍ
مَنْ الذِّينَ إِذَا سَارَتْ كُتَابُهُمْ تَصَرَّفُوا بِحُدُودِ الْأَرْضِ وَالشَّخْمِ

— بقية الاديان : غير ان شوقي، على استمساكه الشديد بدينه، لم يكن واحداً من ارباب التعصب الذين تضيق نفوسهم اذا كان لغيرهم مذهب يختلف عن مذهبهم، فقد كان شوقي سمحاً واسع الصدر . فاسمعه يقول في القسطنطينية وقد حوّلت عن سلطة الروم الى المسلمين :

أَدَارَ مُحَمَّدٌ وَثَرَاتَ عِيسَى لَقَدْ رَضِيَاكَ بَيْنَهُمَا مُشَاعَا
فَهَلْ نَبَذَ التَّعَصُّبَ فِيكَ قَوْمٌ يَمُدُّ الْجَهْلُ بَيْنَهُمَا تَرَاعَا

ولعلّ تخرُّج شوقي في مدارس اوربة، حيث حرية الفكر والاديان، كان له اثر في هذه النشأة المتساحمة، فالشاعر يحترم كل الديانات، حتى ان الالهة القديمة نفسها لها في شعره من الاحترام والمهابة ما يُخجل اليك ان الشاعر مؤمن بها . اما التوراة وموسى، فذكرهما يتردد كثيراً، واتى وردا كانا محترمين معظمين :

أَرْسَلَتْ بِالتَّوْرَةِ مُوسَى مُرْشِدًا وَابْنَ الْبَتُولِ فَمَلَّمَ الْإِنْجِيلَا

اما المسيح فإنه يحل مع أمه وانجيله من شعر شوقي في المكان السامي، وهو يصف مجيئه في شعر كأنه تنفّس الفرج للبشرية المتألّمة :

وُلِدَ الرَّفَقُ يَوْمَ مَوْلِدِ عِيسَى وَالْمُرُوءَاتُ وَالْهُدَى وَالْحَيَاءُ

وربما اتخذ من تعاليم الانجيل سبيلاً الى مخاطبة الدول المسيحية في ما يتعلق بالسياسة والسلام، كقوله للورد النّبي في قصيدة « مشروع ٢٨ فبراير » :

يَا فَاتِحَ الْقُدْسِ خَلِّ السِّيفَ نَاحِيَةً لَيْسَ الصَّلِيبُ حَدِيدًا كَانَ بَلْ خَشْبًا
إِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَيْنَ انْتَهَتْ يَدُهُ وَكَيْفَ جَاوَزَ فِي سُلْطَانِهِ الْقُطْبَا
عَلِمْتَ أَنَّ وَرَاءَ الضَّعْفِ مَقْدَرَةٌ وَأَنَّ لِلْحَقِّ لَا لِلْقُوَّةِ الْغَلَبَا

٢ - السياسة : عاصر شوقي احداثاً سياسية خطيرة، وكان له في اكثرها رأي يبديه او عاطفة يميل معها، فظهر شعره وعليه من ألوان السياسة ما كانت توحي به الى الشاعر عاطفته، او عقيدته .

١ شوقي وتركية : كانت مصر منذ زمن محمد علي (١٨٤١) قد استقلت عن تركية في شؤونها الداخلية ؛ على ان نفوذ الدولة العثمانية ظلّ عظيماً لان الخلافة كانت في بني عثمان، فكانت الاستانة اشبه بعاصمة الشرق الاسلامي بأسره .

وقد رأينا كم كانت عميقة عاطفة شوقي الإسلامية، فلا عجب ان يصدق الولاء للدولة العثمانية صاحبة الخلافة؛ ثم ان الشاعر لم يكن لينسى اصله التركي وما يبعث ذلك الاصل في النفس من ولاء للاتراك. زد على ذلك ان شوقي كثيراً ما قصد الاستانة، فوجد اطيب الحفاوة والترحاب؛ فكان من اثر ذلك كله ان مال الشاعر ميلاً عظيماً الى الاتراك وسياستهم.

وقد تتبع شوقي سياسة المتبوع الاعظم ونظم في اهم الحوادث السياسية التركية. في ٢٤ تموز ١٩٠٨ اضطرَّ السلطان الى اعلان الدستور فتهلل الشرق بأجمعه لهذا النبأ، ولا سيما الاتراك، فكان لشوقي ان يشاطرهم افراحهم بقصيدته:

بُشْرَى الْبَرِّيَّةِ قَاصِيَهَا وَدَانِيَهَا حَاطَ الْخِلَافَةَ بِالْدُسْتُورِ حَامِيَهَا

ولا بأس في اعلان الدستور ما دام الحكم لعبد الحميد.

ولكن القوم عرفوا بعد حين ان السلطان يعمل على خنق الدستور وإبطاله، فثاروا وخلعوه في ٢٧ نيسان ١٩٠٩، فأحدث هذا النبأ في الشرق كله نشوة فرح، لما قاست السلطة العثمانية من جور هذا العاهل، فألف الكتّاب وتغنّى الشعراء بخلعه، ولكن شوقي لم يجارهم في آرائهم فنظم قصيدته:

سَلْ يَلْدِزْ اذَاتَ الْقُصُورِ هَلْ جَاءَهَا نَبَأُ الْبُدُورِ

وفيها للسلطان المخذول تبجيل كثير، ولكنه تعظيم يرافقه عتاب لطيف لمن ضنَّ بالدستور.

على ان شوقي يتعزى عن خلع السلطان الذي يحبه، بأن الحكم والخلافة باقيان في يد الاتراك، وذلك حسبه، فيمدح ابطال الدستور كأنور ونيازي وشوكت، ويبايع الخليفة الجديد محمّداً رشاداً الخامس اخا السلطان عبد الحميد.

(١) يلدز، في التركية، اسم نجم، وقد سمي به قصر عبد الحميد. - ضمير المخاطب غائد الى السلطان.

ولم يكن شاعرنا ليغفل عن السياسة التركية حتى بعد الحرب الكبرى وبعد انقطاع كل علاقة لمصر بالأتراك، فهو يفرح بانتصارهم على اليونان ولكن ما اسرع ما ينقلب فرحه حزناً على الخلافة التي اغاها مصطفى كمال .

ثم تقوم الجمهورية على بقايا « الرجل المريض » فيفرح شوقي آملاً ان الجمهورية تعود على الاتراك بالخير، ولكنه لا يزال يُلمح الى الخلافة ويُلمح في عودتها الى الاتراك دون العرب . فشوقي، وان ظهر متقلباً في السياسة التركية، ثابت على عقيدة راسخة تقوم برفع الاتراك واعلاء شأنهم، ايأ كان نوع الحكومة فيهم، ثم بان تكون الخلافة فيهم - سواء اكانت وراثية او شوروية - لانهم اجدر بها من غيرهم .

٢ شوقي ومصر : لقد أحب شوقي وطنه حباً عظيماً، وحن اليه حنيناً صادقاً أيام كان منفياً في الاندلس :

يا ساكني مصرَ إِنَّا لَا تَرَالُ عَلَى عَهْدِ الْوَفَاءِ - وَإِنْ غَبْنَا - مُقِيمِينَا
هَلَّا بَعَثْتُمْ لَنَا مِنْ مَاءِ نَهْرِكُمْ شَيْئًا نَبْلُ بِهِ أَحْشَاءَ صَادِينَا
كُلُّ الْمَنَاهِلِ بَعْدَ النَّيْلِ أَسْنَهُ مَا أَبْعَدَ النَّيْلَ إِلَّا عَنْ أَمَانِينَا

وقد بلغت به عاطفته هذه الى نوع من تقديس الوطن :

وَطَنِي لَوْ شُغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ فَارْغَعْنِي إِلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي

وما وقوف الشاعر على روائع الآثار المصرية من تماثيل واحجار، ومدافن وخرائب يستوحىها مفاخر الجدد ويستلهمها عبرة للاحفاد، ما كل ذلك سوى صدى لنفس عُلقت احلامها بوادي النيل القديم، فأحبته في نهره ورماله، في هياكله وأهرامه، في فراعنته واعلامه، في حضارته وعلمائه الذين مدّنوا العالم

فَكَانُوا الشُّهُبَ حِينَ الْأَرْضُ لَيْلٌ وَحِينَ النَّاسُ جِدٌّ مُضَلَّلِينَ
مَشَتْ بِمَنَارِهِمْ فِي الْأَرْضِ رُومًا وَمِنْ أَنْوَارِهِمْ قَبَسَتْ أَثِينَا

فمصر القديمة المليئة بالمفاخر، ملكت على الشاعر عواطفه، فأصبحت كأنها موضوع عبادته :

إخْفِضْ جَنَاحَكَ فِي الْأَرْضِ الَّتِي حَمَلَتْ مُوسَى رَضِيْعًا وَعِيسَى الطَّهْرُ مُنْفَطِحًا...
هَذَا فِضَاءٌ تَلُمُّ الرِّيحُ خَاشِعَةً بِهِ وَيَمِشِي عَلَيْهِ الدَّهْرُ مُحْتَسِمًا

ولكنها لم تكن لتنسيه مصر المعاصرة وقد تتابعت فيها الاحداث والازمات السياسية في اقل من خمسين سنة، فكان لها في شعر شوقي صدى مزدوج النعمة، امترج أولًا بسياسة القصر ثم عاد فاقترب من سياسة الشعب .

— سياسة القصر : كان شوقي منذ اول عهده يسمو الى ان يكون « شاعر الخديوي صاحب المقام الاسمى في البلاد »؛ وقد وُفق الى ذلك منذ عودته من فرنسا فظنَّ من واجبه تأييد سياسة القصر ايةً كانت حفاظاً على مركزه واعترافاً بفضل اولياء نعمته ؛ وظلَّ بعيداً عن الشعب يتجاهل آماله ولا يشعر بآلامه .

— سياسة الشعب : عاد الشاعر من الاندلس، فغزَّ عليه اولاً فراق القصر، ولكنه رضي بالحرية المفروضة عليه، ثم ما لبث ان اطمان اليها، لا بل أحبَّها وُشغف بها عندما رأى ابناء امته يسفكون دماءهم في سبيلها؛ فاذا به ينزل من برجه العاجي، ويمشي في الشارع مع بني قومه ويتحدث اليهم، ويتعرف افراحهم واحزانهم فتمترج نفسه بنفوسهم وتحتلط آماله ونزعاته بآلامهم ونزعاتهم، فاذا هو لسان الشعب وترجمانه الصادق .

فإذا كلَّم صاحب العرش فؤاداً اخا حسين لم يكلمه مملقاً ولا مترقلاً بل مطالباً بنجير الشعب ومصالحه وحرية سواء كان ذلك بالتلميح ام بالتصريح :

زَمَانُ الْفَرْدِ يَا فِرْعَوْنَ وَوَلَّى وَدَالَتْ دَوْلَةُ الْمُتَجَبِّرِينَ
وَأَصْبَحَتِ الرَّعَاةُ بِكُلِّ أَرْضٍ عَلَى حُكْمِ الرَّعِيَّةِ نَازِلِينَ
فَعَجِّلْ يَا أَبْنَ إِسْمَاعِيلَ عَجِّلْ وَهَاتِ الثُّورَ وَأَهْدِ الْخَاطِرِينَ

فداو به البصائرَ فهو عيسى وفك براحتيه المقعدينا

واذا ذكر ابطال الامة قام يؤدي لهم حقهم من الاجلال، بعد ان تناساهم زمناً، وراح يحيتي مثلاً بطل الحركة القومية مصطفى كامل بعد سبع عشرة سنة من وفاته .

وملخص هذه السياسة ان تكون مصر مستقلة تمام الاستقلال في شؤونها الداخلية والخارجية، وان لا تدع يد الاستعمار او التدخل الاجنبي تصل اليها بنوع من الانواع . اما الحكم فيجب ان يكون وراثياً في بني اسماعيل مقيداً بدستور يضمن للشعب حق تمثيله في المجلس، ويوطد العدل بين الافراد والجماعات، ويضم عناصر الامة على اختلاف مذاهبهم في وحدة قومية لا تتجزأ .

٣ شوقي والشرق العربي : لم تكن عاطفة شوقي المصرية لتنسيه الاقطار العربية الشقيقة فنظم في الشام والعراق ولبنان، لا بل تغنى بالشرق العربي كله، منطقاً وتر الجوار واللغة والقراية :

وما الشرقُ إلا أسرةٌ أو قبيلةٌ تلمُّ بنينا عند كلِّ مُصاب

وقد ألف رواية مجنون ليلى، واميرة الاندلس، وعنترة، وكلها من الموضوعات العربية البحتة، ومن نظم السنوات الاخيرة « من حياته، بعد ان آمن بالنزعة العربية الكبرى ووطد النفس على ان يكون شاعر الغرب الاكبر اي شاعر البلاد التي يتكلم اهلها باللسان العربي، اياً كانت اصولهم واياً كان الدين الذي يدينون به . » واذا للشرق العربي كله في قلب الشاعر اصداً صادقة في حالتي فرحه وحزنه :

- كلما أن بالِعِراقِ جريحٌ كسَّ الشرقُ جنبه في عُمانه

- كان شعري الفناء في فرح الشرق وكان العزاء في أحزانه

لقد نظم شوقي من قبل في الشرق، ولكن الشرق كان حينئذ اسير الدولة العثمانية ؛ اما الآن فالشرق متوثب الى الاستقلال والتخلص من قيود الاستعمار،

تغذوه في نضاله مُثل عليا، يلتبسها الشاعر في نفوس القوم، « يلتبسها في الصحف، يلتبسها في الكتب، يلتبسها في الاندية، يلتبسها في الشوارع والقهوات والاسواق والحوانيت، يلتبسها حيث تعيش وحيث تنمو، لا حيث كان يلتبسها من قبل في قصر الامير، وفي ظل السلطان »، واذا به يصعد في شعره درجة جديدة، فمن شاعر القصر الى شاعر مصر، ومن شاعر مصر الى شاعر الشرق العربي .

* * *

واذا ما نحن نظرننا الى الدرجة السامية التي بلغها شوقي في الشعر السياسي رأينا ان الفرق عظيم بين شعره وشعر الاقدمين في هذا الباب . فقد فهم شوقي السياسة على غير المعنى الضيق الذي فهمه اكثر الاقدمين، ووسع صدره لكل دين وكل جنسية وكل نزعة، ولم يتناول في شعره السياسي العالي قبيلة او افراداً او جماعات او احزاباً، بل الدولة كلها، بل الشرق اجمع، وحاول التوحيد بين عناصره في غيرة عظيمة، يردد صوته ونزعاته في بوق الشعر؛ وهكذا كان مؤرخ عصره .

وان فهمنا بالمؤرخ من يكتفي بسرد الاحداث والسير لم نخرج عمّا كتبه شوقي في كتابه « دول العرب وعظماء الاسلام » . اما اذا فهمنا بالشاعر المؤرخ ذاك الذي يستشف من خلال الوقائع والاحبار، ومن بين الاسماء والآثار عواطف بشرية ومثلاً عليا، ان فهمنا به ذاك الذي يعيد الماضي حياً نابضاً او يستعرض الحاضر مستطلعاً خفاياه ومعبراً عن عواطفه، ومُصدياً لنزعاته، فشاعرنا من اقدر الشعراء المؤرخين عند العرب، ان لم نقل اقدرهم على الاطلاق .

٣ - الاجتماع : لقد احب شوقي وطنه في ماضيه فاحيا آثاره، واحبه في حاضره فأيد سياسته، واحبه في مستقبله فاراد ان يهيئه له كأفضل ما يكون التهيء، فتناول بعض النواحي الاجتماعية، وعالجها في شعره ومما عالج التربية، والمرأة والعمل:

١ - التربية : هي في نظر الشاعر الركن الاساسي الذي يقوم عليه صرح الاستقلال والرقى، لا بل هي العنصر الذي تنهار بدونه حياة الامة الادبية والعقلية، فتركها

تَرْكُ النُّفُوسِ بِلَا عِلْمٍ وَلَا أَدَبٍ تَرْكُ الْمَرِيضِ بِلَا طِبِّ وَلَا آسِ

فالعلم نور لا يحق حجبهُ، بل هو كنز مشاع لا يجوز لاحد ان يستأثر به، فتحويه
على النساء ظلم صارخ وجريمة كبرى تنالهن وتنال ابناهن، بل تنال الوطن نفسه :
وَإِذَا النِّسَاءُ نَشَأْنَ فِي أُمِّيَّةٍ رَضِعَ الرِّجَالُ جِهَالَةَ وَنُحُولًا

ورسالة المعلم تكاد تكون سماوية، وهي اشرف الاعمال واجزلها نفعا على البلاد :
أَعْلَمْتُ أَشْرَفَ أَوْ أَجَلَّ مَنْ الذِّي يَبْنِي وَيُنْشِئُ أَنْفُسًا وَعُقُولًا

ولما كانت اساليب التعليم يومئذ بعيدة عن الروح العصرية حمل الشاعر حملة شريفة
على تلك الاساليب البالية وما فيها من صعوبة تكرره الى الطالب حياة الدراسة .

وتحبيبا للعلم، وغيره على بث المبادئ الاخلاقية والاجتماعية في النشء الطالع،
خص شوقي الاحداث بقسم وافر من اوائل منتوجاته الشعرية، فنظم لهم ادعية
مختلفة المواضيع (دعاء الصباح، دعاء النوم) واناشيد وطنية ومدرسية تمتاز في
الغالب برشاقة الالوزان، وعذوبة الالفاظ، وجمال الغنة الموسيقية .

وقد ألف لهم ايضاً في اوائل عهده بالشعر ما يربو على الخمسين اسطورة بين
قصيرة وطويلة، منها القليل من ابتكاره والكثير من وحي مشاهير ارباب الامثال
القدماء كايروب وفيدر وصاحب كيلة ودمنة ولافونتين . ولهذه الاساطير قيمة
اخلاقية واجتماعية لا تنكر، فهي تتناول الاغراض التي يتناولها الشعر التعليمي
عادة من حض على الفضائل ولاسيما النشاط في العمل، وحفظ الوفاء في الصداقة،
وتدبر الامور قبل وقوعها، وتقبيح للرذائل، ولاسيما الخمول والغدر والتهاون .

اما قيمتها الادبية فهزيلة إجمالاً، فإما عمل متماثل الخطو او عقدة رخوة الإحكام
تافهة المتعة، او تصوير للاشخاص بعيد عن الطبيعة والدقة، او تعبير لا يلائم الموقف؛
فان اتصفت اسطورة من تلك الاساطير بالرشاقة وخفة الروح، وحسن سياق القصة،
وحفظ المتعة، فما ذلك الا في القليل النادر، كما في قصة حمار السفينة :

سَقَطَ الحِمَارُ مِنَ السَّفِينَةِ فِي الدُّجَى فبكى الرِّفَاقُ لِفَقْدِهِ وَتَرَحَّمُوا
حَتَّى إِذَا طَلَعَ النَّهَارُ أَتَتْ بِهِ نَحْوَ السَّفِينَةِ مَوْجَةٌ تَتَقَدَّمُ
قَالَتْ : «خُذُوهُ كَمَا أَتَانِي سَالِمًا، لَمْ أَبْلِعْهُ لِأَنَّهُ لَا يُجْضَمُ»

٢ المرأة : عاصر الشاعر ظهور الحركة النسائية في مصر واتساع نطاقها على يد زعيمها قاسم امين، فترك الشعر التهذيبي، وناصر الحركة الجديدة، وقد عرض منها بنوع خاص لضرورة تعليم المرأة، ثم لقضية الزواج والحجاب .

اما زواج الفتيات فيريده الشاعر حراً على غير اكراه البتة، بعيداً عن ان يكون عقد بيع وشراء بين اهل الفتاة واهل زوجها . ومما يستنكره شوقي خصوصاً في هذا الباب تزويج الفتيات بالشيب :

أَلْمَالُ حَلَّلَ كُلَّ غَيْرٍ مُحَلَّلٍ حَتَّى زَوَّاجَ الشَّيْبِ بِالْأُبْكَارِ
مَا زُوِّجَتْ تِلْكَ الْفَتَاةُ وَإِنَّمَا بَيْعَ الصَّبَا وَالْحُسْنُ بِالْذِينَارِ

اما الحجاب فقد حافظ عليه الشاعر في أسرته، ولكنه لم يكن ليطمئن اليه، فان هو اضطرَّ زمناً الى القول بضرورته كما فعل في قصيدته « صَدَّاح » فما ذاك الا ارضاء لتقاليد البلاط، حتى اذا تخلَّص من رسمياته نقض قصيدته بغيرها :

قُلْ لِلرِّجَالِ : طَمَى الْأَسِيرِ طَيْرُ الْحِجَالِ مَتَى يَطِيرُ
أَوْ هِيَ جَنَاحِيهِ الْحَدِيدُ وَحَزْ سَاقِيهِ الْحَرِيرُ

وقد ألمع في كثير من قصائده الى ضرورة التخلص من نير الحجاب :

فَقُلْ لِلْجَانِحِينَ إِلَى حِجَابٍ أُنْجَبُ عَنْ صَنِيعِ اللَّهِ نَفْسُ
إِذَا لَمْ يَسْتُرِ الْأَدَبُ الْغَوَايَا فَلَا يُغْنِي الْحَرِيرُ وَلَا الدِّمَقْسُ^٢

(١) الحجال : جمع حَجَلَة وهي خدر المرأة . وكنى بطير الحجال عن المرأة اشارة الى قصيدته الاولى « صدادح » التي كان قد كنى فيها عن المرأة بيلبل جميل سجن خوفاً عليه من شباك الصيادين
(٢) الدمقس : الحرير الابيض .

ففقيدته الاساسية هي ان للمرأة حق الظهور على مسرح المجتمع من غير تقنّع
فان لم تكن التربية الصالحة معقل الفتاة الحصين كان الحجاب لها سجنًا لا حصناً .

٣ العمل : واراد شوقي الاهابة بمواطنيه الى العمل في سبيل الرقي وال عمران
واراد ان يكون عملهم في وئام تام . ومن اشهر قصائده في ذلك «مملكة النحل» .

* * *

٤ - المسرح : لقد اراد شوقي ان ينظم المسرح منذ كان في فرنسا، فوضع رواية
علي بك الكبير، ثم لم يرض عنها فانصرف عن الفن التمثيلي، وخاض الشعر في
الابواب التي اتينا على ذكرها . غير انه أبقى - بعد مبايعة الاقطار العربية له بإمارة
الشعر - الا ان يتوفر على المسرح، ويسد في الادب العربي ثلثة لم يعد من مسوغ
لبقائها . فألف مسرحياته في السنوات الاربع الاخيرة من حياته . وها نحن نورد
بإيجاز تعريفاً لبعض هذه الروايات، ثم نلقي نظرة عامة على قيمة المسرح في شعر
شوقي .

مصرع كليوباترا (١٩٢٩)

١ - زمان الرواية ومكانها : تجري حوادث هذه الرواية في الاسكندرية
وأرباضها حوالي السنة الثلاثين قبل المسيح .

٢ - موضوعها : تعشق انطونيوس القائد الروماني لكليوباترا ملكة مصر،
وانكاره رومة في سبيلها ؛ ومحاربة الرومان له واستيلائهم على مصر .

٣ - سيرها : الفصل الاول : الظافر الضعيف .

المنظر الاول : (في مكتبة الملكة) : كليوباترا تكذب ما شاع بين الشعب
من ان اسطولها عاد ظافراً من معركة اكشوم البحرية التي دارت بينها وبين انطونيوس
من جهة وبين اكتافيوس القائد الروماني من جهة أخرى . فالحق انها غدرت بمحبوبها
وانسلت عنه بأسطولها لكي يتفانى اسطول الرومان وتسود مصر على البحر :

وتَيَسَّنَتْ أَنْ رُومًا إِذَا ذَا لَتَ عَنِ الْبَحْرِ لَمْ يَسُدْ فِيهِ غَيْرِي

المنظر الثاني : (في احدى غرف القصر) : الملكة تعقد زواج حالي امين المكتبة، وهيلانة، وصيفة كليوباترا، بحضور الكاهن انوبيس . ثم يدخل انطونيوس فيقص خبر انتصاره في المعركة، وكيف انه عاد عن مطاردة عدوه شوقاً الى الملكة ؛ ثم يطلب ان تقام وليمة عظيمة، فتأمر كليوباترا باعدادها، غير متحرّجة من تشويه صفحة رومة، بما يشيّر سحق القوّاد .

الفصل الثاني : (في غرفة الولاثم) : الوليمة . تقام الوليمة على شرف انطونيوس وكليوباترا فيزداد سحق القوّاد لما يسمعون من تعريض الملكة برومة ؛ وتبدو منهم بوادر التمرد على من خان وطنه في سبيل هواه . وبعد ان ينال القائد مبتغاه من الشراب، يستأذن الملكة في العودة الى مطاردة العدو، فتحثّه وتشجعه وينتهي الفصل بهذا البيت :

يَا لَيْثُ سِرْ، يَا نَسْرُ طِرْ، عُدْ ظَافِرًا أَوْ لَا تَعُدْ

الفصل الثالث : (معبد الاسكندرية) : مصرع القائد . فرّ انطونيوس من الحرب وقد تألبت عليه جنوده . فوقف يستريح في ظلّ شجرة بجانب المعبد وغلّامه اوروس يلاطفه . واذا بالطبيب اولمبوس يخبره كذباً بانتحار كليوباترا جزعاً عليه في انكساره ؛ فيستغفر رومة لانه خانها، وكليوباترا لانه اتهمها بالغدر، ثم يطلب من غلامه ان يقتله فيأبى ويقتل نفسه، فينتحر انطونيوس على اثره .

وتأتي الملكة الى المعبد، وتطلب من الكاهن - اذا رأى العرش في خطر - ان يبعث لها في سلة من التين بحبة سريعة الفتك لا تشوه الجمال، لتقضي بها على نفسها . وبينما هما في هذا الحديث اذا بثلاثة جنود رومانيين يرون بقرب المعبد فييصرون انطونيوس الجريح فيخفّ احدهم لإخبار اكتافيوس، ويحمّله الآخران الى داخل المعبد حيث تبكيه كليوباترا وتناديه في لوعة، فيستفيق لحظة من اغماؤه،

ويطلع على خدعة الطبيب اولمبوس ثم يموت بين ذراعيها . ويأتي اوكتافىوس فيتحقق له مصرع القائد فيقبل رأسه ويودعه قائلا :

أَقْبِلْ مَا قَبَّلَ الْفَارُ مِنْكَ وَأَهْتَفْ : أَنْطُونيوسُ الْوَدَاعُ !

الفصل الرابع : (غرفة العرش) : مصرع كليوباترا . الملكة تناجي انطونيوس الراحل ثم تقص على وصيفتها كيف اراد اوكتافىوس ان تكون زينة غنائمه في عودته الى رومة . ثم يأتي حاي بسلال التين فتعلم ان العرش في خطر، فتودع قصرها وحوض ازهارها، ويغني لها إياس المغني نشيد الموت . وبعد ان تودع ولدها قيصرين ووصيفتيها، تأخذ الحية فتدنيها من صدرها فتلدغها وتموت ؛ وتفضل شرميون وصيفتها فعلها فتموت، ثم تحذو هيلانة حذوها فيدركها الكاهن ويخلصها بترياقه من الموت . فيأخذها حاي ويذهب بها الى طيبة . ثم يأتي اوكتافىوس ومعه اولمبوس فتلدغ الحية الطبيب، ويودع القائد جثة كليوباترا ثم يخرج فيبقى انوبس وحده مهدداً رومة والرومانين :

قَسَمًا مَا فَتَحْنُمُ مِصرَ لَكِنِ قَدْ فَتَحْنُمُ بِهَا رِومَةَ قَبْرًا

٤ - اشخاصها : كليوباترا : لها في الرواية صورتان : صورة المرأة وصورة

الملكة :

١- كليوباترا المرأة : ان اول ما تظالنا به الرواية من اوصاف كليوباترا هو انها عاشقة مسترسلة في الشهوات وهي تقرر بذلك على نفسها وتقول :

فَجَعَلْتُ لَذَاتِ الْهَوَى أَشْغَالِي

ويشهد به عليها الآخرون . ومما يساعدها في نصب حبالها كونها جميلة يقر لها الجميع بالجمال الساحر، وهي نفسها شديدة الحرص على جمالها تريد لنفسها موتاً يصون الجمال ولا يُبطل سحر الجفون . وهي وفيّة لانطونيوس ما دام هذا الغرام لا يناقض سياسة مصر . وهي، الى ذلك، مولعة بالقراءة انشأت مكتبة عظيمة تتردد اليها كل يوم فتتسنى في المطالعة همومها واطراحها .

ثم انها ربة بيت تعطف على اولادها وتسعى في إسعادهم، ولا تنساهم في صلاتها . وفي القصر غير الاولاد، فالخدم والوصائف والكاهن وغيرهم ينالون من عطفها الشيء الكثير، فهي تسهر على سعادتهم وتعاملهم بالرفق واللين معاملة البنين .

٢ كليوباترا الملكة : تبدو كليوباترا الملكة شديدة الدهاء . وقد وصفت نفسها بقولها للافعى :

هَلْ سَمِي عَانَقِي أَفْعَى قُصُورٍ جِئَا شَوْقٌ إِلَى أَفْعَى التَّلَالِ

ودهاؤها هذا يحملها على بُعد النظر في الامور وسوء الظن بالناس : ليست سموم الأراقم في الحبث دون سموم البشر ؛ ولكنها استعملت دهاءها في سبيل سياستها المصرية، فانطونيوس حبيبها ولكنه ايضا اداة لاضعاف رومة وسيطرة مصر . فاذا قام خلاف بين حبها ووطنيتها لم تتردد في بذل الجمال دون الوطن :
أموتُ كما حبيبتُ لعرشِ مصرِ وأبذلُ دونهُ عرشَ الجَـمـالِ

ولكليوباترا كثير من الصفات التي تجب الملوك، اخصها الاباء والجوأة، ولا سيما الحلم .

انطونيوس : مزيج من القوة والضعف . هو القوة في كل حياته الماضية قبل تعلقه بكليوباترا، غير ان القوة قد تحولت فيه الى ضعف والشجاعة الى جبن منذ وقع في حبائل تلك المرأة . وقد خدعته مرتين فلم يفتر عن حبها، فانكر في سبيلها الوطنية الرومانية . وفرّ من المعركة، حتى اذا بلغ ساعته الاخيرة كان هو نفسه اصدق مصوّر لنفسه، حين قال، مخاطباً كليوباترا :

- قَدْتُ الْجَحَافِلَ وَالْبَوَارِجَ قَادِرًا مَا لِي ضَعُفْتُ فَقَادَنِي جَفْنَاكَ

- بَطْلٌ لَمْ قَطَفَرِ الْحَرْبُ بِهِ، فِي الْحَوَى، تَحْتَ لَوَاءِ الْحُبِّ، مَاتَ

ولكنه عاد يستغفر وطنه ويودّع رومة بأبياته الشهيرة :

رُومَا حَنَانِكَ وَأَغْفِرِي لِفَتَاكِ أَوَّاهٍ مِنْكَ وَأَمْرٌ مَا أَقْسَاكَ

اكتافيوس : قائد روماني شجاع سمح النفس، يغفر لانطونيوس بعد موته
ويقدره حق قدره .

انوبيس : كاهن ورع، عالم بالافاعي والسموم، عميق العاطفة الوطنية المتجلية
في بغضه لرومة، وولائه لكليوباترا الذي لا يفوقه سوى ولاءه لمصر .

حابي : هو مثال للمقربين الذين، ان لم تستمر عليهم النعمة، تذمروا وطعنوا
بذوي نعمتهم السالفة، فاذا عاودهم العطاء، انقلب تشكيهم ثناء .

هيلانة وشرميون : وصيفتا الملكة وقد احبها حباً شديداً قابلته كليوباترا
بالعطف والحنو .

اولمبوس : طبيب روماني عند الملكة؛ وقد نعى الى انطونيوس عشيقته
كذباً لما رأى خيانتها لرومة، فكان النبأ سبباً لانتحاره .

اوروس : غلام انطونيوس فيه لمولاه ما في الوصيفتين من الولاء والمحبة لكليوباترا .

٥ - قيمتها : لا شك ان مصرع كليوباترا اكمل مسرحيات شوقي، وقد وفق
في الكثير من نواحيها الفنية وان لم يبرأ فيها من بعض السقطات .

١ - حسناتها : قد وفق الشاعر الى خلق اللون المحلي فالرواية كلها تجري في
بيئة مصرية قديمة تتجلى فيها العوائد المصرية من تربية الافاعي، وكثرة التشبيه بها،
ومن كهانة العرافين الذين يحاولون استكشاف المستقبل في الأكف . اما الاخلاق
فقد اجاد في تصويرها حتى لقد افرغ « كل ما في جعبته من فن وابداع، غير مبقر
على شيء لما يتبع » . وقد حاول البعض ان ينكروا على كليوباترا شخصية بليغة
المعالم واضحة الخطوط، لكثرة ما تناوله شوقي من النواحي في تصويرها، ولكن شخصية
كليوباترا لا تزال متماسكة الوحدة على كثرة مظاهرها، فكل ما فيها يخضع لحبها،
وحبها يخضع لوطنيتها . اما الشعر وروعته فلا نظير لها في باقي مسرحيات شوقي،
ففي مصرع كليوباترا من المقطوعات والقائدات ما هو على كل لسان من مثل : انا
انطونيو وانطونيو انا - وروما حنانك واغفري لقتاك - وزنبقة في الانيسة -

واليوم اقصر باطلي وضلاي . . . - وفيها من المواقف والمفاجآت المسرحية شي . لا بأس به . ومن حسنات شوقي في هذه الرواية انه ختم كل فصل ببیت من الشعر يترك في النفس اثراً عميقاً .

٢ عيوجها : في الرواية من الحوادث ما لا يمتزج بموضوعها الاصلي كعشق الشيخ زينون لكليوباترا في المنظر الاول من الفصل الاول، وعشق حاي وهيلانة الذي يتمشى متطفلاً في كل القصة ؛ ومنها ما كان ممزجاً بالموضوع ، ولكنه نأفه يثقل سير العمل ، كالفصل الثاني بكامله، حيث مشاهد الوليمة والشراب لا تعود بكبير فائدة على العمل المسرحي . وهناك بعض المشاهد التي تضعف العمل المسرحي كمشهد حاي وهيلانة يتحاوران في الغرام وامامهما جثة الملكة المنتحرة .

مجنون ليلي (١٩٣١)

١ - زمانها ومكانها : تجري الرواية في بادية نجد والحجاز في عهد بني أمية .

٢ - موضوعها : استقى الشاعر موضوع الرواية من كتاب الاغاني، وملخصه ان قيساً احب ليلي ابنة عمه ؛ فشبب بها، ثم خطبها الى ابيها المهدي فأبى لاشتهار غزله فيها - ومن العار عند العرب تزويج الفتاة بمن يشبب بها - ؛ ثم ازوجها ورداً الشقفي، فخيّل بين العشيقين . فجنّ قيس ومرضت ليلي وما لبثا ان ماتا كلاهما .

٣ - سيرها : الفصل الاول (في حي بني عامر) : فشل العاشق . في مجلس السمر يُذكر ليلي امر قيس، فتبوح بحبها له، ولكنها لا ترضى به شريكاً لحياتها حفاظاً على عادات العرب، لان قيساً كان قد شبب بها واشتهر غزله . - وينصرف السامرون، واذا بقيس يظهر فيطلب ناراً فتأتيه بها ليلي، فيتحادثان طويلاً، وتحرق النار كنه وهو لا يشعر، فيغمى عليه فيدركه المهدي ويسعفه، ثم يطرده، وقد افتضح امره :

إمضِ قيسُ أمضِ جيثَ تطلبُ ناراً أم تُرى جيثَ تُسعلُ البيتَ ناراً؟

الفصل الثاني (طريق للقوافل على مقربة من حي بني عامر) : تشرد المجنون .

تشرد قيس وقد استعدى المهدي عليه السلطان فاهدر دمه . واذا ببلهاء الجارية تأتية بطعام من طبخ امه وهو شاة تُزَع قلبها وقرأ عليها العراف قائمه فهي الدواء لجنون قيس :

وشاة بلا قلب يدأونني بها وكيف يدأوي القلب من لا له قلب

ثم تظهر جماعتان من الصغار فتتغنى الاولى بهواه وتذمه الاخرى، فيهم بحصصهم ثم يسامحهم ويُغنى عليه، واذا بابن عوف، جامع الصدقات، يرب به ويحاول انعاشه على غير فائدة، ثم تمر قافلتان فما يصحو على ضجيجهما، حتى اذا سمع الثانية تتغنى باسم ليلي افاق للحال، واذا ابن عوف عنده فيعده ان يتوسط له عند المهدي، فيطير قيس ابتهاجاً .

الفصل الثالث (صحراء في جوار بني عامر) : الوسيط المردود . يأتي ابن

عوف وقيس الى حي بني عامر، فيغنى على المجنون لقربه من حمى ليلي . ويشور القوم بسلاحهم يريدون الفتك بقيس، فيحمله رفاقه خلف شجر البان، ويجول المهدي دون مرام القوم، ويكلمهم ابن عوف في شأن المجنون، فيرقون له . الا ان منازل يذكّرهم باشتهار ليلي في شعر قيس فتشور حفيظتهم عليه ثانية ولا ينقذه سوى بشر الذي يبين لهم ان منازل هو غريم قيس في حب ليلي وانه لم يتكلم الا حاسداً . فتقلب الانفعالات، وينتهي الامر بمبارزة بين منازل وبشر خلف المسرح، ويتبعهما القوم ولا يبقى سوى ابن عوف والمهدي . وتدعى ليلي، ويترك لها ابوها حرية الزواج بقيس فترفضه حفظاً لعوائد العرب، وتطلب الزواج بورد الثقفي الذي جاء يخطبها قبل ذلك بقليل، فينصرف الوسيط فاشلاً، يرافقه المهدي الى ما وراء شجر البان، وتبقى ليلي وحدها فما تلبث ان تبدي ندمها وأسفها الشديد على ما صرحت به من رفض قيس زوجاً لها .

الفصل الرابع : العاشقان . المنظر الاول : (قرية للجن) : عاد المجنون الى

تشرّده، فاذا هو في قرية للجن يلتقي فيها بشيطانه الأموي - ولم يكن من قبل يؤمن بوجوده - فرحبوا به وهدوه الطريق الى بني ثقيف، حيث وردّ قد تزوج بليلي .

المنظر الثاني (حي بني ثقيف) : يعلم المجنون من وردّ نفسه ان ليلي تساكنه مساكنة الشقيقة، لانه احترم حبها لقيس . ثم يمهد لها وردّ الاجتماع ويتركها، فيحاول قيس ان يغري ليلي بالفرار، فلا يجد عندها الا إباء فيتركها مغضبا، فتشكو آلامها لعفراء جاريتها ثم لوّرد نفسه .

الفصل الخامس (مقابر بني عامر) : صريعا الهوى . يظهر قبر ليلي - وقد قضت وجداً - والى جانبه مناظر الغزاء . وبعد انصراف القوم يقبل الغريض المغني وابن سعيد الشاعر مع رفيقه أمية ورجل من بني عامر، فينشد المغني نشيد وادي الموت امام القبر الجديد ثم ينصرفون . ثم يقبل قيس وزياد، فيلقاهما بشر، ويقاچي المجنون بنبا وفاة ليلي، فيُغمى عليه عند قبرها ثم يستفيق باكياً منشداً، ويظهر له شيطانه الاموي فيشتبه لانه كان علة بلواه، فيعزيه الشيطان ويجرّضه على متابعة الغريض الذي يخلّد اسم قيس وليلى ؛ ويظهر ابن ذريح الشاعر فيرثي ليلي ويعزي قيساً ؛ ويسمع قيس من جانب القبر داعياً يهتف باسمه ثم باسمه واسم ليلي فيموت ملياً النداء :

أصوات : قيس، ليلي !

قيس : رنة في أذني ردّدت قيس وليلى الفلوات
نحن في الدنيا وإن لم ترنا لم نمت ليلي ولا المجنون مات

٤ - اشخاصه : قيس : هو العاشق المولّه، يبلغ به العشق الى الجنون ؛ غير اننا لا نكاد نشعر بصورة بيتنة لهذا الحب فكلاهما بدا المجنون على المسرح أغمي عليه ، وكأن شوقي اراد ان يوّه على ضعفه في التحليل النفسي بشهقات وزفرات، واغماءات واستفاقات، أقلّ عيوبها انها تُظهر الحب بصورة غير مألوفة في الطبيعة البشرية؛ ومن ثمّ فألم المجنون لا يؤثر بقدر ما كان ينتظر شوقي .

ليلي : لها صورة واضحة الخطوط وهي تلخص حياتها بهذه الكلمات :

أنا بين أثنيتين كِلتاُهما النَّارُ

بين حُرْصي على قداسةٍ عِرضي واحتِفاظي بَمَنْ أُحِبُّ وَضِئِي

فهي الفتاة البدوية المتمسكة بالتقاليد، وهي المحبة الوفيّة في هواها . وقد تكون الواحدة دون الاخرى، فتتسنى الهوى - او تكاد - حين تُختار في الزواج وتتسنى التقاليد - او تكاد - حين تخلو بقيس . وعلى كلّ فهي في الرواية الشخص الوحيد الذي نرى عنده صراعاً نفسياً عميقاً ومؤثراً (في آخر الفصل الثالث) .

وهي الى ذلك فتاة الرأي الصائب وموضوع الثقة الكاملة : فوالدها لا يرى في زواجها غير رأيها، ووَرَدَ لا يخشى ان تجتمع بقيس لثقتهم من وفائها ؛ فقد كانت في الحقيقة اهلاً لان يؤخذ برأيها وتُقدَّر امانتها .

المهدي : سيد عربي غيور على التقاليد حتى ليستدعي السلطان على من شهر ليلي بشعره فيهدر دمه . ولكنه الى ذلك الشيخ الرفيق، يعطف على المجنّون في إغماؤه وينعشه، ثم يستلين له بني عامر وقد أقرّوا الرأي على الفتك به . وهو الوالد الحنون يرق ليلي ويأبى ان يظلمها بزواج لا ترضاه : « متى جار شيخٌ على طفله ؟ » فهو وان تراخت عناصر شخصيته احياناً، لا يزال الرجل القويب المنال، الذي في استطاعة كل واحد ان يقول عنه : لو كنتُ مكانه لسكنتُ مسلكه .

وَرَدَ : رجل كريم الاخلاق، يحترم حب ليلي لقيس فيعيش معها عيشة الاخ .

منازل : يزاحم قيساً في حب ليلي فيطعن به في حسد كثير ودهاء عظيم .

زياد : مثال الصديق الوفي، لا يترك المجنون في امرّ ساعات حياته، بل يسهر

عليه ويردّ عنه المعتدين .

٥ - قيمتها :

١ محاسنها : لا شك ان شوقي في هذه الرواية قد وُفق في خلق اللون المحلي كما وُفق في كليوباترا. فهو يصور البادية وحياتها، وقوافلها واجتماعاتها؛ كما يصور عقائد العرب (من لجوء الى العرافين، وتكبير في اذن المغشي عليه، واعتراف بالجن)، وعوائدهم (كالتصفيق باليدين ولبس الثوب مقلوباً دلالة على ضلال الطريق)، واخلاقهم (من حب عذري، وتمسك بالتقاليد حتى ليستعدون السلطان على من تغزل بيناتهم فيهدر دمه...) .

وقد وُفق كذلك في بعض الانقلابات المسرحية كما في مشهد منازل يغري العامريين بقيس بعد ان لانوا له، فينجح، وسرعان ما ينقلب القوم ثانية بعد خطبة بشر؛ وما ذلك الا صورة للشعب السريع الانفعال عن غير تفهم للامور .

وقد وُفق كذلك في تصوير سريع للصراع النفسي الذي قام بين هوى ليلي وشرفها في آخر الفصل الثالث .

٢ عيوبها : لقد أساء شوقي في اظهار بعض النواحي من اللون المحلي، كتعريف زائر لمن يجله بين الحضور، وهي عادة غريبة .

ولم يعرف الشاعر ان يستغل بعض المواقف الجميلة التي وُفق في اختيارها، كما نرى ذلك في مشهد بشر يعزّي قيساً وهو يظنه عالماً بوفاة ليلي، فالمفاجأة باردة ضعيفة الاثر لانها لم تُهيأ لها الاحوال الموافقة .

اما التحليل النفسي فهزيل لا يكاد يظهر في سوى ندم ليلي على رفضها الزواج بقيس، فيحاول شوقي ان يعوّض عن هذا النقص بمظاهر الصراع الحسي من نضال بالسلاح ومبارزة خارج المسرح .

على ان كل هذا قليل بالاضافة الى عيوب الفن المسرحي في بناء الرواية فاكثر الاشخاص يمكن الاستغناء عنهم في المسرحية دون ان تضار متعتها في شيء .

وجود اشخاص كهؤلاء يؤخر سير العمل فنرى حركة ولا نرى تقدماً، وكذلك القول عن مشاهد بكاملها كمشهد قيس في قرية الجن، ومناظر الغراء على قبر ليلى ووقوف الشاعر والمغني يرثيانها . . . الى غير ذلك من الحوادث التافهة المتطفلة، مما يحول دون السير بسرعة الى حل العقدة على استرخائها والشعور بضعف خطورها، ولا سيما بعد ان يشعر الجمهور بانتهاء الموضوع في آخر الفصل الثالث؛ فيزيد شوقي فصلين كاملين لا لغرض الا ليسوق بطليبه الى نهاية كل حي .

وقد غلبت الناحية الغنائية على الناحية المسرحية، فلا ترى على الاغلب الا بكاء وتحسراً وندباً لاحلام واستثارة لحزن؛ وقلما تصطدم الشخصيات وتحتك العواطف في صراع أليم يملك على الحضور انفسهم . وقد تلذذ قراءة هذه المسرحية لشعرها وموسيقاها ولا تروق على المسرح .

قمبيز (١٩٣١)

١ - زمانها ومكانها : تجري الرواية في مصر وفارس، في القرن السادس قبل الميلاد .

٢ - موضوعها وسيرها : طلب قمبيز ملك الفرس الزواج بنفريت بنت امازيس فرعون مصر، فأبت الزواج في بلاد الغربة . وفطنت ننتيتاس ابنة الفرعون السابق الى ما في هذا الرفض من خطر يهدد مصر، فقدمت نفسها زوجة لقمبيز باسم نفريت . - ثم جاء فارس، قائد يوناني كان في الجيش المصري، اسمه فانيس، فاخبر قمبيز بالخدعة فهجم على مصر واعمل فيها الحريق والسلب؛ ثم علم ان نفريت قد انتحرت فجنى جنونه فقتل بساماتيك الفرعون الجديد وفانيس الخائن، وقائداً من قواده نصيح له بالرفق، وأبيس معبود المصريين، ثم بدت له اشباح مريضة فانتحر تاركاً المصريين في حداد على ملكتهم ومليكهم وعجلهم، والفرس على مليكهم وقائد جيوشهم .

٣ - قيمتها :

١ - محاسنها : وُفق الشاعر الى خلق اللون المحلي كما في الروايتين السابقتين، فصر تبدو في ترفها وعبثها، وتغلب العناصر الغريبة، ولاسيا اليوناني، في جيشها، كما تبدو في معتقداتها ولاسيا تقديس العجل أبليس .

وفارس تظهر ببطشها واستبداد ماوكها، وشيء من عقائدها كتقديس النار والسجود لها . وقد وُفق كذلك في تصوير قمبيز في شجاعته ووحشيته وجنونه وزندمه .

٢ - عيوبها : في الرواية كثير من الحوادث اخلارجة عن الموضوع او التي لا تمت اليه بصلة متينة، فتؤخر سيره . - وهناك شخصيات خطيرة لا عمل لها يذكر (نفريت، تاسو حبيها وحبيب نيتاس القديم) ؛ وشخصيات غير متماسكة الوحدة الاخلاقية : فنيتاس تضحي بنفسها في سبيل بلادها، ثم تعترف في فارس انها هجرت مصر بسبب تاسو الذي هجرها . - وتاسو هذا حبيب الجاه لا الغواني يتقلب حبه بتقلب النعمة . ونفريت صاحبة الاثرة والانانية، التي تصب على النيل واهله امر النقامات على ان تكون سعادتها بعيدة عن المخاطر، فكلاهما يتحولان في آخر الرواية الى بطلين من ابطال الوطنية دون ان نعلم سبباً لهذا الانقلاب . وهناك حوادث مفتعلة لا تنبثق من سياق المسرحية كهذا الانقلاب الذي ذكرناه في تاسو ونفريت، وكالمجزرة الاخيرة وما ابعدها عن اتصال بتطور الشخصيات النفسي وسياق الحوادث المتقدمة . كل هذا الى عقدة ضعيفة، تنجبك في اواخر الفصل الاول، وتسترخي في الفصل الثاني حيث تُكشف الدسيسة . فيبقى الفصل الثالث بصفحاته الطويلة اشبه ما يكون بملحق او حواشٍ لما تكشف عنه آخر الفصل السابق .

باقي مسرحيات شوقي

١ - علي بك الكبير : (١٩٣٢) : تجري حوادثها في الفسطاط والصالحية وعكا حوالي سنة ١٧٧٠ . وموضوعها ان علياً بك - وهو احد المماليك - ثار

على العثمانيين وكاد يستقل بمصر لولا خيانة صهره محمد ابي الذهب ومماوكة مراد بك .
 وفضلاً عن الموضوع التاريخي تشتمل الرواية على موضوع ادبي هو حب مراد
 بك لآمال الجارية زوجة علي بك من غير ان يعلم انها اخته . - والموضوعان
 قلما يجتمعان فيوحدان متعة الرواية . وهناك من الاحتمالات المسرحية لتمشية
 القصة - على غير تطور نفسي طبيعي - ومن الحوادث المفتعلة او المتطفلة،
 ومن تفاهة بعض المواقف او سوء استغلالها، ما يشوه فيها الفن التمثيلي اقباح
 تشويه، وان كانت المأساة لا تخلو من بعض تصوير دقيق للون المحلي ولاسيا تصوير
 دولة المماليك في استبدادها وخداها .

٢ - اميرة الاندلس : (١٩٣٢) مسرحية نثرية تجري حوادثها في الاندلس
 والمغرب الاقصى . وذلك في القرن الحادي عشر ؛ وموضوعها مزدوج، فالاول
 يصور حالة المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، وكيف غلب على امره فنفي مع كل
 اسرته الى اغمات في المغرب . اما الثاني فهو واقعة غرام : تعرفت بثينة بنت
 المعتمد - وهي في ثياب غلام - بفتى اسمه حسون بن ابي الحسن التاجر الاكبر
 في إشبيلية، فتعشقت به وعلمت في اثناء الحديث ان الفتى هو قاتل اخيها الظافر،
 فاغمي عليها ووقعت القلنسوة عن رأسها، فافضح امرها واحبها حسون . ولما نُفي
 المعتمد وأسرته وقعت بثينة سبية في يد احد المغاربة، فاشراها ابو الحسن لابنه
 حسون ولكنها رفضت الزواج به ما لم يوافق عليه ابوها، فأتوا الى منفى المعتمد
 ونالوا الرضى المبغى .

وهذه الرواية قد تكون احط روايات شوقي، فليس فيها عقدة محكمة
 ولا تسلسل في الحوادث، اكثر الحوادث دخيل على الموضوع، او كل من الموضوعين
 دخيل على الآخر، وليست الشخصيات بيّنة الخطوط ؛ فكل ما هنالك مشاهد
 يعرضها المؤلف على غير اتصال وثيق وتطور نفسي طبيعي . وان كان شوقي قد
 سقط من قبل في كثير من هذه الهفوات فقد كان يشفع فيه شعره السحري . اما
 هنا فنثر رتيب لا ميزة خاصة له سوى ان المؤلف قد تحاشى فيه عن السجع والتنميق
 اللذين كان قد تعودهما في نثره .

٣ - عنتره (١٩٣٢) : آخر مآسي شوقي الشعرية . احب عنتره عبلة ابنة عمه واحبته خيال دون زواجهما كون عنتره عبداً اسود انكره ابوه ولكنه اتى من افعال الشجاعة ما اضطر والده الى الاعتراف به ؛ غير ان عمه ابى مصاهرته، فقرر تزويج عبلة بصخر العامري ؛ وبينما هي في الطريق الى بني عامر، وقد احاط بها الفرسان يحرسونها، اذا بعنتره يُغير على المركب، فيقتل ويشرد ويختطف عبلة . ويبعث الى صخر بفتاة عبسية تحبه اسمها ناجية . اعطتها عبلة قناعها ورداءها فقبلها صخر وهو يظنها عبلة . وما ان عرفت حقيقة الامر حتى رضي الجميع بما كان، فتزوج عنتره بمن احبها، وتزوجت ناجية بمن احبته .

وقد غلبت على هذه الرواية نزعة ملحمية، فالحروب والبطش وشهر السلاح والغزوات تترك في الاذن ضجة مدوية . ثم ان العقدة واهية وهي تنحل على وجه يراه البعض توفيقاً الى حسن الختام، وزاه لا يدل على غير ضعف المؤلف في فن التمثيل . كل هذا الى بعض ما يشوه اللون المحلي من مثل دعوة عنتره وعبلة الى الوحدة العربية .

ولكننا نلحس في هذه الرواية تحليلاً للصراع النفسي اعمق مما نلحسه في غيرها . وقبلما يلجأ شوقي فيها الى ما يخرج عن نطاقها، وقبلما يتوسل للتأثير بغير ما يقتضيه سياقها .

٤ - الست هدى : ملهامة شعرية بلغ فيها شوقي درجة من التوفيق لا بأس بها، وهو لم يتخذ موضوعها من تاريخ يقيّد حريته بل من ملاحظة الحياة العادية، فصور لنا عجوزاً مثيرة بخيلة تحرص على المال لعلها ان الناس يسعون اليها بسببه، وهي تحرص على ان تبدو شابة وقد زاد عمرها على الاربعين ؛ وهي تستعرض ازواجاً تسعة تعاقبوا على خطب ودها او التقرب من امالها، فتتفكه باخلاقهم وتحقيرهم .

ومهما يكن من امر فالرواية ضعيفة من الوجهة الاخلاقية، وقد اخفق شوقي في ما رمى اليه من اصلاح . فهي تحمل على احتقار الزواج اكثر مما تحمل على احترامه، وتحمل على سلب المال اكثر مما تحمل على احترام مال الغير .

٨ سوفي والمسرح :

١ - موضوعات المسرحيات : عمد شوقي في مسرحياته الى التاريخ يستقي منه موضوعاته ولا يحسن استغلاله، وقد تقيد به تقيداً مشؤوماً في ما يتعلق بالحوادث فخل مسرحه بالامور التافهة كما لم يخل من الخرافات والاضاليل . ولم يكن الموضوع التاريخي وحده يكفي شوقي لبنیان مسرحيته، فكان يخترع موضوعاً آخر يدور غالباً حول الحب ؛ وكثيراً ما كان ذلك الموضوع الجديد يقود الى اضطراب في الرواية لعدم اتصال الموضوعين الواحد بالآخر اتصالاً وثيقاً يوحد العقدة، بل كان يقود احياناً الى تحوير في التاريخ يناقض المعلومات التاريخية نفسها لا لغرض فني بل ارضاء للموضوع المخترع .

ثم ان شوقي، وان اكثر من المحافظة على الحوادث التاريخية، لم يكن ليحسن دائماً المحافظة على روح التاريخ . فهو يصور مالكاً ابا عبلة لثيماً ، خسيلاً حسوداً مع انه سيد عربي، ونحن نعلم كم كان العرب متشددين في اختيار اسيادهم . وهو يصور عنترة وعبلة يدعوان الى الوحدة العربية في حين كان الجاهلي من طبعه فردياً فوضوياً لا يتعدى في قوميته العصبية القبلية .

٢ - حوادثها : لقد عبث شوقي بوحدة العمل، واكثر في مسرحياته من الطفيليات، وسار مسير شكسبير والرومانطيين في عدم التقيد بوحدة الزمان والمكان . واما تسلسل الحوادث فسيئ، اجمالاً، اذ تجدد في العرض حوادث لا خطر لها في تسير العمل، او مفاجآت غريبة لم يُمهّد لها بشيء . من قبل . وان كان شوقي قد اجاد احياناً في ايجاد المواقف المفاجئة فقد اساء استغلالها، كما نرى ذلك في مشهد بشر يفاجئ قيساً بنجر وفاة ليلي، او مشهد مصطفى اليسرجي يخبر مراداً بان آمال هي اخته وكان قد عزم على التزوج منها دون ان يعرفها .

٣ - اشخاصها : وما هذا الاضطراب في سياق المسرحية إلا لكون الحوادث

لا تتطور من نفسية الاشخاص واحتكاك عواطفهم، وكون هؤلاء لا تتطور عواطفهم من سياق الحوادث، فالتطور والتقدم في العمل واخلاق الشخصيات، كل ذلك رهين ارادة شوقي يكتفه تكييفاً ذاتياً لا تكييفاً موضوعياً . فالاشخاص هم من يريدهم شوقي لا من تريدهم مواقفهم . وشوقي لا يعرف ان يختفي تماماً عن المسرح بل كثيراً ما يتكلم بلسان اشخاصه فتسمعه واعظاً او داعياً الى وحدة قومية هي شعاره الخاص . وعلى كل فقد كانت شخصيات شوقي على العموم حائرة غير متمسكة بالعناصر وإن وُفق في تصوير بعضها فلأنها تناسب شخصيته، وهكذا احسن في تصوير كايوباترا المصرية الصادقة، وقيس وعنترة الشعارين اللذين تربطه بهما قرابة روحية هي قرابة القريض . ومهما وُفق شوقي في تصوير اشخاصه فشخصيتهم لا تزال بسيطة التركيب ضحلة الغور حتى لا تكاد تفرق بين شخصيتين أخرجتا في موقف متشابه كعبلة وليلى ؛ وهناك من الشخصيات من تكاد تبلغ به البساطة الى حد انعدام الخطوط الرئيسية كتاسو ونفريت ؛ ولا عجب فقد سبقت لنا الإشارة في كلامنا على الغزل ان شوقي لم يكن قادراً على تصوير العواطف الانسانية تصويراً عميقاً، فقد صور العشاق والحساد، والمخلصين والغادرين، والشجعان والجنائ، والوطنيين الامناء وغيرهم، وقد نجح في بعض تلك اللوحات نجاحاً لا بأس به، ولكنه عجز عن سبر النفوس سبراً عميقاً، فبقيت شخصياته محدودة في مسرحياته لا تتجاوزها الى صور مثالية عالمية .

٤ - مبنائها : لشوقي على المسرح العربي فضل عظيم لا يُنكر . فهو اول من ذلل الشعور العربي واجاد تسخيره للتمثيل ؛ فعبث بالبحور يكتفها كما تقتضي الاحوال . واستخف بالقوافي يثب في رشاقة بين انغامها ؛ فلكل معنى ما يوافقه من الالوزان والقوافي، ولكل عاطفة نصيبها منها ؛ يتبدلان مع الاشخاص ويتبدلان مع الحوادث ؛ يرقان عند الرقة ويشتدان وقت الشدة، فكان هذا التحرر من اسر الوزن الواحد والقافية الواحدة، خطوة كبرى في سبيل الشعر المسرحي العربي .

وقد حمل شوقي الى المسرح تراث شعر غنائي نظمته مدة نصف قرن فلم

يستطع ان يتخلص منه، فأكثر من القصائد او المقاطع الغنائية في رواياته وكان لذلك أثر سيء في سير العمل . واذ يرى شوقي نفسه مقصراً في تسيير الموضوع المسرحي من جهة، وفي سبر النفوس وتصويرها تصويراً دقيقاً من جهة أخرى، يداور الحاضرين فيبسط امامهم مشاهد العظيمة كالقصور وحاشية الملوك، او المشاهد الفسيحة كمضارب الاعراب وطرق القوافل، او مشاهد الحركة والسرعة كمشاهد الغناء والرقص والولائم . . . فيسترعي انظارهم ويصرف انتباههم عن مواضع الخلل في الفن . ويطيب له المقام في تلك المشاهد فيقلّ من الحوار ويسترسل في الغناء ما شاء له الاسترسال، واذ مطولات القصائد الغنائية خير ما قيل من الشعر في رواياته .

٥ - قيمتها : وقصارى القول ان الرواية التمثيلية عند شوقي هي التاريخ منظوماً وهي الغناء، وهي الملاحم وهي السينما وهي « كل شيء إلا الرواية التمثيلية » على حد ما يقول الاستاذ ادوار حنين . وهذا ما رمى اليه طه حسين بقوله : « أما في التمثيل فقد غنى (شوقي) فاطرب واثر في القلوب، ولكنه لم يمثل شيئاً، لان التمثيل لا يُرتجل ارتجالاً ولا يُهجم عليه في آخر العمر . . . فكان تمثيله صوراً ينقصها الروح وإن حُببها الى الناس ما فيها من براءة في الغناء » .

ومهما يكن من تقصير شوقي في الفن التمثيلي، فقيمة مآسيه الخلقية عظيمة إذ فيها صور موقفة لأحمد خصال النفس من حلم واباء وشجاعة وعفة، وتحريض على الفضائل الاجتماعية كالوطنية وحب الاستقلال ومساعدة المظلوم، والثورة على الرق؛ هذا الى تحذير من الشر لما يتبعه من وخز الضمير، وسوء العاقبة .

ولن يزال شوقي ابا المسرح الشعري العربي لانه اول من حرّر الشعر من قيوده التقليدية، فأخضعه لمقتضيات المسرح الحديث .

٩ منزله شوقي : شوقي شاعر عبقرى فذ، اوتي من المواهب الشعرية ما لا يقلّ عن اكابر الشعراء العالميين الا انه هدر قسماً من

مواهبه بتقييد حريته .

تاريخ الادب

واجلى مظاهر عبقريته هو ذلك الخيال المجنح الطليق، وتلك الصور المبتكرة الرائعة بل تلك الوثبات الجبارة في جو سام تنطلق منه احياناً اللوحات السريعة الخاطفة، في عبارة او كلمة تسوق موكباً عظيماً ينتصب امام العين في حركة زاخرة بالحياة .

الا ان شوقي لم يحسن تهذيب عبقريته، ولم يدعمها بثقافة عميقة . فكان له سقطات فاضحة في اللغة والذوق الشعري .

فهو شاعر يسمو الى حيث لا يُجارى اذا ألهم في ما يلائم عبقريته، ويُسف حتى لا يكاد يُداني اذا انخطأ الموضوع عن مستوى شاعريته . وهو ان لم يكن شاعراً عالمياً فانه شاعر الشرق، وانه مجدد ومن اعظم اركان النهضة الشعرية التي وجهت الشعر العربي نحو القيم الخالدة .

بعض المراجع

الدكتور محمد حسين هيكل باشا : مقدمة الجزء الاول من الشوقيات - القاهرة ١٩٤٦

طه حسين : حافظ وشوقي - القاهرة ١٩٣٣

مارون عبود : الرؤوس - بيروت ١٩٤٦ ص ٣٢٠ - ٣٢٦

عباس محمود العقاد : شعراء مصر - القاهرة ١٩٣٧ ص ١٥٥ - ١٨٨

اسماعيل مظهر : تاريخ الفكر العربي - القاهرة ١٩٢٨ ص ١٣٩ - ١٥١

عبد الوهاب حموده : التجديد في الادب المصري الحديث - القاهرة ص ١١٩ - ١٣٢

مجلة الكتاب السنة العاشرة المجلد الرابع - اكتوبر ١٩٤٧ ص ١٤٨١ - ١٦٥٥

حسن كامل الصيرفي : حافظ وشوقي - القاهرة ١٩٤٩

محمود خورشيد : امير الشعراء شوقي - مطبعة بيت المقدس

احمد عبيد : ذكرى الشاعرين - دمشق

- ادوار حنين : شوقي على المسرح - بيروت ١٩٣٦
 محمد حامد شوكت : المسرحية في شعر شوقي - القاهرة ١٩٤٧
 عباس حسن : المتنبي وشوقي - القاهرة ١٩٥١

موضوعات للبحث

- ١ - شوقي شاعر بين التقليد والتجديد . استعرض عوامل شعره التقليدي والتجديدي وأظهر ما له في كل منهما .
- ٢ - ما اثر كل من الادب العربي والادب الاوربي في شعر شوقي ؟
- ٣ - قال شوقي : « كان شعري الغناء في فرح الشرق وكان العزاء في احزانه » هل في شعره كله او بعضه صورة صادقة لعصره ؟
- ٤ - ما موقف شوقي من التاريخ وما كان اثره في شعره ؟
- ٥ - شوقي شاعر اجتماعي . ما هي القضايا الاجتماعية التي استرعت فكره وكيف دافع عن آرائه فيها ؟
- ٦ - قابل بين المثل في كليله ودمنة والمثل عند شوقي .
- ٧ - تخيل انك شهدت تمثيل احدى مسرحيات شوقي فخرجت منها بعواطف وخواطر . فما هي تلك العواطف والخواطر ؟
- ٨ - قبل : « لم يفرق شوقي بين مذهبين من مذاهب الفنون : القصة والمسرح ؛ فسر حياته قصص مسخت روايات تمثيلية » . هل ينطبق هذا الحكم على مسرح شوقي اجمالاً وافراداً ؟
- ٩ - « اما في التمثيل فقد غنّى (شوقي) فأطرب وأثر في القلوب، ولكن لم يمثل شيئاً » . هل تشارك طه حسين في هذا الرأي ؟
- ١٠ - ما أحب روايات شوقي اليك ولماذا ؟
- ١١ - كيف تفسر اختلاف النقاد اختلافاً عظيماً في تقدير شوقي ؟

مشاهير الادباء — الشعر

الفصل الرابع

جميل صدقي الزهاوي — معروف الرصافي فوزي المعلوف — خليل مطران

١ — جميل صدقي الزهاوي

هو شاعر بغدادي انصرف الى الصحافة وتأليف الكتب، وقد دخل في مجلس المعارف ببغداد وساهم في تحرير جريدة الزوراء، ثم انتخب عضواً في محكمة الاستئناف، ثم درّس الفلسفة العربية في الاستانة. من اشهر مؤلفاته «ديوان الزهاوي»، وقصائده متفاوتة في الجودة.

ب — معروف الرصافي

وُلد ونشأ ببغداد، ثم درّس في بغداد والقسطنطينية والقدس وانتخب عضواً في مجلس النواب العراقي. له آثار كثيرة في النثر وفي الشعر اشهرها «ديوان الرصافي» وهو يمتاز بمثانة لغته ورصانة اسلوبه، ومسارحته للعصر ومطالبه في شعره.

ج — فوزي المعلوف

وُلد في زحلة ودرس في الكلية الشرقية ثم انتقل الى بيروت وواصل فيها دروسه ثم سافر الى البرازيل ونظم هنالك ملحمة الشهيرة «على بساط الريح» في اربعة عشر نشيداً من اروع الشعر.

د — خليل مطران

١ **حياته :** وُلد خليل مطران في بعلبك، وتلقى العلوم في المدرسة البطريركية ببيروت، ثم سافر الى باريس وانتقل منها الى مصر والتحق بجريدة الاهرام، ثم انشأ «المجلة المصرية»، و«الجوائب المصرية»، ثم دخل في عالم الاقتصاد والزراعة حتى توفي في مصر سنة ١٩٤٩
٢ **شخصيته :** مطران رجل الإحساس المرهف الذي جمع الى الإحساس قوة العقل وضبط النفس والمعاودة والتوازن.

٣ **آثاره :** لخليل مطران آثار كثيرة أشهرها «ديوان الخليل».

٤ **خليل مطران الشاعر :** هو شاعر مجدّد مُبدع، وهو شاعر الوجدان الذي أنشد اجل اناشيد الحب والألم، وهو شاعر التاريخ والاجتماع الذي استخلص من التاريخ درساً في التحرُّر؛ وهو شاعر الوصف الذي يصف بدقة وذوق وترتيب.

١ - جميل صدقي الزهاوي : (١٨٦٣ - ١٩٣٦ م / ١٢٨٠ - ١٣٥٥ هـ)

هو ابن الزهاوي الكبير محمد فيضي مفتي بغداد، ينتمي بنسبه الى أسرة عراقية عريقة بالمجد . وقد تخرّج في مدرسة ابيه ببغداد وكانت معروفة بما تدرّسه من علوم الشريعة الاسلامية والآداب العربية . وكان من المبرزين لتوقد ذهنه . والى جانب اللغة العربية وآدابها حذق الفارسية والتركية، ثم انصرف الى الصحافة وتأليف الكتب متعمداً فيها الموضوعات العويصة رغبة منه في المناقشة .

وقد دخل في مجلس المعارف ببغداد، وساهم في تحرير جريدة « الزوراء »، ثم انتُخب عضواً في محكمة الاستئناف، وكان عضواً من البعثة العلمية الاصلاحية التي أرسلت الى اليمن، وعُيّن استاذاً للفلسفة العربية في المكتب الملكي بالآستانة، ومدرّساً للآداب العربية بدار الفنون . وكان من المطالبين بحقوق المرأة . وقد انتُخب اخيراً ليكون احد اعضاء المجلس النيابي العثماني .

ترك الزهاوي من الآثار ما ينطق بفضله . فله في النثر « كتاب الكائنات » و « الجاذبية وتعليلها »، و « الجُمَل بما ارى »، وغير ذلك . وله في الشعر « الكلم المنظوم » و « رباعيات الزهاوي » و « ديوان الزهاوي » وغير ذلك .

يمتاز الزهاوي بوفرة الانتاج والسرعة فيه من جهة، والاعتناء ببعض شعره من جهة اخرى . ولأجل ذلك تفاوتت قصائده في الجودة . والزهاوي لم يتيقّد في الكثير من قصائده بوحدة الموضوع . وفي شعره كثير من آراء الحكماء، ونظريات العلماء في الشؤون الكونية .

ب - معروف الرصافي : (١٨٧٥ - ١٩٤٥ م / ١٢٩٢ - ١٣٦٥ هـ)

وُلد معروف الرصافي في بغداد من اصل كردي قيل انه يرجع الى العلويين،

وتلقن مبادئ العلوم في مسقط رأسه، ثم لزم محمود شكري الالوسي ثلاث عشرة سنة واخذ عنه من العلوم الشيء الكثير . ودرس الادب العربي ببغداد، واللغة العربية في المدرسة الملكية العالية بالقسطنطينية، والآداب العربية في مدرسة الواعظين التابعة لوزارة الاوقاف . ثم انتخب نائباً في مجلس المبعوثان العثماني، ثم استدعاه احد اصدقائه للتدريس في دار المعلمين بالقدس .

اخيراً عُيِّن في العراق نائباً لرئيس لجنة الترجمة والتعريب في وزارة المعارف، ثم انتُخب عضواً في مجلس النواب العراقي . الا انه ما عثم ان اعتزل الناس بسبب مجافاة الحكومة له، وذلك لانه كان صريحاً في آرائه، جريئاً في الدفاع عنها، يريد لبلاده تقدماً سريعاً ورقياً سياسياً، فاصطدم بما يصطدم به كل جري . يسعى الى ايقاظ الضمائر الغافية، والقلوب المستكينه؛ وقضى اواخر ايامه في عزله قانعاً من الحياة بالكفاف .

لرصافي آثار كثيرة في النثر والشعر واللغة والادب، ومن اشهرها «ديوان الرصافي» ويُعرف «بالرصافيات» تولى طبعه وتبويب قصائده وتفسير غريبها محي الدين الخياط والشيخ مصطفى الغلاييني، وقد رُتب على اربعة ابواب : الكونيات، الاجتماعيات، التاريخيات، الوصفيات، وطُبع بيروت سنة ١٩١٠؛ ثم طُبع بيروت ايضاً سنة ١٩٣١ وأضيف اليه الشيء الكثير، ورتب على احد عشر باباً : الكونيات، الاجتماعيات، الفلسفيات، الوصفيات، الحزقيات، المراثي، النسائيات، التاريخيات، السياسيات، الحزقيات، المقطعات .

لشعر الرصافي ميّزات كثيرة، فهو فضلاً عن متانة لغته وسهولتها، ورصانة اسلوبه، يساير العصر ومطالبه وان لم يهمل الابواب الشعرية القديمة، ويصف الحياة الحاضرة في نواحيها المختلفة ولاسيما الاجتماعية منها، ويرمي الى اصلاح شأن الامة وجمع كلمتها، ويميل الى وصف البؤساء ويحيد في حكاية حالهم . ومن اجل قصصه في هذا الباب : ام اليتيم، واليتيم في العيد .

والرصافي حيّ العاطفة، تلمس نبضات قلبه في ابياته، وهو يتطلب القوافي الموسيقية؛ الا ان شعره ولاسيا ما نُظم منه في العهد الاول، لا يخلو من اضطراب وحشو .

ج - فوزي المعلوف (١٨٩٩ - ١٩٣٠ م / ١٣١٧ - ١٣٤٩ هـ)

وُلد فوزي بن العلامة عيسى اسكندر المعلوف بزحلة وتخرّج في المدرسة الشرقية ثم انتقل الى بيروت وواصل دروسه في مدرسة الفرير . وسافر بعد ذلك الى البرازيل واشتغل بالتجارة والادب ثم توفي وهو في الثلاثين من عمره .

أشهر آثاره ملحمة « على بساط الريح » وهي ذات اربعة عشر نشيداً نظمها سنة ١٩٢٦ ثم تُرجمت الى الاسبانية والبرتغالية . وهي تصف رحلة خيالية للشاعر اخترق فيها عالم الفضاء والتقى بالطيور والنجوم والارواح ونثر فيها بينها آراءه المتشائمة في الارض ومن عليها ؛ وذلك في شعر رائع بسهولة وانسجابه وسحر موسيقاه .

د - خليل مطران

(١٨٧٢ - ١٩٤٩ م / ١٢٨٩ - ١٣٦٩ هـ)

١ - حياته : تقسم حياة خليل مطران الى ثلاثة اطوار : طور النشوء وهو يمتد من ميلاد الشاعر الى استقراره في مصر، اي من سنة ١٨٧٢ الى سنة ١٨٩١ ؛ و طور النضوج وهو ينتهي بانتهاء الحرب العالمية الكبرى سنة ١٩١٨ ؛ و طور التكامل والتمام وهو ينتهي بمات الشاعر سنة ١٩٤٩ .

١ - الطور الاول : مولد الشاعر ونشأته : وُلد خليل مطران في بعلبك وتلقى مبادئ الكتابة واصل الحساب في مدرسة ابتدائية بزحلة، ثم ارسله والده

الى بيروت وألحقه بالقسم الداخلي من المدرسة البطريركية فتخرج فيها على الشيخ خليل اليازجي وأخيه الشيخ ابراهيم . وكان الشيخ ابراهيم معجباً بتلميذه يروي



خليل مطران

نفسه الطموح بقاء العلم الصحيح ويُنمي فيه روح التدقيق والتمحيص والتحليل، ويأخذ بيده في سبل المعرفة اللغوية . ولما نشب الخلاف بين استاذه والشيخ عبد الله البستاني معلم البيان في مدرسة الحكمة اذ ذاك، واحتدم البحث والجدل في موضوع ايجاد كلمات عربية تحل محل بعض الاوضاع الاجنبية التي درج استعمالها على الالسنه، هب الشاب خليل مطران منتصراً لاستاذه، علامة القرن التاسع عشر في اللغة، وقد دخل تدخلاً ظهرت فيه عبقريته ومقدرته . وكان اشتراكه في هذا البحث سبباً في بدء ظهوره

الادبي، فشاع اسمه، وأخذ صيته في الانتشار، على حداثة سنه وقرب عهده بالكتابة .

تهالك الشاب خليل مطران على الدرس والتحصيل، وطالع بنهم كل ما وصل الى يده من آثار كبار الكتّاب والشعراء، حتى اذا آن له ان يترك المدرسة غادرها وله ثقافة واسعة عربية واوربية يتسلح بها وينظر بواسطتها الى اجواء واسعة انفتحت امامه وأفهمته ان مستقبل الادب العربي « ليس للنماذج التي تذهب تحاكي طرائق القدامى في المعاني والاشكال، والمشاعر والصور، وانما للنماذج التي تعبر عن روح العصر وخلقاته ومشاعره واتجاهاته في قالب عربي رصين » .

ونظم خليل مطران الشعر وهو في المدرسة، وقد بقي لنا من شعره اذ ذاك

(١) اسماعيل ادم : خليل مطران شاعر العربية الإبداعية . المقتطف سنة ١٩٣٩ - يونيو

قصيدة « معركة ايانا » التي أثبتت في الديوان والتي لقيت في ذلك الحين مقاومة عنيفة من قبل البيئة والاساتذة، وذلك لما فيها من انتهاج نهج حديث في الشعر؛ ورؤي ان الشيخ ابراهيم اليازجي قال لتلميذه الشاعر : « كيف يجوز ان يرد في شعرك العربي لفظ نابوليون ؟ » الا ان خليل مطران لم يرتد عن رأيه في الطريقة الشعرية وهو القائل : « ان خطة العرب في الشعر لا يجب حتماً ان تكون خطتنا، بل للعرب عصرهم ولنا عصرنا، ولهم آدابهم واخلاقهم وحاجاتهم وعالومهم، ولنا آدابنا واخلاقنا وحاجاتنا وعالومنا؛ ولهذا يجب ان يكون شعرنا ممثلاً لتصورنا وشعورنا لا تصورهم وشعورهم » .

ذلك كان مبدأ خليل مطران في الشعر، وتلك كانت خطته . واثن ألقى اذ ذاك الى نظم بعض القصائد على الطريقة القديمة فما ذلك الا مجارة للخواطر المتحجرة ومراعاة للاحوال والعقليات . ولم يحصر الشاعر نزعة التحررية ضمن نطاق الادب والشعر بل تعداهما الى السياسة والاجتماع، فعلا صوته ثائراً على الاستبداد الحميدي، وداعياً الى الوعي القومي والى مقاومة الظلم والطغيان . ولكن صوته لم يلق من ناحية الحكام الا سخطاً، فتبعه عمالهم، ووقفوه على انه رجل ثورة واضطراب، الا انهم لم يجدوا لديه ما يبرر عملهم فأطلقوه، وحوطوه منذ ذلك الحين بالحدار والتضييق، وكيف تطبق نفسه الحرة تضيقاً، فأثر ان يتطلع الى بلاد غير بلاده يفتح فيها جناحيه للاجواء الطليقة ويعمل فيها على تحرير وطنه . وما ان كان صيف ١٨٩٠ حتى غادر مطران بيروت قاصداً قاعدة الفرنسيين .

٢ - الطور الثاني : الصحافي الاديب والشاعر : اقام خليل مطران في باريس

ردحاً من الزمن يقبّ صفحات تاريخ الاحرار كما يُنعم النظر في الادب الرفيع، فراقته الروح الفرنسية وراقه الادب الفرنسي ولاسيا ادب الفرد دي موسه، وراقه الادب الانكليزي ولاسيا ادب شكسبير وانطلاقه الواسع في عالم الخيال والتحليل

والعمل المسرحي؛ واتصل في باريس برجال الحركة الوطنية التركية من أعضاء حزب «تركيا الفتاة» وجالسهم واهتمّ لهمهم، إلا أن اهتمامه هذا أثار حفيظة السفارة التركية هناك، فدست له لدى الحكومة الفرنسية، وراحت تضيق عليه، ففكر في الشخوص إلى شبلي من بلاد أميركا الجنوبية، إلا أنه عاد فقصده مصر، وركب البحر متجهاً إلى الاسكندرية وما أن وطئ أرضها حتى سمع ب وفاة سليم تقلا مؤسس الأهرام واحد أساتذة المدرسة البطركية في عهد دراسة الشاعر، فحزن عليه الخليل حزناً شديداً وخرج في من خرجوا لتشيع جنازته، وما إن ووريت الجثة الكريمة في التراب حتى وقف خليل مطران في ذلك الحشد وأطلق صوته راثياً وإذا شعره يقع على الجماهير موقع السحر، وإذا الجميع يعجبون لبلاغة الشاعر واسلوبه الجديد في الشعر وعمق تحليله، وإذا بشارة تقلا أخو الفقيد وصاحب الأهرام يدعو الخليل بعد ذلك إلى بيته ويحنده للانشاء في جريدته ويجعله مراسله الخاص في القاهرة . وما هو إلا زمن قصير حتى أصبح خليل مطران ملء السماع بفضل ما أظهره من حذق في المراسلة، ومن صدق واناقة في الاخبار، وجودة في التعبير .

اشتهر خليل مطران في مصر بشعره كما اشتهر في ميدان الصحافة، وقد اتصل به اذ ذاك احمد شوقي وقبس من نوره واسترشد به في علم العروض، وانتصح بنصحه في الشعر، بل أصبح رفيقه الذي لا يجد لذة في العيش الا بجواره . واتصل به غير احمد شوقي من طبقات الشعب المصري المختلفة . قال ابراهيم سليم النجار : « نزلت مصر في نهاية سنة ١٩٠٠ والخليل كاتب كبير وشاعر ملهم، وصحفي قدير فيها، يشع اسمه في سماء مصر في كل مكان، وتلمع شاعريته لمعان الشمس في سماء لبنان، ويتمتع فيها باحترام الخاص والعام الى حد يفوق التصور لم يصل اليه قبله شاعر وصحافي وكاتب في مصر حتى لا أكاد اقول بانه لم يصل اليه إنسان » .

وفي سنة ١٩٠٠ أنشأ مطران صحيفة نصف شهرية أسماها « المجلة المصرية »

(١) خليل بك مطران، جهاده نصف قرن في دولة الصحافة والشعر والأدب، بقلم ابراهيم سليم نجار صاحب جريدة « اللواء » - ص ١٤ .

كانت اول مجلة مختصة بشؤون الادب في تاريخ الشرق، صدر منها اربعة مجلدات ثم انحجبت . وفي عام ١٩٠٢ أنشأ « الجوائب المصرية » وهي صحيفة يومية اشترك في انشائها الشيخ يوسف الخازن . قال ابراهيم سليم النجار : « كان الخليل في مجلة الجوائب والجريدة اليومية صحافياً شاعراً، بعيداً عن المادة، عفاً القلم واليد واللسان، نقي الضمير، طاهر الوجدان، لم اعرف صحافياً اكبر منه نفساً واخلص منه وطنية، وصدق قولاً وقلماً . ومن كانت هذه صفاته في جهاد الحياة، وميدان الصحافة، كان حظه فيها صغيراً، وشوطه قصيراً » .

وفي تلك الفترة اصدر مطران كتابه « مرآة الايام » (١٩٠٦) في التاريخ العام . وهو في جزأين، كما انه جمع « مرثي الشعراء » لسامي البارودي، وكتب بعض التمثيليات وبدأ في ترجمة مسرحيات شكسبير . ومن اجل مظاهر نشاطه لذلك العهد اصداره « ديوان الخليل » وهو مجموعة ما نظمها حتى عام ١٩٠٨ .

وتعدّ الفترة بين ١٨٩٧ و ١٩٠٣ اعظم شوط في حياة الشاعر من الناحية العاطفية، فهي تمثل الناحية الشعورية، وتلخص في « حكاية عاشقين » حيث صب مطران تاريخ حبه .

٣ - الطور الثالث : في الأوج : تحول خليل مطران من عالم الصحافة الى عالم الاقتصاد وظلّ على كل حال شاعراً يملأ فراغه بما تملي عليه قريحته الفياضة . وكان من اشتغاله بالشؤون الاقتصادية واعتماده عليها في المعيشة ان كسب كثيراً وخسر كثيراً وظلّ على تلك الحال الى ان فوجئ سنة ١٩١٢ بنجسارة كل ما يمتلكه، فكان ذلك صدمة كبرى لنفسه وقلبه، وكاد يستولي عليه اليأس لولا ما عنده من تفكير ونظر عميق في الامور والاحوال، ورجع في حزن شديد، وانكسار ما بعده انكسار، الى مدينة عين شمس (مصر الجديدة)، وقضى هنالك اياماً يهاجم فيها شبح اليأس، ونظم قصيدته الشهيرة « الاسد الباكي » وصوّر فيها حالته النفسية

(١) خليل بك مطران، جهاده نصف قرن في دولة الصحافة والشعر والأدب، ص ١٦ - ١٧ .

وأساءه المضي . وعلى اثر ما حلّ بالشاعر 'عين سكرتيراً' معاوناً بالجمعية الزراعية الملكية، فانتظمت شؤونه المادية واستقامت، وظهر في عمله من المهارة ما لفت اليه الانظار . والجدير بالذكر ان شاعرنا حذق فن الاقتصاد والزراعة الى حد بعيد حتى كلف بوضع « البرنامج التأسيسي » لبنك مصر، وحتى اسس « النقابة الزراعية المصرية »، و « مما يذكر عن مطران ان المذكرات التي كان يضعها رجال المال والاقتصاد في مصر كانت تُعرض عليه، كما كانت المذكرات القانونية التي يضعها رجال القانون، وفيها مساس بشؤون المالية، تُعرض عليه للنظر فيها قبل طبعها وتقديمها للدوائر المختصة » .

وهذه الفترة من حياة خليل مطران تمتاز بظهوره بالاغراض الشكسبيرية في الشعر، وقد نظم فيها اول ملحمة شعرية في الادب العربي اعني بها قصيدته الخالدة في « نيرون » . ولكن الاحوال ومراعاة الخواطر جرّته الى نظم قصائد كثيرة مما ندعوه شعر المناسبات وما ليس له كبير قيمة من الوجهة الفنية .

وهكذا قضى خليل مطران حياته مخلصاً للناس ولاعماله جميعاً، مخلصاً لفنه وأدبه . وقد لقي من المجتمع الذي عاش فيه من قدره حق قدره، فأقيمت له في ٢٤ نيسان سنة ١٩١٣، حفلة تكريمية في دار « الجامعة المصرية الاهلية » بإيعاز الخديوي عباس حلمي الثاني وتحت رعايته، وبعناية سليم سر كيس صاحب مجلة « سر كيس »، وكانت تلك الحفلة اعظم مهرجان ادبي شهدته البلاد العربية الى ذلك الحين . ولم تكتف الحكومة المصرية بذلك المهرجان بل اقامت له في ٢٩ آذار سنة ١٩٤٧ مهرجاناً آخر اشترك فيه اكبر رجال الدول العربية واعظم علمائها وادبائها مقرّين بتفوق الخليل وسمو ادبه .

وقد لقب الخليل بحق « شاعر القطرين » ثم « شاعر الاقطار العربية » .

٢ شخصية : يتجلى لنا مما سبق ان خليل مطران شخصية فريدة . فهو رجل خلق عصي المزاج، مرهف الاحساس، سريع الانفعال؛ ولكنه جمع الى ذلك قوة العقل وضبط النفس، وقد نما عقله فاصبح اقوى من قلبه، فهو يضبط انفعالاته ويحكمها ويصفيها. قال خليل مطران : « في المعاودة وحدها تاريخ تكون شخصيتي، فقد كان هناك عاملان يعلان في نفسي : شدة الحساسية ومحاسبة النفس، ومن هذين العاملين خلصت بتكوين نفسي على نمط خاص » . وقد نتج عن ذلك ان سادت الطمأنينة في نفس مطران وساد التوازن الهادي، فلا انقباض، ولا شدوذ، ولا تحطّر للحدود، ولا تعصّب ديني او مذهبي - وان كان الرجل صاحب عقيدة دينية شديدة - ولا ثورة عاطفية جامحة، ولا احتدام غضب، بل روح طيبة وانس معشر وحديث شائق، وسخاء يعمل على فائدة الناس من غير حساب، ويعمل في خفاء، يكره الاعلان وينبذ الكبرياء .

قال ابراهيم سليم النجار : « ابدع واعجب ما في شاعر القطرين اخلاقه وآدابه بلا جدال . واني لا قول بحق وصدق انني لم أرَ لها مثيلاً ولم اسمع بمثلاً . صحبت الخليل صحبة قريبة وثيقة اكثر من ربع قرن لم اسمع من فيه كلمة سوء بحق احد من الناس ابداً كان، سواء اكان غريباً او قريباً . ولم أره مرة في حالة حدّة او غضب، حتى لظننت انه لا يعرف الغضب، ولو حمل عليه، ولم يأخذ امراً من الامور بالحدّة ولو دُفع اليها... وكانت نتيجة خلق الخليل الطيب الرضي انني لم اعرف له في مصر لا اقول عدواً او خصماً، بل رجلاً واحداً كارهاً مبغضاً » .

أما ثقافة خليل مطران فهي واسعة يغلب عليها عنصر التأمل والتفكير والنظر .

٣ آثاره : لخليل مطران آثار كثيرة لا يزال قسم كبير منها مخطوطاً . أما المطبوع منها فأشهره « ديوان الخليل »، و « مرآة الايام في ملخص

التاريخ العام» ؛ وعدة روايات تمثيلية لشكسبير وكورنيه نقلها مطران الى العربية أشهرها « مكبث » ، و « هملت » و « عطيل » ، و « تاجر البندقية » ، و « السيد » ، و « سنّا » ؛ و « الى الشباب » مجموعة أراجيز في الاخلاق وحسن التصرف .

وخليل مطران هو صاحب القصائد الرائعة الطائفة الشهرة : « المساء » ، و « نيرون » و « الاسد الباكي » ، و « آثار بعلبك » ، و « وقفة في ظل تمثال وعيسيس » ...

٤ خليل مطران الشاعر : خلق خليل مطران شاعراً، وخلق ليكون إنسانياً في شعره، فقد جمع من عمق شعوره، وقوة خياله، ونظريته الحادة الهادئة الى الاشياء، وإعمال فكره في كل شيء، وميله الى تتبع الجزئيات، ورصانته في التفهم والشعور، وذوقه الذي لا يخطئ، وإدراكه للسحر الموسيقي الخلاب، لقد جمع من كل ذلك ما جعله متفوقاً في شعره . زد على طبيعته الغنية ما كسبه بتحصيله وبانفتاحه على عالم الثقافات المختلفة، وما ناغم نفسه في تلك الثقافات من تحرر وانطلاق، تفهم كيف ان الطبيعة هيأت شاعرنا ليكون يوق التحرر من القيود، وعاملاً فعّالاً في توجيه الادب شطر الاجواء الفسيحة والمعاني الخالدة، وان لم يستطع التملص تماماً من الاغراض والاساليب القديمة .

١ - خليل مطران بين القديم والحديث : انتشرت المدارس في البلاد شيئاً فشيئاً وانتشرت كذلك الثقافة الغربية، وتسربت مع الثقافة الغربية روح التجديد والتفكك من قيود العرب الاقدمين في الادب والشعر والعلم والتاريخ، فقامت طغمة من شبّان الحركة الجديدة يسلكون الطرائق الحديثة، واذا في الشعر مع خليل مطران، وفي التاريخ مع جرجي زيدان، وفي العلم مع صروف، توجيه جديد، وأساليب تجاري أساليب الغرب . ومذهب خليل مطران أن « للعرب عصرهم ولنا عصرنا، ولهم آدابهم وأخلاقهم وحاجاتهم وعلومهم، ولنا آدابنا وأخلاقنا وحاجاتنا وعلومنا » .

قال الدكتور طه حسين باشا : « مطران ناثر على الشعر القديم، ناهض مع المجددين، وهو قد سلك طريق القدماء فلم تُعجبه، فأعرض عن الشعر، ثم اضطرَّ فعاد اليه وحاول ان يعود اليه مجدداً لا مقلداً . وهو يُنبئك بأنه يعرض عليك في ديوانه شيئاً من شعره القديم لتتبين به مقدار ما وصل اليه من التجديد، وهو متواضع لا يزعم أنه بلغ من التجديد ما يريد وإنما يترك ذلك للذين سيأتون من بعده . وهو شجاع لا يعتذر ولا يتلطف، وإنما يعلن ثورته على القديم واغتيابه بالعصر الذي يعيش فيه وحرصه أن يُلاثم بين شعره وبين هذا العصر . وهو مُعتدل فهو لا يرفض القديم كله وإنما يحتفظ باصول اللغة وأساليبها في حرية كما يتأثر القدماء في اطلاق فطرتهم على سجيّتها، يكظم فطرته ولا يُغشيها بالاستار الخداعة الخلابه . وهو فني له في جمال الشعر مذهب ان لم يكن واضحاً كل الوضوح ولا مبتكراً كل الابتكار فهو على كل حال مذهب قيم لانه يمثل شيئاً من المثل الاعلى الفني في هذا العصر، فهو يكره هذا الشعر الذي تستقلّ فيه الابيات وتتنافر وتتدابر، ويريد ان تكون القصيدة وحدة ملتزمة الاجزاء^١ . »

اما عناصر تجديد خليل مطران فرجعها الى أنه شاعر الثقافة الشاملة، شاعر العقل والشعور جميعاً؛ فهو يأتيك بالافكار والخواطر متسلسلة مطردة، والخيال متنسقاً؛ وهو يُدخل في الادب العربي الشعر القصصي والتصويري في مجاله الواسع، وينقل الخيال الشعري « من الهوائف والاصداء التي تسمعها الآذان والصور التي تراها العين الى صور وأشباح تبرز للخيالة وتمثل الذهن مستكملة اسباب وجودها الموضوعي في الخارج عن الشاعر » . وهكذا كان خليل مطران مجدداً في أغراض شعره واساليب تحليله وان صبّ تجديده في قوالب قديمة خالصة العروبة .

٢ - خليل مطران شاعر الوجدان : أول ما يطالعك به خليل مطران في شعره هو وجدانه، ذلك الوجدان الذي يغمره جو من اللطف والحنان، وينساب

انسياب الماء الصافي في مجرى الهدوء والتوازن، بعيداً عن كل نشوز، وخالياً من كل صرخة مدوية أو صخب مُزعج؛ هو نفس الشاعر المخلوقة من صفاء ورقة، هو قلب الخليل الذي لا يعرف الغش والواربة؛ هو الحبُّ في تنفُّسه المعطر؛ وهو العتاب الذي يذوب فيه الكلام؛ وهو الرسالة التي تُسيرها الصبابة المؤثرة؛ وهو الألم الذي ينصهر في بوتقته الجسم؛ وهو الدمعة التي تسيل دماً؛ وهو الطبيعة كلها تتناجى في روح الشاعر من زهرة الى شمس تتوارى، الى شراع خفاق، الى ظلام يبسم له القمر، الى عصفورة مغتربة تطلق الإرنان، الى غير ذلك مما عانقته نفس الشاعر وانفتحت له حناياه .

ولا بُدَّ لنا، اذا اردنا ان نتفهَّم شعر الخليل الوجداني، من ان نقف معه موقفين اثنين، نقتصر عليهما، هما موقفا الحب والألم .

أما الحب فقد لعب دوراً كبيراً في حياة الشاعر الوجداني . وقد تتبَّع الخليل خطواته خطوة خطوة، وتفهم معانيه معنى معنى، وحلَّل عناصره في نفسه وخارجاً عن نفسه . فصدر الحب عين ترى وقلب يجاري ويميل . وللخليل في ذلك قصيدة فريدة عنوانها « العين والقلب أمام قاضي الغرام » تدور حول قصّة الحب وتسجل وقائعها كما تُفصّل اوجه الدفاع عن العين وعن القلب، وقد كان الحكم فيها ابتدائياً واستثنافياً وامام محكمة النقض والإبرام :

عرض القضية للحكيم :

يَمِينُ قَلْبِي وَمُقَلَّتِي حَمَلَتْهُ تُوهِنُ الْقُوَى
وَتِرَاعٌ بِفَصْلِهِ حَكَمًا قَاضِيُ الْهَوَى

الدفاع عن العين :

إِنَّمَا الْعَيْنُ أَبْصَرَتْ فَصَبَا الْقَلْبُ وَأَكْتَوَى
عَرَضًا أَبْصَرَتْ، وَلَا ذَنْبَ إِلَّا لِمَنْ نَوَى !

الدفاع عن القلب :

وهو، لولا طُموحها، لم يبت شاكي الجوى
مُسْتَمِرّاً خفوقه كلما نسم الهوا
شبه ظمآن، ما له من ندى الدمع مُرتوى

الحكم الابتدائي :

قال قاضي الغرام من سدة فوقها أَسْوَى :
إن تلك العين أذنبت حسنها السُّهْدُ والنَّوى
كيف تجزى وما غوت وسواها الذي غوى ؟
فعلى القلب غرمة ففى لم تجن، بل هوا !

حكم الاستئناف :

هي مالت فسببت وهو جارى فما أرعوى
فليعاقب كلاهما فهما : فى الهوى سوا !

حكم النقص والابرام :

القلوبُ والمقلُ هذه للهوى رُسلُ
لسن للهوى عِللاً فالهوى لها عِللُ . . .

ذلك هو الحب وتلك طريقته فى استلاب القلوب، والنظرة لا تلبث ان تتحول

الى هيام واضطرام :

أحبك حتى لا مرور ولا منى
أحبك حتى ينكسر الحب رُسْلُهُ
ولو لم تسكن فى الموت سلوى أخافها
لأحببت حتى ألتوت فىك ولو ذمّاً

والهيام ظمأ دائم لا يمكن إطفائه :

كأننا شملتان إذا اعتشفتنا
وما إن تنطفئ نار بنار
على ظمأ فلم يرو الأوام
فيسنفينا التمانق والليزام

(١) الأوام : شدة العطش واحتداه .

وهو يتحوّل من ثمّ الى ألمٍ مُمضٍ :

ففي الجسمِ نارٌ يلدَعُ القلبَ وقَدُّها وفي القلبِ نارٌ مثلها تُلدَعُ الجسمَ

ولكنّ ذلك الألمُ مُحَبَّبٌ الى قلب من يحمله :

حاشاك بل كُتِبَ الشقاء على الورى والحبُّ لم يبرَحْ أَحَبُّ شقاء

والحب عند خليل مطران ألحان تشترك فيها الطبيعة بأسرها :

وفي الهواءِ حنينٌ من الهوى وزفيرٌ

ولللنسيمِ حديثٌ على المروجِ يدورُ

وللأزاهرِ فكرٌ يرويه عنها العبيرُ . . .

والحب عنده لا يتخطى حدود المعقول، فهو عفيفٌ يبتعد عن كل شدوذ لان الشذوذ قتل للحب الحقيقي . و خليل مطران يشور في وجه كل انسان يريد ابتذال الحب وتحويله الى شهوة حيوانية غليظة، وهو يطلب البطولة من المحبين، ويروي من قصص البطولة في الحب ما يرفعه الى درجة سامية .

أما الألم فقد عَصَرَ نفس مطران وكانت اسبابه شتى فمن ظلم وطغيان يضيّقان الحنّاق على أحرار بلاده الى ابتعاد عن الاهل والوطن، الى العيش في بيئة لا تفهم تحرّره ولا تكاد تفهم شعره، الى خسارات جسيمة نالت ماله واحبائه واصدقائه، الى امراض ومصائب مختلفة حلت به، الى شعور بشعور الانسانية المتألّمة، الى حب يُلهب صدره ولا يُطلق له العنان، الى غير ذلك مما جعل مطران هدفاً للحزن والالام، ومما أسال قلبه شعراً نابضاً بكل عاطفة مؤثرة وأختلاجة مفعجة .

وهذا الالم يتجلّى اكثر ما يتجلّى في عدّة قصائد منها « المساء »، و « موت عزيزين »، و « الاسد الباكي » . اما القصيدة الاولى فهي من ثمار المرض المِحْض، واما الثانية فهي من ثمار الخسارة القلبية، واما الثالثة فهي من ثمار الخسارة المادية .

يحدثنا خليل مطران في القصائد الثلاث عن نفسه وهو في أوج الحزن والالام،

واذا نفسه شفاقة، واذا الالم يستولي عليها بقوة لما لها من صدق الإحساس وعمقه،
 واذا هنالك جو واسع من الحزن مستبد، واذا الطبيعة كلها موجعة يصفها الشاعر
 بقلمه ساحر مؤثر، واذا التشاؤم يتسرب الى ذلك الجو، واذا الشاعر يرتاح الى نوع
 من الذوبان والزوال كأن همه، لثقله، فوق ما يتصوره عقل إنسان :

متفرّدٌ بصباقي، متفرّدٌ بكآبتي متفرّدٌ بعنائي
 ثاورٌ على صخرٍ أصمّ وليت لي قلباً كهذي الصخرة الصماء
 ينتأجها موجٌ كسجٍ مكارهي ويفتئها كالسقم في أعضائي...
 والشمسُ في شفقٍ يسيلُ نضارُهُ فوق العقيقِ على ذُرَى سوداء
 مرّت خيلاً غمامتين تحدرًا ونقطرت كالدّمنعة الحمراء
 فكان آخر دمنعة للكون قد مرّجت بأخير أذمعي لرثائي
 وكأني آنست يومي زائلاً فرأيت في المِراة كيف مسائي

وكيف يقوى الشاعر على مغالبة الالم وسلاحه قلب رقيق أرق من نسيم الصباح :

غلبتني صُروفُ دَهري على صبري وأفنته نارها في الملاحم
 الأمان! الأمان! ألقيت سيفي وطويت اللواء تسليم راغم
 خان عزمي السباب، واقتصّ ضعفي من ثباتي، فكيف مثلي يقاوم
 إن من سيفه شبابٌ نصيرُ فمَيُوبُ السباب فيه مثالم
 والذي درعه فؤادٌ رقيقٌ فجريحٌ إن يفتحم أو يقاوم...

والحزن يتحوّل احياناً عند مطران الى بركان هائل ولكن الشاعر يسعى، بقوة
 الارادة والمعاودة، في كبح جماح ذلك البركان :

ذرّوني وأنجوا من شطايا نصيبكم إذا لم أطق صبراً فأطلقت أنفاسي
 فإني على ما نالني من مساءة لأرحم صحتي أن يلجم جسم باسي...
 ذروني أحس الكأس غير منفسر عن الورد منها نفرة الطائر الحاسي
 فرُبّت كأسٍ عن شفاهي ردّدتها وقد قتل الدمع السلافة في الكاس...

أَنَا الْأَلَمُ السَّاجِي لِبُعْدِ مَزَافِرِي أَنَا الْأَمَلُ الدَّاجِي وَلَمْ يَنْجُبْ نِيرَانِي
أَنَا الْأَسَدُ الْبَاكِي، أَنَا جَبَلُ الْأَسَى أَنَا الرَّمْسُ يَمْشِي دَائِبًا فَوْقَ أَرْوَاسٍ...

وفي ذلك منتهى ما وصلت اليه العظمة والشدة في الألم، وفي ذلك منتهى ما وصل اليه التعبير عن الألم الضخم، والتحليل لما يعتلج في النفس، وتتبع جزئيات المعاني، وإبراز العواطف المتسقة.

٣ - خليل مطران شاعر التاريخ والاجتماع : الى جنب شعر مطران الوجداني نجد شعراً تاريخياً اجتماعياً فيه من الروعة وحسن الوصف والتحليل ما في الشعر الوجداني . ومن أشهر شعره في هذا الموضوع : « نيرون » ، « في ظل تمثال رعمسيس » ، « مقتل بزرجمهر » ، « فتاة الجبل الأسود » ...

عرف خليل مطران عبد الحميد، وذكر ان عبد الحميد ما هو إلا صورة من الصور التاريخية التي مرت بالارض فلاتها جوراً وطغياناً ؛ ذكر كسرى - واذا كسرى يقتل بزرجمهر حكيم العالم اذ ذاك لاجل نصيحة وجهها الى مليكه ؛ وذكر رعمسيس - واذا هو يبني مجده على دماء الشعب ؛ وذكر نيرون - واذا هو يحرق روما لينظم شعراً . ووقف خليل مطران امام تلك الصور الطاغية يحلل طغيانها وسببه ودواءه، واذا الطغيان في نظره نتيجة جهل الشعب وتحاذله :

مَا كَانَ كِسْرَى إِذْ طَغَى فِي قَوْمِهِ إِلَّا لِمَا خَلَقُوا بِهِ فَعَمَلًا
هُمْ حَكَمُوهُ فَاسْتَبَدَّ تَحَكُّمًا وَهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَصُولَ فَصَالًا
وَالْجَهْلُ دَائٌ قَدْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ فِي الْعَالَمِينَ وَلَا يَزَالُ عُضَالًا
لَوْلَا الْجَهَالَةُ لَمْ يَكُونُوا كَأْهُمْ إِلَّا خَلَائِقَ إِخْوَةَ أَمْثَالًا
لَكِنْ خَفَضَ الْأَكْثَرِينَ جَنَاحَهُمْ رَفَعَ الْمُلُوكَ وَسَوَّدَ الْأَبْطَالَ

فكل شعب يخلق نيرونه بجهله :

كُلُّ قَوْمٍ خَالِقُ نِيرُونِهِمْ قَيْصَرٌ قِيلَ لَهُ أَمْ قِيلَ كِسْرَى

ويزيد الشعب طاغيته جوراً وغروراً بتزلفه وتلقفه ؛ قال مطران في نيرون وتقليق أُمته له :

بَلَّغَ التَّمْلِيقُ مِنْهَا أَتَمَّا كُلَّمَا أَزْرَى بِهَا شِدَّتُهُ أَزْرًا
كُلَّ يَوْمٍ يَدْعِي فَنَاءً فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ نَوَى حَقَّ أَقْبَرًا
قَالَ : لِي حُسْنٌ ، فَقَالَتْ : وَبِهِ ، يَافْقِيدَ الشَّبَّهِ ، فُقِيتَ النَّاسَ طُرًّا
فَتَرَقَّى ، قَالَ : إِنْني مُطْرِبٌ فَأَجَابَتْ : وَتُعِيدُ الصَّخْرَ سَكْرًا
فَتَسَادَى ، قَالَ : فِي التَّصَوِيرِ لِي غُرْرٌ . قَالَتْ : وَنَوَيْ الرِّسْمَ عُمَرَا
فَتَنَالَى ، قَالَ : فِي التَّشْبِيلِ لَا شَبَّهَ لِي . قَالَتْ : وَتَحْيِي الْمَيِّتَ نَشْرًا
فَتَنَاهَى ، قَالَ : إِنْني شَاعِرٌ فَأَجَابَتْ : إِنَّمَا تَنْظِمُ دُرًّا . . .

وفي هذا القول منتهى ما وصل اليه تحليل الزلثني وأثرها في نفس من وُجِّهت اليه .
ولكن نفس مطران الحرة تنتفض في شعرها انتفاضاً ثائرة على الظلم والاستبداد ،
فتزى ان اعدل الحكم ما كان شوري :

أَيْنَ التَّفَرُّدُ مِنْ مَشُورَةٍ صَادِقٍ وَالْحُكْمُ أَعْدَلُ مَا يَكُونُ جِدَالًا

وَأَنَّ إِثَارَةَ الْوَعْيِ فِي الشَّعْبِ ، وَمَحَارَبَةُ الْأُمِّيَّةِ وَالْجَهْلِ هُمَا الدَّوَاءُ النَّاجِعُ لِدَاءِ الظُّلْمِ :
إِنْ يَجْهَلِ الشَّعْبُ فَالْحُكْمُ الْخَائِقُ بِهِ حَقُّ الْعَزِيزِينَ مِنْ وَالِدِ وَسُلْطَانِ
أَوْ يَرْشُدِ الشَّعْبُ يُمْسِ الْأَمْرُ فِي يَدِهِ وَلَا أَعْتِدَادَ بِأَمْلَاكِ وَأَعْيَانِ

وخليل مطران ينشد البطولة في الشعب ، ويصور تلك البطولة في فتاة الجبل الاسود ،
وابنة بزرجهر ، والنساء البويريات ، وفي شهيد المروءة . . . وهو يريد ان يكون
جميع الشعب من طراز البويريين :

كَذَاكَ هُمْ كُلُّهُمْ جُنُودٌ لِبَصْدِ عَادٍ أَوْ أَخْذِ نَارِ
لَا يُفَرِّقُ الْمُفْتَنِي حُسَامًا عَنْ أَلَّتِي تَفْتَنِي السِّوَارِ
كَبِيرُهُمْ قَائِدٌ بَنِيهِ إِلَى رَدَى أَوْ إِلَى أَتِّصَارِ
وَطِفْلُهُمْ ضَارِعٌ إِلَى مَنْ إِذَا بَرِيءٌ دَعَا أَجَارِ

فالشرق بحاجة الى علم وتحرُّر وعمل، ولن تستقيم حاله إلا بالإرادة النيرة القويّة :

بني الشرق فلننقِضْ حقيقة حالنا لننجو أو يُقضَى القضاء المحتَمُّ^١
 يَصُولُ علينا الجهلُ غيرَ مُدافعٍ يجيشُ له في كُلِّ رُبْعٍ مُحِشَمٌ^٢
 ويُعوِزُّنا الإخلاصُ في كُلِّ مطلبٍ ويُعوِزُّنا الخلقُ المتينُ المَقْوَمُ^٣
 ونرتاحُ دونَ الصِّدْقِ والصِّدْقُ مُتَعَبٌ إلى الإفكِ عمَّا لا نُكُنُّ يُتَرَجِمُ^٤
 ونعزِمُ عِزَّما كُلَّ يومٍ فينقضي بلا أثرٍ، من لم يطبقْ فيمَّ يعزِمُ^٥
 هماماتُ آمالٍ بها الكونُ ضائقٌ ورنَّاتُ آلامٍ بها الجوى مُفْعَمٌ^٦
 وما تحتها إلا رُؤى من فراغها طفتْ، ومُنَى من وهبها تشكَّلَمُ^٧
 أهذا السذي نعتدُّه عن تيقُّظٍ لإصلاحنا المرجوِّ أم نحنُ نَحْلُمُ^٨...

تلك بعض آراء خليل مطران في المجتمع . وفي شعره التاريخي والاجتماعي قصص نابض بالحياة، فيه من روعة الفن، والمتعة، وحسن السياق، وبلاغة الاسلوب، وجمال التصوير، وعمق التحليل، شيء لا يعرفه إلا « شاعر الاقطار العربية » .

٤ - خليل مطران شاعر الوصف : مطران وصاف ماهر ومصور من الطبقة الاولى بين شعراء العربية لا يُنافسه في ذلك إلا ابن الرومي . ووصفه يشمل المعنويات والماديات، ويستطيع بقوة الفكر والتحليل ان يعبر عن ادق التفاصيل والجزئيات . والوصف عند مطران من اقوى العناصر الشعرية، فهو ابدأ يتلو عليك آيات بيّنات من روائع وصفه، وهو كيفما تقلّب، وفي اي موضوع نظم، تنطلق الصور عن لسانه انطلاق الشهب اللامعة، في نعومة ودقّة عجيبتين وفي ذوق خلّاب . فهناك الترتيب، والتحليل، والتمثيل، والتشبيه، والتجريد وكل ما من شأنه أن يحيم الشيء ويحييه ويجعله ينطق ويدخل الى القلب والنفس في موسيقى

(١) فلننقِضْهم : فلننقِضْهم (٢) يصول : يسطو (٣) الإفك : الكذب (٤) همامات
 آمال : اي ومضات آمال (٥) طفت : جاوزت الحد . الوهي : الضعف (٦) نعتدُّه : نهيشه .

هادئة، خافقة الذرات، تدغدغ ولا تجرح، وتؤنس ولا تقرع . قال في وصفه
آثار بعلبك :

خَرَبُ حَارَتِ الْبَرِّيَّةِ فِيهَا فِتْنَةُ السَّامِعِينَ وَالنُّظَّارِ
مُعْجِزَاتٌ مِنَ الْبِنَاءِ كِبَارُ لِأَنَاسٍ مِلءَ الزَّمَانِ كِبَارُ
أَلْبَسَتْهَا الشُّسُوسُ تَفْوِيفَ دُرٍّ وَعَقِيقٍ عَلَى رِداءِ نُضَارِ
وَتَحَلَّتْ مِنَ اللَّيَالِي بِشَامَاتٍ كَتَنَقِيطِ عُنْبَرٍ فِي جَارِ
وَسَقَاها النَّدى رَشَاشَ دُمُوعٍ شَرِبَتْهَا ظَوَامِي الْأَنْوَارِ

٥ خليل مطرانه الفأمر : ومما يستحق الذكر ان خليل مطران من اقدر كتّاب
النثر في عصره . ونثره مفعم سلاسة وسهولة مع متانة
في السبك . وان من طالع رواياته المترجمة يعجب لما جمع فيها من روعة في
الاسلوب تنسيك ان هنالك ترجمة .

٦ الخاتمة : تلك نظرة وجيزة في حياة خليل مطران وآثاره نختتمها بما كتبه طه
حسين يوم وفاة الشاعر قال : « لقد عرفت مطراناً معجباً بشعره، مؤثراً
له على شعر المعاصرين جميعاً في الاقطار العربية كلها لم استثن منهم احداً ولن استثني
منهم . وكنت اسمع شعره وشعر حافظ وشوقي فأوثر شعر مطران في وجه حافظ
وشوقي لا أحاط الا في ديباجته التي كنت اراها مقصرة عن معانيه بعض التقصير .
وكان حافظ وشوقي يسمعان ويعرفان ولا يُنكران او لا تنكر ألسنتهما على كل
حال . وكنت ازعم لهما جميعاً ان مطران في المحدثين كأبي تمام في العصر القديم،
وانهما وغيرهما من الشعراء يعيشون حول مطران كما كان شعراء العراق والشام
يعيشون حول ابي تمام . وكنت أهون على حافظ فأحدثته حديث البحتري حين قال
في بعض مجالسه، وقد ذكر ابو تمام انه الاستاذ والرئيس، والله ما اكلت الخبز الا

(١) التفويف : ان تجعل في البناء حجارة مختلفة الاجناس والالوان . العقيق : الحرز الاحمر .

به . فقال له المبرّد، وكان حاضر مجلسه : الله انت يا ابا عبادة، ابنى الله إلا ان تكون كريماً من جميع جوانبك . او كلاماً نحو هذا . وكان حافظ، رحمه الله، اذا سمع مني هذا الحديث اغرق في ضحكته العريض العميق . وقال : ليكن مطران ما شئت فحسبي ان اكون كالبحتري^١ .

وقال احمد الشايب : « اذا كان حافظ سرعة البديهة وحلاوة النفس وصفاء العبارة وترديد آمال مصر وآلامها، فان لشوقي براعة الغناء، وقوة الاسلوب، وحسن التصوير، وان لمطران صحة الفكرة، ووحدة القصيد، وصدق النظرة، والثقافة الشاملة، وسماحة الطبع، وسمو الاخلاق، ومعنى هذا ان مطران ليس شاعراً فقط، او هو شاعر من هذا الطراز المثقف، هو عالم وأديب . صياغة بديعة، وشعور صادق، وخيال عام، وافكار سديدة . فاذا التمسست عند حافظ وشوقي الجمال الفني فالتمسسه عند مطران والتمس معه اللذة العقلية وغذاء الفكر والعاطفة او غذاء النفس جمعا^٢ . »

مشاهير الأدباء - النشر

الفصل الخامس

المعلم بطرس البستاني

(١٨١٩ - ١٨٨٣ م / ١٢٣٥ - ١٣٠١ هـ)

١ حياته : وُلد المعلم بطرس البستاني في قرية الديّنة وتخرّج في مدرسة عين ورة، ثم هبط بيروت، والتحق بالانكليز فترجم لهم، ثم اتصل بالاميركان فعلمهم العربية وعرب لهم الكتب. وفي سنة ١٨٤٦ عاون الدكتور كرنيليوس فانديك على انشاء مدرسة عبيه. وفي سنة ١٨٤٨ تولى وظيفة الترجمة في قنصلية اميركة وعاون الدكتور عالي سمث في ترجمة التوراة.

وفي سنة ١٨٦٣ أنشأ المدرسة الوطنية. وفي سنة ١٨٧٠ أنشأ « الجنان » ثم الجنة، وفي سنة ١٨٧٥ شرع في وضع « دائرة المعارف ». وتوفي سنة ١٨٨٣ بعد حياة مليئة بالاعمال الجليلة.

٢ - آثاره : للبستاني آثار كثيرة من اهمها « محيط المحيط » و « دائرة المعارف »، وخطب في الاجتماع.

٣ المعلم بطرس البستاني رجل الاجتماع : عالج البستاني عدّة امور اجتماعية اهمها وجوب تعليم المرأة، وقد برهن على ذلك ببراين استقفاها من طبيعة الانسان ومن رسالة المرأة في المجتمع. ويبيّن المواد التي يجب ان تتعلمها المرأة من ديانة، ولغة، وتاريخ، وتدريب المنزل وما الى ذلك.

وعلم المرأة يوسّع قواها ويقوّم سيرتها، ويرجع بالفائدة على زوجها وابنائها؛ فيما ان جهلها يفسد ذوقها وعقيدتها وآدابها.

٤ المعلم بطرس البستاني الكاتب : اسلوب البستاني اسلوب هاديء رصين فيه بساطة وسهولة وانسجام وجلال.

وهو من اكبر اركان النهضة الحديثة.

١- حياته :

١ - مولده ونشأته : (١٨١٩ - ١٨٣٠) وُلد المعلم بطرس البستاني في قرية



المعلم بطرس البستاني

الدُّبِّيَّة من اقليم الخُرُوب بجبل لبنان سنة ١٨١٩، ثم درس القراءة العربية والسريانية على الخوري ميخائيل البستاني، وأُرسل بعد ذلك الى مدرسة عين ورقة حيث درس علوم اللغة العربية، واللغات السريانية واللاتينية والايطالية والانكليزية والفلسفة واللاهوت والشرع الكنسي .

٢ - مع الانكليز والاميركان

(١٨٤٠ - ١٨٦٣) : وفي عام

١٨٤٠ هبط بيروت، ووافق

هبوطه اليها قدوم مراكب الدول الاوربية المتحالفة مع تركية، وانتشارها على سواحل لبنان تريد دحر جيوش ابراهيم باشا واخراجها من البلاد . فاستخدم الانكليز المعلم بطرس ترجماناً . وفي تلك الاثناء اتّصل ببعض مرسلي الاميركان واتفقوا وياهم على ان يعلمهم العربية ويعرّب لهم الكتب وقد اعتنق مذهبهم . وفي سنة ١٨٤٦ عاون الدكتور كرنيليوس فانديك على إنشاء مدرسة في عبيه، وتولّى فيها التعليم عامين ألّف في خلالها كتاباً في الحساب اسماه « كشف الحجاب في علم الحساب » ثم كتاباً في النحو اسماه « بلوغ الارب في نحو العرب » .

وفي سنة ١٨٤٨ تولى وظيفة الترجمة في قنصلية اميركة . وفي تلك الاثناء درس اللغتين اليونانية والعبرانية، وقام بأعمال شتى في الجمعيات المختلفة، وعاون

الدكتور عالي سمث في ترجمة التوراة . ثم باشر تأليف معجميه المشهورين « محيط المحيط » و « قطر المحيط » . وفي سنة ١٨٦٠ انشأ صحيفة وطنية دعاها « نفيير سورية » وقد رمى فيها الى تقريب القلوب بعد المجازر التي جرت في تلك السنة .

٣ - رجل المشاريع الوطنية : (١٨٦٣-١٨٨٣) : وفي سنة ١٨٦٣ انشأ « المدرسة الوطنية » على قاعدة الحرية الدينية ومبدأ الجامعة الوطنية، يريد بها تأليف القلوب ونشر المبادئ الوطنية على صدق في جانب الدولة وإخلاص في جانب الوطن . فقصدها الطلاب من جميع البلدان الشرقية، وكان لها أثر واسع .

وفي سنة ١٨٧٠ انشأ صحيفة « الجنان » ثم جريدة « الجنة » . وفي سنة ١٨٧٥ شرع في وضع « دائرة المعارف » وقد عاونه فيها ابنه سليم . وقد أبدى من الهمة في تأليف هذا الكتاب وطبعه ما لا يُتوقع من فرد .

٤ - وفاته : وتوفي البستاني سنة ١٨٨٣ بعد حياة مملأها بالاعمال المجيدة في خدمة الوطن والعلم، وقد كان مثلاً للجلد والثبات، والدؤوب على العمل، والبذل في سبيل الخير .

٢ آثاره : لبطرس البستاني آثار كثيرة . ففضلاً عن كتاباته في الصحف، وفضلاً عن مساهمته في ترجمة التوراة، له مؤلفات في النحو واللغة والادب والرياضيات والاجتماع .

١ - في النحو واللغة والادب وما الى ذلك : « مصباح الطالب في بحث المطالب » وهو شروح علقها على كتاب « بحث المطالب » للمطران جرمانوس فرحات ؛ و « مفتاح المصباح » ، و « باوغ الارب في نحو العرب » وهو لا يزال مخطوطاً ؛ و « محيط المحيط » وهو قاموس مرتب على حروف المعجم يقع في مجلدين ؛ و « قطر المحيط » وهو مختصر للسابق ؛ و « آداب العرب » وهو خطاب القاه في ١٥ شباط سنة ١٨٥٩ في الادب العربي واسباب انحطاطه ومستقبله ؛ و « شرح

ديوان المتنبي» ؛ و «دائرة المعارف» وهي «قاموس عام لكل فن ومطلب» كان الاول من نوعه في اللغة العربية بل كان عملاً جبّاراً يقوم به فرد من الافراد.

٢ - في الرياضيات : « كشف الحجاب في علم الحساب » و « مسك الدفاتر ».

٣ - الاجتماع : المعلم بطرس البستاني خطب كثيرة في الاجتماع من اشهرها : « تعليم النساء » و « الهيئة الاجتماعية » و « المقابلة بين العوائد العربية والافرنجية » . الى غير ذلك من الموضوعات الهامة .

٣ المعلم بطرس البستاني رجل الاجتماع : (اراد المعلم بطرس البستاني ان يكون رجل إصلاح وعمل شريف في أمته) فعالج ذلك بطرق شتى تارة بتأليف المعاجم والكتب المدرسية لانهاض الحالة الثقافية وتارة بانتائه الى الجمعيات العلمية والعمل فيها بنشاط، وتارة بالتدريس والقاء الخطب . ولكن الموضوع المهم الذي عالج في الاجتماع هو المرأة ووجوب تعليمها .

المرأة : قال جرجي نقولا باز متكلماً عن المعلم بطرس البستاني : « انه كان أول من ناصر المرأة في سورية على منبر بل اول رسول نسائي سوري دعا الى تعليمها وتهذيبها . . . وكان بوده إنشاء مدرسة نسائية كالمدرسة الوطنية ما ساعدته عليها الايام . . . وقد جمع المعلم بطرس البستاني آراءه في شأن المرأة في خطابه الذي القاه في ١٤ كانون الاول سنة ١٨٤٩ ، ومرجعها الى وجوب تعليم المرأة .

فهو يرى انه من الضروري ان تنال المرأة من التشريف والتهذيب قسطاً وافراً يساعدها على القيام بعملها الاجتماعي .) ويبين ان تلك الضرورة ناتجة عن طبيعة المرأة التي هي كائن حي ناطق ، ولانها ايضاً عن عملها الاجتماعي (١)

(١) اصدر منها المعلم بطرس البستاني ستة اجزاء وفاجأته المنون وهو يعد السابع ، فأتى ابنه سليم عمله من بعده ، فاصدر الجزئين السابع والثامن ، ثم توفي ، فتابع العمل أبناؤه الباقون يساعدهم نسيهم سليمان البستاني واصدروا الاجزاء التاسع والعاشر والحادي عشر ، ثم توقف العمل قبل نهايته .

فيوضح أولاً موقف من لا يؤيدون هذا الرأي ويبسط براهينهم واذا هي
أوهام، واذا ما يحسبونه برهاناً لهم يقوم شاهداً على قلة تعمقهم في حقيقة الامر،
والجهل الذي يحسبونه حصناً دون فساد المرأة وفساد المجتمع، ودون شرفها وعملها
التربوي، ليس هو في الحقيقة إلا قتلاً لعملها فيما ان العلم « ترياق في فم عليل مدنف
أو صبّ زيت وخر على جرح بليغ » .

وهو بعد ذلك يُلقي نظرة على حالة المرأة في الامم الوثنية والبربرية ويرى ان
حالتها ليست بعيدة عن حالة البهائم، وذلك دليل على تقهقرهم ووحشيّتهم، فيما ان
للمرأة في البلاد الاوربية حقوق الرجل؛ ويلقي نظرة على المرأة في بلادنا لذلك
العهد، واذا حالتها وسط بين حالة المرأة في الامم البربرية وحالة المرأة في الامم
المتعدنة، وذلك دليل على ان البلاد لا تزال في تقهقر وانحطاط اجتماعي . ومن
ذلك يتطرق البستاني الى بسط براهينه في وجوب تعليم المرأة، ومن اهم تلك البراهين
ان المرأة « لم تخلق لكي تكون في العالم بمنزلة صنم يُعبد، او اداة زينة تُحفظ في
البيت لاجل الفرجة؛ ولا لان تصرف اوقاتها بالبطالة وكثرة الكلام والهذيان، او
تقتصر من الاعمال على كناسة البيت مثلاً . . . بل اقامها الله « امّاً للخلقة » فهي
بحاجة الى نور وثقافة لكي تستطيع ان تربي الخليقة تربية راقية، ولا سيما وانها من
طبعها خلقت للمعرفة » فاذا نظرنا الى ما اسبغه الله عليها من القوى العقلية والادبية
كالتمييز، والذاكرة، وقابلية التعلم والتعليم، والميل الى الخير والشر، وهلمّ جرّاً،
نستدل على ان هذه القوى لم تُعط لها عبثاً دون غاية » .

ويرى ان العلم في المرأة هو على وجه ما من شروط العلم في الرجل فيقول:
« انه لا يمكن وجود العلم في عامة الرجال دون وجوده في عامة النساء، كما انه
لا يوجد نساء عالمات في عالم من الرجال جاهل » .

اما مواد تعليم المرأة فموجعها الى ما تحتاج اليه للقيام بواجباتها اي الى
الديانة، واللغة التي وُلدت فيها، والقراءة، والكتابة، وعلم تربية الاولاد، والاعتناء
بالبيت من خدمة ونظافة وخياطة وطبخ واهتمام بالمرضى، والجغرافية والتاريخ
والحساب .

« واما فوائد تعليم المرأة فكثيرة منها » انه يوسع قواها العقلية ويهذبها، ويوقظ ضميرها وينبهه ويحييه ؛ ويقوم ارادتها وعواطفها الادبية، ويرتب سلوكها وتصرفها . فيزيد رقّة قلبها رقة، وحنوّها حنوّاً، ولينها ليناً . . . » ومنها انه يجعل المرأة مكتملة لما ينقص زوجها من الصفات، ومنها انه يجعل الأم نوراً ومثالاً لابنائها . . .

واما مضارّ جهل المرأة فكثيرة ايضاً منها ان الجهل يُفسد ذوقها وعقيدتها وآدابها، ويفقدها المحبة الطبيعية حتى نحو اولادها .

تلك اهمّ آراء البستاني وهو يسوقها في حجة قوية وعلم واسع وهدوء مؤثر، وكلام رصين .

٤ المعلم بطرس البستاني الكاتب : تمتاز كتابة بطرس البستاني بالانسجام والطبيعة البعيدة عن كل زخرف وتنميق، وبالبساطة في اختيار الالفاظ والاساليب، والسهولة في اللفظ والتركيب ؛ وان هذه الميزات مضافة الى رصانة الكاتب، وقوة حجته، وجلاء بيانه، تُكسب كلامه جلالاً وتصبغه بصبغة العلم الحقيقي الذي لا يطلب إلا الحقيقة والمعاني ولا يريد من اللغة إلا التعبير عن تلك المعاني بدقّة وجلاء . وهو على بساطة اسلوبه بعيد عن الإسفاف .

٥ مزارته : كل ما تقدّم من جليل الاعمال يجعل المعلم بطرس البستاني من اكبر اركان النهضة . فهو على حد قول جرجي زيدان « في عصره زعيم الحركة الادبية في سورية من حيث المدارس والجمعيات والجرائد والمجلاّت واللغة والعلم والادب » .

بعض المراجع

- فؤاد البستاني : المعلم بطرس البستاني - الروائع - بيروت ١٩٢٩
 جرجي زيدان : تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر - الجزء ٢ - القاهرة ١٩١٥
 تاريخ آداب اللغة العربية - الجزء ٤
 الاب لويس شيخو : الآداب العربية في القرن التاسع عشر - الجزء الثاني - بيروت ١٩١٠
 الفيكونت فليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية - بيروت ١٩١٣
 المقتطف ٨ (١٨٨٣) ص ١ - ٧

موضوعات للبحث

- ١ - قال الشيخ خليل البازجي عن المعلم بطرس البستاني :
 خدَمَ البلادَ وليسَ اشرفَ عندهُ من أن يُسمَّى خادماً لبلادِهِ
 اوضح هذا القول وبيِّن فضل البستاني على النهضة .
 ٢ - كان للبستاني في المجتمع الشرقي أثر جليل . فقد كان أول من نادى بتعليم المرأة . اوضح آراءه
 في ذلك واظهر قيمتها .

مشاهير الادباء — النثر الفني

الفصل السادس

احمد فارس الشدياق (١٨٠٥ — ١٨٨٧ م / ١٢٢٠ — ١٣٠٥ هـ)

١ حياته : وُلد فارس الشدياق بعشقوت من قرى لبنان، وتخرج في مدرسة عين ورقة، ثم انصرف الى التحصيل والتنقيب فترامى صيته الى مسامع الاميركان فدعوه ليعلمهم اللغة العربية، فانطلق الى مصر . ثم انتدب الى مالطة للتعليم في مدرسة الاميركان، ومن هناك سافر الى اوربة، فصادفه في باريس باي تونس ودعاه الى بلاده فلبى الدعوة . واقيم في تونس رئيس التحرير في جريدة « الرائد التونسي » . ثم قصد الاسطانة وأنشأ فيها صحيفة « الجوائب » .

٢ آثاره : للشدياق آثار كثيرة من اشهرها « الجاسوس على القاموس »، و « سر الليال في القلب والابdal » و « الساق على الساق في ما هو الفاريق » .

٣ الشدياق الناقد : تناول الشدياق بنقده المجتمع كما تناول الادب . وفي المجتمع تناول بنقده الافراد والجماعات . اما الافراد فأخذ عليهم تطرثهم في عواطفهم وقلة صدقهم، وقلة تعمقهم في معرفة ذواتهم . واراد ان تكون المرأة حرة مثقفة . واما المجتمع فأراد له الشدياق العلم والتعلم، وبسط له ما رآه في الغرب، وهكذا اتي على تاريخ الغرب وجغرافيته وعلى وصف احوال سكانه .

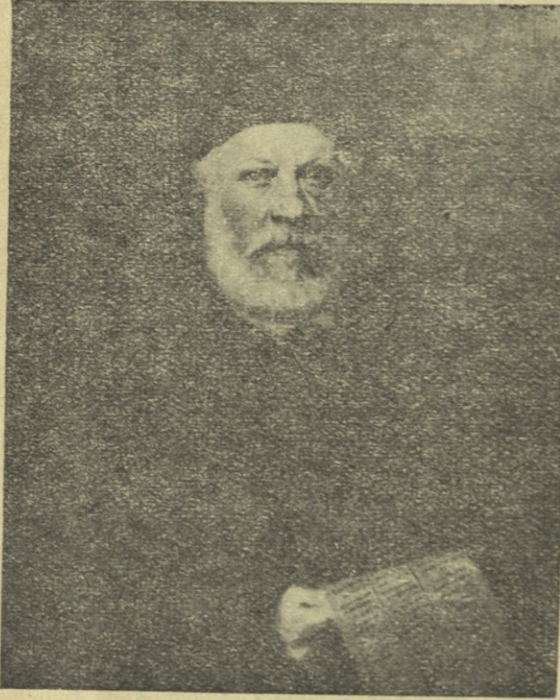
أما نقد الشدياق الادبي فقد نزع فيه نزعة تحريرية ثار بها على اساليب الاقدمين .

٤ — فنه : اتبع الشدياق الاسلوب السهل الذي يسير مع الحياة من غير تسلسل منطقي ؛ وهو يتقصى جزئيات الامور، ويستخدم في تحليله ومناقشاته الاسلوب القصصي . اما شعره فتقليدي .

١ مبادئ :

١ — مولده ونشأته : وُلد فارس بن يوسف الشدياق في قرية عشقوت الكسروانية، في لبنان، سنة ١٨٠٥ ثم أرسل الى مدرسة عين ورقة، فما عثم ان اتي على العلوم الابتدائية، ونظم الشعر وهو بعد في العاشرة من عمره، وطالع باجتهاد

ورغبة الكتب الكثيرة التي لقيها في مكتبة ابيه، واقبل على علوم اللغة مستعيناً
بأخيه اسعد، ونقّب عما لا يفهمه من الالفاظ الغريبة .



احمد فارس الشدياق
(مجموعة دار الكتب اللبنانية)

وفجع بأبيه وهو في السادسة
عشرة، فعكف على الخط يزاوله حتى
اتقنه، وأخذ يحصل عيشه الضيق بنسخ
الكتب . ثم دعاه المرسلون
الامير كيون، فلبى دعوتهم وقصد مصر
ليعلمهم اللغة العربية .

٢ - اسفاره :

١ في مصر : ظل الشدياق في
مصر منصرفاً الى التدريس وطلب
العلم حتى تمكن من العربية، وتضلع من
الادب، فنظم الشعر، وجالس العلماء،
وؤكل اليه انشاء القسم العربي في
« الوقائع المصرية » .

٢ في مالطة : وفي سنة ١٨٣٤، انتدب الى مالطة للتعليم في مدرسة الاميركان
وتصحيح مطبوعاتهم، وقد انتحل في مالطة المذهب الانجيلي . ومن آثاره في هذه
الحقبة كتاب في تاريخ مالطة .

٣ في اوربة : ثم دعتة جمعية ترجمة الكتاب المقدس في جامعة كمبريدج، فأجاب
الدعوة، وانطلق الى لندن، فساهم في الترجمة، واكثر من الملاحظة في علاقاته بالمجتمع
الانكليزي؛ وبعد ذلك قصد باريس فأقام فيها زمناً، تهيأ له فيه ان يتقن اللغتين
الفرنسية والانكليزية، ومن باريس راح يطوف في الاصقاع الاوربية . وقد
دون رحلته في كتاب « كشف المخبأ عن فنون اوربا »، وكتب ايضاً في هذه
المدّة : « الساق على الساق في ما هو الفاريق » .

وقد امتدح، وهو في باريس، السلطان عبد المجيد بقصيدة طويلة، ذكر فيها محاربتة لروسية، فاستدعاه السلطان؛ ثم صادف باي تونس في باريس وأعجبه ما سمع عنه ورأى من كرمه وعطفه على ذوي الشقاء، فقال يمدحه، مقلداً كعب بن زهير في قصيدته «بانت سعاد»، فأعجب به الباي واکرمه، ولما عاد الى بلده، اوفد اليه يستقدمه على مركب حربي .

٢ في تونس : ولما بلغ تونس، بولغ في اكرامه، وأقيم رئيس التحرير في جريدة «الرائد التونسي» الرسمية . وهناك أسلم، فدعي احمد فارس . وطار صيته في الاقطار العربية لعلمه وادبه، فعادت الصدارة العظمى الى طلبه، فغادر تونس الى الاستانة سنة ١٨٦٠ .

٥ في الاستانة : وما ان بلغ الاستانة حتى قوبل بالاكرام والحفاوة . فأنشأ صحيفة «الجوائب» التي كان لها أثر كبير في الشرق والغرب .

٣ - وفاته : وقد وافته المنية، سنة ١٨٨٧، وله من العمر ٨٢ سنة . ونُقل جثثه الى لبنان، عملاً بوصيته، فدُفن في الحازمية، على مقربة من بيروت . كان الشدياق متطرفاً اوجعته النكبات واثاره الالم، فحنق ناقماً على من ضايقه واكثر من التهمك اللاذع .

٢ آثاره :

١ - في اللغة : «الجاموس على القاموس» وهو انتقاد لمعجم الفيروزابادي يقع في ٧٠٠ صفحة، تعرض فيه لطريقة الكتاب في تحديد المفردات وطريقة اشتقاقها، وقابلها بما جاء عند غير الفيروزابادي من المشتغلين باللغة . وقد مهد له بمقدمة في بعض شؤون لغوية، وتراجع بعض مؤلفي القواميس ؛ و «سر الليال في القلب والابدال» وهو كتاب لغوي في المفردات المتداولة والمترادفات، وما استدركه على صاحب القاموس من الالفاظ والمعاني، ولم يُطبع منه إلا الجزء الاول؛

و « غنية الطالب ومنية الراغب » في الصرف والنحو . ومن مخطوطاته « التقنيع في علم البديع » ، و « منتهى العجب في خصائص لغة العرب » ضمّنه بحثاً مطوّلاً في خصائص حروف الهجاء لم يسبقه الى أسلوبه احد ، ولكن الكتاب احترق في ما احترق من مخطوطات الشدياق في الاستانة . وله في اللغات الاجنبية : « السند الراوي في الصرف الفرنسي » - و « الباكورة الشهية في اللغة الانكليزية » .

ان هذه المجموعة في اللغة تدل على تمكّن الشدياق منها ووقوفه على قواعدها وشواردها، وافضل ما فيها انها تدلّ على توجّه واضعها الى التجديد .

٢ - في الرحلات : « الواسطة في معرفة احوال مالطة » وفيه كلام على جغرافية مالطة وتاريخها وسكانها في احوالهم الاجتماعية والسياسية، ولغاتهم وعوائدهم وآدابهم، ألّفه سنة ١٨٣٤م ، و « كشف الخبايا عن فنون اوربا » ، دوّن ما لفت نظره في جولاته الاوربية من احوال السكان واخلاقهم وعلاقاتهم الاجتماعية ، مقابلًا بعضها بما يجري عند الشرقيين واهل مالطة .

٣ - في اغراض مختلفة : « الساق على الساق في ما هو الفاريق » كتبه الشدياق في اوربة وضمّنه وصف اسفاره، وذكر مصائبه التي أمرت شبابه، ومجموعة مترادفات في شتى الموضوعات والمعاني، وإحاطاً قبيحاً وبذاءات تشوّه الكثير من صفحات الكتاب؛ أما كلمة الفاريق فقد نحتها الكاتب من اسمه : فارس الشدياق؛ و « اللفيف في كل معنى ظريف » وهو مجموعة فوائد ونكات لغوية، وامثال سائرة، وحكايات يراد بها التهذيب؛ و « الروض الناضر في ابيات ونوادر »، و « النفائس في إنشاء احمد فارس » . وله رسائل ومباحثات ادبية ومقالات كثيرة في جريدة « الجوائب » . وله منظومات شعرية جمع جزء منها في « كنز الرغائب » وهي ضئيلة القيمة .

وقد وقف الشدياق على ترجمة الكتاب المقدس في انكليزية، وعرب كتاباً في

اسرار طبائع الحيوان . واهتمّ بطبع المؤلفات العربية النادرة في مطبعة الجوائب، ونشرها في البلاد العربية .

٣ الشرباء النافر :

١ - نقده الاجتماعي : كان الشدياق سوداوي المزاج، يميل من طبعه الى تسقط هفوات الناس، والنظر الى عيوبهم، مع ارتياح الى التهكم والسخرية . وقد تشرد ذووه وصودرت املاكهم ومات أبوه طريد اولى الامر في دمشق، وعانى هو نفسه الفاقة حتى هجر وطنه الى مصر فغيرها من البلاد الاجنبية طلباً لتوفر الحال وعالوا المنزل، وكابد اقرباؤه شتى المصائب في عهد ولاية الاتراك والمتصرفين ؛ فنقم على الدولة واصبح يخشى الحكماء، ولا يُخلص لهم في خدمته . ونقم على رجال الدين لانهم خالفوه في آرائه وترعاه، فجرد لسانه للثلب والتهكم . واذا ألقاه الاحوال الى الضرب في البلاد، وقف على عوائد الشعوب المختلفة وعلى تنظيم مجتمعاتهم مما اوحى اليه بكثير من المقابلات بين ما يجري في اوروبا وما يجري في بلاده، فانتدب قلبه للنقد .

تناول الشدياق في ملاحظته ونقده الناس افراداً وجماعات . اما الافراد فقد جاء كلامه عليهم في فصوله « جل ادبية » التي نشرها في الجرائد وبدأها دوماً بقوله : « من الناس » . وقد اتى على ذكر تطرفهم في عواطفهم وقلة صدقهم في التعبير عما في نفوسهم، وقلة تعمقهم في معرفة ذواتهم، بل عدم معرفتهم لها مطلقاً، بل خلوهم من المعرفة والعلم في شتى الامور . وهم مع ذلك راضون عن حالهم، الا في الاصقاع الاوربية .

واما الاسرة فهتم من كلامه عليها ان يعتق المرأة من استبداد الرجل ويعتق الاولاد من جهل الوالدين وقلة درايتهم في التربية .

اما المرأة فهي في عين الشدياق اجسل خلق الله، ومن ثم وجب الاهتمام بها لترقية حالها وتنقيتها على العلوم واطلاعها على ما يفيدها ويرجع على بنيتها بالنفع من

مبادئ الادارة والتربية الصحيحة، وله في ذلك ابحاث كثيرة اجراها على لسان الفاريق وزوجته، في حديثهما عن احوال المرأة في الشرق والغرب .

واما المجتمع فقد شمل في كلامه عليه الشرقي والغربي . فرأى قبل كل شيء ان العلم والتعليم متوفران في البلدان الاجنبية فأراد مثل ذلك للشرق، وراح يلفت النظر الى الجهل المخيم على العقول في بلاده، وراح ينقل في « جوائبه » الطريف من الاخبار العلمية المنتشرة في الغرب ويطلع قومه على الاكتشافات الحديثة . ولم يكتف بذلك، بل راح يبين الطرائق العلمية الشيقة ويبسط الاساليب ويحسنها رغبة منه في اقبال ابناء الشرق عليها والاخذ بها .

ودون لابناء بلاده في اخبار رحلاته ما رأى في الغرب ليطلعهم على كل غريب طريف، وهكذا اتى على ذكر تاريخ البلاد الاجنبية وجغرافيتها، ووصف سكانها بأمزجتهم وطبائعهم ومواهبهم الطبيعية، وعوائدهم في حسناتها وسيئاتها، ليعرف ذلك قومه، ويذهبوا في المعرفة الى اتخاذ الحسن وتجنب الردي . اما الردي فمجافاة بعضهم لبعض، وعدم اكتراثهم للغريب، وانكماشهم على ذواتهم فلا تصاف ولا مودة واما الحسن فانفاقهم الاموال في سبيل البر واغاثة الملهوف لا في التفاخر بالاثاث والرياش، وعطفهم على المستشفيات، واهتمامهم بالمدارس واقامة المطابع ونشر الكتب، وتصليح الطرق وتحسين المدن، واطلاعهم على سياسة بلادهم وما يجري فيها وعلى شيء مما يجري في غيرها من البلدان .

والسياسة من الشؤون الهامة التي اشتغل بها الشدياق، فظل يخوض ميدانها زمناً، في « جوائبه » حتى تم له فيها نفوذ عظيم وشهرة واسعة . وكان يحذر بطش السلطان فاتخذ الجنسية الانكليزية دفعاً لكل مكروه . وكان يتهم ما استطاع على الاقطاعية التي آذته، ويناصر خفية خديوي مصر على السلطان . وله في « الجوائب » آراء وابحاث قيمة في الدولة وواجباتها . وله حملة صادقة على الاتجار بالرقيق، ينتصر فيها للعبيد على مستغليهم .

اما الاحوال الدينية فلا تراه يتناولها الا ساخراً، متهكماً . فهو لا يؤمن بكثير
او قليل مما هو وراء المحسوس، وهو في ذلك كله ساخط ناغم، يستولي الهوى على
بصيرته فينطلق هائجاً معربداً متهكماً ويجنح عما تمتاز به النفوس الكبيرة .
ومهما يكن من امر فالشدياق في هذه الابواب رجل الشخصية القوية، ورجل
التجديد الذي وسع آفاق الادب، وخرج من قيود التقليد العربي القديم .

٢ - نقده اللغوي والادبي : كان الشدياق مولعاً بالادب، وقد اطلع على قديمه
وقرأ وسمع كثيراً من حديثه، وأحس من نفسه ميلاً الى الإفلات من القيود التقليدية،
فانتقد اساليب العلماء والادباء، وإن لم يستطع التملص منها في قسم من منظومه
ومنشوره .

وتم له ان يطلع في اسفاره على آداب بعض اللغات الغربية واساليب الكتاب
في تفكيرهم وتعبيرهم، فثار على المناهج العربية القديمة، والاساليب المتداولة .

وقد تناول بتهكمه النحو العربي وطرقه الصعبة واساليب البيان والبديع وما
يتصل بهما من صناعة فارغة . وهو في كتبه اللغوية يزرع نزعة خاصة فيولي المعاني
كل التفاته، ويهجم من الكلمة اصلها ومعناها، ومن الحرف مدلوله العام وخصائصه،
وهكذا استطاع ان يقف على الكثير من اسرار اللغة وقوفاً قلما بلغه عالم .

اما الشعر فقد اراده الشدياق طليقاً من قيود المناسبات، طليقاً من الاساليب
القديمة البالية . فنقد شعراء المناسبات والبلاطات نقداً لاذعاً، وان لم يجد هو عن
اساليبهم وموضوعاتهم في شعره .

واما النثر فقد حمل الشدياق حملة عنيفة على القديم المزخرف من اساليبه، وان
لم يعل عنه هو نفسه في كتابته احياناً لظهور مقدرته اللغوية والبيانية .

فزعته اذن هي نزعة تحررية، ولكن الاحوال قضت عليه ان يجاري الاقدمين
ويقلد اساليبهم حرصاً منه على الشهرة، واطهاراً للبراعة والمقدرة في عصر لم يكن
جميع اهله ليتدقوا الجديد الخارج عن اساليب العرب وطرق بيانهم .

عَمَّ فَمُ : اكثر الشدياق من التجوُّل في اقطار الارض، ففتحت له اسفاره آفاقاً جديدة، وكان من طبعه يأنف من التقيد بما يُفرض عليه فرضاً ولم يستحسنه، فراح بثور على تقاليد العرب الادبية، ويرسل كلامه في كثير من الاحيان ارسالاً من غير ما قيود لفظية او زخارف بديعية، ويبتعد عن القوالب المصطنعة التي أبلتها الايام، متبّعاً اسلوباً سهلاً يسير مع الحياة من غير تسلسل منطقي، مكثراً من الاستطراد، متنقلاً من حديث الى حديث، متقصياً جزئيات الامور، وهو في كل ذلك يتعمق في البحث ويورد الدقائق ولا يحجم امام ذكر المبتذل منها .

وتراه احياناً يستخدم الاسلوب القصصي، فيجعله مركباً لتحليله ومناقشاته . وهو على كل حال، ساخر، متهمك، الا ان تهكمه بعيد عن ذلك الاسلوب التهكمي الناعم، وعن طرائق النفوس المهذبة، ومذاهب الذوق السليم .

اما شعر الشدياق فهو تقليدي لم يخرج فيه عن معاني الاقدمين وأساليبهم مع انه اكثر من نقد تلك الاساليب وأنحى باللائمة على من يأخذ بها . فمدحه تضخيم للممدوح وغزله سمج، وشعره عموماً سهل يقل فيه التعقيد؛ الا ان حظه من الموسيقى ضعيف .

بعض المراجع

- مارون عبود : صقر لبنان . بحث في النهضة الادبية الحديثة ورجلها الاول احمد فارس الشدياق .
دار المكشوف - بيروت ١٩٥٠
- جرجي زيدان : مشاهير الشرق، الجزء الثاني - القاهرة ١٩٢٢ ص ٧٤ - ٨٣
- الاب انطون شبلي : « الشدياق واليازجي » : مناقشة ادبية علمية - جونية ١٩٥٠
- هنري بريس : ناصيف اليازجي وفارس الشدياق . (مقالة معربة في المكشوف عدد ٤٢٦ و ٤٢٧ من سنة ١٩٤٦) .

موضوعات للبحث

- ١ - اراد الشدياق أن يصلح مجتمعه فانخذ طريقة التهكم . ولكنه كان ثقیل الظل لا يحسن التهكم الناعم ولا يحصر كلامه في حدود ما هو لائق . ناقش هذه الفكرة .
- ٢ - كان الشدياق لغوياً، وصحافياً، وكاتباً، ورجل اجتماع، وقد قاده الاجتماع الى معالجة بعض النواحي من تاريخ الشعوب واحوالها . اوضح ذلك .
- ٣ - الشدياق من رواد التجديد بعد عهد الانحطاط . بين نواحي تجديده ومداه .

مشاهير الادباء — النثر الفني

الفصل السابع

اديب اسحاق — جمال الدين الافغاني

محمد عبده — الكواكبي — قاسم امين

مصطفى كامل — سعد زغلول

ا — اديب اسحاق

وُلد اديب اسحاق في دمشق وقد قضى حياته في معالجة الصحافة والمسرح . كان نصير الشورى والمدافعة عن حقوق الشعب كما كان من اكبر من عمل على رفع مستوى الانشاء الصحافي .

ب — جمال الدين الافغاني

وُلد الافغاني في افغانستان وكان من اوسع عقول زمانه، وكان حيث حلّ رجل الثورة على الظلم وعلى الحكم المطلق . فهو رجل حر سعى في تحرير بني جنسه في تدريسه وكتابات وأحاديثه .

ج — محمد عبده

وُلد محمد عبده في مصر ثم تنلذد للافغاني واشترك في الثورة العرابية . وتفرغ للإصلاح فحاول اصلاح الاوقاف والازهر . له اسلوب في الكتابة سلس بعيد عن السخف .

د — عبد الرحمان الكواكبي

وُلد الكواكبي في حلب ثم سعى وراء الإصلاح، فكان رجل التمهيز النير، والتحليل العميق، والاستنباط .

هـ — قاسم امين

وُلد قاسم امين في مصر، وكان من انصار المرأة يطلب تحريرها وتثقيفها .

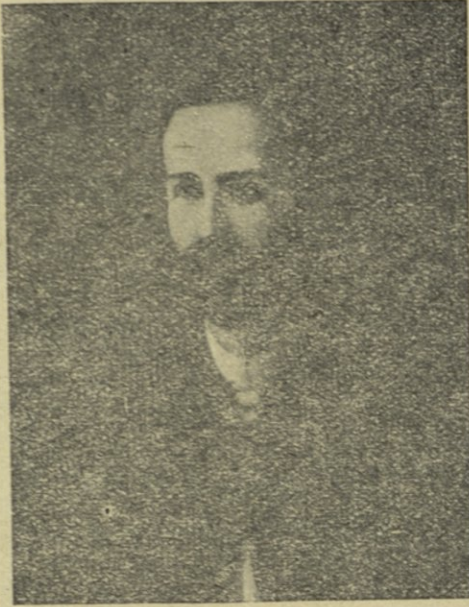
و — مصطفى كامل

وُلد مصطفى كامل في القاهرة وقد صرف همه الى مقاومة الاحتلال، وسخر في هذا السبيل
بيانه الساحر وجرأته النادرة . وقد جدّد إنشاء الحزب الوطني .

ز — سعد زغلول

وُلد سعد زغلول في مصر وتلمذ على جمال الدين الافغاني، واشترك في الثورة العرابية .
وكان اكبر المطالبين بحقوق مصر واستقلالها، كما كان من اكبر خطباء الشرق في زمانه يتناز
بالوضوح والبلاغة وقوة الحجّة .

١ — أديب اسحاق (١٨٥٦ - ١٨٨٥ م / ١٢٧٢ - ١٣٠٢ هـ)



ولد اديب اسحاق في دمشق وتلقن
العلوم في احدى مدارسها، ثم انتقل الى
بيروت فاشتغل كاتباً في ديوان المكس
(الجرك) ثم اعتزل العمل، وتولى الانشاء في
جريدة « ثمرات الفنون » فجريدة « التقدم » .
ثم سار الى الاسكندرية وساهم مع سليم
النقّاش في تمثيل بعض الروايات العربية،
وانتقل الى القاهرة حيث تعرّف على
جمال الدين الافغاني فتسرّبت اليه روح
الثورة واصدر جريدة سمّاها « مصر » سنة

أديب اسحاق

١٨٧٧، ثم عاد الى الاسكندرية فأصدر جريدة « التجارة » مشتركاً فيها مع سليم
النقّاش . وقد اُقفلت الحكومة الجريدتين، فرحل اديب اسحاق الى باريس
سنة ١٨٨٠ حيث اصدر جريدة عربية سمّاها « مصر القاهرة » الى ان أُصيب بداء

الصدر فعاد الى بيروت فالقاهرة حيث جعل ناظراً « لديوان الترجمة والانشاء » ثم كاتباً ثانياً بمجلس النواب . ولما نشبت الثورة العربية عاد الى بيروت وتوفي في قرية الحدث ببلبنان .

لاديب اسحاق مؤلفات وترجمات عديدة . فن مؤلفاته « تراجم مصر في هذا العصر » ، ومما ترجم « رواية اندروماك » و « رواية شارلمان » . وله مقالات ومنظومات جمعت في كتاب سمي « الدرر » .

وكان اديب اسحاق في كتاباته نصير الشورى والحكم النيابي والمدافعة عن حقوق الشعب . كان من اكبر من عمل على رفع مستوى الانشاء الصحافي .

اما اسلوبه فقوامه السجع، وهو يعتمد على تنسيق التعبير وترجيعة وتديججه، ويجي عباراته بضروب الجناس والطباق والاستعارة، ويراعي الموسيقى في تراكيبه. وقد احسن الاستاذ مارون عبود حين وصف اسلوبه بقوله : « يرسل عباراته فتتوزأزيز السهم وقد فارق الوتر . » جعل كأنها مقطوعة على نط واحد، لا هي بالطويلة ولا هي بالقصيرة، يشد بعضها بعضاً فتؤلف مقالاته كتيبة جاححة . اذا راعيتها منفردة لا تحس لها مفعولاً عظيماً، ولكنها تؤلف كلاً تخرج منه النفس وقد ملأها هذا الكلام اندفاعاً واستبسالاً » .

ب - جمال الدين الافغاني (١٨٣٩ - ١٨٩٨ م / ١٢٥٤ - ١٣١٥ هـ)

١ حياته : هو محمد بن صفقر سليل اسرة شريفة يرتقي نسبها الى الحسين بن علي . ولد في اسعد اباد من قرى « كنر » بالافغانستان . وتحول مع ذويه الى كابل وهو في الثامنة من سنه فدرس مبادئ العلوم العربية والتاريخ، وعلوم الشريعة، والعلوم العقلية من منطق وحكمة عملية سياسية، وفلسفة، والعلوم الرياضية من حساب وجبر وهندسة وفلك، ودرس نظريات الطب والتشريح، ثم شخص الى

الهند، وأطلع على علوم الرياضة في الطرق الحديثة . ولما رجع الى بلاده اشترك في مؤامرة سياسية مكّنت بعض الامراء من التغلب على عرش الافغان . ثم



جمال الدين الافغاني

انقلبت عليه الاحوال فغادر بلاده الى الهند فصر، ثم رحل الى الاستانة فنُصب عضواً في مجلس المعارف الاعلى، الا ان آراءه الجريئة ما لبثت ان بعثت في نفوس رجال عبد الحميد الملح، فغادر البلاد قاصداً مصر وقد دخلها سنة ١٨٧١ . فاستقبلته مصر استقبالا حسناً، واجرى عليه اسماعيل راتباً شهرياً زيادةً في اكرامه .

مكث جمال الدين في مصر ثماني سنين وقد طارت

شهرته في البلاد، فاقبل اليه الطلاب يلتمسون علماً ونوراً، فأخذ جمال الدين يلقي في بيته دروساً منظّمة على صفوة مختارة من قاصديه امثال محمد عبده، وسعد زغلول وغيرهما من طلاب الازهر . وكانت دروس الاستاذ الكبير معيماً يغترف منه الطلبة علماً، وفلسفة، ووطنية واجتماعاً .

والى جانب هذه الدروس المنظمة كان للاستاذ مجلس آخر بأحد المقاهي القريبة من حديقة الازبكية، وكان الكثيرون يلتقون حوله للاغتراف من علمه وآرائه ؛ وفي هذه المدرسة الحرة أُلقيت الدروس في حالة الامة الاجتماعية والسياسية، وفي حقوقها وواجباتها، ومن تلك المدرسة انطلقت البروق توقظ العقول المتخدرة . وقد تخرج في هذه المدرسة محمود سامي البارودي، واديب اسحاق وغيرهما .

اراد جمال الدين في مدرسته المنظمة ان يعود الطلبة حرية البحث، وان يعودهم التفكير الشخصي؛ واراد في مدرسته العامة ان يعلم الشعب كيف يكون حراً؛ واراد في ميدان السياسية ان يدك اركان الحكم المطلق ويجعله شورى . فأخرج من مصر وقصد الهند واقام بجيدر آباد حيث ألّف رسالته « في الردّ على الدهريين » واثبت ان الدين اساس المدنية وان الكفر فساد العمران، وأبطل مذهب « دارون » في النشوء والارتقاء .

ولما اخفقت الثورة العربية انطلق الى اوربة وهبط باريس حيث وافاه تلميذه محمد عبده، فأصدرا معاً جريد « العروة الوثقى » .

ولما عطلت الجريدة عاد جمال الدين الى الضرب في الارض ثم هبط لندن واصدر فيها مجلة شهرية سماها « ضياء الخافقين » .

اخيراً دعاه عبد الحميد الى الآستانة حيث توفي في التاسع من شهر آذار سنة ١٨٩٨ .

٣ آثاره : لم يكتب جمال الدين من التصنيف اعتماداً على ما كان يبثه في نفوس العاملين وانصرافاً الى الدعوة بالسر والعلن . فليس له غير مؤلفين : « تاريخ الافغان » و « رسالة الردّ على الدهريين » .

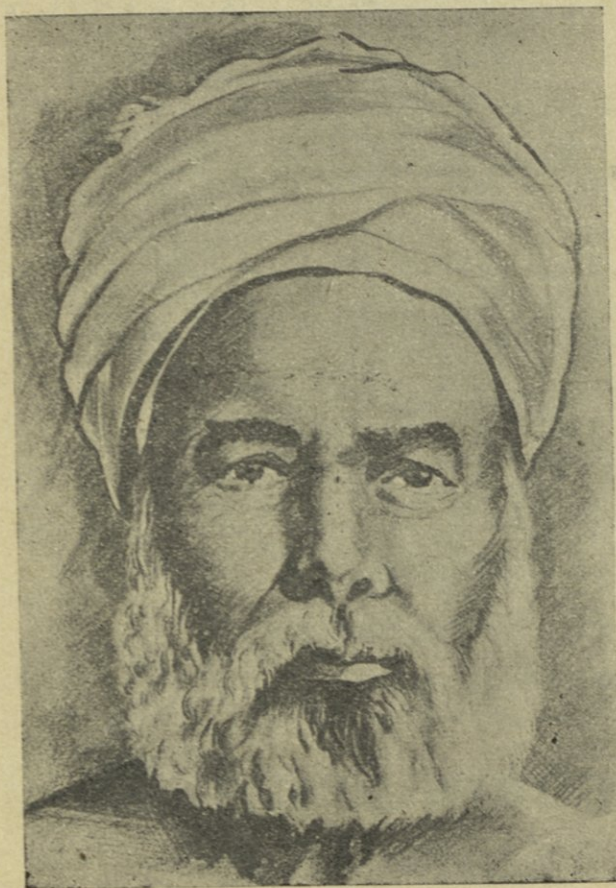
٤ مآثره : كان جمال الدين من العقول الشرقية الواسعة . فقد اتقن من اللغات العربية، والافغانية، والفارسية، والتركية، والفرنسية، والانكليزية، والروسية . وكان واسع الاطلاع على العلوم القديمة والحديثة . وكان الى ذلك وطنياً حراً ومفكراً حراً، يريد حرية الشعب، ويطالب بنظام الشورى، ويقف أمام الاستبداد بجرأة .

اما اسلوبه في الكتابة فلم يكن اسلوب من يملك زمام اللغة العربية لعجمته؛ الا انه كان قديراً على تفتيق المعاني والاحتفال بها . فكانت كتابته بسيطة، بعيدة عن الزخرفة اللفظية، تكثر فيها الجمل الاعتراضية، والفصل بين فعل الشرط

وجوابه او المسند والمسند اليه بفواصل طويلة، وذلك ناشئ عن ترتيب فكره وتعوده الاساليب الفارسية والاعجمية .

بـ الشيخ محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥ م / ١٢٦٦-١٣٢٣ هـ)

ولد محمد عبده باحدى قرى مديرية الغربية بمصر، وطلب العلم بالجامع الاحمدي



الشيخ محمد عبده

في طنطا، ثم انتقل الى الازهر فدرس على كبار علمائه، ثم تتلمذ على جمال الدين الافغاني فوجد عنده الغذاء العقلي الذي كان يبحث عنه .

وقد نال عالمية الازهر من الدرجة الثانية سنة ١٨٩٤، فاشتغل بتدريس الادب العربي والتاريخ الاسلامي في دار العلوم ومدرسة الاسن .

وتولى تحرير «الوقائع المصرية» ورئاسة قلم المطبوعات . ثم اشترك في الثورة العربية، ولما انتهت الثورة نُفي الى لبنان ومنه سافر الى باريس حيث اصدر مع

جمال الدين الافغاني جريدة «العروة الوثقى» . ولما انقطعت الجريدة عن الصدور عاد الى بيروت وتفرغ للعلم فشرح «نهج البلاغة» لعلي بن ابي طالب، و«مقامات» بديع الزمان الهمداني، وألف كتابه «رسالة التوحيد» . . .

ثم عاد الى مصر فجعل قاضياً بالمحاكم الاهلية ثم تولى منصب المفتي العام للديار المصرية وتولى التدريس بالازهر .

وقد تفرغ محمد عبده للاصلاح فحاول اصلاح الاوقاف والازهر، ونجح في تكوين مجلس لادارة الازهر .

لمحمد عبده اسلوب في الكتابة سلس قوي، حافل بالمعاني، بعيد عن السخف .
وقد كان في اول الامر متأثراً بأساليب الازهر، ثم اخذ يتحور باحتكاكه
بجمال الدين الافغاني وبصاحب نهج البلاغة .

د - عبد الرحمان الكواكبي (١٨٤٩ - ١٩٠٢ م / ١٢٦٥ - ١٣٢٠ هـ)

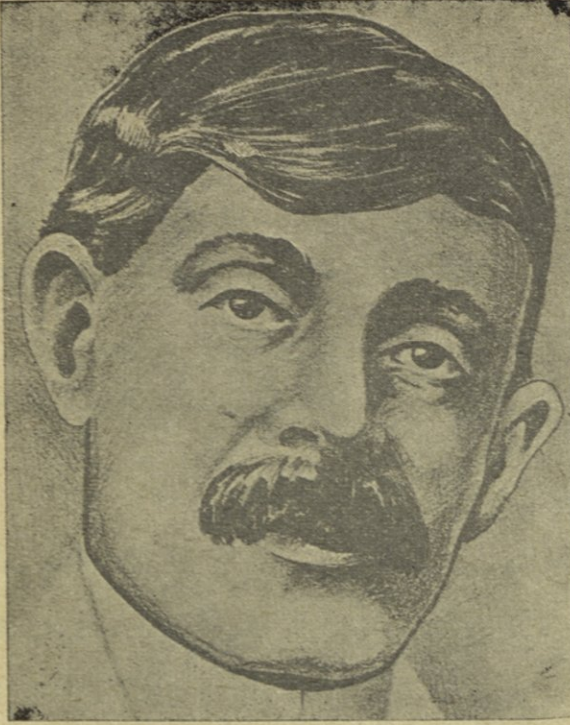
عبد الرحمان بن احمد الكواكبي، ويلقب بالسيد الفراتي، ولد في حلب، ونشأ ميلاً
الى العلوم شغوفاً بالسياسة، فكتب في جريدة « الفرات » الرسمية، ثم انشأ جريدة
« الشهباء » فاقفلتها الحكومة، واسندت اليه مناصب مختلفة؛ ولما رأى ما فيها من
فساد أخذ ينتقد رجال الدولة العلية، فحنق عليه اعداء الاصلاح وسعوا به فسجن،
ثم انتقل الى مصر وقام بسياحتين في بلاد العرب وشرقي افريقية وبعض بلاد
الهند، ثم استقر في مصر الى ان توفي .

للكواكبي عدة آثار جليلة منها « طبائع الاستبداد » و « ام القرى » . وقد
وضع كتبه في شكل روائي، وضمنها تحليلاً دقيقاً للأمراض الاجتماعية والسياسية،
وحمل فيها حملات عنيفة على الحكومة العثمانية .

لقد اراد الكواكبي ان يصلح الامة عن طريق التمحيص النير، والتحليل
العميق، والاستقراء، والاستنباط . فكان لكتبه دوي عظيم في البلاد كما كان
لها اكبر الاثر في اليقظة القومية الشرقية .

هـ - قاسم امين (١٨٦٥ - ١٩٠٨ م / ١٢٨٢ - ١٣٢٦ هـ)

قاسم امين من اصل كردي، وقد ولد في مصر وتعلّم في مدارسها، ثم تعلّم
الحقوق في باريس، ولما عاد الى مصر تعاطى القضاء وتقلّب في المناصب الى ان كان
مستشاراً للاستئناف بمصر، وظلّ في هذا المنصب الى حين وفاته .



قاسم امين

وما إن اكتهل قاسم امين حتى راح يمتكّ بمشكلات مجتمعه ويحاول الاصلاح . ومن المشكلات الاجتماعية التي أثّرت في مطلع هذا العهد ، وكان لها دويٌّ عظيم ، مشكلة السفور والحجاب . وكان بعض المفكرين يرون وجوب سفور المرأة ومساواتها بالرجل في كل شيء ، إلا أنهم لم يجروا على الجهر بأرائهم في ذلك الوقت لتمكّن عادة الحجاب من النفوس ، حتى ظهر قاسم امين ، فرأى ان المرأة المسلمة محرومة من العلم ، ترسف في قيود مختلفة تقيّد حرّيتها

وتقف حاجزاً دون عملها الاجتماعي والقيام بمهمّتها التربوية ؛ ورأى ان جهلها يحطّ من شأنها الاجتماعي ويبعد ما بين عقليّتها وعقليّة رجلها ؛ فراح ينادي بالحرية ووضع كتاباً سمّاه «تحرير المرأة» دعا فيه الى وجوب تعليمها وسفورها . فانقسم الناس معه وعليه ، وضجّت البلاد في شأن الكتاب . إلا ان الرجل لم يعدل عن رأيه وقد شاركه فيه جماعة من خاصة القوم ، ووضع كتاباً آخر سمّاه «المرأة الجديدة» ردّ فيه على مخالفيه ، وفنّد آراءهم ودعم رأيه بالحجج الجديدة .

قاسم امين يعتمد في اسلوبه الادلّة الكثيرة ويرسل كلامه نيراً مشرقاً فيه قصد وحسن سبك .

و — مصطفى كامل (١٨٧٤ - ١٩٠٨ م / ١٢٩١ - ١٣٢٦ هـ)

وُلد مصطفى كامل في القاهرة ونشأ فيها وتعلّم في مدارسها حتى حصل على اجازة الحقوق من مدرسة الحقوق المصرية وهو لم يبلغ العشرين من عمره .

سيفل تلك الغاية بياضه الساحر، وجراته النادرة . فرحل الى باريس ينشر دعوته

السياسية في صحفها ومجتمعاتها، ثم عاد الى مصر فانشأ جريدة «اللواء» سنة ١٨٩٩ .

ولم يألُ جهداً في التنقل من بلد الى بلد سعياً وراء استقلال بلاده، فمن مصر الى فرنسا الى انكلترة لا يقرّ له قرار .

وقد انشأ جريدتين احدهما بالانكليزية والاخرى بالفرنسية سمي كلا منهما

«اللواء» لكي تسمع اربعة صوته ويهتئ الرأي العام لما يريد بلوغه من المآرب .

ثم انه جدّد انشاء الحزب الوطني، فانتخبه الحزب رئيساً له طول حياته، وتعلقت به قلوب المصريين ونالت اعماله اعجاب الجميع .



مصطفى كامل

وقد كان لهذا الكفاح الدائب اثر سيئ على صحة الرجل فتوفي في

شهر شباط من سنة ١٩٠٨ وهو في الرابعة والثلاثين من عمره .

ترك مصطفى كامل عدة آثار منها « حياة الامم والرق عند الرومان » و « المسألة الشرقية » .

وهو يعد من نوابغ مصر في هذا العهد ومن مؤسسي نهضتها الوطنية . وهو كاتب صحفي قدير وخطيب سياسي بليغ . يمتاز اسلوبه بالسهولة والوضوح والقوة؛ فهو قوي التفكير، لا يهتم لغير المعنى الذي يجول في نفسه فيؤديه بعبارات سليمة سلسلة بعيدة عن التزويق والتكلف .

وقد كان متدفقاً اذا خطب يُسيل على اقواله من حماسته واندفاعه ما لا يزال صداه في القلوب الى اليوم . وهو زعيم الوطنية في مصر واستاذ الجيل الحديث فيها من الخطباء والسياسيين .

ز - سعد زغلول (١٩٢٧ م / ١٣٤٧ هـ)

وُلد سعد زغلول في بلدة إبيانة من أعمال مديرية الغربية بمصر، وتعلّم في كتاب القرية مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن ثم أرسل لطلب العلم في الازهر . وقد صادف اسلوب التعليم بالازهر هوى من طبعه إذ كان يحبّ الجدل . فعُرف سعد بطلاقة لسانه، وحدة ذكائه، وقوة حجته .



سعد زغلول

وتلمذ على جمال الدين الأفغاني، فتشبع بثورته وتأثر بأسلوبه الادبي . ثم اشترك في الثورة العراقية، فسُجن بضعة أشهر ثم عُفي عنه، فاحترف المحاماة وما عثم ان صار زعيم المحامين فعين مستشاراً في محكمة الاستئناف الاهلية، ثم تولّى نظارة المعارف فوجه همته لتدريس العلوم جميعها باللغة العربية وأمر بترجمة كتب العلوم المختلفة اليها . ثم تولى نظارة الحَقَّانية فعدّل القوانين وأصلح نُظم القضاء لتأشّي روح العصر . وعندما عُقد مؤتمر الصلح بعد الحرب الكبرى الاولى نهضت مصر للمطالبة بحقوقها، وألّفت لهذا الغرض وفداً كان سعد رئيسه،

فنفته السلطة العسكرية الانكليزية وبعض صحبه الى مالطة، ثم شخص من هناك الى باريس واقام يتحين الفرص ليطالب بحقوق بلاده بعد ان اخفق مسعاه في المرة الاولى .

وفي سنة ١٩٢٠ اصطحب بعض اعضاء الوفد، وقصد لندن لمفاوضة الحكومة الانكليزية في مطالب مصر، فكانت نتيجة مفاوضاته الاخفاق، ولهذا رجع الى بلاده فاستقبلته استقبالا حافلا بالاكرام والتعزير، ولم يمض عليه زمن حتى نفي للمرة الثانية وعندما عُني عنه رجع الى مصر . وبعد صدور دستور سنة ١٩٢٣ تولى رئاسة الوزارة ثم رئاسة مجلس النواب، وما زال كذلك حتى توفي سنة ١٩٢٧ .

كان سعد زغلول من اكبر خطباء الشرق في زمانه تمتاز خطابته بالوضوح والقوة المؤثرة، والحجة التي لا تقهر، والمنطق المتزن . وكان حديثه يجمع السهولة الى الروعة، والصدق الى حسن الاداء . وحسبه فخراً انه من اعظم رجال الحرية القومية في عصره ان لم يكن اعظمهم على الاطلاق .

بعض المراجع

جرجي زيدان : تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر - القاهرة ١٩٢٢

عمر الدسوقي : في الادب الحديث - الجزء الاول - القاهرة ١٩٤٨

مجلة الكتاب في سنيها الرابع الاولى

مصطفى زيد : ادب مصر الحديث - القاهرة ١٩٤٩

الاب لويس شيخو : الآداب العربية في القرن التاسع عشر - بيروت ١٩٠٨

الفيكونت فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة - بيروت

مجلة المجمع العلمي العربي

مشاهير الادباء - النثر الفني

الفصل الخامس

الشيخ ابراهيم اليازجي

(١٨٤٧ - ١٩٠٦ م / ١٢٦٤ - ١٣٢٤ هـ)

١ حياته : وُلد الشيخ ابراهيم في بيروت ونشأ على حب العلم والتعمق في اللغة . ثم نبه صيته من جرّاء المقارعة التي نشبت بينه وبين الشدياق . وفي سنة ١٨٧٢ تولى إنشاء جريدة « النجاح » ، ثم اشتغل مع اليسوعيين في تنقيح ترجمة الكتاب المقدس . وشرع في وضع معجم لغوي ، ودرّس في المدرسة البطريركية ببيروت . وفي تلك المدة كلها كان ينقح الكتب المختلفة ويلخص بعض كتب ابيه او يتمها . ثم شرع في وضع كتابه « نجعة الرائد » . وقد انشأ مجلة « الطيب » ، ثم انتقل الى مصر وانشأ فيها مجلتي « البيان » و « الضياء » .

٢ شخصيته : كان ابراهيم اليازجي رجل ثقافة واسعة ، ورجل فن وإتقان ، جنوحاً الى العزلة المثورة ، حريصاً على كرامة نفسه ، ألياً أنوفاً ، لا يخلو من كبر وقسوة لاذعة .

٣ ابراهيم اليازجي الشاعر : كان اليازجي ذا مواهب شعرية متوسطة الا ان شعره مصقول العبارة يجمع السهولة الى المتانة .

٤ ابراهيم اليازجي الصحفي : زاول الشيخ ابراهيم الصحافة على وجه مثالي ، وسمى في اصلاح لغة الجرائد .

٥ ابراهيم اليازجي العالم : كان الشيخ ابراهيم واسع الاطلاع العلمي ، كثير الكتابة في الموضوعات العلمية المختلفة الا انه لم يكن عالماً بالعمق الدقيق لهذه اللفظة .

٦ ابراهيم اليازجي الناقد : تناول اليازجي بنقده الناحيتين اللغوية والادبية . وقد برهن في نقده عن مقدرة لغوية عجيبة ، وذوق مصيب ، وعن غيرة متفددة على صحة اللغة وصفائها .

٧ ابراهيم اليازجي اللغوي : انفتحت بين يدي اليازجي جميع كنوز اللغة واسرارها ، فقبض على ازمة اللغة وسعى جهده في تعميم ما كان يعرفه منها وإفادة الغير بكتابات القيمة ولاسيا بوضع كتاب « نجعة الرائد » ومعجم « الفرائد الحسان » ، وتنقيحه ترجمة الكتاب المقدس .

٨ انشاء ابراهيم اليازجي : لليازجي اسلوبان : اسلوب منمّق مسجّع لا يخلو من إطناب ، واسلوب مرسل رائع في سلاسته ووضوحه وموسيقى تركيبه ومتانة عباراته . واسلوب الشيخ ابراهيم خطائي في الغالب ، رحب الجمل .

١ - عبار :

١ - نشأته (١٨٤٧ - ١٨٧١) : في ٢ آذار (مارس) من سنة ١٨٤٧ ولد

في بيروت إبراهيم بن ناصيف اليازجي في بيت كان يُعد موئل اللغة والادب إذ ذاك . فوجد في مهده ميلاً الى الادب شديداً، وحباً للغة العربية جمّاً . وقد

ساهمت تلك البيئة الفريدة في انماء

مواهبه الفطرية، فتدبر على ذكاء.

حاد، وعبقريّة باكرة؛ وتولاه

أبوه بعناية خاصة، لما توسمه فيه

من علائم النجابة، فلقنه منذ

طراوة سنه مبادئ اللغة، وشجع

فيه ميّله الى الادب، فنشأ ينظم

ويكتب ويتعمق في اللغة،

ويطالع كتباً شتى في مختلف

نواحي العلوم، صارفاً اوقات

فراغه في الرسم والحفر والموسيقى؛

وقد كان دون الرابعة عشرة من

سنه لما صنع اول تقويم (روزنامه)

عربي؛ الا انه قد أولع اول امره بالشعر، وما لبث ان انصرف عنه شيئاً فشيئاً،

متجهماً صوب النثر الذي سيصير فيما بعد من اعظم اعلامه .

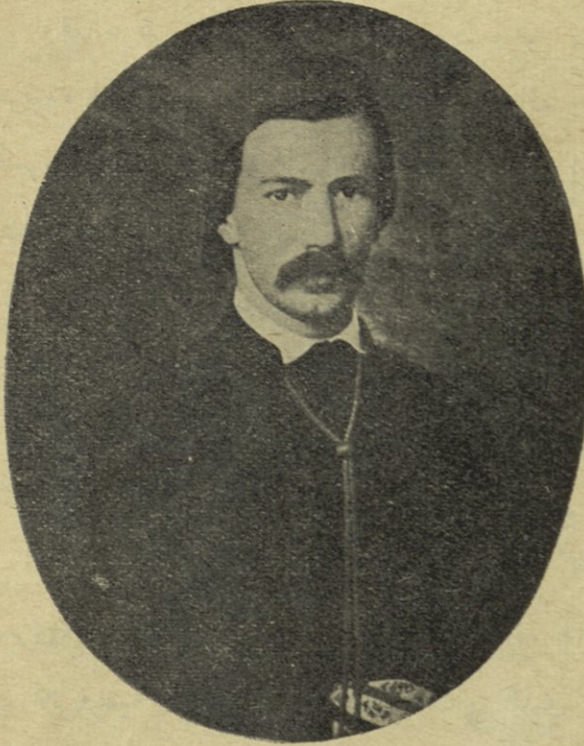
٢ - طوالت نبوغه الكتابي والصحافي (١٨٧١ - ١٨٧٢) : وما عثم ان

نبه صيته بين الادباء من جراء المقارعة المستطيلة التي نشبت بينه وبين احمد فارس

الشدياق، إثر وفاة ابيه ناصيف، فعهد اليه سنة ١٨٧٢ في انشاء جريدة «النجاح» .

٣ - عند اليسوعيين في تنقيح الكتاب المقدس؛ سيطرته اللغوية (١٨٧٢ -

١٨٨٢) : وكان الآباء اليسوعيون اذ ذاك، يرغبون في تعريب الكتاب المقدس



الشيخ ابراهيم اليازجي

تعريباً صحيحاً بليغاً، فلم يجدوا أجدر من الشيخ ابراهيم لموازرتهم في هذا العمل، فلبأهم اليه وصرف فيه نحو تسع سنين، عاملاً بكل نشاط، بعد ان اكب بنفسه على تحصيل مبادئ العبرية والسريانية؛ وقد جنى ثمرة هذا النشاط، اذ خرج الكتاب المقدس على اجمل ما يُرجى بلاغة، ولاسيا العهد القديم الذي اطلقت له اليد في تنقيحه .

وقد عرض عليه الآباء اليسوعيون وهو عندهم، وضع قاموس عصري، للغة العربية، فكان اذ ذاك عهد ميلاد «الفرائد الحسان من قلائد اللسان» وهو القاموس الذي قعد به الموت عن انبائه؛ كما انه عهد اليه في اثناء تلك السنين ايضاً بتنقيح طائفة من الكتب الدينية والادبية وسواها؛ وقد قضى عدة سنين في اثناء ترجمته للكتاب المقدس في بيروت وبعدها يعلم المعاني والبيان وآداب اللغة في المدرسة البطريركية؛ فتخرج عن يده ثمة كوكبة من الادباء الذين ذاع لهم ذكر واسع في عالم الادب العربي، من امثال خليل مطران، وجبران النحاس، ونجيب الشوشاني، ومحمد حماده، وخليل البدوي، وسليم عباس شلفون وسواهم؛ وقد شرع في اثناء ذلك الوقت ايضاً في اختصار بعض كتب ابيه وصوغها في قالب مدرسي عصري، وجعلها اقرب منالاً للطلاب، كما انه عمل في انهاء بعض المؤلفات التي خلفها ابوه غير منهيمة ولاسيا شرح ديوان المتنبي الذي يرجع له فيه اكثر الفضل، ان لم يكن الفضل كله؛ وقد سألخ في اقامه وضبطه وتذييله بدرس نقدي لشعر المتنبي، والوقوف على طبعه ما ينيف على الاربع سنوات . ومن آثار تعليمه في المدرسة البطريركية ايضاً خطاب «ادب الدارس بعد المدارس» . وفي اخريات ايامه في بيروت شرع في وضع كتابه «نجمة الرائد» الذي سيصدر منه جزئين وتقعده به المنية عن انجاز الجزء الثالث .

٤ - عودته الى الصحافة ووفاته (١٨٨٢ - ١٩٠٦) : وكانت قد هبت

إذ ذاك حركة الصحف في البلاد العربية وظهرت مجلتا «الجنان» و«المقتطف»، فعادت الشيخ الرغبة في الصحافة ولاسيا العلمية منها . وحدث أن الدكتور بوسط الشهيد كان قد أنشأ إذ ذاك في بيروت مجلة طبية دعاها «الطبيب» فتعاون الشيخ

إبراهيم مع صديقيه الدكتورين بشارة زلزل وخليل سعادته على إصدارها سنة ١٨٨٤؛ وقد نشر فيها فضلاً عن المقالات الطبية والعلمية التي كان يكتبها كل واحدٍ منهم مقالات أدبية ولغوية تفرّد هو في إنشائها، وأشهرها وأسمها منزلة مقالته القيّمة «أما لي لغوية»؛ غير أنه لم يلق من تلك المجلة، ما كان يأمله من انتشار فهجرها بعد أن قضى في إصدارها سنة واحدة لا غير .

ورأى أن مصر قد أصبحت إذ ذاك موطن الحرية، وموئل الادب والصحافة، فعزم على النزول فيها لاقامة مطبعة ومجلة علمية . فيسمّها بعد زيارة الى أوربة اذّخر فيها ما يحتاج اليه من أدوات ووسائل ضرورية؛ وتزل القاهرة حيث اتفق مع زميله الدكتور زلزل لإصدار مجلة «البيان»؛ وفي «البيان» أيضاً نشر مقالاً لغوياً شهيراً هو «اللغة والعصر»؛ ولم تثبت المجلة الجديدة الا سنة واحدة افترق عقبها الزميلان، وانفرد الشيخ بإنشاء «الضياء» سنة ١٨٩٨ التي صادفت رواجاً واسعاً، واستمر اليازجي على إصدارها ثماني سنين أي حتى وفاته سنة ١٩٠٦ .

٢ شخصيته : إن اول ما يتجلى من حياة الشيخ إبراهيم اليازجي ، أنه قبل كل شيء، رجل ثقافة واسعة وقف جهوده ونشاطه على العلم والكتابة، فحياته سلسلة من التحصيل والعمل مترابطة الحلقات على غير انقطاع؛ وهذا يفسر لنا سعة مدى معارفه من لغات عربية وفرنسية وانكليزية مع إلمامه بالعبرية والسريانية؛ ومن علوم فقهية ورياضية وفلسفية وطبيعية .

وهو الى ذلك رجل مفقّن يقرن الى حب العلم ولماً شديداً بالجمال الفني، ولا يرتاح الى عملٍ ما إلا اذا كان مستوفي الكمال والاتقان؛ فإذا كتب او نظم حرص على أن تكون كل كلمة ملائمة في مكانها وعلى أن يكون كل حرف متناغماً مع رفيقه، بل حرص على أن يكون خطه متناسقاً متقناً جيلاً . فالاتقان مذهبه في كل عمل، وإذا طلب الترويح عن النفس، ففي الموسيقى، او في الحفر والرسم اللذين ترك فيها آثاراً رائعة؛ وكأنه كان يصف مذهبه عندما قال : « لا تذهلك الحدة

والعجلة والنشاط في العمل عن احكامه وإتقانه، ولا إحكامه واتقانه عن الحدّة والنشاط فيه .

وكان الرجل من طبعه جنوحاً الى العزلة ؛ غير ان عزله لم تمنعه ان يكون محباً لوطنه، وان يجعله حبّه لوطنه رجل حركة يعمل في سبيل رقيّه، ويحثّ على تحريره ويدافع عن مصالحه بحميّة وبسالة . وكان صريحاً مع نفسه ومع الآخرين، لا يراثي ولا يوارب، ولا يخشى الجهر بالحقيقة عندما يجد الى الجهر بها ضرورة ؛ كما كان حريصاً على كرامة نفسه، لا يدع شيئاً يسها ولو بظلّ، كما انه حريص على كرامة الناس، يتوقى عادة ان يخرجها .

وكان ايباً انوفاً لا يبتغي مكسباً رخيصاً، ولا منفعة خسيسة ؛ ولا يبيع رسالته لقاء منصب او مال، ولا يتاجر بعزّته، ولا يرتاح الى الهوان ؛ ولا ياللق او يتزلف الى احد في سبيل الارتفاق ولو بلغت به الفاقة مبلغاً حاداً ؛ وقد كان يتخذ إزاء الحاجة موقف القناعة ويسعد بها . وهو ان اتى معروفاً، ففي سبيل المروءة لا لاجل شهرة ولا قياماً بخدمة لقاء خدمة، ودليل ذلك المقالات والكتب الجمّة التي كان ينقحها وينسب فيها الفضل كله لسواه .

الا ان حرصه على كرامته وإبائه، كانا يخرجان به احياناً الى حدّ الكبر والقسوة اللاذعة في الدفاع عن نفسه، وذلك يبيّن خصوصاً في بعض انتقاداته وردوده على خصومه ولاسيما الاب شيخو .

ومهما يكن من امر فالشيخ ابراهيم من اسمى كتّابنا نفساً وخلقاً، وأثقلهم قدراً، وأوسعهم مواهب ؛ وشهادة تلميذه خليل مطران خير وصف ومدح له، حيث قال : « لا أبالغ في قولي انه اذا كان الانسان في ظاهره وباطنه لا يخلو من العيوب، فقد كان الشيخ من أقلّ الناس عيوباً » .

٣ ابراهيم البارزجي الشاعر : لم يتعاطى الشيخ ابراهيم الشعر الا في النادر، ومع ذلك فقد كان يوليه من الاتقان والعناية ما كان

يولي سائر اعماله . وان لم يبلغ فيه من الإبداع والنبوغ ما بلغه في النثر واللغة، فشعره ظاهرة من ظواهر ادبه لا يمكننا إغفالها .

للشيخ ابراهيم اليازجي في الشعر كتاب «العقد» وهو ديوان صغير الحجم، لا يتجاوز التسعين صفحة الا قليلاً، مكتوب بخط يده، وقد طبعه ابن اخيه الشيخ حبيب اليازجي على الحجر في البرازيل، وألحقه بمجموعة من رسائله، وافيائه التاريخية . وله ايضاً قصيدتان لم يحتوهما الديوان، هما وصف «الزهرة» التي نشرها في الضياء، والميمية التي القاها في الجمعية السورية وهو في العشرين من عمره، ومطلعها :

سلامٌ أئجما العربُ الكرامُ وجادٌ ربوعَ قطرِكمُ الفمامُ

وبالاجمال ان شعره يسفر عن مواهب شعرية متوسطة، الا ان ذلك الشعر يبدو حلواً مستعذباً لانه مسبوك في عبارة متقنة، مصقولة، قلما تهباً مثلها لشاعر، فهي تجمع السهولة الى المتانة، والرقّة الى الجزالة، والقوة الى الوضوح والسلاسة .

٤٤ ابراهيم اليازجي الصحفي : من المعلوم ان الصحافة العربية قد نشأت على

الركاكة والغثاثة، الا انها ما فتئت ترتقي درجة

فدرجة على أيدي رجال نابغين من امثال احمد فارس الشدياق، والمعلم بطرس البستاني وأديب اسحاق الذين كانوا من اول الرسل في انهاض شأن الصحافة العربية، وقد ساهموا جميعهم بنشاط، في تذليل العقبات التي كانت تعترض كل صحفي عربي، وجعل اللغة العربية تماشي مقتضيات العصر بما يتناز به من مبتدعات ومرافق حديثة؛ الا ان تلك المهمة كانت لا تزال بحاجة الى جهد كثير لدى ظهور اليازجي الذي تفرغ لها بهمة جبارة، وتذرّع اليها بطريقتين رئيسيتين : مزاولته للصحافة على وجه مثالي، وسعيه في اصلاح لغة الجوائد .

اما من مزاولته للصحافة فقد رأينا أنه افتتح عهد جهده الادبي بتوليّه إنشاء «النجاح» وتوفي وهو لا يزال دائباً على «الضياء» ماراً بين هذين الطرفين «بالتقدم» «فالجنان» «فالطبيب» «فالبيان» . وقد كان حريصاً، طوال اشتغاله في انشاء تلك

الصحف، على حفظها في مستوى رفيع، وذلك باختيار الموضوعات القيمة، وبإخراجها في أسلوب انشائي غاية في الاتقان؛ فهو يزن كل كلمة يكتبها، ولا ينشر شيئاً من مقالات الآخرين ما لم يصغه صوغاً جديداً، بريئاً من كل شائبة إنشائية أو لغوية، ولا تزال مجلات «الطبيب» و«البيان» و«الضياء» حتى الآن نموذجاً فريداً لما تنطوي عليه من موضوعات علمية رزينة، ومن إنشاء أنيق فذ.

أما اجتهاده في ترقية لغة الجرائد - ولغة الأدب عموماً - فكان شغله الشاغل سبحانه حياته؛ فهو يتتبع الكتب والصحف يوماً فيوماً ويحشد الهفوات اللغوية في شبه فهرس ينشره كل شهر في إحدى مجلاته، ملحقاً كل هفوة بنقد لاذع يحمل الكتاب والصحفيين على الوجل والتأني والتحفظ؛ وقد نُشرت لذلك النقد مجموعتان أولاهما «لغة الجرائد» التي طبعت في مصر ووقف على طبعتها مصطفى توفيق المؤيدي، والثانية «مغالط الكتاب»، جمعها وأضاف إليها انتقادات جديدة الأب جرجي جنن البولسي، كما نُشرت، ردّاً على انتقادات اليازجي نفسها، مجموعات أو مقالات صغيرة أهمها «دفع الأوهام» لابن سلام. وتلك الردود أو المناظرات، وإن كانت في الغالب، غير ذات قيمة، فقد ساهمت في إعلاء شأن اللغة في نظر الأدباء والصحفيين.

٥ إبراهيم اليازجي العالم: لقد كان الشيخ إبراهيم مولعاً بالعلم، كثير الاطلاع على قضاياه، وقد طوى مجلاته على عدد جم من الابحاث والمقالات فيه؛ لا بل حاز على نوط في العلوم من ملك اسوج وزوج، وانتدب عضواً في كل من الجمعية الفلكية في باريس وانقرس والسلفادور.

كتب الشيخ إبراهيم في مختلف اغراض الكيمياء والفيزياء والطبيعيات والطب وأبدى في كل ناحية من تلك النواحي اطلاعاً رحيماً، ونظراً ثاقباً، وفهماً بعيداً لدقائق الامور، لا بل كان ينتهى الى فوائد علمية، يكتشفها بذاته، تنم عن مواهب علمية غير يسيرة.

وقد كتب في الفلك، وأنجائه فيه تشهد بإلمام واسع بأحدث النظريات، وبفهم مرهف في تدبر ذلك العلم، ومعارضة مختلف النظريات بعضها ببعض، لا بل كان يقدر ذهنه أحياناً لايجاد آراء شخصية .

ثم إنه تصدَّى لمعضلة طالما عجزت دونها قرائح نوابغ الاجيال في الرياضيات، معضلة تسبيع الدائرة، التي اتى فيها حلاً يلامس الصواب .

الا ان كل ذلك لا يكفيه لان يعدّ عالماً ؛ فعلى العالم ان يترك أثراً كاملاً، في موضوع محدود، يقتله بحثاً ويستقصي أبعد قضاياه، والشيخ إنما اقتصر على مقالات مقتضبة، مبعثرة في موضوعات متباينة .

وعلى العالم ان يختبر كل امر يُثبت به نفسه، فيقضي نهاره في مختبره وراء مجهره، ويصرف ليلاليه في مرصده وراء مرقبه، ثم يخرج من اختباراتِه هذه باكتشاف جديد ذي بال، او يطلع على عالم العلم بنظرية او نوايس حديثة بعيدة الاثر؛ والشيخ إنما كان يستمد جلَّ آرائه من الكتب والمجلات وقلما جاء بمكتشفات شخصية، الا في النادر وفي امور قليلة الشأن في دنيا العلوم .

ولا يعني ذلك أن الشيخ كان فقيراً الى المواهب العليا التي ينعم بها كبار العلماء، إنما كان يفتقر الى وسائل مادية ضرورية .

ويكفيه ذلك عذراً عن تقصيره دون بلوغ درجة العلماء الحقيقيين، كما يكفيه فضلاً أنه كسّر لغتنا واسلس قيادها لدقائق العلم ؛ وكان في عصره من أوّل رجال بلادنا المثقفين الواعين لسير العلم، الحارصين على تعميمه بين افراد الامة العربية، واطلاعها على تقدّم الغرب في سبل الثقافة .

٦ ابراهيم اليازجي النافذ : اجتمعت للشيخ مواهب للنقد فريدة : من علم

ثاقب لمكونات اللغة يقتنص بواسطته اخفى

المفوات، وذوق مرهف سليم قلما يخطئ به مواطن القبح والجمال، وصراحة ابيّة لا تدعه يتردد في الجهر بأي رأي يراه مصيباً ؛ ولقد نزع بنقده نزعتين رئيسيتين :

النقد اللغوي للالفاظ والتعابير، والنقد الادبي لبعض الآثار الادبية، مع شيء من الآراء العامة في الادب .

اما نقده اللغوي، فهو - كما رأينا - الناحية التي وقف لها جزءاً كبيراً من جهده ومن مجلاته، وتعمدها باهتمام خاص وقد ابدى فيها حباً للغة فذاً، وحرصاً دائماً على نقائها وتقدمها، وحماية متقدمة قاسية للدفاع عنها - حتى انه انتقد ابناءه ونفسه - على علم عجيب بأخفى دقائقها . الا انه كان يبلغ احياناً في مناصرته للغة حد المغالاة، ولا سيما في احكامه على بعض الآثار الادبية حيث كان يواجه جل اهتمامه صوب الناحية اللغوية وذلك لانه كان يرمي الى اقامة اداة خالصة من كل عيب هي الشرط الاولي لتقدم الادب والفكر على السواء . وقد قال الاستاذ فؤاد افرام البستاني : « كان (الشيخ ابراهيم) واحداً من اولئك اللبنانيين الذين ادركوا . . . ان الحرف يمت واما الروح فيحيي، وان اللغة واسطة للتعبير لا غاية للتبحر، وانه مهما سهلت الواسطة ومرنت الاداة، تجلى الفكر وبرز في اروع صفاته . لعل اليازجي كان ابعدهم مدى في قدر هذه الحقيقة على تبجر في اللغة وتعمق في اصول اشتقاقها، فسهل عليه ان يهر النهضة العصرية بأداة صحيحة مرنة لها من التقليد روعة القديم، ومن الابتكار قشابة الحدوث، اداة كادت تكون كافية لو اخذ الغير على هذه اللغة بالطريق التي سنهها اليازجي ففقرّبوا التعبير من مجالي الحياة، إذأ لما افقنا اليوم، بعد مرور نصف قرن على محاولات اليازجي في بعث اللغة مجارية للعصر، ونحن نكاد نصارع المشاكل نفسها، حتى اذا قصر بنا التعبير تأففنا وقلنا : رحم الله الشيخ ابراهيم » .

اما نقده الادبي فقد كان محدوداً، تناول به طائفة قليلة من الآثار الادبية، الا انه ابدى في حكمه عليها من الحصافة، وسداد الذوق والاتزان في التقدير، ما يطبع احكامه بسمة من الصواب الثابت الذي قلما يحتاج الى تصحيح او تبديل . ومن اشهر نقده للآثار الادبية تذييله لديوان المتنبي حيث حاول خصوصاً ان يظهر علاقة التعبير بالمعنى في شعر ابي الطيب، فظفر بنتائج قليلة لا بأس بها، الا

انه قد جار في الغالب عن مقصوده، وعاد في التذييل الى ما كان قد ألفه في الشرح من معارضة آراء النقاد القدماء في تأويل بعض الابيات العويصة، وتتبع اخطائهم فيها .

وله عدا ذلك مقالات عامة في بعض ابواب الادب كالشعر والمجاز وفي ابواب من تاريخ الادب كشعر المولدين، والعلوم عند العرب وما الى ذلك . وهو وان لم يبلغ فيها كل ما يرتجى من ناقد عصري، فقد أبدى مع ذلك من الدقة والعلم والعمق ما لا يُستهان به بالنظر الى عصره، وكان بالتالي من الذين شقوا الطريق للنقد المعاصر .

٧ ابراهيم اليازجي اللغوي وفهمائه للغة العربية : لقد رأينا ما بذله الشيخ ابراهيم من جهود في سبيل اللغة العربية، سواء أكان ذلك في رفع مستوى لغة الصحافة والادب، أم في نقده اللغوي، وبقي علينا ان ندرس مقدرة اللغوية وسائر ما له على لغتنا العربية من افضال لا تقدر .

قد كلف الشيخ ابراهيم باللغة العربية منذ حداثة كلفاً جماً وانعطف على اكتنائها بشغف يلامس العبادة، يشغفه ذكاء لا يكاد يختلف في شيء عن العبقرية؛ ولم يقتصر في ذلك على استيعاب المعاجم والآثار الادبية وما خلفه كثير من علماء اللغة الاقدمين من الابحاث، بل راح بنفسه يتغلغل في مطاوي عبقرية اللغة ويستجلي منها ما لم يتجلى لاحد سواه، حتى انفتحت بين يديه بجميع كنوزها واسرارها، وحتى عرفها كما لم يعرفها احد ممن تكلمها او كتب فيها . فاستطاع ان يتصدى لكلام العرب الاصليين، جاهليين ومولدين، ويقوم ما اقتروه من اخطاء، ويطلع اهل البادية على اسرار لغتهم؛ كما حمل حملته العنيفة على ناشري « لسان العرب » و « تاج العروس » في منتصف القرن التاسع عشر، فاضحاً كثرة ما وقع في ذينك المعجمين من اغلاط، جاداً في ارجاعهما الى نصائتهما وصحتها الاصلية، لا بل عارض احياناً الواضعين الاصليين نفسيهما، ذاهباً في تبصّر دقائق اللغة الى ابعد مما ذهبوا .

الا ان الشيخ لم يكتفِ بأن قبض على ازمة اللغة، بل سعى، جهده، في تعميم

معرفته لها، فكتب فيها المقالات المطوّلة ووضع الكتب التي تشهد بغرامه باللغة ومقدرته الفذة فيها .

لقد درس أصل ومعاني تراكيب الالفاظ في « امالي لغوية » وعلاقة أصوات الحروف بالمعاني التي ترمز اليها، وثنائية الالفاظ وطرائق تفرعها، مع ما قد يطرأ على الاصل من ابدال وقلب، مستنتجاً من ذلك كله طريقة لمعرفة اختيار الالفاظ، وفق المعاني المقصودة، وقد بلغ في هذا البحث من اكتناه عبقرية اللغة ما يدهش .

وبحث عن نشأة اللغة في مقاله « اللغة والعصر » وماشى تطورها حتى بلغ بها الى عصرنا، فوقف يستقري ما يعترضها من معضلات جسام، جاداً في تدليل تلك المعضلات، ليجعل اللغة في مأمن من خطر الهرم والاضمحلال، ويرفعها الى مستوى سائر اللغات الثقافية الحية ؛ وعارضاً ما ارتآه من حلول كتأسيس مجامع لغوية، لاثبات ما يجب الاتفاق عليه من قواعد اللغة والالفاظ المستحدثة لمجاراة العصر، ومرشداً في سبيل استنباط تلك الالفاظ الى طريقة الاشتقاق التي جرى عليها العرب، لكي لا تكون غريبة عن عبقرية اللغة ؛ ثم عاد في مقالات عدة من الضياء يعالج تلك المعضلات، وينشر امثالا من المستحدثات التي وضعها للدلالة على معاني الفاظ اعجمية .

وقد وضع كذلك علامات لمخارج الاصوات التي لا وجود لها في لغتنا لتسهيل التعريب وكتابة الاعلام الافرنجية في العربية .

ثم عكف على وضع « نجمة الرائد » لينشل الصحفيين والكتّاب والمترجمين من لغة الابتذال، ويوفر لهم مواد لغة رفيعة ؛ وكتاب « نجمة الرائد » كناية عن قاموس للالفاظ الوضعية والتعابير العربية البليغة الذائعة، منسّق حسب المعاني، لكل ما يختص بالانسان ؛ وكان قد قصد وضعه في اثني عشر باباً كل منها يتشعب الى فصول مختلفة، ولكن المنية قعدت به عن انجازه ولما يبلغ سوى ثلثيه .

كما انه عمل على وضع معجم لغوي، وبدأ به سنة ١٨٧٠ على ما يرجح، وسمّاه « الفرائد الحسان من قلائد اللسان » ثم انقطع عنه في اثناء تنقيحه للكتاب المقدس،

فعاد اليه سنة ١٨٨١ بداعي اقتراح وجهته مجلة المقتطف لوضع معجم مدرسي حديث .
الا ان ازدهار الاعمال وتسارع المنية قد وقفا به عند ربع عمله تقريباً اي في

باب الهزرة

الهزرة من حروف المان مخرجها أقصى الحلق . ومن ثمان
حرف مفارقة للمعجم مذكراً ومثلاً كقولهم وندخل في أول العمل
الثلاث لمعان منها التعدية ومن شديداً كقولهم جلست . ومنها
اليدخل في الزمان نحو اصبح المسافر . وقصد المكان كقولهم عرق . ووجدان
الشيء على صفة كقولهم أحمدته . وحيونة النحل كقولهم احصد الزرع . والعبودية
نحو اغد البعير . والتعريض للشيء كقولهم اقلته . والسلب كقولهم استمكنه .
وتدخل في أول الاسم كقولهم التفضيل كقولهم ارفع من ثمره . ولجمع نحو انفس
وقد لا ياتي كقولهم اغريض . وترادف لوصف كقولهم ادا ساكن كقولهم
منها حمرة الظنن واستعمر واستأجرها وحسنه لا تقوينا الا ان مفتحة
الكلام وتسمى حمزة يمد

وتسمى الصفحة التي فيها ما ذكره
وتسمى الصفحة التي فيها ما ذكره
وتسمى الصفحة التي فيها ما ذكره

وتسمى حرف من فتكون معنونة موصولة كقولهم هذا الذي
نحو زيد . وحرف استنم وهو يستعمل لطلب التصديق كقولهم
الايام والنسب جيت وحكم ان يري ما يتبين عن بها تصديقاً وتصوراً
فتقول اقام زيد في الاستنم عن العيام وازيد قام في الاستنم عن العانم .
ونقول اقام زيد ام قد وازيد قام ام ثمرة تبعاً لما يطلب تعيينه فيها .
وقد تخرج الهزرة عن الاستنم كقولهم اخفي في لاجها السوية وهي تقع كذا
مطرقة مع ام كولا بالي ارضي زيد ام سخط . ولا يجر كقولهم
ابنت ولهم البنون . والتعريف كقولهم انت فعلت هذا . والتوبيخ كقولهم
انتولون على الله ما تعلمون . والتمكين كقولهم اهلوا نكاحاً من نزل
ما بعيدة بالكن . والاستطاعة كقولهم يا ابن مدين اموا ان تمسح

الصفحة الاولى من « الفرائد الحسان »

منتصف حرف الخاء، والذي يظهر من الرسالة التي اجاب بها على اقتراح المقتطف
ومن درس المخطوط نفسه ان الشيخ كان يسعى في وضع قاموس سهل المتناول،
يختصر به امهات القواميس العربية، ويرتبه ترتيباً اقرب الى عقلية العصر، مختاراً من

الالفاظ كل فصيح سائغ، نابذاً كل وحشي ساقط بذوي، مع لمحات خاطفة في أشهر الأعلام العربية . وطريقته تمتاز عن طرائق القواميس القديمة بدقة التمهيص، والوضوح، والملاحظات اللغوية السابعة في معاني الاوزان؛ ولكن ممّا يؤسف له أن عملاً كهذا لم يتم ولم يبرز الى النور لتعم فائدته .

ثم من خدماته الجليلة للغة العربية تنقيحه لترجمة الكتاب المقدس الذي مسحه بغمرة من الروعة والجلال تليق بأصله . وإن لم يكن الشيخ هو المعرب للكتاب المقدس^١ فمما لا ريب فيه أن فضل العبارة العربية له، وكفى تقديراً لهذا الفضل أن نقارن ترجمة اليسوعيين بما سبقها من الترجمات، لا بل ان نقارن ترجمة العهد القديم الذي أطلقت له اليد في تنقيحه بترجمة العهد الجديد التي يكاد لا يكون له فيها يد . وقد قال جرجي زيدان عنها انها « اصحّ ترجمات التوراة لغةً، وأفصحها عبارةً، وأجزلها اسلوباً » .

ولا ننكر ايضاً ما أسداه الشيخ ابراهيم الى اللغة العربية من خدمة بتفسيره ديوان المتنبي؛ فقد أجال بصره في كل ما وضع حول ديوان ابي الطيّب من شروح وتأويلات متضاربة، وعارض بعضها ببعض متبصراً مواطن الخطأ والصواب في كل رأي، نافذاً بنفسه الى عبقرية المتنبي لاستجلاء اسباب الغموض المغلق في كثير من شعره؛ وقد خرج من ذلك بشرح لغوي فريد، مستوفي الاتقان، واضعاً بذلك طريقة مثلى لاستجلاء غوامض الالفاظ والتعابير والمعاني والإعراب في الشعر العربي .

هذا، فضلاً عن الكتب التي صححها، ولا سيما «تاريخ بابل وأشور» الذي وضعه جميل المدور؛ وكتب ابيه التي اختصرها؛ وطائفة العلماء والادباء الذين تحرّجوا على يده .

(١) كان المعرب احد الابهاء اليسوعيين الاجانب وهو من اساتذة اللغة العبرية والدروس الكتابية؛ وكان ينقل الكتاب المقدس عن اصله نقلاً دقيقاً أميناً، وبعد أن تنظر لجنة من الابهاء العلماء في صحة تلك الترجمة يتناولها الشيخ ابراهيم بقله الفذ، فيسكبها في قالب عربيّ بليغ ويضبطها بالشكل، ثم تعرض تلك الترجمة ثانية على اللجنة بحضوره ويقرّر طبعها .

٨ انشاء الشيخ ابراهيم اليازجي : جرى اليازجي في انشائه على اسلوبين متباينين :

اسلوب ترسل مسجع كان يلجأ اليه في رسائله ومقدمات كتبه ومقالاته، واسلوب موصل صاغ فيه أغلب أبحاثه؛ ولم يدرأ أسلوبه الاول من العيوب التي عهدناها لتلك الطريقة في الكتابة كالإفراط في التصنع والتزيق البديعي، وتكرار نفس المعاني أحياناً على أوجه مختلفة، وجموح في الخيال يأتي بغريب الاستعارات التي ينفر منها ذوقنا العصري ويغنها .

إلا أننا نجد الى ذلك في إنشاء اليازجي من صفات الاتقان والذوق والوضوح والجزالة ما يرفعه الى مستوى فريد .

فالشيخ إبراهيم صبور على قلمه لا يستحش، وهو خبير بوقع كل لفظة، مدرك سر فصاحتها، فلا يلجأ إلا الى ابلغ الالفاظ وادقها واقرها الى الفهم، واجملها نعمة؛ وإن اضطرته الدقة أحياناً الى استخدام لفظة عسرة أحاطها بما ينزع عنها عسرها ويخيل ببساطتها؛ ثم يعمد، في تركيب الالفاظ جملاً، الى ذوق موهف يتحاشى عن التعقيد والخشونة ساعياً وراء السلاسة والتألف . فجملته حتى في أعسر المواضيع العلمية، مصقولة، تلذذ الأذن، قوية الإدراك، متينة التركيب، بالغة الفصاحة؛ وهو يربط تلك الجمل بعضها ببعض بعقل راجح ومنطق نير وزين راسخ، حتى يواف كلاً متناسقاً، بالغا من وضوح التركيب وتناسق الاجزاء وكمال البناء مبلغاً فذاً، حتى ليتعذر أن تبدل لفظة بلفظة، أو تحذف رابطة، أو تغفل جملة أو مقطع، من غير ان يقع خلل في التركيب العام . - قال فؤاد البستاني : « لا إخال كاتباً عربياً منذ عهد ابن المقفع وبديع الزمان، أدرك ما أدركه اليازجي من سر اللفظة المفردة في مجموع الجملة، ومن سر الجملة في الفقرة، ومن سر الفقرة في المقال - هي نظرة الفنان الساهر على بناء الكل، نتيجة لتساوق الاجزاء . »

واسلوب الشيخ ابراهيم في الغالب خطابي، رحب الجمل، يتموج مع حوكة الصوت ومد العاطفة وجورها؛ حافل بالنغم الموسيقي حتى في تألف حر كاته وحروفه والفاظه وجمله .

وبالجملة، فقليل من الكتاب في أدبنا من انقادت لهم اللغة انقيادها للشيخ إبراهيم، ومن اجتمع لهم من ملكات الانشاء مثل ما اجتمع له؛ وإنشاؤه لا يزال من أفضل المراجع لمن يريد الظفر بملكة اللغة والانشاء .

٩ منزلة الشيخ ابراهيم اليازجي : « عظمة الشيخ ابراهيم اليازجي، في انه صاحب رسالة آمن بها، فاعطاها نفسه، ووقف لها حياته، عاملاً مخلصاً، غير مغير ولا مبدل ». فقد أثر ان يعيش حياته فقيراً، ويموت فقيراً، وهو يخدم الرسالة التي وكلت اليه، من ان ينحاز عنها في سبيل غنى او منصب او جاه .

وقد ضحى براحته وبصحته، حتى النفس الاخير، وبالرغم مما اعتراه من داء وهزال، لينجز تلك الرسالة المتشعبة الانحاء .

ولولا هذه التضحية، ولولا هذا الايمان برسالته وإخلاصه لها لما تهيأ للنهضة ان تقوم على الاساس الوطيد الذي ساهم في وضعه، سواء بسبكه حروفاً لتسهيل الطباعة ام بتخريجه اساتذة يبشون التقدم، ام بجهده في رفع مستوى الصحافة والعلم والنقد . هذا، فضلاً عن خدماته الجزيلة للغة التي كانت من اهم العناصر في تأسيس النهضة، وفضلاً عن انشائه الفذ الذي كان فيه استاذاً لعدد جم من الادباء .

وان من التهم الراجحة التي يلحقها النقاد بالشيخ ابراهيم اليازجي قلة انتاجه . قد يكون لهذه التهمة وجه من الصواب اذا اعتبرنا ان الشيخ ابراهيم لم يخلف في اي حقل من حقول جهده العقلي او العملي، عملاً كاملاً، مستوفي السعة، ذا قيمة مستقلة، يمكن ان تسند اليه شهرة قائمة بذاتها، شأن عموم الادباء الذين يبنون شهرتهم على مؤلف كامل خاص او عمل محدود تام .

غير اننا اذا انعمنا النظر في تلك التهمة وجدناها لا تقوم على قرار ثابت، ولا تنال من قيمة الرجل في شيء؛ اولاً لان العمل الذي انجزه في شتى النواحي من تأليف، وتصحيح، وشرح وتعليم، وحفر حروف للطباعة، عمل واسع المدى، كثير

التشعب لا يمكن التهوين من أمره ؛ ثم لان شهرة اليازجي مستمدة قوامها، لا من آثاره بحد ذاتها فحسب، بل من التأثير الشامل البالغ الذي عمّ عصره باجمعه والذي لا يزال صدهاء يتردد حتى الآن؛ فهو سواء أَلَف أم صحح، أم شرح أم علّم أم حفر حروفاً للطباعة، فانما كان حريصاً على ان يمهّد للادباء من بعده سُبُل الرقي والكمال، وان يضع في كل ناحية من تلك النواحي، نماذج مثلى، تكفل لمن يحتذيا التثقف والنجاح؛ وتكون اساساً للنهضة .

بعض المراجع

العدد الممتاز من مجلة المسرة الذي صدر بداعي الذكرى المئوية لميلاد الشيخ ابراهيم اليازجي (حزيران ١٩٤٨) وفيها عدة اجاث لكبار الكتاب والمفكرين

الاب ثقولا ابو هنا : فقيد اللغة العربية والادب والفن المرحوم الشيخ ابراهيم اليازجي - دير المخلص ١٩٣٩

جرجي زيدان : تراجم مشاهير الشرق ٢ - القاهرة ١٩٢٢ ص ١٠٦ - ١٢٠

عيسى اسكندر المعلوف : الشيخ ابراهيم اليازجي - المقتطف ٣٢ - ٧٨

الاب لويس شيخو : الآداب العربية في القرن التاسع عشر الجزء ٢ - بيروت - ص ٣٥ - ٣٧

جرجي زيدان : الشيخ ابراهيم اليازجي حجة اللغة العربية وادب الانشاء - الهلال ١٥ (١٩٠٦) ص ٢٥٩

الفيكونت فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية - الجزء ٢ - بيروت ١٩١٣ ص ٨٨ - ٩٨

موضوعات للنبح

- ١ - لقد ادى الشيخ ابراهيم اليازجي الى اللغة العربية رسالة . ما هي هذه الرسالة . وما قيمتها ؟
- ٢ - هل قامت شهرة الشيخ ابراهيم اليازجي على تأليفه وهل له اسلوب خاص في النثر ؟
- ٣ - لم يترك الشيخ ابراهيم اليازجي من الآثار ما يضاهي شهرته الواسعة، فكيف استحق هذه الشهرة ؟

مشاهير الادباء - النثر الفني

الفصل التاسع

ولي الدين يكن - مصطفى لطفى المنفلوطي

أ - ولي الدين يكن

١ حياته : جاء ولي الدين مصر وهو في الثالثة من عمره، ودخل مدرسة الانجال بمابدين . ثم أقبل على الكتابة وناصر في اول امره الحكومة، ثم انشأ جريدة « الاستقامة » وثار فيها على الظلم وعمل على اصلاح المجتمع . ثم عينه عبد الحميد عضواً في مجلس المعارف الاعلى فتخاضم مع رجال الدولة وسُعي به ونفي الى سيواس . ولما عُفي عنه عاد الى مصر فاقامه حسين كامل كاتباً في ديوانه . توفي في حلوان .

٢ شخصيته : كان عصبي المزاج، لطيف المعشر، زاهداً في المعالي، كارهاً للتعصب، جريئاً .

٣ آثاره : له في الشعر ديوان، وفي النثر « الصحائف السود » و « التجارب » و « المعلوم والمجهول »، و « دكران ورائف »، و « خواطر نيازي » .

٤ آراؤه في السياسة والاجتماع : كان في بده امره مناصراً للحكومة، ثم انقلب مع احرار مصر . وكان حراً جريئاً يريد للجميع الحرية والمساواة . وقد حارب التقاليد، وعالج قضية ترقية الشعب ولاسيما المرأة . ورأى ان الرقي لا يقوم الا على الحرية والعلم . اما اسلوبه فصراحة ونُصح وتهكم .

٥ فنه : كان اسلوبه صورة لنفسه الكبيرة وقلبه المضطرب ومركباً لعاطفته المتدفقة، فامتاز بالشخصية القوية والحياة النابضة والايجاز المتوثب والتشبيه المتكرر، والهجعة الخطابية .

ب - مصطفى لطفى المنفلوطي

١ حياته : وُلد في منفلوط ونشأ على حب النقوى والعلم . درس في الازهر واتصل بمحمد عبده وتلمذ له . وقد نشر مقالات كثيرة وجه فيها الى مواطنيه رسالة الانبعاث والتحرر .

٢ آثاره : له آثار كثيرة من أشهرها « النظرات »

٣ نزعة الادبية : نزعة تحرر من التقاليد الكتابية واتصال بالحالة الاجتماعية في عصره .

٤ الكاتب الاجتماعي : سيطرت على اجتماعاته مسحة التشاؤم .

٥ الكاتب القصصي : انشأ القصص لاصلاح المجتمع ، الا انه لم يوفق في رواياته فكان الفن فيها ضئيلاً .

٦ اسلوب المنفلوطي : امتاز المنفلوطي بالاسلوب لا بجمهر المعاني ، وكتب بقلبه وعقيدته فكان انشاؤه سلباً .

١- ولي الدين يكن (١٨٧٣ - ١٩٢١ م / ١٢٩٠ - ١٣٤٠)

١ حياته : كان جدّ ولي الدين ابن اخت محمد علي صاحب مصر ، وكانت أمه

اميرة شر كسية .



ولي الدين يكن

جاء أبوه مصر ، وهو طفل في الثالثة من عمره . وبعد موت أبيه ، أدخل مدرسة الانجال بعابدين المختصة بتعليم اولاد الكبار ، فتعلّم العربية والتركية وشيئاً من الانكليزية . ثم درس الفرنسية . واقتبل على الكتابة والنظم وكان في اول امره يناصر الحكومة ، حتى اذا وافى الاستانة وأطلع على المكاييد والفسائس والوشايات الفاشية في نظم

الدولة، عاد الى مصر ناقماً فأنشأ جريدة « الاستقامة » وشرع يشور فيها على الظلم ويعمل على إصلاح المجتمع، ثم حجبها اعجز مالي ونشر مقالاته في بعض الصحف المصرية .

ثم دعاه السلطان عبد الحميد، وعيَّنه عضواً في مجلس المعارف الاعلى، استمالة له او على الاقل اتقاء لسانه . الا انه تخاصم مع رجال الدولة لقلة ما رأى عندهم من صدق النية والاستقامة والادارة . فنُصبت حول بيته العيون والجواسيس، وسُعي به، فنُظر في اوراقه، وهو على اتصال بأحرار مصر الثائرين على الدولة . وكان يومٌ خرج فيه يستدعي طبيباً لامراته النفساء فتصدى له شرطي فضربه ولي الدين، فأغلظ له المتصرف الملامة، فطرحه ولي الدين على الارض . فحُبس ثم نُفي . فكتب الى ذويه من سيواس فوافوه . واتصل بالاجانب من فرنسيين وسواهم، وعكف على المطالعة والتأليف والنظم، خفَّت عليه وطأة المنفى ؛ وما زال هكذا حتى عُفي عنه .

ولما رجع الى مصر، عاد الى الكتابة . ثم عيَّنه ولي العرش السلطان حسين كامل كاتباً في ديوانه، فمدحه وحظي عنده . ولكنه ما عثَّم ان اصابه الربو، ونال منه داء الصدر . فتوفي في حلوان ودفن في القاهرة .

٢ شخصيته : كان ولي الدين عصي المزاج، متنبه الخاطر، يقظاً، سريع الملاحظة، مغرماً بالحرية، جريئاً، لا يهاب القول الصريح، ولا يخشى مهاجمة المخادعين والكذابين، واذلال المتكبرين، والوقوف في وجه الظالمين والفاشين . وكان الى ذلك لطيف المعشر، مرهف الاحساس، خفيف الظل، يميل الى التهمك ويتوفر على النكتة والحديث الفكه، مبسوط اليد، جلوداً في الضيق، زاهداً في المعالي والمناصب . اما كرهه للتعصب ونفوره من التقاليد المتداولة فشامل لجميع النواحي الفكرية والاجتماعية، لا تهمه تقاليد عائلية او فرائض دينية، ولا يبالي

بالمتوارث من اساليب الكتابة . ولعله أفرط في ذلك، لعدم فرقه بين تقليد وتقليد . وقد احسن الشيخ انطون الجميل حين قال : « عرفت في ديوان السلطنة، وعرفته في مجالس الانس، وعرفته قابلاً في داره بين مخالب السقم وبرائن اليأس فلم أر منه في جميع المنازل التي اتزله الحياة الا لين العريكة ودمائة الخلق، والحرية مع الادب، والدعة مع الايلاء » .

٣ آثاره :

١ - في الشعر : لولي الدين ديوان جمعه له اخوه، وطبعه سنة ١٩٢٤، وقدم له الشيخ انطون الجميل . وشعره وجداني في اكثره، ولكنه دون نشره فناً وجمالاً وموسيقى، على طبيعته وانسجامه وصدق عاطفته .

٢ - في النثر : لقد جمع ولي الدين بعض مقالاته الاجتماعية في « الصحائف السود » وفيها انتقاد يراد منه الاصلاح . وجمعت مقالات اخرى في « التجارب » . وقد ظهرت تلك المقالات في الصحف قبل جمعها . وله ايضاً كتاب « المعلوم والمجهول » في جزئين، يبحث الجزء الاول في الحكومة العثمانية وحالتها وسياستها ومناهضة الاحرار لها، وفيه ذكر بعض المشاهدات التي دارت بين ولي الدين ورجال الدولة . اما الجزء الثاني فيبحث في حبسه ونفيه، ويصف سيواس وما لاقى فيها .

وان في « المعلوم والمجهول » من صدق اللهجة، والعناية بتقصي الحوادث، ومحاولة فهمها بأسبابها، والدقة في تحديد تواريخها، والتوفر على وصف اخلاق الناس وعاداتهم، واحوالهم، ما يسم الكتاب بطابع التاريخ الحق . الا ان هناك اندفاعاً ساخطاً، وقالباً قصصياً يجمع ما وصلت اليه الملاحظة المتيقظة، وتهكماً ونقداً، ونزعة سياسية، مما لا يظهر الا في المشاهدات الصحافية .

ولولي الدين « دكران ورائف » وهما روايتان جمعتا في كتاب واحد . وله ايضاً « خواطر نيازي »، نقله عن التركية، وهو من تأليف محمد نيازي، بطل الانقلاب ورسول الحرية في ذلك العهد .

٤ آراؤه في السياسة والاجتماع :

١ - السياسة : كان ولي الدين رجلاً حراً، يطلب الحرية في تفكيره ويريد الحرية في كتابته، فأقبل على الصحافة، يعرض آرائه السياسية ويناضل عنها. وكان في بدء امره مناصراً للحكومة، لا يتورع من انتقاد الانكليز، على حبه لهم . ولكنه ما عثم ان انقلب مع احرار مصر، بعد ان رأى تعسف اولى الامر في الاستانة، فتعهده البريطانيون بالحماية، حفظ لهم ذكراً طيباً، حتى اصبح يرى في الاحتلال الانكليزي خيراً لمصر ويذهب في ذلك غير مذهب الوطنيين الذين يطالبون بمصر للمصريين .

ومهما يكن من امر سياسة ولي الدين والشؤون المصرية، فقد كان الرجل حراً جريئاً، صادق العقيدة، لا يدافع عن آرائه الا لانه يعتقد فيها الخير لمصر وللعثمانيين . وهو يريد للجميع الحرية والمساواة ، بلا تفريق بين عنصر وآخر، ودين وآخر . واحق الناس عنده بالفضل والتقدير من كان اكثر اخلاصاً في خدمة الوطن .

٢ - الاجتماع : قال ولي الدين في « التجارب » : « لا بدّ من التنقل الى الاجتماعيات فقد تضجر النفوس اساليب السياسة . ثم نحن الى الاجتماعيات اشدّ منا حاجة الى السياسيات » . ولقد اغراه بولوج باب الموضوعات الاجتماعية شدة ما رأى من هوان الشعب، وتعسف العظماء، واستبداد اولى الامر، وتفاقم الجهل في الامة، وتشدد انصار القديم وتعلقهم المفرط بتقاليدهم وعاداتهم ولو خبثت عواقبها، وإعراض الناس، كباراً وصغاراً، عن الاخذ بأسباب التحرر والرقى؛ ثم ما كان عليه ولي الدين من صراحة ارغمته على رفع الصوت احتجاجاً على الظلم والتعصب والشذوذ، ومن جرأة هونت عليه المضايقات في سبيل الاخلاق الحميدة والحقيقة الاجتماعية . فرفع صوته وهو يعلم علم اليقين ان مصاعب جمّة ستقوم في وجهه، وانه سيلقى الكثير من الإعراض وعدم المبالاة، وقال بجرأة : « يريدون ان

اكتب ما يريدون، واريد ان اكتب ما أريد . وكان يعلم ما للصحافة من اهمية وما لارباب الاقلام من تأثير في تسيير الشعب، فتناول قلمه وراح يملأ الصحف بنبرات صوته الحية، ونبضات قلبه المضطربة .

ليس في مقالات ولي الدين نظرية شاملة تامة في الاجتماع، فهو يتناول بعض النواحي التي يعدّها شاذة، ويشور عليها محاولاً اصلاحها . وهكذا تناول بكلامه موضوعين هامين : التقاليد، وقضية ترقية الشعب ولاسيما المرأة .

١- التقاليد : شغف ولي الدين بالحرية، فنادى بها لنفسه ولكل انسان في جميع ميادين الحياة الاجتماعية، واراد التخلص « من هذه العادات التي اثقلت اعناقنا واطالت شقامنا » . وما الاخلاق والعادات الا كالملايس والازياء، يمرّ عليها زمان، لا تليق من بعده، فيكون اوان التجديد، ويكون « الاقرب ان نجعل العادات كما يوافق العصر » .

وما اشد ما يعجب من اصحاب القديم الذين يتمسكون او يطلبون التمسك بالعادات، ولاسيما اذا كانت لاهلها موضوع خزي وعار . وهو يسخر وسخره لاذع شديد الوطأة، يحاول ان يحلل فيه نفسية خصومه، فيخطبهم بما يكشف داخلهم : « ولكنكم تنظرون ما لنا فتودّون لو يكون لكم، وتحسون ما بكم فتتمنّون لو يصبح بنا » .

الا انه في ثورته على القديم والتعصب القديم، والتمسك بالعادات ولو كانت مثالب، قد يتطرق أحياناً في آرائه ويشط به فؤاده، كما فعل في تشبيهه الاخلاق بالملايس والازياء وكأنه لا يرى الصالح منها الا ما وافق العصر .

٢- ترقية الشعب : وكان ولي الدين يكن، وهو من الاشراف الكبراء، يعطف على الشعب، ويرق لما يصيبه من سوء، ومن تعنت اصحاب النعمة، وتكبر المثربين، وأثرة العظماء وحامي الالقاب، ويناصر العمال المرهقين والصغار المبخوسين الحقوق، ويحاول رفع مستواهم الاجتماعي، بمناهضة الجهل ونشر العلم، واثارة الرغبة في التعلم والتحصيل ؛ وهو يرى ان الجهل سبب آفات جمة في جميع طبقات

المجتمع، ومن تلك الآفات التبذير، وغواية الشباب، والتزلف والتذلل امام الكبراء الذين لا يفوقون الشعب شهامة وعقلاً وادراكاً . وانه لينغمه ان تكون الشعوب « قد قطعت اشواطاً في منازل الحياة، ونحن الى الوراء راجعون »، وهو لا يريد بذلك ان نقلد الاجانب في كل شيء، بل يريد ان ننبت سيئاتهم ونأخذ بحسناتهم .

وعنده ان من أجل الحسنات التي يحسن بل يجب الاخذ بها، تحرير المرأة، وقد تأثر في ذلك بمذهب قاسم امين وأيد رأيه . فهو يريد تعليم المرأة وثقيفها، ويقول : « قالوا ان تعليم البنات مبيع الى افسادهن . . . إن هو إلا جالجٌ مُبين » وتمسك ذميم بعادات قديمة فاسدة . وهو يريد رفع الحجاب، ولا سيما وان الدين لا يفرض الحجاب، بل يفرضه في رأيه التعصب والاستبداد؛ وليس فيه من رادع عن المنكر فإ « على وجوههن الا براقع تشف عما تعلوه، فهن حاسرات مقنعات » .

وهو يطالب بحرية المرأة، وتحريرها في مصيرها، وأن يُترك لها انتقاء زوجها، فلا تُرَف الى من لا تُحب، ولا تكون « مجهولة زُفّت الى مجهول » تقوم بهما امرة خاملة، تاعسة، تكون في المجتمع عنصر فساد لا عنصر بناء .

ومهما يكن من امر، فولي الدين يرمي في اجتماعياته، الى ان يُصلح الفاسد، وان يزين الانسان نفسه بالخصال الحميدة، فيكتسب الخلق الكريم ويسمو الى مسالك الكمال، مترفعاً عن الصغائر والدنایا، فيتم بذلك تألف المجتمع وسعادة الحياة .

ولم يقدم ولي الدين على انتقاد خلل اجتماعي الا بعد إبعاده عن نفسه وبعد التحلي بما يكون مثلاً للآخرين، فان « من لم يعلم من نفسه زلاتها لم يعلم من الغير زلاتهم ؛ ومن كان بعيداً عن معرفة حقائق ذاته، فهو عن معرفة حقائق الناس ابعد » .

وهو يُقبل على المجتمع ناصحاً، ويبين مواضع النقص بصراحة ويبين معه اسبابه النفسية والخلقية وغيرها، ويجعل في كلامه حوارة عاطفته، ويعمد الى التهكم، وعنده ان التهكم اشدّ نيلاً من المتعصبين، « والمتعصبون لا تجدي معهم المناظرة ولا يقنعهم الدليل » .

٥ فـه : ثار ولي الدين على العادات والتقاليد، وقد نالت ثورته ايضاً أساليب الانشاء المتداولة، فنبذ تصنع المترسلين، ولم يقدم على كلام لا يفيد معنى في ذاته، بل ترك نفسه على سجيته فكان اسلوبه في كتابته صورة لنفسه الكبيرة وقلبه المضطرب، ومركباً لعاطفته المتدفقة .

كان ولي الدين صريحاً فعدل عن الاسلوب المغشّى بوجوه البديع والسجع والإطناب، الى الكلام الحي الذي يماشي الطبيعة، ويعبر عن المعنى تعبيراً صادقاً سهل الالفاظ دقيقة، بعيداً عن المداورة والزخرفة والتورية، تعبيراً موجزاً في غير غموض، وجزلاً في غير قسوة .

وكان ولي الدين ذا خيال قوي فأتى بالصور المبتكرة التي يفرغ عليها ألواناً أخاذة، واعتمد التشبيه في كتابته فأتى بالبديع الجديد الذي يطلع على القارئ فجأة فيروعه ويسجره .

وكان ولي الدين مضطرب العاطفة، متوتر الاعصاب فانبتت عاطفته في كتابته ؛ واذا بعبارته تتوثب توثباً وكانها مهشمة، في تدفق وحياة، واذا باساليبه تتنوع بتنوع عاطفته، فهي تارة نائرة تتجالد الفاظها وترن رنين القوس، وتارة ساخرة متهمكة في مرارة وألم، وتارة شعرية تسبح في عالم من الخيال الجليل ؛ وهي على كل حال لا تخلو من تشاؤم مؤثر، ومن مغالاة فكرية هي ثمرة العاطفة الشائرة .

وهذه العاطفة القوية، وهذا الاسلوب المتدفق الشديد الوطأة، وهذه الجرأة والذعة الشخصية جعلت ولي الدين صحافياً من اشد الصحافيين لهجة خطابية، وابعدهم تأثيراً .

ب - مصطفى لطفي المنفلوطي

(١٨٧٦ - ١٩٢٤ م / ١٢٩٣ - ١٣٤٣ هـ)

١ مـبـار : ولد مصطفى المنفلوطي في بلدة منفلوط بمصر من اب ينتهي نسبه الى علي بن الحسين، وأم تركية . فنشأ على حب التقوى والعلم في

أسرة انبقت منذ عهد بعيد عدداً وافراً من قضاة الشرع والنقباء والاشراف . وبعد ان حفظ القرآن في كتاب بلدته التحق بالازهر فاخذ بنصيب من علوم الدين واللغة



مصطفى لطفي المنفلوطي

ثم راح يقرأ ويحفظ ما تقع عليه يده من اسفار أدبية، ويخاط اصحاب الادب وأرباب الكتابة . فاتصل بالشيخ محمد عبده وتلمذ له . وكانت « نظراته » الاسبوعية التي ينشرها في المؤيد قد لقت اليه الابصار بما انطوت عليه من متعة الموضوعات وجاذبية الاسلوب، فوُلي اعمالاً انشائية في وزارة المعارف ثم في وزارة الحفائية وما عم ان ترك منصبه وتابع نشر المقالات والكتب

موجهاً الى مواطنيه رسالة الانبعاث والتحرر . وتعاقبت عليه المصائب العيلية فقابلها بالصبر . وقد أسندت اليه في اواخر حياته وظيفة كتابية في مجلس الشورى ظل فيها الى ان ادركته الوفاة .

٢ آثاره : المنفلوطي، في مطلع حياته الادبية محاولات شعرية ما عم ان انصرف عنها الى معالجة النثر في اسلوب حديث وموضوعات مستقاة من حياة المجتمع او من الادب الفرنسي .

فمن كتبه الموضوعية : « النظرات » وهي سلسلة مقالات اجتماعية نشرها في « المؤيد » ثم جمعها في ثلاثة اجزاء ؛ و « مختارات المنفلوطي » وفيها منتخبات من

الادب العربي. ومن كتبه المترجمة : « في سبيل التاج »^١ و « الشاعر او سيرانو دي برجرالك »^٢ و « مجدولين او تحت ظلال الزيزفون »^٣ و « الفضيلة او بول وفرجينى »^٤ وهي روايات مستقلة لم ينقلها الكتّاب عن اصلها مباشرة لجهله اللغة الفرنسية، وقد تصرّف فيها . اما كتاب « العبرات » فهو مجموعة قصص موضوعة او مقتبسة عن الفرنسية، تغلب عليها صبغة التشاؤم والحزن .

٣ بُزَعته الادبية : نزعة المنفلوطي في ادبه هي نزعة تحور من التقاليد الكتابية واتصال بالحالة الاجتماعية في عصره .

١ - التحور : المنفلوطي من طائفة الكتّاب المجدّدين الذين بعثوا النهضة في القرن التاسع عشر . فقد اقتبس من ثقافة الاجانب، وكتب في الصحف والمجلات وخرج عن الاساليب الموروثة في الانشاء والموضوعات المألوفة في الادب، واعتمد على افكار وعواطف مستمدة من حاجات المجتمع واختلاجات الصدور . وهدف في كتاباته الى غاية اجتماعية بعد إذ كان الادباء لا يعنون الا بزخرف اللفظ وروعة الفن . فاهمل السجع والتعقيد وأدّى أفكاره في لغة صافية قريبة الى الافهام مطلقة من قيود الإعنت والتكلف .

٢ - الاتصال بعصره : لم ينفصل المنفلوطي عن التقاليد القديمة الا ليتمتج بعصره ويعيش في البيئة التي اوجد فيها . وكان له من قلبه الرقيق، وخبرة حياته المتألّمة، وأطلاعه على الشقاء المنتشر في طبقات الامة دافعاً الى الشفقة والالتصاق بالمجتمع للتنديد بشروره والحض على اصلاحه . وهكذا كان المنفلوطي كاتباً اجتماعياً .

François Copée : Pour la Couronne

(١) نقل عن مسرحية لفرانسوا كوييه :

Edmond Rostand : Cyrano de Bergerac

(٢) نقل عن مسرحية لادمون رويستان :

Alphonse Karr : Sous Les tilleuls

(٣) نقل عن رواية لألفونس كار :

Bernardin de Saint-Pierre : Paul et

(٤) نقل عن رواية لبرناردان دي سان بيير :

Virginie .

٤ الكاتب الاجتماعي : أحس المنفلوطي احساساً مرهفاً برسائله الاجتماعية وقام بها بإخلاص لم تعادله الطاقة والكفاية . لانه لا بد للكاتب الاجتماعي من نظر صائب الى الواقع فيرى النقص والخلل ولا يغفل عن الحسنات .

وقد غشى على بصيرة المنفلوطي طبع 'جبل' على التشاؤم، فلم يرَ من المجتمع سوى الناحية الكئيبة الاليمية ومآسي الحياة الاخلاقية المفجعة، فسيطرت على اجتماعياته مسحة التشاؤم، وأسرف في تسويد صفحة المجتمع المصري، فأضرَّ من حيث اراد النفع ولم يسكب على الجراح التي نكأها بلسم التشجيع والتفاؤل . ولا بد للكاتب الاجتماعي من ثقافة واسعة، ودراية بنفسية الشعب كبيرة . وقد كان المنفلوطي محدود الثقافة، لا يتعدى مطالعة الاسفار الادبية الا الى قراءة بعض الصحف والمجلات، صادق الايمان بدينه ولكن الى حد الاستهتار بغيره من الاديان، سطحي التفكير ينقاد الى الحيرة الشخصية دون ان يهذبها بالطرق العلمية، فيوالي العاطفة المريضة ولا يحكم العقل الصحيح . الا انه كان مخلص النية يرمي الى الاصلاح القومي والديني بكل ما احرز من صفات النفس والقلم، فقاوم العادات الغريبة التي تدخل جراثيم الفساد الى الشرق، ودعا المسلمين الى النهضة والتحرر، وعطف على المرأة، ووصف وصفاً أليماً ما رآه من مفاسد العصر وشور المجتمع .

٥ الكاتب القصصي :

١ - هدفه : لم تكن القصة في نظر المنفلوطي سوى وسيلة للبلوغ الى اصلاح المجتمع، على الخطة التي رسمها لنفسه . ولذا نراه يستوحي موضوعاتها من وقائع الحياة المتأللة ومعتك العواطف المضطربة، ويرسم مشاهد الحب والشقاء، واليأس والموت، وما تحدثه فوضى الاخلاق من فواجع ومآسٍ . وقد عمد الى الادب الفرنسي ينقل عنه مشاهد الحب الشريف والبطولة الرائعة والطموح النبيل . ولم يذهل في رواياته المنقولة عن غايته الاجتماعية، وتصرف فيها فجاءت صورة لنفسه وحاجات المجتمع .

٢ - فنه القصصي : لم تتوفر المنفلوطي في ثقافته المحدودة العناصر التي تجعله

يأتي بأدب قصصي حق . فكان في قصصه خالياً من التحليل والمتعة، غير مروض على اساليب المفاجأة والحبك والتشويق . قرباً موقف حافل بالنتائج العاطفية ينتهي اليه المنفلوطي فيوجزه بعبارة باردة مقتضبة . الا انه يجيد احياناً في سرد الاخبار القصيرة، ووصف الشقاء وصفاً مادياً يعينه في ذلك اختباره الشخصي ورقة قلبه .

٦ أسلوب المنفلوطي : من الكتاب من تركز شهرتهم على عمق التفكير وجودة المعاني وجدتها مما يضمن لهم النفوذ في عصرهم والخلود في العصور التالية في الادب العالمي . ومنهم من تتجلى براعتهم في الاسلوب الكتابي فيكون اثرهم وقتياً وشهرتهم عارضة ومؤلفاتهم ملكاً لامتهم اذا نُقلت الى لغة اخرى اضمحلت قيمتها . وكان المنفلوطي ممن كتبوا لأمة دون اخرى وامتازوا بالاسلوب لا بجوهر المعاني . فكفل له هذا الاسلوب تقدير معاصريه ولكنه لم يرفعه الى القيم الانسانية الخالدة .

ولا شك ان المنفلوطي قد عثر على اصول هذا الاسلوب في الادب النثري العباسي . حيث تجلّى له سرّ الجمال في اطراد العبارة المقفّعة، وموسيقى العبارة الحميدية، وطبيعة السياق الجاحظي . فاعتمد تلك الصفات وأضاف اليها ما اوحى به شخصيته وموضوعاته من توقيع حزين في المواقف الاليمية، ونبرة خطابية في مواقف التحريض، وتشابهه وصور متترعة من قلب الطبيعة الانسانية والجمادية .

والمنفلوطي يكتب بقلبه وعقيدته . فكان انشاؤه مشبعاً من نفسيته وعاطفته الرقيقة . وكانت كل عبارة من عباراتها تحني طيًّ توقيعها الشجي وموسيقاها المختلجة فلذة من قلب ذاك الرجل الوفي المخلص الذي وقف على وطنه ومجتمعه ودينه حبة وجهوده . ولذلك ابقى اسلوبه، على ما فيه من بعض الهفوات والعيوب، اثرأ عميقاً، فكان حجة على الذين يرمون النثر العربي بالجمود، وغوذجاً جرى عليه جماعة من النشء المثقف . وقد فتح باباً جديداً في الكتابة يروق النفس العربية الحديثة .

بعض المراجع

- فؤاد البستاني : ولي الدين يكن - الروائع
 درويش محمد درويش : ولي الدين يكن - الكتاب - السنة ٤ الجزء ١ ص ٧٠٩
 انطون الجميل : مقدمة ديوان ولي الدين يكن - ١٩٢٤
 كامل محمد عجلان : مع الشاعر الحر ولي الدين يكن - الاهرام ١٩٣٧/٩/٥
 شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي - القاهرة ١٩٤٦
 مصطفى زيد : أدب مصر الحديث - القاهرة ١٩٤٩

موضوعات للبحث

- ١ - قال ولي الدين يكن : « إن اعرض عن مقالي اهل زماني فقد يتهافت عليه ابناؤهم » . ما رأيك في هذا القول ؟
- ٢ - اظهر شخصية ولي الدين يكن في اسلوبه الكتابي .
- ٣ - قال العقاد : « لقد كان المنفلوطي احدا اولئك الادباء القلائل الذين أدخلوا « المعنى والقصد » في الانشاء العربي ، بعد أن ذهب منه كل معنى ، وضلّ به الكاتبون عن كل قصد » . ناقش هذا القول .
- ٤ - قيل : « ان ادب المنفلوطي لم يتعدّ المادة اللفظية » . ناقش هذا القول .
- ٥ - هل تقرأ المنفلوطي لمتعة نفسك ام لمنفعة قلمك ؟

مشاهير الادباء — النثر الفني

الفصل العاشر

سليمان البستاني (١٨٥٦ — ١٩٢٥ م / ١٢٧٣ — ١٣٤٤ هـ)

١ **حياته :** وُلد سليمان البستاني في بكشتين وحصل ثقافة واسعة، أكملها بأسفاره .
سالم في تصنيف دائرة المعارف . وعرب الياذة وشرحها . وانتخب نائباً عن ولاية بيروت
في الآستانة . زار عواصم أوربة لتوثيق العلاقات بين الدولة العثمانية والدول الغربية . ثم
انسحب من المناصب الحكومية بعد ان حاول عبثاً ردع الدولة عن الاشتراك في الحرب الكونية .
أصيب بعلل في جسمه وعينه، فسافر الى سويسرة . وانهى حياته مكرماً في اميركة .

٢ **شخصيته :** كان رجل العلم والثقافة، ورجل الادب الذي يتذوق فنونه في العربية
وفي اللغات الاخرى، ورجل المروءة .

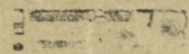
٣ **آثاره :** مقطوعات شعرية اهمها : الداء والشفاء . وتعريب الياذة مع شروحاتها
ومقدمتها . المقدمة تتضمن خمسة أبواب تبحث في المعضلة الهوميرية، وفي الياذة، وفي قصة
تعريبها، والياذة والشعر العربي، ثم الخاتمة . الياذة ملحمة يونانية في موضوع حرني وطني
يرجع الى مسألة خطف امرأة واسترجاعها . اما شرح الياذة فهو آية في الدقة واتساع الآفاق،
والشمول .

٤ **الناقد :** قيمة نقد البستاني ترجع الى اطلاعه الحقيقي الذي جعل في شروحه كنزاً
من المحفوظات الادبية، والاستشهادات الاجنبية، والى اعتنائه بالدقة والوضوح، والموازنات
والامثال ؛ واخيراً الى ذوقه النقدي في نزعه العلمية وشعوره بالفن .

١ **مبارة :** وُلد سليمان في بكشتين، من لبنان، سنة ١٨٥٦، ودرس العربية
والسريانية في المدرسة الوطنية في بيروت، وحصل بجهد الشخصي،
إطلاً على الانكليزية، والفرنسية، والالمانية، واليونانية، والايطالية، والاسبانية،
والبulgارية، والهنغارية، والبرتغالية . ودرس الرياضيات والكيمياء والحقوق، والزراعة
والتجارة، وعلم المعادن، والاجتماع .



سليمان البستاني



الى بغداد، وتزوج هناك بامرأة كلدانية من ذوات الإثراء .

وأقام بعد ذلك في مصر حيث عقد النية على تعريب الياذة . فشرع في عمله سنة ١٨٨٧، وصار يرجع اليها كلما فرغت يده من عمل وهي ترافقه في اسفاره على « رؤوس الجبال، وعلى متون البواخر وقطارات سكك الحديد » وهو يتزود لها، في كل بلد نزل، بالاستفادات والارشادات اللازمة . وفي صيف ١٨٩٥، انتهى من التعريب، وهو مع عيلته، في ضواحي الآستانة . وأعقب على عمل التعريب عمل الشرح والتذييل، وهو آية في الدقة والشمول، والفائدة . وفي اواخر ربيع ١٩٠٣ فرغ من المعجم والمقدمة وطبع الكتاب سنة ١٩٠٤، وأهداه الى ابيه خطار سلوم نادر البستاني .

ولم تكن الياذة لتعوق البستاني عن خدمة بلاده . فكان دائم الاتصال بشخصيات ذلك العهد، يتتبع الحركات السياسية، ويحاول المشاريع الاصلاحية، ويتابع تجولاته في البلاد الغربية، رغبة في استقراء المعارف النافعة لبلاده . فشاع صيته وارتفع قدره . وبعد إعلان الدستور العثماني، سنة ١٩٠٨، نشر كتابه « عبرة

وذكرى « وضعته، ذكريات الماضي المحلوك، وآمال المستقبل المشرق . وساعد الكتاب على إقرار قيمة كاتبه في نفوس مواطنيه، فانتُخب نائباً عن ولاية بيروت في الآستانة . ثم انتُخب رئيساً ثانياً لمجلس المبعوثان . وقد استغلت الدولة رجلاً هذا، وما خبرته فيه من ذكاء وحسنة وإخلاص، لتوثيق الصلات بينها وبين الدول الأجنبية . فزار عواصم أوربة، وخطب في انديتها ومجالسها، وجامعاتها، ونال ثناء الخاصة وأعجاب ذوي الوجاهة .

وقد عرضت عليه الدولة، غير مرة، تولي بعض الوزارات فكان يرفض دائماً . إلا أنه رضي سنة ١٩١٣، بأن يتولى وزارة الزراعة والتجارة . وحاول أن يصدّ الدولة العثمانية عن الاشتراك في الحرب، فلم تفلح مساعيه . فانسحب من الوزارة، وقصد سويسرا للاستشفاء من علّة ألمت به . وبعد انتهاء الحرب، عاد الى مصر، حيث أجريت له عملية في عينيه، لم تنجح . وفي سنة ١٩٢٤، رحل الى اميركة، حيث تمتع بحفاوة أبناء المهاجر واجلال الامير كمين . وأبت عليه الايام إلا أن تتقاضاه سهر الليالي، ومواصلة الكد، فكفّ بصره، ولكن لم تكف بصيرته، ولم ينضب معين ثقافته وحكمته، فاصبح بيته الاميركي محجة الاصدقاء وطلاب العلم الى ان توفي في حزيران سنة ١٩٢٥، وله من العمر ٦٩ سنة .

٢ شخصية البستاني : كان البستاني رجلاً ذا عقل واسع وذكاء نادر، وذا كورة عجيبة وافقت ما فيه من ميل شديد الى المعرفة والاطلاع، فحصل بكده ثقافة الغرب والشرق وقد اتته تلك الثقافة عن طريق اربع عشرة لغة كان يتقنها، وكان البستاني الى ذلك رجل المروءة وحسبنا ان نلقي نظرة على رسمه لتتجلى لنا نفسية رجل، قرارها مزيج من وداعة وجوأة. فني نظره المحجوب يتجلى عطفه على الشرق وطنه الكبير، ولبنان وطنه الاصغر، وتلك القرية الصغيرة التي لم يزل ذكرها الوضع يحاذنه حتى في ألمع لحظات حياته . وكان كل خط من خطوط ذلك الوجه العميق الهادي، يشهد بالمصاعب التي اعترضت حياة الرجل الفردية والاجتماعية، والتي واجهها بعزم ثابت، وشهامة

تضحي بكل عزيز في سبيل الحق . فن عاطفة الشفقة على الانسانية المتألمة ،
وعاطفة الاقدام على انتشار البشرية من رزاياها، تتألف المروءة في نفس البستاني .

٣ آثار البستاني : للبستاني، فضلاً عن تعريب الالياذة، ومقدمتها، وشروحها،
ادب شعري لم يبق منه سوى بعض القصائد الاخلاقية او
الفلسفية، اشهرها : « الذنب والغفران » ؛ « الداء والشفاء » ؛ « الخيبة والرجاء » ؛
« اخليانة والوفاء » ؛ « الترك والعرب » . وله في السياسة والاجتماع كتاب « عبرة
وذكري » وفي تاريخ العرب كتاب مطوّل لم يطبع بعد . وقد كتب رحلاته الى
حين اعلان تأليف دائرة المعارف . وسنقتصر، في درسنا، على الالياذة، تعريبها
وملاحظاتنا .

هذه دروس

١ - مقدمة الالياذة : تستغرق المقدمة ٢٠٠ صفحة من المجلد ؛ وهي ابواب
متتابعة، موضوعة لغرض واسع الاطراف، وهو البحث في كل المسائل التي تمت ،
بصلة قريبة او بعيدة، الى الالياذة . وتتجمع كل تلك الابحاث حول ابواب خمسة
رئيسية : ١ - هوميرس ؛ ٢ - الالياذة ؛ ٣ - التعريب ؛ ٤ - الالياذة والشعر
العربي ؛ ٥ - الخاتمة . وها اننا نتناول كل باب بشيء من التفصيل :

١ هوميرس : بحث البستاني في حياة هذا الشاعر، مما يتصل بنسبه ونشأته،
واسفاره، وموته، وما يعترض دراسته من اختلاف آراء في تاريخ ظهوره، ومزله،
عند القدماء وعند المتأخرين، وعند العرب . وقد عرض البستاني لمنظومات هوميرس
تاريخاً، ومعارضة، ودرساً .

٢ الالياذة : يتضمن هذا الباب بحثاً شاملاً دقيقاً، في المسألة الالياذية، يرجع
الاديب من قراءتها، بمحصول ثقافي واسع، واطلاع مسهب على موضوع الالياذة،
وطريقة نظمها وتناقلها، وحفظها على يد المنشدين والحفاظ، وكيفية جمعها وكتابتها .
وبستاني لا يحجم في هذا البحث عن معالجة قضايا خطيرة فيما يتعلق بصحة الالياذة،
وتحريفها، مُلمّاً بآراء اشهر الاخصائيين بالمنظومات الهومييرية ؛ مضيفاً اليها رأيه

الخاص، وبراهينه التي تدعم نظريته . وبعد الانتهاء من هذه الدراسات التمهيدية، يتناول المنظومة بدرس موضوعي يتناول الاشخاص والامكنة وقيمة الاليادة الفلسفية، وعلاقاتها بمعارف عصرها، من طب، وفلك، وحرب، وسياسة، ودين وصنائع . ويختم البستاني هذا الباب بعرض الاسباب التي عملت على خلودها ونشرها، واسباب اغفال العرب لها وعدم نقلها الى لغتهم .

٣ التعريب : هذا الباب بحث في قضية التعريب وما سبقها من بواعث، وما صاحبها من عقبات ومحاولات، وما طرأ عليها من تقلبات المكان والزمان، وما اقتضته من جهود متواصلة، في سبيل تفهّم الاصل، وتعليق الشروح الطويلة عليه . وقد استطرده المؤلف الى دراسات قيمة في اصول التعريب، وطرقه عند العزب عامة، ومسلكه الخاص في تعريب الاليادة، والذرائع التي اتخذها للحفاظ على الاصل، واجتناب الكلام المغلق، واسلوبه في نقل الالفاظ التي لا مرادف لها في العربية، والاضاف المركبة، والاعلام، والحروف التي لا تتجانس في اللغتين . وقد انتقل الى مسألة هامة : وهي طريقة التعريب نظاماً، ثم انتقل الى خصائص الشعر، وهناك دراسات شخصية لاوزان الشعر وقوافيه، وتناسب القوافي والمعاني، وتناسب الاوزان والمعاني الى غير ذلك من ملحقات عرضية كثيرة .

٤ الاليادة والشعر العربي : في هذا الباب كل ما جمعه الكاتب من جليل المعلومات ودقيق الملاحظات، وكثير المحفوظ من ادب العرب وتاريخه ومزايه من يوم ظهوره الى عهد عكاظ والقرآن، الى العهد الاموي والعهد العباسي في جميع اطواره . ويتخلّل هذا الدرس كثير من الشواهد الشعرية، والمقابلات بالادب اليوناني، والنظريات الصائبة، ودرس خاص بأساليب المولدين وعلومهم اللغوية والبيانية، وينتهي بكلام في الملاحم عند الاجانب وعند العرب .

٥ الخاتمة : يختم البستاني مقدمته بإطراء الشعر، والتنويه بمنزلة الشعراء عند العرب وعند غيرهم من الشعوب . ثم يستطرده الى خصائص اللغة العربية ولاسيما في ملاستها للمعاني الشعرية، ومطاوعتها لأداء المعاني الهوميرية، واتساع ثروتها اللفظية .

٢ - الالياذة : الالياذة أثر شعري من آثار هوميروس الشاعر اليوناني، تتألف من زهاء ستة عشر ألف بيت، موزعة على أربعة وعشرين نشيداً . وضعها صاحبها في وصف حادثة حربية وطنية مفادها ان فارس بن فريام ملك طروادة، نزل ضيفاً عند منلاوس ملك اسبرطة . وكان لمنلاوس امرأة جميلة اسمها هيلانة، أحبها فارس وأغراها بمرافقته الى بلده . فثار منلاوس مع مواطنيه، وهبوا الى محاربة طروادة . وحدث خلاف بين أغاممنون، قائد الحملة الاغريقية، وأخيل اعظم قواده . فاعتزل أخيل الحرب، تاركاً أمته عرضة للانكسار . ولما توالى الحن على الاغريق، فسح أخيل لفطرقل صديقه الحميم، بمعاونة الاغريق فقتل . فهب أخيل للأخذ بثأر صديقه ودحر جيش الطروادة؛ وفتحت المدينة بعد حصار دام عشر سنين .

ويتخلل هذا الموضوع كثير من وصف الحوادث العرضية، والاحوال المعاشية، والبلدان والعوائد والصناعات والعلوم مما جعل الالياذة شبه دائرة معارف عصرها . وفيها من الجمال الشعري والقيمة الادبية، والعاطفة الوطنية، والتعاليم الانسانية الشاملة، ما رفعها الى مستوى الشعر الخالد . ولم يكن سليمان البستاني ليغفل عن قيمة هذه الرائعة العالمية، فنقلها الى العربية شعراً مختلف الاوزان والقوافي، متوخياً في تعريبه الدقة والامانة . وقد باشر تعريب الالياذة في بدء الامر عن ترجمات مختلفة باللغات الاوربية الحديثة، إلا انه ما عثم ان انصرف عن تلك الترجمات الى اتقان اليونانية، حتى تكون ترجمته مقاربة قدر الامكان، للنص اليوناني . واتخذ مقاييس وخططاً جديدة في طرق التعبير عن المدلولات اليونانية، والاسماء الاعجمية . وفتح ابواباً جديدة في النظم الشعري سالكاً في ذلك مسلك اصحاب الموشحات . فكانت ترجمته ذات قيمة ادبية كبيرة وان لم تخل من تعقيد احياناً، ومن اضطراب في سير الشعر وسلاسته .

٣ - شرح الالياذة : لا بد لقرء الالياذة من شروح وافية تعينهم على تفهم غامضها، وتقدير قيمتها . أما الغموض فقد تلافاه البستاني بشرح المعاني المستغلقة، والاسماء الجغرافية، والعادات الحربية والاخلاقية، وبسط كل ما يتعلق بجغرافيات اليونان

وعقائدهم وآهتهم . واما قيمة الاليادة فقد اوضحها البستاني بما أقام من مقابلات بين الادب اليوناني والادب العربي بالنظر الى المعاني وطرق التعبير، وبما أورده من تفصيل للعوائد اليونانية والعربية ومن أساطير ونوادير، وبما بسطه من آراء ونظريات في الحالات الاجتماعية والقضايا الفلسفية .

٤ - الناقد : 'يعدّ نقد البستاني مرحلة في تاريخ نهضة النقد العربي وذلك لما تحلّى به ذلك العالم من مزايا الناقد الحقيقي .

١ اطلاع حقيقي : البستاني أبعد ما يكون عن الناقد المحدود الآفاق، المغتبط بزهد معلوماته ورقيق ثقافته، وهو في طبيعة علمائنا الحقيقيين، الذين لا توقفهم مشقة في سبيل الاطلاع على ما هم بحاجة اليه من معلومات؛ واطلاعه ظاهر في ما علّقه على تعريبه للاليادة من شعر استقاه من آثار مثنى شاعر تقريباً، ومن نوادر واخبار ومعلومات تشمل العرب واليونان؛ وهو ظاهر ايضاً في ما استشهد به من شعر لاتيني وانكليزي وفرنسي . وفي ما عارض به آراء النقاد العالميين، وفي وصفه للمواضع الجغرافية والعوائد الاهلية، ومعالجته للقضايا الاخلاقية والعلمية، بمقدرة وبرهان .

٢ تحري الدقة والوضوح : لا يكتفي البستاني، في أبحاثه، بالاحكام المجملّة الغامضة بل يتحوّى الدقة ولا يتأخر في سبيلها، عن تصفّح المجلّدات والاسفار الكثيرة، وربما قرأ الكتاب كلّ طمعاً ببيت واحد يستشهد به . ولا شك أن اطلاعه الواسع قد يسّر له التوكّؤ على اعمال غيره من رجال العلم والادب، فدعم احكامه بأحكام غيره، رغبة في الحصول على الثقة النقدية . وهو يُعنى بالوضوح كما يعنى بالدقة . فلا تكاد تجد صفحة خالية من موازنات وامثال تنير ما يأتيه من أحكام .

٣ الذوق النقدي : الذوق من اهم عناصر النقد . وذوق البستاني تغلب عليه النزعة العلمية الفلسفية . فيدرك الشعر الهومييري في نزعاته الفلسفية ومظاهره الاجتماعية

وينتبه الى الفروق التي تفصل بين الادب اليوناني والادب العربي، والمواضع التي يتواطأ عليها . ويجب التبحر في أغراض تاريخية، ولغوية وأخلاقية . إلا أن نقده لا يخلو من ملاحظات ادبية بحتة ، وشعور دقيق بالفن الادبي .

بعض المراجع

- سليمان البستاني : الياذة هوميرس - القاهرة ١٩٠٤
 جرجي نقولا باز : سليمان البستاني - بيروت ١٩٢٥
 نحائيل صوايا : سليمان البستاني - الياذة هوميرس - بيروت

موضوعات للبحث

- ١ - قيل : ان مقدمة الياذة افادت الادب العربي بقدر ما افادته الياذة نفسها . فما رأيك ؟
- ٢ - هل كان لمقدمة الياذة اثر في توجيه النقد الحديث ؟
- ٣ - هل من أثر لشخصية البستاني في مقدمة الياذة وشرحها ؟

مشاهير الادباء — النثر الفني

الفصل الحادي عشر

جبران خليل جبران — امين الريحاني

أ — جبران خليل جبران

١ **حياته** : وُلد جبران في بشراي وانتقل مع والدته الى بوسطن سنة ١٨٩٥، ثم رجع الى بيروت ودخل مدرسة الحكمة، ثم قصد باريس واتصل فيها بمعاهد الرسم . وفي سنة ١٩١٨ نشر اولى مقالاته باللغة الانكليزية . وفي سنة ١٩٢٠ ألف الرابطة القلمية مع بعض رفاقه . وقد توفي مسلولاً .

٢ **آثاره** : من آثاره « النبي » و « يسوع بن الانسان » .

٣ **جبران الكاتب الاجتماعي** : كانت الأثرة والشهوة اساس اجتماعيات جبران .

١ — **جبران والدين** : انكر جبران جميع الديانات وكان هو « رب نفسه » . واتبع مذهب التقمص .

٢ — **جبران والهيئة الاجتماعية** : ينكر جبران السلطة في الامور الدينية وفي الامور المدنية وفي الاسرة البشرية .

٤ **جبران المفكر** : جبران مفكر ولكن تفكيره تسيطر عليه العاطفة فلم يلزم حدود الرصانة . وكان موقفه سلباً لا ايجابياً .

٥ **جبران الكاتب** : كان جبران مصوراً اكثر منه كاتباً ؛ وكان شخصياً في اسلوبه العذب المبلور .

ب — امين الريحاني

١ **حياته** : وُلد في الفريكة ثم هاجر الى نيويورك، واشتغل بالتجارة، ثم درس الحقوق، وتنقل بين اميركة ولبنان مصنفًا بالعربية والانكليزية حتى توفي .

٢ **آثاره** : كتبه من أهمها « ملوك العرب » و « تاريخ نجد الحديث » و « قلب لبنان » .

٣ **الكاتب الاجتماعي** : يريد الريحاني تحرير الفرد من الجهل والتعصب، وتحرير البلاد من الاستعمار، والجمع بين الشرق والغرب .

٤ **الرحالة المؤرخ** : قام الريحاني بعدة جولات في البلاد العربية ودون ما رأى وسمع . وقد امتازت مؤلفاته التاريخية بدقة الملاحظة، وصحة الاخبار، واللباقة في سرد الحوادث، وإن لم تخل من اوهام واستطراد .

٥ **اسلوبه الانشائي** : للريحاني اسلوبان : اسلوب ادبي فني، واسلوب علمي جاف . اما الاول فحافل بالسلاسة والانسجام، واما الثاني فحافل بالفكاهة يتنوع بتنوع الموضوعات .

جبران خليل جبران (١٨٨٣ - ١٩٣١ م / ١٣٠١ - ١٣٥٠ هـ)

١ حياته : وُلد جبران سنة ١٨٨٣ في بلدة ^{بشري} بشري في شمالي لبنان من أم

صاحبة تقية واب قليل الشغف بالدين وبرجال الدين، مُولع بشرب

الخمر . وقد سافرت كاملة رحمة والدته جبران سنة ١٨٩٥ برفقة اولادها الى بوسطن

من اعمال الولايات المتحدة، وهناك درس جبران فن التصوير على نفسه وعلى بعض

المصورين . ثم رجع الى بيروت ودخل مدرسة الحكمة حيث قضى اربع سنوات

ثم قصد باريس سنة ١٩٠٨ واتصل فيها بمعاهد الرسم والتصوير، ومكث هناك نحو

ثلاث سنوات زار خلالها رومة وبركسل

ولندن وغيرها من عواصم الحضارة

والفن . وفي باريس تتلمذ على « اوغست

رودن » الذي قاده الى معرفة آثار

ومؤلفات « وليم بلايك » الفنان

والشاعر الانكليزي (١٧٥٧ - ١٨٤٧)

فوقع جبران تحت ^{تأثيره} تأثيره

بوما إن عاد الى نيويورك حتى اطلع

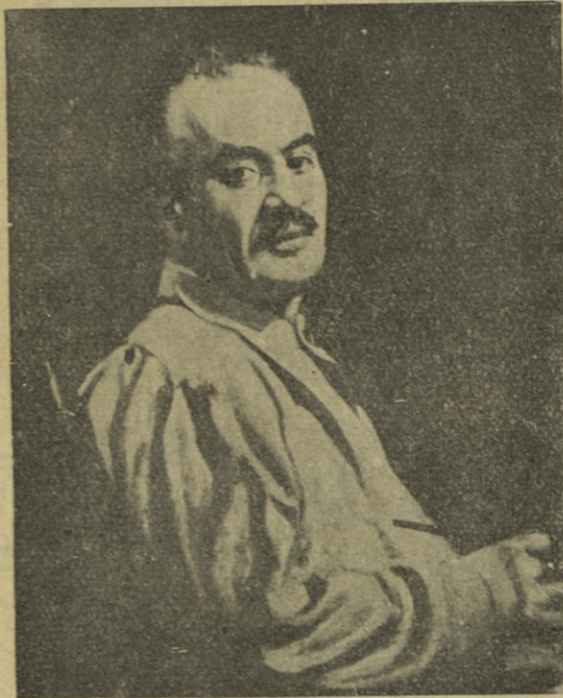
على بعض كتب نيتشه فأعجب بفلسفته

وآرائه وأخيلته، وراقه مذهب القوة

عنده . وقد اضطرب جبران في

هذا الطور من حياته بين شخصيتين :

شخصية تأخذ بالقوة وتثور على



جبران خليل جبران

العقائد والدين؛ وشخصية تتبع الاميال وتحب الاستمتاع بالحياة . فكان - على حد

قوله - « يميل الى الهدم ميله الى البناء . فهو صديق الناس وعدوهم في وقت

واحد » . وقد ظهرت شخصية الاستمتاع في كتابيه « الاجنحة المتكسرة » (١٩١٨)

و « دمة وابتسامة » (١٩١٣) وظهرت شخصية الثورة في كتابه « الارواح المتمردة » .

وفي سنة ١٩١٨ نشر اولى مقالاته باللغة الانكليزية في مجلة « الفنون السبعة »
ومما نُشر له فيها تجتمع كتابه « المجنون » .

وفي ٢٠ نيسان سنة ١٩٢٠ أَلَفَ ورفاقه ميخائيل نعيمة، نسيب عريضة، عبد
المسيح حدّاد، وليم كتسفليس، رشيد ايوب، ندره حدّاد، الرابطة القلمية .

وفي سنة ١٩٣١ قضى عليه داء السلّ بعد حياة مليئة بالكفر والاحاد واندفاع
وراء الشهوات الجسدية . وقد قال مخاطباً نفسه : « لقد نجرتُ حُبَّك على مذبح
شهوَتك يا جبران ! انت مصاب بداء الكلام يا جبران . ولانك تحجل من كل
ما فيك من ضعف بشري تعكف عليه فتستره بجلمة من الكلام الجميل والالوان
البهجة . والكلام الجميل لا يرفع الشناعة الى مستوى الجمال . والالوان البهجة
لا تصبغ الضعف قوّة . وقولك ان الحبّ هو الله لا يجعل الشهوة الجسدية إلهاً ولا
الذّة الحيوانية ناموس الحياة » .

٢ آثاره : من آثار جبران في اللغة العربية : « دمعة وابتسامة » ، و « الارواح
المتردة » ، و « الاجنحة المتكسرة » ، و « عرائس المروج » ،
و « العواصف » ؛ ومن آثاره في اللغة الانكليزية : « النبي » ، و « المجنون » ،
و « رمل وزبد » ، و « السابق » ، و « يسوع بن الانسان » .

٣ جبرانه الكتاب الاجتماعي : رأى جبران في المجتمع عيوباً، ورأى خرافات
كثيرة تعمي بصائر كثير من الناس، ورأى في
الشعب تقاليد ضيقة ولم يرقه استئثار الكثيرين من اغنياء الارض بالخيرات، واتخاذ
الكثيرين من رؤسائها واربابها السلطة والزعامة ذريعة للظلم والاستبداد . وكان
رجلاً شewanياً وكان، على حدّ قول الاستاذ مارون عبود، « الحب الانساني الماديّ
أنشودة جبران ... وحب اللحم والعظم هو القطب الجبراني وعليه تدور رحاه
الطاحنة ... » . فاصطدمت شهوته ونزعاته المادية بالسلطة وبالآداب العامة، فنثار
فيه نثار السخط واراد التحرر، وامتزج حبه لذاته بحبه لبلاده التي اراد لها الحرية ،

ورأى حريتها من خلال ثورته وثورة شهواته . وهكذا كانت الاثرة والشهوة
 اساس اجتماعيات جبران ؛ ولهذا امتزجت آراؤه الصائبة بأضاليل كثيرة
 ولم يلزم حد الرصانة في اقواله، ولم ينحُ منحى التعمق العلمي الهادى ؛ وقد صبغ
 اقواله بأصباغ زاهية من صنع الخيال والعاطفة، فاستمال بهذه الالوان البراقة القلوب
 الضعيفة وغذى أميالها .

١ - جبران والدين : انكر جبران جميع الديانات، وإن كتب احياناً

عن المسيح صفحات رائعة . ويسوع جبران يختلف تماماً عن يسوع الانجيل ؛ فسيح
 جبران هو رجل كسائر الرجال، هو شاعر على مثال جبران، رجل عاطفة واحلام،
 لا فرق عنده بين الخير والشر والايان والكفر . وقد هزأ جبران بمعتقدات الديانة
 وجعل مساواة بين الكفر والايان ؛ وكانت آلهته كثيرة ألا انه لم يجعل بينها لله
 الحقيقي محلاً، بل كان هو رب نفسه فقال : « انا رب نفسي »، فعبد ذاته واهواه
 وتعمد حب المرأة . اما الحياة الاخرى فقد قال فيها اقوالاً غامضة متناقضة، واتبع
 مذهب التقمص . وهو مع كل ذلك يظهر احياناً ديناً ويرسل الاقوال الصوفية ،
 « وما إغراقه في الصوفية - على ما قال الاستاذ مارون عبود - إلا رجاء الخلود في
 حضن المادة والتنقل من حال الى حال ليظل يتمتع بمباهج الحياة وملذاتها » .

٢ - جبران والهيئة الاجتماعية : الهيئة الاجتماعية مبنية على وجود نظام طبيعي

لعلاقات البشر بعضهم ببعض . وهذا النظام لا يقوم الا على السلطة . وجبران
 يشور على ذلك النظام ويعمل على هدمه فينادي بان لا شريعة ولا سلطة لا في
 الامور الدينية، ولا في الامور المدنية، ولا في الاسرة البشرية . فهو ينفي كل
 ناموس حتى الناموس الطبيعي، والمحبة عنده هي الحرية الوحيدة، وهو يريد « ان
 يتحرر من عبودية الشرائع والنواميس التي سنتها التقاليد لعواطف القلب البشري
 ويقف برأس مرفوع امام عرش الآلهة » . وقد نبذ جبران كل سلطة زمنية وهو
 يود لو اتحت الممالك والامم جميعاً وجال الانسان في الارض حراً طليقاً، فان
 « الارض ضيقة ومن الجهل ان تنجزاً الى ممالك وامارات » وهو، مع حبه لوطنه،

ينكر الوطنية نفسها وحق الذود عن حياض الوطن، ويريد الاشتراكية وان يشترك الجميع في المقتنيات .

وهو ينبذ شريعة الزواج، وينكر سلطة الوالدين على الابناء .

٤ جبران المفكر : لاشك ان جبران مفكر ومن اكبر المفكرين فألقى احياناً بالرائع من الاقوال ولا سيما في كتابه « النبي » حيث بسط بعض التعاليم الجميلة بل السامية . ومما يؤسف له ان هذا العقل الكبير قد استعبدته العاطفة، وجمع به الخيال الشعري المجنح، فلم يتزع الا متزع الثورة، والثورة من طبيعتها تتخطى الحدود . ولئن انتقد المجتمع فلم يعمل على اصلاحه ولم يرد فيه الا الهدم فكان موقفه في اكثره سلبياً لا إيجابياً، وهذا الموقف دون الموقف الايجابي صعوبة ودقة .

٤ جبران الكاتب : اوتي جبران خليل جبران خيالاً عجباً غذاه بروح شرقية صوفية، وبعاطفة متقدمة، وبألوان مقتبسة من الكتاب المقدس، فكان في تعبيره مصوراً اكثر منه كاتباً، « وكأنا كتب بريشة المصور لا بقلم الكاتب » . وقد اجاد في تصويره ولم يكن من اولئك الكتاب او الشعراء الذين قصروا كلامهم على مجموعة من القوالب والعبارات المبتذلة الجارية على كل لسان بل غرّف من قرارة نفسه، وابتدع بقوة قريحته صوراً تجلت فيها ذاتيته . واكثر صوره مستمد من الفجر والظلام والنور .

وانشاء جبران ناعم يسيل كالينبوع العذب، ويسحر بموسيقاه، ويبهل العين بالوانه الرائعة، والفاظه المبلورة . وهكذا كان جبران خليل جبران زعيم ادب المهاجر، واول من سلك هذا الاسلوب السحري المبلور في الادب العربي، وان كانت كتابته لا تخلو منثرة كثيرة ولين في التعبير .

ب - امين الريحاني (١٨٧٦ - ١٩٤٠ م / ١٢٩٣ - ١٣٥٩ هـ)

١ هبانه : وُلد الريحاني بقرية الفريكة من اعمال جبل لبنان، وتلقن مبادئ العربية والفرنسية في مدرسة بجوار بلدته . ثم هاجر الى نيويورك مع ذويه،



امين الريحاني

ودرس مبادئ الانكليزية في احد
المعاهد . واشتغل حيناً بالتجارة
وتعاطى التمثيل مع فرقة اميركية
واخيراً لزم دراسة الحقوق سنة في
جامعة نيويورك . ولكن توءك
صحته قضى عليه بالرجوع الى لبنان
فأتم فيه ثقافته العربية . ثم عاد الى
المهاجر وسعى وراء الشهرة عن سبيل
الطعن بالدين وأربابه . ونبه ذكره
في الاوساط الاميركية بعد نقله
رباعيات المعري الى الانكليزية .
وما زال يتنقل بين اميركة
والفريكة ، ويصنف بالعربية

والانكليزية، ويقوم برحلاته الى بلاد العرب (سنة ١٩٢٢) وبلاد المغرب وجهات
لبنان، يلقي المحاضرات والخطب، ويتصل بقيادة الفكر، حتى وافته المنية سنة ١٩٤٠
فدفن في مسقط رأسه .

٢ آثاره : الريحاني كاتب خصب الانتاج . فقد ترك بالانكليزية مصنفات كثيرة
في الشعر والتاريخ والاجتماع . اما آثاره العربية فأهمها : « ملوك
العرب » في جزأين ؛ و « تاريخ نجد الحديث » ؛ و « قلب العراق » وقد دون في هذه
الكتب ما سمع ورأى في بلاد العرب ؛ و « الريحانيات » وهي مجموعة من المقالات
والخطب والشعر المنشور ، تقع في عدة اجزاء ؛ و « قلب لبنان » وهو وصف
الرحلات التي قام بها الريحاني في وطنه ؛ و « انتم الشعراء » وقد حمل فيه الكتاب
على الادب الباكي ؛ و « التطرف والإصلاح » في الاجتماع .

٣ الكاتب الاجتماعي : عرف الريحاني لبنان رازحاً تحت حكم الاتراك، بعيداً

عن مظاهر المدنية الحديثة، وعرف اميركة بلاد الديمقراطية

والطموح والحضارة، فتفتحت فيها رثاه لهواء الحرية يستنشقه بلذة وإمعان، فأضحى

« وأكره شي. لديه الضغط والتقييد »، « وأمنيته الجوهرية الاولى هي ان يكون حراً

فيما يحب ويكره ». وقرأ في مطالعته كتب فولتير وروسو وابي العلاء دعاة الثورة

الاجتماعية والدينية، فعصفت في صدره الحمية واصبح يؤمن « ان الأمة التي تحوز

عباب الثورة تكسب قوة ادبية وروحية توازي بل تفوق ما خسرت من القوى

المادية ». واندفع في ضلاله، فاعتد كل أمور الدين خرافات واوراماً ما عدا الاعتقاد

بالله والاخوة البشرية. وقرأ كتاب دروين في اصل الانواع وتحدر الانسان فاعتنق

مذهب التطور عن غير نقد ولا تحديد، واطلع على آراء نيتشه في السوبرمن، أي

رجل المستقبل المثالي، فعانقها بحب. وهكذا عاد الى الشرق الذي تركه، وفي

حقيقته بضاعة غريبة لم يعرفها اهل وطنه فباعهم إياها، فاطلقوا عليه لقب « فيلسوف

الفريكة » وهو لا يملك من الفلسفة إلا آراء مجموعة من هنا وهناك، وآراء اجتماعية

في تحوير الفرد من الجهل والتعصب، والبلاد من الاستبداد والاستعمار والانتداب،

والجمع بين الشرق والغرب، والدعوة الى التآخي البشري على اوسع نطاق.

اما التحرر من الجهل فيكون بإنشاء المدارس والمعاهد، وتنوير الاذهان بالآداب

والعلوم والفنون التي توطن دعائم الحب والسلام. قال الريحاني : « ان الآداب

والتهذيب والفنون هي القوى الادبية الروحية التي يتآلف بها العلم والذي يقرن بها

بين بديهيّات الانبياء ومعقولات العلماء وتنتزع فيها روح الحقيقة وروح الجمال فتنبثق

منها اشعة السلم والحب والإخاء. »

ويكون التحرر من التعصب الديني بالتسامح والتساهل.

وقد حمل الريحاني على الاستبداد والانتداب والاستعمار حملات عنيفة، ونادى

بالعدل والمساواة وكثيراً ما تنقل في ارجاء لبنان وسورية وفلسطين ومصر يبث

آراءه ويدعو الى التحرر قائلًا : « ان جنونا في سبيل الحق والحرية خير من الرصانة

مع العبودية . ولما انتصر حزب تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ وأعلن الدستور ابتهج واغتبط . ومثل في روايته « السجناء » ظلم عبد الحميد تمثيلاً يبعث في النفوس الاشتزاز والنفور . وقد سعى كثيراً لمساعدة وطنه إبّان الحرب الكونية الاولى، فحضر المهاجرين على ارسال المال لآخوانهم . ولما جرى الانتداب تألم في نفسه ولم يخش من التصريح بقوله : « اننا انتقلنا من عصر عبد الحميد الى عصر الانتداب السعيد، من ظلم ظاهر مختل الى ظلم خفي منظم، من ظلم يحمل النبوت والكرباج فيتقيها الناس الى ظلم يحمل الدساتير والمعاهدات » . وقويت الحركة الصهيونية، وبدأ النزاع في فلسطين بين اليهود والعرب، فقام الريحاني يدافع عن حقوق اخوانه، ويكتب المقالات الضافية، وينظر اقطاب الصهيونية في اجتماعات علنية . وقد بذل جهوداً كثيرة ليحمل ملوك العرب وقادتهم على التعاون والاتحاد .

اما الجمع بين الشرق والغرب فهو هدف رمى اليه الريحاني لتحقيق المدنية المثلى . فقد عرف الشرق والغرب وبدا له ان امتزاج روحانية الاول بعلم الثاني يرفع الانسان الى قمة الكمال الذي يتمناه لبلاده . قال : « اريد ان أرى في بلاد الشام والعرب ثمار الانبياء وثمار العلماء على شجرة واحدة » . واخذ على نفسه ان يكون حلقة الوصل بين شطري العالم، فقال : « للشرق والغرب أرتم، للنهرين العظيمين اللذين بهما ينتعش الانسان ويتقوى ويتطهر جسداً ونفساً، لكليهما أغني، وبهما افتخر، ولهما اوقف حياتي، ومن اجلهما اعمل واتألم واموت » .

وهكذا دعا الريحاني الى التعاون الانساني والتآخي بين الناس لانهم « امة واحدة تجمعهم جامعة الآداب والفنون ودين واحد شامل، قوامه الابوة الالهية والاخاء العام » فهو خليل البشر اجمع، ولذا يخاطب الانسان قائلاً : « مهما جزل خيرك، ومهما تفاقم شرّك، لا ازال أخاك . مهما علت في مدارج الحياة ومهما تسفلت لا ازال اخلص لك وأؤمن بك واحبك » .

هذا هو الريحاني، صدى ردد في الشرق اقوال دعاة النهضة التحريرية والعلمية في الغرب، فأصغى له الكثيرون . ولما بلغ آذانهم صوت الغرب مباشرة اهملوا الصدى فنخت وكاد يخنقه كراً الايام .

٤٤ الرحالة المؤرخ : أحب الريحاني المغامرات منذ صغره . فلما كبر ظهرت تلك
النزعة في ميله الى الرحلات والتطواف في انحاء البلاد .



امين الريحاني بزيته العربي

وكان من اهم رحلاته الجولة الكبرى التي
قام بها سنة ١٩٢٢ في انحاء البلاد العربية .
فرّ بمصر والحجاز واليمن والعراق ونجد . وجمع
معلومات شتى ضمّتها كتبه : « ملوك العرب »
و « تاريخ نجد » و « قلب العراق » . فكان
كلما بلغ بلداً تفقّد احواله ودرس وضعه
السياسي والاجتماعي، ثم دون ما حصل عليه
من التفاصيل . وقد قالت مجلة آسية الاميركية
المصوّرة : « زار كثيرون من الاوربيين بلاد
العرب . . . انما قلّ بين الرحّالة والسائحين من
كانت له الفرص المؤاتية للتعرف الصحيح بتلك
البلاد واحوالها كذلك التي اتاحت للسيد
الريحاني » . فقد كان موضوع إكرام الملوك

والامراء اينما حلّ، يباحثهم في قضايا بلادهم ويطلع عليها عن كثب . فامتازت
مؤلفاته بدقة الملاحظة وصحة الاخبار غالباً مع الباقية في سرد الحوادث . أما
دقة الملاحظة فتبدو في المشاهد التي يرسمها لك فتخال انك امام مشهد حيّ فيه من
التفصيل والطبيعة والحركة الشيء الكثير .

وأما صدق الريحاني فقام على انه دون « ما شاهد بنفسه وسمع بأذنه ولمس بيده » .
واستقى معلوماته من « مصادرها العليا » وسمع « ذوي العرفان » ولم يكتفِ بقول
الحكّام والقادة بل اتصل بجميع طبقات الشعب . قال : « كنت في كل قطر من
الاقطار العربية افتح الأذن دائماً لجميع الناس، فأسمع الشريف والبدوي، والجمال
والجندي، والتاجر والسياسي » . ولكن الريحاني لم يمتص الاقوال تمحيصاً دقيقاً في

بعض الاحيان، ولم يكثر من التنقيب والتعليل . اما لباقة في سرد الحوادث فظاهرة في طرافة اسلوبه الشخصي المتنوع بتنوع الموضوعات، وقدوينه ما يسر القراء ويفكهم وان لم يخلُ كلامه من استطرادات .

اما « قلب لبنان » الذي طبع بعد موت الريحاني، فهو يحتوي اخبار رحلة في بلاده في اوائل الحرب العالمية الثانية، ووصف ما رأى من احوالها وعادات اهلها وتقاليدهم المحلية في اسلوب رشيق جذاب يحفل بالتهكم . والكتاب لا يخلو من بعض التطرف في الآراء .

٥ أسلوبه الإنشائي : ترك الريحاني لبنان وهو بعد حدث السن لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره ولم ترسخ فيه ملكة العربية الفصحى . فلما بدأ ينشر بعض مقالاته في جريدة الهدى بفيلاذلفية، كانت عبارته ركيكة سقيمة، شاردة عن جادة النحو والصرف، فكان ارباب « الهدى » يهذبونها ويصححونها . وأحس الريحاني بضعفه هذا فسعى جهده لتوسيع نطاق معارفه . ولذا كتب في المنهاج الذي وضعه لنفسه سنة ١٩٠١ : « يجب عليّ . . . درس اللغة العربية : بحث المطالب، ومطالعة ابن خلدون ومراجعة حضارة الاسلام ونهج البلاغة، والحريري، والدرر، والفرر، ومطالعة تاريخ مصر لزبدان وتكميل قراءة التوراة » . وكان قبلاً عند عودته الاولى الى لبنان قد دخل المدرسة اللبنانية في قرنة شهوان فعلم فيها الانكليزية ودرس العربية . وقد كتب في احدى رسائله الى صديقه جرجي زيدان يخبره « بمشقة النحو وبلية » وما يعانیه « بين القراء والمهذب وابن مالك والافخش » ويود لو يعفيه الدهر « من لغة حمير ولغة تميم ومذاهب البصريين والكوفيين » . هذا ما عمله الريحاني ليتضلع من لغة اجداده، ولكن جهوده وان اتت بنتائج حميدة، لم ترفع انشاءه الى درجة سامية من الدقة اللغوية، فرافقه شيء من الرطانة وركاكة العامية طوال حياته .

والريحاني في انشائه اسلوبان متباينان : اسلوب ادبي فني يتجلى في شعره

المنثور، واسلوب علمي جاف ينتهجه في كتبه التاريخية وان لم تخل هذه ايضاً من المقطوعات الفنية .

١ - النثر الفني : اطلع الريحاني على نزعة كتّاب الغرب الى القصائد النثرية، فعمل على إدخال هذا الفن في اللغة العربية . فجاءت عباراته موسيقية التوقيع، خيالية الصور، منسجمة سلسة .

ومن مقطوعاته الفنية الجميلة، المقال الذي خصه بمناجاة الارز في كتابه « قلب لبنان » . فهو يسأل تلك الاشجار ان تحدّثه عن ربيع الشمال، وعن الغيث ثم عن العواصف فتقول : « هي تصعد هائجة من الاودية، وتهبط مجلجلة من الآفاق، فتدق حولي طبولها، فافتح لها قلبي، فتدخل ثائرة . ثم تتحوّل اصواتها، بين ذراعي، الى اصوات البوق والمزمار والناي، ثم تسكن وتنام، تحت اجنحة السلام » .

٢ - النثر العلمي : اما في الموضوعات التاريخية فيعمد الريحاني الى اسلوب اقل احتفالاً بالروعة الفنية وأجف مادة، ولكنه ذو نزعة جاحظية تكثر فيه اللدعة القارصة، والنكتة والفكاهة ويتنوع بتنوع الموضوعات . وهو على كل حال يمتاز بطابع الشخصية الواقعية المدققة، او النقادة المتهكمة، او الحساسة المصورة .

بعض المراجع

- ميخائيل نعيمة : جبران خليل جبران - بيروت
 الاب الياس زغيبي : جبران خليل جبران - حريصا ١٩٣٩
 البرت الريحاني : أمين الريحاني - بيروت ١٩٤١
 جميل جبر : الريحاني - بيروت

موضوعات للبحث

- ١ - حاول جبران ان يقوم في مجتمعه الشرقي مقام النبي . اوضح موقفه الاجتماعي وناقش اراءه .
- ٢ - امين الريحاني رجل اجتماع ومؤرخ ؛ وقد نجح في تاريخياته اكثر مما نجح في اجتماعياته . بين ذلك .
- ٣ - وازن بين اسلوبي جبران والريحاني في كتابتهما .

مشاهير الادباء - النثر الفني

الفصل الثاني عشر

جرجي زيدان - يعقوب صروف

الاب لويس شيخو - مصطفى صادق الرافعي

مي زيادة

ا - جرجي زيدان

وُلد في بيروت ثم رحل الى مصر وانشأ مجلة «الهلال». وقد ألف في التاريخ والجغرافية والعلوم الادبية واللغوية، والروايات.

ب - يعقوب صروف

وُلد في قرية الحدث ببلنات ودرس في الجامعة الاميركية ببيروت. انشأ مجلة المقتطف. وكان واسع الاطلاع العلمي فترك في العلم ابحاثاً قيمة.

ج - الاب لويس شيخو

وُلد في ماردين بالجزيرة وانتظم في سلك الرهبانية اليسوعية. انشأ مجلة «المشرق» وترك كثيراً من المؤلفات في الادب والتاريخ.

د - مصطفى صادق الرافعي

وُلد في «بهيم» بمصر واشتغل في عدة محاكم. من اهم آثاره «ديوان الرافعي» و«تاريخ آداب العرب». تمتاز كتابته بغزارة الفكر والنزعة الاسلامية الشديدة.

هـ - مي زيادة

وُلدت في الناصرة ونشأت في لبنان. وكانت ذات ثقافة واسعة. لها آثار كثيرة منها «ظلمات وأشعة». وهي في كتابتها تعنى بالقلوب كما تعنى بالاذهان.

١ - جرجي زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤ م / ١٢٧٨ - ١٣٣٢ هـ)

ولد جرجي زيدان في بيروت ودرس في مدرسة الثلاثة الاقمار ثم ترك المدرسة وانصرف الى مساعدة والده في اعماله . وكان ميّالاً الى العلم والادب منذ نشأته فاكباً على مطالعة الكتب والتحصيل ؛ وفي سنة ١٨٨١ مال الى الطب يغترف من علومه ما استطاع اليه سبيلاً ثم مال عنه الى الصيدلة . ورحل الى مصر وانصرف الى معالجة العلم والادب، وتولى تحرير جريدة «الزمان»، ثم عُيّن مترجماً بقلم المخابرات . وفي سنة ١٨٩٢ انشأ مجلة «الهلال» ولبث على ادارتها عشرين عاماً الى ان توفي في القاهرة .

ألف جرجي زيدان في التاريخ والجغرافية، والعلوم الادبية واللغوية، والروايات ومن اشهر مؤلفاته «تاريخ مصر الحديث» و«تاريخ التمدن الاسلامي» و«تراجم مشاهير الشرق» و«تاريخ آداب اللغة العربية» .

لجرجي زيدان الفضل الاكبر في فتح باب التأليف التاريخي العلمي الحديث، وباب التأليف في تاريخ الادب العربي . ومؤلفاته من اهم المراجع للمشتغلين بتاريخ العرب وتاريخ العربية وآدابها .

ب - يعقوب صروف (١٨٥٢ - ١٩٢٧ م / ١٢٦٩ - ١٣٤٦ هـ)

١ حياته : ولد يعقوب صروف في قرية الحدث بלבnaan، ثم ارسله والده الى مدرسة الاميركان في عبيه ثم الى الجامعة الاميركية ببيروت . وبعد ذلك تولى رئاسة وادارة مدرستي الاميركان في صيدا وطرابلس .

وفي سنة ١٨٧٦ انشأ مجلة «المقتطف» في بيروت ثم نقلها الى مصر سنة ١٨٨٨ وظلّ يديرها ويشرف على ما يكتب فيها الى آخر حياته . وقد طارت لها شهرة واسعة وحملت الى الاقطار العربية كلها ثمرة جهود الرجل الجبارة في حقلي العلم والفن . وقد توفي يعقوب صروف سنة ١٩٢٧ .

٢ آثاره : اهم ما ترك يعقوب صروف من الآثار مجلة المقتطف التي رافقها نحو اثنين وخمسين عاماً، فكان اكثر مقالاتها العلمية والفلسفية والفنية من قلمه . ومن اهم ما نشره في المقتطف واسترعى انتباه الكثيرين درس طويل عن « نوابغ العرب والانكليز » قابل فيه بين المعري وملتن، وابن خلدون ومسيئسر، وصلاح الدين وريشار قلب الاسد . وقد ألف يعقوب صروف وعرب كثيراً من الكتب قبل انتقاله الى مصر منها « سر النجاح » و « الحوب المقدسة » و « الحكمة الالهية » و « مرآة العصر » . ومما عربه مع فارس نمر « سير الابطال والعظماء ومشاهير العلماء » .

٣ يعقوب صروف العالم : كان يعقوب صروف مطبوعاً على حب البحث والتدقيق شأن العلماء، يقضي الساعات الطويلة في المكتبات لدرس المسائل العلمية والنظريات الفلسفية والتاريخية . وكان واسع الاطلاع على المذاهب العلمية والتزعات الفلسفية، واحداث التاريخ ورجاله، متقناً لاهم اللغات القديمة والعصرية .

وقد بسط يعقوب صروف في مقالاته العلمية التي كان ينشرها في كل عدد من المقتطف - وقد جمعت بعدئذ في كتب - اختبارات العلماء الغربيين في مختلف القضايا العلمية بأسلوب له صبغته العلمية من غير ان يكون جافاً . وكان الى ذلك يثبت في مقالاته هذه الكثير من ملاحظاته الشخصية ومن اختبارات الخاصة في الموضوع المطروق، مما يضاعف قيمته .

فقد فتح للرياضيات باباً في مجلته تطارح فيه رجال العلم المباحث العويصة وتسابقوا الى حلها سواء أكانت في الحساب ام في الجبر ام في الهندسة ام في غيرها . وكان يعقوب صروف الحكم والمرجع . وقد وضع كتاباً في بسائط علم الفلك ظهر فيه علمه واطلاعه الواسع في ذلك العلم، كما انه عالج في مجلته موضوعات شتى في النظام الشمسي والسيارات والثوابت والسفح الشمسية والمذنبات

وما الى ذلك . وانه وان لم يدرك شأو العبقرين في هذا العلم، فقد بلغ فيه شأواً عظيماً، وكان بعيد الغور، واضح البيان، سهل المأخذ .

اما الطبيعيات والكيمياء والفلسفة فقد كان صروف الصلة بين الشرق ورجالها باوربة . فكتب عن جميع اساطينها وبسط الآراء الحديثة بسطاً بين المعالم، واسع النطاق . وجمال في العالمين القديم والحديث جولة اكتشاف قلما جراه فيها آخر من ابناء هذه البلاد .

اما التاريخ فيعقوب صروف من رجاله الذين استقرأوا الحفريات الاثرية ووصفوا عادياتها واقتبسوا اخبارها من مصادرها الاصلية، حتى انك لتستطيع ان تستخرج من المقتطف كتباً في علم الآثار ولاسيا آثار مصر التي كان يعقوب صروف يطوف بنفسه ليشاهدا ويكتب عنها . وقد تقصى البحث ايضاً في اصول الشعوب وفروعها وانسابها وتواريخها واخلقها، معتمداً في كل ذلك احدث الآراء، ناظراً في اقوال من سبقه نظر المحقق البصير .

وهكذا كان يعقوب صروف من ابرز رجال النهضة العلمية الحديثة .

ب - الاب لويس شيخو (١٨٥٩ - ١٩٢٧ م / ١٢٧٥ - ١٣٤٦ هـ)

وُلد الاب لويس شيخو في ماردين بالجزيرة، ثم انتقل الى لبنان فدرس في مدرسة الآباء اليسوعيين في غزير، وانتظم في سلك الرهبانية اليسوعية . ثم راح يتنقل في بلاد اوربة وبلاد الشرق منقباً في خزائنها عن آثار العرب . ثم انصرف الى تدريس الآداب العربية في الجامعة اليسوعية ببيروت . وفي سنة ١٨٩٨ انشأ مجلة « المشرق » واستمر على إدارتها خمساً وعشرين سنة، وقد جعلها من ارقى المجالات الشرقية بل جارى فيها مجلات الغرب لما ضمنها من الابحاث العلمية والادبية والتاريخية القيمة .



وقد أدَّى الاب لويس شيخو للنهضة
اجلّ الخدم فكان من اكبر بُناة صرحها
بما أَلَف من الكتب المدرسية والادبية،
وبما نشر من المخطوطات العربية . لا بل
كان من اكبر العاملين على نشر الاساليب
العلمية في النقد والدراسة والموازنة والتحليل .

من اهم آثاره « شعراء النصرانية »
و « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » .

الاب لويس شيخو
(مجموعة دار الكتب اللبنانية)

د — مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠ - ١٩٣٧ م / ١٢٩٨ - ١٣٥٦ هـ)

ولد مصطفى صادق الرافعي في « بهتيم » بمصر من أب طرابلسي الاصل وأم حلبية
وأخذ علوم الدين عن ابيه ثم دخل المدرسة الابتدائية وهو في نحو الثانية
عشرة من عمره ؛ وقد أصيب بالصمم وهو في الثلاثين من عمره . وفي سنة
١٨٩٩ عُيِّن كاتباً في محكمة « طلخا » الابتدائية ثم نُقل الى محكمة « إيتاي البارود »
الشرعية ثم الى طنطا حيث نُقل الى المحكمة الاهلية .

ومن اهم آثاره « ديوان الرافعي » في ثلاثة اجزاء، و « تاريخ آداب العوب »
و « اعجاز القرآن » و « وحي القلم » وهو مجموع مقالاته التي نشرها في الرسالة ما
بين سنتي ١٩٣٤ و ١٩٣٧، مع بعض مقالات أخرى .

خصّ الرافعي قسماً كبيراً من مقالاته للدفاع عن الاسلام ومصر والشرق .
ونزعته في كتاباته نزعة اسلامية شديدة فيها من التدين والاندفاع الشيء الكثير .

والرافعي غزير الفكر، يلي عليه العقل والتدين كثيراً من الحكم والمواظ
الخلقية، ويوجهانه في كتابته توجيهاً اجتماعياً . الا ان فكره لا يخلو من غموض،
وانطلاقه لا يخلو من كثافة وجمود .

اما قصصه ففيه طرافة ولكن فيه ايضاً ثقلاً وضعفاً فنياً .

هـ - مي زيادة : (١٩٤١ م / ١٣٦٠ هـ)

أ - مبادئها : مي اسم مستعار لماري زيادة، بنت الياس زيادة اللبناني . وُلدت في
الناصره، وانتقل بها أهلها الى لبنان .

ولما انتقل ابوها الى مصر، وانشأ جريدته « المحروسة » قوي ميلها الى اللغة
العربية، فاخذت تروّض عليها ملكتها الانشائية، وتستعين على إتقانها، بالمطالعة،
واستماع المحاضرات، حتى استقامت لها .



ولم يكن اطلاعها على عدة ثقافات اجنبية
ليصرفها عن تقدير وطنها، ووعي تاريخه
ومعنويته، وتعشّق طبيعته، ومصافاة رجاله
من ذوي العلم والادب، والثقة الراسخة
بمستقبله والاهتمام الصادق لمصالحه الاجتماعية
وآروته الادبية . فاصبحت تلك العواطف
النبيلة موضوع كتاباتها، وتحريضاتها، تقف
لها ما وهبته من ذكاء راجح، وعاطفة
رقيقة، واندفاع صادق . وما لبثت ان
اتسعت عاطفتها الوطنية، فشملت الشرق على
اختلاف نزعاته الوطنية والدينية، وارتقت
الى العاطفة الانسانية الشاملة، على نور ثقافة
واسعة، ورأفة بالانسانية المرزوءة .

مي زيادة

(مجموعة دار الكتب اللبنانية)

(١) كانت تحسن سبع لغات أوربية فهماً وقراءة وكتابة .

وأثرت في صحتها وفاة أبيها، فرجعت الى لبنان للاستشفاء، ومنه عادت الى مصر، حيث توفيت سنة ١٩٤١ .

٢ آثارها : لمي زيادة مقالات باللغة الفرنسية ورواية « الظل فوق الصخرة » باللغة الانكليزية . ولها ديوان في الشعر الفرنسي اسمه *Fleurs de rêve* اي « ازهار حلم » ولها عدة روايات منقولة عن الفرنسية والانكليزية والالمانية . ولها كتب موضوعية، أهمها : « باحثة البادية » ؛ و « المساواة »، في اغراض اجتماعية ؛ و « سوانح فتاة » ؛ و « كلمات واشارات » ؛ و « ظلمات واشعة » ؛ و « بين الجزر والمد » . واكثر كتبها تتضمن مقالات وخطباً في موضوعات اجتماعية وسياسية .

تتماز كتابات مي بطابع فكري، نكاد نلمسه في كل مقالة من مقالاتها، ونلمحه حتى في الموضوعات القصصية والوصفية . وموضوع فكرتها الاساسي، مهما تنوعت الاساليب، وتبدلت اللهجات، هو اصلاح المجتمع ورفي الأمة . وتمتاز فكرتها بالوضوح والاعتدال، ولا تخلو من عمق في بعض الاحيان . ومرجع تلك الصفات الفكرية، الى وضوح عقيدتها، وقوة ثقافتها ورغبتها في خدمة مواطنيها .

ومي تعنى بالقلوب كما تعنى بالاذهان، بل تريد ان تقصد الى الاذهان عن طريق التأثير العاطفي والجمال الفني . فتتأني في كتابتها، وتتخير من الالفاظ ما يعبر تمام التعبير عن اختلاجات عاطفتها، وايحاءات مخيلتها . وتتكيف في أساليبها على ما تقتضيه الاغراض والحاجات . فمن التوقييع الشجي الناعم في مواقف الحزن والمحبة، الى الهمس العتائي الرقيق في مواقف الاصلاح والتنبيه، الى الخدش المتهمك في التنبيه على العوائد والنقائص، الى التوثب الرشيق في عرض القصة، الى التأجج العاطفي في مواقف الحماسة والتغني بالوطن . وتلزم كتاباتها، في كل تلك المواقف، موسيقى الاسلوب الحديث، وتأثير الثقافات الاجنبية، مما يرفع في زيادة الى رتبة الكتاب المساهمين في النهضة الفكرية والادبية .

ونزء.

فهرس

صفحة		صفحة	
	الباب الرابع: ازدهار النهضة	٧	مقدمة
٨٠	الجاهلية		نوطه
	أصحاب المعلقات	١١	الباب الاول: اللغة العربية
٨٠	الفصل الاول		الفصل الاول
	امرؤ القيس	١١	هد اللغة العربية
١٠١	الفصل الثاني		الفصل الثاني
	طرفة بن العبد	١٦	العرب أصحاب اللغة العربية
١١٧	الفصل الثالث		الفصل الثالث
١١٩	عبيد بن الابرس	٢٤	أصل اللغة العربية وتطورها
١٢٣	الحارث بن حلزة	٣٧	الباب الثاني: الادب العربي
١٢٨	عمرو بن كلثوم		العهد الجاهلي
	الفصل الرابع		الباب الاول: الجاهلية
	الناطقة الذبياني		والادب الجاهلي
١٥٢	الفصل الخامس	٥٥	
	زهير بن أبي سلمى	٦٢	الباب الثاني: الشعر الجاهلي
١٦٩	الفصل السادس		الباب الثالث: بزوغ الشعر
	عنتر بن شداد العبسي	٧٢	الجاهلي واستقراره
١٨٦	الفصل السابع	٧٣	المهمل
١٨٩	الأعشى الاكبر	٧٦	الشنفرى
	ليد ربيعة		
	الفصل الاول		
	سائر الشعر		
١٩٢	الحنساء شاعرة الرثاء		

صفحة		صفحة	
٥٥	ليلي الأخبيلية	١٩٨	الفصل الثاني الخطيئة شاعر المدح والهجاء
	الفصل الثاني		
٢٥٩	الغزل الحضري: عمر بن أبي ربيعة	٢٠٤	الباب الخامس: النثر الجاهلي
٢٦٧	الاحوص	٢٠٨	قس بن ساعدة
٢٦٨	الوليد بن يزيد	٢٠٩	أكثم بن صيفي
	الباب الخامس: شعر السياسة		العهد الراشدي والاموي
	الفصل الاول		الباب الاول: الانقلاب وأثره
٢٧١	توطئة: الشعر السياسي	٢١٥	في الحياة والثقافة
٢٧٤	الاختل		الباب الثاني: الشعر الراشدي
	الفصل الثاني		والاموي
٢٨٦	الفرزدق	٢٢٢	
	الفصل الثالث		الباب الثالث: شعر النضال
٢٩٧	جرير		الديني
	الفصل الرابع	٢٢٧	الفصل الاول
٣٠٩	عبيد الله بن قيس الرقيبات		كعب بن زهير
٣١٠	الطرماح بن حكيم	٢٢٧	الفصل الثاني
٣١٠	الكميت بن زيد الاسدي		حسان بن ثابت
	الباب السادس: فنون شعرية	٢٣٥	الفصل الثالث
٣١٣	خاصة	٢٤٤	أبو ذؤيب الهذلي
٣١٣	الأراجيز	٢٤٥	النابعة الجعدي
٣١٥	الراعويات		الباب الرابع: شعر الموهو
٣١٨	الباب السابع: النثر الفني		الفصل الاول
	الفصل الاول		الغزل البدوي
٣١٨	النثر الایجازي	٢٥٢	جميل بن معمر

صفحة		صفحة	
٤٣٨	الحسين بن الضحّاك	٣٢٣	نص مشاهير الخطباء: علي بن ابي طالب
	النثر	٣٣٠	قراة ابن ابيه
	الفصل الخامس	٣٣٢	ابن جاج بن يوسف
٤٣٩	عبد الله بن المقفّع		الفصل الثاني
	الفصل السادس	٣٣٦	نثر التفصيلي
٤٧٨	احمد بن يوسف	٣٣٩	الحمد الكاتب
٤٧٩	سهل بن هارون		٧٥ الثامن: العلوم والفنون
٤٨٠	عمرو بن مسعدة		٧٥ العهد الراشدي والاموي ٣٤٣
	الباب الرابع: ادب الحركة		٥٠ العهد العباسي في الشرق
٤٨٢	المعاكسة: الشعر		٥٢ الاول: الانقلاب وأثره
	الفصل الاول		٥٣ الحياة والثقافة
٤٨٢	ابو تمام	٣٥٣	٥٦ الباب الثاني: الادب العباسي ٣٦٣
	الفصل الثاني		الباب الثالث: ادب الثورة
٥٠٥	دعبل الخزاعي		التجديدية: الشعر
	الفصل الثالث	٣٧٣	الفصل الاول
٥٠٩	البحثري		بشار بن برد
	الفصل الرابع	٣٧٣	الفصل الثاني
٥٣٠	ابن الرومي		أبو نواس
	الفصل الخامس		أبو العتاهية
٥٥٥	ابن المعتز	٣٩١	الفصل الثالث
	النثر		الفصل الرابع
	الفصل السادس	٤٢١	مسليم بن الوليد
٥٦٢	الجاحظ	٤٣٦	العباس بن الأخف
	الباب الخامس: ادب الاستقرار	٤٣٧	
٥٩٦	والتدرج نحو الجمود		

الفصل الاول

ملحة تاريخية

الشعر

الفصل الثاني

أبو الطيب المتنبي

الفصل الثالث

أبو فراس الحمداني

الفصل الرابع

الشريف الرضي

الفصل الخامس

أبو العلاء المعري

الفصل السادس

ابن الفارض

الفصل السابع

سائر الشعراء

أبو بكر الصنوبري

كشاجم

السري الرفاء

أبو الفتح البستي

مهيأر الديلمي

الطغرائي

بهاء الدين زهير

النثر الفني

الفصل الثامن

الترسل

ابن العميد

القاضي الفاضل

صفحة

الفصل التاسع

الادب القصصي عند العرب ٥٩٦

الفصل العاشر

المقامات

بديع الزمان الهمداني ٦٠٢

الحريري

٦٥٢

الفصل الحادي عشر

التصنيف في الادب والنقد الادبي

٦٧٣

الادب : أبو الفرج الاصبهاني

ابن قتيبة

٦٨٦

أبو العباس المبرّد

أبو بكر الصولي

٧٠٩

أبو منصور الثعالبي

النقد الادبي :

ضياء الدين بن الاثير

٧١٨

محمد بن سلام

٧١٨

أبو القاسم الآمدي

٧١٨

قدامة بن جعفر

٧١٩

القاضي الجرجاني

٧١٩

أبو هلال العسكري

٧٢٠

الباب السادس : العلوم والفنون

٧٢٠

حركة النقل وأثرها

العلوم اللسانية

العلوم الدينية

٧٢٣

التاريخ

٧٢٤

الجغرافية

٧٢٨

صفحة

٨٥١

ابن سهل الاسرائيلي

٨٥٢

لسان الدين الخطيب

الباب الرابع: العلوم والفنون ٨٥٥

العهد التركي

٨٦٧

توطئة

الباب الاول: ادب العهد

٨٧٠

التركي

الفصل الاول

الشعر

٨٧١

مميزات الشعر

٨٧٢

أهم الشعراء: الشاب الظريف

٨٧٣

البوصيري

٨٧٣

ابن الوردي

٨٧٤

صفي الدين الحلي

٨٧٤

ابن نباتة

الفصل الثاني

٨٧٧

النثر

٨٨٠

الباب الثاني: العلوم

٨٨٢

العلوم اللسانية

٨٨٤

العلوم الدينية

٨٨٥

العلوم التاريخية والجغرافية

عهد النهضة

الباب الاول: مقدمات النهضة ٨٩٢

صفحة

٧٨٢

سفة

٧٨٣

علوم الطبيعية

٧٨٥

علوم الرياضيات والفلكية

٧٨٩

سونا

العهد العباسي في الغرب

الباب الاول: الفتح وأثره

٧٩٥

في الحياة والثقافة

الباب الثاني: الادب الاندلسي ٨٠٤

الفصل الاول

٨٠٤

الشعر الاندلسي

الفصل الثاني

٨١٣

الاشعار

الفصل الثالث

٨٢٦

الباب الثالث: مشاهير الادباء ٨٣٣

الفصل الاول: طور التقليد

٨٣٤

ابن عبد ربه

٨٣٦

ابن هاني

٨٣٩

ابن شهيد

الفصل الثاني: طور الانتقال

٨٤٢

ابن زيدون

٨٤٦

المعتمد بن عباد

الفصل الثالث: طور التجديد

٨٤٩

ابن حمديس الصقلي

٨٥٠

ابن خفاجة

صفحة		
	الباب الثاني : عوامل النهضة	النثر الفني
٩١٠	ومظاهرها	الفصل الخامس
	الباب الثالث : ادب النهضة ٩٣١	٩١٩ للمعلم بطرس البستاني
	الفصل الاول	١٠٥٦ احمد فارس الشدياق
٩٣١	الشعر	١٠٦٦ الفصل السابع
	الفصل الثاني	١٠٦٧ اديب اسحاق
٩٣٨	النثر الفني	١٠٧٠ جمال الدين الافغاني
٩٤٢	الخطابة	١٠٧١ الشيخ محمد عبده
٩٤٣	القصة	١٠٧١ عبد الرحمان الكواكبي
٩٤٥	النقد الادبي	١٠٧٢ قاسم امين
	الباب الرابع : مشاهير الادباء ٩٤٩	١٠٧٤ مصطفى كامل
	الشعر	١٠٧٦ سعد زغلول
	الفصل الاول	١٠٧٦ الفصل الثامن
٩٤٩	الشيخ ناصيف اليازجي	١٠٩٢ في الشيخ ابراهيم اليازجي
	الفصل الثاني	١٠٩٩ ولي الدين يكن
٩٦٨	محمود سامي البارودي	٩٧٣ مصطفى لطفي المنفلوطي
٩٧٣	حفني ناصف	٩٧٤ الفصل العاشر
٩٧٤	اسماعيل صبري	٩٧٦ سليمان البستاني
٩٧٦	حافظ ابراهيم	٩٧٦ الفصل الحادي عشر
	الفصل الثالث	٩٨٠ جبران خليل جبران
	احمد شوقي	٩٨٠ امين الريحاني
	الفصل الرابع	٩٨٠ جرجي زيدان
١٠٢٩	جميل صدقي الزهاوي	١٠٢٩ يعقوب صروف
١٠٢٩	معروف الرصافي	١٠٢٩ الاب لويس شيخو
١٠٣١	فوزي المعلوف	١٠٣١ مصطفى صادق الرافعي
١٠٣١	خليل مطران	١٠٣١ مي زيادة

A. U. A.

[illegible]

DATE DUE

DATE DUE

-7 APR 2015

Circulation Dept. 4

BRARY

A. U B. LIBRARY

R:892.709:F17tA:c.1

الفاخوري، حنا

تاريخ الادب العربي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01059348

